أفضل كتاب سياسي بحسب جميع الصحف العالمية

تيم واينر

إرث من الرماد

تاريخ «السي.آي.أيه»

علي مولا

CENTRAL INTELLIGENCE AGENCY
UNITED STATES OF AMERICA

- آلاف من المستندات تنسف رؤيتنا السابقة لما يجري
- مخططات السي.آي.أيه لضرب سورية وإسقاط نظامها
- وقائع تفجير السفارة الأميركية في بيروت
- جواسيس مزدوجون يقلبون المعادلة

- National Book Award
- LA Times Book Prize

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

تيم واينر

إرث من الرماد

تاريخ «السي.آي.أيه»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إرث من الرماد

إرث من الرماد

تاريخ «السي.آي.أيه.»

تيم واينر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠
ISBN: 978-9953-88-071-6

Originally Published as:
Legacy of Ashes: The History of the CIA

ترجمة: أنطوان باسيل
تدقيق: فؤاد زعيتر
الغلاف: ريتشي نزال
الإخراج الفني: بسمة تقي

إلى كايت، إيما، وروبي

ما من أسرار إلا والزمن كفيل بكشفها

جان راسين، بريتانيكوس (١٦٦٩)

المحتويات

الجزء الثالث:
قضايا خاسرة «السي.آي.أيه.»
في ظل كنيدي وجونسون: ١٩٦١ إلى ١٩٦٨

الجزء الرابع:
تخلصوا من المهرجين
«السي.آي.أيه.» في ظل نيكسون وفورد: ١٩٦٨ إلى ١٩٧٦

الجزء الخامس:
انتصار بدون متعة «السي.آي.أيه.»
في ظل كارتر، ريغان، وجورج هـ. و. بوش: ١٩٧٧ إلى ١٩٩٣

الجزء السادس:
حساب «السي.آي.أيه.» في ظل كلينتون وجورج دبليو بوش: ١٩٩٣ إلى ٢٠٠٧

ملاحظة المؤلّف

«إرث من الرماد»، هو سجل للأعوام الستين الأولى لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، «السي. آي. أيه.». وهو يصف كيف أن البلد الأقوى في تاريخ الحضارة الغربية، فشل في إنشاء جهاز تجسس من الطراز الأول. وهو إخفاق يشكّل خطراً على الأمن القومي للولايات المتحدة.

الاستخبار كناية عن عمل سرّي يهدف إلى فهم ما يحدث في الخارج، أو تغييره. وقد أسماه الرئيس دوايت د. أيزنهاور «الحاجة الكريهة، لكن الحيوية». وعلى الأمة التي تريد بسط سلطتها إلى ما هو أبعد من حدودها، أن تنظر إلى ما هو أبعد من الأفق، وتعرف ما الذي سيحدث، وتردأ الهجمات عن شعبها. عليها أن تستبق المفاجأة. وبدون جهاز استخبار قوي، حذق، وحاد، يصبح الرؤساء والجنرالات، معاً، عمياناً ومقعدين. إلا أن الولايات المتحدة، لم تملك عبر تاريخها، مثل هذا الجهاز.

يكتب إدوارد جيبّون في كتابه «أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها» *The Decline and Fall of the Roman Empire*، أن التاريخ هو «أكثر بعض الشيء من سجل لجرائم الجنس البشري، وحماقاته، ونكباته». وسجلات وكالة الاستخبارات المركزية تمتلىء بالحماقات والنكبات، إلى جانب أعمال البطولة والمهارة. وهي حافلة بالنجاحات العابرة والإخفاقات الطويلة الأمد في الخارج، وتميّزت بالمعارك السياسية والصراعات على السلطة في الداخل. ووفّرت نجاحات الوكالة بعض الدم والثروة، وأهدرت إخفاقاتها الأمرين معاً، وأثبتت أنها قاتلة لفيالق من الجنود الأميركيين والعملاء الأجانب، ولنحو ثلاثة آلاف أميركي لقوا حتفهم في نيويورك، وواشنطن، وبنسلفانيا، في ١١ أيلول/ سبتمبر

٢٠٠١، ولثلاثة آلاف آخرين قُتلوا من يومها في العراق وأفغانستان. والجريمة الوحيدة ذات العواقب المستمرّة، كانت عجز «السي.آي.أيه.» عن إنجاز مهمتها المركزية: إطلاع الرئيس على ما يجري في العالم.

لم تملك الولايات المتحدة استخبارات بالمعنى الصحيح عند نشوب الحرب العالمية الثانية، وكادت لا تملك واحدة بعد نهاية الحرب. وتخلّت موجة مجنونة من التسريحات من الخدمة عن بضع مئات من الرجال الذين يملكون بضع سنين من الخبرة في عالم الأسرار والإرادة للمضي في محاربة العدوّ الجديد. وفي آب/أغسطس ١٩٤٥، حذّر الجنرال وليام دونوفان، قائد مكتب الخدمات الاستراتيجية في زمن الحرب، الرئيس ترومان بالقول إن «كل القوى الرئيسية، ما عدا الولايات المتحدة، امتلكت، منذ زمن طويل مضى، أجهزة استخبارات تقدّم الإفادة مباشرة إلى أعلى المراتب في حكوماتها. ولم تكن الولايات المتحدة، قبل الحرب الراهنة، تملك جهاز استخبارات خارجية. وهي لم تملك واحداً أبداً، وهي لا تملك الآن منظومة استخباراتية يتم التنسيق في ما بينها». كما أنها، وتلك هي المأساة، لا تزال تفتقر إلى واحدة.

افتُرض بـ «السي.آي.أيه.» أن تصبح هذه المنظومة. إلا أن تصميم الوكالة تميّز بمسوّدة موضوعة على عجل. وهي لم تشكّل علاجاً للضعف الأميركي المزمن: السرّية والخداع ليسا نقطتي قوتنا. وترك انهيار الامبراطورية البريطانية الولايات المتحدة بوصفها القوة الوحيدة القادرة على مواجهة الشيوعية السوفياتية، واحتاجت أميركا يائسة إلى معرفة أولئك الأعداء، وإلى توفير البصيرة للرؤساء، وإلى أن تحارب النار بالنار عندما يُطلب منها إشعال الفتيل. قضت مهمّة «السي.آي.أيه.» قبل أي شيء، بإعطاء الرئيس تحذيراً مسبقاً من هجوم مفاجئ، من بيرل هاربور ثانية.

غصّت صفوف الوكالة في الخمسينيات بألوف الأميركيين. معظمهم شجعان ومتمرسون في القتال. وبعضهم امتلك الحكمة، وقلّة منهم عرفت العدو على نحو حقيقي. ومع فشل عملية الفهم، أمر الرؤساء الأميركيون «السي.آي.أيه.» بتغيير مسار التاريخ من خلال العمل الخفي. «شكلت إدارة الحرب السياسية

والنفسية في زمن السلْم فنّاً جديداً»، بحسب ما كتب جيرالد ميللر، وكان يومها رئيس العمليات السرّية لـ «السي.آي.أيه.» في أوروبا الغربية. «كان ثمة اطلاع على بعض التقنيات، لكن مع غياب للمبدأ والخبرة». كانت عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية أشبه بالطعنات العمياء في الظلام. والسياق الوحيد المتوفّر للوكالة كان التعلّم من خلال الممارسة، ومن خلال ارتكاب الأخطاء في المعركة. وعمدت «السي.آي.أيه.» عندها، إلى إخفاء إخفاقاتها في الخارج، وكذبت على الرئيسين أيزنهاور وكنيدي. أخبرت تلك الأكاذيب للحفاظ على مكانتها في واشنطن. والحقيقة، بحسب قول دون غريغ، وهو رئيس محطة موهوب في الحرب الباردة، هي أنه كانت للوكالة، في قمة مجدها، سمعة رائعة وسجل رهيب.

وعلى غرار الجمهور الأميركي، انشقّت الوكالة إبان حرب فيتنام، معرضة بذلك نفسها للخطر. واكتشفت، على غرار الصحافة الأميركية، أن إفادتها مرفوضة إذا لم تناسب التصوّرات المسبقة للرؤساء. وتعرّضت «السي.آي.أيه.» للتوبيخ والازدراء من الرؤساء جونسون، نيكسون، فورد، وكارتر. فما من أحد منهم فهم طريقة عمل الوكالة. وقد تولوا مهامهم «وهم يتوقعون أنه إمكان الاستخبارات أن تجد حلاً لكل مشكلة، أو أنه ليس في وسعها القيام بأي عمل صائب، وانتقلوا من ثم إلى وجهة النظر النقيضة»، على ما لاحظه نائب المدير السابق للاستخبارات المركزية، ريتشارد ج. كرّ. «ثم استقرّوا وتأرجحوا من نقيض إلى آخر».

اقتضى الوكالة، لتحافظ على بقائها كمؤسسة في واشنطن، أن تحصل، قبل أي شيء، على أذن مصغية من الرئيس. لكنها سرعان ما أدركت أنه من الخطر إطلاعه على ما لا يريد سماعه. تعلّم محللو «السي.آي.أيه.» السير بتراصف، بما يتطابق مع الأفكار الرائجة. فقد أساؤوا فهم نيات أعدائنا، وقدراتهم، وأخطأوا في تقدير قوة الشيوعية، وأساؤوا الحكم على التهديد الذي يشكله الإرهاب.

كان الهدف الأسمى لـ «السي.آي.أيه.» إبان الحرب الباردة، هو سرقة

الأسرار السوفياتية من خلال تجنيد الجواسيس، إلا أن «السي.آي.أيه.» لم تمتلك أبداً واحداً لديه إدراك عميق لكيفية عمل الكرملين. ويمكن إحصاء عدد الجواسيس السوفيات الذين يملكون معلومات مهمة للكشف عنها ـ وجميعهم متطوعون، وليسوا مجنّدين ـ، على أصابع اليدين. وجميعهم ماتوا، بعدما اعتقلتهم موسكو وأعدمتهم. وجميعهم تقريباً، تعرضوا للخيانة من ضبّاط في قسم «السي.آي.أيه.» المتخصص في العلاقة مع السوفيات الذين أخذوا يتجسسون للطرف الآخر، في ظل الرئيسين ريغان، وجورج هـ. و. بوش. وفي ظل ريغان، شرعت «السي.آي.أيه.» في مهمات في العالم الثالث ذات تصوّر خاطئ، بائعة أسلحة إلى حرّاس الثورة الإيرانيين لتمويل حربها في أميركا الوسطى، منتهكة القانون، ومبدّدة آخر ما بقي من ثقة موضوعة بها. والأكثر خطورة هو أنها قصّرت عن إدراك نقطة الضعف القاتلة لدى عدوها الرئيسي.

أصبح الاعتماد على الآلات، وليس على الرجال، لفهم الطرف الآخر. ففي وقت وسعّت فيه تكنولوجيا التجسس آفاقها، ازداد، أكثر فأكثر، قصور نظر «السي.آي.أيه.»، فقد مكّنتها أقمار التجسس من إحصاء الأسلحة السوفياتية، لكنها لم توفّر المعلومة الحيوية بأن الشيوعية آخذة في التفتّت. فأهم خبراء «السي.آي.أيه.» لم يفهموا العدو أبداً، إلا بعد انتهاء الحرب الباردة. فالوكالة قد استنزفت السوفيات من خلال ضخ ما قيمته مليارات الدولارات تم تسييلها بشراء الأسلحة إلى أفغانستان للمساعدة في قتال قوات الجيش الأحمر المحتلة. وشكل ذلك نجاحاً ملحمياً، لكنها فشلت في رؤية أن المحاربين المسلمين الذين ساندتهم سرعان ما سيستهدفون الولايات المتحدة. وما إن تم إدراك ذلك، فشلت الوكالة في التصرّف. وشكّل ذلك فشلاً تاريخياً.

وحدة الهدف التي أبقت «السي.آي.أيه.» متضافرة إبان الحرب الباردة، سقطت في التسعينيات. كانت الوكالة في ظل الرئيس كلينتون، لا تزال تملك أشخاصاً كافحوا من أجل فهم العالم، لكن صفوفهم كانت ضعيفة إلى حد كبير جداً. كان لـ «الاف.بي.آي.» عملاء في نيويورك أكثر مما لـ «السي.آي.أيه.» من ضبّاط في الخارج. ولم تعد الوكالة، في نهاية الألفية، جهازاً استخباراتياً

يعمل بكامل طاقته واستقلاليته. فقد أصبحت مكتباً ميدانياً من الدرجة الثانية في البنتاغون، يقوّم معارك لم تحصل أبداً، بدلاً من استراتيجيات الكفاح المقبل. لقد افتقرت إلى القدرة على تفادي بيرل هاربور الثانية.

أرسلت الوكالة، إثر الهجمات على نيويورك وواشنطن، مجموعة صغيرة من العملاء السرّيين المحنكين إلى أفغانستان وباكستان لمطاردة زعماء القاعدة. وقامت من ثم بدعم دورها كمصدر موثوق للمعلومات السرّية عندما سلّمت البيت الأبيض تقارير زائفة عن وجود أسلحة دمار شامل في العراق. قامت بتسليم طنّ من الإفادات استناداً إلى أونصة واحدة من الاستخبار. وبدوره، أساء الرئيس جورج دبليو بوش وإدارته، استخدام الوكالة التي سبق لوالده أن أدارها بفخر في السابق، وحوّلها إلى قوة شرطة شبه عسكرية في الخارج، وشلّ أعمالها البيروقراطية في المقر العام. وأصدر بوش في ٢٠٠٤ عَرَضاً، حكم الإعدام السياسي على «السي.آي.أيه.» عندما قال إنها «تقوم بالتخمين وحسب» حول سياق الحرب في العراق. فما من رئيس قام في العلن أبداً بنبذ «السي.آي.أيه.» بتلك الطريقة.

انتهت مركزيتها في الحكومة الأميركية مع إلغاء مكتب مدير الاستخبارات المركزية في ٢٠٠٥. وتجب الآن إعادة بناء «السي.آي.أيه.» كي تبقى. وهي مهمّة ستستغرق أعواماً. فتحدّي فهم العالم كما هو، قد غمر ثلاثة أجيال من مسؤولي «السي.آي.أيه.». وقلّة من بين الجيل الجديد تتقن تعقيدات الأراضي الاجنبية، وأقل من ذلك كثيراً الثقافة السياسية في واشنطن. وفي المقابل، أثبت تقريباً كل رئيس، وكل كونغرس، وكل مدير للاستخبارات المركزية منذ الستينيات، عجزهم عن الإحاطة بآليات «السي.آي.أيه.». ومعظمهم ترك الوكالة في حالة أسوأ مما وجدها فيها. وتركت إخفاقاتهم للأجيال المقبلة، بتعبير الرئيس أيزنهاور، «إرثاً من الرماد». وها نحن عدنا إلى حيث بدأنا منذ ستين عاماً مضت، في حالة من الاختلال.

يهدف «إرث من الرماد» إلى إظهار كيف أن الولايات المتحدة تفتقر الآن إلى الاستخبارات التي تحتاج إليها للأعوام الآتية. وهو مأخوذ من الكلمات،

والأفكار، والأفعال المعلنة في ملفات مؤسسة الأمن القومي الأميركي. ويسجّل ما قاله زعماؤنا حقيقة، وما أرادوه فعلاً، وما قاموا به بالفعل، عندما خططوا للسلطة في الخارج. هذا الكتاب يستند إلى قراءتي لأكثر من خمسين ألف وثيقة، هي في الدرجة الأولى من محفوظات «السي.آي.أيه.»، والبيت الأبيض، ووزارة الخارجية؛ وأكثر من ألفي رواية شفويّة لمسؤولين في الاستخبارات الأميركية، وجنود، ودبلوماسيين؛ وأكثر من ثلاثمئة مقابلة أُجريت منذ ١٩٨٧ مع مسؤولين في «السي.آي.أيه.» وقدامى المحاربين فيها، بمن فيهم عشرة مدراء للاستخبارات المركزية. وتُضفي الهوامش الأخيرة الموسعة إسهاباً على النص.

هذا الكتاب موضوع بما هو للنشر: لا مصادر مجهولة، ولا استشهادات غامضة، ولا أقاويل. إنه أول تأريخ لـ «السي.آي.أيه.» مجموع كلّياً من إفادات من المصدر ومن وثائق أصلية. وهو، من حيث طبيعته، غير تام: فما من رئيس، أو مدير لوكالة الاستخبارات المركزية، وبالتأكيد ما من دخيل، تمكنه معرفة كل شيء عن الوكالة. ما كتبته هنا ليس الحقيقة كاملة، لكنه، بالحد الذي أمكنني فيه، ليس إلا الحقيقة.

آمل أن يؤدّي غرضه كتحذير. فما من جمهورية في التاريخ استمرت أكثر من ثلاثمئة سنة، وهذه الأمة قد لا تستمر طويلاً كقوّة عظمى ما لم تعثر على أعين ترى أمور العالم على ما هي عليه. كانت هذه مرّة مهمة وكالة الاستخبارات المركزيّة.

الجزء الأول

«في البداية لم نكن نعرف شيئاً»

«السي.آي.أيه.» في ظل ترومان

(١٩٤٥ إلى ١٩٥٣)

١

على الاستخبارات أن تكون شاملة وشمولية

جلّ ما أراده هاري ترومان، صحيفة.

فترومان، الذي قذفَتْ به إلى البيت الأبيض وفاةُ الرئيس فرانكلين د. روزفلت في ١٢ نيسان/أبريل ١٩٤٥، لم يكن يعرف شيئاً عن تطوير القنبلة الذرّية، أو عن نيات السوفيات. وقد احتاج إلى المعلومات لاستخدام سلطته.

وكتب بعد أعوام على ذلك، إلى احد أصدقائه، «عندما تسلّمت السلطة[1]، لم تكن للرئيس وسائل لتنسيق المعلومات الاستخبارية من حول العالم». سبق لروزفلت أن أنشأ مكتب الخدمات الاستراتيجية، بقيادة الجنرال وليام ج. دونوفان، بوصفه وكالة الاستخبارات الأميركية في زمن الحرب. إلا أن مكتب الخدمات الاستراتيجية التابع لدونوفان لم يؤسَّس قطُّ ليستمر. وعندما وُلدت وكالة الاستخبارات المركزية من رماده، أرادها ترومان أن تخدمه وحسب، بوصفها جهاز خدمة إخبارية عالمية، تقدم إليه نشرات يومية. وكتب «لم تكن النية منها أن تعمل في الخفاء! والهدف منها في الأساس هو إبقاء الرئيس مطّلعاً على ما يجري حول العالم». وشدّد على أنه لم يرد أبداً لـ «السي.آي.أيه.» «أن تعمل كمنظمة للتجسس. لم تكن هذه هي النية أبداً من إنشائها».

وأُفسدت رؤيته منذ البداية.

* * *

اعتقد الجنرال دونوفان أنه «في حرب شاملة وشمولية[٢]، على الاستخبارات أن تكون شاملة وشمولية». أيضاً. وكتب، في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤ إلى الرئيس روزفلت، مقترحاً قيام الولايات المتحدة بإنشاء «جهاز مركزي للاستخبارات» في زمن السلم. وسبق أن شرع، في السنة السابقة، في وضع مسودة مخططه، بتكليف من الفريق والتر بيدل سميث، رئيس أركان الجنرال دوايت د. أيزنهاور، الذي أراد معرفة كيف سيصبح مكتب الخدمات الاستراتيجية جزءاً من المنظومة العسكرية للولايات المتحدة. أبلغ دونوفان الرئيس أنه سيصبح في وسعه الاطلاع «على قدرات الدول الأجنبية ونياتها ونشاطها»[٣]، في وقت يتم فيه شن «عمليات تخريبية في الخارج» ضد أعداء الولايات المتحدة. لم يتجاوز مكتب الخدمات الاستراتيجية أبداً الثلاثة عشر ألف عضو، أي ما هو أصغر من فيلق عسكري واحد. لكن الجهاز الذي تطلّع إليه دونوفان، سيكون بمثابة جيش قائم بذاته: قوة تحارب الشيوعية بمهارة، وتدافع عن أميركا ضد أي هجوم، وتكشف الأسرار للبيت الأبيض. وحثّ الرئيس على أن «يضع فوراً أساس هيكل[٤] السفينة» التي طمح إلى أن يكون ربانها.

أطلق على دونوفان اسم «بيل البرّي» تيمناً بأحد ضاربي كرات «النيويورك يانكيز» من ١٩١٥ إلى ١٩١٧، الذي كان سريعاً، لكنه لم يكن دقيقاً. فدونوفان جندي شجاع ـ فاز بميدالية الشرف من الكونغرس لبطولته في معركة خنادق فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى ـ، لكنه سياسي ضعيف. لم يحظ بثقة إلا قلة من الجنرالات والأميرالات. فقد ارتاعوا من فكرة إنشائه جهاز تجسس مؤلفاً من مجموعة مبعثرة من سماسرة وول ستريت، ومفكري رابطة آيفي (مجموعة من الجامعات الأميركية الشرقية)، والجنود المرتزقة، ورجال الإعلان، والإعلام، والمجازفات، ورجال المرتبة الثانية، والمحكومين.

طوّر مكتب الخدمات الاستراتيجية كادراً أميركياً فريداً من محللي الاستخبارات. لكن دونوفان، وضابطه المعاون، ألن و. دالس، كانا مسحورين بالتجسس والتخريب، وهما مهارتان كان الأميركيون فيهما مجرّد هواة. اعتمد

دونوفان على الإنكليز لتدريب رجاله على فنون الظلام. الأكثر شجاعة في جهاز الخدمات الاستراتيجية ـ أولئك الذين أوحوا بالأساطير ـ هم الرجال الذين قفزوا وراء خطوط العدو، مستخدمين البنادق، وناسفين الجسور، ومشاركين في الحرب ضد النازيين مع حركات المقاومة الفرنسية والبلقانية. في السنة الأخيرة من الحرب، وبينما قواته منتشرة في أوروبا، وشمال أفريقيا، وآسيا، أراد دونوفان إنزال عملائه مباشرة في ألمانيا. قام بذلك، وماتوا. ومن بين الفرق الواحدة والعشرين التي ضمت كل منها رجلين، لم يعد يُعرف أي شيء عن أي منهم سوى واحد. هذه هي نوعية المهمات التي حلم بها دونوفان يوماً: بعضها جريء، وبعضها واهم.

«لا حدود لمخيلته»[٥]، قال «يده اليمنى»، ديفيد ك. إي. بروس، الذي أصبح في ما بعد سفيراً في كل من فرنسا، وألمانيا، وإنكلترا. «الأفكار لعبته. والإثارة تجعله ينخر كحصان السباق. ويل للضابط الذي يرفض مشروعاً، ويبرر بأنه في مظهره يبدو سخيفاً، أو على الأقل غير عادي. قمت، لأسابيع مؤلمة تحت إمرته، بتجارب على استخدام الخفافيش في أماكن تجمعاتها في المغاور الغربية لتدمير طوكيو»: بإلقائها من السماء، وقد رُبطت على ظهورها قنابل حارقة. تلك هي روحية مكتب الخدمات الاستراتيجية.

لطالما راودت الرئيس روزفلت الشكوك في شأن دونوفان. أمر، في أوائل ١٩٤٥، كبير المساعدين العسكريين في البيت الأبيض، العقيد ريتشارد بارك جونيور، بإجراء تحقيق سرّي في شأن عمليات مكتب الخدمات الاستراتيجية («أو.أس.أس.») زمن الحرب. وبينما شرع بارك بعمله، خلقت تسريبات من البيت الأبيض عناوين رئيسية في نيويورك، وشيكاغو، وواشنطن، تحذّر من أن دونوفان أراد إنشاء «غيستابو أميركية». وما إن انتشر الخبر، حتى حث الرئيس دونوفان على إخفاء مخططاته تحت البساط. وفي ٦ آذار/مارس ١٩٤٥، قامت هيئة الأركان المشتركة بوضعها رسميّاً على الرفّ.

أرادوا جهاز تجسس جديداً لخدمة البنتاغون، وليس الرئيس. وفي ذهنهم مركز لتنسيق المعلومات وتوزيعها، موظفوه من العقداء والكتبة الذين يتولّون

استخلاص المعلومات التي يجمعها الملحقون والدبلوماسيون والعملاء الاستخباراتيون لمصلحة الجنرالات من ذوي النجوم الأربع. وهكذا، بدأت معركة السيطرة على الاستخبارات الأميركية التي استمرت على مدى ثلاثة أجيال.

أمر خطير للغاية

لم يتمتع مكتب الخدمات الاستراتيجية بالكثير من المكانة في الديار (الولايات المتحدة)، وأقل منه داخل البنتاغون. وحُجب عن المنظمة الاطلاع على أهم الاتصالات اليابانية والألمانية التي تم التنصت عليها. واعتقد ضبّاط رفيعو المستوى في الجيش الأميركي، أن استخبارات مدنية مستقلة، بقيادة دونوفان، وذات وصول مباشر إلى الرئيس، ستصبح «أمراً خطيراً للغاية على الديموقراطية»[٦]، وذلك بعبارات الأميرال كلايتون بيسّل، مساعد رئيس الأركان للاستخبارات العسكرية.

إنهم كثرٌ من الرجال أنفسهم الذين كانوا غير فعّالين خلال الهجوم على بيرل هاربور. فقبل وقت كبير من فجر ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١، تمكّن الجيش الأميركي من فك بعض الرموز اليابانية. عرفوا أن هجوماً قد يكون وشيكاً، لكنهم لم يتخيلوا أبداً أن اليابان ستقوم بمثل هذه المقامرة اليائسة. وكان الرمز المكسور على درجة كبيرة من السرّية لتقاسمه مع القادة في الميدان. وأدت المنافسات داخل الجيش إلى تقسيم المعلومة، واحتكارها، وتشتيتها. ولأنه ما من أحد امتلك كل قطع الأحجية، فإن أياً منهم لم ير الصورة الكبرى. ولم يحقق الكونغرس، إلا بعد انتهاء الحرب، في كيفية أخذ البلاد بطريقة مفاجئة، ولم يتضح إلا عند ذاك، أن البلاد تحتاج إلى طريقة جديدة في الدفاع عن نفسها.

قبل «بيرل هاربور»، كان في الإمكان العثور على المعلومات الاستخباراتية الأميركية التي تغطي بقعاً كبيرة من العالم في مجموعة قليلة من خزائن[٧] الملفات الخشبية في وزارة الخارجية. ومصدرها الوحيد للمعلومات هو بضع

دزينات من السفراء والملحقين العسكريين. وفي ربيع ١٩٤٥، كادت الولايات المتحدة لا تعرف شيئاً عن الاتحاد السوفياتي، والأقل منه عن بقية العالم.

كان فرانكلين روزفلت الرجل الوحيد الذي في إمكانه إحياء حلم دونوفان حول جهاز استخبارات أميركي كلّي القدرة. وعندما مات روزفلت في ١٢ نيسان/أبريل، يئس دونوفان في شأن المستقبل. وبعدما أمضى نصف الليل متظلّماً[٨]، نزل درج فندق الريتز، وهو مقرّه المألوف في باريس المحرّرة، وتناول فطوراً مهموماً مع وليام ج. كايسي، وهو ضابط في مكتب الخدمات الاستراتيجية، ومدير مستقبلي للاستخبارات المركزية.

«ماذا تعتقد أن ذلك يعني بالنسبة إلى المنظمة؟»[٩]، سأل كايسي.

«أخشى أنها النهاية»، أجاب دونوفان.

رفع العقيد بارك في اليوم ذاته، تقريره السرّي للغاية، حول مكتب الخدمات الاستراتيجية إلى الرئيس الجديد. شكل التقرير، الذي لم يتم رفع طابع السرية بالكامل عنه إلا بعد انتهاء الحرب الباردة، سلاحاً للاغتيال السياسي، سنّه الجيش، وشحذه ج. إدغار هوفر، مدير «الأف.بي.آي.» منذ ١٩٢٤. فهوفر احتقر دونوفان، وأخفى طموحاته الخاصة في تسنّم موقع رئيس جهاز استخبارات على مستوى العالم. قضى عمل بارك على إمكانية أن يستمر مكتب الخدمات الاستراتيجية جزءاً من الحكومة الأميركية، وشوّه الأساطير الرومانسية التي خلقها دونوفان لحماية جواسيسه، وغرس في هاري ترومان ارتياباً عميقاً وراسخاً في العمليات الاستخبارية السرّية. وجاء في التقرير أن مكتب الخدمات الاستراتيجية أوقع «ضرراً خطيراً في المواطنين[١٠]، والمصالح الاقتصادية، والمصالح الوطنية للولايات المتحدة».

لم يقبل بارك، ولو بحالة واحدة ساعد فيها مكتب الخدمات الاستراتيجية في كسب الحرب، بل قام فقط، بدون رحمة، بتعداد الطرائق التي فشل فيها. فتدريب ضباطه «غير متقن ومتفلّت التنظيم». نظر قادة الاستخبارات البريطانيون إلى الجواسيس الأميركيين على أنهم «كالعجينة في أيديهم». وفي الصين،

تلاعب القائد الوطني شيانغ كاي تشك، بمكتب الخدمات الاستراتيجية من أجل أهدافه الخاصة. وكان الجواسيس الألمان قد خرقوا عمليات مكتب الخدمات الاستراتيجية لـ «الأو.أس.أس.» في كل أنحاء أوروبا وشمال أفريقيا. واكتشفت السفارة اليابانية في لشبونة خطط ضباط «الأو.أس.أس.» لسرقة كتاب الشيفرة الخاص بها: وبنتيجة ذلك بدّلت اليابان رموزها، الأمر الذي «نتج عنه تعتيم كامل على المعلومات العسكرية الحيوية»، في صيف ١٩٤٣. وقال أحد مخبري بارك، «من غير المعروف كم من الأرواح الأميركية في الحيط الهادئ كلّف هذا الغباء من جانب «الأو.أس.أس.». وكتب بارك أن معلومات استخبارية خاطئة قدمتها «الأو.أس.أس.». بعد سقوط روما في حزيران/يونيو ١٩٤٤، أوقعت جنوداً فرنسيين في فخ للنازيين في جزيرة إلبا، «وبنتيجة أخطاء» «الأو.أس.أس.» وسوء تقديرها قوات العدو، قُتل نحو ألف ومئة جندي فرنسي».

هاجم التقرير دونوفان شخصياً. قال إن الجنرال فقد حقيبة يد في حفلة كوكتيل في بوخارست «سلمتها راقصة رومانية إلى الغيستابو». لم يستند توظيفه وترقياته الضباط الكبار، إلى أهليتهم، بل إلى شبكة من علاقات قدامى الزملاء من وول ستريت ومن العلاقات الاجتماعية. وقد أرسل مفارز من الرجال إلى مراكز أمامية منفردة، مثل ليبيريا، ونسي أمرهم. وقام عن طريق الخطأ، بإنزال كوماندوس في السويد المحايدة. وأرسل حراساً لحماية مخزن ذخيرة ألماني تم الاستيلاء عليه في فرنسا، ومن ثم قام بنسفهم.

اعترف بارك بأن رجال دونوفان قاموا ببعض المهمات التخريبية الناجحة، وبتعليمات إنقاذ لطيارين أميركيين تم إسقاط طائراتهم. وقال إن فريق مكتب الأبحاث والتحليل في «الأو.أس.أس.» قام بعمل بارز. وانتهى إلى أن المحللين ربما وجدوا، بعد الحرب، مكاناً لهم في وزارة الخارجية. لكن على بقية أفراد «الأو.أس.أس.» الرحيل. وحذّر من أن «وجود عناصر «الأو.أس.أس.» في موضع الريبة التي تكاد تكون ميؤوسة، يجعل من غير الممكن تصوّر استخدامهم بوصفهم وكالة استخبارات في مرحلة ما بعد الحرب».

عاد دونوفان إلى واشنطن بعد يوم الانتصار في أوروبا، ليحاول إنقاذ جهازه التجسسي. فقد أفسح شهر من الحداد على الرئيس روزفلت في المجال أمام تزاحم مجنون على السلطة في واشنطن. وفي ١٤ أيار/مايو، استمع هاري ترومان لأقل من خمس عشرة دقيقة إلى دونوفان، وهو يقدّم اقتراحه لردع الشيوعية من خلال تقويض الكرملين. وصرفه الرئيس على عجل.

قاوم دونوفان، طوال الصيف، في الكونغرس وفي الصحافة. وفي ٢٥ آب/أغسطس، قام أخيراً بإبلاغ ترومان بأن عليه الاختيار بين المعرفة والجهل. وحذّر من أن الولايات المتحدة تفتقر الآن إلى منظومة استخبارية منسّقة، وأن ثمة اعترافاً عاماً بعيوب هذا الوضع ومخاطره[١١].

أمل دونوفان أن يتمكن، بالمعسول من الكلام، من إقناع ترومان ـ الرجل الذي طالما عامله باحتقار متعجرف ـ بإنشاء «السي.آي.أيه.»، إلا أنه أخطأ في قراءة رئيسه. فلقد قرر ترومان أن مشروع دونوفان يحمل طابع الغيستابو. وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٤٥، بعد ستة أسابيع على إلقائه القنابل الذرية الأميركية على اليابان، طرد رئيس الولايات المتحدة دونوفان، وأعطى «الأو.أس.أس.» مهلة عشرة أيام لتحل نفسها. وتم إلغاء جهاز التجسس الأميركي.

٢

منطق القوّة

وجد ألن دالاس، ضابط «الأو.أس.أس.» الرفيع المستوى في ألمانيا، في صيف ١٩٤٥، بين أنقاض برلين، قصراً رائعاً وحسن التجهيز لمقرّه الجديد. وشرع معاونه المفضّل، ريتشارد هيلمس، في محاولة التجسس على السوفيات.

قال هيلمس، بعد نصف قرن على ذلك، إن «ما عليك أن تتذكّره[١] هو أننا لم نكن في البداية، نعرف شيئاً. فمعلوماتنا عما ينوي فعله الطرف الآخر، ونياته، وقدراته، كانت معدومة، أو تقارب العدم. فلو أمكننا الحصول على دفتر هاتف، أو خريطة لمطار عسكري، لشكل هذا مادة مثيرة. كنا في ظلام في ما يتعلّق بالكثير في العالم».

فرح هيلمس بالعودة إلى برلين حيث اكتسب شهرته بإجرائه مقابلة مع هتلر خلال أولمبياد ١٩٣٦، عندما كان، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، مراسلاً لإحدى وكالات الأنباء. بُهت لإلغاء «الأو.أس.أس.». وفي مركز العمليات المموه، وهو معمل لإنتاج الشمبانيا تمت مصادرته، تدفق الغضب والكحول بدون ضوابط في ليلة وصول الأمر من الرئيس. لن يُنشأ مقر مركزي للاستخبارات الأميركية كما تصوّره دالاس. وحده فريق صغير سيبقى في الخارج. ولم يتمكن دالاس، وحسب، من التصديق أن المهمة يمكن أن تنتهي. تشجع بعد ذلك بأيام قليلة عندما بلغته رسالة من مقر «الأو.أس.أس.» في واشنطن، تطلب منه المثابرة.

قضية الاستخبارات المركزية المقدّسة

جاءت الرسالة من نائب دونوفان، اللواء جون ماغرودر، وهو عسكري من طبقة أرستقراطية، منخرط في الجيش منذ ١٩١٠. وقد اعتقد بإصرار، أن سيادة أميركا الجديدة في العالم ستكون، بدون جهاز استخبارات، عرضة للحظ الأعمى، أو مَدينة للبريطانيين. وفي ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٤٥، بعد ستة أيام على حلّ الرئيس ترومان «الأو.أس.أس.»، سار الجنرال ماغرودر باختيال عبر الممرات التي لا نهاية لها في البنتاغون. اللحظة ملائمة: فوزير الحرب، هنري ستيمسون، قد استقال هذا الأسبوع، وكان ستيمسون يعارض معارضة مستميتة فكرة «السي.آي.أيه.». وهو أبلغ دونوفان، قبل ذلك بأشهر قليلة، «أنه أمر لا يُنصح به أبداً»(٢). وها إن الجنرال ماغرودر ينتهز الفرصة التي خلفها رحيل ستيمسون.

جلس جون ماكلوي، وهو صديق قديم لدونوفان، ومساعد وزير الحرب، جون ماكلوي، وواحد من الأكثر نفوذاً في واشنطن. وقام الرجلان معاً بإبطال قرار الرئيس.

خرج ماغرودر، ذلك اليوم، من البنتاغون ومعه أمر من ماكلوي يدعو إلى «الاستمرار في تنفيذ عمليات «الأو.أس.أس.» من أجل الحفاظ عليها»(٣). أبقت قصاصة الورق تلك على الأمل حيّاً. في وكالة استخبارات مركزية، سيبقى الجواسيس في الخدمة، تحت اسم جديد، هو وحدة الخدمات الاستراتيجية، «أس.أس.يو.»، ثم طلب ماكوي من صديقه الحميم روبرت أ. لوفيت، مساعد الوزير للحرب الجوية ووزير الدفاع المقبل، تشكيل لجنة سرّية لتخطيط مسار الاستخبارات الأميركية، وإبلاغ هاري ترومان بما يجب القيام به. وأبلغ ماغرودر رجاله سرّاً بأن «قضية الاستخبارات المركزية المقدسة»(٤) ستنتصر.

شرع هيلمس، وقد شجعه هذا الأمر، في العمل في برلين. قام بتطهير الضباط الذين انغمسوا في سوق برلين السوداء، حيث كل شيء وكل واحد للبيع. دزينتان من صناديق دخان «كامل»، تم شراؤهما بـ ١٢ دولاراً من المتجر العسكري، ابتاعتا سيارة مرسيدس ـ بينز طراز ١٩٣٩. بحث عن علماء ألمان

قضية الاستخبارات المركزية المقدّسة

جاءت الرسالة من نائب دونوفان، اللواء جون ماغرودر، وهو عسكري من طبقة أرستقراطية، منخرط في الجيش منذ ١٩١٠. وقد اعتقد بإصرار، أن سيادة أميركا الجديدة في العالم ستكون، بدون جهاز استخبارات، عرضة للحظ الأعمى، أو مَدينة للبريطانيين. وفي ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٤٥، بعد ستة أيام على حلّ الرئيس ترومان «الأو.أس.أس.»، سار الجنرال ماغرودر باختيال عبر الممرات التي لا نهاية لها في البنتاغون. اللحظة ملائمة: فوزير الحرب، هنري ستيمسون، قد استقال هذا الأسبوع، وكان ستيمسون يعارض معارضة مستميتة فكرة «السي.آي.أيه.». وهو أبلغ دونوفان، قبل ذلك بأشهر قليلة، «أنه أمر لا يُنصح به أبداً»[٢]. وها إن الجنرال ماغرودر ينتهز الفرصة التي خلفها رحيل ستيمسون.

جلس جون ماكلوي، وهو صديق قديم لدونوفان، ومساعد وزير الحرب، جون ماكلوي، وواحد من الأكثر نفوذاً في واشنطن. وقام الرجلان معاً بإبطال قرار الرئيس.

خرج ماغرودر، ذلك اليوم، من البنتاغون ومعه أمر من ماكلوي يدعو إلى «الاستمرار في تنفيذ عمليات «الأو.أس.أس.» من أجل الحفاظ عليها»[٣]. أبقت قصاصة الورق تلك على الأمل حيّاً. في وكالة استخبارات مركزية، سيبقى الجواسيس في الخدمة، تحت اسم جديد، هو وحدة الخدمات الاستراتيجية، «أس.أس.يو.»، ثم طلب ماكوي من صديقه الحميم روبرت أ. لوفيت، مساعد الوزير للحرب الجوية ووزير الدفاع المقبل، تشكيل لجنة سرّية لتخطيط مسار الاستخبارات الأميركية، وإبلاغ هاري ترومان بما يجب القيام به. وأبلغ ماغرودر رجاله سرّاً بأن «قضية الاستخبارات المركزية المقدسة»[٤] ستنتصر.

شرع هيلمس، وقد شجعه هذا الأمر، في العمل في برلين. قام بتطهير الضباط الذين انغمسوا في سوق برلين السوداء، حيث كل شيء وكل واحد للبيع. دزينتان من صناديق دخان «كامل»، تم شراؤهما بـ ١٢ دولاراً من المتجر العسكري، ابتاعتا سيارة مرسيدس ـ بينز طراز ١٩٣٩. بحث عن علماء ألمان

وجواسيس للحصول عليهم بهدف حرمان السوفيات من مهاراتهم، وجعلهم يعملون لصالح الولايات المتحدة. لكن سرعان ما تراجعت هذه المهمات إلى المرتبة التي تلي الكفاح لمعرفة العدو الجديد. وبحلول تشرين الأول/أكتوبر، «اتضح جيداً أن هدفنا الأول سيصبح ما الذي ينوي عمله الروس»[٥]، على ما يتذكّره توم بوغلار، وكان يومها ضابطاً في الثالثة والعشرين من العمر في قاعدة برلين. أخذ السوفيات يصادرون سكك الحديد، ويستميلون الأحزاب السياسية في ألمانيا الشرقية. وأفضل ما كان في وسع الجواسيس الأميركيين فعله، بداية، هو تقفّي أثر النقليات العسكرية السوفياتية إلى برلين، خالقين لدى البنتاغون الشعور بأن أحداً ما يحاول مراقبة الجيش الأحمر عن كثب. أخذ هيلمس ورجاله، المستاؤون من انسحاب واشنطن أمام التقدم السوفياتي، والعاملون في مواجهة مقاومة ضباط الجيش الأميركي ذوي الرتب العالية في برلين، يحاولون تجنيد عناصر من الشرطة الألمانية وسياسيين لإنشاء شبكة تجسس في الشرق. وبحلول تشرين الثاني/نوفمبر، قال بيتر سيشل، وهو ضابط آخر، بعمر الثالثة والعشرين في «الأو.أس.أس.» في برلين، «أخذنا نرى الروس وقد استولوا بالكامل على المنظومة الألمانية الشرقية»[٦].

وأخذ رؤساء هيئة الأركان المشتركة ووزير البحرية ذو النفوذ الكبير، جيمس ف. فورّستال، الآن في الخشية من أن السوفيات، شأنهم شأن النازيين قبلهم، سيتحركون للاستيلاء على أوروبا كلها، ومن ثم الاندفاع إلى شرق المتوسط، والخليج، وشمال الصين، وكوريا. ومن شأن خطوة خاطئة واحدة أن تؤدي إلى مواجهة لن يتمكن أحد من احتوائها. ومع ازدياد المخاوف من نشوب حرب جديدة، انقسم القادة المقبلون للاستخبارات الأميركية إلى معسكرين متنافسين.

آمن أحدهما بالتجميع البطيء والمتأني والمدروس، للاستخبارات السرّية من خلال دور التجسس. واعتقد الآخر بالعمليات الحربية السرّية: نقل المعركة إلى العدو من خلال التحرّك الخفي. فالتجسس يسعى إلى معرفة العالم، وهذا كان ريتشارد هيلمس. والتحرّك الخفي يسعى إلى تغيير العالم، وهو ما سيكونه فرانك ويسنر.

وويسنر، هو الابن الساحر لسلالة من النبلاء الملاّكين الكبار في الميسيسيبي، وهو محام شركات لامع مهندم ببزة عسكرية. وسبق أن سافر، في أيلول/سبتمبر ١٩٤٤، إلى بوخارست في رومانيا، بوصفه رئيس المحطة الجديد لـ «الأو.أس.أس.». وكان الجيش الأحمر، وبعثة أميركية صغيرة، قد سيطرا على العاصمة، وقضت أوامر ويسنر بمراقبة الروس عن كثب. أصبح في قمة مجده، متآمراً مع الملك الشاب مايكل، ومخططاً لإنقاذ طيّاري الحلفاء الذين أُسقطوا، ومُصادراً في بوخارست قصر أحد بارونات البيرة المؤلف من ثلاثين غرفة. وفي ظل ثريات القصر المتوهّجة، اختلط الضباط الروس مع الأميركيين، يتبادلون الأنخاب بكؤوس الشمبانيا. اهتزّت نفس ويسنر ـ فهو واحد من أوائل رجالات «الأو.أس.أس.» الذين يتبادلون الأنخاب مع الروس ـ، وأفاد، باعتزاز، مركز القيادة، بأنه أقام ارتباطاً ناجحاً(٧) مع جهاز الاستخبارات السوفياتي.

مضى عليه كجاسوس أميركي أقل من سنة. والروس يلعبون اللعبة منذ أكثر من قرنين. وقد أصبح لديهم بالفعل عملاء متمركزون جيداً داخل «الأو.أس.أس.»، وسرعان ما اخترقوا حلقة ويسنر الداخلية المؤلفة من الحلفاء الرومانيين والعملاء. وبحلول منتصف الشتاء، سيطروا على العاصمة، وساقوا مئات الآلاف من الرومانيين الذين لديهم عروق جرمانية، في عربات القطار، وشحنوهم شرقا إلى العبودية أو الموت. شاهد ويسنر ٢٧ عربة قطار تغص بالحمولة البشرية تندفع خارجة من رومانيا. وقد سكنته هذه الذكرى طوال حياته.

كان قد أصبح بالفعل رجلاً متضعضعاً لدى وصوله إلى مقر «الأو.أس.أس.» في ألمانيا، حيث أصبح ووليمس حليفين مضطربين. طارا معاً إلى واشنطن في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥، وأدركا، بتحادثهما خلال الرحلة التي استغرقت ١٨ ساعة، أنهما لا يملكان أي فكرة إذا كانت الولايات المتحدة ستمتلك جهازاً خفيّاً بعد هبوطهما.

منظمة لقيطة كما يبدو

أخذت المعركة في واشنطن، حول مستقبل الاستخبارات الأميركية، تشتد

ضراوة. قاتل رؤساء هيئة الأركان المشتركة من أجل جهاز يملكون السيطرة الشديدة عليه. وطالب الجيش والبحرية بجهاز لهما. أراد ج. إدغار هوفر أن تقوم «الأف.بي.آي.» بالتجسس العالمي. وسعت وزارة الخارجية إلى السيطرة. وشارك حتى كبير المسؤولين عن البريد في الجدال.

حدد الجنرال ماغرودر المشكلة، وكتب: «إن عمليات التجسس الخفية تتضمن خرقاً مستمراً لكل القوانين»(٨). «وبصريح العبارة، فإن مثل هذه العمليات هي بالضرورة من خارج إطار القانون، وأحياناً غير قانونية». وحاجج، بما يقنع، بأنه لا يمكن البنتاغون ووزارة الخارجية المخاطرة في إدارة هذه المهمات. وسيكون على جهاز سرّي جديد أن يتولّى الأمر.

إلا أنه يكاد لم يبق أحد لملء صفوفه. «فقد بلغ جهد جمع الاستخبارات مرحلة التوقّف(٩)، إلى حد ما»، كما يقول العقيد بيل كوين، المسؤول التنفيذي لدى الجنرال ماغرودر في وحدة الخدمات الاستراتيجية. فقد عاد خمسة من كل ستة من قدامى محاربي «الأو.أس.أس.» إلى حياتهم القديمة. وقال هيلمس إنهم وجدوا أن ما بقي من «البناء غير المتقن في شكل جليّ وواضح(١٠) للاستخبارات الأميركية، هو على ما يبدو منظمة لقيطة ذات فترة حياة غير متوقّعة». وقد تراجعت أعدادها نحو عشرة آلاف في ثلاثة أشهر، لتصل إلى ١,٩٦٧ في نهاية ١٩٤٥. فقدت محطات لندن، باريس، روما، فيينا، مدريد، ليشبونة، وستوكهولم، جميع ضباطها تقريباً. وأقفل ١٥ من أصل ٢٣ مركزاً آسيويّاً متقدماً. وفي الذكرى الرابعة لبيرل هاربور، عاد سوليفان المقتنع بأن ترومان قد سار بالاستخبارات الأميركية خارج السكة، إلى مكتبه في مؤسسة سوليفان وكروموبل للمحاماة التي كان شقيقه جون فوستر دالاس شريكاً فيها. وحذا فرانك ويسنر حذوه، وعاد إلى مؤسسته، كارتر، لممارسة المحاماة في نيويورك.

أُرسل من تبقى من محللي الاستخبارات لتشكيل مكتب الأبحاث الجديد في وزارة الخارجية، وقد عوملوا معاملة المهجّرين. وكتب شيرمان كنت، الذي أصبح لاحقاً مؤسس مديرية الاستخبارات في «السي.آي.أيه.»، «لا أعتقد أنه

وُجدت في حياتي أبداً مرحلة أكثر حزناً أو أشد اضطراباً»[١١]. وسرعان ما غادر الأشخاص الأكثر موهبة يائسين، وعادوا إلى جامعاتهم وصحفهم. ولم يظهر بديلون لهم. ولأعوام طويلة تلت، افتقرت الحكومة الأميركية إلى أي إفادات استخبارية متماسكة.

اعتمد الرئيس ترومان على مدير موازنته، هارولد د. سميث، في الإشراف على التفكيك المنظّم للآلة الحربية الأميركية. لكن التسريح أخذ يتحوّل إلى تهديم. وفي اليوم الذي قام فيه سميث بتفكيك «الأو.أس.أس.»، حذّر[١٢] الرئيس من أن الولايات المتحدة تواجه خطر العودة إلى حالة البساطة لما قبل بيرل هاربور. خشي أن الاستخبارات الأميركية أصبحت «عرضة للتشنيع الكبير جداً»[١٣]. وفي اجتماع دُعي إليه على عجل في ٩ كانون الثاني/يناير في البيت الأبيض، أبلغ رئيس الأركان العسكرية لدى ترومان، الأميرال وليام د. ليهي، الرئيس بصراحة قاسية، أنه «تم التعاطي مع الاستخبارات بطريقة مشينة»[١٤].

وجد ترومان أنه تسبب في ورطة، وقرر ترتيب الأمر. استدعى نائب مدير الاستخبارات البحرية، الأميرال سيدني و. سويرز، وهو ضابط في الاحتياط من ميسوري، ومؤيّد قوي للحزب الديموقراطي، ورجل أعمال ثري جنى أمواله من التأمين على الحياة، ومن متاجر «بيغلي ويغلي»، وهي أول سوبر ماركت في البلاد يخدم فيها الزبون نفسه بنفسه. وقد خدم في بعثة لما بعد الحرب، تدرس مستقبل الاستخبارات، أنشأها وزير البحرية جيمس فورّستال، إلا أن أنظاره لم تكن قد اتجهت إلى ما هو أكبر من عودته السريعة إلى سانت لويس.

اكتشف سويرز، وهو ما أجزعه، أن الرئيس سيجعله أول مدير للاستخبارات المركزية. سجل الأميرال ليهي لحظة تولّي المهمة في مفكّرة مكتبه ليوم ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٦: «خلال إفطار اليوم في البيت الأبيض[١٥]، قدم ترومان، بوجود أعضاء الفريق فقط، إلى الأميرال سويرز وإليَّ، وشاحين أسودين، وقبعتين سوداوين، وخنجرين خشبيين». ثم كرّس الرئيس سويرز بوصفه رئيس «مجموعة جواسيس الوشاح والخنجر» و«مديراً للجاسوسية المركزية». وضع هذا الاستعراض المسرحي الترفيهي الأميرال الاحتياطي

المذهول في منصب قيادة المنظمة المولودة سِفاحاً، والقصيرة العمر، والتي دُعيت مجموعة الاستخبارات المركزية. أصبح سويرز الآن مسؤولاً عن حوالى ألفي ضابط استخبارات وموظف دعم يسيطرون على ملفات وإضبارات نحو أربعمئة ألف شخص. لم تكن للكثيرين منهم فكرة عما يقومون به، أو ما يفترض بهم القيام به. وسأل أحدهم سويرز، بعد قسمه اليمين، عما يريد القيام به، فقال «أريد العودة إلى الديار».

وعلى غرار كل مدير من مدراء الاستخبارات المركزية الذين أعقبوه، سُلم مسؤوليات جساماً بدون سلطة موازية لها. لم يحصل على توجيهات من البيت الأبيض. والمشكلة أنه ما من أحد عرف حقيقة ما يريده الرئيس، وأقل منهم جميعاً الرئيس نفسه. قال ترومان إنه يريد وحسب ملخّص استخبارات(١٦) يومية توفّر عليه كل صباح، قراءة كتلة سمكها قدمان من البرقيات. وبدا للأعضاء المؤسسين لمجموعة الاستخبارات المركزية، أنه الجانب الوحيد من عمله الذي فكّر فيه.

نظر آخرون إلى المهمة على نحو مختلف كثيراً. أصرّ الجنرال ماغرودر على وجود فهم ضمني في البيت الأبيض، بأن مجموعة الاستخبارات المركزية ستدير جهازاً خفيّاً. وإذا كانت هذه هي الحال، فإنه لم يظهر أي كلام حولها على الورق. لم يتحدّث الرئيس أبداً في شأنها، وبالتالي فما من أحد آخر في الحكومة اعترف بشرعية المجموعة الجديدة. رفض البنتاغون ووزارة الخارجية التحدث مع سويرز وجماعته. وعاملهم الجيش، والبحرية، و«الأف.بي.آي.» بأقصى درجات الاحتقار. وبالكاد استمر سويرز مئة يوم مديراً، بيد أنه بقي ليخدم الرئيس بوصفه مستشاراً. وترك وراءه ملاحظة وحيدة ذات مغزى، وهي مذكّرة سرّية للغاية، تحمل الالتماس التالي: «ثمة حاجة ملحّة(١٧) إلى تطوير أرفع نوعية ممكنة من الاستخبار حول الاتحاد السوفياتي، في أقصر وقت ممكن».

في تلك الأيام، جاء الفهم الوحيد للكرملين من السفير الأميركي المعيّن حديثاً في موسكو، مدير الاستخبارات المركزية المستقبلي الجنرال والتر بيدل سميث، ومساعده العالي الرتبة جورج كنّان.

ما الذي يريده الاتحاد السوفياتي؟

بيدل سميث، هو ابن صاحب متجر في إنديانا، تدرّج من أسفل الرتب العسكرية ليصبح جنرالاً بدون أن ينصقل في وست بوينت، أو يحصل على إجازة جامعية. وبوصفه رئيس أركان أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية، فإنه افتكر مليّاً في كل معركة في شمال أفريقيا وأوروبا. احترمه رفاقه الضباط وهابوه؛ فهو رجل آيك الذي لا يبتسم، والمكلّف بالمهمات القذرة. أغرق نفسه في العمل بما هو أكثر من الإجهاد. وهو، بعدما نُقل إليه الدم مرّات عدّة في نهاية عشاء متأخر مع أيزنهاور ونستون تشرتشل بسبب قرحة نازفة، شقّ طريقه خارجاً من أحد المستشفيات البريطانية عائداً إلى خيمة القيادة التابعة له. وقد تقاسم الخبز مع الضباط العسكريين الروس، جالساً في عشاءات عسيرة في مقرات قيادة الحلفاء في الجزائر للتخطيط لعمليات مشتركة ضد النازيين. وهو الذي قبل شخصياً الاستسلام النازي الذي أنهى الحرب في أوروبا، متطلعاً من فوق، بازدراء، إلى القيادة الألمانية في بيت المدرسة الصغير الأحمر المحطم في ريمس، في فرنسا، الذي استُخدم كمقر قيادة عسكري أميركي متقدّم. وكان، في يوم الانتصار في أوروبا، في ٨ أيار/مايو ١٩٤٥، قد التقى لبضع دقائق عابرة، في ريمس، مع ألن دالس وريتشارد هيلمس. وكان دالاس، المصاب بلعنة النقرس، والذي يعرج في مشيته ويتكىء على عصاه، قد جاء لرؤية أيزنهاور، والفوز بموافقته على إنشاء مركز تجسس أميركي كلّي القدرة في برلين. لم يملك آيك وقتاً لدالاس في ذلك الصباح: نذير شؤم.

وصل بيدل سميث إلى موسكو في آذار/مارس ١٩٤٦ ليتدرّب على يد القائم بالأعمال في السفارة الأميركية، جورج كينّان. أمضى كينّان أعواماً عدة في روسيا، وساعات ظلماء طويلة في محاولة لفك طلاسم جوزف ستالين. فقد استولى الجيش الأحمر على نصف أوروبا تقريباً إبان الحرب، وهي جائزة انتُزعت بكلفة رهيبة تمثلت في مقتل عشرين مليون روسي. حرّرت وقواته أمماً من النازيين، لكن ظل الكرملين أخذ يخيم على أكثر من مئة مليون شخص في ما هو أبعد من حدود روسيا. أدرك كينّان أن السوفيات سيمسكون بفتوحاتهم

عن طريق القوة الغاشمة. ونبّه البيت الأبيض إلى ضرورة التحضّر لمواجهة مكشوفة.

قبل أيام قليلة من هبوط بيدل سميث في موسكو، أطلق كينّان العنان لأكثر البرقيات شهرة في تاريخ الدبلوماسية الأميركية، «التلغرام الطويل»، وهو كناية عن صورة وصفية من ثمانية آلاف كلمة للبارانويا السوفياتية. وبدا أن قراء كينّان جميعهم ـ قلة في البداية، وملايين مع مرور الوقت ـ التقطوا سطراً وحيداً: «السوفيات لا يتقبّلون منطق العقل، لكنهم يتأثّرون كثيراً بمنطق القوة». وسيكسب كينّان، خلال فترة قصيرة، شهرته بأنه أعظم الخبراء في شؤون الكرملين في الحكومة الأميركية. «لقد عوّدنا أنفسنا[١٨]، من خلال خبرتنا في زمن الحرب، على وجود عدو عظيم قبالتنا»، قال كينّان متذكراً بعد سنين كثيرة لاحقة. «على العدو أن يكون دائماً محورياً. ويجب أن يكون شرّاً مطلقاً».

وصف بيدل سميث كينّان بأنه «أفضل مدرّب يمكن[١٩] رئيس بعثة واصلاً حديثاً، الحصول عليه».

في ليلة باردة، وسماء تسطع بالنجوم، من ليالي نيسان/أبريل ١٩٤٦[٢٠]، دخل بيدل سميث حصن الكرملين في سيارة ليموزين ترفع العلم الأميركي. تحقق ضباط من الاستخبارات السوفياتية من هويته عند البوابات. اجتازت سيارته الكاتدرائية الروسية القديمة والجرس المكسور عند أسفل برج طويل داخل أسوار الكرملين. أدى له جنود يرتدون جزمات جلدية سوداء عالية وسراويل مخططة بالأحمر التحية، وقادوه إلى الداخل. لقد جاء وحده. أخذوه في ممشى طويل، عبر أبواب مزدوجة منجدة بالجلد الأخضر الداكن. وأخيراً، في غرفة اجتماعات ذات سقف مرتفع، التقى الجنرال بالجنرال الأكبر.

طرح بيدل سميث سؤالاً مزدوج المغزى على ستالين: «ما الذي يريده الاتحاد السوفياتي، وما هو المدى الذي ستذهب إليه روسيا؟».

حدّق ستالين بعيداً، نافخاً سيجارته، ومخربشاً بقلم رصاص أحمر قلوباً غير متناسقة الجوانب، وعلامات استفهام. نفى إضماره أي نيات سيئة ضد أي دولة

أخرى. ونَدد بتحذير ونستون تشيرتشل، الذي أطلقه في خطاب قبل أسابيع قليلة في ميسوري، حول الستار الحديدي الذي وُضع عبر أوروبا.

قال ستالين إن روسيا تعرف أعداءها.

«أمن الممكن أنك تعتقد فعلاً أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى متحدتان في تحالف لإفشال روسيا؟».

«دا» (نعم بالروسية)، قال ستالين.

وكرر الجنرال سؤاله: «ما المدى الذي ستذهب إليه روسيا؟».

نظر إليه ستالين مباشرة. وقال: «لن نذهب إلى ما هو أبعد كثيراً».

إلى أي بُعد؟ لا أحد يعلم. ما هي مهمة الاستخبارات الأميركية في وجه التهديد السوفياتي الجديد؟ ما من أحد متأكد من ذلك.

لاعب الخفة المتتلمذ

في ١٠ حزيران/يونيو، أصبح الجنرال هويت فاندنبرغ المدير الثاني للاستخبارات المركزية. إنه طيّار وسيم قاد حرب تشيرتشل التكتيكية الجوية في أوروبا، وهو يدير الآن وحدة طيران ليلي متمركزة في أبنية اسمنتية عادية في الطرف البعيد لوزارة الخارجية الأميركية، عند قمة منحدر صغير يطل على البوتوماك. ويوجد مقر قيادته في شرق الشارع ٢٤٣٠، وهو المقر السابق لـ «الأو.أس.أس.»، يحيط به مصنع للغاز، ومصنع ذو بريجات للجعة، ومنصة للتزحلق، وكلها مهجورة.

افتقر فاندنبرغ إلى ثلاث ميزات أساسية: المال، والسلطة، والجهاز البشري. فمجموعة الاستخبارات المركزية، بحسب حكم لورنس هوستون، المحامي العام للاستخبارات المركزية من ١٩٤٦ إلى ١٩٧٢، تقف خارج القانون. وليس في إمكان الرئيس، قانوناً، إنشاء وكالة فديرالية، من لاشيء. ولا يمكن الاستخبارات المركزية صرف الأموال بطريقة مشروعة من دون موافقة الكونغرس. وغياب المال يعني غياب السلطة.

شرع فاندنبرغ في العمل، فعادت الولايات المتحدة إلى عمل الاستخبارات. أنشأ المكتب الجديد للعمليات الخاصة للقيام بعمليات تجسس وتخريب في ما وراء البحار، وجادل مع حفنة من رجالات الكونغرس للحصول، من تحت الطاولة، على ١٥ مليون دولار للقيام بتلك المهمات. أراد معرفة كل شيء عن القوات السوفياتية في شرق أوروبا ووسطها ـ تحركاتها، قدراتها، نياتها ـ، وأمر ريتشارد هيلمس بتنفيذ ذلك بسرعة كبيرة. وقال هيلمس، المسؤول عن التجسس في ألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، مع وجود ٢٢٨ موظفاً على جداوله، تحت إمرته، في ما وراء البحار، إنه شعر بأنه أشبه بلاعب الخفة المتلمذ،[٢١] محاولاً إبقاء كرة شاطئ منفوخة، وزجاجة حليب مفتوحة، وبندقية آلية في الهواء». وفي كل أنحاء أوروبا، «أخذ فيلق من المنفيين السياسيين، وضباط الاستخبارات السابقين، والعملاء السابقين، والمتعهدين المختلفين، في تحويل أنفسهم إلى أشخاص مهمين في عالم الاستخبارات، يسمسرون لبيع المعلومات المفبركة على الطلب». وكلما زاد جواسيسه في الصرف على شراء المعلومات، كلما أصبحت هذه المعلومات أقل قيمة. وكتب أنه «لا يخطر في البال أي تصور آخر، إذا وُجد، لعملية رمي المال في مشكلة[٢٢] لم يتم التفكير فيها بعناية». وما تم تمريره على أنه معلومات استخبارية عن السوفيات ومن يدورون في فلكهم، لم يكن سوى تلفيقات مخادعة أنتجها كذبة ماهرون.

حدد هيلمس لاحقاً أن نصف المعلومات على الأقل حول الاتحاد السوفياتي وشرق أوروبا، في ملفات «السي.آي.أيه.» كانت كذباً محضاً. فقد أصبحت محطتاه في برلين وفيينا، فبركتين للمعلومات الاستخبارية المضلِّلة. وكان في وسع قلة من ضباطه أو محلليه، تمحيص الواقع من الخيال. وأحدث ذلك مشكلة مزمنة مستمرة: بعد أكثر من نصف قرن على ذلك، واجهت «السي. آي. أيه.» النوع ذاته من الفبركة بينما هي تسعى إلى الكشف عن أسلحة الدمار الشامل العراقية.

منذ اليوم الأول الذي تسلّم فيه فاندنبرغ المسؤولية، اهتز للتقارير المرعبة

مما وراء البحار. فنشراته اليومية ولّدت حرارة والقليل من الضوء. استحال تحديد ما إذا كانت التحذيرات حقيقية، لكنها، بغض النظر عن ذلك، سلكت طريقها عبر سلسلة الرتب. برقية عاجلة: تبجّح ضابط سوفياتي مخمور بأن روسيا ستضرب بدون سابق إنذار. برقية عاجلة: شرب قائد القوات السوفياتية في البلقان نخب السقوط المقبل لاسطنبول. برقية عاجلة: ستالين مستعد لاجتياح تركيا، وتطويق البحر الأسود، والاستيلاء على المتوسّط والشرق الأوسط. وحدد البنتاغون أن الطريقة الفضلى لكسر حدّة التقدم السوفياتي هي في قطع خطوط إمداد الجيش الأحمر في رومانيا. وشرع كبار الموظفين تحت إمرة رؤساء الأركان المشتركة في وضع مخططات المعركة.

طلبوا من فاندنبرغ التحضير لأول عملية خفية في الحرب الباردة. وفي محاولة لتنفيذ هذا الأمر، غيّر فاندنبرغ مهمة مجموعة الاستخبارات المركزية. وأرسل، في ١٧ تموز/يوليو، اثنين من مساعديه لمقابلة كلارك كليفورد، محامي البيت الأبيض في عهد ترومان. وحاججا بوجود «حاجة إلى تغيير المفهوم الأصلي لمجموعة الاستخبارات المركزية»، لتحويلها «إلى وكالة عاملة»[٢٣]. وهي قد أصبحت واحدة، بدون سلطة شرعية. وفي ذلك اليوم ذاته، طلب فاندنبرغ شخصياً من وزير الحرب روبرت باترسون، ووزير الخارجية جيمس بيرنز، أن يحولا له عشرة ملايين دولار من المخصصات السرّية، لتمويل عمل «عملاء الاستخبارات في كل أنحاء العالم»[٢٤]. وقد قاما بذلك.

خطط مكتب فاندنبرغ للعمليات الخاصة، لإنشاء قوّة مقاومة سرّية في رومانيا. كان فرانك ويسنر قد خلّف وراءه شبكة في بوخارست من العملاء اليائسين للعمل مع الأميركيين، لكن الاستخبارات السوفياتية تخترقهم في العمق. وجد تشارلز و. هوستلر، وهو أول رئيس محطة في بوخارست لمكتب العمليات الخاصة، نفسه محاطاً «بالتآمر، والدسائس، والقذارات[٢٥]، والخداع، والغش، والقتل والاغتيال العرضي»، بين الفاشيين، والشيوعين، والملكيين، والصناعيين، والفوضويين، والمعتدلين، والمثقفين، والمثاليين: «بيئة اجتماعية وسياسية كان الضباط الأميركيون الشبان مُعدّين لها بشكل سيئ».

أمر فاندنبرغ الملازمَ إيرا س. هاميلتون والرائد توماس ر. هول، المتمركزين في البعثة العسكرية الأميركية الصغيرة جداً في بوخارست، بتنظيم حزب الفلاحين الوطني الروماني ضمن قوة مقاومة. وكان الرائد هول، الذي عمل ضابطاً في «الأو.أس.أس.» في البلقان، يتحدّث بعض الرومانية، بينما لم يكن الملازم هاميلتون يتحدّثها إطلاقاً. كان دليله العميل المهم الذي جنّده ويسنر قبل عامين: تيودور ماناكاتيد، الذي كان رقيباً في أركان الاستخبارات في الجيش الروماني، وهو يعمل الآن لمصلحة البعثة العسكرية الأميركية، مترجماً في النهار وجاسوساً في الليل. أخذ ماناكاتيد كلاً من هاميلتون وهول للقاء زعماء حزب الفلاحين الوطني. عرض الأميركيان الدعم السرّي من الولايات المتحدة: أسلحة، ومالاً، ومعلومات استخبارية. وفي ٥ تشرين الأول/أكتوبر، وبالعمل مع محطة الاستخبارات المركزية الجديدة في فيينا المحتلّة، هرّب الأميركيون وزير خارجية رومانيا السابق وخمسة آخرين، ما سيصبح نواة جيش التحرير إلى النمسا، وقد خدّروهم، ووضعوهم في أكياس بريد، وطاروا بهم إلى برّ الأمان.

استغرقت الاستخبارات السوفياتية والبوليس السرّي الروماني بضعة أسابيع فقط لاكتشاف الجواسيس. فرّ الأميركيان وكبير عملائهما طلباً للنجاة بعدما سحقت قوات الأمن الشيوعية المقاومة الرومانية الرئيسية. اتُّهم زعماء حزب الفلاحين بالخيانة وسُجنوا. وحُكم على ماناكاتيد، وهاميلتون، وهول، غيابياً في محاكمة علنية بعدما أقسم شهود اليمين إنهم قدّموا أنفسهم بوصفهم عملاء لجهاز الاستخبارات الأميركية الجديد.

تصفّح فرانك ويسنر «النيويورك تايمز»، في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦، وقرأ مقالة قصيرة في الصفحة العاشرة تفيد أن عميله القديم ماناكاتيد، «الذي سبق للبعثة العسكرية الأميركية أن استخدمته»، قد حُكم عليه بالسجن مدى الحياة، «على أساس مرافقته الملازم هاميلتون، من البعثة العسكرية الأميركية، إلى مؤتمر للفلاحين الوطنيين». وفي نهاية الشتاء، كان كل روماني، تقريباً، سبق أن عمل لويسنر خلال الحرب، قد سُجن أو قُتل. وقد انتحر

سكريتيره الخاص. سيطرت ديكتاتورية غاشمة على رومانيا، وقد سرّع صعودها إلى السلطة فشل العمل الأميركي الخفي.

ترك ويسنر مؤسسة المحاماة ومضى إلى واشنطن، ضامناً مركزاً في وزارة الخارجية، حيث أشرف على المناطق المحتلة من برلين، وفيينا، وطوكيو، وسيول، وترياست. امتلك طموحات أكبر. كان مقتنعاً بأنه على الولايات المتحدة أن تتعلم القتال بطريقة جديدة، بالسرية ذاتها، والمهارات عينها التي لعدوها.

٣

«محاربة النار بالنار»

كانت واشنطن مدينة صغيرة يديرها أناس يعتقدون أنهم في مركز الكون. وشكّلت جورجتاون مدينتهم التي في قلب المدينة، وهي كناية عن ضاحية تبلغ مساحتها ميلاً مربعاً، مؤلفة من شوارع معبّدة بالحجارة وتعجّ بأشجار المكنوليا. وينتصب في وسطها، في شارع ٣٣٢٧ ب، منزل جميل من أربع طبقات شُيّد في ١٨٢٠، وفي خلفيته حديقة إنكليزية، ويحتوي على غرفة طعام رسمية ذات نوافذ مرتفعة. جعل منه فرانك وبولي ويسنر منزلهما. وأصبح، في أمسيات أيام الآحاد في ١٩٤٧، مقراً طارئاً لمؤسسة الأمن القومي الأميركي. وأخذت سياسة الولايات المتحدة الخارجية شكلها على طاولة آل ويسنر.

تم التأسيس لتقليد في جورجتاون، هو عشاء ليل الأحد بما تيسّر من الطعام. الطبق الرئيسي فيه هو الشراب، حيث إن جميع الموجودين قد أبحروا خارجين من الحرب العالمية الثانية على مدّ من الكحول. واعتبر الابن الأكبر لآل ويسنر، وهو يحمل أيضاً اسم فرانك، وارتقى مع الوقت إلى أرفع المناصب الدبلوماسية الأميركية، مآدب عشاء ليالي الآحاد، «أحداثاً مهمة على نحو استثنائي»[١]. فهي ليست مجرّد شؤون اجتماعية تافهة، بل أضحت حيويّة جداً لطريقة تفكير الحكومة، وقتالها، وعملها، ومقارنتها الملاحظات، وتصميم رأيها، وبلوغها الإجماع». بعد العشاء، وبحسب التقليد البريطاني، تنسحب النساء، ويبقى الرجال، ويتواصل تبادل الأفكار الجريئة والمزاح وتعليقات ساخرة بسبب السُّكر، حتى ساعة متأخرة من الليل. قد يكون في أي أمسية من الأمسيات من بين الضيوف، صديق ويسنر المقرّب ديفيد بروس، وهو أحد

قدامى «الأو.أس.أس.»، المتجه إلى أن يصبح السفير الأميركي في باريس؛ وتشيب بوهلن، مستشار وزير الخارجية والسفير المستقبلي في موسكو؛ ونائب وزير الخارجية روبرت لوفيت؛ ووزير الخارجية المستقبلي دين أتشيسون؛ والخبير البارز الجديد في شؤون الكرملين جورج كينّان. اعتقد هؤلاء الرجال أنه في مقدورهم تغيير مسار الأحداث الإنسانية، وتركّز نقاشهم الكبير على كيفية وقف استيلاء السوفيات على أوروبا. فستالين أخذ يُثبّت سيطرته على البلقان. ورجال العصابات اليساريون يحاربون النظام الملكي اليميني في جبال اليونان. واندلعت أعمال الشغب المتعلّقة بالغذاء في إيطاليا وفرنسا، حيث دعا السياسيون الشيوعيون إلى إضرابات عامة. وأخذ الجنود البريطانيون والجواسيس ينسحبون من مراكزهم في جميع أنحاء العالم، تاركين مساحات واسعة من خريطة نفوذهم مشرّعة أمام الشيوعيين. وأخذت الشمس تغيب عن الامبراطورية البريطانية، ولم يعد في مقدور وزارة المال تحمل نفقاتها. وسيصبح على الولايات المتحدة أن تقوم، وحدها، بقيادة العالم الحرّ.

أصغى ويسنر وضيوفه بانتباه إلى كينّان. فقد استوعبوا «تلغرامه الطويل» من موسكو، وشاركوه في نظرته إلى التهديد السوفياتي. وكذلك فعل وزير البحرية جيمس فوريستال، الذي سرعان ما سيصبح أول وزير للدفاع، وهو فتى «وول ستريت» الفذّ، الذي رأى في الشيوعية إيماناً متعصّباً تجب محاربته بإيمان أكثر رسوخاً حتى. وقد أصبح فوريستال الراعي السياسي لكينّان، ونصّبه في جناح جنرال في معهد الحرب الوطني، جاعلاً من مؤلّفه قراءة مفروضة على آلاف الضباط العسكريين. وتطارح مدير الاستخبارات المركزيّة، فاندنبرغ، الأفكار الخلاقة مع كينّان حول كيفية التجسس على عمل موسكو في مجال الأسلحة الذرّية. وحدّد وزير الخارجية الجديد، وقائد الجيش الأميركي في الحرب العالمية الثانية، جورج س. مارشال، أن البلاد تحتاج إلى إعادة صياغة سياستها الخارجية، وأوكل في الربيع إلى كينّان مسؤولية فريق التخطيط للسياسة الجديدة في وزارة الخارجية.

أخذ كينّان يضع خطة المعركة لما أُطلق عليه حديثاً اسم الحرب الباردة.

وقد أدّت أفكار هذا الدبلوماسي المغمور[٢] في سياق ستة أشهر فقط، إلى نشوء ثلاث قوى صاغت العالم: «مبدأ ترومان»، وهو تحذير سياسي لموسكو لإيقاف تدخلها في شؤون الدول الخارجية؛ «مشروع مارشال»، وهو ركن عالمي متقدّم للنفوذ الأميركي في مواجهة الشيوعية؛ والجهاز الخفي لوكالة الاستخبارات المركزية.

جهاز الاستخبارات الأعظم في العالم

سبق للسفير البريطاني أن حذّر، في شباط/فبراير ١٩٤٧، وزيرَ الخارجية بالوكالة دين أتشيسون، من أنه على المساعدة البريطانية العسكرية والاقتصادية لليونان وتركيا، أن تتوقف في غضون ستة أسابيع. وسيحتاج اليونانيون إلى ما يقارب المليار دولار، على امتداد الأعوام الأربعة المقبلة، لمحاربة خطر الشيوعية. ومن موسكو، أرسل والتر بيدل سميث تقويمه بأن القوات البريطانية هي القوة الوحيدة التي تمنع اليونان من السقوط في الفلك السوفياتي.

أخذ الخوف من الشيوعيين الحمر يزداد في الديار (الولايات المتحدة). وها إن الجمهوريين، للمرة الأولى منذ ما قبل الانهيار الكبير، يسيطرون على مجلسي الكونغرس، مع ازدياد سلطة سياسيين من أمثال السيناتور جون ماكارثي المنتخب عن ويسكنسون، وعضو الكونغرس ريتشارد نيكسون عن كاليفورنيا. أخذت شعبية ترومان في الانهيار، وقد تراجع معدّل تأييده في استطلاعات الرأي خمسين نقطة منذ انتهاء الحرب. وهو قد غيّر رأيه في شأن ستالين والسوفيات، وأصبح مقتنعاً الآن بأنهم «شرّ» في العالم الخارجي.

استدعى ترومان وأتشيسون، السيناتور أرثور فاندنبرغ، الرئيس الجمهوري للجنة العلاقات الخارجية (لاحظت صحف ذلك اليوم أن ابن شقيق السيناتور، هويت، سيُعزَل قريباً من منصبه كمدير للاستخبارات المركزية، بعد ثمانية أشهر فقط في السلطة). شرح أتشيسون أن إقامة رأس جسر شيوعي في اليونان سيشكّل تهديداً لكل أوروبا الغربية، وسيتعيّن على الولايات المتحدة أن تجد طريقة لإنقاذ العالم الحر، وسيفترض بالكونغرس أن يدفع الفاتورة. تنحنح

السيناتور فاندنبرغ، واستدار صوب ترومان. وقال «سيدي الرئيس[٣]، الطريقة الوحيدة التي ستمكنك من الحصول على هذا، هي في إلقاء خطاب تثير فيه هول البلاد».

ألقى ترومان في ١٢ آذار/مارس ١٩٤٧، ذلك الخطاب، محذّراً في جلسة مشتركة للكونغرس، من أن العالم سيواجه الكارثة ما لم تحارب الولايات المتحدة الشيوعية في الخارج. وقال الرئيس إنه يجب إرسال مئات الملايين من الدولارات لدعم اليونان التي تتهددها الآن ما وصفها بـ «النشاطات الإرهابية» لبضعة آلاف من الرجال المسلحين. وبدون المساعدة الأميركية، «قد تعمّ الفوضى كافة أنحاء الشرق الأوسط، وسيزداد اليأس عمقاً في دول أوروبا، وربما خيّم الظلام على العالم الحرّ». وكان فعل إيمانه شيئاً جديداً: «أعتقد أن على سياسة الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب الحرّة التي تقاوم محاولات الإخضاع التي تتعرّض لها من جانب الأقليات المسلحة، أو من جانب الضغوط الخارجية». وإن أي هجوم يشنه عدو لأميركا في أي دولة من دول العالم، يشكل هجوماً على الولايات المتحدة. شكّل هذا مبدأ ترومان. ونهض الكونغرس للهتاف وقوفاً.

أخذت ملايين الدولارات تنهمر على اليونان، إلى جانب السفن الحربية، والسلاح، والذخيرة، وقنابل النابالم، والجواسيس. وسرعان ما أصبحت أثينا واحداً من أكبر مراكز التجسس الأميركية في العالم. شكّل قرار ترومان محاربة الشيوعية في ما وراء البحار، أول توجيه واضح يتلقاه الجواسيس الأميركيون من البيت الأبيض. لكنهم ما زالوا يفتقرون إلى قائد قوي. أخذ الجنرال فاندنبرغ يعدّ الأيام التي تفصله عن تولّي قيادة سلاح الجو الجديد، إلا أنه قدّم شهادة سرّية إلى حفنة من أعضاء الكونغرس في أيامه الأخيرة كمدير للاستخبارات المركزية، قائلاً إن الدولة تواجه تهديدات خارجية كما لم يسبق لها أن واجهت من قبل. «المحيطات تقلّصت[٤]، وها إن أوروبا وآسيا تحدّان اليوم الولايات المتحدة تقريباً على غرار كندا والمكسيك»، وقد قال ذلك لمرات عدة متتالية، وفي أكثر من سياق. وردّدها، على نحو مهول، الرئيس بوش بعد ١١/٩.

قال فاندنبرغ إنه، في الحرب العالمية الثانية، «علينا الاعتماد بطريقة عمياء وواثقة على المنظومة الاستخباراتية البريطانية الأكثر تفوّقاً»، لكن «ليس على الولايات المتحدة أبداً أن تذهب متذللة، متوسّلة أي حكومة خارجية من أجل الأعين ـ الاستخبارات الخارجية ـ التي ترى بها». بيد أن «السي.آي.أيه.» ستعتمد دوماً على أجهزة الاستخبارات الخارجية من أجل إدراك الأراضي واللغات التي لا تفهمها. وانتهى فاندنبرغ بالقول إن الأمر سيستغرق خمس سنين أخرى لإنشاء كادر محترف من الجواسيس الأميركيين. هذا التحذير كرّره حرفيّاً في ١٩٩٧، بعد نصف قرن، مدير الاستخبارات المركزية جورج تينيت، وكرّره تينيت مرة أخرى لدى استقالته في ٢٠٠٤. فجهاز تجسس عظيم، يوجد دوماً على مسافة خمس سنين فوق الأفق.

خلف الأميرال روسكو هيللنكوتر، وهو الرجل الثالث الذي تولّى المنصب في ١٥ شهراً، فاندنبرغ، وأقسم اليمين في أول أيار/مايو ١٩٤٧. كان هيللي (هيللنكوتر)، كما يدعوه الجميع، لا يصلح للدور. فهو يطفح بالتفاهة. ولم يرد أبداً، على غرار أسلافه، أن يصبح مديراً للاستخبارات المركزية، «وربما يجب ألا يصبح ذلك أبداً»[٥]، على ما يقوله تأريخ لـ «السي.آي.أيه.» عن تلك الحقبة.

عقدت لجنة من الكونغرس، في ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٤٧، جلسات استماع سرّية أدت إلى إنشاء «السي.آي.أيه.» في نهاية الصيف. وللأمر مغزاه الكبير في أنه تم اختيار ألن دالاس ـ المحامي في مكتب خاص للمحاماة ـ، وليس هيللنكوتر، للقيام بحلقة دراسية سرّية لقلة من الأعضاء المُنتقين من الكونغرس.

امتلك ألن دالاس إحساس «الجنود المسيحيين المقدامين» للواجب الوطني. وُلد في ١٨٩٣، في واحدة من أرقى عائلات ووترتاون، نيويورك. كان والده قس الكنيسة المشيخية في المدينة، وتولّى كل من جدّه وعمه منصب وزير الخارجية. كما كان رئيس جامعته، برينستون، وودورد ويلسون، الذي سيصبح لاحقاً رئيساً للولايات المتحدة. عمل دالاس دبلوماسياً مبتدئاً بعد الحرب العالمية الأولى، ومحامياً لامعاً في خلال الانهيار الاقتصادي. وبفضل شهرته،

التي تمت رعايتها بعناية، كجاسوس أميركي، وبنائها بوصفه رئيس «الأو.أس.أس.» في سويسرا، رأت فيه الزعامة الجمهورية مديراً للاستخبارات المركزية في المنفى، بالطريقة التي نُظر فيها إلى شقيقه جون فوستر دالاس، المتحدث الرئيسي في الحزب حول السياسة الخارجية، بصفته وزير خارجية الظل. كان ألن دمثاً ولبقاً للغاية، بعينيه اللماعتين، وضحكته المسترسلة، وما يمكن وصفه بانحرافه العفريتي. إلا أنه كان أيضاً رجلاً مخادعاً، وعاهراً مزمناً، وطموحاً بدون رحمة. لا يتورّع عن تضليل الكونغرس، أو زملائه، أو حتى قائده الأعلى.

أحاط حرّاس مسلحون بالغرفة ١٥٠١ في مبنى لونغوورث للمكاتب(٦). أقسم كل من في الداخل على الحفاظ على السرّ. أخذ ألن دالاس، ينفث دخان غليونه، وهو أشبه بأستاذ يدرّب صِبْيته المشاغبين، وقام بوصف «السي.آي.أيه.» التي «ستديرها جماعة صغيرة نسبية، لكن نخبوية، من الرجال الذين يعشقون السرّية». ومن المطلوب من مديرها أن يكون «جبلة حصيفة من أعلى مستوى»، إضافة إلى «خبرة طويلة ومعرفة عميقة». وسيقوم مساعدوه الكبار، إذا كانوا من العسكريين، «بالتجرّد من رتبهم كجنود، وبحارين، أو رجال جو. وإذا تطلّب الأمر ذلك، أن يتلبسوا ثياب جهاز الاستخبارات».

قال دالاس إن الأميركيين يمتلكون «المادة الخام لبناء أعظم جهاز استخبارات في العالم». و«ليس على عدد أعضاء الجهاز أن يكون كبيراً جداً»، فبضع مئات من الرجال الجيدين ستفي بالغرض. وأعاد طمأنة الكونغرس إلى أن «عمل الجهاز لا يجب ان يكون مزخرفاً ولا مُغلّفاً على نحو مبالغ فيه بالغموض وبالكلمات السحرية التي يهوى المحقق الهاوي التظاهر بها. كل ما هو مطلوب للنجاح، ليس إلا العمل الدؤوب، والتقدير المتميّز، والحس العام».

لم يفصح أبداً عما يريده حقيقة: إعادة إحياء عمليات «الأو.أس.أس.» السرية لزمن الحرب.

أصبح إنشاء جهاز أميركي خفي جديد، في متناول اليد. فقد كشف الرئيس ترومان الستار عن الهندسة الجديدة للحرب الباردة بتوقيعه قانون الأمن القومي

للعام ١٩٤٧ في ٢٦ تموز/يوليو. أنشأ القانون سلاح الجو بوصفه جهازاً منفصلاً، بقيادة الجنرال فاندنبرغ، ومجلساً جديداً للأمن القومي ليصبح مقسّم البيت الأبيض للقرارات الرئاسية. أنشأ القانون أيضاً مكتب وزارة الدفاع؛ وصدر الأمر لأول محتلّيه، جيمس فوريستال، لتوحيد الجيش الأميركي (كتب فوريستال، بعد ذلك بأيام قليلة، أن «هذا المكتب سيصبح، ربما، أعظم مقبرة للقطط النافقة في التاريخ»(٧)). أعطى القانون، في ستة مقاطع قصيرة وموجزة، الحياة لوكالة الاستخبارات المركزية في ١٨ أيلول/سبتمبر.

وُلدت «السي.آي.أيه.»، وهي مصابة بعاهات مُقعِدة. واجهت، منذ البداية، مناوئين شرسين لا يستكينون داخل البنتاغون ووزارة الخارجية: الوكالتين اللتين يُفترض بها تنسيق تقاريرهما. لم تكن الوكالة تشرف عليهما، كانت ربيبتهما. أسيء تحديد سلطاتها، ولن يصلها لا الميثاق الرسمي ولا التمويل المناسب من الكونغرس، لنحو سنتين إضافيتين أخريين. ولن يبقى مقر «السي.آي.أيه.» حتى ذلك الوقت إلا بفضل تمويل ضروري لاستمرارها، حافظ عليه أعضاء قليلون في الكونغرس.

لطالما تعارضت سرّيتها مع انفتاح الديموقراطية الأميركية. «كانت لي أخطر التشاؤمات(٨) في شأن هذه المنظمة»، كتب دين أتشيسون، الذي سرعان ما سيصبح وزيراً للخارجية، و«حذّرت الرئيس من أنه من حيث تكوينها، فإنه لا هو، ولا مجلس الأمن القومي، ولا أي أحد آخر، سيكون (أي منهم) في موقع معرفة ما تقوم به، أو السيطرة عليها».

لم يرد في قانون الأمن القومي أي شيء عن عمليات سرّية في ما وراء البحار. فقد أعطى التوجيهات لـ «السي.آي.أيه.» بإجراء تطابق للمعلومات الاستخبارية، وتقييمها، وتوزيعها، وأن «تقوم بوظائف وبمهمات ذات علاقة بالأمور الاستخبارية التي تؤثّر في الأمن القومي». وتضمّنت الكلمات الإحدى عشرة، تلك السلطات التي احتفظ بها الجنرال ماغرودر في محاولاته الخادعة من حول الرئيس قبل ذلك بسنتين. ومع الوقت، ستُساق مئات العمليات الخفية الرئيسية ـ ٨١ منها خلال ولاية ترومان الثانية(٩) ـ من خلال هذه الثغرة.

تطلّب القيام بالعمل السري السلطة المباشرة أو الضمنية لمجلس الأمن القومي، الذي اشتمل في تلك الأيام على الرئيس ترومان، ووزير الدفاع، ووزير الخارجية، وقيادة أركان الجيش. لكنه كان هيئة صُوَرية. فهو قلما اجتمع، وعندما قام بذلك، فإن ترومان قلما كان موجوداً إلى الطاولة.

حضر ترومان الاجتماع الأول في ٢٦ أيلول/سبتمبر، وكذلك حضر روسكو هيللنكوتر الحذِر كثيراً. وكان محامي «السي.آي.أيه.» لورانس هوستون(١٠)، قد حذّر المدير من الدعوات المتزايدة إلى القيام بأعمال خفية. وقال إن الوكالة تفتقر إلى السلطة القانونية للقيام بها بدون الموافقة الواضحة من الكونغرس. وسعى هيلّلي إلى تحديد مهمات «السي.آي.أيه.» في ما وراء البحار، بجمع المعلومات الاستخبارية، لكنه فشل في ذلك. وقد تم اتخاذ قرارات بالغة الأهمية سرّاً، وغالباً ما تم ذلك في خلال إفطارات أيام الأربعاء في منزل وزير الدفاع، فوريستال.

أرسل كينّان في ٢٧ أيلول/سبتمبر، إلى فوريستال ورقة تدعو إلى إنشاء «فيلق حرب العصابات»(١١). اعتقد أنه برغم أن الشعب الأميركي قد لا يوافق أبداً على مثل هذه الوسائل، «فسيكون من الضروري لأمننا محاربة النار بالنار». وقد وافق فوريستال بحماسة. وقاما معاً بإطلاق الجهاز الأميركي السري.

تدشين الأعمال الحربية السياسية المنظّمة

استدعى فوريستال هيللنكوتر إلى البنتاغون لمناقشة «الاعتقاد الراهن السائد بأن مجموعتنا الاستخبارية تفتقر كلّياً إلى الكفاءة». كانت لديه أسبابه الوجيهة. فعدم التكافؤ بين قدرات «السي.آي.أيه.» والمهمات المطلوب منها القيام بها، كان مهولاً.

كان القائد الجديد لمكتب العمليات الخاصة في «السي.آي.أيه.» العقيد دونالد («الاتجاه الخاطئ») غالّواي، شخصاً متمسّكاً بحفظ النظام، مختالاً

بنفسه، وقد بلغ ذروة موهبته بوصفه ضابطاً فارساً في وست بوين، يدرّب تلامذة الضباط على قواعد حسن السلوك والفروسية. واستقال نائبه، ستيفن بنروز، الذي قاد قسم الشرق الأوسط في «الأو.أس.أس.»، نتيجة إحباطه. وفي مذكّرة مريرة[١٢] إلى فوريستال، حذّر بنروز من أن «السي.آي.أيه.» «تفقد محترفيها، ولا تستحصل على عناصر جديدة كفوءة»، في هذا الوقت بالذات الذي «تحتاج فيه الحكومة إلى جهاز استخبارات فعّال، متوسّع، ومحترف».

أصدر مجلس الأمن القومي، برغم ذلك، في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، أول أوامره السرّية للغاية إلى «السي.آي.أيه.». كان على الوكالة تنفيذ «عمليات نفسية خفية[١٣] مصمّمة لمواجهة السوفيات والنشاطات الموحى بها منهم». وعلى وقع طبول الحرب هذه، تهيأت «السي.آي.أيه.» لهزيمة الشيوعيين الحمر في الانتخابات الإيطالية المقررة في نيسان/أبريل ١٩٤٨.

أبلغت «السي.آي.أيه.» البيت الأبيض أن إيطاليا قد تصبح دولة بوليسية توتاليتارية. وفي حال فاز الشيوعيون في صناديق الاقتراع، فسيستولون «على المقر الأقدم للثقافة الغربية[١٤]. وسيصاب، بنوع خاص، الكاثوليك المتدينون في كل مكان بالقلق الشديد في ما يتعلّق بسلامة الكرسي الرسولي». فاحتمال وجود حكومة ملحدة تحيط بالبابا وتضعه تحت تهديد السلاح، أكثر روعاً من أن يتم الرجاء منه. واعتقد كينّان أن حرباً بالنار ستكون أفضل من ترك الشيوعيين يأخذون السلطة قانونياً، عبر صناديق الاقتراع، إلا أن العمل الخفي المصمم على طريقة التقنيات التخريبية الشيوعية شكّل ثاني أفضل خيار.

استذكر عضو «السي.آي.أيه.» مارك ويات، الذي «برى» أسنانه في هذه العملية، أنها بدأت قبل أسابيع من سماح مجلس الأمن القومي رسمياً بها. أما الكونغرس، فلم يعط، بالطبع، موافقته أبداً. كانت العملية غير قانونية منذ البداية. وقال ويات، لسبب وجيه، «أُصبنا في «السي.آي.أيه.»، في مقر القيادة، بالرعب المطلق، فقد كنا خائفين حتى الموت»[١٥].

ستتطلب المساعدة على هزيمة الشيوعيين، الكثير من الأموال النقدية. وأفضل تخمين لرئيس محطة «السي.آي.أيه.» في روما، جيمس ج. أنغلتون، كان عشرة ملايين دولار. وأنغلتون، الذي ترعرع جزئياً في إيطاليا، خدم هناك مع «الأو.أس.أس.»، وبقي فيها. وأبلغ مقر القيادة أن عمق خرقه جهاز الاستخبارات الإيطالي بلغ حداً يمكّنه من القول إنه يديره عملياً. وهو سيستخدم عناصره كفرقة نقل لتوزيع النقود. لكن من أين سيأتي المال؟ فـ «السي.آي.أيه.» كانت لا تزال تفتقر إلى موازنة، ولم تملك أموال طوارئ للعمليات الخفية.

التمس جيمس فوريستال وصديقه العزيز ألن دالاس مساعدة أصدقائهما وزملائهما في «وول ستريت» وواشنطن ـ رجال أعمال، مصرفيين، وسياسيين ـ، إلا أن ذلك لم يكف أبداً. وذهب فوريستال عند ذاك إلى صديق قديم، هو جون و. شنايدر، وزير الخزانة وأحد أقرب الحلفاء إلى هاري ترومان. أقنع شنايدر بأن يغرف من صندوق استقرار الصرف الذي أُنشئ إبان الانهيار الاقتصادي لدعم قيمة الدولار في ما وراء البحار، من خلال التجارة القصيرة الأمد بالعملة، وقد تم تحويله في خلال الحرب العالمية الثانية إلى مستودع لما تمت مصادرته من منهوبات دول المحور. احتوى الصندوق على ٢٠٠ مليون دولار مخصصة لإعادة بناء أوروبا. وقد تم تحويل الملايين إلى الحسابات المصرفية لمواطنين أميركيين أغنياء، كثيرون منهم من الإيطاليين الأميركيين، الذين أرسلوا المال إلى الجبهات السياسية التي خلقتها «السي.آي.أيه.» حديثاً. وقد أعطيت التعليمات للمتبرعين، لوضع رمز خاص إلى جانب «هباتهم الخيرية» في الإضبارات التي يرفعونها إلى ضريبة الدخل. سُلّمت الملايين إلى سياسيين إيطاليين وإلى كهنة في الحركة الكاثوليكية، وهي الذراع السياسية للفاتيكان. وانتقلت حقائب ملأى بالأموال النقدية من يد إلى يد في فندق هاسلر ذي الأربع نجوم. «لكنّا أحببنا القيام بذلك بطريقة أكثر حنكة»، قال ويات. «فتمرير الأكياس للتأثير في انتخاب سياسي، ليس بالأمر الجذّاب كثيراً». لكنه أعطى مفعوله: فاز الديموقراطيون المسيحيون في إيطاليا بهامش مريح، وشكلوا حكومة استبعدوا منها الشيوعيين. وبدأت قصة حب طويلة الأمد بين الحزب والوكالة

الاستخبارية الأميركية. وتكررت ممارسة «السي.آي.أيه.» في شراء الانتخابات والسياسيين في إيطاليا ـ وفي دول كثيرة أخرى ـ على امتداد السنين الخمس والعشرين التالية.

لكن الشيوعيين سجلوا، في الأسابيع التي سبقت الانتخابات، انتصاراً آخر. استولوا على تشيكوسلوفاكيا، شارعين في سلسلة من التوقيفات والإعدامات التي استمرت لما يقارب خمس سنين. وعمل رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في براغ[١٦]، تشارلز كاتيك، على نقل نحو ثلاثين تشيكياً ـ عملائه وعائلاتهم ـ عبر الحدود إلى ميونيخ. وكان الأهم من بينهم هو رئيس الاستخبارات التشيكية. فقد تدبّر كاتيك تهريبه من البلاد، محشوراً بين مبرّد الحرارة والحاجز الحديدي لإحدى السيارات الرياضية.

وردت في ٥ آذار/مارس ١٩٤٨، وبينما الأزمة التشيكية تنفجر، برقية مرعبة إلى واشنطن من الجنرال لوسيوس د. كلاي، قائد قوات الاحتلال الأميركية في برلين. قال الجنرال إن لديه إحساساً داخلياً بأن الهجوم السوفياتي قد يحصل في أي لحظة. سرّب البنتاغون البرقية، وغرقت واشنطن في الخوف. وبرغم أن قاعدة «السي.آي.أيه.» في برلين بعثت بتقرير يعيد طمأنة الرئيس إلى عدم وجود أي إشارة إلى أي هجوم وشيك، فإن أحداً لم يستمع. ظهر ترومان، في اليوم التالي، أمام جلسة مشتركة للكونغرس، محذّراً من أن الاتحاد السوفياتي وعملاءه يهدّدون بإحداث زلزال. وطالب ـ وفاز على الفور ـ بالموافقة على عملية عظمى، أصبحت تعرف باسم مشروع مارشال[١٧].

عرض المشروع مليارات الدولارات على العالم الحر لإصلاح الضرر الذي سببته الحرب، ولإنشاء سد اقتصادي وسياسي أميركي في وجه السوفيات. وستعمل الولايات المتحدة في ١٩ عاصمة ـ ١٦ في أوروبا وثلاث في آسيا ـ على المساعدة على إعادة بناء الحضارة بحسب التصميم الأميركي. وكان جورج كينّان وجيمس فوريستال من بين الواضعين الأساسيين للمشروع. أما ألن دالاس فعمل كمستشار.

ساهموا في استنباط ملحق تفسيري وفّر لـ «السي.آي.أيه.» القدرة على شن حرب سياسية، وسمح للوكالة باقتطاع ملايين لا تحصى من الدولارات من المشروع.

كانت الآليات بسيطة على نحو مثير للدهشة. فبعدما وافق الكونغرس على مشروع مارشال، وضع يده على نحو ١٣,٧ مليار دولار على امتداد خمس سنين. وكان على الدولة التي تحصل على مساعدة من المشروع، أن تضع جانباً مبلغاً مماثلاً بعملتها الخاصة. وتم توفير خمسة في المئة من هذه المبالغ ـ ٦٨٥ مليون دولار بالتمام والكمال ـ لـ «السي.آي.أيه.» من خلال مكاتب المشروع في ما وراء البحار.

إنه مخطط عالمي لتبييض الأموال بقي سرّياً حتى ما بعد وقت طويل على انتهاء الحرب الباردة. وحيثما ازدهر المشروع في أوروبا وفي آسيا، ازدهر معه أيضاً الجواسيس الأميركيون. «كنّا نغض الطرف، ونوفّر لهم بعض المساعدة»، قال العقيد ر. ألن غريفين، الذي أدار قسم الشرق الأقصى في مشروع مارشال. «طلبنا منهم أن يمدّوا أيديهم إلى جيوبنا»[١٨].

شكّل التمويل السرّي قلب العملية السرّية. وأصبح لـ «السي.آي.أيه.» الآن مصدر لا ينضب من الأموال النقدية التي لا يمكن تقفي أثرها.

تكشف ورقة سرّية للغاية، أُرسلت في ٤ أيار/مايو ١٩٤٨، ربما إلى دزينتين من الناس في وزارة الخارجية، والبيت الأبيض، والبنتاغون، أن كينّان أعلن عن «تدشين الحرب السياسية المنظّمة»[١٩]، ودعا إلى إنشاء جهاز سري جديد لشن العمليات السرية على مستوى العالم. أعلن بوضوح أن مشروع مارشال، ومبدأ ترومان، وعمليات «السي.آي.أيه.» الخفية، هي الأجزاء المتداخلة للاستراتيجية الكبرى ضد ستالين.

ستموّل الأموال التي سحبتها «السي.آي.أيه.» من مشروع مارشال، شبكة من الواجهات الكاذبة: واجهة من اللجان العامة والمجالس برئاسة مواطنين متميّزين. امتلك الشيوعيون منظمات واجهة في شتى أنحاء أوروبا: دُور نشر، صحفاً، مجموعات طالبية، اتحادات عمّالية. وها إن «السي.آي.أيه.» تنشئ

واجهاتها الخاصة أيضاً. وستجنّد هذه الواجهات عملاء أجانب: المهاجرين من أوروبا الشرقية، واللاجئين من روسيا. وسيُنشئ هؤلاء المهاجرون، تحت سيطرة «السي.آي.أيه.»، مجموعات سياسية سرّية في دول أوروبا الغربية. وستمرّر الحركات السرّية الشعلة إلى «حركات تحرير شاملة» في ما وراء الستار الحديدي. وإذا ما تحولّت الحرب الباردة إلى حرب حامية، فستكون للولايات المتحدة قوة مقاتلة على خطوط الجبهة.

لقيت أفكار كينّان رواجاً سريعاً. تمت الموافقة على خططه في أمر سرّي صدر عن مجلس الأمن القومي في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٤٨. ودعا التوجيه، الرقم ١٠/٢ للمجلس، إلى عمليات خفية[٢٠] لمهاجمة السوفيات في جميع أنحاء العالم.

حصلت القوة الضاربة التي ابتكرها كينّان للقيام بالحرب السرّية، على ألطف اسم يمكن تخيّله: مكتب التنسيق السياسي. شكّل ذلك تغطية للتستر على عمل المجموعة. وقد ضُمّ إلى «السي.آي.أيه.»، لكن رئيسه سيرفع تقاريره إلى وزيري الدفاع والخارجية، لأن مدير الوكالة المركزية كان على درجة كبيرة من الضعف. أرادت وزارة الخارجية منه القيام «بنشر الشائعات، والرشوة، وتنظيم الجبهات المناوئة للشيوعية»[٢١]، وذلك بحسب تقرير لمجلس الأمن القومي رُفعت عنه السرّية في ٢٠٠٣. وأراد فوريستال والبنتاغون «حركات حرب عصابات... وجيوشاً سرّية... وتخريباً واغتيالات».

على رجل واحد أن يكون الرئيس

شكّلت برلين الساحة الكبرى للقتال. عمل فرانك ويسنر عن كثب على صياغة السياسة الأميركية في المدينة المحتلة. حثّ رؤساءه في وزارة الخارجية على الشروع في مكيدة تهدف إلى التخريب على السوفيات، من خلال عرض عملة ألمانية جديدة. من المؤكد أن موسكو سترفض، وبالتالي فإن اتفاقات تقاسم السلطة لما بعد الحرب في برلين ستنهار، وستجبر دينامية سياسية جديدة الروس على التراجع.

صكّت القوى الغربية في ٢٣ حزيران/يونيو، العملة الجديدة، وردّ الروس فوراً بحصار برلين. وبينما أقامت الولايات المتحدة جسراً جوياً للتغلب على الحصار، أمضى كينّان ساعات طوالاً في غرفة الأزمات، وهي مركز اتصالات ما وراء البحار المزدوج الأقفال في الطابق الخامس من وزارة الخارجية، يعاني عذاباً مبرحاً، بينما التلكسات والبرقيات تنهمر من برلين.

حاولت قاعدة «السي. آي. أيه.»، في برلين[٢٢]، بدون جدوى، لأكثر من سنة، الحصول على معلومات استخبارية عن الجيش الأحمر في ألمانيا الشرقية وروسيا، وتقفي آثار تقدّم موسكو في محال الأسلحة الذرية، والمقاتلات النفاثة، والصواريخ، والأسلحة البيولوجية. وبرغم هذا، فإنه كان لضباطها عملاء داخل شرطة برلين وبين سياسييها: والأهم من ذلك، داخل مقر الاستخبارات السوفياتية في كارلشورست في برلين الشرقية. وقد جاء ذلك من توم بولغار، اللاجئ المجري الذي أثبت نفسه كواحد من أفضل ضباط «السي. آي. أيه.» كان لبولغار رئيس خدم له شقيق يعمل لِدى ضابط في الجيش السوفياتي في كارلشورست. وأخذت وسائل ترف الحياة تنتقل من بولغار إلى كارلشورست التي عادت منها معلومات كثيرة. وكانت لبولغار عميلة ثانية، هي طابعة في قسم الارتباط السوفياتي في مقر شرطة برلين. شقيقتها عشيقة ملازم في الشرطة مقرّب من الروس. اجتمع العشيقان في شقة بولغار. وقال مستذكراً، لقد «عاد عليّ هذا بالشهرة والمجد». قدّم بولغار معلومات استخباراتية حاسمة بلغت البيت الأبيض. قال «كنت متيقنا تمام اليقين، في ما خص حصار برلين، من أن السوفيات لن يتحرّكوا». ولم تتزحزح تقارير «السي. آي. أيه.» مطلقاً عن هذا التقويم: فلا الجيش السوفياتي ولا حلفاؤه الألمان الشرقيون الحديثو النشأة، كانوا يستعدون للمعركة. وساهمت قاعدة برلين بدورها في إبقاء الحرب الباردة باردة، إبان تلك الأشهر.

كان ويسنر مستعداً لحرب حامية. جادل بأنه على الولايات المتحدة أن تقاتل بالدبابات والمدفعية لشق طريقها إلى برلين. رُفضت أفكاره، لكن تم احتضان روحه الحربية.

سبق لكينّان أن أصرّ على أن العمليات الخفية لا يمكن أن تُدار بواسطة لجنة. فهي تحتاج إلى قائد أعلى يتمتع بدعم كامل من البنتاغون ووزارة الخارجية. وكتب «على رجل واحد أن يكون الرئيس». ووافق فوريستال ومارشال وكينّان، جميعهم، على أن ويسنر هو هذا الرجل.

إنه على مشارف الأربعين تماماً، ومظهره اللطيف خادع. كان وسيماً في شبابه، إلا أن شعره آخذ في التساقط، وشرع وجهه وجذعه في الانتفاخ من جراء عطشه إلى الكحول. امتلك خبرة تقلّ عن ثلاثة أعوام بوصفه جاسوساً في زمن الحرب، ومكتسباً خبرة دبلوماسية مبطنة. وعليه الآن، أن ينشئ جهازاً خفيّاً من العدم.

لاحظ ريتشارد هيلمس، أن ويسنر يشتعل «حمية وحدّة[٢٣]، ما فرض عليه، بلا شك، إجهاداً غير طبيعي». وستؤدي حماسته للعمل الخفي، إلى تغيير دائم لمكانة أميركا في العالم.

٤

أكثر الأمور سرّية

تولّى فرانك ويسنر مسؤولية العمل الأميركي الخفي في الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨. وقضت مهمته: بدحر السوفيات إلى حدود روسيا القديمة، وتحرير أوروبا من السيطرة الشيوعية. كان مركز قيادته كناية عن كوخ متهاو مسقوف بالصفائح، في واحد من صف طويل من المباني الموقتة لوزارة الحرب، إلى جانب البحيرة ما بين نصبي لينكولن وواشنطن التذكاريين. والحشرات الضارة تتسارع هاربة عبر الممرات. وقد أطلق رجاله على المكان اسم «قصر الجرذان».

أجهد نفسه في حركة محمومة منظّمة، من خلال مواظبته على ١٢ ساعة عملاً أو أكثر في اليوم، وطالب ضباطه بالمثل. ونادراً ما أبلغ مدير الاستخبارات المركزية بما يفعله. فهو وحده من يقرّر ما إذا كانت مهماته السرّية تتوافق مع السياسة الخارجية الأميركية، أم لا.

سرعان ما تنامى أفقه بأكبر من مجموع بقية الوكالة. أصبحت العمليات الخفية تشكّل القوة المسيطرة على الوكالة، مع معظم الناس، ومعظم المال، ومعظم السلطة، وبقيت على هذا النحو لأكثر من عشرين سنة. كانت مهمة «السي.آي.أيه.» المعلنة هي تزويد الرئيس بالمعلومات السرّية الأساسية للأمن القومي للولايات المتحدة. إلا أن ويسنر لم تكن له أناة على التجسس، ولا الوقت لتمحيص الأسرار والتمعّن فيها. فتدبير انقلاب وشراء سياسي ما، أسهل كثيراً من خرق المكتب السياسي، وأكثر إلحاحاً بكثير بالنسبة إلى ويسنر.

حضّر ويسنر، في غضون شهر، خطط المعركة للسنين الخمس المقبلة[١]، وشرع في إنشاء كتلة إعلامية مختلطة متعددة الجنسيات للدعاية. سعى إلى شن حرب اقتصادية ضد السوفيات من خلال تزوير العملة والتلاعب في الأسواق. صرف الملايين، محاولاً قلب الموازين السياسية في عواصم العالم. أراد تجنيد فيالق من المنفيين ـ الروس، الألبان، البولنديين، المجريين، التشيكيين، الرومان ـ لإنشاء مجموعات مسلحة للتغلغل داخل الستار الحديدي. اعتقد ويسنر بوجود ٧٠٠ ألف روسي يهيمون في ألمانيا ويمكنهم الانضمام إلى مهمته. أراد تحويل ألف منهم إلى مجموعة صدم سياسية، لكنه لم يجد إلا ١٧.

أنشأ ويسنر، بأوامر من فوريستال، شبكات من عملاء الخطوط الخلفية: أجانب سيحاربون السوفيات في الأيام الأولى لاندلاع الحرب العالمية الثالثة. والهدف هو إبطاء تقدّم مئات الألوف من جنود الجيش الأحمر في أوروبا الغربية. أراد تكديس الأسلحة والذخائر والمتفجرات في مخابئ سرّية في شتى أنحاء أوروبا والشرق الأوسط، من أجل نسف الجسور، والمستودعات، وحقول النفط العربية، في مواجهة أي تقدّم سوفياتي. أدرك الجنرال كورتيس لوماي، الرئيس الجديد لقيادة الجو الاستراتيجية والضابط المشرف على الأسلحة الذرّية الأميركية، أن قاذفاته ستفرغ من الفيول بعد إلقاء قنابلها على موسكو، وأن على الطيارين والطواقم، في رحلات عودتهم، أن يقفزوا من طائراتهم في مكان ما شرق الستار الحديدي. وطلب لوماي من فرانكلين ليندسي[٢]، اليد اليمنى لويسنر، بناء سلّم نجاة داخل الاتحاد السوفياتي: طريق إخلاء تمكّن رجاله من الهرب برّاً. أصدر عقداء سلاح الجو أوامر إلى نظرائهم في «السي.آي.أيه.»: اسرقوا قاذفة، مقاتلة سوفياتية، ومن المفضل أن يكون طيارها محشوراً في كيس متين من الخيش؛ سرّبوا عملاء مع أجهزة اتصال إلى كل مطار ما بين برلين وجبال الأورال؛ خرّبوا كل مدرج عسكري في الاتحاد السوفياتي لدى أول إنذار بالحرب. هذه ليست بمطالب، بل أوامر.

احتاج ويسنر، فوق ذلك كله، إلى آلاف من الجواسيس الأميركيين. شكّل البحث عن هذه المواهب، في السابق كما اليوم، أزمة مستمرّة. وشرع في

اندفاعة للتجنيد، امتدّت من البنتاغون، إلى بارك أفينيو، إلى يال وهارفرد وبرينستون، حيث تم الدفع للأساتذة والمدربين للعثور على المواهب. استخدم محامين، ومصرفيين، ورفاق المعهد، وأصدقاء المدرسة القدامى، وقدامى المحاربين غير المتفرغين لأي عمل. «سيسحبون أناساً من الشوارع، وأي أحد دمه حام ويمكنه أن يقول نعم أو لا، أو يحرّك ذراعيه ورجليه»، كما يقول عضو «السي.آي.أيه.» سام هالبرن. هدف ويسنر إلى إنشاء ٣٦ محطة على الأقل في ما وراء البحار في غضون ستة أشهر؛ ونجح في إنشاء ٤٧ في ثلاث سنين. وجعل، في كل مدينة تقريباً أنشأ فيها مركزاً، رئيسين لكل محطة «السي.آي.أيه.»: أحدهما يشتغل في العمليات الخفية لويسنر؛ والآخر يعمل في ميدان التجسس لمكتب العمليات الخاصة في «السي.آي.أيه.». ولم يكن من مفر في أن يغدر كل منهما بالآخر، ويسرقا، كل على حدة، عملاء بعضهما البعض، ويقاتلا للحصول على اليد الطولى. صاد ويسنر بغير حق مئات الضباط من مكتب العمليات الخاصة، عارضاً مرتبات خيالية، والوعد بأمجاد أعظم.

صادر طائرات، وأسلحة، وذخائر، ومظلّات، وفائضاً من البزات من البنتاغون وقواعده في المناطق المحتلة في أوروبا وآسيا. وسرعان ما سيطر على مخزون عسكري يساوي ربع مليار دولار. «كان في إمكان ويسنر أن يطلب من أي وكالة تابعة للحكومة، العناصر أو أي دعم يحلو له»، على حد قول جيمس ماكارغار، وهو واحد من أوائل الرجال الذين استخدمهم ويسنر في مكتب التنسيق السياسي. «كانت «السي.آي.أيه.»، بالتأكيد، وكالة معروفة في العلن، إلا أن نشاطاتها كانت سرّية. لم تكن عمليات مكتب التنسيق السياسي سرّية وحسب، بل إن وجود المنظمة ذاته كان سرّياً. وهي كانت في الواقع، في سنواتها الأولى، وهذا ما يجب التشديد عليه، حيث إن قلة من الناس تدرك ذلك، الأمر الأكثر سرّية[٣] في الحكومة الأميركية بعد الأسلحة الذرّية». وعلى غرار أول الأسلحة الذرّية، التي كانت قدراتها التفجيرية في التجارب أقوى مما توقعه مصمموها، فإن متجر العمل الخفي لويسنر نما بأسرع، وانتشر بأكبر مما تخيله أحد.

سبق لماكارغار أن كابد في العمل لحساب وزارة الخارجية داخل الاتحاد السوفياتي، إبان الحرب العالمية الثانية، حيث تعلّم بسرعة أن «الوسائل الوحيدة التي ستساعدك على إنجاز عملك، هي الوسائل السرّية». كان قد قام، وحده، بترحيل الزعماء السياسيين المجريين من بودابست، وسلّمهم إلى مخبأ آمن أقامه آل أولمر في فيينا، وهو أول رئيس محطة لـ «السي.آي.أيه.» في تلك المدينة المحتلة. صار الاثنان صديقين، وعندما وجدا نفسيهما في واشنطن في صيف ١٩٤٨، دعا أولمر ماكارغار إلى لقاء رئيسه الجديد. أخذهما ويسنر معاً لتناول الفطور في فندق هاي ـ أدامز، وهو الأرقى في واشنطن، ويقع تماماً قبالة منتزه لافاييت لجهة البيت الأبيض. تم استخدام ماكارغار فوراً ليعمل في مقر القيادة وأصبح مسؤولاً عن سبع دول: اليونان، تركيا، ألبانيا، المجر، رومانيا، بلغاريا ويوغوسلافيا. عندما تقدّم للمباشرة في العمل في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، «كنا عشرة، بمن فينا ويسنر، وزوج من الضباط، والسكريتيران، وأنا: عشرة أشخاص»، قال ماكارغار. «وفي غضون سنة أصبحنا ٤٥٠، وبعد ذلك بأعوام قليلة، صرنا آلافاً كثيرة».

نُظر إلينا كأننا ملوك

أرسل ويسنر آل أولمر إلى أثينا، حيث انطلق لتغطية عشر دول عبر المتوسط، والأدرياتيكي، والبحر الأسود. اشترى رئيس المحطة الجديد قصراً على تلّة تشرف على المدينة، وهو كناية عن مجمّع مسوّر يحتوي على غرفة طعام بطول ستين قدماً، ومحيطه يقطنه كبار الدبلوماسيين. «كنا في موقع المسؤولية»[٤]، قال أولمر بعد ذلك بأعوام كثيرة. «كنا ندير الأمور. ويُنظر إلينا كأننا ملوك».

أخذت «السي.آي.أيه.» توجّه دعماً سياسياً ومالياً سرّياً إلى أكثر ضباط اليونان العسكريين والمخابراتيين طموحاً، وتجنّد شباناً واعدين ممن قد يقودون البلاد في يوم من الأيام. ويمكن الروابط التي رعوها أن تعود بفوائد عظمى لاحقاً. وفي أثينا أوّلاً[٥]، وروما، ومن ثم عبر أوروبا، أخذ سياسيون،

وجنرالات، وقادة استخباريون، وناشرو صحف، ورؤساء نقابات، ومنظمات ثقافية، ومؤسسات دينية، يتطلعون إلى الوكالة من أجل الأموال النقدية والمشورة. «سارع أفراد، ومجموعات، وأجهزة استخبارات، إلى إدراك وجود قوة في الخارج في العالم يمكنها أن تجمع الشمل من حولها»[٦]، بحسب ما جاء في سجل سرّي في «السي.آي.أيه.» لأعوام ويسنر الأولى في السلطة.

احتاج رؤساء محطات ويسنر إلى الأموال النقدية. فطار ويسنر إلى باريس في أواسط تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، لبحث الأمر مع أفيريل هرّيمان[٧] مدير مشروع مارشال. اجتمعا في جناح فخم في فندق تاليران، الذي كان في ما سبق منزل وزير خارجية نابوليون. وتحت أنظار تمثال نصفي لبنجامين فرانكلين، طلب هاريّمان من ويسنر أن يمد يده إلى أعمق ما يحتاج إليه في أكياس دولارات المشروع. وعاد ويسنر إلى واشنطن، متسلحاً بهذه السلطة، ليقابل ريتشارد بيسل، المدير الأكبر لمشروع مارشال. «التقيته في مناسبة اجتماعية، وعرفته ووثقت به»، قال بيسل مستذكراً. «كان جزءاً أساسياً من حلقتنا الداخلية». طرح ويسنر المقصد مباشرة. ارتبك بيسل في البداية، إلا أن «ويسنر أخذ وقته لتبديد بعض من مخاوفي، على الأقل، من خلال التأكيد لي أن هاريّمان قد وافق على العمل. وعندما شرعت في الإلحاح عليه لمعرفة كيفية صرف المال، شرح أنه لا يمكنه إخباري». إلا أن بيسل سيعرف ذلك في فترة قريبة بعض الشيء، إذ إنه سيتولى بعد ذلك عقد وظيفة ويسنر.

اقترح ويسنر كسر السيطرة الشيوعية على الاتحادات العمالية الكبرى في فرنسا وإيطاليا بمبالغ نقدية من المشروع. وسمح كينّان شخصياً بهذه العمليات. اختار ويسنر، في أواخر ١٩٤٨، زعيمين عماليين موهوبين للقيام بأولى هذه العمليات: جاي لوفستون، وهو رئيس سابق للحزب الشيوعي الأميركي، وإيرفينغ براون، تابعه المخلص. كان الرجلان معاديين أيديولوجيين للشيوعية، وقد بدّلتهما معارك الثلاثينيات الأيديولوجية المريرة. عمل لوفستون سكريتيراً تنفيذياً للجنة الاتحاد العمالي الحر، وهو متفرّع من الاتحاد العمالي الأميركي؛ وكان براون ممثله الرئيسي في أوروبا. سلّما أموالاً قليلة من إلى مجموعات

عمّالية يدعمها الديموقراطيون المسيحيون والكنيسة الكاثوليكية. وضمنت الرشى للنقابات العمالية في ميناءي مرسيليا ونابولي الرمليين، أن يقوم عمّال مؤيّدون بتفريغ الأسلحة الأميركية والمعدات العسكرية. وتدفّقت أموال «السي.آي.أيه.» والسلطة إلى الأيدي الزلقة لرجال العصابات الكورسيكيين(٨) الذين عرفوا كيف يفرّقون إضراباً بالأيدي المجرّدة.

كان واحداً من أكثر أعمال ويسنر كياسة، هو تعهّد مؤسسة غامضة أصبحت على مدى عشرين عاماً واجهة نافذة لـ «السي.آي.أيه.»: مجلس الحرّية الثقافية. وقد تصوّر «مشروعاً واسعاً يستهدف المثقفين(٩): المعركة من أجل ذهن بيكاسو، إذا شئت ذلك»، وذلك بحسب التعبير الأنيق لتوم برادن، أحد قدامى «الأو.أس.أس.»، وأحد المداومين على عشاء ليل الأحد. إنها معركة كلمات تُشن من خلال مجلات صغيرة، وكتب ذات تجليد فني، ومحاضرات رفيعة الأفكار. قال برادن «أعتقد أن موازنة مجلس الحرية الثقافية في سنة كنت مسؤولاً عنه، بلغت حدود ٨٠٠ ألف أو ٩٠٠ ألف دولار». وتضمن ذلك تمويل الانطلاق بمجلة شهرية رفيعة الأفكار تدعى «إنكاونتر»، أحدثت دوّامة من النفوذ في الخمسينيات بدون أن يبيع العدد الواحد منها أكثر من أربعين ألف نسخة. شكّل ذلك نوعاً من العمل التبشيري اجتذب المتخصصين في الفنون الأدبية، الوافدين حديثاً إلى الوكالة. إنها لحياة جيدة، إدارة صحيفة صغيرة أو دار نشر في باريس أو روما: إنها السنة الإعدادية للاستخبارات الأميركية في الخارج.

وجد ويسنر، وكينّان، وألن دالاس، طريقة أفضل بكثير للجم المشاعر المتوقّدة وطاقات المنفيين الأوروبيين الشرقيين، وتوجيههم إلى ما وراء الستار الحديدي: إنها راديو أوروبا الحرّة. بدأ التخطيط في أواخر ١٩٤٨ وأوائل ١٩٤٩، لكن الأمر تطلّب أكثر من سنتين لإطلاق الإذاعات عبر الأثير. أصبح دالاس مؤسس لجنة وطنية من أجل أوروبا حرّة، وهي واحدة من منظمات واجهة عدة في الولايات المتحدة، تموّلها «السي.آي.أيه.». وضم مجلس أوروبا الحرة الجنرال أيزنهاور؛ هنري لوس، رئيس «التايم»، و«لايف»، و«فورتشون»؛ وسيسل بي. ديميل، المخرج الهوليوودي، وجميعهم جندهم

دالاس وويسنر غطاءً للإدارة الحقيقية. وأصبحت المحطات الإذاعية سلاحاً قوياً في الحرب السياسية.

حماوة الاختلاط

راودت ويسنر آمال كبرى في أن يصبح دالاس المدير المقبل للاستخبارات المركزية. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى دالاس.

طلب فوريستال في أوائل ١٩٤٨، من دالاس القيام بتحقيق سرّي للغاية حول نقاط الضعف البنيوية في «السي.آي.أيه.». ومع اقتراب يوم الانتخابات، كان دالاس يضع اللمسات الأخيرة على التقرير الذي سيستخدمه في خطاب تسلّمه مهامه في الوكالة. كان واثقاً من أن ترومان سيُهزم على يد الجمهوري توماس ديوي، وأن الرئيس الجديد سيرفعه إلى المقام الذي يستحقّه.

شكّل التقرير الذي بقي سرّياً لخمسين عاماً[١٠]، اتهاماً مفصّلاً وقاسياً. بند الاتهام الأول: تتمخّض عن «السي.آي.أيه.» قصاصات من الورق تحتوي على وقائع قليلة، هذا إذا احتوت على الإطلاق، عن التهديد السوفياتي. بند الاتهام الثاني: ليس للوكالة جواسيس بين السوفيات أو من يدور في فلكهم. بند الاتهام الثالث: روسكو هيللنكوتر فاشل كمدير. وقال التقرير إن «السي.آي.أيه.» لم تصبح بعدُ «جهاز استخبارات مناسباً»، وسيتطلب الأمر «أعواماً من العمل الدؤوب لإنجاز عمل» تحويلها. وما تحتاج إليه الآن هو قائد جريء جديد، وهويته ليست سرّاً. لاحظ هيللنكوتر بمرارة أن دالاس فعل كل شيء ما عدا حفر اسمه على باب المدير. وفي الوقت الذي حط التقرير رحاله في كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، كانت قد تمت إعادة انتخاب ترومان. ولأن دالاس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجمهوريين، فقد استحال سياسياً التفكير في تعيينه. بقي هيللنكوتر في منصبه، تاركاً الوكالة عملياً بدون قيادة. وقد أمر مجلس الأمن القومي هيللنكوتر بتنفيذ التقرير، إلا أنه لم يفعل ذلك أبداً.

أخذ دالاس يقول لأصدقائه في واشنطن إنه ما لم يتم القيام بأمر بالغ الأثر

في «السي.آي.أيه.»، فإن الرئيس سيواجه كارثة في الخارج. انضمت إليه جوقة من الأصوات. وتناهى إلى سمع دين أتشيوسون، وقد أصبح الآن وزيراً للخارجية، أن «السي.آي.أيه.» أخذت «تغرق في حمى الارتباك[11] والاستياء». كان مخبره هو كرميت «كيم» روزفلت، حفيد الرئيس ثيودور روزفلت، وابن عم فرانكلين د. روزفلت، والرئيس المقبل لقسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا في «السي.آي.أيه.»، وحذّر مساعد فوريستال في المخابرات، جون أوهلي، رئيسه من أن: «الضعف الأكبر لـ «السي.آي.أيه.»[12] ينبع من صنف موظفيها ونوعيتهم، والأساليب التي يتم فيها تجنيدهم». ولاحظ «تراجعاً كاملاً في معنويات المدنيين الأكثر كفاءة الذين يحبّذون أن يجعلوا من «السي.آي.أيه.» مهنتهم، وخسارة الكثيرين من الأفراد القادرين الذين لم يتمكنوا وحسب من تقبّل الوضع». والأسوأ أيضا هو أن «معظم الأشخاص القادرين الباقين في الوكالة قرروا أنهم سيرحلون نهائياً، ما لم تحصل تغييرات في غضون الأشهر العدة المقبلة. ومع فقدان هذا الكادر النوعي، ستغرق الوكالة في مستنقع موحل سيصعب إخراجها منه، هذا إذا لم يستحل ذلك». وستصبح «السي.آي.أيه.» عندها، «على الدوام تقريباً، عملية استخبار رديئة، وربما عادية». وكان يمكن هذه الرسائل أن تُدوّن بعد ذلك بنصف قرن. وهي ستصف بدقة مصائب الوكالة في العقد الذي تلى سقوط الشيوعية السوفياتية. كانت صفوف الجواسيس الأميركيين المهرة قليلة، وعدد العملاء الأجانب الموهوبين شبه معدوم.

لم تشكل قدرات «السي.آي.أيه.» المشكلة الوحيدة. فقد أخذت ضغوط الحرب الباردة تصدّع الزعماء الجدد لمؤسسة الأمن القومي.

كان جيمس فوريستال وجورج كينّان مبتكري عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية، والقائدين لها. لكن ثبت أنهما لم يتمكنّا من السيطرة على الآلة التي قاما بتحريكها. أخذ كينّان يصبح ورقة محروقة، ساعياً إلى الانعزال في مخبئه في مكتبة الكونغرس. واجتاز فوريستال الحدّ كثيراً. استقال، في ٢٨ آذار/مارس ١٩٤٩، من منصبه كوزير للدفاع. وانهار في يومه الأخير في منصبه نائحاً بأنه

لم يعرف النوم لمدة أشهر. وجد الدكتور وليام س. مينّينغر، وهو أبرز طبيب نفسي في الولايات المتحدة، فوريستال في خضم حالة ذهانية، وأرسله إلى جناح الأمراض النفسية في مستشفى بتيسدا البحري.

بعد خمسين ليلة مسكونة(١٣)، وفي الساعات الأخيرة من حياته، كان فوريستال ينقل قصيدة إغريقية، «الكورس من أجاكس»، وتوقف في وسط كلمة العندليب nightingale. كتب night («نايت»)، ثم سقط ليلقى حتفه من نافذة الطبقة السادسة عشرة. والعندليب، هو الاسم الرمزي لقوة مقاومة أوكرانية أجاز لها فوريستال القيام بحرب سرّية ضد ستالين. وتضمن زعماؤها متعاونين مع النازية قاموا بقتل آلاف الأشخاص في ما وراء الخطوط الألمانية إبان الحرب العالمية الثانية. وقد أُعدّ أعضاؤها لإسقاطهم بالمظلات خلف الستار الحديدي لمصلحة «السي. آي. أيه.».

٥

رجل غنيّ أعمى

تضافرت الولايات المتحدة مع الشيوعيين، في الحرب العالمية الثانية، لمحاربة الفاشيين، الذين استخدمتهم في الحرب الباردة، لمحاربة الشيوعيين. اضطلع وطنيون أميركيون بهذه المهمات باسم الولايات المتحدة. وقال ألن دالاس، في صياغة مشؤومة، «لا يمكنك الانطلاق في سكّة الحديد[1] بدون أخذ بعض أعضاء الحزب النازي على متنها».

عاش أكثر من مليوني شخص تائهين في منطقة الاحتلال الأميركي من ألمانيا. والكثيرون منهم لاجئون يائسون هرباً[2] من الظلم المتمادي للحكم السوفياتي. أوفد فرانك ويسنر ضباطه مباشرة إلى مخيمات النازحين لتجنيدهم من أجل مهمة حدّدها على أنها «تشجيع حركات المقاومة في العالم السوفياتي[3] وتوفير الاتصالات مع الحركة السرّية». ودافع عن فكرة أنه على «السي.آي.أيه.» أن «تستخدم اللاجئين من العالم السوفياتي خدمة للمصالح الوطنية للولايات المتحدة».

أراد، بخلاف اعتراضات مدير الاستخبارات المركزية، إرسال بنادق وأموال إلى أولئك الرجال. أصبح هناك طلب كبير على المنفيين السوفيات «بوصفهم احتياطاً لطوارئ حرب محتملة»[4]، بيد أن الوكالة سجّلت أنهم «منقسمون بطريقة ميؤوسة بين مجموعات ذات أهداف، وتركيبات فلسفية وإثنية متعارضة».

أدّت أوامر ويسنر إلى إنشاء أولى المهمات شبه العسكرية للوكالة: الأولى من بين عمليات كثيرة بعثت بمئات العملاء الأجانب ليلقوا حتفهم. أخذت

القصة برمّتها تكشف عن نفسها في تأريخ لـ «السي.آي.أيه.»[٥] ظهر أوّلاً إلى الضوء في ٢٠٠٥.

كلّما تحدثّنا عن مسوّدة القانون هذه، كلّما كان أفضل

واجهت طموحات ويسنر عوائق هائلة مع بداية ١٩٤٩. افتقرت الوكالة إلى السلطة القانونية للقيام بالعمل الخفي ضد أي دولة من الدول. فهي لم تملك تشريعاً دستورياً من الكونغرس، ولا التمويل المأذون به قانوناً لتلك المهمات. وكانت لا تزال تعمل من خارج قوانين الولايات المتحدة.

مضى مدير الاستخبارات المركزية، في أوائل شباط/فبراير ١٩٩٤، لإجراء حديث خاص مع كارل فينسون، وهو ديموقراطي من جورجيا، ويرأس لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب. حذّر هيللنكوتر من أنه على الكونغرس أن يمرّر تشريعاً رسمياً يكرّس «السي.آي.أيه.» ويمنحها موازنة في أسرع وقت ممكن. فالوكالة غارقة حتى أذنيها في العمليات، وتحتاج إلى تغطية قانونية. وبعدما باح هيللنكوتر بمخاوفه، لبضعة أعضاء آخرين في الكونغرس، طرح مشروع قانون وكالة الاستخبارات المركزية للعام ١٩٤٩ لينظروا فيه. واجتمعوا سراً لحوالى نصف ساعة للتبصّر فيه.

قال فينسون لزملائه، «علينا وحسب أن نبلغ مجلس النواب،[٦] أن عليه القبول بحكمنا، وأننا لن نتمكن من الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي قد تُطرح». وافق ديوي شورت، الجمهوري الرفيع المستوى من ميسوري والعضو في لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، على أنه «سيكون من الجنون المطبق» مناقشة القانون في العلن: «فكلما تحدّثنا عن مسوّدة القانون هذه، كلما كان أفضل لنا جميعاً»[٦].

دُفع بقانون «السي.آي.أيه.» بقوّة عبر الكونغرس في ٢٧ أيار/مايو ١٩٤٩. وبتمريره، أعطى الكونغرس «السي.آي.أيه.» أوسع السلطات التي يمكن تخيّلها. وبعد جيل من ذلك، درجت الموضة على إدانة جواسيس أميركا على جرائم ضد الدستور. إلا أنه، في الأعوام الخمسة والعشرين ما بين تمرير قانون

«السي.آي.أيه.» وإيقاظ روح المراقبة في الكونغرس، مُنعت «السي.آي.أيه.» فقط من التصرف كشرطة سرّية في داخل الولايات المتحدة. فالقانون أعطى الوكالة المقدرة على القيام بكل ما تريده تقريباً، ما دام الكونغرس يوفّر المال في رزم سنوية. وفُهمت موافقة اللجنة الفرعية الصغيرة للقوات المسلحة في الكونغرس على الموازنة السرّية، من قبل أولئك العارفين بالأمر، على أنها تشكل موافقة شرعية على جميع العمليات السرّية. وأوجز أحد أعضاء الكونغرس، من المصوتين بـ «نعم»، هذا التفاهم الضمني بعد أعوام كثيرة لاحقة، عندما أصبح رئيساً للولايات المتحدة. وقال ريتشارد نيكسون: إذا كان الأمر سرّياً، فهو مشروع.

أصبحت «السي.آي.أيه.» اليوم مطلقة العنان: فالأموال غير المستندة إلى إيصالات ـ أموال لا يمكن تقفي أثرها مدفونة تحت بنود مفذلكة في موازنة البنتاغون ـ تعني ترخيصاً لا حدود له.

سمح بند أساسي في قانون ١٩٤٩ لـ «السي.آي.أيه.» بإدخال مئة أجنبي إلى الولايات المتحدة سنوياً باسم الأمن القومي، وبمنحهم «إقامة دائمة بغض النظر عن استحالة قبولهم بموجب قوانين الهجرة أو أي قوانين غيرها». وفي اليوم ذاته الذي وقع فيه الرئيس ترومان على مشروع قانون «السي.آي.أيه.» للعام ١٩٤٩ ليصبح قانوناً نافذاً، أبلغ ويلارد ج. وايمان، الجنرال ذو النجمتين الذي يدير الآن مكتب العمليات الخاصة في الوكالة، مسؤولي الهجرة الأميركيين أن أوكرانياً اسمه ميكولا ليبيد(٧) «يقدّم مساعدة قيّمة(٨) إلى وكالته في أوروبا». وبموجب القانون المقرّ حديثاً، هرّبت «السي.آي.أيه.» ليبيد إلى الولايات المتحدة.

وصفت ملفات «السي.آي.أيه.» الخاصة الزمرة الأوكرانية التي يقودها ليبيد بأنها «منظمة إرهابية». وكان ليبيد نفسه قد ذهب إلى السجن لضلوعه في مقتل وزير الداخلية البولندي في ١٩٣٦، وهرب عندما هاجمت ألمانيا بولندا بعد ذلك بثلاث سنين. رأى في النازيين حلفاء طبيعيين. وجنّد الألمان رجاله في كتيبتين، من بينهما واحدة تدعى «العندليب»، قاتلت في جبال كارباتيا، وظلّت فاعلة تقوم

بالمهام الموكلة إليها حتى نهاية الحرب، وبقيت في غابات أوكرانيا لتسكن وزير الدفاع فوريستال. وكان ليبيد قد نصّب نفسه وزيراً للخارجية في ميونيخ، وعرض مؤيدوه الأوكرانيون على «السي.آي.أيه.» القيام بمهمات ضد موسكو.

قررت وزارة العدل أنه مجرم حرب ذبح أوكرانيين وبولنديين ويهوداً. إلا أن جميع محاولات ترحيله توقّفت بعدما كتب ألن دالاس نفسه إلى مسؤول الهجرة الفديرالي، قائلاً إن ليبيد يشكل «قيمة لا تقدّر[٨] لوكالته»، وهو يساعد في «عمليات فائقة الأهمية من الدرجة الأولى».

لاحظ التأريخ السرّي للوكالة حول العملية الأوكرانية، أن «السي.آي.أيه.» «امتلكت طرائق قليلة لجمع المعلومات الاستخبارية عن الاتحاد السوفياتي، وشعرت بأنها مجبرة على استغلال كل فرصة متاحة، مهما تكن فرصة النجاح ضئيلة، أو مهما يكن العميل كريهاً»[٩]. فـ «مجموعات المهاجرين، حتى تلك التي لها ماض مريب، شكّلت في الغالب البديل الوحيد لعدم القيام بشيء». وهكذا، فإن «السجل الحربي الوحشي للكثير من المجموعات المهاجرة، أصبح أكثر ضبابية كلما أصبحت أكثر ضرورة لـ «السي.آي.أيه.»». وبحلول ١٩٤٩، باتت الولايات المتحدة مستعدة للعمل مع أي ابن زنا حتى ضد ستالين. وناسب ليبيد هذه القائمة.

لم نشأ أن نمسّها

كذلك فعل الجنرال رينهارد غهلن[١٠].

حاول الجنرال غهلن، إبان الحرب العالمية الثانية، أن يتجسس على السوفيات من الجبهة الشرقية، بوصفه قائداً للـ «أبفهر»، وهو جهاز الاستخبارات العسكرية لهتلر. كان رجلاً متعجرفاً وكتوماً، أقسم إن لديه شبكة من «الألمان الصالحين» للتجسس وراء الخطوط الروسية لصالح الولايات المتحدة.

قال غهلن، «منذ البداية، حفّزتني القناعات التالية: لا يمكن تفادي

المواجهة بين الشرق والغرب. وعلى كل ألماني أن يساهم في حصته فيها، وبالتالي فإن ألمانيا في موقع إتمام المهمات الملقاة على عاتقها من أجل الدفاع المشترك عن الحضارة الغربية المسيحية». وقد احتاجت الولايات المتحدة إلى «أفضل الزملاء الألمان في العمل... إذا أريد الحفاظ على الثقافة الغربية». والشبكة الاستخباراتية التي عرضها على الأميركيين، هي مجموعة من «المواطنين الألمان الرائعين، وهم من الألمان الصالحين، لكنهم على الصعيد الأيديولوجي أيضاً، إلى جانب الديموقراطيات الغربية».

حاول الجيش تكراراً، بعدما فشل في السيطرة على تنظيم غهلن برغم التمويل السخي لعملياته، تسليمه إلى «السي.آي.أيه.» ووقف الكثيرون من ضباط ريتشارد هيلمس كلّياً ضد ذلك. وسجّل أحدهم استفظاعه العمل مع شبكة «من عناصر «الأو.الأس.أس.» من ذوي السجل النازي المعروف». وحذّر آخر من أن «الاستخبارات الأميركية كناية عن رجل ثري أعمى[١١] يستخدم الـ «أبفهر» بوصفها عين الكلب التي ترى. والمشكلة الوحيدة، هي أن الزمام أطول كثيراً مما يجب». وأعرب هيلمس نفسه عن تخوّف له أساسه القوي من «أنه ما من شك في أن الروس يعلمون[١٢] بأن هذه العملية جارية».

«لم نشأ أن نلمس ذلك»[١٣]، قال بيتر سيشل، وكان وقتها رئيس العمليات الألمانية في مقر قيادة «السي.آي.أيه.». «ليست للأمر أي علاقة بالأخلاقيات أو الآداب، وله كل العلاقة بالأمن».

تولت «السي.آي.أيه.»، برغم ذلك، في تموز/يوليو ١٩٤٩، وتحت ضغط لا يني من الجيش، مجموعة غهلن. رحّب غهلن من مقرّه في مركز قيادة نازي خارج ميونيخ، بانضمام عشرات مجرمي الحرب البارزين إلى مجموعته. تحققت مخاوف هيلمس وسيشل، واخترقت الأجهزة الألمانية الشرقية والسوفياتية مجموعة غهلن على أعلى المستويات. وطفا أسوأ الجواسيس النائمين إلى السطح، بعد وقت طويل على تحويل مجموعة غهلن نفسها إلى جهاز الاستخبارات الوطني لألمانيا الغربية. فرئيس مكافحة التجسس منذ زمن طويل لدى غهلن، كان من الأساس يعمل لموسكو.

قال ستيف تانّر، وهو ضابط شاب في «السي.آي.أيه.»، مقرّه في ميونيخ، إن غهلن قد أقنع ضباط الاستخبارات الأميركية بأنه في وسعه القيام بعمليات في قلب السلطة السوفياتية. و«نظراً إلى مدى صعوبة الأمر علينا»(١٤)، قال تانّر متذكراً، «فقد بدا من الحماقة عدم محاولة ذلك».

لم نكن لنجلس مكتوفي الأيدي

كان تانّر واحداً من المحاربين القدامى في الاستخبارات منذ تخرجه من يال، وقد استخدمه ريتشاردز هيلمس في ١٩٤٧، وكان واحداً من أول ٢٠٠ ضابط في «السي.آي.أيه.» يقسمون اليمين على الخدمة. قضت مهمته في ميونيخ بتجنيد عملاء لجمع الاستخبارات في ما وراء الستار الحديدي لصالح الولايات المتحدة.

كانت لكل قومية رئيسية من الاتحاد السوفياتي وشرق أوروبا، مجموعة مهاجرين واحدة على الأقل تدعي الأهمية، وتسعى إلى الحصول على مساعدة من «السي.آي.أيه.» في ميونيخ وفرانكفورت. وبعض الرجال الذين تفحّصهم تانّر بوصفهم جواسيس محتملين، كانوا من الأوروبيين الشرقيين الذين انحازوا إلى ألمانيا ضد روسيا. وقال تانّر إنهم ضمّوا «أناساً ذوي خلفيات فاشية يحاولون إنقاذ حيواتهم المهنية بجعل أنفسهم مفيدين للأميركيين، وأصبحوا تلقائياً إلى جانبنا». وبالغ آخرون ممن هربوا من الجمهوريات الواقعة في أطراف الاتحاد السوفياتي، في قوتهم ونفوذهم. وقال «الهدف الرئيسي، لهذه المجموعات المهاجرة، هو إقناع الحكومة الأميركية بأهميتها، بحيث تحصل على الدعم بطريقة أو بأخرى».

قام تانّر، الذي يتلقى التوجيهات من واشنطن، بوضع توجيهاته الخاصة: على مجموعات المهاجرين، لتحصل على دعم «السي.آي.أيه.»، أن تتأسس على أرض الوطن، وليس في مقاهي ميونيخ. ويجب أن تتمتّع باتصالات مع مجموعات مناهضة للسوفيات في بلدانها. ويجب ألا يكون أعضاؤها قد تورطوا في تعاون وثيق مع النازيين. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨، بعد عملية تقويم

طويلة ودقيقة، اعتقد تانّر أنه وجد زمرة من الأوكرانيين الذين يستأهلون الدعم من «السي.آي.أيه.». أطلقت المجموعة على نفسها اسم «المجلس الأعلى لتحرير أوكرانيا». ونصّب أعضاؤها أنفسهم في ميونيخ ممثلين سياسيين عن المقاتلين في الديار. وأفاد تانّر مقر القيادة أن المجلس الأعلى سليم أخلاقياً وسياسياً.

أمضى تانّر ربيع العام ١٩٤٩ وصيفه، يعدّ لتسريب «أوكرانييه» إلى ما وراء الستار الحديدي. سبق للرجال أن جاؤوا من جبال كارباتيا قبل أشهر بوصفهم سعاة يحملون رسائل من الحركة السرّية الأوكرانية، مكتوبة على قصاصات رقيقة من الورق مطوية في شكل حشوة، ومخيّطة ببعضها البعض. ونُظر إلى هذه النبذات الصغيرة بوصفها إشارات إلى حركة مقاومة راسخة العزم يمكنها أن توفر معلومات استخبارية عن أحداث تحصل في أوكرانيا، وإنذار بهجوم سوفياتي على أوروبا الغربية. بل إن الآمال أخذت حجماً أكبر في مقر القيادة. اعتقدت «السي.آي.أيه.» أن «وجود هذه الحركة قد تكون له جدواه في سياق أي نزاع مفتوح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي».

استخدم تانّر طاقم طيّارين أشاوس كان قد اختطف طائرة تجارية مجرية وطار بها إلى ميونيخ قبل بضعة أشهر. وافق رئيس العمليات الخاصة في «السي.آي.أيه.»، الجنرال وايمان، في ٢٦ تموز/يوليو رسمياً على المهمة. أشرف تانّر على تدريب عناصر الطاقم على نظام ترميز المورس وعلى استخدام السلاح، مخططاً لإسقاط اثنين منهم في ديارهما، بحيث تتمكن «السي.آي.أيه.» من التواصل مع المحازبين. إلا أنها لم تملك في ميونيخ أحداً لديه خبرة في إسقاط مظليين وراء خطوط العدو. وأخيراً وجد تانّر أحداً. «قام زميل صربي ـ أميركي سبق أن قفز بالمظلة في يوغوسلافيا خلال الحرب العالمية الثانية، بتدريب فتياني على طريقة القفز والهبوط. وكان ذلك جنوناً! كيف يمكنك القيام بالشقلبة إلى الخلف لدى الهبوط مع بندقية معلّقة إلى جانبك؟». إلا أن هذا النوع من العمليات هو الذي أعطى «الأو.أس.أس.» شهرتها.

حذّر تانّر من التوقعات الكبرى. قال «أدركنا أنه، في غابات غرب أوكرانيا، لا يمكن الاعتماد عليهم لمعرفة ما في ذهن ستالين، والمسائل السياسية الكبرى. إلا أنه في وسعهم على الأقل، الإتيان بوثائق، ويمكنهم الحصول على حمّالات جيب، وثياب، وأحذية». وسيكون على «السي. آي. أيه.»، لإنشاء شبكة حقيقية من الجواسيس في الاتحاد السوفياتي، أن تزودهم بعناصر التخفّي: الفتات اليومي للحياة السوفياتية. وقال تانّر إنه، حتى لو لم تُثمر المهمات أبداً الكثير من المعلومات الاستخبارية المهمة، فإن لها قيمة رمزية قوية: «لقد أظهرت لستالين أننا لن نقف مكتوفي الأيدي. وكان هذا مهمّاً، لأننا حتى ذلك الحين، لم نكن قد فعلنا أي شيء في ما يتعلق بالعمليات داخل بلده».

انطلق رجال تانّر في الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٤٩، على متن «سي ٤٧» يطير بها المجريون الذين اختطفوا الطائرة التي أوصلتهم إلى ميونيخ. وقفزوا، وهم ينشدون نشيداً عسكرياً، إلى ظلمة الليل الكارابتي، وهبطوا على مقربة من مدينة لفوف. لقد اخترقت الاستخبارات الأميركية الاتحاد السوفياتي.

ما الذي أخطأنا في فعله؟

أطلقت العملية موجة هائلة من الحماسة في مقر قيادة «السي. آي. أيه.»، وشرع ويسنر في وضع المخططات لإرسال المزيد من الرجال لتجنيد شبكات من المنشقين، وإنشاء قوات مقاومة مدعومة أميركياً، وإرسال إنذار مبكر إلى البيت الأبيض حول هجوم عسكري سوفياتي. أرسلت «السي. آي. أيه.» عشرات العملاء الأوكرانيين جواً وبرّاً. وقد تم اعتقال كل واحد منهم تقريباً. استخدمت الاستخبارات السوفياتية السجناء لإرسال معلومات مضللة: كل شيء يسير حسناً، أرسلوا المزيد من البنادق، المزيد من المال، المزيد من الرجال. ثم قتلتهم. بعد خمس سنين من «المهمات المجهَضة»، يفيد تاريخ الوكالة أن ««السي. آي. أيه.» أوقفت العمل بهذه المقاربة».

استنتج أن «جهد الوكالة، على المدى الطويل، لاختراق الستار الحديدي مستخدمة عملاء أوكرانيين، كان سيىء الطالع، ومأسوياً».

لم تثبط همّة ويسنر. وشرع في مغامرات شبه عسكرية جديدة في جميع أنحاء أوروبا.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩، بعد أربعة أسابيع من رحلة الطيران الأولى إلى أوكرانيا، تعاون ويسنر مع البريطانيين لإدخال متمردين إلى داخل ألبانيا الشيوعية، وهي الدولة الأفقر والأكثر عزلة في أوروبا. ورأى في هذا النتوء الصخري الأجرد، أرضاً خصبة لجيش مقاومة مؤلف من أتباع النظام الملكي المنفيين، ومن بقايا الموالين في روما وأثينا. وحملت سفينة انطلقت من مالطا تسعة ألبان في عملية الكوماندوس الأولى. قُتل ثلاثة رجال على الفور، وطاردت الشرطة السرية الباقين. لم يملك ويسنر الوقت ولا الميل، لمراقبة النفس. وأرسل المزيد من المجندين جواً إلى ميونيخ للتدرب على القفز بالمظلة، ثم حوّلهم إلى محطة أثينا، التي امتلكت مطارها الخاص، وأسطولاً من الطائرات، وبعض الطيارين البولنديين الأشداء.

قفزوا إلى داخل ألبانيا، وحطوا بين أذرع الشرطة السرّية. ومع كل مهمة فاشلة، أخذت الخطط تصبح أكثر استعاراً، والتدريب أشد رثاثة، والألبانيون أكثر يأساً، واعتقالهم أكثر تأكيداً. والعملاء الذين نجوا سُجنوا، وسيطر معتقلوهم على رسائلهم المبعوثة إلى محطة أثينا.

«ما الذي أخطأنا في فعله؟»[١٥]، تساءل عنصر «السي.آي.أيه.» جون ليموند هارت، الذي تولّى الألبان في روما. استغرقت «السي.آي.أيه.» أعواماً قبل أن تدرك أن السوفيات قد عرفوا كل وجه من أوجه العملية منذ البداية. فقد تم اختراق معسكرات التدريب في ألمانيا. وطُعّمت مجتمعات المنفيين الألبان في روما، وأثينا، ولندن، بالجواسيس. وقام جيمس ج. أنغلتون ـ رجل مقر القيادة المسؤول عن أمن العمليات السرّية، وحارس «السي.آي.أيه.» ضد العملاء المزدوجين ـ بتنسيق العملية مع أفضل صديق له في الاستخبارات البريطانية: الجاسوس السوفياتي كيم فيلبي، المسؤول عن ارتباط لندن مع الوكالة.

عمل فيلبي لموسكو من غرفة مأمونة في البنتاغون، ملاصقة لهيئة الأركان

المشتركة. وقد تم ختم صداقته مع أنغلتون بقبلة الجين الباردة، وعناق الويسكي الدافئ. كان يعاقر الخمرة بطريقة استثنائية، ويعب خمس زجاجات في اليوم، وأصبح أنغلتون في طريقه إلى أن يصبح واحداً من أبطال مدمني الكحول في «السي.آي.أيه.»، وهو لقب حازه في مواجهة منافسة شديدة. ولأكثر من سنة، وقبل كل فطور يتم فيه استهلاك كمية كبيرة من الكحول، أعطى أنغلتون إلى فيلبي الإحداثيات الدقيقة لمناطق إسقاط كل عميل أنزلته «السي.آي.أيه.» بالمظلة في ألبانيا. وبالرغم من فشل توالى بعد فشل، وموت بعد موت، استمرت الرحلات الجوية لأربع سنين. ومات نحو مئتي عميل خارجي لـ «السي.آي.أيه.» بدون أن يعرف أحد تقريباً في الحكومة الأميركية. فالأمر كان فائق السرّية.

رُقّي أنغلتون إلى رئيس لمكافحة التجسس عند انتهاء ذلك. وبقي في الوظيفة لعشرين عاماً. وكان، وهو سكران بعد الغداء، وذهنه متاهة لا يمكن دخولها، وعلبة الوارد كناية عن ثقب أسود، يطلق حكمه على كل عملية وعلى كل ضابط توجهه «السي.آي.أيه.» ضد السوفيات. أصبح يعتقد أن مؤامرة سوفياتية رئيسية تسيطر على المفاهيم الأميركية للعالم، وأنه هو، وهو وحده، يدرك أبعاد الخداع. وأسقط عمليات «السي.آي.أيه.» ضد موسكو إلى عمق متاهة مظلمة.

فكرة في أساسها سيئة

أمر ويسنر في أوائل ١٩٥٠، بشن هجوم جديد على الستار الحديدي. وانتقلت الوظيفة إلى رجل آخر من متخرجي يال في برلين، اسمه بيل كوفين، وهو مجنّد جديد يمتلك الحمية المعادية للشيوعية الخاصة باشتراكي متأجج. وقال كوفين عن أعوام خدمته في «السي.آي.أيه.» إن «الغايات لا تبرر دوماً الوسائل[١٦]. لكنها الأمر الوحيد الذي في وسعه ذلك».

جاء كوفين إلى «السي.آي.أيه.» من خلال رابط عائلي، فقد جنّده صهره، فرانك ليندسي، وهو ضابط عمليات أوروبا الشرقية لدى ويسنر. وقال في ٢٠٠٥ مستذكراً «عندما مضيت إلى «السي.آي.أيه.» قلت لقيادتها لا أريد القيام بأعمال

التجسس، أريد القيام بعمل سياسي سرّي. وكان السؤال هو: هل يمكن الروس العمل سرّاً؟ بدا لي الأمر، في ذلك الوقت، مقبولاً إلى درجة كبيرة أخلاقياً». وسبق لكوفين أن أمضى السنتين الأخيرتين من الحرب العالمية الثانية كضابط ارتباط للجيش الأميركي مع القادة السوفيات. وكان جزءاً من العملية العديمة الرأفة لما بعد الحرب، التي تم في خلالها ترحيل جنود سوفيات بالقوة. وترك الأمر لديه حملاً ثقيلاً من الذنب، أثر في قراره بالانضمام إلى «السي. آي. أيه.».

قال كوفين «رأيت أنه يمكن ستالين أحياناً أن يجعل هتلر يبدو كفتى الكشافة. كنت معادياً كثيراً للسوفيات، لكنني مؤيد كثيراً لروسيا».

راهن ويسنر على «التضامنيين»، وهم مجموعة روسية تقف إلى أقصى ما يمكن من اليمين في أوروبا ما بعد هتلر. وأمكن فقط حفنة من ضباط «السي. آي. أيه.» الذين يتحدثون الروسية، من أمثال بيل كوفين، العمل معهم. هرّبت «السي. آي. أيه.» و«التضامنيون» أولاً، مناشير إلى الثكنات السوفياتية في ألمانيا الشرقية. ثم أطلقوا بالونات تحمل الآلاف من المناشير. ثم بعثوا بمهمات إنزال بالمظلات لأربعة رجال في كل مرّة على متن طائرات لا تحمل علامات تطير ما أمكن شرقاً حتى ضواحي موسكو. ونزل العملاء «التضامنيون»، واحداً تلو الآخر، إلى روسيا، وطوردوا الواحد تلو الآخر، واعتُقلوا، وقُتلوا. مرة أخرى، تسلّم «السي. آي. أيه.» عملاءها إلى الشرطة السرّية.

«كانت فكرة سيئة من أساسها»، قال كوفين بعد وقت طويل على مغادرته «السي. آي. أيه.»، حيث أصبح يُعرف بالمحترم وليام سلون كوفين، قس يال، وواحد من أكثر الأصوات المعادية للحرب حماسة في خلال الستينيات. «كنا ساذجين جداً في شأن استخدام القوة الأميركية ومرّ عقد من الزمن تقريباً قبل أن تعترف الوكالة، بتعابيرها الخاصة، بأن «دعم المهاجرين احتمال حرب[١٧] أو ثورة داخل الاتحاد السوفياتي، كان غير واقعي».

وفي المجمل، فإن مئات عملاء «السي. آي. أيه.» الخارجيين أُرسلوا، في

الخمسينيات، إلى حتفهم في روسيا، وبولندا، ورومانيا، وأوكرانيا، ودول البلطيق. لم يُسجّل مصيرهم. لم تُحفظ أي سجلات، ولم تُوقَّع أي عقوبات على الفشل. نُظر إلى مهماتهم على أنها مسألة البقاء الوطني للولايات المتحدة. وقبل ساعات فقط من انطلاق رجال تانّر في رحلتهم الجوية الأولى في أيلول/سبتمبر ١٩٤٩، كشف طاقم من سلاح الجو يطير خارج آلاسكا آثار نشاط إشعاعي في الجو. وفي الوقت الذي كان يتم فيه تحليل النتائج، في ٢٠ أيلول/سبتمبر، أعلنت «السي.آي.أيه.»[١٨] في شكل سرّي، أن الاتحاد السوفياتي لن ينتج سلاحاً نووياً قبل أربع سنين أخرى على الأقل.

بعد ذلك بثلاثة أيام، أبلغ ترومان العالم أن ستالين يمتلك القنبلة.

في ٢٩ أيلول/سبتمبر، أفاد رئيس الاستخبارات العلمية في «السي.آي.أيه.» أن مكتبهم لم يتمكن من إنجاز مهمته. فهو قد افتقر إلى الموهبة في تقفي جهود موسكو بناء أسلحة الدمار الشامل. وأفاد أن عمل الوكالة على الأسلحة النووية السوفياتية «قارب الفشل التام» على كل مستوى؛ فجواسيسها لم يملكوا البيانات العلمية أو التقنية حول القنبلة السوفياتية، وقد لجأ محلّلوها إلى التخمين ليس أكثر. وحذّر من أن «عواقب كارثية» تواجه الولايات المتحدة بنتيجة هذا الفشل.

أمر البنتاغون بحدّة «السي.آي.أيه.» بتركيز عملائها في موسكو من أجل سرقة الخطط العسكرية للجيش الأحمر. «في ذلك الوقت»، قال ريتشارد هيلمس متذكراً، «كان إمكان تجنيد أي من مثل هذه المصادر وتشغيله، على قدر من عدم الاحتمال يعادل وضع جاسوس مقيم على كوكب المريخ».

واجهت الولايات المتحدة، بدون سابق إنذار، في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٥٠، هجوماً مفاجئاً بدا أشبه بالشروع في الحرب العالمية الثالثة.

٦

كانت مهمّات انتحارية

شكّلت الحرب الكورية أول اختبار فعلي لـ «السي.آي.أيه.»، وأعطتها الوكالة قائدها الحقيقي الأول: الجنرال والتر بيديل سميث. فقد استدعاه الرئيس ترومان، قبل اندلاع الحرب، من أجل إنقاذ «السي.آي.أيه.»، لكن الجنرال، بعد خدمته كسفير لأميركا في موسكو، عاد إلى الديار مصاباً بقرحة كادت تودي به. وعندما جاءت أخبار الحرب الكورية، كان في مستشفى والتر ريد العسكري، حيث أزيلت له ثلاثة أرباع معدته. ناشده ترومان، فرجاه أن يمهله شهراً ليرى إذا كان سينجو أم لا. ثم إن هذه المناشدة تحوّلت إلى أمر، وأصبح بيديل سميث رابع مدير للاستخبارات المركزية في خلال أربعة أعوام.

قضت مهمة الجنرال في أن يعرف أسرار الكرملين، وكانت لديه فكرة جيّدة عن حظوظه. «ثمة شخصان أعرفهما قد يمكنهما القيام بذلك»، قال أمام خمسة سيناتورات ثبّتوه في منصبه في جلسة استماع في ٢٤ آب/أغسطس، حيث تزيّن بنجمته الرابعة التي حصل عليها حديثاً كجائزة من الرئيس. «أحدهما هو الله، والآخر هو ستالين[١]، ولا أعرف إذا كان حتى الله يمكنه القيام بذلك لأنني لا أدري إذا كان على مقربة كافية من العم جو لمعرفة ما الذي يتحدّث عنه». أما بالنسبة إلى ما ينتظره في «السي.آي.أيه.»، فقال: «أتوقع الأسوأ[٢]، وأنا متأكد من أنني لن أصاب بخيبة». وفور تسلمه منصبه في تشرين الأول/أكتوبر، اكتشف أنه ورث ورطة فاجرة. «من المثير للاهتمام رؤيتكم أيها الرفاق جميعكم هنا»[٢]، قال وهو يتطلع من حول الطاولة في أول اجتماع له مع الموظفين. «وسيكون أكثر إثارة للاهتمام رؤية كم من بينكم سيبقون هنا بعد أشهر قليلة من الآن».

كان بيديل سميث سلطوياً بعنف، واستهكامياً على نحو جارف، ولا يتقبّل عدم الكمال. وتركته عمليات ويسنر المنتشرة بغير نظام، يغمغم حنقاً. «إنه المكان الذي صرف فيه كل المال»[٣]، قال، «وأثار ريبة بقية الوكالة كلها». واكتشف في أسبوعه الأول في المنصب، أن ويسنر يقدم تقاريره إلى وزارة الخارجية والبنتاغون، وليس إلى مدير الاستخبارات المركزية. وبغضب بلغ أوجه، أبلغ رئيس العمليات الخفية أن أيام قرصنته قد ولّت.

مهمّة مستحيلة

حاول الجنرال، لخدمة الرئيس، إنقاذ الجانب التحليلي من الوكالة، الذي أُطلق عليه اسم «قلب «السي.آي.أيه.» وروحها»[٤]. أجرى إصلاحاً إجرائياً شاملاً حول كتابة التقارير الاستخبارية، وأقنع في النهاية شيرمان كنت، الذي سبق أن هرب من واشنطن إبان الأيام الكئيبة الأولى لمجموعة الاستخبارات المركزية، بالعودة من يال لإنشاء منظومة التقديرات الوطنية التي تجمع معاً أفضل المعلومات المتوفرة من كافة دوائر الحكومة. وصف كنت العمل بأنه «مهمة مستحيلة»[٥]. وقال، في النهاية، إن «التقدير هو ما تقوم به عندما لا تعرف»[٦].

أخذ ترومان بعد أيام على تولي بيديل سميث منصبه، يستعدّ للقاء الجنرال دوغلاس ماك أرثور في جزيرة وايك في المحيط الهادئ. أراد الرئيس من «السي.آي.أيه.» أفضل المعلومات عن كوريا. وأراد، فوق كل شيء، معرفة ما إذا كانت الصين الشيوعية ستدخل الحرب. وسبق لماك أرثور، الذي يدفع بقواته عميقاً داخل كوريا الشمالية، أن أصر على أن الصين لن تهاجم أبداً.

كادت «السي.آي.أيه.» لا تعرف شيئاً عما يدور داخل الصين. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩، وفي الوقت الذي طرد فيه ماو تسي تونغ قوات تشيانغ كاي ـ شيك الوطنية، وأعلن الجمهورية الشعبية، هرب جميع الجواسيس الأميركيين، ما عدا حفنة منهم، إلى هونغ كونغ، أو إلى تايوان. و«السي.آي.أيه.»، التي جعلها ماو تعرج بالفعل، تكرسحت على يد ماك أرثور

الذي كره الوكالة، وفعل ما في وسعه لحظر وجود ضباطها في الشرق الأقصى. وبرغم أن الوكالة عملت بحدّة لمراقبة الصين، فإن سلسلة العملاء الأجانب التي ورثتها عن «الأو.أس.أس.» كانت ضعيفة إلى أبعد ما يكون. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البحث والإفادة في الوكالة. عمل ٤٠٠ محلّل في «السي.آي.أيه.»[٧] على نشرات استخبارية يومية للرئيس ترومان في بداية الحرب الكورية، إلا أن ٩٠ في المئة من تقاريرهم كانت كناية عن ملفات لوزارة الخارجية أعيدت صياغتها؛ ومعظم ما بقي تعليقات لا وزن لها.

تألف حلفاء «السي.آي.أيه.» في مسرح الحرب من أجهزة استخبارات زعيمين فاسدين وغير موثوقين: رئيس كوريا الجنوبية، سينغمان ري، والزعيم الوطني الصيني، تشيانغ كاي ـ شيك. الانطباع الأقوى الأول الذي أخذه ضباط «السي.آي.أيه.» لدى وصولهم إلى عاصمتيهما، سيول وتايبيه، هو الرائحة الكريهة للغائط البشري الذي يخصّب الحقول المحيطة. وكانت المعلومات الموثوقة نادرة ندرة الكهرباء والمياه الجارية. ووجدت «السي.آي.أيه.» نفسها عرضة للتلاعب فيها[٨] على أيدي أصدقاء ملتوين، وللخداع على أيدي أعدائها الشيوعيين، وتحت رحمة المنفيين المتعطشين إلى المال، الذين يفبركون المعلومات الاستخبارية. وقد أمضى فريد شولتيز، رئيس محطة هونغ كونغ في ١٩٥٠، السنين الست المقبلة يفرز التفاهات التي باعها اللاجئون الصينيون للوكالة إبان الحرب الكورية. فقد دعمت «السي.آي.أيه.» السوق الحرّة لطواحين الورق التي يديرها فنانون في الغش.

المصدر الحقيقي الوحيد للمعلومات الاستخبارية حول الشرق الأقصى منذ الأيام الأخيرة للحرب العالمية الثانية وحتى نهاية ١٩٤٩، كان الأشخاص البارعين في سلاح إشارة الاستخبارات. فقد تمكنوا من التقاط رموز مقاطع من البرقيات الشيوعية والبيانات المرسلة بين موسكو والشرق الأقصى، وتحليلها وفكها، ثم حل الصمت في الساعة ذاتها التي كان الزعيم الكوري الشمالي كيم إيل ـ سونغ يتشاور فيها مع ستالين وماو حول نيته الهجوم. وتلاشت فجأة، القدرة الأميركية على التنصت على الخطط العسكرية السوفياتية، والصينية، والكورية الشمالية.

تمكن جاسوس سوفياتي عشية الحرب الكورية، من اختراق المركز العصبي لفك الرموز في أرلينغتون هول، وهو مدرسة سابقة للبنات تقع على مسافة رمية حجر من البنتاغون. إنه وليام وولف وايسباند، وهو لغوي قام بترجمة الرسائل المفكّكة من الروسية إلى الإنكليزية. قام وايسباند، الذي جندته موسكو جاسوساً في الثلاثينيات، وحده، بتحطيم قدرة الولايات المتحدة على قراءة البرقيات السوفياتية السرّية. أدرك بيديل سميث أن شيئاً رهيباً قد حدث لاستخبارات الإشارة الأميركية، وأنذر البيت الأبيض. وكانت النتيجة قيام وكالة الأمن القومي إنشاء جهاز استخبارات الإشارة الذي نما ليقزّم «السي.آي.أيه.»، حجماً وسلطة. بعد نصف قرن على ذلك، اعتبرت وكالة الأمن القومي قضية وايسباند «ربما أكبر خسارة ذات شأن في تاريخ الولايات المتحدة»[٩].

ما من مؤشرات مقنعة

غادر الرئيس في ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٠، إلى جزيرة وايك. أكّدت له «السي.آي.أيه.» أنها «لم تجد أي دلائل مقنعة[١٠] على نية صينية شيوعية فعلية للجوء إلى تدخل كامل في كوريا... ناهيك بقرار سوفياتي بحرب شاملة». توصلت الوكالة إلى هذا الحكم برغم إنذارين من محطتها المؤلفة من ثلاثة رجال في طوكيو. فأولاً، أفاد رئيس المحطة، جورج أوريل، أن ضابطاً وطنياً صينياً في منشوريا حذّر من أن ماو قد حشد ٣٠٠ ألف جندي على مقربة من الحدود الكورية. ولم يبال مقر القيادة كثيراً. ثم أصر بيل دوغان، وقد أصبح لاحقاً رئيس محطة في تايوان، على أن الشيوعيين الصينيين سرعان ما سيعبرون الحدود إلى كوريا الشمالية. وردّ الجنرال ماك أرثور بالتهديد بتوقيف دوغان. ولم تبلغ الإنذارات أبداً جزيرة وايك.

استمرت الوكالة، في مقر القيادة، تُخطر ترومان بأن الصين لن تدخل الحرب على أي مستوى ذي مغزى. وفي ١٨ تشرين الأول/أكتوبر. وبينما كانت قوات ماك أرثور تندفع شمالاً صوب نهر يالو والحدود الصينية، أفادت «السي.آي.أيه.» أن «المغامرة السوفياتية في كوريا انتهت إلى الفشل». وفي ٢٠

تشرين الأول/أكتوبر، قالت «السي.آي.أيه.» إن القوات الصينية التي تم اكتشافها في يالو موجودة هناك لحماية المعامل الكهرومائية. وقالت للبيت الأبيض، في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر، إن تلك القوات الصينية مؤلفة من متطوعين متفرّقين. وفي ٣٠ تشرين الأول، وبعد تعرّض القوات الأميركية للهجوم ولإصابات جسيمة، أعادت «السي.آي.أيه.» التأكيد أن هجوماً رئيسياً صينياً غير مرّجح. بعد ذلك بأيام قليلة، استجوب ضباط من «السي.آي.أيه.» يتحدثون الصينية، سجناء عدة أُسروا إبان المواجهة، وحددوا أنهم من جنود ماو. وبرغم ذلك، أصرّ مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، للمرة الأخيرة، على أن الصين لن تجتاح بالقوة. إلا أنه بعد ذلك بيومين فقط شنّ ٣٠٠ ألف جندي صيني هجوماً عنيفاً، إلى درجة أنه كاد يدفع بالأميركيين إلى البحر.

بُهت بيديل سميث. فهو اعتقد أن عمل «السي.آي.أيه.» هو حماية الدولة من مفاجأة عسكرية. إلا أن الوكالة أخطأت، في السنة الماضية، في قراءة كل أزمة عالمية: القنبلة النووية السوفياتية؛ الحرب الكورية؛ الاجتياح الصيني. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠، وبينما أعلن الرئيس ترومان حالة الطوارئ الوطنية وأعاد استدعاء الجنرال أيزنهاور إلى الخدمة الفعلية، ضاعف بيديل سميث حربه الخاصة من أجل تحويل «السي.آي.أيه.» إلى جهاز استخبارات محترف. وتطلّع أولاً إلى شخص للسيطرة على فرانك ويسنر.

خطر ظاهر

اسم واحد طرح نفسه.

انحنى بيديل سميث في ٤ كانون الثاني/يناير، أمام ما لا يمكن تفاديه، وعيّن ألن دالاس نائباً لمدير «السي.آي.أيه.» للتخطيط (اللقب للتغطية؛ والوظيفة هي رئيس العمليات الخفية). وسرعان ما أثبت الرجلان أنهما لا يتناسبان، كما رأى ذلك عضو «السي.آي.أيه.» توم بولغار عندما راقبهما معاً في مقر القيادة: واستذكر قائلاً «من الواضح أن بيديل لا يحب دالاس، ومن السهل رؤية السبب. فضابط الجيش يتلقى أمراً وينفّذه. والمحامي يجد وسيلة

للمراوغة. وفي «السي.آي.أيه.»، كما تبيّن، «يشكّل الأمر نقطة انطلاق للنقاش».

تضاعفت عمليات ويسنر خمس مرات منذ بداية الحرب. ورأى بيديل سميث أن الولايات المتحدة لا تملك استراتيجية للقيام بهذا النوع من القتال. استغاث بالرئيس ترومان وبمجلس الأمن القومي. هل يفترض بالوكالة حقيقة أن تساند الثورة المسلحة في أوروبا الشرقية؟ في الصين؟ في روسيا؟ أجاب البنتاغون ووزارة الخارجية: «نعم، هذا كلّه وأكثر». وتساءل المدير: كيف؟ كان ويسنر يستخدم المئات من طلاب المعاهد كل شهر، ويُخضعهم لمدرسة الكوماندوس لبضعة أسابيع، ويرسلهم إلى ما وراء البحار لنصف سنة، ويقوم بمناوبتهم، ويرسل المزيد من المجندين الجدد لاستبدالهم. أخذ يحاول بناء آلة عسكرية عالمية بدون أي مظهر من مظاهر التدريب المحترف، واللوجستيات، أو الاتصالات. جلس بيديل سميث إلى مكتبه، يقضم البسكويت والدقيق الساخن اللذين يعيش عليهما من بعد العملية الجراحية في معدته، وغضبه يمتزج باليأس.

استقال الرجل الثاني في القيادة من بعده، نائب مدير الاستخبارات المركزية، بيل جاكسون، من جراء إحباطه. قال إن عمليات «السي.آي.أيه.» هي شربكة مستحيلة[١١]. لم يعد أمام بيديل سميث من خيار سوى ترقية دالاس إلى نائب للمدير، وويسنر إلى رئيس للعمليات الخفية. وعندما نظر إلى أول موازنة لـ «السي.آي.أيه.» طرحها الرجلان، انفجر. كانت ٥٨٧ مليون دولار[١٢]، أي بزيادة ١١ مرة عن ١٩٤٨. أكثر من ٤٠٠ مليون منها، كانت لعمليات ويسنر الخفية: ثلاثة أضعاف كلفة التجسس والتحليل مجتمعين.

يشكل هذا «خطراً بيّناً»[١٣] على «السي.آي.أيه.» كوكالة استخبارات»، قال بيديل سميث غاضباً. وحذّر من أن «الذنب العملاني سيبصبص لكلب الاستخبارات. وسيضطر ذوو المناصب العليا إلى استنفاد وقتهم كله في إدارة العمليات، وسيهملون بالضرورة الاستخبار». أخذ الجنرال عند ذلك الوقت يشك في أن دالاس وويسنر يخفيان عنه أمراً ما. وشرع في اجتماعاته اليومية

مع نواب المدير والفريق، والمسجلة في وثائق رُفعت عنها السرّية بعد ٢٠٠٢، يستنطقهم باستمرار عما يجري في ما وراء البحار. إلا أن أسئلته المباشرة حصلت على أجوبة غامضة ليس لها تفسير، أو لا أجوبة على الإطلاق. حذّرهم من عدم «الإخفاء» أو «التغطية على حوادث منحوسة أو أخطاء خطيرة». أمرهم بوضع كشف مفصل بمهماتهم شبه العسكرية: الأسماء الرمزية، المواصفات، الأهداف، الكلفة. لم ينصاعوا أبداً. وكتب ممثله الخاص في مجلس الأمن القومي، لودويل لي مونتاغ، «في حالة من سخطه، انهال عليهم بجام غضبه بأكثر مما فعل حيال أي أحد آخر». لم يكن بيديل سميث خائفاً من الكثير، كتب مونتاغ، إلا أنه كان غاضباً ومتخوفاً من فكرة أن دالاس وويسنر يقودان «السي.آي.أيه.» إلى «مصيبة ما سيئة التصوّر وكارثية. خشي أن بعض الأخطاء في ما وراء البحار، قد ينكشف إلى العلن».

لم نكن نعرف ما الذي نفعله

تكشف تأريخات «السي.آي.أيه.»(١٤) السرّية للحرب الكورية، عما خشيه منه بيديل سميث.

وهي تقول إن عمليات الوكالة شبه العسكرية «لم تكن غير فعّالة وحسب، بل أيضاً مستقبحة ربما بالنسبة إلى الخسارة في الأرواح». أسقط الآلاف من العملاء الكوريين والصينيين في كوريا الشمالية خلال الحرب، ولم يعودوا أبداً. واستنتجت الوكالة أن «مقدار الوقت والمال الذي صُرف، لم يكن يتناسب في شكل هائل مع ما تم إنجازه». لم يتم كسب شيء من «المبالغ الكبيرة التي صُرفت والأعداد الكبيرة للكوريين الذين تمت التضحية بهم». ومات مئات العملاء الصينيين الآخرين بعدما أطلقوا في القارة في عمليات سيئة التخطيط، براً، وجواً، وبحراً.

«معظم هذه المهمات لم يُرسَل من أجل الاستخبار، بل لتمويل مجموعات مقاومة غير موجودة أو وهمية»، قال بيتر سيشل، الذي شاهد سلسلة الإخفاقات

تحصل بعدما أصبح رئيس محطة في هونغ كونغ. «كانت مهمات انتحارية[١٥]... انتحارية وغير مسؤولة». واستمرت في خلال الستينيات، وأُرسلت فيالق من العملاء لتلقى حتفها في مطاردة للظلال.

خصص ويسنر في الأيام الأولى للحرب، ألف ضابط لكوريا، وثلاثمئة لتايوان، مع أوامر باختراق حصن ماو المسوّر وديكتاتورية كيم إيل سونغ العسكرية. أُلقي هؤلاء الرجال في المعركة بالقليل من التحضير والتدريب. كان دونالد غريغ واحداً منهم، وقد تخرج للتو من معهد ويليامز. أول تفكير له عندما اندلعت الحرب، كان: «أين تقع كوريا بحق الجحيم؟». وبعد دورة سريعة في العمليات شبه العسكرية، أُرسل إلى مركز جديد متقدم لـ «السي.آي.أيه.»، في وسط المحيط الهادئ. فقد كان ويسنر ينشئ قاعدة للعمليات الخفية في جزيرة سايبان بكلفة بلغت ٢٨ مليون دولار. وأصبحت سايبان، التي لا تزال ملأى بعظام قتلى الحرب العالمية الثانية، معسكر تدريب لعمليات «السي.آي.أيه.» شبه العسكرية في كوريا، والصين، والتيبت، وفيتنام. أخذ غريغ أولاد مزارع كوريين أشداء، جُمعوا من مخيمات اللاجئين، وهم شجعان، لكن غير منضبطين، ولا يتحدّثون الإنكليزية، وحاول تحويلهم إلى عملاء فوريين للاستخبارات الأميركية، وأرسلتهم «السي.آي.أيه.» في مهمات غير متقنة التخطيط، لم تحقق الكثير سوى قائمة تطول بالأرواح التي فُقدت. لازمت الذكرى غريغ وهو يترقّى في صفوف قسم الشرق الأقصى ليصبح رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في سيول، ثم السفير الأميركي في كوريا الجنوبية، وأخيراً كبير مساعدي الأمن القومي لنائب الرئيس جورج هـ. و. بوش.

«كنا نتبع خطى «الأو.أس.أس.»»، قال غريغ. «لكن الأناس الذين كنّا نهاجمهم، تمتعوا بالسيطرة الكاملة. لم نكن نعرف ما الذي نفعله. سألت رؤسائي عن طبيعة المهمة، ورفضوا أن يقولوا لي. لم يعرفوا ما هي المهمة. كانت حماسة من أسوأ نوع. كنا ندرب كوريين وصينيين وكثراً من الأناس الغريبين، ونُسقط الكوريين في شمال كوريا، والصينيين في الصين عند شمال

الحدود الكورية تماماً. كنا نسقط هؤلاء الناس في الداخل، ولا نعود نسمع عنهم أبداً».

كان «السجل في أوروبا سيئاً»، قال. «السجل في آسيا سيىء. لقد حازت الوكالة سجلاً مريعاً في أيامها الأولى: سمعة عظيمة وسجلاً رديئاً»(١٦).

«السي.آي.أيه.» تتعرض للخداع

نبّه بيديل سميث تكراراً ويسنر إلى الحذر من الاستخبارات الزائفة التي يفبركها العدو. إلا أن بعضاً من ضباط ويسنر كانوا أنفسهم من المفبركين، بمن فيهم رئيس المحطة ورئيس العمليات اللذان أرسلهما إلى كوريا.

تمّ في شباط/فبراير، وآذار/مارس، ونيسان/أبريل ١٩٥١، جمع أكثر من ألف ومئتي منفي كوري شمالي في جزيرة يونغ ـ دو، في ميناء بوسان، بإمرة قائد العمليات، هانس توفت، وهو أحد قدامى «الأو.أس.أس.»، ويتملك موهبة كبيرة في خداع رؤسائه أكثر من أعدائه. شكّل توفت ثلاثة ألوية ـ النمر الأبيض، التنين الأصفر، والتنين الأزرق ـ مع ٤٤ فريق حرب عصابات. كانت مهمتهم ذات ثلاثة جوانب: العمل كمندسّين لجمع المعلومات الاستخبارية؛ وفرق حرب عصابات؛ وطواقم نجاة وهروب لإنقاذ الطيارين الأميركيين وطواقمهم الذين يتم إسقاطهم.

نزل لواء النمر الأبيض في كوريا الشمالية في نهاية نيسان/أبريل ١٩٥١، وضم ١٠٤ رجال تم تعزيزهم بستة وثلاثين عميلاً إضافياً أنزلوا بالمظلات. وقبل مغادرته كوريا بعد ذلك بأربعة أشهر، بعث توفت بتقارير مشرقة عن إنجازاته. لكن، بحلول تشرين الثاني/نوفمبر، قُتل معظم محاربي النمر الأبيض، أو أُسروا، أو فُقدوا. ولقي التنين الأزرق والتنين الأصفر المصير ذاته. وقد وقعت فرق التغلغل القليلة التي نجت، في الأسر، وأُجبرت تحت التهديد بالموت على خداع ضباطها الأميركيين المسؤولين عنها من خلال رسائل لاسلكية زائفة. لم

يتمكن أي من رجال حرب العصابات من الخروج حيّاً. ومعظم فرق النجاة والهروب ضاعت أو ذُبحت.

أسقط ضباط ويسنر في ربيع العام ١٩٥٢ وصيفه، أكثر من ألف وخمسمئة عميل كوري في الشمال. وقد بعثوا بفيض من التقارير اللاسلكية حول التحركات العسكرية الكورية الشمالية والصينية. وقام بالإخبار عنهم وكشف مهمتهم رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في سيول، ألبرت ر. هاني، وهو عقيد في الجيش ثرثار وطموح، تبجّح علناً بأن لديه آلاف الرجال يعملون لديه في مهمات حرب عصابات وتجسس. وقال هاني إنه أشرف شخصياً على تجنيد مئات الكوريين وتدريبهم. واعتقد بعض من رفاق هاني الأميركيين، أنه متهوّر خطير. وشكّ وليام و. توماس جونيور، وهو ضابط استخبارات سياسية لوزارة الخارجية في سيول، في أن لرئيس المحطة جدولاً بالمعاشات مليئاً بأناس «يسيطر عليهم الطرف الآخر»[١٧].

كذلك فعل جون ليموند هارت، الذي حلّ، في أيلول/سبتمبر ١٩٥٢، محلّ هاني رئيساً لمحطة سيول. وبعد سلسلة من التجارب اللاذعة مع مفبركي المعلومات الاستخبارية في أوروبا خلال أعوامه الأولى في«السي.آي.أيه.» وفي خلال الفترة الوجيزة التي أدار فيها المنفيين الألبانيين من روما، أدرك هارت بقوة مشاكل الخداع والمعلومات المضللة، وقرر إلقاء «نظرة متشددة على الإنجازات[١٨] العجائبية التي ادعى القيام بها من سبقوني».

ترأس هاني مئتي ضابط من «السي.آي.أيه.» في سيول، لم يكن أي منهم يتحدث الكورية. واعتمدت المحطة على مجندين كوريين أشرفوا على عمليات حرب العصابات، ومهمات جمع المعلومات الاستخبارية في الشمال. توصّل هارت، بعد ثلاثة أشهر من التنقيب، إلى أن كل عميل كوري تقريباً قد ورثه، إما عمد إلى اختراع تقاريره وإما عمل سرّاً للشيوعيين. فكل برقية أرسلتها المحطة عن الجبهة إلى مقر «السي.آي.أيه.» في الأشهر الثمانية عشرة الماضية، شكّلت عملية خداع محسوبة.

وروى هارت أن «تقريراً محدداً واحداً يحيا في ذاكرتي. لقد زعم أنه جوجلة لجميع الوحدات الصينية والكورية الشمالية على طول خط المعركة، ذاكراً قوة كل وحدة والرقم المحدد لها». وحيّاه قادة الجيش الأميركي بوصفه «واحداً من التقارير الاستخبارية البارعة للحرب». وقرر هارت أنه فبركة كاملة.

ومضى ليكتشف أن جميع العملاء المهمين الذين جندهم هاني ـ ليس بعضهم بل جميعهم ـ، كانوا «غشاشين عاشوا لبعض الوقت بسعادة على المعاشات السخية لـ «السي.آي.أيه.»، ويفترض أنهم أُرسلوا إلى الموجودات في كوريا الشمالية. وكل تقرير تقريباً تلقيناه من عملائهم الوطنيين جاء من لدن أعدائنا».

واستنتجت «السي.آي.أيه.» بعد وقت طويل على انتهاء الحرب الكورية، أن هارت محق: فجميع المعلومات السرّية تقريباً التي جمعتها الوكالة خلال الحرب، قد فبركتها أجهزة الأمن الكورية الشمالية والصينية. ومُرّرت المعلومات الاستخبارية الوهمية إلى البنتاغون والبيت الأبيض. لقد تم اختراق عمليات الوكالة شبه العسكرية في كوريا، وخيانتها قبل أن تبدأ.

أبلغ هارت مقر القيادة بوجوب وقف عمليات المحطة إلى أن يتم ترتيب دفتر الحساب وإصلاح الضرر. فجهاز استخبارات اخترقه العدو أسوأ من عدم وجود جهاز على الإطلاق. وبدلاً من ذلك، أوفد بيديل سميث مبعوثاً إلى سيول لابلاغ هارت أن «السي.آي.أيه.»، كونها منظمة جديدة(١٩) لم تثبت سمعتها بعد، لا يمكنها أن تعترف وحسب لشُعَب أخرى في الحكومة ـ والأقل من ذلك كله لجهاز الاستخبارات العسكرية المنافس جداً ـ بعدم قدرتها على جمع الاستخبارات حول كوريا الشمالية». وكان الرسول نائب مدير الاستخبارات لوفتوس بيكر. وعاد بيكر، بعدما أوفده بيديل سميث، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، في جولة تفتيشية على كل محطات «السي.آي.أيه.» الآسيوية، وقدّم استقالته. فقد انتهى إلى أن الوضع ميؤوس منه: فقدرة

«السي.آي.أيه.» على جمع الاستخبارات في الشرق الأقصى «تكاد تكون معدومة». وتواجه، قبل استقالته، مع فرانك ويسنر، وأبلغه «أن العمليات المنفوخة مؤشر إلى انعدام النجاح[٢٠]، وقد حصل عدد كبير منها أخيراً».

دُفنت تقارير هارت وخداعات هاني. لقد سقطت الوكالة في كمين، وصوّرت ذلك على أنه مناورة استراتيجية. وقال العقيد في سلاح الجو جيمس ج. ل. كيلّيس، الذي خدم بوصفه مديراً لعمليات ويسنر شبه العسكرية، إن دالاس أبلغ أعضاء في الكونغرس أن «السي.آي.أيه.» تسيطر على عناصر مقاومة كبيرة جداً في كوريا الشمالية». وكان، عند ذاك الوقت، قد تم تحذير دالاس من أن «عمليات حرب العصابات التابعة لـ «السي.آي.أيه.» في كوريا الشمالية خاضعة لسيطرة العدو»؛ وأفاد كيلّيس في رسالة أطلقت صفارة الإنذار بعث بها إلى البيت الأبيض بعد انتهاء الحرب، بأن «السي.آي.أيه.» «لا تملك» في الواقع «مثل هذه الموجودات»، وأن «السي.آي.أيه.» قد تعرّضت للخداع»[٢١].

أخذت القدرة على تصوير الفشل على أنه نجاح، تصبح تقليداً في «السي.آي.أيه.» وأصبحت عدم رغبة الوكالة في التعلّم من أخطائها جزءاً مستمراً من ثقافتها. لم يكتب محرّكو العمليات الخفية في «السي.آي.أيه.» أبداً دراسات حول «الدروس التي تم تعلّمها». وحتى اليوم، ثمة قواعد قليلة، إذا ما وجدت على الإطلاق، أو إجراءات لإنتاج مثل هذه الدراسات.

واعترف ويسنر في اجتماع لمقر القيادة بـ «أننا جميعنا ندرك أن عمليات في الشرق الأقصى، هي أبعد ما يكون عمّا نرغب فيه[٢٢]. ونحن لم نحظ وحسب بالوقت لتطوير كمية الأناس الذين يجب أن نحصل عليهم، ونوعيتهم، إذا ما أردنا أن نتولى بنجاح الأحمال الثقيلة الموضوعة على كواهلنا». ولا يزال عدم القدرة على اختراق كوريا الشمالية، يشكل أطول إخفاق استخباري مستمر في تاريخ «السي.آي.أيه.».

على بعض الناس أن يُقتلوا

فتحت الوكالة، في ١٩٥١، جبهة ثانية في الحرب الكورية. فالضباط المسؤولون عن مكتب العمليات الصينية[٢٣]، أقنعوا أنفسهم، وقد أصبحوا كالمسعورين لدخول ماو الحرب، بوجود ما يصل إلى مليون من رجال حرب العصابات الوطنيين، الكومينتانغ (الحزب الشعبي الوطني)، ينتظرون داخل الصين الحمراء مساعدة من «السي.آي.أيه.».

هل هذه التقارير من فبركة طواحين الورق في هونغ كونغ، أم من إنتاج التعامي السياسي في تايوان، أم من استحضار واشنطن التفكّر في صحة الشيء لمجرّد تمنّيه؟ أكان من المحكمة أن تشن «السي.آي.أيه.» الحرب على ماو؟ ما من وقت للتمحيص في ذلك. وأبلغ بيديل سميث، دالاس وويسنر، أنه «لا توجد في الحكومة استراتيجية متوافَق عليها لهذا النوع من الحرب. وليست لدينا سياسة حتى في شأن تشيانغ كاي ـ شيك»[٢٤].

وضع دالاس وويسنر سياستهما الخاصة. حاولا أولاً تجنيد أميركيين للهبوط بالمظلة داخل الصين الشيوعية. تشوّق أحد المجنّدين المحتملين، بول كريسبرغ، إلى الانضمام إلى «السي.آي.أيه.» إلى أن «اختبروا ولائي والتزامي[٢٥] بسؤالي إذا كنت مستعداً لإسقاطي بالمظلة في شيزوان، حيث سيصبح هدفي تنظيم مجموعة من جنود الكيومينتانغ المناهضين للشيوعية الذين بقوا في أعالي تلال شيزوان والعمل معهم في عدد من العمليات، ومن ثم سحب نفسي عائداً، إذا دعت الضرورة، عبر بورما. نظروا إليّ، وقالوا، هل أنت على استعداد للقيام بذلك؟». فكّر كريسبرغ في الأمر ملّياً، وانضم إلى وزارة الخارجية. وقامت «السي.آي.أيه.»، التي افتقرت إلى متطوعين أميركيين، بإسقاط مئات من العملاء الصينيين المجندين في البرّ الصيني، وغالباً ما أسقطتهم بطريقة عمياء، ومعهم أوامر بإيجاد طريقهم إلى قرية ما. وعندما يتم فقدانهم، كانوا يُسجّلون على أنهم كلفة الحرب الخفية.

اعتقدت «السي.آي.أيه.» أيضاً أنه في وسعها تقويض ماو بواسطة خيّالة

مسلمين، وهم عشائر هوي في شمال غرب الصين بقيادة ما بو ـ فانغ، الزعيم القبلي ذي الروابط السياسية مع الوطنيين الصينيين. أسقطت «السي.آي.أيه.» أطناناً من الأسلحة والذخائر وأجهزة اللاسلكي، وأعداداً كبيرة من العملاء الصينيين في غرب الصين، ثم حاولت العثور على أميركيين يلحقون بهم. وكان مايكل د. كو من بين الرجال الذين حاولت تجنيدهم، وقد أصبح لاحقاً واحداً من أعظم علماء الآثار في القرن العشرين، كونه الرجل الذي فكّ رموز كتابة المايا الهيروغليفية. كان كو في خريف ١٩٥٠، متخرجاً في الثانية والعشرين من العمر من هارفرد عندما اصطحبه أحد الأساتذة إلى الغداء، وطرح عليه سؤالاً سيسمعه الآلاف من رابطة آيفي على مرّ العقد التالي: «هل ترغب في العمل للحكومة في مجال مثير فعلاً للاهتمام؟». مضى إلى واشنطن وحصل على اسم مستعار اختير عشوائياً من دليل هاتف لندني. وتم إبلاغه بأنه سيصبح ضابطاً محرّكاً لعملية أو عمليتين سرّيتين. وهو إما سيتم إسقاطه بالمظلة في عمق الصين الغربية لمساندة المقاتلين المسلمين، وإما سيُرسل إلى جزيرة قبالة شواطئ الصين لشن غارات.

قال كو «لحسن حظي[٢٦] أنه تم اعتماد الخيار الأخير». أصبح جزءاً من وسترن إنتربرايزس، وهي واجهة لـ «السي.آي.أيه.» في تايوان، وقد أنشئت بهدف تخريب صين ماو. أمضى ثمانية أشهر في جزيرة صغيرة جداً تدعى وايت دوغ (الكلب الأبيض). وعملية الاستخبار الوحيدة ذات الشأن في الجزيرة، هي اكتشاف أن رئيس قيادة الأركان الوطنية كان جاسوساً شيوعياً. وفي العودة إلى تايبه، في الأشهر الأخيرة على الحرب الكورية، وجد أن وسترن إنتربرايزس لم تكن أكثر سرّية من بيوت الدعارة الصينية التي ارتادها زملاؤه. وقال «لقد بنوا مجتمعاً مسوّراً بأكمله يتمتع بمتجره وبناديه الخاص للضباط. الروح التي كانت موجودة تغيّرت. انه لهدر لا يُعقل للمال». واستنتج كو أن «الوطنيين باعوا «السي.آي.أيه.» بضائعَ وهمية، بأن ثمة قوة مقاومة هائلة داخل الصين. كنّا ننبح عند الشجرة الخاطئة. وشكّلت العملية برمّتها مضيعة للوقت».

تمسكت «السي.آي.أيه.» برهاناتها على الصينيين الوطنيين، وقررت وجوب

وجود «قوّة ثالثة» في الصين[٢٧]. وأنفقت الوكالة، من نيسان/أبريل ١٩٥١ وحتى نهاية ١٩٥٢، مئة مليون دولار في شراء ما يكفي من السلاح والذخيرة لمئتي ألف محارب عصابات[٢٨]، بدون أن تعثر على القوة الثالثة الصعبة الإدراك. راح نحو نصف المال والسلاح، إلى مجموعة من اللاجئين الصينيين متمركزين في أوكيناوا باعوا «السي.آي.أيه.» فكرة أن كادراً هائلاً من القوات المعادية للشيوعية في البرّ الصيني تساندهم. كانت تلك عملية احتيال. وقال راي بيرز، قديم «الأو.أس.أس.» الذي أدار وسترن إنتربرايزس، إنه إذا ما وجد أبداً جندياً حقيقياً حيّاً من القوة الثالثة، فسيقتله، ويحنّطه، ويشحنه إلى مؤسسة السميثونيان للأبحاث.

كانت «السي.آي.أيه.» لا تزال تبحث عن القوة الثالثة الصعبة الإدراك عندما أسقطت فريقاً من أربعة مقاتلين صينيين من عصابات داخل منشوريا في تموز/يوليو ١٩٥٢. بعد ذلك بأربعة أشهر، اتصل الفريق لاسلكياً طالباً النجدة. كان ذلك فخّاً: فقد تم أسرهم، وحوّلهم الصينيون ضد «السي.آي.أيه.» سمحت الوكالة بمهمة إنقاذ يتم فيها استخدام حبل رفع تم اختراعه حديثاً، ومصمم لسحب الرجال العالقين. أرسل ديك فيكتو وجاك داوني[٢٩]، وهما ضابطان شابان من «السي.آي.أيه.»، في مهمتهما الأولى إلى مرمى إطلاق النار. سقطت طائرتهما تحت وابل من رصاص الرشاشات الصينية. مات الطياران. وأمضى فيكتو ١٩ عاماً في سجن صيني، وأمضى داوني، المتخرج حديثاً من يال، أكثر من عشرين عاماً. وأذاعت بكين لاحقاً جدولاً إحصائياً لمنشوريا: أسقطت «السي.آي.أيه.» ٢١٢ عميلاً أجنبياً؛ قُتل ١٠١، وأسر ١١١.

يقع مسرح «السي.آي.أيه.» الأخير للحرب الكورية في بورما. في أوائل ١٩٥١، وبينما كان الصينيون الشيوعيون يطاردون قوات الجنرال ماك أرثور جنوباً، اعتقد البنتاغون أن في إمكان الوطنيين الصينيين تخفيف بعض الضغط عن الجنرال ماك أرثور من خلال فتح جبهة ثانية. كان نحو ألف وخمسمئة من أتباع لي مي، الجنرال الوطني، متروكين عالقين في شمال بورما على مقربة من

الحدود الصينية. طلب لي مي أسلحة أميركية وذهباً أميركياً. وشرعت «السي.آي.أيه.» تنقل جواً جنوداً وطنيين صينيين إلى تايلند، وتدرّبهم، وتجهزّهم، وتسقطهم إلى جانب شحنات السلاح والذخيرة في شمال بورما. سبق لديسموند فيتزجيرالد، الواصل حديثاً إلى الوكالة بأوراق اعتماد حقوقية واجتماعية لمّاعة، أن حارب في بورما إبّان الحرب العالمية الثانية. تسلّم عملية لي مي[٣٠]. وسرعان ما تحوّلت إلى مهزلة، ومن بعدها إلى مأساة.

عندما عبر جنود لي مي إلى داخل الصين، أطلقت عليهم قوات ماو النار، وقطّعتهم إرباً. اكتشف ضباط تجسس «السي.آي.أيه.» أن عامل اللاسلكي لدى لي مي في بانكوك عميل صيني. لكن رجال ويسنر ألحّوا. انسحب جنود لي مي، وأعادوا تجميع أنفسهم. وعندما أسقط فيتزجيرالد مزيداً من السلاح والذخيرة في بورما، رفض رجال لي مي القتال. استقرّوا في الجبال المعروفة بالمثلث الذهبي، وزرعوا الأفيون، وتزوجوا بنساء محلّيات. وبعد ذلك بعشرين سنة، ستضطر «السي.آي.أيه.» إلى شن حرب صغيرة أخرى في بورما للقضاء على مختبرات الهيرويين التي شكّلت قاعدة امبراطورية لي مي العالمية للمخدرات.

«ما من فائدة في النواح على الفرص المهدورة... ولا في محاولة إيجاد الأعذار للإخفاقات الماضية»، كتب بيديل سميث في رسالة إلى الجنرال ماثيو ب. ريدجواي، خليفة ماك أرثور كرئيس لقيادة الشرق الأقصى. «اكتشفت، من خلال التجربة المؤلمة[٣١]، أن المهمات الخفية، هي عمل للمحترفين وليس للهواة».

جاء ملحق لكوارث «السي.آي.أيه.» الكورية بعد قليل على هدنة[٣٢] تموز/ يوليو ١٩٥٣. وجدت «السي.آي.أيه.» في رئيس كوريا الجنوبية سينغمان ري، حالة ميؤوساً منها، وسعت على مدى سنين إلى وسائل لاستبداله، بل إنها كادت تقتله عن طريق الخطأ.

أبحر يخت بعد ظهر أحد أيام الصيف الصافية، ببطء أمام شاطئ يونغ ـ دو، الجزيرة المعسكر التي تدرّب «السي.آي.أيه.» فيها مغاويرها الكوريين. كان

الرئيس ري على متنه يحتفل مع أصدقائه. لم يتم إبلاغ الضباط والحراس المسؤولين عن مقر التدريب، أن الرئيس سيمرّ من هناك. فتحوا النار. وبما هو أشبه بالمعجزة، لم يُصَب أحد، لكن الرئيس استاء. استدعى السفير الأميركي وأبلغه بان أمام مجموعة «السي.آي.أيه.» شبه العسكرية، ٧٢ ساعة لمغادرة البلاد. وبعد ذلك بوقت قصير، اضطر رئيس المحطة، جون هارت، العديم الحظ، إلى البدء مرة أخرى من جديد، مجنّداً، ومدرّباً، ومسقطاً بالمظلات عملاء في كوريا الشمالية من ١٩٥٣ وحتى ١٩٥٥. وعلى حد علمه، فإن جميعهم قد اعتُقلوا أو أُعدموا.

فشلت الوكالة على كل الجبهاتَ في كوريا. فشلت في توفير الإنذار، وفي توفير التحليل، وفي نشرها المتسرّع للعملاء المجنّدين. والنتيجة كانت آلاف الأميركيين وحلفائهم الآسيويين القتلى.

أطلق قدامى الجيش الأميركي بعد جيل على ذلك، على كوريا اسم «الحرب المنسيّة». حصل في الوكالة فقدان مقصود للذاكرة. فقد تم ترتيب هدر ١٥٢ مليون دولار على الأسلحة ومقاتلي العصابات الوهميين في دفاتر الحسابات. وتم كتمان واقع أن جزءاً كبيراً من استخبارات حرب كوريا، كان خاطئاً أو مفبركاً. ولم يُطرح السؤال، ناهيك بالإجابة عنه، حول كلفتها في الأرواح المزهوقة.

إلا أن مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، دين راسك، اشتمّ رائحة عفونة. طلب من جون ملبي، وهو مساعد ماهر في شؤون الصين في وزارة الخارجية، إجراء تحقيق. سبق لملبي أن عمل جنباً إلى جنب مع أول جواسيس أميركيين في آسيا منذ أواسط الأربعينيات وما بعدها، وهو يعرف طبيعة اللاعبين. مضى إلى المنطقة، وألقى نظرة طويلة وقاسية. وأبلغ راسك، في تقرير مخصص للاطلاع فقط، وانتهى بطريقة ما على مكتب مدير الاستخبارات المركزية، «أن استخباراتنا على درجة كبيرة من السوء، بحيث إنها تقارب الإخلال بالوظيفة»[٣٣]. استدعي ملبي إلى مقر «السي.آي.أيه.»، حيث

تعرّض لتوبيخ كلاسيكي من بيديل سميث، بينما جلس نائب المدير ألن دلاس هناك صامتاً.

لطالما شكّلت آسيا عرضاً مصوّراً بالنسبة إلى دالاس. فقد اعتقد أن الحرب الحقيقية من أجل الحضارة الغربية هي في أوروبا. وأبلغ قلّة من أقرب أصدقائه وزملائه في مؤتمر سرّي عُقد في برنستون إن في أيار/مايو ١٩٥٢، أن هذا القتال يستلزم «أناساً مستعدين وراغبين في النهوض وتحمّل العواقب»[٣٤]. وقال، استناداً إلى نسخة منقولة رُفعت عنها السرّية في ٢٠٠٣، «لقد سقط لنا، بعد كل شيء، مئة ألف إصابة في كوريا. ولو كنا على استعداد للقبول بهذه الإصابات، لما قلقت لسقوط بضع إصابات أو بضعة شهداء في ما وراء الستار الحديدي... لا أعتقد أنه في إمكانك الانتظار إلى أن تصبح جميع قواتك في متناولك، وأن تصبح متأكداً من أنك ستفوز، بل عليك الانطلاق والمضي».

«سيسقط لك بضعة شهداء»، قال دالاس. و«على بعض الناس أن يتعرض للقتل».

٧

حقل شاسع من الأوهام

سأل ألن دالاس زملاءه في برنستون، أن يدرسوا أفضل الوسائل لتدمير قدرة ستالين على السيطرة على الدول التي تدور في فلكه. اعتقد أنه في الإمكان إزالة الشيوعية عن طريق العمل الخفي. فـ «السي.آي.أيه.» جاهزة لدحر روسيا إلى حدودها القديمة.

قال «إذا كنا سنمضي قُدُماً ونأخذ المبادرة[١]، فإن أوروبا الشرقية تشكّل أفضل مكان للبدء». «لا أريد معركة دموية»، قال، «لكنني أود أن أرى الأمور، وقد انطلقت».

تكلّم تشيب بوهلن بصراحة. وهو، الذي سرعان ما سيُعيَّن سفيراً أميركياً في موسكو، شكّل جزءاً من اللعبة منذ البداية. فبذور برنامج «السي.آي.أيه.» للحرب السياسية، زُرعت في البداية في مآدب العشاء ليالي الآحاد التي شارك فيها قبل ذلك بخمس سنين. وطرح على دالاس سؤالاً بيانياً، «هل نشنّ حرباً سياسية؟». «إننا نشنّها منذ ١٩٤٦. وقد حصل الكثير من الأمور. أما إذا كان ذلك فعّالاً، أو تم القيام به بالطريقة الفضلى، فتلك مسألة أخرى».

«عندما تسأل، هل علينا أن نشرع في الهجوم؟ فإنني أشاهد حقلاً شاسعاً من الأوهام»، قال بوهلن.

كانت الحرب في كوريا لا تزال مستعرة، حينما أمر الرؤساء المشتركون لهيئة الأركان فرانك ويسنر و«السي.آي.أيه.»، بشن «عملية خفية رئيسية ضد الاتحاد السوفياتي»، تستهدف «مركز منظومة السيطرة الشيوعية»[٢]. قام ويسنر

بالمحاولة. وتم الشروع في تحويل مشروع مارشال إلى مواثيق تزوّد حلفاء أميركا بالأسلحة، ورأى ويسنر في هذا فرصة لتسليح قوات موجودة سرّاً وراء الخطوط لقتال السوفيات في حالة الحرب. أخذ يزرع الأرض في جميع أنحاء أوروبا. وفي مختلف أنحاء جبال البلدان الاسكندينافية وغاباتها، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، واليونان، شرع رجاله في إلقاء سبيكات الذهب في البحيرات، ويدفنون مخابئ الأسلحة للمعركة المقبلة. وأخذ طيّاروه في إسقاط عملاء في مستنقعات أوكرانيا ودول البلطيق وسفوحها، ليلقوا حتفهم.

شرع أكثر من ألف من ضباطه، في ألمانيا، في تهريب المناشير إلى برلين الشرقية، مزوّرين طوابع بريدية تحمل رسم الزعيم الألماني الشرقي والتر أولبريخت، وأنشوطة المشنقة حول عنقه، ومخططين لمهمات شبه عسكرية في بولندا. إلا أن أياً من هذا، لم يوفّر معرفة عميقة عن طبيعة التهديد السوفياتي. وظلّت عمليات تخريب الامبراطورية السوفياتية تغلب الخطط للتجسس عليها.

أنت تمتلكه جسداً وروحاً

أوفد والتر بيديل سميث، المحاذر كثيراً، الجنرال لوسيان ك. تراسكوت، صاحب النجوم الثلاث، والموثوق، وهو ضابط ذو ارتباطات لا تشوبها شائبة ويمتلك سجلاً حربياً متميّزاً، لتولي عمليات «السي.آي.أيه.» في ألمانيا واكتشاف ما يفعله رجال ويسنر. قضت أوامر الجنرال تراسكوت بتعليق كل مخطط يعتبره مريباً. واختار، لدى وصوله، توم بولغار من قاعدة «السي.آي.أيه.» في برلين، ليصبح كبير مساعديه.

عثرا على قنابل عدة موقوتة على وشك الانفجار، ومن بينها سرّ خفيّ جداً، وُصف يومها في وثائق «السي.آي.أيه.» بأنه برنامج «للتحقيقات في ما وراء البحار».

أقامت الوكالة سجوناً سرّية لانتزاع الاعترافات ممن يشتبه في أنهم عملاء مزدوجون. واحد في ألمانيا، وآخر في اليابان. أما الثالث، والأكبر، ففي منطقة

قناة بنما، حيث «كان كل شيء على غرار غوانتانامو[٣]، مسموحاً»، كما قال بولغار في ٢٠٠٥.

شكّلت المنطقة عالماً خاصاً بها، وقد استولت عليها الولايات المتحدة عند مقلب القرن، وجرفت الأدغال التي كانت تحيط بقناة بنما. وفي القاعدة البحرية في المنطقة، أعادت «السي.آي.أيه.» إصلاح مجمع من المباني الاسمنتية يضم زنازين موجودة في سجن عسكري يُستخدم عادة لاحتجاز البحارة السكارى والمخلّين بالنظام. وأخذت الوكالة تُجري، داخل هذه الزنازين، تجارب على الاستجواب العنيف، مستخدمة التقنيات التي تقارب حد التعذيب، والسيطرة على الذهن بواسطة العقاقير، وغسل الدماغ.

يعود المشروع بالتاريخ إلى ١٩٤٨، عندما أدرك ريتشارد هيلمس وضباطه في ألمانيا، أنهم يتعرضون للخداع على أيدي عملاء مزدوجين. وشرع هذا المسعى في برنامج مكثف في ١٩٥٠، حينما اندلعت الحرب الكورية، واستولى على «السي.آي.أيه.» إحساس بضرورة القيام بمعالجة عاجلة. وفي وقت متأخر من ذلك الصيف، وقد قاربت الحرارة المئة درجة في بنما، تم حقن مهاجرين روسيين، سُلّما إلى القناة من ألمانيا، بالعقاقير، وأُخضعا لاستجواب عنيف. وكانا، إلى جانب أربعة عملاء مزدوجين كوريين شماليين تعرّضوا للمعاملة ذاتها في قاعدة عسكرية صادرتها «السي.آي.أيه.» في اليابان، أول حيوانات تجارب إنسانية معروفة ضمن برنامج يحمل اسماً رمزياً هو مشروع «الخرشوف» (الأرضي شوكي)[٤]، وهو جزء صغير، لكنه ذو مغزى، من عملية بحث تقوم بها «السي.آي.أيه.» منذ خمسة عشر عاماً للعثور على سبل للسيطرة على الذهن البشري.

ضلّ الكثيرون من الروس والألمان الشرقيين الذين جنّدتهم الوكالة عملاء ومخبرين في ألمانيا. فبعدما أعطوا ما لديهم من معلومات قليلة، لجأوا إلى الخداع أو الابتزاز لتمديد أمد وظائفهم. اتُّهم عدد ليس بالقليل منهم بالعمل سرّاً للسوفيات. أصبحت المسألة ملحّة عندما أدرك ضباط «السي.آي.أيه.» أن

الاستخبارات الشيوعية وأجهزة الأمن، أكبر من الوكالة، وأكثر تطوراً منها بكثير.

قال ريتشارد هيلمس مرّة إنه تم تدريب ضباط الاستخبارات الأميركيين على الاعتقاد أنه ليس في إمكانهم الاعتماد على عميل أجنبي «ما لم تمتلكه جسداً وروحاً». وأدت الحاجة إلى طريقة لامتلاك روح الرجل، إلى البحث عن عقاقير للسيطرة على الذهن، وإلى سجون خاصة لاختبارها. وكان دالاس، وويسنر، وهيلمس، مسؤولين شخصياً عن هذه المساعي.

تلقى دالاس وويسنر في ١٥ أيار/مايو ١٩٥٢، تقريراً عن مشروع «الخرشوف»، يوضح جهد الوكالة الذي استمر أربع سنين في تجربة الهيروين، والأمفيتامينات، والحبوب المنومة، وعقار «الأل.أس.دي.» المكتشف حديثاً، وغير ذلك من «التقنيات الخاصة في استجوابات «السي.آي.أيه.»» وتطلّع جزء من المسعى إلى العثور على تقنية استجواب على درجة عالية من القوة بحيث «إن الشخص الخاضع لتأثيرها سيجد من الصعب الحفاظ على اختلاقاته تحت التحقيق». وافق دالاس بعد ذلك ببضعة أشهر، على مشروع طموح جديد اسمه الرمزي ألترا. وأبقي، بموجبه، سبعة سجناء في سجن فديرالي في كنتاكي في حالة احتداد بوساطة «الأل.أس.دي.» على مدى سبعة وسبعين يوماً متواصلة. وعندما مرّرت «السي.آي.أيه.» العقار ذاته إلى فرانك أولسون، وهو موظف مدني في الجيش، وثب من نافذة أحد فنادق نيويورك. كان هؤلاء الأشخاص، على غرار العميلين المزدوجين اللذين سُلّما سرّاً إلى بنما، مجنّدين تمكن التضحية بهم في المعركة من أجل هزيمة السوفيات.

دمّر ضباط كبار في «السي.آي.أيه.»، ومن بينهم هيلمس، جميع الوثائق المتعلّقة بهذه البرامج مخافة ان تظهر إلى العلن. وكان ما تبقّى من دليل مجزّأً، لكنه يوحي بقوة بأن هذه السجون استخدمت، عبر الخمسينيات، في عمليات التحقيق من خلال حقن عملاء مشتبه فيهم إكراهياً بالعقاقير. اجتمع عناصر من الجهاز الخفي، ومكتب الأمن في الوكالة، وعلماء «السي.آي.أيه.» وأطباؤها شهرياً، وحتى ١٩٥٦، لمناقشة التقدم في مشروع «الخرشوف». وتظهر سجلات

الوكالة أن «هذه المناقشات تضمنت التخطيط لاستجوابات في ما وراء البحار»، وأن استخدام تقنيّات «تحقيق خاصة» استمرّ لعدة سنين بعد ذلك[٥].

دفع الجهد لاختراق الستار الحديدي بـ «السي.آي.أيه.» إلى تبني تكتيكات أعدائها.

خطّة مدروسة جيّداً، ما عدا...

من بين عمليات «السي.آي.أيه.» التي قضى عليها الجنرال تراسكوت، مسعى مجموعة تدعى الشبان الألمان[٦]. فقد كان الكثيرون من قادتهم من شبان هتلر الذين تقدمت بهم السن. وقد ارتفع عدد المنضوين إلى أكثر من عشرين ألفاً في ١٩٥٢. حملوا، بحماسة، أسلحة «السي.آي.أيه.»، وأجهزتها اللاسلكية، وأجهزة تصويرها، وأموالها ودفنوها في شتى أنحاء البلاد. وشرعوا أيضاً في وضع لائحتهم الموسعة الخاصة لاغتيال السياسيين الألمان الغربيين الديموقراطيين الرئيسيين عندما تؤاتيهم الظروف في ذلك. وأصبح الشبان الألمان فاجرين إلى درجة أن وجودهم ولائحة أعدائهم تسببا في فضيحة عامة.

«سدّد سقوط السرّية ضربة كبرى، وأضحى مدعاة للكثير من القلق»، قال جون مكماهون، نائب المدير المقبل للاستخبارات المركزية، وكان يومها ضابطا صغيرا في «السي.آي.أيه.» في فريق تراسكوت.

في اليوم ذاته الذي تحدّث فيه دالاس في البرينستون إن، كان هنري هكشر يكتب التماساً نابعاً من القلب إلى مقر قيادة «السي.آي.أيه.» فعلى مدى سنين رعى هكشر، الذي سرعان ما سيصبح رئيساً لقاعدة برلين، عميلاً فريداً من نوعه داخل ألمانيا الشرقية، هو هورست إردمان الذي يدير مجموعة سرّية تدعى لجنة القانونيين الأحرار. والقانونيون الأحرار كناية عن مجموعة سرّية من المحامين الشبان والعاملين في قطاع القانون، يعارضون النظام الشيوعي في برلين الشرقية. وجمعوا ملفات بالجرائم التي ارتكبتها الدولة. وقد تقرّر عقد

مؤتمر للمجلس الدولي للقانونيين في تموز/يوليو ١٩٥٢ في برلين الغربية، وكان يمكن القانونيين الأحرار أن يلعبوا دوراً سياسياً مهماً على المسرح العالمي.

أراد ويسنر السيطرة على القانونيين الأحرار وتحويلهم إلى حركة سرّية مسلحة. اعترض هكشر، وحاجج بأن هؤلاء الرجال مصدر للمعلومات الاستخبارية، وأنهم إذا أُجبروا على لعب دور شبه عسكري فسيتحولون إلى وقود للمدافع. استُبعدت اعتراضاته، واختار ضباط ويسنر في برلين أحد ضباط الجنرال رينهارد غهلن لتحويل المجموعة إلى قوة مقاتلة مؤلفة من خلايا تضم كل منها ثلاثة رجال. إلا أن كل عضو من كل خلية أُنشئت كان يعرف هوية كل عضو آخر في كل خلية، وهذه فجوة أمنية كلاسيكية. وغداة قيام جنود سوفيات باختطاف أحد زعمائهم وتعذيبه، عشية المؤتمر الدولي، تم توقيف كل واحد من أعضاء القانونيين الأحرار(٧).

قرابة نهاية ١٩٥٢، وفي الأشهر الأخيرة لولاية سميث كمدير للاستخبارات المركزية، أخذ المزيد من عمليات ويسنر المرتجلة على عجل في التفكك. وتركت التداعيات انطباعاً دائماً لدى ضابط في «السي.آي.أيه.» معيّن حديثاً، اسمه تيد شاكلي، بدأ حياة مهنية مشحونة في الوكالة بوصفه ملازماً ثانياً أُجبر على الانتقال من عمله في تدريب الشرطة العسكرية في غرب فرجينيا. قضت مهمته الأولى في مواءمة نفسه مع عملية كبرى لويسنر لدعم جيش تحرير بولندي، هو حركة الحرية والاستقلال، المعروف، بوين WIN.

سبق لويسنر ورجاله أن أسقطوا في بولندا ما يوازي تقريباً خمسة ملايين دولار من سبائك الذهب، والرشاشات الخفيفة، والبنادق، والذخائر، وأجهزة لاسلكي تعمل في الاتجاهين. كانوا قد أقاموا اتصالات موثوقة مع «الحركة في الخارج،» وهم كناية عن حفنة من المهاجرين في ألمانيا ولندن. اعتقدوا أن «الحركة في الداخل» تشكل قوة ذات شأن ـ خمسمئة جندي في بولندا، وعشرين ألف مناصر مسلح، ومئة ألف موال ـ جميعهم على استعداد لمحاربة الجيش الأحمر.

كان ذلك وهماً. فقد سبق للشرطة السرّية البولندية، المدعومة من السوفيات، أن قضت على الحركة منذ ١٩٤٧. كانت «الحركة في الداخل» سراباً، وخدعة شيوعية. وفي ١٩٥٠، أُرسل موفد، ليست لديه أي فكرة عما يفعله، لتحفيز انتباه المهاجرين البولنديين في لندن. فحوى رسالته أن حركة الحرية والاستقلال تحيا وتزدهر في وارسو. اتصل المهاجرون برجال ويسنر الذين قفزوا على فرصة إنشاء مجموعة مقاومة خلف خطوط العدو، وأسقطوا بالمظلات ما أمكن من الوطنيين العائدين إلى بولندا. اعتقد قادة «السي.آي.أيه.» في مقر القيادة، أنهم تغلّبوا أخيراً على الشيوعيين في لعبتهم. وقال بيديل سميث في اجتماع لنوابه في آب/أغسطس ١٩٥٢، «إن بولندا تشكّل(٨) أكثر المناطق وعداً في تطوير مقاومة سرّية». وقال له ويسنر إن «الحركة تحلّق الآن عالياً».

كانت الأجهزة السوفياتية والبولندية أمضت أعواماً تحضّر أفخاخها. «كانوا على اطلاع جيد على عملياتنا الجوية»، قال مكماهون. «وعندما كنا نُسقط أولئك العملاء في الداخل، كانوا يخرجون ويقيمون الاتصال مع الأناس الذين كنا نعرف أنهم سيكونون مفيدين لنا. ويأتي البولنديون و«الكي.جي.بي.»، من ورائهم مباشرة، ويلتقطونهم. وهكذا، كانت الخطة مدروسة جيداً، ما عدا أننا كنا نجنّد عملاء للاتحاد السوفياتي. وتبين أنها كارثة عظيمة. لقد لقي أناس حتفهم». وقد فقد ثلاثون ربما، وربما أكثر.

قال شاكلي إنه لا ينسى أبداً منظر رفاقه الضباط وقد أدركوا أن خمس سنين من التخطيط وملايين الدولارات ذهبت أدراج الرياح. وقد يكون الجزء الأسوأ هو اكتشافهم أن البولنديين قد أرسلوا قسما من مال «السي.آي.أيه.» إلى الحزب الشيوعي في إيطاليا.

«من الواضح أن «السي.آي.أيه.» اعتقدت(٩) أنه في إمكانها العمل في أوروبا الشرقية بالطريقة التي عملت فيها «الأو.أس.أس.» في أوروبا الغربية إبان الحرب»، قال هنري لوميس من «السي.آي.أيه.»، الذي سيصبح مستقبلاً رئيساً لصوت أميركا. «واضح أن ذلك مستحيل».

في واشنطن، استقال فرانك ليندسي، من جراء حسرته، بعدما قاد عمليات أوروبا الشرقية من مقر القيادة. أبلغ دالاس وويسنر[١٠] أن على وسائل التجسس العلمية والتقنية على السوفيات أن تحل محلّ استراتيجية العمل الخفي لـ «السي.آي.أيه.» ضد الشيوعية. فليس في وسع المهمات شبه العسكرية المتهوّرة في دعم حركات مقاومة خيالية، أن تدفع بالسوفيات إلى خارج أوروبا.

وكان مكماهون قد أمضى شهوراً في ألمانيا يقرأ كل حركة البرقيات الوافدة إلى المحطة. وتوصّل إلى نتيجة مجرّدة. «لم تكن لدينا قدرات هناك»، قال بعد ذلك بأعوام. «فمعرفتنا الوثيقة بالاتحاد السوفياتي كانت صِفراً»[١١].

مستقبل الوكالة

أصبحت «السي.آي.أيه.» الآن قوة من ١٥ ألف شخص، ولديها نصف مليار دولار من الأموال السرّية تصرفها سنويّاً، وأكثر من خمسين مركزاً في ما وراء البحار. فبيديل سميث، من خلال عزمه المحض، صاغها في منظمة ظهرت كثيراً في الشكل الذي ستبدو عليه للأعوام الخمسين المقبلة. وقد صهر مكتب التنسيق السياسي ومكتب العمليات الخاصة في جهاز خفي واحد يعمل في الخارج، وأنشأ نظاماً موحداً للتحليل في الديار، وحقق مقداراً من الاحترام لـ «السي.آي.أيه.» في البيت الأبيض،

إلا أنه لم يصنع منها أبداً جهاز استخبارات محترفاً. «لا يمكننا الحصول على أناس مؤهلين»[١٢]، قال مشتكياً في أيامه الأخيرة كمدير للاستخبارات المركزية. «إنهم غير موجودين وحسب». ولم يتمكن أبداً من جعل ألن دالاس وفرانك ويسنر ينصاعان لسلطته. وقبل أسبوع على انتخابات ١٩٥٢ الرئاسية، حاول بيديل سميث مرة أخيرة جلبهما إلى تحت سلطته.

دعا في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر إلى مؤتمر لأرفع ٢٦ ضابطاً في «السي.آي.أيه.»، وأعلن أنه «إلى أن تتمكن «السي.آي.أيه.» من بناء احتياطي من أناس مدربين جيداً، سيكون عليها أن تحدّ نشاطاتها بالعدد المحدود من

العمليات التي في وسعها القيام بها على نحو جيّد، بدلاً من محاولة تغطية حقل واسع بتأدية سيئة» من «عناصر غير مدربين كما يجب، أو من مستوى متدنٍّ(١٣)». وأمر الجنرال، وقد حفّزته تحقيقات تراسكوت في ألمانيا، بعقد «مجلس القتل»: هيئة محلفين يمكنها القضاء على أسوأ عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية. وعمد ويسنر فوراً إلى المواجهة. قال إن وضع حد للعمليات المريبة سيشكل عملية طويلة ومؤلمة، وسيستغرق تنفيذ أمر بيديل سميث شهوراً وشهوراً عديدة: حتى حلول الإدارة الجديدة. هُزم الجنرال، وتلاشى مجلس القتل.

فاز دوايت د. أيزنهاور وفق برنامج أمني ـ وطني يدعو العالم الحرّ إلى تحرير الدول التي تدور في الفلك السوفياتي، وهو نصّ كتبه أقرب مستشاريه للسياسة الخارجية، جون فوستر دالاس. دعت خطط الفوز الخاصة بهما إلى مدير جديد للاستخبارات المركزية. وبرغم احتجاجات بيديل سميث، حظي ألن دالاس أخيراً بالوظيفة التي اشتهتها نفسه، وثُبّت في منصبه بدون معارضة من الكونغرس، وهتفت له الصحافة بالاستحسان.

سبق لريتشارد هيلمس أن عرف دالاس جيداً على مدى ثمانية أعوام، منذ ان سافرا معاً إلى المدرسة الفرنسية الصغيرة الحمراء في فرنسا، حيث قبل بيديل سميث بالاستسلام غير المشروط للرايخ الثالث. أصبح هيلمس في الأربعين الآن، وهو رجل متزمّت في الترتيب. ما من أمر، ولو كان صغيراً جداً، خارج مكانه، وما من ورقة سائبة على مكتبه عندما تطفأ الأنوار ليلاً. كان دالاس في الستين، يرتدي خفّ الدار عندما يكون وحده للتخفيف من داء النقرس، وهو أشبه على الدوام بالمدرّس الشارد الذهن. وبعد وقت ليس بالطويل على انتخاب أيزنهاور، استدعى دالاس هيلمس إلى جناح المدير، وجلس الرجلان لتبادل الحديث.

«كلمة حول المستقبل»(١٤)، قال دالاس، عابقاً الجو بغيوم كثيفة من دخان غليونه... «مستقبل الوكالة».

«أتذكر التستر على الأمور، وإراقة الدم، اللذين حصلا ونحن نحاول ترتيب الأمور في ١٩٤٦؟ عمَّ ستكون الاستخبارات المركزية مسؤولة؟ وهل سيبقى الجهاز أبداً موجوداً؟». أراد دالاس من هيلمس أن يدرك أنه ما دام هو مديراً للاستخبارات المركزية، فمن المؤكد قطعاً وجود جهاز مكرّس للمهمات الجريئة، والصعبة، والخطيرة.

«أريد أن أتأكد في شكل قاطع من إدراكك مدى أهمية العمليات الخفية الآن»، قال دالاس. «فللبيت الأبيض وإدارته اهتمام شديد بكل وجه من وجوه العمل الخفي».

على امتداد السنين الثماني التالية، ومن خلال تكرّسه للعمل الخفي، وازدرائه بتفاصيل التحليل، وممارسته الخطرة في خداع رئيس الولايات المتحدة، أحدث دالاس ضرراً لا يُحَدّ ولا يُحصى بالوكالة التي ساهم في إنشائها.

الجزء الثاني

عبقرية من نوع غريب «السي.آي.أيه.»

في ظل أيزنهاور: ١٩٥٣ إلى ١٩٦١

٨

ليس لدينا أي مخطط

كان قد مضى أسبوع واحد على تعيين ألن دالاس مديراً للاستخبارات المركزية، عندما مات جوزف ستالين في ٥ آذار/مارس ١٩٥٣. «افتقرنا إلى استخبارات داخلية[١] موثوقة حول طريقة التفكير داخل الكرملين»، وانتحبت الوكالة بعد ذلك بأيام. «تقديراتنا هي أن مخططات السوفيات الطويلة الأمد ونياتهم ليست إلا تكهنات مستقاة من دلائل غير كافية». لم يكن الرئيس الجديد للولايات المتحدة مسروراً. وقال أيزنهاور غاضباً[٢] إنه «منذ ١٩٤٦، ينبح من يُسمّون بالخبراء بما سيحدث عندما يموت ستالين، وماذا سيكون علينا، كأمة، أن نفعل حيال ذلك. حسناً، ها إنه قد مات. ويمكنكم أن تقلبوا ملفات حكومتنا رأساً على عقب ـ بدون جدوى ـ بحثاً عن أي مخططات موضوعة. بل إننا لسنا متأكدين مما هو الفارق الذي تحدثه وفاته».

ضاعفت وفاة ستالين المخاوف الأميركية حيال النيات السوفياتية. والسؤال بالنسبة إلى «السي.آي.أيه.»، هو ما إذا كان من سيخلف ستالين ـ مهما يكن ـ سيقوم بشن حرب وقائية. إلا أن تكهنات «السي.آي.أيه.» حول السوفيات لم تكن سوى انعكاسات في مرآة حديقة الملاهي. لم يملك ستالين مطلقاً مخططاً رئيسياً للسيطرة على العالم، ولا الإمكانات للقيام بذلك. واستذكر الرجل الذي تولى السيطرة على الاتحاد السوفياتي بعد موته، نيكيتا خروتشيف، أن ستالين «ارتعدت فرائصه» و«ارتجف» أمام احتمال حرب شاملة مع أميركا. «كان يخشى الحرب»، قال خروتشيف. «لم يقم ستالين بأي أمر لاستثارة حرب مع الولايات المتحدة[٣]. فقد كان يعرف مكامن ضعفه».

من الإخفاقات الأساسية للدولة السوفياتية، أن كل وجه من وجوه الحياة اليومية خاضع للأمن القومي. فستالين ومن خلفوه كانوا ينظرون إلى حدودهم بطريقة مَرَضيّة. فنابوليون قام بالاجتياح من باريس، ومن ثم هتلر من برلين. وسياسة ستالين الخارجية المتسقة الوحيدة لما بعد الحرب، كانت في تحويل أوروبا الشرقية إلى درع بشرية هائلة. وبينما كرّس طاقاته لقتل أعدائه الداخليين، كان الشعب السوفياتي يقف في صفوف لا تنتهي في انتظار شراء كيس من البطاطا. وأصبح الأميركيون على وشك التمتع بثماني سنين من السلام والبحبوحة في ظل حكم أيزنهاور. إلا أن هذا السلام لم يتحقق إلا بثمن مرتفع جداً، من السباق على التسلح، ومن تعقب سياسي للمعارضين، ومن استمرار اعتماد سياسة اقتصاد الحرب.

كان التحدي أمام أيزنهاور هو في مواجهة الاتحاد السوفياتي بدون الشروع في حرب عالمية ثانية، أو تخريب الديموقراطية الأميركية. خشي أن كلفة الحرب الباردة قد توهن الولايات المتحدة، وأنه إذا أطلق أيدي جنرالاته وأميرالاته، فسيستهلكون الخزينة. وقرر تركيز استراتيجيته على الأسلحة السرّية: القنابل الذرية والعمل الخفي. فهي أرخص بكثير جداً من الأساطيل، أو الطائرات النفاثة المقاتلة وأساطيل حاملات الطائرات التي تكلف مليارات الدولارات. وبوجود ما يكفي من القوة النارية الذرّية، يمكن الولايات المتحدة ردع السوفيات عن الشروع في حرب عالمية ثالثة، أو كسب الحرب في حال اندلاعها. ويمكن الولايات المتحدة، من خلال حملة شاملة من العمل الخفي، وقف انتشار الشيوعية، أو، على ما هي عليه سياسة أيزنهاور المعلنة، دحر الروس.

رهن آيك مصير الأمة بمصير ترسانته النووية وجهازه الجاسوسي. وأثيرت الأسئلة حول أفضل سبل استخدامهما في كل اجتماع، تقريباً، لمجلس الأمن القومي في المراحل الأولى من رئاسته. فنادراً ما كان مجلس الأمن القومي، الذي أنشئ في ١٩٤٧ لتوجيه استخدام القوة الأميركية في الخارج، يُدعى إلى الاجتماع في ظل ترومان. أعاد أيزنهاور إحياءه، وأداره كما يدير جنرال جيد أركانه. وفي كل أسبوع، كان ألن دالاس يغادر التخوم الرثّة بعض الشيء

لمكاتبه، ويلج سيارته الليموزين السوداء؛ ويقود مجتازاً المقرات الموقتة المتهاوية، حيث يعمل ويسنر وعملاؤه الخفيون، ويدخل بوابات البيت الأبيض. يجلس في مقعده عند المكتب البيضاوي الكبير في غرفة كبار المستشارين، في مواجهة شقيقه فوستر وزير الخارجية، إلى جانب وزير الدفاع، ورئيس الأركان المشتركة، ونائب الرئيس ريتشارد م. نيكسون، والرئيس. كان ألن، يفتتح، في شكل نموذجي، كل اجتماع بجولة على مواقع التوتّر في العالم، ثم ينتقل الحديث إلى استراتيجيات الحرب السرّية.

في إمكاننا هزيمة العالم بأسره

قلق إيزنهاور بدون توقّف، من بيرل هاربور نووية، ولم تتمكن «السي.آي.أيه.» من إراحة باله. وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي، في ٥ حزيران/يونيو ١٩٥٣، أبلغه ألن دالاس أنه ليس في وسع الوكالة أن تعطيه «أي إنذار مسبق[٤] عبر القنوات الاستخبارية حول هجوم سوفياتي مباغت». وقد غامرت «السي.آي.أيه.» بعد ذلك ببضعة أشهر، بتخمين أن السوفيات لن يتمكنوا، قبل ١٩٦٩، من إطلاق صاروخ باليستي عابر للقارات على الولايات المتحدة. وتبيّن ان التقدير أخطأ بـ ١٢ سنة.

في آب/أغسطس ١٩٥٣، عندما اختبر الاتحاد السوفياتي سلاحه الأول للدمار الشامل ـ ليست بالتحديد قنبلة نووية حرارية، لكنها قريبة من ذلك كفاية ـ، لم تملك الوكالة أي فكرة، ولم تعط أي إنذار. بعد ذلك بستة أسابيع، عندما أطلع ألن دالاس الرئيس على الاختبار السوفايتي، تساءل أيزنهاور إذا كان عليه أن يشن هجوماً نووياً شاملاً على موسكو قبل أن يفوت الأوان. قال إنه يبدو «كما لو أن ساعة القرار قد حانت[٥]، وأنه علينا في الوقت الحاضر أن نواجه حقيقة مسألة إذا كان يجب علينا، أو لا، أن نرمي بكل شيء دفعة واحدة على العدو»، بحسب ما تقول محاضر اجتماع مجلس الأمن القومي التي رفعت عنها السرّية. «لقد أثار هذا السؤال الرهيب، لأنه لا معنى لارتعادنا وحسب خوفاً حيال قدرات العدو»، خصوصاً عندما تعجز

الولايات المتحدة عن معرفة إذا كانت موسكو تملك سلاحاً ذرّياً واحداً، أم ألفاً. انخرطنا في الدفاع عن طريقة حياة، والخطر الكبير يكمن في أننا في دفاعنا عن طريقة الحياة هذه سنجد أنفسنا نلجأ إلى الأساليب التي شكّلت خطراً على هذه الطريقة في الحياة. المشكلة الحقيقية، كما رآها الرئيس، هي في ابتكار وسائل لمواجهة التهديد السوفياتي وفي تبني ضوابط، إذا دعت الضرورة إلى ذلك، كي لا ينتج عن ذلك تحولنا إلى دولة عسكرية. الأمر برمته، قال الرئيس، «يشكل مفارقة».

عندما حذّر دالاس الرئيس من «أن في إمكان الروس غداً شن هجوم نووي[٦] على الولايات المتحدة»، أجاب أيزنهاور بأنه «لا يعتقد أن أحداً هنا فكّر في أن كلفة الفوز بحرب شاملة ضد الاتحاد السوفياتي، هي كلفة أكبر من أن يمكن دفعها». إلا أن ثمن النجاح قد يكون تدمير الديموقراطية الأميركية. لاحظ الرئيس أن رئاسة الأركان المشتركة أبلغته، «أنه علينا القيام بما هو ضروري، حتى ولو كانت النتيجة تغيير طريقة الحياة الأميركية. في إمكاننا هزيمة العالم بأسره... إذا كنا على استعداد لتبني طريقة أدولف هتلر».

اعتقد أيزنهاور أن في وسعه مواجهة المفارقة بالعمل الخفي. إلا أن معركة مريرة في برلين كشفت عن عدم قدرة «السي.آي.أيه.» على مواجهة الشيوعية وجهاً لوجه. في ١٦ و١٧ حزيران/يونيو ١٩٥٣، نزل نحو ٣٧٠ ألف ألماني شرقي إلى الشوارع. أغار آلاف الطلاب والعمال بعنف على الجائرين عليهم، محرقين مبان للحزبين الشيوعي السوفياتي والألماني الشرقي، ومحطمين سيارات الشرطة، ومحاولين وقف الدبابات السوفياتية التي سحقت حماستهم. كانت الانتفاضة أكبر بكثير مما أدركته «السي.آي.أيه.» في البداية، إلا أنه لم يكن في وسع الوكالة القيام بأي شيء لإنقاذ المتمرّدين. وبرغم أن فرانك ويسنر وازن مخاطر محاولة تسليح البرلينيين الشرقيين، فإنه تراجع. وأثبتت جيوش التحرير التابعة له عدم جدواها. وقال في ١٨ حزيران/يونيو، أن «السي.آي.أيه.» «لا يجب أن تفعل أي شيء في هذا الوقت لحث الألمان الشرقيين على المزيد من التحرّك». وتم سحق الانتفاضة[٧].

أمر أيزنهاور «السي.آي.أيه.» في الأسبوع الذي تلى «بتدريب منظمات سريّة وتجهيزها[٨]، حتى تستطيع شن غارات على نطاق واسع، أو القيام بأعمال حربية متواصلة» في ألمانيا الشرقية وغيرها من الدول التي تدور في الفلك السوفياتي. ودعا الأمر «السي.آي.أيه.» أيضاً إلى «التشجيع على القضاء على المسؤولين الألعوبة الرئيسيين» في الدول الأسيرة. وعنت كلمة القضاء ما عنته. إلا أن الأمر كان كناية عن إيماءة فارغة. أخذ الرئيس يعلم حدود قدرات «السي.آي.أيه.». وفي ذلك الصيف، وفي الغرفة المشرقة في البيت الأبيض، استدعى أيزنهاور جميع الرجال الذين يثق بهم أكثر ما يكون في المجال الخاص بالأمن القومي ـ من بينهم والتر بيديل سميث، وجورج كينّان، وفوستر دالاس، والجنرال المتقاعد في سلاح الطيران جيمس ر. دوليتل، وهو الطيار الذي قاد القصف على طوكيو في ١٩٤٢ ـ، وطلب منهم إعادة تحديد الاستراتيجية القومية الأميركية حيال السوفيات. وفي نهاية مسعى الغرفة المشمسة، أُعلنت وفاة فكرة دحر روسيا من خلال العمل الخفي عن عمر يناهز خمس سنين.

شرع الرئيس في محاولة إعادة توجيه الوكالة. ستحارب «السي.آي.أيه.» العدو في آسيا، والشرق الأوسط، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، وفي كل مكان تنهار فيه الامبراطوريات الاستعمارية. تولّت الوكالة، في ظل أيزنهاور، ١٧٠ عملاً خفياً رئيسياً[٩] في ٤٨ دولة: مهمات حربية سياسية، نفسية، وشبه عسكرية في بلدان لا يعرف فيها الجواسيس الأميركيون الكثير عن ثقافة شعوبها أو لغتهم أو تاريخهم.

غالباً ما اتخذ أيزنهاور قراراته الأولى حول العمل الخفي في محادثات خاصة مع الأخوين دالاس. يتحدّث ألن إلى فوستر حول اقتراح بعملية ما على نحو نموذجي، ويتحدث فوستر إلى الرئيس خلال كوكتيل في المكتب البيضاوي. يعود فوستر إلى ألن حاملاً موافقة الرئيس مع تحذير: ألّا تدعهم يمسكون بك.

وجّه الأخوان مسار العمل الخفي في محادثات خاصة في مقر كل منهما، أو على الهاتف، أو في أيام الأحد عند حوض السباحة مع شقيقتهما، أليونور،

وهي أيضاً مسؤولة في وزارة الخارجية. اعتقد فوستر بقوة أنه على الولايات المتحدة القيام بكل ما في وسعها لتغيير أي نظام لا يتحالف جهاراً مع الولايات المتحدة، أو إلغائه. ووافقه ألن من صميم القلب. وشرعا، بمباركة من أيزنهاور، في التخطيط لإعادة رسم خريطة العالم.

وضع يتدهور بسرعة

لمّع ألن دالاس منذ أيامه الأولى في السلطة، صورة «السي.آي.أيه.» العامة[١٠]، راعياً أقوى ناشري أميركا وإذاعييها، ساحراً السيناتورات والنواب، وملاطفاً كتّاب المقالات في الصحف. وجد أن الدعاية الجليلة مناسبة أكثر بكثير من الصمت المتحفّظ.

حافظ دالاس على اتصال وثيق بالرجال الذين يديرون «النيويورك تايمز»، و«الواشنطن بوست»، والمجلات الأسبوعية الطلائعية في البلاد. كان في وسعه التقاط الهاتف وتحرير موضوع عاجل، والتأكد من إنجاز سحب سريع عن الساحة لأي مراسل مزعج، أو شراء خدمات أشخاص، مثل رئيس مكتب «التايم» في برلين، ورجل «النيوزويك» في طوكيو. كانت غرف الأخبار الأميركية واقعة تحت سيطرة قدامى قسم الدعاية في الحكومة زمن الحرب، وهو مكتب الإعلام الحربي، الذي كان في ما مضى جزءاً من ميدان وايلد بيل دونوفان. ومن بين الرجال الذين استجابوا لنداء «السي.آي.أيه.» هناك، هنري لوس ومحرروه في «التايم»، و«لوك»، و«فورتشن»؛ ومجلات شعبية مثل «باراد»، و«ساتورداي ريفيو»، و«ريدرز دايجست»؛ وأشد المدراء سلطة في «سي.بي.أس. نيوز». أسس دالاس آلة علاقات عامة ودعاية وصلت إلى حد ضم أكثر من خمسين مؤسسة إخبارية، ودزينة من دور النشر، وتعهدات شخصية بالمساندة من أمثال أكسل سبرينغر، وهو أقوى بارونات الصحافة في ألمانيا الغربية. ما الذي يجب فعله بضابط في «السي.آي.أيه.» قتل زميلاً بريطانياً، وواجه محاكمة بتهمة القتل؟ لماذا انتحر رئيس المحطة السابق في سويسرا؟ ما الذي يجب فعله حيال النقص في الكفاءة في الجهاز الخفي؟

أراد دالاس أن يُنظر إليه بوصفه السيّد البارع لجهاز تجسس محترف. وعكست الصحافة بحكم الواجب تلك الصورة. إلا أن أرشيف «السي.آي.أيه.» يروي حكاية مختلفة.

تصوّر محاضر الاجتماعات اليومية بين دالاس ونوابه[11] وكالة تتمايل من أزمة دولية إلى كوارث داخلية: إدمان متفشّ على الكحول، ارتكابات مالية، استقالات جماعية. أصبح المفتّش العام الجديد للوكالة، ليمان كيركباتريك، حاملاً دائماً الأخبارَ السيئة حول نوعية موظفي «السي.آي.أيه.»، وتدريبهم، وأدائهم. وقام بتحذير دالاس من أن المئات من الضباط العسكريين المهرة الذين جندتهم «السي.آي.أيه.» إبان الحرب الكورية أخذوا في الاستقالة، وأن «الواضح أكثر ما يكون أيضاً، هو أن نسبة مئوية عالية منهم تغادر بموقف غير ودّي حيال «السي.آي.أيه.»».

طلبت في نهاية الحرب، مجموعة من ضباط «السي.آي.أيه.» الصغار والمتوسطي المستوى، الذين هالهم النقص في المعنويات في مقر القيادة، وحصلت على الإذن بإجراء استطلاع داخلي لنظرائهم. أجروا مقابلات مع ١١٥ موظفاً في «السي.آي.أيه.»، ووضعوا تقريراً طويلاً ومفصّلاً أُنجز في هاية السنة الأولى لدالاس مديراً. وصفوا «وضعاً يتدهور سريعاً»: خيبة منتشرة، ارتباكاً، وغياب الهدف. فقد تم تجنيد أشخاص لامعين ووطنيين مع وعود بخدمة مثيرة في الخارج ـ «انطباع خاطئ كلّياً» ـ ومن ثم علقوا في مراكز لا خروج منها كطابعين أو سعاة. عاد مئات الضباط من مهمات خارجية ليهيموا في مقر القيادة لأشهر، باحثين بدون جدوى عن مهمات جديدة. وأفادوا «أن الضرر اللاحق بالوكالة من جراء ممارسات الموظفين الخاملين، يتصاعد بنسبة هندسية وليست حسابية. فمقابل كل ضابط قادر تخسره الوكالة بسبب الاستياء أو الإحباط، سيكون هناك بالتأكيد رجلان أو ثلاثة من الكفوئين (يتقاسمون الخلفية العلمية والمهنية والاجتماعية ذاتها)، لن تتوفر للوكالة أبداً الفرصة لاستخدامهم.... فالضرر الحاصل قد لا يمكن إصلاحه».

عمل ضباط «السي.آي.أيه.» الشبان «للكثيرين من الناس في مراكز

المسؤولية. بدا أنهم لا يعرفون ما يقومون به». شاهدوا «كميات من المال تصيب بالصدمة»، تهدر في مهمات فاشلة في ما وراء البحار. وكتب أحد الضباط المحرّكين لدى ويسنر، أن العمليات التي اشتغل عليها كانت «غير فعالة إلى حد كبير، وكبيرة الكلفة. وقد تم توجيه بعضها إلى أهداف هي بالكاد منطقية، عدا عن التشكيك في شرعيتها. وبالتالي، فإن مهمة مقر القيادة، في سبيل حماية الوظائف والاعتبار، هنا وفي الميدان معاً، تقضي بستر عيوب الموازنة العملانية، وبرمجة التبريرات ببيانات أقل ما يمكن قوله عنها، أنها مبالغ فيها». واستنتجوا أن كفاءة الوكالة هي ما دون الوسط، بل أقلّ».

شاهد هؤلاء الضباط الشبان جهاز استخبارات يكذب على نفسه. وصفوا «السي.آي.أيه.» يُعطى فيها الأشخاص غير الكفوئين سلطات كبرى، بينما يتكوم المجندون القادرون مثل الحطب المكدّس في الممرات.

طمس ألن دالاس تقريرهم، ولم يتغيّر شيء. واستنتج تحقيق للكونغرس أجري في ١٩٩٦ بعد ذلك بثلاثين سنة، أن استنتج تحقيق للكونغرس أجري في ١٩٩٦ «تستمر في مواجهة أزمة[١٢] موظفين رئيسية لم يتم، حتى الآن، التعامل معها بطريقة متسقة... ولا تزال استنتج تحقيق للكونغرس أجري في ١٩٩٦ تفتقر اليوم إلى ما يكفي من الضباط المُحرِّكين المؤهلين لشغل الوظائف في الكثير من محطاتها حول العالم».

شخص ما للقيام بالعمل الوسخ

أراد أيزنهاور إعادة هيكلة «السي.آي.أيه.» لتصبح جهازاً فعالاً في سلطة الرئاسة. حاول، من خلال والتر بيديل سميث، فرض بنية قيادية على الوكالة. وفي الأيام التي أعقبت انتخاب أيزنهاور، توقع الجنرال أن يُعيَّن رئيساً للأركان المشتركة. وقد فاجأه قرار أيزنهاور جعله نائباً لوزير الخارجية. لم يرد بيديل سميث أن يكون الثاني في الإمرة بعد فوستر دالاس، الرجل الذي ينظر إليه بوصفه مختالاً ومتبجحاً[١٣]. إلا أن آيك أراده ـ واحتاج إليه ـ ليلعب دور الوسيط النزيه بينه وبين الأخوين دالاس.

نفّس بيديل سميث عن غضبه لدى نائب الرئيس نيكسون، جاره في واشنطن. واستذكر نيكسون أن الجنرال كان يعرّج عليه من وقت إلى آخر، للزيارة. «وكان قدحا شراب يحلاّن عقدة لسانه[١٤] بعض الشيء بطريقة غير معهودة... وأذكر جلوسنا في إحدى الليالي ونحن نحتسي السكوتش مع الصودا، وأصبح بيديل منفعلاً بعض الشيء، وقال، أريد أن أطلعك على أمر في شأن آيك... فأنا وحسب بهلول آيك... يجب أن يكون لآيك شخص ما للقيام بالعمل الوسخ الذي لا يريد القيام به بنفسه كي يبقى بمظهر الفتى الجيّد».

قام بيديل سميث بذلك العمل بوصفه المشرف من قبل آيك على العمل الخفي. وعمل كرابط أساسي بين البيت الأبيض والعمليات السرّية لـ «السي.آي.أيه.». وبوصفه القوة المحرّكة لمجلس تنسيق العمليات المنشأ حديثاً، حمل التوجيهات السرّية من الرئيس ومن مجلس الأمن القومي، وأشرف على تنفيذ «السي.آي.أيه.» هذه الأوامر. ولعب سفراء اختارهم بعناية، أدواراً محورية في تنفيذ هذه المهمات.

في خلال الأشهر التسعة عشر التي خدم فيها بيديل سميث بوصفه مفوضاً من قبل الرئيس إدارة العمل الخفي، نفّذت الوكالة الضربتين المحكمتين الظافرتين الوحيدتين في تاريخها. وتُظهر السجلات التي رُفعت عنها السرّية لهاتين الضربتين، أنهما نجحتا بواسطة الرشوة والاكراه والقوة الغاشمة، وليس بواسطة السرّية والخفاء والمكر. إلا أنهما خلقتا الأسطورة بأن «السي.آي.أيه.» هي رصاصة فضية في ترسانة الديموقراطية. أعطتا الوكالة الهالة التي تاق إليها دالاس.

٩

الانتصار الأكبر الوحيد لـ «السي.آي.أيه.»

في كانون الثاني/يناير ١٩٥٣، قبل أيام قليلة على الاحتفال الرسمي بتولي أيزنهاور منصبه، قام والتر بيديل سميث باستدعاء كيم روزفلت إلى مقر «السي.آي.أيه.»، وسأله: «متى سيبدأ العمل بعمليتنا اللعينة؟»(١)

كان روزفلت، وهو رئيس عمليات «السي.آي.أيه.» في الشرق الأدنى قبل ذلك بشهرين، وفي أوائل تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، قد ذهب إلى طهران لإخراج أصدقائه في الاستخبارات البريطانية من الورطة. فقد أمسك رئيس الوزراء الإيراني، محمد مصدّق، بالبريطانيين يحاولون الإطاحة به. وطرد كل من في سفارتهم، بمن فيهم الجواسيس. وصل روزفلت للحفاظ على شبكة من العملاء الإيرانيين عملوا للبريطانيين، وتمويلهم، لكنهم سعداء بقبول السخاء الأميركي. وتوقف في لندن في طريق عودته إلى الديار لإطلاع زملائه البريطانيين على ما تمّ.

علم بأن رئيس الوزراء وينستون تشيرتشل يريد من «السي.آي.أيه.» مساعدته على القيام بانقلاب في إيران. فقبل ذلك بأربعين عاماً، دفع نفط إيران بتشيرتشل إلى السلطة والمجد. وها إن السير وينستون نفسه يريد استعادة ذلك.

كان تشيرتشل، عشية الحرب العالمية الأولى، بوصفه لورداً أوّل في الأميرالية البريطانية، قد حوّل سفن البحرية الملكية من العمل على حرق الفحم إلى العمل على حرق النفط. انتصر لقيام بريطانيا بشراء ٥١ في المئة من شركة النفط الأنغلو ـ فارسية الجديدة التي سبق أن عثرت على أول حقول النفط

الإيرانية قبل ذلك بخمس سنوات. انتزع البريطانيون حصة الأسد. فلم يؤدّ النفط الإيراني إلى تزويد أسطول تشيرتشل الجديد بالوقود وحسب، بل إن عائداته دفعت أيضاً ثمن ذلك. أصبح النفط شريان حياة وزارة المال البريطانية. وبينما أصبحت بريطانيا تتحكم في الأمواج، أخذ الجنود البريطانيون، والروس، والأتراك، يدوسون شمال إيران، مدمّرين معظم زراعة البلاد، وناشرين المجاعة التي أدت إلى موت ما يصل ربما إلى مليوني شخص. وبرز، من ركام هذه الفوضى، قائد من الكوزاك، وهو رضا خان، استولى على السلطة بالخداع والقوة. ونودي به، في ١٩٢٥، شاهاً على إيران. وكان سياسي وطني يدعى محمّد مصدّق، واحداً من الأعضاء الأربعة في البرلمان الإيراني ـ المجلس ـ الذين عارضوه.

سرعان ما اكتشف المجلس أن عملاق النفط البريطاني، وقد أصبح اسمه الآن شركة النفط الأنغلو ـ إيرانية، يغش حكومتهم بالمليارات. وبلغ الحقد على البريطانيين والخوف من السوفيات، درجة عالية في إيران، في الثلاثينيات، بحيث إن النازيين حققوا اختراقات عميقة هناك، بلغت من العمق حداً دفع بتشيرتشل وستالين إلى اجتياح إيران في آب/أغسطس ١٩٤١. نفيا رضا خان، وأقاما مكانه ابنه محمد رضا شاه بهلوي، الطيّع البريء الساذج، البالغ ٢١ سنة من العمر.

احتلت الجيوش السوفياتية والبريطانية إيران، بينما استخدمت القوات الأميركية مطاراتها وطرقها لشحن ما تقارب قيمته ١٨ مليار دولار من المساعدة العسكرية إلى ستالين. والأميركي الوحيد ذو الشأن في إيران إبان الحرب العالمية الثانية، كان الجنرال نورمان شوارزكوف، الذي نظم قوات الدرك الإيرانية، وهي الشرطة الريفية (كان ابنه، الذي يحمل الاسم نفسه، قائد حرب ١٩٩١ على العراق، في عملية «عاصفة الصحراء»). عقد روزفلت، وتشيرتشل، وستالين، مؤتمر حرب في طهران في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣، لكن الحلفاء خلّفوا وراءهم أمة يضربها الجوع، حيث كان عمال النفط يجنون خمسين سنتاً في اليوم. أمسك الشاه الشاب بالسلطة من خلال انتخابات مزورة. وبعد

الحرب، طالب مصدّق المجلس بإعادة التفاوض على الامتياز النفطي البريطاني. فشركة النفط الأنغلو ـ إيرانية (البريتيش أويل) تسيطر على أكبر مخزون معروف في العالم. ومعمل التكرير التابع لها في عبدان، هو الأكبر في العالم. وبينما كان مدراء البريتيش أويل وتقنيوها يستمتعون في النوادي الخاصة وأحواض السباحة، عاش عمال النفط الإيرانيون في الأكواخ بدون مياه جارية، ولا كهرباء، ولا مجارٍ صحية. وقد ولّد هذا الظلم دعماً لحزب توده الشيوعي الإيراني الذي ادعى انتماء نحو ٢٥٠٠ عضو إليه في ذلك الوقت. أخذ البريطانيون مدخولاً يوازي ضعفي حصة الإيرانيين من النفط. وها إن إيران تطالب بالقسمة على أساس النصف. رفض البريطانيون. حاولوا التأثير في الرأي من خلال رشوة سياسيين، ومحرري صحف، ومدير الراديو الرسمي، من بين آخرين.

حذّر رئيس الاستخبارات البريطانية في إيران، كريستوفر مونتاغ وودهاوس، مواطنيه، من أنهم يتصرّفون بطريقة ستؤدي إلى كارثة. وقد حلّت في نيسان/ أبريل ١٩٥١، عندما صوّت المجلس على تأميم الإنتاج النفطي الإيراني. أصبح مصدّق بعد ذلك بأيام قليلة، رئيساً لوزراء إيران. صارت السفن الحربية البريطانية في نهاية حزيران/يونيو قبالة شواطئ إيران. وفي تموز/يوليو، أفاد السفير الأميركي، هنري غرادي، أن البريطانيين، في عمل من «الجنون المطبق»، يحاولون الإطاحة بمصدّق. شدّد البريطانيون في أيلول/سبتمبر من المقاطعة الدولية لنفط إيران، في إعلان حرب اقتصادية تهدف إلى تدمير مصدّق. ثم عاد تشيرتشل إلى السلطة رئيساً للوزراء. كان في السادسة والسبعين، ومصدّق في التاسعة والستين. كلاهما عنيد، وكبير في السن، يسيّر أمور الدولة بلباس النوم. وضع القادة البريطانيون خططاً لقيام سبعين ألف جندي بالاستيلاء على حقول النفط وعلى مصفاة عبدان. رفع مصدّق قضيته إلى الأمم المتحدة والبيت الأبيض، معتمداً على السحر في العلن، بينما هو يحذّر ترومان في السرّ من أن هجوماً بريطانياً قد يشعل حرباً عالمية ثالثة. أبلغ ترومان تشيرتشل، بصراحة مطلقة، أن الولايات المتحدة لن تساند أبداً هذا الاجتياح. وردّ تشيرتشل بأن

ثمن الدعم العسكري البريطاني في الحرب الكورية، هو المساندة الأميركية لموقفه من إيران. وبلغا، صيف ١٩٥٢، حائطاً مسدوداً.

«السي.آي.أيه.» تصنع السياسة في غياب البديل

طار الجاسوس البريطاني مونتي وودهاوس إلى واشنطن للقاء والتر بيديل سميث وفرانك ويسنر. ناقشوا، في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، كيفية «إزاحة مصدّق»[٢] بدأت مؤامرتهم مع آخر أيام عملية انتقال الرئاسة. فمع تضاؤل سلطة ترومان، أخذت مخططات الانقلاب تنمو. وعلى ما قاله ويسنر عندما كان المخطط في أوجه، هناك أوقات «تصنع «السي.آي.أيه.» فيها السياسة في غياب البديل»[٣]. فسياسة الولايات المتحدة المعلنة قضت بدعم مصدّق. إلا أن «السي.آي.أيه.» شرعت في العمل على إسقاطه بدون إجازة من البيت الأبيض.

وصل في ١٨ شباط/فبراير ١٩٥٣، رئيس الاستخبارات السرية البريطانية المعيّن حديثاً إلى واشنطن. والتقى السير جون سنكلير، وهو اسكتلندي عذب الكلام يعرفه العامة بـ «ك» وأصدقاؤه بـ «سندباد»، مع ألن دالاس، حيث اقترح كيم روزفلت قائداً ميدانياً للانقلاب. أعطى البريطانيون لخطتهم اسماً مبتذلاً هو عملية الجزمة، وأعطاها روزفلت اسماً أكثر عظمة: عملية أجاكس، على اسم بطل حرب طروادة الأسطوري (وهذا خيار غريب، لأن الأسطورة تقول إن أجاكس أصيب بالجنون، وفتك بقطيع من الخراف ظناً منه أنه من المحاربين، وقتل نفسه بعدما عاد إلى رشده).

أدار روزفلت العرض بفطنة. فهو يعمل منذ سنتين على عمليات سياسية، ودعائية، وشبه عسكرية، لدرء اجتياح سوفياتي يُخشى منه لإيران. وكان ضباط «السي.آي.أيه.» يمتلكون بالفعل ما يكفي من المال والسلاح المخبأ لدعم عشرة آلاف مقاتل قبلي لمدة ستة أشهر. وامتلك أيضاً سلطة مهاجمة «التوده»، الحزب الشيوعي الصغير، ذي النفوذ، والمحظور في إيران. وها إنه الآن يغيّر

هدفه، واضعاً نصب عينيه تقويض الدعم لمصدق داخل الأحزاب السياسية والدينية الرئيسية في إيران.

شرع روزفلت في الترويج لحملة رشوة وإفساد. استأجر ضباط الوكالة وعملاؤهم الإيرانيون ولاءات المحازبين السياسيين، ورجال الدين، والمجرمين السفاحين. اشتروا خدمات عصابات الشوارع الذين فرّقوا تجمعات «التوده» بقبضاتهم العارية، وخدمات موالين لهم نددوا بمصدّق من جوامعهم. لم تملك «السي.آي.أيه.» عقود الخبرة الكثيرة التي لبريطانيا في إيران، ولا العدد ذاته من العملاء المجنّدين حتى من بعيد. إلا أنها امتلكت مالاً أكثر لتوزعه: مليون دولار على الأقل في السنة، وهي ثروة هائلة (حينها) في واحد من أفقر بلدان العالم.

أخذت «السي.آي.أيه.» إيعازاتها من شبكة لشراء النفوذ تسيطر عليها الاستخبارات البريطانية. كان يقودها الأخوة رشيديان، وهم ثلاثة شبان لإيراني محب للإنكليز يسيطر على سفن ومصارف وعقارات. كان لآل رشيديان نفوذ على أعضاء في البرلمان الإيراني. وامتلكوا سيطرة على كبار تجار البازار، مشرّعي طهران غير المعترف بهم. رشوا رجال دين، وضباطاً عسكريين كباراً، ومحررين وناشرين، وعصابات مجرمين، وعُضْواً واحداً على الأقل في حكومة مصدّق. اشتروا المعلومات بعلب حلويات معدنية ملأى بالنقود. بل إن حلقتهم ضمت أيضاً رئيس ديوان الشاه، وهو ما سيثبت أنه مادة محفزة في الانقلاب.

دخل ألن دالاس إلى اجتماع مجلس الأمن القومي، في الرابع من آذار ١٩٥٣، حاملاً سبع صفحات من ملاحظات الإيجاز التي تركّز على «عواقب الاستيلاء السوفياتي» على إيران[٤]. فالبلاد تواجه «تركيبة ثورية آخذة في النضوج»، وإذا أصبحت شيوعية، فستؤدي إلى سقوط كل قطع الدومينو في الشرق الأوسط. وسيصبح ٦٠ في المئة من «نفط العالم الحر» في أيدي موسكو. وحذّر دالاس من أن هذه الخسارة الكارثية ستؤدّي إلى «استنزاف خطير لاحتياطاتنا للحرب»، وستضطر الولايات المتحدة إلى تقنين النفط والبنزين. لم يقبض الرئيس أي كلمة من هذا. واعتقد أنه ربما من الأفضل أن يعرض على

مصدّق قرضاً بمئة مليون دولار[٥]، من أجل استقرار حكومته، بدلاً من الإطاحة به.

أوحى مونتي وودهاوس، بكياسة، لنظرائه الأميركيين في «السي.آي.أيه.» بأن عليهم اعتماد مقاربة أخرى في عرض المشكلة على أيزنهاور. فليس في وسعهم الإصرار على أن مصدّق شيوعي[٦]. إلا أنه في إمكانهم المحاججة بأنه كلما بقي في السلطة، كلما ازداد الخطر في أن يقوم السوفيات باجتياح إيران. ودوزن كيم روزفلت نغمته لتتلاءم مع أذن الرئيس: إذا ترنّح مصدّق إلى اليسار، فستسقط إيران في أيدي السوفيات. لكن، إذا ما تم دفعه في اتجاه الطريق الصحيح، فسيمكن «السي.آي.أيه.» أن تتأكد من سقوط الحكومة تحت السيطرة الأميركية.

سار مصدّق مباشرة إلى الفخ. فقد أثار، في عملية خداع غير محسوبة، مع السفارة الأميركية في طهران شبح التهديد السوفياتي. لقد توقّع أن «يخلّصه الأميركيون»[٧]، قال جون هـ. ستوتسمان، وهو دبلوماسي أميركي عرف مصدّق معرفة جيدة وعمل، في ١٩٥٣، بوصفه مسؤولاً في وزارة الخارجية عن الشؤون الإيرانية. «شعر مصدّق بأنه إذا طرد البريطانيين، وهدد الأميركيين بالهيمنة الروسية، فإننا سنهرع إليه. لم يكن مخطئاً إلى هذا الحد».

قام فرانك ويسنر في ١٨ آذار/مارس، بإبلاغ روزفلت ووودهاوس أن لديه موافقة مبدئية من ألن دالاس. وأرسل مقر «السي.آي.أيه.» في ٤ نيسان/أبريل مليون دولار أميركي إلى محطة طهران. إلا أن الشكوك بقيت تساور أيزنهاور، كما راودت لاعبين رئيسيين آخرين في مخطط الإطاحة بإيران.

ألقى الرئيس، بعد بضعة أيام، خطاباً بليغاً أُطلق عليه اسم «فرصة السلام»، أعلن فيه أن «حق أي بلد في تشكيل الحكومة والنظام الاقتصادي اللذين يختارهما، هو حق لا يمكن انتزاعه»، وأنه «لا يمكن الدفاع عن محاولة أي دولة أن تفرض على دول أخرى شكل الحكم فيها». أصابت هذه الأفكار وتراً لدى رئيس «السي.آي.أيه.» في طهران، روجر غويران، الذي سأل المقر العام

لماذا تريد الولايات المتحدة التحالف مع تقاليد الاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط. وحاجج بأنها خطأ تاريخي، وتشكل كارثة طويلة المدى للمصالح الأميركية. استدعاه ألن دالاس إلى واشنطن وأعفاه من رئاسة المركز. عارض السفير الأميركي في إيران، العارف بالمخططات منذ البداية، بشدة الاختيار البريطاني للجنرال المتقاعد الفاسق، فضل الله زاهدي، بوصفه رجل الواجهة للانقلاب. فقد سبق لمصدّق أن أبلغ السفير بأنه يعرف أن زاهدي خائن مدعوم من البريطانيين.

سمّى البريطانيون برغم هذا، زاهدي، ووافقت «السي.آي.أيه.» عليه، وهو الرجل الوحيد الساعي علناً إلى السلطة، والذي اعتُقد أنه مؤيد لأميركا. وفي أواخر نيسان، ذهب للاختباء بعد اختطاف رئيس الشرطة الوطنية الإيرانية، وقتله، ولأسباب وجيهة، لأن المشتبه في أنهم القتلة هم من مؤيديه. وبقي متوارياً لمدة ١١ أسبوعاً.

أخذت المؤامرة زخمها في أيار/مايو، بالرغم من أنها لا تزال تفتقر إلى موافقة الرئيس. وها هي الآن في مسودتها الأخيرة. فسيعمل زاهدي، المسلح بـ ٧٥٠ ألف دولار أميركي نقداً، على تشكيل سكريتارية عسكرية، ويختار العقداء الذين سيتولون الانقلاب. وستعمد مجموعة من المتطرفين الدينيين، تدعى محاربي الاسلام ـ «عصابة إرهابية»، كما يصفها تأريخ «السي.آي.أيه.» للانقلاب ـ إلى تهديد حياة مؤيدي مصدّق السياسيين والشخصيين في داخل الحكومة وفي خارجها. سيشن أعضاؤها هجمات عنيفة على زعماء دينيين مرموقين، ستبدو كأنها من عمل الشيوعيين. جهّزت «السي.آي.أيه.» مناشير وملصقات كجزء من حملة دعائية بكلفة ١٥٠ ألف دولار للسيطرة على الصحافة والجمهور في إيران، معلنة أن «مصدّق يحابي حزب توده والاتحاد السوفياتي... ومصدّق هو عدو الاسلام... ومصدّق يدمّر عن قصد معنويات الجيش... ومصدّق يتعمّد قيادة البلاد إلى الانهيار الاقتصادي... ومصدّق قد أفسدته السلطة». وسيقوم متآمرو الانقلاب، في اليوم المحدد، بقيادة سكريتارية زاهدي العسكرية

باحتلال مقر الأركان العامة للجيش، وراديو طهران، ومنزل مصدّق، والمصرف المركزي، ومقر الشرطة، ومكاتب التلفون والتلغراف، وسيوقفون مصدّق وحكومته. وخصص فوراً المزيد من المال، ١١ ألف دولار في الأسبوع، لشراء ما يكفي من أعضاء المجلس لضمان غالبية تعلن زاهدي رئيساً جديداً للحكومة. وكانت لهذا التفصيل الأخير ميزة أنه يضفي على الانقلاب مظهراً شرعياً. وسيقوم زاهدي بدوره بتعهد الولاء والطاعة للشاه، ويعيد ملكيته إلى السلطة.

هل سيلعب الشاه الضعيف الإرادة دوره؟ لم يصدّق السفير هندرسون أنه يملك الصلابة لدعم انقلاب، إلا أن روزفلت اعتقد أن المضي بدونه ميؤوس منه.

ذهب روزفلت في ١٥ حزيران/يونيو إلى لندن لعرض الخطة على الاستخبارات البريطانية. التقوا في غرفة اجتماعات في المقر العام تحمل إشارة كُتب عليها «اردعوا ضيوفكم»، لم تُثر أي اعتراضات. فالأميركيون، على العموم، هم الذين يدفعون الفاتورة. صحيح أن البريطانيين خططوا للانقلاب، لكنهم لا يمكنهم أن يلعبوا دوراً قيادياً في تنفيذه. في ٢٣ حزيران/يونيو، أجرى وزير الخارجية أنتوني إيدن عملية جراحية كبرى في معدته. وفي اليوم ذاته عانى وينستون تشيرتشل من سكتة قوية، وكاد يموت، وأبقي على الخبر سرّاً بحيث لا تعرف «السي.آي.أيه.» شيئاً عنه.

أقامت الوكالة على مدى الأسبوعين التاليين حلقة قيادة ذات شعبتين. واحدة ستدير سكريتارية زاهدي، والأخرى ستتحكم في الحرب السياسية والحملة الدعائية. وكلتاهما تابعة مباشرة لفرانك ويسنر. سافر كيم روزفلت جواً إلى بيروت، ومن ثم بالسيارة عبر سوريا والعراق إلى إيران، ليلتقي بالأخوة رشيديان. انتظرت «السي.آي.أيه.» الضوء الأخضر من رئيس الولايات المتحدة.

وجاء في ١١ تموز/يوليو. ومن تلك اللحظة، سار كل شيء على نحو خاطئ.

من بعدك يا صاحب الجلالة

انكشفت سرّية المهمة قبل اليوم الأول. ففي ٧ تموز/يوليو، رصدت «السي.آي.أيه.» إذاعة لراديو حزب توده. حذّرت الإذاعة السرّية الإيرانيين من أن الحكومة الأميركية، إلى جانب «جواسيس وخونة» متفرقين، بمن فيهم الجنرال زاهدي، يعملون «على تصفية حكومة مصدّق»[٨]. كانت لمصدّق مصادره الاستخبارية العسكرية والسياسية الخاصة، بالاستقلال عن «توده»، وعرف ما هو مقبل عليه.

اكتشفت «السي.آي.أيه.» أن انقلابها، بدون جنود. لم يكن للجنرال زاهدي جندي واحد تحت إمرته. وافتقرت الوكالة إلى خارطة للوضع العسكري في طهران، وإلى جدول بمناوبات الجيش الإيراني. لجأ كيم روزفلت إلى الجنرال روبرت أ. ماكلور[٩]، مؤسس قوات العمليات الخاصة الأميركية. كان ماكلور رئيس استخبارات روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية، وقاد فرقة الحرب النفسية في الجيش إبان الحرب الكورية، وتخصّص في الإشراف على العمليات المشتركة مع «السي.آي.أيه.»، وسبق أن عمل جنباً إلى جنب مع دالاس وويسنر، ولم يكن يثق بأي منهما.

جاء الجنرال ماكلور إلى طهران لقيادة مجموعة خبراء المساعدة العسكرية، التي أُنشئت في ١٩٥٠، لتوفير الدعم العسكري، والتدريب، والمشورة، للضباط الإيرانيين المتزايدين في الأهمية. وقام، كجزء من حرب الأعصاب التي تشنها «السي.آي.أيه.»، بقطع الاتصال الأميركي مع القادة الموالين لمصدّق. اعتمد روزفلت كلّياً على ماكلور للحصول على صورة للجيش الإيراني والولاءات السياسية لكبار ضباطه. وأصرّ الرئيس أيزنهاور شخصياً على أن يحصل ماكلور على نجمة ثانية بعد الانقلاب، مشيراً إلى «علاقاته الممتازة مع الشاه وغيره من الشخصيات الكبرى التي تثير اهتمامنا». جنّدت «السي.آي.أيه.» عقيداً لعب دور الرابط الإيراني مع مجموعة خبراء المساعدة العسكرية التابعة لماكلور، للمساعدة في القيام بالانقلاب، فقام سراً بتجنيد نحو أربعين من رفاقه الضباط.

وكل ما بات ينقص الآن هو الشاه.

سافر عقيد من «السي.آي.أيه.»، يُدعى ستيفن ج. ميد، إلى باريس للمجيء بشقيقة الشاه التوأم القوية الإرادة وغير الشعبية، الأميرة أشراف. فقد دعتها خطة «السي.آي.أيه.» إلى إقناع الشاه بدعم الجنرال زاهدي. إلا أنه لم يتم العثور على الأميرة أشراف. وتعقّبها عميل الاستخبارات البريطانية أسد الله رشيديان إلى الريفييرا الفرنسية. واستغرق الأمر عشرة أيام أخرى لمداجنتها بالركوب في رحلة تجارية إلى طهران. وتضمنت الاستمالة مبلغاً كبيراً ومعطفاً من فرو ثعلب الماء من جهاز الاستخبارات البريطاني، إلى جانب وعد من العقيد ميد بأن الولايات المتحدة ستموّل العائلة المالكة في حال فشل الانقلاب. وبعد لقاء وجاهي عاصف مع توأمها، غادرت طهران في ٣٠ تموز/يوليو، مقتنعة، على خطأ، بأنها قوّت من صلابته. جاءت «السي.آي.أيه.» في أول آب/أغسطس بالجنرال نورمان شوارزكوف لدعم معنويات الشاه. وتوجه الشاه الخائف من وجود أجهزة تنصت في القصر، بالجنرال إلى قاعة الرقص الكبرى، وسحب طاولة صغيرة إلى وسطها، وهمس بأنه لا يستطيع مماشاة الانقلاب. فهو لا يثق بأن الجيش سيدعمه.

أمضى كيم روزفلت الأسبوع التالي يتسلّل داخلاً إلى قصر الشاه، وخارجاً منه، وهو يضغط عليه بدون شفقة، ويحذّره من أن عدم لحاقه بـ «السي.آي.أيه.» قد يفضي إلى إيران شيوعية أو «إلى كوريا أخرى»، وفي أي من الحالتين، إلى حكم بالاعدام على العاهل وعائلته. هرب الشاه المذعور إلى مقره الملكي على بحر قزيون.

ارتجل روزفلت بعنف، فاستصدر مرسوماً ملكياً يقيل مصدّق ويعيّن الجنرال زاهدي رئيساً للوزراء. أمر العقيد الذي يقود حرس الشاه الامبراطوري بتقديم نسخة موقعة عن هذه الوثيقة المشكوك في شرعيتها إلى مصدّق تحت تهديد السلاح، وبتوقيفه إذا رفضها. في ١٢ آب/أغسطس، لاحق العقيد الشاه عند بحر قزوين وعاد في الليلة التالية ومعه نسخ موقعة للمرسوم. وها إن عملاء روزفلت الإيرانيين يتدفقون على شوارع طهران. وأخذ الصحافيون والمحررون

يتقيّأون بالدعاية: مصدّق شيوعي، مصدّق يهودي. وقام حثالة الشوارع التابعون لـ «السي.آي.أيه.»، مدعين أنهم من حزب «توده»، بمهاجمة الموالي وبتدنيس أحد الجوامع. ردّ مصدّق بإقفال المجلس ـ فبحسب القانون فالمجلس هو الذي يستطيع إقالته، وليس الشاه ـ جاعلاً الشيوخ والنواب الذين اشترت «السي.آي.أيه.» أصواتهم، بدون فائدة.

شقّ روزفلت طريقه. أبرق في ١٤ آب/أغسطس إلى مقر القيادة يطلب على عجل خمسة ملايين دولار إضافية لإنعاش الجنرال زاهدي. فالانقلاب مقرر في تلك الليلة، ومصدّق يعرف ذلك. استنفرت حامية طهران في الجيش الإيراني وأحاطت منزله بالدبابات والجنود. وعندما ذهب جنود الحرس الامبراطوري التابع للشاه لتوقيف رئيس الوزراء، اعتقلهم الضباط الموالون. اختبأ زاهدي في منزل آمن تابع لـ «السي.آي.أيه.»، يرعاه أحد ضباط روزفلت، وهو مجند جديد اسمه روكي ستون. وتفكك كادر العقداء الإيرانيين الذي جمعتهم «السي.آي.أيه.» على عجل.

خرج راديو طهران إلى الهواء عند الـ ٥,٤٥ صباح ١٦ آب/أغسطس ليعلن فشل الانقلاب. لم يكن لدى مقر «السي.آي.أيه.» أي فكرة عما يفعله تالياً. فقد غادر ألن دالاس واشنطن قبل ذلك بأسبوع ليمضي عطلة أوروبية ممدّدة، واثقاً بابتهاج من أن كل شيء على ما يرام. كان غائباً عن السمع. وفرانك ويسنر جفّت لديه الأفكار. وقرر روزفلت، وحده، أن يحاول إقناع العالم بأن مصدّق هو الذي دبّر الانقلاب الفاشل. أراد من الشاه أن يروي تلك القصة، لكن الشاه كان قد هرب من البلاد. علم السفير الأميركي في العراق، بورتون برّي، بعد ذلك بساعات، بأن الشاه في بغداد يستجدي المساعدة. زود روزفلت برّي بالخطوط العريضة للنص، وقام السفير بنصح الشاه بإذاعة بيان يقول إنه هرب من أمام تمرّد يساري، فقام بما طلب منه. ثم طلب من طياره إعداد مخطط سفر إلى العاصمة العالمية للملوك المنفيين: روما.

ليلة السادس عشر من آب/أغسطس، سلّم أحد ضباط روزفلت مبلغ خمسين ألف دولار إلى عملاء المحطة الإيرانيين، وطلب منهم إنتاج حشد يوحي بأنه

مؤلف من الأنصار الشيوعيين. وفي تدفق صباح اليوم التالي المئات من محرّكي الاضطرابات المدفوعي الأجر إلى شوارع طهران، ناهبين، وحارقين، ومحطمين رموز الحكومة. انضم إليهم أعضاء فعليون في حزب «توده»، لكنهم سرعان ما أدركوا «أنه يتم افتعال عمل خفي»، بحسب ما أفاد مركز «السي.آي.أيه.»، في طهران، و«حاولوا إقناع المتظاهرين بالعودة إلى منازلهم». وبعد ليلة لم يذق فيها روزفلت طعم النوم، استقبل السفير لوي هندرسون الذي طار من بيروت في ١٧ آب/أغسطس. وفي الطريق إلى لقائه في المطار، مرّ أعضاء في السفارة الأميركية بتمثال برونزي مطاح به لوالد الشاه، لم يبق منه واقفاً سوى الجزمتين.

عقد هندرسون، وروزفلت، والجنرال ماكلور، مجلس حرب استغرق نصف ساعة داخل مجمع السفارة. وكانت النتيجة مخططاً جديداً لخلق الفوضى. وبفضل ماكلور، تم إيفاد ضباط من الجيش الإيراني إلى الحاميات النائية لتجييش الجنود دعماً للانقلاب. أُعطيت الأوامر لعملاء «السي.آي.أيه.» الإيرانيين باستخدام المزيد من عصابات الشوارع. وأُوفد مبعوثون دينيون لإقناع آيات الله العظمى في إيران بإعلان الجهاد المقدس.

لكن، في المقر العام، أخذ ويسنر ييأس. قرأ تقويم أفضل محللي «السي.آي.أيه.» في ذلك اليوم: «إن فشل الانقلاب العسكري في طهران(١٠) وفرار الشاه إلى بغداد، يبرزان سيطرة رئيس الوزراء مصدّق المستمرة على الوضع، ويؤذنان بتحرك أكثر شدّة من قبله للقضاء على أي معارضة». وبعث، في وقت متأخر من ليل ١٧ آب/أغسطس، برسالة إلى طهران جاء فيها أنه، في غياب توصيات قوية معاكسة من روزفلت وهندرسون، فإن الانقلاب يجب أن يتوقف. وبعد ذلك بساعات قليلة، بعيد الثانية فجراً، أجرى ويسنر اتصالاً هاتفياً مسعوراً بجون واللر، الذي يدير مكتب إيران في مقر «السي.آي.أيه.».

أفاد ويسنر أن الشاه طار إلى روما ونزل في فندق الإكسلسيور. ومن ثم «حدثت مصادفة رهيبة، رهيبة»، قال ويسنر. «هل يمكنك أن تخمّن ما هي؟».

لم يتمكن واللر من التخيّل.

«فكّرْ في أسوأ ما يمكنك التفكير فيه»، قال ويسنر.

«صدمته سيارة ومات»، أجاب واللر. «لا، لا، لا، لا»، ردّ ويسنر. «جون، أنت لا تدري ربّما أن دالاس قرر تمديد عطلته بالذهاب إلى روما. فهل يمكنك الآن أن تتخيل ماذا حصل؟».

ردّ واللر: «صدمه دالاس بسيارته وقتله؟».

لم يضحك ويسنر.

«ظَهَرا معاً عند مكتب الاستقبال في الإكسلسيور، في اللحظة ذاتها»، قال ويسنر. «واضطر دالاس إلى القول، من بعدك يا صاحب الجلالة»[١١].

عناق شغوف

استأجرت الوكالة فجر التاسع عشر من آب/أغسطس، حشوداً كبيرة متجمعة في طهران، وعلى استعداد للشغب. وصلت إلى العاصمة باصات وشاحنات ملأى برجال القبائل من الجنوب، وقد دفعت «السي.آي.أيه.» لزعمائهم جميعاً. ووصف نائب رئيس البعثة لدى السفير هندرسون، وليام راونتري، ما حصل تالياً، بأنه «يكاد يشكّل ثورة تلقائية»[١٢].

وروى أن «الأمر بدأ بتظاهرة عامة أشبه بالنادي الرياضي، أو نادي التمارين: رفع البراميل والسلاسل المعدنية، وكل هذا النوع من الأمور». كانوا من رافعي الأثقال ومن رجال السيرك الأشداء الذين جندتهم «السي.آي.أيه.» لذلك اليوم. «أخذوا يهتفون بشعارات معادية لمصدّق ومؤيّدة للشاه، وشرعوا بالسير عبر الشوارع. انضم إليهم كثيرون آخرون، وسرعان ما أصبحت هناك تظاهرة كبرى مؤيدة للشاه ومناهضة لمصدّق. انتشرت هتافات «يحيا الشاه!» في كل أنحاء المدينة، وتوجه الحشد في اتجاه المبنى الذي يضم حكومة مصدّق»، حيث اعتقلوا أعضاء كباراً في الحكومة، وأحرقوا مكاتب أربع صحف، ونهبوا المقر السياسي للحزب المؤيد لمصدّق. ضم الحشد اثنين من رجال الدين،

أحدهما آية الله أحمد كاشاني[١٣]، وإلى جانبه ابن الواحدة والخميسن سنة، المتكرّس له، آية الله روح الله موسوي الخميني، الزعيم المستقبلي لإيران.

طلب روزفلت من عملائه الإيرانيين أن يضربوا مكتب التلغراف، ووزارة الدعاية، ومقرات الشرطة والجيش. وبحلول بعد ظهر، وبعد مناوشة أدت إلى مقتل ثلاثة أشخاص على الأقل، أصبح عملاء «السي.آي.أيه.» على الهواء من راديو طهران. مضى روزفلت إلى مخبأ زاهدي، في المنزل الآمن الذي يديره عنصر «السي.آي.أيه.» روكي ستون، وطلب منه الاستعداد لإعلان نفسه رئيساً للوزراء. أصيب زاهدي بدرجة كبيرة من الذعر، بحيث إن ستون اضطر إلى تزرير بزته العسكرية.

قُتل، في ذلك اليوم، ما لا يقل عن مئة شخص في شوارع طهران. وقُتل ما لا يقل عن مئتين آخرين بعدما أمرت «السي.آي.أيه.» حرس الشاه الامبراطوري بمهاجمة منزل مصدّق الشديد التحصين. هرب رئيس الوزراء، لكنه استسلم في اليوم التالي. وأمضى السنين الثلاث التالية سجيناً، ومن ثم أمضى عقداً من الزمن في الإقامة الجبرية قبل أن يموت. سلّم روزفلت إلى زاهدي مليون دولار نقداً، وشرع رئيس الوزراء الجديد في سحق كل معارضة، وفي اعتقال الآلاف من السجناء السياسيين.

«أبلت «السي.آي.أيه.» جيداً على نحو ملحوظ في خلق وضع يمكن من خلاله، في الظروف والمناخ الملائمة، إحداث تغيير»، استذكر السفير راونتري، الذي أصبح لاحقاً مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. «من الواضح تماماً أن المسألة لم تجر بحسب ما توقعوا، أو أقلّه بحسب ما أملوا، إلا أنها نجحت في النهاية».

طار روزفلت، في ساعة مجده، إلى لندن. وفي ٢٦ آب/أغسطس، الساعة الثانية بعد الظهر، استقبله رئيس الوزراء في مقر الحكومة، في ١٠ دوانينغ ستريت. أفاد روزفلت أن وينستون تشيرتشل كان «في حالة سيئة». كلامه متداخل ببعضه البعض، ونظره محجوب، وذاكرته إلى زوال: «فالأحرف الأولى

من «السي.آي.أيه.» لم تعن له شيئاً، لكن كانت لديه فكرة غامضة بأنه لا بد من أن روزفلت على صلة ما بصديقه القديم بيديل سميث»[١٤].

لقي روزفلت ترحيب الأبطال في البيت الأبيض، وحلّق الإيمان بسحر العمل الخفي عالياً. «انتشرت الأقاويل الرومانسية حول الانقلاب في إيران كالنار في الهشيم، في كل أنحاء واشنطن»[١٥]، كما استذكر ذلك راي كلاين من «السي.آي.أيه.»، وهو أحد نجوم التحليل في الوكالة. «تنعّم ألن دالاس بمجد الإنجاز». لكن، لم ينظر الجميع في المقر العام إلى سقوط مصدّق على أنه انتصار[١٦]. وكتب كلاين أن «المشكلة مع هذا النجاح الباهر الظاهري» هي في «الانطباع المسرف الذي خلقه حول قوة «السي.آي.أيه.»، إذ إنه لم يثبت أنه في وسع «السي.آي.أيه.» إسقاط حكومات وتنصيب حكّام في السلطة، بل شكّل حالة فريدة قضت وحسب بتوفير الكم اللازم من المساعدة الهامشية بالطريقة المناسبة في الوقت المناسب». فمن خلال استئجار ولاءات الجنود وعصابات الشوارع، أحدثت «السي.آي.أيه.» درجة من العنف كافية للقيام بانقلاب. فالمال انتقل من أيد إلى أيد، وهذه الأيدي غيّرت النظام.

عاد الشاه إلى العرش، وتلاعب في الانتخابات البرلمانية التالية، مستخدماً في تنفيذ ذلك عصابات الشوارع التابعة لـ «السي.آي.أيه.»، وفرض ثلاث سنين من الأحكام العرفية، وشدد من سيطرته على البلاد. طلب من الوكالة ومن البعثة العسكرية الأميركية في إيران، مساعدته في ضمان سلطته بإنشاء جهاز جديد للاستخبارات، أصبح يُعرف بالسافاك. أرادت «السي.آي.أيه.» استخدام السافاك بمثابة أعين وآذان لها ضد السوفيات. وأراد الشاه شرطة سرّية تحمي سلطته. وقد قامت السافاك، التي درّبتها «السي.آي.أيه.» وجهزتها، بفرض حكمه لأكثر من عشرين سنة لاحقة.

أصبح الشاه ركيزة الوسط للسياسة الأميركية الخارجية في العالم الإسلامي. وسيصبح، لأعوام تلت، رئيس مركز الاستخبارات الأميركية في طهران، لا السفير الأميركي، هو المتحدث مع الشاه باسم الولايات المتحدة. قال أندرو كيللغور، وهو موظف سياسي في وزارة الخارجية في ظل ريتشارد هيلمس،

السفير الأميركي من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٦، إن «السي.آي.أيه.» حاكت نفسها في الثقافة السياسية الإيرانية، وتلاحمت في «عناق شغوف مع الشاه». وقال إنه «نُظر إلى الانقلاب بوصفه الانتصار الوطني الأميركي الأكبر. فقد غيرنا المسار الكامل للبلد هنا».

ترعرع جيل من الإيرانيين وهو يدرك أن «السي.آي.أيه.» قد نصّبت الشاه. ومع مرور الزمن، ستعود الفوضى التي خلقتها الوكالة في شوارع طهران لتنتاب الولايات المتحدة.

كان الوهم بأنه في إمكان «السي.آي.أيه.» قلب أمّة بشطحة يد، مغرياً. وقد دفع بالوكالة إلى معركة في أميركا الوسطى ستستمر للأعوام الأربعين المقبلة.

١٠

قنبلة تجر قنبلة

أوقف العقيد آل هاني سيارته الكاديلاك الجديدة عند طرف القاعدة الجوية المتداعية في أوبا ـ لوكا، في فلوريدا، بعد أيام قليلة على احتفالات عيد الميلاد في ١٩٦٣، وخرج إلى المهدة، واستطلع ميدانه الجديد: ثلاث ثكنات من طابقين عند حافة مستنقعات إيفرغليدس. كان العقيد هاني قد دفن حطام الإنسان الذي خلقه بوصفه رئيساً لمحطة كوريا الجنوبية تحت كفن من السرّية الفائقة، ثم عكف على شق طريقه إلى قيادة جديدة. فهو رجل وسيم، في عمر التاسعة الثلاثين، مطلّق حديثاً، يرتدي بزة عسكرية مجعّدة على بنية قوية العضلات، وهو المعيّن حديثاً نائباً خاصاً لألن دالاس لعملية النجاح، مؤامرة «السي.آي.أيه.» لقلب حكومة غواتيمالا.

كانت المؤامرات للقيام بانقلاب على الرئيس جاكوبو أربنز، تدور في الوكالة منذ نحو ثلاثة أعوام، وأعيد إحياؤها لحظة عودة كيم روزفلت الظافرة من إيران. طلب منه ألن دالاس، وقد أخذه التيه، قيادة عملية في أميركا الوسطى. رفض روزفلت باحترام. فقد حدد، بعد دراسته المسألة، أن الوكالة تمضي على رسلها. فهي لا تملك الجواسيس في غواتيمالا، ولا فكرة واضحة عن إرادة الجيش أو الشعب. هل الجيش موال لأربنز؟ وهل يمكن نقض هذا الولاء؟ لم تكن لـ «السي.آي.أيه.» أي فكرة.

قضت أوامر هاني بتدبير طريق إلى السلطة لعقيد غواتيمالي معزول، اختارته قيادة «السي.آي.أيه.»، هو كارلوس كاستيّو أرماس. إلا أن استراتيجيته لم تعد كونها رؤوس أقلام مفصّلة. هي تقول فقط إن «السي.آي.أيه.» ستدرّب قوة

تمرّد وتجهزها، وتوجهها صوب القصر الرئاسي في مدينة غواتيمالا. بعث ويسنر بالمسودة إلى وزارة الخارجية ليدعمها الجنرال والتر بيديل سميث، الذي عيّن فريقاً جديداً من السفراء الأميركيين من أجل العملية.

العصا الغليظة

صنع موضّب المسدسات جاك بوريفوي شهرته واسمه، من خلال «تطهير» وزارة الخارجية من اليساريين والليبراليين في ١٩٥٠. وفي أول خدمة خارجية له، كسفير في اليونان من ١٩٥١ إلى ١٩٥٣، عمل على نحو وثيق مع «السي.آي.أيه.» لإقامة قنوات أميركية خفية من السلطة الأميركية في أثينا. وأبرق بوريفوي إلى واشنطن: بوصوله إلى مقرّه الجديد: «جئت إلى غواتيمالا لاستخدام العصا الغليظة».

اجتمع مع الرئيس أربنز، وأفاد: «أنا مقتنع على نحو لا يحتمل اللبس، بأنه إذا لم يكن الرئيس شيوعياً، فإنه سيفي بالغرض إلى أن يأتي شيوعي».

اختار بيديل سميث، وايتينغ ويللوير، «مؤسس سيفيل إير تراسبورت (كات)»، شركة الخطوط الجوية الآسيوية التي اشتراها فرانك ويسنر في ١٩٤٩، سفيراً في هندوراس. استدعى ويللوير طيارين من مقر «كات» في تايوان، وأعطاهم تعليمات بالبقاء بعيداً عن الأنظار، وانتظار الأوامر في ميامي وهافانا. ومضى السفير توماس ويلان إلى نيكاراغوا للعمل مع الديكتاتور أناستازيو سوموزا الذي كان يساعد «السي.آي.أيه.» في بناء قاعدة لتدريب رجال كاستيّو أرماس.

وافق ألن دالاس رسميّاً، في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣، على عملية النجاح، وخصص لها موزانة بثلاثة ملايين دولار. وعيّن، نتيجة لها، آل هاني قائداً ميدانياً، وسمّى تريسي بارنز رئيساً للحرب السياسية.

آمن دالاس بالمفهوم الرومانسي للسيد النبيل الجاسوس، وشكّل تريسي بارنز مثالاً على ذلك. امتلك بارنز، الأصيل المنشأ، سيرة الحياة الكلاسيكية لـ «السي.آي.أيه.» في الخمسينيات، غروتون، يال، كلية الحقوق في

هارفرد[١]. نشأ في عقار ويتني في لونغ آيلاند، وكان يملك ملعب الغولف الخاص به. كان بطلاً من أبطال «الأو.أس.أس.» في الحرب العالمية الثانية، وحاز ميدالية النجمة الفضية لأسره حامية ألمانية. امتلك الهمّة والمهارة والفخر التي تمضي قبل السقوط، وانتهى ممثلاً لما هو الأسوأ في الجهاز الخفي. واستفكر ريتشارد هيلمس قائلاً «إن بارنز، على غرار أولئك الذين[٢]، مهما بذلوا من جهود، يبدو أنه مكتوب لهم ألا يتمكنوا من امتلاك لغة أجنبية، أثبت أنه غير قادر على فهم كيفية عمل العمليات السرّية. بل الأسوأ من ذلك، أنه، بفضل الإشادة المستمرة والدفع من دالاس، بدا تريسي، غير مدرك على ما يبدو، مشكلته». ومضى ليخدم رئيساً للمحطة في ألمانيا وإنكلترا، ومن ثم إلى خليج الخنازير.

طار بارنز وكاستيّو أرماس إلى أوبا ـ لوكا في ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٥٤، حيث شرعا في وضع خططهما مع العقيد هاني. وأفاقوا، ثلاثتهم، في صباح اليوم التالي ليكتشفوا أن دسيستهم قد انكشفت حتى بلغت أصداؤها السماء. فكل صحيفة رئيسية في نصف الكرة الغربي نشرت اتهامات الرئيس أربنز حول «مؤامرة معادية للثورة» ترعاها «حكومة شمالية»، ويقودها كاستيّو أرماس، وقاعدتها معسكر تدريب في مزرعة سوموزا في نيكاراغوا. جاء التسريب من برقيات سرّية ووثائق تركها ضابط في «السي.آي.أيه.» صلة وصل العقيد هاني مع كاستيّو أرماس، في غرفة أحد فنادق مدينة غواتيمالا. استدعي الضابط السيّىء الحظ إلى واشنطن، ونُصح بأخذ وظيفة مراقب للنار في مكان ما في عمق غابات شمال غرب المحيط الهادئ.

سرعان ما كشفت الأزمة عن هاني بوصفه واحداً من أكثر المدافعين تفلّتاً في ترسانة «السي.آي.أيه.» وخطط لإيجاد سبل لإلهاء الغواتيماليين عن روايات المؤامرة، من خلال رزع أخبار كاذبة في الصحف المحلّية. وأبرق إلى مقر قيادة «السي.آي.أيه.» «إذا أمكن، فبركوا قصة ذات اهتمام إنساني كبير، مثل الصحون الطائرة، أو ولادة ستة توائم في منطقة نائية». وحلم بعناوين رئيسية مثل: «أربنز يُجبر جميع الجنود الكاثوليك على الانضمام إلى كنيسة جديدة تعبد

ستالين»؛ «غواصة سوفياتية في طريقها لتسليم أسلحة إلى غواتيمالا!». وقد أسرت هذه الفكرة الأخيرة، مخيلة تريسي بارنز. وجعل، بعد ذلك بثلاثة أسابيع، فريقه في «السي.آي.أيه.» يزرع مخبأ أسلحة سوفياتية على أحد شواطئ نيكاراغوا. ولفّقوا روايات عن تسليح السوفيات فرق اغتيال شيوعية في غواتيمالا. إلا أن قلة من بين الصحافة والعامة، قبضت ما كان ينشره بارنز من أخبار كاذبة.

قضى ميثاق «السي.آي.أيه.»، بأن يتم القيام بالعمل الخفي بطرائق محكمة إلى درجة أنه لا تمكن معها رؤية اليد الأميركية. لكن، لم تكن لذلك أهمية كبرى لدى بارنز. وأبلغ دالاس أنه «ليس هناك أدنى شك في أنه إذا تم تنفيذ العملية، فإن الكثيرين من الأميركيين اللاتينيين سيرون فيها يد الولايات المتحدة». إلا أن عملية النجاح قد اختصرت «على أساس أنه تم إظهار تورط الولايات المتحدة على نحو واضح جداً»، كما حاجج ويسنر، و«ثمة سؤال خطير يُثار حول إذا كان في الإمكان، ومناسباً، إدراج أي عملية من هذا النوع بوصفها واحدة من أسلحة الحرب الباردة، مهما كبر الاستفزاز، أو مهما كان الطالع ملائماً». فويسنر يعتقد أن العملية تكون سرّية إذا وافقت عليها الولايات المتحدة، وأُبقيت سرّاً على الشعب الأميركي.

استدعى ويسنر العقيد هاني إلى مقر القيادة إلى الاجتماع به. قال لهاني، إنه «ما من عملية يُنظر إليها على هذا القدر من الأهمية مثل هذه العملية، وتتوقف عليها سمعة الوكالة إلى هذا الحد. يجب إرضاء الرئيس، ولدينا ما يلزم». إلا «أن مقرّ القيادة لم يحصل أبداً على بيان واضح وموجز عن ماهية المخططات وما سيحصل في اليوم المحدد». فمسودة العقيد هاني كانت مجموعة من الجداول الزمنية المتشابكة، مخربشة على لفة ورق من أوراق الجزار بطول أربعين قدماً معلّقة على جدار ثكنة أوبا ـ لوكا. وشرح لويسنر أنه في إمكانه فقط إدراك العملية من خلال دراسة الخربشات على لفائف أوبا ـ لوكا.

واستذكر ريتشارد بيسيل أن ويسنر أخذ «يفقد ثقته بحكم هاني على الأمور وبتمالك نفسه». كان بيسيل، الشديد العقلانية، وهو نتاج آخر من غروتون

ويال، والرجل الذي عُرف سابقاً بـ «السيد مشروع مارشال»، قد انضم للتو إلى «السي.آي.أيه.»، ووقّع على انضمامه بوصفه «متتلمذاً على يد دالاس»[٣]، كما قال، مع وعود بمسؤوليات كبيرة في المستقبل. وطلب منه المدير فوراً ترتيب اللوجستيات المعقدة باطراد لعملية النجاح.

شكّل بيسيل وبارنز الرأس والقلب لـ «السي.آي.أيه.» أيام ألن دالاس. وبرغم أنهما لا يملكان خبرة في القيام بالعمل الخفي، فإنهما، كعلامة على وثوق دالاس بهما، تلقيا الأمر بمعرفة ما الذي يهيّئ له آل هاني في أوبا ـ لوكا.

قال بيسيل إنه وبارنز استمتعا بالعقيد المفرط في الحركة: «كان بارنز مؤيداً كبيراً لهاني، ومتحمسّاً له في شأن العملية. اعتقد أن هاني هو الرجل المناسب للمهمة، لأن على الشخص المكلف بعملية من هذا النوع، أن يكون نشطاً وقائداً قوياً. أحببنا، أنا وبارنز، هاني، ووافقنا على طريقة إدارته الأمور. وما من شك في أن علمية هاني تركت انطباعاً إيجابياً لديّ، لأنني أقمت مكتباً للمشروع شبيهاً بهذا إبان التحضيرات لاجتياح خليج الخنازير».

ما أردناه القيام به هو حملة ترهيب

انتظر كاستيّو أرماس «الجريء، لكن غير الكفوء» (استشهاداً ببارنز)، إلى جانب قواته المتمرّدة «الصغيرة للغاية والسيئة التدريب» (استشهاداً ببيسيل)، إشارة من الأميركيين للهجوم، تحت العين الساهرة لرجل هاني، ريب روبرتسون، الذي قاد بعضاً من عمليات حرب عصابات «السي.آي.أيه.» السيئة الطالع في كوريا.

لم يعرف أحد ما الذي سيحصل عندما يهاجم كاستيّو أرماس والمئات القليلون من متمرديه، الجيش الغواتيمالي المؤلف من خمسة آلاف رجل. قدّمت «السي.آي.أيه.» معونة إلى حركة طالبية معادية للشيوعية مؤلفة من بضع مئات في مدينة غواتيمالا. إلا أن عناصرها، بعبارت ويسنر، خدموا على نحو رئيسي

بوصفهم «زمرة من المشاغبين»، وليس جيشاً مقاوماً. وهكذا، فإن ويسنر حصر رهانه وفتح جبهة ثانية في الحرب على أربنز. أوفد واحداً من أفضل ضباطه في «السي.آي.أيه.»، قائد قاعدة برلين هنري هكشر، إلى غواتيمالا مزوداً بأوامر بإقناع كبار ضباط الجيش بالتمرد على الحكومة. أُجيز لهكشر أن يصرف للرشى ما يصل إلى عشرة آلاف دولار شهرياً، وسرعان ما اشترى ولاء الوزير بدون حقيبة في حكومة أربنز، العقيد إلفيغو مونزون. وكان الأمل في أن المزيد من المال سيدقّ إسفيناً جديداً في جسم الضباط، الذي أخذ بالفعل في التشقق بفعل الضغط المزدوج لحظر السلاح الذي فرضته الولايات المتحدة والتهديد باجتياح أميركي.

لكن، سرعان ما اقتنع هكشر بأن هجوماً فعلياً تشنه الولايات المتحدة، وحده سيعطي الجرأة للجيش الغواتيمالي على قلب نظام أربنز. وكتب هكشر لهاني: «على الشرارة الفاصلة أن تتولد من الحرارة ـ حراة الولايات المتحدة ـ على شاكلة قصف العاصمة».

بعث مقر قيادة «السي.آي.أيه.» إلى هاني جدولاً من خمس صفحات بأسماء ٥٨ غواتيمالياً برسم الاغتيال. ووافق ويسنر وبارنز على عمليات الاستهداف بالقتل. وضمّت اللائحة «زعماء حكوميين وتنظيميين كباراً»، متهمين بالميول إلى الشيوعية و«قلّة من الأفراد في مراكز حكومية وعسكرية أساسية ذات أهمية تكتيكية من الضروري حذفهم، لأسباب نفسية وتنظيمية وغيرها، لنجاح التحرّك العسكري». وافق كاستيّو أرماداس و«السي.آي.أيه.» على أن تجري الاغتيالات أثناء وصوله الظافر إلى مدينة غواتيمالا، أو مباشرة بعده. فهي ستبعث برسالة تشدد حول جدّية نيات.

قضت واحدة من الأساطير الكثيرة حول عملية النجاح، التي زرعها ألن دالاس في الصحافة الأميركية، بأن نجاحها في النهاية مردّه ليس إلى العنف، بل إلى ضرب متألق من التجسس. وبحسب رواية دالاس للقصة، فإن الخديعة أطلقها جاسوس أميركي في مدينة سيتين البولندية، على بحر البلطيق ـ الحد

الشمالي للستار الحديدي ـ، ادعى أنه مراقب طيور. ورأى في منظاره أن سفينة شحن تدعى «الفاهم» تنقل أسلحة إلى حكومة أربنز. وقام عندها بإرسال رسالة بالبريد تحتوي على إخبارية بالمايكرودوت (صورة بحجم رأس الدبوس تحتوي على المعلومات) ـ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» ـ، موجهة إلى ضابط في «السي.آي.أيه.» يعمل في باريس تحت غطاء كثيف لمحل بيع قطع السيارات، الذي قام بدوره ببث الرسالة المرمّزة بالموجة القصيرة إلى واشنطن. وبينما كان دالاس يخبر القصة، قام ضابط آخر في «السي.آي.أيه.» سرّاً بتفتيش مكان خزن البضاعة في السفينة بينما هي راسية في قناة كييل التي تربط البلطيق ببحر الشمال. وعرفت «السي.آي.أيه.» بالتالي، من اللحظة التي غادرت فيها «الفاهم» أوروبا، أنها متوجهة إلى غواتيمالا، ناقلة الأسلحة.

نسيج رائع لحكاية تم تكرارها في الكثير من كتب التاريخ، إلا أنها كذبة نافرة: قصة غطاء موّهت خطأً عملانياً خطيراً. فـ «السي.آي.أيه.»، في الحقيقة، فوّتت السفينة.

سعى أربنز يائساً إلى كسر حصار الأسلحة الأميركية على غواتيمالا. اعتقد أنه يستطيع تأمين ولاء جماعة ضباطه من خلال تسليحهم. وكان هنري هكشر قد أفاد أن بنك غواتيمالا قد حوّل ٤,٨٦ ملايين دولار، عبر حساب سويسري، إلى مخزن أسلحة تشيكوسلوفاكي. لكن «السي.آي.أيه.» فقدت الأثر. أربعة أسابيع من البحث المحموم، قبل أن ترسو «الفاهم» بنجاح في بويرتو باريوس، في غواتيمالا. وفقط، بعدما أفرغت السفينة حمولتها، بلغ الخبر السفارة الأميركية بأن شحنة من البنادق، والرشاشات، ومدافع الهاون، وغيرها من الأسلحة، قد أنزلت إلى البرّ.

خلق وصول الأسلحة ـ والكثير منها صدئ وعديم النفع، وبعضها يحمل خاتم الصليب المعكوف، الأمر الذي يشير إلى عمرها ومصدرها ـ «هدية من السماء»، و«منجماً ذهبياً» من الدعاية غير المحتسبة للولايات المتحدة. وبعد المبالغة الفاحشة بحجم الشحنة ومغزاها العسكري، أعلن فوستر دالاس ووزارة الخارجية أن غواتيمالا باتت الآن جزءاً من المؤامرة السوفياتية لتخريب نصف

الكرة الأرضية الغربي. ووصف رئيس مجلس النواب المقبل، جون ماكورماك، الشحنة بالقنبلة الذرية المزروعة في فناء أميركا الخلفي.

قال السفير بوريفوي إن الولايات المتحدة في حالة حرب. وأبرق في ٢١ أيار/مايو إلى ويسنر، أنه «ما من شيء أقل من تدخل عسكري مباشر سينجح». وحاصرت، بعد ذلك بثلاثة ايام، السفن الحربية الأميركية والغواصات غواتيمالا، في انتهاك للقانون الدولي.

في ٢٦ أيار/مايو، هدرت طائرة لـ «السي.آي.أيه.» فوق القصر الرئاسي، وأسقطت مناشير فوق المقر العام للحرس الرئاسي، وهي النخبة الأفضل من بين وحدات الجيش في مدينة غواتيمالا. وجاء فيها: «كافحوا الإلحاد الشيوعي!»، «كافحوا مع كاستيّو أرماس!». شكل ذلك ضربة حاذقة. وقال تريسي بارنز لآل هاني، «أعتقد أنه لا يهم حقيقة ما تقوله المناشير». وكان على حق. فما يهم هو أن «السي.آي.أيه.» انقضّت ورمت سلاحاً على بلد لم يسبق له أن تعرّض للقصف.

«ما أردنا القيام به هو حملة ترهيب»(٤)، قال إ. هوارد هانت من «السي.آي.أيه.» الذي عمل على ملف الحرب السياسية في العملية: «لإرهاب أربنز بنوع خاص، ولإرهاب قواته، تماماً كما أن قاذفات الستوكا الألمانية أرعبت سكان هولندا، وبلجيكا، وبولندا، عند نشوب الحرب العالمية الثانية».

ها إن «السي.آي.أيه.»، على مدى أربعة أسابيع، تشن حرباً نفسية في غواتيمالا عبر إذاعة سرّية تدعى «صوت التحرير»، يديرها ضابط متقاعد مع «السي.آي.أيه.» وممثل هاو وكاتب دراما موهوب يدعى ديفيد أتلي فيليبس. وبضربة حظ هائلة، توقف الراديو الرسمي الغواتيمالي عن البث في أواسط أيار/مايو لإجراء تبديل مقرّر لهوائيه. تسلل فيليبس إلى تردداته، حيث إن العاملين في الاستوديو الذين يسعون إلى إذاعات الدولة، وقعوا على راديو «السي.آي.أيه.» وتحول الاضطراب إلى هستيريا بين السكان، في حين أن

محطة التمرّد كانت ترسل عبر الموجة القصيرة تقارير وهمية عن تمردات وعمليات فرار ومخططات لتسميم آبار الماء وتجنيد الأولاد.

في الخامس من حزيران/يونيو، طار قائد سلاح الجو الغواتيمالي المتقاعد إلى مزرعة سوموزا في نيكاراغوا، وهو المكان الذي تبث منه الإذاعة. أسكره رجال فيليبس بزجاجة من الويسكي، وأدخلوه ليتحدث عن أسباب هروبه من غواتيمالا. وبعدما جرى قص الشريط وتركيبه في الاستوديو الميداني لـ «السي.آي.أيه.»، بدا كأنه دعوة انفعالية إلى التمرّد.

اعتبر التمرّد مهزلة

عندما سمع أربنز، في اليوم التالي، عن البث الإذاعي، طار صوابه. وتحوّل إلى ديكتاتور بعدما صوّرته «السي.آي.أيه.» وقد احتجز سلاحه الجوي الخاص مخافة أن يهرب طياروه، ثم أغار على منزل زعيم طالبي مناهض للشيوعية يعمل عن كثب مع «السي.آي.أيه.»، ووجد دليلاً إلى المؤامرة الأميركية. علّق الحريات العامة وشرع في توقيف مئات الناس، موجهاً الضربة الأقسى إلى مجموعة طلاب «السي.آي.أيه.» وقد تم تعذيب سبعين منهم على الأقل، وقتلهم، ودفنهم في مقابر جماعية.

أبرقت محطة «السي.آي.أيه.» في غواتيمالا في ٨ حزيران/يونيو، «أن الذعر ينتشر في الدوائر الحكومية». وهو بالضبط ما أراد هاني سماعه. بعث بأوامر للنفخ على النار بالمزيد من البهتان: «هبطت مجموعة من رؤساء الدوائر السوفياتية، والضباط والمستشارين السياسيين، بقيادة عضو من المكتب السياسي في موسكو... وسيشرع الشيوعيون، بالإضافة إلى التجنيد العسكري، في التسخير للعمل. وإن قراراً في هذا الشأن هو الآن قيد الطباعة. سيتم استدعاء جميع الفتيان والفتيات في عمر الـ ١٦ إلى التجنُّد سنة «في الخدمة العسكرية والعمل في معسكرات خاصة، بهدف التلقين السياسي، وكسر نفوذ العائلة

والكنيسة في الشبان... هرب أربنز فعلاً من البلاد، وإعلاناته من القصر الوطني يقوم بها في الواقع شبيه له وفّرته الاستخبارات السوفياتية».

شرع هاني، بمبادرة شخصية منه، بإرسال البازوكا والرشاشات إلى الجنوب جواً، مُصدراً أوامر غير مُجازة بتسليح الفلاحين وحثهم على قتل رجال الشرطة الغواتيماليين. أبرق ويسنر إلى هاني، «نعترض بقوة... على أن يوعز إلى الفلاحين بقتل الحرس الوطني. إن هذا بمثابة التحريض على الحرب الأهلية... هو يسقط سمعة الحركة لتصبح إرهابية ومنظمة غير مسؤولة مستعدة للتضحية بالأناس الأبرياء».

طلب العقيد مونزون، عميل «السي.آي.أيه.» في حكومة أربنز، قنابل وغازاً مسيّلاً للدموع لإطلاق الانقلاب. وأبلغت محطة «السي.آي.أيه.» هاني، أنه «من المهم كثيراً، القيام بهذا». وقيل لمونزون إنه «من الأفضل التحرّك بسرعة. ووافق... وقال إن أربنز، والشيوعيين، والأعداء، سيُعدمون». وناشدت محطة «السي.آي.أيه.» في غواتيمالا من جديد القيام بهجوم: «نطلب على نحو عاجل إسقاط النابل، واستعراض القوة، وإرسال جميع الطائرات المتوفّرة، والإظهار للجيش والعاصمة أن وقت القرار قد حان».

شن كاستيّو أرماس في ١٨ حزيران/يونيو، هجومه الذي طال انتظاره، بعد أربع سنين من التحضير. هاجمت قوة من ١٩٨ متمرّداً بويرتو باريوس على شاطئ الأطلسي. فهزمها رجال الشرطة وعمال المرفأ. وسار ١٢٢ آخرون في اتجاه حامية الجيش الغواتيمالي في زاكابا، فقُلتوا جميعهم أو أُسروا ما عدا ثلاثين. وتحرّكت قوة ثالثة من ٦٠ متمرداً من السلفادور، إلا أن الشرطة المحلية اعتقلتها. وقاد كاستيّو نفسه، مرتدياً سترة جلدية ويقود سيارة ستايشن، مئة رجل من هندوراس في اتجاه ثلاث قرى غواتيمالية قليلة الدفاع. وخيم على بعد أميال قليلة من الحدود، طالباً من «السي.آي.أيه.» المزيد من الطعام، والمزيد من الرجال، والمزيد من السلاح. إلا أنه، في غضون ٧٢ ساعة، كان أكثر من نصف قواته قد قُتل أو أُسر، أو على وشك الهزيمة.

بعد ظهر التاسع عشر من حزيران/يونيو، صادر السفير خط الاتصال الآمن لـ «السي.آي.أيه.» في السفارة الأميركية، وكتب مباشرة إلى ألن دالاس راجياً: «قنبلة... أكرّر قنبلة». وبعد أقل من ساعتين، ألقى هاني بثقله في رسالة عنيفة إلى ويسنر: «هل سنقف مكتوفي الأيدي ونشاهد الأمل الأخير لشعب غواتيمالا الحرّ يغرق في أعماق القمع الشيوعي والفظاعة، قبل أن نرسل قوة أميركية مسلحة ضد العدو... أوَليس تدخلنا الآن، في ظل هذه الظروف، أكثر استساغة من تدخل المارينز؟ إنه العدو نفسه الذي حاربناه في كوريا، وقد نحاربه غداً في الهند الصينية».

جمد ويسنر. فإرسال فيالق من الأجانب إلى حتفهم أمر، وإرسال طيارين أميركيين لنسف عاصمة وطنية، أمر آخر تماماً.

صبيحة العشرين من حزيران/يونيو، أفادت محطة «السي.آي.أيه.» في عاصمة غواتيمالا، بأن حكومة أربنز «تستعيد رباطة جأشها». والعاصمة «في حالة كبرى من الركود، والمحلات مقفلة. والناس ينتظرون بعدم اهتمام، ويعتبرون التمرّد مسخرة».

أصبح التوتّر في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» يكاد لا يُحتمل. وصار ويسنر قدريّاً. أبرق إلى هاني ومحطة «السي.آي.أيه.»: «مستعدون لاستخدام القنابل لحظة نقتنع بأنها ستزيد في شكل كبير من احتمالات النجاح بدون الإضرار على نحو كارثي بمصالح الولايات المتحدة... نخشى أن قصف المنشآت العسكرية سيؤدي على الأرجح إلى تقوية الجيش ضد التمرّد أكثر من دفع عناصره إلى الفرار، ونحن مقتنعون بأن الهجمات ضد أهداف مدنية، التي ستريق دماء أناس ابرياء، ستناسب تماماً خط الدعاية الشيوعية، وتتجه إلى إغضاب جميع عناصر الشعب».

قال بيسيل لدالاس إن «نتيجة جهد الإطاحة بنظام الرئيس الغواتيمالي أربنز، لا تزال محط شك كبير». وكتب بيسيل لاحقاً، «انقطعت بنا الحيل جميعنا» في مقر «السي.آي.أيه.» «في شأن كيفية التصرّف. وبتنا، مدركين جيداً وحسب،

ونحن عالقون في المشاكل العملانية الناتجة عن عدم الأهلية، كم أننا قريبون، على نحو خطر، من الإخفاق»(٥). كان دالاس قد حدد لكاستيّو أرماس ثلاث طائرات مقاتلة ـ قاذفة أف ـ ٤٧ ثاندربولت، تحت اسم الإنكار. اثنتان منهما خارج الخدمة. وسجّل بيسيل في مذكراته أن «سمعة الوكالة، وسمعته، أصبحتا الآن على المحك».

سمح دالاس سرّاً بغارة جوية إضافية وحيدة على العاصمة بينما كان يستعد للقاء الرئيس. وصباح ٢٢ حزيران/يونيو، أشعلت طائرة «السي.آي.أيه.» الوحيدة التي لا تزال تطير، النار في خزان وقود صغير في أطراف المدينة. وتم إخماد النار في عشرين دقيقة. وقال هاني غاضباً إن «الانطباع العام هو أن الهجمات أظهرت ضعفاً لا يُصدّق، وغياباً للقرار، وجهداً خائر القلب. وتم على نطاق واسع، وصف جهود كاستيّو أرماس بالمسخرة. وباتت معنويات المناهضين للشيوعيين وللحكومة على وشك التلاشي». وأبرق إلى دالاس مباشرة، طالباً المزيد من الطائرات فوراً.

أمسك دالاس بسماعة الهاتف واتصل بوليام ياولي، وهو أحد أغنى رجال الأعمال في الولايات المتحدة، ورئيس الديموقراطيين المؤيدين لأيزنهاور، وواحد من أكبر ممولي أيك في انتخابات ١٩٥٢، ومستشار لـ «السي.آي.أيه.». وإذا كان في وسع شخص ما توفير قوة جوية سرّية، فهو باولي. ثم إن دالاس أوفد بيسيل للقاء والتر بيديل سميث، الذي استشارته «السي.آي.أيه.» يومياً في شأن عملية النجاح، ووافق الجنرال على الطلب المرفوع من القناة الخلفية للحصول على طائرات. لكن، في اللحظة الأخيرة، عارض نائب وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية، هنري هولاند، بعنف، مطالباً بالمضي لرؤية الرئيس.

عند الساعة ٢:١٥ من بعد ظهر ٢٢ حزيران/يونيو، دخل دالاس، وباولي، وهولاند، المكتب البيضوي. سأل أيزنهاور عن حظوظ التمرّد في النجاح في هذه اللحظة. واعترف دالاس بأنه صفر. وإذا حصلت «السي.آي.أيه.» على مزيد من الطائرات والقنابل؟ «ربما ٢٠ في المئة»، خمّن دالاس.

سجّل الرئيس وباولي المحادثة على نحو شبه متطابق في مذكراتهما، باستثناء واحد. لقد محا أيزنهاور باولي من التاريخ، والسبب واضح: فقد أجرى صفقة سرّية مع المنعم عليه. «استدار أيك صوبي»، كتب باولي، «وقال: بيل، هيا احصل على الطائرات».

اتصل باولي هاتفياً ببنك ريغز، على بعد تجمع بنايات واحد من البيت الأبيض. ثم اتصل بسفير نيكاراغوا في الولايات المتحدة. سحب ١٥٠ ألف دولار نقداً، وتوجه بالسيارة إلى البنتاغون. سلّم باولي النقود إلى ضابط عسكري قام على الفور بنقل ملكية ثلاث طائرات ثاندربولت إلى حكومة نيكاراغوا. ووصلت الطائرات، مدججة بالأسلحة، في المساء نفسه إلى بانما من بورتوريكو.

طارت إلى المعركة عند الفجر، وأفلتت سيلاً من القنابل على قوات الجيش الغواتيمالي ذاتها التي شكّلت ولاءاتها عصام خطة الإطاحة بأربنز. استهدف طيارو «السي.آي.أيه.» بنيرانهم قطارات تنقل جنوداً إلى الجبهة. أسقطوا الصواريخ الموجهة، والديناميت، والقنابل اليدوية، وكوكتيلات المولوتوف. فجّروا محطّة إذاعة يديرها مبشّرون مسيحيون أميركيون، وأغرقوا باخرة نقل بريطانية راسية عند شاطئ المحيط الهادئ.

على الأرض، فشل كاستيّو أرماس في التقدّم بوصة واحدة. واتصل، مستديراً إلى الوراء، بـ «السي.آي.أيه.» لاسلكياً، مناشداً المزيد من القوة الجوية. وأخذ صوت التحرير، وقد تم نقل إشارته عبر جهاز إرجاع على سطح السفارة الأميركية، يذيع روايات ملفّقة بمهارة عن آلاف جنود التمرّد الذين يتواردون على العاصمة. وعصفت مكبرات الصوت على سطح السفارة بالأصوات المسجلة لمقاتلات «بي. ـ ٣٨» وهي تنساب عالية خلال الليل. وأسكر الرئيس أربنز نفسه بانذهاله، ورأى من خلال ضبابيته أنه يتعرّض لهجوم من الولايات المتحدة.

قصفت «السي.آي.أيه.» بعد ظهر الخامس والعشرين من حزيران/يونيو، ساحة الاستعراض في أكبر معسكر للجيش في مدينة غواتيمالا. كسر ذلك إرادة جسم الضباط. استدعى أربنز، في تلك الليلة، حكومته، وأبلغها أن عناصر في الجيش هم في حالة تمرّد. وكان هذا صحيحاً: قررت حفنة من الضباط، سرّاً، الاصطفاف مع «السي.آي.أيه.» لقلب رئيسها.

اجتمع السفير بوريفوي، في ٢٧ حزيران/يونيو، مع مخططي الانقلاب، والنصر في متناول يده. لكن أربنز تخلّى عندها عن السلطة للعقيد كارلوس أنريكي دياز، الذي شكّل طغمة عسكرية، وتعهّد بمقاتلة كاستيّو أرماس. وأبرق بوريفوي «لقد تم خداعنا». بعث آل هاني برسالة إلى جميع محطات «السي.آي.أيه.» محدداً دياز على أنه «عميل شيوعي». أمر ضابط «السي.آي.أيه.» البليغ اللسان، إينو هوبّيغ، رئيس مكتب «التايم» في برلين قبل انضمامه إلى الوكالة، بإجراء حديث قصير مع دياز فجر اليوم التالي. أبلغ هوبيغ دياز الرسالة: «يا عقيد، أنت غير مناسب للسياسة الخارجية الأميركية».

تلاشت الطغمة على الفور، ليتم استبدالها في خلال عملية خلافة فورية، بأربعة إضافيين، وكل منهم موال لأميركا أكثر من الآخر. وها إن السفير بوريفوي يطلب من «السي.آي.أيه.» التوقف. وأبرق ويسنر، في ٣٠ حزيران/يونيو، إلى جميع مساعديه، أن الوقت حان «للجرّاحين بالتراجع، وأن يتولى الممرضون المريض». ناور بوريفوي على مدى شهرين إضافيين قبل أن يتولى كاستيّو أرماس الرئاسة. حصل على ٢١ طلقة مدفعية تحية في عشاء رسمي في البيت الأبيض، حيث رفع نائب الرئيس النخب التالي: «لقد راقبنا، نحن في الولايات المتحدة، الشعب الغواتيمالي يسجّل فصلاً من تاريخه له مغزى كبير جداً لجميع الشعوب»، قال ريتشارد نيكسون. «فالشعب الغواتيمالي، بقيادة جندي شجاع هو بيننا هذا المساء، تمرّد على الحكم الشيوعي الذي يحمل، بانهياره، شهادة حيّة على سطحيته، وبطلانه، وفساده». وباتت غواتيمالا على موعد مع أربعين عاماً من الحكام العسكريين، وفرق الموت، والقمع المسلح.

يفوق التصديق

خلق قادة «السي.آي.أيه.» أسطورة في شأن عملية النجاح، تماماً كما فعلوا بانقلاب إيران. وكانت رواية «السي.آي.أيه.» هي أن المهمة شكّلت عملاً متقناً. وفي الحقيقة، قال جاك إستلاين الذي أصبح، في نهاية الصيف، رئيسَ المحطة الجديد في غواتيمالا، «لم نفكّر في الواقع في أنها على هذا القدر من النجاح»[٦]. فالانقلاب نجح على نحو كبير بفضل القوة الغاشمة والحظ الأعمى. إلا أن «السي.آي.أيه.» نسجت رواية أخرى في إيجاز رسمي للبيت الأبيض في ٢٩ تموز/يوليو ١٩٥٤. وفي الليلة التي سبقت، دعا ألن دالاس كلاً من فرانك ويسنر، وتريسي بارنز، وديف فيليبس، وآل هاني، وهنري هكشر، وريب روبرتسون، إلى منزله في جورجتاون، من أجل التمرين الكامل الأخير. واستمع باستفظاع متزايد بينما شرع هاني في خطاب كثير الاستطراد مع توطئة طويلة حول إنجازاته البطولية في كوريا.

«لم أستمع أبداً إلى مثل هذا الهراء»، قال دالاس، وأمر فيليبس بإعادة كتابة الخطاب.

في الجناح الغربي من البيت البيض، وفي غرفة جرى تعتيمها من أجل عرض صور السلايد، سوّقت «السي.آي.أيه.» لأيزنهاور رواية مجمّلة لعملية النجاح. وعندما أعيدت إضاءة النور، وجه الرئيس سؤاله الأول إلى الرجل المسؤول عن القوات شبه العسكرية، ريب روبرتسون:

«ما عدد الرجال الذين خسرهم كاستيو أرماس؟»، سأل أيك.

«واحد فقط»، أجاب روبرتسون.

«هذا يفوق التصديق»، قال الرئيس.

قُتل ما لا يقلّ عن ثلاثين من رجال كاستيّو أرماس خلال الاجتياح، لكن لم يعارض أحد روبرتسون. كان الأمر كذباً مشيناً.

شكّل هذا نقطة تحوّل في تاريخ «السي.آي.أيه.»، وأصبحت الآن روايات

التغطية المطلوبة للعمل الخفي في ما وراء البحار، جزءاً من سلوك الوكالة السياسي في واشنطن. أعلن بيسيل ذلك بوضوح: «لم يشعر الكثيرون منا ممن انضموا إلى «السي.آي.أيه.»، بأننا ملزمون، من خلال الأعمال التي نقوم بها بوصفنا من أعضاء الفريق، بتطبيق جميع القواعد الاخلاقية». كان هو، وزملاؤه، على استعداد للكذب على الرئيس لحماية صورة الوكالة. وكانت لكذبهم عواقب مستمرة.

١١

ونواجه العاصفة من ثَمَّ

قال السيناتور مايك مانسفيلد، عن مونتانا، في آذار/مارس ١٩٥٤، إن «السرّية تحجب الآن كل شيء في شأن «السي.آي.أيه.»: كلفتها، وفاعليتها، ونجاحها، وفشلها»[١].

كان ألن دالاس مسؤولاً تجاه عدد قليل جداً من أعضاء الكونغرس الذين حموا «السي.آي.أيه.» من التدقيق العام من خلال لجان مسلحة غير رسمية ولجان فرعية للتملّك. وطلب على نحو منتظم من نوابه تزويده «بروايات نجاح لـ «السي.آي.أيه.» يمكن استخدامها في جلسة الاستماع المقبلة للموازنة»[٢]. لم يملك أي رواية جاهزة. واستعدّ، في حالات نادرة، لأن يكون صريحاً. فبعد أسبوعين على الانتقاد الذي وجهه مانسفيلد، واجه دالاس ثلاثة سيناتورات في جلسة استماع وراء أبواب مغلقة. ويمكن تلخيص ملاحظاته الإيجازية في أن التوسّع السريع لعمليات «السي.آي.أيه.» الخفية قد يكون «خطراً أو حتى غير حكيماً على الامتداد الطويل للحرب الباردة»[٣]. وأقرّوا بأن «العمليات غير المخطط لها، والمستعجلة، والتي تنفّذ لمرّة وحيدة، لم تفشل في العادة وحسب، بل إنها صدّعت أيضاً، بل ونسفت تحضيراتنا الحريصة على النشاطات ذات المدى الأطول».

أمكن هذا النوع من الأسرار أن يبقى محفوظاً في تلة الكابيتول. إلا أن سيناتوراً واحداً شكّل تهديداً خطيراً لـ «السي.آي.أيه.»: «صائد الحمر» جوزف ماكارثي. فقد طوّر مكارثي وفريق عمله شبكة سرّية من المخبرين من الذين غادروا الوكالة غاضبين مع اقتراب نهاية الحرب الكورية. وفي الشهور التي

أعقبت انتخاب أيزنهاور، وبحسب رواية مستشاره الرئيس روي كوهن، امتلأت ملفات ماكارثي بمزاعم بأن «السي.آي.أيه.» استخدمت، عن غير علم، عدداً كبيراً من العملاء المزدوجين: أشخاص هم في الواقع، بالرغم من عملهم لـ «السي.آي.أيه.»، من العملاء الشيوعيين الذين قضت مهمتهم بزرع معطيات مغلوطة»[٤]. وهذا الاتهام، بعكس الكثير من اتهامات ماكارثي الأخرى، صحيح. لم تكن الوكالة تتحمّل أقلّ قدر من التدقيق في المسألة، وألن دالاس يعرف ذلك. فلو إن الشعب الأميركي عرف، في حماوة الذعر الأحمر، أن الوكالة تعرضت للخداع في كل أنحاء أوروبا وآسيا على يد الاستخبارات السوفياتية والصينية، لتعرّضت «السي.آي.أيه.» للدمار.

وعندما أبلغ ماكارثي دالاس وجهاً لوجه، على انفراد، أن «السي.آي.أيه.» ليست لا عظيمة القداسة ولا محصّنة ضد التحقيق»[٥]، أدرك المدير أن بقاءها على المحك. كان فوستر دالاس قد فتح أبوابها لكلاب ماكارثي المطاردة في عرض علني لتصنّع القداسة الذي اجتاح وزارة الخارجية على مدى عقد من الزمن. لكن ألن قاومهم. وردّ بجفاء محاولة السيناتور إصدار مذكرة إحضار بعنصر «السي.آي.أيه.» بيل باندي الذي، انطلاقاً من مدرسة الوفاء القديمة، ساهم بأربعمئة دولار لصندوق الدفاع عن ألجر هيس، المشتبه في كونه جاسوساً شيوعياً. رفض ألن السماح للسيناتور بجلد «السي.آي.أيه.».

كان موقفه المعلن مبدئياً، إلا أنه قاد أيضاً عملية خفية وسخة ضد ماكارثي[٦]. وقد تم إجمال الحملة الخفية في شهادة سرّية لأحد ضباط «السي.آي.أيه.» أمام لجنة ماكارثي في مجلس الشيوخ ومستشار الأقلية فيها البالغ ٢٨ سنة من العمر، روبرت ف. كنيدي، التي رفع عنها الأختام في ٢٠٠٣. وفُصّلت في تأريخ «السي.آي.أيه.» الذي رفعت عنه السرّية في ٢٠٠٤.

بعد مواجهته السرّية مع مكارثي، نظم دالاس فريقاً من الضباط لاختراق مكتب السيناتور بجاسوس أو بأداة تنصّت، ومن الأفضل بالاثنين معاً. تشابهت الطريقة تماماً مع طريقة ج. إدغار هوفر: جمع الغبار، ومن ثم نشره. أوعز دالاس لجيمس أنغلتون، قيصر مكافحة التجسس لديه، بإيجاد طريقة لتزويد

مكارثي وفريقه بمعلومات مغلوطة كوسيلة لنزع الثقة عنه. أقنع أنغلتون جيمس ماكرغار ـ من أول الضباط الذين استخدمهم ويسنر ـ بزرع تقارير مزوّرة لدى عنصر معروف من عناصر مكرثي السرّيين في «السي.آي.أيه.» نجح ماكرغار، وخرقت «السي.آي.أيه.» مجلس الشيوخ.

وقال له ألن دالاس: «لقد أنقذت الجمهورية».

هذه الفلسفة الكريهة أصلاً

إلا أن التهديد لـ «السي.آي.أيه.» تعاظم مع بدء سلطة مكارثي بالأفول في ١٩٥٤. فقد دعم السيناتور مانسفيلد و٣٤ من زملائه، مشروع قانون إقامة لجنة للإشراف، وتوجيه الأمر إلى الوكالة بإبقاء الكونغرس على اطلاع على أعمالها (وهو لن يمرّ على مدى عشرين عاماً). وأخذت قوة منتدبة برئاسة زميل أيزنهاور الموثوق به، الجنرال مارك كلارك، تستعد للتحقيق في الوكالة[٧].

تلقّى رئيس الولايات المتحدة في نهاية أيار/مايو ١٩٥٤، رسالة استثنائية من ست صفحات من عقيد في سلاح الجو[٨]، شكّلت نداءً صارخاً من أول كاشف للغطاء من داخل «السي.آي.أيه.»، فقرأها أيزنهاور واحتفظ بها.

كان واضعها، جيم كيلليس، واحداً من الآباء المؤسسين للوكالة. وهو من قدامى «الأو.أس.أس.»، شارك في حرب العصابات في اليونان، وذهب إلى الصين حيث خدم كأول رئيس محطة في شانغهاي لوحدة الخدمات الاستراتيجية. وكان، لدى ولادة «السي.آي.أيه.» من بين قلة من خبرائها في شؤون الصين. وعاد إلى اليونان محققاً يعمل لبيل دونوفان، الذي طلب منه، بوصفه مواطناً عادياً، أن يحقق في عملية قتل أحد مراسلي «السي.بي.أس.» في ١٩٤٨. فحدّد أن القتل جرى على أيدي حلفاء أميركا اليمينيين في أثينا، ولم يأمر به الشيوعيون كما ساد الاعتقاد. تم حذف نتائج تحقيقاته. عاد إلى «السي.آي.أيه.»، وأصبح في خلال الحرب الكورية مسؤولاً عن عمليات «السي.آي.أيه.» شبه العسكرية وقوات المقاومة في العالم. وقد أوفده والتر

بيديل سميث في تحقيقات لتحري الخلل وإصلاحه في آسيا وأوروبا. ولم يعجبه ما رآه. وبعد أشهر قليلة على تولّي دالاس القيادة، غادر كيلليس مشمئزاً.

حذّر العقيد كيلليس أيزنهاور من أن «وكالة الاستخبارات المركزية في حالة عفنة. فبالكاد تقوم «السي.آي.أيه.» اليوم بأي عملية ذات قيمة وراء الستار الحديدي. وهم يقدمون في إيجازاتهم صورة وردية لمن هم في الخارج، إلا أن الحقيقة الفظيعة تبقى مدموغة بخاتم الوكالة السرّي للغاية».

والحقيقة أن «السي.آي.أيه.»، سلّمت عن معرفة أو عن عدم معرفة، مليون دولار إلى جهاز استخبارات شيوعي» (وكانت هذه عملية WIN في بولندا؛ ومن غير المرجّح أن دالاس أبلغ الرئيس بالتفاصيل البشعة للعملية، التي انهارت قبل اسابيع من تسلّم أيزنهاور مقاليد الحكم). وكتب كيلليس أن «السي.آي.أيه.» نظمت عن غير قصد شبكة استخبارات مؤلفة من شيوعيين»، في إشارة إلى الفادحة التي سببتها محطة سيول إبان الحرب الكورية. وكان دالاس ونوابه، «الذين خافوا أي عواقب لاحقة على سمعتهم»، قد كذبوا على الكونغرس في شأن عمليات الوكالة في كوريا والصين. وسبق لكيلليس أن حقق شخصيا في المسألة في رحلة إلى الشرق الأقصى في ١٩٥٢. وحدد أن «السي.آي.أيه.» تعرّضت للخداع».

وكتب كيلليس أن دالاس أخذ يزرع الروايات في الصحف، ملمّعاً صورته بوصفه «المرسل المسيحي الواسع المعرفة، وخبير البلاد البارز في شؤون الاستخبارات. وبالنسبة إلى البعض منّا ممن شاهدوا الجانب الآخر من ألن دالاس، فإنني لا أجد الكثير من الملامح المسيحية. وأنا شخصياً أعتبره إدارياً عديم الرحمة، طموحاً، وغير كفؤ كلّياً». وناشد كيلليس الرئيس اتخاذ «ما يلزم من عمل لتنظيف» «السي.آي.أيه.»

أراد أيزنهاور مواجهة التهديدات للجهاز السرّي وتسوية مشاكله في السرّ. وفي تموز/يوليو ١٩٥٤، بعد وقت قصير على إتمام عملية النجاح، كلّف الرئيس الجنرال جيمي دوليتل، الذي عمل على مشروع سولاريوم، وصديقه

الحميم وليام باولي، المليونير الذي أمّن المقاتلات ـ القاذفة لانقلاب غواتيمالا، تقويم قدرات «السي.آي.أيه.» على العمل الخفي.

أُمهل دوليتل عشرة أسابيع ليقدّم تقريره. اجتمع وباولي مع دالاس وويسنر، وسافرا إلى محطات «السي.آي.أيه.» في ألمانيا ولندن، وأجريا مقابلات مع مسؤولين عسكريين ودبلوماسيين كبار عملوا بالارتباط مع نظرائهم في «السي.آي.أيه.» وتحدثا أيضاً إلى بيديل سميث الذي أبلغهما أن «دالاس على درجة كبيرة من الانفعال لا تسمح له بأن يكون في موقع حاسم»، وأن «انفعاليته أسوأ بكثير مما تبدو عليه ظاهرياً».

ذهب دوليتل، في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤، لرؤية الرئيس في البيت الأبيض(٩). وأفاد بأن الوكالة «قد انتفخت لتصبح منظمة واسعة ومنفلشة، مكونة من عدد كبير من العناصر، بعضهم مشكوك في كفاءته». فقد أحاط دالاس نفسه بأناس غير مهرة وغير منضبطين. وأثيرت مسألة «العلاقة العائلية» الحساسة مع فوستر دالاس. واعتقد دوليتل أنه من الأفضل لجميع المعنيين لو أن العلاقة الشخصية لم تكن علاقة مهنية: «فهي تؤدي إلى حماية أحدهما الآخر، أو إلى تأثير أحدهما في الآخر». ويجب على لجنة مستقلة من مدنيين موثوقين، أن تشرف على «السي.آي.أيه.» نيابة عن الرئيس.

حذر تقرير دوليتل(١٠) من أن الجهاز الخفي «مليء بأناس حظوا بتدريب قليل، أو من دون أي تدريب على أعماله». ويوجد حطب يابس في كل مستوى تقريباً من المستويات الستة لموظفيها، وأقسامها الجغرافية السبعة، وأكثر من أربعين فرعاً». وأوصى التقرير «بإعادة تنظيم شاملة» لمملكة ويسنر، التي عانت من «توسع فطريّ»، ومن «ضغوط هائلة للقبول بالتزامات أكبر من طاقتها على التنفيذ». ولاحظ أن «نوعية العمليات الخفية أقل أهمية من حجمها، وأن عدداً صغيراً من الأشخاص الكفوئين، يمكنه أن يكون أكثر فائدة من عدد كبير من غير الكفوئين».

أدرك دالاس جيداً أن الجهاز الخفي خارج على السيطرة. فقد كان ضباط

«السي.آي.أيه.» يديرون علميات من وراء ظهور قادتهم. وبعد يومين على تقديم دوليتل تقريره، أبلغ المدير ويسنر بأنه قلق من أن «عمليات حساسة و/أو دقيقة، تُنفَّذ على مستويات أدنى من دون أن يتم لفت انتباه النائب المناسب، أو نائب مدير الاستخبارات المركزية، أو مدير الاستخبارات المركزية»[١١].

إلا أن دالاس تعامل مع تقرير دوليتل بطريقته المعتادة في التعاطي مع الأخبار السيّئة، من خلال دفنه. ولن يسمح لأرفع ضباط «السي.آي.أيه.» بالاطلاع عليه، ولا حتى ويسنر[١٢].

وبرغم أن التقرير كاملاً بقي محظور التداول حتى ٢٠٠١، فقد نُشرت مقدمته قبل ذلك بربع قرن. وهي تحتوي على أحد أحلك مقاطع الحرب الباردة:

بات واضحاً الآن أننا نواجه عدواً لدوداً هدفه المعلن السيطرة على العالم بأي وسيلة، ومهما كان الثمن. لا قواعد لمثل هذه اللعبة. ولا تنطبق عليها معايير السلوك الإنساني المقبولة حتى اليوم. وإذا كان على الولايات المتحدة أن تبقى، فتجب إعادة النظر في المفاهيم الأميركية القديمة لـ «الإنصاف في التعامل». علينا أن نطوّر أجهزة تجسس ومكافحة تجسس فعّالة، وأن نتعلّم كيف نفسد، ونخرب، وندمّر أعداءنا بطرائق أكثر فطنة وتطوراً وفاعلية من تلك المستخدمة ضدنا. وربما أصبح من الضروري على الشعب الأميركي أن يطّلع ويفهم ويدعم هذه الفلسفة الكريهة أصلاً.

قال التقرير إن الأمة تحتاج إلى «تنظيم نفسي خفي، همّام، سياسي، وشبه عسكري أكثر فاعلية، وفرادة، وإذا لزم الأمر أشد بطشاً من ذلك الذي يستخدمه العدو». وقال ان «السي.آي.أيه.» لم تحل أبداً «مشكلة اختراقها من قبل عملاء بشريين. فما إن يعبر المرء الحدود ـ بالمظلة، أو بأي وسيلة أخرى ـ يصبح التخلّص من الاعتقال صعباً للغاية». وخلص إلى «أن المعلومات التي حصلنا عليها بواسطة طريقة الاستحصال هذه زهيدة، بينما كلفة الجهد والدولارات والحياة البشرية باهظة».

أعطى الأولوية الكبرى للتجسس من أجل الحصول على استخبارات عن السوفيات، وشدد على أنه ما من ثمن باهظ كفاية لهذا النوع من المعرفة.

لم نثر الأسئلة المناسبة

عمل دالاس يائساً لوضع جاسوس أميركي داخل الستار الحديدي(١٣).

وأول ضابط في «السي.آي.أيه.» أرسله في **١٩٥٣** إلى موسكو، تعرض للإغراء على يد مدبّرة منزله ـ كانت عقيداً في «الكا.جي.بي.» ـ وتم تصويره بالجرم المشهود، وابتزازه، فطردته الوكالة لعدم تحفّظه. وفي ١٩٥٤، أُلقي القبض على ضابط ثان في خلال قيامه بالتجسس، رُحّل بعد فترة قصيرة على وصوله. بعد ذلك بفترة وجيزة، استدعى دالاس واحداً من مساعديه الخاصين، جون موري، الذي سبق له أن سافر إلى روسيا قبل الحرب العالمية الثانية، وأمضى معظم الحرب في السفارة الأميركية في موسكو ممثلاً مكتب الاستخبارات البحرية. طلب من موري الانضمام إلى الجهاز الخفي والتدرب لمهمة في موسكو.

قال دالاس إنه لم يسبق لأي من ضباط ويسنر، أن ذهب إلى روسيا: «إنهم لا يعرفون شيئاً عن الهدف».

ردّ موري، «أنا لا أعرف شيئاً عن العمليات».

وأجاب دالاس «لا أعتقد أنهم أيضاً يعرفون».

يصعب على مثل هؤلاء الرجال أن يزوّدوا الرئيس بالاستخبارات التي أرادها أكثر ما يكون: تحذير استراتيجي من هجوم نووي. وعندما اجتمع مجلس الأمن القومي للتحدث عما يجب فعله في حال حدوث هجوم، استدار الرئيس صوب دالاس وقال: «دعنا لا نحصل على بيرل هاربور ثانية»(١٤). تلك هي المهمة التي كلف بها الرئيس لجنة الاستخبارات السرّية الثانية التي أنشأها في ١٩٥٤.

طلب أيزنهاور من رئيس مؤسسة ماساتشوستس للتكنولوجيا، جيمس ر. كيلّيان، قيادة مجموعة تبحث عن وسائل لمنع حدوث مفاجأة سوفياتية تامة. حث على تقنيات أوصى بها تقرير دوليتل بقوة: «اتصالات ومراقبة الكترونية» لتوفير «تحذير مسبق عن هجوم وشيك».

ضاعفت «السي.آي.أيه.» جهودها للتنصت على العدو. ونجحت بطريقتها الخاصة.

في عليّة سقف مقر قاعدة برلين، عكف لاعب كرة مضرب معتزل تحوّل إلى محام ومن ثم إلى جاسوس، اسمه والتر أوبراين، على تصوير أوراق تم اختلاسها من مكتب بريد برلين الشرقية. وهي تصف المسالك تحت الأرض لكابلات الاتصالات الجديدة التي يستخدمها المسؤولون السوفيات والألمان الشرقيون. هذه الخبطة التجسسية تحوّلت إلى مشروع نفق برلين.

اعتُبر النفق يومها أعظم انتصار علني لـ «السي.آي.أيه.» جاءت الفكرة ـ وطريقة تنفيذها ـ من الاستخبارات البريطانية. ففي ١٩٥١، أبلغ البريطانيون «السي.آي.أيه.» أنهم كانوا يتنصتون على كابلات الاتصالات السوفياتية عبر شبكة من الأنفاق في المناطق المحتلة من فيينا منذ بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية. واقترحوا القيام بالأمر نفسه في برلين. وأصبح الأمر بفضل المخططات المسروقة ممكناً فعلاً.

طرح تأريخ سرّي لنفق برلين، كُتب في آب/أغسطس ١٩٦٧، ورُفعت عنه السرّية في شباط/فبراير ٢٠٠٧[١٥] ثلاث مسائل واجهت وليام ك. هارفي، عميل «الأف.بي.آي.» السابق، المدمن على الكحول، والذي يحمل مسدساً وتسلّم في ١٩٥٢ رئاسة محطة برلين: هل في وسع الوكالة حفر نفق بطول ١,٤٧٦ قدماً في المنطقة السوفياتية من برلين الشرقية والوصول إلى هدف قطره إنشان ـ وعلى عمق ٢٧ إنشاً تحت طريق عام رئيسي ـ بدون الانكشاف؟ كيف يمكن التخلص سرّاً من الركام: نحو ثلاثة آلاف طن من التراب الرملي؟ وأي نوع من روايات التغطية سيُستخدم لتمويه بناء منشأة للحفر في قطاع بائس من أكواخ اللاجئين عند طرف المنطقة الأميركية؟

اتفق ألن دالاس ونظيره البريطاني، السير جون سينكلير، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٣، على شروط الإشارة إلى سلسلة من المحاضرات حول عملية النفق التي أُعطيت الاسم الرمزي «معاً». أدت المحادثات إلى خطة تحرّك في الصيف التالي. سيرتفع بناء مساحة كتلة كاملة من أبنية المدينة بين الأنقاض، مدجج بالهوائيات على سطحه، وسيُدفع السوفيات إلى الاعتقاد أنها محطة لالتقاط الإشارات الذكية من الجو: خدعة الساحر التي تقضي بتحويل النظر. سيحفر الأميركيون النفق شرقاً إلى نقطة تقع تحت الكابلات. وسيعمد البريطانيون، استناداً إلى خبرتهم في فيينا، إلى شق حفرة عمودية من نهاية النفق إلى الكابلات، ومن ثم يركزون آلات التنصت. وسيعكف مكتب في لندن تم توسيعه ليضم ٣١٧ ضابطاً، على تحليل المحادثات المحكية التي تسجلها «السي.آي.أيه.»، وستخصص الوكالة في واشنطن ٣٥٠ موظفاً للعمل على نقل الاتصالات التلكسية الملتقطة في النفق. حفر سلاح الهندسة في الجيش النفق بمساعدة تقنية من البريطانيين. وثبت أن المشكلة الأكبر، شأنها دائماً، هي في ترجمة الكلمات التي تلتقطها العملية. وأشار تأريخ «السي.آي.أيه.»: «لم نُوفّق أبداً في الحصول على عدد اللغويين الذين نحتاج إليهم»، لأن ثمة نقصاً كبيراً جداً في مقدرة الوكالة اللغوية بالروسية، وحتى بالألمانية.

اكتمل النفق في نهاية شباط/فبراير ١٩٥٥، وشرع البريطانيون في تركيب أجهزة التنصت بعد شهر من ذلك. وبدأت المعلومات تتدفق في أيار/مايو. وبلغ الأمر عشرات الآلاف من ساعات التحادث والتلكس، بما في ذلك تفاصيل ثمينة حول القوات السوفياتية النووية والتقليدية في ألمانيا وبولندا، ومعلومات من داخل وزارة الدفاع السوفياتية في موسكو، وتركيبة عمليات مكافحة التجسس السوفياتية في برلين. ووفّرت صوراً عن الارتباك السياسي والتردد بين جماعة الموظفين السوفيات والألمان الشرقيين، وأسماء التغطية لمئات عدة من ضباط الاستخبارات السوفياتية، ووفّرت أخباراً ـ ولو أن ترجمتها استغرقت أسابيع أو أشهراً ـ بكلفة بلغت ٦,٧ ملايين دولار. وما إن تم اكتشاف النفق، كما توقعت «السي.آي.أيه.» أن يحصل ذلك في يوم من

الأيام، حتى نُظر إليه على أنه إشارة إلى أن «الولايات المتحدة، التي تكاد تُعتبر عالمياً أنها مبتدئة متعثرة في مسائل التجسس، قادرة على توجيه ضربة محكمة إلى الاتحاد السوفياتي الذي طالما كان السيّد المعترف به في مثل هذه المسائل»، بحسب ما أفاد تأريخ «السي.آي.أيه.» بصورة توافق المقام.

لم تتوقع الوكالة أن تنكشف العملية على هذه الدرجة من السرعة. فقد استمرّت لأقل من سنة: حتى نيسان/أبريل التالي، عندما تم العثور على النفق. فالكرملين عرف بشأنه منذ البداية، قبل أن يتم نبش أول كومة من التراب. كشف المخطط الجاسوس السوفياتي المزروع في الاستخبارات البريطانية، جورج بليك، الذي حوّل ولاءاته عندما كان أسير حرب في كوريا الشمالية، وأطلع السوفيات على السرّ منذ أواخر ١٩٥٣. وكان السوفيات يقدّرون بليك تقديراً عالياً، بحيث إنهم سمحوا للنفق بأن يعمل لأحد عشر شهراً قبل أن يكشفوا عنه في ذروة الدعاية النارية. وبقيت «السي.آي.أيه.»، بعد سنين على ذلك، وحتى بعدما أدركت أن الطرف الآخر عرف بأمر النفق منذ البداية، تعتقد أنها نقبت عن منجم ذهب. وحتى اليوم، لا يزال السؤال المطروح هو: هل تقصّدت موسكو بثّ معلومات خادعة داخل النفق؟ يوحي الدليل بأنه «السي.آي.أيه.» كسبت نوعين من المعرفة لا يقدَّران بثمن، وغير فاسدين، من جراء التنصت؛ عرفت الوكالة المخططات الأساسية لأنظمة الأمن السوفياتية والألمانية الشرقية؛ ولم تلتقط أي بصيص تحذير من أن موسكو تنوي المضي إلى الحرب(١٦).

قال أحد قدامى محطة برلين في «السي.آي.أيه.»، توم بولغار، إن «الذين عرفوا، من بيننا، بعض الأمور عن روسيا، رأوا فيها دولة متخلفة من دول العالم الثالث، تريد أن تنمّي نفسها على قياس مستوى الغرب»(١٧). إلا أن أعلى المستويات في واشنطن رفض هذه النظرة. افترض البيت البيض والبنتاغون أن نيات الكرملين مطابقة لنياتهما: تدمير عدوّهما في اليوم الأول للحرب العالمية الثالثة. وبالتالي، فإن مهمتهما تقضي بتحديد موقع القدرات العسكرية السوفياتية وتدميرها أوّلاً. لم يؤمنا بأنه في وسع الجواسيس الأميركيين القيام بذلك.

لكن الآلات الأميركية قد تستطيع.

شكّل تقرير كيلّيان بداية انتصار التكنولوجيا، وكسوف التجسس على الطراز القديم في «السي.آي.أيه.». أبلغ التقرير أيزنهاور «أننا حصلنا على القليل من المعلومات ذات الفائدة من العمليات الكلاسيكية الخفية داخل روسيا. إلا أنه يمكننا استخدام آخر ما توصل إليه العلم والتكنولوجيا لتحسين حصولنا على الاستخبارات»[١٨]. وحثّ أيزنهاور على بناء طائرات تجسس وأقمار صناعية فضائية تحلّق فوق الاتحاد السوفياتي، وتصوّر ترساناته.

كانت التكنولوجيا في متناول يد أميركا، وهي متوفّرة منذ سنتين. فقد انشغل دالاس وويسنر أكثر من اللازم في المسائل العملانية، بحيث إنهما لم يعيرا اهتماما لمذكرة مرسلة في تموز/يوليو ١٩٥٢ من زميلهما لوفتوس بيكر، وكان يومها نائب مدير للاستخبارات، تحمل اقتراحاً بتطوير «آلية قمر صناعي للاستطلاع»: كاميرا تلفزيونية تطلق من صاروخ، لاستطلاع الاتحاد السوفياتي من الفضاء البعيد. وكان الأساس هو في بناء الكاميرا. وأكّد أدوين لاند، عبقري التكنولوجيا الذي اخترع البولارويد، أنه في وسعه القيام بذلك.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤، وبينما العمل جار في نفق برلين، اجتمع لاند، وكيلّيان، ودالاس، مع الرئيس، وحصلوا على موافقته على بناء طائرة «يو ـ ٢» للتجسس، وهي طائرة شراعية مزودة بمحرّك، وتحمل كاميرا في أسفلها، من شأنها وضع عين أميركية في ما وراء الستار الحديدي. أعطى أيزنهاور إشارة البدء، ومعها توقّعاً كئيباً. قال إنه في يوم من الأيام «سيتم الإمساك بواحدة من هذه الآلات، وسنواجه عاصفة»[١٩].

كلّف دالاس عملية بناء الطائرة لديك بيسيل الذي لم يكن يعرف شيئاً عن الطائرات، لكنه أنشأ بمهارة مكتباً حكومياً سرّياً حمى برنامج «اليو ـ ٢» من الأعين الفاحصة، وساعد على تسريع بناء الطائرة. وبعد ذلك ببضع سنين، قال بافتخار لأحد صفوف متدرّبي «السي.آي.أيه.»، «إن وكالتنا هي الملاذ الأخير للسرّية التنظيمية المتوفرة لدى الحكومة الأميركية»[٢٠].

زرع بيسيل ممرّات «السي.آي.أيه.» بخطى واسعة، وهو الرجل الأعسر ذو الطموحات الكبرى. اعتقد أنه، في يوم ما، سيصبح مدير وكالة الاستخبارات المركزية، لأن دالاس قال له ذلك. وأخذ يحتقر التجسس باطراد، ويزدري بريتشارد هيلمس وضباط استخباراته. أصبح الرجلان خصمين بيروقراطيين، ومن ثم تحولا إلى عدوين لدودين. جسدا المعركة بين الجواسيس والمعدات، التي بدأت منذ خمسين سنة مضت ولا تزال مستمرّة حتى اليوم. رأى بيسيل في «اليو ـ ٢» سلاحاً ـ ضربة قاصمة للتهديد السوفياتي(٢١). وإذا لم تتمكن موسكو «من القيام بأي أمر لعين لمنعكم» من انتهاك المجال الجوي السوفياتي والتجسس على القوات السوفياتية، فهذا وحده من شأنه أن يقوّض كبرياء السوفيات وسلطتهم. أنشأ خلية صغيرة وسرّية من ضباط «السي.آي.أيه.» لإدارة البرنامج، وكلّف جيمس ك. ريبير، مساعد المدير لتنسيق الاستخبارات في الوكالة، تحديد ما الذي ستصوره الطائرة داخل الاتحاد السوفياتي. ارتقى ريبير ليصبح الرئيس الطويل الأمد للجنة التي تختار الأهداف السوفياتية لطائرات «اليو ـ ٢» وأقمار التجسس التي خلفتها. إلا أن البنتاغون هو الذي يحدد في نهاية الأمر متطلبات الاستطلاع: ما هو عدد القاذفات لدى السوفيات؟ وعدد الصواريخ الذرّية؟ وعدد الدبابات؟

قال ريبير في وقت لاحق من حياته، إن ذهنية الحرب الباردة عرقلت حتى فكرة تصوير أي شيء آخر.

«لم نثر الأسئلة المناسبة»، أسف ريبير. ولو أن «السي.آي.أيه.» كوّنت صورة أكبر عن الحياة داخل الاتحاد السوفياتي، لعلمت بأن السوفيات يضعون القليل من المال في مصادر تجعل من الأمة أمة قوية فعلاً. كانوا عدواً ضعيفاً. ولو أن قادة «السي.آي.أيه.» تمكنوا من القيام بعمليات استخبار فاعلة داخل الاتحاد السوفياتي، لرأوا أن الروس عاجزون عن إنتاج حاجات الحياة. ففكرة أن المعارك الأخيرة للحرب الباردة ستكون اقتصادية وليس عسكرية، فاقت مخيّلتهم.

ثمة أمور لا يطلع عليها الرئيس

أدّت جهود الرئيس في التحقيق في قدرات «السي.آي.أيه.» إلى قفزة تكنولوجية شكّلت ثورة في جمع الاستخبارات، إلا أنها لم تبلغ أبداً جذور المشكلة. فبعد سبعة أعوام على إنشاء «السي.آي.أيه.» بقيت بدون إشراف أو مراقبة. وكانت تشارك أسرارها على قاعدة الحاجة إلى المعرفة، وألن دالاس هو من يقرّر من يحتاج إلى أن يعرف.

لم يبق من يراقب شؤون الوكالة بعدما غادر والتر بيديل سميث الحكومة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤. فقد حاول بيديل سميث، بقوة شخصيته، كبح جماح ألن دالاس. وبذهابه، ذهبت معه قدرة أيّ كان، ما عدا أيزنهاور، على السيطرة على العمل الاستخباري الخفي.

بدّل الرئيس في ١٩٥٥، القواعد بإنشائه «المجموعة الخاصة»: ثلاثة ممثلين معينين عن البيت الأبيض، والخارجية، والدفاع، أوكلت إليهم مراجعة عمليات «السي.آي.أيه.» السرّية. إلا أنهم لم يملكوا سلطة الموافقة المسبقة على العمل السري. فإذا شاء دالاس، ففي مقدوره أن يطلق إشارة عابرة إلى مخططاته في غدوات غير رسمية مع المجموعة الخاصة: وكيل وزير الخارجية الجديد، نائب وزير الدفاع، ومساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي. إلا أنه في الغالب لا يفعل. وقد لاحظ تأريخ لـ «السي.آي.أيه.» من خمسة مجلّدات لحياة دالاس المهنية، أنه كان يعتقد أنهم لا يحتاجون إلى المعرفة في شأن العمل الخفي[٢٢]. فهم ليسوا في موقع الحكم عليه أو على الوكالة. لقد شعر بأن قراراته «لا تحتاج إلى موافقة سياسية».

بقي المدير، ونوابه، ورؤساء محطاته في الخارج، أحراراً في أن يحددوا سرّاً سياساتهم الخاصة، والتخطيط لعملياتهم، والحكم على النتائج بأنفسهم. ودالاس يبلغ البيت الأبيض كما يرى ذلك مناسباً. وأسرّت شقيقته إلى زميل في الخارجية، بأن «ثمة أموراً لا يطلع الرئيس عليها. فمن الأفضل له ألاّ يعرف»[٢٣].

١٢

أدرنا الأمر بطريقة مختلفة

أحد الأسلحة التي استخدمتها «السي.آي.أيه.» بمهارة فائقة، هو المال النقدي البارد. فقد برعت الوكالة في شراء خدمات السياسيين الأجانب. وشكلت اليابان المكان الأول الذي انتقت فيه الزعيم المقبل لقوة عالمية.

ساعد اثنان، من بين أكثر العملاء النافذين الذين جندتهم الولايات المتحدة، في تنفيذ مهمة السيطرة على الحكومة. كانا رفيقي زنزانة، اتُّهما في نهاية الحرب العالمية الثانية بجرائم حرب، وسُجنا لثلاث سنين في طوكيو في ظل الاحتلال الأميركي. خرجا حرّين في نهاية ١٩٤٨، في اليوم الذي سبق شوق الكثيرين من رفاقهم السجناء إلى مشانق السجن.

أصبح نوبوسوكي كيشي بمساعدة من «السي.آي.أيه.» رئيساً لوزراء اليابان وزعيماً لحزبه الحاكم. وضمن يوشيو كوداما حرّيته ومركزه بوصفه المجرم الأول في البلاد. بمساعدته الاستخبارات الأميركية. وجسّد كلاهما، في الحرب على الفاشية، كل ما تكرهه أميركا. وأصبحا، في الحرب على الشيوعية، ما تريده أميركا تماماً.

سبق لكودوما أن قاد في الثلاثينيات مجموعة يمينية حاولت اغتيال رئيس الوزراء. حُكم عليه بالسجن، لكن الحكومة اليابانية استفادت منه كمتدبّر للجواسيس والمعادن الاستراتيجية للمعركة المقبلة. وبعد خمس سنين أمضاها يدير واحدة من أكبر الأسواق السوداء في الصين المحتلة، أُعطي كودوما رتبة أميرال ثان، وامتلك ثروة شخصية تساوي حوالى ١٧٥ مليون دولار. وقد شرع،

لدى إطلاقه من السجن، في دفق جزء من ثروته في الحياة المهنية لأكثر سياسيي اليابان محافظة، وأصبح عنصراً أساسياً في عملية «السي.آي.أيه.» التي ساهمت في إيصالهم إلى السلطة. وعمل، خلال الحرب الكورية، مع رجال أعمال أميركيين، وقدامى «الأو.أس.أس.»، ودبلوماسيين سابقين، لإنجاز عملية خفية جريئة موّلتها «السي.آي.أيه.».

احتاج الجيش الأميركي إلى التنغستين، وهو معدن استراتيجي نادر الوجود يُستخدم لتقوية الصواريخ. فهرّبت شبكة كودوما أطناناً منه من مخابئ للجيش الياباني إلى الولايات المتحدة، دفع البنتاغون ١٠ ملايين دولار كرشى، في مقابل تهريبها. ووفّرت «السي.آي.أيه.» تمويلاً بـ ٢,٨ ملايين لدولار لكفالة العملية[١]. وحصدت شبكة تهريب التنغستين أكثر من مليوني دولار. لكن العملية أسقطت اعتبار كودوما لدى محطة «السي.آي.أيه.» في طوكيو. وأفادت المحطة في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٥٣، «أنه كاذب محترف، ومجرم، ودجّال، ولص بالكامل. وهو غير قادر على القيام بعمليات استخبارية، ولا يهتم لشيء سوى للمكاسب»[٢]. تم قطع العلاقة، وحولّت «السي.آي.أيه.» انتباهها إلى تغذية السياسيين اليابانيين المتزايدين في الأهمية ـ بمن فيهم كيشي ـ بعدما فازوا بمقاعد «في الدايت ـ البرلمان الياباني ـ في أول انتخابات بعد نهاية الاحتلال الأميركي.

جميعنا ديموقراطيون الآن

أصبح كيشي زعيماً للحركة المحافظة الصاعدة في اليابان. وفي غضون سنة على انتخابه في «الدايت» سيطر، باستخدامه مال كوداما ومهارته السياسية الهائلة، على أكبر كتلة من بين النواب اليابانيين المنتخبين. وما إن أصبح في السلطة حتى أسس الحزب الحاكم، وقاد البلاد لنحو نصف قرن.

سبق له أن وقّع، في ١٩٤١، إعلان الحرب على الولايات المتحدة، وترأس وزارة الذخيرة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية. وكان لكيشي، حتى وهو مسجون بعد الحرب، حلفاء في المراكز المهمة في الولايات المتحدة،

ومن بينهم جوزف غرو، الذي كان السفير الأميركي في طوكيو عندما هاجم اليابانيون بيرل هاربور. كان غرو قيد الاعتقال في طوكيو في ١٩٤٢، عندما عرض عليه كيشي، بوصفه عضواً في وزارة الحرب، الخروج للعب جولة من الغولف. أصبحا صديقين. وبعد أيام قليلة على إطلاق كيشي من السجن، أصبح غرو أول رئيس للجنة الوطنية لأوروبا الحرة، واجهة «السي.آي.أيه.» التي أُنشئت لدعم راديو أوروبا الحرة وغير ذلك من برامج الحرب السياسية.

توجه كيشي، فور إطلاقه، إلى منزل رئيس الوزراء، حيث سلّمه شقيقه، إيساكو ساتو، كبير سكريتيري الحكومة تحت الاحتلال، بزة رسمية ليبدّل لباس السجن.

«غريب، أليس كذلك؟»، قال كيشي لشقيقه. «فجميعنا ديموقراطيون الآن»[٣].

حوّلت سبع سنين من التخطيط المتئد، كيشي من سجين إلى رئيس للوزراء. تلقى دروساً بالإنكليزية من رئيس مكتب «النيوزويك» في طوكيو، وحصل على تعريفات بالسياسيين الأميركيين من محرر الشؤون الخارجية في «نيوزويك»، هاري كيرن، وهو صديق حميم لألن دالاس، وأصبح في مرحلة لاحقة من حياته مندوب «السي.آي.أيه.» إلى اليابان. اعتنى كيشي بمسؤولي السفارة الأميركية عنايته بسحلية نادرة. تحرك في البداية بحذر، فهو لا يزال رجلاً سيىء السمعة، تلاحقه الشرطة على نحو روتيني.

تدبّر في أيار/مايو ١٩٥٤، ظهوراً سياسياً في مسرح كابوكي في طوكيو. فقد دعا بيل هاتشينسون، أحد قدامى «الأو.أس.أس.»، الذي عمل مع «السي.آي.أيه.» في اليابان بوصفه مسؤولاً عن الدعاية والإعلام في السفارة الأميركية، إلى الحضور إلى المسرح معه. وجال في خلال الاستراحة بهاتشينسون حول ردهات الكابوزي ـ زا المزخرفة، متفاخراً به أمام أصدقائه من النخبة اليابانية. وشكّلت هذه إيماءة غير معتادة إلى حد كبير، إلا أنها كانت مسرحية سياسية خالصة، وهي طريقة كيشي في الإعلان على الملء أنه عاد إلى الساحة العالمية... وهو مَرْضي عنه أميركياً.

التقى كيشي سرّاً على امتداد سنة، بمسؤولي «السي.آي.أيه.» ووزارة الخارجية في غرفة جلوس هانشيتنسون. استذكر هاتشيسون أنه «أوضح أنه يريد اقلّه دعماً ضمنياً من حكومة الولايات المتحدة»(٤). أسست المحادثات قواعد علاقات اليابان مع الولايات المتحدة للسنوات الأربعين المقبلة.

أبلغ كيشي الأميركيين أن استراتيجيته تقضي بتحطيم الحزب الليبرالي الحاكم، وإعادة تسميته، وبنائه من جديد، وإدارته. والحزب الليبرالي الجديد لن يكون، تحت قيادته، لا ليبرالياً ولا ديموقراطياً، بل سيُمسي نادياً يمينياً مؤلفاً من الزعماء الإقطاعيين الناهضين من رماد اليابان الامبريالية. سيعمل أولاً من وراء الكواليس بينما يسبقه رجال دولة أرفع منه مركزاً في رئاسة الحكومة، ومن ثم يتولّى هو المسؤولية. وتعهّد بتغيير سياسات اليابان الخارجية لتتناسب مع الرغبات الأميركية، حيث يمكن الولايات المتحدة إبقاء قواعدها العسكرية في اليابان وتخزين أسلحة نووية هناك، وهي مسألة تواجه حساسية ما في اليابان. وكل ما طلبه في المقابل من أميركا، هو الدعم السياسي السرّي.

التقى فوستر دالاس بكيشي في آب/أغسطس ١٩٥٥، وأبلغه وزير الخارجية، وجهاً لوجه، أنه في وسعه توقع هذا الدعم، في حال توحَّدَ محافظو اليابان لمساعدة الولايات المتحدة في محاربة الشيوعية.

أدرك الجميع ماهية الدعم الأميركي.

أبلغ كيشي كبير المسؤولين السياسيين في السفارة الأميركية، سام برغر، أنه من الأفضل له أن يتعاطى مع رجل أكثر شباباً وأقل مرتبة، بوصفه صلة الوصل الأساسية له مع الولايات المتحدة. فتمّ تكليف عنصر «السي.آي.أيه.» كلايد ماك أوفي، وهو أحد قدامى المارينز، وقد نجا من الهجوم العاصف على أوكيناوا وانضم إلى الوكالة بعدما عمل لفترة قصيرة مراسلاً صحافياً. وبعد وقت قصير على وصول ماك أوفي إلى اليابان، عرّفه سام برغر إلى كيشي، ووُلدت واحدة من أقوى العلاقات التي رعتها الولايات المتحدة مع زعيم أجنبي.

انقلاب كبير

التفاعل الأكثر أهمية بين «السي.آي.أيه.» والحزب الليبرالي الديموقراطي، كان مبادلة المعلومات بالمال الذي استُخدم لمساندة الحزب وتجنيد مخبرين في صفوفه. أنشأ الأميركيون علاقات مدفوعة مع شبان واعدين، أصبحوا، بعد جيل من ذلك، نوّاباً في البرلمان، ووزراء، وسياسيين متمرّسين، وسوّقوا للحزب الليبرالي الديموقراطي، وأفسدوا، في الوقت ذاته، الحزب الاشتراكي الياباني ونقابات العمال. أصبحت الوكالة، عندما يتعلق الأمر بتمويل سياسيين أجانب، أكثر حنكة مما كانت عليه قبل ذلك بسبعة أعوام في إيطاليا. فبدلاً من تمرير حقائب ملأى بالأموال النقدية في فنادق أربعة نجوم، استخدمت «السي.آي.أيه.» رجال أعمال موثوقين كوسطاء لتسليم المال لفائدة حلفائها. ومن بين هؤلاء مدراء من لوكهيد، شركة الطائرات التي كانت يومها تبني «اليو ـ ٢» وتفاوض لبيع طائرات لقوات الدفاع اليابانية الجديدة التي ينوي كيشي تشكيلها.

وحّد كيشي في تشرين الثاني/نوفمبر، محافظي اليابان تحت لواء الحزب الليبرالي الديموقراطي. وسمح، بوصفه زعيم الحزب، لـ «السي.آي.أيه.» بتجنيد أتباعه السياسيين، وإدارتهم، على أساس كل مقعد بمفرده في البرلمان الياباني. وبينما هو يشق طريقه إلى القمة، تعهد بالعمل مع الوكالة على إعادة صياغة معاهدة أمنية جديدة بين الولايات المتحدة واليابان. وبوصفه الضابط المحرّك لكيشي، تمكنّ ماك أفوي، من الإفادة عن السياسة الخارجية ليابان ما بعد الحرب والتأثير فيها.

في شباط/فبراير ١٩٥٧، في اليوم الذي سيُنصّب فيه كيشي رئيساً للوزراء، كان من المقرر اجراء تصويت إجرائي حاسم في «الدايت» حول المعاهدة الأمنية، حيث يمتلك الحزب الليبرالي الديموقراطي أكبر كتلة مصوّتة. واستذكر ماك أفوي، «تمكنّا، أنا وهو، من تجنب انقلاب كبير ذلك اليوم[٥]. كانت الولايات المتحدة واليابان تقتربان من هذا الاتفاق، ووجده الحزب الشيوعي

مثيراً للتهديد على نحو خاص. وخطط الشيوعيون، في يوم هذا التصويت، لانتفاضة في «الدايت». علمتُ بذلك من يساري عضو في سكريتارية الحزب الاشتراكي، وهو عميل لي. كان على كيشي أن يلتقي الامبراطور في ذلك اليوم. وطلبت لقاءً طارئاً. جاء ـ وقد ظهر عند باب منزلنا الآمن بقبعة طيلسانية، وبنطال مخطط، ومعطف مفروج ـ. وبرغم أنني لم أحصل على الموافقة للقيام بذلك، أطلعته على المخططات الشيوعية للشغب في «الدايت». كانت العادة تقضي بأن يأخذ النواب استراحة عند العاشرة والنصف أو الحادية عشرة، ويمضون للأكل والشرب في أكشاك البيع المحيطة بـ «الدايت». طلب كيشي من أعضاء حزبه: لا تأخذوا استراحة. وبعدما ابتعد الجميع، ما عدا الحزب الليبرالي الديموقراطي، هرعوا إلى «الدايت»، ومرروا مشروع القانون».

سافر كيشي إلى الولايات المتحدة في زيارة ظافرة، في حزيران/يونيو ١٩٥٧، بعد مرور ثماني سنين بالكاد على خلعه بزة السجن. ذهب إلى ملعب اليانكي الرياضي، ورمى الكرة الأولى الاحتفالية. لعب جولة من الغولف مع رئيس الولايات المتحدة في ناد ريفي مخصص للبيض فقط. قدّمه نائب الرئيس نيكسون إلى مجلس الشيوخ بوصفه صديقاً كبيراً ومخلِصاً للشعب الأميركي. وقال كيشي للسفير الأميركي الجديد في اليابان، دوغلاس ماك أرثور، وهو حفيد الجنرال، إن المعاهدة الأمنية الجديدة ستمرّ، وإنه يمكن صدّ المدّ اليساري المتنامي إذا ساعدته أميركا على تثبيت سلطته. لقد أراد كيشي مصدراً مالياً داعماً دائماً من «السي.آي.أيه.» بدلاً من سلسلة من المدفوعات الخفيّة. وأقنع السفير الأميركي بأنه «إذا أصبحت اليابان شيوعية، فمن الصعب رؤية كيف أن بقية آسيا لن تحذو حذوها»، بحسب ما استذكر السفير ماك أرثور(٦). وافق فوستر دالاس. وحاجج بأنه على الولايات المتحدة أن تضع رهاناً كبيراً على اليابان، وأن كيشي هو أفضل رهان متوفّر لواشنطن.

قرر الرئيس أيزنهاور نفسه ان الدعم السياسي الياباني للمعاهدة الأمنية والدعم المالي الأميركي لكيشي يشكلان الأمر نفسه. وسمح بسلسلة مستمرة من جعالات «السي.آي.أيه.» لعناصر رئيسيين في الحزب الليبرالي الديموقراطي.

وقيل للسياسيين غير المطلعين على دور «السي.آي.أيه.» إن المال يأتي من جبابرة شركات أميركا. طاف المال لخمس عشرة سنة على الأقل، في ظل أربعة رؤساء أميركيين، وساعد في تمتين حكم الحزب الواحد في اليابان طوال ما تبقّى من فترة الحرب الباردة.

تبع آخرون طريق كيشي. فأوكينوري كايا، تولّى منصب وزير المال في حكومة الحرب اليابانية. وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة بعد إدانته بجرائم حرب. خرج في ١٩٥٥ بإطلاق سراح مشروط، وأُعفي عنه في ١٩٥٧، وأصبح واحداً من أقرب مستشاري كيشي إليه، وعضواً رئيسياً في لجنة الأمن الداخلي للحزب الليبرالي الديموقراطي.

أصبح كايا عميلاً مجنّداً لـ «السي.آي.أيه.» إما مباشرة قبل انتخابه في «الدايت» في ١٩٥٨، وإما بعد ذلك مباشرة[(٧)]. أراد، بعد تجنيده، السفر إلى الولايات المتحدة ولقاء ألن دالاس شخصياً. وأبقت «السي.آي.أيه.»، غير المتحمسة لظهور مجرم حرب مدان مجتمعاً مع مدير الاستخبارات المركزية، الأمر سراً لحوالى خمسين عاماً. إلا أن كايا جاء في ٦ شباط/فبراير ١٩٥٩، لزيارة دالاس في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» وطلب من المدير الدخول في اتفاق رسمي على تبادل المعلومات مع لجنة الأمن الداخلي التابعة له. وجاء في محاضر محادثاتهما «وافق الجميع على أن التعاون بين «السي.آي.أيه.» واليابانيين، في ما يتعلّق بمحاربة التخريب، مرغوب فيه أكثر ما يكون، وحاز هذا الموضوع اهتماماً رئيسياً لدى «السي.آي.أيه.» نظر دالاس إلى كايا بوصفه عميله، وكتب إليه بعد ستة أشهر ليقول: «إنني مهتم أكثر ما يكون بمعرفة وجهات نظرك حول كل من العلاقات الدولية التي تؤثّر في العلاقات بين بلدينا، والوضع في داخل اليابان».

بلغت علاقة كايا الظرفية مع «السي.آي.أيه.» ذروتها في ١٩٦٨، عندما كان كبير مستشاري رئيس الوزراء إيساكو ساتو. فالمشكلة الداخلية الأكبر في اليابان في تلك السنة، كانت القاعدة العسكرية الأميركية الهائلة في أوكيناوا، وهي نقطة تجمّع حاسمة لقصف فيتنام، ومخزناً للأسلحة الذرّية الأميركية.

خضعت أوكيناوا للسيطرة الأميركية، لكن الانتخابات الإقليمية كانت مقررة في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر، وهدد سياسيو المعارضة بطرد الولايات المتحدة من الجزيرة. لعب كايا دوراً أساسياً في أعمال «السي.آي.أيه.» الخفية الهادفة إلى تحويل الأصوات إلى الحزب الليبرالي الديموقراطي الذي فشل بفارق ضعيف. وعادت أوكيناوا ذاتها إلى الإدارة اليابانية في ١٩٧٢، لكن القاعدة العسكرية الأميركية بقيت فيها حتى أيامنا هذه.

أعطى اليابانيون النظام السياسي الذي نشأ بدعم من «السي.آي.أيه.» اسم كوزو أوشوكو: «الفساد البنيوي». واستمرت «السي.آي.أيه.» حتى السبعينيات في دفع الجعالات. إلا أن الفساد البنيوي للحياة السياسية في اليابان، استمر لفترة طويلة بعد ذلك.

«أدرنا اليابان خلال الاحتلال، وأدرناها بطريقة مختلفة في تلك الأعوام التي أعقبت الاحتلال»، قال عضو «السي.آي.أيه.» هوراس فلدمان الذي عمل رئيساً لمحطة طوكيو. «كانت للجنرال ماك أرثور سبله. وكانت لنا سبلنا»[٨].

١٣

التوق إلى العمى

توقف ألن دالاس، المفتون بالعمل الخفي، عن التركيز على لب مهمته القاضية بتقديم المعلومات إلى الرئيس.

تعاطى مع معظم محللي «السي.آي.أيه.»، ومع الكثير من عملهم، بازدراء مدروس. كان دالاس يبقيهم منتظرين ساعات عندما يأتون لتهيئته وتحضيره لاجتماع صباح اليوم التالي في البيت الأبيض. وما إن يتحوّل بعد الظهر إلى المساء، حتى يخرج من بابه مسرعاً، ويتجاوزهم، مستعجلاً الوصول إلى موعد عشاء.

استسلم «لعادة تقويم الإيجازات بحسب الوزن»، قال ديك ليمان، وهو محلل رئيسي منذ ثلاثة عقود، وأصبح أخيراً الرجل الذي يعدّ الإيجاز اليومي للرئيس. «كان يزنها بيده ويقرر، من دون قراءتها، هل يقبلها أم لا»(١).

كان يمكن محللاً سُمح له بالدخول إلى داخل الحرم في منتصف بعد الظهر لتقديم المشورة إلى دالاس، أن يجد المدير يشاهد مباراة في كرة القاعدة لـ «الواشنطن سيناتورز»، عبر تلفزيون مكتبه. ويشاهد دالاس المستلقي على كرسي ذي ظهر متحرّك ورجلاه مرفوعتان على مقعد وطيء، بينما المساعد المسكين يقف قبالته من وراء جهاز التلفزيون. وفي الوقت الذي يبلغ فيه الإيجاز النقاط الحاسمة، يبدأ دالاس في تحليل مباراة الكرة.

صار يُغفل مسائل الحياة والموت التي بين يديه.

إدانة المنظومة السوفياتية بأسرها

شن دالاس وويسنر معاً أكثر من مئتين عملية خفية رئيسية في ما وراء البحار، على امتداد خمس سنوات، دافقين ثروات أميركية في سياسات فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليونان، مصر، باكستان، اليابان، تايلند، الفيليبين وفيتنام. أطاحت الوكالة بدول، وأمكنها صنع رؤساء ورؤساء حكومات، أو تحطيمهم. إلا أنها عجزت عن الحصول على أي ممسك على عدوّها.

في نهاية ١٩٥٥، بدّل الرئيس أيزنهاور أوامر السير لـ «السي.آي.أيه.» وقام، بعدما أدرك انه لا يمكن العمل الخفي أن يقوّض الكرملين، بمراجعة القواعد الموضوعة في بداية الحرب الباردة. وبقي الأمر الجديد، المصنّف مجلس الأمن القومي ٥٤١٢/٢ NSC 5412/2، والمؤرخ في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٥، ساري المفعول على مدى خمسة عشر عاما[٢]. قضت الأهداف الجديدة «بخلق مشاكل مزعجة للشيوعية الدولية، واستغلالها»، و«مواجهة أي تهديد من حزب أو أفراد يستجيبون، في شكل مباشر أو غير مباشر، للسيطرة الشيوعية»، و«تقوية توجيه شعوب العالم الحر صوب الولايات المتحدة»: طموحات كبرى، لكنها أكثر تواضعاً ودقّة مما حاول دالاس وويسنر تحقيقه.

خلق الزعيم السوفياتي، نيكيتا خروشتشيف، بعد ذلك بأسابيع قليلة، مشاكل للشيوعية الدولية بأكثر مما حلمت «السي.آي.أيه.» بأنه ممكن. ففي خطابه في شباط/فبراير ١٩٥٦ أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، ندّد بستالين، الميت منذ أقل ثلاث سنوات، بوصفه «أنانياً وشمولياً وسادياً، قادراً على التضحية بكل شيء، أو أي أحد، في سبيل سلطته الذاتية ومجده». التقطت «السي.آي.أيه.»، في آذار/مارس، شائعات حول الخطاب. وأبلغ دالاس رجاله: مملكتي في مقابل نسخة. فهل يمكن الوكالة، في نهاية المطاف، الحصول على استخبارات ما من داخل المكتب السياسي؟

اعتمدت «السي.آي.أيه.» في ذلك الوقت، شأنها اليوم، بقوة على أجهزة الاستخبارات الأجنبية، دافعة ثمن أسرار ليس في وسعها كشفها من تلقاء

نفسها. وفي نيسان/أبريل، سلم جواسيس إسرائيل نسخة إلى جيمس أنغلتون، الذي أصبح رجل ارتباط «السي.آي.أيه.» الوحيد مع الدولة اليهودية. وأنتجت هذه القناة معظم استخبارات الوكالة حول العالم العربي، لكن كانت للأمر كلفته: اعتماد أميركي متزايد على إسرائيل لشرح الأحداث في الشرق الأوسط. وستلوّن المنظورية الإسرائيلية المفاهيم الأميركية على مدى العقود التالية.

في أيار/مايو، بعدما حكم جورج كينّان وغيره على النص بأنه المقال الأصلي، أثيرت مناظرة كبرى داخل «السي.آي.أيه.».

أراد كل من ويسنر وأنغلتون إبقاء الأمر سرّاً على العالم الحر، مع تسريبه على نحو انتقائي في الخارج لزرع الشقاق بين الأحزاب الشيوعية في العالم. وقال راي كلاين، وهو أحد أكثر محللي الاستخبارات وثوقاً لدى دالاس، إن أنغلتون اعتقد انه من خلال عرك النص بالدعاية، «سيمكنه استخدامه بفائدة تصل إلى حد إرباك الروس وأجهزتهم الأمنية، وربما استخدام بعض من تلك المجموعات المهاجرة التي كنا لا نزال في ذلك الوقت نأمل في تحريكها، وتحرير أوكرانيا أو ما شابه».

إلا أنهما أرادا، فوق ذلك كله، وضعه كطعم لإغراء جواسيس سوفيات من أجل انقاذ واحدة من أطول عمليات ويسنر وأقلها فاعلية: «القلنسوة الحمراء».

هدفت «القلنسوة الحمراء»، وهي برنامج على نطاق عالمي بدأ العمل به في ١٩٥٢، وأخذ اسمه من حمّالي سكة الحديد الذين كانوا يساعدون المسافرين في حوائجهم، إلى استمالة سوفيات للانشقاق عن بلدهم، والعمل من أجل «السي.آي.أيه.» وهم سيخدمون، على نحو مثالي، بوصفهم «مرتدّين في أماكنهم»: يبقون في مراكزهم الحكومية في حين يتجسسون لأميركا. وفي حال فشلهم في ذلك، سيهربون إلى الغرب ويكشفون عن معرفتهم بالمنظومة السوفياتية. بيد أن عدد المصادر السوفياتية المهمة التي تم تكوينها عند ذاك الوقت، كان صفراً. فالقسم السوفياتي في جهاز «السي.آي.أيه.» الخفي كان

بإدارة متخرج من هارفرد ضيّق الأفق اسمه دانا دوراند، بلغ منصبه بمزيج من الصدفة، وغياب البديل، والتحالف مع أنغلتون. وبحسب تقرير للمفتش العام صدر في حزيران/يونيو ١٩٥٦، ورُفعت عنه السرّية في ٢٠٠٤، فإن القسم لم يؤدّ وظيفته[٣]. عجز القسم السوفياتي عن إنتاج «بيان رسمي بمهماته ووظائفه»، والأقل منه عن التقاط ما يدور داخل الاتحاد السوفياتي. احتوى التقرير على لائحة بعشرين «عميلاً تحت السيطرة» في روسيا في ١٩٥٦. أحدهم ضابط هندسة بحرية صغير الرتبة، والأخرى زوجة عالم في أبحاث الصواريخ الموجهة. وأُدرج الباقون على أنهم فلاح، ومصلح هواتف، ومدير مرأب تصليح، وبيطري، وأستاذ ثانوي، ومصلّح أقفال، وعامل في مطعم، وعاطل عن العمل. ولم يمكن أياً منهم أن يكوّن فكرة عن طريقة عمل الكرملين.

صباح السبت، الأول من حزيران/يونيو ١٩٥٦، استدعى دالاس راي كلاين إلى مكتب المدير. «يقول ويسنر إنك تعتقد أن علينا نشر خطاب خروشتشيف السرّي»، قال دالاس.

طرح كلاين قضيته: إنه كشف رائع عن «المشاعر الحقيقية لجميع هؤلاء الأشخاص الذين اضطروا إلى العمل في ظل ابن الزنى ذلك القديم ستالين لسنوات كثيرة.

«بحق الله»، قال لدالاس، «فلننشره».

التقط دالاس نسخته بأصابع مرتعشة ملتوية من جراء داء المفاصل والنقرس. وقال كلاين مستذكراً، إن الرجل العجوز وضع خفيه على المكتب، وانحنى إلى الخلف، ورفع نظارتيه إلى أعلى رأسه، وقال، «يا للدهشة، أظن أنني سأتخذ قرارا سياسياً!». هاتف ويسنر عبر هاتفه الداخلي، «ووصل بطريقة غامضة بعض الشيء بفرانك إلى موقع لا يمكنه معه أن يعارض نشره، مستخدماً الحجج نفسها التي استخدمتها حول أنها فرصة تاريخية، على ما أعتقد أنني طلبت منه أن يقول، لإدانة المنظومة السوفياتية بأسرها»[٤].

التقط عندها دالاس الهاتف واتصل بشقيقه. تم تسريب النص عبر وزارة

الخارجية، ونُشر بعد ذلك بثلاثة أيام في «النيويورك تايمز». وقد حرّك القرار الأحداث بطريقة لم تتخيلها «السي.آي.أيه.» أبداً.

«السي.آي.أيه.» مثّلت قوة عظمى

بث بعد مرور أربعة أشهر، «راديو أوروبا الحرة»، آلة «السي.آي.أيه.» للوسائط الإعلامية المتعددة بكلفة ١٠٠ مليون دولار، الخطاب السرّي إلى ما وراء الستار الحديدي. وشغّل أكثر من ثلاثة آلاف إذاعي مهاجر، وكاتب، ومهندس، ويشرف عليهم الأميركيون، المحطة الإذاعية بثماني لغات، في بث على الأثير يستغرق ما يصل إلى ١٩ ساعة في اليوم. وكان يفترض بهم، نظريّاً، أن يقدموا أخبارهم ودعايتهم بصراحة. لكن ويسنر أراد استعمال الكلمات كسلاح. وخلق تدخّله إشارة فورية في «راديو أوروبا الحرة»[٥].

كان المهاجرون الذين يبثون على الهواء، يرجون رؤساءهم الأميركيين إعطاءهم رسالة واضحة يقدمونها. وها هي قد وُجدت: إذ تمت تلاوة الخطاب على الهواء ليلاً ونهاراً.

جاءت النتيجة مباشرة. فقد سبق لأفضل محللي «السي.آي.أيه.» أن استنتجوا قبل ذلك ببضعة شهور، أنه من غير المرجح حصول انتفاضة شعبية في أوروبا الشرقية في الخمسينيات. وفي ٢٨ حزيران/يونيو، وبعد إذاعة الخطاب، أخذ العمّال البولنديون في التمرّد على حكّامهم الشيوعيين. قاموا بأعمال شغب احتجاجاً على خفض في الأجور، ودمّروا محطات الإشارة التي كانت تشوّش على بث «راديو أوروبا الحرّة». بيد أنه لم يكن في وسع «السي.آي.أيه.» القيام بأي شيء سوى تغذية استيائهم، لكن ليس عندما يدير أميرال سوفياتي الجيش البولندي، ويشرف ضباط الاستخبارات السوفياتية على الشرطة السرّية، وقد قتلوا ٥٣ بولندياً وسجنوا المئات.

دفع الكفاح البولندي بمجلس الأمن القومي، إلى البحث عن صدع في بنية

السيطرة السوفياتية. وحاجج نائب الرئيس ريتشارد نيكسون، بأنه إذا قام السوفيات بإخضاع دولة حديثة العهد تدور في فلكهم، مثل المجر، فسيخدم ذلك المصالح الأميركية موفّراً مصدراً لدعاية عالمية مناهضة للشيوعية[٦]. فاز فوستر دالاس، الذي التقط هذا الموضع، بموافقة رئاسية على جهود جديدة لتسويق «إعلانات تلقائية عن السخط» في الدول الأسيرة. وتعهّد ألن دالاس بتقوية برنامج «راديو أوروبا الحرّة» الذي أطلق بالونات شرقاً فوق الستار الحديدي، تحمل مناشير و«ميداليات الحرية»، وهي شارات من الألومينيوم حملت شعارات لجرس الحرّية، وصورة له.

انطلق دالاس في جولة عالمية من خمسة وسبعين يوماً، دائراً حول الأرض في بزة طيران بسحّاب على متن طائرة «دي.سي ـ ٦» ذات المحركات الأربعة والتصميم الخاص. ونزل إلى محطات «السي.آي.أيه.» في لندن وباريس، فرانكفورت وفيينا، روما وأثينا، إسطنبول وطهران، الظهران ودلهي، بانكوك وسنغافورة، طوكيو وسيول، مانيلا وسايغون. شكّلت الرحلة سرّاً مكشوفاً. استُقبل كرئيس دولة، واستمتع بالأضواء. وقال راي كلاين، الذي رافق المدير، إن الرحلة شكّلت «واحدة على الإطلاق من أكثر الرحلات السرّية التي تحوز هذا القدر من الدعاية». سرّية، لكنها زاهرة، تلك كانت «السي.آي.أيه.» في عهد دالاس. وافتكر كلاين، أنه حصل في مكان ما، أن «عُرّضت الممارسات الخفية الحقيقية للخطر»، بينما «تم إضفاء جو من السرّية على التحليل، لم يكن ضرورياً، وأعطى في الغالب نتائج عكسية، ومضرّة على المدى الطويل». وتعلّم أمثولة أخرى من مشاهدته الزعماء الأجانب يحومون حول دالاس في العشاءات الرسمية: «مثّلت «السي.آي.أيه.» قوة عظمى. وهذا مخيف بعض الشيء»[٧].

التوق إلى العمى

في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦، وبعد وقت قصير على عودة دالاس إلى واشنطن، أطفأ فرانك ويسنر المجهد كثيراً الأضواء في مكتبه، وسار خارجاً عبر الممرات المصنوعة من «الجنفيص» المشمّع والجدران المقشّرة في المبنى

الموقت، وذهب إلى منزله الأنيق في جورجتاون، ووضّب أغراضه لجولته الخاصة على أكبر محطات لـ «السي.آي.أيه.» في أوروبا.

لم يملك، لا هو ولا رئيسه، أي فكرة عن الأحداث الكبرى الجارية في العالم. فخطط الحرب قائمة على قدم وساق في لندن وباريس، بينما الثورة الشعبية قريبة في المجر. وسيعمد دالاس، في سياق أسبوعين حاسمين، إلى إساءة فهم تصوير كل وجه من أوجه الأزمات، أو الإساءة إليه، في تقاريره إلى الرئيس.

أبحر ويسنر عبر الأطلسي في الظلمة. وبعد طيرانه الليلي إلى لندن، فإن أول أمر على جدول أعماله كان لقاء عشاء قرر موعده منذ وقت طويل مع السير باتريك دين، وهو ضباط كبير في الاستخبارات البريطانية. ومن المفترض أن يناقشا خططهما لقلب الزعيم المصري، جمال عبد الناصر، الذي وصل إلى السلطة في انقلاب عسكري قبل ذلك بثلاث سنوات. كانت المسألة تتخمّر منذ شهور. وقد زار السير باتريك واشنطن قبل ذلك ببضعة أسابيع، واتفق الرجلان على أن أهدافهما تقتضي، بطريقة أو بأخرى، إزاحة عبد الناصر من السلطة.

ساندت «السي.آي.أيه.» عبد الناصر في البداية، وسلمته الملايين، وبنت له محطة إذاعية قوية، ووعدته بمساعدة عسكرية واقتصادية أميركية. إلا أن أحداث مصر أخذت «السي.آي.أيه.» على حين غرّة، برغم واقع أن ضباط «السي.آي.أيه.» فاقوا مسؤولي وزارة الخارجية عدداً بنحو أربعة إلى واحد في السفارة الأميركية في القاهرة. والمفاجأة هي أن عبد الناصر رفض أن يبقى كأنه تم شراؤه: فقد استخدم قسماً من ملايين الدعم الثلاثة التي مررتها إليه «السي.آي.أيه.» لبناء مئذنة على جزيرة في القاهرة قبالة فندق الهيلتون. وقد عُرفت بـ «روزفلت المنتصب». ولأن روزفلت و«السي.آي.أيه.» لم يفيا بتعهداتهما، وافق عبد الناصر على بيع القطن المصري إلى الاتحاد السوفياتي في مقابل السلاح. ثم إن عبد الناصر تحدى في تموز/يوليو ١٩٥٦، تركات الاستعمار بتأميم شركة قناة السويس، الشركة التي أسسها البريطانيون والفرنسيون لإدارة الطريق التجارية البحرية التي شقها الإنسان في الشرق الأوسط، فزأرت لندن وباريس غضباً.

اقترح البريطانيون اغتيال عبد الناصر، ودرسوا تحويل نهر النيل لتدمير محاولة مصر الوصول إلى الإدارة الذاتية الاقتصادية. قال أيزنهاور إنه سيكون من «الخطأ الصارخ» استخدام القوة القاتلة(٨). وأيدت «السي.آي.أيه.» حملة طويلة، وبطيئة، من الإفساد ضد مصر.

تلك هي المسألة التي على ويسنر أن يعالجها مع السير باتريك دين. احتار في أمره أولاً، ثم استاء عندما لم يأت السير باتريك إلى اجتماعهما المقرر منذ وقت طويل. فقد ارتبط الجاسوس البريطاني بالتزام آخر: كان في فيلاّ خارج باريس، يضع اللمسات الأخيرة على هجوم منسّق على مصر تشنّه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، والهدف هو تدمير حكم عبد الناصر واستعادة السويس بالقوة. ستقوم إسرائيل أولاً بمهاجمة مصر، ومن ثم تضرب بريطانيا وفرنسا، وتلعبان دور حفظ السلام، بينما تقومان بالاستيلاء على القناة.

لم تعرف «السي.آي.أيه.» بأي من هذا. وأكد دالاس لأيزنهاور أن التقارير حول خطة عسكرية مشتركة إسرائيلية ـ بريطانية ـ فرنسية منافية للمعقول(٩). ولم يبال بكبير محللي «السي.آي.أيه.» وبالملحق العسكري الأميركي في تل أبيب، وكلاهما مقتنع بأن إسرائيل على وشك المضي في حرب ضد مصر. ولم يستمع كذلك إلى صديقه القديم دوغلاس ديللون، السفير الأميركي في باريس، الذي اتصل محذراً من أن فرنسا مشاركة في المؤامرة. واختار المدير بدلاً من ذلك الإصغاء إلى جيم أنغلتون واتصالاته الإسرائيلية. فالإسرائيليون، بعدما فازوا بعرفان جميل دالاس وأنغلتون إلى الأبد، لتسليمهما نسخة من خطاب خروشتشيف السرّي، غشوا الإسرائيليون بالمعلومات المضللة، محذّرين من حدوث اضطراب في مكان آخر من الشرق الأوسط. وفي ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، أوصل المدير كذبهم إلى الرئيس في اجتماع مجلس الأمن القومي: اغتيل ملك الأردن! مصر ستهاجم العراق قريباً!

دفع الرئيس بهذه العناوين جانباً، وأعلن أن «المجر لا تزال الخبر الذي يفرض نفسه».

اجتمع حشد كبير، قبل ذلك بيومين، أمام البرلمان في بودابست، بقيادة متظاهرين من الطلاب المنتفضين على الحكومة الشيوعية. واجهت الشرطة السرّية المكروهة حشداً ثانياً عند مبنى الإذاعة الحكومية، حيث كان موظف في الحزب يندد بالاحتجاجات. حمل بعض الطلاب السلاح. انطلقت رصاصة من مبنى الإذاعة، ففتحت الشرطة السرّية النار، وحارب المتظاهرون الشرطة طوال الليل. وفي منتزه مدينة بودابست، اقتلع حشد ثالث تمثال لينين من قاعدته، وجروه إلى أمام المسرح الوطني، وحطموه عن بكرة أبيه. دخل جنود الجيش الأحمر ودباباته بودابست، صباح اليوم التالي، وأقنع الطلاب حفنة قليلة من الجنود السوفيات الشبان بالانضمام إلى قضيتهم. ركب المتمردون الدبابات السوفياتية وتوجهوا صوب البرلمان، ملوحين بالعلم المجري. ذُعر القادة السوفيات، وفي لحظة رهيبة اندلع إطلاق نار من جميع الاتجاهات في ميدان كوسوت، ومات مئة شخص على الأقل.

حاول ألن دالاس، في داخل البيت الأبيض، إطلاع الرئيس على مغزى الانتفاضة المجرية. وقال «من المؤكد أن أيام خورشتشيف باتت معدودة»... لكنه أخطأ ذلك بسبع سنين.

اتصل دالاس، في اليوم التالي، في **٢٧** تشرين الأول/أكتوبر، بويسنر في لندن. أراد رئيس العمل الخفي القيام بما في وسعه لمساعدة الانتفاضة. وهو الذي صلّى على مدى ثمانية أعوام لبلوغ مثل هذا اليوم.

أمره مجلس الأمن القومي بإبقاء الأمل حيّاً في المجر. وجاء في الأوامر أن «القيام بأقل من ذلك، سيعني التضحية بالأساس الأخلاقي لزعامة الولايات المتحدة للشعوب الحرّة». وسبق أن أبلغ البيت الأبيض، بأنه سينشئ حركة سرّية على مستوى الأمة للحرب السياسية وشبه العسكرية، من خلال الكنيسة الكاثوليكية، والتعاونيات الزراعية، والعملاء المجندين، ومجموعات المنفيين. وقد فشل في ذلك كلّياً. فالمنفيون الذين أرسلهم لاجتياز الحدود إلى النمسا، قد اعتُقلوا. والرجال الذين حاول تجنيدهم كانوا من الكَذَبة واللصوص.

وانهارت جهوده لإنشاء شبكة إفادة سرّية داخل المجر. وقد خبأ أسلحة في كل أنحاء أوروبا، ولما حُلّت الأزمة لم يستطع أحد إيجادها.

لم توجد محطة لـ «السي.آي.أيه.» في المجر في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦. ولم يكن يوجد قسم لعلميات المجر في الجهاز السرّي في مقر القيادة، ويكاد لا يوجد من يتكلّم اللغة. كان لويسنر رجل وحيد في بودابست عندما اندلعت الانتفاضة: جيزا كاتونا، وهو مجري أميركي أمضى ٩٥ في المئة من وقته، يقوم بعمله الرسمي ككاتب صغير تابع لوزارة الخارجية، يبعث الرسائل، ويشتري الطوابع والقرطاسية، ويضع الأوراق في ملفاتها. وعندما حصلت الانتفاضة، تحوّل إلى مجموعة الأعين والآذان الموثوقة الوحيدة التي لـ «السي.آي.أيه.» في بودابست.

لم تعرف الوكالة، في خلال الأسبوعين من حياة الانتفاضة، بأكثر مما تقرأه في الصحف. لم تملك أي فكرة بأن الانتفاضة قد تحصل، أو كيف نمت، أو بأن السوفيات سيسحقونها. ولو أن البيت الأبيض وافق على إرسال أسلحة، لما امتلكت الوكالة أي فكرة عن المكان الذي سترسلها إليه. وقال تأريخ سرّي لـ «السي.آي.أيه.» عن الانتفاضة المجرية، إن الجهاز الخفي عاش حالة من «التوق إلى العمى»(١٠).

وقال، «لم نملك، في أي من الأوقات، أي شيء يمكن، أو يجب أن يُعتبر خطأً أنه عملية استخباراتية».

حمّى الأزمان

طار ويسنر في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر إلى باريس، وعقد اجتماعاً مع بضعة أعضاء موثوق بهم محبطين في بعثة أميركية تشارك في مؤتمر لحلف شمال الأطلسي حول مسألة أوروبا الشرقية. ومن بين أعضائها بيل غريفيث، كبير المستشارين السياسيين للمقر الرئيسي لـ «راديو أوروبا الحرة» في ميونيخ. ودفع ويسنر، المستطير فرحاً لثورة حقيقية قيد الإعداد ضد الشيوعية، بغريفيث إلى

زيادة ضخ الدعاية. وصدرت بنتيجة تحريضاته، مذكّرة من مدير «إذاعة أوروبا الحرة» في نيويورك إلى الموظفين المجريين في ميونيخ، أكد فيها أن «جميع الروادع سقطت. لم تعد هناك موانع، أكرر، لم تعد هناك موانع». وبدءاً من تلك الليلة حث «راديو أوروبا الحرة»، مواطني المجر على تخريب سكك الحديد، وتقطيع خطوط الهاتف، وتسليح المؤيدين، ونسف الدبابات، ومحاربة السوفيات حتى الموت. وأعلن الراديو، «هنا «ص.أ.ح.» («صوت أوروبا الحرة»)، صوت المجر الحرّة، في حالة هجوم بالدبابات، على كل الأسلحة الخفيفة فتح النار عند رؤية المدفع». ونُصح المستمعون بإلقاء «كوكتيل مولوتوف... زجاجة نبيذ سعة ليتر واحد مليئة بالبنزين... على شق التهوئة المشبّك فوق المحرّك». وكانت إشارة الختام هي «الحرّية أو الموت!»(١١).

مضى تلك الليلة، إمري ناغي، رئيس الوزراء السابق الذي طرده المتشددون من الحزب الشيوعي، إلى الراديو الرسمي ليندد بـ «الأخطاء الرهيبة وبجرائم هذه الأعوام العشرة الأخيرة»(١٢). قال إن القوات الروسية ستغادر بودابست، وإنه ستُحَل أجهزة الأمن القديمة، وإن «حكومة جديدة، تستند إلى سلطة الشعب»، ستقاتل من أجل الحكم الذاتي الديموقراطي. وفي غضون ٧٢ ساعة، سيشكل ناغي حكومة ائتلافية، ويحظر حكم الحزب الواحد، وينسلخ عن موسكو، ويعلن المجر دولة حيادية، ويتطلع إلى الولايات المتحدة والأمم المتحدة للمساعدة. بيد أنه بينما استولى ناغي على السلطة، وسعى إلى تفكيك السيطرة السوفياتية على المجر، اعتبره ألن دالاس فاشلاً. وأبلغ الرئيس أن رجل الفاتيكان في المجر، الكاردينال ميندزنتي، المفرج عنه حديثاً من الإقامة الجبرية، يمكنه، بل يجب أن يقود البلاد. أصبح ذلك هو الخط المعتمد في «راديو أوروبا الحرّة»: «تلتقي المجر المولودة من جديد، في هذه الساعات، بالزعيم المُعيّن المرسل من الله».

اتهمت إذاعات «السي.آي.أيه.» ناغي زوراً بدعوة القوات السوفياتية إلى بودابست. وهاجمته على أنه «خائن، وكاذب، وقاتل». فقد سبق له أن كان شيوعياً، وهو بالتالي ملعون إلى الأبد. أصبحت على الهواء، في تلك الساعة،

ثلاثة ترددات جديدة لـ «السي.آي.أيه.» ومن فرانكفورت، قال منفيون روسيون إن جيشاً من «مقاتلي الحرّية» متوجه إلى الحدود المجرية. ومن فيينا، قوّت «السي.آي.أيه.» الإذاعات الضعيفة للموالين المجريين وأعادت توجيهها إلى بودابست. واقترح من أثينا، مقاتلو الحرب النفسية في «السي.آي.أيه.»، إرسال الروس إلى المشانق.

أصيب المدير بما يشبه النشوة، وهو يُطلع أيزنهاور على الموقف في بودابست، في الاجتماع التالي لمجلس الأمن القومي في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر. وقال دالاس للرئيس، «ما حصل هناك يشكّل معجزة»[١٣]. فلا يمكن استخدام القوة المسلحة بفاعلية بسبب قوة الرأي العام. فنحو ٨٠ في المئة من الجيش المجري، انحازوا إلى المتمردين، وزودوهم بالسلاح».

لكن دالاس أخطأ كلّياً. لم يملك المتمردون سلاحاً يُعتد به. ولم يبدّل الجيش المجري ولاءاته. وكان ينتظر ليرى من أي جهة ستهبّ رياح موسكو. وشرع السوفيات في إرسال أكثر من ٢٠٠ ألف جندي ونحو ٢,٥٠٠ دبابة وآلية مصفحة إلى معركة المجر.

صبيحة الاجتياح السوفياتي، أبلغ مذيع «راديو أوروبا الحرّة» المجري زولتان توري مستمعيه «أنه لن يعود في إمكان حكومة الولايات المتحدة مقاومة الضغط لإرسال الجيش لمساعدة مقاتلي الحرّية». وفي حين تدفّق، على امتداد الأسابيع القليلة التالية، عشرات الآلاف من اللاجئين الشديدي الانفعال، الساخطين عبر الحدود إلى النمسا، تحدّث الكثيرون عن هذه الإذاعة بوصفها «الوعد بأن المساعدة ستصل»[١٤]. ولم يصل أي منها. وأصرّ ألن دالاس على أن إذاعات «السي.آي.أيه.» لم تفعل أي شيء لتشجيع المجريين. وصدّقه الرئيس. وستنقضي أربعون سنة قبل أن يتم نبش مدوّنات هذه الإذاعات.

سحقت القوات السوفياتية، في أربعة أيام وحشية، محاربي بودابست، قاتلة عشرات الآف، وجارّة الآلاف المزيدة بعيداً ليموتوا في معسكرات السجون السيبيرية.

بدأت الحملة العنيفة السوفياتية في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر. وشرع في تلك الليلة لاجئو المجر بمحاصرة السفارة الأميركية في فيينا، راجين أميركا القيام بشيء ما. وقال رئيس محطة «السي.آي.أيه.» بير دي سيلفا، إنه كانت لديهم أسئلة شائكة: «لماذا لم نساعد؟ وهل علمنا بأن المجريين اعتمدوا علينا للمساعدة؟». وهو لم يملك الأجوبة.

انهالت عليه الأوامر من المقر العام لاحتواء فيالق غير موجودة من الجنود السوفيات الذين يرمون أسلحتهم ويتوجهون إلى الحدود النمساوية. وأبلغ دالاس الرئيس بعمليات الفرار الكبيرة هذه. كانت وهماً. وأمكن لدي سيلفا أن يخمّن وحسب، بأن «المقر العام عالق في حمّى الأزمنة»[١٥].

للأمور الغريبة استعداد للتطوّر

وصل ويسنر، في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر، إلى محطة «السي.آي.أيه.» في فرانكفورت، التي يرأسها تريسي بارنز الذي بلغ منه الذهول حدّاً بحيث كاد يعياه الكلام. وبينما كانت الدبابات الروسية تذبح الصبية الصغار في بودابست، أمضى ويسنر ليلة لم يذق فيها طعم النوم في مقرّ بارنز يلعب بقطارات الألعاب. لم يفرح بإعادة انتخاب أيزنهاور في اليوم التالي. كما أن الرئيس لم يقدّر استيقاظه على تقرير طازج، لكن كاذب، بأن السوفيات على استعداد لإرسال ٢٥٠ ألف جندي إلى مصر للدفاع عن قناة السويس في وجه البريطانيين والفرنسيين[١٦]. ولم يسعد أيضاً بعجز «السي.آي.أيه.» عن الإفادة عن الهجوم السوفياتي الحاصل بالفعل على المجر.

طار ويسنر، في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر، إلى محطة فيينا، على بعد ثلاثين ميلا من الحدود المجرية. وراقب، عاجزاً، بينما كان المحازبون المجريون يبعثون برسائلهم الأخيرة إلى العالم الحر عبر برقيات «الأسوشيتد برس»: «إننا عرضة لرمايات كثيفة من المدافع الرشاشة... الوداع أيها الاصدقاء. ليرحم الله أرواحنا».

ولّى هارباً من فيينا، وطار إلى روما. وتناول، في تلك الليلة، العشاء مع الجواسيس الأميركيين في محطة «السي.آي.أيه.» في روما، ومن بينهم وليام كولبي، المدير المستقبلي للاستخبارات المركزية. حنق ويسنر لأن أناساً يموتون بينما الوكالة تتردد. وسجّل كولبي أنه «أراد أن يهب لمساعدة «مقاتلي الحرّية». فهذه هي الغاية التي صُمّمت من أجلها إمكانات الوكالة شبه العسكرية. وفي الإمكان طرح قضية القيام بذلك بدون توريط الولايات المتحدة في حرب عالمية مع الاتحاد السوفياتي». إلا ان ويسنر لم يتمكن من طرح قضية متماسكة. «من الواضح أنه على شفا الانهيار العصبي»، سجّل كولبي(١٧).

مضى ويسنر إلى أثينا، حيث رآه رئيس محطة «السي.آي.أيه.»، جون ريتشاردسون، «وقد زاد في سرعته إلى حد أقصى من الاندفاع والحدّة»(١٨). وهدّأ أعصابه بالسجائر والكحول. شرب الويسكي بالزجاجات، في غشية من البؤس والحنق.

وعاد في ١٤ كانون الأول/ديسمبر، ليستمع إلى ألن دالاس يقدّر فرص «السي.آي.أيه.» في حرب مدن في المجر. «إننا مجهزون جيداً لقتال عصابات في الغابات»(١٩)، قال دالاس، لكن «يوجد نقص خطير في الأسلحة من أجل قتال الشوارع والقتال وجهاً لوجه، وبخاصة المعدات المضادة للدبابات». وأراد من ويسنر أن يقول له ما هي «أفضل الأسلحة التي يمكن وضعها في أيدي المجريين»، و«مقاتلي الحرّية» في بلدان أخرى من بلدان الستار الحديد التي قد تثور على الشيوعيين». وأعطى ويسنر جواباً مفخّماً. «الجروح التي أصابت بها التطورات العالمية الأخيرة شيوعيي روسيا مهمّة، وبعضها عميق جداً». قال. «ويبدو أن الولايات المتحدة والعالم الحر في خارج دائرة الخطر». رأى بعض زملائه في ذلك حالة من الاضطراب النفسي. وأولئك الأكثر قرباً من ويسنر، رأوا ما هو أسوأ من ذلك. واستلقى في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، على سرير المستشفى، ولم يُحسن الأطباء تشخيص مرضه الكامن.

في البيت الأبيض، وفي ذلك اليوم بالذات، تلقّى الرئيس أيزنهاور التقرير

الرسمي لتحقيق سرّي حول جهاز «السي.آي.أيه.» الخفي. ولو أنه نُشر على الملأ، لأدى إلى تدمير الوكالة.

كان السفير ديفيد ك. إي. بروس هو الواضع الأساسي للتقرير، وهو واحد من أفضل أصدقاء فرانك ويسنر في واشنطن: صداقة وثيقة، إلى حد أنها تسمح له بالهروع إلى منزل ويسنر لياخذ حماماً ويحلق ذقنه عندما انقطعت المياه الساخنة في قصره الرائع في جورجتاون. كان ارستقراطياً أميركياً، والرقم الثاني بعد وايلد بيل دونوفان في «الأو.أس.أس.» في لندن، وسفير ترومان إلى فرنسا، وسبق والتر بيديل سميث كوكيل لوزارة الخارجية، وكان مرشّحاً ليصبح مدير الاستخبارات المركزية في ١٩٥٠. عرف أموراً كثيرة حول عمليات «السي.آي.أيه.» في الديار وفي الخارج. وتُظهر يوميات بروس الخاصة، أنه التقى ألن دالاس وفرانك ويسنر في عشرات موائد الفطور، والغداء، والعشاء، والشراب، والأحاديث السرّية في باريس وواشنطن، ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٦[٢٠]. وسجّل «إعجابه الكبير ومحبته» لدالاس، الذي أوصى شخصياً بأن يعمل بروس في مجلس مستشاري الرئيس الاستخباري الجديد.

أراد أيزنهاور مراقبة الوكالة بمجموعة من «عيونه الخاصة». فقد أعلن، في ما مضى في كانون الثاني/يناير ١٩٥٦، بُعيد توصية سرّية من تقرير دوليتل، إنشاءه مجلساً تابعاً للرئيس. وكتب في يومياته أنه أراد مستشارين يفيدونه مرة كل ستة أشهر عن قيمة عمل «السي.آي.أيه.».

طلب السفير بروس إذناً رئاسياً (وحصل عليه)، بإلقاء نظرة عن كثب على عملية «السي.آي.أيه.» الخفية: عمل ألن دالاس وفرانك ويسنر. وأضافت محبته الشخصية ونظرته المهنية إليهما وزناً لا يوصف على كلماته. ولم يتم أبداً رفع حظر التداول عن تقريره السرّي للغاية. وتساءل مؤرخو «السي.آي.أيه.» الداخليون حول وجود مثل هذا التقرير. لكن خلاصاته الأساسية ظهرت على نحو وضعه مجلس الاستخبارات في ١٩٦١، وحصل عليه المؤلف[٢١]. وقد تم نسخ بعض من مقاطعه هنا للمرة الأولى.

جاء في التقرير: «نحن متأكدون من أن مؤيدي قرار ١٩٤٨ في إطلاق هذه الحكومة في برنامج حرب نفسية وشبه عسكرية صريحة، لم يمكن أن يتوقعوا تشعبات العمليات التي نتجت عنه. ما من أحد، سوى أولئك الذين من داخل «السي.آي.أيه.»، على علاقة مع المجريات اليومية لعلميتهم، امتلكوا أي معرفة مفصّلة بما يجري».

ثمة قلق كبير في وزارة الخارجية في شأن انعكاسات حرب «السي.آي.أيه.» النفسية ونشاطاتها شبه العسكرية على علاقاتنا الخارجية. وتشعر جماعة وزارة الخارجية، بأن المساهمة الكبرى التي قد يمكن هذا المجلس أن يقدّمها، هي في لفت انتباه الرئيس إلى التأثيرات الكبيرة، التي تكاد تكون من جانب واحد، لحرب «السي.آي.أيه.» النفسية ونشاطاتها شبه العسكرية، في الصيغة الواقعية لسياساتنا الخارجية، وفي علاقاتنا مع «أصدقائنا»).

إن دعم «السي.آي.أيه.» وتلاعبها في وسائل الأخبار المحلية، والمجموعات العمالية، والشخصيات السياسية والأحزاب، وغير ذلك من النشاطات، يمكن ان تكون لها، في أي وقت، انعكاساتها ذات المغزى الأكبر على مسؤوليات السفير المحلّي، وهو يجهلها كلّياً في بعض الأحيان، أو يوافق عليها بإبهام... وغالباً ما يحصل اختلاف في الرأي في ما يتعلق بموقف الولايات المتحدة من شخصيات محلّية أو تنظيمات، وبخاصة ما بين «السي.آي.أيه.» ووزارة الخارجية... (وأحياناً، فإن رابط الأخوّة بين وزير الخارجية ومدير الاستخبارات المركزية، قد «يحدد، اعتباطياً، موقف الولايات المتحدة»).

إن الحرب النفسية والعمليات شبه العسكرية (تنمو في الغالب من جراء قيام شبان لامعين، ومتفوقين، بالتدخل المتزايد في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وعليهم القيام بأمر ما طوال الوقت لتبرير سبب وجودهم)، يتم شنها اليوم على أساس عالمي من قبل جحافل من ممثلي «السي.آي.أيه.» [محذوف]، والكثيرون منهم، من خلال طبيعة وضعهم الخاص جداً [محذوف] غير ناضجين

سياسياً. (وبسبب «تعاملاتهم» مع أطباع متحوّلة ومتبدّلة، فإن أموراً غريبة مؤهلة لأن تحصل، وهي تحصل، من خلال تطبيق «المواضيع» التي يقترحها عليهم المقر العام، أو التي يطوّرونها على الساحة).

جرت عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية «على أساس مستقل ومطلق العنان في مناطق حرجة للغاية، ذات علاقة بإدارة العلاقات الخارجية»، كما جاء في تقرير رديف لمجلس استخبارات الرئيس في كانون الثاني/يناير ١٩٥٧. «وأدى ذلك، في بعض القطاعات، إلى أوضاع تكاد لا تُصدّق».

حاول الرئيس أيزنهاور، في سنواته الأربع التالية في الحكم، أن يغيّر الطريقة التي تتم فيها قيادة «السي.آي.أيه.»، إلا إنه قال إنه أدرك أنه لن يستطيع تغيير ألن دالاس. كما لا يمكنه التفكير في شخص آخر لإدارة الوكالة. وقال «إنها واحدة من أكثر أنواع العمليات المستغربة، يمكن أن توجد في أي حكومة، وهي لربما تحتاج إلى عبقرية من نوع غريب لإدارتها»[٢٢].

لم يقبل ألن دالاس بأي مشرف عليه. وكان يكتفي بإيماءة رأس صامتة من فوستر. لم يوجد أبداً أي فريق في الحكومة الأميركية يضاهي الأخوين دالاس، إلا أن التقدم في السن، والإرهاق، أخذا يتآكلانهما. كان فوستر أكبر بسبع سنوات من ألن، وهو على مشارف الموت. عرف أنه مصاب بسرطان مميت، قتله ببطء على مدى السنتين التاليتين. قاتل ببسالة، طائراً إلى جميع أنحاء العالم، مصلصلاً كل سيف من سيوف الترسانة الأميركية. إلا أنه تلاشى، وخلق هذا اختلالاً في توازن مدير الاستخبارات المركزية. وفقد الشرارة الحيوية مع ضعف شقيقه. وأصبحت أفكاره وحسّه النظامي، سريعة التلاشي كسرعة تلاشي دخان غليونه.

لما أخذ فوستر في الاضمحلال، قاد ألن «السي.آي.أيه.» في معارك جديدة عبر آسيا والشرق الأوسط. وقال للمسؤولين عنده إن الحرب الباردة في أوروبا في طريق مسدود، لكن على الصراع أن يستمر بحدّة جديدة من الهادئ إلى المتوسط.

١٤

عمليات خرقاء من جميع الأنواع

«إذا ذهبتم وعشتم مع هؤلاء العرب»، قال الرئيس أيزنهاور لألن دالاس وأعضاء مجلس الأمن القومي المجتمعين، «فستجدون أنهم لا يستطيعون وحسب فهم أفكارنا حول الحرّية والكرامة الإنسانية[١]. وكيف يمكنك أن تتوقع منهم، وهم الذين عاشوا في ظل الكثير من الديكتاتوريات، من جميع الأصناف والأنواع، أن يديروا بنجاح حكومة حرّة؟».

انطلقت «السي.آي.أيه.» للإجابة عن ذلك السؤال من خلال محاولة تحويل، وإكراه، أو السيطرة على حكومات في أنحاء آسيا والشرق الأوسط. شاهدت نفسها تتصارع مع موسكو على ولاءات ملايين من الناس، متكالبة على كسب سيطرة سياسية واقتصادية، على الدول التي أعطتها «الصدفة الجيولوجية» ملايين البراميل من النفط. وشكل خط المعركة الجديد هلالاً كبيراً يصل من إندونيسيا عبر المحيط الهندي، ومن خلال صحاري إيران والعراق، إلى عواصم الشرق الأوسط القديمة.

رأت الوكالة في كل زعيم سياسي مسلم، لا يتعهّد الولاء للولايات المتحدة، «هدفاً مشروعاً للعمل السياسي لـ «السي.آي.أيه.»»، بحسب قول أرتشي روزفلت، رئيس محطة تركيا، وابن عم كيم روزفلت قيصر «السي.آي.أيه.» في الشرق الأقصى[٢]. تلقّى الكثيرون من أقوى الرجال في العالم الإسلامي، مال «السي.آي.أيه.» ومشورتها. وسيطرت عليهم الوكالة ما استطاعت. إلا أن قلة من ضباطها «السي.آي.أيه.» تحدّثوا اللغة، وعرفوا العادات، أو فهموا الشعب الذي سعوا إلى مساندته، أو إخضاعه[٣].

قال الرئيس إنه يريد أن يسوّق فكرة الجهاد الإسلامي ضد الملحدين الشيوعيين. «يجب أن نقوم بكل ما هو ممكن للتشديد على طابع الحرب المقدسة»[٤]، بحسب ما قال في اجتماع في أيلول/سبتمبر ١٩٥٧ في البيت الأبيض، حضره فرانك ويسنر، وفوستر دالاس، ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وليام راونتري، وأعضاء في الأركان المشتركة. اقترح دالاس «قوة منتدبة سرّية»، يمكن لـ «السي.آي.أيه.» برعايتها، أن تزوّد الملك السعودي سعود، والملك الأردني حسين، والرئيس اللبناني كميل شمعون، والرئيس العراقي نوري السعيد، بالسلاح الأميركي والمال والاستخبارات.

«يُفترض بهولاء الهجيني المولد الأربعة، أن يشكلوا دفاعنا ضد الشيوعية والقومية العربية المتطرفة في الشرق الأوسط»[٥]، قال هاريسون سيمّز، الذي عمل عن كثب مع «السي.آي.أيه.» بوصفه اليد اليمنى لراونتري، وأصبح لاحقاً سفيراً في الأردن. وحقّق الإرث الدائم الوحيد للقوة المنتدبة السرّية، اقتراح ويسنر وضع الملك الأردني حسين على جدول معاشات «السي.آي.أيه.»[٦] فقد أنشأت «السي.آي.أيه.» جهاز استخبارات أردنياً، لا يزال حياً حتى اليوم بوصفه جهاز ارتباطها بالكثير من العالم العربي. وقد حصل الملك على رفد مالي على مدى السنين العشرين التالية.

وإذا لم تستطع الأسلحة شراء الولاءات في الشرق الأوسط، فإن الدولار الكلّي القوة بقي سلاح «السي.آي.أيه.» السرّي... الفتاك فثمة ترحيب مستمر بالأموال النقدية من أجل الحرب السياسية والصراع على السلطة. وفوستر يؤيّد ذلك كلّياً، إذا كان في إمكانه إنشاء امبراطورية أميركية في الأرض العربية والآسيوية. «لنضع الأمر على هذا النحو»[٧]، قال السفير سيمّز. لقد تبنّى جون فوستر دالاس النظر بأن علينا القيام بكل ما يمكننا لاسقاط هؤلاء الحياديين: الأنظمة المناهضة للامبريالية، المناهضة للاستعمار، والمتطرفة في قوميتها.

«انتدب ألن دالاس للقيام بهذا... وبالطبع، فإن ألن قام بإفلات أناس من عقالهم». ونتيجة لذلك، «علقنا في محاولات انقلاب، وفي عمليات خرقاء من كل الأنواع». حاول هو ورفاقه الدبلوماسيون «تتبع سير بعض هذه الألاعيب

الوسخة التي يتم التخطيط لها في الشرق الأوسط، بحيث إذا وجدنا أنها مستحيلة كلّياً، عمدنا إلى وأدها قبل أن تمضي أكثر قدماً. ونجحنا في القيام بذلك في بعض الحالات، لكننا لم نستطع وأدها جميعها».

ناضجة لانقلاب عسكري

استمرت واحدة من مثل هذه «الألاعيب الوسخة»، لعقد من الزمن: المؤامرة لقلب حكومة سوريا.

نصّبت «السي.آي.أيه.» في ١٩٤٩، عقيداً موالياً لأميركا، هو أديب الشيشكلي، زعيماً على سوريا. حاز مساعدة عسكرية أميركية مباشرة إلى جانب مساعدة مالية خفية. ودعا رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في دمشق، مايلز كوبلاند، العقيد بالـ «سافل المحبب»[٨] الذي «على حد علمي الأكيد، لم ينحن أبداً لصنم. لكنه انتهك الحرمات المقدسة، وجدّف، وقتل، وزنى، وسرق». بقي لمدة أربع سنوات قبل أن يقلبه حزب البعث وسياسيون شيوعيون وضباط في الجيش. وفي آذار/مارس، توقّع ألن دالاس أن البلاد «ناضجة لانقلاب عسكري» تدعمه الوكالة[٩]. وفي نيسان/أبريل ١٩٥٦، حاول كيم رزوفلت من «السي.آي.أيه.» وندّه في أجهزة الاستخبارات السرّية البريطانية السير جورج يونغ، تعبئة الضباط اليمينيين في الجيش السوري. وسلّمت «السي.آي.أيه.» مليون ليرة سورية لزعماء المؤامرة. لكن إخفاق عملية السويس سمّم المناخ السياسي في الشرق الأوسط، ودفع بسوريا أقرب إلى السوفيات، وأجبر الأميركيين والبريطانيين على تأجيل مخططهم حتى نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦.

كان هذا المخطط أعادوا إحياءه في ربيع ١٩٥٧. وتشرح وثيقة اكتشفت في ٢٠٠٣، بين الأوراق الخاصة بدنكان سانديز، وزير الدفاع في حكومة رئيس الوزراء هارولد مكاميلان، هذا الجهد بالتفصيل[١٠]. وقد جاء فيها أنه يجب «جعل سوريا تبدو كأنها راعية المؤامرات، والتخريب، والعنف الموجه ضد الحكومات المجاورة». وعلى «السي.آي.أيه.» والاستخبارات السرّية البريطانية،

أن تختلق «مؤامرات وطنية ونشاطات متشددة مختلفة» في العراق، ولبنان، والأردن، ووضع اللوم فيها على سوريا. وسيعمل جهاز الاستخبارات الأميركي والبريطاني على تشكيل فئات شبه عسكرية، وإثارة التمردات لدى «الأخوان المسلمين» في دمشق. إن إنشاء مظهر من عدم الاستقرار، سيخلّ بتوازن الحكومة. وستُستخدم اشتباكات حدودية تفتعلها الاستخبارات الأميركية والبريطانية ذريعة كي يقوم جيشا العراق والأردن المواليان للغرب بعمليّة اجتياح. وتصوّرت «السي.آي.أيه.» والاستخبارات السرية البريطانية، أنه من المرجّح لأي نظام جديد سينصّبانه «أن يعتمد أوّلاً على الإجراءات القمعية والاستبدادية في ممارسة السلطة» للبقاء.

حدد روزفلت الرئيسَ الطويل العهد لجهاز الاستخبارات السورية، عبد الحميد السرّاج، بوصفه الرجل الأكثر قوّة في دمشق. وقرر أنه يجب أن يتم اغتيال السرّاج إلى جانب رئيس الأركان العامة السورية ورئيس الحزب الشيوعي.

أوفدت «السي.آي.أيه.» روكي ستون، الذي «برى أسنانه» في عملية إيران، ليخدم رئيساً جديداً لمحطة دمشق. اعتُمد كدبلوماسي، بوصفه سكريتيراً ثانياً في السفارة الأميركية، ولجأ إلى وعود بملايين الدولارات، وبسلطة سياسية غير محدودة، للارتباط بصداقات مع ضباط في الجيش السوري. وأظهر مجنّديه، في تقاريره إلى مقر القيادة، بوصفهم قطعة محرابة من أجل انقلاب مدعوم أميركياً.

لكن الأمر استغرق أسابيع كي يكشف عبد الحميد السرّاج، ستون.

هيّأ السوريون مصيدة. «أخذ الضباط الذين تعامل معهم ستون ماله، ثم ظهروا على التلفزيون، وأعلنوا أنهم تلقوا هذا المال من الأميركيين الفاسدين المشؤومين في محاولة لقلب حكومة سوريا الشرعية»، بحسب ما قال كورتيس ف. جونس، وهو مسؤول في وزارة الخارجية، أُرسل لتعزيل الأوساخ التي خلفها ستون وراءه[11]. طوّقت قوات السرّاج السفارة الأميركية في دمشق،

واعتقلت ستون واستجوبته بخشونة. أبلغهم بكل ما يعرفه. وعرّف عنه السوريون علناً على أنه جاسوس أميركي يتظاهر بأنه دبلوماسي، ومتمرّس في انقلاب «السي.آي.أيه.» في إيران، ومتآمر مع ضباط في الجيش السوري ومع سياسيين لقلب الحكومة، لقاء ملايين الدولارات من المساعدات الأميركية.

أدى الكشف عن «هذه المؤامرة الخرقاء على نحو خاص»[١٢]، بكلمات السفير الأميركي في سوريا، تشارلز يوست، إلى عواقب تتردّد أصداؤها اليوم. أعلنت الحكومة السورية رسمياً روكي ستون شخصاً غير مرغوب فيه. وشكلت تلك المرة الأولى التي يتم فيها طرد دبلوماسي أميركي من أي نوع ـ سواء أكان جاسوساً يعمل تحت تغطية، أم موظفاً صادق النية في وزارة الخارجية ـ من بلد عربي. وطردت الولايات المتحدة، في المقابل، السفير السوري في واشنطن، وهي أول عملية طرد لدبلوماسي أجنبي من واشنطن منذ الحرب العالمية الأولى. ندّدت الولايات المتحدة بـ «التلفيقات» السورية و«الافتراءات». وحُكم على متآمري ستون السوريين بالموت، بمن فيهم الرئيس السابق أديب الشيشكلي. وتبعت ذلك عملية تطهير لكل ضابط عسكري كانت له علاقة من أي نوع بالسفارة الأميركية.

أدى هذا الاضطراب إلى نشوء التحالف السوري ـ المصري: الجمهورية العربية المتحدة. وقد شكّلت موطئ قدم للشعور المعادي لأميركا في الشرق الأوسط. وبينما كانت سمعة أميركا تتهاوى في دمشق، تصاعد النفوذان السياسي والعسكري الروسيان. ولم يعد في وسع أي أميركي، بعد محاولة الانقلاب السيئة، أن يفوز بثقة الزعامة السورية التي بدأت تصبح استبدادية بازدياد.

حذّر تقرير ديفيد بروس إلى الرئيس أيزنهاور، من أن إحدى المشاكل مع العمليات المُحبَطة كهذه، هي في أنه «ليس في الإمكان نفيها بطريقة قابلة للتصديق». فاليد الأميركية بادية للجميع. وتساءل التقرير: أليس ثمة محاسبة «للكلفات الفورية للخيبات (الأردن، سوريا، مصر، وغيرها)»؟. ومن الذي «حسب حساب التأثيرات في موقعنا الدولي»؟ وهل «السي.آي.أيه.» «تفتعل

الاضطراب وتثير الشكوك في شأننا في الكثير من بلدان العالم اليوم؟ وما هي التأثيرات في تحالفاتنا الراهنة؟ وأين سنصبح غدا؟».

جئنا إلى السلطة في قطار «السي.آي.أيه.»

استدعى ألن دالاس نوابه في ١٤ أيار/مايو ١٩٥٨، إلى الاجتماع العادي الصباحي. حمل على ويسنر، ونصحه بالقيام بـ «محاسبة للنفس» في شأن تأدية الوكالة في الشرق الأوسط. فبالإضافة إلى المحاولة السيئة في سوريا، اندلعت، من دون سابق إنذار، أعمال شغب مناهضة للأميركيين في بيروت والجزائر. هل ذلك جزء من مخطط عالمي؟ تكهّن دالاس ومساعدوه بأن «الشيوعيين يقومون بالفعل في تحريك الخيوط» في الشرق الأوسط، وعبر العالم. ومع ازدياد الخوف من التطاول السوفياتي، أصبح هدف إنشاء طبقة من الدول الموالية لأميركا عند الخاصرة الجنوبية للسوفيات، أكثر إلحاحاً[١٣].

أُعطيت الأوامر لضباط «السي.آي.أيه.» بالعمل مع زعماء سياسيين، وقادة عسكريين، ووزراء أمنيين، وأصحاب النفوذ، عارضين المال والسلاح في مقابل تحالفات مناهضة للشيوعيين. إلا أن محطة بغداد كانت تغط في نوم عميق عندما قامت عصبة من ضباط الجيش، في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، بقلب نظام نوري السعيد الملكي الموالي للأميركيين. «أُخذنا كلّياً على حين غرّة»، قال السفير روبرت س. ف. غوردون، وكان يومها المسؤول السياسي في السفارة[١٤].

نبش النظام الجديد، بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم، في الأرشيف القديم للحكومة. أمسكوا بالبرهان بأن «السي.آي.أيه.» متضافرة مع الحكومة الملكية العراقية، تدفع جعالات لزعماء الحرس القديم. اعتُقل أميركي يعمل بموجب عقد مع «السي.آي.أيه.»، يدّعي أنه كاتب لوكالة واجهة، من أصدقاء الشرق الأوسط الأميركيين، في فندقه، واختفى بدون أن يترك أي أثر. وهرب ضباط محطة «السي.آي.أيه.»

أخذ ألن دالاس يطلق على العراق اسم «المكان الأكثر خطورة في

العالم»[١٥]. وشرع اللواء قاسم بالسماح للبعثات السوفياتية السياسية، والاقتصادية، والثقافية، بالدخول إلى العراق. «ليس لدينا دليل على أن قاسم شيوعي»[١٦]، أشارت «السي.آي.أيه.» على البيت الأبيض، لكن «ما لم يتم اتخاذ عمل لكبح جماح الشيوعية، أو ما لم يرتكب الشيوعيون خطأً تكتيكياً رئيسياً، فإن العراق قد يتحوّل إلى دولة تسيطر عليها الشيوعية». وقد اعترف قادة الوكالة في ما بينهم، بأنهم لا يملكون أدنى فكرة عما يجب فعله حيال ذلك التهديد: «القوة الفاعلة والمنظمة الوحيدة في العراق القادرة على مواجهة الشيوعية، هي الجيش. واستخباراتنا الأساسية حول الوضع الراهن في الجيش ضعيفة جداً»[١٧]. عانت «السي.آي.أيه.»، التي خسرت معركة في سوريا، وأخرى في العراق، عذابات الألم في شأن ما يجب القيام به لمنع الشرق الأوسط من أن يصبح «أحمر».

بعد الفادحة العراقية، استقال كيم روزفلت، رئيس قسم الشرق الأوسط في «السي.آي.أيه.» واستُبدل بجيمس كريتشفيلد، ضابط الارتباط الطويل الأمد للوكالة مع الجنرال رينهارد غهلن في ألمانيا.

سرعان ما أصبح كريتشفيلد مهتماً بحزب البعث العراقي بعدما حاول بطّاشوه قتل قاسم في معركة مدفعية غير متقنة. وقاد ضباطه مؤامرة اغتيال فاشلة أخرى[١٨]، مستخدمين محرمة مسممة، وهي فكرة لقيت تأييداً كبيراً عبر سلسلة الرتب في «السي.آي.أيه.» واستغرق الأمر خمس سنوات إلى ان دعمت الوكالة أخيرا انقلابا ناجحا في العراق باسم النفوذ الأميركي.

«جئنا إلى السلطة في قطار «السي.آي.أيه.»» قال علي صالح سعدي، وزير داخلية البعث في الستينيات[١٩]. وأحد ركاب هذا القطار كان سفاحاً متزايد الأهمية، اسمه صدام حسين.

١٥

حرب غريبة جدّاً

نظر الأميركيون إلى العالم، من المتوسط إلى الهادئ، باللونين الأسود والأبيض: ثمة حاجة، في كل عاصمة، من دمشق إلى جاكرتا، إلى يد أميركية صلبة لمنع «قطع الدومينو» من السقوط. إلا أن محاولة «السي.آي.أيه.»، في ١٩٥٨، الإطاحة بحكومة إندونيسيا، تمخّضت عن نتيجة عكسية من السوء بمكان، بحيث إنها أدّت إلى نهوض أكبر حزب شيوعي في العالم في خارج روسيا والصين. وسيتطلب الأمر حرباً حقيقية، أدت إلى مقتل الآلاف، لهزم هذه القوة.

قاتلت إندونيسيا، بعد الحرب العالمية الثانية، لنيل استقلالها عن الحكم الاستعماري الهولندي، وحظيت به في نهاية ١٩٤٩. وقد ساندت الولايات المتحدة استقلالها في ظل زعيمها الرئيس سوكارنو. دخلت البلاد بؤرة «السي.آي.أيه.» بعد الحرب الكورية، عندما أدركت الوكالة أن إندونيسيا تملك ربما ملايين البراميل من النفط غير المستخرج، وزعيماً غير راغب في الاصطفاف مع الولايات المتحدة، وحركة شيوعية صاعدة.

أطلقت الوكالة أولاً الانذار في شأن إندونيسيا في تقرير رُفع إلى مجلس الأمن القومي في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٥٣. وبعد سماع رواية «السي.آي.أيه.» المريعة، قام هارولد ستاسّن، وكان يومها مدير وكالة الأمن المشترك، وهي منظمة المساعدة العسكرية والاقتصادية التي خلفت مشروع مارشال، بإبلاغ نائب الرئيس نيكسون والأخوين دالاس، بأنه «ربما وجب عليهم التفكير في إجراءات

تتخذها هذه الحكومة تؤدي إلى سقوط النظام الجديد في إندونيسيا، بما أنه اتضح أنه نظام سيىء إلى درجة كبيرة[1]. وإذا كان مخروقاً بقوة من الشيوعيين، كما أن «السي.آي.أيه.» تعتقده، فمن الحكمة محاولة التخلص منه بدلاً من إنعاشه». لكن، عندما أوجز نيكسون، بعد ذلك بأربعة شهور، لضباط «السي.آي.أيه.» في واشنطن، بعد لقائه سوكارنو في خلال جولة عالمية، فإنه أفاد بأن الزعيم الإندونيسي يملك «سيطرة هائلة على الشعب؛ وهو مناهض للشيوعية بالكامل. وما من شك في أنه الورقة الأساسية التي للولايات المتحدة»[2].

شكك الأخوان دالاس بقوّة في ما يقوله نيكسون. فسوكارنو أعلن عن نفسه أنه ليس مقاتلاً في الحرب الباردة، ولا يوجد، في نظرهما، حياديون.

فكّرت «السي.آي.أيه.» جدّياً في قتل سوكارنو في ربيع ١٩٥٥. وروى ريتشارد بيسيل أنه «جرى تخطيط لمثل هذا الاحتمال»[3]. تطوّر التخطيط إلى حد تحديد الركيزة» ـ القاتل ـ «الذي تم الشعور بأنه يمكن تجنيده لهذا الغرض. لم يتم البلوغ بالمخطط، ولا إحكامه إلى الحد الذي يبدو معه قابلاً للتنفيذ. وتعلّقت الصعوبة بإمكان افتعال وضع يمكن فيه العميل المحتمل بلوغ الهدف».

الإفساد من خلال الاقتراع

دعا سوكارنو، بينما كانت الوكالة تتمعن في كيفية اغتياله، إلى مؤتمر دولي لاثنين وعشرين زعيماً آسيوياً، وأفريقياً، وعربياً في باندونغ، في إندونيسيا. طرحوا حركة عالمية من أمم حرّة في رسمها طريقها، غير منحازة لا إلى موسكو ولا إلى واشنطن. وبعد ١٩ يوماً على انتهاء أعمال مؤتمر باندونغ، تلقت «السي.آي.أيه.» أمراً جديداً من البيت الأبيض للقيام بعمل خفي، رقمه NSC 5518، ورُفعت عنه السرّية في ٢٠٠٣.

أجيز للوكالة استخدام «جميع الوسائل الخفية الممكنة»[4] ـ بما في ذلك جعالات لشراء المقترعين الإندونيسيين والسياسيين، والحرب السياسية لكسب

الأصدقاء وإفساد الأعداء المحتملين، والقوة شبه العسكرية ـ لمنع إندونيسيا من الانعطاف صوب اليسار.

ضخّت «السي. آي. أيه.» بموجب هذا القرار نحو مليون دولار إلى صناديق أشد منافسي سوكارنو السياسيين، حزب ماسجومي، في الانتخابات البرلمانية الوطنية للعام ١٩٥٥، وهي أول انتخابات تجرى في إندونيسيا ما بعد الاستعمار. فشلت العملية: فاز حزب سوكارنو، وحل الماسجومي ثانياً، والحزب الشيوعي الإندونيسي رابعاً بـ ١٦ في المئة من الأصوات. أصابت هذه النتائج واشنطن بالذعر. واستمرّت «السي. آي. أيه.» في تمويل أحزابها السياسية المختارة و«عدد من الشخصيات السياسية» في إندونيسيا، على ما رواه بيسيل في تأريخ شفوي[٥].

أُطلق الإنذار الأحمر من جديد في ١٩٥٦ عندما زار سوكارنو موسكو وبكين، بالإضافة إلى واشنطن. أنصت البيت الأبيض عندما قال سوكارنو إنه معجب كثيراً بالأسلوب الأميركي في الحكم. وشعر بأنه تعرّض للخيانة عندما لم يحتضن الديموقراطية الغربية نموذجاً لحكم إندونيسيا، وهي أرخبيل يمتد على أكثر من ثلاثة آلاف ميل، ويضم نحو ألف جزيرة مسكونة، مع ١٣ مجموعة إثنية رئيسية من بين سكان هم في غالبيتهم من المسلمين، ويبلغون نحو ثمانين مليون شخص: خامس أكبر دولة في العالم في الخمسينيات.

كان سوكارنو خطيباً خلاّباً يتحدث إلى الناس ثلاث مرات أو حتى أربع مرّات في الأسبوع، جامعاً شعبه بشعارات كلامية وطنية، محاولاً توحيد أمته. وأفاد قلّة من الأميركيين في إندونيسيا الذين يفهمون خطبه العامة، أنه يستشهد يوماً، بتوماس جيفرسون، ويخرج في اليوم التالي بنظرية شيوعية. لم تتمكن «السي. آي. أيه.» من فهم سوكارنو ابداً. بيد أن سلطة الوكالة تحت قرار مجلس الأمن القومي الرقم ٥٥١٨، كانت واسعة إلى حد أنه في وسعها تبرير أي عمل ضده تقريباً.

أُعجب آل أولمر، الرئيس الجديد لقسم الشرق الأقصى في

«السي.آي.أيه.»، بهذا النوع من الحرّية. وهذا هو سبب حبّه الوكالة. «جلنا في كل أنحاء العالم، وفعلنا ما أردناه»، قال بعد أربعين عاماً. «يا الله، كم استمتعنا»[٦].

عاش أولمر، وفقاً لروايته الخاصة، حياة الترف والعظمة بوصفه رئيس محطة أثينا، في منزلة بين منزلتي النجم الهوليوودي ورئيس الدولة. وساعد ألن دالاس في التمتع بافتتان رومانسي مع الملكة اليونانية فريديركا، وبملذات الإبحار مع أقطاب الملاحة. وشكل قسم الشرق الأقصى مكافأته.

قال أولمر في مقابلة، إنه كاد لا يعرف شيئاً عن إندونيسيا عندما تولّى القسم، إلا أنه كان له إيمان تام وثقة بألن دالاس. وهو يتذكّر بوضوح، محادثة مع فرانك ويسنر في نهاية ١٩٥٦، تماماً قبل إصابة ويسنر بالانهيار. واستذكر قوله إن الوقت حان للضغط بقوة على سوكارنو ووضع رجليه في النار.

أبلغه رئيس محطة ويسنر في جاكرتا أن إندويسيا أصبحت يانعة للإفساد الشيوعي. وكان رئيس المحطة، فال غوديل، قطباً من أقطاب صناعة المطاط ويملك حتماً موقفاً استعمارياً. تم إرسال لبّ برقياته التي تنفث ناراً[٧] من جاكرتا، في مذكرات حملها ألن دالاس إلى اجتماعاته الأسبوعية في البيت الأبيض في الأشهر الأربعة الأولى من ١٩٥٧: الموقف حرج... سوكارنو شيوعي بالسر... أرسلوا أسلحة. وقال غوديل لمقر القيادة، إن ضباط الجيش المتمردين في جزيرة سومطرا، يشكّلون مفتاح مستقبل الأمة. وأبرق: «السومطريون مستعدون للقتال، لكن تنقصهم الأسلحة»[٨].

أظهرت نتائج الانتخابات المحلية في تموز/يوليو ١٩٥٧، أن الحزب الشيوعي الإندونيسي مهيّأ لأن يصبح ثالث أقوى حزب سياسي في إندونيسيا، وقد تقدّم من المركز الرابع. وأفاد غوديل «أن سوكارنو يصرّ على إشراك الشيوعيين بسبب الملايين الستة من الإندونيسيين الذين صوّتوا للحزب الشيوعي». ووصفت «السي.آي.أيه.» هذا الصعود بأنه «مكتسبات مثيرة» تعطي

الشيوعيين «مكانة هائلة». فهل يتحوّل سوكارنو الآن صوب موسكو، أم صوب بكين؟ لم يملك أحد أي فكرة. . . ولو ضئيلة.

اختلف رئيس المحطة بقوة مع السفير الأميركي المغادر، هيوز كامينغ، الذي قال إن سوكارنو لا يزال منفتحاً على النفوذ الأميركي. وحارب غوديل، منذ البداية، السفير الجديد، جون م. ألّيسون، الذي سبق أن كان سفيراً في اليابان، ونائباً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى. وسرعان ما بلغ الاثنان حائطاً مسدوداً: هل تستخدم الولايات المتحدة التأثير الدبلوماسي، أم القوة المميتة في إندونيسيا؟

بدا، عند هذا الحد، أنه ما من أحد يعرف ماهية السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وفي ١٩ تموز/يوليو ١٩٥٧، «أوصى» نائب مدير الاستخبارات المركزية تشارلز بيرّ كابلّ، «بأن يحاول المدير من جديد معرفة ما هي سياسة وزارة الخارجية في شأن إندونيسيا»، بحسب ما جاء في محضر اجتماع قادة «السي.آي.أيه.»[٩] «وقد وافق المدير على القيام بهذا».

أوفد البيت الأبيض و«السي.آي.أيه.» مبعوثين إلى جاكرتا لتقدير الموقف. بعث ألن دالاس بآل أولمر؛ وأرسل الرئيس أيزنهاور مساعده الخاص للعمليات الخاصة ف. م. ديربورن جونيور، الذي أعلم رئيسه على مضض، بأنه لا يمكن الاعتماد تقريباً على جميع حلفاء أميركا في الشرق الأقصى. فتشانغ كاي ـ تشيك يقود «ديكتاتورية» في تايوان. والرئيس ديام يقوم «بالعرض وحده منفرداً» في فيتنام. وزعماء لاوس فاسدون. والكوري الجنوبي سينغمان ري فاقد إلى حد كبير، الشعبية.

لكن المشكلة في إندونيسيا في عهد سوكارنو مختلفة. فقد أفاد رجل الرئيس: أنها «الإفساد من خلال الاقتراع»:[١٠] أحد مخاطر ديموقراطية المشاركة.

اعتقد آل أولمر أن عليه العثور على أشد القوى عداءً للشيوعية في إندونيسيا، ومساندتها بالسلاح والمال[١١]. وتجادل هو وغوديل بحدّة مع السفير

أليسون أثناء «عصريّة طويلة وغير مثمرة» على شرفة مسكن السفارة في جاكرتا. رفض رجلا «السي.آي.أيه.» واقع أن جميع قيادة الجيش الإندونيسي تقريباً تبقى موالية احترافياً للحكومة، وهي شخصياً مناهضة للشيوعية، وسياسياً مؤيدة لأميركا. اعتقدا أن دعم «السي.آي.أيه.» ضباط الجيش المتمردين، يمكن أن ينقذ إندونيسيا من السيطرة الشيوعية. وفي إمكانهم، بمساندة من «السي.آي.أيه.»، إنشاء حكومة إندونيسية منشقة في سومطرا، ومن ثم الاستيلاء على العاصمة. فقد عاد أولمر إلى واشنطن مندّدا بسوكارنو بوصفه «ميؤوساً من صلاحه»، وبأليسون على أنه «ليّن حيال الشيوعية». وأثّر في موقفه هذا في الأخوين دالاس في الحالتين.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، بناءً على توصية من «السي.آي.أيه.»، تم نقل السفير أليسون، وهو واحد من أكثر المعاونين خبرة في وزارة الخارجية، من منصبه وأعيد تكليفه، بإشعار قصير، في تشيكوسلوفاكيا.

لاحظ أليسون: «تَمَتَّع فوستر وألن دالاس باحترام كبير لديّ، لكنهما لم يفهما الآسيويين جيداً، واتجها دوماً إلى الحكم عليهم من خلال المقاييس الغربية». وبالنسبة إلى مسألة إندونيسيا، «كان كلاهما نشيطاً، وأصرّا على القيام بأمر ما فوراً». وقد اقتنعا من خلال إفادات المحطّة، بأن الشيوعيين يفسدون الجيش الإندونيسي ويسيطرون عليه، وأنه في وسع الوكالة القضاء على هذا التهديد. لقد طبعت الوكالة دعوة موجهة إلى الذات... إلى التمر.

أبناء أيزنهاور

في اجتماع الأول من آب/أغسطس ١٩٧٥، لمجلس الأمن القومي، أثار تقرير «السي.آي.أيه.» انفجاراً محتقناً. قال ألن دالاس إن سوكارنو «اجتاز خط اللاعودة»[١٢]، وإنه «سيلعب من الآن وصاعداً اللعبة الشيوعية». التقط نائب الرئيس نيكسون الموضوع واقترح أنه «على الولايات المتحدة العمل من خلال تنظيم الجيش الإندونيسي لحشد المعارضة للشيوعية». وقال فرانك ويسنر إنه يمكن «السي.آي.أيه.» دعم تمرّد، لكنه لا يستطيع أن يضمن «السيطرة المطلقة»

عليه ما إن يبدأ: فـ «النتائج المتفجّرة ممكنة دائماً». وأبلغ، في اليوم التالي، زملاءه، أنه «أخذ يتم النظر إلى تدهور الوضع في إندونيسيا بأقصى درجات الخطورة في أعلى دوائر الحكومة الأميركية»[١٣].

ألقى فوستر دالاس بثقله كلّه وراء الانقلاب. عيّن السفير السابق هيوز كامينغ، الخارج منذ خمسة أشهر من إندونيسيا، مسؤولاً على لجنة يقودها ضباط من «السي.آي.أيه.» والبنتاغون. قدمت المجموعة توصياتها في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٥٧. وحثّت الولايات المتحدة على تزويد ضباط الجيش الساعين إلى السلطة، بالمساعدة العسكرية والدعم الاقتصادي، بطريقة خفية.

إلا أنها أثارت أيضاً أسئلة أساسية حول تبعات العمل الخفي الأميركي. ولاحظ أعضاء في مجموعة كامينغ، أنه يمكن تسليح ضباط الجيش المتمردين أن «يزيد من احتمال تفكك إندونيسيا، البلد الذي أُنشئ بدعم من الولايات المتحدة ومساندة منها[١٤]. وبما أن الإدارة الأميركية لعبت دوراً مهماً جداً في إنشاء إندونيسيا مستقلّة، فهي معرضة لفقدان الشيء الكبير في آسيا وبقية العالم إذا تفككت إندونيسا، وبخاصة، كما يبدو ذلك حتمياً، إذا عُرف في النهاية دورنا في هذا التفكك؟». لكن هذا السؤال لم يلق أي إجابة.

أمر أيزنهاور في ٢٥ أيلول/سبتمبر، وفق سجلات حصل عليها المؤلف، الوكالة بالإطاحة بإندونيسيا[١٥]. حدد ثلاث مهمّات: الأولى: توفير «الأسلحة وغيرها من المساعدات العسكرية» لـ «القادة العسكريين المناوئين لسوكارنو» في جميع أنحاء إندونيسيا؛ الثانية: «تقوية التصميم، والإرادة، والتماسك» لضباط الجيش المتمردين في جزيرتي سومطرا وسالاويزي؛ الثالثة: المساندة «والتحفيز على التحرّك لعناصر غير شيوعية أو مناوئة للشيوعية» بين الأحزاب السياسية في جزيرة جاوا الرئيسية.

بعد ذلك بثلاثة أيام، نشرت أسبوعية «بليتز» الإخبارية الهندية ـ منشورة تديرها الاستخبارات السوفياتية ـ موضوعاً مفصلاً طويلاً بعنوان مثير: «مؤامرة

أميركية للإطاحة بسوكارنو»؛ التقطت الصحافة الإندونيسية الموضوع وواكبته. وبقي العمل الخفي سراً لما يقارب اثنتين وسبعين ساعة.

أوفد ريتشارد بيسيل رحلات لطائرات «يو ـ ٢» فوق الأرخبيل، وخطّط لعملية تسليم أسلحة وذخائر بحراً وجوّاً: وجد الأمر فاتناً.

استغرق تخطيط العملية ثلاثة أشهر. طار ويسنر إلى محطة «السي.آي.أيه.» في سنغافورة[١٦]، عند الجانب الآخر تماماً من مضيق ملقة عند شمال سومطرا، لتجهيز عمليات الحرب السياسية. أنشأ أولمر مراكز قيادة عسكرية في قاعدة كلارك الجوية. وفي قاعدة سوبيك باي البحرية في الفيليبين، وهما أكبر قاعدتين أميركيتين في المنطقة. وجمع جون ميسون، رئيس عمليات أولمر في الشرق الأقصى، فريقاً صغيراً من الضباط شبه العسكريين في الفيليبين؛ الكثيرون منهم من قدامى عمليات «السي.آي.أيه.» الحربية في كوريا. أجروا اتصالاً مع حفنة من متمردي الجيش الإندونيسي في سومطرا، وبعدد من القادة الساعين إلى السلطة في جزيرة سولاويزي، شمال شرق جاوا. عمل ميسون مع البنتاغون لجمع شحنة من الأسلحة الرشاشة، والقربينات، والبنادق، وقاذفات الصواريخ، والمورتر، والقنابل اليدوية، والذخائر، بما يكفي ثمانية آلاف جندي، ووضع خططاً لإيصال الإمدادات إلى المتمردين في كل سومطرا وسولاويزي من البحر ومن الجو. انطلقت، في ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، أول شحنة سلاح من سوبيك باي على البارجة توماستون، متوجهة إلى سومطرا. ولحق ميسون بالسفينة في الغواصة بلوجيل التابعة لسلاح البحرية. وصلت الأسلحة في الأسبوع التالي إلى مرفأ بادانغ الشمالي في سومطرا، على بعد نحو ٢٢٥ ميلاً جنوب سنغافورة. حصلت عملية التفريغ بدون أي غطاء ولو صغير من السرّية. واستجلبت حشداً كبيراً جداً.

بث المتمردون الإندونيسيون في ١٠ شباط/فبراير، تحدّياً مثيراً لسوكارنو من محطة راديو حديثة في بادانغ مولتها «السي.آي.أيه.» طالبوا بحكومة جديدة وحظر الشيوعية في غضون خمسة أيام. ولما لم يسمعوا شيئاً من سوكارنو، الذي كان يعبث في حانات الغيشا وفي حمّامات طوكيو، أعلنوا عن إنشاء

حكومة ثورية، كان وزير الخارجية فيها مسيحياً يتحدّث الإنكليزية، اختارته «السي.آي.أيه.»، وهي التي تدفع له. تلوا مطالبهم عبر الراديو، وحذّروا القوى الخارجية من التدخل في الشؤون الداخلية لإندونيسيا. وفي غضون ذلك، جهّزت «السي.آي.أيه.» شحنات جديدة من الأسلحة من الفيليبين، وانتظرت الإشارات الأولى إلى انتفاضة شعبية ضد سوكارنو.

طلبت محطة «السي.آي.أيه.» في جاكرتا[١٧] من مقر القيادة، توقّع فترة طويلة، بطيئة، وواهنة، من المناورة السياسية، «تسعى فيها كل الفئات إلى تفادي العنف». بعد ذلك بثمانية أيام، في ٢١ شباط/فبراير، قصف سلاح الجو الإندونيسي محطات الراديو في وسط سومطرا ودمّرها، وحاصرت البحرية الإندونيسية مراكز المتمردين على طول الشاطئ. وما أعقبهما كان مخزياً لـ «السي.آي.أيه.»: انسحب عملاؤها الإندونيسيون ومستشاروهم الأميركيون إلى الأدغال.

بدت الوكالة غير دارية أن بعضاً من أكثر القادة قوة في الجيش الإندونيسي، قد تدرّبوا في الولايات المتحدة، ويشيرون إلى أنفسهم بوصفهم «أبناء أيزنهاور»[١٨]. إنهم الرجال الذين يحاربون المتمردين. فالجيش، بقيادة مناهضين للشيوعية، في حالة حرب مع «السي.آي.أيه.».

أفضل حشد يمكننا جمعه

بعد ساعات على سقوط القنابل الأولى على سومطرا، تحادث الأخوان دالاس عبر الهاتف. قال فوستر إنه «يؤيد القيام بأمر ما، لكن يصعب تصوّر ماذا، أو كيف»[١٩]، وتساءل أنه إذا أصبحت الولايات المتحدة «متورطة في حرب أهلية» في الجانب الآخر من العالم، فكيف يمكن تبرير ذلك للكونغرس والشعب الأميركيين؟ أجاب ألن بأن القوات التي جمعتها «السي.آي.أيه.» هي «أفضل حشد أمكننا جمعه»، وحذّر من أنه «لا يوجد الكثير من الوقت للنظر في كل ما علينا النظر فيه».

عندما اجتمع مجلس الأمن القومي ذلك الأسبوع، أبلغ ألن دالاس الرئيس أن «الولايات المتحدة واجهت مشاكل صعبة جداً» في إندونيسيا[٢٠].

وتقول محاضر مجلس الأمن القومي إنه «قدّم صورة للتطورات الأخيرة، معظمها وارد في الصحف»، ومن ثم حذّر من أنه: «إذا تم القضاء على حركة الانشقاق، فإنه يشعر بأنه من شبه المؤكد أن إندونيسيا ستنحاز إلى الشيوعيين». وقال فوستر دالاس، «لا يمكننا تحمّل ترك هذا يحصل». وأقرّ الرئيس بأنه «سيكون علينا التدخّل في حال حصول تهديد فعلي بالسيطرة الشيوعية». وقد شكّلت إنذارات «السي.آي.أيه.» الخاطئة أساس الاعتقاد بهذا التهديد.

أبلغ ألن دالاس أيزنهاور بأن قوات سوكارنو «ليست متحمّسة كثيراً في الهجوم على سومطرا». ولمّا تمض ساعات على ذلك حتى انهمرت التقارير من إندونيسيا على مقر قيادة «السي.آي.أيه.» تقول إن هذه القوات ذاتها قد «قصفت حصون المنشقين، وحاصرت فلولهم، في جهد أوّل لسحق التمرّد بجميع الوسائل المتوفّرة»، وهي «تخطط للقيام بإنزالات جوية وبحرية ضد سومطرا الوسطى».

تجمعت السفن الحربية الأميركية على مقربة من سنغافورة، على بعد عشر دقائق بالطائرة النفاثة من ساحل سومطرا. ورمت حاملة الطائرات الأميركية «تيكونديروغا»، وعلى متنها كتيبتان من المارينز، المرساة إلى جانب مدمّرتين وطرّاد ثقيل. وفي التاسع من آذار/مارس، وفي حين كانت مجموعة القتال البحرية تتجمع، أدلى فوستر دالاس ببيان علني دعا فيه صراحة إلى الثورة على «الحكم الاستبدادي الشيوعي» في ظل سوكارنو. وردّ الجنرال ناسوتيون، قائد جيش سوكارنو، بإرسال كتيبتين من الجنود على أسطول من ثماني سفن يرافقها سرب من سلاح الجو. وتجمعت القوات قبالة الساحل الشمالي لسومطرا، على بعد دزينة من الأميال من ميناء سنغافورة.

أبرق السفير الأميركي الجديد في إندونيسيا، هوارد جونز، إلى وزير الخارجية بأن الجنرال ناسوتيون مناهض موثوق للشيوعية، وبأنه لا أمل للمتمرّدين بالانتصار. كان ذلك أشبه بوضع رسالة في زجاجة ورميها في البحر.

كان رئيس العمليات لدى الجنرال ناسوتيون، العقيد أحمد ياني، واحداً من «أبناء أيزنهاور»: موالياً متكرساً للأميركيين، وهو متخرج من المساق الدراسي للقيادة والأركان في الجيش الأميركي في فورت ليفنورث، وصديق للرائد جورج بنسون الملحق العسكري الأميركي في جاكرتا. طلب العقيد، الذي يحضّر لهجوم رئيسي على المتمرّدين في سومطرا، من الرائد بنسون، تزويده بخرائط لمساعدته في مهمته. وقام الرائد بذلك بسرور، وهو غير عارف بعملية «السي.آي.أيه.» الخفية.

في قاعدة كلارك التابعة لسلاح الجو في الفيليبين، استدعى قادة «السي.آي.أيه.» فريقاً جوياً من ٢٢ رجلاً بقيادة طيارين بولنديين يطيرون لمصلحة الوكالة منذ العملية الألبانية الوئيدة قبل ذلك بثماني سنوات. حملت أولى رحلاتهم الجوية خمسة أطنان من الأسلحة والذخائر إلى جانب لفائف من الأموال النقدية للمتمردين في سومطرا. وقد اكتشفتها إحدى دوريات الجنرال ناسوتيون بعد لحظات من دخولها المجال الجوي الإندونيسي. واستمتع مغاوير ناسوتيون بالتقاط كل واحد من الأقفاص التي ألقاها طيارو «السي.آي.أيه.»

وإلى الشمال، في سولاويزي، دارت رحى حرب «السي.آي.أيه.» على القدر ذاته من الجودة. انطلق طيّارو البحرية الأميركية في مهمة استطلاعية لتحديد أهداف محتملة على سولاويزي. وأظهر المتمردون المدعومون من الأميركيين مراسهم باستخدام المدافع الرشاشة من عيار ١٢,٧ ملم التي زودتهم بها الوكالة لإسقاط الطائرة. وبالكاد نجا الفريق من عملية هبوط اضطرارية على بعد نحو ٢٠٠ ميل شمالاً في الفيليبين. حصل الطيارون البولنديون على أهداف جديدة من رحلة الاستطلاع. وصلت مجموعتان تضم كل منهما طاقماً من رجلين إلى مهبط سولاويزي. كانت طائرتاهما المعاد تجديدهما من نوع «بي - ٢٦»، مجهزتين بست قنابل من وزن خمسمئة رطل ورشاشات ثقيلة. وقد هاجمت إحدى الطائرتين بنجاح مطاراً عسكرياً إندونيسياً. وتحطّمت الثانية عند الإقلاع. ونتيجة ذلك، عاد بولندیان «شجاعان» إلى زوجتيهما البريطانيتين في الديار في داخل كيسين للجثث. وموّهت رواية أُعدّت بعناية، موتهما.

بات آخر أمل لـ «السي.آي.أيه.» معقوداً على المتمردين في سولاويزي والجزر المحيطة بها في المدى الشمالي الشرقي البعيد للأرخبيل. ففي آخر أيام نيسان/أبريل، دمّر جنود سوكارنو المتمردين في سومطرا. هرب ضباط «السي.آي.أيه.» الخمسة الموجودون على الجزيرة للنجاة بحياتهم. توجهوا جنوباً إلى أن فرغت سيارتهم الجيب من الوقود، ثم مشوا عبر الأدغال إلى الشاطئ، يسرقون الطعام من دكاكين صغيرة في قرى معزولة لإيقات أنفسهم. وما إن بلغوا المحيط حتى صادروا قارب صيد، وحددوا موقعهم بواسطة اللاسلكي لمحطة «السي.آي.أيه.» في سنغافورة. وجاءت الغواصة «تانغ» التابعة لسلاح البحرية لنجدتهم.

أبلغ ألن دالس بوجوم أيزنهاور في ٢٥ نيسان/أبريل، أن المهمة في سومطرا «انهارت عمليّاً». وقال المدير للرئيس إنه «يبدو أنه ليست هناك إرادة للقتال من جانب القوى المتمردة في الجزيرة. عجز زعماء الانشقاق عن تزويد جنودهم بفكرة عن السبب الذي يقاتلون من أجله. كانت حرباً غريبة جداً»[٢١].

أدانوني بالقتل

أراد أيزنهاور أن يُبقي هذه العملية قابلة للنفي. أمر بأنه لا يمكن أي أميركيين التورط «والمشاركة في أي عمليات ذات طابع عسكري في إندونيسيا»[٢٢]... وقد عصاه دالاس.

شرع طيارو «السي.آي.أيه.» في ١٩ نيسان/أبريل ١٩٥٨ في قصف الجزر الخارجية لإندونيسيا بالرصاص الغزير. وُصفت قوات الجو التابعة للوكالة في موجزات مكتوبة قدمتها «السي.آي.أيه.» للبيت الأبيض بأنها «طائرات منشقة»: طائرات إندونيسية يطير بها إندونيسيون، وليست طائرات أميركية يغير بها عناصر من الوكالة. أحد الأميركيين الذين طاروا بهذه الطائرات، كان آل بوب. تمرّس، وهو في الخامسة والعشرين، لمدة أربع سنوات، في المهمات السرّية الخطيرة. وتميّز بالشجاعة والحمية.

«استمتعتُ بقتل شيوعيين»، قال في ٢٠٠٥. «أحببت قتل الشيوعيين بأي طريقة يمكنني فيها النيل منهم»[٢٣]

طار في مهمته الأولى إلى إندونيسيا في ٢٧ نيسان/أبريل. وعلى مدى الأسابيع الثلاثة التالية، قصف هو ورفاقه من طياري «السي.آي.أيه.» أهدافاً عسكرية ومدنية في قرى شمال شرق أندونيسيا، ومرافئها وفي الأول من أيار/مايو، ابلغ ألن دالاس أيزنهاور ان الغارات الجوية «كادت تكون فعّالة أكثر من اللازم، حيث إنه نتج عنها غرق باخرة شحن بريطانية وأخرى بنامية»[٢٤]. وأفادت السفارة الأميركية أن مئات المدنيين قُتلوا. وبعد ذلك بأربعة أيام، روى دالاس بعصبية لمجلس الأمن القومي أن عمليات القصف قد «أثارت غضباً كبيراً»[٢٥] لدى الشعب الإندونيسي، لأنه تم اتهام طيارين أميركيين بأنهم كانوا على أجهزة التحكّم. كانت الاتهامات صحيحة، لكن رئيس الولايات المتحدة ووزير الخارجية، نفياها في العلن.

أنذرت السفارة الأميركية والأميرال فيليكس ستامب قائد القوات الأميركية في المحيط الهادئ، واشنطن بأن عملية «السي.آي.أيه.» تشكل فشلاً واضحاً. طلب الرئيس من مدير الاستخبارات المركزية تبرير نفسه. تهافت فريق من الضباط في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» على جمع تسلسل زمني لعملية إندونيسيا. لاحظوا أنه برغم أن «تعقيد» المهمة و«حساسيتها» كانا هائلين ويتطلبان «تنسيقاً دقيقاً»، فقد تم ارتجالها «كل يوم بيومه». وبسبب حجمها ومداها، «استحال القيام بها كعملية خفية بالكامل»[٢٦]. وانتهك فشل السرّية ميثاق الوكالة والأوامر المباشرة الصادرة عن الرئيس.

أمضى آل بوب الساعات الأولى من يوم الأحد ١٨ أيار/مايو فوق مدينة أمبون في شرق إندونيسيا، يُغرق سفينة تابعة للبحرية، ويقصف سوقاً، ويدمّر كنيسة. بلغ الرقم الرسمي للقتلى ستة مدنيين و١٧ ضابطاً عسكرياً. ثم إن بوب شرع في مطاردة سفينة وزنها سبعة آلاف طن تنقل أكثر من ألف جندي إندونيسي. لكن طائرته «البي ـ ٢٦»، أصبحت في مرمى مدافع السفينة المضادة للطائرات. كذلك تعقبتها مقاتلة من سلاح الجو الإندونيسي. انفجرت طائرته

وقد أصيبت من الخلف ومن الأسفل في لهب من نار على ارتفاع ستة آلاف قدم. أمر بوب عامل الراديو الإندونيسي معه بالقفز، وألقى بغطائه، وضغط على زر إطلاق المقعد، وقفز. وبينما هو يتدحرج إلى الوراء، اصطدمت ساقه بذيل طائرته. انشق فخذه عند الردف. أخطأت قنبلته الأخيرة سفينة الجنود بنحو أربعين قدماً، منقذة مئات الأنفس. سقط بهدوء عائداً إلى الأرض، وهو يتلوّى ألماً في أسفل مظلته. كان بوب يحمل في جيب بزة الطيران ذي السحّاب، سجلاته الشخصية، وتقارير ما بعد رحلات العمل، وبطاقة انتساب إلى نادي الضباط في كلارك فيلد. وعرّفت عنه الوثائق بأنه ـ ضابط أميركي يقصف إندونيسيا بأوامر من حكومته. كان يمكن أن تطلق عليه النار عند رؤيته. لكن تم وضعه قيد التوقيف.

«أدانوني بالقتل وحكموا علي بالإعدام»، قال[٢٧]. «قالوا إنني لست سجين حرب، ولا ينطبق عليّ ميثاق جنيف».

بلغت أخبار فقدان بوب في المعركة مقر قيادة «السي.آي.أيه.» مساء يوم الأحد نفسه. تشاور مدير الاستخبارات المركزية مع شقيقه، واتفقا على أنهما خسرا هذه الحرب.

في ١٩ أيار/مايو، بعث ألن دالاس ببرقية سريعة إلى ضباطه في إندونيسيا، والفيليبين، وتايوان، وسنغافورة: توقّفوا، اقطعوا المال، أوقفوا الإمداد بالسلاح، احرقوا الدليل، وانسحبوا. ويعكس محضر ذلك الاجتماع الصباحي في مقر القيادة، سخطه حيال «الورطة الفاضحة»[٢٨].

حان الوقت لتبدّل الولايات المتحدة مواقعها. قامت وزارة الخارجية، بأسرع ما يمكن، بعكس المسار. وعكست إفادة «السي.آي.أيه.» فوراً التغيير. قالت الوكالة، في ٢١ أيار/مايو، إن الجيش الإندونيسي يقمع الشيوعية، وإن سوكارنو يتحدّث ويتصرف بأساليب مؤاتية للولايات المتحدة[٢٩]. وها أن أصدقاء «السي.آي.أيه.» السابقين هم الذين يهددون المصالح الأميركية.

«كانت العملية بلا شك فاشلة كلّياً»، قال ريتشارد بيسيل[٣٠]. ولم يمتنع

سوكارنو من الإشارة إليها لبقية أيامه إلا في ما ندر. فقد عرف أن «السي.آي.أيه.» حاولت الإطاحة بحكومته، وعرف جيشه بذلك، وعرفت بالأمر أيضاً المؤسسة السياسية في إندونيسيا. وكانت النتيجة النهائية تقوية شيوعيي إندونيسيا الذين تصاعد نفوذهم وسلطتهم على امتداد السنوات السبع التالية.

«يقولون إن إندونيسيا شكّلت إخفاقاً»، استفكر آل بوب بمرارة. «إلا أننا أذقناهم طعم الحنظل. قتلنا الآلاف من الشيوعيين، حتى ولو أن نصفهم ربما لم يعرفوا حتى ما معنى الشيوعية».

السجل المعاصر الوحيد لخدمة بوب في إندونيسيا هو كناية عن سطر واحد في تقرير من «السي.آي.أيه.» إلى البيت الأبيض، بتاريخ ٢١ أيار/مايو ١٩٥٨. وهو كذبة، وجاء فيه بالكامل: «إسقاط طائرة «بي ـ ٢٦»، للمنشقين في خلال هجوم على أمبون في ١٨ أيار/مايو»[٣١].

مشاكلنا تصبح أكبر في كل سنة

شكّلت إندونيسيا المهمة الأخيرة لفرانك ويسنر بوصفه رئيساً للجهاز الخفي. عاد من الشرق الأقصى في حزيران/يونيو ١٩٥٨ عند حافة صحته العقلية، وفي نهاية الصيف أصيب بالجنون[٣٢]. والتشخيص هو «الهوس الذهاني». كانت الأعراض موجودة منذ سنوات: الرغبة في تغيير العالم بقوة الإرادة؛ الخطابات الصارخة؛ المهمات الانتحارية. لم يتمكن أطباء النفس ولا أدوية العلاج النفسي الجديدة من المساعدة، فكان العلاج بالصدمة الكهربائية. وعلى مدى ستة أشهر جرى تثبيت رأسه داخل ملزمة، وحُقن بتيّار يكفي لإشعال مصباح بقوة مئة شمعة. عاد أقل إشراقاً وأقل جرأة، ومضى ليخدم رئيساً لمحطة لندن.

بعد انهيار عملية إندونيسيا، تعرّج دالاس خلال سلسلة من اجتماعات مجلس الأمن القومي، مطلقاً تحذيرات غامضة ومنذرة بالشر في شأن التهديد من موسكو. أخذ الرئيس يتساءل بصوت مرتفع إذا كانت «السي.آي.أيه.» تعرف ما تفعله. وسأل مرّة بذهول: ألن، أتحاول أن تخيفني لتجعلني أشرع في حرب؟

في مقر القيادة، سأل دالاس ضبّاطه الأرفع شأناً إلى أين يجب أن يذهب بالتحديد للعثور على استخبارات عن الاتحاد السوفياتي. وقال في اجتماع لنوابه في ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٥٨، إنه «محتار في أمره في شأن أي جزء من الوكالة يجب أن يلجأ إليه عندما يرغب في الحصول على معلومة محددة عن الاتحاد السوفياتي»[٣٣]. لم تملك الوكالة أي واحد يُعتدّ به. فإفادتها عن الاتحاد السوفياتي لم تكن سوى تفقيع كلام محض.

نظر عضو «السي.آي.أيه.» أبوت سميث، وهو واحد من أفضل محلليها، وأصبح لاحقاً رئيس مكتب التقديرات الوطنية في الوكالة، إلى الوراء إلى عقد من العمل عند نهاية ١٩٥٨، وكتب: «بنينا لأنفسنا صورة عن الاتحاد السوفياتي، وكان على كل ما يحصل أن يتم على نحو ينطبق مع تلك الصورة. لا يمكن مقدّري الاستخبارات أن يرتكبوا خطيئة أبشع من هذه»[٣٤].

تلقى أيزنهاو، في ١٦ كانون الأول/ديسمبر، تقريراً من مجلس مستشاريه حول الاستخبارات، ينصحه بالقيام بإصلاح شامل لـ «السي.آي.أيه.». فقد خشي أعضاؤه أن تكون الوكالة «عاجزة عن القيام بأحكام موضوعية على معلوماتها الاستخبارية الخاصة، وكذلك على عملياتها»[٣٥]. وناشدوا، بقيادة وزير الدفاع السابق روبرت لوفيت، الرئيس سحب العمليات الخفية من يد ألن دالاس.

دفع دالاس، شأنه دائماً، كل الجهود لتغيير «السي.آي.أيه.». أبلغ الرئيس أن الوكالة لا تعاني أي خلل. وفي عودته إلى مقر القيادة أبلغ كبار موظفيه أن «مشاكلنا تصبح أكبر في كل سنة»[٣٦]. وعد الرئيس بأن استبدال ويسنر سيصلح مهمات الجهاز السري وتنظيمه. فلديه الرجل المناسب تماماً للوظيفة.

١٦

كان يكذب «من تحت» و«من فوق»

أصبح ريتشارد بيسيل، في ١ كانون الثاني/يناير ١٩٥٩، رئيساً للجهاز الخفي[1]. وفي اليوم ذاته، جاء فيدل كاسترو إلى السلطة في كوبا. ويصف تأريخ سرّي لـ «السي.آي.أيه.»، أزيح الستار عنه في ٢٠٠٥، بالتفصيل، كيف انبرت الوكالة للتهديد[2].

نظرت الوكالة نظرة طويلة وقاسية إلى فيدل. لم تعرف ماذا تفعل حياله. «يشعر الكثيرون من المراقبين الجدّيين، بأن نظامه سينهار في غضون أشهر»، بحسب ما توقّع جيم نويل، رئيس محطة «السي.آي.أيه.» الذي أمضى ضباطه معظم الوقت يقدّمون الإفادات من هافانا كاونتري كلوب[3]. وحاجج البعض، في مقر القيادة، بأن كاسترو يستأهل أسلحة الوكالة ومالها. واقترح آل كوكس، رئيس القسم شبه العسكري، «إقامة اتصال سرّي مع كاسترو»، وعرض الأسلحة والذخائر عليه لإقامة حكومة ديموقراطية[4] وأبلغ كوكس رؤساءه أنه في وسع «السي.آي.أيه.» شحن أسلحة إلى كاسترو على سفينة يديرها طاقم كوبي. وبحسب كوكس، فإن «وسيلة المساعدة الأكثر ضماناً، هي إعطاء المال لكاسترو الذي سيمكنه عندها شراء أسلحته الخاصة»، وأن «تركيبة من السلاح والمال ستكون ربّما هي الأفضل». كان كوكس مدمناً على الكحول، وربما تلبّد تفكيره، إلا أن أكثر من قلّة من رفاقه الضباط شعروا بالطريقة التي شعر بها. «كنت، أنا وفريقي، جميعنا من الفيديليستاس»، في ذلك الوقت، كما قال روبرت رينولدز، رئيس مكتب عمليات الكاريبي في «السي.آي.أيه.»، بعد سنوات كثيرة لاحقة[5].

في نيسان/أبريل وأيار/مايو ١٩٥٩، عندما زار كاسترو المنتصر حديثاً الولايات المتحدة، قام ضابط في «السي.آي.أيه.» بتقديم إيجاز وجاهي إلى كاسترو في واشنطن. ووصف فيدل بأنه «زعيم روحي جديد للقوى الديموقراطية والمعادية للديكتاتورية في أميركا اللاتينية»(٦).

لا يجب أن تظهر يدنا

استشاط الرئيس غضباً لاكتشافه أن «السي.آي.أيه.» أساءت الحكم على كاسترو. وكتب أيزنهاور في مذكّراته أنه، «برغم أن خبراء الاستخبارات عندنا حاولوا، على مدى عدد من الأشهر، ركوب الموجة ضد التيار»، فإن «الأحداث أخذت تدفعهم بالتدريج إلى الاستنتاج أن الشيوعية، بمجيء كاسترو، تغلغلت في هذا النصف من الكرة الأرضية»(٧).

بعث ريتشارد بيسيل إلى هذا الاستنتاج، في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٩، بمذكّرة إلى ألن دالاس يقترح فيها «إيلاء تفكير دقيق لإزالة فيدل كاسترو»(٨). سطّر دالاس بالقلم تصحيحاً حاسماً على الاقتراح: شطب كلمة «إزالة»، وهي كلمة يشوبها أكثر من إيحاء بالقتل، واستبدلها بالإبعاد عن كوبا، وأعطى الموافقة.

طلب دالاس من بيسيل في ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٦٠، تنظيم قوة منتدبة خاصة للإطاحة بكاسترو. اختار بيسيل شخصياً الكثيرين من الأناس أنفسهم الذين أطاحوا بحكومة غواتيمالا قبل ست سنوات، وقد خدعوا الرئيس أيزنهاور وجاهة في شأن الانقلاب. اختار غير المجدي تريسي بارنز للحرب السياسية والنفسية، والموهوب ديف فيليبس للدعاية، والمتحمّس والغيور ريب روبرتسون للتدريب شبه العسكري، والقليل الجودة بلا هوادة إي. هوارد هانت لإدارة مجموعات الجبهة السياسية.

وسيكون رئيسهم جاك إسترلين الذي سبق أن أدار «الغرفة الحربية» في واشنطن لعملية النجاح. كان إسترلين رئيس محطة في فنزويلا عندما وقعت عيناه

للمرة الأولى على فيدل كاسترو في أوائل ١٩٥٩. راقب الكومندانتي الشاب يجول في كاراكاس، وقد خرج للتو من انتصاره في رأس السنة على الديكتاتور فولجنسيو باتيستا، وسمع الجموع تهتف لكاسترو كالفاتح.

«شاهدت ـ ويمكن، يا للعنة، كل من له عينين أن يرى ـ أن قوة جديدة وشديدة التأثير تتحرك في نصف الكرة هذا»، قال إسترلين. و«يجب التعامل معها»(٩).

عاد إسترلين إلى مقر قيادة «السي.آي.أيه.» في كانون الثاني/يناير ١٩٦٠ ليحصل على تعيينه رئيساً للقوة المنتدبة لكوبا. أخذت المجموعة شكلها بوصفها خلية سرّية داخل «السي.آي.أيه.» وجاء كل المال، وجميع المعلومات، والقرارات كلها للقوة المنتدبة لكوبا عبر بيسيل. لم يهتم كثيراً بعمل جواسيسه، والأقل من ذلك لجمع الاستخبارات من داخل كوبا. ولم يتوقّف أبداً لتحليل ما الذي سيحدث في حال نجح الانقلاب على كاسترو، أو فشل. «لا أعتقد أنه تم التفكير أبداً في هذه الأنواع من الأمور، بأي مرتبة من المراتب»، قال إسترلين. «أعتقد أن ردّ فعلهم الأول كان، يا إلهي، لدينا شيوعي محتمل هنا، ومن الأفضل لنا إخراجه بالطريقة التي أخرجنا بها أربنز» في غواتيمالا.

لم يتكلّم بيسيل أبداً تقريباً حول كوبا مع ريتشارد هيلمس الذي يأتي بعده مباشرة في إمرة الجهاز الخفي. فالرجلان يكرهان بعضهما البعض، ولا يجمع بينهما ولا درهم واحد من الثقة. جادل هيلمس في فكرة واحدة رشحت من القوة المنتدبة لكوبا. إنها مراوغة دعائية: سيظهر عميل كوبي، درّبته «السي.آي.أيه.»، على شواطئ اسطنبول مدّعياً أنه سجين سياسي قفز للتو من سفينة سوفياتية. سيعلن أن كاسترو يستعبد الآلاف من أبناء شعبه ويشحنهم إلى سيبيريا. وعُرفت الخطة بـ «الكوبي الأحمق»(١٠). وقضى عليها هيلمس.

في ٢ آذار/مارس ١٩٦٠ ـ قبل أسبوعين على موافقة الرئيس أيزنهاور على عمل خفي ضد كاسترو ـ أطلع دالاس نائب الرئيس نيكسون على العمليات

الجارية بالفعل. وقرأ دالاس من تقرير من سبع صفحات موقع بالأحرف الأولى من اسم بيسيل، بعنوان «ما الذي نفعله في كوبا»، محدداً أعمال حرب اقتصادية، وتخريب، ودعاية سياسية، وخطة لاستخدام «عقار يُدسّ في طعام كاسترو، سيجعله يفكّر بطريقة غير عقلانية، بحيث إن ظهوراً علنياً له سيؤدّي إلى نتائج مدمّرة». أيد نيكسون ذلك كلّيا.

عرض دالاس وبيسيل مخططاتهما على أيزنهاور ونيكسون في البيت الأبيض في اجتماع ضمهم أربعتهم عند الثانية والنصف من بعد ظهر ١٧ آذار/مارس ١٩٦٠. لم يقترحا اجتياح الجزيرة. أبلغا أيزنهاور أنه في وسعهما الإطاحة بكاسترو بخفّة اليد. سينشئان «معارضة كوبية مسؤولة، جذّابة، وموحدة»، بقيادة عملاء مجنّدين. وستقوم إذاعة سرّية ببث الدعاية إلى هافانا لإشعال انتفاضة. وسيقوم ضباط من «السي.آي.أيه.» في معسكر تدريب للجيش الأميركي على حرب الأدغال في بنما بتدريب ستين كوبياً للتسلل إلى الجزيرة. وستلقي لهم «السي.آي.أيه.» بالأسلحة والذخائر.

وعد بيسيل بأن فيدل سيسقط بعد ذلك بستة شهور إلى ثمانية أشهر. كان التوقيت حسّاساً في شكل مبرح: سيأتي يوم الانتخاب بعد سبعة أشهر ونصف الشهر. ففي الأسبوع السابق، فاز السيناتور جون ف. كنيدي ونائب الرئيس نيكسون بهامشين كبيرين في الانتخابات الأولية في نيوهامشاير.

دوّن سكريتير أيزنهاور الرسمي، الجنرال أندرو غودباستر، ملاحظات حول الاجتماع. «قال الرئيس إنه لم يسمع بمخطط أفضل... المشكلة الكبرى هي التسريب والأمن... على كل واحد أن يكون مستعدّا للقَسَم إنه لم يسمع به... يجب ألا تظهر يدنا في أي أمر يتم القيام به». لم تكن الوكالة لتحتاج إلى تذكير بأن كل عمل خفي، بموجب ميثاقها، يتطلب سرّية مضمونة جداً بحيث لا يمكن أي دليل أن يوصِل إلى الرئيس. إلا أن أيزنهاور أراد التأكّد من أن «السي.آي.أيه.» ستبذل ما في وسعها لإبقاء هذا الأمر طي الكتمان.

سندفع ثمن تلك الكذبة

التحم الرئيس وديك بيسيل في صراع متزايد الحدّة حول السيطرة على واحد من أكبر الأسرار على الإطلاق: طائرة التجسس «يو ـ ٢». لم يسمح أيزنهاور بأي تحليق فوق الأراضي السوفياتية منذ محادثاته مع خروشتشيف في كامب ديفيد قبل ذلك بستة أشهر. وقد عاد خروشتشيف من واشنطن مشيداً بشجاعة الرئيس في سعيه إلى التعايش السلمي. أراد أيزنهاور لـ «روح كامب ديفيد» أن تشكّل إرثه.

أخذ بيسيل يقاتل بأشد ما يمكن لاستئناف المهمات السرّية. صار الرئيس ممزقاً. فهو أراد حقّاً الاستخبارات التي تلتقطها «اليو ـ ٢».

إنه يتوق إلى طمر «فجوة الصواريخ»: المزاعم الخاطئة لـ «السي.آي.أيه.»، وسلاح الجو، والمقاولين العسكريين، والسياسيين من الحزبين، بأن السوفيات حققوا تقدماً يتوسع باستمرار في منظومة الأسلحة النووية. لم تكن تقديرات «السي.آي.أيه.» الرسمية للقوة العسكرية السوفياتية تستند إلى الاستخبارات، بل إلى السياسة والتخمين. فمنذ ١٩٥٧، و«السي.آي.أيه.» ترسل تقارير مرعبة إلى أيزنهاور، بأن حشد السوفيات للصواريخ العابرة للقارات المزودة برؤوس نووية، هو أسرع من الترسانة الأميركية، وأكبر منها. وفي ١٩٦٠، توقّعت الوكالة تهديداً قاتلاً للولايات المتحدة. أبلغت الرئيس أنه بحلول ١٩٦١، سيصبح لدى الروس خمسمئة صاروخ عابر للقارات جاهزة للضرب. استخدمت القيادة الاستراتيجية لسلاح الجو، هذه التقديرات أساساً لمخطط الضربة الأولى السرّي الذي يقضي باستخدام خمسة آلاف رأس نووي لتهديم كل مدينة وكل موقع عسكري متقدم من وارسو إلى بكين. لكن موسكو لم تملك خمسمئة رأس نووي موجهة إلى الولايات المتحدة؛ بل كانت لها أربعة[١١].

سبق للرئيس أن أصيب بالقلق على مدى خمس سنوات ونصف السنة من أن «اليو ـ ٢» ذاتها قد تسبب حرباً عالمية ثالثة. فلو أن الطائرة سقطت فوق الاتحاد السوفياتي، لأسقطت معها الأمل بالسلام. وفي الشهر الذي تلى

حوارات كامب ديفيد مع خروشتشيف، رفض الرئيس مهمة مقترحة جديدة لـ «اليو ـ ٢»، فوق الاتحاد السوفياتي، أبلغ ألن دالاس مرة أخرى، بصراحة قاسية، أن سبر نيات السوفيات من خلال التجسس أهم بالنسبة إليه من اكتشاف تفاصيل حول قدراتهم العسكرية. فالجواسيس وحدهم، وليس الأدوات، يمكنهم أن يخبروه حول نيات السوفيات بالهجوم.

قال الرئيس إنه، بدون هذه المعرفة، فإن تحليقات «اليو ـ ٢» تشكل «وخزات دبوس استفزازية، وقد توحي لهم بفكرة أننا نحضّر جدّياً خططاً لضرب منشآتهم»، من خلال هجوم مباغت(١٢).

من المقرر أن يعقد أيزنهاور لقاء قمة مع خروشتشيف في ١٦ أيار/مايو ١٩٦٠ في باريس. خشي أن ركيزته العظمى ـ سمعته الصادقة ـ ستتبدّد في حال سقوط «اليو ـ ٢»، في حين أن الولايات المتحدة، بكلماته الخاصة، «منخرطة في نقاشات صادقة ظاهرياً» مع السوفيات.

وحده الرئيس، من الناحية النظرية، يملك سلطة إعطاء الأمر بمهمة لـ «اليو ـ ٢». إلا أن بيسيل هو الذي يدير البرنامج، وكان نكداً في شأن وضع خطط تحليقه في الملف. حاول التملّص من السلطة الرئاسية من خلال العمل سرّاً على تلزيم عمليات التحليق للبريطانيين، أو للصينيين الوطنيين. وكتب في مذكراته أن ألن دالاس قد هاله أن يعلم بأن أول تحليق لـ «اليو ـ ٢» مرّ مباشرة من فوق موسكو ولينينغراد. فالمدير لم يعرف ذلك أبداً، وبيسيل لم ير من المناسب أن يخبره.

جادل على مدى أسابيع مع البيت الأبيض قبل أن يستسلم أيزنهاور في النهاية، ويوافق في ٩ نيسان/أبريل ١٩٦٠، على التحليق فوق الاتحاد السوفياتي من باكستان. شكّل الأمر، في الظاهر، نجاحاً. لكن السوفيات علموا بأن مجالهم الجوي انتُهك من جديد، ووضعوا أنفسهم في حالة استنفار عالية. حارب بيسيل لتحليق واحد إضافي. حدد الرئيس موعداً أقصى للإنجاز في ٢٥ نيسان/أبريل. حلّ التاريخ ومضى، وكانت الغيوم تغطي الأهداف الشيوعية.

التمس بيسيل المزيد من الوقت، فأعطاه أيزنهاور مهلة ستة أيام. وسيكون الأحد الذي يلي هو الموعد النهائي لطلعة جوية قبل قمة باريس. حاول بيسيل عندها الدوران من وراء ظهر البيت الأبيض، بالذهاب إلى وزير الدفاع ورئيس الأركان العامة المشتركة ليكسب دعمهما لتحليق آخر بعد. وأهمل، في غمرة حماسته، التخطيط لتفادي الكارثة.

وفي الأول من أيار/مايو، وعلى ما خشي منه الرئيس، تم إسقاط «اليو ـ ٢» في روسيا الوسطى. اعتُقل طيار «السي.آي.أيه.»، فرانسيس غاري باورز، حيّاً. كان سي. دوغلاس ديللون وزير الخارجية بالوكالة في ذلك اليوم. وروى ديللون، «طلب منّي الرئيس العمل مع ألن دالاس. كان علينا العمل للخروج بنوع من الإعلان». ولصدمة كليهما، أعلنت وكالة الفضاء الأميركية، «الناسا»، أن طائرة رصد جوي فُقدت في تركيا. كانت تلك القصة الغطاء الذي اعتمدته «السي.آي.أيه.»: فإما أن مدير الاستخبارات المركزية لم يعرف أبداً في شأنه، وإما أنه نسي أمره كلّيا.

«لم نتمكن من إدراك كيف حصل هذا»، قال ديللون. «لكن، كان علينا إخراج أنفسنا منه».

ثبت أن ذلك صعب. التزم البيت الأبيض ووزارة الخارجية بتغطية الأمر، خادعين الشعب الأميركي على مدى أسبوع في ما يتعلّق بالتحليق. أخذت كذباتهما تنكشف أكثر فأكثر. وجاء آخرها في ٧ أيار/مايو: «لم يُعطَ أي إذن بمثل هذه الرحلة». حطّم ذلك نفسية أيزنهاور. وقال ديللون «لم يكن في وسعه تحميل الملامة كلها لألن دالاس، لأنه سيبدو كأن الرئيس لم يعرف بما يجري في الحكومة».

دخل أيزنهاور في ٩ أيار/مايو المكتب البيضاوي، وقال بصوت مرتفع: «أريد أن أستقيل». فقد أدرك ملايين المواطنين الأميركيين، للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، أن رئيسهم يمكن أن يخدعهم باسم الأمن القومي. سقط مبدأ النفي القابل للتصديق. تحطّمت القمة مع خروشتشيف، والانفراج

الوجيز في الحرب الباردة عاد ليصبح جليداً. حطّمت طائرة تجسس «السي.آي.أيه.» فكرة الانفراج لنحو عقد من الزمن. فأيزنهاور وافق على المهمة النهائية على أمل تكذيب الفجوة في الصواريخ. إلا أن التستير على التحطّم جعله يبدو كذاباً. وقال أيزنهاور، بعد تقاعده، إن الحسرة الوحيدة على رئاسته هي «الكذبة التي قلناها في شأن «اليو ـ ٢». لم أدرك كم أن الثمن الذي دفعناه لقاء هذه الكذبة سيكون مرتفعاً»[١٣].

علم الرئيس بأنه لن يستطيع ترك الرئاسة بروحية السلام والمصالحة الدوليين. وها إنه ينوي الآن تولّي حفظ النظام في ما أمكن من أجزاء الكرة الأرضية قبل تركه السلطة.

أصبح صيف ١٩٦٠ موسماً للأزمات المتواصلة لـ «السي.آي.أيه.» فقد تضاعفت الأسهم الحمراء التي تعني مناطق حامية في الكاريبي، وأفريقيا، وآسيا، على الخرائط التي جلبها ألن دالاس ورجاله إلى البيت الأبيض. فالحسرة على إسقاط «اليو ـ ٢» فتحت الباب أمام غضب فتّاك.

ضاعف ديك بيسيل، أولاً، من خطط «السي.آي.أيه.» للإطاحة بكوبا. أنشأ محطة جديدة لـ «السي.آي.أيه.» في كورال غيبلز، فلوريدا، باسم رمزي هو ويف (الموجة). أبلغ نائب الرئيس نيكسون أنه سيحتاج إلى قوة من خمسمئة منفي كوبي مدرّب ـ ارتفع العدد عن الستين رجلاً قبل بضعة أسابيع ـ لقيادة القتال. إلا أن مركز حرب الأدغال التابع للجيش في بنما، لا يستطيع استيعاب المئات من المجندين الخام. لذا، أوفد بيسيل جاك إسترلين جنوباً إلى غواتيمالا، حيث قام بمفرده بالتفاوض على اتفاق سرّي مع الرئيس مانويل إيديغوراس فوانتس، وهو جنرال متقاعد ومخاتل ماهر. وأصبح المكان الذي استحصل عليه معسكر التدريب الرئيسي لخليج الخنازير، وله مطاره الخاص، وماخوره الخاص، ومبادئه المسلكية الخاصة. ووجده كوبيو «السي.آي.أيه.» «لا يفي بالغرض أبداً»، بحسب ما أفاد العقيد في المارينز جاك هاوكينز، كبير المخططين شبه العسكريين لدى إسترلين. عاشوا «في ظروف معسكر سجن»، أنتجت «تعقيدات سياسية»، بات «من الصعب جداً على «السي.آي.أيه.»

التعامل معها». وبرغم أن المعسكر كان معزولاً، فإن الجيش الغواتيمالي كان عارفاً به، وكاد وجود قوة أجنبية على أرضه يؤدي إلى انقلاب عسكري على رئيسه.

ثم إنه، في أواسط آب/أغسطس، أبرم ديك بيسيل المؤدّب، الفاتن، عقداً مع المافيا ضد فيدل كاسترو. فقد ذهب إلى العقيد شيفيلد أدواردز، رئيس الأمن في «السي.آي.أيه.»، وطلب منه أن يضعه على اتصال مع قاتل يمكنه تنفيذ ضربة. وأبلغ هذه المرة دالاس الذي أعطى موافقته. واستنتج مؤرخ في الوكالة: «من المحتمل أن بيسيل اعتقد أن كاسترو سيموت على يدي قاتل ترعاه «السي.آي.أيه.» قبل حتى أن تطأ الكتيبة الشاطئ»، في خليج الخنازير(١٤).

عمل رجال بيسيل، الذين لم يعرفوا شيئاً عن مخطط المافيا، على مؤامرة اغتيال ثانية. والمسألة هي كيفية وضع قاتل مدرّب من «السي.آي.أيه.» على مسافة قريبة من فيدل: «هل يمكننا أن نجعل ريب روبرتسون يقترب منه؟ هل يمكننا الحصول على كوبي مخيف حقّاً، أعني كوبيّاً هائجاً؟»، قال ديك دراين، رئيس عمليات القوة المنتدبة لكوبا. وجاء الجواب دوماً بالنفي. كانت ميامي تعجّ بآلاف المنفيين الكوبيين المستعدين للانضمام إلى عملية «السي.آي.أيه.» الخفية التي أخذت تُعرف اضطراد، إلا أنهم حفلوا بجواسيس لكاسترو الذي اطلع على قدر معقول من مخططات «السي.آي.أيه.» بعدما أمضى عميل لـ «الأف.بي.آي.» يدعى جورج ديفيس بضعة أشهر يستمع إلى كوبيين منحلّي اللسان في مقاهي ميامي وباراتها، قدّم إلى ضابط في «السي.آي.أيه.» في محطة الموجة نصيحة ودّية: تستحيل الإطاحة بكاسترو بواسطة هؤلاء الكوبيين الثرثارين. الأمل الوحيد هو في إرسال المارينز. أوصل زميله في «السي.آي.أيه.» الرسالة إلى مقر القيادة. فتم تجاهلها.

ناقش دالاس وبيسيل في ١٨ آب/أغسطس ١٩٦٠ مع الرئيس أيزنهاور، القوة المنتدبة لكوبا في جلسة منفردة استغرقت أقل من عشرين دقيقة. طالب بيسيل بـ ١٠,٧٥ ملايين دولار للشروع في التدريبات شبه العسكرية للكوبيين الخمسمئة في غواتيمالا. وافق أيزنهاور، بشرط واحد: «ما دام رؤساء الأركان

المشتركة، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، و«السي.آي.أيه.»، يعتقدون أن لدينا حظّاً وافراً بالنجاح»، في «تحرير الكوبيين من هذا الطاغوت». وعندما حاول بيسيل إثارة فكرة إنشاء قوة عسكرية أميركية لقيادة الكوبيين في المعركة، قاطعه دالاس مرّتين، متحاشياً النقاش، ومخالفاً.

حذّر الرئيس ـ وهو الرجل الذي قاد أكبر اجتياح سرّي في التاريخ الأميركي ـ قادة «السي.آي.أيه.» من «خطر القيام بتحركات خاطئة» أو «من الشروع في أي أمر قبل أن نصبح مستعدين».

تفادياً لكوبا أخرى

في وقت لاحق من اليوم ذاته، وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي، أمر الرئيس مديرَ الاستخبارات المركزية بحذف الرجل الذي رأت فيه «السي.آي.أيه.» «كاسترو أفريقيا»، باتريس لومومبا، رئيس وزراء الكونغو[(١٥)].

انتخب لومومبا في شكل حرّ، وناشد الولايات المتحدة المساعدة بينما بلاده تتخلّص من الحكم الاستعماري البلجيكي الغاشم، وتعلن استقلالها في صيف ١٩٦٠. لم تأت المساعدة الأميركية أبداً، لأن «السي.آي.أيه.» نظرت إلى لومومبا بوصفه غريراً خدرته وأفسدته الشيوعية. لذا، عندما جاءت القوات الخاصة البلجيكية جوّاً لإعادة تأكيد سيطرتها على العاصمة، قَبِلَ لومومبا قدوم طائرات سوفياتية، وشاحنات، و«تقنيين» لدعم حكومته التي بالكاد تعمل.

في الأسبوع الذي وصل فيه الجنود البلجيكيون، بعث دالاس بلاري ديفلين، رئيس المحطة في بروكسيل، ليتولى مسؤولية مركز «السي.آي.أيه.» في عاصمة الكونغو، ويقدّر لومومبا بوصفه هدفاً للعمل الخفي. في ١٨ آب/ أغسطس، وبعد ستة أسابيع في البلاد، أبرق ديفلين إلى مقر القيادة: «الكونغو عرضة لجهد شيوعي كلاسيكي للسيطرة، سواء أكان لومومبا شيوعياً فعلياً، أم يلعب اللعبة الشيوعية، فثمة القليل من الوقت المتبقي للقيام بعمل تفادياً لكوبا أخرى. إنه سلّم ألن دالاس، في اليوم عينه، فحوى هذه الرسالة إلى اجتماع

مجلس الأمن القومي. واستناداً إلى شهادة سرّية أمام الكونغرس أدلى بها بعد ذلك بسنوات مدوِّن الملاحظات في مجلس الأمن القومي، روبرت جونسون، فإن الرئيس أيزنهاور استدار عندها صوب دالاس، وقال على نحو صريح، إنه تجب إزالة لومومبا. وبعد صمت مطبق لـ١٥ ثانية أو ما يقاربها، استؤنف الاجتماع. أبرق دالاس إلى ديفلين بعد ذلك بثمانية أيام: «ثمة استنتاج واضح ومحدّد في الدوائر العليا هنا، بأنه إذا استمر المريض في الإمساك بالسلطة العليا، فإن النتيجة الحتمية ستكون الفوضى في أحسن الحالات، وفي أسوئها ستمهّد الطريق لاستيلاء الشيوعيين على الكونغو... نَخْلُص إلى أن إزالته يجب أن تشكل هدفاً عاجلاً وأولياً، وفي ظل الظروف الراهنة سيشكّل ذلك أولية مطلقة لعملنا الخفي. لذلك، فإننا نرغب في منحكم سلطة أوسع».

جلب سيدني غوتليب، كبير الكيميائيين الأحنف القدم في «السي.آي.أيه.»، للكونغو، حقيبة يد تُستخدم في الطائرات تحتوي على قارورات من السموم القاتلة، وسلّمها إلى رئيس المحطة. وقد احتوت على حقنة جلدية لضخ النقاط القاتلة في الطعام، أو الشراب، أو أنبوب معجون الأسنان. قضت مهمة ديفلين بقتل لومومبا. أجرى الرجلان محادثة عصبيّة في شقة ديفلين طوال ليل ١٠ أيلول/ سبتمبر تقريباً. وقال ديفلين في شهادة سرّية تحت القَسَم، رُفعت عنها السرّية في ١٩٩٨، «سألت بأوامر من صدرت هذه التعليمات»، وكان الجواب: «الرئيس».

شهد ديفلين بأنه أقفل على السموم في خزانة مكتبه الحديدية وعانى الأمرّين في شأن ماذا سيفعل، واستذكر تفكيره: سأكون ملعوناً إذا كنت سأترك ذلك يقبع في الجوار. وعندها، أخذ قارورات السم ودفنها عند ضفة نهر الكونغو. قال إنه خجل من الأمر بقتل لومومبا. وعرف أن في جعبة «السي.آي.أيه.» وسائل أخرى.

اختارت الوكالة بالفعل زعيم الكونغو المقبل: جوزف موبوتو، «الرجل الوحيد في الكونغو القادر على التصرّف بحزم»»، بحسب ما قال دالاس للرئيس في اجتماع مجلس الأمن القومي في ٢١ أيلول/سبتمبر. وقد سلّمته «السي.آي.أيه.» ٢٥٠ ألف دولار في أوائل تشرين الأول/أكتوبر، تبعتها في

تشرين الثاني/نوفمبر شحنات من الأسلحة والذخائر[١٦]. اعتقل موبوتو لومومبا. وبعبارات ديفلين: سلّمه إلى أيدي «ألدّ عدو». أفادت محطة «السي.آي.أيه.» في إليزابيتفيل، في عمق قلب الكونغو، أن «ضابطا بلجيكياً من أصل فلامانكي أعدم لومومبا برشقة من نيران رشيشه» قبل ليلتين من تسلم الرئيس المقبل للولايات المتحدة منصبه. أحكم موبوتو، بمساندة غير متردّدة من «السي.آي.أيه.»، سيطرته الكاملة على الكونغو بعد خمس سنوات من الصراع على السلطة. كان الحليف المفضّل للوكالة في كل أفريقيا، ومركز انطلاق العمل الأميركي الخفي في مختلف أنحاء القارة إبان الحرب الباردة. تولى الحكم على مدى ثلاثة عقود بوصفه واحداً من أعنف ديكتاتوريي العالم، وأكثرهم فساداً، سارقاً مليارات الدولارات من مدخول رواسب البلاد الضخمة من الماس، والمعادن، والمعادن الاستراتيجية، ذابحاً الكثيرين للاحتفاظ بسلطته.

وضع لا يُحتمل بالمطلق

اتضح لنائب الرئيس نيكسون، مع اقتراب انتخابات ١٩٦٠، أن «السي.آي.أيه.» أبعد من أن تكون مستعدة لمهاجمة كوبا. وفي نهاية أيلول/سبتمبر، أعطى نيكسون بعصبيّة تعليمات للقوة المنتدبة: «لا تقوموا بأي شيء الآن؛ انتظروا حتى ما بعد الانتخابات». أعطى هذا التأجيل ميّزة حاسمة لفيدل كاسترو. أبلغه جواسيسه بأن الاجتياح المدعوم أميركياً، قد يكون وشيكاً، فحشد قواته العسكرية والاستخبارية، قامعاً بقوّة المنشقين السياسيين الذين أملت «السي.آي.أيه.» أن يشكّلوا قوات صدم للانقلاب. أخذت المقاومة الداخلية لكاسترو في التلاشي في ذلك الصيف، إلا أن «السي.آي.أيه.» لم تبد أبداً أي مبالاة بما يجري حقيقة في الجزيرة. طلب تريسي بارنز، بصفة شخصية، إجراء استطلاع للرأي في كوبا، أظهر أن الشعب يدعم كاسترو في شكل ساحق. لم تعجبه النتائج فنبذها.

شكّل جهد الوكالة لإسقاط أسلحة للمتمردين في الجزيرة، إخفاقا. في ٢٨ أيلول/سبتمبر، هبطت «بالة» من الأسلحة الرشاشة والبنادق ومسدسات الكولت

من عيار ٩ ملم مخصصة لمئة مقاتل على كوبا من طائرة لـ «السي. آي. أيه.» انطلقت من غواتيمالا. أخطأت عملية الإسقاط هدفها بسبعة أميال. استولت قوات كاسترو على الأسلحة، واعتقلت عميل «السي. آي. أيه.» الكوبي الذي كان سيلتقطها، وقتلته رمياً بالرصاص. ضيّع الطيار طريق العودة وهبط في جنوب المكسيك، حيث صادرت الشرطة المحلية الطائرة. ومن بين مهمات الطيران التي تقارب الثلاثين، نجحت ثلاث فقط كحد أقصى.

بحلول تشرين الأول/أكتوبر، أدركت «السي. آي. أيه.» أنها لا تكاد تعرف شيئاً عن القوى المناهضة لكاسترو داخل كوبا. قال جاك إسترلين «لم نكن واثقين من أنهم غير مخترقين» من جواسيس كاسترو. وها إنه تيقّن الآن من أنه لا تمكن الإطاحة بكاسترو بالفتنة المحكمة التدبير.

استذكر بيسيل «قمنا بمجهود رئيسي للاختراق وإعادة التموين، ولم ننجح في هذه الجهود»[١٧]. وقرر أن «ثمة حاجة إلى عمل صادم»: إلى اجتياح شامل.

لم تمتلك «السي. آي. أيه.» لا الموافقة الرئاسية ولا القوات اللازمة للقيام بتلك المهمة. وأبلغ بيسيل إسترلين أن الرجال الخمسمئة الجاري تدريبهم في غواتيمالا، يشكلون «عدداً غير مناسب على نحو لا يُعقل». أدرك الرجلان أنه وحدها قوة أكبر بكثير، يمكنها النجاح ضد كاسترو الذي يملك جيشاً من ستين ألف رجل، مع دبابات ومدفعية إضافة إلى جهاز أمن داخلي متزايد في البطش، وفعّال.

كان بيسيل على اتصال بالمافيا على خط هاتفي، وبالبيت الأبيض على خط هاتفي آخر. أخذت الانتخابات الرئاسية تلوح. وعند حد ما في خلال الأسبوع الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠، انهار لبّ مفهوم العملية الكوبية تحت الضغط. حكم إسترلين على المخطط بأنه غير قابل للتنفيذ، وعلم بيسيل بأنه على حق، لكنه لم يبلغ أحداً. وانسحب، في الأشهر والأسابيع التي سبقت الاجتياح، إلى الخداع.

«كان يكذب من تحت. ويكذب من فوق»، قال جاك إسترلين: من تحت،

على قوة «السي.آي.أيه.» المنتدبة لكوبا، ومن فوق على الرئيس، وعلى الرئيس الجديد المنتخب.

هزم جون كنيدي ريتشارد نيكسون في تشرين الثاني/نوفمبر بأقل من ١٢٠ ألف صوت. اعتقد بعض الجمهوريين أن الانتخابات سُرقت في الفناء السياسي لشيكاغو. وأشار غيرهم إلى شراء أصوات في غرب فرجينيا. وضع ريتشارد نيكسون اللوم على «السي.آي.أيه.». كان مقتنعاً، عن خطأ، بأن «ليبراليي جورجتاون»، أمثال دالاس وبيسيل، ساعدوا كنيدي سرّاً بمعلومات داخلية عن كوبا قبل مناظرة رئاسية تلفزيونية حاسمة.

بادر الرئيس المنتخب كنيدي إلى الإعلان عن إعادة تعيين ج. إدغر هوفر وألن دالاس. جاء هذا القرار من والده، وقد قام بذلك من أجل الحماية السياسية والشخصية. فهوفر عارف ببعض أسرار آل كنيدي الدفينة. ما في ذلك العبث الجنسي للرئيس المنتخب مع مشتبه فيها بأنها جاسوسة نازية في خلال الحرب العالمية الثانية ـ. وقد تقاسم هذه المعرفة مع دالاس. عرف كنيدي بكل هذا، لأن والده، وهو عضو سابق في مجلس مستشاري أيزنهاور للاستخبارات الخارجية، أخبره ذلك بثقة العارف.

في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر، التقى الرئيس المنتخب بدالاس وبيسيل في موئل والده في بالم بيتش، فلوريدا. قبل ذلك بثلاثة أيام، تلقى بيسيل تقريراً حاسماً من إسترلين حول العملية الكوبية. «يُنظر الآن إلى مفهومنا الأساسي على أنه غير قابل للتطبيق في مواجهة السيطرات التي أقامها كاسترو»، قال إسترلين. «فلن يحصل الاضطراب الداخلي الذي أعتُقد في السابق أنه ممكن، كما أن الدفاعات لا تسمح بنوع الضربة التي تمّ التخطيط لها في البداية. كذلك، يُنظر الآن إلى مفهومنا الثاني (قوة من ١,٥٠٠ ـ ٣,٠٠٠ رجل لاحتلال شاطئ مع مهبط للطائرات)، على أنه غير ممكن التطبيق، إلا إذا تم في عمل مشترك بين الوكالة ووزارة الدفاع».

بعبارات أخرى، سيكون على الولايات المتحدة أن ترسل المارينز للإطاحة بكاسترو.

روى إسترلين «جلست هناك في مكتبي في «السي.آي.أيه.»، وقلت: يا للعنة، آمل أن يمتلك بيسيل ما يكفي من الشجاعة ليُبلغ جون كنيدي بالوقائع». لكن بيسيل لم يتفوّه أبداً بأي كلمة. وأصبح المخطط غير القابل للتنفيذ مهمة ممكنة.

أبلغ بيسيل مؤرخاً في الوكالة، أن إيجاز بالم بيتش وضع قادة «السي.آي.أيه.» في «موقع غير منيع. فملاحظاتهم التي دوّنوها للاجتماع، تُظهر أنهم نووا مناقشة انتصاراتهم الماضية ـ وبخاصة غواتيمالا ـ وعدد غفير من العمليات الجارية في كوبا، وجمهورية الدومينيكان، وأميركا الوسطى والجنوبية، وآسيا. لكنهم لم يفعلوا. فقد طلب منهم الرئيس أيزنهاور، قبل الاجتماع، اقتطاع الأمر للوصول إلى «روزنامة ضيقة». فسّروا ذلك بأنه حظر على مناقشة أي أمر رشح عن اجتماعات مجلس الأمن القومي. ونتيجة لذلك، ضاعت معلومات حاسمة في عملية الانتقال من رئيس إلى آخر.

لم يوافق أيزنهاور أبداً على اجتياح لكوبا. لكن كنيدي لم يعرف ذلك. فهو لم يعرف إلا ما أبلغه إياه دالاس وبيسيل.

ثماني سنوات من الهزيمة

قام ألن دالاس، على مدى ثماني سنوات، بدفع جميع الجهود التي بذلها أناس من الخارج لتغيير «السي.آي.أيه.». فلديه سمعة يحميها: سمعة الوكالة وسمعته. فبإنكاره كل شيء، واعترافه بلا شيء، أخفى الحقيقة لستر إخفاقات عملياته الخفية.

فدالاس، أقلّه من ١٩٥٧ وما بعدها، تحاشى أصوات العقل والاعتدال، وتجاهل التوصيات الملحّة باطراد من مستشاري الرئيس لشؤون الاستخبارات، وأزاح جانباً تقارير من مفتشه العام، وعامل مرؤوسيه بازدراء. «كان قد أصبح،

في ذلك الوقت، رجلاً هرماً تعباً»[١٨]، كان يمكن سلوكه الاحترافي «أن يكون، وهو ما كان عليه عادة، محاولة الوصول إلى الحد الأقصى»، على ما قاله ديك ليمان، أحد أفضل المحللين الذين حصلت عليهم الوكالة أبداً. «معاملته لنا عكست حسّه للقيم. كان مخطئاً، طبعاً، لكن كان علينا التعايش مع الأمر».

أمكن الرئيس أيزنهاور، في أيامه الأخيرة في السلطة، أن يدرك أنه لم يملك جهاز استخبارات جديراً بهذا الاسم. توصّل إلى هذه النتيجة بعد قراءته في كتلة سميكة من التقارير التي طلبها على أمل تغيير «السي.آي.أيه.».

رُفع الأول في ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٠، وهو من وضع مجموعة الدراسة المشتركة التي أنشأها بعد تحطّم «اليو ـ ٢» لمراقبة مشهد الاستخبارات الأميركية. وشكّل صورة مريعة من الانجراف والاختلال. قال إن دالاس لم يواجه أبداً مشكلة هجوم مباغت يشنّه السوفيات. ولم ينسّق أبداً بين الاستخبارات العسكرية والتحليل المدني. لم يُنشئ قطُّ القدرة على توفير إنذار في خلال أزمة. وقد أمضى ثماني سنوات يركّب عمليات خفية بدلاً من التمكن من الاستخبارات الأميركية.

ثم إن مجلس مستشاري الرئيس للنشاطات الاستخبارية الخارجية، أصدر في ٥ كانون الثاني/يناير ١٩٦١، التوصيات النهائية للتقرير. وقد دعت هذه التوصيات إلى «إعادة تقويم شامل» للعمل الخفي: «نحن غير قادرين على الاستنتاج، في مقياس الأمور، أن جميع برامج العمل الخفي التي قامت بها «السي.آي.أيه.» حتى الآن، تستأهل المخاطرة بالإنفاق الضخم بالرجال، والمال، وغير ذلك من المصادر المعنية»[١٩]. وحذّر من أن «تركيز «السي.آي.أيه.» على النشاطات السياسية والنفسية والمتعلقة بالعمل الخفي، قد اتجه إلى إلهائها على نحو كبير عن تنفيذ مهمتها الأساسية القاضية بجمع الاستخبارات».

حثّ المجلسُ الرئيسَ على التفكير في «الفصل التام» لمدير الاستخبارات المركزية عن «السي.آي.أيه.» وقال إن دالاس عاجز عن القيام بواجباته في

تنسيق الاستخبارات الأميركية: وضع رموز وكالة الأمن القومي وتفكيكها؛ القدرات الجديدة لأقمار التجسس والاستطلاع التصويري الفضائي؛ المصاخبات التي لا تنتهي بين الجيش، والبحرية، وسلاح الجو.

«ذكَّرتُ الرئيس بأنه انصرف مراراً كثيرة إلى هذه المشكلة العامة»، كتب مساعده لشؤون الأمن القومي، غوردون غراي، بعدما راجع التقرير مع إيزنهاور[٢٠] و«أعلم»، أجاب آيك. «لقد حاولت، وأنا لا استطيع تغيير ألن دالاس».

أصرّ ألن دالاس على الرئيس في الاجتماعات الأخيرة لمجلس الأمن القومي لأيزنهاور، أن «الكثير قد تحقّق». وقال إن كلّ شيء تحت السيطرة في شكل جيّد. لقد ركّزت الجهاز الخفي. ولم يسبق للاستخبارات الأميركية أن كانت أكثر فطنة ومهارة، والتنسيق والتعاون بأفضل مما كانا عليه أبداً. وقال إن مقترحات مجلس الاستخبارات التابع للرئيس لا تُعقل، إنها جنون، وهي غير قانونية. وقال مذكّراً الرئيس، «أنا مسؤول بموجب القانون عن تنسيق الاستخبارات. ولا يمكنني تفويض هذه المسؤولية». واعتبر أنه «بدون قيادتي لأصبحت الاستخبارات الأميركية جسماً يطوف في الهواء».

في النهاية، انفجر دوايت أيزنهاور غضباً وإحباطاً. «بنية تنظيم استخباراتنا معيبة»، قال لدالاس. فلا معنى لها، وتجب إعادة تنظيمها، وعلينا القيام بذلك منذ وقت طويل. لم يتبدّل شيء منذ بيرل هاربور. «لقد عانيت منذ ثماني سنوات، هزيمة من جراء هذا»، قال رئيس الولايات المتحدة. وأكد أنه سيترك «إرثاً من رماد» لخليفته[٢١].

الجزء الثالث

قضايا خاسرة: «السي.آي.أيه.»

في ظل كنيدي وجونسون: ١٩٦١ ــ ١٩٦٨

١٧

لم يعرف أحد ما العمل

تم انتقال الإرث صباح ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٦١ بلقاء الجنرال العجوز والسيناتور الشاب، وحدهما في المكتب البيضوي. وبإحساس متوقّع للمتاعب، أعطى أيزنهاور كنيدي لمحة عن تدابير الأمن القومي: الأسلحة النووية، والعمليات الخفية.

خرج الرجلان واجتمعا في غرفة الحكومة مع الوزراء السابقين والحاليين للخارجية والدفاع والمال. «طلب السيناتور كنيدي من الرئيس رأيه في ما يتعلّق بمساندة الولايات المتحدة عمليات حرب العصابات في كوبا، حتى لو أدت هذه المساندة إلى تورّط علني للولايات المتحدة»[1]، بحسب ما سجّل أحد واضعي ملاحظات الاجتماع. «ردّ الرئيس بالإيجاب، كونه لا يمكننا أن نترك الحكومة الراهنة هناك تستمرّ. . . ونصح الرئيس أيضاً بأنه لو أمكننا، في الوقت نفسه، التعاطي مع جمهورية الدومينيكان، فإن ذلك سيساعد الوضع». شكّلت فكرة أيزنهاور، بأن انقلاباً كاريبياً يمكنه أن يوازن انقلاباً آخر، معادلة لم يسبق لأحد في واشنطن أن استنبطها.

وفي الوقت الذي نهض فيه كنيدي صباح اليوم التالي ليقسم اليمين، كان قد أصبح للزعيم اليميني الفاسد لجمهورية الدومينيكان، الجنرال يسيمو رافايل تروخيّو، ثلاثون عاماً في السلطة. وقد ساعده في البقاء فيها الدعم الذي تلقّاه من حكومة الولايات المتحدة ومن مجتمع الأعمال الأميركي. حكم بالقوة، والخداع، والخوف؛ واستلذّ في شنق أعدائه على الكلاّبات التي تُعلّق عليها اللحوم. «امتلك غرف التعذيب الخاصة به، وقام بالاغتيالات السياسية»[2]،

بحسب قول القنصل العام هنري ديربورن، الدبلوماسي الأميركي الرفيع المستوى في جمهورية الدومينيكان منذ بداية ١٩٦١. «لكنه حافظ على النظام والأمن، ونظّف المكان ونقّاه من الأوساخ والأقذار، وقام بالأشغال العامة، ولم يزعج الولايات المتحدة. لذا، كان الأمر تماماً بالنسبة إلينا»، إلا أن تروخيّو أصبح لا يُحتمل، قال ديربورن. «وفي حوالى الوقت الذي وصلت فيه إلى هناك، بلغ فجوره حدّاً كبيراً من السوء، بحيث حصل الكثير من الضغط من مجموعات سياسية مختلفة، ومجموعات الحقوق المدنية وغيرها، ليس في الولايات المتحدة وحسب، بل في جميع أنحاء نصف الكرة الأرضية أيضاً، بضرورة القيام بأمر ما حيال هذا الرجل».

تُركت مسؤولية السفارة الأميركية في سانتو دومينغو لديربورن بعدما قطعت الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية بجمهورية الدومينيكان في آب/أغسطس ١٩٦٠. غادر جميع الدبلوماسيين والجواسيس الأميركيين الجزيرة، ما عدا قلّة منهم. إلا أن ريتشارد بيسيل طلب من ديربورن البقاء بوصفه رئيساً لمحطة «السي.آي.أيه.» بالوكالة، فوافق القنصل العام.

أُعلم ديربرون، في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٦١، بأن شحنة أسلحة خفيفة في طريقها إلى مجموعة من المتآمرين الدومينيكانيين الذين يهدفون إلى قتل تروخيّو. وسبق للمجموعة الخاصة، التي يرأسها ألن دالاس، أن اتخذت هذا القرار قبل أسبوع. طلب ديربورن موافقة الوكالة على تسليح الدومينيكانيين بثلاث بنادق من نوع كارابين تركها عناصر البحرية في السفارة. وأعطى نائب بيسيل في العمل الخفي، تريسي بارنز، الضوء الأخضر. أرسلت «السي.آي.أيه.» ثلاثة مسدسات من عيار ٩ ملم إلى الدومينيكانيين. وسمح بيسيل بشحنة ثانية من أربعة رشاشات و٢٤٠ طلقة ذخيرة. وبقيت الرشاشات في القنصلية الأميركية في سانتو دومينغو بعدما تساءل عناصر من الإدارة الجديدة عمّا سيكون عليه ردّ فعل العالم إذا علم بأن الولايات المتحدة تسلّم أسلحة قتل عبر الحقيبة الدبلوماسية.

استلم ديربورن برقية، وافق عليها الرئيس كنيدي شخصياً، جاء فيها: «لا

نبالي إذا اغتال الدومينيكانيون تروخيّو، فهذا حسن. لكننا لا نريد أي شيء يربطنا بهذا». وهو ما لم يحصل أبدا. وعندما أطلق قتلة تورخيّو عليه النار بعد ذلك بأسبوعين، أشار الإثبات إلى أن الوكالة قد تكون الفاعل أو قد لا تكون. فلا توجد بصمات. إلا أن الاغتيال قارب إلى أقصى ما يكون أبداً قيام «السي.آي.أيه.» بعملية قتل تنفيذاً لأمر صادر عن البيت الأبيض.

سطّر المدعي العام للولايات المتحدة، روبرت ف. كنيدي، بضع ملاحظات بعدما علم بالاغتيال. وكتب: «المشكلة الكبرى الآن، هي أننا لا نعرف ما العمل»[٣].

لقد خجلت من بلادي

انطلقت «السي.آي.أيه.» بقوة في اتجاه غزو كوبا، في الوقت الذي قال فيه جاك إسترلين «إن الأمر أخذ في الخروج عن السيطرة بقوّة». شكّل بيسيل القوة الدافعة. شقّ طريقه، رافضاً الاعتراف بأنه ليس في وسع «السي.آي.أيه.» الإطاحة بكاسترو، معمياً نفسه عن واقع أن سرّية العملية قد سقطت منذ وقت طويل.

مضى بيسيل، في ١١ آذار/مارس، إلى البيت الأبيض ومعه أربعة مخططات مختلفة على الورق. لم يُرضِ أي منها الرئيسَ كنيدي. أمهل رئيس الجهاز الخفي ثلاثة أيام للإتيان بأمر أفضل. وأنتج إعمال الفكر لدى بيسيل اختياره منطقة إبرار جديدة: ثلاثة شواطئ واسعة في خليج الخنازير. لبّى الموقع متطلباً سياسياً جديداً للإدارة: على الغزاة الكوبيين أن يحتلّوا مهبطاً للطائرات لدى إبرارهم، لإقامة رأس جسر سياسي لحكومة كوبية جديدة.

ضمن بيسيل للرئيس نجاح هذه العملية. فأسوأ ما قد يحصل هو أن يتواجه متمردو «السي.آي.أيه.» مع قوات كاسترو عند الشواطئ، ويتقدموا إلى الجبال[٤]. لكن الأرض في خليج الخنازير كناية عن تشابك مستحيل من جذور التين الهندي والوحول. لم يعرف أحد في واشنطن ذلك. فخرائط المسح الأولية

الموجودة لدى «السي.آي.أيه.»، التي توحي بأن أرض المستنقعات ستستخدم موطناً لرجال العصابات، قد رُسمت في ١٨٩٥.

في الأسبوع التالي، قام «أصدقاء» «السي.آي.أيه.» في المافيا بمحاولة لقتل كاسترو. فقد أعطوا حبوب السمّ وآلاف الدولارات لواحد من أبرز رجال كاسترو الكوبيين، توني فارون (وصفه إسترلين بأنه «رذيل، وغشّاش، ولصّ»، وقد التقى فارونا لاحقاً الرئيس كنيدي في البيت الأبيض). تدبّر فارونا تسليم قارورة السم إلى عامل مطعم في هافانا، كان عليه أن يدسّ محتوياتها في كوب البوظة الذي سيتناوله كاسترو. ووجد ضباط الاستخبارات الكوبية القارورة لاحقاً في صندوق ثلج وقد تجمّدت كلها.

لم يكن الرئيس، بحلول الربيع، قد وافق بعدُ على خطة للهجوم. لم يستوعب كيفية عمل الغزو. والتقى من جديد، يوم الأربعاء، الخامس من نيسان/ أبريل مع دالاس وبيسيل، لكنه لم يتمكن من إعطاء معنى لاستراتيجيتهما. سألهما يوم الخميس ٦ نيسان/ أبريل، إذا كان قصفهما المخطط لسلاح جو كاسترو الصغير سيلغي عنصر المفاجأة لدى الغزاة، ولم يكن لدى أي منهما جواب.

ليل السبت، في الثامن من نيسان/ أبريل، ردّ ريتشارد بيسيل على رنين ملحّ لهاتف منزله. ورد الاتصال من جاك إسترلين من كوارترز آي، وهي غرفة الحرب التابعة لـ «السي.آي.أيه.» في واشنطن، قال إنه والعقيد هاوكينز، مخطط الشؤون شبه العسكرية التابع له، يحتاجان إلى لقاء بيسيل وحده في أقرب وقت ممكن. فتح بيسيل باب مدخله الأمامي ليجد إسترلين وهاوكينز في حالة من الغضب الذي أمكن بالكاد كبته. دخلا غرفة الجلوس لديه، وجلسا، وأبلغاه بوجوب وقف غزو كوبا.

قال لهما بيسيل إنه فات الأوان الآن على التوقف؛ فقد حدد بدء الانقلاب على كاسترو في غضون أسبوع. هدد إسترلين وهاوكينز بالاستقالة، وشكك بيسيل في ولائهما ووطنيتهما، فتردّدا.

أبلغ إسترلين بيسيل، ليس للمرة الأولى، «إذا لم ترد وقع كارثة، فعلينا على نحو قاطع أن نبيد كل سلاح الجو التابع لكاسترو». عرفوا ثلاثتهم أن طائرات كاسترو المقاتلة الست والثلاثين قادرة على قتل المئات من كوبيي «السي.آي.أيه.» بوصولهم إلى الشاطئ. «ثقا بي»، قال بيسيل. ووعد بإقناع الرئيس كنيدي بالقضاء على سلاح الجو التابع لكاسترو. واستذكر إسترلين بمرارة، «لقد أقنعنا بالاستمرار، وقال أعدكم بأنه لن يحصل خفض في الغارات الجوية».

لكن، في الساعة الحرجة، خفض بيسيل القوة الأميركية المرسلة لتدمير سلاح كاسترو الجوي إلى النصف، من ١٦ قاذفة إلى ثماني قاذفات. فعل ذلك ليُرضي الرئيس الذي أراد انقلاباً هادئاً. وخدعه بيسيل بإقناعه بأن «السي.آي.أيه.» ستنفّذ واحداً.

يوم السبت، ١٥ نيسان/أبريل، قصفت ثماني قاذفات «بي ـ ٢٦» أميركية ثلاثة مطارات، بينما توجه لواء «السي.آي.أيه.» المؤلف من ١,١١٥ رجلاً إلى خليج الخنازير. تم تدمير خمس طائرات كوبية، وربما أُلحق ضرر بدزينة أخرى من الطائرات. بقي نصف سلاح جو كاسترو سالماً. الرواية التغطية التي اعتمدتها «السي.آي.أيه.» هي أن المهاجم فار وحيد من سلاح الجو الكوبي هبط في فلوريدا. وأوفد بيسيل، في ذلك اليوم، تريسي بارنز إلى نيويورك لترويج الرواية لدى السفير الأميركي في الأمم المتحدة، أدلاي ستيفنسون.

لعب بيسيل وبارنز بستيفنسون كالأحمق، كما لو أنه عميل لهما. وعلى غرار وزير الخارجية كولن باول عشية غزو العراق، سوّق ستيفنسون رواية «السي.آي.أيه.» للعالم. وعلى عكس باول، فإنه اكتشف في اليوم التالي أنه تم خداعه.

أثارت معرفة أنه تم الإمساك بستيفنسون يكذب في العلن، وزير الخارجية دين راسك، الذي كانت له أسباب جيدة بالفعل للحنق من «السي.آي.أيه.» فقبل ذلك بساعات فقط، وإثر إخفاق عملية أخرى[٥]، اضطر راسك إلى إرسال

رسالة اعتذار رسمية إلى رئيس الوزراء السنغافوري لي كوا يو. فقد اقتحمت الشرطة السرّية في سنغافورة مقرّاً آمناً لـ «السي.آي.أيه.»، حيث كان وزيراً في الحكومة، يتلقى راتباً من «السي.آي.أيه.»، مربوطاً إلى أسلاك آلة اكتشاف الكذب. وقال لي كوان يو، وهو حليف أساسي للأميركيين، إن رئيس المحطة عرض عليه رشوة بـ ٣,٣ ملايين دولار لطمس المسألة.

عند الساعة السادسة من بعد ظهر يوم الأحد، ١٦ نيسان/أبريل، أبرق راسك من نيويورك ليحذّر «من أفدح مخاطر وقوع كارثة «يو ـ ٢» أخرى من جراء مثل هذا العمل غير المنسّق». وعند التاسعة والنصف مساءً، اتصل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، ماك جورج بودي، بنائب المدير دالاس، الجنرال تشارلز بير كابيل. قال بوندي إنه ليس في وسع «السي.آي.أيه.» شن غارات جوية على كوبا، إلا إذا «تم الانطلاق بها من قطاع داخل رأس الجسر» في خليج الخنازير(٦). وعند العاشرة والربع مساءً، هرع كابيل وبيسيل إلى مكاتب وزير الخارجية الأنيقة في الطابق السابع عشر. أبلغهما راسك أنه في إمكان طائرات «السي.آي.أيه.» الدخول في معركة لحماية رأس الجسر، لكن ليس لمهاجمة المطارات الكوبية أو المرافئ أو محطات الإذاعة. «سألني إذا كنت أودّ أن أتكلم مع الرئيس»، كتب كابيل. «كنا، السيّد بيسيل وأنا، متأثرين بالوضع الحساس للغاية مع السفير ستيفنسون والأمم المتحدة والخطر الذي يواجه الموقف السياسي الكامل للولايات المتحدة»، وهو موقف خلقته أكاذيب بيسيل وبارنز. وهكذا، «رأينا أنه لا فائدة في أن أتحدّث شخصياً مع الرئيس». اختار بيسيل، العالق في فخ روايته التغطية، عدم القتال. وردّ صمته، في مذكراته، إلى الجبن.

عندما عاد كابيل إلى غرفة الحرب في «السي.آي.أيه.» ليفيد عما حصل، فكّر جاك إسترلين جدّياً في قتله بيديه. وقال إسترلين إن الوكالة ستترك كوبييها يموتون «مثل بط الرماية على ذلك الشاطئ اللعين».

فاجأ أمر الإلغاء الصادر عن كابيل، طياري «السي.آي:أيه.» في نيكاراغوا في مقصوراتهم وهم يحمّون محركاتهم. عند الرابعة والنصف من فجر الاثنين

١٧ نيسان/أبريل، اتصل كابيل براسك في منزله مناشداً الحصول على أمر رئاسي بالمزيد من القوة الجوية لحماية سفن «السي.آي.أيه.» التي كانت محمّلة «إلى فمها» بالذخائر والإمدادات العسكرية. اتصل راسك بالرئيس في استراحته في غلين أورا، فرجينيا، وأوصل كابيل بالهاتف.

قال الرئيس إنه ليس على علم بحصول أي غارة جوية صباح اليوم(٧). الطلب مرفوض.

انقضت بعد أربع ساعات على ذلك، قاذفة ـ مقاتلة من نوع «سي فيوري»، على خليج الخنازير. كان الطيار المتدرب في أميركا، النقيب أنريكي كاريراس، الطيّار الأول في سلاح جو فيدل كاسترو. صوّب على ريو إسكونديدو، وهي سفينة شحن صدئة جاءت من نيو أورلينز بموجب عقد مع «السي.آي.أيه.»، ومن تحتها لجهة الجنوب الشرقي، وعلى متن بلاغار، وهي مركبة انزال من الحرب العالمية الثانية جرى تحويلها. أطلق ضابط «السي.آي.أيه.» من القوة شبه العسكرية، يدعى غرايستون لينش، النار على المقاتلة الكوبية برشاش ١٢,٧ ملم معيب. أطلق النقيب كاريراس صاروخاً أصاب سطح ريو إسكانديدو الأمامي ستة اقدام تحت سياج القضبان الحديدية، مصيباً عشرات البراميل سعة ٥٥ غالوناً معبأة بكاز الطيران. أشعلت النار ثلاثة آلاف غالون من وقود الطائرات، و١٤٥ طناً من الذخيرة في الحوصل الأمامي. تخلّى الطاقم عن السفينة وسبح للنجاة بحياته. وانفجرت سفينة الشحنة في كرة من نار بعثت بغيمة ارتفعت نصف ميل فوق خليج الخنازير. ومن على بعد ١٥ ميلاً، على الشاطئ المفروش بقتلى اللواء وجرحاه، اعتقد رجل كوماندوس «السي.آي.أيه.» ريب روبرتسون، أن كاسترو أسقط قنبلة نووية.

اتصل الرئيس كنيدي بالأميرال أرلي بروك، قائد البحرية الأميركية، لإنقاذ «السي.آي.أيه.» من الكارثة. وقال الأميرال في ١٨ نيسان/أبريل، «لم يعرف أحد ما الذي يجب القيام به. وكذلك «السي.آي.أيه.» التي كانت تدير العملية، ومسؤولة بالكامل عنها لم تعرف ما العمل، أو ما الذي يحصل. لقد أبقينا على جهل كبير لهذا، وقيلت لنا فقط حقائق مجزّأة».

قتل كوبيّو كاسترو وكوبيّو «السي.آي.أيه.» بعضهم البعض على امتداد ليلتين تعيستين. وفي ليلة الثامن عشر من نيسان/أبريل، اتصل قائد لواء المتمردين، بيبي سان رومان، لاسلكياً بلينش: «هل تدركون، أنتم أيها الناس، كم أن هذا الوضع ميؤوس منه؟ هل تساندوننا أم تنسحبون؟ أرجوكم، لا تتخلوا عنا. لم تعد لدي ذخيرة للدبابة والبازوكا. ستضربني الدبابات عند الفجر. لن أخلي المكان. سنحارب حتى النهاية إذا اضطررنا إلى ذلك». حلّ الصباح ولم تصل أي مساعدة. «فرغت منا الذخيرة ونحارب عند الشاطئ. رجاءً، أرسلوا مساعدة. لا يمكننا الصمود»، صاح سان رومان عبر جهازه اللاسلكي. وذبح رجاله واقفين والمياه تغمرهم حتى ركبهم.

أبرق رئيس العمليات الجوية في الوكالة ظهراً إلى بيسيل، يبلغه أن «وضع الدعم الجوي لرأس الجسر، خرج كلياً من يدنا». «خسرنا حتى الآن خمسة طيارين كوبيين، و٦ مساعدي طيارين، وطيارَيْن أميركيّين ومساعد طيار واحداً». وفي المجمل، فإن أربعة طيارين أميركيين من الحرس الوطني في ألاباما متعاقدين مع «السي.آي.أيه.»، قُتلوا في المعركة. وأخفت الوكالة، على مدى سنوات، سبب مقتلهم عن أراملهم وعوائلهم.

«لا نزال نتمتع بالإيمان»، قالت برقية رئيس العمليات الجوية. «ننتظر توجيهاتكم». لم يكن لدى بيسيل أي توجيه يقدّمه. عند الثانية من بعد ظهر ١٩ نيسان/أبريل، لعن سان رومان «السي.آي.أيه.». أقفل جهازه اللاسلكي، وتخلّى عن القتال. وفي خلال ستين ساعة اعتقل ١,١٨٩ عنصراً من اللواء الكوبي، وقُتل ١١٤.

«للمرة الأولى في عمري البالغ ٣٧ عاماً»، كتب غرايستون لينش، «أخجل من بلدي».

في ذلك اليوم ذاته، بعث روبرت كنيدي بملاحظة تنبه إلى شقيقه. كتب فيها «حان وقت المواجهة، لأن الوضع بعد سنة أو سنتين سيصبح أكثر سوءاً

بكثير». «إذا لم نرد لروسيا أن تنصب قواعد صواريخ في كوبا، فمن الأفضل لنا أن نقرر الآن ما نحن على استعداد للقيام به لوقف ذلك»[٨].

خذ سطل الوسخ وضع عليه غطاءً آخر

أبلغ الرئيس كنيدي اثنين من مساعديه، أن ألن دالاس طمأنه وجاهة في المكتب البيضاوي، إلى أن خليج الخنازير سيشكّل نجاحاً لا يخيب: «سيدي الرئيس، وقفت هنا تماماً عند مكتب آيك، وأبلغته أنني متأكد من أن عمليتنا الغواتيمالية ستنجح. ويا سيدي الرئيس، احتمالات هذه الخطة هي أفضل بكثير من الاحتمالات التي توفّرت لتلك الحملة»[٩]. وإذا كان الأمر كذلك، فإنها كذبة مريعة. فدالاس، في الواقع، أبلغ أيزنهاور أن حظوظ «السي.آي.أيه.» في غواتيمالا هي، في أفضل الحالات، واحد إلى خمسة... ولا شيء بدون قوّة جوّية.

كان دالاس، في ساعة الغزو، يلقي خطاباً في بورتوريكو. فمغادرته العلنية واشنطن، شكّلت جزءاً من خطة خداعية، إلا أنه أخذ يبدو الآن كالأميرال الذي تخلّى عن سفينته. وأخبر بوبي كنيدي أنه لدى عودته بدا أشبه بالميت الحي، وكان وجهه مدفوناً بين يديه المرتجفتين.

استدعى الرئيس، في ٢٢ نيسان/أبريل، مجلس الأمن القومي إلى الانعقاد، وهو جهاز الحكم الذي يزدري به[١٠]. وبعدما أمر دالاس المنذهل بالشروع في «الإسراع في تغطية نشاطات كاسترو في الولايات المتحدة» ـ وهي مهمة من خارج ميثاق «السي.آي.أيه.» ـ وأبلغ الرئيس الجنرال ماكسويل تايلور، المستشار العسكري الجديد للبيت الأبيض، بالعمل مع دالاس، وبوبي كنيدي، والأميرال أرلي ببورك، للقيام بتشريح لخليج الخنازير. اجتمع مجلس تحقيق تايلور بعد ظهر اليوم ذاته، ودالاس ممسك بنسخة من قرار مجلس الأمن القومي ٥٤١٢/٢، الذي سمح في ١٩٥٥ بالعمليات الخفية في «السي.آي.أيه.».

«أنا أول المعترفين بأنه ليس على «السي.آي.أيه.» إدارة عمليات شبه عسكرية»[11]، قال دالاس للمجلس: سحابة دخان تخفي عقداً من الدعم غير المتخاذل لمثل هذه العمليات. «لكنني أعتقد أنه بدلاً من تدمير كل شيء، والبدء من جديد، علينا أن نأخذ ما هو جيّد مما لدينا، والتخلص من تلك الأمور التي هي فعلاً أبعد من كفاءة «السي.آي.أيه.»، ومن ثم السيطرة على الأمر وجعله أكثر فاعلية. علينا إلقاء نظرة على ٥٤١٢ ورقة ومراجعتها على نحو تتم معه إدارة العمليات شبه العسكرية بطريقة مختلفة ما. وليس سهلاً إيجاد مكان لوضعها فيه؛ لأنه يصعب كثيراً إبقاء الأمور سرّية».

سرعان ما أوضح عمل مجلس تايلور للرئيس أنه يحتاج إلى طريقة جديدة لإدارة العمليات السرّية. ومن بين آخر الشهود الذين مثلوا أمام المجلس، رجل على شفير الموت تحدّث بوضوح بالغ عن أعمق المشاكل التي تواجه «السي.آي.أيه.». فشهادة الجنرال والتر بيديل سميث تدوّي بحجة مثيرة للقشعريرة اليوم:

سؤال: كيف يمكننا، في ديموقراطية، استخدام كل ميّزاتنا بدون أن نضطر إلى إعادة تنظيم الحكومة تنظيماً كاملاً؟

الجنرال سميث: لا يمكن ديموقراطية أن تشن حرباً. فعندما تمضون إلى الحرب، تعطون الرئيس سلطات استثنائية. ويفترض الشعب في البلد أنه ما إن تنتهي حالة الطوارئ حتى تعاد الحقوق والسلطات، التي تم نقلها موقتاً إلى رئيس السلطة التنفيذية، إلى المقاطعات والشعب.

سؤال: غالباً ما نقول إننا في الوقت الحاضر في حالة حرب.

الجنرال سميث: نعم سيدي، هذا صحيح.

سؤال: هل تقترح أنه علينا أن نقارب سلطات الرئيس في زمن الحرب؟

الجنرال سميث: كلا. وبرغم ذلك، فإن الشعب الأميركي لا يشعر بأنه في حرب في الوقت الحاضر، وهو بالتالي لا يرغب في تقديم التضحيات الضرورية لشن حرب. وعندما تكونون في حرب، حرب باردة إذا شئتم،

فعليكم امتلاك وكالة لاأخلاقية يمكنها العمل سرّاً... أعتقد أن «السي.آي.أيه.» أُعطيت أكثر مما يلزم من الدعاية، بحيث إنه يجب وضع العمل الخفي تحت سقف آخر.

سؤال: هل تعتقد أن علينا سحب العمل الخفي من «السي.آي.أيه.»؟

الجنرال سميث: حان الوقت لأخذ دلو الوسخ ووضع غطاء آخر عليه(١٢).

بعد ذلك بثلاثة أشهر، مات الجنرال والتر بيديل سميث عن خمسة وستين عاماً.

قام المفتش العام في «السي.آي.أيه.»، ليمان كيركباتريك، بتحقيقه الخاص لما بعد خليج الخنازير. وخلص إلى أن دالاس وبيسيل قد فشلا في إبقاء رئيسين وإدارتين على اطلاع دقيق في شأن العملية. وقال كيركباتريك إنه إذا أرادت «السي.آي.أيه.» البقاء عاملة، فسيكون عليها أن تحسّن في شكل أساسي تنظيمها وإدارتها. وحذّره نائب دالاس، الجنرال كابيل، من أنه إذا وقع التقرير في أيدٍ معادية، فسيؤدي إلى تدمير الوكالة. وافق دالاس على ذلك من صميم القلب. وتأكد من أنه تم دفن التقرير. وقد تمت استعادة ١٩ من أصل النسخ العشرين وأتلفت. والوحيدة التي بقيت أُقفل عليها لنحو أربعين عاماً.

تقاعد ألن دالاس، في أيلول/ سبتمبر ١٩٦١، من إدارة الاستخبارات المركزية. وكان العمال لا يزالون يضعون اللمسات الأخيرة على مقر «السي.آي.أيه.» الجديد الكبير الذي حارب سنوات لبنائه في أرض فرجينيا الحرجية فوق الضفة الغربية لنهر البوتوماك، على بعد سبعة أميال من طرف العاصمة. وقد أوصى بحفر كتابة من إنجيل يوحنا في البهو المركزي: «تعرفون الحق، والحق يحرركم». وقد عُلِّقت ميدالية على صورته في المجال المرتفع نفسه، ونُقش عليها 'Si momentum requires circumspice,'، ومعناها: إذا سعيت إلى هذا المبنى، فانظر من حولك.

بقي ريتشارد بيسيل ستة أشهر أخرى. واعترف لاحقاً، في شهادة سرّية، بأن ما تم التباهي به من خبرة في جهازه الخفي، ليس إلا واجهة. فهو «ليس المكان الذي يمكن المرء فيه أن يتوقع البحث عن كفاءة احترافية». ولدى مغادرته، علّق الرئيس ميدالية الأمن القومي على صدر سترته. وقال «إن مقصد السيّد بيسيل المرتفع، وطاقاته التي لا حدّ لها، وتكرُّسه الثابت للخدمة، تشكّل علامة قياسية لجهاز الاستخبارات. وهو يخلّف إرثاً طويل الأمد»[١٣].

شكّلت الثقة المفقودة جزءاً من ذلك الإرث. فلن يضع أي رئيس، في السنوات التسع عشرة التالية، إيمانه الكامل وثقته بوكالة الاستخبارات المركزية.

ها إنك تعيش الآن في عين الهدف

أراد جون كنيدي بداية، في حمّى غضبه، تدمير «السي.آي.أيه.»، ثم عاد وأخرج جهاز الوكالة الخفي من دوامة الموت، بتسليم زمامه إلى شقيقه. شكّل ذلك واحداً من أقل قرارات رئاسته حكمة. فقد تولى روبرت ف. كنيدي، ابن الخامسة والثلاثين، المشهور بقساوته، والمأخوذ بالسرّية، قيادة أكثر عمليات الولايات المتحدة الخفية حساسية. أفلت الرجلان العمل الخفي من عقاله، بحدّة لم يسبق لها مثيل. فأيك اضطلع بـ١٧٠ عملية خفية رئيسية لـ «السي.آي.أيه.» في ثماني سنين. وشن آل كنيدي ١٦٣ عملية خفية رئيسية في أقل من ثلاث سنين.

أراد الرئيس أن يجعل من روبرت ف. كنيدي المدير الجديد للاستخبارات المركزية، لكن شقيقه اعتقد أنه من الأفضل اختيار رجل يمكنه تولّي حماية الرئيس السياسية بعد عملية خليج الخنازير. وبعد استعراض للوجوه على مدى أشهر، استقرّا على سياسي محنّك قديم من زمن أيزنهاور: جون ماكون.

كان المرجَّح كثيراً أن يصبح ماكون وزيراً للدفاع، لو أنه تم انتخاب نيكسون في ١٩٦٠. وهو، في عمر يناهز الستين، جمهوري شديد المحافظة من كاليفورنيا، وكاثوليكي ورع، ومناوئ بحدّة للشيوعية. جمع ثروة من بناء السفن

عند الشاطئ الغربي إبان الحرب العالمية الثانية، ثم عمل نائباً لوزير الدفاع جيمس فورستال، جاهداً، في ١٩٤٨، لوضع أول موزانة لوزارة الدفاع الجديدة. وهو ساهم، بوصفه نائباً لوزير سلاح الجو إبان الحرب الكورية، في إنشاء القوة العسكرية العالمية الحقيقية لعالم ما بعد الحرب. وأشرف، بوصفه رئيساً للجنة الطاقة الذرية في عهد أيزنهاور، على مصانع الأسلحة الذرية في البلاد، وحاز مقعداً في مجلس الأمن القومي. ووصفه ريتشارد هيلمس، وهو الرئيس الجديد للعمليات الخفية لديه، بأنه «يأتي مباشرة من عملية اختيار للمثليين في هوليوود»، مع «شعره الأبيض، وخدّيه المتورّدين، ومشيته الرشيقة، وبزاته الداكنة اللون التي لا تشوبها شائبة، ونظارتيه اللتين بلا إطار، وسلوكه المتباعد، وثقة بالذات لا تخفى دلالتها»[١٤].

«لم يكن» المدير الجديد «رجلاً سيحبه الناس»[١٥]، قال ريد وايت، كبير إدارييه، إلا أنه سرعان ما أصبح «مقرّباً كثيراً إلى بوبي كنيدي». التحم ماكون مع بوبي، أوّلاً، بوصفه من أتباع الديانة ذاتها، وزميلاً مناوئاً للشيوعية. كان منزل المدعي العام المصنوع من ألواح خشبية متراكبة بيضاء، هيكوري هيل، يبعد بضع مئات من الياردات فقط عن المقر الجديد للوكالة، وغالباً ما عرج كنيدي على مقر «السي.آي.أيه.» صباحاً وهو في طريقه إلى وزارة العدل في وسط المدينة، زائراً بعيد اجتماع الثامنة صباحاً بين ماكون وفريقه.

ترك ماكون سجلاً فريداً ومعتنىً به لعمله، وأفكاره، ومحادثاته، أُبيح الكثير منها في ٢٠٠٣ أوّلاً، ومن ثم في ٢٠٠٤. وتوفّر مذكّراته رواية مفصَّلة، لحظةً بلحظة، لسنواته كمدير. وهي، إلى جانب آلاف الصفحات من المحادثات التي سجّلها الرئيس كنيدي سرّاً داخل البيت الأبيض، ولم يستنسخ الكثير منها بدقّة إلا في ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، تفصّل أكثر أيام الحرب الباردة خطورة.

حاول ماكون، قبل قَسَمه اليمين، الحصول على الصورة الكبرى لعمليات الوكالة[١٦]. جال على أوروبا مع ألن دالاس وريتشارد بيسيل، ومضى إلى اجتماع رؤساء محطات الشرق الأقصى في خلوة جبلية شمال مانيلا، وانكب على قراءة الأوراق.

إلا أن دالاس وبيسيل أخفيا بعض التفاصيل. لم يجدا من المناسب أبداً، إطلاع ماكون على برنامج «السي.آي.أيه.» الأكبر، والأشد ديمومة، والأكثر لاقانونية، في الولايات المتحدة: فتح بريد الدرجة الأولى الوافد إلى البلاد، والبريد الخارج منها. فمنذ ١٩٥٢ وما بعدها، قام ضباط «السي.آي.أيه.»، العاملون في مقر البريد الرئيسي في مطار مدينة نيويورك الدولي، بفتح الرسائل، وشرع فريق مكافحة التجسس التابع لجيم أنغلتون بتمحيص المعلومات الواردة فيها. كما أن دالاس وبيسيل لم يُطلعا ماكون على مخططات اغتيال فيدل كاسترو التي وضعتها «السي.آي.أيه.»، والتي عُلّقت موقتاً بعد «خليج الخنازير». وستمرّ سنتان تقريباً قبل أن يعلم المدير بمخططات القتل؛ ولم يعرف أبداً في شأن فتح البريد إلى أن علمت الأمة بأسرها بذلك.

تم إقناع الرئيس، بعد «خليج الخنازير»، بإعادة بناء مراكز التجميع والتوزيع للمعلومات للعمل السرّي، التي هدمها بعد تسلّمه السلطة رسمياً. وأعيد إنشاء مجلس مستشاري الرئيس للاستخبارات الخارجية، وتكوين المجموعة الخاصة (التي سُمّيت في ما بعد لجنة الـ٣٠٣) للإشراف على الجهاز الخفي. وسيصبح رئيسها للأعوام الأربعة التالية، مستشار الأمن القومي: الهادئ، المقتضب، الصادق، ماك جورج بوندي المتخرج من غروتون ويال، وأول عميد للفنون والعلوم في جامعة هارفرد. وضم الأعضاء ماكون، ورئيس الأركان المشتركة، وكبار نواب وزيري الدفاع والخارجية. إلا أنه، حتى وقت متأخر جداً من إدارة كنيدي، تُرك لعملاء «السي.آي.أيه.» السريين، أن يقرروا التشاور أو عدمه، مع المجموعة الخاصة. وثمة أكثر من بضع عمليات لم يعرف ماكون والمجموعة الخاصة، سوى القليل عنها، أو لم يعرفوا بها على الإطلاق(١٧).

أنشأ جون وبوبي كنيدي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١، في أكبر قدر من السرّية، خلية تخطيط جديدة للعمل الخفي، أسمياها المجموعة الخاصة (الموسّعة). كانت عدّة عمل روبرت كنيدي، وهي ذات مهمة واحدة: القضاء على كاسترو. وليلة العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، قبل تسعة أيام من قَسَمه اليمين كمدير، أجاب ماكون على هاتف منزله، واستمع إلى الرئيس يستدعيه إلى

البيت الأبيض. وبوصوله، بعد ظهر اليوم التالي، وجد آل كنيدي برفقة عميد مفرط الطول يدعى إد لانسديل. اختصاصه هو مكافحة التمرّد، وعلامته التجارية هي كسب قلوب العالم الثالث وعقوله، بواسطة المهارة الأميركية، والدولارات الخضراء، والكلام الخادع. وهو يعمل لـ «السي.آي.أيه.» والبنتاغون منذ ما قبل الحرب الكورية، خادماً بوصفه رجل فرانك ويسنر في مانيلا وسايغون، حيث ساعد زعماء موالين لأميركا على الوصول إلى السلطة.

تم التعريف بلانسديل بوصفه رئيس العمليات الجديد للمجموعة الخاصة (الموسعة). وسجّل ماكون في ملفاته في «السي.آي.أيه.» أن «الرئيس شرح أن الجنرال لانسديل منخرط في دراسة عمل ممكن في كوبا، وهو يعمل بتوجيه من المدعي العام، وأنه، أي الرئيس، يرغب في خطة عمل فورية، تُرفع إليه في غضون أسبوعين»[١٨]. و«أعرب المدعي العام عن القلق الشديد في شأن كوبا، وعن الحاجة إلى عمل ديناميكي فوري». أبلغهم ماكون أن «السي.آي.أيه.» وبقية إدارة كنيدي في حالة صدمة منذ «خليج الخنازير» و«هم بالتالي ينجزون القليل جداً».

فكّر ماكون في أنه ما من أمر، أقل من حرب بالنار، سيقضي على كاسترو. واعتقد أن «السي.آي.أيه.» غير مؤهّلة لإدارة حرب، أسرية كانت أم غير سرّية. أبلغ الرئيس كنيدي أنه لا يمكن الوكالة أن يستمر النظر إليها على أنها «جهاز مكائد وتجسس... مصمّمة لقلب الحكومات، واغتيال رؤساء الدول، وإقحام نفسها في الشؤون السياسية لدول خارجية»[١٩]. وذكّر الرئيس بأنه لـ «السي.آي.أيه.» مسؤولية أساسية واحدة بموجب القانون، «تجميع كل الاستخبارات» التي تجمعها الولايات المتحدة، ومن ثم تحليلها، وتقويمها، وإفادة البيت الأبيض عنها. وافق آل كنيدي بموجب أمر وضع ماكون مسوّدته ووقّعه الرئيس، على أنه سيكون «ضابط الاستخبارات الرئيسي لدى الحكومة». وستكون مهمته «التنسيق المناسب، والترابط، وتقويم الاستخبارات من جميع المصادر».

اعتقد ماكون أيضاً أنه استخدم لصياغة سياسة الولايات المتحدة الخارجية

للرئيس. وهذا ليس، ولا يجب أن يكون، دور كبير مسؤولي الاستخبارات في البلاد. إلا أنه من خلال حكمه على الأمور، الذي أثبت في الغالب أنه أسلم من رجالات هارفرد في أرفع مراتب الحكم، اكتشف سريعاً أن لآل كنيدي عدداً من الأفكار المستحدثة حول كيفية قيامه و«السي.آي.أيه.» بخدمة المصالح الأميركية. وفي اليوم الذي أقسم فيه اليمين أمام الرئيس كنيدي، وجد أنه وروبرت كنيدي والجنرال المداهن لانسديل، مسؤولون عن كاسترو.

وقال الرئيس لماك كون في حفل قسم اليمين، «ها إنك تعيش الآن في عين الهدف، وأنا أرحّب بك في هذه البقعة»[٢٠].

هذا محال

طلب الرئيس من ماكون، منذ البداية، إيجاد طريقة لاختراق جدار برلين. فقد شُيّد الجدار ـ أولاً بالشريط الشائك ثم بالباطون ـ في آب/أغسطس ١٩٦١. وكان يمكنه أن يشكّل مكسباً مفاجئاً سياسياً ودعائياً عظيماً للغرب، ودليلاً قاطعاً على الأكاذيب الفادحة للشيوعية التي لم تعد تنفع في منع ملايين المواطنين الألمان الشرقيين من الهرب. كان يمكن ذلك أن يشكّل فرصة ذهبية لـ «السي.آي.أيه.».

في الأسبوع الذي ارتفع فيه الجدار، أوفد كنيدي نائب الرئيس ليندون ب. جونسون إلى برلين، حيث تلقّى إيجازاً شديد السرّية من قائد قاعدة «السي.آي.أيه.»، بيل غرافر. أمعن جونسون النظر إلى رسم بياني مفصّل بطريقة مؤثرة في النفس يُظهر جميع عملاء «السي.آي.أيه.» في الشرق.

«رأيت خارطة الإيجاز هذه»، قال هافيلاند سميث، وكان يومها شخصاً أخذ نجمه في البروز في قاعدة برلين. «لو أنك استمعت إلى ما قاله غرافر، لوجدت أن لدينا عملاء في مجمع كارلسروهي» ـ مركز الاستخبارات السوفياتية ـ «وعملاء في البعثة العسكرية البولندية، وفي البعثة العسكرية التشيكية ـ، وأننا اخترقنا برلين الشرقية على نحو مطلق حتى محجر العينين. لكنك، لو علمت بما

لدينا، لعرفت أن الشخص الذي اخترق البعثة العسكرية البولندية هو الفتى الذي يبيع الصحف عند الزاوية، ولعلمت بأن هذا الاختراق الكبير للمجمع العسكري السوفياتي هو المعلم Dachermeister الذي يُصلح السقوف».

قال إن «برلين زيف»[٢١]. فالوكالة تكذب على الرئيس المقبل للولايات المتحدة في شأن إنجازاتها.

التقى ديفيد مورفي، في الأسبوع الذي تلى تشييد الجدار، وكان يومها رئيس القسم الأوروبي الشرقي في «السي.آي.أيه.»، بالرئيس كنيدي في البيت الأبيض. وقال «دفعت بنا إدارة كنيدي بقوّة إلى إقناعنا بوضع خطط لعمل شبه عسكري خفي وبالتحريض على الانشقاق» في ألمانيا الشرقية. لكن «العمليات في ألمانيا الشرقية كانت محالاً»[٢٢].

ظهر السبب أخيراً في وثيقة أُبيحت في حزيران/يونيو ٢٠٠٦، وهي تقدير مهلك للأضرار، وضعه ديف مورفي نفسه.

أُوقف رئيس مكافحة التجسس في ألمانيا الغربية، هاينز فيلفي، في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١، على يد الشرطة السرّية التابعة له. فقد سبق لفيلفي أن كان نازياً متشدداً انضم إلى تنظيم «غهلن» في ١٩٥١، بعد عامين على تسلّم «السي.آي.أيه.» له. تقدّم سريعاً في تراتبيته، واستمر في الترقي بعد تحوّله، في ١٩٥٥، إلى جهاز الاستخبارات في ألمانيا الغربية، «البي.أن.دي.».

إلا ان فيلفي كان طوال الوقت يعمل للسوفيات. فقد اخترق الجهاز الألماني الغربي، ومن خلاله محطة «السي.آي.أيه.» وقواعدها، وتمكن من التلاعب في ضباطها في ألمانيا وخداعهم، إلى حد أنه لم تعد لديهم فكرة إذا كانت المعلومات التي جمعوها من وراء الستار الحديدي، صحيحة أم كاذبة.

لاحظ مورفي، بوجوم، أنه كان في إمكان فيلفي «الشروع في أي عمليات لـ «البي.أن.دي.»، أو إدارتها، أو حتى وقفها، ولاحقاً في بعض من عمليات «السي.آي.أيه.». وقد كشف لجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي، التفاصيل الأساسية لكل عملية مهمة لـ «السي.آي.أيه.» ضد موسكو من حزيران/يونيو

١٩٥٩ إلى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١. وتضمنت هذه نحو سبع عمليات خفية رئيسية، وهويات أكثر من مئة من ضباط «السي.آي.أيه.»، ونحو خمسة عشر ألف معلومة.

كادت الوكالة تصبح عاطلة عن العمل في ألمانيا وعبر أوروبا الشرقية[٢٣]. واستغرق الأمر عقداً من الزمن لإصلاح الضرر.

الرئيس يريد بعض الحركة، فوراً

شحب جدار برلين ـ وكل ما عداه ـ أمام رغبة كنيدي في الثأر لشرف العائلة الذي ضاع في «خليج الخنازير». وأبلغ بوبي كنيدي، في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٦٢، ماكون بأن الإطاحة بكاسترو «تشكّل الأولوية القصوى لحكومة الولايات المتحدة»[٢٤]. «لا يجب توفير أي وقت، أو مال، أو جهد، أو طاقة بشرية». إلا أن المدير الجديد حذّره من أن الوكالة لا تملك إلا القليل من الاستخبارات الحقيقية لتعمل بموجبها. وأبلغ المدعي العام أنه «من بين عملاء «السي.آي.أيه.» الـ ٢٧ أو الـ ٢٨ الآن في كوبا، ثمة ١٢ فقط عى اتصال. وهذه الاتصالات ليست متكرّرة»[٢٥]. وقد اعتُقل سبعة من كوبيي «السي.آي.أيه.» قبل ذلك بأربعة أسابيع، بعدما تسللوا إلى الجزيرة.

ووضع لانسديل، بأوامر من روبرت كنيدي، لائحة بما يتوجب على «السي.آي.أيه.» فعله: تجنيد الكنيسة الكاثوليكية والحركات السرّية الكوبية، وتعبئتها ضد كاسترو[٢٦]، ضعضعة النظام من داخل؛ تخريب الاقتصاد؛ إفساد الشرطة السرّية؛ تدمير المحاصيل بالعمليات الحربية البيولوجية والكيميائية؛ وتغيير النظام قبل انتخابات الكونغرس المقبلة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٢.

«تمتع إد بهالة من حوله»[٢٧]، قال سام هالبرن، نائب الرئيس الجديد لمكتب كوبا، وهو من قدامى «الأو.أس.أس.»، وقد سبقت له معرفة لانسديل منذ عقد. «اعتقد بعض الناس أن إد ساحر ما. لكنني سأقول لكم ما هو. إنه في الأساس مخادع. إنه رجل البزة الصوفية الرمادية الناعمة في جادة ماديسون:

رجل مخادع. وإذا ما ألقيت نظرة على خطته المقترحة للتخلص من كاسترو، ومن نظام حكمة، لوجدتها سخفاً مطلقاً». فقد تمخّضت الخطة عن وعد فارغ: الإطاحة بكاسترو بدون إرسال المارينز.

قال هالبرن لريتشارد هيملس: «هذه عملية سياسية في مدينة واشنطن العاصمة، وليست لها أي علاقة بأمن الولايات المتحدة». وحذّر من أن «السي. آي. أيه.» لا تملك استخبارات حول كوبا. وقال لهيلمس «نحن لا نعرف ما يحدث. لا نعرف من يفعل ماذا بمن؟ ليس لدينا شيء». وهي المشكلة ذاتها التي ستواجهها «السي. آي. أيه.» لدى صدامها مع العراق بعد ذلك بأربعين سنة.

وافق هيلمس. فالمخطط ليس إلا أملاً خائباً.

لم يرد الأخوان كنيدي سماع ذلك، بل فقط حصول عملية تخريب سريعة وصامتة للإطاحة بكاسترو. وصاح المدعي العام «اللعنة، فلنشرع في الأمر[٢٨]. الرئيس يريد بعض الحركة، فوراً». أدى هيلمس التحية على مضض، وشرع، يا للعنة، في الأمر. ألّف قوة منتدبة مستقلة جديدة مرتبطة بإد لانسديل وروبرت كنيدي. وجمع فريقاً من جميع أنحاء العالم، مُنشئاً أكبر عملية استخبارات لـ «السي. آي. أيه.» في زمن السلم حتى تاريخه، تضم نحو ستمئة ضابط استخبارات في ميامي ومن حولها، وخمسة آلاف مقاول تقريباً يعملون مع «السي. آي. أيه.»، وثالث أكبر بحرية في الكاريبي تضم غواصات، وزوارق دورية، وسفن خفر سواحل، وطائرات برمائية، وقاعدتها خليج غوانتانامو. وقال هيملس إن البنتاغون والبيت الأبيض اقترحا بعض «المخططات الجنونية» ضد كاسترو. وقد تضمّنت نسف سفينة أميركية في ميناء غونتانامو، وافتعال هجوم إرهابي ضد طائرة أميركية لتبرير اجتياح جديد.

احتاجت العملية إلى اسم رمزي، وطلع سام هالبرن باسم: «النمس».

ما من شيء على الورق، طبعاً

اختار هيملس، وليام ك. هارفي، الرجل الذي بنى نفق برلين، لقيادة فريق

«النمس». سمّى هارفي المخطط «القوة المنتدبة و.»، تيمناً باسم وليام ووكر، القرصان الأميركي الذي قاد جيشاً خاصاً إلى أميركا الوسطى، ونصّب نفسه امبراطوراً على نيكاراغوا في سنوات ١٨٥٠. شكّل ذلك خياراً مستغرباً جداً، إلا إذا كنت على معرفة ببيل هارفي.

تمّ تعريف آل كنيدي إلى هارفي بوصفه «جيمس بوند» «السي.آي.أيه.»، ويبدو أن هذا أدهش جون كنيدي، وهو قارئ نهم لروايات أيان فليمينغ الجاسوسية، لأن الأمر المشترك الوحيد بين بوند وهارفي، هو استمراؤهما المارتيني فهارفي، الغارق في السمنة، والجاحظ العينين، كان يُسرف في تناول الكحول عند الغداء، ويعود إلى العمل يتمتم كلمات غير مفهومة، لاعناً اليوم الذي التقى فيه روبرت كنيدي. أراد بوبي كنيدي «أعمالاً سريعة، وأجوبة أسرع»[٢٩]، على ما قاله مساعد ماكون التنفيذي، والت إلدر. لكن، «لم يملك هارفي لا أعمالاً سريعة ولا أجوبة بالسرعة ذاتها».

إلا أنه امتلك سلاحاً سرّياً.

فقد أمر البيت الأبيض خلال عهد كنيدي «السي.آي.أيه.» مرتين بإنشاء فرقة اغتيال. وبموجب استنطاق عن كثب شديد أجراه، في ١٩٧٥، محققون من مجلس الشيوخ ولجنة رئاسية، قال ريتشارد بيسيل إن هذه الأوامر جاءت من مستشار الأمن القومي ماك جورج بوندي، ومن مساعده والت روستو، وبأن رجلَي الرئيس «ما كانا ليُقْدِما على مثل هذا التشجيع لو لم يكونا واثقين من أنه سيلقى موافقة الرئيس»[٣٠].

سلّم بيسيل الأمر إلى بيل هارفي، الذي فعل ما أُمر به. عاد إلى مقر القيادة في أيلول/سبتمبر ١٩٥٩، بعد فترة خدمة طويلة كرئيس لقاعدة برلين، ليتولّى قيادة القسم «د» في الجهاز الخفي. دخل ضباط القسم عنوة سفارات أجنبية في ما وراء البحار، لسرقة كتب الرموز والشيفرة لصالح المتنصتين في وكالة الأمن القومي. أطلقوا على أنفسهم اسم رجال الطابق الثاني، وتراوحت مهارتهم من التعامل مع الأقفال إلى السرقة وما هو أبعد. كانت للقسم اتصالات مع مجرمين

في عواصم أجنبية يمكن الطلب إليهم القيام بسرقات خفية، وخطف سعاة السفارات، وأنواع من الجنايات باسم الأمن القومي الأميركي.

أنشأ هارفي، في شباط/فبراير ١٩٦٢، برنامج «العمل التنفيذي»، وقد أُعطِيَ اسماً رمزياً هو البندقية، وأبقى على خدمات عميل أجنبي مقيم في لوكسمبورغ، لكنه رجل بدون دولة، يعمل بموجب عقد مع القسم «د». ويبدو أن هارفي قرر استخدامه لقتل فيدل كاسترو.

تظهر سجلات «السي.آي.أيه.» أن هارفي قام، في نيسان/أبريل ١٩٦٢، بمقاربة ثانية. التقى رجل العصابات جون روسّيللي في نيويورك. وتسلّم كمّية جديدة من الحبوب السامة المصمَّمة لدسّها في شاي كاسترو أو قهوته، من الدكتور أدوارد غان، رئيس قسم العمليات في مكتب الخدمات الطبية التابع لـ «السي.آي.أيه.»، ثم قاد سيارته إلى ميامي وسلّمها إلى روسّيللي، بالإضافة إلى شاحنة يو ـ هول مليئة بالأسلحة.

تلقّى المدعي العام في ٧ أيار/مايو ١٩٦٢، إيجازاً كاملاً حول مشروع البندقية من المستشار القانوني العام لـ «السي.آي.أيه.» لورانس هوستون، ورئيس الأمن في الوكالة شيفيلد إدواردز. «غضب روبرت كنيدي غضباً شديداً»(٣١): ليس في شأن مؤامرة الاغتيال بحد ذاتها، بل حول دور المافيا فيها. لم يفعل أي شيء لوقف «السي.آي.أيه.» عن السعي إلى موت كاسترو.

أعطى ريتشارد هيلمس، الذي تولى قيادة الجهاز الخفي قبل ذلك بثلاثة شهور، إشارة البدء بالبندقية إلى هارفي. وهو يعتقد أنه إذا أراد البيت الأبيض الرصاصة الفضّية، فمهمة الوكالة هي محاولة العثور عليها. وخمَّن أنه من الأفضل عدم إطلاع ماكون، مقدّراً على صحيح، أن المدير سيثير أقوى الاعتراضات الدينية، والقانونية، والسياسية.

طَرَحْتُ مرّةً السؤال على هيملس شخصياً: هل أراد الرئيس كنيدي موت كاسترو؟ قال بصورة مستوية «ليس ثمة، طبعاً، أي شيء على الورق. إلا أنه لا يوجد أي شك في رأسي أنه أراد ذلك»(٣٢).

يعتقد هيلمس أن الاغتيال السياسي في زمن السلم، يشكّل انحرافاً أخلاقياً. إلا أن ثمة أيضا اعتبارات عملية. ولاحظ «إذا تورطّتَ في عملية القضاء على زعماء أجانب، وهذا أمر تفكّر فيه الحكومات على نحو أكثر تكراراً مما يودّ المرء الاعتراف به، فثمة دوما سؤال عمن سيكون التالي. فإذا قتلت زعماء أناس آخرين، فلماذا لا يقومون هم بقتل زعمائك؟»[٣٣].

حيرة حقّة

روى جون ماكون أنه عندما تولّى إدارة الاستخبارات المركزية، «كانت «السي.آي.أيه.» تعاني»، وكانت «المعنويات محطّمة إلى حد كبير»[٣٤]. «مشكلتي الأولى كانت في إعادة بناء الثقة».

إلا أن مقر قيادة «السي.آي.أيه.» عاش حالة من الصخب على مدى ستة أشهر من ولايته. شرع ماكون في طرد «ذوي القابلية للوقوع في المشاكل»، و«ضاربي زوجاتهم»، و«المدمنين على الكحول»[٣٥]، بحسب ما لاحظ نائبه، الجنرال مارشال س. كارتر. وأخذت عمليات الطرد، والهزّات الارتدادية لـ «خليج الخنازير»، والضرب شبه اليومي المتتابع من البيت الأبيض في شأن كوبا، تخلق «حيرة حقّة حول ما سيكون عليه مستقبل الوكالة»، وهو ما أبلغه إياه مديره التنفيذي ليمان كيركباتريك في مذكّرة مرفوعة في ٢٦ تموز/يوليو ١٩٦٢. واقترح أنه ربما «وجب القيام بعمل فوري ما لإعادة المعنويات إلى الوكالة».

قرّر هيلمس أن الدواء الوحيد الشافي هو في العودة إلى أساس التجسس. وأخذ، مع بعض الإخفاقات، أفضل رجاله من الأقسام المشلولة للاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، وحوّلهم إلى كوبا فيدل كاسترو. كانت في إمرته حفنة من الضباط في فلوريدا، الذين تعلموا كيفية إدارة العملاء والبريد من وإلى المناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون، مثل برلين الشرقية. أنشأت «السي.آي.أيه.» مركزاً للاستنطاق في أوبا لوكا لإجراء المقابلات مع آلاف الأشخاص الذين غادروا كوبا على متن رحلات جوّية تجارية وزوارق خاصة.

واستجوب المركز نحو ١,٣٠٠ لاجئ كوبي[٣٦]. وقد زوّدوا الوكالة باستخبارات سياسية، عسكرية، واقتصادية، إلى جانب وثائق عن الحياة اليومية وأدواتها ـ ملابس، عملة معدنية، سجائر ـ للمساعدة في تنكّر العملاء المتسللين إلى الجزيرة. وادعت محطة ميامي، صيف ١٩٦٢، أن لديها ٤٥ عميلاً يأتون بالمعلومات من كوبا[٣٧]. ووصل بعضهم إلى فلوريدا للخضوع لدورة مكثفة لدى «السي.آي.أيه.»، وعادوا في زوارق سريعة تحت جنح الليل. وشكّلت شبكة الجواسيس الصغيرة التي بنوها داخل كوبا، الإنجاز الوحيد لعملية «النمس» التي بلغت كلفتها ٥٠ مليون دولار.

واصل بوبي كنيدي المطالبة، بدون جدوى، برجال كوماندوس يقومون سرّاً بنسف محطات الطاقة الكوبية، والمعامل، ومصانع السكّر. وقام لانسديل بسؤال هارفي «أيمكن لـ «السي.آي.أيه.» أن تأمل بالفعل، توليد مثل هذه الضربات؟»[٣٨]، «ولماذا يُعتبر هذا الآن ممكناً؟»، وأجاب هارفي بأن الأمر يتطلب سنتين إضافيتين، ومئة مليون دولار أخرى، لإنشاء قوة قادرة على الإطاحة بكاسترو.

انشغلت «السي.آي.أيه.» كثيراً في القيام بعمليات خفية، بحيث إنها فشلت في رؤية التهديد للبقاء الوطني للولايات المتحدة الآخذ في التجمّع في كوبا.

١٨

كذلك خدعنا أنفسنا

دخل جون ف. كنيدي، يوم الاثنين ٣٠ تموز/يوليو ١٩٦٢، المكتب البيضاوي، وأدار نظام التسجيل المتطوّر الجديد الذي أمر بتركيبه خلال عطلة نهاية الأسبوع[1]. وأول محادثة سجّلها على الإطلاق، كانت مؤامرة لتخريب حكومة البرازيل، والإطاحة برئيسها خواو غولارت.

ناقش كنيدي مع سفيره في البرازيل، لينكولن غوردون، في إنفاق ثمانية ملايين دولار، لترجيح كفّة الانتخابات المقبلة، وتحضير الأرضية لانقلاب عسكري ضد غولارت، «لدفعه خارجاً إذا اقتضى الأمر»، بحسب ما قال السفير غوردون للرئيس. و«ستوضح» محطة «السي.آي.أيه.» في البرازيل، «في شكل سرّي، أننا لسنا معادين بالضرورة لأي نوع من العمل العسكري مهما يكن، إذا اتضح أن السبب وراء التحرّك العسكري هو...».

«... معاد لليسار»، قال الرئيس. فهو لن يسمح بتحوّل البرازيل أو أي دولة أخرى في نصف الكرة الغربي، إلى كوبا ثانية.

أخذت الأموال تنهمر من «السي.آي.أيه.» على الحياة السياسية في البرازيل. وأحد المسارب كان المؤسسة الأميركية للتطوّر العمالي الحر، وهي إحدى أذرع اتحاد العمّال الأميركي: مؤتمر المنظمات الصناعية (سمّاه الدبلوماسيون البريطانيون المطلعون اتحاد العمال الأميركي ـ «السي.آي.أيه.»). والمسرب الآخر كان مؤسسة الدراسات للأبحاث الاجتماعية، وهو تنظيم حديث المنشأ لرجال الاعمال وللمدنيين في البرازيل. والمُتلقّون هم سياسيون

وضباط عسكريون يعارضون الرئيس غولارت، ظلّوا على اتصال وثيق مع الملحق العسكري الأميركي الجديد في البرازيل، فرنون والترز، وهو نائب مستقبلي لمدير الاستخبارات المركزية. وستعود هذه الاستثمارات بالفائدة المرجوّة منها في أقل من سنتين[٢].

سجّلت شرائط البيت الأبيض، التي استُنسخت كتابياً في ٢٠٠١، دعماً وحماسة يوميين لخطط العمل الخفي التي أخذت تتشكّل في المكتب البيضاوي.

التقى ماكون الرئيس في ٨ آب/أغسطس في البيت الأبيض لمناقشة الحكمة من إسقاط المئات من الجنود الوطنيين الصينيين في صين ـ ماو. وكان الرئيس قد وافق على العملية شبه العسكرية. ماكون كان مرتاباً، وقد أبلغ الرئيس بأن ماو يملك صواريخ أرض ـ جو، وأن آخر طلعات «اليو ـ ٢» التي أرسلتها «السي.آي.أيه.» فوق البرّ الصيني قد رصدتها وتعقبتها الرادارات الصينية الشيوعية بعد ١٢ دقيقة على إقلاعها من تايوان. «إن هذا مثير للسخرية»، قال مساعد كنيدي لشؤون الأمن القومي، مايكل فورّيستال، ابن وزير الدفاع الراحل. «سنقدّم إلى الرئيس كارثة «يو ـ ٢» أخرى». وماذا ستكون رواية التغطية هذه المرة؟ قال الرئيس مازحاً. ضحك الجميع. بعد شهر على هذا الاجتماع أسقطت قوات ماو طائرة «يو ـ ٢» فوق الصين.

مضى ريتشارد هيلمس، في ٩ آب/أغسطس، إلى البيت الأبيض لمناقشة حظوظ الإطاحة بهايتي، التي تقع على بعد ثلاثين ميلاً من كوبا. شرع ديكتاتور هايتي، فرانسوا «بابا دوك» دوفالييه، في سرقة المساعدة الأميركية وفي استخدام الدعم العسكري الأميركي، لتدعيم نظامه الفاسد. وقد سمح الرئيس بانقلاب. وسبق لـ «السي.آي.أيه.» أن أعطت السلاح لمنشقين يأملون الاطاحة بالحكومة بأي وسيلة لازمة. وتمّ التمعّن في ما إذا كان سيتم قتل دوفالييه. وقد أعطى ماكون إشارة الانطلاق[٣].

لكن «السي.آي.أيه.» كانت عاجزة عن التقدّم. وقال هيلمس «يجب عليّ، سيدي الرئيس، القول إن تدبير المؤامرة لا يبدو ناجحاً جداً». وحذّر من أن

«فرق المجرمين» المخصصين لدوفالييه، يشكلون «قوّة قامعة بدون أي جوهر»، الأمر «الذي يجعل من التآمر عملاً خطراً». وافتقر أفضل عميل مجنّد لـ «السي.آي.أيه.»، وهو رئيس سابق لحرس الشاطئ الهايتي، إلى الإرادة، أو إلى السبب للقيام بالانقلاب. ورأى هيلمس أن ثمة أملاً ضئيلاً بالنجاح. وقد قال الرئيس له «إن انقلاباً آخر لن يأتي حقيقة بشيء جيّد، إذا لم يكن لديك أحد تعمل معه».

في ١٠ آب/أغسطس، اجتمع جون ماكون، وروبرت كنيدي، ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا في غرفة اجتماعات وزير الخارجية دين راسك، المزخرفة، في الطابق السابع من وزارة الخارجية. وقد شكّلت كوبا الموضوع[٤] استذكر ماكون «أنه تم تقديم اقتراح بتصفية كبار شخصيات نظام كاسترو»، بمن فيهم كاسترو نفسه، وشقيقه وزير الدفاع الكوبي راوول، الذي عاد للتو من رحلة لشراء السلاح من موسكو. ووجد الفكرة مقيتة. رأى المدير خطراً أكبر مقبلاً. توقّع أن الاتحاد السوفياتي سيعطي كاسترو أسلحة ذرّية صواريخ باليستية متوسطة المدى يمكنها ضرب الولايات المتحدة. وكان، على مدى أكثر من أربعة أشهر، قلقاً من ذلك الاحتمال. لم يملك أي استخبارات، ولا أي شيء آخر، ما عدا شعوراً دفيناً.

وحده ماكون رأى التهديد على نحو واضح: «لو أنني خروشتشيف»[٥]، قال، «لوضعت صواريخ هجومية في كوبا. ثم لضربت بحذائي على الطاولة، وقلت للولايات المتحدة، ما رأيك في أن تنظري الآن إلى الجانب الآخر من أسطون المدفع على سبيل التغيير؟ فلنتكلم الآن على برلين أو على أي موضوع آخر أختاره». لم يبد أن أحداً صدّقه. ولاحظ تأريخ لـ «السي.آي.أيه.» عن سنوات ماكون، أن «الخبراء أجمعوا واتفقوا بإصرار، على أن هذا احتمال بعيد. لقد وقف كلّياً وحده».

أخذ الشك يتصاعد في شأن قدرة الوكالة على توقع سلوك السوفيات. فمحللوها أخطأوا على الدوام على مدى عقد من الزمن. «تأتي «السي.آي.أيه.» وترسم أكثر الصور إفزاعاً حول ما سيفعله السوفيات بنا: سنصبح من الدرجة

الثانية؛ السوفيات سيصبحون الرقم واحداً»[٦]، بحسب ما يقول الرئيس السابق جيرالد ر. فورد، الذي كان في ١٩٦٢ عضواً في اللجنة الفرعية المغلقة لمجلس النواب التي توفّر الموازنة السرّية لـ «السي.آي.أيه.» «كانت لديهم بيانات تصويرية على الجدار[٧]، وأرقام، وكان استنتاجهم أن الولايات المتحدة ستصبح وراء الاتحاد السوفياتي من حيث القدرة العسكرية، والنمو الاقتصادي»، قال فورد. وقد «شكل ذلك عرضاً مفزعاً. والوقائع أنهم كانوا مخطئين بـ ١٨٠ درجة. فالذين يُدعون خبراء «السي.آي.أيه.» كانوا أفضل ما لدينا من أناس».

أخطر منطقة في العالم

عاد ماكون، في ١٥ آب/أغسطس، إلى البيت الأبيض لمناقشة أفضل الطرائق للإطاحة بتشيدي جاغان، رئيس وزراء غويانا البريطانية، وهي مستعمرة بائسة عند أرض أميركا الجنوبية المنبسطة، العرضة للمد والجزر.

كان جاغان، وهو طبيب أسنان تلقّى تعليمه في أميركا. متزوج بماركسية من شيكاغو تُدعى جانيت روزنبرغ، ومتحدّراً من عمال مزرعة استعمارية. انتخب للمرة الأولى في ١٩٥٣. وعلّق وينستون تشيرتشل بعد ذلك بوقت قصير، دستور المستعمرات، وأمر بحل الحكومة، ورمى بآل جاغان في السجن. وقد أطلقا بعد إعادة البريطانيين الحكومة الشرعية. وأعيد انتخاب جاغان مرتين، وقد زار المكتب البيضاوي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١.

استذكر جاغان، «مضيت لرؤية الرئيس كنيدي طلباً لدعمه من أجل استقلالنا عن البريطانيين[٨]. كان ساحراً جداً وطيّب النفس. وها إن الولايات المتحدة تخشى أنني سأعطي غويانا للروس. قلت، إذا كان هو مبعث خوفك، فلا تخف. لن تكون لنا قاعدة سوفياتية».

أعلن جون ف. كنيدي على الملأ ـ في مقابلة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١ مع صهر خروشتشيف محرر «الإزفستيا» ـ أن «الولايات المتحدة تدعم فكرة حق كل شعب في القيام بخيار حرّ بالنسبة إلى نوع الحكم الذي

يريده»[٩]. وقال إن تشيدي جاغان قد يكون «ماركسياً»، لكن «الولايات المتحدة لا تمانع، لأن هذا الخيار تمَّ من خلال انتخاب نزيه فاز به».

إلا أن كنيدي قرر استخدام «السي.آي.أيه.» للإطاحة به. ولمّا يمضِ وقت طويل على مغادرة جاغان البيت الأبيض، حتى اشتدت حماوة الحرب الباردة في عاصمته جورجتاون. أخذت إذاعات، لم يُسمع بها من قبل، في التوالد، وفي البث. استقال موظفون حكوميون. وسببت أعمال الشغب مقتل أكثر من مئة شخص، وتمرّدت الاتحادات العمالية بعدما تلقّت المال والنصيحة من المؤسسة الأميركية للتطوير العمالي الحرّ، التي أخذت بدورها الأموال النقدية والاستشارة من «السي.آي.أيه.». وسأل أرثور شليشينغر، وهو مساعد خاص ومؤرخ لحقبة البيت الأبيض في عهد كنيدي، الرئيس: «هل «السي.آي.أيه.» تعتقد أنه في وسعها القيام بعملية خفية فعلاً[١٠] ـ أي، بعملية من شأنها، مهما تكن شكوك جاغان، ألا تترك، سواء أخسر أم ربح، أي آثار مرئية، تكون بالنسبة إلى العالم دليلاً على تدخل أميركي؟»

قرر الرئيس، وماكون، ومستشار الأمن القومي ماك جورج بوندي، في ١٥ آب/أغسطس ١٩٦٢ في البيت الأبيض، أن الوقت حان لإيصال الأمور إلى الذروة[١١]. شنّ الرئيس حملة بكلفة مليوني دولار، أدت في النهاية إلى إزاحة جاغان من السلطة[١٢]. وشرح الرئيس كنيدي لاحقاً لرئيس الوزراء البريطاني، هارولد ماكميلان: «أن أميركا اللاتينية هي أخطر منطقة في العالم[١٣]. فمن تأثيرات وجود دولة شيوعية في غويانا البريطانية... خلقُ ضغوط لا تمكن مقاومتها في الولايات المتحدة، لتوجيه ضربة عسكرية إلى كوبا».

سلّم ماكون الرئيس كنيدي في اجتماع ١٥ آب/أغسطس ذاته الذي قرر مصير جاغان، مبدأ «السي.آي.أيه.» الجديد لمكافحة التمرّد. وجاء معه في وثيقة ثانية للخطوط الرئيسية للأعمال الخفية الجارية في أحد عشر بلداً: فيتنام، لاوس، وتايلند؛ إيران وباكستان؛ وبوليفا، كولومبيا، جمهورية الدومينيكان، الإكوادور، غواتيمالا، وفنيزويلا. وأبلغ ماكون الرئيس بأن الوثيقة «سرّية للغاية

لأنها تكشف كل شيء عن الخدع الوسخة»[١٤]. وقال بوندي ضاحكاً، «إنها مجموعة رائعة، أو قاموس لجرائمكم».

سأل روبرت كنيدي ماكون في ٢١ آب/أغسطس، إذا كان في وسع «السي.آي.أيه.» تحضير هجوم زائف على القاعدة الأميركية في خليج غونتانامو، كذريعة لغزو أميركي لكوبا[١٥]. اعترض ماكون. وقال، في اليوم التالي، لجون كنيدي سرّاً، إن الغزو سيشكل خطأً مميتاً. حذّر الرئيس، للمرة الأولى، من أنه يعتقد أن السوفيات ينصبون صواريخ باليستية متوسطة المدى في كوبا. وإذا كان كذلك، فإن هجوماً أميركياً مباغتاً قد يُشعل حربا نووية. وأيّد اعلان الإنذار العام في شأن احتمال وجود قاعدة صاروخية سوفياتية. ردّ الرئيس الفكرة فوراً. لكنه تساءل بصوت مرتفع إذا كانت ثمة حاجة إلى رجال حرب عصابات «السي.آي.أيه.» أو إلى جنود أميركيين لتدمير مواقع الصواريخ، هذا إذا وُجدت. عند هذا الحد لم يقتنع أحد، غير ماكوي، بوجودها.

استمرّت محادثتهما في المكتب البيضاوي بعيد السادسة مساء ٢٢ آب/أغسطس، عندما انضم إليهما ماكسويل تايلور، الجنرال الذي يثق به كنيدي أكثر ما يكون. أراد الرئيس استعراض عمليتين سرّيتين أخريين قبل مناقشة كوبا: الأولى كانت خطة في طور النشوء لإسقاط عشرين جندياً وطنياً صينياً في البر الصيني في خلال الأسبوع المقبل، والثانية كانت خطة تقوم بموجبها «السي.آي.أيه.» بالتنصت على أعضاء في الجسم الصحافي في واشنطن.

سأل الرئيس «كيف نبلي مع ذلك التحضير لمسألة بالدوين؟»[١٦] فقد سبق لهانسون بالدوين، مراسل الأمن القومي لـ «النيويورك تايمز»، أن نشر قبل ذلك بأربعة أسابيع، مقالة عن الجهود السوفياتية لحماية مواقع إطلاق الصواريخ البالستية العابرة للقارات بتحصينات خرسانية. وأعلن تقرير بالدوين، المفصّل على نحو كبير، نتائج آخر تقديرات الاستخبارات الوطنية لـ «السي.آي.أيه.».

طلب الرئيس من ماكون إنشاء قوة منتدبة محلّية لوقف تدفّق الأسرار من الحكومة إلى الصحف. انتهك الأمر شرعة «السي.آي.أيه.» التي تمنع بالتحديد

التجسس المحلّي. فقد استخدم كنيدي الوكالة للتجسس على أميركيين قبل وقت طويل على إنشاء نيكسون وحدة «السبّاكين» المؤلفة من قدامى «السي.آي.أيه.».

ولاحقاً، أبلغ ماكون الرئيس أن ««السي.آي.أيه.» موافقة كلّياً على... إنشاء هذه القوة المنتدبة، التي ستكون كناية عن مجموعة تحقيق مستمر ترفع تقاريرها إليّ». بقيت «السي.آي.أيه.» تراقب بالدوين، وأربعة مراسلين آخرين، ومصادرهم، من ١٩٦٢ حتى ١٩٦٥. وشكّل كنيدي، بإصداره الأمر إلى مدير الاستخبارات المركزية للقيام ببرنامج مراقبة داخلية، سابقة سيتبعها الرؤساء جونسون، ونيكسون، وجورج دبليو بوش.

في اجتماع البيت الأبيض هذا ذاته، عاد الحديث أخيراً إلى كاسترو. أبلغ ماكون الرئيس أن ٣٨ سفينة سوفياتية قد رست في كوبا في الأسابيع السبعة الماضية، وربما «احتوت شحناتها على قطع صواريخ. نحن لا نعلم». إلا أن السوفيات يعملون، في كل الحالات، على بناء القوة العسكرية الكوبية. فسأله الرئيس «سيكون ذلك منفصلاً الآن عن مسألة إذا كانوا يبنون بعض قواعد الصواريخ، أم لا، أليس كذلك؟». أجاب ماكون «حسناً، لا. أعتقد أن الأمرين مترابطان. أعتقد أنهم يقومون بالأمرين معا».

غادر ماكون واشنطن في اليوم التالي ليُمضي شهر عسل طويلا. فهو أرمل حديثاً عاد وتزوج للتو، وقد خطط للذهاب إلى باريس وإلى جنوب فرنسا. «سأكون مسرورا كثيراً وحسب إذا اضطررت إلى استدعائي»، كتب للرئيس، «وإذا فعلت ذلك، فسأرتاح من شعور بالذنب يبدو أنه يتملّكني»[١٧].

ضعه في صندوق وأَقْفله بالمسامير

مرّ تحليق لـ «اليو ـ ٢» في ٢٩ آب/أغسطس فوق كوبا، وقد تم تحميض أفلامه في خلال الليل. وفي ٣٠ آب/أغسطس، انحنى محلل في «السي.آي.أيه.» فوق طاولته المضيئة، وصاح: لدي موقع «سام»! كان صاروخ أرض جو، «أس.إي. ـ ٢»، السلاح السوفياتي ذاته الذي أسقط «اليو ـ ٢»

«فوق روسيا. وفي اليوم نفسه، أُمسك بـ «يو ـ ٢» أخرى شاردة في المجال الجوي السوفياتي، منتهكة تعهداً أميركياً رسمياً، ومستثيرة احتجاجاً رسمياً من موسكو.

قال ماكون لاحقاً، إن معرفة حصول كوبا على صواريخ أرض ـ جو خلقت «تردداً مفهوماً، أو خشية»[١٨] لدى البيت الأبيض من السماح بطلعات جديدة. أمر جون كنيدي الجنرال كارتر، مدير الاستخبارات المركزية بالوكالة في خلال شهر عسل ماكون، بدفن التقرير حول «السام». قال الرئيس «ضعه في صندوق وأقفله بالمسامير»[١٩]. لم يمكنه تحمّل خضة سياسية داخلية، ليس بينما الانتخابات على مسافة شهرين. ثم إن «يو ـ ٢» أخرى أُسقطت في ٩ أيلول/ سبتمبر فوق الصين. وبحسب ما جاء في تقرير لـ «السي.آي.أيه.» فإن وزارة الخارجية والبنتاغون أخذا ينظران الآن إلى طائرة التجسس ومخاطرها، «باشمئزاز عام، أو باضطراب شديد على أقل تقدير». وقام ماك جورج بوندي المغتاظ، وقد استحثّه دين راسك، وتصرف باسم الرئيس بإلغاء الرحلة المقبلة لـ «اليو ـ ٢» فوق كوبا، واستدعى جيمس كيو ريبير، وهو من قدامى «السي.آي.أيه.» ومسؤول عن لجنة الاستطلاع الجوي.

سأله بوندي بفظاظة «أثمة من هو مرتبط بالتخطيط لهذه المهمات، ويريد الشروع في حرب؟»[٢٠].

في ١١ أيلول/سبتمبر، حظر الرئيس كنيدي تحليقات «اليو ـ ٢» في المجال الجوي الكوبي. ورست، بعد ذلك بأربعة أيام، أول الصواريخ السوفياتية المتوسطة المدى في ميناء ماريبل في كوبا. واستمرت الفجوة في الصور ـ بقعة طامسة في لحظة تاريخية حاسمة ـ لمدة ٤٥ يوماً[٢١].

قام ماكون، الذي أبقى عينه على مقر قيادة «السي.آي.أيه.» عبر برقيات متواصلة من الريفييرا الفرنسية، بإصدار أمر للوكالة بتحذير البيت الأبيض من «خطر المفاجأة»، فلم تفعل. فقد قدّرت «السي.آي.أيه.» وجود ١٠ آلاف جندي سوفياتي في كوبا، بينما كان يوجد ٤٣ ألفاً. وقدّرت الوكالة أن قوة

الجيش الكوبي تقف عند حدود المئة ألف. والعدد الحقيقي هو ٢٧٥ ألفاً. ورفضت «السي. آي. أيه.» بصورة قاطعة أن السوفيات يبنون مواقع ذرّية في كوبا.

«سيكون إحلال قوات ذرية سوفياتية ضاربة على الأرض الكوبية، يمكن استخدامها ضد الولايات المتحدة، غير متآلف مع السياسة السوفياتية»، هذا ما استنتجه كبار خبراء «السي. آي. أيه.» في تقدير خاص للاستخبارات الوطنية في ١٩ أيلول/ سبتمبر. وفي مثال كلاسيكي لصورة المرآة، أعلن أحد ما في «السي. آي. أيه.»: «أن السوفيات أنفسهم لا يزالون ربّما غير متأكدين من برنامجهم العسكري المستقبلي لكوبا». وبقي هذا التقدير، على مدى أربعين عاماً، بمثابة نقطة اعتلام بارزة لسوء التقدير، إلى أن محّصت «السي. آي. أيه.» حالة الترسانة العراقية.

وحده ماكون خالف الرأي، وحثّ في ٢٠ أيلول/ سبتمبر، في آخر برقيات شهر عسله إلى مقر القيادة، وكالته على إعادة التفكير. تنهّد المحللون. ألقوا نظرة أخرى على رسالة تلقوها قبل ثمانية أيام على الأقل من مراقب طرق، وهو عميل كوبي في أسفل درجات تراتبية الاستخبارات. فقد أفاد عن قافلة من الجرارات ـ الناقلة السوفياتية بطول سبعين قدماً، تنقل شحنة غامضة مغطاة بشادر بحجم أعمدة الهاتف الثخينة عند الريف الكوبي على مقربة من مدينة سان كريستوبال. «لم أعرف اسمه أبداً»[٢٢]، قال سام هالبرن من «السي. آي. أيه.» «هذا العميل الوحيد، وهو النتيجة المحترمة الوحيدة من «النمس»... هذا العميل أخبرنا أن شيئاً عجيباً يحدث.... وبعد عشرة أيام من الجدال أمام لجنة الاستطلاع الجوي، تمت الموافقة في النهاية على القيام بتحليق».

غضب ماكون، في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر، وقد عاد إلى القيادة، من الحظر الذي فرضه البيت الأبيض على «اليو ـ ٢». فعلى مدى ما يناهز الخمسة أسابيع، لم يحصل أي تحليق تجسسي فوق كوبا. وفي اجتماع المجموعة الخاصة (الموسعة) مع بوبي كنيدي، «اندلع نقاش كبير (مع بعض الحماوة)»[٢٣] حول من أوقف التحليقات. وكان الرئيس طبعاً. اعترف بوبي كنيدي بالحاجة إلى مزيد من الاستخبارات حول كوبا، لكنه قال إن الرئيس يريد أوّلاً، أكثر ما

يكون، المزيد من عمليات التخريب: «حثّ على القيام بنشاط ضخم»[٢٤]. طلب أن يرسل ماكون ولانسديل عملاء إلى كوبا لتلغيم المرافئ وخطف جنود كوبيين لاستجوابهم، وهو أمر أدى إلى مهمّة «النمس» النهائية في تشرين الأول/ أكتوبر، عندما تم إرسال نحو خمسين جاسوساً ومخرّباً في غواصة إلى كوبا، في ذروة الأزمة النووية.

وصلت، في عز تخبّط الاستخبارات الأميركية، في ٤ تشرين الأول/أكتوبر، ٩٩ رأساً نووية سوفياتية إلى كوبا بدون اكتشافها. وكل منها أقوى بسبعين مرّة من القنبلة التي أسقطها هاري ترومان على هيروشيما. وبعمل خفي واحد، ضاعف السوفيات الضرر الذي في إمكانهم إلحاقه بالولايات المتحدة. وفي ٥ تشرين الأول/أكتوبر، مضى ماكون إلى البيت الأبيض ليحاجج بأن سلامة البلاد تعتمد على المزيد من تحليقات «اليو ـ ٢» فوق كوبا. لكن بوندي سخر وقال إنه مقتنع بعدم وجود تهديد. وإذا وجد من تهديد فإن «السي.آي.أيه.» عاجزة عن اكتشافه.

المفاجأة الاستخباراتية شبه التامة

صُوّر اكتشاف «السي.آي.أيه.» الصواريخ بعد ذلك بعشرة أيام. على أنه انتصار. إلا أن قلة من الرجال في السلطة رأوا فيه هذا في ذلك الوقت.

أفاد مجلس الاستخبارات الخارجية التابع للرئيس بعد ذلك ببضعة أشهر، أن «المفاجأة الاستخباراتية شبه الكاملة التي اختبرتها الولايات المتحدة في ما يتعلّق بإدخال صواريخ استراتيجية سوفياتية إلى كوبا ونشرها فيها، نتجت في جزء كبير منها عن خلل في عمل منظومة التحليل التي يتم من خلالها تقويم مُخبري الاستخبارات والإفادة عنهم». فـ «السي.آي.أيه.» خدمت الرئيس «بطريقة سيئة»، وقد «فشلت في أن تنقل إلى المسؤولين الحكوميين الرئيسيين ما أمكن من الصورة الدقيقة»، لما يقوم به السوفيات»[٢٥]. وجد المجلس أن «التغطية الخفية بواسطة العملاء داخل كوبا كانت غير كافية»، وأنه «لم يتم الاستخدام الكامل للمراقبة التصويرية الجوية». وخلص إلى أن: «الطريقة التي

تعامل بها مخبرو الاستخبارات مع الوضع الكوبي، ربما تشكّل الخلل الأخطر في نظامنا الاستخباراتي، وهو خلل من شأنه، إذا لم يُصحَّح، أن يؤدي إلى أخطر العواقب».

بقي الخلل ولم يصحّح. فالفشل في رؤية الحالة الحقيقية للترسانة العراقية، في ٢٠٠٢، سار بالطريقة نفسها تقريباً.

إلا أنه، في النهاية، بناءً على إلحاح ماكون، تم إغلاق فجوة الصور. فعند بزوغ أول خيوط أنوار فجر ١٤ تشرين الأول/أكتوبر الأولى، حلّقت طائرة «يو ـ ٢»، يقودها الرائد في سلاح الجو ريتشارد د. هيزر من القيادة الجوية الاستراتيجية، فوق غرب كوبا، ملتقطة ٩٢٨ صورة في ست دقائق. وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة، حدّق محلّلو «السي.آي.أيه.» في أكبر عدد من الأسلحة الشيوعية سبق لهم أن شاهدوه. وأخذوا، طوال اليوم، يقارنون بين صور التقطتها «اليو ـ ٢» للصواريخ السوفياتية التي تُستعرض في شوارع موسكو في الأول من أيار/مايو. تحققوا من كتيبات المواصفات التقنية التي وفّرها لهم في خلال العام الماضي أوليغ بنكوفسكي، وهو عقيد في جهاز الاستخبارات العسكرية السوفياتية. فهو أمضى أشهراً، بدءاً من صيف ١٩٦٠، محاولاً مقاربة «السي.آي.أيه.»، لكن ضباطها كانوا على درجة كبيرة من عدم الخبرة، وعلى درجة كبيرة من الحذر، وعلى درجة أكبر من الخوف لعقد الصفقة. وقام أخيراً بالاتصال بالبريطانيين الذين عملوا معه بالتعاون مع «السي.آي.أيه.» في لندن. وقام، راكباً مخاطر جمة، بتهريب نحو خمسة آلاف صفحة من الوثائق، معظمها يوفّر لمحة عميقة إلى التكنولوجيا العسكرية والعقيدة. كان متطوّعاً، وأول جاسوس له قيمة تحصل عليه «السي.آي.أيه.» أبداً. وبعد أسبوع بالتمام على وصول صور «اليو ـ ٢» إلى واشنطن، اعتقلت الاستخبارات السوفياتية بنكوفسكي.

بحلول أواخر بعد ظهر ١٥ تشرين الأول/أكتوبر، علم محللو «السي.آي.أيه.» بأنهم ينظرون إلى صواريخ «أس.أس. ـ ٤» الباليستية المتوسطة المدى القادرة على حمل رأس بقوة ميغا طن واحد من غرب كوبا

إلى واشنطن. كان الرئيس كنيدي في نيويورك يقوم بالحملة من أجل مرشحين لانتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، التي كانت قد أصبحت على بعد ثلاثة أسابيع. وفي تلك الليلة، كان جورج بوندي في منزله يقيم عشاء وداع لتشيب بوهلن، السفير الأميركي المعيَّن حديثاً في باريس. رنّ جرس الهاتف عند حوالى العاشرة ليلاً. قال كلاين «تلك الأمور التي نحن قلقون في شأنها، يبدو كأننا حصلنا على شيء بالفعل منها»(٢٦).

جلب ريتشارد هيلمس صور «اليو ـ ٢» إلى مكتب المدعي العام عند التاسعة والربع من قبل ظهر السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر. واستذكر هيلمس «نهض كنيدي من مكتبه، ووقف لبرهة يحدّق من النافذة. استدار ليواجهني. وقال «تباً»، بصوت مرتفع، رافعاً قبضتية إلى صدره كما لو أنه سيلاكم خيالاً. «لعنة الله على ذلك كله. كانت تلك مشاعري بالتحديد»(٢٧).

وقال بوبي كنيدي مفتكراً: «لقد خَدَعَنا خروشتشيف، إلا أننا خدعنا أنفسنا أيضا»(٢٨).

١٩

سنكون مسرورين لمقايضة تلك الصورايخ

خدعت «السي.آي.أيه.» نفسها في الاعتقاد أن السوفيات لن يرسلوا أبداً أسلحة نووية إلى كوبا. وهي الآن، وقد شاهدت تلك الصواريخ، تبقى عاجزة عن إدراك الذهن السوفياتي. وقد اشتكى الرئيس كنيدي في ١٦ تشرين الأول/أكتوبر من «أنني لا أستطيع فهم وجهة نظرهم. الأمر لغز لعين بالنسبة إلي. فأنا لا أعرف ما يكفي بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي».

أصبح الجنرال مارشال كارتر من جديد مديراً في الوكالة. فماكون قد طار إلى سياتل لجنازة ربيبه الذي قضى في حادث سيّارة. مضى كارتر إلى اجتماع المجموعة الخاصة (الموسعة) عند التاسعة والنصف في غرفة الأوضاع، وهي مركز قيادة تحت الأرض في البيت الأبيض، حاملاً مقترحات جديدة لهجمات سرّية على كوبا أوصى بها روبرت كنيدي. وكارتر، الذي شبَّه في مجالسه الخاصة، تأديةَ كنيدي في اجتماعات «النمس» بتنغّصات كلب صائد للجرذان ثائر، استمع صامتاً بينما المدعي العام يوافق على ثمانية أعمال تخريب جديدة، متوقّفة على إعطاء الرئيس إشارة الانطلاق بها. وعندها التقى كارتر رئيس محللي الصور في «السي.آي.أيه.»، أرت لوندال، وكبير خبراء الصواريخ في الوكالة، سيدني غرايبيل، في الطابق الأعلى في البيت الأبيض، جلب الرجال الثلاثة صوراً مكبّرة التقطتها «اليو ـ ٢» إلى غرفة الحكومة، حيث اجتمعت الحلقة الداخلية لمؤسسة الأمن القومي قبل الظهر بقليل.

أدار الرئيس مسجلته[1]. لقد مرَّ أكثر من أربعين عاماً قبل أن يتم جمع نسخة مكتوبة لاجتماعات أزمة الصواريخ الكوبية.

«سيكون ذلك خطيراً على نحو لعين».

حدّق الرئيس في الصور، وسأل «ما هو مدى التقدّم الذي تحقق في هذا؟». قال لوندال «سيدي، لم نشاهد أبداً من قبلُ هذا النوع من المنشآت». وقال كنيدي «ليس حتى في الاتحاد السوفياتي؟». أجاب لوندال «كلا، يا سيدي». وسأل كنيدي «أهو جاهز للإطلاق؟». أجاب غرايبيل «كلا، يا سيدي». وعاد كنيدي وتساءل «كم من الوقت... لا يمكننا قول هذا، أليس كذلك، كم من الوقت قبل الإطلاق؟». لم يعرف أحد. أين هي الرؤوس الحربية؟ سأل وزير الدفاع مكنمارا. لم يعرف أحد. وتساءل الرئيس، لماذا قام خروشتشيف بهذا؟ لم يعرف أحد. إلا أنه كان لوزير الخارجية راسك تخمين جيّد. وأوحى من طرف خفي بـ «أننا لا نعيش فعلاً في ظل الخوف من أسلحته الذرية بقدر ما عليه أن يعيش في خوف من أسلحتنا. فلدينا أيضاً أسلحة ذرّية إلى جواره، في تركيا وأماكن مشابهة».

كان الرئيس مدركاً، على نحو خافت، وجود هذه الصواريخ. فهو كاد ينسى أنه أختار إبقاء هذه الأسلحة موجهة إلى الاتحاد السوفياتي.

طلب جون فيتزجيرالد من كنيدي أن يتم تحضير ثلاثة مخططات لشن الضربة العسكرية: الأول، لتدمير منشآت الصواريخ الذرية بواسطة طائرات سلاح الجو أو البحرية؛ الثاني، لشن هجوم جوّي أكبر بكثير؛ الثالث، لغزو كوبا واحتلالها. قال «إننا سنقوم بالتأكيد بالرقم واحد. وسنتولى إزالة تلك الصواريخ». انفض الاجتماع في الواحدة بعد الظهر بعدما حاجج بوبي كنيدي من أجل اجتياح شامل.

أرخى روبرت كنيدي في الثانية والنصف بعد الظهر، بسياطه على فريق «النمس» في مكتبه الضخم في وزارة العدل، مطالباً بأفكار ومهمات جديدة. ومرَّر سؤالاً طرحه عليه الرئيس قبل ذلك بتسعين دقيقة، طالباً من هيملس أن يبلغه بعدد الكوبيين الذين سيحاربون النظام في حال قامت الولايات المتحدة باجتياح. لم يعرف أحد. عاود رجال الرئيس في السادسة والنصف مساءً،

الاجتماع في غرفة الحكومة. وسأل الرئيس كنيدي، وفي ذهنه مهمات «النمس»، إذا كان في الإمكان تدمير الصواريخ الباليستية المتوسطة المدى بالرصاص[٢]. «نعم»، قال له الجنرال كارتر، لكن هذه صواريخ متحرّكة؛ ويمكن نقلها إلى مخابئ جديدة. ولا تزال مشكلة استهداف الصواريخ المتحركة بدون حلّ حتى اليوم.

ها إن الرئيس يفكّر الآن في مسألة حرب ذرّية في شأن كوبا. أخذ يدرك مدى معرفته القليلة بالزعيم السوفياتي. «من المؤكد أننا كنا مخطئين في ما يحاول القيام به»، قال الرئيس. «لم يعتقد الكثيرون منّا أنه سيضع صواريخ باليستية متوسطة المدى في كوبا». ما من أحد سوى جون ماكون، تمتم بوندي. لماذا قام خروشتشيف بذلك؟ سأل الرئيس. وقال «ما هي الفائدة منه؟ إن الأمر كما لو أننا شرعنا في وضع عدد كبير من الصواريخ الباليستية المتوسطة المدى في تركيا». «كان ليشكل هذا الآن خطراً لعيناً، على ما أعتقد».

حلّت لحظة من الصمت الحرج. قال إثرها بوندي «حسناً، لقد فعلنا ذلك، سيدي الرئيس».

تحوّل الحديث عندها إلى الأعمال الحربية السرّية. «سيدي الرئيس، لدينا لائحة بخيارات التخريب»، قال بوندي. «... أعتبر أنك تفضّل التخريب». وهو كان كذلك. سُمح لعشر فرق، كل منها مؤلفة من خمسة من عملاء «النمس» بالتسلل إلى كوبا بواسطة غواصة. قضت أوامرهم بنسف سفن سوفياتية بواسطة ألغام تحت الماء في موانئ كوبا، ومهاجمة ثلاثة مواقع صواريخ أرض جو بالرشاشات والمورتر، وربما مهاجمة منصات إطلاق الصواريخ الذرّية. أخذ الأخوان كنيدي يتأرجحان بصورة هوجاء، وشكّلت «السي.آي.أيه.» أداتهما غير الماضية.

خرج الرئيس من الاجتماع تاركاً على الطاولة خيارين عسكريين: هجوماً مفاجئاً على كوبا، واجتياحاً عارماً كاملاً. وكانت كلماته الأخيرة طلب رؤية

ماكون في الصباح التالي قبل المغادرة في رحلة انتخابية إلى كونيتيكت. وتخلّف الجنرال كارتر، ومكانمارا، وبوندي، وبضعة أخرين، عن الذهاب.

كان نائب مدير الاستخبارات مارشال كارتر في الواحد والستين من العمر، قصير القامة مربوعها، أصلع، وحاد اللسان. سبق أن تولى منصب رئيس أركان نوراد، قيادة الدفاع الجوي الأميركية الشمالية، في عهد أيزنهاور. وهو على معرفة باستراتيجيات الولايات المتحدة النووية. والآن، وقد أصبح الرئيس خارج القاعة، أعرب رجل «السي.آي.أيه.» عن أعمق مخاوفه: «تمضون إلى هناك بهجوم مباغت»، قال كارتر. «تقضون على كل الصواريخ. لكن هذه ليست النهاية؛ إنها البداية». سيشكّل ذلك اليوم الأول من الحرب العالمية الثالثة.

المسار الذي أوصيت به

اجتمع جون ماكون وجون كنيدي في التاسعة والنصف من قبل ظهر اليوم التالي، الأربعاء ١٧ تشرين الأول/أكتوبر. لاحظ ماكون في مذكرته اليومية للسجلات أن «الرئيس بدا ميّالاً إلى التصرّف بسرعة كلّية، بدون إنذار». ثم طلب الرئيس من ماكون التوجه بالسيارة إلى غيتيسبورغ، بنسلفانيا، لتقديم إيجاز إلى دوايت د. أيزنهاور. وصل ماكون ظهراً حاملاً معه الصور التي التقطتها «اليو ـ ٢» للصواريخ الباليستية المتوسطة المدى. لاحظ ماكون أن «أيزنهاور بدا ميّالا إلى (لكنه لم يُوصِ بذلك بالتحديد) العمل العسكري الذي سيفصل هافانا، وبالتالي الاستيلاء على قلب الحكومة».

عاد المدير بالسيارة إلى واشنطن وحاول جمع أفكاره. كان منهكاً؛ فهو مضى إلى الشاطئ الغربي وعاد في أقل من ٤٨ ساعة. وقد أبيحت في ٢٠٠٣ صفحات الملاحظات الست المفردة التي وضعها بعد ظهر ذلك اليوم(٣). وهي تعكس البحث عن وسيلة لنزع الصواريخ من كوبا بدون حرب نووية.

ونظراً إلى خلفيته كباني سفن رئيسي، فهم ماكون القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية للسفن في البحر. والملاحظات التي وضعها، تضمَّنت فكرة فرض

«حصار شامل» على كوبا: «وقف كل الملاحة الوافدة»، مدعوماً بالتهديد بالهجوم. وفي اجتماعات مع بوبي كنيدي، ماكنمارا، راسك، وبوندي، استمرت حتى أوائل منتصف الليل، قام بتفصيل استراتيجية الحصار. وتظهر ملاحظات ماكون أن الفكرة لم تحصل على دعم واضح من كبار مستشاري الرئيس.

ذهب ماكون وآرت لوندال عند الحادية عشرة من قبل ظهر ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، إلى البيت الأبيض، وفي حوزتهما صور جديدة من «اليو ـ ٢». وهي تُظهر مجموعة جديدة من الصواريخ الأكبر، مدى كل منها ٢,٢٠٠ ميل، قادرة على ضرب أي مدينة أميركية رئيسية، في ما عدا سياتل. قال ماكون إن قواعد الصواريخ يديرها جنود سوفيات. وأشار مكانمارا إلى أن غارة جوية مفاجئة على القواعد ستقتل مئات عدة من السوفيات. وستشكّل مهاجمتهم عملاً حربياً ضد موسكو، وليس ضد هافانا. ثم إن نائب وزير الخارجية جورج بول، نطق بما قاله مارشال كارتر من «السي.آي.أيه.» قبل ذلك بليلتين: «إن مسار العمل الذي نقوم فيه بالضرب من دون إنذار، أشبه ببيرل هاربور».

قال الرئيس «إن المسألة هي ما العمل الذي نقوم به ويقلّل من فرص تبادل النيران النووية، وهو ما يتضح أنه الإخفاق النهائي... لديكم الحصار بدون إعلان حرب. لديكم الحصار مع إعلان حرب. ولدينا غارات أولى، وثانية، وثالثة، وصولاً إلى الاجتياح».

حصل ماكون في ذلك اليوم، على صوتين لمصلحة حجته بالحصار مع تهديدات بالهجوم. أحدهما كان صوت أيزنهاور، والآخر صوت روبرت كنيدي. فكلاهما انحاز إلى موقف ماكون. كانوا لا يزالون أقلية، لكنهم حوّلوا الاتجاه. همس الرئيس لنفسه، جالساً وحده في المكتب البيضاوي قرابة منتصف الليل، ومتحدثاً مباشرة عبر الميكروفونات المخبأة، بأنه «واضح أن الآراء تبدّلت من افضليات الضربة الأولى»[٤]. اتصل الرئيس يوم الأحد بماكون في منزله ليقول، على ما لاحظه المدير بارتياح، إنه «صمم على رأيه في سلوك المسار الذي اقترحته»[٥]. أعلن الرئيس عن ذلك القرار إلى العالم في خطاب تلفزيوني ليل الاثنين في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر.

كان ليتم اتهامي بالإخلال بالوظيفة

بدأ صباح الثلاثاء ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر في البيت الأبيض، بإيجاز قدّمه ماكون. فالأخوان كنيدي، الحذران جدّاً من الضرر السياسي الذي قد يسببه لهما المدير بوصفه الرجل الوحيد في واشنطن الذي حذّرهما مسبقاً بدقّة، من التهديد، وضعا ماكون في جولة دائرية لتقديم إيجازات إلى أعضاء الكونغرس وكاتبي المقالات الافتتاحية. أرادا منه أيضاً تمتين العمود الفقري للسفير ادلاي ستيفنسون الذي يحتاج إلى محاجة القضية الأميركية في الأمم المتحدة.

اتصل ماكون، من البيت الأبيض، براي كلاين كبير محلليه الاستخباريين، وطلب منه الطيران إلى نيويورك مع نسخ عن صور «اليو ـ ٢». وشرح ماكون أن فريق ستيفنسون عانى «مشكلة ما في طرح قضية مقنعة على مجلس الأمن. كما ترى، فإنهم في موقع سيّئ بعض الشيء والسبب هو أنه في زمن خليج الخنازير أظهر ستيفنسون بعض الصور المزوَّرة، وانكشف لاحقا أنها مزورة».

ثمّ اجتمع كبار رجالات الأمن القومي الاثنا عشر التابعون للرئيس كنيدي للتحدث عن كيفية إدارة الحصار المحدد الشروع به في صباح اليوم التالي. شكّل ذلك تقنياً عملاً حربياً. وأفاد ماكون متحدّثي أروقة الأمم المتحدة، وقد نقل ذلك راي كلاين، وأوحى بأن السفن السوفياتية المتوجهة إلى كوبا قد تحاول تجاوز السفن الحربية الأميركية.

سأل الرئيس كنيدي «الآن ما الذي سنفعله غداً صباحاً عندما تستمر هذه السفن الثماني في الإبحار؟ فهل من الواضح لدينا جميعاً كيف» ـ ترافق تساؤله مع بعض الصمت، عصبية خفيفة ـ «ستتعامل مع الأمر؟».

لم يعرف أحد. وحلّ صمت وجيز آخر.

أجاب ماكون «ضرب دفّتهم، أليس كذلك؟».

انفضّ الاجتماع. وقّع كنيدي على إعلان الحجر، وبقي هو وشقيقه وحدهما لبعض الوقت في غرفة الحكومة.

قال الرئيس «حسناً، يبدو أن الأمر سيصبح رديئاً حقاً. إلا أنه، من جانب آخر، ليس لدينا خيار حقيقي. وإذا أصبحوا سيئين في هذه، يا إلهي! فما الذي سيخربونه بالتالي؟». وجزم شقيقه: «لم يكن ثمة أي خيار. أعني أنك سوف... كنت لتُتهم بالإخلال بالوظيفة».

سرى مفعول الحصار، عند العاشرة من قبل ظهر الأربعاء ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر، ووُضع الجيش الأميركي في حالة الطوارئ القصوى ما دون الحرب النووية، وشرع ماكون في إيجازاته اليومية في البيت الأبيض. وأصبح مدير الاستخبارات المركزية أخيراً يعمل بما أمر به ميثاقها، وهو جلب كل الاستخبارات الأميركية إلى الرئيس بصوت واحد. أفاد أن الجيش الروسي ليس في حالة استنفار قصوى، لكنه يزيد من جهوزيته، وتوجد للبحرية السوفياتية غواصات في الأطلسي تتبع الأسطول المتوجه إلى كوبا. وأظهرت صور جديدة للاستطلاع الجوي، أبنية لخزن الرؤوس الحربية النووية، لكن لا أثر للرؤوس نفسها. وجهد ماكون في ذلك اليوم، ليشير إلى الرئيس أن الحصار لن يمنع السوفيات من تجهيز مواقع إطلاق الصواريخ.

شرع ماكنمارا في طرح خططه لاعتراض السفن السوفياتية والغواصات، ثم قاطعه ماكون «سيدي الرئيس، لقد سُلّمت إليّ ملاحظة للتو... كل السفن الروسية الست التي حُدّد وجودها في المياه الكوبية... إما توقّفت وإما عادت أدراجها». قال راسك، «ماذا تعني بالمياه الكوبية؟» وقال الرئيس «السفن المغادرة كوبا أو تلك الآتية إليها؟». ثم نهض ماكون وقال «سأعرف ذلك»، وغادر الغرفة. وتمتم راسك: «هذا يُحدث فارقاً ما».

عاد ماكون مع الخبر العاجل بأن السفن السوفياتية كانت متوجهة إلى كوبا، على بعد أكثر من خمسمئة ميل من الجزيرة، وهي إما توقفت وإما عادت أدراجها. وهذه هي اللحظة التي يفترض فيها أن راسك مال صوب بوندي، وقال: «إننا تواجهنا العين بالعين، وأعتقد أن الطرف الآخر رفّت عينه للتو».

نجح القسم الأول من استراتيجية ماكون: فالحظر على الرحلات البحرية

السوفياتية سيثبت، وسيكون الجزء الثاني أكثر صعوبة بكثير. وعلى ما بقي يذكّر الرئيس به، فإن الصواريخ لا تزال هناك، والرؤوس الحربية مخبّأة في مكان ما على الجزيرة، والخطر يتزايد.

قال أدلاي ستيفنسون، في البيت الأبيض في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، إن الأمر سيستغرق أسابيع، وربما أشهراً من المفاوضات لإخراج الصواريخ من كوبا. وعلم ماكون بأنه لا وقت لذلك. وانتحى، في منتصف النهار، بالرئيس جانباً (وإذا كان بوبي موجوداً فهو لم يتكلّم أبداً) من أجل اجتماع خاص في المكتب البيضاوي يضمه وحده مع محلل الصور أرت لوندال. أظهرت صور استطلاع جوية جديدة أن السوفيات أدخلوا أسلحة ذرّية قصيرة المدى. ومنصات إطلاق الصواريخ المموهة حديثاً تكاد تكون على استعداد للإطلاق. ويعمل على كل موقع صواريخ ما يصل إلى خمسمئة عنصر عسكري يحرسهم ثلاثمئة سوفياتي إضافيون.

«إنني أُصاب بمزيد من القلق في كل يوم»، قال ماكون للرئيس. «يمكنهم الشروع عند حلول الظلام، وتكون لديهم صواريخ موجهة صوبنا في الصباح التالي. ولهذا السبب، فإنني مصاب بقلق متزايد حول سلوك الطريق السياسية».

«ما الطريق الأخرى؟»، سأل الرئيس. «فالمسار البديل هو في أنه يمكننا القيام بالضربة الجوية أو بالاجتياح. وسنظل نواجه، إذا قمنا بالاجتياح، أننا في الوقت الذي نصل فيه إلى هذه المواقع بعد قتال دموي عنيف، ـ ستظل مصوبة علينا. لذا، يبقى السؤال المطروح هو ما إذا كانوا سيطلقون الصواريخ».

«هذا صحيح»، قال ماكون. أخذ ذهن الرئيس الآن يزوغ بين الدبلوماسية والحرب. «أعني، لا يوجد عمل آخر يمكننا القيام به غير الدبلوماسية، وهي لا تخلّصنا فوراً من هذه»، قال كنيدي. «الطريقة الأخرى هي، على ما أظن، تركيبة من الغارات الجوية وربما الاجتياح، ما يعني أنه سيكون علينا القيام بهذين الاثنين، وفي ذهننا احتمال أنه قد يتم إطلاقها».

حذر ماكون من الاجتياح، وأبلغ الرئيس أنه «سيشكل عملية أكثر خطورة بكثير مما يدرك معظم الناس». فالروس والكوبيون يمتلكون «الكثير الجهنمي من المعدات... معدات قاتلة جداً موجودة لديهم هناك. قاذفات صواريخ، ناقلات مدافع ذاتية الحركة، نصف مجنزرات... ستواجه قوة الاجتياح وقتاً عصيباً جداً. ولن يكون هناك أي أمر ميسور في أي وسيلة أو حال من الاحوال».

وصلت في تلك الليلة رسالة طويلة من موسكو إلى البيت الأبيض. استغرقت البرقية أكثر من ست ساعات لبثها وتلقّيها، ولم تكتمل إلا في التاسعة مساءً. كانت رسالة شخصية من نيكيتا خروشتشيف تستهجن «كارثة حرب ذرية حرارية» وتقترح ـ على ما يبدو ـ مخرجاً: إذا تعهّد الأميركيون بعدم اجتياح كوبا، فسيسحب الروس الصواريخ.

بدأ ماكون، يوم السبت **٢٧** تشرين الأول/أكتوبر، اجتماع الساعة العاشرة صباحاً في البيت الأبيض، بالخبر المريع: الصواريخ يمكن أن تُطلقَ في أقل من ست ساعات. وبالكاد، أنهى إيجازه حتى قرأ الرئيس كنيدي خبراً مأخوذاً من جهاز أخبارِ «الأسوشيتد برس» مصدره موسكو: «رئيس الوزراء خروشتشيف أبلغ الرئيس كنيدي بالأمس بأنه سيسحب الأسلحة الهجومية من كوبا إذا سحبت الولايات المتحدة صواريخها من تركيا». وتحوّل الاجتماع إلى صخب.

لم يقبض الفكرة أحد في البدء، ما عدا الرئيس وماكون.

«دعونا لا نضحك على أنفسنا»، قال كنيدي. «لديهم عرض جيّد جداً».

وافق ماكون: فهو محدَّد، وجاد، ويستحيل تجاهله. وانسحب الجدل حول كيفية الرد طوال ساعات النهار، وقطعته لحظات رعب. ففي البداية ضلّت طائرة «يو ـ ٢» طريقها إلى الأجواء السوفياتية قبالة شواطئ آلاسكا، دافعة بالطائرات السوفياتية إلى الصعود بسرعة. ثم، عند حوالى السادسة والنصف بعد الظهر، أعلن مكانمارا فجأة أن طائرة «يو ـ ٢» أخرى أُسقطت فوق كوبا، ما أدى إلى مقتل الرائد في سلاح الجو رودولف أندرسون.

وها إن رؤساء الأركان المشتركة يوصون بالشروع في هجوم شامل على

كوبا في خلال ٣٦ ساعة. وحوالى السادسة والنصف مساءً، غادر الرئيس كنيدي الغرفة، وأصبحت المحادثات على الفور أقل تكلّفا وأكثر قساوة.

قال ماكنمارا «إن الخطة العسكرية هي في الأساس اجتياح». وقال «عندما نهاجم كوبا، فإننا سنشن هجوماً بكل الوسائل والإمكانات، ومن شبه المؤكد أن هذا سيؤدي إلى اجتياح». . . أو إلى حرب نووية، تمتم بوندي. وتابع ماكنمارا «إن الاتحاد السوفياتي ربما، وأعتقد أنه سوف، يهاجم الصواريخ التركية». ثم سيكون على الولايات المتحدة مهاجمة سفن سوفياتية أو قواعد في البحر الأسود.

«عليّ أن اقول إن ذلك خطير على نحو لعين»، قال وزير الدفاع. «وأنا لست متأكداً، الآن، من أنه يمكننا تفادي أمر كهذا إذا هاجمنا كوبا. إلا أنني أعتقد أن علينا بذل كل جهد لتفاديه. وأحد السبل إلى تفادي ذلك، هو في نزع فتيل صواريخ تركيا قبل أن نهاجم كوبا»، قال ماكنمارا.

انفجر ماكون: «لا أرى لماذا لا تقوم إذاً بالمقايضة!»، وتزحزحت الأرض.

صاحت أصوات أخرى: قم بالمقايضة! قم بالمقايضة إذاً! وتابع ماكون وغضبه يزداد: «لقد تحدثنا في شأن هذا، وقلنا إننا سنكون مسرورين بمقايضة تلك الصواريخ في تركيا بهذا الشيء في كوبا». وتابع الدخول في صلب الموضوع: «سأقايض هذه الأمور التركية فوراً. ولن أتحدث حتى إلى أي كان في شأن ذلك. جلسنا لمدة أسبوع وهكذا كان الأمر. الجميع يؤيد القيام بذلك»، إلى أن اقترحه خروشتشيف.

عاد الرئيس إلى غرفة الحكومة عند حوالى السابعة والنصف مساءً، واقترح على الجميع أخذ استراحة للعشاء. ثم إنه وشقيقه تحدثا في المكتب البيضاوي مع ماكنمارا، راسك، بوندي، وأربعة آخرين من مساعديه الموثوقين. استُبعد ماكون، إلا أنهم ناقشوا فكرته، وهو ما كان يريده الرئيس. وقد أقسم كل من في الغرفة على حفظ السرّ. غادر بوبي كنيدي البيت الأبيض والتقى السفير السوفياتي أناتولي دوبرينين في مكتبه في وزارة العدل. أبلغ دوبرينين أن

الولايات المتحدة توافق على التعامل بالمثل في شأن الصواريخ، شرط عدم الإعلان عن ذلك أبداً. لم يمكن الأخوين كنيدي أن يُشاهَدا وهما يبرمان صفقة مع خروشتشيف. وتعمَّد المدعي العام تزييف مذكّرته عن الاجتماع، ملغياً إشارة مكتوبة عن الصفقة. وأبقيت المقايضة طي الكتمان الشديد. وقال جون ماكون بعد نصف قرن: «أصرّ الرئيس كنيدي والمدعي العام بوبي كنيدي على أنهما لم يناقشا في أي وقت من الأوقات الصواريخ [في] تركيا مع أي ممثلين عن السوفيات، وأنه لم تبرم أي صفقة من هذا النوع»(٦).

واعتقد العالم، لأعوام طويلة تلت، أن تصميم الرئيس كنيدي الهادئ والتزام شقيقه الحديدي بالحل المسالم، وحدهما، قد أنقذا الأمة من حرب نووية. وتم التعتيم على دور ماكون المحوري في أزمة الصواريخ الكوبية لما بقي من القرن العشرين.

سرعان ما انقلب الأخوان كنيدي على ماكون. فقد عمم المدير في مختلف أنحاء واشنطن، أنه كان الرقيب الوحيد على الصواريخ الكوبية. وشهد أمام مجلس الاستخبارات الخارجية التابع للرئيس، بأنه أطلع الرئيس على شعوره الغامض منذ ٢٢ آب/أغسطس. وظهرت زبدة تقرير المجلس حول الفجوة في الصور في «الواشنطن بوست» في ٤ آذار/مارس ١٩٦٣. وأبلغ بوبي كنيدي شقيقه في ذلك اليوم، أن «السي.آي.أيه.» قد تكون سرّبت المعلومة للإضرار به.

«نعم»، قال الرئيس، «انه لابن زنى حقيقي هذا الجون ماكون»(٧).

إزاحة فيدل، بالقتل إذا قضت الضرورة

حاول ماكون في ذروة أزمة الصواريخ، وضع عقال على عملية «النمس» وتركيز طاقاتها الكبرى على جمع الاستخبارات للبنتاغون(٨). اعتقد أنه نجح. لكن بيل هارفي من «السي.آي.أيه.»، استنتج أن الولايات المتحدة على وشك اجتياح كوبا، وأمر مخربي «النمس التابعين» له بالهجوم.

وعندما اكتشف بوبي كنيدي، الذي دفع بأقصى ما يمكنه من أجل مهمات «النمس»، هذا الفشل الخطير في القيادة، دخل في حالة من الغضب الشديد. وبعد حفلة صياح، طرد هارفي من واشنطن. أرسله هيملس إلى روما رئيساً للمحطة، لكن ليس قبل أن تأخذ «السي.آي.أيه.» علماً بوجبة الطعام السِّكْرية التي تناولها هارفي مع جوني روسيللي، قاتل المافيا المأجور الذي استأجره لقتل كاسترو. وفي روما، أصبح هارفي المدمن على الكحول متخلِّع العقل، يدير رجاله بالطريقة ذاتها التي أداره بها بوبي كنيدي.

استبدله هيلمس بوصفه الرجل المسؤول عن كوبا، برئيسه في الشرق الأقصى، ديزموند فيتزجيرالد، وهو مليونير من متخرجي هارفرد، عاش في قصر من القرميد الأحمر في جورجتاون مع خادم في غرفة السفرة وسيارة جاغوار في المرأب. أحبّه الرئيس. فهو يتناسب مع صورة جيمس بوند. أعطاه فرانك ويسنر وظيفة أخرجته من مؤسسة المحاماة التابعة له في نيويورك، إبان الحرب الكورية، وجعل منه على الفور ضابطاً تنفيذياً في قسم الشرق الأقصى في الجهاز السرّي. ساعد في إدارة عملية «لي مي» الكارثية في بورما، ثم تولّى قيادة المهمة الصينية في «السي.آي.أيه.» التي أرسلت عملاء أجانب إلى حتفهم حتى ١٩٥٥، عندما اعتبرت مراجعة قام بها مقر القيادة المهمة بمثابة مضيعة للوقت، والمال، والطاقة، والحياة الإنسانية. ثم رُقِّي فيتزجيرالد إلى نائب رئيس للشرق الأقصى، حيث ساهم في إعداد العملية الإندونيسية وتنفيذها في ١٩٥٧ و١٩٥٨. وأشرف، بوصفه رئيساً لقسم الشرق الأقصى، على التوسيع السريع لعمليات «السي.آي.أيه.» في فيتنام، ولاوس، والتيبت.

وها إن الأخوين كنيدي يعطيانه الأمر بنسف مناجم كوبية، ومعامل، ومحطات للطاقة، وسفن تجارية، لتدمير العدو على أمل خلق ثورة مضادة. والهدف، كما أبلغه بوبي كنيدي لفيتزجيرالد في نيسان/أبريل ١٩٦٣، هو الإطاحة بكاسترو في ١٨ شهرا، قبل الانتخابات الرئاسية المقبلة. وقد مات ٢٥ عميلاً كوبيّاً لـ «السي.آي.أيه.» في هذه العمليات العبثية.

ثم إن فينزجيرالد قاد في صيف ١٩٦٣ وخريفه، المهمة النهائية لقتل فيدل كاسترو[٩].

خطّطت «السي.آي.أيه.» لاستخدام رونالدو كوبيلا، وهو أفضل عميل لها في موقع داخل حكومة كوبا، قاتلاً مأجوراً. فكوبيلا، وهو رجل شديد التوتّر، فالت اللسان، وعنيف يكره كاسترو، يتولّى منصب رائد في الجيش الكوبي، وعمل ملحقاً عسكرياً في إسبانيا، ويسافر على نحو واسع. وفي حديث مع أحد ضباط «السي.آي.أيه.» في هلسينكي في الأول من آب/أغسطس ١٩٦٣، تطوّع «للتخلص من كاسترو، بالقتل إذا لزم». اجتمع في الخامس من أيلول/سبتمبر في بورتو أليغري، في البرازيل، مع محرّكه الضابط في «السي.آي.أيه.» نستور سانشيز حيث كان يمثّل كوبا في ألعاب جامعية دولية. ولاحظت «السي.آي.أيه.» في السابع من أيلول/سبتمبر، كما ينبغي عليها ذلك، أن كاسترو اختار حفل استقبال في السفارة البرازيلة في هافانا ليلقي خطابا طويلاً شديد اللهجة في أحد مراسلي «الأسوشيتد برس». قال كاسترو إن «زعماء الولايات المتحدة سيصبحون في خطر إذا ساهموا في أي محاولة للتخلّص من زعماء كوبيين... وإذا كانوا يساعدون مؤامرات إرهابية للقضاء على زعماء كوبيين، فإنهم، أنفسهم، لن يكونوا في مأمن».

التقى سانشير وكوبيلا من جديد في باريس في أوائل تشرين الأول/أكتوبر، وقال العميل الكوبي لضابط «السي.آي.أيه.» إنه يريد بندقية شديدة القوة مع منظار تيليسكوبي. وفي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣، أخذ فيتزجيرالد الطائرة إلى باريس والتقى بكوبيلا في مقر آمن لـ «السي.آي.أيه.».

قال فيتزجيرالد إنه مبعوث خاص موفد من روبرت كنيدي، وهو ما كان قريباً على نحو خطير من الحقيقة، و«السي.آي.أيه.» ستسلّم كوبيلا الأسلحة التي يختارها. وأخبرهم أن الولايات المتحدة تريد «انقلاباً حقيقياً» في كوبا.

٢٠

«هاي، أيها الرئيس، لقد أنجزنا عملاً جيّداً، أليس كذلك؟»

أملى جون ف. كنيدي، وهو وحده في المكتب البيضاوي، يوم الاثنين ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، مذكّرة حول الدوّامة التي حركها على مسافة تقارب بعد نصف العالم: اغتيال حليف الأميركيين، رئيس فيتنام الجنوبية نغو دين ديام.

«علينا أن نتحمّل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن ذلك»[1]، قال كنيدي. توقف للحظة ليلعب مع أولاده الذين كانوا يركضون جيئة وذهاباً إلى الغرفة، ثم استأنف «الطريقة التي قُتل بها» ـ وتوقّف من جديد ـ «تجعلها مقيتة على نحو خاص».

كان عنصر «السي.آي.أيه.» لوسيان كونين جاسوسَ كنيدي بين الجنرالات المتمردين الذين قتلوا ديام. «كنت قطعة وجزءاً من المغامرة بأكملها»[2]، قال كونين في شهادة استثنائية بعد ذلك بسنوات.

كان اسمه الحركي بلاك لويجي، وتبدو عليه ملامح المجرم الكورسيكي. انضم كونين إلى «الأو.أس.أس.»، وتدرّب مع البريطانيين، وأُنزل بالمظلة وراء الخطوط الفرنسية. طار في ١٩٤٥ إلى إندونيسيا لمحاربة اليابانيين؛ وكان في هانوي مع هو شي منه، وقد بقيا لفترة حليفين. واستمرّ ليصبح عضواً مؤسساً لـ «السي.آي.أيه.».

في ١٩٥٤، أصبح واحداً من أوائل ضباط الاستخبارات الأميركية في فيتنام. وبعدما هزم هوشي الفرنسيين في معركة ديان بيان فو، قسّم مؤتمر دولي

في جنيف فيتنام إلى جزأين جنوبي وشمالي، وقد تمثّلت الولايات المتحدة في ذلك المؤتمر بنائب وزير الخارجية والتر بيديل سميث.

دعمت الولايات المتحدة على مدى الأعوام التسعة التالية، ديام بوصفه الرجل الذي سيحارب الشيوعية في فيتنام. خدم كونين بإمرة إد لانسديل في البعثة الجديدة لـ «السي.آي.أيه.» في سايغون. وقد تمتّع لانسديل «بشرعة رحبة جداً»، يقول عضو «السي.آي.أيه.» روفوس فيليبس. «كان الأمر حرفياً: إد، قم بما يمكنك فعله لإنقاذ جنوب فيتنام»[٣].

ذهب كونين إلى فيتنام الشمالية في مهمات تخريب، مدمّراً قطارات وباصات، ملوّثاً الفيول والزيوت، ومنظّماً مئتي كوماندوس فيتناميين درّبتهم «السي.آي.أيه.»، ودافناً أسلحة في مقابر هانوي. ثم عاد إلى سايغون للمساعدة في تعويم الرئيس ديام، وهو كاثوليكي صوفي في بلد بوذي وفّرت له «السي.آي.أيه.» ملايين الدولارات، وكتيبة من الحراس الشخصيين، وخط اتصال مباشراً مع ألن دالاس. أنشأت الوكالة الأحزاب الفيتنامية الجنوبية السياسية، ودرّبت الشرطة السرية، وصنعت أفلامها الشعبية، وطبعت مجلة فلكية ونشرتها، تنبّأت بأن النجوم تحابي ديام. كانت تبني البلاد من الأساس.

الجهالة والعنجهيّة

شرع الجنود الفلاحون في فيتنام الشمالية، في ١٩٥٩، بشق طريق هو شي منه عبر أدغال لاوس، وقد زرع الممر برجال حرب العصابات والجواسيس المتوجهين إلى فيتنام الجنوبية.

أصبحت لاوس، وهي أرض اللوتس لعصر ما قبل الصناعة، «منطقة اضطراب رأت الولايات المتحدة أن العالم الشيوعي أخذ يتحدّى مصالحها فيها»[٤]، على ما قاله جون غونتر دين، وكان يومها موظفاً صغيراً في وزارة الخارجية في السفارة الأميركية في فينتيان. شرعت الولايات المتحدة في العمل

شارية حكومة لاوسية جديدة[٥] ومنشئة جيش حرب عصابات لمقاتلة الشيوعيين ومحاربة الطريق. ردّ الفيتناميون الشماليون بزيادة محاولات التسلل إلى البلاد وتدريب الشيوعيين المحليين، الباثيت لاو.

كان مهندس الاستراتيجية السياسية في لاوس رئيس محطة «السي.آي.أيه.»، هنري هكشر، وهو من قدامى قاعدة برلين والانقلاب في غواتيمالا. شرع هكشر في بناء شبكة سيطرة أميركية، مستخدماً دبلوماسيين حديثي العهد بوصفهم حاملي أكياس المال. واستذكر دين «سألني هكشر، في أحد الأيام، إذا كان في وسعي حمل حقيبة يد إلى رئيس الوزراء. وكانت الحقيبة تحتوي على المال»[٦].

جعلت النقود زعماء لاوس «يدركون أن السلطة الحقيقية في السفارة، ليست السفير بل رئيس محطة «السي.آي.أيه.»»، قال دين، الذي أصبح لاحقاً السفير الأميركي في تايلاند، والهند، وكمبوديا، ودول آخرى. «كان يفترض بالسفير أن يساند الحكومة اللاوية، وألا يعمد أساساً إلى هزّ المركب. وكان هنري هكشر متكرّساً لمعارضة رئيس الوزراء المؤيّد لعدم الانحياز، وربما العمل على إسقاطه، وهو ما حصل».

أجبرت «السي.آي.أيه.» حكومة ائتلافية منتخبة بحرّية على الرحيل، ونصّبت رئيس وزراء جديداً هو الأمير سوفانا بوما. كان الضابط المحرّك لرئيس الوزراء هو كامبل جيمس، وهو وريث ثروة من سكة الحديد، يتهندم، ويتصرف، ويفكّر مثل جندي بريطاني من القرن التاسع عشر. وبعد ثماني سنوات على تخرّجه من يال، رأى في نفسه نائب الملك في لاوس، وعاش على هذا الأساس. صنع جيمس أصدقاء من بين زعماء لاوس، واشترى النفوذ في نادي قمار خاص أنشأه. وكان محط الأنظار فيه طاولة روليت استعارها من جون غنتر دين[٧].

بدأت معركة لاوس الحقيقية بعدما اكتشف عنصر «السي.آي.أيه.» بيل لير،

الذي أدار مدرسة تدريب للكوماندوس التايلانديين على حرب الأدغال، أحد رجال قبائل لاوس الجبلية يدعى فانغ باو، وهو جنرال في جيش لاوس الملكي يقود قبيلة جبلية تسمي نفسها الهمونغ. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٠، أطلع لير رئيس قسم الشرق الأقصى ديزموند فيتزجيرالد على مجنّده الجديد. وأفاد لير «قال فانغ باو: لا يمكننا العيش مع الشيوعيين. أَعطونا السلاح وسنحارب الشيوعيين». وفي صباح اليوم التالي، في محطة «السي.آي.أيه.»، طلب فيتزجيرالد من لير أن يكتب اقتراحاً. واستذكر لير «كان كناية عن برقية من ١٨ صفحة. وجاء الجواب بعد فترة قصيرة... وقد شكل ذلك إشارة الانطلاق الحقيقية»[٨].

سلّم طيارو «السي.آي.أيه.» في أوائل كانون الثاني/يناير، في الأيام الأخيرة لإدارة أيزنهاور، أول أسلحتهم إلى الهمونغ. انضمَّ بعد ذلك بستة أشهر، أكثر من تسعة آلاف من رجال القبائل الجبلية، بقيادة فانغ باو، إلى ٣٠٠ كوماندوس تايلاني درّبهم لير على عمليات الحرب ضد الشيوعيين. أرسلت «السي.آي.أيه.» المَدافع، والمال، وأجهزة اللاسلكي، والطائرات، إلى جيش لاوس في العاصمة، وإلى قادة القبائل في الجبال. مهمّتهم الأكثر إلحاحاً هي قطع طريق هو شي منه. وها إن هانوي قد أعلنت جبهة التحرير الوطني في الجنوب. وفي تلك السنة، قُتل أربعة آلاف مسؤول فيتنامي جنوبي على أيدي الفيتكونغ.

أخذ يُنظر إلى مصير لاوس وفيتنام الجنوبية بعد أشهر قليلة على تولي الرئيس كنيدي السلطة، بوصفه مصيراً واحداً. لم يشأ الرئيس كنيدي إرسال جنود أميركيين للموت في تلك الأدغال. وطلب، بدلاً من ذلك، من «السي.آي.أيه.» مضاعفة قواتها القبلية في لاوس و«القيام بكل جهد ممكن لشن عمليات حرب عصابات في فيتنام الشمالية» بواسطة مجنّديها الآسيويين[٩].

لم يعِرف الأميركيون الذين أُرسلوا إلى لاوس في سنوات كنيدي، الاسم القبلي للهمونغ. أطلقوا عليهم اسم الميو، وهي صفة تتراوح في منزلة ما بين «البربري» و«الزنجي». وأحد هؤلاء الشبان كان ديك هولم. وتحسّر، في نظرة

إلى الوراء، على «جهل الأميركيين الواصلين إلى جنوب شرق آسيا وعنجهيتهم.... تمتعنا فقط بإدراك الحد الأدنى لتاريخ الشعب الذي أردنا مساعدته، ولثقافته، وسياساته... طغت مصالحنا الاستراتيجية على منطقة قرر فيها رئيسنا وضع حدّ للشيوعية. وسنقوم بذلك على طريقتنا»[١٠].

قال نائب المدير للاستخبارات، روبرت أرموري جونيور، إن «جميع الناشطين» في «السي.آي.أيه.» «كانوا مؤيدين لحرب في لاوس. اعتقدوا أنها مكان رائع للقيام بحرب»[١١].

حصدنا الكثير من الأكاذيب

تمتع الأميركيون المرسَلون إلى فيتنام بدرجة متساوية من الجهل العميق بتاريخ البلاد وثقافتها[١٢]. إلا أن ضباط «السي.آي.أيه.» رأوا في أنفسهم طليعة الحرب الشاملة على الشيوعية.

أطلقوا أيديهم في سايغون. وقال السفير ليوناردو نيهر، وكان يومها موظفاً في السفارة الأميركية في سايغون، «عملوا تحت غطاءات مختلفة كمنتجي الأفلام والدراما، ومديري مبيعات صناعية. كانوا مدرَّبين، وخبراء أسلحة، وتجاراً». وتابع، «امتلكوا أموالاً لا تُعقل... تمتعوا بأفضل الأوقات. امتلكوا كل ما أرادوه»[١٣].

الشيء الوحيد الذي افتقروا إليه، هو الاستخبارات عن العدو. وشكّلت تلك مسؤولية وليلم إ. كولبي، رئيس محطة سايغون من ١٩٥٩ إلى ١٩٦١، الذي سرعان ما أصبح رئيس قسم الشرق الأقصى في الجهاز الخفي.

وكولبي، الذي قاتل في ما وراء خطوط العدو بوصفه من كوماندوس «الأو.أس.أس.»، تصرّف كما فعل في الحرب العالمية الثانية. شرع في عملية اسمها مشروع النمر[١٤] لإنزال نحو ٢٥٠ عميلاً فيتنامياً جنوبياً في فيتنام الشمالية. وبعد عامين، تم تسجيل مقتل، ٢١٧ منهم أو فقدانهم، أو الاشتباه

فيهم على أنهم جواسيس مزدوجون. وأدرج تقرير نهائي مصير ٥٢ فريقاً من العملاء، يضم كل واحد منها ما يصل إلى ١٧ رجل كوماندوس:

«اعتُقلوا بعد وقت قليل على هبوطهم».

«أعلن رادوي هانوي الاعتقال»؛

«فريق تم تدميره»؛

«فريق يُعتقد أنه تحت السيطرة الفيتنامية الشمالية»؛

«مزدوجون، مستغَلّون، تم انهاؤهم». توحي هذه الجملة الأخيرة بأن الولايات المتحدة اكتشفت أن فريق كوماندوس يعمل لفيتنام الشمالية سرّاً، وقامت من ثم بمطاردة أعضائه وقتلهم. غاب السبب عن إخفاق المهمات على «السي.آي.أيه.» إلى ما بعد الحرب البادرة، عندما كشف واحد من مجنّدي كولبي، النقيب دو فان تيان نائب رئيس مشروع النمر، أنه كان جاسوساً لهانوي كل الوقت.

«حصدنا الكثير من الأكاذيب»[١٥]. قال روبرت بربور نائب رئيس القسم السياسي في السفارة الأميركية. «عرفنا عن بعضها أنه كاذب، ولم نعرف عن بعضها الآخر».

أوفد الرئيس كنيدي الجنرال ماكسويل تايلور، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١، لتقويم الوضع[١٦]. وقد حذّر تايلور في تقرير سرّي للغاية أرسله إلى الرئيس، من أن «فيتنام الجنوبية تمرّ الآن بأزمة ثقة حادة». و«على الولايات المتحدة أن تبرهن بالأفعال ـ وليس بالأقوال وحسب ـ الالتزام الأميركي الجدي بالمساعدة في انقاذ فيتنام». وكتب: «وليكون هذا الالتزام مُقنِعاً، يجب أن يتضمّن إرسال بعض القوات العسكرية الأميركية إلى فيتنام». شكّل ذلك سرّاً عميقاً جدّاً[١٧].

واعتبر الجنرال تايلور أن الولايات المتحدة تحتاج إلى المزيد من الجواسيس لكسب الحرب. وفي ملحق سرّي بالتقرير، قال نائب رئيس محطة

«السي.آي.أيه.» في سايغون، ديفيد سميث، أن المعركة الأساسية ستخاض داخل حكومة فيتنام الجنوبية. وقال إنه على الأميركيين اختراق حكومة سايغون، والتأثير فيها، و«تسريع عملية القرار والتحرك» في داخلها، وإذا اقتضت الضرورة تغييرها.

وقد أُنيطت هذه المهمة بلوسيان كونين.

لم يحبَّ أحد ديام

شرع كونين في العمل مع نغو دينه نهو، الشقيق نصف المجنون للرئيس ديام، لإنشاء برنامج القرى الاستراتيجية، الذي جمّع الفلاحين من قراهم في معسكرات مسلحة كوسيلة دفاع ضد الإفساد الشيوعي. وقام كونين، الذي ارتدى زي مقدّم في الجيش الأميركي، بالتنقيب عميقاً في الثقافة العسكرية والسياسية المنحلّة لفيتنام الجنوبية.

قال، «أمكنني الذهاب إلى كل مقاطعة، والتحدّث إلى قادة الوحدات. بعض هؤلاء الناس عرفتهم منذ سنوات عدة؛ وبعضهم منذ أيام الحرب العالمية الثانية. وبعضهم تولى مناصب شديدة التأثير». وسرعان ما أصبحت اتصالاته أفضل ما تملكه الوكالة في فيتنام. لكن كان ثمة الكثير مما لم يعرفه.

عشية ذكرى مولد بوذا الـ ٢,٥٢٧، طار كونين إلى هيو، حيث وجد حاشية عسكرية كبيرة لم يفهم حضورها. تم تشجيعه على المغادرة في الطائرة التالية. وقال مستذكراً، «أردت البقاء. رغبت في مشاهدة الاحتفال بذكرى مولد بوذا. أردت رؤية المراكب ذات الشموع المضاءة تنزل عبر النهر المعطّر، لكن ذلك لم يكن مقدّراً». وفي اليوم التالي هاجم جنود ديام، وقتلوا أعضاء من الحاشية البوذية في هيو.

قال كونين إن «ديام لم يكن على اتصال مع الواقع». فكشّافة ديام ذوو البزات الزرقاء المصمَّمة على شاكلة فتيان هتلر، وقواته الخاصة التي دربتها «السي.آي.أيه.»، وشرطته السرّية، هدفوا إلى إقامة نظام كاثوليكي في بلد

بوذي. ومن خلال قمعه الرهبان، جعل منهم ديام قوة سياسية ذات بأس. وفي ١١ حزيران/يونيو، جلس راهب عمره ستون سنة وأحرق نفسه عند أحد تقاطعات طرق سايغون. دارت صورة التضحية بالذات حول العالم. وكل ما بقي منه هو قلبه. وها إن ديام أخذ يغير على المعابد البرجية قاتلاً الرهبان والنساء والأولاد للمحافظة على سلطته.

«لم يحبَّ أحد ديام»، قال بوبي كنيدي بعد وقت قليل على ذلك[١٨]. «لكن، كيف يمكن التخلّص منه والحصول على من يواصل الحرب، ولا يقسم البلاد إلى قسمين، وبالتالي يخسر ليس الحرب وحسب، بل البلد أيضاً. تلك هي المشكلة الكبرى».

شرع الرئيس كنيدي، في أواخر حزيران/يونيو وأوائل تموز/يوليو، في الحديث في مجالسه الخاصة عن التخلّص من ديام. وإذا كان يجب القيام بالأمر على الوجه الصحيح، فمن الأفضل أن يقام به سرّاً. بدأ الرئيس عملية تغيير النظام بتسمية سفير أميركي جديد: المتغطرس هنري كابوت لودج، وهو خصم سياسي هزمه مرتين، مرّة في السباق إلى منصب سيناتور عن ماساتشوستس، ومرة بوصفه المرشح الرديف لريتشارد نيكسون. قبل لودج الوظيفة بسرور بعدما تم التأكيد له أنه سيمتلك سلطات نائب الملك في سايغون.

تلقى لوسيان كونين، في الرابع من تموز/يوليو، رسالة من الجنرال تران فان دون، رئيس الأركان المشتركة بالوكالة لجيش جنوب فيتنام، وهو رجل يعرفه منذ ١٨ عاماً. «وافني إلى فندق الكارافيل»، قالت الرسالة. في تلك الليلة، وفي علبة ليل الطابق السفلي المليئة بالناس والعابقة بالدخان، أسرّ الجنرال بأن الجيش يحضّر لتحرّك ضد ديام.

وطرح دون على كونين السؤال التالي: «ماذا سيكون رد الفعل الأميركي إذا مضينا في الأمر إلى الآخر؟».

لكن جون ف. كنيدي أعطى الجواب في ٢٣ آب/أغسطس.

كان وحده في ليلة يوم سبت شتوي، يسير على عكازين بسبب الألم في

ظهره، جازعاً على ابنه باتريك الذي وُلد ميتاً، ودُفن قبل ذلك بأسبوعين. وبعيد التاسعة مساءً، تلقى الرئيس اتصالاً من مساعده لشؤون الأمن القومي مايكل فوريستال، ووافق بدون مقدمات على برقية للاطلاع فقط للسفير لودج الواصل حديثاً، كتبها روجر هيلسمان في وزارة الخارجية. «علينا أن نواجه إمكان أنه لا يمكن الحفاظ على ديام نفسه»[١٩]. قالت البرقية للودج، وحثته على «وضع مخططات مفصلة حول كيفية الإتيان ببديل لديام». لم يتم التشاور مع وزير الخارجية، أو وزير الدفاع، أو مدير الاستخبارات المركزية. وثلاثتهم من المرتابين في شأن انقلاب على ديام.

قال الرئيس لنفسه بعدما أصبحت العواقب واضحة «لم يكن عليّ أن أوافق على الأمر»[٢٠]. وبرغم ذلك سار الأمر قُدُماً.

قام هيلسمان بإبلاغ هيلمس بأن الرئيس أمر بإزاحة ديام[٢١]. سلّم هيلمس[٢٢]. المهمة إلى بيل كولبي، الرئيس الجديد لقسم الشرق الأقصى في «السي.آي.أيه.» ومرّره كولبي إلى جون ريتشاردسون، وهو الذي اختاره بديلاً له كرئيس لمحطة سايغون. وأعطى توجيهاته لريتشاردسون: «أعتقد أنه على «السي.آي.أيه.» في بعض الظروف، أن تقبل في شكل كلي التوجيهات من صانعي السياسة وتنظر في وسائل لتحقيق الأهداف التي يسعون إليها»، برغم أن الأمر «يبدو أنه يرمي العصفور الذي في اليد قبل ان نحدّد على نحو مناسب الطيور الموجودة في الدغل، أو الغناء الذي ستغنّيه»[٢٣].

في ٢٩ آب/أغسطس، وهو يومه السادس في سايغون، أبرق لودج إلى واشنطن: «انطلقنا في مسار لا عودة عنه: الإطاحة بحكومة ديام». في البيت الأبيض، أنصت هيلمس[٢٤] بينما كان الرئيس يتلقى الرسالة، ويوافق عليها، ويأمر لودج بالتأكد فوق كل شيء من أن الدور الأميركي في الانقلاب ـ دور كونين ـ سيتم إخفاؤه.

استنكف السفير من وضع الوكالة الرفيع المقام في سايغون. وكتب في يومياته الخاصة: «السي.آي.أيه.» تملك مالاً أكثر، ومنازل أكبر من منازل

الدبلوماسيين، ومعاشات أكثر ارتفاعاً، وأسلحة أكثر، وتجهيزات حديثة أكثر»[٢٥]. كان غيوراً من السلطات التي امتلكها جون ريتشاردسون، وسخر من الحذر الذي أظهره رئيس المحطة حول دور كونين المركزي في التخطيط للانقلاب. وقرر لودج أنه يريد رئيساً جديداً للمحطة[٢٦].

وهكذا، فإنه أحرق ريتشاردسون: «فضحه، وسرّب اسمه علناً إلى الصحف»[٢٧]، على ما قاله بوبي كنيدي في تأريخ شفوي سرّي بعد ذلك بثمانية أشهر، من خلال إعطاء اسمه، عبر تسريب مدروس بدم بارد، إلى مراسل رحّالة مرّ في سايغون. شكّلت القصّة سبقاً صحافياً كبيراً. وقالت إن تحديد ريتشاردسون بالاسم ـ وهو خرق لا سابقة له للأمن ـ هو لأنه «أحبط خطة العمل التي جلبها معه السيد لودج من واشنطن، لأن الوكالة لم توافق عليها... وقد شبّه مسؤول كبير هنا، وهو رجل كرّس معظم حياته في خدمة الديموقراطية، نمو «السي.آي.أيه.» بالورم الخبيث، وأضاف أنه ليس واثقاً من أنه حتى البيت الأبيض يمكنه السيطرة عليها». التقطت «النيويورك تايمز» و«الواشنطن بوست» القصة. وغادر ريتشاردسون سايغون بعد أربعة أيام، وقد دُمّرت حياته المهنية. وبعد فاصل زمني لائق، انتقل السفير لودج إلى منزله.

«لقد كنّا محظوظين عندما تم استدعاء ريتشاردسون»[٢٨]، قال صديق كونين القديم، الجنرال دون. «فلو أنه كان هنا، لعرّض خطتنا لخطر كبير».

نقص كامل في الاستخبارات

مضى لوسيان كونين، في ٥ تشرين الأول/أكتوبر، إلى لقاء الجنرال دوونغ فان منه، المعروف بـ «منه الكبير»، في مقر قيادة الأركان المشتركة في سايغون. وأفاد بأن الجنرال أثار مسألة الاغتيال والدعم الدعم الأميركي للطغمة الجديدة. وأوصى ديف سميث، رئيس المحطة الجديد بالوكالة، بـ «ألا نضع أنفسنا في شكل لا يمكن الرجوع عنه ضد مخطط الاغتيال»[٢٩]، وهذه كالموسيقى في أذن السفير لودج، وكاللعنة في أذن ماكون.

أصدر ماكون أمراً إلى سميث بالتوقف عن «الحث على الاغتيال، أو الموافقة عليه، أو دعمه»، وهرع إلى المكتب البيضاوي. وقال لاحقاً في شهادته، إنه، حرصاً منه على عدم استخدام كلمات يمكن أن تربط البيت الأبيض بجريمة قتل، اختار تشبيهاً رياضياً: سيدي الرئيس، لو أنا مدير فريق لكرة السلة، ولديّ رام واحد، فسأبقيه في موقعه بغض النظر عما إذا كان رامياً جيداً أم لا. وفي ١٧ تشرين الأول/أكتوبر، في اجتماع للمجموعة الخاصة، وفي اجتماع ثنائي مع الرئيس بعد ذلك بأربعة أيام، قال ماكون إنه منذ وصول لودج في آب/أغسطس، استندت السياسة الخارجية في فيتنام إلى «نقص كامل في الاستخبارات»، حول شؤون سايغون السياسية[٣٠]. وقال إن الوضع الذي يتطوّر من حول كونين «خطر في شكل يفوق الحد»، ويهدد «بكارثة مطلقة للولايات المتحدة».

أعاد السفير الأميركي طمأنة البيت الأبيض. وأفاد، «أعتقد أن تورطنا حتى تاريخه عبر كونين لا يزال ضمن حيّز الإنكار المعقول». «ولا يجب علينا إجهاض الانقلاب لسببين[٣١]. الأول، يبدو على الأقل في رهان لن يخسر إذا لم يربح، أن الحكومة المقبلة لن تهفو ولن تتعثر بالقدر الذي فعله الرئيس الحالي. والثاني، أنه من غير الحكمة في المدى الطويل، أن نصبّ الماء البارد على محاولات انقلاب... يجب أن نتذكّر أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن فيها الشعب الفيتنامي الحصول على تغيير ممكن للحكومة».

أبرق البيت الأبيض تعليمات حذرة إلى كونين: تعرّفْ إلى خطط الجنرالات، لا تشجّعهم، وابق بعيداً عن الأضواء. لقد الأوان قد فات: فقد تم بالفعل اجتياز الخط الفاصل بين التجسس والعمل الخفي. لقد بلغ كونين حداً من الشهرة بحيث لم يعد يمكنه العمل متخفّياً، وقال «كنت شخصية معروفة جداً في فيتنام». فكل صاحب علاقة عرف بالتحديد من هو، وما يمثّل. كانوا يؤمنون بأن رجل «السي.آي.أيه.» الطليعي يتكلّم باسم أميركا.

اجتمع كونين بالجنرال دون ليل الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، وعلم بأن الانقلاب لم يعد إلا على مسافة عشرة أيام لا أكثر. التقيا من جديد في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر. وكتب دون لاحقاً أن كونين «عرض علينا المال والسلاح، لكنني رفضت قائلاً إننا نحتاج فقط إلى الشجاعة والاقتناع»[٣٢].

أوصل كونين، بحرص، الرسالة بأن الولايات المتحدة تعارض الاغتيال. وقال في شهادته إن رد فعل الجنرالات كان: «لا تحبون الأمر على هذا النحو؟ حسناً، قوموا به إذاً على طريقتكم... إذا كنتم لا تحبونه فلن نتحدّث في الأمر بعد الآن». لم يحبط من عزيمتهم. وقال لو إنه فعل، «لجرى عندها تقطيعي وإعمائي».

قدّم كونين إلى لودج إفادة بأن الانقلاب وشيك. وأوفد السفير عنصر «السي.آي.أيه.» روفوس لمقابلة ديام. جلسا في القصر وتحدثا في الحرب وفي السياسة. واستذكر فيليبس أن «ديام نظر إليّ من ثمّ نظرة متسائلة، وقال: هل سيحصل انقلاب ضدّي؟»[٣٣].

«نظرتُ إليه، وأردت فقط البكاء، وقلت أخشى ذلك، يا سيدي الرئيس. كان هذا كل ما قلناه في ذلك الشأن».

من الذي أصدر تلك الأوامر؟

دقّت ساعة الانقلاب في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر[٣٤]. كان الوقت ظهراً في سايغون، ومنتصف الليل في واشنطن. بعدما استُدعي كونين بواسطة رسول من الجنرال دون، ارتدى بزته العسكرية، ودعا روفوس فيليبس للانتباه إلى زوجته وأولاده الصغار. وأمسك من ثم بمسدسه الـ٩ ملم وبحقيبة ظهر تحتوي على نحو سبعين ألف دولار من تمويل «السي.آي.أيه.»، وقفز إلى سيارته الجيب، وقاد مسرعاً عبر شوارع سايغون إلى مقر الأركان المشتركة لجيش جنوب فيتنام. ملأت نيران الرشاشات الشوارع. سبق لقادة الانقلاب أن أغلقوا المطار، وقطعوا خطوط هاتف المدينة، واقتحموا المركز الرئيسي لقيادة

الشرطة، واستولوا على محطة الإذاعة الحكومية، وهاجموا مراكز السلطة السياسية.

وضع كونين تقريره الأول بعيد الثانية بعد الظهر بتوقيت سايغون. بقي على اتصال مع محطة «السي.آي.أيه.» من خلال رابط الاتصالات المأمون في سيارته الجيب، واصفاً عمليات القصف والتفجير وتحركات القوات ومناوراتها فور حصولها. أوصلت المحطة تقاريره إلى البيت الأبيض ووزارة الخارجية عبر برقيات مشفّرة. وشكّل ذلك أفضل ما يمكن في تلك الأيام من استخبار يكاد يحصل في الوقت الحقيقي.

جاء في أول برقية سريعة له: «كونين في مقر هيئة الأركان المشتركة ـ من ملاحظات الجنرالين بيغ مينه ودون وشهود عيان. الجنرالان يحاولان الاتصال هاتفياً بالقصر، ولا يتمكّنان. اقتراحهما هو الآتي: إذا استقال الرئيس فوراً، فسيضمنان سلامته والرحيل الآمن للرئيس ولنغو دينه نهو. وإذا رفض الرئيس هذه الشروط، فستتم مهاجمة القصر في خلال ساعة».

بعث كونين برسالة ثانية بعد أقل من ساعة: لن يكون ثمة «أي نقاش مع الرئيس. فإما أن يردّ بالإيجاب وإما بالرفض، وهذه هي نهاية المحادثة». اتصل الجنرال دون وحلفاؤه بالرئيس ديام بعيد الرابعة بعد الظهر، وطلبوا منه الاستسلام. عرضوا عليه الملاذ والخروج الآمن من البلاد، لكنه رفض. ومن ثم اتصل رئيس فيتنام الجنوبية بالسفير الأميركي. «ما هو موقف الولايات المتحدة؟»، سأل ديام. قال لودج إنه لا يملك أدنى فكرة. «إنها الرابعة والنصف فجراً في واشنطن»، أجاب، و«من غير الممكن أن تكون للحكومة الأميركية وجهة نظر». ثم قال لودج «لدي تقرير بأن أولئك المسؤولين عن النشاط الراهن يعرضون عليك وعلى شقيقك الخروج الآمن من البلاد. هل سمعت بهذا؟».

«كلا»، قال ديام كاذباً. ثم توقّف، مدركاً ربما أن لودج مشارك في المؤامرة ضده. «لديك رقم هاتفي»، قال، وانتهت المكالمة. بعد ذلك بثلاث ساعات، هرب وشقيقه إلى مقر آمن يملكه تاجر صيني كان قد موّل شبكة

التجسس الخاصة بديام في سايغون. كانت الفيلا مجهّزة بخط هاتفي موصول بالقصر الرئاسي، ما حافظ على الإيهام بأنه لا يزال في مقر السلطة. دارت المعركة طوال الليل. مات ما يقارب المئة فيتنامي بينما كان المتمردون يقتحمون القصر الرئاسي.

عند حوالى السادسة مساءً، اتصل ديام هاتفياً بالجنرال بيغ مينه. قال الرئيس إنه على استعداد للاستقالة، وضَمَنَ الجنرال سلامته. قال ديام إنه سيكون منتظراً عند كنيسة القديس فرنسيس كزافييه في الحي الصيني في سايغون. أرسل الجنرال ناقلة جند مصفحة لجلب ديام وشقيقه، وأمر حرّاسه الشخصيين بقيادة الموكب، ورفع من ثم إصبعين في يده اليمنى. كانت تلك إشارة إلى أن: اقتلوهما معاً.

أمر الجنرال دون جنوده بتنظيف مقرّه، وبجلب طاولة كبيرة مغطّاة بلبّاد أخضر، والتحضير لمؤتمر صحافي. قال الجنرال لصديقه كونين، «اخرج، اللعنة من هنا، فنحن نأتي بالصحافة». ذهب كونين إلى منزله، إلا أن لودج سرعان ما استدعاه. «ذهبت إلى السفارة وأُبلغت بأن عليّ العثور على ديام». قال. «كنت متعبا وقد طفح بي الكيل، وقلت: من أعطى هذه الأوامر؟ وأعلموني بأن هذه الأوامر صادرة عن رئيس الولايات المتحدة».

عند حوالى العاشرة قبل الظهر، عاد كونين بسيارته إلى مقر الأركان العامة وواجه أول جنرال التقاه. وقال كونين في شهادته السرّية أمام لجنة مجلس الشيوخ التي حققت بعد ١٢ عاماً في الاغتيال، «أبلغني بيغ مينه أنهما انتحرا. نظرت إليه وقلت: أين؟ قال إنهما كانا في الكنيسة الكاثوليكية في شولون، وانتحرا».

قال كونين «أعتقد أنني، عند هذا الحد، فقدت رباطة جأشي». كان يفكّر في الخطيئة المميتة وبروحه الأبدية.

«قلت لبيغ منه، أنت بوذي، وأنا كاثوليكي. فإذا انتحرا في تلك الكنيسة، وأقام الكاهن قدّاساً الليلة، فإن هذه القصة غير متماسكة. وسألت: أين هما؟ قال إنهما في مقر الأركان العامة، وراء مقر الأركان العامة، فهل أريد رؤيتهما؟

قلت لا. قال، لم لا؟ وأجبت: حسناً، إذا صدف وصدقكم واحد من مليون من الشعب بأنهما انتحرا في الكنيسة، وأنا رأيت أنهما لم ينتحرا، وأعرف أنهم لم يفعلا، فإنني سأواجه مشكلة».

عاد كونين إلى السفارة الأميركية ليفيد بأن الرئيس ديام قد مات. لم يفد بالحقيقة كاملة. وأبرق، «أبلغني الجانب الفيتنامي أن الانتحار تم على الطريق من المدينة». وعند الساعة ٢,٥٠ صباحاً بتوقيت واشنطن، جاء ردّ موقع باسم دين راسك: «أخبار انتحار ديام ونهو صادمة هنا... من المهم الإثبات علناً، وبما لا يقبل الشك، أن الوفاة هي في الواقع انتحار إذا كان ذلك صحيحاً».

يوم السبت، الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، الساعة ٩,٣٥ قبل الظهر، دعا الرئيس إلى اجتماع ليس للتسجيل في البيت الأبيض، حضره شقيقه، وماكون، وراسك، وماكنمارا، والجنرال تايلور. ولمّا يمضِ وقت طويل حتى هرع مايكل فوريستال إلى الداخل حاملاً برقية من سايغون. وروى الجنرال تايلور أن الرئيس قفز على رجليه «وهرع خارجاً من الغرفة، وقد بدت على محيّاه نظرة صدمة وهول لم يسبق لي أن رأيتها من قبل»(٣٥).

عند الـ ٦,٣١ بعد الظهر، أبرق جورج بوندي إلى لودج، مع نسخ للاطلاع فقط إلى ماكون، ماكنمارا، وراسك: «موت ديام ونهو، مهما كانت نقائصهما، قد أحدث صدمة هنا، وثمة خطر من أن موقف الحكومة المقبلة وسمعتها سيتضرران بشدّة إذا انتشر الاقتناع بأن اغتيالهما تم بتوجيه من عضو رئيس أو أكثر من النظام المقبل... يجب ألا يبقى لديهم وهم بأن الاغتيال السياسي يُقبل بسهولة هنا».

كان جون روزنتال، في ذلك السبت، ضابط الخدمة في السفارة الأميركية في سايغون. أرسله السفير لودج إلى البوابة الأمامية لاستقبال بعض الزوّار المهمين. «لن أنسى أبداً هذا المنظر»، قال. «دخلت هذه السيارة السفارة، وكانت الكاميرات تجهد في العمل. قفز كونين من المقعد الأمامي، وفتح الباب الخلفي، وأدى التحية، وخرج هؤلاء الناس. بدا كأنه يسلّمهم إلى السفارة،

وهو ما فعله. صعدت معهم وحسب بالمصعد، واستقبلهم لودج... ها هم الأشخاص الذين قاموا للتو بانقلاب، وقتلوا رئيس الدولة، ومن ثم جاؤوا إلى السفارة، كما ليقولوا: «هاي، أيها الرئيس، لقد أنجزنا عملاً جيّداً، أليس كذلك؟»[٣٦].

٢١

اعتقدت أنها مؤامرة

حمل ريتشارد هيلمس يوم الثلاثاء، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، رشيشاً بلجيكياً مخبّأً في حقيبة سفر تابعة لإحدى شركات الطيران إلى داخل البيت الأبيض.

كان السلاح كناية عن غنيمة حرب؛ فقد صادرت «السي.آي.أيه.» مخبأً يضم ثلاثة أطنان من الأسلحة حاول فيدل كاسترو تهريبها إلى داخل فنزويلا. وسبق لهيلمس أن أخذ الرشيش إلى وزارة العدل ليُريه لبوبي كنيدي الذي اعتقد أن عليهما حمله إلى شقيقه. ذهبا إلى المكتب البيضاوي، وتحدّثا مع الرئيس حول كيفية محاربة فيدل. أخذ ضوء الخريف المتأخر في الزوال بينما نهض الرئيس من كرسيه الهزّاز وحدّق من النافذة إلى حديقة الورد.

أعاد هيملس الرشيش إلى حقيبته وقال: «أنا فرح بالتأكيد لأن الاستخبارات السرّية لم تمسك بنا ونحن نجلب هذا الرشيش إلى هنا»(1). استدار الرئيس، الغارق في أفكاره، من النافذة وصافح هيلمس. «نعم»، قال بابتسامة، «إن هذا يمدّني بشعور بالطمأنينة».

في يوم الجمعة التالي، كان ماكون وهيلمس في مقر القيادة، يتقاسمان غداءً مؤلفاً من السندويشات في جناح المدير. كانت النوافذ العالية والعريضة تطل على روضة من رؤوس الاشجار المترامية حتى الأفق، عندما حلّ الخبر الرهيب.

أُطلقت النار على الرئيس. وضع ماكون قبعته المخملية ومضى إلى منزل بوبي الذي يبعد دقيقة بالسيارة. نزل هيلمس إلى مكتبه، وحاول وضع كتاب

رسالة، وهي برقية سترسل إلى كل محطات «السي.آي.أيه.» حول العالم. كانت أفكاره في تلك اللحظة قريبة جداً من أفكار ليندون جونسون.

«ما تسارع في ذهني»[٢]، قال جونسون مستذكراً، «هو أنهم إذا أطلقوا النار على رئيسنا... فمن الذي سيطلقون عليه النار لاحقاً؟ وما الذي يجري في واشنطن؟ ومتى ستنهال الصواريخ؟ فكّرت في أنها مؤامرة، وأثرت ذلك السؤال، وجميع من كانوا معي تقريباً أثاروه».

أخفت الوكالة، على امتداد السنة التالية، باسم الأمن القومي، الكثير مما تعرفه عن الرئيس الجديد، وعن اللجنة التي أنشأها للتحقيق في عملية القتل. سقط تحقيقها الداخلي في الارتباك والشكّ، ما ألقى بظلال من الشبهة لا تزال مستمرّة. وهذه الرواية تستند إلى سجلات «السي.آي.أيه.» والشهادات التي أُعطيت تحت القَسَم لضباط في «السي.آي.أيه.»، وقد أبيحت كلّها ما بين ١٩٩٨ و٢٠٠٤.

كان التأثير صاعقاً

كتب هيلمس في رسالته العالمية إلى محطات «السي.آي.أيه.»، في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر، أن «الوفاة المأساوية للرئيس كنيدي تتطلّب منّا جميعاً أن نتطلّع بدقّة إلى أي تطورات استخبارية غير معتادة»[٣]. وفي مقرّ القيادة، وقع نظر شارلوت بوستوس على واحد فوراً. فهي تدير ملفات المكسيك في الجهاز الخفي. وبعد دقيقتين من إعلان الراديو أن شرطة دالاس أوقفت لي هارفي أوزوالد، هرعت عبر الممرات الباهتة اللون ممسكة بملف أوزوالد، باحثة عن رئيسها، جون ويتن، الرجل المسؤول عن عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية في المكسيك وأميركا الوسطى. قرأ ويتن سريعاً عبر الملف.

«كان التأثير صاعقاً»، قال مستذكراً.

جاء في الملف أنه عند الـ ١٠,٤٥ من قبل ظهر الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣، اتصل رجل، عرّف عن نفسه بأنه لي أوزوالد، هاتفياً بالسفارة

السوفياتية في مدينة مكسيكو سائلاً عمّا جرى بطلبه القائم للحصول على تأشيرة سفر إلى الاتحاد السوفياتي. كانت محطة «السي.آي.أيه.» في مكسيكو، بمساعدة لا تقدّر بثمن من الشرطة السرية المكسيكية، تتنصت على السفارتين السوفياتية والكوبية في عملية أُعطيت الاسم الرمزي «المبعوث». وحصلت «السي.آي.أيه.» على اتصال أوزوالد.

قال ويتن إن «مكسيكو تملك أكبر عمليات اعتراض للمكالمات الهاتفية وأكثرها نشاطاً في العالم كله[٤]. واعتاد ج. إدغار هوفر أن يتوقّد في كل مرّة يفكّر فيها في محطّة مكسيكو». وقد تم الإمساك بعدد غير قليل من الجنود الأميركيين المتمركزين في جنوب غرب الولايات المتحدة وهم يحاولون بيع أسرار عسكرية أو الارتداد إلى الروس في مكسيكو. وامتلكت «السي.آي.أيه.» أيضاً مراقبة فوتوغرافية للسفارة السوفياتية، وفتحت كل بريد وارد إليها، كبيراً، أو خارج منها.

إلا أن عمليات التنصت بلغت حجماً كبيراً، بحيث إنها فاضت على المحطة، وأغرقتها بالمعلومات التي لا فائدة منها. استغرق الأمر ثمانية أيام قبل أن تستمع المحطة إلى شريط الأول من تشرين الأول/أكتوبر، وتفيد عن زيارة أوزوالد، وتسأل مقر القيادة: من هو لي أوزوالد؟ علمت «السي.آي.أيه.» أنه من المارينز الأميركيين الذين ارتدّوا علنا إلى الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٩. امتلكت في ملفاتها مجموعة من تقارير «الأف.بي.آي.» ووزارة الخارجية التي تفصّل محاولات أوزوالد التخلي عن جنسيته الأميركية، وتهديداته بإطلاع السوفيات على المنشآت الأميركية السرّية في المحيط الهادئ، وزواجه بامرأة روسية، وإعادة إرساله إلى وطنه في حزيران/يونيو ١٩٦٢.

كتب ويتن، في تقرير داخلي، أن ««السي.آي.أيه.» افتقرت إلى مصادر في موقع الإفادة عن نشاطاته أو عمّا قد تكون «الكا.جي.بي.» تفعل معه»[٥]. إلا أنه كان «من المشكوك فيه أن أوزوالد وأمثاله من المرتدّين هم في أيدي «الكا.جي.بي.»». كنا على ثقة بأن الاستخبارات السوفياتية ستستجوب جميع أمثاله من المرتدين، وسيحيط بهم مخبروها في كل مكان يستقرّون فيه في

الاتحاد السوفياتي، بل من الممكن حتى أن تجنّدهم «الكا.جي.بي.» في مهمة في الخارج في وقت لاحق».

أدرك ويتن أن الرجل الذي أطلق النار على الرئيس قد يكون عميلاً سوفياتياً. التقط سمّاعة الهاتف وطلب من هيلمس أن يأمر بإعادة نظر فورية في كل شرائط تسجيل المبعوث واستنساخاتها الخطية في مدينة مكسيكو. وسارع رئيس محطة «السي.آي.أيه.»، وين سكوت، إلى الاتصال برئيس المكسيك الذي عملت شرطته السرّية طوال الليل مع متنصّتي «السي.آي.أيه.» على الاستماع إلى آثار صوت أوزوالد.

شاع خبر ملف أوزوالد بينما عاد ماكون إلى مقر القيادة. وتبعت ذلك ست ساعات من المؤتمرات المحمومة، عُقد آخرها في الساعة ١١,٣٠ ليلاً. وعندما عرف ماكون أن «السي.آي.أيه.» علمت سلفاً برحلة أوزوالد إلى السفارة السوفياتية في مدينة مكسيكو، استعر غضباً، حاملاً على مساعديه، ومستاءً من الطريقة التي تُدار بها الوكالة[٦].

أخذ التحقيق الداخلي في «السي.آي.أيه.» شكله صباح يوم السبت، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر. اجتمع هيملس مع بارونات الوكالة، بمن فيهم جيمس أنغلتون رئيس مكافحة التجسس منذ ١٩٥٤. توقع أنغلتون كلّياً أن يُسلّم قضية أوزوالد، واستفظع أن يعمد هيلمس إلى توكيل جون ويتن.

كان ويتن رجلاً يعرف كيف يكشف مؤامرة. وهو محقق ماهر مع سجناء الحرب في الحرب العالمية الثانية. انضم إلى «السي.آي.أيه.» في ١٩٤٧. وهو أول من استخدم آلة كشف الكذب في الوكالة. واستخدم، في أوائل الخمسينيات، آلة كشف الكذب في مئات التحقيقات حول العملاء المزدوجين، والمرتدّين المزيفين، ومفبركي الاستخبارات في ألمانيا. واكتشف بعضاً من أكبر عمليات الاحتيال التي ارتُكبت ضد الوكالة، بما في ذلك عمل فنان في الغش باع محطة فيينا كتيّباً مزوراً لرموز الاتصالات السوفياتية. وشملت حالة أخرى من القضايا التي فكّها، عميلاً كان أنغلتون يديره في إيطاليا، وهو رجل أطلقه

أنغلتون ضد خمسة أجهزة تجسس أجنبية مختلفة. أثبت العميل أنه مخادع ومصاب بمرض الكذب. وقد كشف بفرح لجميع الأجهزة الأجنبية الخمسة، أنه يعمل لـ «السي.آي.أيه.»، وسارعت خمستها إلى إعادته على خطاه لاختراق الوكالة. وهذه ليست عملية أنغلتون الوحيدة التي كشفها ويتن. وفي كل حالة، كان هيلمس يطلب من ويتن أن يذهب إلى مكتب أنغلتون المظلم والعابق بالدخان ومواجهته.

قال ويتن «اعتدت أن أذهب وأنا أتلمّس بأصابعي بوليصة تأميني، وأعطي خبراً لأكثر الناس التصاقاً بي». خلقت الواجهات «مشاعر مريرة، بل أكثر المشاعر مرارة» بين الرجلين(٧). ومنذ اللحظة التي كُلّف فيها ويتن قضية أوزوالد، شرع أنغلتون في التخريب عليه.

بحلول منتصف نهار ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر، علم مقر قيادة «السي.آي.أيه.» أن أوزوالد قد زار تكراراً كلاً من السفارتين الكوبية والسوفياتية في أواخر أيلول/سبتمبر وفي تشرين الأول/أكتوبر، محاولاً السفر في أسرع ما يمكن إلى كوبا، والمكوث هناك إلى أن تأتيه التأشيرة السوفياتية. وقال هيلمس «شكل ذهابه إلى السفارتين الكوبية والسوفياتية في مدينة مكسيكو، بوضوح، جزءاً مهماً من الانطباع الأول الذي يتكوّن لدى المرء»(٨). وهرع ماكون بعيد حلول بعد الظهر، إلى وسط المدينة حاملاً نبأ الرابط الكوبي إلى الرئيس جونسون(٩)، مقاطعاً حديثاً طويلاً بين جونسون ودوايت أيزنهاور الذي كان يحذّره من السلطة التي يمارسها روبرت كنيدي على العمليات الخفية.

عند الساعة ١,٣٥ بعد الظهر، اتصل الرئيس جونسون بصديق قديم هو إدوين ويسل صاحب النفوذ في وول ستريت، وأسرّ إليه: «هذا الأمر في شأن... هذا القاتل... ربما يحمل تعقيدات أكثر مما تعرف... وربما يذهب إلى أعمق مما تعتقد»(١٠). وأوصل السفير الأميركي في المكسيك، توم مان، وهو من تكساس وموضع ثقة جونسون، بعد ظهر ذلك اليوم، شكّه الخاص في أن كاسترو يقف وراء الاغتيال.

عاد ماكون، صباح يوم الأحد ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، إلى البيت الأبيض حيث يتجمع الموكب الجنائزي الذي سينقل جثمان جون كنيدي ليُسجّى في الكابيتول. قام ماكون بإطلاع ليندون جونسون على نحو أكثر شمولاً على بعض من عمليات «السي.آي.أيه.» لقلب حكومة كوبا. قلة صغيرة جداً من الناس كانت تعرف. أحدها هو ألن دالاس، والآخر ريتشارد هيلمس، والثالث بوبي كنيدي. أما الرابع فمن المرجّح كثيراً أنه فيدل كاسترو.

حددت محطة «السي.آي.أيه.» في مدينة مكسيكو، في اليوم نفسه، وبما لا يقبل الشك، أن أوزوالد قدم التماساته للحصول على تأشيرة إلى ضباط الاستخبارات السوفايتية في ٢٨ أيلول/سبتمبر. تحدّث وجهاً لوجه مع رجل يدعى فاليري كوستيكوف، الذي يُعتقد أنه عنصر من عناصر الدائرة ١٣ في «الكا.جي.بي.»: الدائرة المسؤولة عن عمليات الاغتيال(١١).

أرسلت المحطة إلى مقر القيادة لائحة بجميع الأجانب الذين اشتبهت في أنهم أجروا اتصالاً بضباط الاستخبارات السوفياتية في مدينة مكسيكو(١٢). أحدهم كان رولاندو كوبيلا، عميل «السي.آي.أيه.» الكوبي في المؤامرة النهائية لقتل كاسترو. قبل ذلك بيومين فقط، ساعة وفاة الرئيس كنيدي، كان ضابط «السي.آي.أيه.» المحرّك لكوبيلا، نستور سانشيز، قد سلّم الكوبي قلماً مجهزاً بحقنة جلدية مليئة بالسم. وأثار تقرير محطة مدينة مكسيكو السؤال الشاق على النفس: هل كوبيلا عميل مزدوج لفيدل؟

كان الموكب المتوجه إلى الكابيتول على وشك مغادرة البيت الأبيض عندما قُتل لي هارفي أوزولد في تغطية تلفزيونية حيّة، وهو في مخفر شرطة دالاس. أمر الرئيس «السي.آي.أيه.» بأن تعطيه فوراً جميع ما لديها عن أوزوالد. وضع ويتن ملخّصاً وأعطاه لهيلمس الذي سلّمه إلى الرئيس بعد ذلك بساعات قليلة. وقد ضاع التقرير ذاته أو دُمّر. وقال ويتن إن فحواه أن «السي.آي.أيه.» لا تملك دليلاً قاطعاً على أن أوزوالد عميل لموسكو أو لهافانا، لكنه قد يكون.

كنّا نخطو برفق شديد

قدّم جون ماكون، يوم الثلاثاء ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر، إيجاز استخبارات رسمياً إلى الرئيس الجديد للولايات المتحدة. «لاحظ الرئيس ببعض الازدراء الكبير، أن بعض الناس في وزارة العدل قد اقترح عليه يوم السبت أنه يجب القيام بتحقيق مستقل حول اغتيال الرئيس»، كما كتب ماكون في مذكّرته اليومية للسجل. لكن الرئيس جونسون «رفض هذه الفكرة».

عكس جونسون موقفه بعد ٧٢ ساعة، على نحو مناهض لغرائزه. وفي ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، في يوم عيد الشكر، راوض كبير قضاة المحكمة العليا المتردّد، إيرل وارن، لترؤس التحقيق. وجمع بقية أعضاء لجنة وارن في خمس ساعات متواصلة من الاتصالات الهاتفية المحمومة. وعملا بتوصية بوبي كنيدي، فاتصل الرئيس بألن دالاس المشدوه والمدهوش في منزله. «هل نظرت في نتيجة عملي السابق ووظيفتي السابقة؟»، سأل دالاس. وطمأنه ليندون جونسون على عجل وأقفل الخط. واتصل دالاس على الفور بجيمس أنغلتون(١٣).

كان الظلام قد عمّ في الخارج، وأخذ الرئيس يسرع لجمع اللجنة قبل انقضاء مهلة طباعة العناوين الرئيسية لصحف المساء. راجع لائحة المختارين. وقال الرئيس إن التحفّظ هو المفتاح: «لا يمكننا وحسب ترك مجلسي النواب والشيوخ و«الأف.بي.آي.» وأناس آخرين يجولون في المكان ويقدّمون شهاداتهم بأن خروشتشيف قتل كنيدي، أو كاسترو قتله». رسّخ في ذهن النائب جيرالد ر. فورد أنه يريد أناساً يعرفون كيفية عمل «السي.آي.أيه.» وجاء أهم اتصال قبيل التاسعة مساءً من ناصح جونسون المحبوب، السيناتور ريشارد راسل، الذي كان على الخط من ويندر، جورجيا. وبرغم أن جونسون قد أعطى اسمه لوكالات الأنباء بوصفه عضواً في لجنة وارن، حاول راسل ردّ طلب الرئيس.

صاح الرئيس «يا للعنة، من المؤكد أنك ستخدم، فأنا أقول لك ذلك. ستعير اسمك لهذا الأمر لأنك رئيس لجنة «السي.آي.أيه.»». وكرّر جونسون أنه لا يمكن السماح بأحاديث متفلّتة حول قيام خروشتشيف بقتل كنيدي.

«حسناً، أنا لا أعتقد أنه قام بذلك مباشرة»، قال السيناتور راسل، لكن «لن أُفاجَأ إذا كانت لكاسترو علاقة بالأمر».

أدّى إنشاء لجنة وارن إلى وضع ريتشارد هيلمس في مأزق أخلاقي ساحق. وجاء في شهادة جون ويتن «أدرك هيلمس أن الكشف عن مخططات الاغتيال سينعكس سلباً جداً على الوكالة وعليه شخصياً، وأنه قد يتبين بالفعل أن الكوبيين قاموا بهذا الاغتيال رداً على عملياتنا الهادفة إلى اغتيال كاسترو. سيكون لذلك تأثير كارثي فيه وفي الوكالة»[١٤].

عرف هيلمس ذلك جيداً جداً. «كنّا نخطو برفق شديد»[١٥]، قال في شهادة سرّية بعد ذلك بخمس عشرة سنة. كنّا في ذلك الوقت قلقين كثيراً حيال ما قد نواجهه... فاتهام حكومة أجنبية بالمسؤولية عن هذا العمل، هو بمثابة تمزيق الغشاء عن أمور هي من أقبح ما يكون».

كذلك، خلقت مسألة الكشف عن المؤامرات ضد كاسترو حملاً لا يطاق بالنسبة إلى بوبي كنيدي، فالتزم الصمت.

سبق للرئيس أن أعطى أوامره لـ «الأف.بي.آي.» بالتحقيق في مقتل الرئيس، وأمر «السي.آي.أيه.» بالتعاون الكلّي، وطلب منها الإفادة بالنتائج إلى لجنة وارن التي تعتمد عليها في وقائع القضية. لكن إخلالها بالأمانة في الوظيفة بلغ حداً كبيراً.

بحلول أوائل ١٩٦٢، امتلكت «السي.آي.أيه.»، و«الأف.بي.آي.»، والبنتاغون، ووزارة الخارجية، وجهاز الهجرة والتجنيس، كلها، ملفّات عن أوزوالد. في آب/أغسطس ١٩٦٣، قام أزوالد في نيو أورلينز بسلسلة من المواجهات مع أعضاء من مديرية الطلبة الكوبيين، وهي مجموعة مناوئة لكاسترو تموّلها «السي.آي.أيه.»، وقد أفاد أعضاؤها للضابط الذي يحرّكهم في أنهم يشتبهون بأن أوزوالد يحاول خرق صفوفهم. وبحلول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣، عرفته «الأف.بي.آي.» بوصفه ماركسياً قد يكون مختل العقل يدعم الثورة الكوبية، ويمكنه أن يصبح عنيفاً، وقد أجرى اتصالات مع ضباط استخبارات

سوفيات. وفي ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، علم مكتب التحقيقات الفيدرالي بأنه يعمل في مستودع الكتب في مدرسة تكساس في دالاس.

باختصار، فإن مرتداً غاضباً معجباً بكاسترو، امتلكت «السي.آي.أيه.» سبباً للاعتقاد أنه قد يكون عميلاً شيوعياً مجنّداً، ويسعى في شكل طارئ إلى العودة إلى موسكو عن طريق هافانا، كان يتربّص بالطريق التي سيسلكها موكب الرئيس في دالاس.

لم تتبادل «السي.آي.أيه.» و«الأف.بي.آي.» الملاحظات أبداً. ولم تقترب «الأف.بي.آي.» أبداً من تقفّي أثره. وكانت هذه مقدّمة لتأديتها في الأسابيع التي سبقت الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وأعلن ج. إدغار هوفر، في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، في مذكّرة بقيت سرّية حتى مقلب القرن، أن ذلك شكّل «عجزاً فاضحاً عن الاضطلاع بالمسؤولية»[١٦].

حثّ كارثا دولوش، مساعد مدير «الأف.بي.آي.»، هوفر على عدم تأديب عملائه على إهمالهم، خوفاً من أن يُنظر إلى الأمر على أنه «اعتراف مباشر بأننا مسؤولون عن الإهمال الذي قد يكون نتج عنه اغتيال الرئيس». إلا أن هوفر عاقب ١٧ من رجاله. «لقد فشلنا في تنفيذ بعض من الأوجه البارزة في التحقق من أوزوالد»، كتب هوفر في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤. و«يجب أن يشكّل ذلك أمثولة لنا جميعاً، إلا أنني أشك حتى في أن البعض يدرك ذلك الآن».

لم يعرف أعضاء لجنة وارن أياً من هذا. وعلى ما سيعرفه جون ويتن في وقت قريب، فإن «السي.آي.أيه.» حجبت الكثير مما تعرف أنه حقيقة عن اللجنة.

أمضى ويتن وقتاً صعباً جداً في تصنيف الوقائع الواردة من سيل من الأكاذيب المنهمرة من محطات «السي.آي.أيه.» في ما وراء البحار. واستذكر أن «عشرات من الناس أخذوا يزعمون أنهم رأوا أوزوالد هنا، وهناك، وفي كل مكان، في كل أنواع الظروف التآمرية، من القطب الشمالي إلى الكونغو»[١٧]. ودفع الآلاف من الدلائل بـ «السي.آي.أيه.» إلى متاهة. وكان على ويتن، كي

يصنّف وقائع القضية، أن يعتمد على «الأف.بي.آي.» في تقاسم المعلومات معه. واستغرق الأمر أسبوعين ليُسمح له، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، بقراءة تقرير التحقيق الأولي لـ «الأف.بي.آي.». حول أوزوالد. وشهد بعد سنوات لاحقة، «أنني، للمرة الأولى، عرفت مليارات من الوقائع الحيوية حول خلفية أوزوالد، التي يبدو أن «الأف.بي.آي.» كانت تعرفها في خلال التحقيق ولم تبلغني بها».

قصّرت «الأف.بي.آي.» على نحو روتيني في تقاسم المعلومات مع «السي.آي.أيه.»، لكن الرئيس أمرها بالتعاون. كان الرجل الوحيد المسؤول عن ارتباط «السي.آي.أيه.» مع «الأف.بي.آي.» هو جيم أنغلتون، وقال ويتن «إلا أن أنغلتون لم يبلغني قط بمحادثاته مع «الأف.بي.آي.»، أو بالمعلومات التي كسبها في هذه الاجتماعات». وعندما فشل أنغلتون في التأثير في المسار الأولي للتحقيق، هاجم ويتن، وندد بعمله، وحكم على جهوده لكشف وقائع القضية بالفشل.

اتفق هيلمس وأنغلتون على عدم إبلاغ لجنة وارن، أو حتى محققي «السي.آي.أيه.»، بالمخططات لقتل كاسترو. وقال ويتن في شهادته بعد ١٥ عاماً، «شكل ذلك عملاً مستهجناً أخلاقياً». «حجب هيلمس المعلومات لأن ذلك كان سيكلفه وظيفته». وقال ويتن إن «المعرفة كانت لتشكل» عاملاً حيوياً مطلقاً في تحليل الأحداث المحيطة باغتيال كنيدي. ولو أنه عرف، «لبدا تحقيقنا في اغتيال كنيدي مختلفاً كثيراً عمّا هو عليه».

سيطرت محادثة أنغلتون السرّية مع ألن دالاس على سيل المعلومات من «السي.آي.أيه.»، وقد تكون القرارات التي اتخذها هو وهيلمس قد صاغت نتائج لجنة وارن. إلا أن أنغلتون شهد بأن اللجنة ما كانت لتتمكن أبداً من تفسير مغزى الارتباطات السوفياتية والكوبية كما يفسّر ذلك هو وفريقه الصغير.

«كنا لنرى الأمر بدقّة أكبر»، قال[١٨]. كنا أكثر انخراطاً بكثير... وامتلكنا خبرة أكبر في ما يتعلّق بالدائرة ١٣ والتاريخ الكامل لثلاثين عاماً من التخريب

السوفياتي والاغتيالات. فنحن نعرف قضايانا وطريقة العمل». وقال إنه ما من فائدة في التخلي عن أسرار محفوظة على نحو أفضل بين يديه.

شكل مسلكه إعاقة للعدالة. وامتلك دفاعاً واحداً فقط. فأنغلتون اعتقد أن موسكو أوفدت جاسوساً مزدوجاً لتغطية دورها في قتل جون كنيدي.

كان يمكن التبعات... أن تكون جائحة

اشتبه في يوري نوسينكو، الذي جاء إلى الولايات المتحدة، في شباط/فبراير ١٩٦٤، بوصفه مرتدّاً من «الكا.جي.بي.»، تماماً في الوقت الذي تولى فيه أنغلتون تحقيق «السي.آي.أيه.». كان نوسينكو الابن المدلل للنخبة السوفياتية: كان والده وزير بناء السفن، وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ودفن بعد وفاته في جدار الكرملين. انضم يوري إلى «الكا.جي.بي.» في ١٩٥٣، في عمر الخامسة والعشرين. وعمل في ١٩٥٨ في قسم «الكا.جي.بي.» الذي ركّز على المسافرين الأميركيين والبريطانيين في الاتحاد السوفياتي. وانتقل إلى القسم الأميركي متجسّساً على سفارة الولايات المتحدة في ١٩٦١ و١٩٦٢، وأصبح من ثم نائباً لرئيس قسم السيّاح.

حمته مكانة والده من عثراته الكثيرة، الناشئة كلّها من عطشه إلى الفودكا، إلى أن سافر في حزيران/يونيو ١٩٦٢ إلى جنيف بوصفه ضابط أمن البعثة السوفياتية إلى مؤتمر حول نزع السلاح شاركت فيه ١٨ دولة. سكر كثيراً في ليلته الأولى، واستفاق ليكتشف أن مومساً سرقت منه ما يوازي ٩٠٠ دولار من الفرنكات السويسرية. كان تضييق «الكا.جي.بي.» على صرف الأموال متشدّداً كثيراً.

تعرّف نوسينكو ـ أو، بالأحرى، أساء التعرّف ـ إلى عضو في البعثة الدبلوماسية الأميركية اسمه ديفيد مارك على أنه ضابط في «السي.آي.أيه.»، ومضى يوري باحثاً عنه. سبق لمارك أن وصل قبل ذلك بسبعة أعوام إلى موسكو بوصفه المستشار السياسي والاقتصادي للسفارة الأميركية. وبرغم أنه

ليس جاسوساً، فقد قدّم خدمات صغيرة إلى «السي.آي.أيه.»، واعتبره السوفيات علناً شخصاً غير مرغوب فيه. لم يضر ذلك بحياته المهنية؛ وأصبح في ما بعد سفيراً، والرقم الثاني في فرع استخبارات وزارة الخارجية.

واستذكر مارك، أنه في نهاية اجتماع بعد ظهر أحد الأيام حول معاهدة حظر التجارب النووية، اقترب منه نوسينكو وقال، بالروسية، «أودّ التحدّث معك... لكنني لا أريد التحدث هنا. أريد أن أتناول الغداء معك»[19]. كانت تلك رمية واضحة. فكّر مارك في مطعم في ضواحي المدينة، وحدد موعداً لليوم التالي. و«بالتأكيد أبلغت جماعة «السي.آي.أيه.» بذلك فوراً، وقالوا، يا إلهي، لماذا اخترت هذا المطعم؟ إنه المكان الذي يقصده جميع الجواسيس». تمالح الأميركي والروسي، تحت أعين ضابطي «السي.آي.أيه.» يراقبونهما عن كثب.

أطلع نوسينكو مارك في شأن المومس والمال المفقود. واستذكر مارك أنه قال، «علي أن أعوّضه؛ لذا يمكنني أن أعطيك بعض المعلومات المهمة جداً لـ «السي.آي.أيه.»، وكل ما أريده في المقابل هو مالي». حذّره مارك: «انظر، ها إنك ستعمد الآن إلى ارتكاب الخيانة». لكن الروسي كان مستعداً. لذا، تدبّرا اجتماعاً آخر في اليوم التالي في جنيف. هرع ضابطان من «السي.آي.أيه.» إلى المدينة السويسرية لتولّي التحقيق. أحدهما كان تيننت باغلي، وهو ضابط من القسم السوفياتي متمركز في برن، ويتحدّث القليل من الروسية. والثاني كان جورج كيسفالتر، وهو كبير محرّكي الجواسيس الروس الذي جاء بالطائرة من مقر القيادة.

وصل نوسينكو مخموراً إلى اجتماعهم الأول. «سكران جداً»، على ما قاله بعد سنوات كثيرة على ذلك. وسجّلوا له مطوّلاً، لكن آلة التسجيل تعطّلت. وقام باغلي بجمع المدونات، استناداً إلى ذاكرة كيسفالتر. وضاع الكثير في الترجمة[20].

أبرق باغلي في ١١ حزيران/يونيو ١٩٦٢، إلى مقر القيادة، قائلاً إن نوسينكو «أثبت كلّياً حسن نيّته»، وأنه «وفّر معلومات مهمة»، وكان متعاوناً

بالكامل. لكن أنغلتون، على مدى الأشهر الـ ١٨ التالية، أقنع باغلي بأنه قد خُدع؛ وأصبح باغلي، الذي كان في السابق من أشد مؤيدي نوسينكو، أكثر مناوئيه غضباً.

وافق نوسينكو على التجسس لـ «السي.آي.أيه.» في موسكو. عاد إلى جنيف مع البعثة السوفياتية لنزع السلاح، والتقى محرّكيه في «السي.آي.أيه.» في نهاية كانون الثاني/يناير ١٩٦٤. وفي الثالث من شباط/فبراير، في اليوم الذي استمعت فيه لجنة وارن إلى أول شهودها، أبلغ الأميركيين أنه يريد الهروب فوراً. قال نوسينكو إنه تولّى ملف أوزوالد في «الكا.جي.بي.»، وأن ليس فيه ما يُقحم الاتحاد السوفياتي في اغتيال كنيدي.

كان أنغلتون متأكداً من أنه يكذب، وكانت لهذا الحكم عواقب كارثية.

أنتج نوسينكو فيضاً من الأسرار، إلا أن أنغلتون كان قد حدَّد مسبقاً أنه جزء من مؤامرة سوفياتية رئيسية. اعتقد أن «الكا.جي.بي». قد أخترقت «السي.آي.أيه.»، منذ وقت طويل، على أعلى المستويات. وماذا غير ذلك يمكن أن يفسّر كلامه المطوّل على عمليات نُسفت في ألبانيا وأوكرانيا، وبولندا وكوريا، وكوبا وفيتنام؟ ربما جميع عمليات «السي.آي.أيه.» ضد السوفيات كانت معروفة من موسكو. وربما سيطرت عليها موسكو. ربّما أُرسل نوسينكو لحماية جاسوس نائم داخل «السي.آي.أيه.»، فالمرتدّ الواحد والوحيد الذي احتضنه أنغلتون أبداً ـ أناتولي غوليستين، الذي أفاد أطباء «السي.آي.أيه.» النفسيون بأنه مصاب بمرض ذهان العظمة ـ أكّد أعمق مخاوف أنغلتون، وقوّاها.

قضت مهمة أنغلتون الكبرى، بوصفه رئيساً لمكافحة التجسس، بحماية «السي.آي.أيه.» وعملائها من أعدائهم. إلا أن أموراً كثيرة جدّاً سارت على نحو خاطئ أثناء نوبته[٢١]. في ١٩٥٩، أوقفت «الكا.جي.بي.» الرائد بيوتر بوبوف، أول جاسوس ذي مستوى لـ «السي.آي.أيه.» داخل الاتحاد السوفايتي، وأعدمته. ثم، في ربيع ١٩٦١، كُشف جاسوس موسكو البريطاني جورج بليك، الذي قوّض نفق برلين قبل أن يتم حفره، ما أجبر

«السي.آي.أيه.» على اعتبار أن النفق قد استخدم لبث المعلومات السوفياتية الخاطئة. بعد ذلك بستة أشهر، تم فضح هاينز فيلفي، نظير أنغلتون الألماني الغربي، على أنه جاسوس سوفياتي بعدما ألحق أضراراً كبيرة بعمليات «السي.آي.أيه.» في ألمانيا وأوروبا الشرقية. وبعد سنة على ذلك، أوقف السوفيات العقيد أوليغ بنكوفسكي، البطّل السرّي لأزمة الصواريخ الكوبية. وأعدموه في ربيع ١٩٦٢.

ثم جاء دور كيم فيلبي. ففي كانون الثاني/يناير، هرب مدرّب أنغلتون الأول على مكافحة التجسس، والمؤتمن على أسراره، وزميله في معاقرة الخمر، إلى موسكو. فقد تم الكشف عنه في النهاية بأنه جاسوس سوفياتي خدم في أرفع مستويات الاستخبارات البريطانية. اشتبه في فيلبي على مدى ١٢ عاماً. وفي عودة إلى المرّة الأولى التي أصبح فيها موضع شبهة، طلب والتر بيديل سميث تقارير من كلّ من كان له اتصال بالرجل. وقد أعلن بيل هارفي على نحو قاطع، أن فيلبي عميل سوفياتي. وجزم جيم أنغلتون أيضاً بأنه ليس كذلك.

سعى أنغلتون في ربيع ١٩٦٤، بعد سنوات من الإخفاقات الساحقة، إلى افتداء نفسه. اعتقد أنه إذا أمكن «السي.آي.أيه.» كسر نوسينكو، فقد يتم كشف المخطط الرئيسي، وحل قضية اغتيال كنيدي.

وقد وضع هيلمس إطار المشكلة في شهادة أمام الكونغرس أُبيحت في ١٩٩٨:

السيد هيلمس: إذا كانت المعلومات التي وفّرها نوسينكو حول أوزوالد صحيحة، فإنها تؤدي عندها إلى استنتاج ما في شأن أوزوالد وعلاقته بالسلطات السوفياتية. وإذا كانت غير صحيحة، وإذا كان، بقيامه بهذا، يغذّي حكومة الولايات المتحدة بتعليمات من الجهاز السوفياتي، فذلك سيؤدي إلى استنتاج مختلف تماما... إذا تم البرهان بما لا يقبل أي شك، أنه كان يكذب، وبالتالي، ضمناً، فإن أزوالد كان عميلاً لـ «الكا.جي.بي.»، فإنني كنت لأعتقد أن تداعيات ذلك، ليس بالنسبة إلى «السي.آي.أيه.» أو «الأف.بي.آي.»، بل

بالنسبة إلى رئيس الولايات المتحدة وكونغرس الولايات المتحدة، ستكون جائحة.

سؤال: هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟

السيّد هيلمس: نعم، يمكنني أن أحدّد. بعبارات أخرى، فإن الحكومة السوفياتية أمرت باغتيال الرئيس كنيدي.

تلك كانت الرهانات. وفي نيسان/أبريل، بموافقة من المدعي العام روبرت ف. كنيدي، ألقت «السي.آي.أيه.» نوسينكو في السجن الإفرادي، أوّلاً في أحد المقرات الآمنة، ومن ثم في كامب بيري، مركز التدريب التابع لـ «السي.آي.أيه.» خارج وليامسبرغ، فرجينيا(٢٢). ولقي نوسينكو في سجن القسم السوفياتي المعاملة نفسها التي تلقاها زملاؤه الروس في الغولاغ. كان يحصل على وجبة طعام شحيحة مؤلفة من الشاي الخفيف وهريسة الحبوب، وكان ضوء واحد خفيف يظل مُضاءً ٢٤ ساعة في اليوم، وما من رفقة بشرية. «لم يكن لدي طعام كاف، وكنت أبقى جائعا كل الوقت»، قال نوسينكو في إفادة رفعت عنها السرّية في ٢٠٠١. «لم يكن لدي اتصال مع أي أحد أتحدث معه. مُنعت من القراءة، ومن التدخين، ولم يمكنني حتى الحصول على هواء نقي».

تطابقت شهادته في شكل لافت مع شهادة السجناء الذين أخذتهم «السي.آي.أيه.» بعد أيلول/سبتمبر ٢٠٠١: قال «أخذني الحراس، وأنا معصوب العينين ومقيّد في إحدى السيارات، وسلّموني في أحد المطارات حيث وُضعت على متن طائرة. ثم أُخذت إلى موقع آخر، حيث وُضعت في غرفة من الباطون مع قضبان حديدية على بابها. وكان في الغرفة سرير حديدي مفرد مع فراش». تعرّض نوشينكو للترهيب النفسي، وللمشقّة الجسدية على مدى أكثر من ثلاث سنوات إضافية. تم حفظ شريط تسجيل صوتي للاستجواب العدائي الذي قام به تيننت باغلي في زنزانة سجن «السي.آي.أيه.» في سجلات الوكالة. وكان نوسينكو يتوسّل بالروسية: «من أعماق نفسي... من أعماق نفسي... أرجوكم أن تصدقوني». وكان صوت باغلي المرتفع النبرة يجيب صائحاً بالإنكليزية،

«هذا هراء! هذا هراء! هذا هراء!». وتمت ترقية باغلي، على عمله، إلى نائب رئيس للقسم السوفياتي، وقلّده ريتشارد هيلمس ميدالية التقدير الاستخبارية.

وقعت في أواخر صيف ١٩٦٤، مهمة إبلاغ لجنة وارن في شأن يوري نوسينكو على عاتق هيلمس. كانت مسألة دقيقة في شكل مبرّح. فقبل أيام على إنهاء اللجنة عملها، أبلغ هيلمس كبير القضاة أنه لا يمكن «السي.آي.أيه.» أن تقبل احتجاجات موسكو بالبراءة. لم يُسرّ إيرل وارن بتطوّر الدقيقة الأخيرة هذا، ولم يشر التقرير النهائي للجنة أبدا إلى وجود نوسينكو.

أخذ هيلمس نفسه يخشى عواقب احتجاز نوسينكو. وقال «أدركت أنه لا يمكننا، كما فعلنا، إبقاءه في حبس شنيع طويل المدة يتعارض مع قوانين الولايات المتحدة»[٢٣]. «يعلم الله ما الذي سيحصل إذا ما واجهنا وضعاً مشابهاً اليوم، لأنه لم يتم تغيير القوانين، وأنا لا أعلم ما العمل مع أناس مثل نوسينكو. سعينا إلى توجيه من وزارة العدل في ذلك الوقت. كان واضحاً أننا نحتجزه على نحو مغاير للقانون. لكن، ماذ كان علينا العمل به؟ هل كان يجب أن نطلقه، ومن ثم يُقال لنا بعد ذلك بسنة، حسناً: أيها الرفاق، كان يجب أن تتمتعوا بإدارك أفضل من القيام بذلك. فهو يشكل المفتاح الكامل لمن قتل الرئيس كنيدي».

أرسلت «السي.آي.أيه.» فريقاً آخر من المحققين لاستجواب نوسينكو، وقررت أنه يقول الحقيقة. وأطلق أخيراً بعد خمس سنوات على ارتداده، ودفع له ٨٠ ألف دولار، وأعطي هوية جديدة، ووُضع على جدول رواتب «السي. آي. أيه.».

لكن أنغلتون ودائرته لم يقفلا ملف القضية أبداً. فبحثهما عن الخائن في داخل «السي.آي.أيه.» مزّق أشلاء القسم السوفياتي. وبدأت مطاردة الجاسوس النائم بملاحقة الضباط الذين يحملون أسماء سلافية. وتصاعد الأمر داخل سلسلة الرتب حتى بلغ رئيس القسم السوفياتي، وشلّ عمليات «السي.آي.أيه.» الروسية على مدى عقد من الزمن، حتى السبعينيات.

كافحت «السي.آي.أيه.»، على مدى خمسة وعشرين عاماً بعد ارتداد نوسينكو، لكتابة الفصل الأخير من روايته. وقامت بما مجموعه سبع دراسات رئيسية للقضية(٢٤). فنوسينكو أُدين، ثم بُرّئ، ثم أُعيدت إدانته إلى أن صدر آخر حكم عليه من عضو «السي.آي.أيه.» ريتش هوير في نهاية الحرب الباردة. وقد بدأ هوير بالاعتقاد القوي بالمؤامرة الكبرى. ثم إنه قوّم قيمة ما قدّمه نوسينكو إلى الولايات المتحدة. فالجاسوس الروسي كشف، أو أنتج أدلة يستند إليها التحقيق، عن نحو ٢٠٠ أجنبي و٢٣٨ أميركياً أظهرت «الكا.جي.بي.» اهتمامها بهم. ودلّ إلى نحو ٣٠٠ عميل استخبارات سوفياتي وعناصر اتصال في ما وراء البحار، وإلى ألفي ضابط «كا.جي.بي.» تقريباً. وأرشد أيضاً إلى ٥٢ ميكروفوناً مخبّأً وضعها السوفيات في السفارة الأميركية في موسكو. ووسّع معرفة «السي.آي.أيه.» حول الطريقة التي يسعى فيها السوفيات إلى ابتزاز الدبلوماسيين الأجانب والجواسيس. ووجب، للاعتقاد بوجود مؤامرة كبرى، الإيمان بأربعة أمور: أولاً، بأن موسكو ستقايض جميع تلك المعلومات بحماية جاسوس داخلي واحد. ثانياً، بأن جميع الشيوعيين المرتدين هم عملاء خادعون. ثالثاً، بأن جهاز الاستخبارات السوفياتي الهائل موجود فقط لتضليل الولايات المتحدة. وأخيراً، بأنن مؤامرة سوفياتية عويصة تقف وراء اغتيال كنيدي.

لا تزال القضية، بالنسبة إلى ريتشارد هيلمس، كتاباً مفتوحاً. وقال إنها لن تغلق إلا في اليوم الذي يسلم فيه جهازا الاستخبارات السوفياتية والكوبية ملفاتهما. فإما أن مقتل جون كنيدي هو من عمل شخص هائم مختل عقلياً يحمل بندقية رخيصة ومنظاراً ثمنه سبعة دولارات، وإما أن الحقيقة أكثر رعباً، على ما قاله ليندون جونسون قرابة نهاية رئاسته: «حاول كنيدي النيل من كاسترو، لكن كاسترو نال منه أوّلاً».

٢٢

انجراف مشؤوم

سكنت عمليات آل كنيدي الخفية ليندون جونسون طوال حياته. واعتبر مراراً وتكراراً أن دلاس شكّلت عقاباً إلهياً من أجل ديام. وقال متفجّعاً «كنا كلّنا معاً، وجئنا بمجموعة لعينة من المجرمين ومضينا إلى هناك وقمنا باغتياله»[١]. وفي سنته الأولى في السلطة، اهتزّت سايغون بالانقلاب تلو الانقلاب، وأخذ تمرّد غامض في قتل الأميركيين في فيتنام، وأخذت خشيته من أن «السي.آي.أيه.» أداة للقتل السياسي تقوى وتزداد.

وها إنه أدرك الآن أن بوبي كنيدي يمارس سلطة كبرى على العمليات الخفية. ورأى فيه منافساً لدوداً على الرئاسة. وفي اجتماع مع جون ماكون في المكتب البيضوي، في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، سأل جونسون بصراحة فجّة إذا كان كنيدي سيترك الحكومة، ومتى. قال ماكون إن «المدعي العام ينوي البقاء [في منصبه] مدعياً عاماً، لكن من غير الواضح إلى أي مدى يريده الرئيس أن يصبح منخرطاً [في] عمل الاستخبارات، ومشاكل مجلس الأمن القومي، ومسائل مكافحة التمرّد»[٢]. وسرعان ما أصبح الجواب واضحاً: لقد انتهت أيام بوبي بوصفه اليد المحرّكة للجهاز الخفي. وغادر بعد ذلك بسبعة أشهر.

طار ماكون جنوباً في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر، إلى مزرعة ليندون جونسون في تكساس لتناول الفطور وتقديم إيجاز عن رحلته إلى سايغون. سجّل ماكون أن «الرئيس أعرب فوراً عن رغبته في تبديل صورة «السي.آي.أيه.»[٣] من لعب دور العمل الخفي، وتدبير المكائد». ولم يكن المدير ليوافق أكثر. وقال ماكون إن دور الوكالة الشرعي الوحيد هو جمع المعلومات، وتحليلها، والإفادة عنها،

وليس تركيب المؤامرات والإطاحة بالحكومات الأجنبية. وقال جونسون «إنه اكتفى من وضع يتمّ فيه، في كل مرّة يشار فيها إلى اسمي أو إلى اسم «السي.آي.أيه.»، ربطي بخدع وسخة».

إلا أن جونسون كان يبقى مستقيظاً في الليل، محاولاً أن يقرر هل يمضي في حرب شاملة في فيتنام، أم ينسحب. فسايغون ستسقط بدون الدعم الأميركي. وهو لم يرد أن يُقحم نفسه وآلاف الجنود الأميركيين. كما أنه لا يمكن أن يُنظر إليه منسحباً. والسبيل الوحيد الباقي بين الحرب والدبلوماسية، هو العمل الخفي.

ما من أحد تمكنه إدارة عمل الاستخبارات

لم يحمل ماكون ورئيس محطته الجديد في سايغون، بير دي سيلفا، في أوائل ١٩٦٤، سوى الأخبار السيئة للرئيس. كان ماكون «قلقاً للغاية» من الوضع(٤). اعتقد أن البيانات الاستخبارية «التي على أساسها قدّرنا منحى الحرب كانت خاطئة كلّياً». وحذّر البيت الأبيض والكونغرس من أن «الفيتكونغ يحصلون على مساندة كبيرة من فيتنام الشمالية، وربما من مكان آخر، ويمكن هذه المساندة أن تزداد. ومن الصعب، إذا لم يكن من المستحيل، وقف هذا عبر إحكام إقفال الحدود، والممرات المائية المترامية، وخط الساحل الطويل. فاجتذاب الفيتكونغ إلى الشعب في جنوب فيتنام على أساس سياسي، كان فعّالاً وأكسبهم مجنّدين لقواتهم المسلحة، وقضى على المقاومة».

سبق لمشروع النمر، وهو البرنامج شبه العسكري الذي أطلقته منذ سنتين محطة سايغون ضد فيتنام الشمالية، أن انتهى بالموت والخيانة. وها إن البنتاغون يقترح الآن إعادة العمل به بالاتفاق مع «السي.آي.أيه.» وقضت خطة العمليات «٣٤ أ» بسلسلة تستمر سنة من الغارات الخفية الهادفة إلى إقناع هانوي بالتخلي عن تمرّدها في فيتنام الجنوبية ولاوس. والركيزة هي مجموعة أخرى من العمليات المجوقلة لا نزال فرق استخبارات وكوماندوس في فيتنام الشمالية، إلى جانب هجمات بحرية على امتداد الساحل. سيكون المهاجمون من جنود

القوات الخاصة الفيتنامية الجنوبية، يرفدهم كوماندوس من الصينيين الوطنيين والكوريين الجنوبيين، وجميعهم تدربوا على يد «السي.آي.أيه.» لم يثق ماكون بأن الهجمات ستبدّل من رأي هو شي منه. ونصح بأنه «يجب إبلاغ الرئيس بأن هذا ليس الشيء الأعظم منذ اكتشاف زبدة الفستق»[٥].

حوّلت الوكالة التزاماً بالأوامر، الشبكة الآسيوية شبه العسكرية إلى مجموعة العمليات الخاصة التابعة للبنتاغون في فيتنام. وحذّر هيلمس من «انجراف مشؤوم» يجرّ «السي.آي.أيه.» بعيداً عن التجسس، وصوب لعب دور كفريق داعم للجيش التقليدي. وتوقّع المدير التنفيذي للوكالة، ليمان كيركباتريك، «تفكك «السي.آي.أيه.» ودمارها، مع قيام هيئة الأركان المشتركة بابتلاع الجهاز الخفي». وشكّلت هذه مخاوف تنبّؤية.

أعاد الرئيس، في آذار/مارس ١٩٦٤، إرسال ماكون وماكنمارا إلى سايغون. وعاد المدير ليبلغ الرئيس أن الحرب لا تجري على ما يرام. «وأعطى ماكنمارا وجهة نظر متفائلة جداً بأن الأمور على خير ما يرام»، بحسب ما قال ماكون في التأريخ الشفوي لمكتبة ليندون جونسون الرئاسية. «وكان علي اتخاذ موقف بأنه ما دامت طريق هوشي منه مفتوحة ويمكن المؤن وقوافل الناس المجيء إلى هناك بدون انقطاع، فلا يمكننا القول إن الأمور جيدة».

شكّل هذا بداية نهاية حياة جون ماكون المهنية بوصفه مديراً للاستخبارات المركزية. أقفل ليندون جونسون باب المكتب البيضوي. وباتت الاتصالات بين «السي.آي.أيه.» والرئيس محدودة بتقرير يوضع مرتين في الأسبوع حول الأحداث العالمية. وكان الرئيس يقرأه على راحته، متى أراد ذلك. وفي ٢٢ نيسان/أبريل قال ماكون لبوندي إنه «مستاء كثيراً من واقع أن الرئيس لا يحصل على استخبارات مباشرة منّي على ما جرت عليه العادة مع الرئيس كنيدي، أو كما كانت العادة مع الرئيس أيزنهاور»[٦]. بعد ذلك بأسبوع، قال ماكون لليندون جونسون «إنني لا أراك كثيراً، وإن هذا يزعجني». وهكذا، لعب جونسون وماكون معاً في أيار/مايو ثماني حفر في الغولف في نادي بورنينغ تري الريفي. لكنهما لم يجريا محادثة حقيقية حتى تشرين الأول/أكتوبر. كان قد أصبح

للرئيس ١١ شهراً في السلطة قبل أن يسأل ماكون عن حجم «السي.آي.أيه.»، وعن كلفتها، وبالتحديد كيف يمكنها أن تخدمه. إلا أنه قلّما تم الاستماع إلى نصيحة المدير أو المبالاة بها. وهو، بدون «أُذُن الرئيس»، لا يملك سلطة، وبلا تلك السلطة، أخذت «السي.آي.أيه.» في الانجراف إلى الممر الوسطي الخطر للستينيات.

كشف خلاف ماكون مع ماكنمارا حول فيتنام عن تفسّخ سياسي أكبر. فمدير الاستخبارات المركزية هو، بموجب القانون، رئيس مجلس جميع الوكالات الاستخبارية الأميركية. إلا أن البنتاغون حارب على مدى عقدين، لجعل المدير بمثابة لاعب الكمان الثاني في الجوقة النشاز التي يدعوها الناس الآن «مجتمع الاستخبارات». وعلى مدى ستة أعوام، اقترح مجلس مستشاري الرئيس لشؤون الاستخبارات، أنه على المدير أن يدير المجتمع ويترك لضابط العمليات الرئيسي محاولة إدارة «السي.آي.أيه.». وكان ألن دالاس قد عارض الفكرة بإصرار، ورفض الانتباه إلى أي شيء ما عدا العمل الخفي. واستمرّ ماكون في القول إنه يريد الخروج من عملية الدسائس والمؤامرات. إلا أنه، في ١٩٦٤، كان الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» يستهلك ما يقارب ثلثي موازنة الوكالة، وتسعين في المئة من وقت ماكون. أراد أن يؤكّد سلطته القانونية على الاستخبارات الأميركية. أراد سلطة تتناسب مع مسؤوليته، ولم يحصل عليها أبداً. فقد قوّضه البنتاغون عند كل مقلب.

نمت ثلاثة فروع رئيسة للاستخبارات الأميركية على مدى العقد المنصرم، وكانت ثلاثتها تحت القيادة الاسمية للمدير. لكن هذه السلطة لم تكن موجودة إلا على الورق، فيُفترض بالمدير أن يشرف على وكالة الأمن القومي، وهي ذراع التنصت العالمي الهائل الحجم على ازدياد للاستخبارات الأميركية. أنشأ ترومان جهاز الأمن القومي في ١٩٥٢ بناءً على إلحاح من والتر بيديل سميث بعد المفاجآت الساحقة في الحرب الكورية. إلا أن وزير الدفاع تولى مسؤولية المال والسلطة. وسيطر ماكنمارا كذلك على الوكالة الجديدة لاستخبارات الدفاع[7]، التي أنشأها بعد خليج الخنازير بنيّة تنسيق خليط المعلومات التي

يأتي بها الجيش، والبحرية، وسلاح الجو، والمارينز. ثم جاء مكتب الاستطلاع القومي، الذي نشأ في ١٩٦٢ لبناء أقمار التجسس. في ربيع ١٩٦٤، حاول الجنرالات الاستحواذ على السيطرة على برنامج لـ «السي.آي.أيه.» كلفته مليار دولار في السنة. وصدّعت محاولة الإمساك بالسلطة مكتب الاستطلاع السريع الانكسار.

وهدر ماكون، «أنا على وشك القول لوزير الدفاع وللرئيس أن خذا مكتب الاستطلاع القومي وزجّا به[٨]... أعتقد أن الأمر الذي عليّ القيام به هو الاتصال بالرئيس والطلب منه الحصول على مدير جديد للاستخبارات المركزية... فبيروقراطيو البنتاغون يحاولون إخفاق الأمور بحيث لا يمكن أحداً إدارة أعمال الاستخبارات».

حاول ماكون الاستقالة ذلك الصيف، لكن الرئيس أمره بالبقاء في منصبه أقله حتى يوم الانتخاب. فالحرب في فيتنام باتت الآن في أوجها، ومظهر الولاء صار غاية قصوى.

إطلاق النار على السمك الطائر

تم السماح بالحرب بقرار خليج تونكين، الذي دُفع بقوة عبر الكونغرس بعدما أعلن الرئيس والبنتاغون عن هجوم من غير استثارة شنته فيتنام الشمالية، في ٤ آب/أغسطس، على سفن أميركية في المياه الدولية. وأصرّت وكالة الأمن القومي، التي جمعت وسيطرت على الاستخبارات المتعلّقة بالهجوم، على أن الدليل مبرم. أقسم روبرت ماكنمارا على ذلك، ودعاه تأريخ البحرية الرسمي لحرب فيتنام بالحاسم.

لم يشكّل ذلك خطأً بريئاً. فحرب فيتنام بدأت بكذبة سياسية تستند إلى استخبارات مزيّفة. ولو أن «السي.آي.أيه.» عملت بموجب ما نص عليه ميثاقها، ولو أن ماكون قام بواجباته بحسب ما يرى أن القانون يحددها، لما عاشت التقارير المزيفة لأكثر من ساعات قليلة. إلا أن الحقيقة كاملة لم تظهر

إلا في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، في اعتراف مفصّل جدّاً نشرته وكالة الأمن القومي[٩].

قرّر البنتاغون و«السي.آي.أيه.»، في تموز/يوليو ١٩٦٤، أن خطة «٣٤ أ» للهجمات البرّية التي بدأت قبل ذلك بستّة أشهر، شكّلت سلسلة من وخز الدبابيس التي لا طائلة منها، تماماً كما حذّر ماكون من ذلك. ضاعفت الولايات المتحدة من غارات الكوماندوس بحراً، بقيادة عنصر «السي.آي.أيه.» تاكر غوجلمان، وهو عنصر من المارينز حنّكته الحرب وأصبح بعد بذلك بسنوات عدّة آخر أميركي يموت في الحرب في فيتنام. ولدعم قواته، ضاعفت واشنطن من مراقبتها للشمال. وسبق للبحرية أن شرعت في برنامج تنصّت على اتصالات العدو المرمّزة ـ التعبير التقني هو استخبارات الإشارة، أو سيغنيت ـ بموجب عملية أُطلق عليها الاسم الرمزي ديسوتو. بدأت هذه المهمات داخل صناديق سوداء، بحجم مستوعب الشحن، مثبّتة على أسطح المدمرات قبالة الشاطئ الفيتنامي. وفي داخل كل منها هوائيات ومرصاد تشغّلهما دزينة من ضباط مجموعة الأمن البحري على الأقل. تنصّتوا على المتحدّثين العسكريين الفيتناميين، وقامت وكالة الأمن القومي بتفكيك رموز المعطيات التي جمعوها، وترجمتها.

أرسل رؤساء الأركان المشتركة السفينة مادوكس، بقيادة القبطان جون هيريك، في مهمة ديسوتو «للحث على» ردود الفعل الفيتنامية الشمالية على غارات الكوماندوس، و«تسجيلها» قضت أوامر مادوكس بالتوقف على بعد ثمانية أميال بحرية من البر، وعلى بعد أربعة عقد من الجزر الساحلية لفيتنام الشمالية في خليج تونكين. لم تعترف الولايات المتحدة بحدود الـ ١٢ ميلاً الدولية في فيتنام. وفي آخر ليلة من تموز/يوليو وأوّل ليلة من آب/أغسطس ١٩٦٤، راقبت مادوكس هجوماً لـ «٣٤ أ» على جزيرة هون مي، قبالة الشاطئ الوسطي لفيتنام الشمالية في خليج تونكين. وتتبعت الهجوم المضاد الكوري الشمالي، مراقبة زوارق الدورية السوفياتية الصنع المسلّحة بالطوربيدات والأسلحة الرشاشة تتجمع قبالة الجزيرة.

التقطت مادوكس، بعد ظهر الثاني من آب/أغطس، اقتراب ثلاثة من الزوارق. بعث القبطان هيريك برسالة عاجلة إلى رفاقه قادة الأسطول السابع: إنه سيطلق عليها النار إذا اقتضى الأمر ذلك. طلب المساعدة من المدمرة تورنر جوي ومن الطائرات المقاتلة الرابضة على الحاملة تيكونديروغا. بعيد الثالثة بعد الظهر، أطلقت مادوكس النار ثلاث مرات على زوارق الدورية الفيتنامية الشمالية. لم تتم الإفادة أبداً عن الطلقات أو الاعتراف بها من قبل البنتاغون أو البيت الأبيض؛ فقد أصرّا على أن الشيوعيين أطلقوا النار أوّلاً. كانت مادوكس لا تزال تطلق النار عندما قصفت طائرات «الأف-٨ إي» زوارق الدورية، وقتلت أربعة بحارة، وأصابت زورقين بأضرار بالغة، وجنّحت الثالث. وقد هرب قباطنتها الشيوعيون واختبأوا في الجزر الساحلية الصغيرة ينتظرون الأوامر من هايفونغ، بينما أصيبت مادوكس بثقب رصاصة واحدة من سلاح رشاش.

أعلن الرئيس جونسون، في ٣ آب/أغسطس، أن الدوريات الأميركية ستستمر في خليج تونكين، وأعلنت وزارة الخارجية أنها بعثت بأول مذكّرة دبلوماسية على الإطلاق إلى هانوي تحذّر فيها من «العواقب الخطيرة» لـ «مزيد من العمل العسكري غير المُستفَزّ». تم، في تلك الساعة، إرسال مهمة بحرية استفزازية أخرى لـ «٣٤ أ» لتخريب محطّة رادار مقابل الشاطئ الفيتنامي الشمالي على جزيرة مون هات.

ثم إنه، في ليلة الرابع من آب/أغسطس العاصفة، تلقى قباطنة المدمّرات الأميركية، وقادة الأسطول السابع، ورؤساؤهم في البنتاغون إنذاراً عاجلاً من عاملي استخبارات الإشارة على البرّ: إن زوارق الدورية الفيتنامية الثلاثة التي تمت المواجهة معها قبالة جزيرة هون مي في ٢ آب/أغسطس، تعود. في واشنطن، اتصل روبرت ماكنمارا بالرئيس. وفي العاشرة مساءً في خليج تونكين، العاشرة قبل الظهر في واشنطن، بعثت المدمّرتان الأميركيتان برسالة عاجلة بأنهما عرضة لهجوم[١٠].

أفاد العاملون على الرادار والمسبار الصوتي على متن مادوكس وتورنر جوي عن رؤية بقع كالخيالات في الليل. فتح قبطاناهما النار. ويصف تقرير وكالة

الأمن القومي، الذي أُبيح في ٢٠٠٥، كيف أن «المدمرتين دارتا في شكل جامح في مياه خليج تونكين المظلمة، وتورنر جوي تطلق على نحو جنوني أكثر من ٣٠٠ رصاصة». وقد قامت السفينتان بمناورات مراوغة عنيفة. «كان ذلك الدوران بسرعة كبيرة للسفينيتن الأميركيتين في المياه، هو الذي أدى إلى تقارير المسبار الصوتي بوجود المزيد من التوربيدات». كانوا يطلقون النار على خيالاتهم.

أمر الرئيس فوراً بغارات جوية تبدأ تلك الليلة على القواعد البحرية الفيتنامية الشمالية.

في غضون ساعة، أفاد القبطان هيريك: «العمل بأكمله يخلّف شكوكاً كثيرة». وزالت جميع الشكوك في واشنطن. أبلغت وكالة الأمن القومي وزير الدفاع ورئيس الولايات المتحدة أنها اعترضت بلاغاً بحرياً فيتنامياً شمالياً جاء فيه: «ضحّينا بسفينتين وجميع الأخرى بخير».

إلا أنه، بعد البدء في الغارات على فيتنام الشمالية، أعادت وكالة الأمن القومي النظر في ما اعترضته من اتصالات اليوم. لم يكن ثمة شيء. وأعاد كل متنصّت في استخبارات الإشارة في فيتنام الجنوبية النظر. لا شيء. أعادت وكالة الأمن القومي تفحّص البرقية المعترضة التي سلّمتها إلى الرئيس، معيدة النظر في الترجمة وفي خاتم التوقيت على الرسالة الأصلية.

وبعد النظر، فإن الرسالة جاء فيها في الواقع: «لقد ضحّينا برفيقين، لكن الجميع شجعان». وكانت الرسالة قد وُضعت إما مباشرة قبل وإما في الوقت الذي فتحت مادوكس وتورنر جوي النار في ٤ آب/أغسطس. ولم يكن الأمر متعلّقاً بما حصل في تلك الليلة، بل بالاشتباك الأول، قبل ذلك بليلتين، في ٢ آب/أغسطس.

دفنت وكالة الأمن القومي هذه الواقعة البارزة، ولم تبلغ أحداً. ونظر محللوها مرّة ثالثة، ورابعة، في خاتم التوقيت. وقرر الجميع ـ الجميع بمن فيهم المشككون ـ التزام الصمت. ووضعت قيادة وكالة الأمن القومي خمسة

تقارير منفصلة وملخصات لما بعد العملية ما بين ٥ و٧ آب/أغسطس. ثم وضعت جدولاً زمنياً بالأحداث، الرواية الرسمية للحقيقة، آخر الكلام عما حدث في خليج تونكين، التأريخ الذي سيُحفظ للأجيال المقبلة من محللي الاستخبارات والقادة العسكريين.

وقام أحد ما في وكالة الأمن القومي، في السياق، بتدمير الدليل القاطع إلى الخطأ، البرقية المعترضة التي أراها ماكنمارا للرئيس. وقال راي كلاين، وكان يومها نائباً لمدير «السي.آي.أيه.» لشؤون الاستخبارات، إن «ماكنمارا حمل برقية تنصت خام وأظهر للرئيس ما اعتقدوا أنه دليل على هجوم ثان»(١١). «وشكّل ذلك تماماً ما يبحث عنه جونسون». واقتضى، في عالم عقلاني، أن تتولى «السي.آي.أيه.» إلقاء نظرة فاحصة شديدة على الاستخبارات والإشارة من خليج تونكين وتصدر تفسيراً مستقلاً لمغزاها. إلا أن هذا العالم لم يعد عالماً عقلانياً. وقال كلاين «فات الأوان على إحداث فارق، فقد تم إطلاق الطائرات».

ويقول اعتراف وكالة الأمن القومي في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، إن «المجموع الساحق للتقارير، لو استخدم، لأخبر بأنه لم يحصل أي هجوم. وبالتالي أعقب ذلك جهد مقصود للبرهان أن الهجوم وقع... وجهد ناشط لجعل استخبارات الإشارة تتناسب مع الادعاء بما حصل مساء الرابع من آب/أغسطس في خليج تونكين». وخلص التقرير إلى أنه «تم تعمُّد تحوير الاستخبارات لدعم فكرة أن الهجوم قد حصل». وقام ضباط الاسخبارات الأميركية «باستبعاد التعليل المنطقي المعاكس».

فمنذ شهرين والرئيس ليندون جونسون على استعداد لقصف فيتنام الشمالية. وبناءً على أوامر صادرة عنه في حزيران/يونيو ١٩٦٤، قام بيل بوندي، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، وهو شقيق مستشار الأمن القومي ومحلل قديم في «السي.آي.أيه.»، بوضع مسودة قرار بالحرب يُرسل إلى الكونغرس عندما يحين الوقت.

تناسبت الاستخبارات المزيفة تماماً مع السياسة الموضوعة سلفاً. وفي ٧ آب/أغسطس سمح الكونغرس بالحرب على فيتنام. وجاء تصويت مجلس النواب ٤١٦ مقابلاً صفراً، ومجلس الشيوخ ٨٨ مقابلاً صوتين. وقال كلاين إن الأمر أشبه «بمأساة إغريقية»، مشهد مسرح سياسي استعيد بعد ذلك بأربعة عقود عندما أدت استخبارات زائفة حول الترسانة العراقية، إلى مساندة السند العقلي للحرب لدى رئيس آخر.

ويبقى على ليندون جونسون أن يُجمل ما حصل فعلاً في خليج تونكين، وهو ما فعله بعد أربع سنوات على الواقعة: «يا للجحيم»، قال الرئيس، «هؤلاء البحارة الملاعين الأغبياء، كانوا يطلقون النار على الأسماك الطائرة»[١٢].

٢٣

شجاعة أكثر من الحكمة

كتب ريتشارد هيملس أن «فيتنام شكّلت كابوساً لي على مدى عشرة أعوام كاملة»[١]. فقد رافقته الحرب على الدوام، بينما ترقّى من رئيس للجهاز الخفي ليصبح رئيساً للاستخبارات المركزية. «فهو تضمّن جهوداً لم يبد أبداً أنها ناجحة، ومطالب لم يكن ممكناً تحقيقها قطُّ، لكنها تكرّرت، وتضاعفت، واشتدّت، ومن ثم تضاعفت من جديد.

«جرّبنا كل مقاربة عملانية معروفة، وكرّسنا أكثر عملائنا خبرة على الأرض لجهد الدخول إلى قلب الحكومة في هانوي»، روى هيلمس. و«في داخل الوكالة، شكّل فشلنا في اختراق الحكومة الفيتنامية الشمالية واحدا من أكثر المظاهر إحباطاً في تلك السنوات. لم يكن في إمكاننا تحديد ما الذي يحصل في أرفع مراتب حكومة هو، ولا معرفة كيف توضع السياسة ومن الذي يصنعها». وقال إن جذور هذا الإخفاق الاستخباري هي «في جهلنا الوطني تاريخ فيتنام، ومجتمعها، ولغتها».

لم نختر المعرفة، وبالتالي لم نعرف مدى ما نجهله.

وقال هيلمس في تأريخ شفوي مسجّل لمكتبة ليندون جونسون، «إن الحزن الأكبر كان في جهلنا ـ أو سذاجتنا، إذا شئت ـ الذي أدى بنا إلى إساءة التقدير، وعدم الفهم، واتخاذ الكثير من القرارات الخاطئة»[٢].

راود ليندون جونسون أيضاً حلم متكرر عن فيتنام. فلو أن عزيمته في الحرب تراخت، ولو أنه ترنّح، ولو أنه خسر، «فسيكون روبرت كنيدي في

الطليعة يقود المعركة ضدّي، قائلاً للجميع إنني خنت التزام جون كنيدي بفيتنام الجنوبية، وإنني جبان، ورجل فاقد رجوليته، رجل ضعيف الشخصية. آه، يمكنني أن أرى ذلك آتياً، حسناً. وفي كل ليلة، عندما أغفو، أرى نفسي مربوطاً إلى الأرض في وسط مساحة طويلة، مفتوحة. ويمكنني أن أسمع من البعيد أصوات آلاف الناس. جميعهم يصرخون ويركضون نحوي: جبان! خائن! ضعيف!»[٣].

حرب ماكون

استمرت قوة الفيتكونغ، الميليشيا الشيوعية في الجنوب، في النمو. وبحث السفير الجديد، الجنرال ماكسويل تايلور، الذي كان حتى وقت قصير في المجموعة الخاصة (مكافحة التمرّد)، وبيل مولبي، رئيس قسم الشرق الأقصى في «السي.آي.أيه.»، عن استراتيجية جديدة في مواجهة الإرهابيين الخفيين. «كادت مكافحة التمرّد تصبح شعار حرب تافه»[٤]، قال روبرت أموري، الذي استقال بعد تسع سنوات من منصبه كنائب لمدير «السي.آي.أيه.» للاستخبارات، ليصبح مسؤول موازنة البيت الأبيض للبرامج المحظور تداولها. و«عنى ذلك الكثير من الأمور لأنواع كثيرة من الناس». لكن بوب كنيدي عرف معناه، وأخرج فحواه. «ما كنا نحتاج إليه»، قال، «هو أناس يمكنهم إطلاق المدافع»[٥].

في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٤، حطت دراسة قابلة للتفجر من رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في سايغون، بير دي سيلفا، على مكتب جون ماكون في مقر القيادة. كانت بعنوان «تجربتنا في مكافحة التمرّد وتداعياتها»[٦]. قرأها هيلمس وكولبي ووافقا عليها. كانت فكرة جريئة تحمل خطراً كبيراً واحداً: إمكان «تحويل حرب ماكنمارا إلى حرب ماكون»، بحسب ما حذّر نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية مارشال كارتر رئيسه في ذلك اليوم.

أخذ دي سيلفا يحاول توسيع سلطة «السي.آي.أيه.» في فيتنام الجنوبية من خلال إنشاء دوريات شبه عسكرية في المحافظات لمطاردة الفيتكونغ. وبالعمل

مع وزير الداخلية ورئيس الشرطة الوطنية، اشترى دي سيلفا عقاراً في الزاوية الشمالية الشرقية من فيتنام الجنوبية من قطب نصّاب في الاتحاد العمالي، وأخذ يقدم إلى المدنيين دورات سريعة في مكافحة التمرّد. وفي الأسبوع الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٤، وبينما الأميركيون ينتخبون الرئيس جونسون لولاية كاملة، طار دي سيلفا شمالاً لتفقّد مشروعه الحديث العهد. سبق لضباطه أن درّبوا ثلاث فرق من أربعين مجنداً فيتنامياً أفادوا أنهم قتلوا ١٦٧ من الفيتكونغ ولم يخسروا إلا ٦ من جماعتهم. وها إن دي سيلفا يريد أن ينقل جواً خمسة آلاف مواطن فيتنامي جنوبي من شتى أنحاء البلاد إلى العقار لتدريب يستغرق ثلاثة أشهر على التكتيكات العسكرية والسياسية التي يقوم ضباط من «السي.آي.أيه.» ومستشارون عسكريون أميركيون بتلقينها. وسيعودون إلى ديارهم، بحسب تعبير دي سيلفا، بوصفهم «فرق مكافحة للارهاب»، وسيقتلون الفيتكونغ.

كان لجون ماكون إيمان كبير ببير دي سيلفا، وأعطى موافقته. لكنه شعر بأنها معركة خاسرة. وفي اليوم الذي تلى وصول مذكّرة دي سيلفا، دخل ماكون إلى البيت الأبيض، وقدّم للمرة الثانية استقالته إلى الرئيس جونسون. وعرض خياره لخلفاء مؤهلين راجياً الإذن له بالمغادرة. ومرّة أخرى، وهي ليست الأخيرة، تجاهل الرئيس مدير الاستخبارات المركزية.

بقي ماكون في حين كانت الأزمات التي تواجهه تتراكم. وقد آمن، كما فعل الرؤساء الذين خدمهم، بنظرية الدومينو. وقال للرئيس المقبل، النائب جيرالد ر. فورد، إنه «إذا سقطت فيتنام الجنوبية بأيدي الشيوعيين، فإن لاوس وكمبوديا ستسقطان بالتأكيد، وتتبعهما تايلاند، وإندونيسيا، وماليزيا، وفي مآل الأمر الفيليبين»[٧]، وهو ما سيكون له «تأثير واسع» في الشرق الأوسط، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية. وهو لم يعتقد أن «السي.آي.أيه.» مجهّزة لمحاربة المتمرّدين والإرهابيين، وخشي أن «الفيتكونغ سيشكلون موجة المستقبل»[٨]. وكان شبه متأكّد من أن «السي.آي.أيه.» عاجزة عن محاربة الفيتكونغ.

ندب دي سيلفا لاحقاً «عمى» الوكالة عن العدو واستراتيجيته. وكتب أن

«استخدام الفيتكونغ للإرهاب» في القرى، «كان مقصوداً، محدداً، ومريعاً للنظر»[٩]. وكان الفلاحون «يطعمونهم، ويقومون بالتجنيد لحسابهم، ويخبئونهم، ويوفرون لهم جميع الاستخبارات التي يحتاج إليها الفيتكونغ». ثم إن الفيتكونغ نقلوا الحرب، في نهاية ١٩٦٤، إلى العاصمة. وكتب دي سيلفا أنه «غالباً ما استخدم الفيتكونغ الإرهاب داخل مدينة سايغون، أحياناً في شكل عشوائي، وأحياناً يتم التخطيط له بعناية وتنفيذه». فوزير الدفاع ماكنمارا نجا قيد أنملة من الإصابة بانفجار عبوة ناسفة موضوعة إلى جانب الطريق الرئيسي الموصل من المدينة إلى المطار. وفجّرت سيارة ملغومة ثكنة الضباط الجدد في سايغون ليلة عيد الميلاد ١٩٦٤. وأخذت الخسائر تزداد ببطء بينما أخذ المفجرّون الانتحاريون وعناصر الهندسة يضربون كيفما شاؤوا. هاجم الفيتكونغ في الثانية من فجر السابع من شباط/فبراير ١٩٦٥، القاعدة الأميركية في بلايكو، في مرتفعات فيتنام الوسطى، وقُتل فيها ثمانية أميركيين. وعندما توقف القتال، فتّش الأميركيون جثة أحد المهاجمين الفيتكونغ ووجدوا في جعبته خارطة دقيقة للقاعدة الأميركية.

اندفع ليندون جونسون بقوة بعد ذلك بأربعة أيام سقطت القنابل التقليدية، والقنابل العنقودية، وقنابل النابالم على فيتنام. بعث البيت الأبيض برسالة مستعجلة إلى سايغون سعياً وراء تقويم «السي.آي.أيه.» الأفضل للوضع. قال جورج و. ألن، وهو أكثر محللي الاستخبارات خبرة في محطة سايغون، إن العدو لن تردعه القنابل. وهو يزداد قوّة، وإرادته لم تنكسر. لكن السفير ماكسويل تايلور، راجع التقرير سطراً سطراً، شاطباً بطريقة منهجية كل مقطع تشاؤمي، قبل أن يرسله إلى الرئيس. أخذ رجال «السي.آي.أيه.» في سايغون علماً بأن الأخبار السيئة غير مرحّب بها. واستمر تحريف الاستخبارات على أيدي الجنرالات السياسيين، والقادة المدنيين، والوكالة ذاتها[١٠]. ولن يكون ثمة تقرير ذو تأثير فعلي من «السي.آي.أيه.» للرئيس في موضوع الحرب قبل ثلاث سنوات أخرى.

نزل رجال المارينز في الثامن من آذار، في دا نانغ بكامل عتادهم القتالي.

استقبلتهم الفتيات الجميلات بأطواق الازهار. وفي هانوي، حضّر هو شي منه لاستقباله الخاص.

في ٣٠ آذار/مارس، كان بير دي سيلفا في مكتبه في الطابق الثاني في محطة «السي.آي.أيه.» في سايغون، الموارب للسفارة، يتحدّث على الهاتف مع أحد ضباطه، محدّقاً من النافذة إلى رجل يجرّ سيّارة بيجو قديمة رمادية في الشارع. تطلّع دي سيلفا نزولاً إلى مقعد السائق، وشاهد فتيل تفجير يحترق.

«تحوّل عالمي إلى ما يشبه الغراء والحركة البطيئة، بينما ذهني يقول لي إنها سيارة ملغومة»[١١]، قال دي سيلفا مستذكراً. «وبدون تفكير واع، والهاتف لا يزال في يدي، أخذت في السقوط بعيداً عن النافذة، واستدرت وأنا أهوي، لكنني كنت في منتصف الطريق فقط إلى الأرض عندما انفجرت السيارة». أدى الزجاج وقطع المعدن المتطايرة إلى شق عيني دي سيلفا وأذنيه وحنجرته. قتل الانفجار ما لا يقل عن عشرين شخصاً في الشارع وسكرتيرة دي سيلفا ذات الواحد والعشرين ربيعاً. وأصيب ضابطان من «السي.آي.أيه.» داخل المحطة بعمى دائم، وجُرح ستة آخرون من موظفيها وموظفي السفارة. خسر دي سيلفا نور عينه اليسرى، وحقنه الأطباء حتى امتلأ بمسكنات الأوجاع، ولفوا رأسه بالشاش، وقالوا له إنه سيُصاب بعمى كامل إذا بقي في سايغون.

وتساءل الرئيس عن كيفية محاربة عدو لا تمكنه رؤيته. وطالب جونسون، والليل يهبط على سايغون، بأنه «لا بد من وجود شخص ما هناك، يملك ما يكفي من العقل لتصوّر طريقة ما يمكننا فيها إيجاد أهداف معيّنة ما نستطيع ضربها»[١٢]. وقرر إرسال آلاف أخرى من الجنود، وتصعيد حملة القصف. ولم يقم، ولا مرة واحدة، باستشارة مدير الاستخبارات المركزية.

جهد عسكري لا يمكننا كسبه

استقال جون ماكون، للمرة الأخيرة، في ٢ نيسان/أبريل ١٩٦٥، وسيبدأ مفعول الاستقالة ما إن يختار ليندون جونسون خَلَفاً له. قدّم إلى الرئيس توقّعاً

ينبئ بالمستقبل وأقل: «مع مرور كل يوم وكل أسبوع، يمكننا أن نتوقّع ضغطاً متزايداً لوقف القصف». «وسيأتي ذلك من عناصر مختلفة من الشعب الأميركي، ومن الصحافة، ومن الأمم المتحدة والرأي العام العالمي. وبالتالي، فإن الوقت سيعمل ضدنا في هذه العملية، وأعتقد أن الفيتناميين الشماليين يعتمدون على هذا»(١٣). وقال له هارولد فورد، وهو واحد من أفضل المحللين لديه: «إننا ننفصل بالتدريج عن الواقع في فيتنام»، و«نتصرّف بشجاعة أكثر كثيراً من سلوكنا طريق الحكمة». وقد فهم ماكون ذلك الآن. وأبلغ ماكنمارا أن الأمة على وشك «الانجراف إلى وضع قتالي يكون فيه النصر مشكوكاً فيه». وجاء آخر تحذير له للرئيس بأكبر قدر ممكن من الصراحة: «سنجد أنفسنا نغرق في معركة في الأدغال في جهد عسكري لا يمكننا كسبه، وسنجد صعوبة فائقة في سحب أنفسنا منه».

توقّف ليندون جونسون عن الإصغاء إلى جون ماكون منذ زمن بعيد. غادر المدير منصبه وهو عارف بأنه لا يملك أي تأثير من أي نوع في تفكير رئيس الولايات المتحدة. وعلى غرار معظم الذي سبقوه تقريباً، أحبّ ليندون ب. جونسون عمل الوكالة فقط عندما تناسَبَ مع تفكيره. وعندما لا يتناسب فإن مصيره سلّة المهملات. «دعني أخبرك عن جماعة الاستخبارات»، قال(١٤) «عندما كنت أترعرع في تكساس، امتلكنا بقرة اسمها بيسي. كنت أخرج باكراً وأحلبها. كنت آتي بها إلى العمود، وأجلس، وأستخرج دلواً من الحليب الطازج. وعملت في أحد الأيام جاهداً واستخرجت دلو الحليب، إلا أنني لم أكن منتبها، ولوّحت بيسي العجوز بذنبها الملوّث بالروث وأدخلته في دلو الحليب ذلك. وها أنت تعرف الآن، فهذا ما تفعله جماعة الاستخبارات. أنت تعمل جاهداً وتجعل برنامجاً سياسياً جيداً يعمل، وهم يغطّسون الذنب الملوث بالروث فيه».

٢٤

بداية انزلاق طويل إلى الوراء

مضى الرئيس باحثاً عن «رجل عظيم» يعمل مديراً جديداً لوكالة الاستخبارات المركزية: «رجل على استعداد لإشعال فتيل التفجير إذا كان هذا ما يقتضيه إنقاذ بلاده»[١].

حذّر نائب مدير الاستخبارات المركزية مارشال كارتر من اختيار شخص خارجي. قال إنه من «الخطأ الجسيم» اختيار عسكري يوافق على كل ما يُطلب منه، ومن «الكارثة» اختيار أحد المقرّبين السياسيين. وإذا اعتقد مسؤولو البيت الأبيض أنه لا يوجد في داخل «السي.آي.أيه.» من يستأهل اختياره، «فمن الأفضل لهم إقفال المكان وإعطائه إلى الهنود»[٢]. وحصل شبه إجماع على ريتشارد هيلمس داخل فريق الأمن القومي التابع للرئيس: ماكون، ماكنمارا، راسك، وبوندي.

لم يبال جونسون بأي منهم. وأجرى بعد ظهر السادس من نيسان/أبريل ١٩٦٥، اتصالاً بأميرال متقاعد في التاسعة والخمسين من العمر اسمه ريد رابورن، وهو من أبناء ديكاتور في تكساس. امتلك رابورن أوراق اعتماد سياسية: فقد كسب مودّة ليندون جونسون بظهوره في إعلان تلفزيوني مدفوع في خلال حملة ١٩٦٤، واصفاً المرشح الجمهوري السيناتور باري غولدووتر، من أريزونا، بأنه أغبى من أن يكون رئيساً. واكتسب شهرته في إدارة تطوير صاروخ بولاريس النووي لغواصات سلاح البحرية، وهو جهد أكسبه أصدقاء في الكونغرس. إنه رجل لطيف ذو وظيفة جيّدة في الصناعة الفضائية، ويملك

امتداداً واسعاً في بالم سبرينغز يشرف على الفسحة السريحة الحادية عشرة لملعب الغولف المفضّل لديه.

وقف ريد رابورن متأهباً لدى سماعه صوت قائده الأعلى. قال ليندون جونسون، «إنني احتاج إليك الآن، وأريدك أن تكون سيئاً على نحو مريع، وسريعاً في شكل هائل»[٣]. مرّت فترة لا بأس بها من محادثتهما قبل أن يدرك رابورن ان جونسون يريد منه إدارة «السي.آي.أيه.». ووعد الرئيس بأن ريتشارد هيلمس، بوصفه النائب الجديد للمدير، سينجز الأعمال الصعبة. «يمكنك أن تتمتع بقيلولتك بعد ظهر كل يوم»، قال. «لن نرهقك بالعمل». وقال جونسون، مناشداً وطنية رابورن، ومستخدما سحره العادي: «أعلم ما يفعله حصان الحرب القديم عندما يسمع رنين الجرس».

تسلّم الأميرال منصبه في ٢٨ نيسان/أبريل ١٩٦٥. وقدّم الرئيس عرضاً كبيراً لقسم اليمين في البيت الأبيض، قائلاً إنه بحث في البلاد طولاً وعرضاً ليعثر على رجل واحد فقط يستطيع القيام بالعمل. انهمرت دموع العرفان بالجميل على وجنتي رابورن. وشكّلت تلك لحظة السعادة الأخيرة له كمدير للاستخبارات المركزية.

انفجر الوضع في جمهورية الدومينيكان في ذلك اليوم ذاته. فقد حاولت الولايات المتحدة (وفشلت) تحويل هذا البلد إلى المكان الرائع الذي يعجب الناس في الكاريبي بعد الاغتيال المدعوم أميركياً للديكتاتور رافاييل تروخيّو في ١٩٦١. وها إن المتمرّدين المسلحين يقاتلون في شوارع العاصمة. قرر جونسون إرسال أربعمئة من المارينز الأميركيين، إلى جانب «الأف.بي.آي»، وقوات دعم لمحطة «السي.آي.أيه.» وقد شكّلت تلك أول عملية إنزال لقوات أميركية في أميركا اللاتينية منذ ١٩٢٨، وأول مغامرة مسلحة من نوعها في الكاريبي منذ «خليج الخنازير».

وفي اجتماع باللباس الرسمي الكامل في البيت الأبيض تلك الليلة، أفاد رابورن بدون دليل، وبدون تحفّظ ـ أن كوبا تسيطر على المتمرّدين. وفي محادثة

هاتفية، في صباح اليوم التالي، مع الرئيس، قال رابورن «برأيي أن هذا صراع يشنّه السيد كاسترو. ما من شك في ذهني، في أن هذا يشكل بداية توسّع كاسترو».

سأل الرئيس: «ما هو عدد إرهابيي كاسترو؟».

أجاب رابورن: «حسناً، لقد حددنا ثمانية منهم في شكل إيجابي. وقد أرسلت إلى البيت الأبيض عند حوالى الساعة السادسة لائحة ـ يجب أن تكون في غرفة الأوضاع ـ بمن هم، وما يفعلونه، ونوعية التدريب الذي تلقّوه». ظهرت لائحة «إرهابيي كاسترو» الثمانية في مذكّرة لـ «السي.آي.أيه.»، جاء فيها: «ما من دليل على أن نظام كاسترو متورّط في شكل مباشر في الثورة الراهنة».

أقفل الرئيس سماعة الهاتف، وقرر أرسال ألف رجل مارينز إضافي إلى جمهورية الدومينيكان.

«هل جاء أي إنذار من «السي.آي.أيه.» حول الأزمة؟ سأل الرئيس مستشاره للأمن القومي في ذلك الصباح. «لم يأت أي إنذار»، أجاب بوندي.

«تقول «السي.آي.أيه.» خاصتنا إنها عملية يقودها كاسترو في شكل كامل»[٤]، قال الرئيس لمحاميه الخاص، أبي فورتاس، بينما نزل ٢,٥٠٠ عنصر من كوماندوس الجيش في جمهورية الدومينيكان في ٣٠ نيسان/أبريل. «يقولون إنها كذلك! جماعتهم في الداخل تقول لنا ذلك!... ما من شك الآن في أنها عملية كاسترو... فهم يحرّكون أماكن أخرى في نصف الكرة الأرضية. وربما شكّل الأمر جزءاً من نسق شيوعي كامل له ارتباط بفيتنام... إن أسوأ كارثة داخلية قد نعانيها، هي أن يتمكن كاسترو من السيطرة». استعدّ الرئيس لإرسال ٦,٥٠٠ جندي أميركي إضافي إلى سانتو دومينغو.

إلا أن ماكنمارا استراب بما يقوله رابورن للرئيس. «هل تعتقد أنه يمكن «السي.آي.أيه.» أن تشفع ذلك بالمستندات؟»[٥]، سأل الرئيس وزير الدفاع. «لا أعتقد ذلك، سيدي الرئيس»، أجاب ماكنمارا. «أنت لا تعرف إذا كان كاسترو

يحاول القيام بأي شيء. وستجد من الصعوبة بمكان أن تبرهن لأي مجموعة أن كاسترو قام بما هو أكثر من تدريب هؤلاء الناس، فنحن قد درّبنا الكثيرين من الناس».

جعل ذلك الرئيس يتمهّل. «حسناً، ألا تعتقد الآن أنه أمْرٌ علينا أنا، وأنت، ورابورن، أن نتحدّث في شأنه؟»، قال الرئيس. «أخبرتني «السي.آي.أيه.» عن تورط قائدين لكاسترو، وبعد ذلك بقليل، قالوا لي ثمانية، ثم قالوا لي ٥٨...»

«لا أصدّق الرواية وحسب»، قال ماكنمارا بصورة قاطعة.

وبرغم ذلك، أصر الرئيس في خطاب للشعب الأميركي، على أنه لن يسمح «للمتآمرين الشيوعيين» في جمهورية الدومينيكان، بإحلال «حكومة شيوعية أخرى في نصف الكرة الغربي».

فعلت إفادات رابورن حول الأزمة بليندون جونسون، ما فعلته «اليو ـ ٢» بأيزنهاور، و«خليج الخنازير» بكنيدي. وأدى ذلك فوراً إلى تأكيد الصحافة الأميركية بان ليندون جونسون يعاني «فجوة في المصداقية». نشرت هذه العبارة للمرة الأولى في ٢٣ أيار أيار/مايو ١٩٦٥، وقد لسعت والتصقت.

لم يطلب الرئيس أي استشارة بعد ذلك من مديره الجديد للاستخبارات المركزية.

تدهورت المعنويات في مقر القيادة من جراء قيادة رابورن المتقلقلة. «كان ذلك مأساوياً»[٦]، قال راي كلاين نائب مدير الاستخبارات، «بداية انزلاق طويل إلى الوراء». والنكتة المرّة هي أن دالاس قاد سفينة مرحة، وماكون سفينة متعسّرة، ورابورن سفينة غارقة. «يا لرابورن العجوز المسكين»[٧]، قال ريد وايت، وهو الثالث في تراتبية القيادة من بعده بوصفه مديراً تنفيذياً. «أتى إلى هنا في كل صباح عند الـ ٦:٣٠ وتناول الفطور معتقداً أن الرئيس سيطلبه في يوم من الأيام». ولم يقم جونسون بذلك أبداً. بدا واضحاً على نحو موجع أن رابرون «لم يكن مؤهلاً لإدارة «السي.آي.أيه.»». قال وايت. كان الأميرال السيّىء الحظ «خارج الصدد كلّياً. فلو أنك تحدّثت عن بلدان أجنبية، لما عرف

إذا كنت تتحدث عن بلد في أفريقيا أو في أميركا الجنوبية». حذّر السيناتور ريتشارد راسل جونسون من أن المدير الجديد جعل من نفسه مدعاة للسخرية، وهو يدلي بشهادة سرّية أمام الكونغرس: «لقد حصد رابورن إخفاقاً سيرمي به في المشاكل. فهو لن يعترف أبدا بأنه لا يعرف... وإذا ما قررت أبداً التخلّص منه، فعليك أن تعيّن ذاك الفتى هيلمس مكانه. فهو يتمتّع بإدراك أكثر من أي واحد منهم»[٨].

أدار ريتشارد هيلمس «السي.آي.أيه.» بينما رابورن يتعثّر ويتخبّط. كان عليه في تلك السنة أن يقاتل في ثلاث حملات خفية رئيسية. وقد شرع الرئيس أيزنهاور في كلّ منها، ثم قوّاها الرئيس كنيدي، وهي الآن محورية في سعي ليندون جونسون إلى كسب الحرب في جنوب شرق آسيا. ففي لاوس، حاربت «السي.آي.أيه.» لقطع طريق هو شي منه. وشرعت في تسوية الانتخابات في تايلاند. وقدّمت في أندونيسيا الدعم إلى زعماء ذبحوا أعداداً لا تحصى من الشيوعيين. وشكّت البلدان الثلاثة قطع دومينو بالنسبة إلى الرئيس الذي أمر «السي.آي.أيه.» بإبقائها مصطفّة، خائفاً من أنه إذا سقطت واحدة منها فستسقط فيتنام.

طلب جونسون في ٢ تموز/يوليو، نصيحة أيزنهاور حول تصعيد الحرب. بلغت حصيلة القتلى الأميركيين في فيتنام ٤٤٦. وها إن الطغمة العسكرية التاسعة، منذ اغتيال الرئيس ديام، قد استولت على السلطة، بقيادة نغويان كاو كي، وهو طيّار سبق له أن أنزل عملاء شبه عسكريين ليلقوا حتفهم في مهمات لـ «السي.آي.أيه.»، ونغويان فان ثيو، وهو جنرال تولّى لاحقاً الرئاسة. كان كي أثيماً، وثيو فاسداً. وشكّلا معا الوجه الظاهر للديموقراطية في فيتنام الجنوبية. سأل الرئيس، «أتعتقد أنه في إمكاننا حقيقة هزيمة الفيتكونغ هناك؟»[٩]. وأجاب أيزنهاور، بأن النصر يعتمد كلّياً على استخبارات جيدة، «وهذا هو الأمر الأصعب».

حرب مقدّسة

بدأت لاوس بوصفها حرباً استخبارية. وقضت اتفاقات وقعتها الدول

العظمى مع حليفاتها، بمغادرة جميع القوى الخارجية البلاد. وقد ساهم السفير الأميركي الواصل حديثاً، وليام ساليفان، بنفسه في المفاوضة على هذه الاتفاقات. إلا أن هانوي أبقت آلاف الجنود في الشمال، داعمة القوى الشيوعية، الباثيت لاو، واحتفظت «السي.آي.أيه.» بعملائها وجنودها الخفيين في كل الأمكنة الأخرى في لاوس. تلقى رؤساء المحطات وضباطهم أوامر بخوض الحرب سرّاً، في تحدّ لدقائق اللعبة الدبلوماسية وللوقائع العسكرية على الأرض.

في صيف ١٩٦٥، وبينما ليندون جونسون يرسل عشرات الآلاف الإضافية من الجنود الأميركيين إلى فيتنام، كان نحو ثلاثين ضابطاً في «السي.آي.أيه.» يديرون الحرب في لاوس. وقاموا، بفضل الإمدادات العسكرية التي نقلها طيارو الوكالة، بتسليح رجال قبائل الهمونغ الذين خدموا كمقاتلي حرب عصابات، وسافروا إلى مشارف طريق هو شي منه. وأشرفوا على الكوماندوس التايلانديين الذين درّبهم عنصر «السي.آي.أيه.» بيل لير.

أدار لير الحرب في لاوس من مجمّع سرّي في داخل إحدى القواعد في أودورن، أنشأتها «السي.آي.أيه.» والبنتاغون، على الجانب الآخر تماماً من نهر الميكونغ، في تايلاند. كان في الأربعين من العمر، وقد عمل لـ «السي.آي.أيه.» في جنوب شرق آسيا على مدى أربعة عشر عاماً. فأجداده عاشوا في تكساس منذ آلامو، لكنه تزوّج بامرأة تايلاندية، فصار يأكل الأرزّ اللزج مع الفلفل الحار، ويتناول شراب الهمونغ الشديد الإسكار. وعندما أخذت الأمور تسير على نحو خاطئ في لاوس، أقفل على الوقائع في خزنته الحديدية. وعندما قضى رفاقه الضباط في المعركة، أبقى مصيرهم سرّياً. كان يفترض بالحرب أن تبقى «على ما أمكن من السرّية»[١٠]، قال لير. «كانت الفكرة يومها إبقاء الأمر سرّاً، لأننا وقت وصولنا إلى هناك لم نملك أي فكرة عما ستقوم به الولايات المتحدة على المدى الطويل... وما إن يتم الشروع في هذا التكتيك القاضي بإبقاء الأمر سرّا، فسيصعب كثيراً تغيير ذلك».

كان ضابط «السي.آي.أيه.» الذي حارب بأشد ما يكون في لاوس، هو

أنتوني بوشبني، الذي يعرفه الجميع بتوني بو. وهو أيضاً كان في الأربعين في ١٩٦٥. وهو، الذي جُرح مع المارينز وكان لا يزال مراهقاً في أيوا جيما، يُعَد من محنّكي مهمات «السي.آي.أيه.» شبه العسكرية في الحرب الكورية. كان واحداً من خمسة ضباط في «السي.آي.أيه.» هربوا بالغواصة من جزيرة سومطرا في ١٩٥٨ عندما انهار الانقلاب في إندونيسيا. عاش بو في قاعدة «السي.آي.أيه.» في وادي لونغ تيانغ في وسط لاوس، على بعد مئات الأميال شمال العاصمة. وكان توني بو، ورفيقته الدائمة قنينة من السكوتش أو من ويسكي الهمونغ المصنوعة من الأرز، القائد الميداني للحرب السرّية، في نقطة العبور الموجودة في طرقات المرتفعات ومسالك الأودية، مع جنوده الهمونغ والتايلانديين. أصبح أشبه كلّياً بالسكان الأصليين، ومجنوناً بعض الشيء.

«لقد قام بجميع تلك الأمور الناشزة»، قال لير. «عرفت أنه إذا أُعيد توني إلى الديار فلن يستمر خمس دقائق في الدهاليز التي هناك. وسيصبح خارج الوكالة. إلا أنه وُجد في الوكالة الكثير من الأشخاص الذين أُعجبوا به لأنه لم يسبق لهم، كما ترى، أن كانوا على مقربة من تلك الأمور، إضافة إلى أنه قام ببعض الأمور الجيدة. فمديرو الوكالة الكبار عرفوا جميعهم أيضاً بما يجري، ولم يتفوّهوا بأي كلمة لعينة».

طلب بو من جنوده قطع آذان الرجال الذين يقتلونهم كبرهان على انتصاراتهم في المعركة. وقد جمعها في كيس من السيلوفان الأخضر، وجاء بها، في صيف ١٩٦٥، إلى محطة «السي.آي.أيه.» في فينتيان، ورماها فوق مكتب نائب الرئيس. وكان جيم ليلي المستلم التعيس. ولو أن توني بو أراد صدم عنصر رابطة آيفي صدمة كبرى، فقد نجح.

انخرط ليلي مع «السي.آي.أيه.» فور تخرجه من يال في ١٩٥١. انضم إلى قسم الشرق الأقصى، وأمضى الحرب الكورية وهو يُنزل عملاء في الصين ويتعرّض للخداع على أيدي الصينيين الوطنيين. وسيذهب للخدمة في بكين، أولاً بوصفه رئيس المحطة، ومن ثم بوصفه السفير الأميركي.

في أيار/مايو ١٩٦٥، وطئت قدما ليلي أرض لاوس بوصفه نائباً لرئيس المحطة، وعندما احترقت أوراق رئيسه، أصبح الرئيس بالوكالة. ركّز على الحرب السياسية في العاصمة. انهمرت أموال «السي.آي.أيه.» النقدية «كجزء من جهودنا لبناء الأمة»، قال، وقد «ضخخنا كمية كبيرة نسبياً من المال إلى سياسيين يستمعون إلى نصيحتنا». وستُظهر انتخابات الجمعية الوطنية المقبلة في لاوس، أن ٥٤ من أصل ٥٧ مقعداً يسيطر عليها زعماء اختارتهم «السي.آي.أيه.» إلا أن فينتيان شكّلت موقعاً صعباً.

واستذكر ليلي «لقد شاهدنا بعضاً من شباننا يُقتلون في حوادث تحطم الهيليكوبتر. وكان علينا التعامل مع الانقلابات، والفيضانات، وشتى أنواع الأمور. وشاهدنا بعضاً من جماعتنا ينهارون ولم تعد لهم طاقة على الاستمرار»(١١).

تضاعفت المشاكل العادية للأميركيين الرجوليين المتمركزين في منطقة الحرب الاستوائية ـ الجنس، الكحول، الجنون ـ في فينتيان، وفي غالب الأحيان في ناد ليلي اسمه وايت روز. واستذكر ليلي اليوم الذي «قام فيه واحد من كبار ضباطنا في «السي.آي.أيه.» بالإيجاز لبعثة زائرة من الكونغرس حول الحرب السرّية الدائرة في داخل البلاد. في تلك الليلة أُخذ الوفد إلى الوايت روز لتعريفه إلى حياة الليل في فينتيان. شاهد أعضاء الوفد رجلاً أميركياً ضخماً عارياً تماماً على أرض الحانة وهو يصرخ، «أريده الآن!». فرفعت إحدى المضيفات تنورتها وجلست على وجهه. كان الضابط نفسه الذي سبق أن قدم الإيجاز إلى الوفد في وقت سابق من اليوم».

قاتلت محطة «السي.آي.أيه.» لتحديد أهداف شيوعية في لاوس، من أجل تحقيق إصابات دقيقة في الممرات المتداخلة مع بعضها البعض في طريق هو شي منه، ولمطاردة العدو. «حاولنا إنشاء فرق قبلية»، قال ليلي. «وكانوا يعطون إحصاءات عالية جداً عن الفيتناميين الشماليين الذين يتم قتلهم، وأعتقد أنها مختلقة جزئيا». وحددوا أيضاً أهدافاً لمهمات القصف الأميركية. ودّمر الأميركيون أربع مرات في ١٩٦٥ أهدافاً مدنية بريئة في لاوس، وقصفوا في

إحدى المرات قرية صديقة سبق للسفير سوليفان أن أنعم عليها بزيارة حسن نية في اليوم الذي سبق. وكان بيل لير هو الذي طلب حملة القصف هذه، إذ حاول إنقاذ طيّار أميركي حطّ في منطقة هبوط حامية وأسره الباثت لاو. سقطت القنابل على بعد عشرين ميلاً من هدفها المقصود؛ وأمضى الطيار، إرني بريس، ثماني سنوات أسير حرب في هيلتون هانوي.

قُتل في حزيران/يونيو ١٩٦٥، واحد من أفضل ضباط فانغ باو بنيران أرضية بينما كان واقفاً عند الباب المفتوح لإحدى طائرات الهيليكوبتر، محاولاً العثور على طيار أميركي تم إسقاط طائرته على بعد أربعين ميلاً في داخل فيتنام الشمالية. وفي آب/أغسطس، سقطت طائرة هيليكوبتر تابعة لـ «إير أميركا» في نهر الميكونغ خارج فينتيان، ما أدى إلى مقتل لويس أوجيبواي، رئيس قاعدة «السي.آي.أيه.» في شمال غرب لاوس، وعقيد في جيش لاو يعمل معه. وقد حفرت الوكالة نجمة نحاسية تكرّم أوجيبواي في المدخل الرخامي لمقر قيادة «السي.آي.أيه.» وفي تشرين الأول/أكتوبر، سقطت هيليكوبتر أخرى في الأدغال على مقربة من الحدود الكمبودية، ما أدى إلى مقتل مايك دويل ومايك مالوني، وهما نجلان شابان لضابطين بارزين في «السي.آي.أيه.» وجرى حفر نجمتين إضافيتين.

بدأت حرب «السي.آي.أيه.» في لاوس صغيرة، مع «فوران كبير، وإحساس بأننا وجدنا أخيراً أناساً سيحاربون الشيوعيين ويهزمونهم من حين إلى آخر في عمليات حرب العصابات»، قال ليلي. «كانت حرباً مقدّسة... حرباً صالحة».

ثم أخذ مركز «السي.آي.أيه.» الأمامي في لونغ تيانغ بالتمدّد: طرقات جديدة، مستودعات، ثكنات، شاحنات، جيبات، جرّافات؛ مهبط أكبر، مزيد من الطلعات الجوية، والمزيد من قوة النيران، والمزيد من الدعم الجوي. توقّف الهمونغ عن الزراعة عندما أخذ الأرزّ يهبط من السماء من طائرات «السي.آي.أيه.»، وقال ليلي «زدنا من عدد عناصرنا، ورفعناه إلى الضعفين أو ثلاثة أضعاف». ونظر ضباط «السي.آي.أيه.» الوافدون حديثاً إلى لاوس

بوصفها «مشكلة شبه عسكرية. لم يملكوا في الحقيقة أي مبادئ أساسية حول الوضع عموماً... أصبح الأمر أشبه بعض الشيء بفيتنام. وعندها أخذ الوضع ينزلق من بين أيدينا».

حلّت تلك اللحظة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، عندما جاء بيل كولبي إلى لاوس، وطار شمالاً إلى لونغ تيانغ في جولة تفقّدية. كانت الحرب في فيتنام قد بلغت الآن تمام الشدّة؛ وقد تم نشر ١٨٤ ألف جندي مع نهاية السنة. وبقي مفتاح هزيمة الشمال معلّقاً على طريق هو شي منه في لاوس، حيث نقل الشيوعيون الرجال والعتاد إلى المعركة بأسرع مما يمكن الولايات المتحدة تدميرهم. أصيب كولبي بالقنوط:(١٢) العدو يسيطر على مراكز أمامية استراتيجية عبر لاوس، حتى عند ضواحي فينتيان.

أرادوا رئيس محطة جديداً، قائداً عديم الشفقة صلب الهجوم. وكان تيد شاكلي الرجل المناسب للوظيفة.

قصة نجاح نموذجية

كان شاكلي، عندما ناداه الواجب، رئيساً لـ «السي.آي.أيه.» في برلين لأقلّ من ستّة أشهر في أعقاب خدمة طويلة حاول فيها الإطاحة بكاسترو من ميامي. ركزّت حياته المهنية على السوفيات، والكوبيين، والألمان الشرقيين. ولم يسبق له أبداً أن كان في مكان قريب من آسيا. طار إلى قاعدة أودورن في تايلاند، حيث كانت الجرافات الأميركية تشق الأرض الصلصالية الحمراء، والطائرات الأميركية المموهة تنطلق مسرعة للقيام بغارات جوية في فيتنام. واستذكر شاكلي رؤيته رفوفاً محمّلة بالقنابل، وتفكيره في أنه: «ما من أحد هنا يتكلّم في النظريّات»(١٣).

أراد نقل الحرب إلى العدو، وسعي إلى تحقيق نتائج فورية. شرع في بناء امبراطورية في الأدغال، مع جيم ليلي نائباً له. أصبحا صديقين مقرّبين. ووصفُ ليلي للرجل بليغ: «طموح، صلب، وبطّاش». و«ما صمم على القيام به، هو تحشيد المحطة في لاوس ولعب دور حاسم في حرب فيتنام عن طريق ضرب

طريق هو شي منه»، قال ليلي. «جلب الذخر شبه العسكري الذي سيثقل به على هدفه الرئيسي. وهو لم يكتف بالجلوس. بل أراد الانتصار في حروب».

جاء شاكلي برجال يثق بهم من محطة ميامي ومن قاعدة برلين، وطلب منهم المضي إلى المقاطعات، وتشكيل ميليشيات القرى، ومن ثم إرسالها إلى القتال. شرعت الميليشيات في التجسس على طريق هو شي منه، وانتهت تخوض المعارك. افتتح قواعد جديدة لـ «السي.آي.أيه.» في جميع أنحاء لاوس. وزاد عدد ضباط «السي.آي.أيه.» العاملين بإمرته أكثر من سبعة أضعاف، من ٣٠ إلى ٢٥٠. وتضاعف عدد قوات اللاو شبه العسكرية العاملة تحت قيادته إلى أربعين ألف رجل، استخدمهم كمراقبين جوّيين متقدمين لجعل القوة الجوية الأميركية تمطر على لاوس. وبحلول نيسان/أبريل ١٩٦٦، كان ٢٩ فريق مراقبة طرق من «السي.آي.أيه.» في جنوب شرق لاوس، يُفيدون بتحركات العدو على الطريق إلى قاعدة «السي.آي.أيه.» في أودورن، التي كانت ترسل القاذفات الأميركية لتدميرهم.

شرع سلاح الجو الأميركي في دكّ أدغال لاوس وتحويلها إلى أرض يباب. توجهت قاذفات «بي ـ ٥٢» إلى شمال فيتنام لتدمير القرى والدساكر على رأس طريق هو شي منه. وأرسل الجيش والبحرية الكوماندوس في محاولة لقصم ظهر الطريق وهي تنعطف عائدة إلى الجنوب.

سجّل شاكلي الأضرار وأحصى القتلى، واستنتج أن تزويجه بين رجال القبائل الجبلية والتكنولوجيا العسكرية الأميركية قد «أحدث انقلاباً في الحرب غير النظامية» و«وضع سلاحاً ضرورياً جديداً في أيدي صانعي السياسة الأميركيين». وفي واشنطن، قرأ رجال الرئيس تقارير شاكلي ـ هذا الكم من آلاف مجندي كوماندوس اللاو، وهذا العدد من الشيوعيين الذين يتم قتلهم شهرياً، هذا القَدْر من المهمات المنجزة ـ، واعتبروا عمله «قصّة نجاح نموذجية»[١٤]. وأقرّوا مزيداً من عشرات الملايين من الدولارت لحرب «السي.آي.أيه.» في لاوس. اعتقد شاكلي أنه يكسب الحرب، لكن الشيوعيين واصلوا المجيء عبر الطريق.

أرض راسخة في جنوب شرق آسيا

واجهت «السي.آي.أيه.» في تايلاند، مشكلة سياسية أكثر تعقيداً: خلق وهم باطل بالديموقراطية.

سبق لوالتر بيديل سميث وللأخوان دالاس، أن أرسلوا في ١٩٥٣ سفيراً أميركياً فوق العادة إلى بانكوك: وايلد بيل دونوفان[١٥]. كان في السبعين من العمر، لكنه لا يزال تتملّكه الرغبة في خوض قتال واحد على الأقل. «أوصى السفير دونوفان الرئيس أيزنهاور بضرورة اتخاذ موقف في تايلاند، ومحاولة الانتقال من هناك عائدين إلى بعض من هذه البلدان ووقف هذه الاندفاعة الشيوعية»، بحسب ما قال بيل توماس، كبير مسؤولي الإعلام لدى السفير في بانكوك. و«المال ليس بمشكلة»[١٦].

أطلق دونوفان، بعد الحرب الكورية، اندفاعة كبرى في عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية عبر جنوب شرق آسيا. وقد ساعدته قوة الشرطة التايلاتدية الوطنية المؤلفة من أربعين ألف رجل. وقائدها، الذي تكفّلته «السي.آي.أيه.» وسفارة دونوفان، هو أحد ملوك الأفيون. وقامت «السي.آي.أيه.» ومجموعة المساعدة العسكرية الأميركية، التي أخذت تتوسع بسرعة، بتسليح الجيش التايلاندي وتدريبه، وقد كان قائده يسيطر على مواخير بانكوك، ومسالخ الخنازير، ومستودعات الكحول. أيّد دونوفان علناً الجنرالات التايلانديين بوصفهم حماة الديموقراطية. واستخدمت الوكالة وسائلها وأساليبها معهم لبناء قاعدتها قرب أودورن. وهي التي سبق أن كانت مركزاً للسيطرة والقيادة للعمليات الخفية عبر جنوب شرق آسيا، وقد استُخدمت بعد ٩/١١ سجناً سرّياً لاعتقال المتشددين الإسلاميين والتحقيق معهم.

بقيت تايلاند تحت الديكتاتورية العسكرية لأكثر من عقد بعد رحيل دونوفان. وفي ١٩٦٥، اقترح الجنرالات بتحفيز من واشنطن، إجراء انتخابات في يوم من الأيام. لكنهم خشوا أن اليسار سيتعالى شأنه في صناديق الاقتراع. لهذا شرعت «السي.آي.أيه.» في إيجاد السياق الديموقراطي والسيطرة عليه.

في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، قدّم هيلمس، ورئيس العمليات الخفية ديزموند فيتزجيرالد، وبارون الشرق الأقصى بيل كوسبي، اقتراحاً إلى البيت الأبيض بـ «تمويل أحد الأحزاب السياسية، وتقديم الدعم الانتخابي إليه، ومساندة مرشحين مختارين للبرلمان من هذا الحزب». وأيّد مشروعهم بقوة السفير الأميركي المكّار والطموح في تايلاند، غراهام مارتن، الذي رأى في «السي.آي.أيه.» صندوق مصاريفه الخاصة ومخفر شرطته. وأفادوا بأن المشكلة دقيقة. «فتايلاند لا تزال اليوم تحت الأحكام العرفية التي تمنع الأحزاب السياسية»؛ والجنرالات التايلانديون «قاموا بالقليل، أو بلا شيء، للتحضير والتنظيم السياسيين تمهيدا للانتخابات المقبلة». إلا أنهم وافقوا، بتحكّم من السفير و«السي.آي.أيه.»، على ضم الصفوف وإنشاء حزب سياسي جديد. وفي المقابل ستزودهم «السي.آي.أيه.» بالملايين لإنشاء الآلة السياسية الجديدة.

قضى الهدف باستمرار «زعامة المجموعة الحاكمة الراهنة، وسيطرتها»، و«ضمان أن الحزب المنشأ سينجح في الفوز بأغلبية مريحة ومهيمنة في الانتخابات»[١٧]. وقالت الوكالة إنه في إمكانها البدء «حرفيّاً ببناء العملية الانتخابية الديموقراطية من الصفر»، بحيث يمكن الولايات المتحدة أن تعتمد على «نظام مستقر موال للغرب في أرض راسخة في جنوب شرق آسيا». وافق الرئيس جونسون شخصياً على المخطط. فاستقرار تايلاند أساسي للنصر الأميركي في فيتنام.

ركبنا الموج إلى الشاطئ وحسب

سبق لـ «السي.آي.أيه.» أن حذّرت البيت الأبيض من أن خسارة النفوذ الأميركي في إندونيسيا سيُفقد الانتصار في فيتنام مغزاه[١٨]. وعملت الوكالة جاهدة للعثور على زعيم جديد لبلد يضم أكبر كثافة سكانية للمسلمين في العالم.

إلا أن زلزالاً سياسياً ضرب في ليل الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥. فبعد سبعة أعوام على محاولة «السي.آي.أيه.» الإطاحة به، شن رئيس

إندونيسيا، سوكارنو، ما بدا أنه انقلاب ضد حكومته الخاصة. فبعد عقدين له في السلطة، سعى سوكارنو، بعد تدهور صحته وسيطرته على الأمور، إلى تعويم حكمه بتحالفه مع الحزب الشيوعي الإندونيسي. فقد تزايد الحزب قوّة، وفاز بالمنتسبين من خلال تذكيره المستمر بانتهاكات «السي.آي.أيه.» لسيادة البلاد. وها إنه أصبح الآن التنظيم الشيوعي الأكبر خارج روسيا والصين، ويضم ٣,٥ ملايين عضو اسمي.

أثبت جنوح سوكارنو المفاجئ إلى اليسار، أنه خطأ قاتل. فقد تم في تلك الليلة اغتيال خمسة جنرالات على الأقل، من بينهم رئيس أركان الجيش. وأعلن الراديو الحكومي أن مجلساً ثورياً يتولّى الأمور لحماية الرئيس والأمة من «السي.آي.أيه.».

امتلكت محطة جاكرتا أصدقاء قليلين داخل الجيش والحكومة، إلا أنها حظيت بالتحديد بعميل في موقع جيّد: آدم مالك، وهو ماركسي سابق خاب فأله بالماركسية وعمل سفيراً لسوكارنو في موسكو، ووزيراً للتجارة في حكومته.

وبعد جفوة دائمة مع رئيسه في ١٩٦٤، التقى مالك مع عنصر «السي.آي.أيه.» كلايد ماك أفوي، في أحد المنازل الآمنة في جاكرتا. وكان ماك أفوي العميل الخفي الذي ساعد قبل عقد من ذلك، على تجنيد رئيس وزراء اليابان المقبل، وجاء إلى إندونيسيا ومعه أوامر باختراق الحزب الشيوعي الإندونيسي وحكومة سوكارنو.

«جنّدتُ آدم مالك وحرّكته»[١٩]، قال ماك أفوي في مقابلة في ٢٠٠٥. «إنه الإندونيسي الأعلى مرتبة الذي يتم تجنيده أبداً». عرّفهما صديق مشترك إلى بعضهما البعض، كافلاً ماك أفوي؛ والوسيط رجل أعمال ياباني في جاكارتا وعضو سابق في الحزب الشيوعي الياباني. وحازت «السي.آي.أيه.»، بعد تجنيد مالك، الموافقة على برنامج عمل خفي متعجّل لدق إسفين سياسي بين اليسار واليمين في إندونيسيا.

وما ساعد هذه المهمة، أن الدولة الإندونيسية انشقت إلى فريقين في خلال بضعة أسابيع مهولة من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥.

عملت «السي. آي. أيه.» على توطيد حكومة ظل، وهي ترويكا مؤلفة من آدم مالك، والسلطان الحاكم لجافا الوسطى، وجنرال في الجيش يدعى سوهارتو. استخدم مالك علاقته بـ «السي. آي. أيه.» لتحضير سلسلة من الاجتماعات السرّية مع السفير الأميركي الجديد في إندونيسيا، مارشال غرين. قال السفير إنه التقى آدم «في إطار سرّي»(٢٠)، وكوّن «فكرة واضحة جداً حول تفكير سوهارتو وتفكير مالك وما يقترحان القيام به» لتخليص إندونيسيا من الشيوعية من خلال الحركة السياسية الجديدة التي يقودانها، وهي كاب ـ جستابو.

قال السفير غرين، «أعطيت الأوامر بتسليم جميع أجهزة الاتصال المحمولة الأربعة عشر الموجودة في السفارة للاتصالات الطارئة، إلى سوهارتو. فقد وفّر ذلك المزيد من الأمن الداخلي له ولضباطه الكبار»، وسبيلاً لـ «السي. آي. أيه.» لمراقبة ما يفعلونه. «أفَدْتُ واشنطن بذلك، وحصلت على أكثر البرقيات التي تُدخل سروراً في النفس من بيل بوندي»، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، وصديق غرين الحميم على مدى ثلاثين عاماً منذ أيامهما معاً في غروتون.

أوفد مالك، في أواسط تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، أحد مساعديه إلى منزل كبير الملحقين السياسيين في السفارة الأميركية، بوب مارتنز، الذي خدم في موسكو عندما كان مالك سفيراً لإندونيسيا فيها. أعطى مارتنز الرسول لائحة ليست للحفظ، بسبعة وستين زعيماً للحزب الشيوعي الإندونيسي، وهو جدول جمعه من قصاصات الصحافة الشيوعية. «لم تكن بالتأكيد لائحة بالأشخاص الذين نتمنى موتهم»(٢١)، قال مارتنز. «شكّلت وسيلة لغير الشيوعيين الذين يحاربون أساساً من أجل حيواتهم ـ تذكّر، كان مصير صراع الموت والحياة بين الشيوعيين وغير الشيوعيين لا يزال غير محسوم ـ لمعرفة تنظيم الطرف الآخر». وبعد ذلك بأسبوعين، أخذ السفير غرين ورئيس محطة «السي. آي. أيه.» في جاكرتا، هوغ توفار، يتلقيان تقارير من غير مصدرها الأصلي عن عمليات قتل وفظاعات في شرق جافا ووسطها، حيث يتم ذبح الآلاف من الناس على أيدي قوات صدم مدنية بمباركة من الجنرال سوهارتو.

قرر ماك جورج بوندي وشقيقه بيل، أن سوهارتو والكاب ـ جيستابو يستحقان الدعم الأميركي. لكن السفير غرين من أنه لا يمكن المساعدة ان تأتي عبر البنتاغون أو وزارة الخارجية. فلن يمكن إخفاؤها بنجاح؛ والمخاطر السياسية كبيرة جداً. وافق متخرجو غروتون الثلاثة ـ السفير، مستشار الأمن القومي، ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى ـ على أن «السي.آي.أيه.» هي التي يجب ان تتصرف بالمال.

وافقوا على دعم الجيش الإندونيسي على شاكلة امدادات طبية بخمسمئة ألف دولار تُشحن بواسطة «السي.آي.أيه.» مع التفاهم على أن الجيش سيبيع البضاعة للحصول على المال النقدي، ووافقوا موقتاً على شحن تجهيزات اتصال متطورة إلى زعماء الجيش الإندونيسي. وبعدما تشاور السفير غرين مع عضو «السي.آي.أيه.» هوغ توفار، أبرق إلى بيل بوندي موصياً بدفعة كبيرة إلى آدم مالك:

هذا لتأكيد موافقتي السابقة على أن نوفّر لمالك خمسين مليون روبية [نحو ١٠ آلاف دولار] من أجل نشاطات حركة كاب ـ جيستابو. فهذه الحركة المستوحاة من الجيش، برغم أنها مؤلفة من مجموعة مدنيين، لا تزال تحمل أعباء الجهود القمعية الأخيرة... وأعتقد أن استعدادنا لمساعدته بهذا الطريقة يشكّل في ذهن مالك، على ما أعتقد، تأييدنا لدوره الحالي في جهود الجيش المناهضة للحزب الشيوعي الإندونيسي، وسيسوّق لعلاقات تعاون جيّدة بينه وبين الجيش. وإن فرص اكتشاف، أو ما ينتج عن ذلك من كشف عن دعمنا في هذه الحالة، هي قليلة شأنها في ذلك شأن أي عملية كيس أسود.

أخذت موجة كبرى من العنف تتصاعد في إندونيسيا. وأبلغ السفير غرين، في وقت لاحق، نائب الرئيس هيوبرت هـ. هامفري، في محادثة في مكتب نائب الرئيس في مبنى الكابيتول الأميركي، أنه «تم ذبح ما بين ٣٠٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف شخص» في «حمام دم»[٢٢]. وأشار نائب الرئيس إلى أنه يعرف آدم مالك منذ سنوات كثيرة، وأشاد به السفير بوصفه «واحداً من أنبه الرجال الذين التقاهم على الاطلاق». تم تنصيب مالك وزيراً للخارجية، ودعي إلى قضاء

عشرين دقيقة مع رئيس الولايات المتحدة في المكتب البيضوي. وأمضيا معظم الوقت في الحديث عن فيتنام. وفي نهاية النقاش، قال ليندون جونسون إنه يراقب التطورات في إندونيسيا باهتمام بالغ، ويوجه أفضل تمنياته إلى مالك وسوهارتو. وبدعم من الولايات المتحدة، تولى مالك لاحقاً رئاسة الجمعية العمومية للأمم المتحدة.

راجع السفير غرين تخميناته حول عدد القتلى في إندونيسيا في جلسة سرّية للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. «أعتقد أننا سنرفع هذا التقدير ليصل ربما إلى ما يقارب الخمسمئة ألف شخص»[٢٣]، قال في شهادة أبيحت في آذار/مارس ٢٠٠٧. «ما من أحد يعرف، بالطبع. ونحن نحكم على ذلك وحسب من خلال قرى بأكملها تم تفريغها من السكان».

طرح رئيس اللجنة، السيناتور ج. وليام فوربرايت من أركنساس، السؤال التالي على نحو بسيط ومباشر:

«هل إننا متورطون في الانقلاب؟»، سأل.

«لا، سيدي»، أجاب السفير غرين.

«هل كنّا متورطين في محاولة انقلاب أخرى؟»، قال السيناتور.

«كلا»، قال السفير. «لا أعتقد ذلك».

«ألم تلعب «السي.آي.أيه.» دوراً في ذلك؟»، سأل فولبرايت.

«أتعني ١٩٥٨؟»، قال غرين. فـ «السي.آي.أيه.» أدارت ذلك الانقلاب من بدايته غير المتقنة إلى نهايته المُرّة. «أخشى أنني لا أستطيع الإجابة»، قال السفير. «لا أعرف بالتأكيد ما الذي حصل».

شكلت تلك لحظة خطرة، انحرفت إلى حافة عملية كارثية وعواقبها القاتلة، لكن السيناتور ترك المسألة تمرّ. «أنت لا تعرف إذا كانت «السي.آي.أيه.» متورطة أم لا»، قال فولبرايت. «ونحن لسنا متورطين في هذا الانقلاب».

«كلا سيدي»، قال السفير. «قطعاً لا».

اعتقل النظام الجديد أكثر من مليون سجين سياسي، وبقي بعضهم في السجن عقوداً من الزمن. ومات بعضهم فيه. وبقيت إندونيسيا ديكتاتورية عسكرية لما بقي من الحرب الباردة. ولا تزال عواقب القمع تتردد أصداؤها حتى يومنا هذا.

نفت الولايات المتحدة على مدى أربعين عاماً، أي علاقة لها بالمذبحة التي ارتُكبت باسم مناهضة الشيوعية في إندونيسيا. «نحن لم نصنع الموج»، قال مارشال غرين. «بل ركبنا الأمواج حتى الشاطئ»[٢٤].

مضطرب حقاً وكثيراً

غادر فرانك ويسنر وريتشارد هيلمس برلين معاً قبل عشرين عاما على ذلك، وطارا إلى واشنطن، متسائلين إذا كانت وكالة الاستخبارات المركزية ستوجد أبدا. وكلاهما ارتقى إلى قيادة الجهاز الخفي. وها إن أحدهما على وشك الوصول إلى ذروة السلطة، والآخر سقط في الهوّة.

كان فرانك ويسنر، طوال أشهر متواصلة، يداوم على التفكير والهم في منزله الجميل في جورج تاون، يشرب الويسكي من أكواب من الزجاج المنقوش بالرسوم التزيينة، وهو في حالة قاتمة من اليأس. ومن بين أكثر أسرار «السي.آي.أيه.» كتماناً شديداً أنه، على مدى سنوات، يتم إدخال واحد من آبائها المؤسسين إلى مستشفى الأمراض العقلية، وإخراجه منه. أُقيل ويسنر من رئاسة محطة لندن وأُجبر على التقاعد بعدما سيطر عليه مرضه العقلي مرة أخرى في ١٩٦٢. كان يهذي بأدولف هتلر، ويرى أموراً، ويسمع أصواتاً. علم بأنه لن يعود أبدا سليماً. وفي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، كان ويسنر على موعد للصيد في عقاره في إيسترن شور في ماريلاند مع صديقه القديم في «السي.آي.أيه.» جو برايان. ذهب ويسنر، بعد ظهر ذلك اليوم، إلى منزله الريفي، وتناول بندقية صيد، وفجّر رأسه. كان في الستين من العمر. وقد حظي بمراسم جنازة بهيّة في الكاتدرائية الوطنية، ودُفن في مقبرة أرلينغتون الوطنية، ونُقش على حجر ضريحه: «ملازم في بحرية الولايات المتحدة».

أخذت روح تضامن الحرب الباردة في التآكل. فبعد أسابيع قليلة على دفن ويسنر، ذهب راي كلاين، نائب مدير الاستخبارات، إلى كلارك كليفورد رئيس مجلس استشارة الرئيس حول الاستخبارات، وعمل على تقويض ريد رابورن.

حذّر كلايد من أن المدير يشكل خطراً على الأمة. وفي ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٦، أبلغ كليفورد ماك جورج بوندي، الذي كان على وشك الاستقالة بعد خمس سنوات مرهقة كمستشار للأمن القومي، أن مجلس الاستخبارات «مضطرب حقاً وكثيراً في شأن مشكلة الزعامة في «السي.آي.أيه.»»(٢٥). وبعد ذلك بأيام قليلة، جعل تسريب من مصدر رفيع في «الواشنطن ستار» رابورن يدرك أنه في طريقه إلى الخروج. قاوم الأميرال، وأرسل قائمة طويلة بإنجازاته إلى مساعد الرئيس بيل مويرز:(٢٦) تخلّصت الوكالة من عمليات خفية كليلة الهمة وغير منتجة، وأنشأت مركز عمليات يعمل على مدى ٢٤ ساعة لتزويد الرئيس بالأخبار والمعلومات، وضاعفت عدد فرق مكافحة الإرهاب في فيتنام، وزادت جهدها العام في سايغون ثلاثة أضعاف. قرأ الرئيس جونسون، صباح ٢٢ شباط/فبراير ١٩٦٦، تقويم الأميرال رابورن اللامع لنفسه، والتقط سماعة الهاتف، واتصل بماك جورج بوندي.

قال الرئيس إن رابورن «ينسى تماماً واقع أنه لا يُنظر إليه بتقدير كبير وأنه لا يقوم بعمل جيّد. يعتقد أنه قام بتحسينات كبيرة، وأنه يشكّل نجاحاً كبيراً. وأخشى أن هيلمس يجعله يعتقد ذلك»(٢٧).

لم يعيّن جونسون أحداً في مجلس مراجعة العمل الخفي، المعروف بـ «لجنة ٣٠٣»، بعد استقالة بوندي في ذلك الأسبوع. فعُلقت العمليات التي تحتاج إلى انتباه البيت الأبيض، بما في ذلك مخطط لتسوية الانتخابات في جمهورية الدومينيكان لمصلحة رئيس سابق منفي يعيش في نيويورك، وضخ أموال نقدية جديدة وأسلحة إلى ديكتاتور الكونغو. ترك جونسون الكرسي فارغاً خلال آذار/ مارس ونيسان/أبريل ١٩٦٦. أراد في البداية لبيل مويرز ـ وقد أصبح في وقت لاحق أكثر الأصوات اليسارية وضوحاً على التلفزيون ـ أن يتولى مسؤولية «لجنة ٣٠٣». حضر مويرز اجتماعاً واحداً في ٥ أيار/مايو ١٩٦٦، فارتعد، ورفض

هذا الشرف. واستقر الرئيس بدلاً منه على أكثر الـ «نعم سيدي» ولاءً له، والت ويتمان روستو، بوصفه المستشار الجديد للأمن القومي ورئيس الـ «٣٠٣». عادت اللجنة إلى العمل في أيار/مايو[٢٨]. وهي، برغم حالة الركود، وافقت في تلك السنة على ٥٤ عملية خفية لـ «السي.آي.أيه.»، معظمها دعماً للحرب في جنوب شرق آسيا.

وأخيراً، في ثالث يوم سبت من حزيران/يونيو ١٩٦٦، أوصل عامل الهاتف في البيت الأبيض اتصالاً من الرئيس بمنزل ريتشارد هيلمس.

وهيلمس، وهو في الثالثة والخمسين، آخذ في الشيب، في حالة جسمانية جيدة من جراء لعب كرة المضرب، ويتمتع بدقة الساعة السويسرية، يقود في كل يوم سيارته الكاديلاك السوداء القديمة إلى مقر القيادة، بما في ذلك أيام السبت؛ وكان هذا يوم عطلة نادراً. فما بدأ بالنسبة إليه مغامرة في زمن الحرب مع الاستخبارات السرّية، تحوّل إلى شغف استحوذ عليه كلّياً. وأخذ زواجه المستمر منذ ٢٧ عاماً بجوليا شيلدز، وهي نحاتة أكبر منه بست سنوات، يخبو من جراء الإهمال. فابنه كان خارجاً في إحدى الكلّيات، وهو كرّس حياته كلها للوكالة. وعندما أجاب على الهاتف الذي يرنّ، سمع أن أمنيته الكبرى تتحقق.

جرى حفل قسمه اليمين في ٣٠ حزيران/يونيو في البيت الأبيض. وقد جاء الرئيس بفرقة موسيقى المارينز للعزف. وها إن هيلمس يقود الآن ما يقارب العشرين ألف شخص، أكثر من ثلثهم يقوم بالتجسس في ما وراء البحار، وموازنة بنحو مليار دولار. واعتُبر واحداً من أقوى أصحاب السلطة في واشنطن.

٢٥

عرفنا يومها أننا لن نتمكّن من كسب الحرب

بات ربع مليون جندي أميركي يخوضون الحرب مع تولي ريتشارد هيلمس زمام «السي.آي.أيه.»، وقد استهلكت الكارثة المتعاظمة ألف عميل خفي في جنوب شرق آسيا، وثلاثة آلاف محلل استخباراتي في الديار.

أخذت المعركة تتجمع في مقر القيادة. فعملُ المحللين يقضي بالحكم إذا كان في الإمكان كسب الحرب. وعمل الجهاز الخفي هو المساعدة على كسبها. معظم المحللين كانوا متشائمين؛ ومعظم العملاء كانوا متحمّسين للغاية. عملوا في عالمين مختلفين؛ وفصل حرّاس مسلحون بين مختلف المديريات في مقر القيادة. شعر هيلمس بأنه «بهلوان في السيرك منفرج الساقين على ظهري حصانين، كل منهما يمضي، لأفضل الأسباب، في اتجاهه الخاص»[1].

كان واحد من مئات المجندين الجدد في «السي.آي.أيه.» ممّن جاؤوا للعمل في الصيف الذي تولّى فيه هيلمس السلطة، شاباً في الثالثة والعشرين، وقّع عقداً على سبيل المزاح، ساعياً إلى رحلة مجانية إلى واشنطن في سنته الأخيرة في جامعة إنديانا. صعد بوب غيتس، المدير المقبل للاستخبارات المركزية ووزير الدفاع، على متن باص تابع للوكالة من وسط واشنطن إلى ممر محاط بسياج مربوط بسلاسل معدنية يعلوه شريط شائك. دخل كتلة الاسمنت المحظورة المؤلفة من سبع طبقات تعلوها هوائيات.

واستذكر أن «داخل المبنى كان عديم الطلاء على نحو خادع. ممرات طويلة غير مزيّنة. مكعّبات صغيرة للعمل فيها. أرضيات مشمّعة. أثاثات معدنية توزّعها

الحكومة. بدا كأنه شركة تأمين عملاقة. لكنه، ليس كذلك». جعلت «السي.آي.أيه.» من غيتس معجزة في خلال تسعين يوماً، فأصبح على الفور ملازماً ثانياً، وأرسلته إلى قاعدة وايتمان الجوية في ميسوري يتعلم فن الاستهداف النووي. ومن هناك، أخذ محلل «السي.آي.أيه.» الفرخ لمحة قاسية عن مسار الحرب في فيتنام: افتقرت الولايات المتحدة إلى الطيارين، وبدأ إرسال عقداء ابيضّت شعورهم لقصف الشيوعيين.

«عرفنا يومها»، استذكر غيتس، «أننا لن نتمكن من كسب الحرب»[٢].

ها قد تم تربيع الدائرة

كان هيلمس ورئيس قسم الشرق الأقصى لديه، بيل كولبي، من العملاء الخفيين سيرة، وعكست تقاريرهم إلى الرئيس روح القدرة على الإنجاز للجهاز الخفي القديم. قال هيلمس لجونسون إن «هذه الوكالة تمضي بأقصى سرعتها في جهودها للمساهمة في نجاح كامل البرنامج الأميركي في فيتنام». وبعث كولبي إلى البيت البيض بتقويم مشرق عن محطة «السي.آي.أيه.» في سايغون. وأفاد أنه بينما «لم تنته الحرب في أي حال من الأحوال، فلا بد من أن تقارير أندادي السوفيات أو الصينيين، تُظهر القلق الشديد حيال مشاكل الفيتكونغ المتصاعدة والتحسن الثابت في قدرة الفيتناميين الجنوبيين والأميركيين على خوض حرب الشعب»[٣]. كذلك، فإن جورج كارفر، الذي اختاره هيلمس مساعداً شخصياً له للشؤون الفيتنامية، كان يحمل دوماً بشائر الفرح إلى البيت الأبيض.

لكن أفضل محللي «السي.آي.أيه.» استنتجوا في دراسة بحجم كتاب، «إرادة الفيتناميين الشيوعيين على الاستمرار» *The Vietnamese Communists Will to Persist*، أُرسلت إلى الرئيس وربما إلى دزينة من كبار مساعديه، أنه ما من أمر تفعله الولايات المتحدة يمكنه أن يهزم العدو. وعندما قرأ ماكنمارا ذلك التقرير، في ٢٦ آب/أغسطس ١٩٦٦، اتصل على الفور بهيلمس وطلب رؤية كبير خبراء «السي.آي.أيه.» حول فيتنام. وصدف أن كارفر كان في إجازة في ذلك الأسبوع. لذا تم استدعاء نائبه، جورج ألن، إلى الحرم الداخلي للبنتاغون

لحديثه الثنائي الأول والوحيد مع وزير الدفاع. وكان من المقرر أن يلتقي معه لنصف ساعة ابتداءً من العاشرة والنصف قبل الظهر. وانتهت المحادثة بأن أصبحت اللقاء الوحيد لعقلي البنتاغون و«السي.آي.أيه.» طوال فترة رئاسة ليندون جونسون.

انبهر ماكنمارا لمعرفته أن ألن أمضى سبعة عشر عاماً يعمل على فيتنام. لم يكن يعلم بوجود شخص كرّس نفسه للصراع طوال هذا الوقت. حسناً، قال، لا بد من أنك تملك بعض الأفكار عما يجب القيام به. «أراد أن يعرف ماذا كنت لأفعل لو أنني مكانه»، استذكر ألن. «وقررت الإجابة بصراحة».

«توقّف عن حشد القوات الأميركية»[٤]، قال. «أوقف قصف الشمال، وفاوض على اتفاق لوقف النار مع هانوي». اتصل ماكنمارا بسكريتيرته وطلب منها إلغاء بقية مواعيده إلى ما بعد الغداء.

«لماذا»، سأل وزير الدفاع، «على الولايات المتحدة أن تختار ترك قطع الدومينو في آسيا تسقط؟». وأجاب ألن بأن المجازفة ليست أكبر على طاولة المفاوضات مما هي في مسرح الحرب. فإذا أوقفت الولايات المتحدة القصف، وشرعت في التفاوض مع الصين والاتحاد السوفياتي، وكذلك مع حلفائهما الآسيويين، فقد يكون ثمة سلام مشرّف.

بعد تسعين دقيقة على هذه الهرطقة الجذّابة، اتخذ مكانمارا ثلاثة قرارات مصيرية. طلب من «السي.آي.أيه.» جمع نظام للمعركة، وهو كناية عن تقدير للقوات العدوة المعبأة ضد الولايات المتحدة. وطلب من مساعديه الشروع في تصنيف تأريخ سرّي للغاية للحرب منذ ١٩٥٤: أوراق البنتاغون. وتساءل عما يفعله في فيتنام. وفي ١٩ أيلول/سبتمبر، اتصل ماكنمارا بالرئيس[٥]: «إنني، شخصياً، أزداد أكثر فأكثر قناعة بأنه علينا بالتأكيد التخطيط لوقف القصف في الشمال»، قال. «أعتقد أنه علينا أن نخطط، كما سبق وقلت، لوضع سقف لمستويات قوتنا. لا أعتقد أنه يجب أن نتطلع قُدماً صوب المستقبل، ونقول إننا

سنمضي إلى ما هو أعلى، وأعلى، وأعلى، وأعلى: ستمئة ألف، سبعمئة ألف، أو مهما تطلّب الأمر». وكان ردّ الرئيس الأوحد كناية عن همهمة غير مفهومة.

توصل ماكنمارا، بعد فوات الأوان، إلى الإدراك أن الولايات المتحدة استهانت في شكل دراماتيكي بقوة المتمرّدين الذين يقتلون جنوداً أميركيين في فيتنام، وهذا خطأ مميت سيتم تكراره بعد ذلك بسنوات كثيرة في العراق. أشعل «نظام المعركة» الذي طلب إعداده صراعاً عظيماً بين القادة العسكريين في سايغون ومحللي «السي.آي.أيه.» في مقر القيادة. هل تواجه الولايات المتحدة أقل من ثلاثمئة ألف محارب شيوعي في فيتنام، كما يؤكّد الجيش، أو أكثر من خمسمئة ألف كما يعتقد معظم المحللين؟

يقع الفارق في عدد رجال حرب العصابات، وغير النظاميين، والميليشيات: جنود لا يرتدون البزة العسكرية. فإذا بلغ عدد العدو نصف المليون بعد سنتين من القصف المتواصل من الطائرات الأميركية والهجمات الكثيفة من الجنود الأميركيين، فسيشكل ذلك إشارة إلى أنه لا يمكن حقيقة كسب الحرب. شكّلت الأرقام المصغّرة قناعة راسخة للجنرال وليام وستمورلند، قائد الجيش الأميركي في فيتنام الجنوبية ومساعده روبرت كومر. وكان كومر، المعروف بـ «بوب مصباح اللهب»، عنصراً مستأجراً من «السي.آي.أيه.» يدير حملة وستمورلند الجديدة والسريعة التوسع لمكافحة التمرد، والتي أطلق عليها الاسم الرمزي الفينيق. وبعث على نحو مستمر بمذكرات للإطلاع فقط، إلى ليندون جونسون تقول إن النصر في متناول اليد. وأصرّ على أن السؤال الحقيقي ليس إذا كنا نربح، لكن بأية سرعة نريد أن نفوز.

استمرت المماحكة ذهاباً وإياباً لأشهر. وفي النهاية أوفد هيلمس كارفر إلى سايغون للتعامل مع وستمورلند وكومر. لم تجر محادثاتهم على ما يرام. فالجيش أخذ في المماطلة. وفي ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، بلغ الجدال حد الأزمة.

«عليكم أيها الفتيان بالتراجع»، قال كومر لكارفر في مونولوغ استمر ساعة على العشاء[٦]. فالحقيقة «ستخلق كارثة عامة وتلغي كل ما نحاول تحقيقه هنا».

سنمضي إلى ما هو أعلى، وأعلى، وأعلى، وأعلى: ستمئة ألف، سبعمئة ألف، أو مهما تطلّب الأمر». وكان ردّ الرئيس الأوحد كناية عن همهمة غير مفهومة.

توصل ماكنمارا، بعد فوات الأوان، إلى الإدراك أن الولايات المتحدة استهانت في شكل دراماتيكي بقوة المتمرّدين الذين يقتلون جنوداً أميركيين في فيتنام، وهذا خطأ مميت سيتم تكراره بعد ذلك بسنوات كثيرة في العراق. أشعل «نظام المعركة» الذي طلب إعداده صراعاً عظيماً بين القادة العسكريين في سايغون ومحللي «السي.آي.أيه.» في مقر القيادة. هل تواجه الولايات المتحدة أقل من ثلاثمئة ألف محارب شيوعي في فيتنام، كما يؤكّد الجيش، أو أكثر من خمسمئة ألف كما يعتقد معظم المحللين؟

يقع الفارق في عدد رجال حرب العصابات، وغير النظاميين، والميليشيات: جنود لا يرتدون البزة العسكرية. فإذا بلغ عدد العدو نصف المليون بعد سنتين من القصف المتواصل من الطائرات الأميركية والهجمات الكثيفة من الجنود الأميركيين، فسيشكل ذلك إشارة إلى أنه لا يمكن حقيقة كسب الحرب. شكّلت الأرقام المصغّرة قناعة راسخة للجنرال وليام وستمورلند، قائد الجيش الأميركي في فيتنام الجنوبية ومساعده روبرت كومر. وكان كومر، المعروف بـ «بوب مصباح اللهب»، عنصراً مستأجراً من «السي.آي.أيه.» يدير حملة وستمورلند الجديدة والسريعة التوسع لمكافحة التمرد، والتي أطلق عليها الاسم الرمزي الفينيق. وبعث على نحو مستمر بمذكرات للإطلاع فقط، إلى ليندون جونسون تقول إن النصر في متناول اليد. وأصرّ على أن السؤال الحقيقي ليس إذا كنا نربح، لكن بأية سرعة نريد أن نفوز.

استمرت المماحكة ذهاباً وإياباً لأشهر. وفي النهاية أوفد هيلمس كارفر إلى سايغون للتعامل مع وستمورلند وكومر. لم تجر محادثاتهم على ما يرام. فالجيش أخذ في المماطلة. وفي ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، بلغ الجدال حد الأزمة.

«عليكم أيها الفتيان بالتراجع»، قال كومر لكارفر في مونولوغ استمر ساعة على العشاء[٦]. فالحقيقة «ستخلق كارثة عامة وتلغي كل ما نحاول تحقيقه هنا».

أبرق كارفر لهيلمس قائلاً إن الجيش لن يتزحزح. فعليهم إثبات أنهم يكسبون. وأفاد كارفر المدير بأنهم أبرزوا «عجزهم المحبط عن إقناع الصحافة (وبالتالي العامة) بالتقدم الكبير الذي تحقّق، والأهمية القصوى لعدم قول أي ما من شأنه الحط من صورة النجاح». فقياس عدد الجنود الفيتكونغ غير النظاميين في فيتنام الجنوبية «سينتج عنه مجموع بأكثر من ٤٠٠ ألف وهذا غير مقبول سياسياً». وبما أن الجيش وضع «عدداً محدداً من قبل، استناداً إلى أسس العلاقات العامة، فإنه لا يمكننا الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك (إلا إذا أُعطيت تعليمات مخالفة)».

شعر هيلمس بضغط ساحق للانضمام إلى الفريق، وتشذيب التقارير بما يتناسب مع سياسة الرئيس. فانصاع. وقال إن الأرقام «لا تعني أي كارثة». وافقت الوكالة رسمياً على رقم الـ ٢٩٩ ألفاً المُختلق لقوات العدو، أو أقل. وأبرق كارفر إلى المدير، «لقد تم تربيع الدائرة».

لإخفاء الإفادة في فيتنام، واختلاقها، تاريخ طويل. ففي ربيع ١٩٦٣، تعرّض جون ماكون لضغط هائل من البنتاغون للقضاء على تقديرات متشائمة تحدّثت عن «ضعف عظيم جداً» في حكومة فيتنام الجنوبية، بما في ذلك المعنويات الضعيفة لدى الجنود، والاستخبارات الرهيبة، والاختراق الشيوعي للجيش. وأعادت «السي.آي.أيه.» كتابة التقدير ليصبح: «نعتقد أن التقدّم الشيوعي انكسر حدّه وأن الوضع آخذ في التحسّن»(٧). لم تصدّق «السي.آي.أيه.» ذلك، إذ جاءت بعد ذلك بأسابيع أعمال الشغب في هيو، وتبعها حرق البوذيين، والتآمر للتخلص من ديام.

لم يتوقّف الضغط أبداً؛ فمستشار الرئيس الجديد للأمن القومي الجديد، والت روستو، أعطى على نحو متواصل الأوامر لـ «السي.آي.أيه.» بتقديم الأخبار الجيدة عن الحرب إلى البيت الأبيض. وزمجر روستو: إلى أي طرف أنتم منحازون على أي حال؟ إلا أن هيلمس، في اليوم ذاته الذي قام فيه بتربيع الدائرة، أرسل أيضاً دراسة قاسية في صدقيتها من «السي.آي.أيه.» إلى الرئيس، بدأت مقدمتها بما حرفيته «الدراسة المرفقة حساسة، وبخاصة إذا تم

تسريب وجودها. وهي لم تقدّم، ولن تُقدّم إلى أي مسؤول آخر في الحكومة». فعنوان التقرير بحد ذاته ـ «تبعات نتيجة غير مناسبة في فيتنام» ـ كان متفجّراً. وقال إن «العرض المُلزم»[8] هو أن «الولايات المتحدة، العاملة من خلال القيود التي تفرضها تقاليدها الخاصة والمواقف المعلنة، لا يمكنها سحق حركة ثورية على قدر كاف من الكبر، ومتكرّسة، وكفوءة، وتلقى دعماً جيداً... إن بنية القوة الأميركية لا قدرة لها على الاضطلاع بحرب عصابات يشنها خصم مصمّم، واسع الحيلة، وداهية سياسياً. وهذا ليس باكتشاف جديد».

في سايغون، قام أفضل ضباط «السي.آي.أيه.» باكتشافهم الخاص: فكلّما زادوا من جمع الاستخبارات، كلما أدركوا مدى قلّة ما يعرفونه.

لم يعد يهمّ كثيراً ما تُفيد به «السي.آي.أيه.» واشنطن. فلم يسبق أبداً لحرب أن وُضع فيها كمّ أكبر من الاستخبارات في أيدي القادة: وثائق تم الاستيلاء عليها من العدو، استجوابات وحشية لسجناء الحرب، اعتراضات الكترونية، طلعات استكشاف جوية، تقارير ميدانية يؤتى بها إلى سايغون عبر دماء الخطوط الأمامية ووحولها، تحليلات معتنى بها، دراسات إحصائية، وتوليف فصلي لكل ما عرفته «السي.آي.أيه.» وقادة الجيش الأميركي. وثمة اليوم، مصنع قديم للطوربيدات، في مكان ليس بعيداً عن البنتاغون، يحتوي على ثمانية أميال من أشرطة المايكروفيلم، وهذا جزء صغير من أرشيف الاستخبارات الأميركية من أيام الحرب.

لم يسبق أبداً أن عنى الكثير من الاستخبارات هذا القدر القليل. فمسار الحرب حددته سلسلة من الأكاذيب التي أخبرها قادة الولايات المتحدة واحدهم للآخر وللشعب الأميركي. واستمر البيت الأبيض والبنتاغون في محاولة إقناع الشعب بأن الحرب تسير على ما يرام، إلا أن الوقائع على الأرض ستعمّ مع الوقت.

٢٦

قنبلة هيدروجينية سياسية

كان ريتشارد هيلمس، في ١٣ شباط/فبراير ١٩٦٧، في ألبوكيرك، في نهاية يوم طويل جال فيه على مختبرات الأسلحة الذرية الأميركية، عندما التقى به ضابط اتصالات في «السي.آي.أيه.» مثاراً جداً، في غرفته في الفندق، وسلّمه رسالة من البيت الأبيض: عد فوراً إلى واشنطن.

كانت مجلة شهرية يسارية صغيرة تدعى «رامبارتس» على وشك نشر موضوع مفاده أن الاتحاد الوطني للطلاب، وهو مجموعة عالمية محترمة من الجامعيين الأميركيين، يحصل منذ سنوات على جعالة سخية من الوكالة. وقد حذّر مقر قيادة «السي.آي.أيه.» البيت الأبيض للتو من أن عاصفة قوية ستنشأ «حول تورط «السي.آي.أيه.» مع منظمات ومؤسسات خاصة وتطوّعية[1]. وربما اتُّهمت «السي.آي.أيه.» بالتدخل في شكل غير جائز في الشؤون الداخلية، وفي التلاعب بشبان أبرياء وتعريضهم للخطر. ومن المرجّح ان تتعرّض الإدارة للهجوم».

مع انتشار القصّة، أعلن الرئيس جونسون على الفور أن نيك كاتزنباخ، الرجل الثاني في وزارة الخارجية، سيتولّى عملية مراجعة شاملة للعلاقات التي بنتها «السي.آي.أيه.» مع منظمات تطوعية خاصة في الولايات المتحدة. وبما أن هيلمس هو الوحيد الذي يعرف بالتحديد ما يجري، «فقد عهد إلى الرئيس بمسؤولية سحب الكستناء المحروق من النار»[2].

لاحظ جيمس رستون من «النيويورك تايمز»، عن معرفة، أن روابط

«السي. آي. أيه.» مع محطات إذاعة لم يسمّها، ومنشورات واتحادات عمالية باتت الآن أيضاً عرضة للخطر. ففي فترة قصيرة، تمت تعرية عقدين من العمل السرّي لـ «السي. آي. أيه.».

تم الكشف عن أن «راديو أوروبا الحرّة»، و«راديو ليبرتي»، ومجلس الحرّية الثقافية، هي صنيعة الوكالة. وجميع المجلات الصغيرة ذات النفوذ التي ازدهرت تحت راية اليسار الليبرالي المناهض للشيوعية، وجميع المجموعات التي تتمتع بالاحترام الفائق والتي استُخدمت معبراً لمال «السي. آي. أيه.» وعملائها، من أمثال مؤسسة فورد، ومؤسسة آسيا. تشابكت كلّها في أثر ورقي من الشركات الوهمية والمنظمات المرتبطة بـ «السي. آي. أيه.»، ولمّا طارت واحدة، طارت كلّها.

يمكن القول إن الإذاعات شكّلت عمليات الحرب السياسية الأكثر تأثيراً في تاريخ الوكالة. وأنفقت «السي. آي. أيه.» ما يقارب الأربعمئة مليون دولار في دعمها، وامتلكت أسباباً للاعتقاد أن ملايين المستمعين في ما وراء الستار الحديدي، يقدّرون كل كلمة تذيعها. إلا أن شرعيتها تقوّضت عندما تم الكشف عن أنها ترددات تابعة لـ «السي. آي. أيه.».

بنت «السي. آي. أيه.» قصراً من الورق، وهيلمس يعرف ذلك. وشكّل دعمها لـ «السي. آي. أيه.» الإذاعات والمؤسسات بعضاً من أكبر برامج العمل الخفي التي أدارتها الوكالة. فقبل عشرة أعوام، تحدّث هيلمس إلى ويسنر في شأن تقليص الدعم السرّي، وترك وزارة الخارجية تتعامل مع الإذاعات. اتفقا على محاولة إقناع الرئيس أيزنهاور، إلا أنهما لم يتابعا الأمر أبداً. وأخذ وزير الخارجية دين راسك يحذّر[٣]، منذ ١٩٦١، من أن ملايين الدولارات المنهمرة من «السي.آي.أيه.» إلى المجموعات الطالبية والمؤسسات الخاصة «تشكّل موضوعاً للأقاويل العامة، أو للمعرفة، هنا وفي الخارج معاً». فعلى مدى عام، والوكالة تراقب «رامبارتس». وبعث هيلمس بمذكّرة إلى بيل مويرز في البيت الأبيض تفصّل السلوك السياسي والشخصي لمحرريها ومراسليها.

لكن «السي.آي.أيه.» ليست الطرف الوحيد المذنب بالإهمال عندما يتعلّق الأمر بالسيطرة على العمل الخفي. فعلى مدى سنوات، فشل البيت الأبيض، والبنتاغون، ووزارة الخارجية، في إبقاء العين مفتوحة على الوكالة. فقد شُنّ أكثر من ثلاثمئة عملية خفية رئيسية منذ تولي الرئيس كنيدي السلطة. وفي ما عدا هيلمس، لم يعرف أي أحد في السلطة في شأن معظمها. وأفاد مسؤول في استخبارات وزارة الخارجية في ١٥ شباط/فبراير ١٩٦٧، «افتقرنا إلى التفصيل المناسب حول كيفية تنفيذ بعض البرامج، ونحن نفتقر إلى المراجعة المستمرّة للبرامج الرئيسية الجارية»(٤).

لم تكن الآليات التي وُضعت لمراقبة «السي.آي.أيه.» ولإضفاء سلطة رئاسية على جهازها الخفي تعمل. وهي لم تعمل ابدا. وتزايد الشعور في البيت الأبيض، ووزارة الخارجية، ووزارة العدل، والكونغرس، بأن الوكالة خرجت بعض الشيء عن السيطرة.

قتلُه هو ما دار بالتحديد في ذهنهم

اتصل الرئيس هاتفياً في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٦٧، بالمدعي العام للولايات المتحدة بالوكالة، رامسي كلارك.

أجرى ليندون جونسون قبل ذلك بخمسة أسابيع، في البيت الأبيض، محادثة ليست للنشر استمرت ساعة مع درو بيرسون، كاتب المقال الافتتاحي الذي تُوزّع مقالاته على عدد من الصحف الأميركية(٥). ولم يُطلق عبثاً على عمود بيرسون اسم «دوّارة واشنطن». فقد أدار رأس الرئيس برواية عن عضو المافيا جون روسيللي، الصديق المخلص لعضو «السي.آي.أيه.» بيل هارفي، الذي كان العدو اللدود للسيناتور روبرت ف. كنيدي.

قال ليندون جونسون لرامسي كلارك إن «هذه الرواية المنتشرة حول قيام «السي.آي.أيه.» بإرسال الشباب لقتل كاسترو، لا تُصدّق»(٦). وأخبر الرواية

بحسب ما سمعها: «كان لديهم رجل متورط، جيء به إلى «السي.آي.أيه.»، مع عدد آخر من الناس، وأعطته «السي.آي.أيه.» والمدعي العام تعليمات باغتيال كاسترو بعد خليج الخنازير... وكانت لديهم هذه الحبوب». كل كلمة من ذلك كانت صحيحة. إلا أن الرواية استمرّت. ودفعت بجونسون إلى استنتاج مريع، لكن بدون أساس: فكاسترو اعتقل المتآمرين و«عذّبهم، وأخبروه كل شيء عن الأمر... لذا قال، «حسناً. سيكون علينا وحسب الاهتمام بالأمر». وهكذا، فإنه استدعى أوزوالد ومجموعة معه، وطلب منهم. القيام بالعمل». والعمل يقضي باغتيال رئيس الولايات المتحدة.

طلب جونسون من رامسي كلارك، أن يكتشف ما تعرفه «الأف.بي.آي.» عن العلاقات بين «السي.آي.أيه.»، والمافيا، وبوبي كنيدي.

في الثالث من آذار/مارس، أفاد عمود بيرسون أن «الرئيس جونسون يجلس على قنبلة هيدروجينية سياسية: تقرير غير مؤكّد بأن السيناتور روبرت كنيدي ربما أعطى الموافقة على مؤامرة اغتيال ارتدّت بالتالي على شقيقه الراحل». أصاب الموضوع بوبي كنيدي بالذعر الشديد. وتناول في اليوم التالي طعام الغداء مع هيلمس، وجلب المدير النسخة الوحيدة عن مذكّرة «السي.آي.أيه.» الوحيدة التي تربط كنيدي بمؤامرة المافيا ضد كاسترو.

أنجزت «الأف.بي.آي.»، بعد ذلك بيومين، تقريراً للرئيس بعنوان قاس هو «نيات وكالة الاستخبارات في إرسال مجرمين إلى كوبا لاغتيال كاسترو». كان واضحاً وموجزاً: حاولت «السي.آي.أيه.» قتل كاسترو. وقد استخدمت الوكالة عناصر من المافيا للقيام بالأمر. وعرف روبرت كنيدي، بوصفه مدعياً عاماً، بأمر مؤامرة «السي.آي.أيه.» وهي تتكشف، وعرف أن المجرمين متورطون.

قلّب الرئيس جونسون أوجه المسألة على مدى أسبوعين قبل أن يأمر هيلمس بالقيام بتحقيق رسمي في «السي.آي.أيه.» حول المؤامرات ضد كاسترو، وتروخيّو، وديام. لم يكن لدى هيلمس من خيار. طلب من المفتش العام في «السي.آي.أيه.»، جون إيرمان، الشروع في العمل. واستدعى إيرمان

إلى مكتبه الواحد تلو الآخر من حفنة الرجال الذين علموا بما حصل؛ وكدّس ملفات «السي.آي.أيه.» الواحد تلو الآخر، جامعاً بتمهّل الرواية المفصّلة.

أمر وزير الخارجية راسك رئيس مكتب الاستخبارات في وزارة الخارجية، توم هيوز، بالقيام بمراجعته الخاصة المستقلة لعمليات «السي.آي.أيه.» الخفية. وفي ٥ أيار/مايو، جلس هيوز مع راسك وكاتزنباخ في مكتب الوزير ذي الثريّات. وتبصّر الرجال الثلاثة في ما إذا كان على الرئيس التضييق بقوة على الجهاز الخفي. وبلغ هيوز حد الاعتقاد أن شراء السياسيين الأجانب، ودعم الانقلابات الخارجية، ونقل الأسلحة إلى المتمردين الأجانب، يمكن أن تؤدي إلى تآكل القيم الأميركية. اقترح أنه على الولايات المتحدة أن تختصر العمل الخفي «إلى الحد الأدنى الذي لا يمكن إنقاصه»(٧). ويجب الشروع بها فقط عندما «تكون النتائج المتوقعة ضرورية للأمن القومي، أو للمصالح الوطنية، ونتائجها أكثر بكثير من مخاطرها؛ ولا يمكن الحصول عليها فعلياً بأي طريقة أخرى». وبعث راسك بهذه الأفكار إلى ريتشارد هيلمس الذي لم يعارض بشدّة.

قرأ هيلمس في ذلك الاسبوع ذاته، بعناية شديدة في مسودة تقرير من ١٣٣ صفحة وضعه المفتش العام لـ «السي.آي.أيه.»، وجاء فيه أن قتلة ديام وتروخيّو قد «تلقوا التشجيع من الحكومة الأميركية، لكنها لم تكن تسيطر عليهم». لكنه شرّح بالتفصيل القاتم آليات المؤامرة ضد كاسترو. وقال «لا يمكننا التشديد كفاية على المدى الذي شعر فيه ضباط مسؤولون في الوكالة بأنفسهم عرضة للضغوط القاسية من إدارة كنيدي للقيام بأمر ما في شأن كاسترو. وجدنا أناساً يتحدثون في شكل غامض عن القيام بأمر ما في شأن كاسترو، في حين بدا واضحاً أن قتله هو ما دار بالتحديد في ذهنهم». وبرغم أن الضغط جاء من أعلى مستويات الحكومة، فإن التقرير التزم الصمت حول مسألة الإذن الرئاسي. وكنيدي، الرجل الوحيد الذي يمكنه توفير جواب قاطع، كان مشغولاً في تلك اللحظة في المشاركة في رعاية مشروع قانون يزيد من العقوبات الفديرالية على انتهاك العلم الأميركي.

أقحم التقرير كل ضابط حيّ في «السي.آي.أيه.» عمل رئيساً للجهاز السرّي

ـ ألن دالاس، ريتشارد بيسيل، ريتشارد هيلمس، وديزموند فيتزديرالد ـ في التآمر لارتكاب جريمة قتل. ووضع على نحو خاص حملاً ثقيلاً على فيتزجيرالد. وقال إنه وعد شخصياً بإعطاء بنادق ذات عيار قوي مع مناظير تيليسكوبية للعميل الكوبي رولاندو كوبيلا، الذي تعهّد بقتل كاسترو، وذلك في الأسبوع الذي اغتيل فيه الرئيس كنيدي. نفى فيتزجيرالد الأمر بقوة، لكن احتمال أنه يكذب كان مرتفعاً.

وضع هيلمس، في ١٠ أيار/مايو، ملاحظاته المكتوبة بخطه على تقرير المفتش العام في حقيبة يده، ومضى لرؤية الرئيس. ومن غير المعروف وجود تسجيل لما دار بينهما. وفي ٢٣ أيار/مايو، أدلى هيلمس بشهادته أمام اللجنة الفرعية لـ «السي.آي.أيه.» التي يرأسها السيناتور ريتشارد راسل. كان راسل يعرف أكثر من أي شخص خارجي بأمور الوكالة، وهو أقرب إلى الرئيس جونسون من أي شخص في واشنطن. وطرح أسئلة محددة جداً على هيلمس في سياق الاغتيال السياسي، وسأل عن «قدرة «السي.آي.أيه.» على إسكات موظفين سابقين»(٨).

عاد هيلمس في ذلك اليوم إلى مقر القيادة، وتأكد من إتلاف كل قصاصة ورق أنتجها تحقيق المفتش العام، وأبقى النسخة الوحيدة من التقرير محفوظة بأمان في خزنته الحديدية، حيث بقيت لم تُلمَس على مدى السنوات الست التالية.

أدرك هيلمس جيداً أن ضابط «السي.آي.أيه.» المطلع على أكثر الوقائع إدانة في المؤامرة على كاسترو، هو بيل هارفي، المضطرب في شكل خطر، والذي أقيل من منصبه كرئيس محطة في روما بسبب إدمانه المزمن على الكحول، لكنه بقي على جدول معاشات «السي.آي.أيه.»، ويطوف في ممرات مقر القيادة. وقال ريد وايت، المدير التنفيذي لـ «السي.آي.أيه.» «كان بيل يأتي إلى اجتماع ما ملتوياً، بعدما يكون قد عاقر من المارتيني ما من شأنه أن يملأ حوض الاستحمام». واستذكر وايت الاجتماع في مكتب هيلمس مع ديزموند فيتزجيرالد، وجيم أنغلتون في الأسبوع الأخير من أيار/مايو ١٩٦٧، في

موضوع ما العمل بهارفي[٩]. أخرجوه من الوكالة بأقصى درجات الحرص، وحاولوا التأكد من حصوله على تقاعد هادئ. وأخذ مدير الأمن في «السي.آي.أيه.»، هوارد أوزبورن، الضابط الذي تم التخلّص منه، إلى الغداء وسجّل «مرارته القصوى حيال الوكالة والمدير»[١٠]، واستعداده لابتزاز الاثنين إذا ما حُشر في الزاوية. وسيعود هارفي لينتاب «السي.آي.أيه.» قبل موته.

رجل يركبه الوسواس

إنه وقت الخطر المهني العصيب بالنسبة إلى هيلمس. فقد واجه، في خلال ربيع ١٩٦٧، أزمة أخرى في مقر القيادة تعادل بخطورتها تكات القنبلة الموقوتة لمؤامرات الاغتيال. فقد شرع بعض من أفضل ضباطه في تمرّد داخلي على نظريات المؤامرة لجيم أنغلتون.

على مرّ أكثر من عقد، منذ حصوله، بمساعدة من إسرائيل، على نسخة الخطاب السرّي لخروشتشيف الذي يندد بستالين، تمتع أنغلتون بمقام رفيع في «السي.آي.أيه.» وهو لا يزال يتولى المسؤولية الإسرائيلية والارتباط مع «الأف.بي.آي.» إلى جانب دوره الخطير كرئيس لمكافحة التجسس، دور الرجل الذي يحمي الوكالة من الاختراق على أيدي الجواسيس الشيوعيين. إلا أن تصوّره لـ «المؤامرة الكبرى» التي تديرها موسكو أخذ في تسميم الوكالة. وكشف تأريخ سرّي لـ «السي.آي.أيه.» عن ريتشارد هيلمس كمدير للاستخبارات المركزية. وقد أُبيحت في شباط/فبراير ٢٠٠٧، بالتفصيل، طبيعة عمل أنغلتون ومزاياه في مقر القيادة:

بحلول أواسط الستينيات[١١]، كوّن أنغلتون مجموعة من وجهات النظر من شأنها، لو أنها صحيحة، أن تنذر بعواقب وخيمة على الولايات المتحدة. اعتقد أنغلتون أن الاتحاد السوفياتي، بقيادة مجموعة ماهرة من الزعماء التي لم يسبق لها أن خدمت في حكومة واحدة، يعادي الغرب بلا تسامح. فالشيوعية الدولية لا تزال كياناً واحداً، والتقارير عن صدع بين موسكو وبكين ليست إلا جزءاً من «حملة تعمية» موضوعة بكامل العناية والتفصيل. وكتب أنغلتون في ١٩٦٦، أن

«كتلة اشتراكية موحّدة وصاحبة هدف» تسعى إلى ترويج روايات كاذبة عن «انشقاقات، وتطوّر، وصراعات على السلطة، وكوارث اقتصادية، [و] شيوعية جيدة وسيئة» لتقديم «خليط من المرايا» إلى الغرب المشوّش. وما إن ينجح برنامج الخداع الاستراتيجي هذا في شق التضامن الغربي، حتى تجد موسكو أن اصطياد دول العالم الحر، واحدة واحدة، مسألة سهلة. ومن وجهة نظر أنغلتون، وحدها أجهزة الاستخبارات الغربية يمكنها مواجهة هذا التحدّي ودرء الكارثة. ولأن السوفيات قد خرقوا كل واحد من هذه الأجهزة، فإن مصير الحضارة الغربية يقع، في شكل كبير، في أيدي خبراء مكافحة التجسس.

استنتج تقويم رسمي لاحق لـ «السي.آي.أيه.» أن أنغلتون مختل: «رجل صاحب تفكير متحلل ومفكّك[١٢]، ومن الواضح أنه من غير الجدير إمعان الفكر بنظرياته لدى تطبيقها في مسائل السجلات العامة». وجاءت عواقب الإيمان به خطيرة. وقد تضمّنت في ربيع ١٩٦٧، الاستمرار في اعتقال يوري نوسينكو، المرتد السوفياتي الذي يُمضي سنته الثالثة من سجنه غير القانوني في ظروف أقل من إنسانية في إحدى زنزانات «السي.آي.أيه.»؛ وشلاّلاً من الاتهامات الكاذبة لكبار ضباط القسم السوفياتي الذين اتهموا خطأً بالتجسس لموسكو؛ ورفض تصديق كلمة أي من جميع المرتدين السوفيات أو العملاء المجندين. وقال تأريخ «السي.آي.أيه.» السري لسنوات هيلمس، إنه «تم التشكيك في خيانة موظفي الوكالة المخلصين فقط على قاعدة من المصادفة أو الدليل الظرفي الواهي[١٣]. أوقفت العمليات الجارية ضد أهداف سوفياتية، وخُنقت الجديدة منها، وذلك من جراء القناعة بأن الكرملين، الذي يحصل على الأخبار من جاسوس مزروع داخل «السي.آي.أيه.»، قد ضاعف معظم مقتنيات الوكالة. وتم تجاهل معلومات قيمة وفّرها المرتدّون والمصادر الطويلة الأمد، خوفاً من أن يكون قد شابها بعض الفساد».

أخذت مقاومة صغيرة، ومصممة لأنغلتون تنمو في داخل الجهاز الخفي. وفي مذكّرة قرأها هيلمس للمرة الأولى في نيسان/أبريل ١٩٦٧، ذكر ضابط كبير في القسم السوفياتي يدعى ليونارد ماكوي، «أننا بدلاً من التعرض للتضليل من

العدو، نقوم بخداع أنفسنا»[١٤]. أبلغ هيلمس بأن نمط التفكير الأنغلتوني قد أدى إلى «شلل تام لجهدنا السوفياتي». وفي ايار/مايو، حذّر هوارد أوزبورن، مدير مكتب الأمن في «السي.آي.أيه.»، من أن قضية نوسينكو تشكل شنعة قانونية وأخلاقية. طلب هيلمس من نائب مدير الاستخبارات المركزية، الأميرال روفوس تايلور، محاولة حلّ القضية. وافاد تايلور بأنه يستحيل أن يكون نوسينكو جاسوساً مزدوجاً، وأن القسم السوفياتي في «السي.آي.أيه.» آخذ في التمزّق، وعلى هيلمس إطلاق السجين وإجراء بعض التغييرات الرئيسية في الموظفين لتصفية الجو.

لم ينتج أنغلتون وفريقه تقريباً أي تقارير استخباراتية لبقية الوكالة، فقد اعتبر نفسه الزبون النهائي لعمله، ورفض توزيع استنتاجاته كتابة. وقد خرّب على رؤساء المحطات في أنحاء أوروبا، وقوّض أجهزة استخبارات حليفة، وسمم البئر في مقر القيادة، وذلك كله «بدون أدنى دليل داعم[١٥] بأنه وُجد أبداً» جاسوس خفي داخل القسم السوفياتي، على ما دأب رولف كينغسلي، الذي عُيّن حديثاً رئيساً للقسم في ظل هيملس، على الاحتجاج في شأنه بدون طائل. اعتقد هيلمس، بعبارات الأميرال تايلور، أن «جيم رجل يركبه الوسواس[١٦]... وقد تحسّر على هذا الوسواس، لكنه اعتقد أن أنغلتون قيّم للغاية، ويصعب استبداله، واعتبر أن حسناته الأخرى تفوق مضار وسواسه».

برغم المهن التي أُفسدت، والأرواح التي تضررت، والفوضى المطلقة التي خلقها أنغلتون، لم يفقد هيلمس أبداً أيمانه به. لماذا؟ أولاً، على ما يعلمه أي أحد، فإنه، على امتداد سنوات أنغلتون العشرين في إدارة مكافحة التجسس، لم يخرق «السي.آي.أيه.» أبداً أي خائن أو جاسوس سوفياتي، وهيلمس ممتن لذلك إلى الأبد. ثانياً، على ما يوضحه، للمرة الأولى، تأريخ «السي.آي.أيه.» لسنوات هيلمس، فإن أنغلتون مسؤول جزئياً عن أكبر إنجاز له كمدير للاستخبارات المركزية: توقّع «السي.آي.أيه.» الدقيق لحرب الأيام الستة.

شنّت إسرائيل في الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، هجوماً على مصر وسوريا والأردن. وتوقّعت «السي.آي.أيه.» حصول ذلك. كانت إسرائيل تُبلغ البيت الأبيض ووزارة الخارجية أنها في خطر كبير. وقال هيلمس للرئيس إن

تلك حركة محسوبة، كذبة بيضاء قيلت على أمل الفوز بمساندة عسكرية أميركية مباشرة. واعتبر، وهو ما أشعر ليندون جونسون بارتياح كبير، أن اسرائيل ستضرب في الزمان والمكان اللذين تختارهما، ومن المرجح أنها ستنتصر في شكل سريع. . . في غضون أيام. كان أنغلتون هو المصدر النهائي لهذا التوقع الذي أُعلن عن ثقة، وقد حصل عليه من أصدقائه في أعلى مراتب الاستخبارات الإسرائيلية، وأفاد به هيلمس على نحو مباشر وحصري. وكانت كلمته في مكانها. «فما تبيّن لاحقاً من دقّة في توقعه[١٧]، حقق سمعته في البيت الأبيض في عهد جونسون»، بحسب ما سجّل تأريخ «السي.آي.أيه.» «وكادت هذه التجربة تشكّل بالتأكيد أعلى نقطة في خدمة هيلمس بوصفه مديراً. وأعطت أيضاً المزيد من الصلابة لموقع أنغلتون في تقدير مدير الاستخبارات المركزية».

تأثر ليندون جونسون كما ينبغي بتلك الإصابة النادرة. وروى هيملس بافتخار لمؤرخي «السي.آي.أيه.» أن جونسون، أدرك للمرة الأولى في خلال رئاسته، أن «للاستخبارات دوراً في حياته[١٨]، ودوراً مهماً من حيث. . . إنها المرة الأولى التي يهزّه فيها نوعاً ما واقع أن فتيان الاستخبارات هؤلاء امتلكوا بعض المعلومات الداخلية التي لم يمتلكها هؤلاء الفتيان الآخرون».

قُدّم إلى هيلمس مقعد لغداء الثلاثاء عند الرئيس ـ أفضل طاولة في المدينة، أعلى مجلس للحكومة، أو ما أطلق عليه هيلمس اسم الدائرة السحرية ـ إلى جانب وزير الخارجية، ووزير الدفاع، ورئيس الأركان المشتركة. وحصلت «السي.آي.أيه.» مرّة في الأسبوع، على مدى الأشهر الثمانية عشر المقبلة، على ما أرادته أكثر ما يكون: انتباه رئيس الولايات المتحدة.

كمّية هائلة من الأعمال السمكرية

أراد هيلمس إبقاء أسرار «السي.آي.أيه.» في الديار تحت السيطرة. وطلب، لهذه الغاية، عدم حصول مفاجآت غير سارة في الخارج. ففي ظل الظروف السياسية السائدة، يشكل الكثير من عمليات الوكالة الخفية قنابل هيدروجينية كامنة.

طلب هيلمس، في حزيران/يونيو ١٩٦٧، من ديزموند فيتزجيرالد تقويم كل واحدة من أعمال «السي.آي.أيه.» الخفية في ما وراء البحار، والتأكد من أن السرّية المحيطة بها مضمونة، وإسكات كل بوق ممكن. فلا يمكن الوكالة أن تتحمل فضيحة عامة أخرى، أو تخاطر بأي عملية تدقيق عامة أخرى. وثبت أن الضغط الذي يُمارَس على فيتزجيرالد، إضافة إلى الملامة التي وجهها إليه التحقيق الداخلي في المؤامرات على كاسترو، عظيماً جداً. وبعد أربعة أسابيع قضت عليه نوبة قلبية وهو يلعب كرة المضرب مع السفير البريطاني. ومات، على غرار فرانك ويسنر، عن عمر يناهز ستة وخمسين سنة.

اختار هيلمس بعد دفن فيتزجيرالد، صديقاً قديماً لقيادة الجهاز الخفي: توماس هيركوليس كراميسينس، ويعرفه أصحابه باسم توم ك.، وهو عضو مؤسس في «السي.آي.أيه.» ورئيس سابق لمحطة أثينا، يعيش في حالة دائمة من الألم المُعوّق من جراء التواء في عموده الفقري. واصلا معاً، في صيف ١٩٦٧ وخريفه، مراجعة عمليات «السي.آي.أيه.» السرّية. فما من بلد في العالم يشكّل أرضاً محايدة، وهَدَفَ هيلمس إلى إعطاء الوكالة امتداداً عالميّاً.

وها إن «السي.آي.أيه.» شرعت في سايغون في عملية حساسة في شكل مبرّح[١٩]، وافق عليها الرئيس جونسون، وأُعطيت اسماً رمزياً هو باتركاب (زهرة رجل الغراب). كانت الوكالة تحاول أن تتحسس السلام لدى الفيتناميين الشماليين من خلال إعادة سجين حرب ماكر سياسياً إلى هانوي ومعه جهاز إرسال سرّي، سعياً إلى فتح محادثات على أعلى المستويات مع العدو. ولم ينتج عن ذلك شيء. وقد أنشأت الولايات المتحدة الحزب الشيوعي المحلي، وأدارته في عدة بلدان موالية لأميركا ـ من بينها بنما ـ آملة أن تتم دعوة زعماء الأحزاب إلى موسكو ويكتشفون أسرار المبدأ السوفياتي من مصدرها الأصلي[٢٠]. فالأمثولات التي جرى تعلّمها من المحاولات التي لا تنتهي لاختراق الكرملين، كانت ضئيلة. وأخذ هيلمس يحاول حشد الكادر العالمي الأول من الضباط الخفيين جداً لـ «السي.آي.أيه.»: جواسيس عملوا بدون حماية جوازات السفر الدبلوماسية، يدّعون أنهم محامون دوليون أو بائعون

مسافرون لشركات فورتشون الخمسمئة. وكان العمل جارياً بهذا البرنامج، واسمه «الرمزي غلوب»،[٢١]، على مدى خمس سنوات، لكن بالكاد كان يوجد أكثر من دزينة من مثل هؤلاء الضباط، يجوبون الكوكب.

العمليات الجيدة تستوجب سنوات لتنشأ. «فعليك الحصول على البنى التحتية[٢٢]، والأشخاص الذين عليهم العمل معك»، شرح هيلمس مرّة. «فثمة الكثير من أعمال السمكرة يجب وضعها في البنية التحتية، إذا كنت ستملك أي حظ بالنجاح».

إلا أن الصبر، والمواظبة، والمال، والمكر، ليست كافية وحدها لمحاربة الشيوعية. فيجب وضع أسلحة حقيقية في أيدي الحكام الأصدقاء، وشرطتهم السرية، وقواتهم شبه العسكرية التي درّبتها «السي.آي.أيه.». وقد أنشأ الرئيس أيزنهاور خطة القياس ـ الواحد، المناسب ـ للجميع الذي دعي برنامج الأمن الداخلي لما وراء البحار، تديره «السي.آي.أيه.» بالاشتراك مع البنتاغون ووزارة الخارجية. والرجل الذي كتب برنامج المهمة ـ «مقاربة ديموقراطية، غير أنانية، وغالباً غير مشروطة لمساعدة بلدان أخرى على مساعدة نفسها» ـ ليس إلا عضو «السي.آي.أيه.» آل هاني، مخادع محطة سيول والقائد الميداني لعملية النجاح في غواتيمالا.

اقترح هاني حفظ النظام العالمي من خلال تسليح حلفاء أميركا في العالم الثالث. وحاجج بأنه «تم سَوق اتهامات بأنه من الخطأ أخلاقياً أن تساعد الولايات المتحدة أنظمة غير ديموقراطية لتقوية أنظمتها الأمنية، وتخدم بالتالي تمسكّها بالسلطة»[٢٣]. إلا «أنه لا يمكن الولايات المتحدة أن تتحمل الرفاهية الأخلاقية القاضية فقط بدعم الأنظمة في العالم الحرّ التي تتطابق مع مثلنا العيا حول الحكم الذاتي. فالغوا جميع الأنظمة الملكية المطلقة، والديكتاتوريات، والطغمات العسكرية من العالم الحر، واحصوا ما يبقى، وسيظهر لكم سريعاً أن الولايات المتحدة ماضية سريعاً في طريق العزلة».

قام البرنامج بتدريب ٧٧١,٢١٧ عنصراً من قوات الجيش والشرطة في ٢٥

دولة. ووجد الأرض الأكثر خصوبة في بلدان قام عمل «السي.آي.أيه.» الخفي فيها بتحضير التربة. وقد ساعد في إنشاء الشرطة السرية في كمبوديا، وكولومبيا، والاكوادور، والسلفادور، وغواتيمالا، وإيران، والعراق، ولاوس، والبيرو، والفيليبين، وكوريا الجنوبية، وفيتنام الجنوبية، وتايلاند. وفي كل من هذه الدول، عملت وزارتا الداخلية والشرطة الوطنية باتصال وثيق مع محطة «السي.آي.أيه.». وأنشأت الوكالة أيضاً أكاديمية دولية للشرطة في بنما و«مدرسة قنبلة» في لوس فريسنوس، تكساس، قامت بتدريب ضباط من أميركا الوسطى والجنوبية. ومن بين متخرجيها الزعماء المستقبليون لفرق الموت في السلفادور وهندوراس.

شكّل الأمر أحياناً خطوة قصيرة من غرفة الدراسة إلى غرفة التعذيب. ووقفت «السي.آي.أيه.» على «أرض خطرة»، بحسب ما قال روبرت أموري رئيس مديرية الاستخبارات فيها، في عهدي أيزنهاور وكنيدي. «فيمكنك الوصول بالأمر إلى تكتيكات على طريقة الغيستابو»[٢٤].

توسّع نطاق عمل «السي.آي.أيه.» في الستينيات على نحو درامي في أميركا اللاتينية. «شكّل كاسترو المادة المحفزة»[٢٥]، قال توم بولغار، محنّك قاعدة برلين الذي عمل رئيساً لأركان «السي.آي.أيه.» الاستخبارات الخارجية في قسم أميركا اللاتينية من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧. «امتلكت وطبقات الملاكين في أميركا اللاتينة، أمراً مشتركاً، هو ذلك الخوف».

قال بولغار، «قضت مهمتي باستخدام محطات أميركا اللاتينية كوسيلة لجمع الاستخبارات حول الاتحاد السوفياتي وكوبا. وعليك، للقيام بذلك، أن تحظى بحكومة مستقرة نسبياً تتعاون مع الولايات المتحدة».

دعمت «السي.آي.أيه.» زعماء ١١ دولة أميركية لاتينية: الأرجنتين، بوليفيا، البرازيل، جمهورية الدومينيكان، الإكوادور، غواتيمالا، غويانا، هندوراس، نيكاراغوا، البيرو، وفنيزويلا. وما إن تصبح حكومة صديقة في السلطة حتى يصبح لـ «السي.آي.أيه.» خمسة سبل للحفاظ على النفوذ الأميركي

على الزعماء الخارجيين. «أنت تصبح جهاز استخباراتهم الخارجي»، قال بولغار. «فهم لا يعرفون ماذا يدور في العالم. وتقوم بالتالي باعطائهم إيجازاً أسبوعياً ـ معالجاً ليتطابق مع حساسياتهم. المال قطعاً ـ مرحباً به دوماً. جلب أمور: ألعاب، مناورات، أسلحة. تدريب. ويمكنك دوماً أخذ مجموعة من الضباط إلى فورت براغ، أو إلى واشنطن: عطلة رائعة».

تمسّكت الوكالة بموقف، تم الإعلان عنه كما يجب في تقدير رسمي وقّعه ريتشارد هيلمس، ومفاده أن الطغمة العسكرية الأميركية اللاتينة جيّدة للولايات المتحدة[٢٦]. فهي القوة الوحيدة القادرة على السيطرة على الأزمات السياسية. فالنظام والأمن افضل من الصراع القذر من أجل الديموقراطية والحرية.

وفي زمن ليندون جونسون، فإن مهمات مكافحة التمرد التي بدأها آل كنيدي تجذّرت في الأماكن التي ازدهرت فيها برامج أيك للأمن الداخلي، وحيث وضعت «السي.آي.أيه.» في السلطة حلفاء عسكريين وسياسيين. وفي ١٩٦٧، ومن خلال رعاية معتنى بها لديكتاتوريي دولتين، حققت «السي.آي.أيه.» واحدة من أعظم انتصاراتها في الحرب الباردة: اصطياد تشي غيفارا.

تذكّروا أنكم تقتلون رجلاً

شكّل تشي شعاراً حيّاً لجنود الثورة الكوبية وجواسيسها. وقد عملوا في مراكز متقدمة مترامية الأطراف كالكونغو، حيث تعرّضت سلطة الرجل القوي جوزف موبوتو للتهديد من قائد قوة تمرد من الرعاع يدعون السيمبا، الذين اختطف مقاتلوهم رئيس قاعدة «السي.آي.أيه.» في ستانليفيل في ١٩٦٤.

شكّل الكونغو ساحة لقتال ديوك الحرب الباردة، وعمل موبوتو و«السي.آي.أيه.» بتناغم وثيق. اقترح جيري غوسنز، الرجل الثالث في «السي.آي.أيه.» في الكونغو، إنشاء قوة جديدة لمحاربة النفوذين السوفياتي والكوبي في أفريقيا. وقال، «قدّم إلي موبوتو منزلاً، وسبعة ضباط، وست سيارات فولكسفاغن. وعلّمتهم كيفية القيام بالمراقبة»[٢٧]. «أنشأنا جهازاً كونغولياً

يقدّم الإفادة لـ «السي.آي.أيه.»، بهدف توجيه أعمالها، وإدارتها. وفي مآل الأمر، دفعنا بمباركة من الرئيس، مصاريفهم العملانية. وكنت أحصل على الوارد، وأدقق فيه، وأحرره، وأمرره إلى موبوتو». حصل موبوتو على ما شاء من «السي.آي.أيه.» ـ المال والأسلحة، الطائرات والطيارين، طبيب خاص، والضمان السياسي النابع من الاتصال الوثيق بالحكومة الأميركية ـ بينما بنت «السي.آي.أيه.» قواعدها ومحطاتها في قلب أفريقيا.

جابه تشي وكوبيّوه، في معركة كلاسيكية من الحرب الباردة، «السي.آي.أيه.» وكوبييها عند الضفاف الشرقية لبحيرة تانغانايكا، في قلب أفريقيا[٢٨]. هاجمت قوات الوكالة، المزودة بمدافع وبطائرات، آلافاً عدة من السيمبا، ونحو مئة من جنود تشي الكوبيين. وسعى تشي، تحت النار، إلى تلقي أوامر جديدة من فيدل. «تَفَادَ الابادة» نصح القائد الأكبر el jefe maximo.

قام تشي بانسحاب غير عظيم. واجتاز، في خلال هروبه، الأطلسي ساعياً إلى إشعال نار الثورة في أميركا اللاتينية، وانتهى به الأمر في جبال بوليفيا، حيث تقفّت «السي.آي.أيه.» أثره.

استولى الجنرال اليميني، رينيه باريانتوس، على السلطة في ذلك البلد الفقير على نحو يائس، مدعوماً بأكثر من مليون دولار من «السي.آي.أيه.»[٢٩] وقد استخدم المال، بتعبير الوكالة، «لتشجيع حكومة مستقرة تميل بمحاباة صوب الولايات المتحدة»، و«دعماً لخطط الطغمة العسكرية الحاكمة لإخضاع البلاد». سحق الجنرال خصومه بقوة متعاظمة. وكتب بيل برو، رئيس قسم أميركا اللاتينية في الجهاز الخفي، إلى هيلمس برضا: «مع انتخاب رينيه باريانتوس، في ٣ تموز/يوليو ١٩٦٦، رئيساً لبوليفيا، يكون هذا العمل قد أُنجز في شكل ناجح». أرسلت «السي.آي.أيه.» ملفها المتعلق بباريانتوس إلى البيت الأبيض. سلّمه مستشار الأمن القومي والت روستو إلى الرئيس، وقال: «هذا ليشرح لماذا قد يقول الجنرال باريانتوس شكراً عندما تتناول الغداء معه يوم الأربعاء المقبل، في العشرين منه».

أبلغ باريانتوس، في نيسان/أبريل ١٩٦٧، السفير الأميركي، دوغلاس هندرسون، أن ضباطه يتقفون أثر تشي في جبال بوليفيا. كان السفير أندرسون متوجهاً إلى واشنطن في ذلك الأسبوع، وحمل الخبر إلى ديزموند فيتزجيرالد. «لا يمكن أن يكون هذا تشي غيفارا»[٣٠]، قال فيتزجيرالد. «نعتقد أن تشي غيفارا قُتل في جمهورية الدومينيكان، وهو مدفون في قبر بدون شاهد». وبرغم ذلك، أرسلت «السي.آي.أيه.» اثنين من قدامى كوبيي خليج الخنازير جنوباً للانضمام إلى عملية المطاردة، مع ثلة من الجوالة البوليفيين المتدربين على أيدي الأميركيين.

كان فيليس رودريغيز واحداً من كوبيي «السي.آي.أيه.»، وقد أرسل سلسلة من الإخباريات المثيرة من جبهة المعركة. وتشكل رسائله، التي أُبيحت في ٢٠٠٤، الروايات المعاصرة الوحيدة من شاهد عيان لمواجهة غلّفتها الأساطير طويلاً. اتصل رودريغيز بالجهاز اللاسلكي من قرية هيغيراس برئيس المحطة في لاباز، جون تيلتون، الذي أوصل الخبر إلى بيل برو وتوم بولغار في مقر القيادة. ووصلت تقاريرهما إلى هيلمس الذي حملها بيده إلى البيت الأبيض.

أُسر تشي في ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧، بعيد اشتباك مع الجوالة البوليفيين. أصيب بجرح في ساقه، وعدا ذلك كان في حالة لا بأس بها. فقد تبخّرت أحلامه بتحويل أميركا الجنوبية إلى فيتنام في هواء التلال البوليفية. ساقه آسروه إلى مبنى مدرسة صغيرة، وعلم رودريغيز بأن القيادة البوليفية العليا في لاباز ستقرر مصير تشي في اليوم التالي.

أفاد رودريغيز «أعمل على إبقائه حياً، وهذا صعب جدا»[٣١].

حاول رودريغيز، مع انبلاج فجر اليوم التالي، أن يستجوب تشي، الذي كان جالسا على أرضية مبنى المدرسة، ووجهه بين يديه، ومعصماه وقدماه مقيدة، وجثتا اثنين من الرفاق الكوبيين إلى جانبه. تحدثا عن الاشتباك في الكونغو ومسار الثورة الكوبية. قال تشي إن كاسترو لم يقتل أكثر من ١,٥٠٠ من أعدائه السياسيين، عدا عن النزاعات المسلحة مثل خليج الخنازير. «أعدمت

الحكومة الكوبية، طبعاً، جميع زعماء حرب العصابات الذين اجتاحوا أراضيها»، قال تشي، استناداً إلى رودريغيز. «توقّف عندها مع نظرة متسائلة على وجهه، وابتسم وهو يدرك وضعه الخاص على أرض بوليفية». وتابع رودريغيز: «بأسره، تعرّضت حركة حرب العصابات لنكسة ساحقة... أصرّ على أن مثله العليا هي التي ستنتصر في النهاية... وهو لم يخطط لطريق انسحاب من بوليفيا في حال الفشل. لقد قرر على نحو قاطع أن يخسر أو يربح».

بعثت القيادة العليا، عند الـ ١,١٥ قبل الظهر، الأمر بقتل تشي. «أُعدم بزخة من الرصاص عند الـ ١,١٥ بعد الظهر»، قال رودريغيز لتيلتون عبر اللاسلكي. «كانت كلمات غيفارا الأخيرة: قولوا لزوجتي أن تتزوج من جديد، وقولوا لفيدل كاسترو إن الثورة ستنهض من جديد في الأميركتين. وقال لجلاديه، «تذكّروا أنكم تقتلون رجلاً».

كان توم بولغار ضابط الخدمة في مقر القيادة عندما اتصل تيلتون معلناً خبر إعدام تشي. «أيمكنك إرسال بصمات أصابعه؟»[٣٢]، سأل بولغار.

«يمكنني إرسال الأصابع»، أجاب تيلتون. فقد بتر جلادو تشي يديه.

يجب اعطاء الاعتبارات القصوى للحساسية السياسية

حصلت انتصارات قليلة من هذا النوع ليذيعها هيلمس وضباطه. وقد فاقها عدداً جمع كبير من الأخطاء. «مرّة أخرى خلقت عمليات «السي.آي.أيه.» مشكلة رئيسية»[٣٣]، أبلغ مكتب مصر في وزارة الخارجية لوك باتل، وكيل وزير الخارجية الجديد لشؤون الشرق الأدنى. فقد شرع الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، في الشكوى ـ وليس للمرة الأولى، وليس بدون سبب ـ من أن الوكالة تحاول الإطاحة بحكومته. وجاء في الرسالة إلى باتل أنه «يبدو أن «السي.آي.أيه.» تأمل إخفاء هذه الأحداث تحت السجادة. لا يجب السماح بحصول هذا».

عرف باتل ما يستلزمه عمل «السي.آي.أيه.» في مصر. فقد تولّى منصب

السفير الأميركي في مصر عندما قام ضابط مُحرّك أوكل أموره للتقارير، بعدم تبصّر، بفضح علاقة الوكالة مع محرر صحيفة بارز في مصر يدعى مصطفى أمين. كان أمين مقرّباً من ناصر؛ ودفعت له «السي.آي.أيه.» لقاء معلومات ومقابل نشره تقارير إخبارية مؤيدة للأميركيين. وسبق لرئيس محطة القاهرة أن كذب على السفير في شأن علاقة «السي.آي.أيه.» بأمين. «وُضع على جدول معاشات الولايات المتحدة»[٣٤]، قال باتل. «فقد اجتمع بروس أوديل (الضابط المحرّك في «السي.آي.أيه.») على نحو منتظم مع مصطفى أمين. وقد جرى التأكيد لي أنه لم يتم إجراء أي عملية تحويل أموال في مصر، لكن التقطت صورة لمثل هذا التحويل عندما تم توقيف مصطفى أمين». واحتلت القضية العناوين الرئيسية حول العالم، وأبرزت التغطية أوديل، الذي كان يعمل تحت غطاء دبلوماسي. حوكم أمين بوصفه جاسوساً، وتعرّض للتعذيب الوحشي، وسُجن لمدة تسع سنين.

حاول هيلمس بناء الثقة بـ «السي.آي.أيه.» وأمل أن يأتي الرئيس جونسون إلى لانغلي، فرجينيا، ليخطب في الجنود في مقر القيادة في أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، في خلال احتفالات بحلول الذكرى العشرين لانشاء الوكالة. لكن ليندون ب. جونسون لم يزر «السي.آي.أيه.» أبداً. وأرسل إلى الاحتفال، نائب الرئيس هامفري خطاباً تميّز بالتشجيع. قال «ستتعرضون للانتقاد»[٣٥]. لكن الأناس الوحيدين الذين لا يتعرضون للانتقاد هم أولئك الذين لا يفعلون شيئاً، وسأكره أن أرى الوكالة تبلغ تلك الحالة».

لا قدرة لـ «السي.آي.أيه.» على البقاء في ظل انتقاد متواصل من داخل الحكومة، وأقل منه من الجمهور. وهي تعتمد في بقائها على السرّية. وعندما انتهى المطاف بعمليات فاشلة إلى الصحف، تآكل ما بقي من ثقة بالوكالة.

وضع هيلمس في ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، توجيهات جديدة متشدّدة للعمل الخفي وأرسلها إلى جميع المحطات. وللمرة الأولى في تاريخ «النسي.آي.أيه.» تعطى توجيهات لرؤساء المحطات والمسؤولين عنهم كي يجانبوا الحيطة والحذر. وجاء في الأمر، «راجعوا جميع المشاريع التي لها حساسية سياسية»[٣٦]. أبلغوا

مقر القيادة بهويات «السياسيين الأجانب، من كل من الحكومة والمعارضة، إضافة إلى بعض القادة العسكريين، الذين هم على جدول المعاشات الأميركية السرّية». ليس ثمة مبلغ من المال اصغر من أن تتم الإفادة عنه. «يجب إعطاء الاعتبارات القصوى للحساسية السياسية للنشاط ولتوافقه مع السياسة الخارجية للولايات المتحدة».

وأخذ سيل النقود لعملاء أجانب محروقين، ولصحف من الدرجة الثالثة، وللأحزاب السياسية الفاشلة، وغير ذلك من العمليات غير المنتجة في الجفاف. وبدأ عدد عمليات الحرب السياسية الرئيسية في أوروبا الغربية في التناقص. وستبقى «السي.آي.أيه.» مركّزة على الحرب المشتعلة والمستعرة في جنوب شرق آسيا، وعلى الحرب الباردة في الشرق الأوسط، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية.

إلا أن حرباً أخذت تدور رحاها في الديار أيضاً. فقد طلب الرئيس للتو من هيلمس أن يشرع في أشد العمليات السياسية حساسية على الإطلاق: مهمة التجسس على أميركيين.

٢٧

تقفّوا أثر الشيوعيين الأجانب

خشي الرئيس جونسون أن الحركة المناهضة للحرب قد تُخرجه من البيت الأبيض. إلا أن الحرب ذاتها هي التي قامت بذلك في النهاية.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧، انضمت حفنة من محللي «السي.آي.أيه.» إلى مسيرة واشنطن الكبرى ضد الحرب. نظر الرئيس إلى المحتجين بوصفهم أعداء الدولة. وتكوّنت لديه قناعة بأن موسكو وبكين تسيطران على الحركة السلمية وتمولانها. أراد إثباتاً، وأمر ريتشارد هيلمس بالحصول عليه.

ذكّر هيلمس الرئيس بأنه يُحظر على «السي.آي.أيه.» التجسس على أميركيين. وقال إن جونسون أبلغه: «أنا مدرك ذلك تمام الإدراك[١]. وما أريده منك هو متابعة هذه المسألة، والقيام بما هو ضروري لاقتفاء أثر الشيوعيين الأجانب الذين يقفون وراء هذا التدخّل غير المقبول بقضايانا الداخلية». ومن المرجّح أن ليندون ب. جونسون قد عبّر عن نفسه بطريقة أكثر صراحة.

وفي انتهاك صارخ لسلطاته القانونية، أصبح مدير الاستخبارات المركزية يعمل، بدوام جزئي، رئيساً للشرطة السرّية. شرعت «السي.آي.أيه.» في عملية مراقبة داخلية، أُعطيت الاسم الرمزي الفوضى Chaos. واستمرت ما يقارب السبع سنوات. وأنشأ هيلمس مجموعة عمليات خاصة جديدة لإدارة التجسس على أميركيين، وأخفاها بمكر تحت ظلال فريق مكافحة التجسس التابع لأنغلتون. أرخى أحد عشر عميلا في «السي.آي.أيه.» شُعور رؤوسهم، وتعلموا تعابير اليسار الجديد، ومضوا لاختراق مجموعات السلام في الولايات المتحدة

وأوروبا. جمعت الوكالة فهرساً على الكمبيوتر بثلاثمئة ألف اسم لأشخاص أميركيين ومنظمات، وملفات واسعة لسبعة آلاف ومئتي مواطن. وشرعت تعمل سرّاً مع أقسام الشرطة في كل أنحاء أميركا. ولأنها لم تتمكن من التفريق بوضوح بين أقصى اليسار والمعارضة السائدة للحرب، فقد تجسست على كل تنظيم رئيسي في حركة السلام. وبناءً على أوامر الرئيس، التي عمّمها هيلمس ووزير الدفاع، حوّلت وكالة الأمن القومي قواها التنصتية الهائلة صوب المواطنين الأميركيين.

رأى كل من الرئيس والمحافظين في الكونغرس ارتباطاً بين الاحتجاجات السلمية وأحداث الشغب العنصرية التي تهزّ الولايات المتحدة. أرادوا من «السي.آي.أيه.» أن تثبت أن الشيوعيين يقفون وراء كلتيهما. وحاولت الوكالة جهدها.

أصبحت الغيتوهات الأميركية في ١٩٦٧ مناطق حرب. خرّبت أحداث شغب مُدنية متفرّقة الأمة، وأدت إلى ٨٨ قتيلاً، و١,٣٩٧ جريحاً، و١٦,٣٨٩ عملية توقيف، و٢,١٥٧ إدانة، وخسائر اقتصادية قُدّرت بـ ٥,٦٦٤ مليون دولار. قُتل ٤٣ شخصاً في ديترويت، و٢٦ في نيوارك. ملأ الهياج شوارع نيويورك، لوس أنجليس، سان فرانسيسكو، بوسطن، سينسيناتي، دايتون، كليفلاند، ياغستاون، توليدو، بيوريا، ديسموان، ويتشيتا، بيرمينغهام، وتامبا. وفي ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر، كتب السيناتور جون ماكليلان، وهو ديموقراطي من أركنساس ورئيس للجنة الفرعية الدائمة للتحقيقات في مجلس الشيوخ، إلى هيلمس ساعياً إلى دليل على أن السوفيات يُديرون حركة القوة السوداء في الولايات المتحدة. وكتب السيناتور أن «اللجنة الفرعية مهتمة جداً بعمليات مختلف التنظيمات المجاهدة في هذا البلد»(٢).

قال ماكليلان إن موسكو أنشأت «مدرسة تجسس أو تخريب للملونين في غانا، أفريقيا» وإن أميركيين عملوا فيها كمدرّبين. «ويُزعم أن هؤلاء الأساتذة أتوا من مكان ما في كاليفورنيا»، كتب السيناتور. «وسيكون من المفيد جداً للجنة الفرعية إذا أمكنت معرفة هوية أي أستاذ أميركي عاد إلى الولايات

المتحدة وكذلك هوية أي من التلاميذ... وسيتم بالتأكيد تقدير تعاونك في هذه المسألة».

تعاون الجهاز السرّي. وفي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧، بعث توم كارميسينس بإشاعة خام وغير مؤكدة من أحد كوبيي ميامي إلى البيت الأبيض. تمت إقامة «معسكر تدريب للزنوج»[٣] في أحد الشواطئ على مقربة من سانتياغو دي كوبا، حيث «يتم تدريب الزنوج على عمليات تخريب ضد الولايات المتحدة»، بحسب ما جاء في التقرير. «تتضمن مواد التدريس اللغة الإنكليزية التي يقوم بتدريسها معلمون سوفيات». وتابع «وستتضمن نشاطاتهم الإفسادية ضد الولايات المتحدة عمليات تخريب مرتبطة بأعمال الشغب العرقية، وتستهدف إشعال ثورة زنجية في الولايات المتحدة». وقال إن «١٥٠ زنجي يشاركون في برنامج التدريب، وقد وصل بعضهم بالفعل إلى الولايات المتحدة».

أصيب ليندون جونسون بغضب شديد. وقال لهيلمس، وراسك، وماكنمارا، خلال جعجعة كلام استمرت ٩٥ دقيقة بعد ظهر يوم الأحد ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، «لن أدع الشيوعيين يستولون على هذه الحكومة، وهم يقومون بذلك الآن تماماً»[٤]. لقد طفح بي الكيل لرؤية هؤلاء الناس يوضعون على متن طائرة شيوعية، ويشحنون إلى كافة أنحاء هذا البلد. أريد من أحد ما النظر بعناية إلى من يغادر هذا البلد، وإلى أين يذهبون، ولماذا يذهبون». وقد وُجهت هذه الملاحظة الأخيرة بالتخصيص إلى هيلمس.

إلا أن «السي.آي.أيه.» لم تعثر أبداً على قصاصة دليل تربط زعماء اليسار الأميركي أو حركة القوة السوداء بحكومات أجنبية. حمل هيلمس هذا الواقع غير السعيد إلى الرئيس في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧. أفاد بأنه، وبينما تشتبه «السي.آي.أيه.» ربّما في وجود علاقة تجانس لبعض يساريي أميركا مع موسكو أو هانوي، فما من دليل يُظهر «أنهم يعملون بأي توجيه من أحد آخر غير أنفسهم»[٥]. أعطى ليندون جونسن أمراً لهيلمس بتكثيف البحث. ولم ينتج هذا شيئاً سوى استمرار انتهاك ميثاق «السي.آي.أيه.»

بالنسبة إلى ملايين الأميركيين، فإن الحرب كانت تدخل بيوتهم في كل ليلة على التلفزيون. وفي ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٦٨، ضرب ٤٠٠ ألف جندي فيتنامي تقريباً كل مدينة رئيسية وحامية عسكرية في فيتنام الجنوبية. وجاء الهجوم في الليلة الأولى من تيت، السنة القمرية الجديدة، وحاصر العدو سايغون والقاعدتين الأميركيتين الرئيسيتين في هيو وخي سانه. وفي الأول من شباط/فبراير، التقطت كاميرات التلفزة والصور قائد شرطة سايغون وهو يُعدم سجيناً من الفيتكونغ بدم بارد بطلقة من مسدسه في الرأس. وتواصل الهجوم على نحو مستمر. وبرغم أن الهجوم الأميركي المضاد جاء ساحقاً ـ ١٠٠ ألف طن من القنابل سقطت حول خي سانه وحدها ـ فإن صدمة الهجوم المفاجئ شكّلت هزيمة نفسية كبيرة للولايات المتحدة. واستنتج هيلمس أنه لم يكن في وسع «السي.آي.أيه.» توقع هجوم تيت لأنها تكاد لا تملك أي استخبارات عن نية العدو(٦).

في ١١ شباط/فبراير ١٩٦٨، جمع هيلمس جميع خبراء فيتنام في مقر القيادة. اتفقوا جميعهم، ما عدا واحداً ـ جورج كارفر، الذي بقي متفائلاً، لكن ليس لفترة طويلة ـ على النقاط التالية: لا يملك الجنرال وستمورلاند، القائد الأميركي في سايغون، استراتيجية متماسكة(٧). ومن غير المفيد إرسال المزيد من الجنود الأميركيين. وإذا لم تتعاون الحكومة وجيش فيتنام الجنوبية معاً ويحاربا العدو، فعلى الولايات المتحدة الانسحاب. أرسل هيلمس جورج ألن عائداً إلى سايغون لتقدير الضرر واللقاء مع الرئيس ثيو ونائب الرئيس كاي. ووجد ألن أن الجيش الفيتنامي الجنوبي متكسّر، والزعيمين يمسكان واحدهما بخناق الآخر. لم يكن في وسع الجيش الأميركي الدفاع عن مدن البلاد، بينما الجواسيس الأميركيون مذعورون وفاقدو المعنويات. كسبت هانوي انتصارها السياسي الأكبر منذ ١٩٥٤، عندما أوقعت بالفرنسيين هزيمتهم الأخيرة في ديان بيان فو.

قدّم هيلمس شخصياً إلى الرئيس الاستنتاجات المتشائمة جداً. وقد حطّمت كل شيء ما عدا الإرادة السياسية الهائلة لدى ليندون ب. جونسون.

في ١٩ شباط/فبراير، بينما كانت هانوي تشن الموجة الثانية من هجوم تيت، تحدّث الرئيس سرّاً مع دوايت أيزنهاور. وفي اليوم التالي، أثناء فطور الثلاثاء في البيت الأبيض، أنصت هيلمس بينما الرئيس يصف المحادثة.

روى جونسون أن «الجنرال أيزنهاور قال إن وستمورلاند يتحمّل مسؤوليات أكثر من أي جنرال آخر في تاريخ هذا البلد». «سألته عن عدد الحلفاء الموجودين تحت قيادته في خلال الحرب العالمية الثانية. قال، كان لدينا، بما في ذلك القوات الأميركية والحليفة، نحو خمسة ملايين. أبلغته أن لدى الجنرال وستمورلاند ٥٠٠ ألف رجل، فكيف أنه يتحمل مسؤولية أكبر من أي جنرال أميركي؟ قال إنها حرب من نوع آخر، والجنرال وستمورلاند لا يعرف من هو العدو».

فهم ليندون جونسون أخيراً أنه ما من استراتيجية يمكنها أن تتجاوز إخفاق الاستخبارات في فيتنام. فلا يمكن الولايات المتحدة هزيمة عدو لا تفهمه. وأعلن بعد بضعة أسابيع، أنه لن يسعى إلى إعادة انتخابه رئيساً للولايات المتحدة.

الجزء الرابع

«تخلّصوا من المهرجين»

«السي.آي.أيه.» في ظل نيكسون وفورد: ١٩٦٨ إلى ١٩٧٦

٢٨

ما الذي يفعله أولئك المهرّجون في لانغلي بحق الجحيم؟

امتلك ريتشادر هيملس، في ربيع ١٩٦٨، أسباباً وجيهة ليخشى أن يصبح ربّ عمله المقبل واحداً من روبرت كنيدي أو ريتشارد نيكسون. فكنيدي، بوصفه مدعياً عاماً، أساء استخدام سلطات الوكالة. صادر «السي.آي.أيه.» وعامل هيلمس بازدراء بارد. وهو كمرشح، أو كقائد أعلى، سيشعر بأنه مهدد بالأسرار الموجودة في ملفات الوكالة. وأصيب هيلمس بصدمة حقيقية عندما اغتيل السيناتور في حزيران/يونيو، في سياق الحملة الانتخابية. لكنه لم يشعر فعلاً بالحزن. وسيحمل هيلمس، ما بقي من حياته، آثار الأسواط التي انهال بها كنيدي عليه.

أمّا ريتشارد نيكسون فمشكلة من نوع آخر. وهيلمس يدرك مدى نقمته. يعتقد نيكسون أن الوكالة ملأى بالعُلْويين الشرقيين، وبالليبراليين اللاإراديين، وبأقاويل جورجتاون، وبرجال كنيدي. وبات سرّاً مكشوفاً أن نيكسون يحمّل «السي.آي.أيه.» مسؤولية الكارثة الأكبر في حياته: سقوطه في انتخاب ١٩٦٠. اقتنع ـ عن خطأ ـ بأن الأسرار والأكاذيب التي سرّبها ألن دالاس ساعدت جون كنيدي على تسجيل نقاط حاسمة في المواجهات الرئاسية التلفزيونية. وقد كتب نيكسون في ترجمة حياته في ١٩٦٢، «الأزمات الست» *Six Crisis*، أنه لو تم انتخابه رئيساً لأنشأ منظمة جديدة من خارج «السي.آي.أيه.» للقيام بعمليات خفية[١]. شكّل ذلك تهديدا مكشوفا باقتلاع قلب الوكالة.

التقى نيكسون وهيلمس في حوارهما الطويل الأول في ١٠ آب/أغسطس ١٩٦٨[٢]. فقد دعا الرئيس جونسون المرشّح إلى مزرعته في تكساس، وأطعمه

شرائح اللحم وعرانيس الذرة، وطاف به حول المزرعة بسيارة مكشوفة، ثم طلب من هيلمس تقديم عرض لما يحصل في العالم: المواجهة بين تشيكسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي؛ دعم كاسترو المستمر للحركات الثورية؛ وأخيراً مفاوضات السلام السرّية بين الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية.

استدار نيكسون مباشرة صوب هيلمس بسؤال محدد:

«هل لا يزالون يعتقدون أننا خسرنا الحرب؟»، سأل.

«الفيتناميون الشماليون مقتنعون بأنهم انتصروا بعد ديان بيان فو»، قال هيلمس. وكان هذا آخر ما يريد نيسكون سماعه.

اتصل نيكسون، بعد ثلاثة أيام على فوزه في الانتخابات، بجونسون، وسأله «ما هو رأيك بهيلمس؟ هل كنت لتستمر معه؟»[٣]

«نعم، كنت لأفعل»، أجاب جونسون. «إنه كفؤ للغاية. وجيز. يطلعك على الأمر كما هو، وهو مخلص».

شكّلت تلك إشادة عالية. فبعد سنة ونصف السنة من تناول الطعام إلى مائدة الرئيس، حظي هيلمس بثقة جونسون وحاز شهرة في واشنطن بوصفه محترفاً ناجزاً. وهو يعتقد أن «السي.آي.أيه.»، بعد عشرين عاماً، طوّرت كادراً من المحللين الذين يمتلكون خبرة فريدة حول التهديد السوفياتي، وجهازاً خفياً قادراً على ممارسة التجسس بدون الإمساك به.

نظر إلى نفسه بوصفه جندياً مخلصاً في خدمة رئيسه. وسيكتشف هيلمس قريباً كلفة هذا الولاء.

باطنية متأصلة

«لم يثق ريتشارد نيكسون بأحد أبداً»، استفكر هيلمس بعد ذلك بعشرين سنة[٤]. «ها هو قد أصبح رئيساً للولايات المتحدة، وبالتالي رئيساً للجهاز التنفيذي، وبرغم ذلك أخذ يقول للناس باستمرار إن سلاح الجو بقصفه فيتنام

غير قادر على إصابة عجزه بيده، وإن وزارة الخارجية ليست إلا مجموعة من الدبلوماسيين يرتدون الجوخ ويشربون الكوكتيلات، والوكالة عاجزة عن الحصول على انتصار ظافر في فيتنام... وغير ذلك... إنهم بُكم، إنهم أغبياء، لا يمكنهم القيام بهذا، ولا يمكنهم القيام بذاك».

في كانون الثاني/يناير، في البيت الأبيض، بعد أيام قليلة على تولّي الإدارة الجديدة السلطة، جلس هيلمس في صمت متوتّر عند الغداء بينما نيكسون «يلقمش» بعضاً من اللبنة والأناناس المعلّب. أخذ الرئيس يتهجّم على «السي.آي.أيه.» بينما مستشاره لشؤون الأمن القومي، هنري كيسينجر، يستمع بانتباه. «لم يخامرني أدنى شك»، استذكر هيلمس، «بأن شكاوى نيكسون أثّرت في كيسينجر»(٥).

اكتشف الرئيس المنتخب والمتخرج من هارفرد، أنهما روحان توأمان. «فكلاهما باطني متأصل، إلا أن كيسنجر كان ساحرا في هذا الخصوص»(٦)، لاحظ توماس هيوز، مدير مكتب الاستخبارات في وزارة الخارجية. «كلاهما متلاعب متأصل، لكن نيسكون أكثر شفافية». توصّلا إلى تفاهم: وحدهما فقط يمكنهما تصوّر العمليات الخفية، وقيادتها، والسيطرة عليها. إذ يمكن العمل الخفي والتجسس أن يشكلا أداتين تتناسبان مع استخدامهما الشخصي. استخدمهما نيكسون لبناء قلعة سياسية داخل البيت الأبيض، وأصبح كيسينجر، بعبارات مساعده روجر موريس، رئيس الدولة بالوكالة للأمن القومي.

وقام هيلمس، كإجراء وقائي لحماية نفسه، بإنشاء لجنة من الرجال العقلاء تدعى مجموعة دراسة الأعمال الخفية ترفع إفادتها إلى الرئيس المنتخب حول قيمة الجهاز الخفي، ولصونه من الهجوم. وُضعت المجموعة بقيادة فرانكلين ليندسي، الذي سبق له أن كان اليد اليمنى لفرانك ويسنر، وكان مقرّها في هارفرد، وتجتمع سرّاً، ومن أبرز أعضائها ريتشارد بيسيل وليمان كيرباتريك. ضمّت نصف دزينة من أساتذة هارفرد الذين سبق لهم أن خدموا في البيت الأبيض، والبنتاغون، ووزارة الخارجية، و«السي.آي.أيه.» كان ثلاثة منهم على درجة كافية من القرب من زميلهم هنري كيسينجر الذي سيصبح مستشار الأمن

القومي للرئيس المقبل بغض النظر عمن يفوز في السباق، لأن كيسينجر عمل في الوقت ذاته مع كل من نيكسون وهامفري بوصفه مستشاراً خاصاً. ولم يفكّر أي من الرجلين أبداً في شخص آخر للوظيفة.

أُرّخ التقرير السرّي لمجموعة دراسة العمليات الخفية في الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨. وأعجبت واحدة من توصياته كيسينجر على نحو خاص: قالت إنه على الرئيس الجديد أن يحمّل مسؤولاً كبيراً في البيت الأبيض مسؤولية مراقبة جميع العمليات الخفية. ولن يكتفي كيسينجر بمجرد مراقبتها، بل إنه سيديرها.

حثّ التقرير الرئيس الجديد على «أن يوضح على نحو كبير لمدير «السي.آي.أيه.» أنه يتوقّع منه أن يقول «لا» عندما يحكم المدير بأنه لا يمكن تنفيذ العملية المقترحة»[٧]. ولم يأبه نيكسون أبداً بهذه النصيحة.

تابع التقرير أنه «قلّما أمكن العمليات الخفية أن تحقق وحدها أهدافاً مهمة. وفي أفضل الحالات، يمكن لها أن تكسب الوقت، أو تحول دون انقلاب، أو بخلاف ذلك خلق الظروف المؤاتية التي ستجعل من الممكن استخدام الوسائل المكشوفة للوصول في النهاية إلى الهدف المهم». لم يفهم نيكسون أبداً هذا المبدأ.

جاء في التقرير أن «شخصاً ما، أو حزباً سياسياً، أو حكومة في السلطة، يمكن أن تتعرض لإصابة خطيرة او للدمار من خلال الكشف عن المساعدة السرّية من «السي.آي.أيه.» وأن الكشف عن العمليات الخفية له، في ميزان الأمر، كلفته على الولايات المتحدة في ما يتعلّق بالرأي العام العالمي. ويبرهن الكشف، بالنسبة إلى البعض، استهانة الولايات المتحدة بالحقوق الوطنية والحقوق الإنسانية؛ وهو، بالنسبة إلى آخرين، يثبت، إذا ما تم الإمساك بنا، عجزنا وعدم كفايتنا... ويتجه الانطباع الموجود لدى الكثيرين من الأميركيين، وبخاصة في المجتمع المثقف ولدى الشبان، إلى أن الولايات المتحدة متورطة في خدع وسخة، إلى مجافاتهم لحكومتهم». وتابع التقرير أن «عمليات الكشف

في ظل هذا المناخ، خلقت فرصاً لليسار الجديد للتأثير في شريحة أوسع من الرأي العام السياسي أكثر مما كان يمكن أن يحصل في الحالة المعاكسة. فالولايات المتحدة كانت في طليعة تلك البلدان المهتمّة في توسيع حكم القانون في المسائل الدولية. ومن المؤكد أن مصداقيتنا وفاعليتنا في هذا الدور قد تضررتا باطراد، إلى درجة أنه أصبح معروفاً أننا نتدخّل سرّاً في ما قد يكون (أو يبدو أنه) الشؤون الداخلية للآخرين». وقد تعمّد نيكسون وكيسينجر تجاهل هذه الأفكار كلها.

وخلص التقرير إلى أن «انطباعنا هو أن «السي.آي.أيه.» أصبحت، على مرّ السنين، مهتمة بنفسها أكثر مما يجب. وأصبح لجميع كبار الأناس فيها تقريباً أكثر من عشرين عاماً في المنظمة... وثمة أيضاً اتجاه قوي صوب العزلة والباطنية... ونقص في التجديد والمنظورية». هذا هو القدر الذي اعتقد به نيكسون. وانطلق لاختراق هذه الدائرة الداخلية. بدأ بتسمية الجنرال البحري روبرت كوشمان، الذي كان مساعده لشؤون الأمن القومي عندما كان نائباً للرئيس، نائباً لمدير الاستخبارات المركزية في ظل هيلمس. وقضت مهمة كوشمان بالتجسس على الجواسيس الأميركيين لمصلحة الرئيس.

قامت «السي.آي.أيه.»، حرصاً منها على نيل حظوة لدى الرئيس المنتخب، بإعطاء نيكسون موجزات الاستخبارات اليومية ذاتها التي يتسلمها ليندون جونسون. وقد تكدّست، غير مقروءة في خزنة حديدية في جناح نيكسون في الطابق التاسع والثلاثين في فندق بيار أوتيل في نيويورك. وازدادت الرزمة على مدى شهر، إلى أن بعث كيسينجر بخبر في كانون الأول/ديسمبر مفاده أن نيكسون لن ينظر إليها أبداً. وأوضح أنه، من الآن وصاعداً، على كل ما تريد الوكالة قوله للرئيس، أن يمر من خلاله. ولن يرى لا هيلمس ولا أي أحد آخر من «السي.آي.أيه.» نيكسون وحده أبداً.

مارس كيسينجر، منذ البداية، سيطرة متشدّدة بازدياد على عمليات «السي.آي.أيه.». وفي ١٩٦٧ و١٩٦٨ أجرى المشرفون عليها في «لجنة ٣٠٣» نقاشات شديدة حول مسار العمل الخفي. لكن تلك الأيام ولّت. فقد سيطر

كيسينجر على كل عضو آخر في اللجنة: هيلمس، المدعي العام جون ميتشيل، والرقم الثاني في كل من وزارة الخارجية والبنتاغون. أصبح الأمر بمثابة استعراض الرجل الواحد. وعلى امتداد ٣٢ شهراً، وافقت اللجنة من الوجهة الفنية على نحو أربعين عملاً خفياً، لكنها لم تجتمع في الواقع ولا مرّة واحدة. وفي المجموع، فإن أكثر من ثلاثة أرباع برامج العمل الخفي لإدارة نيكسون لم تنظر فيها اللجنة رسميّاً أبداً. فكيسينجر هو الذي أعطى الموافقة على علميات الولايات المتحدة السوداء.

في ١٩٦٩، كما بات معروفاً جيداً، أمر الرئيس بالتنصت على مواطنين عاديين لمنع تسريب الأخبار، وللسيطرة على تدفق المعلومات داخل الحكومة. حتى أن مستشاره لشؤون الأمن القومي ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: استخدم كيسينجر «السي.آي.أيه.» أيضاً للتجسس على أميركيين، وهو واقع تحاشى، حتى الآن، تسليط انتباه التاريخ عليه.

بعدما دعت الحركة لمناهضة للحرب إلى وقف شهري للعمل، وهو يوم من تعليق للأعمال الأميركية العادية، تلقى هيلمس أمراً من كيسينجر بالتجسس على قادتها. والمذكّرة المسجلة في يوميات روبرت ل. بانرمان، وهو موظف رئيسي في مكتب الأمن في «السي.آي.أيه.»، كانت بعنوان «الدكتور كيسينجر: طلب معلومات»(٨).

جاء في المذكّرة أن «الدكتور كيسينجر قدّم طلباً يتعلق بما لدينا من معلومات حول زعماء المجموعات التي تقود يوم التوقف عن العمل في شأن فيتنام. وبعد النظر في الطلب، تم تحويله إلى [محذوف] وافق أن يصبح محور هذا التقرير الذي تم العمل عليه في خلال نهاية الأسبوع». لم يشكل الأمر استمراراً لعملية الفوضى، وهي البحث المستمر الذي تقوم به «السي.آي.أيه.» عن مصادر الدعم الخارجي للحركة المناهضة للحرب، بل كان طلبا محددا من مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي لملفات «السي.آي.أيه.» حول مواطنين أميركيين.

لا تعكس السجلات أي تردد من جانب ريتشارد هيلمس. فمنذ ١٩٦٢، أمر ثلاثة رؤساء متعاقبين مدير الاستخبارات المركزية بالتجسس على أميركيين، بصرف النظر عن ميثاق «السي.آي.أيه.». اعتقد نيكسون أن جميع الأفعال الرئاسية شرعية في مجال الأمن القومي. وقال إنه إذا قام الرئيس بالأمر، فإنه لن يعود غير شرعي. وحده جورج دبليو بوش، من بين من خلفوه، احتضن كلّياً هذا التفسير للسلطة الرئاسية المتجذّرة في الحقوق الإلهية للملوك. إلا أن إصدار الرئيس مثل هذا الأمر شيء، وأن يفعل مسؤول غير منتخب ذلك باسم الرئيس، شيء آخر.

اضرب السوفيات... واضربهم بقوّة

عمل نيكسون وكيسنجر في مستوى من السرّية أبعد من «السي.آي.أيه.». وعندما تعاطيا مع أعداء الولايات المتحدة ـ التفاوض سرّاً مع السوفيات، والصينيين، والفيتناميين الشماليين ـ لم تعرف «السي.آي.أيه.» شيئاً، أو ربما عرفت الشيء القليل عن ذلك. وثمة سبب للأمر: لم يصدّق البيت الأبيض كثيراً ما قاله خبراء «السي.آي.أيه.» عن قوى الشيوعية، وبخاصة تقدير الوكالة لقدرة الاتحاد السوفياتي العسكرية.

«لا أقصد أن أقول إنكم تكذبون في شأن الاستخبارات، أو تقومون بتحويرها، إلا إنني أريد منكم أيها الرفاق أن تحرصوا كثيراً على فصل الوقائع عن وجهات النظر»[٩]، قال نيكسون لهيلمس في اجتماع لمجلس الأمن القومي في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٦٩.

قال نيكسون، «الواقع أن التقديرات الاستخباراتية لـ ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧، و١٩٦٨ ـ وقد رأيتها كلها ـ بلغت خمسين في المئة أقل مما سيتوفّر للسوفيات، وهذا في أقل الحالات. وعلينا البدء بالوقائع، جميع الوقائع، والوصول إلى استنتاجات على أساس الوقائع الدامغة. فهل هذا مفهوم الآن؟»

استاء نيكسون عندما حاججت «السي.آي.أيه.» بأن الروس لا يملكون لا

النية ولا التكنولوجيا لشن ضربة نووية أولى قاضية. جاء هذا الاستنتاج في فورة من التقديرات الرسمية للقوات الاستراتيجية الروسية، وقد رفضها نيسكون كلّها. ووصفها بأنها «عديمة الجدوى» على هوامش مذكّرة من هيلمس حول قدرات موسكو النووية. «ترداد سطحي مغفّل لما نعرفه من الصحف اليومية»(١٠). فتحليلات «السي.آي.أيه.» طارت في وجه مخططات نيكسون لبناء منظومة صواريخ مضادة للصواريخ الباليستية، المقدمة لأوهام حرب النجوم في المستقبل. «إلى جانب من تقف الوكالة؟»(١١). هي الطريقة التي يستذكر فيها هيلمس حجّة البيت الأبيض. وبعبارات أخرى: «فلنجتمع معاً، ونشذّب الدليل».

وهذا ما فعله هيلمس بالضبط في النهاية، شاطباً مقطعاً أساسياً من أهم تقدير لـ «السي.آي.أيه.» للقوات النووية السوفياتية في ١٩٦٩. ومرّة أخرى، فصّلت الوكالة عملها ليناسب نمط سياسة البيت الأبيض. وسجّل هيلمس أن قراره مماشاة البيت الأبيض، «لم يلقَ استحساناً لدى محللي الوكالة. فأنا، من وجهة نظرهم، عرّضت بواحدة من مسؤوليات الوكالة الأساسية: الانتداب لتقويم جميع المعطيات المتوفّرة والتعبير عن الاستنتاجات، بغض النظر عن سياسات الولايات المتحدة». لكن هيلمس لن يخاطر بخوض هذه المعركة: «كنت مقتنعاً بأننا سنخسر الحجة مع إدارة نيكسون، وستتعرّض الوكالة، في هذا السياق، لضرر دائم». اشتكى محللوه من حذف كل ما يخالف، ومن الفشل في التعلّم من أخطاء الماضي». لكن لم تُطرح أي خطّة لتحسين تحليلات القدرات السوفياتية والنيات المبيتة التي قادتها.

مضت ثمانية أعوام على «السي.آي.أيه.» الآن وهي تدرس الصور الاستطلاعية لأقمار التجسس التي تراقب من الفضاء، وتحاول تركيب قطع أحجية الجهاز العسكري السوفياتي. أخذت الوكالة تعمل على الجيل المقبل من أقمار التجسس ليتم تجهيزها بكاميرات تلفزيونية. لطالما اعتقد هيلمس أن الأدوات ليست بديلاً من الجواسيس(١٢). وبرغم ذلك، فقد أكّد لنيكسون أنها ستوفّر للولايات المتحدة القدرة على التأكد من التزام موسكو بالاتفاقات التي

تم التوصل إليها في سالت، في محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية، الدائرة عندها في هلسينكي[١٣].

إلا أنه كلّما حصلت الولايات المتحدة على معطيات جديدة، كلما أصبحت الصورة الكبرى أقل وضوحاً. وانتقد نيكسون الوكالة، عن حق، لأنها استهانت، في الستينيات، بقوة النار النووية السوفياتية. وقد طرق الوكالة بشدة وتكراراً في شأن ذلك فترة رئاسته. وها إن نتيجة ذلك الضغط تتضح الآن: فعلى مدى ١٣ عاماً، من عهد نيكسون إلى الأيام الأخيرة للحرب الباردة، بالغ كل تقدير للقوات الاستراتيجية النووية السوفياتية، في المعدّل الذي تعمل بموجبه موسكو على تحديث أسلحتها[١٤].

وبرغم ذلك، اعتمد نيكسون على «السي.آي.أيه.» للتخريب على الاتحاد السوفياتي عند كل مقلب: ليس في موسكو وحسب، بل أيضاً في كل دولة على وجه الأرض.

سجّل هيلمس في مذكّرة بتاريخ ٢٥ آذار/مارس ١٩٧٠، «استدعاني الرئيس أنا وهنري كيسينجر إلى المكتب البيضاوي، بعد اجتماع اليوم لمجلس الأمن القومي، لما تبيّن أنها مناقشة من ٢٥ دقيقة لمواضيع متنوّعة، بما في ذلك سالت، لاوس، كمبوديا، كوبا، والعمليات السوداء»[١٥]. «وفي ما يتعلّق بالعمليات السوداء، أوعز إليّ الرئيس بضرب السوفيات، وضربهم بقوّة، في أي مكان يمكننا ذلك في العالم. طلب مني الشروع في الأمر وحسب، وإبقاء هنري كيسينجر على اطلاع، وأن أتمتع ما أمكن بالمخيّلة. وقد أكّد هذا كما لم يسبق لي أن سمعته يؤكّد أي شأن آخر من قبل». تشجّع هيلمس بهذه اللحظة النادرة من الانتباه الرئاسي، «واستغللتُ الظرف لأشدد بقوة على فكرة أنني أشعر على نحو قوي بأنه على الولايات المتحدة ألا تتخلى عن أي ما من شأنه أن يشكّل ضغطا على الاتحاد السوفياتي، أو يسبب له الإزعاج بدون انتزاع سعر محدد لذلك في المقابل». ووعد الرئيس بحيّز جديد من الأعمال الخفية المقترحة ضد السوفيات.

مقطع واحد فقط من الورقة التي أرسلها هيلمس إلى البيت الأبيض في الأسبوع التالي، استرعى انتباه نيكسون.

راجع هيلمس عمل «راديو أوروبا الحرة»، و«راديو ليبيرتي» ـ استثمار على مدى عشرين عاماً لأكثر من ٤٠٠ مليون دولار ـ ومقدرة الإذاعات على إبقاء نار الانشقاق مشتعلة في ما وراء الستار الحديدي. وفصّل عمل منشقّين سوفيات، أمثال عالم الفيزياء أندريه سخاروف والكاتب ألكسندر سولجنيتسين، اللذين عاودت «السي.آي.أيه.» بث ما يقولانه إلى الاتحاد السوفياتي. استمع ثلاثون مليون شخص في أوروبا الشرقية إلى «راديو أوروبا الحرة»، وبذل المواطنون السوفيات أقصى جهدهم لالتقاط «راديو ليبيرتي»، برغم أن موسكو كانت تنفق ١٥٠ مليون دولار في السنة للتشويش على تردداته. أضف إلى ذلك، أن منظمتي «أوروبا الحرة» و«ليبيرتي» وزعتا مليونين ونصف المليون كتاب ودوريّة في الاتحاد السوفياتي وأوروبا منذ أواخر الخمسينيات. والأمل هو أن تتمكن الكلمات، عبر الأثير وفي المطبوعات، من تسويق الحرية الفكرية والثقافية.

ذلك كله جيّد، لكن انقضى عهده أيضاً بالنسبة إلى نيكسون. ما التقط مخيّلة نيكسون هو قدرة «السي.آي.أيه.» على التأثير في الانتخابات.

ذكّر هيلمس الرئيس «بوجود حالات كثيرة، قمنا فيها، في ظل التهديد بفوز الحزب الشيوعي، أو الجبهة الشعبية في الانتخابات في العالم الحر، بمواجهة التهديد وتحويله بنجاح[١٦]. وغويانا في ١٩٦٣، تشيلي في ١٩٦٤، تشكلان مثالين جيدين لما يمكن إنجازه في ظل ظروف صعبة. وربما واجهتنا قريباً ظروف مماثلة في أنحاء مختلفة من العالم، ونحن مستعدون للعمل بموجب برامج انتخاب خفية مخطط لها بعناية». وهذا هو المطلوب. فالمال والسياسة موضوعان قريبان إلى قلب نيكسون.

الطريقة الوحيدة للمضي هي الطريقة القديمة

قامت الوكالة سراً بدعم سياسيين في أوروبا الغربية في خلال الحرب الباردة. وتضمّنت اللائحة المستشار الألماني ويلي براندت، ورئيس الوزراء الفرنسي غي موللي[١٧]، وكل ديموقراطي مسيحي فاز أبداً في الانتخابات العامة في إيطاليا.

صرفت «السي.آي.أيه.» عشرين عاماً وما لا يقل عن ٦٥ مليون دولار في شراء النفوذ في روما وميلانو ونابولي[١٨]. وفي ١٩٦٥، وصف ماك جورج بوندي برنامج العمل الخفي في إيطاليا بـ «العار السنوي». بيد أنه استمرّ. فالقوى الخارجية تتدخل في سياسات إيطاليا منذ قرون. وقال توماس فينا، القنصل الأميركي العام في ميلانو في عهد نيكسون، ومن قدامى الاستخبارات الأميركية والدبلوماسية في إيطاليا، إن واشنطن تتبع «تقليداً سبق للفاشيين، والشيوعيين، والنازيين، والبريطانيين، والفرنسيين، أن فعلوه من قبل». ولاحظ فينا أن «السي.آي.أيه.» أخذت «تموّل الأحزاب السياسية، وتسحب الأموال من الاحزاب السياسية، وتعطي المال لأفراد سياسيين، ولا تعطيه لسياسيين آخرين، وتدعم نشر الكتب، ومحتويات البرامج الإذاعية، والصحف، وتدعم الصحافيين». وقد امتلكت «الموارد المالية، والسياسية، والأصدقاء، والقدرة على الابتزاز»[١٩].

أحيا نيكسون وكيسينجر هذا التقليد، وشكّلت محطة «السي.آي.أيه.» في روما والسفير فوق العادة غراهام مارتن، أداة لهما.

دعا كيسينجر مارتن بـ «صاحب الدم البارد»[٢٠]، وعنى بذلك الثناء. «من الواضح أنه معجب بالشخص الذي يتمتع بالقدر ذاته من بطشه في ممارسة السلطة»، قال كبير الموظفين المسؤول عن السياسة وعن مارتن في روما، روبرت بربور. ووجد دبلوماسيون أميركيون آخرون مارتن غامضاً وغريباً[٢١]، «وزلقاً كسلّة باردة من الحنكليس»[٢٢]. وسبق لمارتن أن حوّل تمويلات مشروع مارشال إلى مال لـ «السي.آي.أيه.» في السفارة الأميركية في باريس قبل ذلك

بعشرين عاماً[٢٣]. عمل عن كثب مع «السي.آي.أيه.» عندما كان سفير في تايلاند من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٨. وما من دبلوماسي أميركي ضاهاه عشقاً للعمليات الخفية.

اعتقد نيكسون أنه رائع. وقال لكيسينجر في ١٤ شباط/فبراير ١٩٦٩، «لديّ ثقة شخصية كبرى بغراهام مارتن»[٢٤]، وقام بذلك بتحريك عجلة الأمر.

جاء تعيين مارتن سفيراً في إيطاليا، وهو من صنع أميركي يميني ثري يدعى بيير تالنتي، عاش في روما حيث جمع مئات الآلاف من الدولارات من أصدقائه وحلفائه السياسيين من أجل حملة نيكسون الانتخابية في ١٩٦٨. وفتح له هذا أبواب البيت الأبيض. مضى تالنتي لرؤية العقيد ألكسندر م. هيغ جونيور[٢٥]، المساعد العسكري لكيسينجر، لتسليم تحذير من أن الاشتراكيين على وشك تسلّم السلطة في إيطاليا، وقدم اقتراحاً بالحاجة إلى سفير أميركي جديد لمواجهة اليسار. وطرح لهذا الغرض اسم مارتن، وقد وصلت رسالته إلى أعلى الهرم. وأقنع مارتن كلاً من نيكسون وكيسينجر «بأنه الرجل المناسب تماماً لإجراء تحوّل في السياسة الإيطالية، لأنه قاس كالمسامير»، قال ويلز ستابلر، نائبه كرئيس للبعثة الدبلوماسية في روما[٢٦].

«قرر مارتن أن الطريقة الوحيدة للمضي هي الطريقة القديمة»، قال ستابلر، الذي أصبح مشاركاً متردّداً في إحياء العمل الأميركي الخفي في إيطاليا. وأضاف ان مارتن، بدءا من ١٩٧٠، وبعد حصوله على الموافقة الرسمية من البيت الأبيض ورئيسه نيكسون، أشرف على توزيع ٢٥ مليون دولار على كل من الديموقراطيين المسيحيين والفاشيين الجدد الإيطاليين. وتم تقسيم المال «في الغرفة الخلفية» ـ محطة «السي.آي.أيه.» داخل السفارة الأميركية الشبيهة بالقصر ـ من قِبل «السفير، وقبلي أنا، ورئيس المحطة»، قال ستابلر. «أعطي بعضه للأحزاب، والبعض للأفراد. وكنا، أنا ورئيس المحطة، نقترح أحياناً أمراً، إلا أن السفير هو الذي يعطي الموافقة». كان روكي ستون رئيس المحطة، وهو المحارب القديم في انقلاب إيران والمحاولة الفاشلة لقلب النظام

السوري، والذي جاء إلى روما بعدما عمل على مدى ثلاث سنوات رئيساً للعمليات في القسم السوفياتي.

سلّم ستون نحو ستة ملايين دولار إلى الاتجاه الديموقراطي المسيحي الغالب. وقال ستابلر إن ملايين إضافية ذهبت إلى لجان دفعت «بسياسات متطرفة في محافظتها» إلى الحزب. وذهبت ملايين إضافية إلى اليمين المتطرّف السرّي.

حوّل المال وجه إيطاليا السياسي، كما وعد بذلك مارتن. وفاز الرجل الذي دعمه، جيوليو أندريوتي، بانتخابات بُثت فيها أموال «السي.آي.أيه.» النقدية. إلا أن التمويل السرّي لليمين المتطرف أشعل انقلاباً فاشياً جديداً فاشلاً في ١٩٧٠. ساعد المال في تمويل عمليات اليمين المتطرف الخفية، ما في ذلك تفجيرات إرهابية، وضعت الاستخبارات الإيطالية الملامة فيها على اليسار المتطرف. وأدى أيضاً إلى أسوأ فضيحة سياسية في إيطاليا ما بعد الحرب. وجدت تحقيقات برلمانية أن الجنرال فيتو ميشيلي، رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الإيطالية، تلقى ما لا يقل عن ٨٠٠ ألف دولار من أموال «السي.آي.أيه.» النقدية. وسُجن ميشيلي لمحاولته السيطرة على البلاد بالقوة. وأمضى أندريوتي، أكثر السياسيين الإيطاليين بقاءً في عقود، سنواته الأخيرة في الحياة يقاوم اتهامات جرمية بما فيها اتهامات بالقتل.

انتهت أخيراً أيام شراء «السي.آي.أيه.» النفوذ السياسي في إيطاليا عندما غادر غراهام مارتن روما ليصبح السفير الأميركي التالي ـ والأخير ـ في فيتنام الجنوبية.

نحن مدركون ما هو على المحك

دفع نيكسون وكيسينجر، خلال ١٩٦٩ و١٩٧٠ «السي.آي.أيه.» إلى التركيز على التوسيع السرّي للحرب في جنوب شرق آسيا[٢٧]. أمراً الوكالة بتقديم جعالات بقيمة ٧٢٥ ألف دولار إلى رئيس فيتنام الجنوبية ثيو، والتلاعب في وسائل الإعلام في سايغون، وتدبير الانتخاب في تايلاند، والشروع في غارات كوماندوس في فيتنام الشمالية، وكمبوديا، ولاوس.

في برقية حادة القسوة عشية جولة عالمية حملت نيكسون عبر جنوب شرق آسيا، أبلغ هيلمس الرئيس عن حرب «السي.آي.أيه.» الطويلة الأمد في لاوس. وذكّر نيكسون بأن الوكالة «تحتفظ بقوة خفية غير نظامية قوامها ٣٩ ألف رجل تحمّلت قسطاً رئيساً من القتال الفعلي» ضد الشيوعيين. وهم من مقاتلي «السي.آي.أيه.» الهمونغ، الذين يقودهم الجنرال فانغ باو منذ ١٩٦٠. «وهذه القوى غير النظامية تعبت منذ ثماني سنوات من الأعمال الحربية المستمرة... وقد اضطر فانغ باو إلى استخدام أطفال في عمر ١٣ و١٤ سنة للتعويض عن إصاباته... وتم، على نحو كبير اجتياز الحد لما يمكن هذه الوكالة القيام به، بالمعنى شبه العسكري، لوقف التقدم الفيتنامي الجنوبي». وردّ نيكسون بتوجيه أمر إلى هيلمس بإنشاء كتيبة جديدة من شبه العسكريين التايلانديين في لاوس، لتعويم الهمونغ. وسأل كيسينجر عن أفضل مكان تقوم «البي ـ ٥٢» بقصفه في لاوس.

وبينما استعرت حربهما السرّية في جنوب شرق آسيا، وضع نيكسون وكيسينجر خططاً لتقارب سرّي مع الزعيم ماو تسي ـ تونغ. ولفتح الطريق إلى الصين، قاما بخنق عمليات الوكالة ضد النظام الشيوعي.

على مر العقد المنصرم، وباسم محاربة الشيوعية الصينية، أنفقت «السي.آي.أيه.» عشرات الملايين من الدولارات في إنزال أطنان من الأسلحة بالمظلات إلى رجال حرب العصابات التيبيتيين الذين حاربوا في سبيل زعيمهم الديني، قداسة تنزن غياتسو، الدالاي لاما الرابع عشر. وعندما أوجز ألن دالاس وديزموند فيتزجيرالد لأيزنهاور عن العملية في ١٩٦٠، «تساءل الرئيس إذا لم تكن النتيجة الصافية لهذه العمليات هي المزيد من الردود القمعية العنيفة يقوم بها الشيوعيون الصينيون»[٢٨].

لكن آيك أعطى موافقته على البرنامج. وأقامت الوكالة معسكر تدريب للمقاتلين التيبيتيين في روكي ماونتينز في كولورادو. ودفعت منحة مالية سنوية بقيمة ١٨٠ ألف دولار للدالاي لاما، وأنشأت دياراً تيبيتية في نيويورك وجنيف لتكون بمثابة سفاراته غير الرسمية. والهدف هو إبقاء حلم التيبيت الحرة حيّاً،

وفي الوقت ذاته إنهاك الجيش الأحمر في غرب الصين. وبلغت النتائج حتى تاريخه عشرات القتلى من مقاتلي المقاومة، وحقيبة ظهر واحدة مغمّسة بالدم تحتوي على وثائق عسكرية صينية، لا تُقدّر بثمن، تم الاستيلاء عليها في إحدى المعارك.

طلبت الوكالة، في آب/أغسطس ١٩٦٩، ٢,٥ مليون دولار إضافية لدعم المتمرّدين التيبيتيين في السنة المقبلة، واصفة مجموعة الألف وثمانمئة رجل شبه العسكرية، بأنها «قوة يمكن استخدامها بشدة في حالة أعمال العداء» ضد الصين[٢٩]. وسأل كيسينجر «هل يعود هذا علينا بفائدة مباشرة؟» وأجاب بنفسه عن سؤاله. إذ بينما استمرّت المنحة المالية للدالاي لاما، تم التخلي عن المقاومة التيبيتية.

ثم إن كيسينجر دمّر بقايا مهمة «السي.آي.أيه.» المستمرة منذ عشرين عاماً، والقاضية بشن عمليات خفية ضد الصين.

تراجعت غارات الكوماندوس في الحرب الكورية لتصبح عمليات بث إذاعية متقطّعة من تايبيه وسيول، ومنشورات يتم إسقاطها على البرّ، وأخبار كاذبة تُزرع في هونغ كونغ وطوكيو، وما وصفته بالوكالة بـ «نشاطات عالمية لتشويه سمعة الجمهورية الشعبية الصينية وعرقلتها». واستمرت «السي.آي.أيه.» في العمل مع الجنراليسيمو تشانغ كاي ـ تشيك في جهده الموهوم لتحرير تايوان، غير دارية بأن لدى نيكسون وكيسينجر مخططات للجلوس مع الزعيم ماو ورئيس الوزراء شو إن ـ لاي في بكين.

عندما جلس كيسينجر في النهاية مع شو، سأله رئيس الوزراء عن الحملة الأخيرة لتحرير تايوان: «أليست لـ «السي.آي.أيه.» يد فيها؟»[٣٠].

أكّد كيسينجر لشو أنه «يبالغ كثيراً في تقدير كفاية «السي.آي.أيه.»».

قال شو «لقد أصبحَتْ موضوعاً للنقاش في جميع أنحاء العالم. فكلّما حصل أمر في العالم، يتم دوماً التفكير فيها».

«هذا صحيح»، أجاب كيسينجر، «وهذا يجعلهم يغتبطون بأنفسهم، لكنهم لا يستحقّونه».

راع شو أن يعلم بأن كيسينجر وافق شخصياً على عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية، وأعرب عن ارتيابه في أن الوكالة لا تزال تخرّب الجمهورية الشعبية.

أجاب كيسينجر بأن معظم ضباط «السي.آي.أيه.» «يضعون تقارير مطوّلة وغير مفهومة، ولا يصنعون الثورة».

قال شو، «أنت تستخدم عبارة ثورة، ونحن نقول تخريبا».

«أو تخريب»، اقرّ كيسينجر. «أفهم. نحن مدركون ما هو على المحك في علاقتنا، ولن نسمح لمنظمة واحدة بالقيام بعمليات طفيفة يمكنها أن تعترض هذا المسار».

كانت تلك نهاية الأمر. ولم يعد لـ «السي.آي.أيه.» أي عمل في الصين لسنوات تلت[٣١].

الديموقراطية لا تعمل

حاربت «السي.آي.أيه.» على كل جبهة لتعويم الحرب في فيتنام. وأثمر واحد من أكبر جهودها بعد ثلاثة أسابيع على تولّي الرئيس نيكسون السلطة. فقد أدّى العمل الخفي، في شباط/فبراير ١٩٦٩، إلى إنشاء ما يشبه الديموقراطية في تايلاند.

حكمت طغمة عسكرية تايلاند على مدى أحد عشر عاماً، واستعد عشرات الآلاف من الجنود الأميركيين للمعركة ضد هانوي في القواعد العسكرية التايلاندية. لم تقم الديكتاتورية بالكثير لدعم مفهوم أن الأميركيين يقاتلون من أجل الديموقراطية في جنوب شرق آسيا.

شكّلت عملية «السي.آي.أيه.» الانتخابية، التي أُعطيت اسمها الرمزي «زهرة اللوتس»، حملة دفع أموال نقدية مباشرة. وكان صاحب فكرتها الأول هو السفير غراهام مارتن في ١٩٦٥، ووافق عليها الرئيس جونسون، وأعاد الرئيس نيكسون تجديد الثقة بها. داجنت محطّة «السي.آي.أيه.» في بانكوك الطغمة

العسكرية في اتجاه إجراء الانتخاب؛ وكانت تواجه دوماً بالرفض. وضخّت الوكالة في النهاية ملايين الدولارات إلى الحياة السياسية في تايلاند، في ١٩٦٨ و١٩٦٩؛ وموّلت النقود التحوّل الظاهري للعسكر ذوي البزات الرسمية إلى حزب حاكم على استعداد لخوض الانتخابات. كان جامع الأموال هو بوت سارازين[٣٢]: سفير تايلاند في الولايات المتحدة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٧، ورئيس منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٤، والواجهة المدنية الرئيسية للطغمة العسكرية الحاكمة.

جاءت الانتخابات وفازت بها الطغمة العسكرية الحاكمة بسهولة. إلا أنه عيل صبر الحكام من بهارج الديموقراطية، وسارعوا إلى وضع حد للتجربة، فعلّقوا الدستور، وحلّوا البرلمان. وعاد بوت سارازين إلى لعب دوره بوصفه الواجهة المدنية للأحكام العرفية في ليلة الانقلاب الأبيض، وجاء، في ذلك المساء، بالجنرالات ليشرحوا موقفهم لأصدقائهم في السفارة الأميركية في بانكوك. قالوا إنهم يحترمون مبادئ الديموقراطية التي حاولوا تطبيقها. إلا أنهم قالوا «من الواضح أن الديموقراطية لا تعمل في تايلاند اليوم»[٣٣].

شكّل عمل «السي.آي.أيه.» أرقّ غشاء. «لا يجب أن يحصل تغيير في العلاقات التايلاندية مع الولايات المتحدة»، قال كيسينجر لنيكسون بعد الانقلاب. «فزعماء المجلس الثوري هم في الواقع الأشخاص أنفسهم الذين كنا نتعامل معهم طوال الوقت». وقال «يمكننا توقّع أن برامجنا في تايلاند ستستمر بدون انقطاع».

اجعل حمقى «السي. آي. أيه.» يعملوا

أصدر الرئيس، في شباط/فبراير ١٩٧٠، أمراً عاجلاً للوكالة بالشروع بالعمل في كمبوديا. وبعد عام من التخطيط، تقرر أن تبدأ، في ١٧ آذار/مارس، حملة قصفه السرّية على أهداف يُشتبه في أنها للفيتكونغ في هذه الدولة المحايدة تقنياً. وستُسقط «البي ـ ٥٢» الأميركية ١٠٨,٨٢٣ طنّاً من القنابل على ستة

معسكرات شيوعية مشبوهة حددتها «السي.آي.أيه.» والبنتاغون ـ خطأً ـ على أنها مركز القيادة الفيتنامي الشمالي الخفي.

كان هيلمس يحاول وضع أسس محطة جديدة لـ «السي.آي.أيه.» في كمبوديا عندما استولى رئيس الوزراء اليميني، لون نول، على السلطة. وجاء الانقلاب في اليوم الذي بدأ فيه القصف السرّي، وأصاب «السي.آي.أيه.» وبقية الحكومة الأميركية بصدمة.

«ماذا، بحق الجحيم، يفعل أولئك المهرّجون في لانغلي؟»، قال نيكسون هادراً.

«اجعل حمقى «السي.آي.أيه.» يعملوا»، صاح آمراً[٣٤]. طلب من هيلمس شحن آلاف بنادق الكلاشنيكوف الآلية إلى لون نول، وطبع ملايين المناشير الدعائية، ونشر الخبر في العالم بأن الولايات المتحدة على استعداد للاجتياح. ثم أمر «السي.آي.أيه.» بتسليم ١٠ ملايين دولار إلى الزعيم الكمبودي الجديد. وقال بإصرار: «أوصلوا المال إلى لون نول»[٣٥].

طلب نيكسون تعداداً دقيقاً للأسلحة والذخائر المتدفقة إلى العدو عبر مرفأ سيهانوكفيل الكمبودي. كانت الوكالة تعمل على المسألة منذ خمس سنوات بدون نجاح. أوحى نيكسون بأنه في الإمكان وقف تدفّق السلاح في حال قامت «السي.آي.أيه.» برشوة الجنرالات الكمبوديين المناسبين. عارض هيلمس انطلاقاً من أرضية الواقع. فالجنرالات يجنون الملايين من تجارة السلاح والوكالة لا تملك التمويل اللازم لشراء ولائهم أو استئجاره. لم يتأثّر الرئيس بهذه الحجّة. وفي اجتماع ١٨ تموز/يوليو ١٩٧٠ مع مجلسه الاستشاري حول الاستخبارات، هاجم أداء الوكالة بشراسة.

قال إن ««السي.آي.أيه.» وصفت تدفّق المواد عبر سيهانوكفيل بأنه هزيل وحسب»[٣٦]. وكان المرفأ يوفّر، في الواقع، ثلثي الأسلحة الشيوعية في كمبوديا. وسأل «إذا كان يمكن ارتكاب مثل هذا الخطأ في مسألة سهلة إلى حد

ما كهذه، فكيف يمكن الحكم على تقديرات «السي.آي.أيه.» لتطورات أكثر أهمية؟».

قال نيكسون «إن الولايات المتحدة تصرف ستة مليارات دولار في السنة على الاستخبارات، وتستحق الحصول على أكثر بكثير مما تحصل عليه»(٣٧). ويسجل محضر مجلس الاستخبارات حنقه المتزايد. وقال الرئيس «إنه لا يستطيع احتمال أناس يكذبون عليه في شأن الاستخبارات(٣٨). فإذا كانت الاستخبارات لا تفي بالغرض، أو إذا كانت تصوّر وضعاً سيئاً، فإنه يريد أن يعرف في هذا الشأن، ولن يقبل أن تقدّم إليه تقويمات محرّفة».

وجاء في المحضر «أنه يدرك أن مجتمع الاستخبارات قد لُدغ بضع مرّات على نحو سيىء، ويميل بالتالي إلى جعل تقاريره بألطف ما أمكن حتى لا يتعرّض للدّغ من جديد. وهو يعتقد أنه يجب طرد أولئك المسؤولين عن التحريف المقصود للتقرير الاستخباري. وأوحى بأنه ربما جاء وقت سيضطر فيه إلى أن يتلو قانون مكافحة الشغب على كامل مجتمع الاستخبارات».

وفي هذه اللحظة الدقيقة، أمر نيكسون «السي.آي.أيه.» بتسوية الانتخابات المقبلة في تشيلي.

٢٩

حكومة الولايات المتحدة تبغي حلاً عسكرياً

بحلول ١٩٧٠، أمكن الشعور بنفوذ «السي.آي.أيه.» في كل دولة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، من حدود تكساس إلى أرض النار (Tierra del Fuego). ففي المكسيك، تعامل الرئيس حصرياً مع رئيس المحطة، وليس مع السفير، وقُدّم إليه مدير الاستخبارات المركزية إيجازاً خاصاً في رأس السنة في منزله. وفي هندوراس، تعهّد رئيسا محطتين متعاقبين سرّاً بدعم الولايات المتحدة للطغمة العسكرية، في تحدّ للسفراء الذين خدما في ظلّهم.

لم تقدّم سوى قلّة من الدول الأميركية اللاتينية أكثر من دعم كلامي لمُثُل الديموقراطية وحكم القانون[١]. واحدة من هذه القلّة هي التشيلي، حيث رأت «السي.آي.أيه.» أن التهديد الأحمر إلى تصاعد[٢].

تقدّم اليساري سالفادور أياندي في حملة انتخابات رئاسة الجمهورية المقرر إجراؤها في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. وبدت حظوظ المعتدل رادوميرو توميك، المدعوم من الديموقراطيين المسيحيين، وهم أصحاب الحظوة التقليديين لدى «السي.آي.أيه.»، كأنها بعيدة المنال. امتلك اليميني خورخي أليسندري سجلاً موالياً لأميركا، لكنه فاسد؛ ووجده السفير الأميركي إدوار كوري بأنه لا يُطاق. وألغيت جميع الرهانات.

سبق لـ «السي.آي.أيه.» أن هزمت أياندي من قبلُ. كان الرئيس كنيدي قد أقرّ برنامج حرب سياسية للتخريب عليه قبل أكثر من سنتين على انتخابات أيلول/سبتمبر ١٩٦٤ التشيلية[٣]. هيأت الوكالة الأنابيب، وضخّت ما يقارب

ثلاثة ملايين دولار في الجهاز السياسي في تشيلي. ونجح ذلك بما يقارب الدولار الواحد للصوت الذي حصل عليه المسيحي الديموقراطي إدواردو فراي. وصرف ليندون جونسون، الذي أقرّ استمرار العملية، أقل بكثير على الصوت الواحد عندما فاز بالرئاسة الأميركية في ١٩٦٤. حصلت حملة فراي على الدوافع للذهاب إلى التصويت، وعلى المستشارين السياسيين إلى جانب حقائب يد ملأى بالأموال النقدية. وموّلت «السي.آي.أيه.» جهوداً خفية مناوئة لأياندي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية والاتحادات العمالية. وعبّأت الوكالة المقاومة لأياندي في القيادة العسكرية التشيلية وفي الشرطة الوطنية. وأبلغ وزير الخارجية راسك الرئيس جونسون بأن انتصار فراي شكّل «انتصارا للديموقراطية»، تم إنجازه «جزئياً نتيجة للعمل الجيد الذي قامت به «السي.آي.أيه.»»

أمضى فراي في الرئاسة ست سنوات؛ فالدستور يحدد الحكم بولاية واحدة. وبات السؤال المطروح من جديد الآن هو كيفية وقف أياندي. أمضى هيلمس شهوراً محذراً البيت الأبيض من أنه إذا أراد إبقاء تشيلي تحت السيطرة، فعليه أن يوافق سريعاً على عملية خفية جديدة. فالفوز بانتخابات خارجية، يتطلّب وقتاً، كما أنه يتطلب مالاً. وكان لـ «السي.آي.أيه.» واحد من أكثر رجالها ديمومة وثقة يعمل رئيساً للمحطة في سانتياغو: هنري هكشر الذي تجسس على السوفيات من برلين، وساعد على الإطاحة بالنظام في غواتيمالا، وداور لاوس وأدخلها في المعسكر الأميركي. وها إنه ينصح البيت الأبيض بقوة بمساعدة ألساندري اليميني.

غرق كيسينجر في التفكير. فبين يديه حرب حقيقية تدور رحاها في جنوب شرق آسيا. لكنه أقرّ، في آذار/مارس ١٩٧٠، برنامج حرب سياسية بـ١٣٥ ألف دولار لسحق أياندي. ولاحظ، في ٢٧ حزيران/يونيو، بعدما أضاف ١٦٥ ألف دولار أخرى: «لا أرى لماذا علينا أن ندع بلداً يتحول إلى الماركسية فقط لأن شعبه لا يتمتع بالمسؤولية». ساند هزيمة أياندي، لكنه لم يدعم انتخاب أحد.

انصرفت «السي.آي.أيه.» إلى العمل في ربيع ١٩٧٠ وصيفه. وقامت، في الديار وفي الخارج، في تغذية مراسلين بارزين، عملوا كاتبي اختزال لدى

الوكالة، بالدعاية. وأفاد تقرير داخلي للوكالة بأنه «تجدر الإشارة في صفة خاصة في هذا السياق إلى موضوع غلاف «التايم» الذي يعود الفضل الكبير فيه إلى مواد مكتوبة وإيجازات قدّمتها «السي.آي.أيه.» وفي أوروبا، عمل ممثلون كبار للفاتيكان[٤] وللحزب الديموقراطي المسيحي في ألمانيا الغربية، بتكليف من «السي.آي.أيه.» من أجل وقف أياندي. وروى هيلمس أنه «طُبعت الملصقات في تشيلي، ووُزعت الأخبار، وتم التشجيع على التعليقات الافتتاحية، وألقيت المناشير، ووُزعت الكتيّبات»[٥]. وقال هيلمس ان الهدف هو إرعاب الناخبين، «للإظهار لهم أن فوز أياندي يخاطر بتدمير الديموقراطية التشيلية. إنه جهد جهيد، لكن التأثير الظاهر بدا ضئيلاً».

وجد السفير كوري عمل «السي.آي.أيه.» أنه غير محترف في شكل يدعو إلى الاشمئزاز. وقال بعد ذلك بسنوات عدّة، «لم أجد أبداً، في أي مكان في العالم، مثل هذه الدعاية المريعة في حملة انتخابية»[٦]. «أقول إنه يجب، على الفور، طرد هذا المعتوه في «السي.آي.أيه.» الذي ساهم في خلق حملة الترويع ـ وقد أبلغت ذلك لـ «السي.آي.أيه.» ـ لكونه لم يفهم التشيلي ولا التشيليين. هذا هو النوع ذاته من الأمور التي شاهدتها في ١٩٤٨ في إيطاليا».

فاز أياندي، في ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠، بالانتخاب الثلاثي الاتجاهات بهامش ١,٥، بأقل من ٣٧ في المئة من الأصوات. وكان على الكونغرس، بموجب القانون التشيلي، المصادقة على النتيجة والتأكيد على تعددية أياندي الوظائفية بعد خمسين يوماً على الانتخاب. ولا يعدو الأمر كونه مجرّد شكليات قانونية.

أنتم قد حصلتم على فيتنامكم

امتلكت «السي.آي.أيه.» الكثير من الخبرة في تسوية الانتخابات قبل التصويت، إلا أنها لم تسوّ واحدة بعده. وأمامها سبعة أسابيع لقلب النتيجة.

أعطى كيسنجر تعليماته لهيلمس بدراسة إمكان القيام بالانقلاب. الاحتمال

هزيل: فشيلي بلد ديموقراطي منذ ١٩٣٢، ولم يسع العسكر فيها إلى السلطة منذ ذلك الحين. بعث هيلمس ببرقية إلى رئيس المحطة هنري هكشر يأمره فيها بإقامة اتصالات مباشرة مع ضباط تشيليين يمكنهم تدبير أمر أياندي. لم تكن لهكشر مثل هذه العلاقات، لكنه يعرف أغوستين إدواردز، أحد أقوى الرجال في تشيلي. فإدواردز يملك معظم مناجم النحاس في البلاد؛ وكبرى صحفها «إل مركوريو»؛ ومعمل تعبئة البيبسي كولا فيها. طار إدواردز شمالاً، بعد أسبوع على الانتخابات، لرؤية صديقه العزيز دونالد كندال، رئيس مجلس إدارة بيبسي وأحد أفضل داعمي الرئيس نيكسون مالياً.

تناول إدورادز وكندال، في ١٤ أيلول/سبتمبر، القهوة مع كيسينجر، ثم «ذهب كندال إلى نيكسون طالباً بعض المساعدة لإبقاء أياندي خارج السلطة»، على ما يستذكر هيلمس[7] (نفى كندال لاحقاً هذا الدور؛ وسخر هيلمس من هذا الإنكار). التقى هيلمس مع إداوردز في منتصف النهار في هيلتون ـ واشنطن، وناقشا توقيت انقلاب عسكري على أياندي. وافق كيسينجر، بعد ظهر ذلك اليوم، على ٢٥٠ ألف دولار إضافية للحرب السياسية في تشيلي. وفي المجمل، سلّمت «السي.آي.أيه.» مباشرة ما مجموعه ١,٩٥ مليون دولار إلى إدواردز، «وإل ماركوريو»، وحرضتهما على أياندي.

سبق لهيلمس، في صباح اليوم ذاته، أن أبلغ توم بولغار، وقد أصبح الآن رئيس محطة في بوينس أيرس، أن يأخذ الطائرة المقبلة إلى واشنطن، وأن يأتي معه برئيس الطغمة العسكرية الحاكمة في الأرجنتين، الجنرال إليخاندرو لانوسي. كان الجنرال كناية عن رجل غير عاطفي أمضى، في الستينيات، أربع سنوات في السجن إثر محاولة انقلاب فاشلة. وبعد ظهر اليوم التالي، ١٥ أيلول/ سبتمبر، جلس بولغار ولانوسي في جناح المدير في مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، ينتظران عودة هيلمس من اجتماع مع نيكسون وكيسينجر.

استذكر لوغار أن «هيلمس كان متوتّراً عند عودته»، لسبب وجيه: فقد أمره نيكسون بتدبير انقلاب عسكري بدون إبلاغ وزير الخارجية، ووزير الدفاع،

والسفير الأميركي، أو رئيس المحطة. وقد خطّ هيلمس أوامر الرئيس على دفتر ملاحظات:

«ربما كانت الحظوظ واحداً إلى عشرة، لكن أنقذ تشيلي

عشرة ملايين دولار متوفّرة...

أفضل الرجال عندنا...

اجعل الاقتصاد يصرخ».

أُمهل هيملس عشرين ساعة لإعطاء كيسينجر خطّة تحرّك، وتسعين يوماً لوقف أياندي.

عرف توم بولغار ريتشارد هيلمس لعشرين عاماً. شرعا في العمل معاً في محطة برلين في ١٩٤٥. تطلع إلغار في عيني صديقه القديم ورأى فيهما ومضة يأس. واستدار هيلمس إلى الجنرال لانوسي، وسأل ما الذي يلزم طغمته للإطاحة بأياندي.

حدّق الجنرال الأرجنتيني في قائد الاستخبارات الأميركية.

«سيّد هيلمس»، قال، «إنكم قد حصلتم على فيتنامكم، لا تجعلوني أحصل على فيتنامي»[٨].

ما نحتاج إليه هو جنرال يتمتع بالجرأة

دعا هيملس، في ١٦ أيلول/سبتمبر، إلى اجتماع صباحي مبكر مع رئيس العمل الخفي لديه، توم كاراميسينس، وسبعة ضباط كبار آخرين. أعلن أن «الرئيس طلب من الوكالة منع أياندي من بلوغ السلطة، أو قلبه». وتولّى كاراميسينس القيادة العامة بالإضافة إلى الوظيفة العقوقة بإبقاء كيسينجر على اطلاع.

قسّمت «السي.آي.أيه.» عملية أياندي إلى مسار أول ومسار ثان. المسار الأول كناية عن حرب سياسية، وضغط اقتصادي، ودعاية، وعمل دبلوماسي

قاس[٩]. وهدف إلى شراء ما يكفي من أصوات مجلس الشيوخ التشيلي لوقف تكريس أياندي. وخطّط السفير كوري، في حال فشل ذلك، لإقناع الرئيس فراي بالقيام بانقلاب دستوري. وقال كوري لكيسينجر إن الولايات المتحدة، كملاذ أخير، «ستحكم على تشيلي والتشيليين بأقصى درجات الحرمان والفقر، مجبرة أياندي على تبني الملامح القاسية للدولة البوليسية»، مستثيراً بذلك انتفاضة شعبية.

شكّل الانقلاب العسكري المسار الثاني. لم يعرف كوري شيئاً عنه. لكن هيلمس خالف أمر الرئيس باستبعاد هنري هكشر، وطلب من توم بولغار العودة إلى الأرجنتين لدعمه. كان هكشر وبولغار ـ فتيا قاعدة برلين، وأفضل صديقين منذ الحرب العالمية الثانية ـ من بين أفضل ضباط «السي.آي.أيه.»، واعتقد كلاهما أن المسار الثاني يشكّل أمراً عديم الفائدة.

استدعى هيلمس رئيس محطة البرازيل، ديفيد أتلي فيليبس، لقيادة قوة تشيلي المنتدبة. وهو رجل «السي.آي.أيه.» منذ ١٩٥٠، ومن قدامى غواتيمالا وجمهورية الدومينيكان، وأفضل فنان في الدعاية في الوكالة. ولم يحمل أي أمل بالمسار الأول.

قال «كلّ من عاش في تشيلي، كما فعلت، ويعرف التشيليين، يعلم بأنك قد تتمكن من رشوة سيناتور تشيلي، أما وأن يرشو اثنين؟ فأبداً. وثلاثة؟ لا أمل في ذلك إطلاقاً. سيفضحون الأمر. إنهم ديموقراطيون، وهم على هذا النحو منذ زمن بعيد»[١٠]. أما بالنسبة إلى المسار الثاني، فقال فيليبس «إن الجيش التشيلي يشكل نموذجاً حقيقياً للاستقامة الديموقراطية». وقد أعلن قائده الجنرال ريني شنايدر أن الجيش سيطيع الدستور ويبتعد عن السياسة.

امتلك فيليبس، في المسار الأول، ٢٣ مراسلاً أجنبياً على جدول معاشاته لإثارة الرأي العام الدولي. فهو وزملاؤه من أملوا الموضوع المعادي بقوة لأياندي، الذي نُشر على غلاف «التايم». وامتلك في المسار الثاني، فريقاً من عملاء «السي.آي.أيه.» السرّيين جدا يعملون تحت لواء زائف، ويحملون

جوازات سفر مزوّرة. ادعى احدهم أنه رجل أعمال كولومبي، والآخر قال إنه مهرّب أرجنتيني، والثالث سوّق نفسه على أنه ضابط في الاستخبارات العسكرية البوليفية.

طلبت جماعة اللواء الزائف، في ٢٧ أيلول/سبتمبر، من الملحق العسكري الأميركي في السفارة، المقدّم بول فيمرت الصديق القديم لـ «السي.آي.أيه.»، مساعدتها على العثور على ضباط تشيليين يعملون على الإطاحة بأياندي. كان روبرت فيو من بين المرشحين من جنرالات قلّة حاولوا تحريك انقلاب في الماضي القريب. إلا أن الكثيرين من الضباط رفاق فيو اعتقدوا أنه معتوه خطر؛ وبعضهم ظن أنه مجنون.

أجرى أحد أعضاء فريق اللواء الزائف، في ٦ تشرين الأول/أكتوبر، محادثة طويلة مع فيو. وفي غضون ساعات، عرف السفير كوري للمرّة الأولى أن «السي.آي.أيه.» تخطط لانقلاب من وراء ظهره. وحدثت مواجهة صاخبة بينه وبين هنري هكشر. وقال السفير، «أمامك ٢٤ ساعة، فإما أن تدرك أنني أديرك، وإما أن تغادر البلد».

«إنني مرتاع»، أبرق كوري لكيسينجر. «إن أي محاولة من قبلنا للتشجيع فعليّاً على انقلاب، ستقودنا إلى إخفاق شبيه بخليج الخنازير».

كاد كيسينجر يُصاب بالسكتة، وأمر السفير بالكف عن التدخّل. ثم استدعى هيلمس مرّة أخرى إلى البيت الأبيض. وجاءت النتيجة برقية سريعة إلى محطة «السي.آي.أيه.» في سانتياغو: «اتصلوا بالجيش، وأعلموه بأن حكومة الولايات المتحدة تبغي حلاً عسكرياً، وأننا سندعمه الآن ولاحقاً... أوجدوا على الأقل نوعاً من المناخ الانقلابي... ارعوا تحرّكاً عسكرياً».

في ٧ تشرين الأول/أكتوبر، وبعد ساعات على إرسال الأمر من مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، غادر هيلمس في جولة تفتيشية من أسبوعين على محطّات سايغون، وبانكوك، وفينتيان، وطوكيو.

حاول هنري هكشر، في ذلك اليوم، إلغاء فكرة القيام بانقلاب بالاتفاق مع الجنرال فيو. وأبلغ رئيس المحطة مقر القيادة أن نظام فيو «سيشكّل مأساة لتشيلي وللعالم الحرّ... فلن يُنتج انقلاب فيو سوى حمّام دم كبير جداً». لكن هذا لم يلق سوى القليل من الصدى في واشنطن. وفي العاشر من تشرين الأول/أكتوبر، ولمّا يتبقّ سوى أسبوعين على حلول أياندي في السلطة، حاول هكشر من جديد شرح الوقائع لرؤسائه. «طلبتم منّا افتعال الفوضى في تشيلي»، كتب هكشر. «ونحن، من خلال حلّ فيو، نقدّم إليكم صيغة للفوضى من غير المرجح أن تمرّ بدون حمام دم. واضح أنه يستحيل إخفاء تورّط الولايات المتحدة. وقد نظر فريق المحطة، كما تعرفون، وعلى نحو جدي في جميع الخطط التي اقترحها نظراؤهم في مقر القيادة. ونحن نستنتج أنه ما من واحدة منها تملك حظّاً، ولو من بعيد، في بلوغ الهدف. من هنا، فإن مقامرة فيو قد تفرض نفسها عليكم، برغم عوامل الخطر الكبرى فيها».

تردّد مقر القيادة.

أبرق هكشر في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، بنبأ فحواه أن فيو يفكّر في اختطاف قائد الجيش التشيلي المتمسّك بالدستور، الجنرال شنايدر. استدعى كيسنجر كاراميسينس إلى البيت الأبيض. وفي صباح ١٦ تشرين الأول/أكتوبر، أبرق كاراميسينس بأوامره إلى هكشر:

«تقضي السياسة الثابتة والمستمرة بإطاحة أياندي في انقلاب... وتقرّر أن محاولة انقلاب يقوم بها فيو وحده مع القوى المتوفّرة له ستفشل... شجّعه على التوسّع في تخطيطه... شجّعه على جمع القوى مع مخططين آخرين لانقلاب... ثمة اهتمام كبير ومستمر في نشاطات... فالنزويلا وغيره، ونتمنى لهم حظاً سعيداً للغاية».

كان الجنرال كاميلو فالنزويلا، رئيس حامية سانتياغو، على اتصال مع «السي.آي.أيه.» قبل ذلك بستة أيام. وكشف أنه راغب، وربما قادر، لكنه خائف. ومساء ١٦ تشرين الأول/أكتوبر، كلّم أحد ضباط فالنزويلا

«السي.آي.أيه.» ساعياً إلى المال والتوجيه. قال الضابط "Qué necesitamos es un general con cojones" «ما نحتاج إليه هو جنرال يتمتع بالجرأة».

في الليلة التالية، أوفد الجنرال فالينزويلا عقيدين للاجتماع سرّاً مع العقيد فيمرت، ممثل «السي.آي.أيه.» وصاحب البزة الرسمية. قضى مخططهما ـ وهو يتطابق تقريباً مع الذي أثاره فيو أولاً ـ باختطاف الجنرال شنايدر، والطيران به إلى الأرجنتين، وحل الكونغرس، والسيطرة على السلطة باسم القوات المسلحة. حصلا على ٥٠ ألف دولار نقداً، وثلاثة رشيشات، وحقيبة ظهر ملأى بالغاز المسيل للدموع، وكلّها وافق عليها توم كاراميسينس في مقر القيادة.

في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر، مع خمسة أيام متبقّية، أشار هكشر إلى أن المسار الثاني بلغ «درجة من عدم الاحتراف. وعدم الثقة، قد يكون له معها، في الوضعية التشيلية، حظ بالنجاح». وبعبارات أخرى، عرف الكثيرون من الضباط العسكريين التشيليين أن «السي.آي.أيه.» تريد إيقاف أياندي بحيث إن احتمالات الانقلاب أخذت في التصاعد. وجاء في مذكّرة لـ «السي.آي.أيه.» مؤرخة في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، أن «جميع الأطراف العسكرية المعنية تعرف موقفنا». وعاد ريتشارد هيلمس في اليوم التالي من جولته التي استمرت أسبوعين على المحطات الآسيوية.

في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، قبل خمسين ساعة على اجتماع الكونغرس لتثبيت نتائج الانتخابات، كمنت زمرة من الرجال المسلحين للجنرال شنايدر وهو في طريقه إلى العمل. أطلقت عليه النار تكراراً، ومات تحت العملية بعد وقت قصير على تثبيت الكونغرس أياندي بوصفه الرئيس المنتخب دستورياً لتشيلي بتصويت من ١٥٣ مقابل ٣٥.

استغرقت «السي.آي.أيه.» بضعة أيام لتصوّر من قتل الجنرال شنايدر. فقد سبق لديف فيليبس، في مقر القيادة، أن افترض أن رشيشات «السي.آي.أيه.» هي التي تولّت العمل. لكن، لارتياحه الكبير، كان رجال فيو هم الذين ضغطوا على الزناد. وليس رجال فالنزويلا. وقامت طائرة «السي.آي.أيه.»، التي كان

يفترض أن تهرّب الجنرال شنايدر المخطوف إلى خارج سانتياغو، بنقل، الضابط التشيلي الذي تلقّى أسلحة الوكالة ومالها بدلاً منه. واستذكر توم بولغار أنه «جاء إلى بوينس أيرس يحمل مسدّساً في جيبه قائلاً، أواجه مشكلة كبيرة، وعليكم مساعدتي». لقد شرعت الوكالة بشراء الأصوات في تشيلي، وانتهى بها الأمر تهرّب أسلحة آلية إلى من سيصبحون قتلة.

«السي. آي. أيه.» لا تساوي لعنة

استشاط البيت الأبيض غضباً لفشل الوكالة في وقف أياندي. اعتقد الرئيس ورجاله أن دسيسة ليبيرالية داخل «السي. آي. أيه.» خرّبت العمل الخفي في تشيلي. قال الجنرال ألكسندر هيغ، وقد أصبح الآن جنرالاً واليد اليمنى التي لا يُستغنى عنها لكيسينجر، إن العملية فشلت لأن ضباط «السي. آي. أيه.» تركوا مشاعرهم السياسية «تنكّه تقويماتهم الأخيرة واقتراحاتهم للعمل العلاجي في المجال الخفي»[١١]. قال هيغ لرئيسه إنه الوقت المناسب لتطهير «الجيوب التي يسيطر عليها الجناح اليساري في ظل هيلمس»[١٢] والإصرار على «إصلاح شامل للوسائل، والوضعية، والأساس الفكري الذي على أساسه يجب العمل بالبرامج الخفية»[١٣].

حكم نيكسون بأن هيلمس يستطيع فقط الاحتفاظ بوظيفته إذا قام بتنظيف البيت. وعد المدير فوراً بصرف أربعة من نوابه الستة، محتفظاً فقط بتوم كاراميسينس للعمل الخفي، وبكارل دوكيت للعلم والتكنولوجيا. وحذّر تلميحاً، في مذكّرة إلى كيسينجر، من أن استمرار التطهير سيتهدّد معنويات رجاله وتكَرُّسهم. وردّ الرئيس بالتهديد مراراً وتكراراً باقتطاع مئات الملايين من الدولارات من مخصصات الوكالة. واستذكر جورج ب. شولتز، وكان يومها مدير موازنة الرئيس، ان «نيكسون سخط على «السي. آي. أيه.» وعلى معلوماتها الاستخباراتية السيّئة»[١٤]. وسيقول الرئيس، «أريد منكم خفض موازنة «السي. آي. أيه.» إلى ثلث حجمها الحالي. بل اجعلوها نصف حجمها الحالي. كانت تلك طريقة نيكسون في تنفيس غضبه، بدون أخذ الأمر على محمل الجد».

إلا إن نيكسون لم يكن يمزح. وقد التمس أحد مساعدي كيسينجر، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٠، منه «أن تحث الرئيس، بينك وبينه، على عدم القيام بمثل هذا الاقتطاع التعسّفي الكبير الشامل للجميع... فمقاربة القطع بالساطور قد تكون كارثية»[١٥]. إلا أن الرئيس وضع السكين على رقبة «السي.آي.أيه.» طوال السنتين التاليتين.

ثبت للبيت الأبيض أنه من الأسهل الهجوم على «السي.آي.أيه.» وعقرها، لكنه من الأصعب كثيراً إنقاذها. في ذلك الشهر، بناءً على توجيه من الرئيس، كلّف كيسينجر وشولتز شخصاً طموحاً ماهراً في استخدام الفأس في مكتب الموزانة اسمه جيمس ر. شليسينغر، قيادة مراجعة من ثلاثة شهور للأدوار والمسؤوليات التي يتحمّلها ريتشارد هيلمس. وشليسنغر، الذي ابيضَّ شعره قبل وقته في سن الأربعين، هو رفيق صف كيسينجر في هارفرد، ويعادله كلّياً في فكره، إلا أنه يفتقر إلى خاصية الخداع الضرورية. اكتسب شهرته في البيت الأبيض في عهد نيكسون بإهوائه على هشير الحكومة، وتقطيعه الأغصان الميتة فيها[١٦].

أفاد شليسينغر أن كلفة الاستخبارات ترتفع على نحو كبير جداً، ونوعيتها تتقلّص. ولا يمكن سبعة آلاف محلل غارقين في المعطيات، فرز أنماط الحاضر. ولا يمكن ستّة آلاف عنصر خفي اختراق المجالس العليا للعالم الشيوعي. وليست لمدير الاستخبارات المركزية من سلطة للقيام بأي شيء سوى إدارة العمل الخفي وإنتاج تقارير استخباراتية نادراً ما يقرأها نيكسون وكيسينجر. لم يمكن الوكالة مساندة طموحات نيكسون العالمية: فتح الباب إلى الصين؛ مواجهة السوفيات؛ وإنهاء حرب فيتنام بالشروط الأميركية[١٧]. وخلص شليسينغر إلى أنه «لا يوجد دليل إلى أن مجتمع الاستخبارات، نظراً إلى بنيته الراهنة، سيتمكن من معالجة هذا النوع من المشاكل»[١٨].

اقترح إعادة تطوير على نحو أكثر فاعلية وجذرية للاستخبارات الوطنية، وذلك منذ ١٩٤٧. وسيعمل قيصر جديد، يُعرف بمدير الاستخبارات الوطنية، في

البيت الأبيض، ويشرف على امبراطورية الاستخبارات. ويجب تقطيع أوصال «السي.آي.أيه.» وابتكار وكالة جديدة للقيام بالعمل الخفي والتجسس.

حرّك هيغ الفكرة، وكتب مذكّرة بأن ذلك سيشكّل «أكثر قتال إرادات مثير للجدل» يجري، على ما يذكر، في حكومة أميركية(١٩). والمشكلة هي أن الكونغرس هو الذي أنشأ «السي.آي.أيه.» وسيكون عليه أن يلعب دوراً في إعادة ولادتها. ولا يمكن نيكسون القبول بهذا، إذ إنه على الأمر أن يتمّ سرّاً. وأمر كيسينجر بقضاء شهر لا يفعل فيه سوى التأكد من حصول ذلك. لكنه لم يملك القابلية للأمر. وكتب مذكّرة إلى هيغ يقول فيها «أفضّل النوم على الموضوع. فليست لدي النية في أن يستنزفني».

انتهت المعركة الطويلة بعد سنة على وصول أياندي إلى السلطة. أمر الرئيس هيلمس مباشرة بتسليم إدارة «السي.آي.أيه.» إلى نائبه ـ الجنرال كوشمان، رجل نيكسون ـ وتولّي دور «الامبراطور الاسمي» للاستخبارات الأميركية(٢٠). راغ هيلمس من هذه الاندفاعة القاتلة بردّ حذق. فقد وضع كوشمان في درجة كبرى من التجميد، بحيث ان الجنرال توسّل نقله إلى منصب آخر بوصفه قائداً للمارينز. وبقيت الوظيفة الرقم اثنان خالية لستة أشهر.

وبهذا، زالت الفكرة إلا من ذهن ريتشارد نيكسون. وقال حانقاً إن «الاستخبارات بقرة مقدّسة. لم نفعل شيئاً في خصوصها منذ وجودنا هنا. فـ «السي.آي.أيه.» لا تساوي لعنة»(٢١). ووضع في رأسه التخلّصَ من ريتشارد هيلمس.

العواقب الطبيعية والمحتملة

استمرّت عملية التخريب على سلفادور أياندي. قال رجل «السي.آي.أيه.» توم كاراميسينس «إن المسار الثاني لم ينته أبداً فعلاً»، وقد عكست ملاحظاته لاجتماع ١٠ كانون الأول/ديسمبر في البيت الأبيض، ما سيصبح: «إشارة كيسينجر، في دور محامي الشيطان، إلى أن برنامج «السي.آي.أيه.» المقترح

يهدف إلى مساندة المعتدلين. وسأل: لماذا لا يتم دعم المتطرفين، بما أن أياندي يعتبر نفسه معتدلاً؟».

هذا بالضبط ما قامت به الوكالة. فقد أنفقت معظم العشرة ملايين دولار التي أقرّها نيكسون، في زرع الفوضى السياسية والاقتصادية في تشيلي. أنبتت «البذور» في ١٩٧١. فرئيس قسم أميركا اللاتينية، تيد شاكلي، العائد إلى مقر القيادة بعد عمله القصير كرئيس للمحطة في لاوس وفيتنام الجنوبية، أبلغ رؤساءه أن ضبّاطه «سيمارسون نفوذنا على قادة عسكريين ممن قد يلعبون دوراً حاسماً إلى جانب قوى الانقلاب». وبنى رئيس محطة سانتياغو الجديد، راي وارن، شبكة من رجال الجيش والمخرّبين السياسيين الساعين إلى زحزحة الجيش التشيلي عن ركيزته الدستورية. وارتكب الرئيس أياندي خطأً قاتلاً. ففي ردّ فعل على الضغط الذي تمارسه عليه «السي.آي.أيه.»، أنشأ جيش ظلّ يدعى Groupo de Amigos del Presidente أي أصدقاء الرئيس. ساند فيدل كاسترو هذه القوة، ولم يمكن الجيش التشيلي القبول بذلك.

بعد مرور ما يقارب ثلاث سنوات حتى الآن على انتخاب أياندي، قام ضابط «السي.آي.أيه.» شاب في سانتياغو اسمه جاك ديفين، وأصبح بعد سنوات كثيرة الرئيس في الوكالة للجهاز الخفي، بإرسال برقية وصلت مباشرة إلى كيسينجر الذي عيّنه نيكسون للتو وزيراً للخارجية. قالت البرقية إن الولايات المتحدة ستتلقّى في غضون دقائق أو ساعات طلباً بالمساعدة من «ضابط رئيسي في مجموعة الجيش التشيلي التي تخطط على الأرض للإطاحة بالرئيس أياندي».

حصل الانقلاب في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣. جاء سريعاً ومرعباً. ففي مواجهة الوقوع في الأسر في القصر الرئاسي، قتل أياندي نفسه ببندقية آلية هي هديّة من فيدل كاسترو. استولت ديكتاتورية الجنرال أوغوستو بينوشيه على السلطة بعد ظهر ذلك اليوم، وسارعت «السي.آي.أيه.» إلى بناء علاقة مع طغمة الجنرال العسكرية. حكم بينوشيه ببطش، قاتلاً أكثر من ٣,٢٠٠ شخص، وساجناً ومعذّباً عشرات الآلاف في عملية قمع أطلق عليها اسم قافلة الموت.

اعترفت الوكالة في بيان إلى الكونغرس بعد انتهاء الحرب الباردة، بأنه «ما من شك، في أن بعض ضباط اتصالات «السي.آي.أيه.» انخرطوا في شكل فاعل في ارتكاب انتهاكات خطيرة لحقوق الانسان»، وتغطيتها. والأهم من بينهم هو المقدّم مانويل كونتريراس، رئيس جهاز الاستخبارات التشيلية في عهد بينوشيه. أصبح عميلاً لـ «السي.آي.أيه.» مدفوع الأجر، والتقى مع كبار مسؤولي «السي.آي.أيه.» في فرجينيا بعد عامين على الانقلاب، في الوقت الذي أفادت الوكالة فيه أنه مسؤول شخصياً عن آلاف حالات القتل والتعذيب في تشيلي. ميّز كونتريراس نفسه بعمل إرهابي فريد من نوعه في ١٩٧٦: اغتيال أورلاندو ليتيلير، وهو سفير أياندي في الولايات المتحدة، ومساعده الأميركي روني موفيت. قُتلا بسيارة مفخخة على بعد ١٤ مجمعاً سكنياً من البيت الأبيض. وبعدها ابتزّ كوتريراس الولايات المتحدة بالتهديد بإطلاع العالم على علاقته مع «السي.آي.أيه.»، وأعاق طرده ومحاكمته بجريمة القتل. لم يخامر الوكالة أي شك في أن بينوشيه عرف بعملية القتل الإرهابية تلك على الأرض الأميركية، ووافق عليها.

أمسك نظام بينوشيه بالسلطة على مدى ١٧ عاماً. وبعد سقوطه، أدانت محكمة تشيلية كونتريراس بجريمة قتل لوتيلير، وأمضى عقوبة سبع سنوات في السجن. مات بينوشيه في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ عن واحد وتسعين عاماً، وهو يخضع للمحاكمة بتهمة القتل، وفي حساباته المصرفية السرّية في الخارج ٢٨ مليون دولار. ومع وضع هذا الكتاب، لا تزال تتم ملاحقة هنري كيسينجر في محاكم في تشيلي، والأرجنتين، وإسبانيا، وفرنسا، من قبل ناجين من قافلة الموت. فهو عندما كان وزيراً للخارجية، أعطاه المستشار القانوني للبيت الأبيض تحذيراً صريحاً بأن «من يحرّك محاولة انقلاب يمكن تحميله مسؤولية العواقب الطبيعية والمحتملة لهذا العمل».

قال ديف فيليبس، رئيس القوة المنتدبة لتشيلي، إن «السي.آي.أيه.» كانت عاجزة عن «تزويد الآلة بأزرار التوقّف والسير»[٢٢]. وقال في شهادة سرّية أمام لجنة في مجلس الشيوخ بعد خمس سنوات على الفشل الأول للمسار الثاني،

«اعتقدت أنه إذا حصل انقلاب عسكري، فربما تشهد سانتياغو أسبوعين من قتال الشوارع، وربما شهوراً من القتال وآلاف القتلى في الريف. يشهد الله إذا كنت متورطاً في عمل قد يؤدي إلى مقتل رجل واحد».

سأله مستجوبه: ما هو التمييز الذي وضعته بين مقتل رجل واحد في اغتيال الآلاف ومقتلهم في انقلاب؟

«سيدي»، أجاب، «ما هو التمييز الذي وضعته عندما كنت موجّه قذائف في الحرب العالمية الثانية بين الضغط على زر الهدف، وبين المئات وربما الآلاف من القتلى؟».

٣٠

سنتعرّض لعقاب شديد

بلغت الرقابة الحكومية، في عهد الرئيس نيكسون، أوجها في ١٩٧١. فقد شرعت «السي.آي.أيه.»، ووكالة الأمن القومي، و«الأف.بي.آي.»، في التجسس على مواطنين أميركيين. استخدم وزير الدفاع، ملفين ليرد، ورؤساء الأركان المشتركة استعملوا أدوات تنصت وتجسس الكترونية لمراقبة كيسينجر. ونيكسون، الذي حسّن عمل كنيدي وجونسون، دسّ في البيت الأبيض وفي كامب ديفيد، بميكروفونات متطورة تعمل على الصوت[١]. وتنصت نيكسون وكيسينجر على مساعديهما المقرّبين ومراسلي واشنطن، في محاولة لوقف التسريبات إلى الصحافة[٢].

إلا أن التسريبات ينبوع لا ينضب أبداً، إذ شرعت «النيويورك تايمز»، في حزيران/يونيو، في نشر مقتطفات مطوّلة من أوراق البنتاغون، وهو التأريخ السرّي لحرب فيتنام الذي طلبه وزير الدفاع روبرت ماكنمارا قبل أربعة أعوام. كان المصدر فتى نابغة، عمل سابقاً في مقر وزارة الدفاع، استخدمه كيسينجر مستشاراً في مجلس الأمن القومي، ودعاه إلى مجمّع نيكسون في سان كليمانتي، كاليفورنيا. استاء كيسينجر من النشر، دافعاً بنيكسون إلى حالة من الغضب المستعر، فلجأ الرئيس إلى مسؤول سياسته الداخلية، جون أرليكمان، لوقف التسريبات. فجمع فريقاً يدعى السمكريين بقيادة ضابط متقاعد حديثاً جداً من «السي.آي.أيه.» لعب أدواراً بارزة في غواتيمالا وفي خليج الخنازير.

شكّل إيفريت هوارد هانت جونيور، «شخصية فريدة من نوعها»[٣]، بحسب قول السفير سام هارت الذي التقى بهانت عندما كان رئيساً لمحطة الأوروغواي

في أواخر الخمسينيات، و«هو معتد كلّياً بنفسه، غير أخلاقي بالكامل، وخطر على ذاته وعلى كل من حوله. وبقدر ما يمكنني القول، فإن هوارد انتقل من كارثة إلى أخرى، متعالياً أكثر فأكثر، وكل شيء يطوف من خلفه تماماً». كان هانت محارباً بارداً رومانسياً شاباً عندما وقّع عقده مع «السي.آي.أيه.» في ١٩٥٠. وأصبح متعصّباً ركّز موهبته على كتابة روايات تجسس شبه محترمة. وقد مضى على تقاعده من «السي.آي.أيه.» أقل من سنة عندما عرض عليه أحد معارفه العابرين، مساعد نيكسون تشاك كولسون، وظيفة مثيرة جديدة في إدارة عمليات سرّية لحساب البيت الأبيض.

طار هانت جنوباً إلى ميامي لمقابلة رفيقه الكوبي الأميركي القديم، برنارد باركر، الذي كان يبيع العقارات، وتحادثا على مقربة من نصب تذكاري للذين قضوا في خليج الخنازير. قال باركر «وصف المهمة بأنها تتعلق بالأمن القومي»[٤]. «سألت هوارد من يمثّل، والجواب الذي أعطاني إياه يشكّل أمراً يجب أن يُذكر حقيقة في الكتب. قال إنه من ضمن مجموعة على مستوى البيت الأبيض تأتمر مباشرة برئيس الولايات المتحدة». جنّدا معاً أربعة كوبيين إضافيين من ميامي، بمن فيهم يوجينيو مارتينيز، الذي قام بنحو ثلاثمئة مهمة بحرية إلى كوبا لحساب «السي.آي.أيه.» وبقي يتلقى مئة دولار شهرياً أجرة له من مقر القيادة.

في ٧ تموز/يوليو ١٩٧١، اتصل إرليخمان هاتفياً بجاسوس نيكسون داخل «السي.آي.أيه.»، نائب المدير الجنرال كوشمان. أبلغه مساعد الرئيس أن هوارد هانت سيتصل به شخصياً ويطلب المساعدة. «أريدك أن تعلم بأنه يقوم في الواقع بأمور للرئيس»[٥]، قال إرليخمان. «ويجب أن تأخذ في الاعتبار أنه يحمل ما يشبه التفويض التام». تصاعدت مطالب هانت: أراد عودة سكريتيرته القديمة، ومكتباً مع خط هاتف مأمون في نيويورك، وطلب أجهزة تسجيل متطوّرة، وكاميرا من آلات التصوير الخاصة بـ «السي.آي.أيه.»، تراقب سرّاً عملية سطو على مكتب إلسبرغ لطب الأمراض العقلية في بفيرلي هيللز. وأراد من «السي.آي.أيه.» تظهير الفيلم. أبلغ كوشمان، متأخراً، هيلمس بأن الوكالة

سلّمت هانت مجموعة من أدوات التنكّر: شعر مستعار أحمر، جهاز لتغيير الصوت، بطاقة تعريف شخصية مزوّرة. ثم إن البيت الأبيض طلب من الوكالة تقديم نبذة نفسية عن دانيال إلسبرغ، في انتهاك مباشر لميثاق «السي.آي.أيه.» القاضي بمنع التجسس على أميركيين. لكن هيلمس استجاب.

دفع هيلمس بكوشمان إلى خارج الوكالة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١. ومضت شهور قبل أن يعثر نيكسون على المرشّح المثالي: الجنرال فيرنون والترز.

أمضى الجنرال والترز القسم الأكبر من عشرين عاماً وهو يسيّر مهمات سرّية للرؤساء، إلا أن هيلمس لم يلتق به أبداً قبل وصوله في ٢ أيار/مايو **١٩٧٢** بوصفه نائب المدير الجديد للاستخبارات المركزية. وروى الجنرال والترز، «جئت للتو من تسيير عملية لم تعرف «السي.آي.أيه.» شيئاً في شأنها»[٦]. «وقال هيلمس، الذي أراد شخصاً غيره، سمعت عنك؛ ما الذي تعرفه عن الاستخبارات؟ قلت، حسناً، تفاوضت على مدى ثلاث سنوات مع الصينيين والفيتناميين، وهرّبت هنري كيسينجر ١٥ مرّة إلى باريس بدون أن تعرف أنت أو أي أحد في الوكالة شيئا عن ذلك». أثرّ ذلك، كما يجب، في هيلمس. إلا أنه سرعان ما أصبح لديه سبب للتساؤل عن ولاءات نائبه الجديد.

ستسقط كلّ شجرة في الغابة

في وقت متأخر من ليل السبت ١٧ حزيران/يونيو **١٩٧٢**، اتصل رئيس مكتب الأمن في «السي.آي.أيه.» هوارد أوزبورن بهيلمس في منزله. علم المدير بأنه لا يمكن أن يشكّل ذلك خبراً طيّباً. وهاكم كيف يتذكّر المحادثة:

«ديك، هل ما زلت مستيقظاً؟»[٧]

«نعم، هوارد».

«علمت للتو بأن الشرطة قبضت على خمسة رجال في عملية سطو على المقر الوطني للحزب الديموقراطي... أربعة كوبيين وجيم ماكورد».

«ماكورد؟ هل تقاعد من عندك؟».

«منذ عامين».

«ماذا بالنسبة إلى الكوبيين. ميامي أو هافانا؟».

«ميامي... وقد أصبح لهم في البلاد بعض الوقت».

«هل نعرفهم؟».

«لا يمكنني، حتى الآن، القول».

«اتصل أول ما يكون بجماعة العمليات... اجعلهم يذهبوا إلى ميامي. تحقق من كل سجل هنا وفي ميامي... هل هذا كل ما في الأمر؟

«لا، ولا نصفه»، قال أوزبرون بمشقّة. «يبدو أن هوارد هانت متورّط أيضاً».

التقط هيلمس نَفَسَاً عميقاً لدى سماعه باسم هانت. «ما الذي، بحق الجحيم، كانوا يفعلونه؟»، سأل. وامتلك فكرة واضحة: ماكورد خبير في التنصت الالكتروني، وهانت يعمل لنيكسون، والتهمة هي التنصت، وهي جريمة فدير الية.

تقفّى هيلمس، وهو جالس على حافة السرير، أثر مدير «الأف.بي.آي.» بالوكالة، ل. باتريك غراي، في أحد فنادق لوس أنجلس. فقد مات ج. إدغار هوفر قبل ذلك بستة أسابيع بعد ٤٨ سنة في السلطة. أبلغ هيلمس، بحذر شديد، غراي أن البيت الأبيض استخدم لصوص ووترغيت، وليس لـ «السي.آي.أيه.» أي شأن معهم؟ أفهمت ذلك؟ حسناً، ليلة سعيدة إذاً.

عقد هيلمس، يوم الاثنين في ١٩ حزيران/يونيو، اجتماع التاسعة صباحاً لكبار ضباط «السي.آي.أيه.» في مقر القيادة. واستذكر بيل كولبي، وقد أصبح الآن المدير التنفيذي لـ «السي.آي.أيه.»، أي الرجل الثالث فيها، قول هيلمس: «ستتعرّض لعقاب شديد»(٨)، لأن هؤلاء من السابقين» ـ أي من رجال «السي.آي.أيه.» السابقين ـ وقد «عرفنا أنهم يعملون في البيت الأبيض». وفي

صباح اليوم التالي، «وضعت الواشنطن بوست» مسؤولية ووترغيت عند أبواب المكتب البيضاوي، برغم أنه، لغاية تاريخه، لا يعرف أحد حقيقة إذا كان ريتشارد نيكسون قد سمح بعملية الاقتحام.

طلب نيكسون يوم الجمعة في ٢٣ حزيران/يونيو، من رئيس موظفيه الفعّال في شكل غاشم، هـ. ر. هالدمان، دعوة هيلمس ووالترز إلى البيت الأبيض وإعطائهما الأمر بالتلويح لـ «الأف.بي.آي.» بالابتعاد باسم الأمن القومي. قررا في البداية التعاون، وهي عملية خطرة جداً. اتصل والترز بغراي وطلب منه التنحّي. إلا أنه تم في يوم الاثنين ٢٦ حزيران/يونيو اجتياز الحدود، عندما أمر محامي نيكسون، جون دين، والترز بالمجيء بمبلغ كبير من مال الرشوة، الذي لا يمكن تقفّي أثره، من أجل قدامى «السي.آي.أيه.» المسجونين الستة. وكرر دين الطلب في يوم الثلاثاء. وأبلغ الرئيس لاحقاً أن ثمن الصمت سيكون مليون دولار على امتداد سنتين. وحده هيلمس ـ أو والترز، عندما يكون هيلمس خارج الولايات المتحدة ـ يمكنه السماح بعمليات دفع سرّية من الموازنة السرّية لـ «السي.آي.أيه.» كانا المسؤولين الوحيدين في الحكومة الأميركية اللذين يمكنهما قانونياً تسليم حقيبة تحتوي على مليون دولار من النقد السرّي إلى البيت الأبيض، ونيكسون يعرف ذلك.

«يمكننا الحصول على المال في أي مكان في العالم»، قال هيلمس مستفكراً[٩]. «فنحن ندير عملية تحكيم كاملة، ولا نحتاج إلى غسل الأموال... أبداً». لكن، إذا قامت «السي.آي.أيه.» بتسليم النقود، «فالنتيجة ستكون نهاية الوكالة»، قال. «ولم أكن لأذهب إلى السجن وحسب لو أنني ماشيت البيت الأبيض في ما يريد منا القيام به، بل إن مصداقية الوكالة كانت ستُدَّمر إلى الأبد أيضا».

رفض هيلمس. ثم هرب، في ٢٨ حزيران/يونيو، من واشنطن، في جولة من أسبوعين إلى مراكز الاستخبارات المتقدمة في آسيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، تاركاً والترز يلعب دور المدير بالوكالة. مرّ أسبوع. بدأ عملاء «الأف.بي.آي.» اللجوجون في التمرّد على أوامرهم بالتنحّي. وأبلغ غراي والترز أنه سيحتاج إلى

أمر خطّي من «السي.آي.أيه.» يلغي التحقيق على أساس الأمن القومي. وها إن الرجلين يدركان الآن مخاطر الأثر المكتوب. تحادثا في ٦ تموز/يوليو. وبعد ذلك بوقت قصير اتصل غراي بالرئيس في استراحته في سان كيلمانتي. وأبلغ نيكسون، «ثمة أناس في فريقك يحاولون إصابتك بجروح قاتلة» من خلال التلاعب بـ «السي.آي.أيه.» تبع ذلك صمت مريع. وعندها طلب الرئيس من غراي المضي في التحقيق.

بعد وقت قصير على عودة هيلمس من جولته في أواخر تموز/يوليو، بعث جيم ماكورد، الذي ينتظر المحاكمة ويواجه خمس سنوات في السجن، برسالة عبر محاميه إلى «السي.آي.أيه.» قال فيها إن رجال الرئيس يريدون منه أن يشهد أن عملية اقتحام ووترغيت هي من صنع الوكالة. وقال له أحد مساعدي البيت الأبيض، دع «السي.آي.أيه.» «تأكل العلقة»، وسيتبع ذلك عفو رئاسي. وردّ ماكورد برسالة: «إذا ذهب هيلمس وتم تحميل «السي.آي.أيه.» مسؤولية ووترغيت، وهذا غير صحيح، فإن كل شجرة في الغابة ستسقط. ستصبح هناك صحراء قاحلة. والمسألة برمّتها الآن عند حافة الهاوية. مرّر الرسالة بأنهم إذا أرادوا للأمر أن ينفجر، فإنهم يسلكون تماماً المسار الصحيح».

عرف الجميع أننا سنواجه وقتاً عصيباً

أعيد، في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢، انتخاب الرئيس نيكسون في واحد من أكبر النجاحات الساحقة في التاريخ الأميركي. وتعهّد في ذلك اليوم أن يدير «السي.آي.أيه.» ووزارة الخارجية، في ولايته الثانية، بقبضة من حديد، وتدميرهما وإعادة بنائهما على صورته.

اقترح كيسينجر في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر، استبدال هيلمس بجيمس شليسينغر، وكان يومها رئيساً للجنة الطاقة الذرّية(١٠). «فكرة جيدة جداً»، أجاب نيكسون(١١).

وفي ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، قال لكيسينجر إنه ينوي «تدمير الجهاز

الخارجي. أقصد تدميره ـ الجهاز الخارجي القديم ـ وإنشاء واحد جديد. سأقوم بذلك»[١٢]. واستقر رأيه على رجل من الداخل للقيام بالعمل: أحد قدامى «السي.آي.أيه.» وبطل جمع الأموال، الجمهوري وليام ج. كايسي. وقد سبق لكايسي، في ١٩٦٨، أن ألحّ على الرئيس المنتخب نيكسون أن يجعله مديراً للاستخبارات المركزية، لكن نيكسون سلّمه بدلاً من ذلك رئاسة لجنة حماية الاستثمارات، وهو قرار محنّك لقي استحسان غرف مجالس الإدارة في شتى أنحاء أميركا. وسيتم الآن، في ولاية نيكسون الثانية، تعيين كايسي نائباً لوزير الخارجية للشؤون الاقتصادية. إلا أن مهمته الحقيقية هي العمل بوصفه المخرّب الذي يعمل لحساب نيكسون... «لاقتلاع الوزارة»، قال نيكسون[١٣].

طرد نيكسون ريتشارد هيلمس في ٢٠ تشرين الثاني، في خلال اجتماع قصير ومحرج في كامب ديفيد. وعرض عليه منصب السفير في الاتحاد السوفياتي. حل صمت غير مريح بينما هيلمس يفكّر في التشعبات. «انظر، سيدي الرئيس، لا أعتقد ان إرسالي إلى موسكو هو بالفكرة الجيدة»، قال هيلمس[١٤]. «حسناً، ربّما لا»، أجاب نيكسون. واقترح هيلمس إيران بدلاً من ذلك، وحثّه نيكسون على القبول. وتوصلا أيضاً إلى تفاهم بأن هيلمس سيبقى حتى آذار/مارس ١٩٧٣، وهي ذكرى ميلاده الستين، وسن التقاعد القانونية في «السي.آي.أيه.». ونكث نيكسون بهذا التعهد، وهو فعل قساوة لا مبرر له. «كان الرجل هراء»، قال هيلمس مرتجفاً بعض الشيء من الغضب وهو يروي الحكاية.

بقي هيلمس يعتقد حتى يوم مماته أن نيكسون طرده لأنه رفض التورط في ووترغيت. لكن السجلات تُظهر أن نيكسون قرّر قبل الاقتحام بوقت طويل أن يرمي بهيلمس ويقوّض «السي.آي.أيه.»... بل إن الرئيس اعتقد في الواقع أن هيلمس هو الذي يحاول النيل منه.

قام صديق نيكسون ومساعده السابق فرانك غانون بسؤاله بعد عقد من ذلك، «هل تعتقد بوجود، أو بإمكان وجود، مؤامرة من «السي.آي.أيه.» لإخراجك من السلطة؟»[١٥].

«كُثر هم الناس الذين يعتقدون ذلك»، أجاب نيكسون. «امتلكت «السي.آي.أيه.» الدافع. ليس سرّاً أنني كنت مستاءً منها، ومن تقاريرها، وبالأخص من تقديراتها للقوة السوفياتية ولمشاكلنا حول العالم... أردت التخلص من بعض الأغصان اليابسة وإلى ما هنالك. وهم عرفوا ذلك. وبالتالي، امتلكوا الدافع».

«هل تعتقد أنهم خافوا منك؟»، سأل غانون.

«ما من شك في ذلك»، أجاب نيكسون. «وامتلكوا السبب لذلك».

في ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر، عرض نيكسون رئاسة «السي.آي.أيه.» على جيمس شليسينغر الذي وافق على اقتراح الرئيس بسرور. وقال هيلمس إن نيكسون سُرّ «لوضع رجله في الداخل ـ أعني رجلاً وشم حرفي ر. ن. على جسمه ـ وهو شليسينغر»[١٦]. وقضت الأوامر المعطاة لشليسينغر ـ على غرار أوامر كايسي في الخارجية ـ بقلب المكان رأساً على عقب. «تخلّص من المهرّجين»، واصل الرئيس توجيه الأمر. «ما النفع منهم؟ لديهم ٤٠ ألف شخص هناك يقرأون الصحف»[١٧].

أملى الرئيس في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر، مذكّرة تحدّد المهمة. وبرغم أن كيسينجر أراد السيطرة على الاستخبارات الأميركية، قال نيكسون إنه «على شليسينغر أن يكون الرجل المسؤول»[١٨]. وإذا ما تكوّن أبداً لدى الكونغرس «الانطباع بأن الرئيس حوّل جميع النشاطات الاستخبارية إلى كيسينجر، فستنفتح أبواب الجحيم كلها. أما إذا قمت، من جانب آخر، بتسمية المدير الجديد لـ «السي.آي.أيه.» شليسينغر كبير مساعديّ لنشاطات الاستخبارات، فسنتمكن من تمرير ذلك في الكونغرس. وهنري ليس لديه الوقت وحسب... لقد عملت عليه وعلى هيغ لأكثر من ثلاثة أعوام لإعادة تنظيم الاستخبارات بدون أي نجاح على الإطلاق». شكّل ذلك صدى قوياً لآخر استشاطة غضب لأيزنهاور في آخر رئاسته، وتنفيسه حنقه بسبب «هزيمة السنوات الثماني التي أصيب بها» في معركته لإعادة تكوين الاستخبارات الأميركية.

خشي هيلمس، في آخر أيامه في المنصب، أن نيسكون والموالين له سيقلبون ملفات «السي. آي. أيه.»، وبذل كل ما في وسعه لاتلاف مجموعتين من الملفات السرّية التي كان يمكنها أن تدمّر الوكالة. إحداهما لكن الآثار المكتوبة لتجارب السيطرة على الذهن باستخدام «أل.أس.دي.» وعقاقير أخرى غيرها التي وافق عليه هو وألن دالاس شخصياً قبل ذلك بعقدين. قلة قليلة من هذه السجلات نجت.

وكانت الثانية مجموعته الخاصة من التسجيلات السرّية. فقد سجّل هيلمس مئات المحادثات في مكتبه الإداري في الطبقة السابعة علىٰ مدى السنوات الست، والشهور السبعة التي عمل فيها مديراً للاستخبارات المركزية. وقد تم إتلاف كل واحد منها مع حلول تاريخ رحيله الرسمي في ٢ شباط/فبراير ١٩٧٣.

«عندما غادر هيلمس المبنى، احتشد جميع الجنود عند مدخل مقر القيادة لوداعه»، قال سام هالبرن، وكان يومها كبير المساعدين في الجهاز الخفي. «لم تبق عين جافة واحدة في المكان كله. وقد عرف الجميع أننا سنواجه زمناً عصيباً بعد ذلك»[١٩].

٣١

لتغيير مفهوم الاستخبارات السرّية

بدأ انهيار «السي.آي.أيه.» كجهاز استخبارات سرّي في يوم مغادرة هيلمس ووصول جيمس شليسينغر إلى مقر القيادة.

أمضى شليسينغر ١٧ أسبوعاً مديراً للاستخبارات المركزية. وقام في تلك الفترة بعملية تطهير شملت خمسمئة محلّل وأكثر من ألف شخص من الجهاز الخفي. وتلقّى ضبّاط يخدمون في ما وراء البحار برقيات غير موقّعة تُبلغهم أنه تم فصلهم. ووصلته، ردّاً على ذلك، تهديدات مغفلة بالموت، فأضاف حرّاساً مسلحين إلى جهاز حمايته.

عيّن بيل كولبي رئيساً جديداً للجهاز الخفي، ومن ثم أجلسه ليشرح له أن الوقت حان «لتغيير مفهوم الاستخبارات السرّية»[1]. «حان وقت التكنوقراطية، وولّى زمن قدامى الشبان المشاركين في اللعبة منذ ٢٥ عاماً». وروى كولبي «أنه بالغ في الارتياب في دور العملاء السرّيين ونفوذهم. شعر بأن الوكالة أصبحت، تحت سيطرتهم، مغتبطة بنفسها ومتبجّحة، وأنه يوجد بالفعل الكثير، أكثر مما ينبغي، من قدامى الفتيان هؤلاء في الجوار لا يفعلون سوى العناية ببعضهم البعض، يلعبون لعبة التجسس، ويعيدون في مخيّلتهم إحياء الأيام الهانئة».

حاجج قدامى الفتيان بأن كل مظهر من مظاهر عمل «السي.آي.أيه.» في ما وراء البحار، يشكّل جزءاً من الصراع ضد السوفيات والصينيين الحمر. وسواء أكنت في القاهرة أم في كاتماندو، فإنك تحارب على الدوام موسكو وبكين. لكن، أين المقصد من ذلك عندما يتبادل نيكسون وكيسينجر الأنخاب مع زعماء

العالم الشيوعي؟ فالسلام أصبح في متناول اليد. وسياسة الرئيس للوفاق الدولي آخذة في تقويض زخم الجهاز الخفي للحرب الباردة.

شرع كولبي سريعاً في إجراء مسح لقدرات «السي.آي.أيه.» فنصف موازنتها خُصّصت قبل ذلك بعقد للعمليات الخفية. وأخذ هذا الرقم في الانخفاض إلى ما دون العشرة في المئة في عهد نيكسون. ذوى نشاط تجنيد المواهب الجديدة، والسبب في ذلك هو حرب فيتنام. ولم يساعد المناخ السياسي على استخدام متخرجين شبان بارعين جدد؛ ومُنع عدد متزايد من الكليات الجامعية مُجَنِّدي «السي.آي.أيه.» من المجيء استجابة للطلب الشعبي. وعنت نهاية التجنيد العسكري وقفاً لطوابير الضباط الشبان المتعاقبين في صفوف «السي.آي.أيه.».

ظلّ الاتحاد السوفياتي أقرب إلى الأرض المجهولة بالنسبة إلى الجواسيس الأميركيين. وكانت كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية أرضاً مقفلة. اشترت «السي.آي.أيه.» أفضل معلوماتها من أجهزة استخبارات خارجية حليفة، ومن زعماء في العالم الثالث امتلكتهم كلّياً. كان ذلك أكثر فاعلية عند حافة السلطة، لكنها كانت بمثابة مقاعد رخيصة الثمن تحجب رؤية المسرح العام.

كان القسم السوفياتي لا يزال مشلولاً بسبب نظريات المؤامرة لجيم أنغلتون، الذي بقي مسؤولاً عن مكافحة التجسس الأميركية. وقال عضو «السي.آي.أيه.» هافيلاند سميث، الذي قاد في الستينيات والسبعينيات عمليات ضد الهدف السوفياتي، إن «انغلتون خرّبنا. أخرجنا من العمل السوفياتي». وقضت إحدى مهمات بيل كولبي التعيسة، بأن يضع تصوّراً لما يفعله بصائد الجواسيس المدمن على الكحول، الذي توصّل الآن إلى استنتاج بأن كولبي نفسه جاسوس مزروع لموسكو. حاول كولبي إقناع شليسينغر بفصل أنغلتون من الخدمة. لكن المدير الجديد اعترض بعدما استمع إلى الإيجاز.

أخذ أنغلتون، ببزته الداكنة ومكتبه العابق بالدخان، رئيسه الجديد في جولة من خمسين عاماً، في عودة إلى بدايات الشيوعية السوفياتية، وإلى العمليات الموجعة المُعَدّة بعناية والمناورات السياسية التي قادها الروس ضد الغرب في

العشرينيات والثلاثينيات، وعبر عمليات العملاء المزدوجين الشيوعية وحملات التعمية في الأربعينيات والخمسينيات، منتهياً بالتخمين أن موسكو اخترقت «السي.آي.أيه.» نفسها في الستينيات على أعلى المستويات، أو ما يقاربها. باختصار، فإن العدو أحدث ثغرة في دفاعات «السي.آي.أيه.» وحفر فيها عميقاً(٢).

ابتاع شليسينغر الإيجاز، وقد أذهل من فرط الإعجاب بجولة أنغلتون الموجّهة على الجحيم.

من خارج الميثاق المشروع لهذه الوكالة

قال شليسنغر إنه نظر إلى «وكالة الاستخبارات المركزية، بواو ضغيرة، وألف صغيرة، وميم صغيرة»(٣). وهي لم تعد أكثر من «جزء ما من فريق مجلس الأمن القومي» في عهد كيسينجر. قرر تسليمها إلى نائب المدير فيرنون والترز بينما هو يتولّى أقمار التجسس التابعة لمكتب الاستطلاع القومي، ومارد التنصّت الالكتروني التابع لمكتب الأمن القومي، والتقارير العسكرية الصادرة عن وكالة استخبارات الدفاع. كما صمم على لعب الدور الذي تخيّله في تقريره إلى الرئيس، وصفه مدير الاستخبارات الوطنية.

إلا أن طموحاته الكبرى تحطّمت على صخرة جرائم البيت الأبيض الكبرى وجنحه. وقال شليسينغر إن «قضية ووترغيت أخذت تطغى تقريباً على كل ما عداها، وأخذت الرغبات التي تكوّنت لديّ في البداية في الغرق تدريجاً في الحاجة وحسب إلى حماية الوكالة وتدبير خلاصها».

امتلك إدراكاً غير مألوف لكيفية إنقاذها.

اعتقد شليسنغر أنه تم إطلاعه على كل ما تعرفه الوكالة في شأن ووترغيت. وأصيب بصدمة عندما شهد هوارد هانت أنه وسمكرييه نقّبوا مكتب دانيال إلسبرغ للعلاج النفسي بمساندة تقنية من «السي.آي.أيه.» وأظهرت مراجعة الوكالة لملفاتها الخاصة، نسخة عن الفيلم الذي ظهّرته لهانت بعد مراقبته المكتب

بقصد السطو. وكشف المزيد من المراجعة عن رسائل من جيم ماكورد إلى «السي.آي.أيه.»، يمكن تفسيرها بأنها تهديد بابتزاز رئيس الولايات المتحدة.

سبق لبيل كولبي أن قفز إلى ما وراء خطوط العدو مع «الأو.أس.أس.»، وأمضى ستة أعوام يشرف على قتل الشيوعيين في فيتنام. وهو لا يتأثر بسهولة لمجرّد العنف الكلامي. إلا أنه وجد نوبة غضب شليسينغر مهولة. وأمر المدير «اطرد الجميع إذا تطلّب الأمر ذلك، اقلب المكان رأساً على عقب، انتزع الألواح التي تغطّي الأرض، اكشف كلّ شيء». ثم خطّ شليسينغر مذكّرة إلى كل موظّف في «السي.آي.أيه.» شكّلت هذه الملاحظة واحداً من أخطر القرارات التي لم يسبق أبداً لمدير للاستخبارات المركزية ان اتخذها[٤]. وهذا هو الإرث الذي اختار أن يتركه:

وجّهت الأمر إلى جميع كبار المسؤولين العملانيين في هذه الوكالة، أن يبلغوني فوراً بأي نشاط جار، أو حدث في الماضي، وقد يؤوّل على أنه خارج على الميثاق الشرعي لهذه الوكالة.

وأنا بهذا أوعز إلى كل شخص موظّف حالياً في «السي.آي.أيه.» بأن يبلغني عن أي نشاط من هذا النوع يعرف به. وأدعو جميع الموظفين السابقين إلى القيام بالمثل. وعلى كل من يملك مثل هذه المعلومات أن يتّصل... ويقول إنه يريد أن يُطلعني على «نشاطات خارجة على الميثاق».

كان ميثاق «السي.آي.أيه.»، الغامض بإفراط، واضحاً في نقطة واحدة: لا يمكن الوكالة أن تصبح الشرطة السرّية الأميركية[٥]. بيد أن «السي.آي.أيه.» أصبحت، في سياق الحرب الباردة، تتجسس على المواطنين، وتتنصت على هواتفهم، وتفتح بريد الدرجة الأولى، وتتآمر لارتكاب القتل بأوامر من البيت البيض.

حمل أمر شليسينغر تاريخ ٩ أيار/مايو ١٩٧٣، على أن يُعمل به فوراً. وفي اليوم ذاته شرعت ووترغيت في تدمير ريتشارد نيكسون. أُجبر على طرد حرّاس قصره، ووحده بقي الجنرال ألكسندر هيغ، رئيس موظفي البيت الأبيض المعين

حديثاً. وبعد ساعات على صدور الأمر، اتصل هيغ بكولبي ليعلمه بأن المدعي العام سيستقيل، وأن وزير الدفاع سيتولّى وظيفته، وأن شليسينغر سيغادر «السي.آي.أيه.» إلى البنتاغون، وأن الرئيس يريد لكولبي أن يصبح المدير التالي للاستخبارات المركزية. عاشت الحكومة حالة من الاختلال أدت إلى أن كولبي لم يقسم اليمين إلا في أيلول/سبتمبر. فطوال أربعة أشهر، أصبح الجنرال والترز المدير بالوكالة وكولبي المدير المُعيّن، هي حالة عسيرة للأمور.

أصبح كولبي الآن في الثالثة والخمسين، ووراءه ثلاثون عاماً في «الأو.أس.أس.» و«السي.آي.أيه.». وشكل طوال حياته البالغة تجسيداً للعمل الخفي. أُجبر في خلال ربيع **١٩٧٣** على العمل بوصفه القاتل المأجور لدى شليسينغر، مستدعياً رفاقه الضباط ليسلمّهم أوراق الصرف من الخدمة. ووسط ذلك كله، ذوت أمامه ابنته الكبرى، وهي في أواسط العشرين، وماتت من مرض انتفاء اشتهاء الطعام. جلس كولبي، في **٢١** أيار/مايو، وأخذ يقرأ التوليفة الأولى لجرائم «السي.آي.أيه.»،والتي وصلت في مآل الأمر إلى **٦٩٣** انتهاكاً محتملاً. وكانت جلسات الاستماع العامة لمجلس الشيوخ حول ووترغيت، قد بدأت في ذلك الأسبوع. وانتشر خبر تنصّت نيكسون وكيسينجر على مساعديهما. وأُعلن عن تعيين مدع عام خاص للتحقيق في جرائم ووترغيت.

أمضى كولبي طوال حياته، وهو كاثوليكي ورع، يؤمن بعواقب الخطيئة المميتة. وها إنه، في ذلك اليوم، يعلم للمرة الأولى بالمؤامرات ضد فيدل كاسترو، وبالدور المركزي فيها لروبرت ف. كنيدي، وبتجارب السيطرة على الذهن والسجون السرّية وتجارب العقاقير على حيوانات تجارب بشرية غافلة عن ذلك. لم تخالف عمليات التنصت والمراقبة لمواطنين ومراسلين التي قامت بها «السي.آي.أيه.» ضميره، إذ تقف خلفها أوامر واضحة من ثلاثة رؤساء. إلا أنه عرف، نظراً إلى منحى تلك الأيام، أن هذه الأسرار قد تؤدي إلى دمار «السي.آي.أيه.» في حال تسرّبها. وها قد أغلق عليها ومضى محاولاً إدارة «السي.آي.أيه.»(٦)

أخذ البيت الأبيض يتهاوى تحت الثقل الساحق لووترغيت، وبدا أحياناً أن

كولبي و«السي.آي.أيه.» يتساقطان أيضاً. وغالباً ما كان أمراً جيّداً أن نيكسون لم يقرأ الاستخبارات التي وفّرتها له الوكالة. وعندما تصادف عيدا يوم الغفران ورمضان في ١٩٧٣، شنت مصر الحرب على إسرائيل، وتوغّلت عميقاً داخل الأراضي التي تحتلها إسرائيل. وفي تناقض صارخ مع التوقعات المتينة لحرب الأيام الستة في ١٩٦٧، أخطأت «السي.آي.أيه.» في قراءة العاصفة المتجمّعة. «لم نكلل أنفسنا بالمجد»، قال كولبي[(٧)]. «فقد توقعنا، في اليوم الذي سبق اندلاع الحرب أنها لن تندلع».

لقد أكّدت الوكالة للبيت الأبيض، قبل ساعات قليلة على بدء الحرب: «المناورات أكثر واقعية من العادة، لكن الحرب لن تندلع»[(٨)].

٣٢

مثال أعلى فاشي كلاسيكي

التقى الرئيس نيكسون، في ٧ آذار/مارس ١٩٧٣، في المتكب البيضاوي مع توم باباس، وهو يوناني أميركي من كبار رجال الأعمال، ومدبر للأمور السياسية في الخفاء، وصديق لـ «السي. آي. أيه.» سبق لباباس أن سلّم مبلغ ٥٤٩ ألف دولار نقداً إلى حملة نيكسون في ١٩٦٨ كهديّة من الطغمة العسكرية الحاكمة في اليونان[١]. وقد تم تبييض المال من خلال «الكي.واي.بي.»، وهو جهاز الاستخبارات اليوناني. وقد شكّل هذا واحداً من أكثر أسرار البيت الأبيض خفاءً في عهد نيكسون.

بات لدى باباس الآن المزيد من مئات آلاف الدولارات يقدّمها إلى الرئيس: أموال لشراء صمت قدامى «السي. آي. أيه.» المسجونين في عملية اقتحام ووترغيت. شكره نيكسون جزيل الشكر، وقال: «أنا مدرك ما تفعله للمساعدة»[٢]. وقد جاء معظمه من جماعة العقداء ومناصريهم: الطغمة العسكرية اليونانية التي استولت على السلطة في نيسان/أبريل ١٩٦٧، بقيادة جورج بابادوبولوس، العميل الذي جنّدته «السي. آي. أيه.» منذ أيام ألن دالاس وحلقة الارتباط بين الـ «كي.واي.بي.» والوكالة.

قال روبرت كيلي، الذي أصبح لاحقاً السفير الأميركي في اليونان، إن «هؤلاء العقداء تآمروا على مدى سنين وسنين. كانوا من الفاشيين. وينطبق عليهم التحديد الكلاسيكي للفاشية، كما مثّلها موسوليني في العشرينيات: دولة شركة، توحّد الصناعة والنقابات، لا برلمان، القطارات تسير على الوقت، انضباط شديد ورقابة... بما يكاد يشكّل مثالاً أعلى كلاسيكياً للفاشية»[٣].

عمل الجيش اليوناني وضباط الاستخبارات بالاتفاق مع سبعة رؤساء محطة متعاقبين في أثينا[٤]. ووجدوا صديقاً عظيماً في توما هيركوليس كراميسينس، اليوناني الأميركي رئيس الجهاز الخفي في عهد ريتشارد هيلمس. ولطالما اعتقدوا أن «وكالة الاستخبارات المركزية تشكّل سبيلاً فاعلاً ومباشراً نسبيّاً إلى البيت الأبيض». كما يقول نوربرت أنشوتز، الدبلوماسي الأميركي الرفيع المستوى في اليونان خلال انقلاب ١٩٦٧[٥].

بيد أن العقداء أخذوا «السي.آي.أيه.» على حين غرّة. «المرّة الوحيدة التي شاهدت فيها هيلمس غاضباً فعلاً هي عندما تم انقلاب العقداء في ١٩٦٧»، بحسب ما قال المحلل القديم والرئيس الحالي للاستخبارات الراهنة ديك ليمان[٦]. «كان الجنرالات اليونانيون يخططون لانقلاب على الحكومة المنتخبة، وهو مخطط عرفنا به ولم يكن قد أينع بعد. إلا أن مجموعة من العقداء لعبت ورقتها الرابحة وتحرّكت بدون إنذار. كان هيلمس يتوقع أن يتم تحذيره لدى انقلاب الجنرالات. وعندما حصل الانقلاب، افترض على نحو طبيعي أنه الانقلاب المقصود، واستعر غضباً». وحاول ليمان، الذي قرأ بريقات الليل من أثينا، «تهدئة هيملس بالإشارة إلى أن هذا انقلاب مختلف، ليست لدينا علاقة به. إنه فكرة جديدة».

بقيت السياسة الأميركية الرسمية تجاه العقداء باردة ومجافية حتى حفل تسلّم نيكسون السلطة في كانون الثاني/يناير ١٩٦٩. استخدمت الطغمة الحاكمة توم باباس، الذي يعمل مع «السي.آي.أيه.» في أثينا منذ عشرين عاماً، مرسالاً يدس الأموال النقدية في الصناديق السياسية لنيكسون ونائب الرئيس سبيرو أغنيو: اليوناني الأميركي الأقوى في تاريخ الولايات المتحدة. وقد أثمرت الرشوة مكاسب. جاء أغنيو إلى أثينا في زيارة رسمية، وكذلك فعل وزراء الخارجية، والدفاع، والتجارة. باعت الولايات المتحدة دبابات وطائرات ومدافع للطغمة الحاكمة. وحاجج رئيس محطّة «السي.آي.أيه.» في أثينا بأن مبيعات الأسلحة للجنرالات «ستعيدهم إلى الديموقراطية»، بحسب ما قال أرشر ك. بلاد، وهو مسؤول سياسي في السفارة الأميركية. كانت تلك «كذبة»، قال بلاد، لكن «إذا تفوهت بأي انتقاد للطغمة، فستنفجر «السي.آي.أيه.» غضباً»[٧].

بحلول ١٩٧٣، كانت الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم المتطور التي لها علاقات ودّية مع الطغمة التي سجنت مناوئيها السياسيين وعذبتهم. و«كان رئيس محطة «السي.آي.أيه.» على وئام مع أولئك الناس الذين يشبعون اليونانيين ضرباً»، كما قال تاشرلز ستيوارت كنيدي، القنصل الأميركي العام في أثينا[٨]. «كنت أثير مسائل لها علاقة بحقوق الإنسان، وكانت «السي.آي.أيه.» تستهين بها». كانت الوكالة «مقرّبة جداً من الأناس الخطأ»، قال كنيدي. «ويبدو أنها تتمتع بتأثير مفرط على السفير»، وهو صديق قديم لريتشارد نيكسون اسمه هنري تاسكا.

تولّى الجنرال ديميتريوس يوانيدس في ربيع ١٩٧٤، رئاسة الطغمة. وهو يعمل مع «السي.آي.أيه.» منذ عشرين عاماً. كانت الوكالة صلة الوصل الوحيدة ليونايدس مع حكومة الولايات المتحدة؛ وكان السفير والمؤسسة الدبلوماسية الأميركية خارج الصورة. فجيم بوتس، رئيس محطة «السي.آي.أيه.»، هو الحكومة، من حيث يتعلّق الأمر بالطغمة. وقد امتلكت الوكالة «ركيزة رئيسة في أثينا، إذ لديها علاقة مع الشخص الذي يدير البلاد، ولم يريدوا الإخلال بالأمر»، بحسب ما قال توماس بويات، مسؤول مكتب قبرص في وزارة الخارجية في واشنطن[٩].

خدعنا جنرال تافه

قبرص، الجزيرة الواقعة على بعد أربعين ميلاً من سواحل تركيا وخمسمئة ميل من أثينا، تعرّضت للتقسيم والاجتياح على أيدي جيوش يونانية وإسلامية منذ أيام النبي محمّد. شعر العقداء اليونان بحقد دفين على الزعيم القبرصي، الأسقف مكاريوس، وبرغبة دائمة في الإطاحة به. وقد تناهت دسيستهم إلى نائب رئيس البعثة الأميركية في قبرص، وليام كراوفورد.

واستذكر «توجهت إلى أثينا حاملاً ما اعتبرته إثباتاً إيجابياً على أنهم سيسببون انهيار بيت الورق كلّه. قال لي رئيس محطتنا في أثينا، جيمس بوتس، إن ذلك مستحيل وحسب. ولم يوافقني الرأي: هؤلاء الناس أصدقاء، عملنا

معهم على مدى ثلاثين عاماً، ولن يقوموا بأي أمر على هذه الدرجة من الحماقة»(١٠).

بحلول ١٩٧٤، أصبح توم بويات مقتنعاً بأن أصدقاء «السي.آي.أيه.» يريدون التخلّص من مكاريوس. كتب برقية إلى السفير تاسكا في أثينا. جاء فيها، امض وتحدّث إلى الجنرال يوانيدس. قل له ـ «بكلمات من مقطع واحد سيتمكن حتى هو من فهمها» ـ إن «الولايات المتحدة تعارض بقوّة أي جهود من أي عنصر من عناصر الحكومة اليونانية، معلناً كان أم خفياً، للعبث في وضع قبرص». وقل له «إننا نعارض على نحو خاص أي جهود للإطاحة بمكاريوس ولإحلال حكومة موالية لأثينا. لأنه لو حصل ذلك، فسيقوم الأتراك باجتياح، وهذا ليس جيّداً لأي منّا».

لكن السفير تاسكا لم يتحدّث في حياته أبداً مع الجنرال يوانيدس. فهذا الدور كان مخصّصاً لرئيس محطّة «السي.آي.أيه.».

تلقّت وزارة الخارجية، يوم السبت ١٢ تموز/يوليو ١٩٧٤، برقية من محطة «السي.آي.أيه.» في أثينا. جاء فيها، اطمئنوا. الجنرال والطغمة لن يقوما بأي ما من شأنه الإطاحة بالأسقف مكاريوس. وروى بويات، «كان الأمر إذاً، على ما يرام، وقد سمعت ذلك من فم الحصان. فذهبت إلى المنزل. وحوالى الثالثة من صباح يوم الاثنين، تلقّيت اتصالاً من مركز العمليات في وزارة الخارجية، وقال المتصل، من المستحسن أن تأتي إلى هنا».

شنّت الطغمة الهجوم. هرع بويات إلى وزارة الخارجية حيث وضع ضابط الاتصالات قصاصتين من الورق أمامه، إحداهما إيجاز «السي.آي.أيه.» للرئيس نيكسون ووزير الخارجية كيسينجر: «أكّد لنا الجنرال يوانيدس أن اليونان لن تحرّك قواتها باتجاه قبرص». والأخرى برقية من السفارة الأميركية في قبرص: «القصر الرئاسي يحترق. وقد تم سحق القوّة القبرصية».

جاءت برقية من أنقرة بأنه تمت تعبئة القوات التركية. وها إن جيشين من حلف شمال الاطلسي، قامت الولايات المتحدة بتدريبهما وتسليحهما، هما على

وشك خوض الحرب بأسلحة أميركية. بلغ الأتراك الشاطئ في شمال قبرص، وقطعوا الجزيرة إلى نصفين بالدبابات والمدفعية الأميركية الصنع. وحصلت مذبحة كبرى للقبارصة اليونانيين في القطاع التركي، ومذبحة كبرى للقبارصة الأتراك في القطاع اليوناني من الجزيرة. وفي خلال تموز/يوليو كلّه، أفادت «السي.آي.أيه.» بأن الجيش اليوناني والشعب اليوناني يدعمان بقوة الجنرال يوانيدس. إلا أن الطغمة اليونانية سقطت بعد الانضمام إلى معركة قبرص.

شكّل فشل «السي.آي.أيه.» في تحذير واشنطن في شأن الحرب حالة غير مألوفة. فقد سبق ان حصلت إخفاقات مماثلة في سجلاّت الوكالة، من الحرب الكورية وما تلاها. ففي ١٩٧٤ وحدها، جاء الانقلاب العسكري في البرتغال، والتجربة النووية في الهند، بمثابة مفاجأتين تامتين. إلا أن هذه كانت مختلفة: فـ «السي.آي.أيه.» كانت متآلفة مع رجال العسكر الذين افترض بها التحذير منهم.

وقال بويات بعد سنوات من ذلك، «ها إننا كنا نجلس هناك مع كامل مؤسسة الولايات المتحدة الاستخباراتية بكل عظمتها، وقد خَدَعَنا جنرال يوناني تافه».

الثمن الفادح

استقال ريتشارد نيكسون في ٨ آب/أغسطس ١٩٧٤. وحلّت الضربة الأخيرة باعترافه بأنه أمر «السي.آي.أيه.» بعرقلة العدالة باسم الأمن القومي.

وفي اليوم التالي، قرأ وزير الخارجية كيسينجر رسالة غير عادية من توم بويات. جاء فيها أن «السي.آي.أيه.» كانت تكذب في شأن ما تقوم به في أثينا، وتضلل عن قصد الحكومة الأميركية. وهذه الأكاذيب ساعدت على إشعال حرب تهلك اليونان، وتركيا، وقبرص... حرب قضى فيها الآلاف.

اندلع، في الأسبوع التالي، إطلاق نار حول السفارة الأميركية في قبرص، وقُتل السفير رودجر ب. ديفيس برصاصة اقتلعت قلبه. وفي أثينا سار مئات آلاف

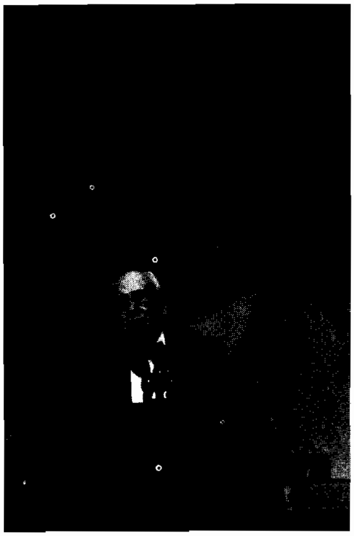
المتظاهرين إلى السفارة الأميركية. حاول المتظاهرون إضرام النار في المبنى. كان السفير الواصل حديثاً إلى هناك هو جاك كوبيش، وهو دبلوماسي عتيق ذو خبرة واسعة، اختاره كيسينجر شخصياً في اليوم الذي استقال فيه نيكسون.

طلب تعيين رئيس محطة جديد، وأرسلت «السي.آي.أيه.» ريتشارد ولش، الذي تعلّم يونانيته في هارفرد وعمل رئيس محطة في البيرو وغواتيمالا. اتخذ ولش مقر إقامة له في القصر الذي أقام فيه أسلافه. وكان العنوان معروفاً على نطاق واسع. «شكّل ذلك مشكلة خطيرة جداً»، بحسب ما قال السفير كوبيش. «وقد اتخذتُ ترتيبات له للذهاب إلى مقر إقامة آخر، ويعيش في قسم آخر من المدينة، ويحاول إخفاء هويته وتأمين تغطية ما له». بدا ذلك حذراً نظراً إلى الفورة المعادية لأميركا في أثينا. إلا أنه «يبدو أنه لا ولش ولا زوجته انشغلا كثيراً في هذا الشأن»، قال. «لم يعتقدا وحسب أنه يوجد في أثينا تهديد جدّي لهما».

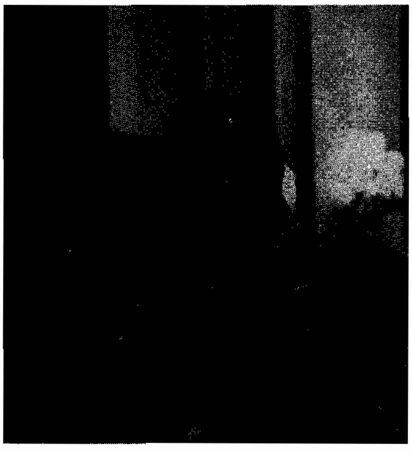
ذهب ولش وزوجته إلى حفل عيد الميلاد في مقر السفير، على بعد بضع كتل أبنية وحسب من قصر «السي.آي.أيه.» في التلال. وبعودتهما إلى المنزل، كانت سيارة في داخلها أربعة أشخاص في انتظارهما عند الممر. أجبر ثلاثة منهم رئيس المحطة على الخروج من سيارته. وقال السفير كوبيش، «أطلقوا ثلاث رشقات من سلاح عيار ٩ ملم في صدره وقتلوه. وصعدوا في سيارتهم وانطلقوا مسرعين». إنها المرّة الأولى في تاريخ «السي.آي.أيه.» التي يتم فيها اغتيال رئيس محطّة. إلا أن ذلك شكّل جزءاً من أسلوب الماضي.

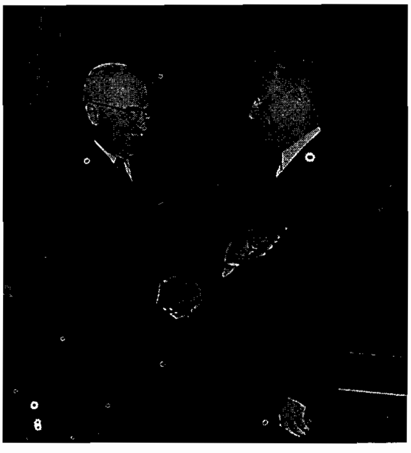
قال السفير كوبيش إنه شاهد في أثينا، للمرة الأولى في حياته، «الثمن الفادح الذي على الولايات المتحدة أن تدفعه عندما تربط نفسها على هذا القدر من الوثوق... بنظام قمعي»[11]. وعواقب ترك «السي.آي.أيه.» تصوغ سياسة الولايات المتحدة الخارجية، هي جزء من هذا الثمن.

مدراء وكالة الاستخبارات المركزيّة
١٩٤٦-٢٠٠٥

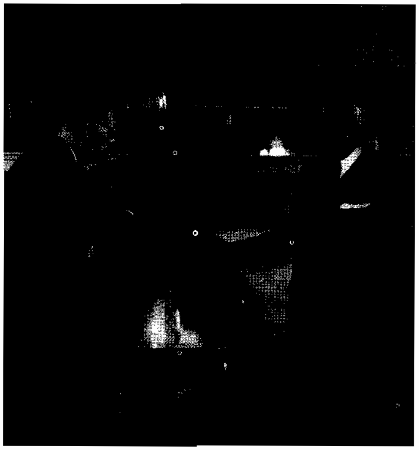


حرّكت روح وايلد بيل دونافان، كبير جواسيس أميركا في الحرب العاملية الثانية، الكثيرين من مسؤولي «السي.آي.أيه.»، الذين عملوا بإمرته، ومن بينهم وليام كايسي، مدير وكالة الاستخبارات المركزية من ١٩٨١ إلى ١٩٨٧. فوق: كايسي يتحدّث في اجتماع لمكتب الخدمات الاستراتيجية، وصورة دونافان من فوقه. تحت إلى اليسار: الرئيس ترومان يعلّق وساما للمدير الأول، الأميرال سيدني ساورز. تحت إلى اليمين: الجنرال هويت فاندنبرغ، المدير الثاني، يدلي بشهادة أمام الكونغرس.

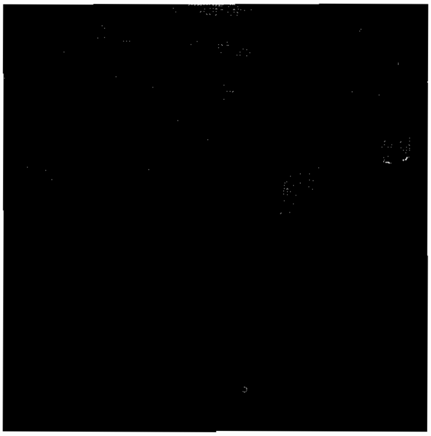


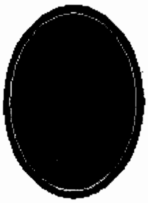


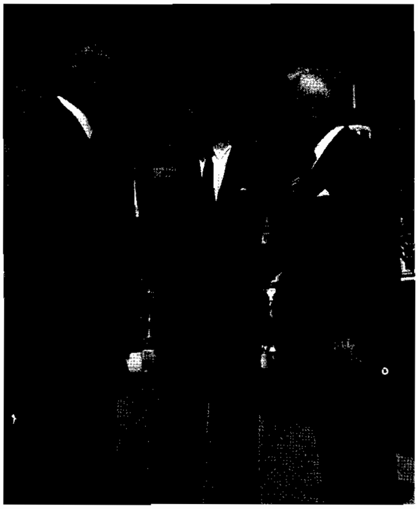


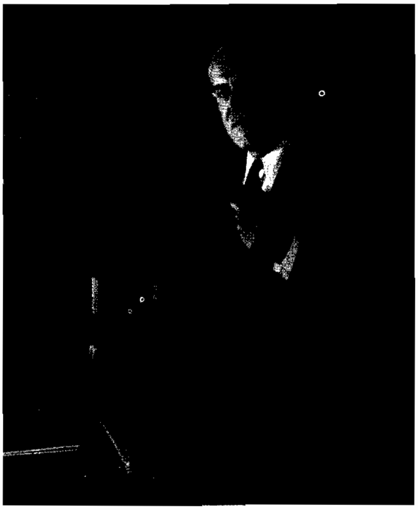


الجنرال والتر بديل سميث، المدير من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣، كان الرئيس الحقيقي الأول لـ «السي.آي.أيه.» فوق إلى اليسار: مع أيك، في يوم الانتصار في أوروبا. فوق إلى اليمين: مع ترومان في البيت الأبيض. تحت: في صورة تعود إلى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٠ التقطت في مقر «السي.آي.أيه.»، بديل سميث يتسلّم القيادة من الأميرال غير الفعال روسكو هيللنكوتر، بالبزة الفاتحة. أقصى اليمين: فرانك ويسنر القلق، الذي قاد العمليات السرّية لـ «السي.آي.أيه.» من ١٩٤٨ وحتى إصابته بالجنون في ١٩٥٨، يحدّق في الفراغ.

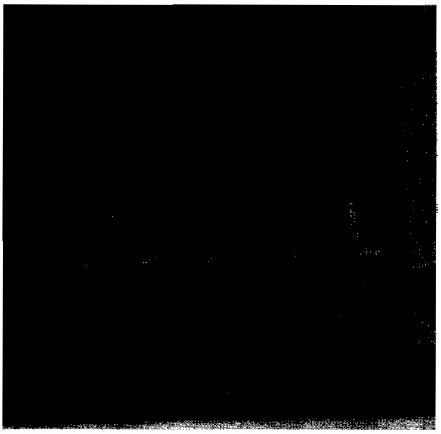




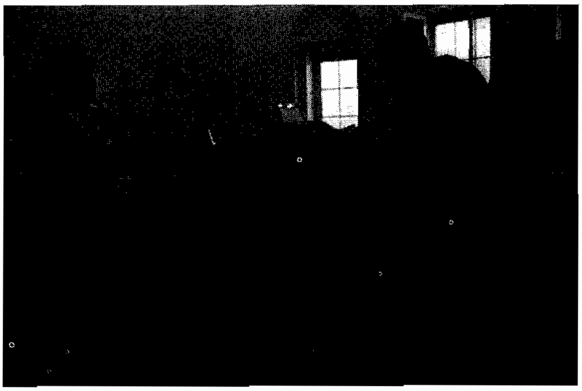




فوق إلى اليسار: ألن دالاس في مكتبه في المقر العام في ١٩٥٤. فوق إلى اليمين: استبدل جون فيتزجيرالد كنيدي دالاس بجون ماكون بعد خليج الخنازير. أصبح ماكون مقرّباً إلى المدعي العام روبرت كنيدي (تحت إلى اليسار) الذي لعب دوراً مركزياً في العمليات السرّية. أبعد الرئيس جونسون ماكون واستخدم السيّىء الحظ الأميرال ريد رابورن (تحت إلى اليمين)، في مزرعة ليندون جونسون في نيسان/أبريل ١٩٦٥.



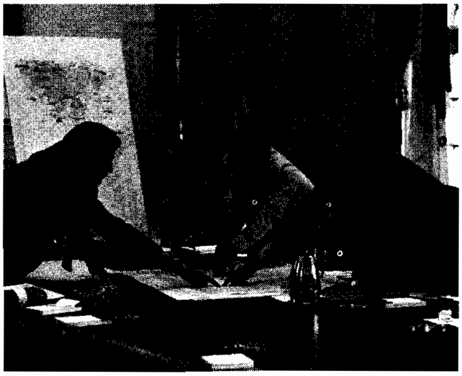




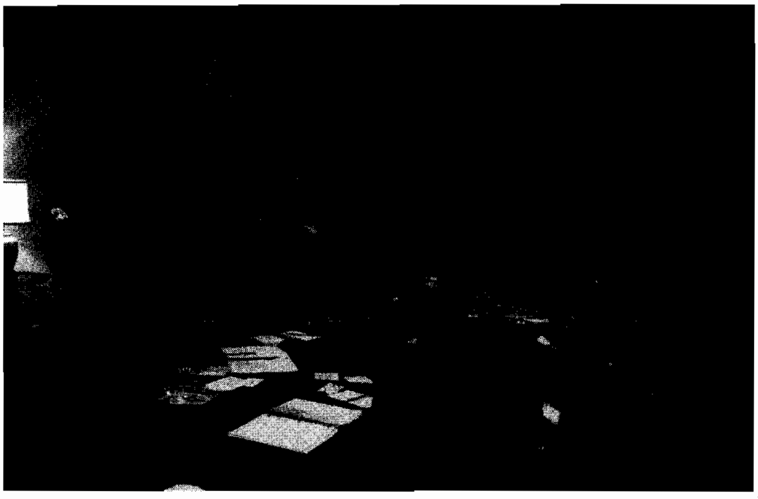
سعى ريتشارد هيلمز، المدير من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣، إلى الحصول على ثقة الرئيس جونسون، وفاز بها. فوق: تعرّف هيملز إلى الرئيس قبل أسبوع من تعيينه نائباً للمدير في ١٩٦٥. تحت: في ١٩٦٨، يقوم هيلمز الواثق من نفسه بتقديم إيجاز إلى ليندون ب. جونسون ووزير الخارجية دين راسك، وذلك خلال إفطار يوم الثلاثاء: أفضل طاولة في واشنطن.







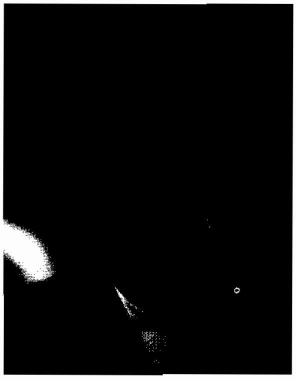
فوق إلى اليسار: آذار/مارس ١٩٦٩، الرئيس نيكسون مصافحاً الموجودين في مقر «السي.آي.أيه.». لم يكن لنيكسون ثقة بالوكالة وازدرى بعملها. تحت: سايغون تسقط، بينما المدير بيل كولبي، إلى أقصى اليسار، يوجز للرئيس فورد في نيسان/أبريل ١٩٧٥. ويحيط بفورد وزير الخارجية هنري كيسنجر، وفي أقصى اليمين وزير الدفاع جيمس شليسنغر. فوق إلى اليمين: ١٧ حزيران/يونيو ١٩٧٦، جورج هربرت ووكر بوش والرئيس جيرالد فورد يناقشان مع المبعوث الخاص إلى لبنان دين براون إجلاء الأميركيين من بيروت.

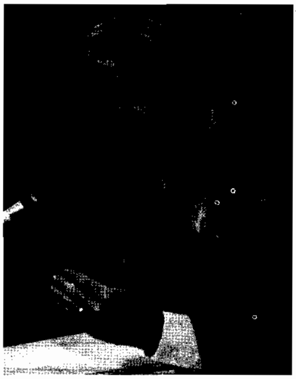


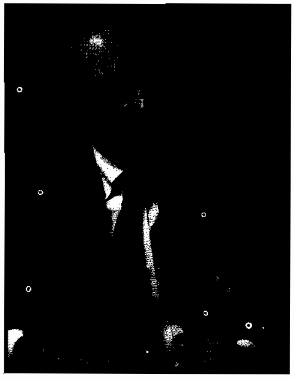


فوق: تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، المدير ستانفيلد تورنر يصل آخراً بينما استدعى الرئيس كارتر كبار مستشاريه العسكريين والدبلوماسيين إلى كامب ديفيد لتقويم محنة الرهائن الأميركيين في إيران. تحت: حزيران/يونيو ١٩٨٥، الرئيس ريغان وفريقُ الأمن القومي التابع له في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض إبان اختطاف طائرة «التي.دبليو.أيه.» المتوجهة إلى بيروت، وهي دراما رهائن انتهت بصفقة سرّية؛ بيل كيسي موجود إلى أقصى اليمين.

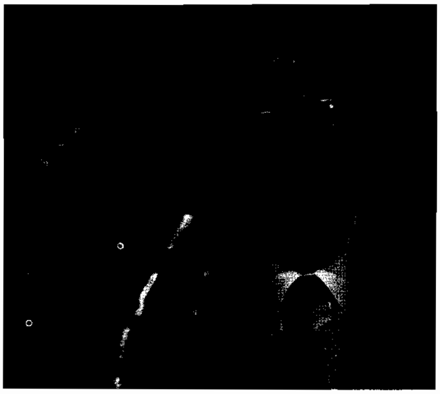


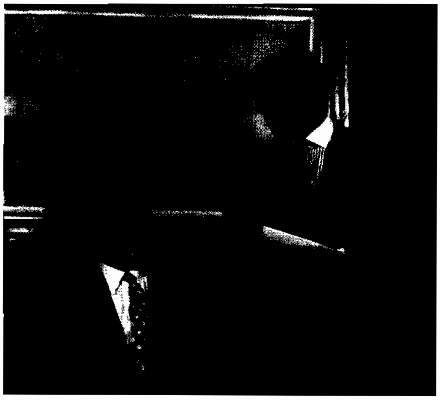






نهاية الحرب الباردة أنتجت بوابة دوّارة في قمّة هرم «السي.آي.أيه.». خمسة مدراء في ستة أعوام. تصادفت التغييرات المتواصلة مع هجرة الخبرات بين العملاء السرّيين والمحللين. فوق، من اليسار إلى اليمن، وليام وبستر؛ روبرت غيتس، آخر المسؤولين المحترفين في قيادة «السي.آي.أيه.»؛ وجيم وولسي.



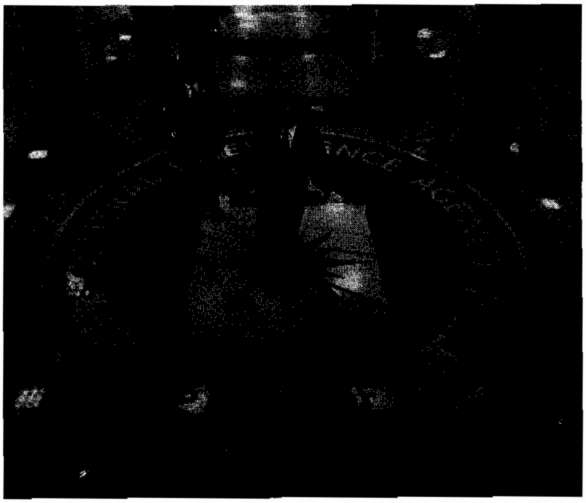


تحت إلى اليسار: جون دوتش.

تحت إلى اليمين: جورج تينيت، مع الرئيس كلينتون الذي يتجه إلى ان يصبح مُقعداً، حاول يائساً، لمدة سبعة أعوام، إعادة بناء «السي.آي.أيه.»



إلى اليسار: جورج تينيت في البيت الأبيض مع الرئيس بوش ونائب الرئيس تشيني لدى الشروع في حرب العراق في آذار/مارس ٢٠٠٣. أيّد تينيت بثقة «السي.آي.أيه.» في قولها إن ترسانة صدام حسين تعجّ بأسلحة الدمار الشامل. تحت في الوسط: خليفته، بورتر غوس، مع بوش في مقر «السي.آي.أيه.» في آذار/مارس ٢٠٠٥، يتّجه إلى أن يصبح آخر مدير لوكالة الاستخبارات المركزية.





إلى اليمين: مع اقتراب الذكرى الستين لإنشائها، لم تعد «السي.آي.أيه.» الأولى بين متساوين في الاستخبارات الأميركية. في آذار/مارس ٢٠٠٦، وفي المقر العام، أدى الجنرال مايك هايدن اليمين بوصفه مديرا لـ «السي.آي.أيه.» رئيسه الجديد، مدير الاستخبارات الوطنية جون نيغروبونتي، يصفّق بينما وقف تمثال وايلد بيل دونوفان يراقب.

٣٣

سيتم تدمير «السي.آي.أيه.»

«دعوني أبدأ بالإشارة إلى مشكلة تواجهنا في ما يتعلّق باستخدام المواد المصنّفة سرّية»[١]، قال الرئيس جيرالد ر. فورد، في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤، وهو يفتتح واحداً من اجتماعات مجلس الأمن القومي الأولى، في غرفة الحكومة في البيت الأبيض.

أثار التسريب الأخير استياء الناجين من ووترغيت: وزير الخارجية هنري كيسنجر، ووزير الدفاع شليسينغر، ونائب مدير الاستخبارات المركزية والترز، وموظف البيت الأبيض الطموح والنافذ دونالد رامسفلد. فالولايات المتحدة كانت تتحضّر لشحن ما قيمته مليارات الدولارات من الأسلحة إلى إسرائيل ومصر. وقد طبعت الصحف لائحة مشتريات إسرائيل والرد الأميركي عليها.

«هذا لا يُحتمل»، قال فورد. «لقد ناقشت خيارات عدة مع دون رامسفلد حول كيفية التعامل مع الأمر». أراد الرئيس مخططاً جاهزاً في غضون ٤٨ ساعة حول كيفية منع الصحافة. من طبع ما تعرفه. وحذّره شليسينغر «نحن لا نملك الأدوات التي نحتاج إليها»[٢]. وقال «نحتاج إلى قانون يتعلق بالأسرار الرسمية»، لكن «المناخ السائد سيىء بالنسبة إلى هذا النوع من الأمور».

سقطت سلطة السرّية من جراء أكاذيب الرؤساء التي أُطلقت باسم الأمن القومي للولايات المتحدة. فـ «اليو ٢» كانت طائرة لدراسة المناخ. وأميركا لن تجتاح كوبا. سفننا تعرّضت للهجوم في خليج تونكين. وحرب فيتنام قضية عادلة. وقد أظهر سقوط ريتشارد نيكسون أن هذه الأكاذيب النبيلة ليست ذات فائدة في نظام ديموقراطي.

قفز بيل كولبي على فرصة تجديد مكانة «السي.آي.أيه.» لدى البيت الأبيض، لأنه علم بأن الهجوم على اعتماد السرّية يهدد بقاء الوكالة. وهو قد رعى فورد منذ اللحظة التي أصبح فيها نائباً للرئيس، فأخذ يسلّمه، من خلال رسول، نسخة من الإيجاز اليومي للرئيس، ويُبقيه على اطلاع على مشروع سرّي لـ «السي.آي.أيه.» بكلفة ٤٠٠ مليون دولار لتعويم غواصة سوفياتية غارقة في قعر المحيط الهادئ (فشلت مهمة الانقاذ بعدما انشطرت الغواصة إلى نصفين). وقال إنه يريد لفورد أن يعرف «كل ما يعرفه الرئيس»[٣]. لم نرد وضعاً آخر شبيهاً بالوضع الذي كان فيه ترومان غير مدرك مشروع مانهاتن».

إلا أن الرئيس فورد لم يتصل به هاتفياً أبداً، ولم يسعَ إلى استشارته الخاصة. أعاد فورد مجلس الأمن القومي إلى ما كان عليه في عهد أيزنهاور، وشارك فيه كولبي، لكنه لم يستدع مطلقاً إلى المكتب البيضاوي وحده. حاول كولبي أن يصبح لاعباً في مسائل اليوم الكبرى، إلا أنه بقي من خارج الجماعة. وبوجود كيسينجر وهيغ، اللذين لعبا دور حارسي البوابة والمدافعين عنها، لم يدخل كولبي أبداً الدائرة الداخلية للبيت الأبيض في عهد فورد. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤، سقط أي أمل قد يراوده في ترميم سمعة «السي.آي.أيه.».

كشف مراسل «النيويورك تايمز»، سيمور هيرش، سرّ تجسس الوكالة على أميركيين. واستحصل على جوهر الموضوع منذ أشهر من العمل الصحافي، وحصل، في يوم الجمعة ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، على مقابلة سعى إليها طويلا مع كولبي في مقر القيادة. حاول كولبي، الذي سجّل المحادثة سرّاً، إقناع هيرش بأن المراقبة غير المشروعة ليس ذات أهمية كبرى، ومسألة بسيطة، من الأفضل عدم التحدّث في شأنها. وقال لهيرش، «أعتقد أنه من الأفضل الإبقاء على الفضائح المكتومة حيث هي: في الخزانة». لكنه اعترف بحصول ذلك. وشرع هيرش في الكتابة طوال الليل وحتى صباح يوم السبت.

نُشر الموضوع في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، على الصفحة الأولى من

صحيفة الأحد. وجاء في العنوان الرئيسي: حديث عن عملية هائلة الحجم لـ «السي.آي.أيه.» ضد القوى المناوئة للحرب.

حاول كولبي حماية الوكالة من خلال طرح مسألة المراقبة الداخلية غير المشروعة عند أبواب جيم أنغلتون الذي كان، على مدى عشرين عاماً، يفتح بريد الدرجة الأولى بمشاركة من «الأف.بي.آي.»، فاستدعى أنغلتون إلى الطبقة السابعة، وفصله من العمل، وهو ما دفعه، إلى أن يمضي حياته، متروكاً وحده، ينسج الأساطير حول عمله. وعندما طُلب منه أن يشرح لماذا لم تنفّذ «السي.آي.أيه.» أمراً من البيت الأبيض بتدمير ما تكدّسه الوكالة من السموم، اختصر بالأمر بالقول «ما لا يتصوّره عقل، هو أن ينصاع ذراع سرّي للحكومة بجميع الأوامر المعلنة الصادرة عن الحكومة»(٤).

الهرر النافقة ستظهر

بعث كولبي، عشية الميلاد، بملاحظة طويلة إلى كيسينجر توجز الأسرار التي تم توليفها بناءً على أمر شليسينغر. ويمكن نشرها، في أعقاب ووترغيت، أن يدمّر الوكالة. اختصرها كيسينجر في مذكّرة من خمس صفحات، متقاربة الأسطر، أرسلها يوم الميلاد إلى الرئيس فورد. استغرق الكونغرس سنة كاملة من التحقيق، في ١٩٧٥، لنبش بعض من الوقائع الواردة في هذه المذكّرة.

أبلغ كيسينجر الرئيس بأن «السي.آي.أيه.» تجسست بالفعل على اليسار، وتنصتت على مراسلي الصحف ووضعتهم تحت المراقبة، وقامت بعمليات تفتيش غير مشروعة، وفتحت أعداداً لا تحصى من أكياس البريد. إلا أن ثمة ما هو أهم بكثير، وأشدّ سوءاً. لم يجرؤ كيسينجر على أن يضع كتابة مع عرفه مما أسماه «كتاب الفظائع». وحذّر فورد من أن بعضاً من أعمال «السي.آي.أيه.» «غير قانوني في شكل واضح». أما البعض الآخر «فيثير اسئلة أخلاقية عميقة». وبرغم أن الرئيس فورد عمل طوال عقد في لجنة «السي.آي.أيه.» الفرعية المصغّرة في مجلس النواب، فإنه لم يسمع حتى بهمسة في شأن هذه الأسرار: تجسس داخلي، سيطرة على الذهن، محاولة اغتيال. وقد تم الشروع في

مؤامرات ارتكاب القتل في البيت الأبيض في عهد أيزنهاور، الرئيس الجمهوري الأكثر احتراماً في القرن العشرين.

ثم إن فورد تلقّى، يوم الجمعة ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٧٥، خبراً آخر، وهذه المرة من المدعي العام للولايات المتحدة بالوكالة، لورنس سيلبرمان.

علم سيلبرمان في ذلك اليوم بشأن الملف السميك الذي يحتوي على أسرار ارتكابات «السي.آي.أيه.»، وهي موجودة في الخزنة الحديدية في غرفة كولبي، وقدّر سيلبرمان أنها تحتوي على دليل على جرائم فدرالية. لقد أوقع أكبر مسؤول عن فرض القانون في البلاد، مدير وكالة الاستخبارات المركزية في مصيدة الفئران. وبات عليه أن يسلّم الملفّات أو يواجه اتهامات بعرقلة العدالة. لم تعد المسألة إذا كان كولبي يريد إفشاء الأسرار، بل أصبحت تتمحور حول ذهابه إلى السجن لحمايتها.

قارب سيلبرمان على نحو خطير ـ وهو الذي أصبح لاحقاً قاضياً في محكمة الاستئناف الفدرالية ورئيس تحقيق جائحاً حول «السي.آي.أيه.» في ٢٠٠٥ ـ أن يصبح مديراً للاستخبارات المركزية في ذلك الوقت الخطير. «طلب مني فورد المجيء إلى البيت الأبيض لإدارة الاستخبارات، لكنني رفضت»، قال سيلبرمان في تأريخ شفوي[٥]. «تم جدّياً البحث في تلك اللحظة، في أن أصبح مديرا لـ «السي.آي.أيه.» لم أشأ القيام بذلك لطائفة كاملة من الأسباب». لقد أدرك أن الوكالة على وشك مواجهة عاصفة هوجاء.

أثار سيلبرمان قضيتين في مذكرته في ٣ كانون الثاني/يناير إلى الرئيس. الأولى: «مخططات لاغتيال قادة خارجيين، أقل ما يقال فيها أنها تشكل مسألة فريدة من نوعها». والثانية: «ربما أقسم السيد هيلمس يميناً كاذبة لدى تعيينه سفيراً في إيران»[٦]. فقد سئل هيلمس، تحت القسم، في شأن الإطاحة بالرئيس أياندي في تشيلي. هل كانت لـ «السي.آي.أيه.» أي علاقة بالأمر؟ «كلا، سيدي»، أجاب هيلمس. وقد اضطر هيلمس، الذي أقسم على السرّية والحقيقة، إلى المثول أمام قاض فدرالي ومواجهة اتهام بالكذب، وهو جنحة عدم قيامه بإبلاغ الكونغرس بالحقيقة كاملة.

مساء الثالث من كانون الثاني/يناير، قال فورد لكيسينجر، ونائب الرئيس نلسون روكفللر، ودونالد رامسفلد، إنه «سيتم تدمير «السي. آي. أيه.» في حال تسرّبت الاسرار[٧]. جاء هيلمس إلى المكتب البيضاوي ظهر يوم السبت في الرابع من كانون الثاني/يناير. وقال له فورد «بصراحة، نحن في ورطة»[٨]. قرر الرئيس أن روكفللر سيدير لجنة للتحقيق في نشاطات «السي. آي. أيه.» المحلّية، والمحلّية فقط. وأمل فورد أن يبقى الأمر محدوداً بهذا المجال الضيق. وقال لهيلمس، «سيشكل الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك مأساة. وسيكون من العار أن يجبرنا الصخب العام على المضي إلى ما هو أبعد، والإضرار بسلامة «السي. آي. أيه.» وأنا أفترض في شكل تلقائي، أن ما فعلتَه هو الصواب، إلا إذا ثبت العكس».

أدرك هيلمس ما ينتظره.

وحذّر الرئيس من أن «الكثير من القطط النافقة سيظهر. أنا لا أعرف كل ما جرى في الوكالة، وربما ما من أحد يعرف. لكنني أدرك ما يكفي لأقول إنه إذا ظهرت القطط النافقة، فإنني سأشارك في اللعبة».

وألقى هيلمس بواحدة منها، في ذلك اليوم، من فوق سياج البيت الأبيض، بإبلاغه كيسينجر أن بوبي كنيدي أدار شخصياً المؤامرات لاغتيال فيدل كاسترو. مرر كيسينجر الخبر إلى الرئيس. وازداد الهول. فأول بروز لفورد على المستوى القومي، جاء من عمله في لجنة وارن. وها إنه يدرك الآن وجود جوانب لاغتيال كنيدي لم يعرف بها أبداً، وسكنته القطع الناقصة من الأحجية. ووصف، قرابة نهاية حياته، حجب الوكالة الدلائل عن لجنة وارن، بأنه «أمر لا يمليه الضمير». وقال إن «السي. آي. أيه.» «ارتكبت خطأً بعدم تقديم جميع المعطيات المتوفّرة لديها. حكمهم لم يكن جيداً بعدم إعطائنا الرواية الكاملة»[٩].

وها إن البيت الأبيض يواجه ثمانية تحقيقات وجلسات استماع مختلفة من الكونغرس حول «السي. آي. أيه.». وشرح رامسفلد كيف أن البيت الأبيض كان

سيوقفها كلها لدى عبورها لجنة روكفللر التي سيكون أعضاؤها «جمهوريين ومستقيمين». وكان أحدهم موجوداً بالفعل في ملفاته: «رونالد ريغان، معلّق سياسي، ورئيس سابق لنقابة ممثلي السينما، وحاكم سابق لكاليفورنيا».

«كيف سيكون التقرير النهائي؟»، سأل الرئيس. واتفق جميع الموجودين على أن الحد من الضرر له الأهمية القصوى. «تجب إعادة السيطرة على كولبي»، قال كيسنجر. وإذا لم يلتزم الصمت، «فإن الأمر سرعان ما سينتشر في جميع أنحاء المدينة».

في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٥، استضاف الرئيس فورد حفل غداء في البيت الأبيض لكبار محرري «النيويورك تايمز» وناشرها. قال الرئيس إنه ليس من المصلحة الوطنية في شيء مناقشة ماضي «السي.آي.أيه.» وقال إن سمعة كل رئيس منذ هاري ترومان قد تتحطّم إذا ما تم الإفشاء بأعمق الأسرار. «مثل ماذا؟»، سأل أحد المحررين. «مثل الاغتيالات!»، قال فورد. ومن الصعب القول ما هو الأكثر غرابة: ما قاله الرئيس، أو ما أبقاه المحررون بدون نشر.

كان الكونغرس، الذي انتخب بعد ثلاثة أشهر على استقالة نيكسون، الأكثر ليبرالية على ما يمكن التذكّر. وقال الرئيس فورد في ٢١ شباط/فبراير لرامسفلد، «المسألة هي في كيفية التخطيط لمواجهة التحقيق في شأن «السي.آي.أيه.»»(١٠) وتعهّد رامسفلد بشن «عملية حدّ من الأضرار بالنسبة إلى الرئيس». تولّى مسؤولية تحديد كم من أسرار «السي.آي.أيه.» إذا كان ذلك سيتم ـ سيتقاسمها فورد وروكفللر مع تلّة الكابيتول.

في ٢٨ آذار/مارس، أبلغ شليسينغر الرئيس أنه من الحتمي الحد من «بروز عمليات «السي.آي.أيه.» حول العالم. يوجد «انشقاق مرير داخل «السي.آي.أيه.» قال شليسنغر الذي ساهم في زرع الانشقاق(١١). فالجهاز السرّي «مليء بالعملاء القدامى المنهكين»: رجال قد يفضحون أسراراً. ويصبح كولبي «على نحو لعين متعاوناً أكثر مما يجب مع الكونغرس»، ويتزايد خطر الافشاء مع مرور الوقت.

٣٤

سايغون توقف عملها

حذّر بيل كولبي البيت الأبيض، في الثاني من نيسان/أبريل ١٩٧٥، من أن الولايات المتحدة على وشك خسارة حرب.

«دعني أُحِطْ بالوضع»، قال كيسينجر. «هل من إمكان لأن تكون للفيتناميين الشماليين فرصة لإقامة خط يوقفون عنده الفيتناميين الشماليين؟»[١].

«شمال سايغون هنا»، قال كولبي، مشيراً إلى خط على الخارطة.

«هذا ميئوس منه!»، صاح شليسينغر.

وسأل كيسينجر: هل ستسقط فيتنام الجنوبية؟ بدا الأمر محتوماً بالنسبة إلى كولبي.

«أعتقد أنه على مارتن ـ السفير غراهام مارتن ـ أن يشرع في تحضير خطة للإخلاء»، قال كيسينجر. «أعتقد أننا مدينون ـ أنه واجبنا ـ بإخراج الأناس الذين آمنوا بنا... علينا إخراج أولئك الناس الذين شاركوا في برنامج الفينيق». وهي كانت الحملة شبه العسكرية للتوقيف، والتحقيق، والتعذيب، التي ساهم كولبي في إدارتها كمدني، برتبة سفير، من ١٩٦٨ إلى ١٩٧١. وقد قتلت الفينيق، في حدها الأدنى، أكثر من عشرين ألف مشتبه فيه بأنهم من الفيتكونغ.

«السؤال الحقيقي الآن»، قال كولبي، «هو: هل نحاول إقامة حصن حول سايغون؟»، أم نفاوض على تسوية تحفظ ماء الوجه، وربما تحفظ الحياة، لإخلاء المدينة بدون حمام دم؟

«لا مفاوضات»، قال كيسينجر ـ «أقله، ما دمت أنا في هذا المنصب». حافِظوا على تدفّق الأسلحة إلى سايغون، واتركوا الشمال والجنوب يدبّرا الأمر. «لا يمكننا إنقاذ أي شيء»، قال.

«لا شيء سوى حياة الناس»، أجاب كولبي. لكن كيسينجر تصلّب. فهو لن يفاوض على نهاية سلمية للحرب.

عاد كولبي، في ٩ نيسان/إبريل، إلى البيت الأبيض في محاولة لجعل الرئيس فورد يركّز على واقع ان الجيوش الشيوعية آخذة في تطويق عواصم فيتنام الجنوبية، ولاوس، وكمبوديا. فثلاثون عاماً من كفاح قوى جيش الولايات المتحدة واستخباراتها ستذهب سدى.

«شرع الشيوعيون في جولة جديدة من القتال، وسايغون تشكل الهدف النهائي لهم»، قال كولبي، في ٩ نيسان/أبريل، لرئيس مجلس الأمن القومي. واعتبر أنه على الولايات المتحدة البدء في إجلاء من أمكن ـ أميركيين وفيتناميين ـ في أسرع وقت ممكن. وستحصل بالتأكيد عمليات انتقام عند سقوط سايغون. وسيكون آلاف الأميركيين وعشرات الآلاف من حلفائهم السياسيين، والعسكريين، والاستخباراتيين الفيتناميين الجنوبيين، في خطر إذا بقوا. «يملك الفيتناميون الجنوبيون الآن ١٨ فرقة مشاة في فيتنام الجنوبية»، قال كولبي. «نعتقد أن هانوي ستقوم بما يلزم من عمل للوصول بالحرب إلى نهاية مبكرة: ربما في أوائل الصيف». وقد أخطأ بشهرين. فمدينة سايغون، حيث لا يزال ستة آلاف ضابط عسكري أميركي، وجاسوس، ودبلوماسي، ومساعد حكومي يعمل، ستسقط في غضون ثلاثة أسابيع. أبلغ كولبي الرئيس أنه «علينا الطلب من الكونغرس تكريس أموال للوفاء بتعهّد ترك الفيتناميين، وهم ربّما مليون إلى مليونين، يرحلون». ومن شأن هذه، أن تكون أكبر عملية إجلاء طارئة في تاريخ الولايات المتحدة.

لم يلق تحذير كولبي أذناً مصغية في أي مكان في واشنطن، لا في البيت الأبيض، ولا في الكونغرس، ولا في البنتاغون، ولا في ذهن السفير الأميركي

في سايغون. لكن رجلاً واحداً أدرك الأمر جيداً جداً: رئيس محطة سايغون، توم بولغار.

كان قتالاً طويلاً، وقد خسرنا

أفاق بولغار، في الرابعة من فجر ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٧٥، على صوت الصواريخ والمدفعية[٢] كان المطار عرضة للنار. وقد دُمّرت سبعة هيليكوبترات تابعة لـ «إير أميركا»: خدمة «السي.آي.أيه.» المكوكية في فيتنام الجنوبية. وثمة في عهدة بولغار مئات الأشخاص. فالأميركيون الذين عملوا معه هم وحدهم مشكلة. والفيتناميون الذين عملوا لـ «السي.آي.أيه.» وعائلاتهم مشكلة أخرى. وقد سعوا يائسين إلى المغادرة، إلا انه بات يستحيل الآن على الطائرات ذات الأجنحة الثابتة الهبوط والإقلاع من المطار.

ارتدى بولغار على عجل قميصاً أزرق وسروالاً فضفاضاً بنّياً يميل إلى اللون الأصفر، ووضع على نحو غريزي جواز سفره في جيبه، وهرع إلى السفارة الأميركية. خلت شوارع سايغون، مدينة الأربعة ملايين نسمة، من الناس بسبب منع للتجول مدته ٢٤ ساعة. اتصل بالسفير مارتن الذي تحوّل، بسبب معاناته من الانتفاخ ومن التهاب القصبات، إلى الهمس المضني. عندها اتصل بولغار بكيسينجر وبالقائد الأميركي الأعلى في المحيط الهادئ الأميرال نويل غايلر، المدير السابق لوكالة الأمن القومي. وقد تلقّى أوامر جديدة من واشنطن: الدفع بإجلاء الموظفين غير الضروريين إلى أقصى حد. ولم يعط كيسينجر المزيد من التعليمات حول من سيبقى، ومن سيغادر، وكيف.

أخذ الجيش الفيتنامي الجنوبي في الانهيار في حالة من الاختلاط التام، وانحلّت الشرطة الوطنية. وتحوّلت الشوارع، التي كانت صامتة في ما قبل، إلى فوضى عارمة.

أمر الرئيس فورد بخفض السفارة من ٦٠٠ شخص إلى ١٥٠. ومن بين الذين بقوا خمسون ضابطاً في «السي.آي.أيه.» لم يتصوّر بولغار أبداً الفيتناميين

الشماليين وقد سمحوا لمحطة قوية لـ «السي.آي.أيه.» بالاستمرار في العمل بعد سقوط سايغون.

شاهد بولغار، داخل السفارة، أناساً في حالة من الحنق الشديد يمزّقون صور نيكسون وكيسينجر، ويدوسون عليها. وتحوّلت السفارة، بعبارات بولغار، إلى «سيرك من ثلاث وثلاين حلقة، بدون مشرف على الألعاب».

عند الساعة ١١:٣٨ قبل الظهر، أمر فورد بإغلاق البعثة الأميركية في سايغون. وبات على جميع الأميركيين مغادرة المدينة مع حلول الليل. أحاط آلاف الفيتناميين المذعورين بالسفارة. وبقي ثمة مسلك واحد للدخول والخروج، وهو ممر سرّي من مرأب السيارات إلى حديقة السفارة الفرنسية، استخدمه السفير مارتن لتهريب زوجته وخدمهما. اتصل بولغار بمنزله، فأخبرته الخادمة بوجود زوار لديه: نائب رئيس الوزراء، وهو جنرال بثلاثة نجوم، ورئيس وكالة استخبارات الإشارة في البلاد، ورئيس البروتوكول، وضباط عسكريون كبار وعائلاتهم، والمزيد من الفيتناميين الذين عملوا مع «السي.آي.أيه.».

بعد ثلاث ساعات على إصدار فورد أمر الإجلاء، وصلت أولى الهيليكوبترات الأميركية من على بعد ٨٠ ميلاً من الشاطئ. وقام طيارو المارينز بتأدية ماهرة وجريئة، ناقلين في رحلاتهم المكوكية نحو ألف أميركي وما يقارب الستة آلاف فيتنامي. وتُظهر صورة فوتوغرافية شهيرة واحدة من آخر الهيليكوبترات التي تغادر سايغون، وهي جاثمة على أحد السطوح، بينما صف من الناس يتسلقون السلّم إلى الأمان. وعلى مدى سنوات عدة، أسيء وصف هذه الصورة بأنها لقطة للسفارة. لكنها في الواقع منزل آمن لـ «السي.آي.أيه.»، والأناس هم أصدقاء بولغار يتسلّقون إلى متنها.

أحرق بولغار في ذلك المساء جميع ملفات «السي.آي.أيه.»، والبرقيات، وكتب الرموز. وبعيد منتصف الليل، كتب رسالته الوداعية: «ستكون هذه آخر رسالة من محطة سايغون... كان قتالاً طويلاً وقد خسرنا... الذين يُخفقون في

التعلّم من التاريخ يضطرون إلى تكراره، فلنأمل ألا نخوض مرة أخرى تجربة فيتنام، وأننا تعلمنا درسنا. سايغون توقف عملها».

ثم فجّر الآلة التي أرسلت الرسالة.

استذكر بولغار، بعد ذلك بثلاثين عاماً، اللحظات الأخيرة للحرب الأميركية في فيتنام: «عرفنا، ونحن نصعد السلّم المعدني إلى مهبط الهيليكوبتر على السطح، أننا نترك وراءنا آلاف الناس في المجمّع اللوجستي للسفارة. أدركنا جميعنا شعورنا، فنحن زعماء قضية مهزومة».

خمسون عاماً من العمل الشاق انتهت بلا شيء

بلغت حرب «السي.آي.أيه.» الطويلة في لاوس نهايتها بعد ذلك بأسبوعين في واد محاط بحروف عالية من حجر الجير. طوّق الشيوعيون مركز الوكالة المتقدم الرئيسي في لونغ تيانغ، وغطى الجنود الفيتناميون الشماليون متن الجبل فوق الوادي، في حين أخذ عشرات الآلاف من الهمونغ ـ مقاتلي «السي.آي.أيه.» وعوائلهم ـ يتجمعون في المهبط البدائي أملاً في الهرب. لم تملك الوكالة، بعد ١٥ عاماً من المهمات شبه العسكرية، خططاً لانقاذهم.

بقي ضابط واحد من «السي.آي.أيه.» في لونغ تيانغ: جيري دانيالز، الذي عمل مرّة مكافحاً للنار عبر الهبوط بالمظلة في مونتانا، ويعرفه أصدقاؤه الهمونغ بسكاي. عمره **٣٣** عاماً، وقد أمضى ما يقارب العشر سنوات في داخل البلاد. وهو الضابط المحرّك للجنرال فانغ باو، الزعيم العسكري والسياسي للهمونغ، والركيزة الأكبر للوكالة في لاوس منذ ١٩٦٠. ودانيالز واحد من سبعة ضباط تابعين لـ «السي.آي.أيه.» ـ بمن فيهم بيل لير وتيد شاكلي ـ قلّدهم ملك لاوس وسام الميلون فيل والمظلّة البيضاء تقديراً لعملهم.

ناشد دانيالز رئيس المحطة في لاوس، دان أرنولد، إرسال طائرات إلى لونغ تيانغ. بات «من المحتّم البدء في الإجلاء بدون تأخير»، قال أرنولد في تأريخ شفوي[٣]. إلا أنه لم توجد أي طائرة. «وعلى السماح بعملية نقل جوي

ان تذهب، بالطبع إلى واشنطن، وقد تم ذلك بالأولوية القصوى»، قال أرنولد. «ذهب هذا من «السي.آي.أيه.» إلى البيت الأبيض... وتم الطلب تكراراً من واشنطن العمل على نحو طارئ على تدبير المزيد من قدرة النقل الجوي لأننا قد أُرهقنا كثيراً. وقد سببت معوّقات من أعلى مستوى سياسي المشكلة».

حرّكت «السي.آي.أيه.» في ١٢ أيار/مايو ١٩٧٥، آخر طائرتي «سي ـ ٤٦» في تايلاند. وتعود الطائرتان، وتوازيان تقريبا حجم «الدي. سي ـ ٣»، إلى خدمات كونتيناتال الجوية، وهي مقاول خاص للوكالة. وقد حطّت، على مرّ السنين، مئات الطائرات من هذا الحجم على مهبط لونغ تيانغ محمّلة بالبضائع. لكنها كانت دوماً تغادر فارغة، وهي بالكاد تتفادى خط الجبال العالي. ولم يسبق لأحد أبداً أن طار بـ «سي ـ ٤٦» محمّلة من لونغ تيانغ. صممت الطائرات لنقل ٣٥ راكباً. لكن، مع ضعف هذا العدد على متنها، والآلاف الذين يلحّون للصعود إلى كل رحلة، بدأت عملية الإجلاء ببطء.

صبيحة ١٣ أيار/مايو، في بانكوك، تلقى جنرال سلاح الجو هيني أدرهولت، رئيس قيادة المساندة العسكرية الأميركية في تايلاند، اتصالاً من مجهول. ويدير الجنرال أدرهولت، الذي عمل على مدى عشرين عاماً إلى جانب «السي.آي.أيه.» في عمليات جوّية، العملية العسكرية الأميركية الوحيدة العاملة في جنوب شرق آسيا. وأستذكر الجنرال: «لم يعرّف الشخص عن نفسه بالاسم. وقال إن الولايات المتحدة تتخلّى عن الهمونغ في لونغ تيان. لقد استخدم عبارة «تتخلّى»». طلب الغريب من أدرهولت إرسال «سي ١٣٠» ذات المحركات الأربعة ـ طائرة شحن متوسطة الحجم ـ لإنقاذ الهمونغ. وبطريقة ما عثر أدرهولت على طيّار أميركي قبل دقائق من خروجه من قاعدة المغادرة في مطار بانكوك، وعرض عليه خمسة آلاف دولار نقداً للطيران بـ «السي ـ ١٣٠» إلى لونغ تيانغ، ثم اتصل برئيس الأركان المشتركة، الجنرال جورج براون، للتصديق على القيام بالمهمّة. وصلت «السي ١٣٠» بعد ظهر ذلك اليوم. حشر مئات الهمونغ أنفسهم فيها في غضون دقائق، وقد غادرت الطائرة وعادت في الصباح التالي.

كان عضو «السي.آي.أيه.» جيري دانيالز يدير الإخلاء، ويتصرّف كحارس شخصي للجنرال فانغ باو، ويعمل مراقباً جوياً في المهبط، ويمسك بحبل النجاة لخمسين ألفاً من الأناس المذعورين. ليست في الإمكان رؤية دانيالز وفانغ باو يتخلّيان عن الجنود وعائلاتهم. وعندما عادت «السي ١٣٠» صباح ١٤ أيار/مايو، هرع آلاف الهمونغ إلى بوابة شحن البضاعة الخلفية. إنه مشهد من الهياج الشديد واليأس. سحب فانغ باو نفسه بعيداً إلى منطقة هبوط للهيليكوبتر على بعد بضعة أميال؛ وقام فريق من «السي.آي.أيه.» بنقله خفية.

تدبّر دانيالز طائرة لنفسه. وجاء في سجل الرحلة الجوية: «كل شيء في حالة صخب... أقلعنا عند الـ ١٠,٤٧، وبهذا انتهت القاعدة السرّية لـ «السي.آي.أيه.» في لونغ تيانغ، لاوس». وقام طيار متعاقد مع «السي.آي.أيه.» على الساحة، يُدعي الكابتن جاك نوتس، بتسجيل شريط صوتي يحفظ في الذاكرة الدقائق الأخيرة من حرب طويلة في لاوس. انطلق دانيالز، حاملاً حقيبة يد وصندوقاً من بيرة أولمبيا، إلى منطقة الهبوط بسيارته الفورد برونكو البيضاء والزرقاء. نزل من السيارة، ثم توقف لا يتحرّك. «فهو لن يدخل الهيليكوبتر»، قال نوتس. «لا يريد المغادرة بعد! أخرج حقيبته من الخلف، وشرع بعدها في التحدث على جهاز اللاسلكي، وأخذ يضيع الوقت ويضيع الوقت، وهذا أمر سيىء جداً لأنه موجود هناك منذ فترة طويلة، وأدى التحية. تأهب كما لو أنه يؤدي التحية لسيارة الجيب، لكنه يؤدّي في الواقع التحية لعشرة أو خمسة عشر عاماً من العمل الذي انتهى إلى لاشيء».

أطلق ريتشارد هيلمس على لاوس اسم «الحرب التي ربحناها». ويصعب رؤية كيف. وسرّع فورد وكيسينجر ترتيباً سياسياً صدّق على السيطرة الشيوعية على البلاد(٤). «ومن ثم غادرنا»، قال عضو «السي.آي.أيه.» ديك هولم، الذي بدأ سنوات خدمته الخمس والثلاثين في «السي.آي.أيه.» في لاوس. ومن نجا من بين الهمونغ، انتهى به الأمر في مخيمات للاجئين أو في المنفى. «دُمّر أسلوب حياتهم»، كتب هولم. «ولن يمكنهم أبداً العودة إلى لاوس». وقال إن

الولايات المتحدة «أخفقت في تحمّل المسؤولية الأخلاقية التي ندين بها لأولئك الذين عملوا معنا بهذا الشكل الوثيق، إبان سنوات الاضطراب تلك».

مات جيري دانيالز مسموماً بالغاز في شقته في بانكوك بعد سبعة أعوام على إخلاء لونغ تيانغ، وكان في الأربعين. ولا يعرف أحد إذا كان هو الذي وضع حدّا لحياته.

٣٥

غير فعّالة وخائفة

استبيحت «السي.آي.أيه.» كما لو أنها مدينة مغلوبة. أخذت لجان الكونغرس تنقّب في ملفاتها، ومجلس الشيوخ يركّز على العمل الخفي، ومجلس النواب يصبّ اهتمامه على إخفاقاتها في التجسس والتحليل. ظهرت في شوارع واشنطن ملصقات من صناعة يدوية لبيل كولبي، مرسومة عليها الجمجمة والعظمتان المتعارضتان وأص البستوني. وخشي كبار ضباط الوكالة من الخراب الشخصي والمهني. وخاف البيت الأبيض من الدمار السياسي. واجتمع الرئيس ورجاله، في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٥، في المكتب البيضاوي لتقدير الأضرار.

«إن أي وثيقة تظهر، على نحو رسمي، التورط الأميركي في عملية اغتيال، هي كارثة سياسة خارجية»، قال كولبي للرئيس. «إنهم يريدون أيضاً التنقيب في عمليات خفية دقيقة»، مثل لاوس. فهل يلجأ البيت الأبيض إلى المحاكم لوقف الكونغرس؟ «إننا في حال أفضل في مواجهة سياسية منه في مواجهة قضائية»، قال دون رامسفلد. وأجرى الرئيس، استعداداً لهذه المنازلة، تعديلاً كبيراً في حكومته في أواخر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٥.

أُعطيت هذه الحركة على الفور اسم مجزرة عيد ليلة جميع القديسين. استُبعد جيم شليسينغر وأصبح دون رامسفلد وزيراً للدفاع. وأخذ ديك تشيني محلّه كرئيس لموظفي البيت الأبيض. وفي حركة ماكيافيلية غير معهودة، حيّد فورد منافساً محتملاً مزعجاً في السباق على التسمية في معركة ١٩٧٦ الرئاسية، بطرده

بيل كولبي وجعله جورج هربرت ووكر بوش المدير المقبل للاستخبارات المركزية. وبدا ذلك في ظاهره اختياراً مستغرباً.

لم يكن بوش جنرالاً، أو أميرالاً، أو جاسوساً. ولم يعرف شيئاً تقريباً عن الاستخبارات. فهو بكل بساطة سياسي. إنه ابن بريسكوت بوش، وهو سيناتور أميركي من علّية القوم في تكساس، كان صديقاً طيّباً لألن دالاس، وانتقل إلى تكساس لجني ثروة في مجال النفط. خدم الكونغرس لولايتين. ترشح لمجلس الشيوخ مرتين وخسر، وكان سفيراً في الأمم المتحدة لمدة ٢٢ شهرا، ورئيسا للجنة الجمهورية الوطنية المُطيِّبة في شكل لا يني لنيكسون في خلال ووترغيت. وكاد فورد، في آب/أغسطس ١٩٧٤، أن يجعل من بوش نائباً للرئيس. وشكّل إخفاقه في الحصول على المنصب أسوأ ضربة يتلقاها في حياته السياسية. وكانت جائزة الترضية له، إعطاءه الحق في اختيار سفارة فيها وجاهة، فاختار الصين. ومن الصين، شاهد بوش صراعات «السي.آي.أيه.» من خلال منظار سميك، معتمداً على تقارير إذاعة «صوت أميركا»، وعلى قصاصات من صحف مضى عليها أسبوع.

إلا أن غرائزه السياسية أطلعته على ما تقدّمه الوظيفة. «أهو دفن بوش في «السي.آي.أيه.»»، سأل نفسه. وكتب «إنها مقبرة للحياة السياسية». وقال لفورد: «أرى في هذا نهاية لأي مستقبل سياسي»[١]. وأصابه الاحتمال بالغم. لكن حسّ اللباقة لديه دفعه إلى القبول.

اكتشف بوش، في غضون أسابيع على صيرورته مديراً، في نهاية كانون الثاني/يناير ١٩٧٦، أنه يهوى الوكالة: السرّية، حسن الرفقة، الأدوات المستخدمة، الدسيسة الدولية. كانت «السي.آي.أيه.» جمجمة وعظمتين وموازنة بمليار دولار. «هذه هي أكثر الوظائف الجديرة بالاهتمام التي أحصل عليها أبداً»، كتب إلى أحد أصدقائه في آذار/مارس[٢]. وفي أقل من أحد عشر شهراً على وجوده في سدّة القيادة، نهض بالمعنويات في مقر القيادة، ودافع عن «السي.آي.أيه.» في وجه كل منتقديها، واستخدم الوكالة بحذاقة لبناء قاعدة سياسية لطموحاته المتمادية.

لم يحقق، في ما عدا ذلك، سوى القليل. فمنذ البداية ركب رأسه في مواجهة وزير الدفاع رامسفلد الذي يسيطر على ٨٠ في المئة من موازنة الاستخبارات[٣]. قال رامسفلد، إن هذا المال يخصّني؛ فأقمار التجسس والمراقبة الالكترونية والاستخبارات العسكرية تشكل كلّها مساندة ميدانية للجنود الأميركيين. وبرغم أن الجيش الأميركي كان في حالة انسحاب كامل، استمر رامسفلد في دفع بوش. كان غير ميّال بقوة إلى حصول مدير الاستخبارات المركزية على رأي في المصروفات السرّية. فرامسفلد «مصاب بجنون الارتياب»[٤]. حيال «السي.آي.أيه.»، ولأنه مقتنع بأن الوكالة تسعى إلى «التجسس عليه، قطع قنوات الاتصال القديمة العهد والتعاون بين البنتاغون و«السي.آي.أيه.»»، بحسب ما قال المحلل القديم جروج كارفر في تأريخ شفوي لـ «السي.آي.أيه.».

أصبح تجنيد ضباط جدد صعباً في شكل استثنائي في أعقاب ووترغيت وفيتنام. فالوكالة مثقلة بالبيروقراطيين المتوسطي الأعمار الذين يلعبون لعبة الوقت، وقد أخرج بوش اثني عشر من بين ستة عشر من أعلى الضباط رتبة، في محاولة لإحلال بعض الفسحة. أراد تسمية الرئيس الجديد التابع له للجهاز الخفي، ولهذا استدعى رئيس كولبي، بيل نيلسون، وأبلغه أن الوقت قد حان بالنسبة إليه للمغادرة. أدى نيلسون التحية وغادر، لكن ليس قبل أن يرمي بمذكّرة على مكتب بوش تقول إن الجهاز السرّي يحتوي على فائض من ألفي عنصر. دفن بوش الدراسة، متبعا في ذلك تقليد ألن دالاس.

تم وضع حدّ لـ «السي.آي.أيه.»

«هي مرحلة مضطربة ومتعبة للوكالة»، كتب بوش، في الأول من حزيران/ يونيو ١٩٧٦، إلى الرئيس فورد[٥]. «لقد أدّت التحقيقات المكثّفة لكل من مجلسي النواب والشيوخ، وعلى مدى أكثر من سنة، إلى كشف علني واسع عن عمليات خفية سابقة وراهنة». دفعت التحقيقات بمجلس الشيوخ إلى إنشاء لجنة إشراف على الاستخبارات في الوقت الذي كان فيه بوش مديراً؛ وأنشأ مجلس

النواب واحدة بعد ذلك بسنة. وكتب بوش، لو أن الرئيس يمكنه فقط إيجاد طريقة لحماية «السي.آي.أيه.» من الكونغرس، «عندها ستواصل العمليات الخفية تقديم المساهمة الإيجابية في سياستنا الخارجية التي سبق وقدّمتها في السنوات الثماني والعشرين الماضية».

لكن الوكالة، في ظل الكونغرس اليقظ حديثاً، لم تكن تقوم سوى بقلّة قليلة جداً من العمليات الخفية. إلا أن بوش، في ردّ مكتوب على أسئلة المؤلف، زعم أن تحقيقات الكونغرس ألحقت ضرراً طويل المدى بالوكالة. وهي «أصابت علاقات الاتصال التي لنا حول العالم بنكسة» ـ روابط «السي.آي.أيه.» مع أجهزة الاستخبارات الخارجية، وهي مصدر الكثير جدا من المعلومات التي جمعتها، ـ و«دفعت بكثير من الناس في الخارج إلى الانسحاب من التعاون مع «السي.آي.أيه.»» والأسوأ من ذلك كلّه، قال، هو «أنها سحقت معنويات ربّما أفضل مجموعة من الموظفين الحكوميين في البلاد».

كذلك، فإن الإخفاقات المستمرّة في الساحة قوّضت نشاط «السي.آي.أيه.» في ١٩٧٦. وأنغولا من بين أكبر الإخفاقات. وأقرّ الرئيس فورد، بعد شهرين على سقوط سايغون، عملية كبرى جديدة لتحصين أنغولا ضد الشيوعيين. شكّلت البلاد جائزة البرتغال الكبرى في أفريقيا، لكن زعماء ليشبونة كانوا من بين أسوأ المستعمرين الأوروبيين، وقد استباحوا أنغولا لدى انسحابهم. وأخذت البلاد تتمزّق، في حين شرعت القوى المتصارعة في خوض الحرب.

شحنت «السي.آي.أيه.» ٣٢ مليون دولار نقداً، وما قيمته ١٦ مليوناً من الأسلحة إلى أنغولا من خلال حليف «السي.آي.أيه.» الكبير رئيس الكونغو موبوتو. ذهبت الأسلحة إلى زمرة عاصية من رجال حرب العصابات المناوئين للشيوعية، بقيادة صهر موبوتو، والمتحالفة مع حكومة جنوب أفريقيا البيضاء. وتلقى البرنامج مساعدة من رئيس زامبيا كنيث كاوندا، وهو زعيم طيّب النفس يتلّقى منذ زمن طويل دعماً من تحت الطاولة من الولايات المتحدة و«السي.آي.أيه.»، وقد تولّى التنسيق دبلوماسي شاب موهوب في وزارة خارجية كيسينجر ـ فرانك ج. ويسنر جونيور، وهو ابن الرئيس الراحل للعمل الخفي، ويحمل اسمه.

قال ويسنر، «أُجبرنا على الخروج من فيتنام»[٦]. «شعرت الإدارة بقلق حقيقي من أن الولايات المتحدة ستتعرّض الآن لامتحان» من قوى الشيوعية عبر العالم. «فهل نحن على وشك رؤية هجوم بقيادة شيوعية ظاهرية يتحرّك، ويسيطر على أنغولا الغنية بالنفط، ويشرع في خوض الحرب الباردة في أفريقيا الجنوبية، أم أننا سنحاول وقفه؟».

قال ويسنر، «لن نتمكّن من المضي إلى الكونغرس، في أعقاب فيتنام، والقول، انظروا، فلنرسل مدربين عسكريين أميركيين ومعدات إلى هناك إلى موبوتو»، لذا اتخذ كيسينجر والرئيس قراراً باللجوء إلى الوكالة». إلا أن القوات المدعومة من «السي.آي.أيه.» في أنغولا تخاذلت، وسيطر أعداؤها، المدعومون بقوّة من موسكو وهافانا، على العاصمة. أمر كيسينجر بـ٢٨ مليون دولار أخرى كدعم سرّي. لم يتبقّ مال في صندوق طوارئ «السي.آي.أيه.» وسبق للكونغرس، في بداية سنة بوش القصيرة في «السي.آي.أيه.»، أن حظر علناً الدعم الخفي لرجال حرب العصابات الأنغوليين، وقضى على العملية وهي في طور التقدّم. لم يسبق لأمر من هذا النوع أن حصل من قبل. لقد «تم وضع حدّ لـ «السي.آي.أيه.»، وأجبرنا على التراجع»، قال ويسنر.

أشعر كأنه تم التحايل عليّ

في الذكرى المئتين للرابع من تموز/يوليو ١٩٧٦، استعد بوش للقاء حاكم جورجيا في أحد فنادق هيرشي، بنسلفيانيا[٧]. تجاوب في شكل استثنائي عندما طلب كارتر إيجازات استخباراتية من «السي.آي.أيه.» حتى قبل فوزه بتسمية الحزب الديموقراطي إلى الانتخابات الرئاسية. ما من مرشّح قدّم مثل هذا الطلب في وقت مبكر من اللعبة. وجد بوش ونائبه للاستخبارات الوطنية، ديك ليمان ـ الذي تزايدت خيبته لرؤية ألن دالاس يزن التقارير بيده بدلاً من قراءتها ـ أن كارتر مثير للاهتمام للغاية. تراوح نقاشهما من أقمار التجسس إلى مستقبل حكم الأقلية البيضاء في أفريقيا. واتفقا على إمكان مواصلة الإيجازات في تموز/يوليو في منزل كارتر في قرية بلينز، جورجيا.

لقي المدير صعوبة كبرى في الوصول إلى هناك. فلا يمكن طائرة «السي.آي.أيه.» الغولفستريم النفاثة التعامل مع مهبط بلينز العشبي. سعت «السي.آي.أيه.» إلى الحصول على مساعدة لوجيستية من البنتاغون، وأُخبرت أنه سيكون على بوش أخذ هيليكوبتر إلى بيترسون فيلد. تحقّق طاقم «السي.آي.أيه.» الجوي من خرائطهم. أين هي بيترسون فيلد بحق الجحيم؟ أجروا اتصالاً هاتفياً آخر ببلينز وأدركوا الأمر: «بيترسون فيلدز» هي مزرعة أحدهم البالغة أربعين فداناً عند طرف المدينة.

بحثت الجلسة، التي استغرقت ست ساعات، في قضايا لبنان، والعراق، وسوريا، ومصر، وليبيا، وروديسيا، وأنغولا. واستغرقت الصين ثلاثين دقيقة. أما الاتحاد السوفياتي فتطلّب عشرة أضعاف هذا الوقت. وتحدّث رجال «السي.آي.أيه.» طوال بعد الظهر وحتى المساء. واستوعب كارتر، الذي عمل مهندساً ذرّياً في البحرية، التفاصيل الغامضة للترسانة الاستراتيجية الأميركية. وقد اهتمّ في صفة خاصة، بالدليل الذي حصلت عليه أقمار التجسس حول الأسلحة السوفياتية، وأدرك أن الاستخبارات التي التقطتها ستلعب دوراً حيوياً في الحد من الأسلحة. علم بأن السوفيات لن يدلوا ببيان دقيق حول حجم قواتهم النووية. وقد جاء الطرف الأميركي إلى طاولة المفاوضات وأبلغ السوفيات بعدد الصورايخ التي يمتلكونها وبالعدد الذي نمتلكه. ودعا هذا كارتر إلى التوقّف: بدت فكرة أن السوفيات كذبوا مرة جديدة عليه.

أكّد له بوش أن صور الجيل الأول من أقمار التجسس وفّرت للرئيسين نيكسون وفورد المعلومات التي يحتاجان إليها لمواصلة محادثات سالت، معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية، مع السوفيات، وليراقبا عن كثب إذا كان السوفيات سليتزمون باتفاقاتهم. وسيتم إنتاج جيل جديد من الأقمار في ذلك الصيف. وهي تحمل الاسم الرمزي «ثقب المفتاح»، وتوفر صوراً تلفزيونية حيّة بدلاً من الصور البطيئة التظهير. وقد عمل قسم العلوم والتكنولوجيا في «السي.آي.أيه.» على مدى سنوات على «ثقب المفتاح»، الذي يشكّل إنجازاً عظيماً.

سأل رفيق كارتر في الانتخابات، سيناتور مينيسوتا والتر مونديل، عن العمل الخفي وارتباطات الوكالة بأجهزة استخبارات خارجية. كان مونديل عضواً في لجنة تشيرتش، فريق مجلس الشيوخ الذي حقق في «السي.آي.أيه.» وقد صدر تقريرها النهائي قبل ذلك بشهرين[٨]. وتُذكر اللجنة اليوم بصفة خاصة ببيان رئيسها بأن الوكالة كانت بمثابة «فيل متوحّش»، هو إعلان ضيّع المقصد على نحو سيىء من خلال تبرئة الرؤساء الذين قادوا الفيل. ورفض بوش، المستاء من مجرّد وجود لجنة تشيرش، الردّ على أسئلة مونديل.

انضم ثمانية ضباط في «السي.آي.أيه.» بعد ذلك بأسبوعين إلى بوش في بلينز، وجلسوا في حلقة في غرفة جلوس كارتر، بينما أخذت ابنته وهرّتها تتجولان دخولاً وخروجاً. ولدهشتهم، بدا أن لكارتر معرفة دقيقة جدّاً بالعالم. وعندما تواجه وفورد مباشرة في أول مناظرات تلفزيونية رئاسية منذ كنيدي ونيكسون، كسح الحاكمُ الرئيسَ في السياسة الخارجية. وأهوى أيضاً بقوة على الوكالة قائلاً: «لا يزال نظام حكمنا ـ برغم فيتنام، وكمبوديا، و«السي.آي.أيه.»، ووترغيت ـ أفضل نظام حكم على وجه الأرض».

وحصل في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦، لقاء مربك أخير بين بوش والرئيس المنتخب في بلينز. واستذكر كارتر أن «بوش أراد البقاء» في «السي.آي.أيه.»[٩] «ولو أنني وافقت على ذلك، لما أصبح رئيساً أبداً، ولكانت حياته المهنية أخذت منحى آخر مختلفاً كلّياً!».

تظهر مذكّرة بوش عن الاجتماع أنه كشف للرئيس المنتخب عن حفنة من العمليات الجارية، بما فيها دعم «السي.آي.أيه.» المالي لبعض زعماء الدول، أمثال الملك الأردني حسين، ورئيس الكونغو موبوتو، ورجال اقوياء أمثال مانويل نورييغا ديكتاتور باناما المقبل[١٠]. ولاحظ بوش أن كارتر بدا منصرفاً على نحو غريب. وكان انطباعه صحيحاً. فقد اعتبر الرئيس المنتخب جعالات «السي.آي.أيه.» لزعماء خارجيين، مستهجنة.

سقط اعتبار بوش بحلول نهاية ١٩٧٦، لدى بعض من مؤيديه السابقين في

الوكالة. فقد اتخذ قراراً سياسياً سيئاً بترك فريق من الأيديولوجيين المحافظين الجدد ـ أسماهم ديك ليمان «المعوّين اليمينيين»[11] ـ يعيدون كتابة تقديرات «السي.آي.أيه.» للقوات العسكرية السوفياتية.

أخذ وليام ج. كايسي، أكثر الأعضاء عجيجاً في المجلس الاستشاري التابع لبوش حول الاستخبارات الخارجية، يتحدّث مع بعض أصدقائه وشركائه في مجتمع الاستخبارات. كانوا على قناعة بأن «السي.آي.أيه.» تستهين في شكل خطر بالقوة النووية السوفياتية. ألح كايسي ورفاقه من أعضاء المجلس الاستشاري، على الرئيس فورد لجعل مجموعة من الخارج تكتب تقديرها السوفياتي الخاص. وضم الفريق، الذي لم يعد أعضاؤه مبهورين كثيراً بسياسة الانفراج، وقد تم اختيارهم بعناية من اليمين الجمهوري، الجنرال دانيال أ. غراهام، طليعة المدافعين الأميركيين عن الدفاع الصاروخي، وبول ولفوفيتز، وهو مفاوض في الحد من الأسلحة سقطت أوهامه ونائب مقبل لوزير الدفاع. ووافق بوش في أيار/مايو ١٩٧٦ على «الفريق ب» بخربشة جذلة: «دعوها تُطِر!! أو. كي. ج. ب»[12].

كان النقاش تقنياً للغاية، لكنه انحسر إلى سؤال فريد: ما الذي تسعى إليه موسكو؟ صوّر «الفريق ب» الاتحاد السوفياتي في وسط عملية تعبئة عسكرية، بينما هو في الواقع يقتطع من الموازنة العسكرية. وبالغوا على نحو دراماتيكي في دقّة الصواريخ الباليستية السوفياتية العابرة للقارات. ضاعفوا عدد قاذفات باكفاير التي يصنّعها الاتحاد السوفياتي. وحذّروا تكراراً من مخاطر لم تتحقّق قطُّ، وتهديدات لم توجد أبداً، وتكنولوجيات لم تُكتشف مطلقاً. والأكثر هولاً من ذلك كلّه، طيف استراتيجية سوفياتية سرّية لخوض حرب نووية، وكسبها. ثم إنهم، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٦، تقاسموا انتقائياً ما توصّلوا إليه مع مراسلين وكاتبي مقالات رأي متعاطفين معهم. وقال ليمان إن «الفريق ب «خارج عن السيطرة، ويقوم بالتسريبات في جميع الاتجاهات».

استمرّت الجلبة التي أحدثها «الفريق ب» لسنوات، وأوقدت زيادة مهولة في مصاريف البنتاغون للتسلح، وأدت مباشرة إلى ارتقاء رونالد ريغان إلى رأس

قائمة متصدّري سباق ١٩٨٠ للفوز بالتسمية الجمهورية. وبعد انتهاء الحرب الباردة، وضعت الوكالة ما توصّل إليه «الفريق ب» قيد الاختبار[١٣]. كل شيء كان خاطئاً. إنها الفجوة في القاذفات، والفجوة في الصواريخ من أول وجديد.

«أشعر كأنه تم التحايل عليّ»، قال بوش لفورد وكيسينجر ورامسفلد في آخر اجتماع لمجلس الأمن القومي للإدارة المغادرة.

أصبح محلّلو الاستخبارات فاسدين ـ آلة أخرى تُستخدم للكسب السياسي ـ ولن يستعيدوا أبداً نزاهتهم. فقد تم، منذ ١٩٦٩، تسييس تقديرات «السي.آي.أيه.» على نحو صارخ، عندما أجبر الرئيس نيكسون الوكالة على تغيير وجهات نظرها حول قدرات السوفيات على الشروع في الضربة النووية الأولى. وقال أبوت سميث، الذي أدار مكتب التقديرات الوطنية في الوكالة في مقابلة للتأريخ الشفوي لـ «السي.آي.أيه.»، «أنظر إلى ذلك بوصفه أشبه بنقطة تحوّل بدأ منها كل شيء في التراجع. فإدارة نيكسون كانت الإدارة الأولى التي أصبحت الاستخبارات فيها مجرّد شكل من أشكال السياسة. وقد اتجه هذا إلى أن يكون كارثياً، وأعتقد أنه كان كذلك». ووضع جون هويزنغا، الذي خلف سميث في ١٩٧١، الأمر في شكل أشد صراحة لمؤرخي «السي.آي.أيه.»، واستمرّت أصداء أفكاره تتردد في العقود التالية حتى القرن الحادي والعشرين:

ترى، في نظرة إلى الوراء، أن لتنظيم الاستخبارات في هذه الحكومة القدرة على توفير منتوج تحليلي صادق بدون مواجهة خطر الخصام السياسي[١٤]. وأعتقد، على العموم، أن الميل إلى معالجة الاستخبارات سياسياً تزايد في خلال تلك المرحلة كلّها. والأمور المثيرة جداً للانقسام السياسي، كانت على نحو خاص مسائل مثل جنوب شرق آسيا، وتنامي القوى الاستراتيجية السوفياتية. أعتقد أنه لربما من السذاجة، في نظرة إلى الوراء، أن نكون قد اعتقدنا بما اعتقد به معظمنا في وقت ما... في أنه في الإمكان تسليم منتوج صادق يؤخذ بحسب قيمته الحقيقية... أعتقد أنه كان للاستخبارات وقع ضئيل على السياسات التي وضعناها على مرّ السنين. وهي نسبياً لاشيء. وربما، في حالات فريدة، كان للمعلومات الداخلية والوقائع التي وفّرناها، تأثير في ما قمنا به. لكن فقط

في مدى محدود جداً من الظروف. إلا أن الجهد الاستخباراتي، عموماً، لم يبدّل الفرضيات التي حملتها معها الزعامة السياسية إلى السلطة. جاؤوا بمتاعهم وحملوه معهم، بدرجة أو بأخرى. وما كان يجب أن يحصل، من الناحية المثالية، هو... أنه يمكن التحليل الاستخباراتي الجدي أن... يساعد الطرف السياسي على إعادة النظر في الفرضيات، وجعل صنع السياسة أكثر تطوّراً، وأقرب إلى واقع العالم. تلك هي الطموحات الكبرى التي أعتقد أنها لم تتحقّق أبداً.

لم تكدّر هذه الأفكار مدير الاستخبارات المركزية والرئيس المقبل للولايات المتحدة.

العَظَمة التي تشكّلها «السي. آي. أيه.»

ألقى بوش، في وداعه موظفي «السي.آي.أيه.» في مقر القيادة، ملاحظة شكر شغوفة، كما هو دأبه. كتب «آمل أن أتمكّن من إيجاد سبل ما في السنين المقبلة لجعل الشعب الأميركي يدرك، على نحو أكثر شمولاً، العظمة التي تشكّلها «السي.آي.أيه.»»(١٥). كان آخر مدير للاستخبارات المركزية يحصل على ما يقارب الدعم الكامل من جنوده في مقر القيادة. فهو، من وجهة نظرهم، يتمتع بالفضل الكبير في محاولة إنقاذ الجهاز الخفي. إلا أنه، وهذا عار عليه، ترك «السي.آي.أيه.» تجبن أمام السياسة.

«لا أجد تدهوراً في نوعية التحليل الاستخباراتي»، قال كيسينجر في اجتماعهم الأخير قبل حفل تسلّم جيمي كارتر السلطة. «إلا أن العكس صحيح في مجال العمل الخفي. ليس في إمكاننا القيام به بعد الآن».

«أنت محق، يا هنري»، قال جورج هربرت ووكر بوش، إحدى أكبر قوى الدفع التي تحصل عليها «السي.آي.أيه.» في تاريخها. «فنحن غير فاعلين وخائفون معاً».

الجزء الخامس

انتصار بدون متعة «السي.آي.أيه.»

في ظل كارتر، ريغان، وجورج هـ. و. بوش:

١٩٧٧ ــ ١٩٩٣

٣٦

سعى إلى الإطاحة بمنظومتهم

أدان جيمي كارتر، وهو يخوض انتخابات الرئاسة، «السي.آي.أيه.» بوصفها «عاراً وطنياً». وما إن أصبح في السلطة، حتى انتهى به الأمر يوقّع على عدد من أوامر الأعمال الخفية، مواز للعدد الذي أصدره نيكسون وفورد[1]. والفارق أنه قام بها باسم حقوق الإنسان. وكمنت المشكلة في توجيه السلطات الهزيلة للوكالة إلى هذه المهمة الجديدة.

لم يجر بحثه عن مدير جديد للاستخبارات المركزية بصورة جيّدة. فتوماس ل. هيوز، الرئيس السابق لمكتب الاستخبارات والأبحاث في وزارة الخارجية، رفض هذا الشرف. وسُمّي بدلاً منه كاتب خطابات كنيدي، تيد سورنسن الذي روى أن «كارتر، لبعض دهشتي، اتصل وسألني إذا كان في إمكاني المجيء إلى بلينز. كان لي شقيق عمل في الخفاء لسنوات في «السي.آي.أيه.»[2] ذهبت إلى هناك وأجريت محادثة وجيزة مع كارتر، الذي عرض عليّ، في تمام اليوم التالي، الوظيفة». لكنه كان من المعترضين على العمل في القوات المسلحة إبان الحرب العالمية الثانية، ولم يتم التصديق على تسميته في أول أمر من نوعه يحصل في تاريخ «السي.آي.أيه.». واستذكر سورنسن بمرارة أن «كارتر تقاعس عن تقديم أي دعم إلي بينما أنا أتأرجح هناك».

انتقى الرئيس المنتخب في اليوم الثالث، شخصاً شبه غريب: الأميرال ستانفيلد تورنر، قائد الخاصرة الجنوبية لحلف شمال الأطلسي، ومركزه نابولي، في إيطاليا. وسيصبح تونر ثالث أميرال في تاريخ الوكالة يجد في

«السي.آي.أيه.» سفينة صعبة التوجيه. وهو أول من اعترف بأنه لا عهد له بـ «السي.آي.أيه.»، لكنه سرعان ما فرض سلطته.

ليست هذه بالطريقة الصحيحة لإدارة اللعبة

«يعتقد الكثيرون أن الرئيس كارتر استدعاني وقال، نظّف المكان وسوِّ أموره. وهو لم يفعل ذلك قط»، قال تورنر[٣]. «اهتمّ بقوّة منذ البداية بالحصول على استخبارات جيدة. أراد استيعاب الآليات من أقمارنا الاصطناعية، إلى جواسيسنا، إلى أساليبنا في تحليل ما يحدث. وكان مسانداً للغاية للعمليات الاستخباراتية. وأدركتُ جيّداً في الوقت ذاته، من خلال طبعه فقط، أن علينا العمل في إطار قوانين الولايات المتحدة الأميركية. وأدركت أيضاً وجود حدود أخلاقية لما يريدنا الرئيس كارتر القيام به، وكنت كلما اقترب من التساؤل إذا كنا نلامس هذه الحدود، أذهب إليه وأحصل على قراره في هذا الشأن. وفي جميع المرات تقريباً، قضت تلك القرارات بالمضي قدماً».

قال تورنر إنه «لم تنحز إدارة كارتر ضد العمل الخفي، بل كانت لـ «السي.آي.أيه.» مشكلة مع العمل الخفي ذاته، لأنها كانت في حالة صدمة من الانتقادات التي تعرّضت لها».

منذ البداية، واجه الجهاز الخفي تورنر بمأزق الحياة أو الموت. «أتوا إليّ وقالوا: لدينا عميل يكاد يصبح داخل تنظيم إرهابي، لكنهم طلبوا منه القيام بأمر واحد إضافي لإثبات حسن نياته. عليه المضي واغتيال أحد أعضاء الحكومة. فهل نسمح له بالقيام بذلك؟ قلت: لا، بل نسحبه. كما تعلم، فالأمر يشكّل مقايضة. وربما أمكننا إنقاذ حيوات بعض الناس؟ لكنني لن أجعل الولايات المتحدة تشارك في عملية قتل لركوب هذه المجازفة. والأمر يتعلّق الآن بالحياة الحقيقية وبسمعة بلادنا. واعتقدت أنه ليست هذه الطريقة الصحيحة لإدارة اللعبة».

استوعب تورنر سريعاً أسس لعبة شد الحبال بين الجواسيس والأدوات.

وشدّ لصالح الآلات على الرجال، وأمضى معظم وقته وطاقته في محاولة تحسين التغطية الشاملة لأقمار التجسس الأميركية. حاول تنظيم «مجتمع الاستخبارات» في كونفدرالية، منشئاً جهاز تنسيق وموازنة موحّدة. وقد راع هذا الاختلال أولئك الذين يخدمون القضية. «كنت مسؤولاً عن جمع الاستخبارات البشرية»، استذكر جون هولدريدج، الذي كان نائب بوش في بعثة بكين قبل انضمامه إلى فريق مجتمع الاستخبارات(٤). «كنت أنظر إلى هذه العمليات، التي يُرجى منها نتائج وهمية، عندما تُقدّم إليّ، وأتساءل من بحق الجحيم يحلم بمثل هذه الأمور. فقد بدت، في شكل مريع، غير عملّية وغير قابلة للتنفيذ».

ولم تحصل التحليلات أيضاً على علامات مرتفعة. وأعلن الرئيس كارتر نفسه عن ارتباكه حيال واقع أن الموجز اليومي لـ «السي.آي.أيه.» يُجمل ما قرأه في الصحف. وتساءل هو وتورنر إذا كانت تقديرات «السي.آي.أيه.» تبدو سطحية وغير ذات صلة. وها إن الوكالة تنطلق في بداية مترجرجة مع الرئيس الجديد.

كارتر بدّل القواعد الطويلة الأمد

ضمّ فريق الأمن القومي الجديد لكارتر أربعة أعضاء رفيعي المستوى، يملكون أربع أجندات مختلفة. حلم الرئيس ونائب الرئيس بسياسة أميركية جديدة ترتكز على مبادئ حقوق الانسان. اعتقد وزير الخارجية سايروس فانس، أن الحد من الأسلحة هو فوق كل شيء. وحاول وزير الدفاع هارولد براون إنتاج جيل جديد من التكنولوجيا العسكرية والاستخباراتية بمليارات عدة من الدولارات، أقل مما خطط له البنتاغون. وشكّل مستشار الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي الصقر بين هذه البوم والحمائم. فقد أدت قرون من مآسي وارسو على يدي موسكو إلى شحذ تفكيره. أراد للولايات المتحدة أن تكسب القلوب والعقول في أوروبا الشرقية، وربط طموحاته بسياسة الرئيس الخارجية، وحاول ضرب السوفيات حيث هم الأضعف.

سبق للرئيس فورد والزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف توقيع اتفاق في ١٩٧٥

في هلسنكي، يؤيّد «حرّية تنقّل الناس والأفكار». وقد رأى فيه فورد وكيسينجر خدعة للأنظار. لكن آخرين كانون جادين للغاية: وهم جيل من المنشقين في روسيا وأوروبا الشرقية الذين طفح بهم الكيل بالابتذال الشرّير للدولة السوفياتية.

أمر بريجنسكي ـ وأقرّ كارتر ـ بالقيام بطائفة من الأعمال السرّية الموجهة إلى موسكو، ووارسو، وبراغ. أصدرا أوامر للوكالة بنشر كتب، وبدعم طباعة مجلات وصحف وتوزيعها في بولندا وتشيكوسلوفاكيا، للمساعدة في توزيع مؤلفات المنشقين في الاتحاد السوفياتي، ولمساندة العمل السياسي للأوكرانيين وغيرهم من الأقليات الإثنية السوفياتية، ولوضع آلات فاكس وأجهزة تسجيل في أيدي أصحاب الأفكار الحرّة في ما وراء الستار الحديدي. أرادا تقويض السيطرة على الإعلام التي تشكّل أساس القمع في العالم الشيوعي.

فتحت الحرب السياسية التي شنّها جيمي كارتر جبهة جديدة في الحرب الباردة، على حدّ قول بوب غيتس من «السي.آي.أيه.»، الذي كان يومها محللاً للشؤون السوفياتية في فريق بريجينسكي لمجلس الأمن القومي: «أصبح، من خلال سياساته حول حقوق الإنسان، أول رئيس منذ ترومان يتحدّى مباشرة شرعية الحكومة السوفياتية في نظر شعبها. وأدرك السوفيات فوراً ما يشكّله هذا من تغيير جذري: اعتقدوا أنه يسعى إلى قلب نظامهم»(٥).

كانت أهداف كارتر أكثر تواضعاً: أراد تغيير النظام السوفياتي، وليس القضاء عليه. إلا أن الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» لم يشأ تولّي المهمة. واجهت الأوامر التصعيدية بالعمل الخفي من البيت الأبيض مقاومة من رؤساء القسم السوفياتي ـ أوروبا الشرقية. ولهم في ذلك سببهم: فلديهم عميل في وارسو ذو قيمة عظيمة يريدون حمايته، ولا يريدون لمُثُل البيت الأبيض حول حقوق الانسان أن تعرّضه للتهديد. وهو عقيد بولوني اسمه ريشادر كوكلينسكي يزوّد الولايات المتحدة بنظرة متفحصّة جداً إلى الجيش السوفياتي. وهو المصدر الأرفع مستوى الذي امتلكته الوكالة في ما وراء الستار الحديدي. «لم يكن العقيد كوكلينسكي نفسه أبداً عميلاً لـ «السي.آي.أيه.» بالمعنى الحصري للكلمة»، قال بريجنسكي. «لقد تطوّع. وعمل من تلقاء نفسه»(٦). عرض سرّاً

خدماته على الولايات المتحدة في خلال زيارة إلى هامبورغ. كان البقاء على اتصال معه صعباً، وعمّ الصمت على مدى ستة أشهر متواصلة. إلا أن كالينسكي كان يترك دوماً خبراً عندما يسافر عبر البلدان الاسكاندينافية وأوروبا الغربية. ووفّر في خلال ١٩٧٧ و١٩٧٨، إلى أن أخذ يصبح موضعاً للشك والمراقبة في وارسو، معلومات تكشف كيف أن السوفيات سيجمعون جميع جيوش أوروبا الشرقية تحت سيطرة الكرملين إذا وقعت الحرب. وأبلغ الوكالة كيف ستدير موسكو الحرب في أوروبا الغربية؛ وخططها القاضية باستخدام أربعين سلاحا نوويا تكتيّا ضد مدينة هامبورغ وحدها.

شرع القسم السوفياتي، الذي تحرّر من جنون ريبة حقبة أنغلتون، في تجنيد جواسيس حقيقيين في ما وراء الستار الحديدي. وقال هافيلاند سميث من «السي.آي.أيه.»، «لقد ابتعدنا عن التقاليد الكبرى والعظيمة لـ «الأو.أس.أس.»، وأصبحنا جهاز تجسّس متكرّساً لجمع الاستخبارات الخارجية. والله، لقد أصبح في إمكاننا الذهاب إلى برلين الشرقية بدون أن يتم الإمساك بنا[٧]. أمكننا تجنيد أوروبيين شرقيين. كنا نتتبّع السوفيات ونجنّدهم. والشيء الوحيد الناقص هو أننا لا نعرف شيئاً عن النيات السوفياتية. ولا أعلم كيفية الحصول على هذا. إنه ميثاق الجهاز الخفي. ولو أننا تمكنّا من تجنيد عضو في المكتب السياسي، لحصلنا على كل شيء».

كان المكتب السياسي في نهاية السبعينيات هيئة من الشيوخ الحاكمين الفاسدين والمتهادمين. بالغت امبراطوريتهم على نحو خطر في التوسع، وأخذت تموت من داخل. فرئيس الاستخبارات السوفياتية صاحب الطموح السياسي يوري أندروبوف، خلق، لرؤسائه المرتعشي المشية في الكرملين، صورة كاذبة عن الاتحاد السوفياتي بوصفه قوّة عظمى. لكن الواجهة التي تخفي وراءها فراغاً خدعت «السي.آي.أيه.» أيضاً. قال الأميرال تورنر «كنّا نقدّر منذ أوائل ١٩٧٨ أن الاقتصاد السوفياتي يعاني مشكلة خطيرة. لم نقم بالهبّة التي كان علينا القيام بها، التي كان عليّ القيام بها، وهي أن المشكلة الاقتصادية ستؤدّي إلى مشكلة سياسية. اعتقدنا أنهم سيشدّون الحزام في نظام شبيه بنظام ستالين ويواصلون السير».

نظر الكثيرون من أعضاء الجهاز الخفي إلى قرار كارتر الغريزي في تأكيد مبادئ حقوق الإنسان، بوصفها مقياساً دولياً، على أنه عمل تقوى. وشكّلت تعبئته المتواضعة لـ «السي.آي.أيه.» من أجل سبر هذا الشق الضعيف في درع الستار الحديدي تحدّياً حذراً للكرملين. إلا أنه سرّع في بداية نهاية الاتحاد السوفياتي. وخلص بوب غيتس إلى أن «كارتر قام بالفعل في تغيير القواعد التي طال أمدها للحرب الباردة».

من النزاع الأسود ـ الأبيض إلى النزاع الأحمر ـ الأبيض

حاول الرئيس كارتر أيضاً استخدام «السي.آي.أيه.» لتقويض نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. وأدت وضعيته إلى تغيير مسار ثلاثين عاماً من سياسة الحرب الباردة الخارجية.

في ٨ شباط/فبراير ١٩٧٧، وافق فريق الرئيس للأمن القومي، في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض، على أن الوقت حان للولايات المتحدة لتحاول تغيير النظام العرقي الجنوب أفريقي. «ثمة إمكانيات لتغيير هذا من النزاع الأسود ـ الأبيض إلى النزاع الأحمر ـ الأبيض»، قال بريجنسكي[٨]. «وإذا شكّل هذا بداية عملية تاريخة طويلة ومريرة، فمن مصلحتنا تسريع هذه العملية». ولا يتعلّق الأمر بالعرق، بل بالوصول إلى الجانب الصحيح من التاريخ.

قال مدير الاستخبارات المركزية بالوكالة، إنّو كنوش: «إننا نسعى إلى تغييرات في الوضعيات الأساسية، وهي تتطلب مراقبة عن كثب شديد». وبعبارات أخرى، فإن على الولايات المتحدة الشروع في التجسس على جنوب أفريقيا. وفي ٣ آذار/مارس ١٩٧٧، أمر كارتر في اجتماع شامل لمجلس الأمن القومي، «السي.آي.أيه.» باستكشاف كيفية ممارسة ضغط اقتصادي وسياسي على جنوب أفريقيا وحليفتها العرقية روديسيا.

قال نائب مدير الاستخبارات المركزية في عهد كارتر، فرانك كارلوتشي، إن المشكلة هي في «عدم وجود من يريد إبداء الاهتمام بأفريقيا»[٩]. «كنّا مركّزين

جداً على الاتحاد السوفياتي. وإحدى أهم الغايات من وجود أناس في محطات في أفريقيا، كانت محاولة تجنيد السوفيات الموجودين هناك. وقد شكّلت تلك الأولوية الأولى».

دعم السوفيات المؤتمر الوطني الأفريقي، أقوى أعداء الفصل العنصري. وقد أُوقف رئيس المؤتمر، نيلسون مانديلا، وسُجن في ١٩٦٢، في جزء منه بفضل «السي.آي.أيه.» فقد عملت الوكالة بانسجام تام مع مكتب أمن الدولة الجنوب أفريقي. فقد وقف ضباط «السي.آي.أيه.» «جنباً إلى جنب مع الشرطة الأمنية في جنوب أفريقيا»، بحسب ما قال جيري غوسنز، وهو رئيس محطة في أربع دول أفريقية في عهود الرؤساء نيكسون، وفورد، وكارتر[١٠]. «وثمة كلام بأنهم دلّوا بالأصابع إلى مانديلا نفسه».

مضى غوسنز، في ١٩٧٧، للعمل على المؤمن المتصلّب بتفوق العرق الأبيض أيان سميث، الذي حكم روديسيا، وللعمل أيضاً على كنيث كاوندا رئيس زامبيا الموالي لأميركا. والتقى غوسنز، بوصفه رئيس المحطة في العاصمة لوساكا، على نحو منتظم، الرئيس كاوندا وجهازه الأمني. وأخذ في تظهير صورة القوى المسلَّحة السوداء والبيضاء المصطفة ضد بعضها البعض عبر أفريقيا الجنوبية: «أردنا معرفة عدد السوفيات والتشيكيين والألمان الشرقيين والكوريين الشماليين الذين يوفّرون الأسلحة والتدريب. هل يمكنهم التغلّب على الروديسيين؟ أردنا تحقيق اختراقات بشرية في الخطوط الأمامية للحكومات».

ثم إن غوسنز أصبح في ١٩٧٨ رئيس المحطة الجديد في بريتوريا. وقضت أوامر واشنطن له بالتجسس على الحكومة البيضاء في جنوب أفريقيا. وهكذا أصبحت «السي.آي.أيه.» جزءاً من جهد أميركي طموح لدفع السوفيات خارج أفريقيا الجنوبية، والفوز بدعم الحكومات الأفريقية السوداء.

وقال «إنها المرة الأولى في التاريخ التي تُعطَى لي فيها التعليمات بالشروع بعمليات من طرف واحد ضد مكتب أمن الدولة. وقد جئت بأناس جدد لم يتم إبلاغ الحكومة عنهم. وحدّدتُ أهدافاً جديدة في الجيش الجنوب أفريقي،

وبرنامجه النووي، وسياسته حيال روديسيا. وانكبّت السفارة كلّياً على مسألة: ما الذي تنويه حكومة جنوب أفريقيا؟». شرعت «السي.آي.أيه.»، على مدى سنتين، في جمع الاستخبارات عن أنظمة الفصل العنصري، ثم قامت الشرطة السرّية في روديسيا باعتقال ثلاثة ضباط في «السي.آي.أيه.» ضلّوا طريقهم إلى مصيدة. ووشت استخبارات جنوب أفريقيا بواحد رابع. جاء فرانك ج. ويسنر إلى زامبيا بوصفه السفير الأميركي الجديد، حيث يستذكر: «إن أكبر أزمة فريدة واجهتها، أصعب لحظة لديّ، جاءت نتيجة فضيحة تجسس أحد ضباط «السي.آي.أيه.»»[١١].

وشرع مقر القيادة، الذي أصابته المهمات المنسوفة بالذعر، في وضع حد للعمليات وسحب جواسيسه. وتوقفت فجأة جهود «السي.آي.أيه.» في تطبيق سياسات الرئيس المتعلقة بحقوق الإنسان.

إنهم ثقافة فريدة من نوعها

لم تكن أخلاقيات إدارة كارتر جيّدة لمعنويات مقر قيادة «السي.آي.أيه.» حاول الأميرال تورنر الإطاحة بتعهّد كارتر المتعلّق بعدم الكذب أبداً على الشعب الأميركي. فهذا يشكّل مأزقاً لرئيس جهاز استخبارات سرّي يعتمد عملاؤه على الخداع للنجاح. فالقليل من الثقة الذي يتولّد لدى تورنر بالجهاز الخفي كانت أعمال التخريب تُسقطه باستمرار.

في ١٩٧٨، وقع السفير الأميركي في يوغوسلافيا، لورنس أيغلبرغر، الذي أصبح في ما بعد وزيراً للخارجية في إدارة بوش الأولى، صدفة على توجيه من الجهاز الخفي في مقر القيادة إلى كل رئيس محطة في العالم. وكان أحد الذين يتولون منصباً رفيعاً جداً أرسل تعليمات، من وراء ظهر تورنر، بإبقاء العلميات السرّية الكبرى بمنأى عن معرفة السفراء الأميركيين في كل مكان في الخارج. وشكّلت هذه الرسالة انتهاكاً مباشراً لأوامر رئاسية قائمة منذ سبع عشرة سنة.

قال إيغلبرغر «سألت رئيس محطتي إذا كان ذلك صحيحاً. وأجاب، «نعم،

هذا صحيح». قلت، «حسناً، أريد أن ترسل رسالة جوابية إلى الأميرال تورنر»». وهي رسالة مقتضبة: «ستتوقفون عن العمل في يوغوسلافيا إلى أن يتم إبطال ذلك الأمر. وأعني بذلك، أنكم لن تأتوا إلى المكتب، ولن تقوموا بأي عمل في بلغراد أو في يوغوسلافيا: عليكم إغلاق متجركم وحسب»[١٢].

كان تورنر من مسيحيي الحركة العلمية وهو يشرب الماء الساخن مع الحامض بدلاً من القهوة أو الشاي، بينما قدامى الفتيان يفضّلون مزج الويسكي مع مائهم. ازدروا بتورنر قولاً وفعلاً. وكتب هو بعد سنوات لاحقة أن أعداءه داخل الجهاز الخفي حاولوا إسقاط سمعته بحملات تعمية» «وهي واحدة من مهاراتهم الأساسية»[١٣]. ومن بين أهمها قصة استمرت لربع قرن: وهي أن تورنر مسؤول بمفرده عن تقويض الجهاز الخفي في السبعينيات. فأول اقتطاعات كبرى أمر بها نيكسون. وأخرج جيمس شليسنغر ألف عميل خفي. واختار جورج بوش، في عهد فورد، تجاهل توصية من رئيس العمل الخفي لديه بترك ألفين آخرين يرحلون. وانتهى الأمر بتورنر بإخراج ٨٢٥ بالتحديد، بادئاً بآخر خمسة في المئة من جدول التأدية، وتمتع بدعم من الرئيس. وقال جيمي كارتر في رسالة إلى المؤلف «كنا على دراية بأن بعضاً من الموظفين غير المؤهلين وغير الكفوئين الذين قام بتسريحهم ناقمون جدا، لكن الأمر حظي بموافقتي الكاملة».

حارب قدامى الفتيان بقوة ضد تورنر عندما اختار مكماهون لقيادة الجهاز الخفي. فمكماهون ليس واحداً منهم، فقد بدأ بنقل حقائب دالاس، ويدير الآن مديرية العلوم والتكنولوجيا في الوكالة، وهي الفرع الذي أنتج أدوات التجسس ومنظوماته. وقد قال لتورنر: «لا، لست بالشخص المناسب لذلك. إنهم يشكلون ثقافة فريدة من نوعها، وهم يعملون بطريقة أفضل مع واحد منهم، وعليك أن تفهم طريقة تفكيرهم. فآخر مواجهة بيني وبينهم تعود إلى أوائل الخمسينيات، هناك في ألمانيا. والأزمنة قد تغيّرت»[١٤].

في كانون الثاني/يناير ١٩٧٨، وبعد مقاومة استمرت نصف سنة، أصبح ماكماهون ثالث رئيس للجهاز الخفي في ١٨ شهراً. وبعد ثلاثة أسابيع على تسلّمه مهامه، استدعي إلى المثول أمام اللجنة النيابية الجديدة للإشراف على

الاستخبارات. تمرّد الجهاز الخفي. «قل إنهم أصيبوا بسكتة... أصيبوا بالجنون»، قال ماكماهون[١٥]. «إلا أن ما أعرفه هو أن أعضاء الكونغرس لم يفهموا «السي.آي.أيه.» أو العمليات الخفية. وكان عليّ المضي إلى هناك وتعليمهم». جمع ملء كيس تسوّق من معدّات التجسس والأدوات ـ كاميرات مصغّرة، وأدوات تنصت سمعية وما شابه ـ ومضى إلى تلة الكابيتول. «قلت: دعوني أبلغكم كيف يكون العمل في موسكو». لم يذهب ماكماهون في حياته إلى موسكو. «قلت، هاكم الآن بعض المعدات التي نستخدمها، وأخذت في استعراضها. ونظروا إلى هذه الأدوات.... وأصبحوا مأخوذين». أعطت اللجنة المسحورة الجواسيس موازنة أكبر بكثير مما طلب الرئيس. وبدأت هناك وحينها، في خريف ١٩٧٨، إعادة بناء الجهاز الخفي الذي عاثت به وأهبطت معنوياته الاقتطاعات العائدة إلى سنوات نيكسون.

إلا أن المزاج بقي متجهماً في قلعة الاستخبارات الأميركية. وفي ٥ شباط/ فبراير ١٩٧٩، نصح صلة الوصل بين الوكالة وبريجنسكي الأخير بأنه «برغم مشاكل الروح المعنوية الراهنة (والمتفاقمة) فيها فلا يزال في وسع «السي.آي.أيه.» الخروج ببعض الأفكار الخلاقة، على ما أظن. إلا أنه لا يجب ان نخدع أنفسنا: فالقدرات التي اعتاد وجودها في «السي.آي.أيه.» أصبحت ضئيلة جداً الآن، وثمة قلة من الضباط المستعدين لركوب مخاطر من النوع الذي كان يتم فيه ركوبه في شكل روتيني لإنجاز الأمور»[١٦].

وفي الأسبوع ذاته، أخذ العالم في التساقط على «السي.آي.أيه.»

رياضة المتفرّج

سقط جيش الشاه في ١١ شباط/فبراير ١٩٧٩، واستولى أحد رجال الدين الراديكاليين على السلطة في طهران. بعد ذلك بثلاثة أيام، حادثة قتل على بعد بضع مئات من الأميال غرباً ستلقي بالحمل الثقيل ذاته على الولايات المتحدة.

خُطف السفير الأميركي في أفغانستان، أدولف سبايك دابس، من شوارع

كابول على أيدي متمردين أفغان يقاتلون النظام الألعوبة الموالي للسوفيات، وقُتل عندما هاجمت الشرطة الأفغانية ـ يواكبها مستشارون سوفيات ـ الفندق الذي أحتُجز فيه. شكّلت تلك إشارة واضحة إلى أن أفغانستان أخذت تخرج عن السيطرة. فالمتمرّدون المسلمون، الذين تدعمهم باكستان، شرعوا في الاستعداد للثورة على حكومتهم الملحدة. تطلّع الزعماء الطاعنون في السن إلى الاتحاد السوفياتي جنوباً بخوف. فأكثر من أربعين مليون مسلم يعيشون في جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية. شاهد السوفيات لهب الأصولية الإسلامية يحترق في اتجاه حدودهم. وفي اجتماع المكتب السياسي الموسّع الذي بدأ في ١٤ شباط/ فبراير، أعلن رئيس الاستخبارات السوفياتية يوري أندروبوف، أنه «لا تمكننا خسارة أفغانستان».

أخفقت «السي.آي.أيه.»، على امتداد الأشهر التسعة التالية، في تحذير رئيس الولايات المتحدة من اجتياح غيّر وجه العالم[١٧]. فالوكالة لم تمتلك سوى إدراك متوسط للقدرات السوفياتية، ولم تفقه شيئاً عن النيات السوفياتية.

«سيُحجم السوفيات كثيراً عن إدخال أعداد كبيرة من القوات البرّية إلى أفغانستان»، أعلنت بثقة يومية الاستخبارات الوطنية، الصادرة في ٢٣ آذار/ مارس، عن «السي.آي.أيه.»، وهي ترفع تقريرها السرّي للغاية إلى البيت الأبيض، والبنتاغون، ووزارة الخارجية. وبدأ، في ذلك الأسبوع، ثلاثون ألف جندي مقاتل سوفياتي في الانتشار في الشاحنات، والدبابات، وناقلات الجند المصفحة، على مقربة من الحدود الأفغانية.

تزايدت، في تموز/يوليو وآب/أغسطس، هجمات المتمردين الأفغان، وشرعت حاميات الجيش في العصيان، وطارت موسكو بكتيبة من وحدات القتال المجوقلة إلى قاعدة باغرام الجوية خارج كابول. وبمبادرة من بريجيسنكي، وقّع الرئيس كارتر على أمر عمل خفي لـ «السي.آي.أيه.» لتزويد المتمردين الأفغان بالمساعدة الطبية، والمال، والدعاية. وبعث السوفيات بثلاثين جنرالاً إلى كابول بقيادة قائد القوات البرّية السوفياتية. ومع ذلك، بقيت «السي.آي.أيه.»، في ٢٤ آب/أغسطس، تطمئن الرئيس إلى أن «الوضع

المتدهور لا ينذر بتصعيد في التورّط العسكري السوفياتي ليأخذ شكل الدور القتالي المباشر»[١٨].

في ١٤ أيلول/سبتمبر، أبلغ الأميرال تورنر الرئيس أن «القادة السوفيات ربما يكونون على عتبة قرار بإقحام قواتهم الخاصة لمنع انهيار النظام» في أفغانستان، لكن رويداً رويداً فقط، من خلال مجموعات صغيرة من المستشارين العسكريين، وبضعة آلاف من الجنود. إلا أن «السي.آي.أيه.»، غير المتأكدة من هذا التقويم، جمعت معاً كل خبرتها وكل عنصر من عناصر الاستخبارات العسكرية، والنصوص المكتوبة للتنصت الإلكتروني، وعمليات الاستطلاع بواسطة أقمار التجسس، في عملية مراجعة شاملة للدليل. وخلص الخبراء بالإجماع، في ٨ كانون الأول/ديسمبر، إلى أن موسكو لن تجتاح أفغانستان.

استمر الجنود السوفيات في المجيء. وفي ٨ كانون الأول/ديسمبر، حطّت الكتيبة المجوقلة الثانية في باغرام. وقوّمت يومية الاستخبارات الوطنية وجودهم على أنه تحرّك لدعم دفاعات القاعدة الجوية ضد هجمات المتمردين. وفي الأسبوع التالي، أفاد رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في كابول، عما نُقل إليه من مشاهدات، بوجود كوماندوس سوفيات من القوات الخاصة في شوارع المدينة.

ذهب الأميرال تورنر، صباح الاثنين، في ١٩ كانون الأول/ديسمبر، إلى اجتماع لجنة التنسيق الخاصة في البيت الأبيض، والمؤلفة من أكبر مساعدي الرئيس. ومن بين الموجودين حضر نائب الرئيس والتر مونديل، وزبيغنيو بريجنسكي، ووزير الدفاع هارولد براون، ونائب وزير الخارجية وارن كريستوفر. وأبلغهم تورنر أن ثمة الآن ٥,٣٠٠ جندي سوفياتي في قاعدة باغرام ومركزي قيادة سوفياتيين تماماً عند شمال الحدود الأفغانية. ثم قال: «لا تجد «السي.آي.أيه.» في هذا حشداً مكثّفاً»[١٩]. وهو «يتّصل ربّما بالنظرة السوفياتية إلى تدهور القوات العسكرية الأفغانية، والحاجة إلى تقويتها عند حد ما». ولم ترد كلمة غزو على شفتيه.

عمل أفضل محللي الشؤون السوفياتية ـ ومن بينهم دوغ ماك إيتشين، الذي

أصبح لاحقاً نائباً لمدير الاستخبارات ـ على مدار الساعة لتنظيم معرفتهم من أجل الرئيس. وأصدروا في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر حكمهم الرسمي النهائي: «معدّل سرعة الانتشارات السوفياتية لا يوحي... بطارئ عاجل»، قالوا[٢٠]. «فعمليات مكافحة التمرّد على مستوى الريف تتطلب أعداداً أكبر بكثير من القوات البرّية النظامية». باختصار، فإن السوفيات لم ينووا الهجوم.

بعد ذلك بثلاثة أيام، تلقى نائب الأميرال بوبر راي إينمان، مدير وكالة الاستخبارات الوطنية، وهي امبراطورية التنصت الأميركية، برقية عاجلة من الميدان: غزو افغانستان وشيك. وهو قد بدأ في الواقع. أخذ أكثر من مئة ألف جندي سوفياتي في الاستيلاء على البلاد. وقّع كارتر على الفور أمر عمل خفي لـ «السي.آي.أيه.» للشروع في تسليح التمرد الأفغاني، وبدأت الوكالة في بناء خط نقل عالمي لتزويد أفغانستان بالسلاح، إلا ان الاحتلال السوفياتي بات أمراً واقعاً.

ولم تكتف «السي.آي.أيه.» بتفويت الغزو، بل رفضت الاعتراف بأنها فوّتته. لماذا يقوم شخص بكامل قواه العقلية باجتياح أفغانستان: مقبرة الغزاة لأكثر من ألفي عام؟ لم يكن السبب هو النقص في الاستخبارات، لكنه النقص في المخيّلة.

وهكذا، أصبح الغزو السوفياتي لأفغانستان «رياضة المتفرّج» للولايات المتحدة[٢١]، بحسب ما كتب نجم محللي الوكالة دوغ ماك إيتشين بعد ذلك بعشرين سنة. «يمكن الولايات المتحدة القيام بالكثير من الضجيج من مقاعد المتفرجين، لكن لا يمكنها أن تُحدث وقعاً فعلياً على أرض الملعب. سيكون على ذلك أن ينتظر حتى الجولة المقبلة من المباراة الكبرى».

٣٧

كنّا وحسب غارقين في النوم

منذ أن ضمنت «السي.آي.أيه.» عرشه في ١٩٥٣، وشاه إيران محطّ أنظار السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط. وقال الرئيس نيكسون، مستفكراً، في نيسان/أبريل ١٩٧١، «أتمنى وحسب لو أنه يوجد بضعة زعماء إضافيين حول العالم يمتلكون بعد نظره، وقدرته ـ ولنواجه الأمر ـ على ممارسة ديكتاتورية حقيقية بطريقة حميدة»[١].

وربّما لم يقصد نيكسون توجيه رسالة من خلال إرساله ريتشارد هيلمس سفيراً أميركياً إلى إيران في ١٩٧٣. لكنه فعل. وقال كبير المسؤولين السياسيين في السفارة الأميركية، هنري برشت، «أخذتنا الدهشة لقيام البيت الأبيض بإرسال رجل كانت له، في النهاية، علاقة بـ «السي.آي.أيه.» التي يعتبرها كل إيراني مسؤولة عن سقوط مصدّق. وبدا لنا ذلك كأنه تخلّ عن أي ادعاء من أي نوع بحياد أميركا، كأنه تأكيد على أن الشاه ألعوبة في يدنا»[٢].

في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٧، وفي نخب رفعه للشاه في حفل عشاء متألّق، وصف الرئيس كارتر النظام الملكي بـ «جزيرة الاستقرار في بحر من الاضطراب»[٣]، وهي نظرة أكّدها جواسيس «السي.آي.أيه.» ومحللوها وكرروها قبل ذلك بخمس عشرة سنة. وهي، في الواقع، الجملة ذاتها التي استخدمها الشاه لوصف نفسه.

إلا أنه عندما جاء هوارد هارت، وهو واحد من أكثر الضباط شجاعة الذين ينتجهم الجهاز الخفي، إلى طهران بعد ذلك بأسابيع، وشرع في القيام بما يتقن

عمله ـ التجوّل خلسة في الشوارع، والإفادة عما يجري في العالم الحقيقي ـ توصّل إلى استنتاج معاكس. وكان عمله متشائماً جداً إلى حد أن رؤساءه طمسوه. فهو يناقض في شكل مباشر كل ما قالته «السي.آي.أيه.» عن الشاه منذ الستينات.

لم تفد «السي.آي.أيه.» بأي ما من شأنه أن يوحي بأن الشاه يواجه مشكلة. فهي افتقرت إلى القدرة على مساءلة ٢٥ عاماً من إفاداتها الخاصة. ففي آب/ أغسطس ١٩٧٨، أبلغت الوكالة البيت الأبيض أن إيران ليست مطلقاً في وارد الثورة. وحصلت بعد ذلك بأسابيع أعمال شغب في الشوارع. وبينما أخذت تنتشر، بعث كبار محللي «السي.آي.أيه.» إلى الأميرال تورنر بمسودة للتقدير الاستخباراتي الوطني للتوقيع عليها. وجاء فيها أن الشاه قد يتمكن من البقاء لعشر سنوات أخرى. وربما قد لا يتمكن. قرأها تورنر واعتبرها غير نافعة ووضعها على الرف.

في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، هرب الشاه من طهران. وأخذت بعد ذلك بأيام،.وجهات نظر هوارد هارت من الشوارع تصبح بالتأكيد أكثر ظلامة(٤).

أوقف على أيدي مجموعات مسلّحة، من أتباع رجل الدين الراديكالي، ابن السابعة والسبعين، آية الله روح الله موسوي الخميني، الذي يستعد للعودة إلى إيران من المنفى. وهارت ابن مستثمر مصرفي، وقد أمضى ثلاث سنوات، وهو ولد صغير، مسجوناً داخل معسكر سجن ياباني في الفيليبين إبان الحرب العالمية الثانية. وها إنه الآن يُسجن مرّة أخرى. أساء معتقلوه معاملته، وأقاموا محكمة صورية، وأعلنوه جاسوساً لـ «السي.آي.أيه.»، واستعدوا لإعدامه فوراً. طلب هارت، وهو يعلن براءته، ويتوسّل حياته، ويستعد للموت، لقاء أقرب أي من رجال الدين، وقد جاء أحدهم، وهو شاب، ليلتقي الجاسوس الأشقر، الأزرق العينين، المفتول العضلات في قبضة العدالة الشرسة.

واستذكر هارت، «قلت، هذا خطأ. هذا غير مباح في أي مكان من القرآن». قلّب رجل الدين المسألة ثم وافق، ومضى هارت حرّاً.

لم ندرك من هو الخميني

بعد ذلك بأيام، وفي الأول من شباط/فبراير ١٩٧٩، فتحت الثورة الشعبية، التي دفعت بالشاه من على عرش الطاووس، الطريق أمام عودة الخميني إلى طهران. أُجلي آلاف الأميركيين، بمن فيهم معظم موظفي السفارة، بينما أخذت الفوضى تتعاظم في الشوارع. واستمر في هذه الأثناء، رئيس حكومة علماني ممسكا بالسلطة إلى جانب مجلس ثوري، وقد حاولت «السي.آي.أيه.» العمل معه، والتأثير فيه، وتعبئته ضد صدّام حسين. وقال القائم بالأعمال في السفارة الأميركية، بروس لينغن، «إنه تم إجراء محادثة ما حساسة، وحساسة جداً وسرّية على مستوى رئيس الوزراء. وبلغنا في الواقع حدّ الجلوس معهم وإعطائهم معلومات استخباراتية سرّية للغاية عن العراق»(٥).

كان لينغن، في ١٩٥٣، المسؤول الأصغر سنّاً في السفارة الأميركية في طهران. وأصبح الشخصية القيادية الأعلى مرتبة في ١٩٧٩. وفي السنوات الفاصلة بينهما، بات تتابع من رؤساء المحطات والسفراء مرتاحاً أكثر من اللازم إلى الشاه، شديد الولع بكافياره وبالشامبانيا التي يقدمها. وقال لاينغن «لقد دفعنا ثمن ذلك. فنحن هناك لمعرفة بماذا يفكّر الناس، ولماذا يفكّرون ويتصرفون بهذه الطريقة. وإذا ارتحنا كثيراً في الاعتقاد بشيء يوافق أهدافنا، فإننا، في الواقع، نواجه مشكلة جهنمية»(٦).

لم يمكن فهم فكرة أن الدين سيثبت، في أواخر القرن العشرين، على أنه قوة سياسية طاغية. قلة هم في «السي.آي.أيه.» من اعتقدوا أن رجل دين معمّرا سيتمكن من الاستيلاء على السلطة، ويعلن إيران جمهورية إسلامية. «لم ندرك من هو الخميني والدعم الذي حصلت عليه حركته»، قال تورنر، أو ماذا يمكن رؤيته التي تعود إلى القرن السابع، أن تعني للولايات المتحدة.

قال «كنا مستغرقين في النوم وحسب»(٧).

في ١٨ آذار/مارس ١٩٧٩، عقد هوارد هارت، وقد أصبح الآن رئيس

المحطة بالوكالة، اجتماعاً في الثانية فجراً مع ضابط رفيع المستوى في السافاك ـ شرطة الشاه السرّية الوحشية ـ خدم المحطة بإخلاص كعميل ومخبر. وبعدما مرّر إلى الضابط مالاً ووثائق مزوّرة لمساعدته على الهرب من طهران، اصطدم هارت باثنين من حرّاس ثورة الخميني. ضرباه بوحشية، وهما يصرخان «السي.آي.أيه.»! «السي.آي.أيه.»! شهر هارت، المنبطح على ظهره، مسدّسه وقتل كليهما بطلقتين. واستذكر بعد ذلك بسنوات كثيرة الحمية المتوقّدة في أعينهما. إنه وجه الحرب المقدّسة. وقال مستفكراً، «لم نملك، كأمّة، أي فكرة لعينة عمّا هو هذا»[٨].

الأمر يتجاوز الإهانة

اعتقد الإيرانيون، من كل مشارب الحياة، بمن فيهم النخب المثقفة جداً والراديكاليون المحملقو العيون على السواء، أن «السي.آي.أيه.» قوة كلّية القدرة لها سلطة هائلة على حياتهم. ولم يكونوا ليتمكنّوا من تصديق الحقيقة: ففي صيف ١٩٧٩، كانت محطة «السي.آي.أيه.» كناية عن عملية مؤلفة من أربعة رجال، وأربعتهم جميعاً من القادمين حديثاً إلى إيران. فهوارد هارت عاد إلى مقر القيادة في تموز/يوليو، تاركاً وراءه رئيس محطة جديداً، هو توم أهرن الذي أمضى الأعوام الثلاثة عشر الماضية في اليابان؛ وضابطاً محرّكاً محنّكاً، هو مالكولم كالب؛ وتقني اتصالات، هو فيل وارد؛ وعنصراً من قدامى المارينز هو ابن الثانية والثلاثين، يُدعى وليام ج. دوهرتي الذي انضم إلى «السي.آي.أيه.» قبل ذلك بتسعة أشهر. وقد طار دوهرتي في ٧٦ مهمة قتالية في خلال حرب فيتنام، وشكّلت طهران أول فترة خدمة له.

وقال مستذكراً، «عرفت القليل عن إيران، بل إنني عرفت أقل من ذلك عن الإيرانيين. فكامل اتصالي بإيران، في ما عدا أخبار المساء التلفزيونية ودراسة تمت في خلال ثلاثة أسابيع عن المنطقة في وزارة الخارجية، يأتي مما تعرّفت إليه في خلال خمسة أسابيع قضيتها في المكتب أقرأ فيها ملفات عملانية»[٩].

سبق، قبل ذلك بخمسة أشهر، أن اجتاحت مجموعة من الماركسيين

الإيرانيين السفارة الأميركية. قاد أتباع آية الله، هجوماً معاكساً، ورموا بالشيوعيين خارجاً، وحرروا الأميركيين. لم يعتقد أحد أن الأمر قد يتكرّر. «لا تخشوا هجوماً آخر على السفارة»، طمأن رئيس فرع إيران في مقر قيادة محطة طهران[١٠]. «الأمر الوحيد الذي قد يسبب هجوماً هو السماح للشاه بالمجيء إلى الولايات المتحدة، وما من أحد في هذه المدينة على درجة كافية من الغباء للقيام بذلك».

في ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٩، حدّق دوهرتي في برقية جديدة من مقر القيادة. «لم أصدّق ما قرأته»، قال مستذكراً.

قرر الرئيس كارتر في ذلك اليوم، ضد حكمه الأفضل على الأمور، وتحت ضغوط سياسية كثيفة من أصدقاء الشاه ـ وبخاصة هنري كيسينجر ـ أن يستقبل العاهل المنفي في الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبي. عانى الرئيس آلاماً نفسية شديدة في شأن هذا القرار، مخافة أن يتم احتجاز أميركيين رهائن كإجراء انتقامي. «صحتُ، انسوا أمر الشاه! فهو سيكون بخير يلعب كرة المضرب في أكابولكو، كما ستكون حاله لو أنه في كاليفورنيا»، قال كارتر مستذكراً[١١]. «فما الذي سنفعله إذا احتجزوا عشرين من عناصر المارينز لدينا، وقتلوا واحداً منهم عند بزوغ فجر كل يوم؟ هل سنشن الحرب على إيران؟».

لم يفكّر أحد في البيت الأبيض في أن يطلب رأي الوكالة.

احتلت بعد ذلك بأسبوعين، مجموعة من الطلاب الإيرانيين، وجميعهم من أتباع آية الله، السفارة الأميركية. احتجزوا ٥٣ رهينة طوال الفترة الباقية من إدارة كراتر، على مدى ٤٤٤ يوما وليلة. أمضى دوهرتي الأسابيع الأخيرة من ١٩٧٩ في السجن الإفرادي. ويستذكر ستة استجوابات ما بين ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر و١٤ كانون الأول/ديسمبر، تبدأ مع حلول الليل وتستمر حتى الفجر، ويتولاها حسين شيخ الإسلام، الذي سيصبح مستقبلاً نائباً لوزير خارجية إيران. بعد منتصف ليل الثاني من كانون الأول/ديسمبر، سلّمه حسين برقية. «حسبتُ أن حياتي انتهت»، كتب في مذكّرة لصيحفة «السي.آي.أيه.» الداخلية.

«كشفت البرقية اسمي الحقيقي، وأعلنت بوضوح أنني ملحق بالمحطة في طهران. وأشارت أيضاً إلى البرنامج الخاص الذي جئتُ بموجبه إلى الوكالة قبل ذلك بعشرة أشهر. وعندما رفعت نظري إلى حسين والشخصين اللذين يأتمران بأمره، كانوا يبتسمون ابتسامة عريضة أشبه بثلاثة هررة من رواية «أليس في بلاد العجائب»».

واستذكر دوهرتي أن مستجوبيه «قالوا إنهم يعرفون أنني رئيس كامل شبكة تجسس «السي.آي.أيه.» في الشرق الأوسط، وأنني أخطط لاغتيال الخميني، وأحرك الأكراد للثورة على حكومة طهران. اتهموني بالعمل على محاولة تدمير بلادهم. وجد هؤلاء الإيرانيين أنه من غير المعقول أن ترسل «السي.آي.أيه.» أبداً إلى مثل هذا المكان الخطير، شخصاً على هذا القدر من الجهالة للثقافة المحلّية واللغة[١٢]. لم يكن الأمر بالنسبة إليهم ليقبل التصديق إلى درجة أنهم عندما أدركوا الحقيقة أخيراً، بعد أسابيع لاحقة، شعروا شخصياً بالإساءة. فقد صعب الأمر كفاية عليهم ليقبلوا أن «السي.آي.أيه.» ستضع ضابطاً غير ذي خبرة في بلادهم. إلا أن الأمر يذهب إلى ما هو أبعد من الإهانة عندما لا يتحدّث هذا الضابط اللغة أو يعرف عادات، بلادهم وثقافتها، وتاريخها».

بعد انتهاء كل ليلة استجواب، كان دوهرتي ينام نوماً متقطّعاً على فراش مطّاطي في مكتب رئيس المحطة. وأخذ، في وقت كان فيه مئات الألوف من الإيرانيين يطلقون الهتافات في الشوارع خارج المجمع الأميركي المسوّر، يحلم بأنه يحلّق بطائرة فوق الجادات الواسعة ويحرق الجموع بالنابالم.

لم يكن في وسع «السي.آي.أيه.» القيام بأي شيء لتحريره ورفاقه الرهائن في السفارة الأميركية، إلا أن الوكالة نفّذت في كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، عملية تجسس كلاسيكية لإخراج ستة موظفين في وزارة الخارجية تمكنوا من إيجاد ملاذ لهم في السفارة الكندية في المدينة.

كانت العملية من بنات أفكار عضو «السي.آي.أيه.» توني مانديز، المتخصص في التزوير والتنكّر[١٣]. فمانديز وعناصر فريقه هم الأشخاص الذين

أتقنوا أقنعة المهمة المستحيلة التي سمحت لضباط من البيض بالتنكر على أنهم من الافريقيين، والعرب، والآسيويين. لقد شكل مثالاً نادراً على النبوغ المتبصّر في «السي.آي.أيه.».

أنشأ مانديز، كتغطية للمهمة في إيران، شركة إنتاج سينمائية هوليوودية وهمية «استوديو ٦»؛ واستأجر مكاتب في لوس أنجليس؛ واشترى صفحة إعلان كاملة في «فاراييتي» وفي «هوليوود ريبورتر» تعلن عن فيلمه المقبل «أرغو»، وهو كناية عن رواية من الخيال العلمي تتضمن مواقع تصوير في إيران. وتضمن سيناريو الفيلم ـ والعملية ـ وثائق وأقنعة للأميركيين الستة. تدبّر دخوله إلى إيران مع السلطات المختصة، متسلّحاً بمحفظة مستندات وجوازات سفر مزوّرة وإعلانات وهمية، وطار في رحلة تجارية من بون، ونزل في شيراتون طهران، وأخذ تاكسي إلى السفارة الكندية للقاء رفاقه الأميركيين. أنجز مانديز عملية أرغو بدون أي مشكلة تذكر. ولكزه أحد الأميركيين الذين حرّرهم على ذراعه وهم يدخلون الرحلة التابعة للخطوط الجوية السويسرية، وقال، «أنت تدبّرت كل شيء، أليس كذلك؟»، وكان يشير إلى الاسم المطلي على مقدمة الطائرة ـ «أرغو» ـ وهي كانتون في سويسرا.

«اعتبرنا ذلك إشارة إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام»، استذكر مانديز. «انتظرنا إلى أن أقلعت الطائرة وغادرت المجال الجوي الإيراني قبل أن نعلن البُشرى ونطلب البلادي ماري».

فعل انتقام

لم يؤد مثل هذا السحر إلى تحرير السجناء الآخرين. كانت قوات العمليات الخاصة التابعة للبنتاغون تتولى عملية «الصحراء واحد»، وهي المهمة المقررة في نيسان/أبريل ١٩٨٠ لإنقاذ الرهائن في السفارة الأميركية. «اعتمد الجهد في شكل كبير جداً على «السي.آي.أيه.»»[١٤] قال أنتوني كوينتون، كبير منسقي الحكومة لشؤون مكافحة الإرهاب من ١٩٧٨ إلى ١٩٨١. وفّرت الوكالة استخبارات عن المكان المحتمل للرهائن داخل مجمع السفارة. وحلّق طياروها

بطائرة صغيرة لم يتم اكتشافها إلى الصحراء الإيرانية لاختبار موقع الهبوط من أجل المهمة. وساهم هوارد هارت في وضع المخطط المعقّد في شكل هائل لإخراج الرهائن والطيران بهم إلى الحرية. إلا أن المهمة انتهت إلى كارثة: مات تسعة من رجال الكوماندوس في القفر الإيراني بعد اصدام إحدى طائرات الهيليكوبتر بطائرة شحن.

أصبحت حياة الرهائن أكثر سوءاً. نُقل بيل دوهرتي من السفارة ورُمي به في السجن. أمضى معظم الأشهر التسعة التالية في الحبس الإفرادي، في زنزانة تكاد تكون على قياس طوله البالغ ١٨٨ سم. وانتهى به الأمر يزن ستين كيلوغراماً. تم في النهاية تحريره وبقية الرهائن بموافقة من آسريهم في الساعة التي غادر فيها الرئيس كارتر البيت الأبيض للمرة الأخيرة. لم تكن لاطلاقهم أي علاقة بالعمل الخفي للاستخبارات الأميركية، بل شكّل بياناً سياسياً استُنبط لإذلال الولايات لمتحدة.

في اليوم التالي، جاء جيمي كارتر، وقد أصبح مواطناً عادياً، لموافاة الأميركيين المحررين في إحدى القواعد العسكرية في ألمانيا. «لا أزال أحتفظ بالصورة الفوتوغرافية مخبّأة في مكان ما»، سجّل دوهرتي. «بدا الرئيس السابق مربكاً، وأنا كنت أشبه بجثة عابسة»[١٥].

كتب كن بولاك، أحد قدامى محللي الشرق الأوسط في الوكالة، أن أخذ الرهائن شكّل «عمل انتقام»[١٦] من انقلاب في ١٩٥٣ في إيران. لكن إرث تلك العملية المتقادمة في الزمن، ذهب إلى ما هو أبعد من المحنة الأميركية. فستسكن غيرة الثورة الإيرانية رؤساء الولايات المتحدة الأربعة المقبلين، وتقتل مئات الأميركيين في الشرق الأوسط. وستتحول علامة مجد العملاء الخفيين من جيل عظماء إلى نار مستعرة بالنسبة إلى وارثيهم.

٣٨

قرصان مرتزق

توجه في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٠، مدير الاستخبارات المركزية وثلاثة من كبار مساعديه بالسيارة إلى وكسفورد، وهو عقار تابع لأحد الأثرياء في بلاد الأحصنة فرجينيا وامتلكه في ما سبق جون وجاكي كنيدي. جاءوا للإيجاز للمرشح الجمهوري للرئاسة، رونالد ريغان الذي وافق على تخصيص ساعة من وقته لـ «السي. آي. أيه.».

توفّرت لتورنر ١٥ دقيقة لتغطية غزو صدام حسين الأخير لإيران. وخُصصت ١٥ دقيقة إضافية للاحتلال السوفياتي المستمر منذ تسعة أشهر لأفغانستان، وشحنات أسلحة «السي. آي. أيه.» لدعم المقاومة الأفغانية. وخصص بوب إيمس، خبير الوكالة في الشرق الأوسط، ١٥ دقيقة للمملكة العربية السعودية ونظام حكم آية الله الخميني الديني. وهرع عناصر من محيط ريغان، الذين أثارتهم احتمالات الفوز المؤكد في الانتخابات المقبلة، دخولاً وخروجاً من الغرفة أشبه بشخصيات غريبة الأطوار في مسرحية كوميدية. وانتهت الساعة في ومضة.

لم يعرف ريغان عن «السي. آي. أيه.» أكثر بكثير مما عرفه في الأفلام. لكنه وعد بفك عقالها، والتزم بكلامه. والرجل الذي اختاره للمهمة كان مدير حملته البارع والملتوي، وليام ج. كايسي.

وعلّق كايسي، الذي تسيطر عليه ذكريات أيامه كرئيس لاستخبارات «الأو.أس.أس.» في لندن، صورة موقّعة لوايلد بيل دونوفان على جدار مكتبه في

مقر القيادة. وعلى مدى السنوات الست المقبلة أخذ يتأمّله من فوق. فوايلد بيل قال إنه على الاستخبارات، في حرب توتاليتارية شاملة، أن تكون توتاليتارية شاملة. وشكّل هذا فعل إيمان بيل كايسي. وهدف إلى إعادة إحياء الروح القتالية في «السي.آي.أيه.» «من الواضح أن نظرته إلى كيفية خوض حرب ضد قوة توتاليتارية قد صيغت في الحرب العالمية الثانية»، قال بوب غايتس، الذي عمل ست سنوات إلى جانبه. «حيث لا توجد كوابح، وحيث يمكن القيام بأي شيء»(١).

حاول كايسي أن يصبح وزيراً للخارجية، لكن المقرّبين من ريغان استهولتهم الفكرة. فالمسألة مسألة مظاهر. وكايسي ليس برجل دولة: فهو أشبه بسرير غير مرتّب، ويتمتم بطريقة غير مفهومة، ويأكل كالأخرق. ولم تكن المرأة، التي تنتظر لتصبح السيدة الأولى، لتتحمل فكرة وجود كايسي في مأدبة عشاء رسمية وهو يرمي الطعام في حضنه. أصيب كايسي بالمرارة بعدما شعر بالمعارضة، لكنه فاز بصفقة بالمصافحة مع ريغان: فهو سيرضى بـ «السي.آي.أيه.»، لكن عليه ان يحصل على رتبة وزارية، وأول مدير يفعل هذا، وأن يحظى بالقدرة على الاجتماع بالرئيس على انفراد. وهو سيستخدم هذه السلطات ليس لمجرّد تنفيذ السياسة الخارجية الأميركية، بل لصنعها، كما لو أنه، في مآل الأمر، وزيراً للخارجية. وكل ما احتاج إليه كايسي، هو بضع دقائق مع الرئيس، وإيماءة أو تلميحة، فينطلق.

كان كايسي وغداً ساحراً، وعاملاً قديماً في «وول ستريت» صنع ثروته من بيع استراتيجيات الحماية من الضرائب. وتُعزى موهبته إلى تطويع القوانين حتى نقطة الانكسار. «علينا، والله، أن نتخلّص من المحامين!»، أسرّ مرّة إلى وليام وبستر، مدير «الأف.بي.آي.» في عهد ريغان. «لا أعتقد أنه عنى بذلك القول بطرح الدستور»، قال وبستر الذي كان رجل قانون حتى العظم. «بل إنه كان يتجه إلى الشعور بإكراهات القانون. وهو يريد طريقة للتملص منها»(٢).

وثق به ريغان، والآخرون لا. «فوجئت للغاية عندما اختار الرئيس ريغان كايسي»، قال جيرالد ر. فورد. «فهو ليس مؤهلاً ليصبح رأس

«السي.آي.أيه.»»[٣] ووافق جورج بوش، مدير الاستخبارات المركزية في عهد فورد، على ذلك من صميم قلبه. وقال، «كايسي يشكّل خياراً غير مناسب»[٤].

بيد أن كايسي اعتقد أنه مسؤول عن انتخاب ريغان، وأن لديهما دوراً تاريخياً يلعبانه معاً. وعلى غرار ريغان، امتلك كايسي رؤى كبيرة. واعتقد، على غرار نيكسون، أنها إذا كانت سرّية، فهي مشروعة. وظنّ، على غرار بوش، أن «السي.آي.أيه.» تجسّد أفضل القيم الأميركية. واحتفظ، على غرار السوفيات، بالحق في الكذب والخداع.

بدأت سنوات ريغان بفورة من العمليات الخفية التي وافقت عليها مجموعة التخطيط الصغيرة للأمن القومي، التي اجتمعت في غرفة الأوضاع الواقعة تحت أرض البيت الأبيض. وشكّلت المجموعة مختبر العمل الخفي في سنوات ريغان. وتألف لب أعضائها، في البداية، من الرئيس، ونائب الرئيس بوش، ووزير الخارجية كاسبار و. واينبرغر، ومستشار الأمن القومي، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، والسفيرة لدى الأمم المتحدة جين كيركباتريك، وصديقها المقرّب بيل كايسي. سيطر كايسي على الاجتماع الأول، وأعطته المجموعة، في الشهرين الأولين على الإدارة الجديدة، إشارة الانطلاق لعمليات خفية كاسحة تستهدف أميركا الوسطى، ونيكاراغوا، وكوبا، وشمال أفريقيا، وجنوب أفريقيا.

في ٣٠ آذار/مارس ١٩٨١، أطلق معتوه النار على الرئيس على أحد أرصفة واشنطن. شارف ريغان على الموت في ذلك اليوم، وهو واقع لم يعرف الشعب الأميركي مثله أبداً.

لم يوح آل هيغ ـ الأجش الصوت، والمتعرّق، والمرتجف ـ بالثقة عندما اختطف منصّة غرفة الصحافة في البيت الأبيض بيديه البيضاوين المعقودتين، وأعلن نفسه مسؤولاً. جاء شفاء الرئيس بطيئاً ومؤلماً. وكذلك كان ذوبان هيغ. وقال نائب الأميرال جون بويندكستر، وكان يومها عضواً في مجلس الأمن القومي، «واجهتنا مشكلة أساسية، وهي من سيتولى مسؤولية السياسة

الخارجية؟»[٥] لم تتم الإجابة أبداً عن هذا السؤال، لأن فريق ريغان للأمن القومي كان في حالة حرب مستمرة مع نفسه، وقد هزّته الصراعات الشخصية والسياسية الحادة. تقاتلت وزارة الخارجية والبنتاغون كجيشين متواجهين. وتولّى ستة رجال مختلفين منصب مستشار الأمن القومي في سياق ثماني سنوات صاخبة، ولم يحاول ريغان أبداً وقف عمليات الطعن في الظهر.

كانت الغلبة لكايسي. وعندما تولّى جورج ب. شولتز وزارة الخارجية من هيغ، صُعق لإيجاد كايسي يعمل لنفسه مخططات مثل اجتياح سورينام، الواقعة عند الكتف الشمالي لأميركا الجنوبية، بواسطة ١٧٥ عنصر كوماندوس كورياً مدعومين من «السي.آي.أيه.» «كانت فكرة رعناء»، قال شولتز الذي قضى عليها. «هذا جنون. لقد صُعقت لتقديم مثل هذا المخطط»[٦]. وسارع إلى أدراك أن ««السي.آي.أيه.» وبيل كايسي يتمتعان بالدرجة ذاتها من الاستقلالية التي للخنزير البري على الجليد، وأنه في إمكانهما أن يكونا على القدر ذاته من الثقة والخطأ»[٧].

أخوّة عمياء

تمتع بيل كايسي كقائد بالحذاقة والإلهام والقدرة، وبالمميزات ذاتها التي لأي رجل سبق أن أدار «السي.آي.أيه.» وكان أيضاً «قرصاناً مرتزقاً»[٨]، بحسب قول الأميرال بوبي راي إينمان، الذي كان مديراً لوكالة الأمن القومي عندما أمره ريغان، في ١٩٨١، بأن يخدم بوصفه الرقم الثاني لكايسي.

«أبلغني كايسي، في شكل مباشر جداً، أنه لا يريد أن يكون المدير التقليدي للاستخبارات المركزية»، قال إينمان[٩]. «أراد أن يكون ضابط استخبارات الرئيس، وهو سيدير الجهاز الخفي لـ «السي.آي.أيه.»»

قال رئيس أركانه، بوب غايتس، إن كايسي اعتقد أن الجهاز الخفي قد أصبح «أخوّة عمياء تعيش على أساطير من سبقوهم وانجازاتهم في الخمسينيات والستينيات»[١٠]. وهو يحتاج إلى دم جديد. ولم يبال البتة بالخارطة التنظيمية

لـ «السي.آي.أيه.»؛ بل إنه سيبلغ أعماق الوكالة، أو خارجها، للعثور على أناس يعملون بما يأمرهم به.

وهكذا، فإنه دفع بجون ماكماهون من رئاسة الجهاز الخفي. «رأى فيّ محرّكاً بطيئاً عندما يتعلّق الأمر بالعمل الخفي، وأن تلك الجذوة غير متوقّدة في داخلي»، قال ماكماهون(١١). «أدرك أن لي تأثيراً تحذيرياً لما قد يريد هو أو الوكالة القيام به».

قام كايسي باستبدال المخضرم الذي أمضى ثلاثين عاماً في «السي.آي.أيه.» بصديق قديم يدعى ماكس هوغل، سبق أن جمع أموالاً واستحصل على أصوات لريغان. كان هوغل رجل أعمال كبيراً سليط اللسان بدأ في اليابان، بعد الحرب، بائعاً للسيارت المستعملة. لم يعرف شيئاً عن «السي.آي.أيه.»، وهو ما تبيّن على الفور. كان رجلاً ضئيلاً يضع خصلة شعر مستعار، وقد جاء مرّة إلى العمل مرتدياً بزة رياضية مفتوحة حتى السرّة، والسلاسل الذهبية معششة على شعر صدره الذي أخذ في الشيب. وقد تمرّد عليه جميع عملاء «السي.آي.أيه.» الخفيون، العاملون والمتقاعدون، حتى آخرهم تقريباً. نقّبوا عن أمور سيئة في حقه، وبعثوا بها إلى «الواشنطن بوست»، وأجبروه على الرحيل في أقل من شهرين. تم استبداله بجون ستين، الذي ساعد موبوتو على الارتقاء إلى السلطة، وأنشأ محطة كمبوديا إبان الحرب في فيتنام. إلا أن ستين، وهو الرئيس الجديد الخامس للجهاز الخفي في خمس سنوات، سرعان ما برهن أنه بطيء أكثر مما يجب بالنسبة إلى ذوق كايسي. وسيتم عزله لمصلحة عميل خفي جريء هو كلير جورج. وقد أمر كايسي ماكماهون، بعدما أخرجه من الجهاز الخفي، بإعادة تركيب مديرية الاستخبارات وبإجراء تغييرات جذرية في المحللين. وشرع ماكماهون في أول إعادة تنظيم رئيسية للمديرية في ثلاثين عاماً.

إلا أن ذلك ليس شيئاً بالمقارنة مع ما فعله بوب غايتس عندما تولى المسؤولية من ماكماهون في بداية ١٩٨٢. فقد فاز بوب غايتس، في سن الثامنة والثلاثين، بالترقية إثر مذكّرة لافتة للانتباه رفعها إلى كايسي. وقد كتب أن

««السي.آي.أيه.» تتحول ببطء إلى وزارة للزراعة،[١٢] وأن الوكالة مصابة «بحالة متقدمة من مرض تصلّب الشرايين». فالردهات ملأى بمتوسطي المستوى المتثاقلين في سيرهم الذين يعدّون الأيام للوصول إلى التقاعد، وهم السبب الرئيسي «لتراجع نوعية جمع استخباراتنا وتحليلها في السنوات الخمس عشرة الماضية».

أبلغ غايتس محللي «السي.آي.أيه.» بأنهم أناس «مغلقو الذهن، مغتبطون بأنفسهم، متعجرفون»؛ وبأن عملهم «خارج عن الصدد، وغير مثير للاهتمام، ومتأخر كثيراً كي تكون له قيمة، وهو محدود جداً، ويفتقر كثيراً إلى المخيّلة، وفي معظم الأحيان خاطئ كلّيا»؛ وبأن صفوفهم ملأى بالهواة «الذين يدعون أنهم خبراء»[١٣]. لقد فاتهم تقريباً كل تطوّر مهم في الاتحاد السوفياتي، واختراقاته للعام الثالث عبر العقد الماضي. وإن الوقت حان لاستعادة اللياقة أو الرحيل.

عنت استعادة اللياقة العودة إلى الاصطفاف. فعندما اختلف كايسي مع محلليه، على ما فعله غالباً، أعاد كتابة استنتاجاتهم لتعكس وجهات نظره. وعندما أبلغ الرئيس، «هذا ما تعتقده «السي.آي.أيه.»» فإنه عنى «هذا ما أعتقده أنا». طارد أصحاب الذهن المستقل، وأخرج من «السي.آي.أيه.» المحللين الذي يرون أنه يجب وضع الأمور في نصابها، ومن بين آخر المغادرين كان ديك ليهمان، رئيس الاستخبارات الآنية الذي تحمّل دالاس عندما حكم الرجل العجوز على عمله من خلال وزنه بيده بدلاً من قراءته. «شكّل العمل مع كايسي كارثة للجميع، في جزء من ذلك بسبب ضلاله المتزايد، وفي جزء آخر بسبب اتجاهاته اليمينية»، قال ليهمان[١٤]. «كان ينصاع للحجة، إلا أن الأمر تطلّب الكثير الكثير من الحجة».

أصبحت قدرات «السي.آي.أيه.» التحليلية بمثابة وجهة نظر رجل واحد، على غرار صحيفة تُطوّعها تحاملات ناشرها. وقال وزير الخارجية شولتز، إن «استخبارات «السي.آي.أيه.» شكّلت ببساطة، في حالات كثيرة، أيديولوجية بيل كايسي»[١٥].

سأتولّى أمر أميركا الوسطى

بعدما ندد ريغان وكايسي علناً بكل ما مثّله جيمي كارتر، احتضنا سبعة برامج عمليات خفية رئيسية سبق له أن شرع بها. وسيثبت شحن الأسلحة إلى أفغانستان، وبرامج حرب سياسية لدعم المنشقّين في الاتحاد السوفياتي وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، بأنها من بين أهم علميات «السي.آي.أيه.» للحرب الباردة. إلا أن كايسي كان أكثر اهتماماً بالحرب الحقيقية في الفناء الخلفي لأميركا.

قال كلير جورج، إن كايسي أعاد طمأنة ريغان إلى أنه «في فترة ما، تحت جنح الظلام، سأتولى أمر أميركا الوسطى. دع الأمر لي وحسب»[١٦].

سبق للرئيس كارتر أن اقرّ، في ١٩٨٠، ثلاثة برامج صغيرة للعمل الخفي في أميركا الوسطى. وقد استهدفت الساندينيين، وهم اليساريون الذين استولوا على السلطة في نيكاراغوا، وقد انتزعوها مما بقي من الديكتاتورية الوحشية لعائلة سوموزا التي استمرت ٤٣ عاماً. أخذ المزيج الساندينى المشكّل من القومية، واللاهوت التحرري، والماركسية يميل أكثر فأكثر في اتجاه كوبا. وألزمت أعمال كارتر الخفية «السي.آي.أيه.» بدعم الأحزاب السياسية الموالية لأميركا، والمجموعات الكنسية، والتعاونيات الزراعية، والاتحادات في مواجهة انتشار الاشتراكية الساندينية.

حوّل كايسي العمليات الصغيرة الضيّقة إلى برنامج شبه عسكري هائل الانتشار. وسمح الرئيس ريغان، في آذار/مارس ١٩٨١، لـ «السي.آي.أيه.» بتوفير الأسلحة والمال «لمواجهة التخريب والإرهاب الذي يرعاه الخارج» في أميركا الوسطى. أبلغ البيت الأبيض والوكالة الكونغرس بأن الهدف هو الدفاع عن السلفادور الذي يديره سياسيون يمينيون وفرق الموت التابعة لهم، عن طريق قطع إمدادات السلاح النيكاراغوية إلى اليساريين. وشكّلت هذه حيلة محسوبة[١٧]. فالهدف الحقيقي قضى بتدريب وتسليح النيكاراغويين وتسليحهم في هندوراس ـ الكونترا ـ واستخدامهم لاستعادة بلدهم من الساندينيين.

أقنع كايسي الرئيس بأنه في وسع جيش «السي.آي.أيه.» الصغير أخذ

نيكاراغوا عنوة. وحذّر ريغان من أنهم إذا فشلوا، فسيمكن لجيش من اللاتينيين اليساريين الانتشار شمالاً من أميركا الوسطى إلى تكساس. حاول محللو «السي.آي.أيه.» مناقضته. وقالوا إن الكونترا لن يربحوا، وهم لا يتمتعون بالدعم الشعبي. ضمن كايسي عدم وصول تقارير الرافضين أبداً إلى البيت الأبيض. وعمد، من أجل إبطال مفعولهم، إلى تزويد القوة المنتدبة لأميركا الوسطى بـ «غرفة العمليات» الخاصة بها، حيث قام ضباط في العمل الخفي بطبخ الكتب، ونفخ التهديدات، والمبالغة باحتمالات النجاح، وضخوا تقارير من الميدان. ويقول غايتس إنه «أثار الجحيم مع كايسي» في شأن غرفة العمليات، لكن بدون جدوى(١٨).

أعطى كايسي انطلاقة سريعة لمخططاته باختياره دوان كلاريدج رئيساً لقسم أميركا اللاتينية في الجهاز الخفي. ولم يسبق لكلاريدج، الذي يكاد يبلغ الخمسين، والمدمن على الكحول وعلى تدخين السيجار برغم إصابته بذبحة قلبية سابقة، أن عمل في أميركا اللاتينية، ولا يتحدث الإسبانية، ويكاد لا يعرف شيئاً عن المنطقة. قال كلاريدج إن «كايسي قال، خذ شهراً أو شهرين، وكوّن تصوّراً أساسياً عما يجب فعله في شأن أميركا الوسطى»(١٩). و«شكّل هذا المجموع العام لمقاربته. ولم يتطلّب الأمر علم صناعة الصواريخ لإدراك ما الذي يجب القيام به». قال كلاريدج إنه جاء بمخطط من نقطتين: «خوض حرب في نيكاراغوا، والشروع في قتل الكوبيين. وهذا بالتحديد ما أراد كايسي سماعه وقال: حسناً، هيا وباشر في ذلك».

وصل سفير ريغان إلى نيكاراغوا، أنتوني كوينتون، لتولي منصبه في يوم إطلاق الرصاصة الأولى. قال «بدأت الحرب السرّية في ١٥ آذار/مارس ١٩٨٢، عندما قامت «السي.آي.أيه.»، مستخدمة عملاء نيكاراغويين، بنسف الجسور التي تربط نيكاراغوا مع هندوراس. خرجت مع زوجتي من الطائرة وسط موجة من الأنوار الباهرة والميكروفونات، وسئلت عن رأيي في تطورات هذا الصباح، وهي نسف الجسور، وكيف سيؤثر ذلك في العلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة ونيكاراغوا.

«لم أتبلّغ بأن أحداثاً ستحصل في ذلك اليوم»، قال السفير كوينتون. «فقد كانت لـ «السي.آي.أيه.» منظومة تخطيط خاصة بها»[٢٠].

لم تبق الحرب السرّية سرّية لفترة طويلة[٢١]. مرّر الكونغرس، في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٢، قانوناً يقيّد «السي.آي.أيه.» بمهمتها المعلنة، وهي قطع تدفّق الأسلحة الشيوعية إلى أميركا الوسطى. وقد مُنعت الوكالة من استخدام أموالها لطرد الساندينيين. والتزم الرئيس ريغان برواية التغطية، متمسّكاً بالقصة الخيالية بأن الولايات المتحدة لا تسعى إلى الاطاحة بالنظام النيكاراغوي، مقدّماً ضمانته لجلسة مشتركة للكونغرس. وشكّلت تلك المرة الأولى التي يكذب فيها الرئيس المحبوب كثيراً على الكونغرس لحماية عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية، لكنها ليست الأخيرة.

تبّاً للكونغرس

أعطى الكونغرس لكايسي، في سنتيه الأُوليين في السلطة، مئات الملايين من الدولارات ضمن تمويلات جديدة للجهاز الخفي. تجاوز الإنفاق على الاستخبارات الأميركية، المدفون في داخل حسابات البنتاغون، الثلاثين مليار دولار، بينما فاقت موازنة الوكالة ذاتها الثلاثة مليارات. وأدى المال إلى تعبئة طموحات «السي.آي.أيه.»، ومجال العمل الخفي، بطاقة إضافية.

استخدم كايسي جزءاً من موازنته غير المحتسبة لاستخدام ما يقارب ألفي ضابط جديد في الجهاز الخفي، عاكساً الاقتطاعات التي تمّت في عهود نيكسون، وفورد، وكارتر. وما يعرفه المُستخدمون الجدد عن العالم، هو أقل مما عرفه سابقوهم. واصبح أقل احتمالاً أن يكونوا قد خدموا في الجيش أو عاشوا في ما وراء البحار. وقال كلاريدج إنهم شكّلوا «إثباتاً قاطعاً على أن «السي.آي.أيه.» لم تعد تستقطب ألمع الأميركيين»، «وإنهم جواسيس أغرار أكثر اهتماماً بخطط تقاعدهم وتأميناتهم الصحية من حماية الديموقراطية»[٢٢].

ساند الكونغرس بقوة أن تكون «السي.آي.أيه.» تكون أكبر، وأفضل،

وأقوى، وأكثر حذاقة[٢٣]. لكنه لم يساند حرباً في أميركا الوسطى. وكذلك حال الشعب الأميركي. لم يتكبّد ريغان أبداً عناء شرح لماذا تشكّل تلك الحرب فكرة جيّدة. وكذلك، فإن معظم الأميركيين لا يوافقون على بعض حلفاء «السي.آي.أيه.»: ـ زعماء الحرس الوطني الديكتاتوري النيكاراغوي، قوات صدم الطغمة العسكرية الحاكمة في الأرجنتين، العقداء القتلة في جيش هندوراس، وزعماء فرق الموت في غواتيمالا.

أخذت سلطات الكونغرس في الاشراف على «السي.آي.أيه.» تتطوّر ببطء لتصبح بحلول ١٩٨١ منظومة قابلة للعمل. وها إنه أصبح يُفترض باللجنتين المختارتين للاستخبارات ـ واحدة في مجلس الشيوخ والأخرى في مجلس النواب ـ أن تحصلا على المخططات الرئاسية للعمل الخفي وتراجعانها. لم تعق هذه الضوابط كايسي أبداً. وقال بوب غايتس إن «كايسي مذنب بالاستهانة بالكونغرس منذ اليوم الذي أقسم فيه يمين الوظيفة»[٢٤]. وهو، عندما يُستدعى للشهادة، يغمغم ويبهم في الكلام، وأحياناً يكذب بدون حياء. «آمل أن ذلك سيكبح أولاد الزنى هؤلاء!»[٢٥]، قال وهو يخرج من واحدة من جلسات الاستماع. وانتشر الخداع من مكتب المدير ونزولاً. وقد تعلّم الكثيرون من كبار ضباط كايسي الفن الراقي للإدلاء بالشهادة بطرائق كانت «مراوغة تحديداً»، بحسب تعبير رئيس القوة المنتدبة لأميركا الوسطى ألن فيرز[٢٦]. لكن آخرين قاوموا. وبعد ١٥ شهراً، استقال الأميرال إينمان كنائب للمدير كايسي «لأنني ضبطته يكذب عليّ في عدد من الحالات»[٢٧].

هدفت أكاذيب كايسي إلى التملّص من الزمام القانوني الآخذ في الاشتداد. فإذا امتنع الكونغرس عن تمويل عمليات «السي.آي.أيه.» في أميركا الوسطى، فإنه سيلتفّ على القانون باحثاً عن ممولين خاصين، أو خاقان أجنبي يعطونه المال[٢٨].

وبرغم ازدراء كايسي المعلن[٢٩]، أعطته لجنة الاستخبارات في الكونغرس سلطة كبيرة بموجب الـ «قرارات الشاملة»، وهي أذونات وقّعها الرئيس ريغان وتغطّي حملات العمل الخفي ضد التهديدات الحقيقية أو المُستشعرة في أي

مكان في العالم. ووضع كايسي الكثير من عمليات «السي.آي.أيه.» بوصفها مخططات عظيمة لإعطاء دفعة لحليف لأميركا، أو لإدماء عدو لها. إلا أنها انتهت إلى أن تصبح تزويداً لأسياد الحرب بالسلاح. وقد بدأ العمل بواحدة من أولى هذه العمليات بعد عشرة أيام على تسلّم كايسي منصبه، واستمرت عشرة أعوام.

وجه قرار شامل في كانون الثاني/نوفمبر ١٩٨١ أمراً إلى «السي.آي.أيه.» بالقيام بعمل ما في شأن الرئيس الليبي معمّر القذافي، الذي كان يؤمّن دعماً مباشراً للحركات الراديكالية في جميع أنحاء إفريقيا وأوروبا. وعملت «السي.آي.أيه.»، الساعية إلى قاعدة عمليات ضد ليبيا، على السيطرة على حكومة جارتها المباشرة، تشاد، وهي واحدة من أكثر الدول الافريقية فقراً وعزلة. ولعب حسين حبري دور العميل في هذه المهمة، وهو وزير دفاع تشاد الذي انشق عن الحكومة، وانزوى مع نحو ألفي مقاتل في غرب السودان. «بدأت الاسلحة الأميركية في التدفّق بنتيجة قرار من كايسي»، قال السفير دون نورلاند، الدبلوماسي الأميركي المتقدّم المعتمد في تشاد في بداية عهد ريغان. «كانت «السي.آي.أيه.» متورّطة كثيراً في العملية بأكملها، وحصل حبري على مساعدات مباشرة وغير مباشرة»[٣٠].

قضت السياسة الخارجية الرسمية للولايات المتحدة بتسويق حل سلمي للقتال الفئوي في تشاد[٣١]. وقد ارتكب حبري فظاعات لا تحصى بحق شعبه؛ وهو لا يمكنه أن يحكم إلا بالقوة الوحشية. وقامت «السي.آي.أيه.»، التي لا تعرف الكثير عن حبري وتاريخه، بمساعدته على الاستيلاء على تشاد في ١٩٨٢. ساندته لأنه عدو للقذافي.

طارت طائرات المؤن التابعة لـ «السي.آي.أيه.» إلى شمال أفريقيا بشحنات نسّقها مجلس الأمن القومي. وشكّلت هذه أول عملية رئيسة استرعى فيها مقدّم شاب في فريق مجلس الأمن القومي يدعى أوليفر نورث، انتباه كايسي. وقد تلقّى ديفيد بلاكمور، وهو مساعد عسكري في عملية تشاد، اتصالاً عاجلاً من

نورث ليل في يوم جمعة في أواخر ١٩٨١. «سأل عن سبب التأخر في إخراج المعدات من تشاد. أراد أن يتم نقلها فوراً».

«قلتُ، حسناً، أيها المقدم نورث، الأمر حسن. لقد أبلَغْنا الكونغرس وعلينا الانتظار عدداً من الأيام، ومن ثم سنبدأ في تحريكها. نحن ندرك العجلة».

و«جاء رد نورث: «تبّا بالكونغرس. أرسل المعدات الآن، وهو ما قمنا به»[٣٢].

مات الآلاف، في حين أن حبري وجنوده يقاتلون للسيطرة على تشاد. وبينما اشتد القتال، سلّحته الوكالة بصواريخ ستينغر، وهي أفضل أنواع الصواريخ المضادة للطائرة التي تُطلق عن الكتف في العالم. وقال السفير نورلاند إن الأمر كلّف الولايات المتحدة «ربما نصف مليار دولار لوضعه في السلطة، وإبقائه فيها لثماني سنوات». وقال إن الدعم الأميركي لتشاد ـ أي سياسة كايسي ـ شكّلت «قراراً مُضَلّلاً». إلا أن قلّة من الأميركيين سمعت أبداً بتشاد، والأقل من يهتمون بمصيرها. والأقل هم الذين علموا بأن حليف «السي.آي.أيه.» حبري، حصل في خلال الثمانينيات، على دعم مباشر من صدام حسين.

أدركت «السي.آي.أيه.»، عشية حرب الخليج في ١٩٩١ ضد العراق، أن دزينة أو ما يقاربها من الستينغر المرسلة إلى تشاد، مفقودة ولا يُعرف مصيرها، وهي ربما في يدي صدّام. وصُعق وزير الخارجية جيمس أ. بيكر الثالث لدى معرفته بالأمر. كان بيكر رئيس موظفي البيت الأبيض عند الشروع في العملية الخفية، إلا أن أخبار العملية انقطعت عنه. وتساءل بصوت مرتفع: «ما هو، بحق الجحيم، السبب الذي دفعنا إلى إعطاء صواريخ ستينغر لتشاد؟»[٣٣].

يوماً ما لن تكون الولايات المتحدة هنا

كانت أكبر مهمّة نقل أسلحة تقوم بها «السي.آي.أيه.» هي خط إمداداتها العالمي إلى المجاهدين في أفغانستان، الذين يحاربون جيش الاحتلال الروسي

المؤلف من ١١٠ آلاف جندي(٣٤). بدأت في عهد جيمي كارتر في كانون الثاني/يناير ١٩٨٠. ولأنها فكرة كارتر، لم يحتضنها كايسي بعزم صادق ـ ليس في البداية ـ. إلا أنه سرعان ما أدرك الفرصة المتاحة.

«كنت أول رئيس محطة على الإطلاق يتم إرسالي إلى الخارج مع هذا الأمر الرائع: اذهب واقتل جنوداً من السوفيات»، قال هوارد هارت الذي وصل بوصفه رئيس المحطة في باكستان في ١٩٨١. «تخيل! لقد أحببت الأمر». إنه هدف نبيل، إلا أن المهمة لم تكن لتحرير أفغانستان. لم يعتقد أحد أنه في وسع الأفغان في الحقيقة أن يفوزوا.

منذ البداية، ضارعت السعودية دعم «السي.آي.أيه.» للمتمردين، دولاراً في مقابل كل دولار. وأرسل الصينيون ما قيمته ملايين الدولارات من الأسلحة، وكذلك فعل المصريون والبريطانيون. وقامت «السي.آي.أيه.» بتنسيق الشحنات. وسلّمها هارت إلى الاستخبارات الباكستانية. وقد اقتطع الباكستانيون حصة كبيرة قبل تسليمها إلى الزعماء المنفيين للمقاومة الأفغانية في بيشاور، شرق ممر خيبر، وقبض زعماء التمرد حصتهم حتى قبل أن تصل الأسلحة إلى أفغانستان.

قال جون ماكماهون، «لم نحاول إملاء كيفية إدارة الحرب على المتمردين الأفغان. لكن، عندما رأينا بعض النجاح السوفياتي ضد المجاهدين، أصبحت مقتنعا بأن جميع الأسلحة التي وفّرناها لم تنته إلى أيدي مطلقي النار الأفغان». لذا مضينا إلى باكستان وعقدنا اجتماعاً لزعماء المجموعات المتمردة الأفغانية السبعة، الذين تراوحوا بين المنفيين الباريسيين الذين يحتذون أخفافاً قصيرة ناعمة، والرجال الجبليين الخشنين. «أبلغتهم أنني قلق من أنهم إما يحوّلون مجرى السلاح وإما يخبئونه ليوم آخر، أو، كما قلت، لا سمح الله، تقومون ببيعه. ضحكوا، وقالوا، أنت محقّ تماماً! إننا نخبئ بعض السلاح. لأنه سيأتي يوم لن تكون الولايات المتحدة هنا، وسنُترك وحدنا لمتابعة نضالنا».

حابى رؤساء الاستخبارات الباكستانية، الذين يوزّعون بالتقطير أسلحة «السي.آي.أيه.»، الفئات الأفغانية التي أثبتت نفسها على أنها أكثر مقدرة في

القتال. وصادف أن هذه الفئات هي أكثر الإسلاميين التزاماً. لم يحلم أحد بأن المجاهدين قد يحوّلون جهادهم ضد الولايات المتحدة.

قال ماكماهون «عليك في العمل الخفي أن تفكّر في نهاية اللعبة قبل أن تبدأها. ونحن لا نفعل ذلك دوماً»[٣٥]

مخطط بارع

قلّب السوفيات في أيار/مايو ١٩٨١، أوجه خطاب إدارة ريغان والوقائع، وأخذوا يخشون هجوماً مفاجئاً من الولايات المتحدة، ووضعوا قواتهم في حالة إنذار نووي شامل استمر عامين. واستنتج بوب غايتس بعد ذلك بعقد من الزمن، أن القوتين العظميين اقتربتا، أكثر مما يجب، من حافة حرب عرضية بدون أن تدرك «السي.آي.أيه.» ذلك. «لم نستوعب يومها الاستيئاس المتعاظم لرجالات الكرملين... كم كانوا عاديين، ومعزولين، ومشغولين بأنفسهم. وكم كانوا مصابين بجنون العظمة، وخائفين»، قال غايتس وهو طليعة محللي الشؤون السوفياتية في الوكالة، وأقوى المدافعين عن أدائها في الميدان[٣٦].

لو أنه أمكن السوفيات التنصّت، في ذلك الصيف، على محادثة خاصة بين الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران والرئيس ريغان، لتوفّر لهم سبب جيّد للخوف.

انتحى ميتران جانباً بريغان في تموز/يوليو ١٩٨١، في القمة الاقتصادية في أوتاوا. فالمترجمون، الذين يعملون أيضاً جواسيس، مرروا الخبر: الاستخبارات الفرنسية تدير منشقّاً عن «الكا.جي.بي.»، هو العقيد فلاديمير فيتروف، وميتران يظن أنه على الولايات المتحدة أن تلقي نظرة على عمله. وقد تم تسليم ملفّه، الذي أعطي اسماً رمزياً هو ملف «مع السلامة» Farewell dossier، إلى نائب الرئيس بوش وبيل كايسي[٣٧]. واستغرق فريق مجلس الأمن القومي و«السي.آي.أيه.» ستة أشهر لاستيعاب مغزاه. وعند ذاك الحد كان فيتروف قد أصيب بالجنون وقتل رفيقاً له، هو ضابط في «الكا.جي.بي.» فأُوقف، واستُجوب، وأُعدم.

تضمّن ملف «مع السلامة» أربعة آلاف وثيقة تفصّل ما قيمته عقد من عمل وحدة في داخل مديرية العلوم والتكنولوجيا في «الكا.جي.بي.»، دُعيت بمجموعة الخط أكس». وهي عملت مع كل جهاز استخبارات رئيسي في أوروبا الشرقية. سرقت المعرفة الأميركية ـ وبخاصة برامج الحواسيب، وهو مجال تتقدّم الولايات المتحدة فيه عشر سنوات على السوفيات. وامتدت جهود «الكا.جي.بي.» لسرقة التكنولوجيا من أضعف معارض التجارة الدولية إلى الالتحام الدرامي لسفينتي الفضاء أبوللو وسيوز في ١٩٧٥.

تضمّن الملف أدلة إلى أن السوفيات استنسخوا برامج أنظمة الرادارات المحمولة جواً. وأوحى بطموحات المصممين العسكريين السوفيات لمتابعة جيل جديد من الطائرات العسكرية والهدف الصعب الإدراك أبداً في الدفاع ضد الصواريخ الباليستية. وحدد هوية طائفة من ضباط الاستخبارات السوفياتية المكلفين سرقة التكنولوجيا الأميركية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

ردّت الولايات المتحدة الضربة. «كان مخططاً بارعاً»[٣٨]، قال ريتشارد ف. ألن، أول مستشار لريغان للأمن القومي وقد قام فريقه بوضع المخطط. «شرعنا في التحرّك لتزويد السوفيات بتكنولوجيا سيّئة، تكنولوجيا كمبيوتر سيئة، تكنولوجيا سيئة للتنقيب عن النفط. زوّدناهم بأمور كثيرة جداً، وتركناهم يسرقون أموراً سعدوا بالحصول عليها». وقام ضباط في «الأف.بي.آي.»، ادعوا أنهم موظفون خونة في مجمّع الصناعة العسكرية الأميركية، بإرسال موكب من أحصنة طروادة التكنولوجية إلى الجواسيس السوفيات. وتضمّنت هذه القنابل الموقوتة رقاقات كمبيوتر لأنظمة الأسلحة، ومخططات لمكوك فضائي، وخوارط هندسية لمصانع كيميائية، وتوربينات متطوّرة جداً.

كان السوفيات يحاولون بناء خط أنابيب غاز من سيبيريا إلى أوروبا الشرقية. واحتاجوا إلى كمبيوترات للتحكّم في قياسات الضغط والصمامات. بحثوا عن البرنامج في سوق الولايات المتحدة المفتوحة. رفضت واشنطن الطلب، لكنها أشارت خفية إلى شركة كندية ما ربما تملك ما تريده موسكو. أرسل السوفيات ضابطاً من «الخط أكس» لسرقة البرنامج. تآمرت «السي.آي.أيه.» والكنديون معاً

لتركهم يحصلون عليه. واشتغل البرنامج لبضعة شهور بسهولة ونجاح. ثم إنه أخذ، ببطء، يجعل الضغط في خط الأنابيب يرتفع محلّقاً. وكلّف الانفجار في مجاهل سيبيريا موسكو ملايين من الدولارات التي صعب عليها توفيرها.

استمر الهجوم الصامت على الجيش السوفياتي وبرامج الهندسة التابعة للدولة لسنة، وتوَّجَهُ كايسي بإرسال جون ماكماهون إلى أوروبا الغربية لتسليم أجهزة الاستخبارات الخارجية الصديقة هويّات بعض من نحو مئتي ضابط سوفياتي وعملاء تم تحديدهم في ملف «مع السلامة».

استخدمت العملية كل سلاح تقريباً في عهدة «السي.آي.أيه.» ـ الحرب النفسية، التخريب، الحرب الاقتصادية، الخداع الاستراتيجي، مكافحة التجسس، وحرب الكمبيوتر ـ، وذلك كلّه بالتعاون مع مجلس الأمن القومي، والبنتاغون، و«الأف.بي.آي.»، أدت إلى تدمير فريق تجسس سوفياتي قوي، وألحقت ضرراً بالاقتصاد السوفياتي، وأخلّت باستقرار الدولة السوفياتية. شكّلت نجاحاً ساحقاً. ولو أن الأمور كانت مقلوبة لنُظر إلى ذلك بوصفه عملاً إرهابياً.

٣٩

بطريقة خطرة

أخذ الإرهابيون، على مدى عقد من الزمن، يخطفون الطائرات، ويأخذون الرهائن، ويقتلون السفراء الأميركيين. لم يملك أي من «السي.آي.أيه.» أو أي فرع آخر من فروع الحكومة الأميركية، فكرة واضحة عما يجب القيام به في هذا الصدد.

في آخر يوم سبت من كانون الثاني/يناير ١٩٨١، تلقّى أنتوني كوينتون، وكان لا يزال في منصب منسّق مكافحة الإرهاب لدى الحكومة، اتصالاً هاتفياً طارئاً من وزير الخارجية هيغ: على كوينتون أن يقدّم يوم الاثنين عند الساعة الواحدة إيجازاً إلى البيت الأبيض عن عمله. وقال السفير كوينتون «قدّمت ذلك الإيجاز إلى الرئيس الذي انضم إليه نائب الرئيس، ورئيس «السي.آي.أيه.»، وعدد من أعضاء من مجلس الأمن القومي. وغفا الرئيس بعدما تناول قطعتين من الهلام المصنّع (جيلي بينز). وهذا في حدّ ذاته كان موهياً للعزيمة»[١].

في ذلك الأسبوع ذاته، أعلن هيغ أن الارهاب الدولي سيصبح، بدلاً من حقوق الإنسان، المسألة التي تشكّل الأولوية لدى الولايات المتحدة. وبعد ذلك بوقت قصير، أعلن هيغ أن السوفيات يديرون سرّاً الاعمال القذرة لأسوأ الإرهابيين في العالم[٢]. وطلب من «السي.آي.أيه.» إثبات هذا الزعم الجازم المتمادي. وافق كايسي سرّاً مع هيغ، لكنه افتقر إلى الوقائع لإثبات قضيته. لم يستطع محللو «السي.آي.أيه.» توفيرها، برغم الحملات الكلامية المريرة من رئيسهم. وأنتجت، تحت الضغط، تزييفاً، وهو استنتاجات كايسي موضوعة

بصورة غير مضمونة في رأس تحليل لم يمكنه إثباتها. لقد فشلت محاولة إلقاء الملامة على الكرملين في إدراك الطبيعة الحقيقية للإرهاب في الشرق الأوسط.

سبق لـ «السي.آي.أيه.» أن حظيت في السابق بمصدر ذي موقع فريد: علي حسن سلامة، رئيس استخبارات منظمة التحرير الفلسطينية، ومحرّك عملية قتل أحد عشر رياضياً اسرائيلياً في ألعاب ميونيخ الأولمبية في ١٩٧٢[٣]. فالمعلومات التي قدّمها شكّلت غصن الزيتون الذي رفعه رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات إلى الولايات المتحدة. وكان ضابطه المحرّك هو بوب إيمس، الذي عمل في شوارع بيروت قبل أن يرتقي إلى منصب نائب رئيس قسم الشرق الأدنى في الجهاز الخفي[٤]. تفاوض سلامة وإيمس، بدءاً من أواخر ١٩٧٣، على تفاهم محورة ألا تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بمهاجمة أميركيين. وتبادلا، على مدى أربعة أعوام، الاستخبارات حول أعدائهما المشتركين في العالم العربي. وفي خلال تلك الفترة، كانت تقارير «السي.آي.أيه.» عن الإرهاب في الشرق الأوسط أفضل مما كان، أو سيصبح عليه أبداً. وأظهرت إدراكاً أن الإرهاب يتجاوز رعاية الدولة، وأنه متجذّر في غضب المحرومين من أرضهم. واستنتجت دراسة لـ «السي.آي.أيه.» في نيسان/أبريل ١٩٧٦، أن «الموجة المستقبلية» هي في «تطوير قاعدة دعم مقعّدة للنشاط الإرهابي الذي يتجاوز الحدود الإقليمية، والذي يتمتع باستقلال كبير عن ـ ومقاوم في شكل كبير لسيطرة ـ النظام الدولي المرتكز على الدولة»[٥].

اختفى خط التفكير هذا، بعد ١٩٧٨، من تقارير «السي.آي.أيه.» عندما اغتالت الاستخبارات الإسرائيلية سلامة انتقاماً لميونيخ. ولم يعاود الظهور لعقود من الزمن. وعندما تولّى الرئيس ريغن السلطة، كادت الوكالة تفتقر كلّياً إلى المصادر الجيدة حول الإرهاب في الشرق الأوسط.

القليل جداً من الاستخبارات... لفترة طويلة

واجه جورج شولتز يوم الجمعة ١٦ تموز/يوليو ١٩٨٢، وهو اليوم الذي أقسم فيه اليمين لتولي منصبه كوزير للخارجية، أزمة دولية في لبنان. وكان

اتصاله الثاني الذي يجريه في ذلك اليوم من مركزه الجديد، مع بوب إيمس، الذي أصبح طليعة محللي «السي.آي.أيه.» للعالم العربي.

كان إيمس أكثر ضباط «السي.آي.أيه.» نفوذاً من بين أبناء جيله، «يتمتع بموهبة فريدة»، بحسب ما قال بوب غايتس. وهو طويل القامة، وسيم، ومولع بجزمات رعاة البقر المصنوعة يدويّاً، وقد تعامل شخصياً مع عرفات، والملك الأردني حسين، وزعماء لبنان. وكان، من بين عملائه المجنّدين، رجل سياسي قوي في بيروت يدعى بشير الجميل، وهو مسيحي من الطائفة المارونية، والمصدر الأرفع مقاما لـ «السي.آي.أيه.» في لبنان.

شكّلت شبكة الوكالة المارونية قوة مسيطرة في بيروت، وأعمى اعتماد «السي.آي.أيه.» عليها الوكالة عن مدى كره الغالبية في لبنان لسيطرة الأقلية المارونية. وشكّل هذا الغضب سبباً أساسياً للحرب الأهلية التي قسمت البلاد وفتحت الطريق أمام الاجتياح الإسرائيلي في حزيران/يونيو **١٩٨٢**.

بحلول آب/أغسطس، كانت البلاد آخذة في التفكك: المسلم ضد المسيحي، والمسلم ضد المسلم. اختار البرلمان اللبناني الجميّل، بدعم من الولايات المتحدة وإسرائيل، رئيساً. وها إن «السي.آي.أيه.» تملك مرّة أخرى زعيماً سياسياً على جدول معاشاتها. وطمأن الجميل الوكالة شخصياً، إلى أن الأميركيين سيكونون في مأمن في لبنان ما إن يتم سحب القوات المسلحة لمنظمة التحرير الفلسطينية وتوقف اسرائيل قصفها الوحشي لبيروت.

أعلن الرئيس ريغان، في الأول من أيلول/سبتمبر، عن استراتيجية كبرى لتحويل الشرق الأوسط، وهي استراتيجية وضعها سرّاً فريق صغير ضم بين صفوفه بوب إيمس. واعتمد نجاحها على تقارب توافقي تتعاون من خلاله إسرائيل ولبنان وسوريا والأردن ومنظمة التحرير بقيادة أميركية. ولم تكتب لها الحياة سوى أسبوعين كاملين.

اغتيل الرئيس الجميل، في ١٤ أيلول/سبتمبر عندما دمّر انفجار مقرّ قيادته. وانتقاماً لذلك، قام حلفاء «السي.آي.أيه.» من الأحزاب المسيحية اليمينية،

بمؤازرة من القوات الإسرائيلية، بذبح نحو سبعمئة لاجئ فلسطيني انقطعت بهم السبل في الأحياء الفقيرة من بيروت. [في مجزرتي صبرا وشاتيلا في بيروت]. وقد دُفنت النساء والأطفال تحت ركام الحجارة. وفي أعقاب عمليات القتل وما ولّدته من استفظاع، أرسل الرئيس ريغان قوّة عسكرية من المارينز الأميركيين لتعمل كقوات حفظ سلام، إلا أنه لم يكن هناك من سلام ليحفظ.

وبينما كان المارينز يقومون بالإبرار بما عُهدوا للقيام به، «انشغل جماعة الوكالة في محاولة إعادة إحياء بعض من شبكاتهم المفكّكة»، بحسب ما قال روبرت س. ديلون، السفير الأميركي في لبنان. «واستمروا متورّطين ـ وربّما بطريقة خطرة ـ مع الموارنة»[٦].

لم تشهد «السي.آي.أيه.»، وهي تكافح لإعادة بناء نفسها في بيروت، قوة جديدة تنهض من بين الأنقاض. وأخذ شخص اسمه عماد مغنية، وهو قائد لمجموعة عسكرية تدعى حزب الله، في جمع المال والمتفجرات، وفي تدريب عناصر على سلسلة من التفجيرات وأعمال الخطف التي ستؤدي إلى شلّ الولايات المتحدة لسنوات مقبلة. وكان حليفاً لإيران، حيث أخذ آية الله الخميني في إنشاء مكتب لحركات التحرر لإتمام رؤيته التحريرية، وقد انتهت بخوض الحرب مع العراق، والاستيلاء على مقام كربلاء المقدس، والسير قدماً، عبر نهر الأردن، إلى القدس.

كان مغنية متهماً من قبل الولايات المتحدة بما تَسِمُ به أسامة بن لادن اليوم، أي ما تسميه الإرهاب، وهو، حتى تاريخ وضع هذا المؤلف، لا يزال طليقاً (اغتيل مغنية في شباط/فبراير ٢٠٠٨، في سوريا ـ الناشر).

طار بوب إيمس، يوم الأحد ١٧ نيسان/أبريل ١٩٨٣، إلى بيروت، وعرّج على السفارة الأميركية في طريقه من المطار، ثم جلس لتناول العشاء مع ثلاثة من رفاقه الضباط في منزل جيم لويس، نائب رئيس المحطة، الذي نجا، قبل ١٥ عاماً، من سنة احتجاز في «هيلتون هانوي بعد اعتقاله في ريف لاوس.

مضت على إيمس خمسة أعوام بعيداً عن بيروت. «وقد فرح لعودته»، بحسب ما قالت عنصر «السي.آي.أيه.» سوزان مورغان، التي شاركتهم في المائدة في تلك الليلة[٧]. وقد عاد في محاولة لإحياء ما فقدته الوكالة مع اغتيال الجميل.

اتصل إيمس بمورغان صباح الاثنين، ودعاها إلى العشاء في تلك الليلة في فندق مايفلاور. ثم غادرت لتلبي دعوة على الغداء في صيدا، جنوب بيروت. وما إن تم الشروع في رفع المائدة، حتى أبلغتها مضيفتها بتقرير إذاعي عن انفجار في السفارة الأميركية. قادت مورغان، المذهولة، سيارتها عائدة إلى بيروت، وهي بالكاد ترى القرى الخربة من حولها، التي دُمّرت في خلال هجوم الجيش الإسرائيلي. واضطرت، للوصول إلى السفارة، إلى أن تقطع سيراً على قدميها طوقاً فرضه رجال الأمن عند الكورنيش البحري. كانت السفارة مدمّرة. قتلت قوّة العصف إيمس ورفاقه الضباط على الفور ودُفنوا تحت أكوام من الحجارة والحديد والرماد. ولم يجدوه إلا عند الثانية والنصف فجراً تحت الركام. وسحبت مورغان جواز سفره، ومحفظته، وخاتم زواجه.

قُتل ٦٣ شخصاً، من بينهم ١٧ أميركياً منهم رئيس محطة بيروت كن هاس وهو من قدامى محطة طهران؛ ونائبه جيم لويس، والسكريتير في «السي.آي.أيه.» فيليس فيلاتشي، التي اشتدّ مراسها عبر السنين في مقاطعات فيتنام الجنوبية. وفي الحصيلة النهائية، قُتل سبعة ضابط من «السي.آي.أيه.» ومن فريق المساندة في اليوم الأكثر دموية في تاريخ الوكالة. وكان الانفجار من فعل عماد مغنية المدعوم من إيران.

دمّر محو محطة بيروت من الوجود، وموت روبرت إيمس، قدرة الوكالة على جمع المعلومات في لبنان وفي معظم الشرق الأوسط، «ما تركنا مع القليل من المعلومات الاستخبارتية لوقت طويل بعد ذلك»، قال سام لويس، السفير الأميركي في إسرائيل في ذلك الوقت[٨]. «وجعلنا ذلك نعتمد كلّياً على الاستخبارات الإسرائيلية». وستنظر «السي.آي.أيه.»، ما بقي من الحرب الباردة، إلى التهديد الاسلامي في الشرق الأوسط من خلال المنظور الإسرائيلي.

وها إن بيروت تصبح ساحة قتال للولايات المتحدة. إلا أنه لم يكن ثمة أي وقع، مهما كان، لتقارير «السي.آي.أيه.» المحرومة من المصادر. انحاز المارينز الأميركيون إلى المسيحيين، وألقت الطائرات الأميركية القنابل على المسلمين، ورمت السفن الأميركية بقنابل تزن الواحدة منها طنّاً على تلال لبنان بدون أن تعرف ما الذي تستهدفه. مضى البيت الأبيض إلى الحرب في الشرق الأوسط بدون أي فكرة عما يقحم نفسه فيه.

في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، قاد عناصر مغنية شاحنة مفخخة إلى الثكنة الأميركية في مطار بيروت الدولي، وقتلوا ٢٤١ جندياً من المارينز. وقدّرت قوة الانفجار بمستوى الكيلوطن الواحد، وهو المقياس المستخدم للأسلحة النووية التكتيكية.

كنا نعمل في ما يشبه الظلام

بعد ست وثلاثين ساعة على تفجير الثكنة، وبينما يستمر إحصاء القتلى والجرحى في بيروت، حوّل البيت الأبيض والبنتاغون و«السي.آي.أيه.» انتباه أميركا إلى تمرّد ماركسي كريه صغير في غرينادا، وهي جزيرة صغيرة في الكاريبي تعجّ بلواء كوبي من عمّال البناء العسكريين. كان زعيم الجزيرة، موريس بيشوب، قد قُتل في عملية صراع على السلطة، ووفّر هذا الموت «الحجّة للذهاب والتعامل مع المشكلة»، على حد قول دوان كلاريدج، رئيس قسم أميركا اللاتينية، وواحد من المخططين الثلاثة الرئيسيين لغزو غرينادا.

«كانت استخباراتنا حول غرينادا سيئة»، قال كلاريدج[٩]. «كنّا نعمل في ما يشبه الظلام». وساهم ذلك في حالة تشوّش في عملية قُتل فيها ١٩ أميركياً وما لا يقل عن ٢١ مريضاً في مستشفى للأمراض العقلية في غارة قصف أميركية.

نظّمت «السي.آي.أيه.» الجزء المتعلّق بها من الغزو من أحد الفنادق في باربادوس. وقام نائب كلاريدج بتسليم اقتراح الوكالة بإقامة حكومة غرينادية جديدة إلى نظيره في وزارة الخارجية توني غيلسبي. «قضت خطّة

«السي.آي.أيه.» بتشكيل حكومة»، استذكر غيلسبي[١٠]. «شكّلت تلك لائحة سرّية للغاية تتضمن جميع أنواع الكلمات المشفّرة». وقام بتمريرها على أكثر الدبلوماسيين الأميركيين خبرة في المنطقة. «نظروا إليها، واكتفوا بنفض أيديهم. قالوا: هؤلاء هم بعض من أسوأ الناس في الكاريبي. وأنت لا تريد وجودهم في أي مكان على مقربة من الجزيرة». وتضمنت اللائحة «أسوأ ملتقطي الفتات... ومهربي المخدرات، والمخادعين والمضلّلين». وشكّل هؤلاء السفلة مصادر «السي.آي.أيه.» المدفوعة الأجر. فكما أن دالاس حكم على قيمة عمل محلليه من خلال الوزن، فإن من خلفوه محّصوا قيمة المعلومات السرّية استناداً إلى كلفتها. فتلك كانت القاعدة في بيروت، وفي باربادوس، وحول العالم.

كانت الهالة الإيجابية التي انبعثت من تحرير غرينادا قد تلاشت مع مغادرة آخر الجنود المارينز الأميركيين بيروت في ٢٦ شباط/فبراير ١٩٨٤، وقد حتّم الغياب شبه التام للاستخبارات الدقيقة فشل هذا الانتشار، وقد خلّفت المهمة ٢٦٠ جندياً وجاسوساً أميركياً قتلى وتركت العدو يتولّى السيطرة.

بحث كايسي لوقت طويل بعمق، لإيجاد رئيس محطة جديد يمتلك الشجاعة على ترميم أعين «السي.آي.أيه.» في لبنان. والمرشّح الوحيد كان ضابطاً ذا خبرة، لكنه متقدّم في السن، هو بيل باكلي، الذي سبق له أن عمل من قبل في بيروت، وتم كشف غطائه. وقرّر كايسي أن الأمر يستحق المخاطرة بإعادته إلى هناك.

بعد ١٨ يوماً على مغادرة آخر جندي في المارينز لبنان، اختُطف باكلي وهو في طريقه إلى عمله. وبات في أيد عدوّة.

٤٠

كان يركب مخاطر كبيرة

امتلكت الوكالة بعض الخبرة مع الرهائن. وقد أفرج للتو عن أحد ضباطها بعد أربعين يوماً من الأسر القاسي.

في ١٩٨٣، أُرسل تيموثي وللز، البالغ أربعة وأربعين عاماً، وهو أحد قدامى جرحى حرب فيتنام، إلى أديس أبابا، عاصمة أثيوبيا. كانت البلاد تحت سيطرة الديكتاتور الماركسي هايلي منغيستو، ويتولّى قيادة حرّاس قصره، الذين وفّرتهم موسكو، ضباط من الاستخبارات الألمانية الشرقية. وهذه المهمّة هي الثانية لوللز مع «السي.آي.أيه.» وقضت أوامره بافتعال انتفاضة سياسية. وقال وللز «ثمة قرار رئاسي موقّع من رونالد ريغان. وهو بمثابة انتداب. فأنا هنا للإطاحة بالحكومة اللعينة»(١).

كان وللز، قبل ذلك بعشرة أعوام، حارساً من المارينز في السفارة الأميركية في الخرطوم عندما أخذ مسلحون فلسطينيون السفير الأميركي والقائم بالأعمال المنتهية ولايته رهينتين في خلال حفل استقبال. وأدلى الرئيس نيكسون بتصريح بأعلى صوته بأنه لن يقدم تنازلات. ردّ رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات بإعطاء الأمر بقتل الأميركيين. ودفعت تلك التجربة الملوّعة بوللز إلى تغيير حياته. عاد إلى الولايات المتحدة، وإلى الجامعة، وانضم إلى «السي.آي.أيه.». خضع لتدريب استمر ١٨ شهراً في الجهاز الخفي، ووصل إلى أثيوبيا بعد خدمة استمرّت عامين في أوغندا. وتولّى منصبه تحت غطاء مسؤول تجاري في وزارة الخارجية. كان ثمة القليل من التجارة بين الولايات المتحدة وأثيوبيا في ذلك الوقت. فمنغستو موجود على لائحة أكثر المطلوبين من البيت الأبيض.

حظيت «السي.آي.أيه.»، في عهد كارتر، ببرنامج عمل خفي صغير جداً يقضي بتوفير الدعم المالي لمجموعة منفية تُدعى التحالف الديموقراطي الشعبي الأثيوبي. وأصبح هذا البرنامج، في عهد ريغان، قضية بدون ضوابط بكلفة ملايين الدولارات. ورث وللز شبكة من المفكرين الأثيوبيين، والأساتذة، ورجال الأعمال، راودته شكوك بأنها مخروقة من قوات أمن منغيستو. وقضت مهمّته بالاستمرار في تزويدهم بالمال وبالدعاية التي يكتبها وزير دفاع سابق منفي يعمل للوكالة. وصلت الإعلانات، والمناشير، والملصقات بالحقائب الدبلوماسية إلى السفارة التي فاق عدد موظفيها عدد موظفي وزارة الخارجية بالضعف.

عرف وللز أنه يتمّ تعقّبه. لكنه ثابر، وقال، «أنا متفاجئ بالوقت الذي استغرقوه للنيل مني».

اقتحم مجرمو منغيستو في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣، اجتماعاً كان وللز يعقده في حي من أحياء الطبقة الوسطى الراقية، وأوقفوا ثلاثة من قادة المعارضة مساعداً سابقاً للامبراطور الراحل هيلاسي لاسي، عمره ٧٨ عاماً؛ ورجل أعمال عمره خمسون عاماً؛ وابنة أخيه، وهي عالمة بيولوجيا. اختبأ وللز لنهارين وليلتين في خزانة وُضعت فيها الدعاية، إلى أن وجده حرّاس منغيستو. ربطوا يدي وللز ورجليه معاً، وأعادوا المنشقين الثلاثة إلى المنزل، وشرعوا في تعذيبهم. سمع وللز صراخهم واعترف بأنه ضابط في «السي.آي.أيه.». عصب معتقلوه عينيه، ورموا به في سيارة، وانطلقوا به بعيداً. أخذوه، ليلة عيد الميلاد، إلى منزل آمن في جنوب المدينة، في منطقة تدعى نازرت. وأمضى خمسة أسابيع عرضة للتحقيق والضرب، أصيبت في خلالها جمجمته بكسر وانخلع كتفاه.

قال جوزف ب. أونيل، نائب رئيس البعثة في السفارة الأميركية، إن «هذا الأميركي، من أجل إنقاذ نفسه، جمع بقية أعضاء المنظمة وقام بتسليمهم»(٢). وبنتيجة ذلك، سجنت أعداد كبيرة من الأثيوبيين، الذين عُذّبوا أو قتلوا.

في ختام خمسة أسابيع من التعذيب، بعث الأثيوبيون بخبر عبر السفارة الإسرائيلية في نيروبي، عن أنهم سجنوا ضابطاً في «السي.آي.أيه.». وفي غضون يوم واحد، أوفد الرئيس ريغان سفيره المتجول الجنرال فرنون والترز، الذي كان في أفريقيا في ذلك الوقت، لتحرير وللز.

في ٣ شباط/فبراير ١٩٨٤، خرج نائب المدير السابق للاستخبارات المركزية، وقد بلغ السابعة والستين ونخر به النقرس، من الطائرة في أديس أبابا متثاقلاً في مشيته، ورزح في إحدى السيارات، وتوّجه إلى السفارة وهو يشهق في الهواء النادر على ارتفاع ٨,٣٠٠ قدم. «ما الذي ستقوله لمنغيستو؟»، سأله أونيل. وأجاب والترز، وبدا أنه لا يملك نية للمفاوضة. «يرغب رئيس الولايات المتحدة في استعادة السيد تيموثي وللز».

توجه والترز إلى القصر الرئاسي في أسمرة، حيث ألقى فيه منغيستو محاضرة من ثلاث ساعات عن التاريخ الأثيوبي. وأطلق وللز في اليوم التالي. أصبح لون شعره رمادياً. وقد أطلع آسريه على هويات أربعة أعضاء آخرين في محطة «السي.آي.أيه.» وحملت صحيفة «إيثيوبيان هيرالد»، الصادرة بالإنكليزية في العاصمة، في اليوم التالي العنوان الرئيسي: «اعتقال عناصر معادية للثورة وهم متلبّسون». ونشرت إلى جانب ذلك صورة في الصفحة الأولى لثمانية عشر أثيوبياً مرعوبين يقفون أمام طاولة ملأى بالأسلحة والكتيبات وأشرطة التسجيل. ومات معظم هؤلاء الناس، إذا لم يكن جميعهم، في وقت لاحق في الاحتجاز.

عاد وللز جوّاً إلى واشنطن على متن طائرة لير نفاثة. ولقي فريق من ضباط «السي.آي.أيه.» الطائرة. لم تكن تلك حفلة استقبال، إذ انهم اشتبهوا فيه بالخيانة. أخذوه إلى منزل آمن في ضواحي فرجينيا، واستجوبوه على مدى ستة أسابيع. وقال لهم وللز، «لو أردت أن أبقى أسيراً لبقيت في أثيوبيا».

«أردت الانضمام إلى «السي.آي.أيه.» لأنها تهتم برجالها»، قال. «لم يهتموا بي بأي طريقة، أو شكل، أو اسلوب. اعتقدوا أنني خائن لأنني تكلّمت. طُلب إليّ أن أتقدم باستقالتي. وكان ذلك مدمّراً لي». واستمر الألم بعد أكثر من عشرين سنة على ذلك.

قال ديفيد كورن، القائم بالاعمال الأميركي في أديس أبابا عندما أُخذ وللز رهينة، «أخذت إدارة كارتر عملية خفية سبق أن بدأت على نطاق صغير جداً في عهد كارتر، وحوّلتها إلى نشاط يتم القيام به في داخل أثيوبيا. وهو أمر لم أعتقد أنه لن يُكتشف، وحاولت وقفه. كنت متيقّناً، نظراً إلى المراقبة التي مارستها علينا الحكومة الأثيوبية، من أنه سيتم اكتشاف الأمر. وهو ما حصل»[٣].

أي وكالة استخبارات لعينة أنتم تديرون؟

في السابع من آذار/مارس ١٩٨٤، اختطف رئيس مكتب «السي.أن.أن.» في بيروت جيريمي ليفين. وفي ١٦ آذار/مارس، اختفى رئيس محطة «السي.آي.أيه.» بيل باكلي. وفي ٨ أيار/مايو، تبخّر القسيس بنجامين وير، وهو مرسل تابع للكنيسة المشيخية، من شوارع المدينة. وتم، في المجموع، أخذ ١٤ رهينة أميركية في بيروت في سنوات إدارة ريغان.

إلا أن باكلي احتل دوماً المركز الأول في ذهن بيل كايسي، لسبب وجيه، هو أن المدير مسؤول مباشرة عن بلواه. وأسمع كايسي الرئيس ريغان شريطاً مسجلاً عن باكلي وهو يخضع للتعذيب. وقد أحدث، بحسب رواية الجميع، تأثيراً عميقاً.

طلعت «السي.آي.أيه.» بما لا يقل عن دزينة من الخطط لتحرير باكلي، إلا أنها افتقرت كلّها إلى ما يكفي من الاستخبارات لتنفيذها. وخطط الجهاز الخفي، وكان في حالة من الإحباط، لمحاولة خطف عماد مغنية. وقال منسق مكافحة الإرهاب في الحكومة، روبرت أوكلي، «إن الرئيس وافق على توصية من مدير الاستخبارات المركزية بخطف مغنية»[٤]. اعتقدت «السي.آي.أيه.» أنه موجود في باريس، وأغار ضباط الاستخبارات الفرنسية، وقد تلقّوا تحذيراً من الوكالة، على غرفة الفندق التي قالت «السي.آي.أيه.» إنهم سيجدونه فيها. وعثروا على سائح إسباني في الخمسين من العمر، حيث كان يفترض بالمطلوب اللبناني الأكثر إثارة للجدل، ابن الخامسة والعشرين أن يكون.

من بين المصادر الكثيرة التي رعتها محطة «السي.آي.أيه.» في باريس باسم مكافحة الإرهاب، ثمة مخادع إيراني يدعى منوشهر غربانيفار، يعرف من أين تؤكل الكتف، وسبق أن كان عميلا للسافاك، شرطة الشاه السرّية. وغربانيفار، السمين، الآخذ في الصلع، وصاحب اللحية المعنّزة، الذي يتردي الثياب الفاخرة، ويحمل ما لا يقل عن ثلاثة جوازات سفر مزوّرة، فرّ من إيران بعد سقوط النظام القديم. وهو منذ ذلك الوقت يبيع معلومات مريبة لـ «السي.آي.أيه.» وجهاز الاستخبارات الإسرائيلية. امتلك غربانيفار منوالاً لتوقّع الأحداث بعد حصولها، وقد أتقن صناعة المعلومة لتأتيه بجعالات نقدية. فبعد يوم على اختطاف باكلي، التقى غربانيفار مع ضباط من «السي.آي.أيه.» في باريس، وقال إن في حوزته معلومات قد تُمكّن من إطلاقه. أخضعته الوكالة إثر ذلك لثلاثة امتحانات على جهاز فحص الكذب، وقد رسب في المرّة الأخيرة في كل سؤال ما عدا اسمه وجنسيته. وفي ٢٥ تموز/يوليو، اعتبرت «السي.آي.أيه.» غربانيفار رسمياً كاذباً محترفاً ـ «ملفّقاً للاستخبارات ومصدر إزعاج» ـ. وأصدرت مذكّرة نادرة على مستوى العالم بإحراق اسمه، وهو أمر يعلن أنه بعيد كل البعد عن الصدق، وأنه لا يجب الوثوق بكلامه أبداً. وبرغم ذلك، فإن غربانيفار استدرج في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤، ضابط «السي.آي.أيه.» تيد شاكلي إلى اجتماع استغرق ثلاثة أيام في فندق من أربع نجوم في هامبورغ.

بعد ارتقاء طموح لا يرحم إلى المنصب الثاني في قيادة الجهاز الخفي، أجبر الأميرال تورنر شاكلي على التقاعد قبل خمس سنوات، الأمر الذي أثار ارتياحاً كبيراً لدى زملائه في «السي.آي.أيه.». وأصبح اسمه مرادفاً للغش المهني في الوكالة. وها إنه يعمل الآن وسيطاً خاصاً لبيع الاستخبارات: بائع أسرار، على غرار غربانيفار. وقدّم نفسه في اجتماعات مع مختلف المنفيين الإيرانيين، بوصفه مبعوثاً لرئيس الولايات المتحدة.

أنصت شاكلي بانتباه بينما كان غربانيفار يناقش سبل تحرير الرهائن الأميركيين. ربما يتم الأمر بدفع فدية سرّية، صفقة مباشرة يتم فيها دفع المال

نقداً؛ أو ربما يكون مربحاً. إذ يمكن الولايات المتحدة أن تشحن صواريخ إلى إيران، مستخدمة شركة تجارية تدعى «ستار لاين» يديرها غربانيفار بالترادف مع جهاز الاستخبارات الإسرائيلي. فبيع الأسلحة قد تنتج عنه إرادة طيبة في طهران، والملايين للتجار الخاصين المتورطين، وفدية نقدية كبيرة لتحرير باكلي ورفاقه الرهائن الأميركيين. أطلع شاكلي على الحادثة فرنون والترز الذي لا يخلو منه مكان، وقد مررها بدوره إلى قيصر مكافحة الإرهاب روبرت أوكلي.

في الثالث من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤، اختطف بيتر كيلبرن، المسؤول عن مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت. وفي واشنطن رجت عائلات الرهائن الأميركيين البيت الأبيض القيام بأمر ما. أصابت توسلاتهم الرئيس في الصميم، فأخذ يسأل كايسي باستمرار عمّا تفعله «السي.آي.أيه.» لتحريرهم. وقال بوب غايتس «انشغل ريغان بمصير الرهائن ولم يمكنه أن يفهم ما الذي يمنع «السي.آي.أيه.» من تحديد مكانهم وإنقاذهم»[٥]. «ومارس المزيد والمزيد من الضغط على كايسي للعثور عليهم. وتصعب مقاومة نوعية الضغط الذي يمارسه ريغان. فلا كلمات صاخبة أو إدانات قاسية ـ ما من شيء من أسلوب جونسون أو نيكسون ـ بل فقط نظرة متسائلة، إيحاء بالألم، ومن ثم الطلب ـ علينا وحسب إخراج هؤلاء الناس ـ يكرره يومياً، أسبوعاً تلو الأسبوع، وشهراً تلو الشهر. ويأتي الاتهام ضمنياً: أي نوع لعين من وكالة الاستخبارات تديرونه إذا كنتم لا تستطيعون العثور على هؤلاء الأميركيين وإنقاذهم؟».

إنه من صنع أيدينا

أخذت واشنطن تستعد، في كانون الأول/ديسمبر، لبدء ولاية ريغان الثانية، بينما بقي عرض غربانيفار لتسهيل صفقة مربحة للأسلحة في مقابل الرهائن قائماً. أبقاه كايسي حيّاً. واقترح، في ذلك الشهر، أنه على «السي.آي.أيه.» أن تموّل حربها في أميركا الوسطى بمال من الخارج. وقد دأب، لنحو نصف سنة، على طرح الفكرة في البيت الأبيض.

منع الكونغرس التمويل الأميركي للحرب قبل وقت قصير على يوم

الانتخابات في ١٩٨٤. وقد فرض إخفاقان في الجهاز الخفي هذا المنع. فثمة أولاً إخفاق كتاب الرسوم. فمنذ استهلك كايسي خزان «السي.آي.أيه.» الصغير من الخبرة شبه العسكرية في أميركا الوسطى، «كان على الوكالة أن تخرج عن نطاقها وتجلب أناساً يمكنهم القيام بتلك الحرب عنها»، بحسب قول نائب مدير الاستخبارات المركزية جون ماكماهون(٦). «وجرى ذلك في شكل رئيسي من خلال متقاعدين من القوات الخاصة الذين تعلّموا الكار في فيتنام». وامتلك أحد هؤلاء المحاربين القدامى كتاب رسوم استُخدم لتدريب الفلاحين الفيتناميين على كيفية السيطرة على قرية ما من خلال قتل رئيس بلديتها، وقائد الشرطة، والميليشيا. ترجمته «السي.آي.أيه.» إلى الإسبانية ووزعته على الكونترا. وسرعان ما انتشر الكتاب في العلن، وقال ماكماهون إنه عندما حصل ذلك، فكّر بعض كبار الضباط في الوكالة في أن «أحداً ما يشن علينا عملاً خفيّاً. وهذا مناف للمعقول. وتبيّن أنه من صنع أيدينا». أصدر كايسي توبيخات لخمسة ضباط كبار في «السي.آي.أيه.» حول كتاب الرسوم، رفض ثلاثة منهم التوقيع عليها. ولم تتم معاقبتهم على عصيانهم.

ثم جاءت الألغام. فكايسي، الذي هدف إلى تدمير ما بقي من اقتصاد نيكارغوا، سمح بتلغيم ميناء كورينتو النيكاراغوي: وهو عمل عدواني. كان هذا من بنات أفكار كوان كلاريدج، وقد تولّد عن شعور بالإحباط بعدما بدأت تمويلات الكونترا في الاجتفاف. قال كلاريدج «جلست في منزلي في إحدى الليالي ـ وكنت، بصراحة، أتناول كأسا من الجين ـ وقلت، حسناً، يجب على الألغام أن تكون هي الحل!»(٧) وصنّعتها الوكالة بسعر زهيد، باستخدام أنابيب للمجارير. وأبلغ كايسي الكونغرس في شأن عملية التلغيم بتمتمة غير مسموعة. وعندما أثار السيناتور الجمهوري باري غولدووتر، رئيس لجنة الاستخبارات، ضجة حول الأمر، شهَّر به ضباط في «السي.آي.أيه.»، واتهموه بأنه سكّير مشوّش العقل.

منع الكونغرس، المتيقّظ لسبل كايسي، الوكالة تحديداً من طلب التمويل من بلدان ثالثة للتهرب من الحظر على المساعدة إلى الكونترا. إلا أن كايسي تدبّر

أن تدفع السعودية ٣٢ مليون دولار، وخصّ تايوان بمليونين آخرين. وتدفّق المال عبر حساب سويسري تسيطر عليه الوكالة. وشكّل ذلك سدّة فراغ مؤقتة.

في كانون الثاني/يناير ١٩٨٥، في بداية إدارة ريغان الثانية، واجه المدير أمرين مستعجلين من الرئيس: حرّر الرهائن. أنقذ الكونترا. واختلطت المهمتان في ذهنه.

نظر كايسي إلى الحياة بوصفها مشروعاً. اعتقد في النهاية أن المعتقدات السياسية، والسياسة، والدبلوماسية، والاستخبارات، ليست كلها سوى صفقات أعمال. ورأى كيف أنه يمكن إيجاد حلّ لأزمة الرهائن وللنقص في النقود الذي يواجه الكونترا من خلال صفقة كبرى مع إيران. كان المدير ليفضّل أن يدير بنفسه العملية الإيرانية، لكنه واجه معارضة شاملة من جهازه الخفي للعمل مع منوشهر غربانيفار، ولم تكن لـ «السي.آي.أيه.» قناة أخرى إلى إيران. ولكان كايسي أحب، أيضاً، أن ينقذ الكونترا من غير معونة من أحد، إلا أنه كان ممنوعاً على «السي.آي.أيه.» أن تقدّم إليهم معونة مباشرة. وبات الحلّ بالنسبة إليه في إدارة العمليتين من خارج الحكومة.

وضع ما اعتقد أنه العمل الخفي النهائي. وقد استمر عامين من ابتكاره وحتى دماره. وكاد، في شكل خطير، يدمّر الرئيس ريغان، ونائب الرئيس بوش، والوكالة ذاتها.

وقال بوب غايتس مستفكراً، إنه «ركب مخاطرة كبرى، وعرّض الرئيس، ونفسه، و«السي.آي.أيه.»، للخطر»(٨).

٤١

الذي خدع المخادع

اختطف حزب الله، في ١٤ حزيران/يونيو ١٩٨٥، طائرة تابعة لـ «التي.دبليو.أي.»، الرحلة ٨٤٧، المنطلقة من أثينا في طريقها إلى روما ونيويورك. توجه الخاطفون بالطائرة إلى بيروت، وسحبوا أحد غطّاسي البحرية الأميركية من مقعده، وأطلقوا النار على رأسه، وألقوا بجثته على المدرج ليس بعيداً عن المكان الذي قُتل فيه المارينز الأميركيون في ثكنتهم قبل ذلك بعشرين شهراً.

طلب الخاطفون إطلاق ١٧ مسجوناً في الكويت ـ أحدهم صهر عماد مغنية ـ و٧٦٦ أسيراً لبنانياً تعتقلهم إسرائيل. ضغط الرئيس ريغان على إسرائيل في الخفاء، فتم إطلاق ٣٠٠ من السجناء. وبطلب من البيت الأبيض، ساعد رئيس البرلمان الإيراني، علي أكبر هاشمي رفسنجاني، في التفاوض وإنهاء عملية الاختطاف.

علّمت المحنة كايسي أمثولة: ريغان مستعد لعقد صفقات مع من يصفهم بـ «الإرهابيين».

في ذلك الأسبوع ذاته، تلقّى المخاتل الإيراني منوشهر غربانيفار رسالة موجهة إلى المدير عبر تاجر سلاح إيراني أميركي محال على المحاكمة، وهو من أقارب رفسنجاني. كانت كناية عن موجز منعش: حزب الله يمسك بالرهائن. ولإيران تأثير في حزب الله. وفي وسع صفقة سلاح مع إيران تحرير الأميركيين.

شرح كايسي هذا الاقتراح للرئيس بعناية. وفي ١٨ تموز/يوليو ١٩٨٥، كتب

ريغان في يومياته: «يمكن هذا أن يشكّل اختراقاً في عملية إعادة ضحايانا المخطوفين السبعة»[1]. وفي الثالث من آب/أغسطس، أعطى ريغان الموافقة الرسمية لكايسي لعقد الصفقة.

وبالحصول على هذه الموافقة، أرسل غربانيفار والإسرائيليون شحنتين تحتويان على ما مجموعه ٥٠٤ صواريخ تاو الأميركية إلى طهران. دفع الإيرانيون نحو عشرة آلاف دولار للصاروخ الواحد، وأدخل الوسيط إلى جيبه كسباً متواضعاً، بينما أخذ حراس الثورة الإيرانيون الأسلحة. وفي ١٥ أيلول/سبتمبر، بعد ساعات على وصول الشحنة الثانية، أُطلق القسيس بنجامين وير بعد ١٦ شهراً في الأسر.

انهارت في السرّ ركيزتان من ركائز سياسة ريغان الخارجية: لا صفقات مع «الإرهاب»، ولا أسلحة إلى إيران.

بعد أسبوع أرسل غربانيفار خبراً مفاده أنه في الإمكان إطلاق الرهائن الست الباقين في مقابل بضعة آلاف من صورايخ هوك الأميركية المضادة للطائرات. وأخذت الأرقام في الارتفاع: ثلاثمئة، أربعمئة، خمسمئة صاروخ في مقابل حياة كل رهينة. وفي ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمع كايسي وماكماهون مع مستشار الأمن القومي روبرت ماكفارلين ونائبه الأميرال جون بويندكستر. اعتقدوا أربعتهم أن إسرائيل ستسلم الأسلحة الأميركية إلى فئة داخل الجيش الإيراني تريد قلب آية الله الخميني. إلا أن ذلك شكّل كذبة، وستاراً من الدخان وضعه غربانيفار وداعموه الإسرائيليون، بهدف كسب الملايين من العملية. كلما ازدادت الأسلحة المُسَلّمة، كلما أمكن تحصيل المزيد من الربح.

واختار كايسي، لمراقبة الوسطاء، ريتشارد سيكورد، وهو جنرال أميركي متقاعد تحوّل إلى بائع أسلحة يعمل لحسابه، بوصفه ممثلاً لـ «السي.آي.أيه.»، كان سيكورد جندياً مخلصاً في الجهد السرّي العالمي لتسليح الكونترا وتمويلها من وراء ظهر الكونغرس. وقضت وظيفته بالتأكد من وصول حصّة من الأرباح إلى الأيدي المناسبة.

أمر لا يستأهل

بعيد الثالثة من بعد ظهر الجمعة ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥، استيقظ دوان كلاريدج، وقد أصبح الآن رئيساً للقسم الأوروبي في الجهاز الخفي، على اتصال هاتفي مسعور من المقدّم أوليفر نورث. التقيا، بعد ساعة، في الطبقة السادسة من مقر قيادة «السي.آي.أيه.»

أخذت شحنات الهوك الجوية إلى إيران تصبح نكبة. فقد وضّب الإسرائيليون ثمانمئة صاروخ قديمة العهد تكنولوجيّاً على طائرة ٧٤٧ تابعة لطيران «العال». وقضت الفكرة بأن يشحن الإسرائيليون الأسلحة جوا إلى ليشبونة ونقلها إلى طائرة شحن نيجيرية استأجرها سيكورد لتطير بها إلى طهران. إلا أن أحداً لم يؤمّن حقوق الهبوط في ليشبونة للطائرة الإسرائيلية، التي كانت في تلك اللحظة في مكان ما فوق البحر الأبيض المتوسط.

قال نورث إن الطائرة ملأى بمعدات للتنقيب عن النفط ومتوجهة إلى إيران، فهل يمكن كلاريدج أن يحرّك السماء والأرض للسماح بهبوطها في البرتغال؟ وحمل هذا كلاريدج، الذي لم يكن لا غبيّاً ولا شديد الالتزام بالأنظمة والقوانين، على التوقف للحظة. ولاحظ أنه لا يهم إذا كانت أدوات للحفر، أو عبوات لإرضاع الأطفال، أو قاذفات صواريخ. فإرسال أي شيء إلى الإيرانيين مناف للقانون ولسياسة الولايات المتحدة الخارجية. إلا أن نورث أكد له أن الرئيس رفع الحظر ووافق على صفقة سرّية لتحرير الرهائن.

عمل كلاريدج طوال فترة نهاية الأسبوع لحل المشكلة. أُلغيت الرحلة الأولى، ثم الثانية. وأمّن في النهاية طائرة ٧٠٧ تابعة لـ «السي.آي.أيه.» في فرانكفورت. أمكن الطائرة الأصغر حجماً أن تطير من تل أبيب إلى طهران لتسلّم في يوم الاثنين الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر جزءاً من الشحنة ـ ١٨ صاروخ هوك ـ للإيرانيين. لم تسعد الحكومة الإيرانية لا بكمية الأسلحة ولا نوعيتها التي عفّ عليها الزمن، ناهيك بالكتابات العبرية الموجودة عليها.

لم يكن أحد أقل سعادة من نائب مدير الاستخبارات المركزية جون ماكماهون، الذي وصل إلى عمله في السابعة من صباح الاثنين ليكتشف أن «السي.آي.أيه.» قد انتهكت القانون. فقبل أسابيع فقط أفشل ماكماهون محاولة من فريق مجلس الأمن القومي لانتهاك حظر رئاسي على الاغتيالات السياسية. واستذكر ماكماهون، «تلقّينا أمراً تنفيذياً أوّلياً يبلغنا بالمضي للقضاء على إرهابيين من خلال ضربات وقائية. طلبنا من جماعتنا إعادته وإبلاغهم: عندما يسحب الرئيس الأمر التنفيذي الذي يمنع «السي.آي.أيه.» من ارتكاب الاغتيالات، فسنتولى القيام بهذا. صدم ذلك الفتية في مجلس الأمن القومي. وأصيبوا بغضب شديد»(٢).

شكّلت رحلة طائرة ٧٠٧ التابعة لـ «السي.آي.أيه.» عملاً خفياً يتطّلب قراراً موقّعاً من الرئيس. عرف ماكماهون أن الرئيس وافق، من حيث المبدأ، على صفقة أسلحة في مقابل الرهائن. إلا أن مشاركة «السي.آي.أيه.» احتاجت، من الناحية العملية، إلى توقيع الرئيس. وأمر ماكماهون المحامي العام التابع للوكالة بوضع أمر رئاسي بمفعول رجعي - بتاريخ مُرجّع مثل شيك غير صالح - يسمح «لوكالة الاستخبارات المركزية بتقديم المساعدة إلى أطراف خاصين في محاولتهم الحصول على إطلاق للرهائن المحتجزين في الشرق الأوسط». وتابع: «ويمكن، كجزء من هذه الجهود، توفير بعض المواد الأجنبية والذخائر لحكومة إيران التي تتخذ خطوات لتسهيل إطلاق الرهائن الأميركيين».

وها إن الأمر قد وُضع بالأسود والأبيض. بعثت «السي.آي.أيه.» بالقرار الرئاسي إلى البيت النبيض. ووقعه الرئيس في ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥. وبموجبه، وبموجب قرار رئاسي آخر وُقّع بعد ذلك ببعضة أسابيع، بات كايسي هو الرجل المسؤول في نهاية المطاف عن صفقة الأسلحة في مقابل الرهائن.

استدعى كايسي غربانيفار إلى واشنطن لتكريسه العميل الإيراني لـ «السي.آي.أيه.» في الصفقة. توسّل إليه كلير جورج بالكف عن ذلك: «بيل، هذا الشخص ليس جيّداً»، قال. «الأمر، في الحقيقة، لا يستأهل». وكذلك فعل عضو «السي.آي.أيه.» تشارلز ألن، رئيس القوة المنتدبة لتحديد موقع الرهائن

التابعة للوكالة. والتقى في ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، مع غربانيفار، ثم مضى للقاء كايسي.

قال ألن «وصفته للمدير بأنه مخادع». وأجاب كايسي، «حسناً، ربما هو «الذي خدع المخادع»». وأصر كايسي على أن تستمر «السي.آي.أيه.» في استخدام غربانيفار بوصفه تاجر السلاح التابع لها والمفاوض باسمها مع حكومة إيران. عرف تشارلي ألن أن هناك سبباً وحيداً يمكن تصوّره لاستخدامه. فقد أبلغ المخادع الإيراني ضابط «السي.آي.أيه.» بأنه في إمكان صفقة الأسلحة تحويل الأموال إلى «فتيان أولي [أوليفر نورث ـ المترجم] في أميركا الوسطى».

في ٢٢ كانون الثاني/يناير، سجّل نورث سرّاً محادثة مع غربانيفار. «أعتقد يا أولي أن هذه هي الفرصة الفضلى»، قال الوسيط ضاحكاً. «لن نحظى أبداً بمثل هذا الوقت الجيد، ولن نحصل أبداً على مثل هذا المال الجيد، ونحن نفعل كل شيء بالمجان، نتولّى الرهائن بالمجان، ونتولّى جميع الإرهابيين بالمجان، وأميركا الوسطى بالمجان».

وبعد مماحكة طويلة، انتهى أول تحويل للهوك بفضله من ٨٥٠ ألف دولار في مصرف سويسري يحرّكها ريتشارد سيكورد. أخذ المقدّم نورث المال وأعطاه للكونترا. وها إن إيران تصبح مصدراً للتمويلات الخفية للحرب في أميركا الوسطى.

وها إن الإيرانيين يبعثون خبراً بأنهم يريدون استخبارات ميدانية من أجل حربهم ضد العراق. فقد سبق لـ «السي.آي.أيه.» أن قدّمت استخبارات للعراق ليستخدمها ضد إيران. كان هذا أكثر مما يحتمله ماكماهون. وهو قد حذّر في برقية في ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦ إلى كايسي، الذي كان يلتقي نظراءه الباكستانيين في إسلام أباد، من أن «السي.آي.أيه.» «تساعد الأناس الخطأ وتشجعهم. فتوفير الصواريخ الدفاعية أمر، لكن عندما نوفّر استخبارات حول سير المعركة، فإننا نعطي الإيرانيين وسائل القيام بعمل هجومي».

رفض كايسي نصيحته. وتقاعد ماكماهون بعد فترة ليست بطويلة من كونه الرقم الثاني في «السي.آي.أيه.»، منهياً، وعلى نحو مرير، أربعة وأربعين عاماً من الخدمة. حلّ بوب غايتس محلّه، واستمرّ العمل بالصفقة.

فكرة متقنة

بات دور أوليفر نورث في الجهد السرّي للمضي بالحرب ضد الساندينيين، سرّاً مكشوفاً في واشنطن منذ أواسط صيف ١٩٨٥. ففي ربيع تلك السنة، أخذ المراسلون يعملون على روايات مفصّلة عمّا يقوم به نورث في أميركا الوسطى. لكن ما من أحد، خارج إطار حلقة ضيقة جداً في «السي.آي.أيه.» والبيت الأبيض، يعرف ما الذي يقوم به في إيران.

تولّى الجانب المالي لعملية تبادل الأسلحة بالرهائن. فالبنتاغون نقل آلاف صواريخ تاو إلى «السي.آي.أيه.» بسعر بخس هو ٣,٤٦٩ دولاراً للصاروخ الواحد، وهو واقع حاسم لم تعرف به سوى القلة القليلة من الناس. وسيدفع سيكورد، نيابة عن «السي.آي.أيه.»، عشرة آلاف دولار للقطعة الواحدة، مولّداً ٦,٥٣١ دولاراً كربح إجمالي، ومحصّلاً حصة عادلة له، ومحوّلاً صافي ما بقي إلى الكونترا في أميركا الوسطى. وقام غربانيفار بتغطية كلفة العشرة آلاف دولار، محصّلا من ثم علاوة عليها عندما سيرفع سعر الصواريخ لدى بيعها للإيرانيين. وكلما زاد عدد الأسلحة التي ستتمكن الولايات المتحدة من بيعها لطهران كلما زادت الملايين التي ستكسبها الكونترا.

في أواخر كانون الثاني/يناير، أمر وزير الدفاع واينبرغر كبير مساعديه، وزير الخارجية المستقبلي كولن باول، بتحويل ألف صاروخ تاو من مستودعات البنتاغون إلى عهدة «السي.آي.أيه.» وانتقلت الصواريخ، في شباط/فبراير، إلى إيران من خلال ريتشارد سيكورد ومنوشهر غربانيفار. زاد الوسيط الإيراني أسعاره على نحو كبير قبل أن تبلغ الأسلحة طهران. وعندما تدفقت النقود، سدّدت «السي.آي.أيه.» دينها للبنتاغون بتقنية مألوفة لدى مبيضي الأموال في

كل مكان. وتمت تجزئة شيكاتها إلى مبالغ بقيمة ٩٩٩,٩٩٩,٩٩ دولاراً أو أقل. فأي تحويل مالي تقوم به «السي.آي.أيه.» بقيمة مليون دولار أو أكثر يتطلّب إبلاغ الكونغرس به بطريقة قانونية روتينية. حصل سيكورد من غربانيفار على عشرة ملايين دولار لقاء الصواريخ، وخصص معظم الربح للكونترا.

وفي مذكّرة مؤرخة في ٤ نيسان/أبريل ١٩٨٦، شرح المقدم نورث الصورة الكبرى لنائب الأميرال جون بويندكستر، مستشار الرئيس الجديد لشؤون الأمن القومي. أفاد أنه تمت تغطية كلفات الجميع «وسيتم استخدام ١٢ مليون دولار لشراء ما تحتاج إليه قوات المقاومة الديموقراطية النيكاراغوية على نحو حاسم من إمدادات». وكانت تلك، بحسب ملاحظة نورث الشهيرة، «فكرة متقنة».

غاب عنصر واحد فقط عن هذا الحساب المفصّل: الرهائن. كان الرهائن المحتجزون أربعة في تموز/يوليو ١٩٨٦. وبعد ذلك بستة أشهر أصبحوا ١٢. فالاستعداد الأميركي لتزويد إيران بالأسلحة لم يؤد إلاّ إلى زيادة الشهية على خطف الرهائن.

قال السفير الأميركي في لبنان جون كيللي، إن «سند نورث العقلي، الذي أيّده فيه الذين ساعدوه في «السي.آي.أيه.»، هو أن الخاطفين في لبنان يشكلون مجموعة مختلفة عن أولئك الذين يتلقون الجعالات. شيعتنا موثوقون. الذين يخطفون هم مجموعة شيعية مختلفة. هذا كلام فارغ كلّياً!»[٣].

لفّق كايسي وحفنة من المحللين الموالين له مفهوم أن صفقات الأسلحة ستكون بمثابة مؤشر دعم للمعتدلين السياسيين في حكومة إيران. وشكّل هذا مثالاً فاحشاً على الطريقة التي «تم فيها إفساد «السي.آي.أيه.»» في خلال إدارة ريغان، وذلك بعبارات فيليب ويلكوكس جونيور، ضابط الاستخبارات الرئيسي في وزارة الخارجية، وأرفع أداة ارتباط لها مع «السي.آي.أيه.» في أواخر الثمانينيات[٤]. لم يبق أي معتدلين في حكومة إيران. فجميعهم قُتلوا أو سُجنوا على أيدي الأشخاص الذين يتلقون الأسلحة.

آمل ألاّ يتسرّب الأمر

أعادت إيرادات مبيعات الأسلحة، والملايين التي تدبّرها كايسي من السعوديين، «السي.آي.أيه.» إلى العمل في أميركا الوسطى.

أقامت الوكالة قاعدة جوّية وشبكة من البيوت الآمنة لعلميات شحن الأسلحة في خارج السلفادور. أدار القاعدة اثنان من قدامى الكوبيين المناهضين لكاسترو الذين يتلقون معاشات من «السي.آي.أيه.» أحدهما فيليكس رودريغيز، الرجل الذي ساعد في اعتقال تشي غيفارا. والآخر لويس بوسادا كاريلس، الذي هرب للتو من أحد سجون فنزويلا، حيث اعتقل بسبب الدور المحوري الذي لعبه في التفجير الارهابي لطائرة ركاب كوبية أدى إلى مقتل ٧٣ شخصا.

بحلول صيف ١٩٨٦، شرعا في إلقاء تسعين طنّاً من البنادق والذخائر للكونترا في جنوب نيكاراغوا. وفي حزيران/يونيو، قام الكونغرس باستدارة وسمح بمئة مليون دولار دعماً للحرب في أميركا الوسطى على أن يبدأ العمل بها في الأول من تشرين الأول/أكتوبر. فعند ذلك التاريخ تكون «السي.آي.أيه.» قد استعادت رخصة الصيد الخاصة بها. وبدا، لوهلة، أن الحرب تسير بحسب ما يريدون.

إلا أن شبكة أسلحة «السي.آي.أيه.» الخفية المتعوب عليها أخذت في التفكك. كان رئيس محطة كوستاريكا، جو فرنانديز، يلعب دور المراقب الجوي لعملية شحن الأسلحة، وقد أعد مهبطاً مرتجلاً لعمليات الطيران السرّية. إلا أن رئيس كوستا ريكا الجديد، أوسكار آرياس، الذي يعمل للتفاوض على السلام في أميركا الوسطى، حذّر فرنانديز وجاهة من استخدام المهبط لتسليح الكونترا. وفي ٩ حزيران/يونيو ١٩٨٦، أقلعت طائرة لـ «السي.آي.أيه.» محمّلة بالأسلحة من القاعدة الجوية السرّية في خارج سان سلفادور، في ظروف جوّية سيئة، وقامت بعملية هبوط غير مقررة في المهبط، وغرقت حتى جزع دولابها في الوحل. وأمسك فيرنانديز، المرتجف خوفاً وغضباً، بالهاتف، واتصل بسان

سلفادور، وأمر زميله في «السي.آي.أيه.» بـ «إخراج الطائرة اللعينة من كوستاريكا!»[٥] وتطلب الأمر يومين.

في ذلك الشهر ذاته، أخذ فيليكس رودريغيز يدرك أن أحداً ما عند خط التموين ـ اشتبه في الجنرال سيكورد ـ يستفيد من وطنيتهم. وحاول، في ١٢ آب/أغسطس، فضح المسألة في اجتماع مع صديق قديم آخر، مستشار الأمن القومي لنائب الرئيس بوش، دون غريغ، أحد قدامى «السي.آي.أيه.». واستنتج غريغ أن تلك تشكّل «عمليّة غير شريفة جداً».

في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦، أطلق جندي نيكاراغوي مراهق صاروخاً أسقط طائرة شحن أميركية من طراز «سي ١٢٣» تنقل أسلحة من سان سلفادور إلى الكونترا. وأبلغ الناجي الوحيد، وهو أميركي يتولى عملية الشحن، المراسلين أنه يعمل بموجب عقد مع الوكالة. أجرى فيليكس رودريغيز اتصالاً مذعوراً بمكتب نائب رئيس الولايات المتحدة. ولدى سقوط الطائرة كان نورث في فرانكفورت يحاول إبرام صفقة جديدة من الأسلحة في مقابل الرهائن مع إيران.

في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر، تم نشر قصة الصفقات السرّية في مجلة أسبوعية صغيرة في لبنان، بعد أسابيع على أوّل كشف عنها من خلال مناشير مغفلة رُميت في شوارع طهران. وسيستغرق الأمر أشهراً قبل أن تتكشف الرواية الكاملة: تلقّى حراس الثورة الإيرانيون ألفي صاروخ مضاد للدبابات، و١٨ صاروخاً متطوراً مضاداً للطائرات، وحمولة طائرتين من قطع الغيار، وبعض المعلومات الاستخباراتية المفيدة حول ساحة المعركة عبر المساعي الحميدة لـ «السي.آي.أيه.». وقال روبرت أوكلي، منسق مكافحة الإرهاب، إن شحنات الأسلحة «زادت في شكل كبير من قدرات إيران العسكرية. كذلك، فإن الاستخبارات التي مررناها لهم شكّلت مساعدة كبيرة»[٦]. إلا أن الإيرانيين تعرّضوا للخداع. وقد اشتكوا، عن حق، من أنه تمت زيادة أسعار الشحنة الأخيرة من أجزاء الهوك بنسبة ٦٠٠ في المئة. كذلك، أُخذ غربانيفار نفسه على

حين غرّة؛ فمدينوه أخذوا يطالبونه بالملايين، وهدّد بفضح العملية لإنقاذ جلده.

أخذت عملية كايسي الخفية في التهدّم. قال المستشار القانوني لوزارة الخارجية أبراهام سوفير، إن «كايسي هو الشخص الذي أدار المسألة برمّتها»(٧). «لا تراودني أي شكوك حيال ذلك. فأنا عرفت كايسي من قبل. وأنا معجب به وأحبه، وعندما فضحت الأمر برمّته، شعرت بأن كايسي هو من نظر إلى ما قمت به على أنه خيانة».

في يوم الانتخاب، في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦، كشف رئيس البرلمان الإيراني رفسنجاني، أن مسؤولين أميركيين جاؤوا إلى طهران حاملين الهدايا. وفي اليوم التالي، سجّل نائب الرئيس بوش على آلة تسجيل يومياته: «تحتل مسألة الرهائن في هذه الأثناء الأخبار. أنا واحد من بين قلة تعرف التفاصيل الكاملة... إنها عملية تم الإبقاء عليها في نطاق ضيّق وضيق جداً، وآمل ألا تتسرب».

في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر، مضى كايسي إلى اجتماع متوتّر في شكل غير معهود لأعضاء مجلس الأمن القومي. وأقنع ريغان بالإدلاء ببيان علني بأن الولايات المتحدة تعمل على مخطط استراتيجي طويل الأمد لإحباط مسعى السوفيات والإيرانيين، وليس مقايضة الأسلحة بالرهائن، ردّد الرئيس الفكرة كالببغاء. وقال ريغان للأمة في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، «نحن لم ـ أكرر ـ لم نقايض الأسلحة أو أي شيء آخر بالرهائن». ومرّة أخرى يكذب الرئيس، كما في إسقاط «اليو ٢»، وكما في خليج الخنازير، وكما في الحرب في أميركا الوسطى، لحماية عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية.

قلّة هم الناس الذي صدّقوه هذه المرّة.

استغرق الأمر خمس سنوات إضافية لتحرير آخر الرهائن الأميركيين. واثنان منهم لم يعودا أبداً. فبيتر كيلبورن قتل. ومات عضو «السي.آي.أيه.» بيل باكلي مقيّداً بالسلاسل بعدما عانى أشهراً من التعذيب والاستجواب.

لم يعرف أحد في الحكومة الأميركية

أرادت لجنتنا الاستخبارات في الكونغرس التحدّث مع بيل كايسي، لكنه اختار اتباع التقليد ومغادرة البلاد في وقت تواجه فيه «السي.آي.أيه.» أزمة.

يوم الأحد، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر، طار كايسي جنوباً لاستعراض الجنود في أميركا الوسطى، تاركاً لنائبه بوب غايتس تنظيف الوسخ. أعيد تحديد جلسات الاستماع ليوم الجمعة المقبل. وكانت الأيام الخمسة الفاصلة من بين الأسوأ في تاريخ الوكالة.

يوم الاثنين، شرع غايتس والتابعون له في محاولة ترتيب التسلسل التاريخي لما حصل. وأوكل المدير إلى كلير جورج وجهازه الخفي، تحضير شهادتهما أمام الكونغرس. والنية هي عدم قول الحقيقة.

استدعى أعضاء في فريق لجنة الاستخبارات يوم الثلاثاء، جورج إلى جلسة استماع مقفلة في داخل خزنة مقفلة ومحمية الكترونياً في قبّة الكابيتول. وقد علم بأن «السي.آي.أيه.» قامت منذ سنة، بدون إذن شرعي، بمقايضة السلاح بالرهائن. وقام، في ظل استجواب دقيق، بما صنعه الرئيس بالتحديد قبل خمسة أيام: لقد كذب.

أوفد غايتس في خلال الليل، مساعداً آخر من مساعدي كايسي جنوباً إلى أميركا الوسطى لتسليم نسخة عن شهادة كايسي المقترحة ولإعادة المدير إلى مقر القيادة. وشرع كايسي، في يوم الأربعاء، في كتابة نسخة جديدة على دفتر رسمي وهو يطير عائداً إلى واشنطن. لكنه سرعان ما اكتشف أنه لا يستطيع قراءة خطّه. وأخذ في إملاء نثر مزخرف على آلة تسجيل، لكنه كان اختلاطاً. فرمى بالعمل جانباً.

حمل كايسي يوم الخميس، المسودة الأصلية في حقيبة يده إلى البيت الأبيض لاجتماع مع نورث وبويندكستر. وبينما أخذوا في جمع أفكارهم، خطّ كايسي ملاحظة على مسودته تقول إنه «ما من أحد في الحكومة الأميركية عرف» في شأن نقل «السي.آي.أيه.» للهوك جواً في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥.

شكلت هذه كذبة جريئة في شكل استثنائي. عاد إلى مقر القيادة والتقى في قاعة المحاضرات التابعة للمدير في الطابق السابع مع معظم قيادة الوكالة والكثيرين من الضباط المتورطين مباشرة في شحنات الأسلحة إلى إيران.

«شكّل الاجتماع كارثة تامة»، استذكر مدير فريق كايسي التنفيذي جيم ماكولو[٨]. وقال ديف غرايز، وهو من أقرب مساعدي كايسي إليه، إنه «ما من أحد من الموجودين كان قادراً ـ أو ربما راغباً ـ في إعادة تركيب كل عناصر لغز إيران ـ كونترا».

استذكر غرايز أن «المناخ في الاجتماع كان إغرابيّاً. بدا أن كثراً من المشاركين فيه مهتمون أكثر بحماية أنفسهم من حماية كايسي الذي بدا واضحاً أنه مرهق ومشوّش أحياناً. واتضح لماكولو ولي أننا قد نرافق في اليوم التالي مديراً مربكاً جداً إلى الكونغرس».

وفي يوم الجمعة، أدلى كايسي بشهادة داخل أبواب مغلقة أمام لجنتي الاستخبارات في الكونغرس. وقد شكّلت اختلاطاً من التهرّب، ورافقتها واقعة واحدة مثيرة. سأل أحد السيناتورات إذا كانت «السي.آي.أيه.» شحنت مساندة سرّية إلى كل من إيران والعراق، بينما تقوم الدولتان بذبح بعضهما البعض. نعم، قال كايسي، فنحن نساعد العراق منذ ثلاث سنوات.

ظهرت، في خلال عطلة نهاية الأسبوع، مذكرة نورث إلى بويندكستر حول تخزين الملايين من مبيعات الأسلحة إلى إيران، وتحويل المال إلى الكونترا. فقد انشغل الرجلان بعنف، على مدى أسابيع، في تمزيق المستندات وإتلافها، إلا أن نورث، بطريقة من الطرائق، فوّت هذا الأمر.

في يوم الاثنين ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، أملى نائب الرئيس بوش ملاحظة من أجل يومياته: «مفاجأة مذهلة... نورث أخذ المال ووضعه في حساب سويسري... لاستخدامه من أجل الكونترا... سيشكّل الأمر ضربة كبرى». وهذه أكبر ضجة سياسية في واشنطن منذ رحيل ريتشارد نيكسون عن العاصمة.

عقد كايسي بعد ذلك بأربعة أيام مؤتمراً لرؤساء الاستخبارات الأميركية من

«السي.آي.أيه.»، والخارجية، والبنتاغون. وجاء في مدار حديثه «لدي شعور جيد جداً حول قيام مجتمعنا بالعمل معاً وعلى مدى ستة أعوام بفاعلية أكبر من معظم حكومتنا وبدون أي إخفاقات كبرى. لا فضائح، ونجاح كبير قوي وثابت»[(٩)].

بدا الصمت كأنه مستمر إلى الأبد

منذ حصول ووترغيت والتغطية على الجريمة ـ وليست الجريمة ـ هي التي دمّرت السلطات في واشنطن. ولم يكن كايسي في حالة تسمح له بالتغطية. فقد ترنّح وتعثّر في خلال أسبوع من الشهادة غير المتماسكة في تلة الكابيتول، يتمايل في كرسيه، ويعجز عن ربط الجُمل ببعضها البعض. وهو بالكاد تمكن من إبقاء رأسه مرفوعاً. وكان مساعدوه مرتاعين، لكنهم استمروا في دفعه.

«كان لدى كايسي الكثير ليشهد به»، قال جيم ماكولو، أحد أعضاء فريقه الذي أمضى ٣٤ عاما في «السي.آي.أيه.» «فمن المشكوك فيه أن تتمكن العملية من مجرّد الانطلاق ـ والأقل منه المثابرة عليها لأكثر بكثير من سنة ـ بدون موافقته ودعمه»[(١٠)].

حضر كايسي، مساء الخميس ١١ كانون الأول/ديسمبر في فيلادلفيا، عشاء تذكارياً لضابط «السي.آي.أيه.» المقتول بوب إيمس. وعاد إلى مقر القيادة في السادسة من صباح الجمعة لإجراء مقابلة مع مراسل في مجلة «التايم» يدعى بروس فان فورست. وغالباً ما كانت الوكالة تلجأ إلى «التايم» من أجل دفعة من العلاقات العامة في أزمنة الأزمات. وفورست رجل يُعتمد عليه. فقد سبق وعمل على مدى سبعة أعوام في «السي.آي.أيه.».

حدّدت الوكالة قواعد الاجراء: ثلاثون دقيقة لإيران ـ كونترا، وثلاثون دقيقة لاستعراض إنجازات «السي.آي.أيه.» الكثيرة في ظل قيادة كايسي. وسبق لماكولو أن سمع كايسي، مرات كثيرة من قبل، يطلق سيله الكلامي المليء بالأخبار الجيدة. وهو واثق من أنه في وسع المدير حفظ دوره غيباً حتى وهو

في حالة إرهاق. أثبت النصف ساعة الأولى أنه محنة، لكن مع انتهائه، جاء السؤال السهل مقدّما على طبق: «هل يمكنك، يا سيد كايسي، أن تتحدث بعض الشيء عن بعض إنجازات الوكالة تحت قيادتك؟».

واستذكر ماكولو، «تنفسنا جميعنا الصعداء وارتحنا. لكن كايسي حدّق في فان فورست كما لو أنه غير مصدّق أو لم يفهم السؤال. ولم يقل شيئاً. وبدا الصمت كأنه مستمر إلى الأبد».

أصيب كايسي صباح الاثنين، ١٥ كانون الأول/ديسمبر، بعارض في مكتبه في الطابق السابع عشر. ونُقل على حمّالة قبل أن يدرك أي أحد ما قد حصل. وفي مستشفى جامعة جورجتاون، حدد أطباؤه إصابته بورم لمفي غير مُشَخّص في جهازه العصبي المركزي: شبكة عنكبوت خبيثة تنتشر في دماغه، وهو مرض نادر صعب الاكتشاف. وهو غالباً ما أدّى إلى سلوك غريب لا تفسير له في الأشهر الاثني عشر أو الثماني عشر التي سبقت اكتشافه.

لن يعود كايسي إلى «السي.آي.أيه.» أبداً. ذهب بوب غايتس، في ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧، بأوامر من البيت الأبيض لزيارته في المستشفى حاملاً معه رسالة استقالة ليوقعها المدير. لم يمكن كايسي الإمساك بالقلم. كان مستلقياً على سريره والدموع في عينيه. عاد غايتس في اليوم التالي إلى البيت الأبيض، وعرض عليه الرئيس الوظيفة: «وظيفة يبدو أنه ما من أحد آخر يريدها»، استفكر غايتس. «لا عجب»[١١].

عمل غايتس مديراً بالوكالة للاستخبارات المركزية على مدى خمسة أشهر مبرّحة، وحتى ٢٦ أيار/مايو ١٩٨٧، إلا أنه قُضي على تسميته. وسيكون عليه أن ينتظر ليعود الدولاب إلى الدوران من جديد. و«سرعان ما اتضح أنه قريب جدا مما كان كايسي يفعله أو لا يفعله»، قال المدير المقبل للاستخبارات المركزية، وليام وبستر[١٢]. «كانت مقاربة بوب هي أنه لا يريد أن يعلم. وهذا غير مقبول في هذه الظروف».

أدار وبستر «الأف.بي.آي.» على مدى تسع سنوات طويلة. وهو صاحب

فكين عريضين، وحذاء ملمّع، وليس لديه إنتماء سياسي وقد عيّنه كارتر، وهو واحد من الشعارات القليلة للاستقامة الاخلاقية الباقية في إدارة ريغان بعد ورطة إيران ـ كونترا. سبق له أن كان قاضياً فديرالياً، ويفُضل أن يتم التوجه إليه باللقب التشريفي. اتضحت للبيت الأبيض جاذبية تعيين رجل يُدعى «القاضي» لإدارة «السي.آي.أيه.» وهو، على غرار الأميرال تورنر، من أتباع المسيحية السينتولوجية المستقيمين، ورجل صاحب قناعة أخلاقية. كما أنه ليس رجل ريغان؛ فهو لا يمتلك ارتباطاً سياسياً أو شخصياً بالرئيس. «لم يطلب مني شيئاً أبداً»، قال وبستر. «لم نتحدّث أبداً في الأعمال. وهي لم تكن علاقة الأصحاب بالأصحاب. ثم، في نهاية شباط/فبراير ١٩٨٧، تلقّيت اتصالاً». وها إن ريغان يتحدّث كلّياً بالعمل الآن. وفي ٣ آذار/مارس، أعلن الرئيس عن تسمية وبستر مديراً للاستخبارات المركزية، وأشاد به بوصفه «رجلاً ملتزماً حكم القانون».

وهذا أمر لم يُقل ما يشبهه عن بيل كايسي، بل إنه بعد مماته في السادس من أيار/مايو، عن ٧٤ عاماً، ندد به أسقفه من على المنبر في خلال مأتمه، بينما أنصت الرئيسان ريغان ونيكسون بصمت.

كاد كايسي يضاعف حجم «السي.آي.أيه.» على مدى ستة أعوام؛ وبات يوجد الآن نحو ستة آلاف ضابط في الجهاز الخفي. وشيّد قصراً من زجاج بقيمة ٣٠٠ مليون دولار لإيواء أجرائه الجدد في مقر القيادة؛ وعبأ جيوشاً سرّية حول العالم. بيد أنه ترك الوكالة أكثر ضعفاً مما وجدها، وقد حطّمها إرثه من الأكاذيب.

تعلّم بوب غايتس أمثولة بسيطة وهو يعمل بإمرة كايسي: «الجهاز الخفي هو لب الوكالة وروحها»، قال. «لكنه أيضاً الجزء الذي يمكن أن يوصلك إلى السجن»(١٣).

٤٢

التفكير في ما لا يخطر في البال

اعترف رئيس الولايات المتحدة للشعب الأميركي بأنه كذب عليه في شأن مقايضة الأسلحة بالرهائن. حاول البيت الأبيض تحويل العاصفة السياسية في اتجاه كايسي و«السي.آي.أيه.»، إذ لا يمكن الرجل ولا المؤسسة الدفاع عن نفسيهما. استدعى الكونغرس ضباط كايسي وعملاءه إلى الشهادة. وتركوا انطباعاً بأن الولايات المتحدة قد وظّفت عصابة من المخادعين واللصوص لإدارة شؤونها الخارجية.

آذن وصول القاضي وبستر بتولي عدائيٍّ للسلطة في «السي.آي.أيه.» خطط الكونغرس، ومحام مستقل لتحديد ما الذي كان كايسي يقوم به. عُلّقت العملية، ووُضعت المخططات على الرف، وتحطّمت حيوات مهنية طويلة. وحل الخوف في مقر قيادة الوكالة، بينما تبخترت ثلاث دزينات من عملاء «الأف.بي.آي.» في مقر قيادة الوكالة يحملون مذكّرات جلب، ويفتحون الخزائن الحديدية المزدوجة الأقفال، ويفلفشون بإبهاماتهم في ملفات سرّية للغاية، جامعين الدلائل حول الاتهامات بعرقلة العدالة وباليمين الكاذبة. وخضع قادة الجهاز الخفي للاستجوابات، وتخيلوا أنهم سيحالون على المحكمة. لقد أوصلهم تصوّر كايسي «السي.آي.أيه.» متحررة من قيود القانون إلى النكبة.

«استغرقني الأمر أشهراً للوصول إلى إدراك واضح لما حصل، ومن الذي فعل ماذا بمن»، قال وبستر(١). «ترك كايسي وراءه الكثير من المشاكل». وأهمها، باعتقاد وبستر، تقليدٌ من رفض متعنّت لإطاعة السلطة. قال «إن الأناس الموجودين في الميدان في الخارج، شعروا بالحاجة إلى العمل من تلقاء

أنفسهم. ولا يُفترض بهم العمل بدون موافقة من الرئيس. لكن شعور كلّ من رؤساء المحطات، كان: أنا الرئيس».

تأكد ضباط الجهاز الخفي من أن وبستر ـ الذي أطلق عليه فوراً لقب «بيل اللطيف» ـ لا يملك أدنى فكرة عمّن هم، وما قاموا به، أو مهاراتهم السرّية التي تجمعهم ببعضهم البعض. «ما من أحد آخر يستطيع فهم الأمر»، قال كولن تومبسون الذي خدم في لاوس وكمبوديا وفيتنام. «إنه ضباب تغطس فيه وتتلطى وراءه. تعتقد أنك أصبحت شخصاً من النخبة في عالم الحكومة الأميركية، والوكالة تشجعك على هذا الاعتقاد منذ لحظة قدومك إليها. يحوّلونك إلى مؤمن»[٢].

بدوا، بالنسبة إلى الخارج، أشبه بأعضاء ناد للرجال في فرجينيا، ثقافة القميص الأبيض الجنوبية. لكنهم نظروا إلى أنفسهم على أنهم لواء معركة مموّه، وأخوّة دم. ومنذ البداية بلغ الاحتكاك مع وبستر خط الحماوة القصوى. «لأمكننا ربما تخطي الأنا عند وبستر، وافتقاره إلى الخبرة في الشؤون الخارجية، ونظراته إلى العالم انطلاقاً من المدينة الصغيرة أميركا، بل حتى غطرسة «أنا مثقّف أكثر منك». الموجودة لديه»، قال دوان كلاريدج مشتكياً[٣]. «ما لم نتمكّن من تخطّيه هو كونه محامياً».

«قضى كل تدريبه بوصفه محامياً وقاضياً في أنه لا يمكنك القيام بأمور غير قانونية. لم يتمكّن أبداً من تقبّل أن هذا هو بالضبط ما تقوم به «السي.آي.أيه.» عندما تعمل في الخارج. فنحن ننتهك قوانين بلدانهم. هذه هي طريقة جمعنا للمعلومات. وهذا هو سبب قيامنا بالعمل. فوبستر واجه مشكلة لا يمكن تجاوزها مع علّة وجود المنظمة التي جيء به لقيادتها».

في غضون أسابيع على وصول وبستر، تم نقل كلام من كلاريدج وزملائه إلى البيت الأبيض: الرجل من الوزن الخفيف، سطحي، وفراشة اجتماعية نصف لامعة. وهو أدرك التمرّد الذي يواجهه، وحاول التغلّب عليه بتلقّي النصح من ريتشارد هيلمس الذي برز من مناوشته مع المحاكم الجزائية بوصفه صاحب

نفوذ خفي محترم. وقال وبستر مستذكراً «النقطة التي ناقشها ديك هيلمس معي هي أنه: لأنه علينا أن نكذب ونقوم بأمور في ما وراء البحار، فمن المهم كثيراً ألا نكذب على بعضنا البعض، أو نخرّب أحوالنا»(٤). و«الرسالة التي أردت إرسالها هي أنه في إمكانك القيام بما هو أكثر بكثير عندما يثق الناس بك. وأنت لا تعلم الفارق الكبير الذي يُحدثه هذا. فالناس يستمعون بانتباه شديد. لكن السؤال المطروح في الوكالة، هو: هل يعني ما يقول؟ فثمة في ذهنهم دوماً سؤال».

تعهّد وبستر ألا تخفي الوكالة أي أسرار عن الكونغرس. لكن لجنتي الكونغرس تعرّضتا مراراً كثيرة للكيّ، وقررتا أن الأمثولة التي تعلمتاها من إيران ـ كونترا، هي أن الوكالة تحتاج إلى الإدارة من تلة الكابيتول. وفي إمكان الكونغرس فرض إرادته لأنه، بموجب الدستور، هو المسيطر النهائي على حسابات الحكومة. رفع وبستر الراية البيضاء. ومع استسلامه لم تعد «السي.آي.أيه.» أداة للسلطة الرئاسية المحض. وتأرجحت، بصورة محفوفة بالخطر، بين القائد الأعلى والكونغرس.

حارب الجهاز الخفي بقوة ضد إعطاء الكونغرس دوراً في إدارة «السي.آي.أيه.». كان يخشى أنه من بين النواب الـ ٥٣٥ المنتخبين، ثمة خمسة فقط يتمتّعون بإدراك ما حول الوكالة. وهكذا، فإنه سرعان ما تم استبدال لجنتي الإشراف التابعيتن للكونغرس بضباط محترفين من «السي.آي.أيه.» يمكنهم العناية بجماعتهم.

شهرت اللجنتان السكين في وجه كلير جورج، الذي لا يزال رئيساً للجهاز الخفي. فهو شكّل اتصال كايسي الخاص بالكونغرس، وهو أستاذ في فن الخداع. فكايسي أحب سحره ودهاءه، لكن هاتين الفضيلتين لم تكونا مطلوبتين في «السي.آي.أيه.» زمن وبستر. «تمتع كلير بطلاقة لسان تجعل الشخص يتعلّق به»، قال وبستر. «لكنه يعتقد أن الطريقة في التعامل مع سؤال يطرحه الكونغرس هي في الرقص من حوله».

في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧، استدعاه وبستر للتباحث، وقال: «الواقع هو أن الكونغرس لا يصدّقك. سيكون عليّ أن آخذ وظيفتك منك»[٥]. فكّر جورج في الأمر لبرهة. وقال: أعتقد حقيقة أنه عليّ أن أتقاعد، ربما سآخذ بعض الأشخاص معي ممن عليهم أن يتقاعدوا أيضاً». وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، كان دوان كلاريدج يتناول كأساً لمناسبة عيد الميلاد مع جورج، عندما استدعاه وبستر إلى فوق وأبلغه أنه حان له أن يرحل. فكّر كلاريدج لبرهة في المقاومة، أولاً من خلال ابتزاز وبستر، ومن ثم محاولاً استخدام روابطه بالبيت الأبيض[٦]. فهو قد تلقّى للتو ملاحظة جميلة من صديقه الحميم نائب رئيس الولايات المتحدة. «لك صداقتي»، كتب جورج بوش، «واحترامي، وتقديري الكبير. وهذا لن يتغيّر أبداً». إلا أن كلاريدج قرّر أن ميثاق الولاء قد انفصم، واستقال.

خرج معه من الباب كادر من العملاء الخفيين يمتلكون في ما بينهم ألفي سنة خبرة.

كانت الاستخبارات الأميركية سخيّة

ما سَكَنَ كلير جورج أكثر ما يكون في تقاعده، لم يكن العمليات المنسوفة أو احتمال الإدانة، بل ظل وجود جاسوس نائم داخل «السي.آي.أيه.».

ففي خلال نوبته، في ١٩٨٥ و١٩٨٦، خسر القسم السوفياتي/الأوروبي الشرقي في الجهاز الخفي، كل واحد من جواسيسه. فقد تم توقيف دزينة العملاء السوفيات في الداخل، وإعدامهم، الواحد تلو الآخر. وتوقفت محطتا «السي.آي.أيه.» الصغيرتان في موسكو وبرلين الشرقية عن العمل، وكُشفت تغطية ضباطهما، ونُسفت عملياتهما. وأخذ القسم، في ١٩٨٦ و١٩٨٧، ينهار كمبنى فُجّر بالديناميت، والتقطت صورته على فيلم بالسرعة البطيئة. ولم تكن لـ «السي.آي.أيه.» أي فكرة عن السبب. اعتقدت في البداية أن ضابطاً مجنداً جديداً يدعى إد هوارد هو الخائن من داخل. فهو التحق بالجهاز الخفي في ١٩٨١ واختير ليخدم في أول مهمة له في الخارج كضابط يتمتع بغطاء كبير من

السرّية في موسكو. خضع لتدريب استمر سنتين. وغاب بعض التفاصيل الشخصية القليلة في شأن هوارد عن «السي.آي.أيه.» حتى الدقيقة الأخيرة المحتملة: فهو سكّير، وكاذب، ولص. لذلك، أخلت الوكالة سبيله، وارتدّ إلى موسكو في نيسان/أبريل ١٩٨٥.

وكان هوراد، كجزء من عملية تدريبه، قد اطلع على ملفات بعض من أفضل جواسيس «السي.آي.أيه.» في موسكو، ومن بينهم أدولف تولكاشيف، وهو عالم عسكري قام طوال أربعة أعوام بتسليم وثائق عن أبحاث الأسلحة السوفياتية المتطورة. واعتُبر تولكاشيف أعظم مصدر تحصل عليه «السي.آي.أيه.» في عشرين عاماً.

عندما اجتمع المكتب السياسي، في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٦ في الكرملين، أبلغ رئيس «الكا.جي.بي.»، فيكتور شيبريكوف، بفخر ميخائيل غورباتشيف أنه تم في اليوم السابق إعدام تولكاشيف بتهمة الخيانة. «كانت الاستخبارات الأميركية سخيّة معه»، لاحظ غورباتشيف[٧]. «لقد وجدوا معه مليوني روبل». وهذا أكثر من نصف مليون دولار. وها إن «الكا.جي.بي.» تعرف الآن السعر الجاري للجواسيس العالميين من الفئة الأولى.

اعتقدت الوكالة أن هوراد هو الذي قد يكون خان تولكاشيف، إلا أنه من غير الممكن أن يكون مسؤولاً عن أكثر من ثلاث من أصل دزينة من عمليات القتل التي محت قائمة جواسيس «السي.آي.أيه.» السوفيات. وكان يجب إلقاء اللوم على شيء ما، أو على أحد آخر. نظر مجلس استشارة الرئيس لشؤون الاستخبارات الخارجية في القضية، وأفاد عن «عدم القدرة الأساسية لأي واحد في القسم السوفياتي في التفكير في ما لا يخطر في البال»، وهو أن خائناً ربما يكون مختبئاً داخل الجهاز الخفي. قرأ كايسي التقرير وأنّب كلير جورج. وكتب، «أنا مرتاع»، حيال «هذا الاعتداد المدهش بالنفس». إلا أن كايسي استهان خفية بالأمر. وكلّف ثلاثة أشخاص ـ أحدهم يعمل بدوام جزئي ـ بالتحقيق في وفاة أكثر عملاء «السي.آي.أيه.» الخارجيين قيمة.

كان هذا مقياسا للثقة التي يضعها كبار ضباط الجهاز الخفي بوبستر، بحيث أنهم لم يطلعوه أبداً على كامل الحقيقة حول القضية. لم يعرف أبداً أنها شكلت أسوأ اختراق في تاريخ الوكالة. عرف بوجود تحقيق مخفوض المستوى؛ «تدريب لا أكثر. وإذا وجدوا شيئاً، فحسن»، قال. «وإذا لم يجدوا سبباً مشؤوماً، فلربما وجدوا سبباً آخر، أو لا سبب على الإطلاق». «هذا كل ما سمعته في هذا الشأن»(٨).

انهار التحقيق، وتزايد كابوس مكافحة التجسس الذي يواجه «السي. آي. أيه.» في عهد وبستر.

في حزيران/ يونيو ١٩٨٧، قاد الرائد فلورنتينو أسبياغا لومبارد، رئيس الاستخبارات الكوبية في تشيكوسلوفاكيا، سيارته عبر الحدود إلى فيينا، وسار إلى السفارة الأميركية، وارتدّ إلى جيم أولسون، رئيس محطة «السي. آي. أيه.»(٩) كشف أن كل عميل كوبي جنّدته الوكالة على مدى السنوات العشرين الماضية، كان مزدوجاً: يدعي الولاء للولايات المتحدة بينما يعمل سرّاً لصالح هافانا. شكّلت تلك صدمة حقيقية، يصعب تصديقها. لكن محللي «السي. آي. أيه.» استنتجوا بكآبة، بعد مراجعة طويلة ومؤلمة، أن الرائد كان يقول الحقيقة. وفي الصيف ذاته، أخذت قطرات من الاستخبارات الطازجة حول وفاة عملاء «السي. آي. أيه.» تصل من مجموعة جديدة من ضباط الجيش واستخبارات السوفيات والكتلة السوفياتية. وتحوّلت إلى سيل، وبعد ذلك إلى نهر متدفّق، ومرت سبعة أعوام قبل الإدراك الرهيب أنها تعمية سُلّمت لإعماء «السي. آي. أيه.» وتضليلها.

قاموا بالفعل بأمر صحيح

لجأ وبستر إلى بوب غايتس بعد قسمه اليمين بقليل، وسأل: حسناً، يا بوب، ما الذي يجري في موسكو؟ ما الذي ينويه غورباتشيف؟ وهو لم يكتف أبداً بالأجوبة. «كان لدي الأشخاص الذين يقولون إن الكوب نصفه ملآن،

والاشخاص الذين يقولون إن نصفه فارغ»، تنهّد وبستر. «من هذه الناحية هذا، ومن الناحية الأخرى ذاك».

لم تعلم «السي.آي.أيه.» بأن غورباتشيف أبلغ اجتماع حلف وارسو في أيار/مايو ١٩٨٧، أن السوفيات لن يجتاحوا شرق أوروبا أبداً لتدعيم امبراطوريتهم. ولم تعلم «السي.آي.أيه.» بأن غورباتشيف أبلغ، في تموز/يوليو ١٩٨٧، زعيم أفغانستان أن السوفيات سيبدأون قريباً في سحب قوات احتلالهم. واحتارت الوكالة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، عندما استقبلت جماهير غفيرة من المواطنين الأميركيين المتيّمين غورباتشيف استقبال الأبطال في شوارع واشنطن. فقد بدا أن رجل الشارع يدرك أن زعيم العالم الشيوعي يريد إنهاء الحرب الباردة. ولم تستوعب «السي.آي.أيه.» المفهوم. وأمضى بوب غايتس السنة التالية يسأل مرؤوسيه لماذا يفاجئهم غورباتشيف على الدوام.

أنفقت الولايات المتحدة، على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً، قرابة ربع تريليون دولار على أقمار التجسس وأدوات التنصّت الالكترونية التي بنتها لمراقبة الجيش السوفياتي. وكانت هذه البرامج، على الورق، من مسؤولية مدير الاستخبارات المركزية، إلا أن البنتاغون هو الذي أدارها في الواقع. وقد وفّرت المعطيات للمفاوضات التي لا تنتهي مع السوفيات حول معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية، وقد أمكنت المحاججة في أن هذه المحادثات ساعدت على إبقاء الحرب الباردة باردة. إلا أن واشنطن وموسكو لم تتخليا عن نظام أسلحة واحد أرادتا بناءه. وبقي في وسع ترساناتهما تفجير العالم مئة مرّة. وفي النهاية ألغت الولايات المتحدة مجرّد فكرة ضبط الأسلحة.

إلا أنه، في آب/أغسطس ١٩٨٨ أعطى الأمر جزاءه في لحظة سخرية تامة. ذهب فرانك كارلوتشي، وقد أصبح الآن وزيراً للدفاع لدى ريغان، إلى موسكو للقاء مع نظيره وزير الدفاع السوفياتي دميتري يازوف، وألقى محاضرة أمام الجنرالات والأميرالات في أكاديمية فوروشيلوف العسكرية. وسأل احدهم كارلوتشي، «كيف حصل أنكم تعرفون هذا القدر عنّا؟»، وأجاب، «قمنا بذلك بواسطة الأقمار الصناعية. وكان الأمر ليكون أسهل بكثير علينا لو أنكم تفعلون

وحسب ما نفعله وتنشرون موازنتكم العسكرية». وانفجرت الغرفة بالضحك، وبعد ذلك سأل كارلوتشي مرافقه الضابط الروسي عما هو مثير للضحك. «أنت لا تفهم»، قال الروسي. «لقد هاجمت قلب نظامهم»: السرّية. جعلت الاتصالات الوجاهية بين القادة الأميركيين والسوفيات الروس يدركون أمرين. الأول، هو أن الأميركيين لا يريدون قتلهم. والثاني، أنهم قد يكونون متعادلين في كل شيء، من حيث قوة الصواريخ النووية مع الأميركيين، إلا أن ذلك لا يُحدث فارقاً من أي نوع. فهم أكثر ضعفاً بكثير في كل مجال آخر. وعرفوا عندها أن نظامهم المغلق، المبني على السرّية والأكاذيب، لن يتمكن أبداً من التغلب على مجتمع منفتح.

رأوا أن اللعبة انتهت، وهو ما لم تره الوكالة.

إلا أن «السي.آي.أيه.» تدبّرت تحقيق ثلاثة نجاحات مؤثّرة في تلك السنة. جاء الأول بعدما ارتدّ المقدم تشانغ هسيان ـ يي، نائب مدير مؤسسة أبحاث الطاقة الذرية في تايوان، إلى الولايات المتحدة. فهو، على مدى عشرين عاماً، عمل سرّاً للولايات المتحدة، أي منذ أن جنّدته «السي.آي.أيه.» وهو لا يزال في الكلية الحربية. فمؤسسته، التي أنشئت ظاهرياً للابحاث المدنية، بُنيت بمساعدة من البلوتونيوم الأميركي، واليورانيوم الجنوب أفريقي، والخبرة الدولية. وأنشأ زعماء تايوان في داخلها خلية لبناء سلاح نووي. طالبت الولايات المتحدة بوقف البرنامج. كذبت تايوان في شأنه وواصلت العمل بسرعة. ومن بين القلّة من الأميركيين الذين عرفوا في شأن خدمة المقدم تشونغ الطويلة، عضو «السي.آي.أيه.» جيم ليللي، الذي سبق أن عمل رئيس محطة في الصين وتايوان، وهو سيصبح قريباً سفيراً للولايات المتحدة في الصين. «تنتقي شخصاً يحمل بوادر النجاح، وتكلّف به الضابط المحرّك المناسب، وتقوم بتجنيده، بحذر، على أساس أيديولوجي ـ برغم أن للمال صلة ـ وتبقى على اتصال»، قال ليللي. بعث المقدم تشانغ بإنذار إلى ضابطه المحرّك، وارتدّ، وسلّم البرهان القاطع على تقدّم برنامج الأسلحة النووية. فقد ساعد جاسوس يعمل منذ عشرين عاماً لـ «السي.آي.أيه.» في وقف انتشار أسلحة الدمار الشامل. «إنها حالة

قاموا فيها فعلا بعمل صائب»، قال ليللي[10]. «أخرجوا الفتى، وحصلوا على الوثائق، وواجهوا التايوانيين». ومارست وزارة الخارجية، المتسلحة بالدليل، ضغطاً قوياً على حكومة تايوان التي أعلنت في النهاية أنها تملك القدرة على بناء أسلحة نووية لكنها لا تنوي القيام بذلك. وشكل ذلك، في أفضل حالاته، حدّاً من انتشار الأسلحة.

ثم جاءت المؤامرة اللامعة ضد تنظيم أبي نضال[11]، وهو مجموعة مسلحة قتلت الغربيين وخطفتهم وأرهبتهم عبر أوروبا والشرق الأوسط، على مدى ١٢ سنة، وقد شاركت فيها ثلاث حكومات أجنبية، ورئيس سابق للولايات المتحدة. وأينعت في المركز الجديد لمكافحة الإرهاب في «السي.آي.أيه.»، وبدأت بعدما سلّم جيمي كارتر حزمة من الاستخبارات عن أبي نضال إلى رئيس سوريا حافظ الأسد في اجتماع في آذار/مارس ١٩٨٧. طرد الأسد أبا نضال. وعلى مدى السنتين التاليتين، وبمساعدة من منظمة التحرير الفلسطينية ومن الاستخبارات الأردنية والإسرائيلية، خاضت الوكالة حرباً نفسية ضده. فقد أقنعه سيل قوي ودائم من التضليل، بأن كبار مساعديه خونة. فقتل سبعة منهم ودزينة من مرؤوسيهم على امتداد السنة التالية، ما أقعد تنظيمه. وبلغت الحملة ذروتها مع ارتداد اثنين من رجال أبي نضال وشنّهما هجوماً على مقر قيادته في لبنان، قاتلين ثمانين من رجاله. تحطّم التنظيم في انتصار مؤثر لمركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.أيه.» ولقسم الشرق الأدنى بقيادة توم تويتّن، الذي سيُرقّى إلى قائد للجهاز الخفي.

النجاح الكبير الثالث ـ أو هكذا بدا في حينه ـ كان انتصار المتمرّدين الأفغان.

أخذت كل قوة أخرى من بين مقاتلي الحرّية التابعين لـ «السي.آي.أيه.» في الانهيار. فالكونترا وقّعت على وقف لإطلاق النار بعدما تم قطع الدعم السرّي من الوكالة للمرة الأخيرة. وحلّت أوراق الانتخاب محل الرصاص في نيكاراغوا. وتاهت دورية ضائعة من المقاتلين المناوئين للقذافي في أنحاء السودان. واضطرت «السي.آي.أيه.» إلى تسريح هذا التمرد المدعوم جزئياً

وإخراج قواته من شمال افريقيا، فأخذتهم إلى الكونغو أوّلاً، ومن ثم إلى كاليفورنيا[١٢]. وحلّت الدبلوماسية محل العمل الخفي في أفريقيا الجنوبية، وتوقف تدفّق الاسلحة من واشنطن وموسكو. وتمت، بشكل سيىء، إدارة برنامج كايسي لدعم جيش من المتمردين الكامبوديين الذين يحاربون قوات هانوي ـ مباراة في الضغينة ضد المنتصرين في حرب فيتنام ـ، حيث انتهت الأموال في أيدي جنرالات تايلانديين فاسدين[١٣]. ووضع ذلك حلفاء «السي.آي.أيه.» في مصاف جزّاري كمبوديا أنفسهم، الخمير الحمر. وحذّر كولن باول، الذي أصبح نائب مستشار الرئيس ريغان لشؤون الأمن القومي بعد عملية التنظيف التي أعقبت إيران ـ كونترا، من أنه على البيت الأبيض أن يعيد التفكير في شأن العملية. وقد تم إيقافها، في حينه.

وحدهم المجاهدون الأفغان، كانوا يسيلون الدم ويَشتَمّون النصر. وقد أصبحت عملية «السي.آي.أيه.» الأفغانية برنامجاً يكلّف ٧٠٠ مليون دولار في السنة. وشكّلت ثمانين في المئة من موازنة ما وراء البحار للجهاز الخفي. وأخذ المتمرّدون الأفغان، المسلحون بصواريخ ستينغر المضادة للطائرات، يقتلون الجنود السوفيات، ويُسقطون طائرات الهيليكوبتر السوفياتية الهجومية، ويثخنون بالجراح الصورة التي رسمها السوفيات لأنفسهم. وقد قامت «السي.آي.أيه.» بما خططت للقيام به: إعطاء السوفيات فيتنامهم. «قتلناهم الواحد تلو الآخر»، قال هوارد هارت، الذي تولّى مهمة تسليح الأفغان من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤[١٤]. «وعادوا إلى موطنهم. وكانت تلك حملة إرهابية».

خرجنا

أعلن السوفيات أنهم سيرحلون في شكل نهائي ما إن تنتهي ولاية إدارة ريغان. ولم تجب كتب إيجازات «السي.آي.أيه.» أبداً عن السؤال عمّا سيحصل عندما يهزم الجيش الإسلامي المجاهد الغزاة الكفّار لأفغانستان. وقد تولّى توم تويتن، الرجل الثاني في الجهاز الخفي في صيف ١٩٨٨، مهمة تصوّر مصير المتمرّدين الأفغان. وقال إنه سرعان ما اتضح له «أننا لم نملك أي خطة».

وقررت «السي.آي.أيه.» ببساطة أنه «ستكون ثمة ديموقراطية أفغانية. وهذا لن يكون جميلاً»[١٥].

انتهت حرب السوفيات، إلا أن جهاد أفغان «السي.آي.أيه.» لم ينته. وحاجج روبرت أوكلي، السفير الأميركي في باكستان من ١٩٨٨ إلى ١٩٩١، في أنه على الولايات المتحدة وباكستان أن «تُخفضا في شكل جذري مساعدتهما للمتمردين الراديكاليين» في أفغانستان[١٦]، والعمل على جعل المجاهدين أكثر اعتدالاً. وقال، «إلا أن «السي.آي.أيه.» لم تتمكن، أو لم ترد، تطويع شركائها الباكستانيين. لذا، في مساندة بعض من الراديكاليين». وكان أبرزهم زعيم التمرد الأفغاني قلب الدين حكمتيار، الذي حصل على أسلحة بقيمة مئات الملايين من الدولارات من «السي.آي.أيه.» واختزن معظمها. وهو على وشك تحويل هذه الأسلحة ضد شعب أفغانستان في سعي إلى السلطة المطلقة.

«واجهتُ مشكلة أخرى مع الوكالة»، قال السفير أوكلي. «فالأناس أنفسهم الذين حاربوا السوفيات، استفادوا أيضاً من تجارة المخدرات». فأفغانستان كانت، ولا تزال، أكبر مصدر عالمي للهيروين، مع مساحات لا تحصى من الهكتارات التي تغلّ مرتين في السنة. وقال أوكلي «راودتني شكوك في أن أجهزة الاستخبارات الباكستانية ربما تكون متورطة، و«السي.آي.أيه.» لا تريد لعلاقتهما أن تهتز بسبب هذه المسألة».

قال، «استمررتُ في الطلب من المحطة الحصول على معلومات عن هذه التجارة من مصادرها داخل أفغانستان. نفوا امتلاكهم أي مصادر في وسعها القيام بهذا. لم يكن في وسعهم نكران امتلاكهم المصادر، حيث إننا كنا نحصل على معلومات عن الأسلحة ومسائل أخرى.

«حتى أنني أثرت المسألة مع بيل وبستر»، قال أوكلي. «ولم أحصل أبداً على جواب مُرض. لم يحصل شيء ابداً».

دعا وبستر زعماء المتمردين الأفغان إلى غداء في واشنطن. واستذكر «أن

هذا لم يكن جمعاً سهلاً». وكان حكمتيار من بين الضيوف المُكرّمين. وعندما التقيت به، بعد سنوات قليلة، في أفغانستان، تعهّد بخلق مجتمع إسلامي جديد، حتى لو تطلب القيام بذلك سقوط مليون قتيل. وحتى كتابة هذه السطور، كانت «السي.آي.أيه.» لا تزال تطارده في أفغانستان، حيث يقوم وجنوده بقتل الجنود الأميركيين وحلفائهم.

غادر آخر جندي سوفياتي أفغانستان في ١٥ شباط/فبراير ١٩٨٩. واستمرت أسلحة «السي.آي.أيه.» في التدفّق. وقال السفير أوكلي، «في الحقيقة، لم يتوقّع أحد منّا العاقبة». وفي غضون سنة، بدأ سعوديون يرتدون العباءات البيضاء في الظهور في عواصم الأقاليم وفي قرى أفغانستان المدمّرة. أعلنوا أنفسهم أمراء. اشتروا ولاء زعماء القرى، وشرعوا في بناء امبراطوريات صغيرة. إنهم رسل قوة جديدة موجودة في العالم خارجاً، وسوف تُسمَّى «القاعدة».

«خرجنا من الأمر»، قال وبستر. «لم يكن يفترض بنا أن نخرج منه».

٤٣

ما الذي سنفعله عندما يسقط الجدار؟

احتفلت الوكالة عندما أدى جورج هـ. و. بوش يمين القسم على تولّي الرئاسة في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩. فهو واحد منهم. ويحبّهم. ويفهمهم. وهو، في الحقيقة، القائد الأعلى الأول والوحيد الذي يعرف كيف تعمل «السي. آي. أيه.»

لعب بوش بنفسه دور مدير الاستخبارات المركزية. فهو يكنّ الاحترام للقاضي وبستر، لكنه يعلم بأن العناصر لا يفعلون، فأخرجه من دائرته المغلقة. أراد بوش إيجازات يومية من محترفين، وإذا لم تعجبه فهو يريد تقارير خاماً. وإذا ما جرى طبخ أمر ما في البيرو أو بولندا، فإنه يريد معرفة ذلك من رئيس المحطة، فوراً. وقاربت ثقته بالوكالة الإيمان الديني.

خضع ذلك لاختبار شديد في بنما. ففي خلال حملة ١٩٨٨ الانتخابية، نفى بوش أنه التقى أبداً بالجنرال مانويل نورييغا، ديكتاتور ذلك البلد الشهير. بيد أن هناك صوراً تثبت ذلك. فنورييغا على جدول معاشات «السي. آي. أيه.» منذ سنين كثيرة. وقد استقبل بيل كايسي الجنرال سنوياً في مقر القيادة، وطار مرّة على الأقل إلى بنما للقائه. «نظر إليه كايسي على أنه ربيب»، على حد قول أرثور هـ. ديفيس جونيور، السفير الأميركي في بنما في عهدي ريغان وبوش[١].

تمت، في شباط/فبراير ١٩٨٨، إدانة الجنرال في فلوريدا بوصفه قطباً من أقطاب كارتل الكوكايين، إلا أنه بقي في السلطة ساخراً من الولايات المتحدة. عند هذا الحد، أصبح معلوماً على الملأ أن نورييغا قاتل إضافة إلى كونه

صديقاً قديماً لـ «السي. آي. أيه.» وبات المأزق موجعاً. «فـ «السي. آي. أيه.» التي تعاملت معه لهذا الوقت الطويل، لم تشأ قطع العلاقة»، قال عضو مجلس الأمن القومي روبرت باستورينو، الذي اجتمع، على مدى ساعات طويلة، مع نورييغا في الثمانينيات بوصفه من كبار موظفي البنتاغون المدنيين[٢].

أمر البيت الأبيض في عهد ريغان بعد الإدانة، الوكالة مرتين بإيجاد طريقة لخلع نورييغا، وكذلك أعطى بوش من جديد، بعد فترة قصيرة على توليه المسؤولية، تعليمات للوكالة للإطاحة بالديكتاتور. وفي كلّ مرّة أخذت الوكالة في العرقلة. وكان الجنرال فرنون والترز، وقد تولّى حينها منصب سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، متحرّساً في شكل خاص. «فبوصفه نائباً سابقاً لمدير «السي. آي. أيه.» ـ تماماً مثل بعض أناس البنتاغون الذين كانوا في ساوثكوم، القيادة الجنوبية للقوات الأميركية ـ لم يكن متشوّقا لرؤية نورييغا يساق إلى الولايات المتحدة ويُحاكم على أي شيء»، بحسب ما قال ستيفن كاتشي، الذي عرف شخصياً كلاّ من الجنرال والترز والجنرال نورييغا، وعمل بوصفه الرجل الثاني في السفارة الأميركية في بنما في خلال ١٩٨٩[٣]. لم يرد أصدقاء نورييغا القدامى في الوكالة والجيش له أن يشهد عليهم تحت القسم في المحاكم الأميركية.

أنفقت الوكالة، بأوامر من الرئيس بوش، عشرة ملايين دولار لدعم المعارضة في انتخابات أيار/مايو ١٩٨٩. تغلّب نورييغا بالمداورة على رابع عملية ضده من «السي. آي. أيه.» فأقرّ الرئيس بوش عملية خفية خامسة ضد نورييغا، بما في ذلك الدعم شبه العسكري لانقلاب. وطلب منه العملاء الخفيون نسيان الأمر: وحده غزو عسكري شامل يمكنه خلع نورييغا. لم يكن بعض أكثر أعضاء الفريق الأميركي خبرة في أميركا اللاتينية ـ من بينهم رئيس المحطة في بنما دون وينترز ـ راغباً في الوقوف ضد الجنرال.

قال بوش، المستاء، إنه يعلم في شأن أحداث بنما من «السي.أن.أن.» أكثر مما يعلمه من «السي. آي. أيه.» وشكلت تلك نهاية موقع وليام وبستر كمدير للاستخبارات المركزية. ومن تلك اللحظة وصاعداً، وضع الرئيس مخططات

لإسقاط نورييغا بالاشتراك مع وزير الدفاع ديك تشيني، الذي أخذ تشككه حيال «السي.آي.أيه.» يزداد عمقاً مع مرور كل يوم.

فشل «السي.آي.أيه.» في خلع حليف قديم سرّاً، أجبر الولايات المتحدة على شن أكبر عملياتها العسكرية منذ سقوط سايغون. وفي خلال أسبوع ميلاد ١٩٨٩، دمّرت القنابل الذكية الأحياء الفقيرة في مدينة بنما، وحولّتها إلى ركام، بينما شق جنود القوات الخاصة طريقهم قتالاً عبر العاصمة. ومات ٢٣ جندياً أميركياً ومئات المدنيين البنميين الأبرياء في الأسبوعين اللذين استغرقهما توقيف نورييغا وسوقه مكبلاً بالأصفاد إلى ميامي.

شهد عضو «السي.آي.أيه.» دون وينترز لمصلحة الدفاع في محاكمة نورييغا، حيث اعترفت الولايات المتحدة بأنها دفعت للديكتاتور ما لا يقل عن ٣٢٠ ألف دولار من خلال الوكالة والجيش الأميركي[٤]. ووصف وينترز نورييغا بأنه ارتباط «السي.آي.أيه.» الموثوق بين الولايات المتحدة وفيدل كاسترو، وحليف مخلص في الحرب على الشيوعية في أميركا الوسطى، وقطب السياسة الخارجية الأميركية، حتى أنه وفّر المأوى لشاه إيران المنفي. أدين نورييغا بثماني تهم بالتجارة بالمخدرات وكسب المال بطريقة غيير مشروعة. ويعود الفضل في خفض عقوبة نورييغا كسجين حرب عشر سنوات، في جزء كبير منه، إلى شهادة أدلى بها وينترز بعد المحاكمة، وقد حدد موعد إطلاق سراحه المشروط في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧.

لن يمكنني أبداً الثقة بـ «السي.آي.أيه.» من جديد

في ١٩٩٠، تحدّى ديكتاتور آخر الولايات المتحدة: إنه صدّام حسين.

في خلال حرب الأعوام الثمانية بين إيران والعراق، أوفد الرئيس ريغان دون رامسفلد كمبعوث شخصي له لمصافحة صدام وليقدّم إليه المساندة الأميركية. وقد أعطت الوكالة لصدام استخبارات عسكرية، بما في ذلك معطيات عن أرض المعركة من أقمار التجسس، ومنحته الولايات المتحدة رخصاً لتصدير

التكنولوجيا المتطورة التي استخدمها العراق في محاولة بناء أسلحة الدمار الشامل.

شكّلت الاستخبارات المحرّفة من بيل كايسي و«السي.آي.أيه.» عاملاً حاسماً في هذه القرارات. «فمن المعروف أن صدام حسين ديكتاتور بطّاش، لكن كثيرين اعتقدوا أنه أهون الشرّين»، قال فيليب ويلكوكس، وهو عنصر الارتباط بين وزارة الخارجية والوكالة. «وُجدت تقديرات استخباراتية حول التهديد الذي تشكّله إيران، والتي، في نظرة إلى الوراء، بالغت في قدرة إيران على التفوّق في تلك الحرب»(٥).

«لقد انحزنا فعلاً إلى العراق»، قال. «زودّنا العراق بالاستخبارات، وشطبنا العراق من لائحة الدول الراعية للإرهاب، ونظرنا بإيجابية إلى تعليقات من صدّام حسين توحي بأنه يدعم عملية السلام العربية ـ الإسرائيلية. وأخذ الكثيرون ينظرون إلى العراق بتفاؤل بوصفه عنصر استقرار محتملاً، وإلى صدام حسين بوصفه رجلاً يمكننا العمل معه».

جاء مردود الاستثمار في العراق هزيلاً للغاية. لم تتدفق الاستخبارات في الاتجاه المعاكس. ولم تخرق الوكالة أبداً الدولة العراقية الأمنية. وهي كادت تفتقر كلّياً إلى المعلومات من مصادرها الأولية حول النظام. وكانت شبكة عملائها العراقيين كناية عن حفنة من الدبلوماسيين والمسؤولين التجاريين في السفارات الخارجية. ولم تتوفّر لهؤلاء الرجال معرفة داخلية عن مجالس بغداد السرّية. وعند حد ما، انحطّت الحال بـ «السي.آي.أيه.» إلى حد تجنيد موظف إداري عراقي في أحد فنادق ألمانيا.

وبقيت «السي.آي.أيه.» محتفظة بشبكة من أكثر من أربعين عميلاً إيرانياً، بمن فيهم ضباط من مستوى متوسّط يعرفون أموراً عن الجيش العراقي. واتصلت محطة «السي.آي.أيه.» في فرانكفورت بهم من خلال تقنية الحبر السرّي القديمة. وفي خريف ١٩٨٩، بعث موظف إداري في «السي.آي.أيه.» برسائل بريدية إلى جميع العملاء، كلها في الوقت ذاته، وبخط اليد ذاته، وجميعها إلى

العنوان عينه. وعندما تم كشف النقاب عن واحد من العملاء، افتضحت الشبكة بأكملها. شكل ذلك إخفاقاً لتريدكرافت ١٠١. وتم سجن جميع جواسيس «السي.آي.أيه.» وأُعدم الكثيرون منهم بتهمة الخيانة.

«تم تعذيب العملاء الموقوفين حتى الموت»، قال فيليب جيرالدي، وكان يومها نائباً لرئيس قاعدة استنبول[٦]. وقال، «لم يُعاقَب أحد في «السي.آي.أيه.»، بل تمت في الواقع ترقية رئيس العنصر الميداني». وقد أقفل انهيار شبكة العملاء نافذة «السي.آي.أيه.» على كل من العراق وإيران.

كذلك، فوّتت «السي.آي.أيه.» الأمر عندما شرع صدام، في ربيع ١٩٩٠، في تعبئة قواته من جديد. أرسلت الوكالة تقديراً استخباراتياً قومياً خاصاً إلى البيت الأبيض، جاء فيه أن القوات المسلحة العراقية منهكة، وأنها تحتاج إلى سنوات لتتعافى من الحرب مع إيران، ومن غير المرجّح أن يركب صدام أي مغامرات عسكرية في القريب العاجل. ثم إن القاضي وبستر جلب، في ٢٤ تموز/يوليو ١٩٩٠، صوراً من أقمار التجسس تُظهر فرقتين من الحرس الوطني ـ عشرات الألوف من الجنود العراقيين ـ يحتشدون على الحدود مع الكويت. وجاء في العنوان الرئيسي ليومية الاستخبارات القومية التي تصدرها «السي.آي.أيه.»: «هل العراق يقوم بعملية خداع؟»[٧]

وحده فقط المحلل المرموق، تشارلز ألن، ضابط الاستخبارات القومية للإنذار، قدّر أن الفرص تميل أكثر نحو الحرب. «قرعت جرس الإنذار»، قال ألن. «والمدهش أن قلّة فقط سمعوه»[٨].

في ٣١ تموز/يوليو، اعتبرت «السي.آي.أيه.» الغزو غير مرجّح؛ وأن صدام ربما أخذ عنوة بعض آبار النفط أو حفنة من الجزر، لكن ليس أكثر. ولم يكن حتى اليوم التالي ـ قبل ٢٤ ساعة على الغزو ـ أن حذّر نائب مدير الاستخبارات المركزية ريتشارد ج. كير، البيت الأبيض من أن الهجوم العراقي وشيك.

لم يصدّق الرئيس بوش «السي.آي.أيه.» التابعة له. اتصل سريعاً برئيس

مصر، والملك السعودي، وأمير الكويت، وقالوا له جميعهم ان صدام لن يقوم أبداً بالغزو. وأبلغ الملك الأردني الرئيس، أن «الجانب العراقي يرسل أفضل تحياته وأرفع تقديره إليك يا سيدي»[٩]. مضى بوش إلى النوم وقد عاد إليه الاطمئنان. وبعد ذلك بساعات، تدفقت موجة أولى من ١٤٠ ألف جندي عراقي عبر الحدود لاحتلال الكويت.

كان أكثر مستشاري الرئيس لشؤون الاستخبارات ثقة، بوب غايتس، يقضي نزهة عائلية خارج واشنطن. انضمت إليه صديقة لزوجته. وسألته، ما الذي تفعله هنا؟ وأجاب غايتس، ما الذي تتحدثين عنه؟ الغزو، قالت. أي غزو؟ في اختصار، «لم يوجد الكثير من الاستخبارات حول ما يجري في داخل العراق»، لاحظ وزير الخارجية جيمس بيكر[١٠].

قال تشاس و. فريمان، السفير الأميركي لدى السعودية، إنه في الشهرين التاليين، «تصرّفت «السي.آي.أيه.» وفق طراز نموذجي مؤسف»[١١]. فقد انتقلت سريعاً إلى أقصى الطرف النقيض. وأفادت، في ٥ آب/أغسطس، أن صدام سيهاجم السعودية، وهو لم يقم بذلك أبداً. وأكدت للرئيس أن العراق لا يملك رؤوسا كيماوية لصواريخه القصيرة والمتوسطة المدى. ثم أكّدت بثقة متزايدة أن العراق يمتلك رؤوساً كيميائية، ومن المرجح أن يستخدمها صدام. غاب أي دليل قاطع يدعم هذه الإنذارات. ولم يقترب صدام أبداً من استخدام الأسلحة الكيميائية في خلال حرب الخليج. لكن حدث خوف كبير عندما أخذت صواريخ سكود العراقية تسقط على الرياض وتل أبيب.

في الأسابيع التي سبقت بدء حرب الأسابيع السبعة الجوية على العراق في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، دعا البنتاغون «السي.آي.أيه.» إلى اختيار أهداف القصف. واختارت الوكالة، من بين مواقع أخرى، حصنا عسكرياً تحت الأرض في بغداد، ففجرّه سلاح الجو في ١٣ شباط/فبراير، لكن الحصن كان يُستخدم ملجأً مدنياً من الغارات الجوية. مات المئات من النساء والأطفال. ولم يُطلب من الوكالة اختيار أي هدف بعد ذلك.

ثم نشب جدال عنيف بين «السي.آي.أيه.» والقائد الأميركي لعملية عاصفة الصحراء الجنرال نورمان شوارزكوف. ودار النزاع حول تقديرات أضرار المعركة: التقارير اليومية حول الوقع العسكري والسياسي للقصف. كان من الضروري للبنتاغون أن يُطمئن البيت الأبيض إلى أن القاذفات الأميركية دمّرت ما يكفي من منصات إطلاق الصواريخ العراقية لحماية إسرائيل والسعودية، وما يكفي من المدرعات والمصفحات العراقية لحماية القوات البرية الأميركية. أكد الجنرال للرئيس والشعب أن العمل قد تم بإتقان. وقال محللو «السي.آي.أيه.» للرئيس إنه يبالغ في تقدير الضرر الذي ألحقه بالقوات العراقية. وكانوا على حق. لكن الوكالة كسرت سيفها عندما تحدّت شوارزكوف. ومُنعت الوكالة من إجراء تقديرات لأضرار المعركة. وأخذ منها البنتاغون وظيفة تحليل صور أقمار التجسس. وأجبر الكونغرس الوكالة على لعب دور التابع في علاقتها مع الجيش الأميركي. وأجبرت بعد الحرب على إنشاء مكتب جديد للشؤون العسكرية ليكون فقط سنداً من المرتبة الثانية للبنتاغون. وأمضت «السي.آي.أيه.» العقد التالي تجيب على أسئلة العسكريين: ما هو عرض هذه الطريق؟ ما متانة هذا الجسر؟ ماذا يوجد على تلك التلّة؟ فعلى مدى ٢٥ عاماً، خضعت الوكالة لقادة مدنيين، وليس لضباط في الخدمة. وقد خسرت استقلالها عن التراتبية العسكرية.

انتهت الحرب ببقاء صدّام في السلطة، لكن بإضعاف «السي.آي.أيه.» وأفادت الوكالة، وقد صدّقت أخبار منفيين عراقيين، عن تمرّد محتمل على الديكتاتور. دعا الرئيس بوش الشعب العراقي إلى الانتفاض والاطاحة به. وصدّق الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال كلامه. واستخدمت الوكالة جميع الوسائل المتاحة لديها ـ وبنوع خاص الدعاية والحرب النفسية ـ لتسويق الانتفاضة. وعلى امتداد الأسابيع السبعة التالية، سحق صدام الشيعة والأكراد بدون رحمة، قاتلاً الآلاف، ومجبراً آلافاً آخرين على الهرب إلى المنفى. وبدأت «السي.آي.أيه.» في العمل مع زعماء هؤلاء المنفيين في لندن وعمّان وواشنطن، بانية الشبكات للانقلاب المقبل، وللذي بعده.

توجهت إلى العراق بعد الحرب، بعثة خاصة من الأمم المتحدة بحثاً عن

الأسلحة الكيميائية، والبيولوجية، والذرّية. وضم مفتشوها ضباطاً من «السي.آي.أيه.» يرفعون علم الأمم المتحدة. ويستذكر ريتشارد كلارك، عضو مجلس الأمن القومي وهو محتدّ خلافاً للعادة، الغارة على وزارة الزراعة العراقية، حيث اكتشفوا لبّ مديرية صدام للأسلحة النووية. «ذهبنا إلى هناك، خلعنا الأبواب، حطّمنا الأقفال، ودخلنا قدس الاقداس»، قال كلارك بعد ١٥ عاماً على ذلك مستعيداً ذكرياته في وثائقي لبرنامج «فرونتلاين» التلفزيوني. «جاء رد فعل العراقيين فورياً، فطوقوا المنشأة ومنعوا مفتشي الأمم المتحدة من الخروج. وتوقّعنا حصول ذلك أيضاً، فأعطيناهم هواتف متصلة بالأقمار الصناعية. ترجموا، من الموقع، التقارير النووية من العربية إلى الإنكليزية، وقرأوها علينا عبر هذه الهواتف». وحددوا أن العراق ربما على مسافة ما بين تسعة و١٨ شهراً من أول تفجير سلاح نووي له.

«فوّتت «السي.آي.أيه.» الأمر برمّته»، قال كلارك. «لقد قصفنا كل ما يمكن قصفه في العراق، لكننا فوّتنا منشأة هائلة لتطوير الأسلحة النووية. لم نعرف بوجودها، ولم نسقط أبداً قنبلة واحدة عليها. نظر ديك تشيني إلى ذلك التقرير وقال، هاكم ما يقوله العراقيون أنفسهم: ثمة منشأة ضخمة لم تُضرب أبداً في الحرب؛ وكانوا قريبين جداً من صنع قنبلة نووية، و«السي.آي.أيه.» لم تعرف بذلك».

وخلص كلارك إلى القول: «أنا متأكد من أنه قال في قرارة نفسه، لا يمكنني أبداً الثقة بـ «السي.آي.أيه.» لتخبرني متى تكون دولة ما على أهبة صنع سلاح نووي. ما من شك في أن هذه المسألة اعتمرت في ذاكرة ديك تشيني، الذي عاد إلى السلطة بعد ذلك بتسع سنوات: يريد العراق الحصول على سلاح نووي. العراق كان على وشك الحصول على سلاح نووي. و«السي.آي.أيه.» لم تملك أي دلالة»[١٢].

وها إن المهمّة انتهت

«لم تملك «السي.آي.أيه.» في كانون الثاني/يناير ١٩٨٩، فكرة عن أننا

على وشك مواجهة موجة مدية تاريخية»، قال بوب غايتس، الذي كان قد ترك مقر القيادة في ذلك الشهر ـ نهائيا، كما اعتَقَد ـ ليصبح نائب مستشار الأمن القومي لدى الرئيس بوش[١٣].

أعلنت الوكالة أن ديكتاتورية الاتحاد السوفياتي بحالة جيدة ولا يمكن المساس بها في الساعة التي أخذت هذه الأخيرة فيها في التلاشي. ففي الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨، قبل شهر من تولي بوش السلطة، أصدرت «السي.آي.أيه.» تقريراً رسمياً يعلن في شكل سرّي أن «العناصر الأساسية لسياسة الدفاع السوفياتية[١٤] وممارستها حتى الآن لم تتبدّل في حملة الإصلاح التي يقوم بها غورباتشيف». بعد ذلك بستة أيام، وقف غورباتشيف من على منبر الأمم المتحدة، وعرض خفضاً من جانب واحد بخمسمئة ألف جندي في الجيش السوفياتي. وفي الأسبوع التالي أبلغ دوغ ماك إيتشن، وكان يومها رئيس محللي الشؤون السوفياتية في «السي.آي.أيه.»، أن ذلك لا يُتصوّر: فحتى لو أن «السي.آي.أيه.» استنتجت أن هذه التغييرات التي تهز الأرض على وشك اكتساح الاتحاد السوفياتي، «لما أمكننا أبداً، بصراحة كلّية، نشرها»، قال. «لو أننا قمنا بذلك لطلب الناس رأسي»[١٥].

في الوقت الذي أخذت الدولة السوفياتية في الاضمحلال، كانت «السي.آي.أيه.» «تفيد في شكل مستمر بأن الاقتصاد السوفياتي ينمو»، على حد قول مارك بالمر، وهو أحد أكثر خبراء الكرملين خبرة في إدارة بوش. «اعتادوا أن يأخذوا، ببساطة، ما يعلنه السوفيات رسمياً، ويحسمون منه نسبة مئوية، وينشرونه. وكان ذلك خاطئاً وحسب، وفي وسع كل من أمضى وقتاً في الاتحاد السوفياتي، في قراه ومدنه، التطلع من حوله ورؤية أن في هذا جنوناً وحسب». هذا هو عمل أفضل مفكّري «السي.آي.أيه.» ـ من أمثال بوب غايتس الذي كان لسنوات كبير المحللين ـ ووجد بالمر هذا الواقع مثيراً للحنق. «فهو، في الحقيقة، لم يذهب أبداً إلى الاتحاد السوفياتي![١٦]. لم يذهب أبداً ولا حتى مرّة واحدة إلى هناك، وهو من يُسمّى بالخبير في «السي.آي.أيه.»»

فات الوكالة، بطريقة ما، واقع أن عدوها الرئيسي يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وقال الأميرال وليام ج. كرو جونيور، رئيس هيئة الأركان المشتركة في عهد بوش، «تحدّثوا عن الاتحاد السوفياتي كما لو أنهم يقرأون الصحف أكثر مما يقومون بعمل استخباراتي خفي»[١٧]. وعندما أخذت التفسخات الأولى الكبرى تتطور في ربيع ١٩٨٩ في الجمهوريات السوفياتية، حصلت «السي.آي.أيه.» بالفعل على معلوماتها من قراءة الصحف المحلية. وكان قد مضى عليها ثلاثة أسابيع لدى وصولها.

لم يطرح أي واحد في الوكالة السؤال الذي طرحه فرنون والترز، السفير الذي عيّنه بوش حديثاً في ألمانيا، على فريقه في أيار/مايو ١٩٨٩: «ما الذي سنفعله عندما يسقط الجدار؟»[١٨].

شكّل جدار برلين على مدى نحو ثلاثين عاماً الرمز الأكبر للحرب الباردة. وعندما أخذ في التفسّخ في إحدى ليالي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، جلس ميلت بيردن، رئيس القسم السوفياتي في الجهاز الخفي، في مقر القيادة محدّقاً في «السي.أن.أن.» وقد أعياه الكلام. شكّلت الشبكة الحديثة العهد مشكلة كبرى للوكالة. فهي، في وقت الأزمات، وفّرت ما يمكن اعتباره معلومات استخباراتية في الوقت الفعلي. فكيف يمكن لـ «السي.آي.أيه.» مضاهاة ذلك؟ وها إن البيت الأبيض أصبح على الخط: ما الذي يحصل في موسكو؟ ما الذي يقوله لنا جواسيسنا؟ صعب الاعتراف بأنه لا يوجد جواسيس سوفيات[١٩] لهم أي قيمة: فقد تم اعتقالهم جميعهم وقتلهم، ولم يعرف أحد في «السي.آي.أيه.» السبب.

أرادت الوكالة التحرّك شرقاً كالأبطال المنتصرين والاستيلاء على أجهزة استخبارات تشيكوسلوفاكيا، وبولندا، وألمانيا الشرقية، إلا أن البيت الأبيض نصح بالتروّي. وكان أفضل ما يمكن «السي.آي.أيه.» فعله كبداية هو تدريب الفرق الأمنية لزعماء جدد، أمثال الكاتب المسرحي التشيكي فاكلاف هافيل، وأن تدفع أكبر كمية من الدولارات للحصول على ملفات الستازي المسروقة، التي راحت في أحد الأيام تتطاير من النوافذ في برلين الشرقية، وقد طرحها في الشوارع حشد منقّب أطاح بالشرطة السرّية.

شكّلت أجهزة استخبارات الشيوعية السوفياتية أدوات قمع هائلة الحجم ودقيقة. وعملت فوق كل شيء في التجسس على مواطنيها، وإرهابهم، ومحاولة السيطرة عليهم. وهي، الأكبر والأكثر بطشاً من «السي.آي.أيه.»، قد هزمت أعداءها في معارك كثيرة في الخارج، لكنها خسرت الحرب، وقد دمّرتها وحشية الدولة السوفياتية وتفاهتها.

مزّقت خسارة السوفيات قلب «السي.آي.أيه.» فكيف يمكن الوكالة أن تحيا بدون عدوّها؟ «سهل على «السي.آي.أيه.»، مرّة في الزمان، أن تكون فريدة ورمزية»، قال ميلت بيردن. «فهي لم تكن مؤسسة، بل رسالة. والمهمة كانت جهاداً. ثم أُخذ الاتحاد السوفياتي منّا ولم يكن ثمة شيء آخر. ليس لدينا تاريخ. ليس لدينا بطل. وحتى أوسمتنا كانت سرّية. وها إن مهمتنا قد انتهت. انتهت وحسب»[٢٠].

أعلن مئات قدامى الجهاز الخفي النصر وانسحبوا. وشكّل فيل جيرالدي واحداً من بين كثرة، وهو قد بدأ ضابطاً ميدانياً في روما، وانتهى بعد ذلك بستة عشر عاماً رئيساً لقاعدة برشلونة. وكانت زميلته في محطة روما تحمل شهادة دكتوراه في السياسة الإيطالية. وكانت في برشلونة متخصصة باللغة الإنكليزية لا تتحدث الإسبانية.

«المأساة النهائية روحية»، قال[٢١]. «معظم الضباط الأصغر سناً الذين عرفتهم قد استقالوا. وهؤلاء كانوا الأفضل والألمع. فثمانون أو تسعون في المئة من الأناس الذين عرفتهم، توقفوا عن العمل في منتصف حياتهم المهنية. لم يعد يوجد الكثير من الدافع. والحماسة تلاشت. عندما انضممت إلى الوكالة في ١٩٧٦، كانت الحياة فيها قبلية. الروح الجماعية التي خلقتها الوكالة من خلال هذه القبلية قد خدمت هدفاً جيداً». وها إنها ذهبت الآن، وراح معها معظم الجهاز الخفي.

قال أرنولد دوناهيو، وهو من قدامى الوكالة والمسؤول عن موازنة الأمن القومي في عهد بوش، إنه، منذ ١٩٩٠، «أخذ الأمر يتطوّر سريعاً إلى وضع

سيىء جداً»[٢٢]. وفي كل مرّة أراد البيت الأبيض «عشرة أو ١٥ شخصاً خفياً إضافياً على الساحة لمعرفة ما يحصل» في الصومال أو في البلقان ـ حيثما نشبت أزمة راهنة ـ كان يسأل «السي.آي.أيه.»: «هل يوجد كادر من الأشخاص على استعداد للذهاب؟»، وكان الجواب الدائم هو: «قطعاً لا».

إما التلاؤم وإما الموت

في الثامن من أيار/مايو ١٩٩١، استدعى الرئيس بوش بوب غايتس إلى الكابينة الأمامية في الطائرة الرئاسية وطلب منه تولي منصب مدير الاستخبارات المركزية. اهتز غايتس فرحاً وارتعب، في الوقت ذاته، بعض الشيء. وتحولت جلسات الاستماع للتصديق على تعيينه إلى حمام دم، واستمرت المحنة ستة أشهر. تعرّض للتهشيم بسبب خطايا بيل كايسي، بينما قللت جماعته من شأنه. أراد غايتس التحدث عن مستقبل «السي.آي.أيه.»، لكن جلسات الاستماع تحولّت إلى معركة حول ماضيها. أعطت صوتاً لحشد غاضب من المحللين الذين قهرهم غايتس وكايسي لسنوات على الطالع والنازل. وكان غضبهم مهنياً وشخصياً. هاجموا ثقافة الخداع وخداع الذات في «السي.آي.أيه.» وقال هارولد فورد، الذي خدم بتميّز على مدى أربعين عاماً، إن غايتس ـ و«السي.آي.أيه.» نفسها ـ كان «مخطئاً كلّياً» في شأن وقائع الحياة داخل الاتحاد السوفياتي. وأدت هاتان الكلمتان إلى التشكيك في السند الفكري لوكالة الاستخبارات المركزية.

شعر غايتس، المصدوم جداً، كأنه ملاكم يتبارى على الجائزة، وهو بالكاد يستطيع النهوض إلى الحلبة عندما قرع جرس الشوط التالي. إلا أنه تمكن من إقناع السيناتورات بأنهم سيكونون شركاءه «في فرصة لا يجب تضييعها لإعادة تقويم دور الاستخبارات الأميركية ومهمتها وأولوياتها وبنيتها». ودان في جزء كبير من الاصوات التي نالها لجورج ج. تينيت، المدير المعتمد للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، والرئيس المستقبلي للاستخبارات المركزية. وتينيت، البالغ ٣٧ عاماً، الطموح في شكل لا يُصدّق، الودود بضراوة، وابن

مهاجرين من اليونان يديران مطعماً للهمبرغر عند طرف الكوينز يدعى «مقصف القرن العشرين»، هو مثال الموظف المعتمد: يكدّ في العمل، مخلص لرؤسائه، متحمس للإرضاء. وقد نسّق الدليل للسيناتورات الذين أرادوا فقط برهاناً إلى أن غايتس سيتنازل لهم عن السلطة ليمكنوه من كسب شيء منها.

وبينما يعاني غايتس الأمرّين في واشنطن، اختبرت «السي.آي.أيه.» لحظات أصابتها بالدوار في ما ما وراء البحار. ففي آب/أغسطس ١٩٩١، وفيما أُحبطت محاولة انقلاب على غورباتشيف وشرع الاتحاد السوفياتي في السقوط، شرعت «السي.آي.أيه.» في بث تقارير حيّة، من أفضل مقعد في المنزل، من مقر قيادة الاستخبارات السوفياتية في ميدان دجرزينسكي. وقاد أحد نجوم القسم السوفياتي، مايكل سوليك، سيارته إلى ليتوانيا وهي تعلن استقلالها ليصبح أول ضابط «السي.آي.أيه.» تطأ قدماه في هذه الجمهورية السوفياتية السابقة. وعرّف عن نفسه علنا إلى زعماء البلد الناهض الجدد، وعرض عليهم المساعدة في إنشاء جهاز استخبارات. ووجد نفسه مدعوّاً إلى العمل في مكاتب نائب الرئيس الجديد، كارول موتييكا. وكتب سوليك في يوميات الوكالة أن «الجلوس لوحدي في مكتب نائب الرئيس شكّل أمراً مستهجناً بالنسبة إلى ضابط في «السي.آي.أيه.» قضى كامل حياته المهنية يحارب الاتحاد السوفياتي. ولو إنني كنت وحدي في مكتب نائب رئيس جمهورية سوفياتية، قبل بضعة أشهر وحسب، لاعتقدت أنني اكتشفت منجماً من الذهب الاستخباراتي. وبينما أنا جالس وراء مكتب موتييكا، والملفات منشورة عليه، كان غرضي الوحيد هو الاتصال هاتفياً بوارسو»(٢٣).

لم تلامس النتف وأجزاء الاستخبارات التي هرّبها الجواسيس بجهد جهيد الصورة الكبرى حتى للاتحاد السوفياتي. وعلى امتداد كامل مسار الحرب الباردة، سيطرت «السي.آي.أيه.» بالتحديد على ثلاثة عملاء أمكنهم توفير أسرار ذات قيمة دائمة حول التهديد السوفياتي، وقد أُوقفوا جميعهم وأُعدموا. وأحصت أقمار التجسس الدبابات والصواريخ بدقّة، إلا أن الأرقام تبدو الآن عديمة الأهمية. والتقطت أجهزة التنصت والاستماع ملايين الكلمات، التي فقدت الآن معناها.

«يوجد عالم جديد هناك الآن. فإما التلاؤم وإما الموت»(٢٤)، كتب غايتس على دفتر ملاحظات قبل يومين على الاجتماع مع قادة الجهاز الخفي في ٧ و٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١، وفور تأديته يمين توليه منصب مدير الاستخبارات المركزية. وفي الأسبوع التالي، أرسل بوش أمراً موقعاً إلى أعضاء حكومته، صُنّف على أنه مراجعة الأمن القومي ٢٩. وكان غايتس هو الذي وضع مسودته على امتداد الأشهر الخمسة الماضية. وهو يطالب كل ذراع من أذرعة الحكم بتحديد ما تريده من الاستخبارات الأميركية على امتداد الأشهر الخمسة عشر المقبلة. وأعلن غايتس أمام حضور من مئات موظفي «السي.آي.أيه.» أن «هذا الجهد يشكل مسعى هائلاً وتاريخياً».

حملت مراجعة الأمن القومي توقيع بوش. لكنها شكّلت التماساً من غايتس إلى بقية الحكومة: قولوا لنا وحسب ماذا تريدون. علم بأن ثمة حاجة إلى رؤية الوكالة تتغيّر كي تتمكن من البقاء. وتساءل ريتشارد كير، نائب مدير الاستخبارات المركزية لأربعة أعوام في عهد بوش، بصوت عال إذا كانت «السي.آي.أيه.» ستظل موجودة في الأيام الآتية. وقال إن «الوكالة تعيش في ثورة تشابه ثورة الاتحاد السوفياتي السابق. لقد فقدنا بساطة الغاية أو التماسك الذي سيّر أساساً، ليس الاستخبارات وحسب، بل أيضاً هذا البلد لأكثر من أربعين عاماً»(٢٥). فالإجماع على أين تقع مصالح أميركا والطريقة التي على «السي.آي.أيه.» أن تخدمها فيها قد ولّى.

نشر غايتس بياناً صحافياً يصف فيه مراجعة الأمن القومي بأنها «التوجيه الأكثر بُعْد أثرٍ منذ ١٩٤٧ لتقويم الحاجات المستقبلية للاستخبارات وأولوياتها». لكن، ما هي تلك الحاجات؟ ففي خلال الحرب الباردة، لم يضطر أي رئيس أو مدير أبداً إلى السؤال. فهل على «السي.آي.أيه.» أن تركّز الآن على أشقياء الأرض أو على ارتفاع الأسواق العالمية؟ ما هو الأكثر تهديداً، الإرهاب أم التكنولوجيا؟ في خلال فصل الشتاء، جمع غايتس لائحة بالأمور التي عليه القيام بها للعالم الجديد، وأنهاها في شباط/فبراير، ورفعها إلى الكونغرس في الثاني من نيسان/أبريل ١٩٩٢. وتضمنت المسودة الأخيرة ١٧٦ تهديدا تتراوح

بين التغيير المناخي وجرائم الانترنت. واحتلت الأسلحة النووية، والكيميائية، والبيولوجية رأس القائمة. ثم جاءت المخدرات والإرهاب، وقد تمت توأمة الآمنتين على أنهما «المخدرات والفتّاكون»، وكان الإرهاب لا يزال مسألة تحتل المرتبة الثانية، وبعد ذلك التجارة العالمية والمفاجأة التكنولوجية. إلا أنها لم تواز جسامة الاتحاد السوفياتي.

قرّر الرئيس بوش خفض حجم الوكالة وإعادة توجيه نطاقها. وافق غايتس. فهذا رد معقول على نهاية الحرب الباردة. وهكذا، فإن سلطة «السي.آي.أيه.» قد خُفّضت من حيث التصميم. واعتقد الجميع ان «السي.آي.أيه.» ستصبح أكثر حذاقة إذا أصبحت أقلّ حجماً. وأخذت موازنة الاستخبارات تنخفض في ١٩٩١، وانحسرت بالنسبة إلى السنوات الست المقبلة. وأخذت الاقتطاعات توقع خسائرها في ١٩٩٢، في الوقت الذي أعطيت الأوامر لـ «السي.آي.أيه.» بزيادة دراماتيكية في دعمها للعمليات العسكرية اليومية. أغلق أكثر من عشرين مركزاً أماميا لـ «السي.آي.أيه.»، وخفض حجم بعض المحطات الكبرى في عواصم رئيسية بأكثر من ستين في المئة، وتهاوى عدد ضباط الجهاز الخفي العاملين في ما وراء البحار. وتعرض المحللون للضربة الأقوى. وقال دوغ ماك إيتشن، الذي أصبح رئيسهم الآن، إنه وجد من الصعب القيام بتحليل جدي مع «زمرة من أبناء التسع عشرة الذين يقومون بمداورة مدتها سنتان»[٢٦]. شكّلت هذه نوعاً من المبالغة، لكنها ليست مبالغة كبرى.

«التوترات ترتفع بينما الموازنة تُعتصر»[٢٧]، كتب غايتس في يوميات خاصة بالعمل بعد وقت ليس بالطويل على قسمه اليمين. واستمرت الاقتطاعات تأتي، وفي السنوات التي ستأتي، سيضع بوش والكثيرون غيره اللوم فيها على ليبراليين يعملون على نحو تلقائي. إلا أن السجلات تظهر أنها كانت أيضاً، بالقدر ذاته، من فعله. وهي كانت في روح العصر، التي تم التقاطها في دعاية تلفزيونية سجّلها بيل كولبي لمجموعة دفاع تدعى الاتحاد من أجل القيم الديموقراطية» في وقت بدأ فيه موسم انتخابات ١٩٩٢.

قال، «أنا وليام كولبي، وكنت رئيساً لـ ومهمة الاستخبارات هي في

إنذارنا حول المخاطر على جيشنا. وها إن الحرب الباردة قد انتهت وتضاءل التهديد العسكري كثيراً. لقد حان الوقت لخفض إنفاقنا العسكري إلى النصف واستثمار هذا المال في مدارسنا، وفي العناية الصحية، وفي اقتصادنا». شكّل هذا تقسيم الأرباح الشهير.

إلا أن السلام أثبت أنه عابر على غرار ما كانه بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه المرة لم تحصل استعراضات النصر، وكان لقدامى الحرب الباردة سببهم في التجّع على العدو المهزوم.

«إذا كنت تريد الانخراط في التجسس، فعليك امتلاك الحافز». قال لي مرة ريشارد هيلمس، وقد ضاقت عيناه، وخفت صوته وبات ملحّاً. «الأمر ليس متعة ولعبة، بل وسخ وخطر. وثمة دوماً احتمال بأن تحترق. كنا نعرف في الحرب العالمية الثانية، في «الأو.أس.إس». ما هو حافزنا: التغلّب على النازيين الملاعين. وعرفنا في الحرب الباردة ما هو حافزنا: هزيمة الروس الملاعين. وفجأة انتهت الحرب الباردة، فما هو الحافز؟ ما الذي يدفع بشخص ما إلى قضاء حياته يقوم بهذا النوع من الأمور؟».

أمضى غايتس سنة يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة. أيام بكاملها يدلي بشهادته في تلة الكابيتول، ساعياً وراء الدعم السياسي، يلقي خطابات عامة، يترأس قوات منتدبة وطاولات مستديرة، واعداً الجيش بمزيد من الاستخبارات، والمحللين بضغط سياسي أقل، ويقوم بهجوم كاسح على التهديدات الرئيسية العشرة، «السي.آي.أيه.» جديدة، «السي.آي.أيه.» أفضل. لم يتوفر له الوقت أبداً لتحقيق أي من هذه التطلعات. مضت عليه عشرة أشهر في الوظيفة عندما اضطر إلى وضع عمله جانباً والطيران إلى ليتل روك وتقديم الإيجاز للرجل الذي سيصبح الرئيس المقبل للولايات المتحدة.

الجزء السادس

حساب «السي.آي.أيه.» في ظل كلينتون
وجورج دبليو بوش: ١٩٩٣ إلى ٢٠٠٧

٤٤

لم نكن نملك الوقائع

لم يأت قائد أعلى إلى البيت الأبيض، منذ كالفن كوليدج، أقلّ تفكيراً في العالم الأوسع من بيل كلينتون. فهو في كل مرة يدير مجسّم الكرة الأرضية، يعود ليتوقّف عند الولايات المتحدة.

فكلينتون المولود في ١٩٤٦، وهو ليس أكبر سنّاً من «السي. آي. أيه.»، طبعته المقاومة الوطنية لفيتنام وللتجنيد العسكري، وصقلته في السياسة الشؤون الداخلية لولاية أركنساس، وانتُخب على أساس وعد بإعادة إحياء الاقتصاد الأميركي. لم يحتل أي شكل من أشكال السياسة الخارجية قائمة الأمور الرئيسة الخمسة على روزنامته. لم يملك أفكاراً عميقة حول المصالح الاستراتيجية الأميركية لما بعد الحرب الباردة. ورأى في عهده بالسلطة «لحظة فرصة ديموقراطية وعملانية»، بكلمات مستشاره للأمن القومي توني ليك[١]. مضى على الإدارة ثمانية أشهر في السلطة قبل أن يعلن ليك السياسة الخارجية الجديدة للولايات المتحدة: زيادة عدد الأسواق الحرة العالمية. كانت تلك خطة أعمال أكثر منها سياسة. فقد ساوى كلينتون ما بين التجارة الحرّة والحرية، كما لو أن بيع البضائع الأميركية سيؤدي إلى نشر القيم الأميركية في الخارج.

كان فريق كلينتون للأمن القومي من الدرجة الثانية. فقد اختار عضو الكونغرس صاحب الأخلاق السامية، والمشتت الذهن، لس أسبن، وزيراً للدفاع. واستمرّ أسبن لأقل من سنة. واختار المحامي صاحب الياقة العالية وارن كريستوفر وزيراً للخارجية. كان كريستوفر رسميّاً ومتجافياً، يتعامل مع المسائل الدولية الكبرى كما لو أنها قضايا قانونية. وفي اللحظة الأخيرة، اختار

كلينتون أحد المتوترين من قدامى فريق ريتشارد نيكسون للأمن القومي مديرا للاستخبارات المركزية.

كان ر. جيمس وولسي جونيور محامياً في الواحد والخمسين من العمر، ومفاوضاً متمرّساً في الحد من الأسلحة، وعمل نائباً لوزير البحرية في عهد الرئيس كارتر. أوحى صدغاه الناتئان وحضور ذهنه الحاد، بأنه قِرش شرس فائق الذكاء. وبعد شهر على انتخاب كلينتون، ألقى وولسي خطاباً جلب الكثير من الانتباه، قال فيه إن الولايات المتحدة حاربت تنيناً على مدى خمسة وأربعين عاماً، وذبحته في النهاية فقط لتجد نفسها في أدغال ملأى بالأفاعي السامة. لم يسبق لأحد أن بيّن رؤية أكثر بلاغة للاستخبارات الأميركية في ما بعد الحرب الباردة. وتلقى بعد ذلك بأيام اتصالاً، وطار إلى ليتل روك، والتقى كلينتون بعد منتصف ليل الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. وتحدّث الرئيس المنتخب المسترخي عن حداثته في أركنساس، وسأل عن طفولة وولسي في أوكلاهوما المجاورة، وأخذه في رحلة قصيرة بالذاكرة إلى الخمسينيات. وعند الفجر علم وولسي بأنه سيصبح المدير المقبل للاستخبارات المركزية[٢].

قبل خمس عشرة دقيقة من الإعلان الرسمي في ذلك الصباح، ألقت ديدي مايرز، السكريتيرة الصحافية لكلينتون، نظرة على ملاحظاتها، وقالت: «أيها الأميرال، لم أكن أعلن أنك خدمت أيضاً في إدارة بوش».

«ديدي، أنا لست أميرالاً»، قال وولسي. «لم أصل في الجيش إلى أكثر من رتبة نقيب».

«هوب»، قالت. «من الأفضل لنا أن نغيّر البيان الصحافي»[٣].

ولّى هارباً بأسرع ما يمكنه. ولأن المطار يغشاه الضباب، فقد سخّر أحد ضباط «السي.آي.أيه.» ليقلّه بالسيارة إلى دالاس، بحيث يمكنه الطيران إلى كاليفورنيا لقضاء عيد الميلاد. وسيكون ذلك، لوقت طويل، آخر عمل يقوم به بملء إرادته. إذ إنه سيصبح أسير حرب في «السي.آي.أيه.».

التقى مرتين بالتحديد مع رئيس الولايات المتحدة في سياق السنتين

المقبلتين، وهو عدد اللقاءات الأدنى في تاريخ الوكالة. «لم تكن علاقتي سيئة بالرئيس»، قال بعد ذلك بسنوات. «فأنا لم أحظ بعلاقة معه على الإطلاق».

عمل كبار ضباط «السي.آي.أيه.» بإمرة مدير عرفوا أنه لا يتمتع بالسلطة، ورئيس اعتقدوا أنه لا يفقه شيئاً. وقال توم تويتن، رئيس الجهاز الخفي منذ بداية ١٩٩١ وحتى نهاية ١٩٩٣، «تمتعنا بعلاقة أسطورية مع البيت الأبيض في عهد بوش: حفلات عيد الميلاد في كامب ديفيد، وهذا النوع من الأمور. وانتقلنا من هذا إلى لاشيء. بعد نحو ستة أشهر على عهد كلينتون، تناهى إلينا أنه ما من أحد التقى الرئيس أو مجلس الأمن القومي»(٤). وكانت «السي.آي.أيه.» عاجزة من دون توجيهات من الرئيس. فهي أشبه بسفينة مقيّدة، هائمة على الماء.

وبرغم أن كلينتون جاء إلى السلطة في حالة من الجهل المقصود في شأن «السي.آي.أيه.»، فإنه سرعان ما لجأ إلى الجهاز الخفي لحل مشاكله في الخارج، وأمر بتقديم دزينات من مقترحات الأعمال الخفية في خلال سنتيه الأوليين في السلطة(٥). وأُجبر، عندما فشلت في إنتاج حلول سريعة، على اللجوء إلى قادته العسكريين، الذين ازدروا جميعهم تقريباً به بوصفه متهرّباً من التجنيد. وجاءت النتائج مريعة.

لم تكن توجد شبكة استخبارات

«ما من اختبار كان أقسى من الصومال»، قال فرانك ج. ويسنر، ابن مؤسس الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.»(٦).

شكّلت الصومال جرحاً من جروح الحرب الباردة. فالتموين بالجملة الذي قامت به الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لفئاتها المتصارعة، خلّف ترسانة هائلة للقبائل المتحاربة. وفي اليوم الذي سبق عيد الشكر في ١٩٩٢، سمح الرئيس بوش بتدخل عسكري أميركي لغايات إنسانية. فقد مات نصف مليون شخص جوعاً في الصومال؛ وكان عشرة آلاف شخص يموتون يومياً عندما

أوشك عهد إدارة بوش على الانتهاء. وها إن القبائل تسرق المعونة الغذائية وتقتل بعضها البعض. وسرعان ما تحوّلت مهمة إطعام الناس الذين يشارفون على الموت إلى عملية عسكرية ضد أقوى أسياد الحرب الصوماليين، الجنرال محمد فرح عيديد. وفي يوم تسلّم الرئيس السلطة في ١٩٩٣، وبعدما عمل ويسنر لبعض الوقت وزيراً للخارجية بالوكالة، انتقل إلى البنتاغون بوصفه نائباً لوزير الدفاع للسياسة. نظر إلى الصومال ووجد فراغاً. فقد سبق لإدارة بوش أن أقفلت السفارة الأميركية ومحطة «السي.آي.أيه.» هناك منذ سنتين.

«افتقرنا إلى الوقائع»، قال ويسنر. «لم نملك شبكة استخبارات. ولم توجد طريقة نطّلع من خلالها على ما يجري من تحرّكات». وهذه مشكلة على ويسنر حلّها بمساعدة من «السي.آي.أيه.» أنشأ قوة منتدبة للصومال، قامت بنشر كوماندوس من القوات الخاصة الأميركية، واستعانت بالوكالة لتكون لها بمثابة العيون والآذان في الميدان. ووقعت المهمة على غاريت جونز، رئيس المحطة المعيّن حديثاً في الصومال. تم إنزال جونز، الذي سبق أن كان تحرّياً في شرطة ميامي، في وسط المجهول، مع سبعة ضباط بإمرته ومهمته الإطاحة بجيش من المقاتلين في مواجهته. كان مقر قيادته عبارة عن غرفة منهوبة في مقر السفير المهجور في مقديشو. وفي غضون أيام، انتحر أفضل عميل صومالي له بإطلاق النار في رأسه، وقُتل آخر بصاروخ أطلقته طائرة هيليكوبتر أميركية، وأصيب نائبه في رئاسة المحطة في عنقه بنار قنّاص وكاد يموت، ووجد جونز نفسه يقود عملية مطاردة عيديد ومساعديه في سلسلة من الأزقة غير النافذة. وأسفر هذا السبيل عن مقتل ١٨ جندياً أميركياً في اشتباك أدى إلى مقتل ١,٢٠٠ صومالي.

حصل تحقيق في مسألة الصومال بعد حصول العملية قام به الأميرال وليام كرو، الذي استقال من رئاسة رؤساء الأركان المشتركة ليصبح قائد مجلس استشارة الاستخبارات الخارجية التابع للرئيس، وهو مجلس الحكماء الذي أنشأه أيزنهاور. أجرى المجلس تحقيقاً، وخلص إلى أن «الإخفاق الاستخباراتي في الصومال يجد علّته في مجلس الأمن القومي»، قال الأميرال كرو(٧). «توقعوا أن تأخذ الاستخبارات القرار نيابة عنهم، وليس الاكتفاء بتزويدهم

بالمعلومات عما يجري هناك. لم يتمكنوا من فهم لماذا لم تنصحهم الاستخبارات بشكل صحيح بما عليهم القيام به.

«أدى ذلك إلى ارتباك كبير في أعلى الهرم حول ما يجري في الصومال»، قال كرو. «والرئيس نفسه لم يكن مهتماً كثيرا بالاستخبارات، وهذا أمر يؤسف له كثيراً».

وكانت النتيجة المزيد من انعدام الثقة بين البيت الأبيض و«السي.آي.أيه.»

الانتقام بطريقة فعالة جداً من النساء العراقيات اللواتي يقمن بالتنظيف

لم يكن الإرهاب، في بداية ١٩٩٣، مسألة لها الأولوية في معظم عقول الوكالة. ولم تأخذ الولايات المتحدة على نفسها أي عمل ذي مغزى ضد مصادر الارهاب منذ أن تم الإمساك بها وهي تبيع الصواريخ لإيران. فبحلول ١٩٩١، كان جميع الرهائن الذين اختطفوا في سنوات ريغان قد عادوا إلى الديار من بيروت، ولو أن بيل باكلي عاد إلى دياره في صندوق. وجرى في ١٩٩٢ حديث جدي حول إقفال مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.أيه.»، فالأمور كانت هادئة. واعتقد الناس أن المشكلة ربما حلّت نفسها بنفسها.

لم يمر وقت طويل على فجر الخامس والعشرين في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣[٨]، وهو اليوم الخامس لإدارة كلينتون، حتى كان نيكولاس ستار، وهو ضابط من قدامى «السي.آي.أيه.» في الستين من العمر، الأول في الخط عند الإشارة الضوئية الحمراء خارج المدخل الرئيسي لمقر قيادة الوكالة. واستغرق الضوء دهراً لينتقل إلى الأخضر، وتراصفت السيارات حتى الأفق على الطريق ١٢٣، تنتظر دخول الأحراج الهادئة لمقر قيادة «السي.آي.أيه.» وعند الـ ٧:٥٠، خرج باكستاني شاب من سيارته وشرع في إطلاق النار من بندقية هجومية طراز «إي.كي ـ ٤٧». قتل في البداية فرانك دارلينغ، (٢٨ عاماً)، الذي يعمل في اتصالات الجهاز الخفي، وأصابه في كتفه اليمنى بينما زوجة دارلينغ تصيح من الرعب. استدار المسلح، وأطلق النار، وقتل الدكتور لانسينغ

بينيت، (٦٦ عاماً)، وهو طبيب في «السي.آي.أيه.» واستدار، وأصاب نيك ستار في الذراع والكتف، ثم أطلق النار على كالفين مورغان، (٦١ عاماً) الذي تم التعريف عنه لاحقاً في المحكمة على أنه موظف في «السي.آي.أيه.» واستدار القاتل مرة أخرى ونسف رأس دارلينغ. ومن ثم قاد سيارته مبتعدا. انتهى كل شيء في نصف دقيقة. وتمكن نيك ستار، المصاب بجروح خطيرة، من الوصول بأعجوبة إلى بوابات «السي.آي.أيه.» وأطلق الإنذار.

لم يقصد الرئيس كلينتون أبدا إلى «السي.آي.أيه.» لتكريم القتلى والجرحى، وأرسل زوجته بدلاً منه. ومن الصعب المبالغة في درجة الغضب الذي أثاره ذلك في مقر القيادة. وعندما أطلقت النار على فريد وودروف، رئيس المحطة بالوكالة في تبيليسي، جورجيا، في ذلك الصيف وقُتل، في ما بدا أنه عملية قتل عشوائية، حرص وولسي على الطيران إلى نصف العالم لاستعادة رفاته.

في ٢٦ شباط/فبراير، بعد شهر على علمية إطلاق النار عند بوابات الوكالة، انفجرت قنبلة تحت الأرض في موقف سيارات مبنى التجارة العالمية. قُتل ستة أشخاص وجُرح أكثر من ألف. اعتقدت «السي.آي.أيه.» في البداية أنه من فعل انفصاليين بلقانيين، إلا أنه اتضح، في غضون أسبوع، أن المفجرين هم من أتباع شيخ مصري أعمى يعيش في بروكلين، هو عمر عبد الرحمن. قرع اسمه جرساً قوياً جداً في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» فالشيخ الضرير جنّد مئات عدة من المقاتلين العرب للحرب ضد السوفيات في أفغانستان تحت لواء الجماعة الإسلامية. وهو قد حوكم وبُرّئ في عملية اغتيال الرئيس المصري أنور السادات في ١٩٨١، إلا أنه بقي برغم ذلك قيد الإقامة الجبرية في مصر حتى ١٩٨٦. وما إن خرج من السجن في مصر، حتى أخذ يحاول دخول الولايات المتحدة. ونجح في ذلك في ١٩٩٠. لكن كيف؟ فالشيخ محرّك معروف للفتنة ـ وهو، كما سيتبين ـ الزعيم الروحي لمؤامرة تهدف إلى قتل الأميركيين بالآلاف.

أُصدرت تأشيرة دخوله في العاصمة السودانية، «من عنصر في وكالة الاستخبارات المركزية في الخرطوم»، على حد قول جو أونيل، القائم بالاعمال

في السفارة الاميركية[٩]. «علمت الوكالة بأنه أخذ يسافر في المنطقة بحثاً عن تأشيرة، ولم تبلغنا بذلك أبداً». واعتقد أونيل أنه لا بد من أن في الأمر خطأ: «لتوجّب على الاسم أن يدوّي كطلقة الرصاص». وفي الواقع، فإن ضباط «السي.آي.أيه.» راجعوا سبعة طلبات قدمها عبد الرحمن لدخول الولايات المتحدة، وقالوا نعم ست مرات. «لا يمكنني أن أصف لك مدى شناعة حصول ذلك»، قال أونيل. «كان فاحشاً».

وصل جورج هـ. و. بوش إلى الكويت في ١٤ نيسان/أبريل ١٩٩٣، للاحتفاء بذكرى الانتصار في حرب الخليج. وكانت زوجته، واثنان من أبنائه، ووزير الخارجية السابق جيمس بيكر، من بين حاشيته. وفي خلال تلك السفرة، أوقفت الشرطة السرية الكويتية سبعة عشر رجلاً، واتهمتهم بالتآمر لقتل بوش بواسطة سيارة ملغومة، محملة بما يقارب المئتي رطل من المتفجرات البلاستيكية المخبأة في سيارة تويوتا لاند كروزر. اعترف بعض المتهمين، تحت التعذيب، بأن جهاز الاستخبارات العراقية يقف وراء محاولة الاغتيال. وفي ٢٩ نيسان/أبريل، أفاد تقنيو «السي.آي.أيه.» أن تركيب القنبلة يحمل توقيعاً عراقياً. وبعد ذلك بأيام قليلة شرعت «السي.آي.أيه.» في استجواب المشتبه فيهم. قال اثنان منهم إن العراق هو الذي أرسلهم. لكن الجزء الوحيد من الأحجية الذي لم يبد متناسباً هو المتهموم أنفسهم. فمعظمهم من مهرّبي الويسكي، وبائعي حشيشة الكيف الجوالين، ومن القدامى الذين أنهكتهم الحرب. بيد أن «السي.آي.أيه.» خلصت في مآل الأمر إلى أن صدام حسين حاول قتل الرئيس بوش[١٠].

أخذ الرئيس كلينتون، على مدى الشهر التالي، يقلّب أوجه الردّ. وفي حوالى الواحدة والنصف من فجر السادس والعشرين من حزيران/يونيو، في يوم العطلة الاسبوعية الإسلامية، سقط ٢٣ صاروخ توماهوك في مقر قيادة الاستخبارات العراقية وحولها، وهي كناية عن مجموعة من سبعة مبان كبيرة تقع داخل مجمّع مسوّر في قلب بغداد. وأصاب واحد من الصواريخ على الأقل مبنى سكنياً وقتل عدة مدنيين أبرياء، بمن فيهم فنانة عراقية مرموقة وزوجها.

وقال رئيس الأركان المشتركة الجنرال كولن باول إن القصف تعمَّد أن يكون «متناسباً مع الهجوم على الرئيس بوش»[١١].

استشاط مدير الاستخبارات المركزية غضباً حيال إدراك الرئيس للتناسب. «حاول صدام اغتيال الرئيس السابق بوش»، قال وولسي بعد ذلك بسنوات[١٢]، «وأطلق الرئيس كلينتون دزينتين من صواريخ كروز على مبنى خال في منتصف الليل في بغداد، منتقماً بالتالي بطريقة فعالة جداً من النساء العراقيات اللواتي يقمن بالتنظيف، ومن حرّاس الليل، لكن ليس بالتحديد على نحو فعال ضد صدام حسين». ولاحظ أنه، بعد فترة ليست بالطويلة على ذلك، «تم إسقاط هيليكوبتراتنا في مقديشو، وانسحبنا على غرار ما فعلنا في بيروت قبل ذلك بعشرة أعوام».

وبينما لا تزال صور مغاوير الجيش القتلى وهم يُجرجرون في شوارع مقديشو، حيّة في أذهان الأميركيين، خطّط كلينتون لإرجاع السلطة إلى رئيس هايتي المنتخب الكاهن اليساري جان ـ برتران أريستيد. وهو رأى حقيقة في أريستيد الحاكم الشرعي للشعب الهايتي، وأراد أن يرى العدالة وقد تحقّقت. تطلّب ذلك حلّ الطغمة العسكرية التي أزاحت أريستيد. وكان الكثيرون من قادتها، لسنوات، على جدول معاشات «السي.آي.أيه.»، يعملون مخبرين موثوقين للجهاز الخفي[١٣]. وشكّل هذا الواقع مفاجأة غير سارة للبيت الأبيض. وكذلك فعل الكشف عن أن الوكالة أنشأت جهاز الاستخبارات الهايتي الذي لم يفعل زعماؤه العسكريون سوى توزيع الكوكايين الكولومبي، وتدمير أعدائهم السياسيين، والاحتفاظ بسلطتهم في العاصمة، بورت أو برانس. وها إن الوكالة توضع في الموقف الحرج القاضي بقلب عملائها.

وضع هذا كلينتون و«السي.آي.أيه.» في نزاع مباشر. وكذلك فعل تقدير «السي.آي.أيه.» الدقيق بأن أريستيد ليس عماداً للقوة أو الفضيلة. ووصف وولسي النزاع بأنه نزاع أيديولوجي. واستذكر أن الرئيس ومساعديه «أرادونا يائسين أن نقول، نحن في «السي.آي.أيه.»، إن ارستيد سيكون بالتأكيد توماس جيفرسون هايتي»[١٤]. واعتذرنا، بطريقة ما، وبضيق صدر، عن القيام بهذا،

وأشرنا إلى كل من مساوئه، بالإضافة إلى بعض الأمور الإيجابية في شأنه. وذلك جزء من سبب فقداننا للشعبية». كان وولسي محقّاً جزئياً فقط. وجد البيت الأبيض تحليل «السي.آي.أيه.» لأريستيد غير مناسب. لكنه عرف أيضاً أن حلفاء الوكالة القدامى في هايتي مهولون.

وأراد الرئيس، الحانق من نزاع «السي.آي.أيه.» معه، والذي أقعده فشله في صياغة سياسة خارجية، وصدمه الإخفاق في الصومال، أن ينسحب من مغامرات العالم الثالث لفترة. إلا أنه، ما إن شرع الجنود الأميركيون والجواسيس في الانسحاب من القرن الأفريقي، حيث ذهبوا في مهمة إنسانية وانتهى بهم الأمر يقتلون ويُقتلون، تم استدعاؤهم للمضي وإنقاذ الأرواح في رواندا، حيث أمسكت قبيلتان بخناق بعضهما البعض.

حرص البيت الأبيض، في نهاية كانون الثاني/يناير، على تجاهل دراسة لـ «السي.آي.أيه.» تفيد بأن نصف مليون شخص قد يُقتلون في رواندا[١٥]. وسرعان ما انفجر النزاع ليشكل واحدة من أكبر الكوارث التي صنعها الإنسان في القرن العشرين. «لم يركّز أحد في الحقيقة على مدى خطورة الوضع إلى أن أضحت الأمور خارج السيطرة»، قال مورت هالبرين، وكان يومها عضواً في فريق مجلس الأمن القومي التابع لكلينتون. «لم توجد أي رؤية، ولم نملك الكثير من المعلومات». ورفضت إدارة كلينتون، المحجمة عن التورط في أمم لا تتم نقل معاناتها على التلفزيون، تسمية المذابح الجارية من طرف واحد، إبادة بشرية. وجاء رد الرئيس على رواندا قراراً بتضييق تحديد المصلحة القومية الأميركية بمصير دول بعيدة مخفقة لن يؤثر انهيارها مباشرة في الولايات المتحدة: أماكن مثل الصومال، والسودان، وأفغانستان[١٦].

انسفها

خسر وولسي تقريباً كل معركة خاضها، وهناك الكثير منها. وعندما اتضح أنه ليس في وسعه استعادة مال «السي.آي.أيه.» وسلطتها، أخذ معظم من بقي من نجوم جيل الحرب الباردة يبتعدون عن الأضواء ويعودون إلى ديارهم. وكان

القدامى هم أول الذين اختفوا. وجاء بعدهم الضباط الهمّامون الذين هم في الثلاثينات وأول الأربعينات من العمر، والذين انسحبوا للبدء بحياة مهنية جديدة. وأخذ تجنيد مواهب جديدة، وأناس في العشرينات من العمر، يتزايد صعوبة سنة بعد سنة.

أخذت قدرات «السي.آي.أيه.» الذهنية والعملانية في التلاشي. وتمت إدارة مقر القيادة من قبل موظفين إداريين محترفين قاموا بتقطير الأموال المتضائلة بدون أي فهم لما يمكن، أو لا يمكن، أن يعمل به في الميدان. لم يملكوا منهجاً للتمييز بين البرامج التي نجحت وتلك التي لم تنجح. وهم، في غياب بطاقات قيد النجاحات والإخفاقات، لم يمتلكوا الكثير من الإدراك لكيفية وضع لاعبيهم في الميدان. ومع تضاؤل عدد عملاء «السي.آي.أيه.» ومحلليها، ذوي الخبرة، تقوّضت سلطة مدير الاستخبارات المركزية على يد إدارته المنتفخة المتوسّطة الجودة، وكادر المساعدين الخاصين المتنامي أبداً، وفريق المساعدين، والقوات المنتدبة التي طافت من مقر القيادة إلى مكاتب مستأجرة في المحلات التجارية الكبرى والحدائق الصناعية لفرجينيا.

وجد وولسي نفسه يترأس بيروقراطية سرّية تنفصل بازدياد عن بقية الحكومة الأميركية. فـ «السي.آي.أيه.»، الأشبه بمستشفى في مدينة كبيرة تصيب عياداته السيئة الناس بالمرض، أصبحت ترتكب الأخطاء كأنها جزء من عملياتها اليومية. وأخذت الاستخبارات الأميركية تشبه «مخلوقا من مخلوقات فرانكنشتاين»[(١٧)]. بحسب ما كتب جيمس مونيير سايمون جونيور، الذي كان كبير الموظفين الإداريين في «السي.آي.أيه.» عند مقلب القرن «خلطة من القطع غير المتناسبة ركّبها مع بعضها البعض، في أوقات متفاوتة، عمّال مختلفون، وأحيانا غير مبالين»، يعانون «جهازاً عصبياً معيباً يعطّل تنسيقهم وتوازنهم».

كانت المشاكل أعقد من أن يتم إصلاحها بسرعة. فالوكالة، على غرار المكوك الفضائي، كناية عن منظومة معقّدة معرّضة للانفجار في حال فشل مركّب واحد من مركّباتها. والشخص الوحيد الذي يملك سلطة البدء في جعل القطع تتناسب هو رئيس الولايات المتحدة. إلا أن كلينتون لم يجد الوقت لفهم

ماهية «السي.آي.أيه.»، وطريقة عملها، أو أين تجد مكانها مع بقية الحكومة الأميركية. فوّض الرئيس الأمر كله إلى جورج تينيت، الذي جاء به إلى البيت الأبيض بوصفه مديراً معتمداً لشؤون الاستخبارات في مجلس الأمن القومي.

مضت ١٤ شهراً من إدارة كلينتون، وتينيت سارح الفكر على فنجان إسبريسو مزدوج وسيكار عند مقهى رصيفي على بعد كتلتي مبان من البيت الأبيض. ما الذي يعتقد أنه يجب فعله بـ «السي.آي.أيه.»؟ «انسفها»، قال تينيت. وهو عنى، طبعاً، تدميراً بناءً، وإعادة بنائها من الصفر. وشكّل ذلك خياراً بليغاً للكلمات.

٤٥

لماذا لم نعرف يا تُرى؟

قال فرد هيتز، المفتش العام لـ «السي.آي.أيه.»، إن عمله قضى بالسير في ساحة الوغى، بينما الدخان يتلاشى، ويطلق النار على الجرحى. فتحقيقاته الداخلية كانت دؤوبة وعديمة الرحمة. إنه من المدرسة القديمة في الوكالة، وقد تم تجنيده في سنته الأخيرة في برينستون بعدما فاتحه عميد الطلاب بالأمر. وعلى ما شاءه القدر، فإن قضيته الكبرى تعلّقت برفيق صفّه في كادر التدريب المهني التابع لـ «السي.آي.أيه.» في ١٩٦٧، وهو مدمن مُنهك على الكحول من القسم السوفياتي القديم، اسمه ألدريتش هازن إيمس.

في يوم الرؤساء في ٢١ شباط/فبراير ١٩٩٤، سحب فريق من عملاء «الأف.بي.آي.» إيمس من سيارته الجاغوار وهو يغادر منزله الذي يقع في الضاحية متوجهاً إلى مقر القيادة، ووضعوا القيود في يديه، وأخذوه إلى الأبد. ذهبتُ، بعد توقيفه، لرؤيته في سجن مقاطعة ألكسندريا. كان رجلاً في الثالثة والخمسين ضربه الشيب ومضت عليه تسع سنوات وهو يتجسس لصالح السوفيات. وسيُرسل قريباً إلى سجن إفرادي مؤبد، وهو متشوّق إلى الكلام.

كان إيمس ساخطاً ومتمارضاً، حصل على وظيفة في الوكالة لأنه سبق لوالده أن عمل فيها. وهو يتحدث الروسية في شكل مقبول، ويكتب تقارير سهلة القراءة عندما يكون صاحياً، بيد أن سجلّه الشخصي كان بمثابة تدوين لتاريخ من السُّكْر وعدم الكفاية. وقد أخفق في شكل تصاعدي على مدى ١٧ عاماً. وبلغ الذروة في ١٩٨٥: وأصبح رئيس قسم الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية في مكافحة التجسس. عُرف عنه أنه مدمن ساخط على الكحول. وبرغم ذلك

سمحت له الوكالة بالوصول إلى ملفات كل جاسوس مهم، تقريباً، يعمل للولايات المتحدة في ما وراء الستار الحديدي.

أخذ يُنظر إلى «السي.آي.أيه.» باحتقار. واعتقد أنه من السخف القول إن التهديد السوفياتي للولايات المتحدة هائل الحجم ومتزايد. واستذكر تفكيره، «إنني أعرف حقيقة ما هو عليه الاتحاد السوفياتي، وأعرف ما هو الأفضل للسياسة الخارجية وللأمن القومي. وسأعمل بموجب ذلك»[(١)].

استحصل إيمس على إذن من رؤسائه للقاء ضابط من السفارة السوفياتية في واشنطن، مدعياً أن في وسعه تجنيد الروس. وقام في ١٩٨٥، لقاء خمسين ألف دولار، بتسليم ضابط الاستخبارات السوفياتي أسماء ثلاثة مواطنين سوفيات يعملون مع «السي.آي.أيه.» ثم، بعد أشهر قليلة على ذلك، أدلى بكل اسم يعرفه. وخصصت له موسكو جانباً مليوني دولار.

أوقف جواسيس أميركا داخل الاتحاد السوفياتي الواحد تلو الآخر، وحوكموا، وسُجنوا، وأُعدموا. وقال إيمس، إنه، بموتهم، أُطلقت «أجراس وصفّارات الإنذار» داخل الجهاز الخفي. «بدا الأمر كأن أضواء النيون وأنوار البحث أضيئت في جميع أنحاء الكرملين، وتألّقت من هناك وعبرت المحيط الاطلسي، قائلة، «يوجد اختراق». بيد أن قادة «السي.آي.أيه.» رفضوا التصديق أن واحداً منهم قد خانهم. فـ «الكا.جي.بي.» تلاعبت بمهارة بنظرة «السي.آي.أيه.» إلى القضية، مستخدمة الجواسيس المزدوجين والخداع. يجب أن يكون هناك جهاز تنصّت، ولا يمكن أن يكون جاسوساً من الداخل.

كذلك كشف إيمس لموسكو عن هويات المئات من رفاقه ضباط «السي.آي.أيه.»، وأعطاها بيانات دقيقة عن عملهم. وقال هيتز، «أعطيت أسماؤهم لجهاز الاستخبارات السوفياتي، بالإضافة إلى تفاصيل عن عدد من العمليات التي تنشغل بها الولايات المتحدة. بدأ هذا في ١٩٨٥، واستمر إلى ما قبل سنة أو سنتين من توقيفه، وكان إيمس جامعاً نهماً للمعلومات لتزويد ضابطه السوفياتي المحرّك بها. لذا، شكل الأمر، بعبارت استخباراتية محض، فظاعة»[(٢)].

عرفت الوكالة بوجود أمر ما دمّر عملياتها السوفياتية. لكن البدء في مواجهة الوقائع استغرقها سبع سنين. فـ «السي. آي. أيه.» عاجزة عن التحقيق حول نفسها، وعرف إيمس ذلك. وقال بابتسامة المغتبط بنفسه، «سينتهي بك الأمر مع أناس أعياهم الأمر، ويقولون لا يمكننا القيام بذلك. فهناك ألفان أو ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف شخص يجوبون المكان ويقومون بالتجسس. لا يمكنك رصد ذلك، ولا السيطرة عليه، ولا ضبطه. وهذه ربما المشكلة الأكبر لدى أي جهاز تجسس. فعليه أن يكون صغيراً. وفي اللحظة التي تصبح فيها كبيراً، فإنك إما تصبح مثل «الكا.جي.بي.»، وإما مثلنا».

انتهاك للوصية الأولى

استغرق الأمر هيتز أكثر من سنة بعد عملية التوقيف لتقدير الضرر الذي أنزله إيمس. واكتشف، في النهاية، أن «السي. آي. أيه.» ذاتها شكّلت جزءاً من خداع معدّ بكامل التفاصيل.

من بين أكثر الأوراق سرّية التي أصدرتها الوكالة في خلال الحرب الباردة، وما بعدها، ثمة تقارير «الحد الأزرق» blue border، وهي تحمل خطّاً أزرق على طرفها يعبّر عن مدى أهميتها، وتقدّر قوة صواريخ موسكو، ودباباتها، وطائراتها، واستراتيجيتها، وتكتيكاتها. وقد وقّعها مدير الاستخبارات المركزية، وأُرسلت إلى الرئيس، ووزيري الدفاع، والخارجية. وقال هيتز، «هذا ما وُجدت الوكالة للقيام به».

وعلى مدى ثماني سنوات، من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٤، وضباط «السي. آي. أيه.» الكبار المسؤولون عن هذه التقارير، يعرفون أن الاستخبارات الروسية تسيطر على البعض من مصادرهم. وأعطت الوكالة البيت الأبيض، عن دراية، معلومات تلاعبت فيها موسكو، وتقصّدت إخفاء الحقيقة. فمن المحرج كثيراً الكشف عن أنها كانت توفّر معلومات كاذبة ومضللة. وأدى ٩٥ من هذه التقارير المفسَدة، إلى التواء في الإدراكات الأميركية للتطورات العسكرية والسياسية الكبرى في موسكو. ووصل ١١ من هذه التقارير مباشرة إلى الرؤساء

ريغان، وبوش، وكلينتون. وقد حرّفت قدرة أميركا على فهم ما يجري في موسكو، وأضعفتها.

«شكّل ذلك اكتشافاً لا يُصدّق»، قال هيتز. وأصرّ أعلى مسؤول رتبة عن هذه التقارير في «السي.آي.أيه.» ـ على غرار ما فعله إيمس ـ على أنه أفضل من يعرف. وهو يعرف ما هو حقيقي وما ليس حقيقياً. ولم يعن شيئاً واقع أن الإفادة جاءت من عملاء مخادعين. «لقد اتخذ القرار بنفسه»، قال هيتز. «وهو كان في الحقيقة صادما».

قال هيتز إن «ما نتج عن هذه الحادثة برمّتها هو شعور بأنه لا يمكن الوثوق بالوكالة. وهذا، باختصار، انتهاك للوصية الأولى. ولهذا السبب، كان له مثل هذا الوقع المدمّر». فبكذبها على البيت الأبيض، نكثت الوكالة «بالثقة المقدسة»، قال هيتز، «ولا يمكن أي وكالة تجسس القيام بعملها بدون تلك الثقة».

المكان يحتاج إلى إصلاح شامل وحسب

اعترف وولسي بأن قضية إيمس كشفت عن إغفال مؤسساتي قارب الإهمال الجرمي. وقال «يكاد يمكن المرء يستنتج ليس فقط أنه ما من أحد كان يراقب، بل أيضاً ما من أحد يبالي». لكنه أعلن أنه لن يتم طرد أحد أو خفض رتبته بسبب «الإخفاق المنهجي» لـ «السي.آي.أيه.» في قضية إيمس. وبعث، بدلاً من ذلك، برسائل توبيخ إلى ستة ضباط كبار سابقين، وخمسة لا يزالون في الخدمة، بمن فيهم رئيس الجهاز الخفي تد برايس. وحدد الإخفاقات على أنها خطايا إغفال، ولامهم على ثقافة عائبة داخل «السي.آي.أيه.»، وهي تقليد من الغطرسة والإنكار.

عرض وولسي قراره على لجنة الاستخبارات في مجلس النواب بعد ظهر الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٩٤. وأعطى انطباعاً سيئاً. «يجعلك ذلك تتساءل إذا لم تعد «السي.آي.أيه.» تختلف عن أي بيروقراطية أخرى»، قال

رئيس اللجنة، دان غليكمان، الديموقراطي من كنساس، غداة خروجه من الاجتماع. «وعليك أن تتساءل إذا كانت قد فقدت دوافع مهمتها الفريدة»(٣).

أدت قضية إيمس إلى هجوم على «السي.آي.أيه.» ليس له مثيل من حيث حدّته. وقد جاء من اليمين ومن اليسار ومن الوسط المتلاشي لعالم السياسة الأميركية. وانساب الغضب الممزوج بالاستهزاء ـ تخمير قاتل ـ من البيت الأبيض والكونغرس. ووُجد إحساس قوي بأن قضية إيمس لا تشكل انحرافاً منفصلاً، بل دليل إلى بنية متسوّسة. وقال الفريق بيل أودوم، الذي أدار وكالة الأمن القومي في عهد ريغان، إن الحل يمكن في الجراحة الجذرية.

«لقُمْتُ استئصال أمعاء «السي.آي.أيه.»» قال. «فهي ملوّثة. ولو أنك اتخذت إجراءات فاترة فستبقى ملوّثة»(٤).

قطع وولسي، الذي جهد في الدفاع عن الوكالة من الخارج والداخل، عهداً للشعب الأميركي بأن من حقه أن يسأل إلى أين تتجه «السي.آي.أيه.»، إلا أنه فقد مقدرته على رسم خارطة ذلك المسار. وهكذا، أنشأ الكونغرس، في ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، لجنة حول مستقبل «السي.آي.أيه.» ومنحها السلطة لتحديد مسار جديد للوكالة في القرن الواحد والعشرين. أوجدت قضية إيمس فرصة للتغيير لا تحصل إلا مرّة في كل جيل.

«يحتاج المكان إلى إصلاح شامل وحسب»، قال السيناتور أرلن سبكتر، من بنسلفانيا، وهو جمهوري خدم على مدى ستة أعوام في لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ(٥).

احتاج الأمر إلى دفعة من رئيس الولايات المتحدة، وهي دفعة لم تأت أبداً. واستغرق انتقاء الأعضاء السبعة عشر في اللجنة ثلاثة أشهر، وأربعة أشهر لوضع الروزنامة، وخمسة أشهر قبل أن يعقد المجلس جلسته الرسمية الأولى. سيطر أعضاء من الكونغرس على اللجنة، وبصفة خاصة النائب بورتر ج. غوس، وهو نائب محافظ عن فلوريدا. أمضى غوس فترة عمل غير متميّزة مع الجهاز الخفي في الستينيات، بيد أنه كان العضو الوحيد في الكونغرس الذي يستطيع

الادعاء امتلاكه تجربة عملية في الوكالة. وأكثر أعضاء اللجنة الخارجيين تميّزاً كان بول وولفوفيتز، الذي جاء إلى الاجتماع مفتكراً أن قدرة «السي. آي. أيه.» على جمع المعلومات من خلال التجسس قد انهارت، وهو الذي سيصبح واحداً من بين أكثر الاعضاء نفوذاً في الحلقة الداخلية للرئيس المقبل.

تولّى لس أسبن قيادة اللجنة، وهو الذي فقد قبل ذلك بتسعة أشهر وظيفته كوزير للدفاع، وقد تم الاستغناء عن خدماته بسبب عدم قدرته على اتخاذ القرارات. وعيّنه كلينتون رئيسا للمجلس الاستشاري لشؤون الاستخبارات الخارجية التابع للرئيس. وطرح أسبن، المكتئب والمشوش، أسئلة كبرى بدون أجوبة واضحة: «ما الذي يعنيه ذلك كله الآن؟[٦] ما هي الأهداف الآن؟ ما الذي تحاولون القيام به؟». وعندما مات فجأة بالسكتة بعد بضعة أشهر في الخامسة والستين من العمر، كان أعضاء اللجنة قد أصيبوا بالقنوط، فهام عمله على وجهه. وتوجه أعضاء اللجنة في دزينة من الاتجاهات المختلفة، غير قادرين على التصميم على وجهة معينة.

أعلن المدير المعتمد بريت سنايدر: «هدفنا هو تسويق الاستخبارات»[٧]. إلا أن الكثيرين من الشهود أخذوا يحذّرون من أن حرفة البيع لا تشكّل المسألة، بل النتيجة.

اجتمعت اللجنة في النهاية وأخذت الشهادات. وها إن بوب غايتس، الذي سبق أن وضع لائحة طويلة من ١٧٦ تهديداً وهدفاً قبل ذلك بثلاثة أعوام، يقول إن تعدد المهمات قد طغى على عمل الوكالة. وقال ضباط مُحرّكون ورؤساء محطات، إن الجهاز الخفي يغرق تحت الطلبات الكثيرة جداً للقيام بأعمال صغيرة غير مهمة كثيراً، وبعيدة أكثر مما يجب. فلماذا يطالب البيت الأبيض بتقديم الإفادة عن نمو الحركة الإنجيلية في أميركا اللاتينية؟ فهل هذا مهم حقيقة للأمن القومي للولايات المتحدة؟ فالوكالة قادرة فقط على القيام بعدد قليل من المهمات الكبرى. وتوسّل ضباط «السي. آي. أيه.» أن قولوا لنا ماذا تريدوننا أن نفعل.

لكن ما من شيء استرعى تركيز اللجنة. لا هجوم آذار/مارس ١٩٩٥ الذي قامت به مجموعة دينية ألقت غاز السارين في أنفاق طوكيو، فقتلت ١٢ شخصاً وجرحت ٣,٧٦٩، وهو حدث يعني أن الإرهاب تحوّل من الدولة الذاتية إلى من يُكرّسون ذواتهم؛ ولا تفجير المقر الفدرالي العام لمدينة أوكلاهوما في نيسان/أبريل ١٩٩٥، الذي أدى إلى مقتل ١٦٩ شخصاً، وهو الهجوم الأكثر دموية على أرض أميركية منذ بيرل هاربر؛ ولا اكتشاف مؤامرة لمجاهدين مسلمين لتفجير دزينة من طائرات الركاب فوق المحيط الهادئ، وإسقاط طائرة مخطوفة على مقر «السي.آي.أيه.»؛ ولا التحذير الذي أطلقه ضابط في «السي.آي.أيه.» من أن الولايات المتحدة ستواجه، في يوم من الأيام، «الإرهاب الجوي»: طائرة تسقط على هدف لقصفه؛ ولا واقع أن ما يصل مجموعه إلى ثلاثة أشخاص في مجتمع الاستخبارات الأميركية يتمتعون بالمقدرة اللغوية على فهم المسلمين المتحمّسين الذين يتحدثون مع بعضهم البعض؛ ولا إدراك أن مقدرة «السي.آي.أيه.» على تحليل الملعومات قد أُغرقت في سيل من الرسائل الالكترونية، والحواسيب الشخصية، والهواتف الخلوية، والترميز المتوفر علناً للاتصالات الخاصة؛ ولا الإدراك المتنامي بأن «السي.آي.أيه.» في حالة انهيار.

لم يملك التقرير الذي استغرق وضعه ١٧ شهراً، لا الوزن ولا الوقع. وقال لوك جونسون، العضو في فريق اللجنة، إن «مكافحة الإرهاب أحيت القليل من الانتباه[٨]. ولم يتم أبداً تحديد حدود العمل الخفي؛ ولم يتم التعاطي كثيراً مع الضعف في عملية المحاسبة». ولم يقبض أي من الذين قرأوه، الحجج المطيّبة للخاطر بأنه يمكن بعض الدوزنة الدقيقة ان يصلح الآلة.

كانت اللجنة تنجز تقريرها، حين تم اكتتاب ما مجموعه ٢٥ شخصاً في مركز «السي.آي.أيه.» للتدريب المهني للشبان المجندين الجدد. وبلغت قدرة الوكالة على اجتذاب المهارات أدنى مستوى لها في جميع الأزمان. وكذلك كانت سمعتها. فقضية إيمس حوّلت مستقبل «السي.آي.أيه.» إلى ضحية لتاريخها.

وقال فرد هيتز في حينه، إن الجهاز الخفي «شعر بقلق رهيب حول ما اعتبره الأعداد غير الكافية للأشخاص الموجودين على خط الجبهة[٩]. وقد شكّل الحصول على الأناس المناسبين ووضعهم في المكان المناسب، مشكلة أخرى تتطلب حلاً. حصلنا على أشخاص جيدين، لكن ليس على ما يكفي، وليس على الكفاية منهم في الأمكنة التي نحتاج إليهم فيها. وإذا لم يقدم رئيس الولايات المتحدة والكونغرس المساعدة، فان الأمر الوحيد الذي سيعيد جمعنا معاً، سيفعل متأخراً جداً. وقد يكون حدثاً رهيباً ما، يحصل في مكان ما من العالم، وربما في بلدنا نحن، سيجعلنا نستفيق، كما جعلتنا بيرل هاربور نستيقظ ونقول: لماذا لم نعرف يا ترى؟».

٤٦

نواجه مشكلة

سجّل جيمس وولسي، في نهاية ١٩٩٤، خطاباً وداعياً لجنوده في «السي.آي.أيه.»، وبعث مع رسول بكتاب استقالته إلى البيت الأبيض. غادر المدينة على عجل، بينما بحث بيل كلينتون في الحكومة عن شخص مستعد وقادر على تولي الوظيفة.

«سألني الرئيس إذا كنت مهتماً بأن أصبح مديراً للاستخبارات المركزية»، قال نائب وزير الدفاع جون دوتش. «أوضحت له جيداً أنني لست مهتما. فقد شاهدت صديقي جيم وولسي يعاني صعوبات جمة كمدير. ولم أعتقد أن لدي أسباباً تجعلني أظن أنه في وسعي القيام بما هو أفضل»[١].

«حسناً»، أجاب كلينتون، «جد لي شخصاً يستطع». انقضت ستة أسابيع قبل أن يتدبّر دوتش إقناع جنرال متقاعد من سلاح الجو يدعى مايك كارنس بتولي الوظيفة. مرّت ستة أسابيع أخرى قبل أن تترنح التسمية، وتتهاوى، وتنهار.

«فرض الرئيس عليّ فكرة أن علي حقيقة القيام بذلك»، قال دوتش. وهكذا بدأت أمثولة قصيرة ومريرة في العلم السياسي للاستخبارات الأميركية. كانت لدوتش أسباب جيدة للخوف من التكليف. فقد أمضى العقود الثلاثة الأخيرة داخل حلقات الأمن القومي، وحواليها، وعرف أنه ما من مدير للاستخبارات المركزية نجح أبداً في تحقيق ميثاقه: العمل معاً كرئيس للاستخبارات الأميركية وكرئيس تنفيذي لـ «السي.آي.أيه.» فطلب، وحصل على رتبة وزارية، على غرار ما فعله كايسي، لضمان بعض الوصول إلى الرئيس. وعلّق آمالاً بأنه قد

يصبح وزيراً للدفاع في حال أعيد انتخاب كلينتون في ١٩٩٦. إلا أنه أدرك أن «السي.آي.أيه.» في حالة من الاضطراب الذي لا يمكن إصلاحه في سنة أو سنتين.

كتب جون غانتر، أحد قدامى محللي «السي.آي.أيه.»، في أول أيام تولي دوتش منصبه، أن «الوكالة، المبتلية بقيادة ضعيفة، تهيم على وجهها. وهي مصابة بوعكة محسوسة. فشقاء الموظفين الموجودين في أعلى مستويات الإدارة كبير جداً. كذلك، فإن كبار الضباط يتخبطون أيضاً»[٢]. كانت الوكالة بقيادة «فئة من الضباط الكبار مجرّدة بدرجة كبيرة من المهارات القيادية الحقيقية، وغير قادرة في شكل كبير على القيام بعمل خلاّق مستقل». وكتب جنتري، أنه مع اكتفاء كلينتون الظاهر بالحصول على استخباراته من «السي.أن.أن.»، «لم يبق لـ «السي.آي.أيه.» أحد ترضي رغباته».

أجرى دوتش، بوصفه نائباً لوزير الدفاع، وعلى مدى سنة، مراجعة للاستخبارات الأميركية مع وولسي، محاولاً إحلال هدنة في الحروب التي لا تنتهي بين البنتاغون و«السي.آي.أيه.» حول المال والسلطة. وكانا ينتقيان مسألة ـ لنقل انتشار الأسلحة النووية ـ ويقرران في آخر النهار المقدار الإضافي الذي يجب القيام به في شأنها. مكافحة التجسس؟ المزيد بالتأكيد، في مرحلة ما بعد إيمس. الاستخبارات البشرية؟ المزيد من الجواسيس. تحليل أفضل؟ أمر حاسم على نحو مطلق. وتبيّن، في نهاية المراجعة، وجود عدد لا يُحصى من الحاجات، وكمّية محدودة من المال، والعنصر البشري لمواجهتها. ولا يمكن إصلاح الاستخبارات الأميركية من داخل، ولن يتم بالتأكيد إصلاحها من الخارج.

كان كل من دوتش وولسي مصاباً بعارض «الأنا» الشهير: أنا الفتى الأذكى في المكان. والفارق هو أن دوتش غالباً ما كان الأذكى. سبق أن كان عميد العلوم ورئيساً للكلية في جامعة ماساتشوستس للتكنولوجيا؛ واختصاصه الكيمياء الفيزيائية، علم تحويل المادة على المستويات الجزئية، والذرّية، وما دون الذرّية. وفي وسعه أن يشرح كيفية تحوّل كتلة من الفحم الحجري إلى ماسة.

وقد خطط لتحويل «السي.آي.أيه.» بموجب هذا النوع من الضغط. وتعهد في جلسات الاستماع لتثبيته، بتغيير ثقافة الجهاز الخفي، «تغييراً حتى العظم»، إلا أنه لم يمتلك أي فكرة واضحة عن الطريقة. وعلى غرار أسلافه، توجه للتعلّم بين قدمي ريتشارد هيلمس.

حمل هيملس، وقد بات الآن في الثانية والثمانين، نفسه ومشى مشية نبيل (لورد) بريطاني. وبعد وقت قليل على جلسة التخطيط الاستراتيجي التي عقدها، تناولت الغداء معه في مطعم يبعد مسافة كتلتي أبنية عن البيت الأبيض. ارتشف هيملس بيرة الظهر، جالساً تحت مراوح تدور ببطء، واعترف بأن دوتش ينسحب غريزياً من الجهاز الخفي: «إذ إنه لا يرى فيه شيئاً إلا المشاكل. وهو ليس أول من ينأى بنفسه. اضطر إلى العمل على إقناعهم بأنه من ضمن الفريق»[٣].

في أيار/مايو ١٩٩٥، ولمّا تمض أيام قليلة على مجيء دوتش للعمل في مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، قدّم إليه قادة الجهاز الخفي، الدائمو الدراية بالحاجة إلى توظيف مدير جديد، منشوراً صقيلاً بعنوان «إدارة جديدة، مستقبل جديد». وهو كناية عن لائحة بالأهداف العشرة الرئيسة: الأسلحة الذرية المتفلتة، الإرهاب، الأصولية الإسلامية، دعم العمليات العسكرية، اقتصادات الجملة، إيران، العراق، كوريا الشمالية، روسيا، الصين. عرف المدير الجديد وجواسيسه جميعهم، أن البيت الأبيض أراد استخدام «السي.آي.أيه.» بمثابة انترنت خاصة، كقاعدة بيانات حول جميع الأمور من الغابات المطرية الاستوائية، إلى مزوري الأقراص المدمجة، وأن انتباهها يحتاج إلى تركيز أكثر حدّة. «المشكلة هي في وجود الكثير مما يجب القيام به»، قال دوتش. «فأنت تتلقى الطلبات: ما الذي سيحصل في إندونيسيا؟ ما الذي سيحدث في السودان؟ ما الذي سيحدث في الشرق الأوسط؟»، قال الجواسيس إنه يستحيل تلبية دعاء التغطية العالمية. فدعونا نركّز على بضعة أهداف عسيرة. ولم يتمكن دوتش من تسوية الجدال.

عمل، بدلاً من ذلك، طوال خمسة أشهر، في محاولة للإمساك بالجهاز

الخفي. طار إلى محطات «السي.آي.أيه.» حول العالم، مستمعاً، سائلاً، ومتمعّناً في ما عليه التعامل معه. وقال إنه وجد «معنويات ضعيفة للغاية». وصدمه عدم قدرة جواسيسه على إيجاد حل لمشاكلهم الخاصة. وجدهم في حالة تدنو من الذعر.

شبّههم بالجيش الأميركي في فيتنام. ففي ذلك الوقت، على ما قاله دوتش في أيلول/سبتمبر ١٩٩٥، تطلع الكثيرون من الضباط الملازمين والمقدمين الفطنين إلى بعضهم البعض وقالوا: «نحن في مشكلة. وعلينا أن نتغيّر. علينا تصوّر سبل للقيام بهذا بطريقة مختلفة. وعلينا إما أن نغادر وإما أن نغيّر المنظومة. والذين بقوا قاموا فعلاً بتغيير المنظومة». أراد دوتش من الجهاز الخفي أن يحلّ مشاكله بنفسه، لكنه وجد أناسه عاجزين عن التغيير. وقال عن جواسيسه «إنهم بالتأكيد، بالمقارنة مع ضباط الجيش، غير كفوئين، ولا متفهمين لماهية دورهم النسبي أو لمسؤولياتهم». فالجهاز الخفي «غير واثق من اضطلاعه بنشاطاته اليومية».

أخذت أزمة الثقة أشكالاً متعددة. بعضها تمّ إظهاره في عمليات مُضللة ارتدّت سلباً. وشكّل بعضها الآخر استمراراً للإخفاقات في جمع المعلومات والتحليل، بينما كان الجزء الآخر فجوات تقطع الأنفاس في الحكم على الأمور.

في ١٣ تموز/يوليو ١٩٩٥، في البوسنة، بينما أفادت الصحافة العالمية عن عمليات قتل جماعية للمسلمين على أيدي الصرب، أرسل قمر تجسس صور سجناء يحرسهم مسلحون في حقول خارج مدينة سربرينيتشا. لم ينظر أحد في «السي.آي.أيه.» إلى تلك الصورة على مدى ثلاثة أسابيع. لم يعتقد أحد أن الصرب سيستولون على المدينة. لم يتوقعوا حصول المجزرة. لم يبال أحد بمجموعات حقوق الانسان، وبالأمم المتحدة، أو بالصحافة. لم تملك «السي.آي.أيه.» ضباطاً في الميدان لإثبات ما يفيدون عنه. وهي لم تحصل على معلومات عن أي فظاعات. فقد تلقت الأوامر بتكريس نفسها لمساندة العلميات العسكرية في المنطقة، ولم تملك لا وقتاً ولا مهارة تخصصهما للتحقق من أخبار اللاجئين المرعوبين.

بعد أسبوعين على الروايات الصحافية الأولى للمجزرة، أرسلت «السي.آي.أيه.» طائرة «يو ٢» فوق سربرينيتشا؛ سجّلت الطائرة صوراً لقبور جماعية حُفرت حديثا في الحقول التي كان فيها السجناء. وصلت هذه الصور إلى «السي.آي.أيه.» على متن طائرة بريد عسكري عادية بعد ذلك بثلاثة أيام. وبعد ثلاثة أيام أخرى، طابق أحد محللي الصور في «السي.آي.أيه.» موقع صورة القمر الصناعي الأولى للسجناء في الحقل مع الصورة الثانية «لليو ٢» في مواقع القبور. وحط التحليل في البيت الأبيض في الرابع من آب/أغسطس ١٩٩٥.

وهكذا، أفادت «السي.آي.أيه.»، بعد ثلاثة أسابيع على الواقعة، عن أكبر عملية قتل لمدنيين في أوروبا منذ معسكرات الموت الهتلرية قبل ذلك بخمسين عاماً. مات ثمانية آلاف شخص، وفات الأمر «السي.آي.أيه.»[٤].

كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، في الطرف الآخر من أوروبا، قد قامت بعملية واسعة في محاولة لسرقة موقف فرنسا التفاوضي حول محادثات التجارة[٥]. فالبيت الأبيض، الذي أسرته فكرة أن التجارة الحرة تشكّل القوة الموجّهة للسياسة الخارجية الأميركية، قد فاقم من مصائب «السي.آي.أيه.» بطلبه المزيد والمزيد من الاستخبارات الاقتصادية. وأخذت محطة باريس تلاحق أسراراً ذات أهمية ضئيلة للأمن القومي للولايات المتحدة، مثل عدد الأفلام الأميركية التي ستعرض على الشاشات الفرنسية. شنت وزارة الداخلية الفرنسية عملية مكافحة تجسس تضمّنت إغواء ضابطة في «السي.آي.أيه.» تعمل تحت غطاء غير رسمي بوصفها امرأة أعمال. وحصلت أحاديث الوسادة، وتم البوح بأسرار. طردت الحكومة علناً رئيس محطة باريس، ديك هولم، وهو بطل حقيقي من أبطال الجهاز الخفي سبق أن قاد عمليات ميدانية في لاوس، ونجا من حادث تحطم طائرة في الكونغو قبل ذلك بثلاثين عاماً، وكان يقوم بمهمته الأخيرة قبل التقاعد. وطردت فرنسا معه أربعة ضباط «السي.آي.أيه.» سيئي الحظ ومذلولين.

قال دوتش إنها عملية فاشلة أخرى، وإحراج علني آخر للجهاز الخفي،

و«مثال عام آخر لوضع أصبحت فيه قدرته على القيام بوظيفته كما تتطلبه معاييره الخاصة، موضع مساءلة». وسأل ضباطه مراراً وتكراراً: «ما هي المعايير المهنية لقيامكم بمهمتكم الصعبة جداً؟ وهل تقومون بذلك كما يجب في جميع أنحاء العالم». وجاء جوابه عن هذا السؤال الأخير بـ «لا» مدوية.

سوء نية واضح

شكّلت المشاكل في محطة باريس إزعاجاً عابراً بالمقارنة مع ما حصل في قسم أميركا اللاتينية للجهاز الخفي. شكّل هذا القسم عالماً منفصلاً داخل «السي.آي.أيه.»، يسيطر عليه قدامى الحرب ضد فيدل كاسترو، وهم عناصر كانت لهم مجموعتهم الخاصة من القواعد والأنظمة[٦]. ومنذ ١٩٨٧، شُرع في اتهام رؤساء محطات في كوستاريكا، والسلفادور، والبيرو، وفنيزويلا، وجامايكا، بالكذب على رؤسائهم، وبالتحرّش الجنسي بالزملاء، وبسرقة الأموال، وبتهديد مرؤوسيهم بالسلاح، وبالقيام بعمليات مكافحة للمخدرات انتهى فيها طن من الكوكايين في شوارع فلوريدا، وبالقيام بحسابات مشوشة تتضمن مليون دولار من التمويلات الحكومية. وهي قد شكّلت القسم الوحيد في الجهاز الخفي الذي تمت فيه، بشكل منتظم، تنحية رؤساء محطات عن مناصبهم بسبب سوء السلوك. وتأتت عزلة القسم، جزئياً، من السياسات الداخلية للدول التي قام بتغطيتها. ففي خلال الحرب الباردة، عملت «السي.آي.أيه.» مع أنظمة عسكرية ضد حركات التمرد اليسارية في أميركا اللاتينية. وبات يصعب كسر الروابط القديمة.

في غواتيمالا، مات مئتا ألف مدني في خلال أربعين عاماً من الصراع في أعقاب انقلاب ١٩٥٤ الذي قامت به «السي.آي.أيه.» على الرئيس المنتخب. وحصل ما بين ٩٠ و٩٦ في المئة من عمليات القتل هذه على يد الجيش الغواتيمالي. وفي ١٩٩٤، كان ضباط «السي.آي.أيه.» لا يزالون يبذلون أقصى جهدهم لإخفاء طبيعة علاقاتهم الوثيقة بالجيش، ولطي تقارير تفيد بأن ضباطاً غواتيماليين يتلقون معاشات منها كانوا قتلة، وجلاّدين، ولصوصاً. وانتهك هذا

الإخفاء اختباراً توازنياً بدأه وولسي في ١٩٩٤. وكان يُفترض بهذا الاختبار، الذي دعي «التثبّت من العميل»، أن يوازن بين نوعية معلومات عميل ما في مقابل سلوكه الغادر.

قال المفتّش العام فريد هيتز، «أنت لا تريد أن تصبح في وضع من التعاطي مع مسؤولين عسكريين أو مسؤولين في تلك الحكومة يعرف الجميع أن أيديهم ملطّخة بالدماء، ما لم يكن ثمة هدف استخباراتي مشروع لخدمته. إلا إذا كان ذلك الشخص يعرف بوجود مخبأ جُمعت فيه أسلحة بيولوجية، وسيتم بيعها في السوق السوداء، وهو مصدرنا الوحيد لذلك. وإذا اشتهر هذا الشخص بذبحه أناساً، وانتهاكه القانون، عندها تجب موازنة واقع اتصال «السي.آي.أيه.» به في مقابل المعلومة التي يمكنه أن يقدّمها. فإذا كانت المعلومة تشكّل مفتاحاً لحل اللغز المقدّس، فسنقوم بالمخاطرة. إلا أنه علينا القيام بذلك بعينين مفتوحتين، وليس استمراراً لحالة راهنة أو زخم ما».

بلغت المشكلة حد الغليان عندما تورّط مقدّم غواتيمالي، موجود على جدول معاشات «السي.آي.أيه.»، في طمس عمليتي قتل لصاحب نزل أميركي، ولمقاتل عصابات غواتيمالي متزوج بمحامية أميركية. ودفع الاحتجاج الصارخ على قتل صاحب النزل، بإدارة بوش إلى قطع مساعدة بملايين الدولارات عن غواتيمالا، بيد أن الوكالة واصلت دعمها المالي للاستخبارات العسكرية الغواتيمالية. «بلغ حجم محطة «السي.آي.أيه.» في غواتيمالا نحو ضعفي الحجم الذي يجب أن تكون عليه»[٧]، قال توماس ستروك، السفير الأميركي في غواتيمالا من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٢، وبرغم ذلك، بدا أنها لا تستطيع أن تفرض على نفسها الإفادة بدقة عن القضية. أغفل رئيس المحطة، فريد بروغر، إبلاغ السفير ستروك، أن المقدّم، وهو المشتبه فيه الأول، عميل لـ «السي.آي.أيه.» «لم يكتفوا فقط بعدم إبلاغي»، قال السفير ستروك، «بل لم يبلغوا رئيسي وزير الخارجية، أو الكونغرس. وهذا غباء».

تحوّلت الحماقة، في ١٩٩٤، إلى سوء نية عندما أصبح دان دوناهيو رئيساً للمحطة. وفي الوقت الذي كانت فيه السفيرة الأميركية الجديدة، ماريلين ماك

آفي، تبشّر بحقوق الإنسان والعدالة، بقيت «السي.آي.أيه.» وفيّة لجهاز الاستخبارات الغواتيمالي القاتل.

انقسمت السفارة إلى قسمين. واستذكرت السفيرة ماك آفي، «جاء رئيس المحطة إلى مكتبي، وأراني قصاصة معلومات، من مصدر غواتيمالي، توحي بأنني أقيم علاقة غرامية مع سكرتيرتي، واسمها كارول مورفي»(٨). فقد دسّ الجيش الغواتيمالي أجهزة تنصت في غرفة نوم السفيرة، وسجّل مناغاتها التحببية لمورفي. ونشروا الخبر بأن السفيرة سحاقية. أرسلت محطة «السي.آي.أيه.» قصاصة الاستخبارات هذه ـ التي عُرفت لاحقا بـ «مذكّرة مورفي» ـ إلى واشنطن، حيث تم توزيعها على نطاق واسع. «بعثت «السي.آي.أيه.» بهذا التقرير إلى تلة الكابيتول»، قالت السفيرة ماك آفي. «إنه سوء نية واضح. فـ «السي.آي.أيه.» شهّرت بسفيرة أميركية من خلال القنوات الخلفية».

كانت السفيرة شخصاً محافظاً، من عائلة محافظة، ولم تكن تتشارك السرير مع سكرتيرتها. فمورفي هو اسم كلبها الصغير الأسود، وعمره سنتان. وأداة التنصت في غرفتها سجّلت مداعبتها كلبها.

أظهرت محطة «السي.آي.أيه.» موالفة أقوى لأصدقائها في الجيش الغواتيمالي مما أظهرته للسفيرة الأميركية. «حصل انقسام بين الاستخبارات والسياسة»، قالت السفيرة ماك آفي. «وهذا ما يخيفني».

أخاف ذلك دوتش أيضاً. ففي ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٥، قرابة نهاية شهره الخامس في مركزه، ذهب دوتش إلى الفقّاعة ـ الذي شكّل في ما سبق مدرّجاً مسرحياً مستقبلياً على مقربة من مدخل «السي.آي.أيه.» ـ ليعطي بعض الأخبار السيئة للجهاز الخفي. فقد تمعن مجلس مراجعة داخلية في «السي.آي.أيه.» بالدليل في غواتيمالا، وأبلغ دوتش بأن عليه تنحية تيري وارد، رئيس القسم الأميركي اللاتيني في الجهاز الخفي من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٣، وكان يومها يعمل رئيساً لمحطة سويسرا. وقال إن عليه أن ينحّي أيضاً الرئيس السابق لمحطة غواتيمالا، ويحرص على التأكد من أنه لن يعمل رئيس محطة من جديد.

قال دوتش بوجود «قصور هائل في الطريقة التي تقوم فيها الوكالة بأعمالها» في غواتيمالا. وتقع المشكلة ـ أو، بحسب تعبيره، «غياب الصراحة» ـ بين رئيس المحطة والسفير الأميركي، وبين المحطة والقسم الأميركي اللاتيني، وبين القسم ومقر القيادة، وأخيراً بين الوكالة والكونغرس.

من النادر ـ والنادر جداً ـ أن يتم طرد أي كان من الجهاز الخفي، إلا أن دوتش قال إنه سيفعل تماماً ما أوصى به مجلس المراجعة. لم يكن لإعلان الفقّاعة وقع جيّد. فمئات الضباط الذين اجتمعوا هناك أصيبوا بغضب ضار. فقرار دوتش كان بالنسبة إليهم تأديباً سياسياً خانقاً. أبلغهم المدير بأن عليهم الاستمرار في الخروج إلى العالم وركوب المخاطر باسم الأمن القومي. ارتفعت همهمة خفيضة من آخر الفقّاعة، ضحكة مرّة تعني: نعم. بالتأكيد. شكّلت تلك اللحظة التي غسل فيها المدير والجهاز الخفي أيديهما من بعضهما البعض. وبات مصيره محتوماً في «السي.آي.أيه.».

نريد القيام بالأمر على الوجه الصحيح

باتت الهوة غير قابلة للردم. قرر دوتش تسليم حقيبة المشاكل في الجهاز الخفي إلى الرقم الثاني من بعده؛ ـ جورج تينيت، نائب مدير الاستخبارات المركزية. فتينيت، الذي بات الآن في الثانية والأربعين من العمر، ولا يزال المساعد الدؤوب والمخلص، قد أمضى خمس سنوات مديراً منتدباً للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، وسنتين بوصفه الرجل الطليعي لشؤون الاستخبارات في مجلس الأمن القومي. امتلك إدراكاً حيوياً في إدارة علاقات «السي.آي.أيه.» الكأداء مع الكونغرس والبيت الأبيض. وهو سرعان ما توصل إلى النظر إلى الجهاز الخفي بطريقة مختلفة عن دوتش، ليس بوصفه مشكلة تستوجب الحل، بل بوصفه قضية يجب الانتصار لها. وسيبذل تينيت قصارى جهده لقيادتهم.

قال تينيت إنه أبلغ رؤساء الجهاز الخفي، أن «دعوني أشرح لكم أمور الحياة. لدينا هنا الأمور العشرة أو الخمسة عشر التي لا يمكننا القبول بالفشل

حيالها، والتي من شأنها تقديم مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة. هذا ما نريدكم أن تكرسوا له أموالكم، وأناسكم، وتدريباتكم اللغوية، ومهاراتكم. نريد القيام بهذا على الوجه الصحيح»[٩].

سرعان ما ارتفع الإرهاب إلى رأس قائمة تينيت. ففي خريف ١٩٩٥، شرع سيل من التقارير المتوعدة بالوصول من محطة «السي.آي.أيه.» في السودان إلى مقر قيادة الوكالة، وإلى قيصر مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، ريتشارد كلارك. وهي ترتكز على الكلام الوحيد لأحد العملاء الذين جنّدتهم «السي.آي.أيه.» وقد حذّر من هجوم وشيك على المحطة، والسفارة الأميركية، وعلى عضو بارز في إدارة كلينتون.

يستذكر توني ليك، مستشار الرئيس للأمن القومي أن «جاء إليّ ديك كلارك وقال، سيقومون بنسفك»[١٠]. من سيقوم بنسفي؟ سأل ليك. ربما الإيرانيون، أجاب كلارك، وربما السودانيون. وقال «وهكذا ذهبت للإقامة في منزل آمن، وأخذت أقود سيارة مضادة للرصاص للمجيء إلى العمل. لم يتمكنوا أبداً من إثبات أن الأمر حقيقي. وأنا أشك في كونه حقيقياً».

شكّل السودان، في تلك الأيام، مركز تجمّع لمتهمين بالإرهاب ليست لهم جنسية معيّنة، ومن بينهم أسامة بن لادن. عرفته الوكالة أوّلاً في أواخر الثمانينيات بوصفه سعودياً ثريّاً يدعم المتمرّدين الأفغان أنفسهم الذين تسلّحهم الوكالة في قتالهم ضد الطغاة السوفيات. عُرف عنه مموّلاً لأناس يمتلكون رؤى كبيرة في مهاجمة أعداء الإسلام. لم تجمع «السي.آي.أيه.» معاً أبداً أجزاء المعلومات الاستخبارية وشظاياها وقطعها حول بن لادن وشبكته في تقرير متماسك ترفعه إلى البيت الأبيض. ولم يتم نشر تقدير رسمي للتهديد الإرهابي الذي يشكّله إلا بعدما أصبح العالم بأسره يعرف اسمه.

فقد عاد بن لادن إلى السعودية ليندّد بوجود القوات الأميركية في ما بعد حرب الخليج في ١٩٩١. طردته الحكومة السعودية، واستقرّ في السودان. كان رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في السودان، كوفر بلاك، عميلاً من المدرسة

القديمة يمتلك شجاعة هائلة ومكراً ساعد على مطاردة الإرهابي المنهك كليّاً والمعروف بكارلوس ابن آوى. اقتفى بلاك، بأفضل ما أمكنه، تحرّكات بن لادن في السودان ودوافعه. وأنشأت «السي.آي.أيه.»، في ١٩٩٦، وحدة لمكافحة الإرهاب ـ محطّة بن لادن ـ مؤلفة من دزينة من الأشخاص المتكرّسين كليّاً للمطارَد السعودي. وحصل شعور بأنه ربما يأخذ في استهداف أهداف أميركية في الخارج.

إلا أن «السي.آي.أيه.»، التي لم تلتفت إلى التحذيرات من عميلها المجنّد، أوقفت في شباط/فبراير ١٩٩٦ عملياتها في السودان، وأعمت نفسها عن استخبارات حديثة حول هدفها الجديد. أُقفلت المحطة والسفارة، وانتقل عناصرهما إلى كينيا. واتخذ هذا القرار برغم الاعتراضات القوية للسفير الأميركي، تيموثي كارني، وهو يتمتع بالانضباط العسكري، بالإضافة إلى الإدراك الدبلوماسي. حاجج بأن انسحاب الولايات المتحدة من السودان هو خطأ خطير. وشكك في تحذيرات «السي.آي.أيه.» في شأن هجوم وشيك، وأثبت أنه على حق. واكتُشف لاحقاً أن العميل الذي أثار الإنذار ليس إلا مُلفّقاً، وسحبت «السي.آي.أيه.» رسمياً نحو مئة تقرير تستند إلى معلوماته.

بعد فترة قصيرة على ذلك، انتقل بن لادن إلى أفغانستان. ورأى رئيس محطة بن لادن، مايك شوير، في هذا فرصة هائلة. فقد استأنفت «السي.آي.أيه.» اتصالاتها بشبكة من المنفيين الأفغان في المناطق القبلية في شمال غرب باكستان. فالقبليون، كما دعتهم «السي.آي.أيه.»، يساعدون في مطاردة مير أمل كنسي، المسلّح الذي قتل ضابطين من الوكالة في خارجَ مقرها.

وأحيا ذلك الأمل بأنهم سيتمكنون، في يوم من الأيام، من اختطاف بن لادن أو قتله. إلا أن على هذا اليوم أن ينتظر. فـ «السي.آي.أيه.» استهدفت رجلا آخر في تلك اللحظة.

كان رئيس قسم الشرق الأدنى في الجهاز الخفي، ستيفن ريشتر، يعمل منذ

عامين على خطة لدعم انقلاب عسكري على صدام حسين. فالأمر جاء من الرئيس كلينتون، وهو الثالث من نوعه يصدر عن البيت الأبيض لـ «السي.آي.أيه.» في خمس سنين. التقى فريق من ضباط «السي.آي.أيه.»، في الأردن، بمحمد عبد الله شواني، وهو قائد سابق للقوات الخاصة العراقية. وفي لندن، تآمرت الوكالة مع منفي عراقي يدعى أياد علاوي، يرأس شبكة من ضباط الجيش العراقي المتمردين ومن قادة حزب البعث[١١]. وقد ساندته «السي.آي.أيه.» بالمال والسلاح. وفي شمال العراق، جمعت «السي.آي.أيه.» زعماء قبائل الأكراد الذين ليست لهم دولة، مستأنفة علاقة غرامية قديمة ومُتكدّرة[١٢].

لم يمكن جمع أي من هذه القوى المختلفة والمشاكسة برغم قيام «السي.آي.أيه.» ببذل أفضل جهودها. واستثمرت الوكالة ملايين عدّة في محاولة تجنيد عناصر من جيش صدام ومن دوائره السياسية، على أمل أن يتمرّدوا. إلا أن صدام وجواسيسه اخترقوا المؤامرة وخرّبوها. وشرع صدام، في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٩٦، في توقيف مئتي ضابط على الأقل في بغداد وحولها. وأعدم ما لا يقل عن ثمانين منهم، بمن فيهم ابنا اللواء شواني.

«قضية صدّام مثيرة للاهتمام»، قال مارك لونتال، الذي كان مديراً منتدباً للجنة الاستخبارات في مجلس النواب، ومحللاً كبيراً في «السي.آي.أيه.»، بعد انهيار الانقلاب. «حسناً، إننا نتخلص إذاً من صدام حسين، وهذا أمر جيّد. لكن على من نحصل من بعده؟ من هو رَجلنا في العراق؟ من المرجّح لأي شخص نضعه في السلطة في العراق أن يتمتع بسلطة البرغوث. وهي، إذاً، حالة حيث يطلب منك صانعو السياسة بالقيام بأمر ما. وهذا الإلحاح على القيام بعمل ما يعبّر فعلاً عن إحباطهم»[١٣]. وقال إنهم أخفقوا في رؤية إنه «ليست لـ «السي.آي.أيه.» من طريقة للتعامل مع صدام حسين. والمشكلة في العملية هي في عدم وجود عراقيين موثوقين يتم التعاطي معهم. والعراقيون الموثوقون الذين تنظر إليهم لا وصول لهم للقيام بما تريدهم القيام به. وهكذا، شكّلت

العملية فشلاً. فهي غير قابلة للتنفيذ، إلا أنه يصعب كثيراً على عميل أن يقول «سيدي الرئيس، لا يمكننا القيام بذلك». وينتهي بك المطاف بالتالي في عملية لربما لم يكن يجدر الشروع بها في المقام الأول».

لا مفرّ من الإخفاق

أثار دوتش استياء كلينتون بإبلاغه الكونغرس بأن «السي.آي.أيه.» قد لا تجد أبداً حلاً لمشكلة صدام حسين. وانتهت ١٨ شهراً من توليه إدارة الاستخبارات المركزية بمرارة. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦، قام كلينتون، بعد إعادة انتخابه، بصرف دوتش من الحكومة، واستنجد بمستشاره للأمن القومي، توني ليك، لتولي الوظيفة التي لا يشتهيها سوى القلة القليلة.

وفكّر ليك مليّا في أن «ذلك كان ليشكّل تحدّياً كبيراً. ما جال في ذهني هو دفع الجانب التحليلي للقيام باستخبارات ـ في كل من مصادرها ونتاجها ـ على نحو يتلاءم مع العالم في منتصف التسعينيات. فما كنّا نحصل عليه في الغالب، هو تحليل ليلي للأخبار»(١٤).

إلا أنه لم يتم تثبيت ليك. فقد قرر الرئيس الجمهوري للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، ريتشارد شلبي من ألاباما، أن يجعل منه «فشة خلق» لكل ما وجده المحافظون خاطئاً في تسيير إدارة كلينتون للسياسة الخارجية. فقد تبخّر مظهر ائتلاف الحزبين الذي حافظت عليه لجان الاستخبارات في القسم الأكبر من السنوات العشرين الماضية. كذلك، وُجد اتجاه باطني معارض لليك من داخل الجهاز الخفي. وفحوى الرسالة هو: لا ترسلوا إلينا المزيد من الخارجيين.

ولاحظ ليك أن الجميع، بالنسبة إلى «السي.آي.أيه.»، هم من الخارجيين.

لم يشبه الأمر حتى جلسة استماع عادلة. وانسحب ليك في ١٧ آذار/مارس ١٩٩٧، غاضباً، قائلاً للرئيس إنه لن يمضي ثلاثة أشهر إضافية مثل «دبّ راقص في سيرك سياسي»(١٥). وهكذا، تم تحويل كأس السمّ إلى جورج تينيت:

الخيار الوحيد المتبقي. وكان تينيت يدير الوكالة بالفعل بوصفه مديراً فيها. وسيصبح خامس مدير للاستخبارات المركزية في ستة أعوام.

«تصعب المغالاة في وصف الاضطراب والتصدّع اللذين أحدثهما هذا القدر من التغيير على مستوى القمة»، على حد قول عضو «السي.آي.أيه.» فرد هيتز[١٦]. «تصعب المبالغة في وقعه على المعنويات، بالنسبة إلى قدرته التدميرية. ويتملكك شعور: من هو المسؤول هنا؟ ألا يمكن أحداً هناك أن يلعب اللعبة؟ ألا يفهمون ما نحن في شأنه؟ ألا يدركون ماهية مهمتنا؟».

عرف تينيت ماهية المهمة: إنها إنقاذ «السي.آي.أيه.» إلا أن الوكالة قاربت نهاية القرن الأميركي، وقد أحرقتها منظومة موظفين اختُرعت في سنوات ١٨٨٠، وأداة توصيل للمعلومات تشبه خطوط التجميع في سنوات ١٩٢٠، وبيروقراطية تعود إلى سنوات ١٩٥٠. وهي قامت بتحريك الناس والأموال بطرائق أعادت إلى الذاكرة خطط ستالين الخمسية. وأخذت قدرتها على جمع الأسرار وتحليلها تتهاوى[١٧] بينما انفجر عصر المعلومات وجعلت الإنترنت من الترميز ـ تحويل اللغة إلى رموز ـ أداة متوفرة للجميع. وأصبح الجهاز الخفي المكان حيث «النجاحات العظيمة نادرة والإخفاق روتين»[١٨]، على ما لاحظه تقرير للجنة الاستخبارات في مجلس النواب.

مرّة أخرى احتلّت هذه الإخفاقات الصفحات الإخبارية الأولى. ومرة أخرى أصيبت قدرة «السي.آي.أيه.» على التجسس على يد خائن من الداخل. فهيرالد ج. نيكولسون، الذي كان رئيس محطة في رومانيا، قد تولّى مركزاً لمدة سنتين كرئيس للمدربين في المزرعة، وهي مدرسة التدريب التابعة لـ «السي.آي.أيه.» في خارج وليامسبرغ، فرجينيا. وقد مضى عليه يتجسس لحساب موسكو منذ ١٩٩٤، بائعاً الروس ملفات دزينات من ضباط «السي.آي.أيه.» المتمركزين في الخارج، وهويات كل ضابط جديد تخرّج من المزرعة في ١٩٩٤، و١٩٩٥، و١٩٩٦. وأبلغت «السي.آي.أيه.»، القاضي الفدرالي الذي حكم على نيكولسون بثلاثة وعشرين عاماً في السجن، بأنها لن تتمكن أبداً من حساب الضرر الذي ألحقه بعملياتها في العالم. فقد تم إفساد الحياة المهنية لما قيمته ثلاث سنوات

من متدربي «السي.آي.أيه.»؛[١٩] وهم، ما إن تم حرقهم، حتى لم يعد في وسعهم الخدمة في ما وراء البحار.

في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٧، قبل ثلاثة أسابيع على قيام تينيت بأداء قَسَم يمين الوظيفة، محا تقرير جديد للجنة الاستخبارات في مجلس النواب آخر ما بقي من المفهوم الاعتزازي بأن «السي.آي.أيه.» تشكل خط الدفاع الأول عن أميركا. وقالت اللجنة، وقد رأسها بورتر ج. غوس، إن الوكالة ملأى بضباط يفتقرون إلى الخبرة، لا يتكلّمون لغات أو يفهمون طبيعة الحياة السياسية في البلدان التي يغطونها. وقال إن «السي.آي.أيه.» تمتلك مقدرة قليلة ومتراجعة على جمع المعلومات من خلال التجسس. وخلص إلى أن «السي.آي.أيه.» تفتقر إلى «العمق، وسعة الرؤية، والخبرة الضرورية لمراقبة التطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية في العالم»[٢٠]. في وقت لاحق ذلك الصيف، نشر ضابط استخبارات محترف يدعى روس ترافرس دراسة مثيرة للكآبة في صحيفة «السي.آي.أيه.» الداخلية. قال إن القدرات الأميركية على جمع الاستخبارات وتحليلها تتداعى. وكتب أن قادة الاستخبارات الأميركية أخذوا يصرّون، على مدى سنوات كثيرة، على أنهم يضعون الوكالة على الخط الصحيح. وهذه أسطورة. «دوزنّا بنياتنا وغيرنا برامجنا في شكل هامشي... جعلنا كراسي قيادة التايتانيك جميلة ونظيفة». وحذّر قائلاً، لكن «سنشرع، في حالات أكثر، في ارتكاب أخطاء أكثر وأكبر. لقد ابتعدنا عن الأسس، وهي جمع التحليل غير المتحيّز للوقائع».

وقدّم نبوءة لقادة «السي.آي.أيه.» المستقبليين. وكتب «السنة هي ٢٠٠١. ومع مقلب القرن، أصبح التحليل متفكّكاً على نحو خطير. ولا يزال في إمكان المجتمع الاستخباراتي جمع الوقائع، إلا أن التحليل أصبح، منذ وقت طويل، مغموراً بحجم المعلومات المتوفّرة، ولم يعد في وسعنا التمييز بين الوقائع المهمة والضجة الخلفية. وأخذ الشك يزداد في نوعية التحليل... فالمعطيات موجودة، لكننا فشلنا في الإدراك الكلّي لمغزاها». وكتب، «من موقع النظر في ٢٠٠١، نرى أن إخفاق الاستخبارات حتمي»[٢١].

٤٧

لم يكن التهديد ليصبح أكثر حقيقة

أقسم جورج تينيت اليمين، في ١١ تموز/يوليو ١٩٩٧، بوصفه المدير الثامن عشر للاستخبارات المركزية. تفاخر أمامي يومها، مدركاً أن كلامه سيُنشر في «النيويورك تايمز»، حول أن «السي.آي.أيه.» هي أكثر فطنة بكثير وأكثر مهارة مما قد يعرفه أي دخيل. ويدخل هذا في إطار العلاقات العامة. إلا أنه اعترف بعد ذلك بسبع سنوات بـ «أننا كنا شبه مفلسين»(١). فقد ورث «السي.آي.أيه.» «خبرتها في تراجع»، وجهازاً خفياً «في حالة اختلال».

شرعت الوكالة، في شهر أيلول/سبتمبر ذلك، في الاستعداد لإحياء عيدها الخمسين، ووضعت لائحة بخمسين من أعظم ضباطها كجزء من الاحتفال(٢). معظمهم طاعنون في السن، وقد ضربهم الشيب، أو ماتوا ورحلوا. وأعظم الباقين أحياء هو ريتشارد هيلمس. لم يكن في مزاج للاحتفال. وقال لي في ذلك الشهر إن «القوة العظمى الوحيدة الباقية لا تهتم كفاية بما يجري في العالم لتنظيم جهاز تجسس وإدارته. لقد انجرفنا بعيداً عن ذلك كبلد»(٣). وشعر خليفته، جيمس شليسينغر، بالأمر ذاته تقريباً. «الثقة التي وضعناها بـ «السي.آي.أيه.» قد تلاشت»، قال. و«أصبحت الوكالة الآن على درجة من التهشم الكبير، بحيث إن منفعتها في التجسس باتت مدار سؤال»(٤).

شرع تينيت في إعادة البناء. استدعى نجوماً قدامى من تقاعدهم، بمن فيهم جاك زاونينغ الذي سبق أن خدم رئيس محطة في كل من موسكو وبكين، ووافق على إدارة الجهاز الخفي لسنة أو سنتين. وسعى تينيت أيضاً إلى إدخال أموال نقدية بقيمة ملايين عدة من الدولارات إلى الوكالة. وتعهّد أنه في إمكان

«السي.آي.أيه.» استعادة عافيتها في غضون خمس سنوات، في ٢٠٠٢، إذا بدأ المال بالتدفق فوراً. وتدبّر بروتر غوس، الذي أمسك بمقاليد مال الوكالة في مجلس النواب، «مساعدة طارئة» سرّية بملايين عدة من الدولارات، أعقبتها حقنة في الذراع، ولمرّة واحدة، بقيمة ١,٨ مليار دولار. شكّل ذلك أكبر زيادة في الإنفاق الاستخباراتي في ١٥ عاماً، ووعد غوس بإيجاد المزيد.

قال غوس يومها إن «الاستخبارات ليست أمراً للحرب الباردة وحسب. وعندما تعود بالفكر إلى بيرل هاربور تدرك السبب. فالمفاجآت غير السارة تنتظر في الخارج»[٥].

إخفاق استخباراتي كارثي شامل

عاش تينيت حالة من التوجّس منتظراً الورطة التالية. وأعلن في تجمع في مقرّ القيادة لتحريك الهمم، «لن أسمح بأن تصبح «السي.آي.أيه.» منظمة من الدرجة الثانية». وبعد ذلك بأيام قليلة، في ١١ أيار/مايو ١٩٩٨، أُخذت الوكالة من جديد على حين غرّة عندما فجّرت الهند قنبلة نووية. أعادت التجربة تعديل ميزان القوّة في العالم.

تعهّدت الحكومة الهندية الوطنية الجديدة علناً بجعل الأسلحة النووية جزءاً من ترسانتها. وأعلن مفوّض الأسلحة الذرّية في الهند أنه جاهز للتجربة إذا أعطى الزعماء السياسيون الإذن بذلك. فباكستان قد أطلقت صواريخ جديدة، الأمر الذي تحدّى نيو دلهي للرد. وبالتالي، لم يكن يجب بالتفجير النووي الذي قامت به أكبر ديموقراطية في العالم من حيث عدد السكان، أن يشكّل مفاجأة، إلا أنه فاجأ. فالإفادة من محطة «السي.آي.أيه.» في نيودلهي كانت كسولة. والتحليلات في مقر القيادة غير واضحة. لم يُقرع جرس الإنذار أبداً. وكشفت التجربة عن إخفاق في التجسس، وإخفاق في قراءة الصور، وإخفاق في استيعاب التقارير، وإخفاق في التفكير، وإخفاق في الرؤية. وشكّل ذلك «حدثاً مثيراً جداً للقلق»[٦]، قال تشارلز ألن، رئيس الإنذار القديم العهد في «السي.آي.أيه.»، الذي استدعاه تينيت من التقاعد مساعداً لمدير الاستخبارات

المركزية للتجميع. شكّلت تلك إشارة واضحة إلى انهيار شامل في «السي. آي. أيه.».

أخذ الناس يتوجسون من كارثة. «يتزايد احتمال الإخفاق في التحذير من طامة كبرى»، كتبت خليفة تينيت في مجلس الأمن القومي، ماري ماكارثي، في تقرير غير سرّي بعد وقت قصير على التجربة الهندية. «الكارثة تلوح في الأفق!».(٧)

كان لتينيت سبب في التطلع إلى الجانب الآخر وقت التجربة النووية. فقد انشغل جنوده في التمرين على عملية لأسر أسامة بن لادن. فقد أعلن بن لادن، في شباط/فبراير ١٩٩٨، أنه في مهمة إلهية لقتل أميركيين. وقد شرع يجمع، في أفغانستان، قوات الصدم، وأتباع مخيم الحرب المقدّسة ضد السوفيات لجهاد جديد ضد الولايات المتحدة. وفي باكستان، أخذ رئيس محطة «السي. آي. أيه.»، غاري شرون، يضع اللمسات الأخيرة على خطة لاستخدام حلفاء الوكالة الأفغان القدامى لاختطاف بن لادن، وهو مسافر إلى مجمّعه ذي الأسوار الطينية في جنوب مدينة قندهار. وشرعوا، في ٢٠ أيار/مايو ١٩٩٨، في تجربة أخيرة وكاملة تستمر أربعة أيام. إلا أن تينيت قرر في ٢٩ أيار/مايو إلغاء العملية(٨). فالنجاح يعتمد على التنسيق مع باكستان، التي فجّرت الآن تجربتها النووية الخاصة ردّاً على الهند. أخذ الباكستانيون يقرعون طبول الحرب، ولا يمكن الركون إلى الأفغان. والفشل ليس خياراً. إنه احتمال. فحظوظ أسر بن لادن قليلة منذ البداية، وها إن العالم بات الآن على درجة كبرى من عدم الاستقرار للمخاطرة بذلك.

مرّ حزيران/يونيو بدون الهجوم الموعود من بن لادن، ثم تموز/يوليو. وفي ٧ آب/أغسطس ١٩٩٨، استيقظ الرئيس كلينتون على اتصال عند الـ ٥:٣٥ صباحاً يفيد بتفجير السفارتين الأميركيتين في العاصمة الكينية نيروبي، وعاصمة تنزانيا دار السلام. حدث الانفجاران بفارق أربع دقائق عن بعضهما البعض. كان الضرر في نيروبي مهولاً. وقد رأيته بأم العين. مات ١٢ أميركياً، بمن فيهم ضابط شاب في «السي. آي. أيه.»، في ذلك الانفجار، الذي أدى إلى مقتل

المئات وجرح الآلاف من الكينيين في الشوارع وفي مباني المكاتب خارج أسوار السفارة.

ذهب جورج تينيت في اليوم التالي إلى البيت الأبيض، حاملاً نبأ أن بن لادن متوجه إلى معسكر في خارج خوست في أفغانستان. اتفق تينيت ومساعدو كلينتون لشؤون الأمن القومي على ضرب المعسكر بصواريخ كروز. وأرادوا هدفاً ثانياً لمعادلة النتيجة، واختاروا الشفاء، وهو معمل صناعي خارج العاصمة السودانية، الخرطوم. فقد سلّم عميل مصري لـ «السي.آي.أيه.» عيّنة تراب من خارج المصنع توحي بوجود مادة كيميائية تُستخدم في صناعة غاز الأعصاب «في.أكس».

كان الدليل كناية عن كمية ضئيلة جداً. وحذّرت ماري ماكارثي، في مجلس الأمن القومي، من «أننا نحتاج إلى استخبارات أفضل حول هذه المنشأة»، قبل قصفها[٩]. ولم يظهر أي منها.

أطلقت سفن البحرية في بحر العرب، في ٢٠ آب/أغسطس، سيلاً بقيمة مليون دولار من صواريخ كروز على الهدفين. وقتلت ربما عشرين باكستانياً أثناء مرورهم في خوست ـ وكان بن لادن قد غادرها منذ وقت طويل ـ وحارساً ليليّاً في السودان. زعمت حلقة كلينتون الداخلية أن الدليل لمهاجمة السودان كان قاطعاً. قالوا أولاً إن الشفاء مصنع أسلحة يعمل لمصلحة بن لادن. وهو في الواقع مصنع أدوية، واختفى الرابط ببن لادن. ثم قالوا إنه جزء من مخطط عراقي لتوزيع أسلحة الأعصاب. لكن العراقيين لم يستخدموا الـ «في.أكس» في السلاح، كما أكدت ذلك اختبارات مفتشي الأمم المتحدة. وكان يمكن العينة الترابية أن تكون تمهيداً لـ «الفي.أكس»، كما أنها يمكن أن تكون مبيداً للأعشاب.

شكّلت القضية اثنتي عشرة نقطة ترتبط في ما بينها الاستنتاجات والتخمينات. فلم يثبت أي شيء يبرّر القرار بضرب مصنع الشفاء. «شكل ذلك خطأً»[١٠]، قال دونالد بترسون، السفير الأميركي في السودان من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥. «أخفقت

الإدارة في تقديم دليل قاطع إلى أنه يتم صنع أسلحة كيميائية في مصنع الدواء. امتلكت الإدارة أداة للشك، إلا أنه على الدليل أن يكون متيناً كالحديد للقيام بعمل عدواني، وهو ما كانته الصواريخ». وقال خليفته، السفير تيم كارني، بتمالك مقصود للنفس: «يشكّل قرار استهداف الشفاء استمراراً لتقليد من العمل استناداً إلى استخبارات غير كفوءة حول السودان»[١١]. تعجّلت إدارة كلينتون بهجومها المناهض للإرهاب، فأخطأت.

اجتمع تينيت بعد ذلك بثلاثة أسابيع، مع بقية قادة مجتمع الاستخبارات الأميركية. اتفقوا على أنه عليهم القيام «بتغييرات جوهرية وشاملة» في الطريقة التي تجمع فيها الأمة المعلومات وتحللها وتنتجها. وقالوا إنهم في حال عدم القيام بذلك، فستكون النتيجة «إخفاقا استخباراتياً كارثياً شاملاً»[١٢]. حصل ذلك في ١١ أيلول ١٩٩٨.

سنبقى عرضة للمفاجأة

لم تعد «السي.آي.أيه.» اختراع نفسها. وقال لي تينيت في تشرين الأول/أكتوبر، في أول مقابلة له للنشر بوصفه مديراً للاستخبارات المركزية، إنه في وقت قريب، «في عشر سنوات، سنخرج عن الصدد. إذا لم نطوّر خبرتنا، فلن نحقق ما علينا تحقيقه»[١٣].

منذ ١٩٩١، خسرت الوكالة أكثر من ثلاثة آلاف من خيرة أناسها: نحو ٢٠ في المئة من كبار جواسيسها، ومحلليها، وخبراء التكنولوجيا لديها. وخرج ما يقارب السبعة في المئة سنوياً من الجهاز الخفي. وأضاف ذلك إلى خسارة نحو ألف جاسوس متمرّس، ولم يبق أكثر من ألف في مواقعهم. وأدرك تينيت أنه لن يستطيع الاحتراس مما يخبئه المستقبل من خلال قوة على هذا القدر من الضعف على الخطوط الأمامية.

«ستوجد دائماً أيام نضطر فيها إلى السباق للحاق بالأحداث التي لم نتوقعها، ليس لأن أحدا ما كان نائماً في بدّالة الهاتف، بل لأن ما يجري هو

على درجة كبرى من التعقيد»، قال. «يوجد توقّع بأننا بنينا منظومة استخبارات معصومة عن الخطأ، وبأن من واجب الاستخبارات ليس فقط الإبلاغ عن الاتجاهات، والإخبار عن الاحداث، وتوفير نظرة متفحصة، بل إن عليها أيضاً، في كل حالة من الحالات، مسؤولية الإبلاغ عن تاريخ الحدث وزمنه ومكانه. و«السي.آي.أيه.» ذاتها هي التي أوجدت هذا الأمل منذ فترة طويلة. وهذا وهم. «سنبقى عرضة للمفاجأة»، قال تينيت.

شرع في تنظيم عملية بحث عن المواهب في شتى أنحاء البلاد، مدركا بألم أن معركته لإعادة بناء «السي.آي.أيه.» ستستغرق سنوات طويلة، ومليارات عدّة من الدولارات، وآلافا من الضباط الجدد. إنه صراع يائس ضد الوقت. فالأمر يتطلّب بين خمس وسبع سنين لتحويل غرّ إلى ضابط محرّك قادر على العمل في أقسى عواصم العالم. ومن الصعب العثور على مواطنين مولودين في أميركا يتقنون الثقافات الأجنبية ومستعدين وقادرين على العمل لـ «السي.آي.أيه.» فعلى الجاسوس أن يعرف كيفية «استخدام الخداع، واستخدام التلاعب، وبصراحة استخدام الغش في متابعة عمله»، قال جيفري سميث، محامي «السي.آي.أيه.» العام في أواسط التسعينيات(١٤). «على إدارة الوكالة أن تلحّ على العثور على هذا الشخص النادر فوق العادة الذي يملك موهبة التعامل مع هذا العالم الخادع والمتلاعب والاحتفاظ بثقله، أو ثقلها، الأخلاقي». وشكّل العثور على مثل هذه العقول الاستثنائية، وتجنيدها والحفاظ عليها، عملاً لم يتم القيام به أبداً.

أصبحت «السي.آي.أيه.»، على امتداد السنين، أقل وأقل استعداداً لتوظيف «أناس مختلفين بعض الشيء، وغريبي الأطوار، ولا يظهرون بالبزة وربطة العنق، أناس لا يتشاركون جيداً في اللعب مع الآخرين»، قال بوب غايتس(١٥). «فأنواع الاختبارات التي نُخضع الناس لها، النفسية وغيرها، تجعل من الصعب جداً على شخص قد يكون متألّقاً، أو يمتلك مواهب بارعة وقدرات فريدة أن يدخل الوكالة». وأخطأت الوكالة في قراءة العالم نتيجة لقصر نظرها الثقافي. قلّة من ضباطها أمكنها القراءة والتحدث بكل من الصينية، الكورية، العربية،

الهندية، الأوردية، أو الفارسية: لغات ثلاثة مليارات نسمة، أي نصف سكان الأرض. بل إن الأقل منهم قد ساوم أبداً في بازار عربي، أو تمشّى عبر قرية أفريقية. وقال غايتس إن الوكالة عجزت عن إرسال «آسيوي ـ إميركي إلى كوريا الشمالية بدون أن يتم التعرّف إليه بوصفه فتى ما يأتي للتو من كانساس، أو أفريقيين ـ أميركيين، أو عرب ـ أميركيين».

في ١٩٩٢، أراد غايتس، عندما كان مديرا للاستخبارات المركزية، أن يوظّف مواطناً أميركياً ترعرع في أذربيجان. واستذكر «أنه كان يتحدث اللغة الآذرية بطلاقة، لكنه لا يكتب الإنكليزية جيداً. وقد تم أيضاً رفضه لأنه لم ينجح في اختبار للغة الانكليزية. وعندما تم إبلاغي بذلك، جُننت وحسب. وقلت: لدي ألوف الأشخاص هنا ممن يمكنهم كتابة الانكليزية، لكن ليس لدي أحد يستطيع التحدّث بالآذرية. ما الذي فعلتموه؟».

أخذت الوكالة تنقّب في مدن أميركا وضواحيها بحثاً عن أولاد مهاجرين ولاجئين، شبان وشابات ترعرعوا في عائلات آسيوية وعربية من الجيل الأول، محاولة بلوغهم عبر إعلانات في صحف إثنية في كافة أنحاء الولايات المتحدة. وجاء الحصاد قليلاً. عرف تينيت أن الوكالة قد تحيا أو تموت في السنوات المقبلة بحسب قابليتها على خلق صورة من المؤامرات الدولية والمغامرة الفكرية لدى الشبان المتوقدي الذهن. إلا أن الدم الجديد ليس إلا جزءاً من العلاج. فحملة التجنيد لم تحلّ أبدا مسألة أساسية في الوكالة: هل ستتمكن «السي. آي. أيه.» من تجنيد نوعية الشخص الذي ستحتاج إليه في سياق خمس سنوات أو حتى عشر؟ فهي لا تعرف إلى أين سيقودها السياق. ما تعرفه فقط هو أنها لا تستطيع البقاء في الحالة التي انحدرت إليها.

سنقوم بقصف هذا

أخذ العدو يصبح أكثر قوّة، والوكالة أشد ضعفاً. وأعطى الهجوم الفاشل على بن لادن شحنة قوية جداً لمكانته، واجتذب الآلاف من المجندين الجدد

لقضيته. وتصاعدت الضرورة الملحّة لحملة «السي.آي.أيه.» ضد القاعدة بالترافق مع شعبيته.

أعاد تينيت إحياء مخططات استخدام وسطاء أفغان لاعتقاله، وزعم، في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨، أنهم قاموا بأربعة كمائن فاشلة ضده، وهو ما شككت فيه «السي.آي.أيه.» بقوة. إلا أنهم أقنعوا الضباط الميدانيين في الوكالة بأنه في إمكانهم تقفي أثره وهو يسافر من معسكر إلى آخر في داخل أفغانستان. وأفادوا، في ١٨ كانون الأول/ديسمبر، أن بن لادن يتوجه عائداً إلى قندهار، وأنه سيمضي ليل العشرين من كانون الأول/ديسمبر في منزل داخل مجمّع الحاكم هناك. بعث رئيس المحطة غاري شرون بالخبر من باكستان: أضربوا الليلة. ربّما لن تتوفّر فرصة أفضل. دارت صواريخ كروز في مستوعباتها، وأحكمت التصويب على الهدف. لكن هذه المعلومة الاستخبارية جاءت من رجل واحد، وكان مئات الأشخاص ينامون في المجمّع في تلك الليلة. وسيطرت شكوك تينيت على رغبته في التخلّص من بن لادن، وجاء الخبر من أعلى المصادر بالتوقف. وقد أفسحت الشجاعة بالمجال للحذر، والاستعجال للتروّي(١٦).

قال جون ماك غافن، الرجل الثاني سابقاً في الجهاز الخفي إبان عهد كلينتون، إنه منذ خريف ١٩٩٨ وما بعده، «امتلكت الولايات المتحدة القدرة على إخراج أسامة بن لادن من أفغانستان، أو على قتله»(١٧)، لكنها تخاذلت عندما جاء وقت الضغط على الزناد. «عرفت «السي.آي.أيه.»، كل يوم تقريباً، موقع بن لادن: أحياناً في نطاق خمسين ميلاً، ومرات في نطاق خمسين قدماً». وقُتل ما لا يقل عن ١٥ جندياً أميركياً من القوات الخاصة أو جُرحوا في مهمات تدريب تستبق الهجوم. وتراجع قادة البنتاغون والزعماء السياسيون في شكل مستمر عن المقامرة السياسية في مهمة عسكرية ضده.

تركوا المهمة لـ «السي.آي.أيه.» ولم تتمكن الوكالة من تنفيذها.

أفاد الأفغان في الأسابيع الأولى من ١٩٩٩، أن بن لادن متوجه إلى

معسكر صيد جنوب قندهار يحبّذه البيّازون الأثرياء. نظر قمر تجسس في ٨ شباط/فبراير إلى المعسكر وحدّد موقعه. وكانت طائرة حكومية من الإمارات العربية المتحدة ـ وهي دولة حليفة للأميركيين ـ متوقفة هناك. لم يمكن التضحية بحياة الأمراء لقتل بن لادن، وبقيت صواريخ كروز في منصاتها.

واصل الأفغان تقفّي سفرات بن لادن من قندهار، وإليها خلال شهر نيسان/أبريل ١٩٩٩.[١٨] وتتبعوه، في أيار/مايو، على مدى ٣٦ ساعة متواصلة. سلّم عملاء غاري شرون تقارير مفصّلة عن أمكنة وجوده. لم يمكن الاستخبارات أن تكون أفضل، قال الجنرال جون غوردن نائب تينيت في إدارة الاستخبارات المركزية.

توفّرت ثلاث فرص للضرب بصواريخ الكروز، ولم يوافق تينيت في المرّات الثلاث. فثقته بقدرة «السي.آي.أيه.» على اختيار أهدافها قد اهتزّت في صورة سيئة قبل ذلك بأيام.

شنّ حلف شمال الأطلسي حملة قصف على صربيا بهدف إجبار الرئيس سلوبودان ميلوسوفيتش على سحب قواته من كوسوفو. ودعيت «السي.آي.أيه.» إلى اختيار أهداف للطائرات الحربية الأميركية. وأوكلت المهمة إلى قسم مكافحة الانتشار، وهي المجموعة التي حلّلت الاستخبارات حول انتشار أسلحة الدمار الشامل. حدد المحللون أفضل هدف لهم بوصفه المديرية الفدرالية اليوغوسلافية للتموين والمشتريات، في جادة أومتنوستي رقم ٢ في بلغراد. استخدموا خرائط سياحية لمساعدتهم على تحديد الموقع. وانتقل الاستهداف صعوداً، عبر آلية «السي.آي.أيه.»، إلى البنتاغون، وتم تحميل الاحداثيات في دارات الطائرات القاذفة الشبح «البي ٢».

دُمّر الهدف. إلا أن «السي.آي.أيه.» أخطأت قراءة خرائطها. لم يكن الهدف مستودعاً لجيش ميلوسوفيتش، بل كان السفارة الصينية.

«شكّل قصف السفارة الصينية في بلغراد تجربة مريرة لي»، قال نائب الأميرال توماس ر. ويلسون، الذي أصبح، في تموز/يوليو ١٩٩٩، مديراً لوكالة

استخبارات الدفاع(١٩). «كنت الشخص الذي يُري صورة السفارة الصينية لرئيس الولايات المتحدة ـ من بين ٩٠٠ صورة أخرى أريتها له ـ وقلت، سنقوم بضرب هذه لأنها إدارة المشتريات العسكرية اليوغوسلافية». وهو حصل على تلك الصورة من «السي.آي.أيه.».

أحدث هذا الخطأ جرحاً أكبر مما يمكن أحداً معرفته. وسيمر وقت طويل قبل أن يثق البيت الأبيض والبنتاغون بأن تضع الوكالة أي شيء ـ أو أي أحد ـ في مرمى صاروخ أميركي.

أنتم أيها الأميركيون مجانين

كان الجيش وأجهزة استخبارات الولايات المتحدة لا تزال جاهزة للعمل ضد جيوش وأمم، يصعب القضاء عليها، لكن يسهل العثور عليها على خارطة العالم. أما العدو الجديد فرجل يسهل قتله، لكن يصعب العثور عليه. إنه طيف يجوب أفغانستان ليلاً في لاند كروزر.

وقّع الرئيس كلينتون على أوامر سرّية أعتقد أنها تعطي «السي.آي.أيه.» السلطة لقتل بن لادن. وحلم، في غمرة اتهامه بالإخلال بالوظيفة، بصوت مرتفع: أحلام اليقظة حول نينجا أميركيين ينزلون بالحبال من طائرات الهيليكوبتر للإمساك بالسعودي. وجعل من تينيت قائداً لحرب ضد رجل واحد.

قاوم تينيت شكوكه الخاصة في شأن الاستخبارات الأميركية وقدراتها على العمل الخفي. لكن، كان عليه استنباط خطة هجوم جديدة قبل أن يضرب بن لادن من جديد. ووضع، في نهاية صيف ١٩٩٩، وبالاشتراك مع رئيس مكافحة الارهاب الجديد لديه، كوفر بلاك، استراتيجية جديدة. ستعمل الوكالة مع أصدقاء قدامى وأعداء قدامى حول العالم لقتل بن لادن وحلفائه. عمّق بلاك روابطه بالجيوش الاجنبية، واستخباراتها، وأجهزة أمنها، في أماكن مثل أوزبكستان، وطاجكيستان، على الحدود الأفغانية. والأمل هو في أنها ستساعد «السي.آي.أيه.» على أن تطأ بجزماتها الأرض داخل أفغانستان.

قضى الهدف بالاتصال بأحد أمراء الحرب، القائد الأفغاني أحمد شاه مسعود في المركز الذي تحصّن فيه على مدى عشرين عاماً، منذ الأيام الأولى للاحتلال السوفياتي، في الوادي الجبلي العميق شمال شرق كابول. اقترح مسعود، المقاتل النبيل والشجاع الذي أراد أن يصبح ملكاً على أفغانستان، تحالفاً كبيراً مع صلاته القديمة بـ «السي.آي.أيه.» ومهاجمة معاقل بن لادن، بمساعدة من «السي.آي.أيه.»، وباستخدام الأسلحة الأميركية، والإطاحة بالطالبان، رعاع الفلاحين، ورجال الدين، وقدامى الجهاديين الذين يحكمون في كابول. وسيساعد الوكالة على إقامة قاعدة تسمح لها بالنيل من بن لادن بنفسها. وافق كوفر كلّياً على الأمر. وكان مساعدوه على أهبة الاستعداد للمضي.

إلا أن احتمالات الفشل كانت كبيرة جدا بالنسبة إلى تينيت. ومرّة أخر قال «لا»: الدخول والخروج فيهما مخاطرة كبيرة جداً. وكان المراسلون الصحافيون وعمّال الإعانة الخارجية يركبون هذه المخاطر طوال الوقت في أفغانستان. لكن مقر قيادة «السي.آي.أيه.» لن يفعل.

ضحك مسعود لسماعه ذلك. «أنتم أيها الأميركيون مجانين»[٢٠]، قال. «أنتم، أيها الفتية، لا تتغيرون أبداً».

مع اقتراب الألفية، أوقفت الاستخبارات الأردنية، التي أنشأتها «السي.آي.أيه.» ودعمتها طويلاً، ١٦ رجلاً اعتقدت أنهم يحضّرون لنسف فنادق ومواقع سياحية في خلال عيد الميلاد. اعتقدت الوكالة أن هذه المؤامرة مقدّمة لهجوم شامل حدّدته «السي.آي.أيه.» للسنة الجديدة. عمل تينيت بأقصى طاقته، متصلاً بعشرين رئيساً لأجهزة استخبارات في أوروبا، والشرق الأوسط، وآسيا، طالباً منهم توقيف كل من له صلة ببن لادن. وبعث برسائل مستعجلة إلى جميع ضباط «السي.آي.أيه.» في الخارج. وجاء فيها «لا يمكن التهديد أن يكون أكثر واقعيا. قوموا بما هو ضروري»[٢١]. لقد مرّت الألفية بدون هجوم كارثي.

تم إطلاع الرئيس، في شباط/فبراير وآذار/مارس ٢٠٠٠، على خطط عمل

«السي.آي.أيه.» الخفية ضد بن لادن، وقال إنه في إمكان الولايات المتحدة بالتأكيد القيام بما هو أفضل. وأكد تينيت وجيم بافيت، الرئيس الجديد للجهاز الخفي، أنهما سيحتاجان إلى تمويلات جديدة بالملايين للقيام بالمهمة. واعتقد قيصر مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، ريتشارد كلارك، أن إرادة «السي.آي.أيه.» هي الشحيحة وليست محفظتها، وقال إنه تم اعطاء الوكالة «الكثير من المال للقيام بالأمر والكثير من الوقت، ولم أشأ وضع المزيد من المال الجيّد بعد السيىء»[٢٢].

أدى الموسم السياسي إلى عودة التقليد الذي دشّنه الرئيس ترومان: تقديم الإيجاز الاستخباراتي للمعارضة. توجّه نائب مدير الاستخبارات المركزية بالوكالة، جون ماكلوفلين، ونائب رئيس مركز مكافحة الإرهاب، بن بونك، جنوبا إلى كراوفورد، تكساس، وعقدا حلقة بحث استمرت أربع ساعات، في يوم عيد العمال، مع الحاكم جورج دبليو بوش. وسيتولّى بونك، في وقت من الأوقات في السنوات الأربع المقبلة، المهمة التعيسة في إبلاغ المرشح الجمهوري، بأن أميركيين سيموتون على أيدي إرهابيين أجانب.

سقط أول القتلى بعد ذلك بخمسة أسابيع. ففي ١٢ تشرين الأول/أكتوبر، في ميناء عدن، وقف رجلان في زورق سريع وانحنيا لدى اقترابهما من المدمرة الحربية ألأميركية، «يو أس أس كول». قتل الانفجار ١٧ وجرح أربعين، وأحدث فجوة بقيمة ٢٥٠ مليون دولار في واحدة من أكثر سفن البحرية الأميركية تطوراً.

كانت القاعدة المشتبه فيه الواضح[٢٣].

أقامت «السي.آي.أيه.» مكتباً رديفاً في كراوفورد لإبقاء بوش مطلعاً على الهجوم، وغير ذلك من الأحداث العالمية في خلال الصراع الطويل الأمد حول انتخابات العام ٢٠٠٠. وبعدما أعلنت المحكمة العليا، في كانون الأول/أكتوبر، بوش فائزاً بالرئاسة الأميركية، أوجز تينيت شخصياً للرئيس المنتخب حول بن لادن. واستذكر بوش سؤاله تينيت بالتحديد إذا كان في وسع «السي.آي.أيه.»

قتل الفتى؛ وأجاب تينيت بأن قتله لن يضع حداً للتهديد الذي يمثله. ثم اجتمع بوش وحده مع كلينتون على مدى ساعتين للحديث عن الأمن القومي.

واستذكر كلينتون قوله له: «التهديد الأكبر لك هو بن لادن». وأقسم بوش إنه لم يسمع هذه الكلمات أبداً.

٤٨

الجانب المظلم

بعد وقت قصير على تولّي بوش السلطة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، حذّر جيمس مونيير سايمون جونيور، المدير الإداري المساعد للاستخبارات المركزية، من أن «الاستخبارات الأميركية تواجه مشكلة». وقال إن «مركزية «السي.آي.أيه.» أصبحت في موضع الريبة». وهي تفتقر إلى القدرة على جمع المعلومات اللازمة لحماية الأمة، وتحليلها.

قال سايمون، «إن الولايات المتحدة، في ٢٠٠١، تواجه تفاوتاً متنامياً، يكاد يصيب بالدوار، بين قدراتها المتناقصة والمتطلبات الناشئة للأمن القومي. ولم يسبق للانفصال بين ما نخطط له واحتمال ما ستواجهه الولايات المتحدة، أن كان مُطبقاً إلى هذا الحد». وسيأتي وقت يكون على الرئيس والكونغرس أن يشرحا معاً «لماذا مرّت كارثة مُتوقّعة بدون أن يتم توقّعها؟»[(١)].

كانت الاستخبارات الأميركية على القدر ذاته من الانقسام والانفلاش اللذين كانت عليهما في ١٩٤١. وفشل ١٨ مديراً متعاقباً في واجب القيام بتوحيدها. وها إن الوكالة على وشك الإخفاق بوصفها مؤسسة من مؤسسات الحكم الأميركي.

بلغت «السي.آي.أيه.» ١٧ ألف شخص، أي حجم فرقة في الجيش تقريباً، إلا أن غالبيتهم الكبرى تشكّلت من فرسان المكاتب. وعمل نحو ألف شخص تقريباً في الخارج في الجهاز الخفي. عاش معظم الضباط حياة مرفهة في شوارع الضواحي المقفلة والمنازل المدينية في فلك مجتمع واشنطن السياسي

والاجتماعي المقفل. لم يتعوّدوا شرب المياه الوسخة والنوم على الأرض الموحلة. لم يكونوا مناسبين لحياة التضحية.

انضم مئتا ضابط إلى الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.»، في أيلول/سبتمر ١٩٤٧، بوصفهم أعضاء مؤسسين. وربما كان المئتان، في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، قادرين، وعلى درجة كافية من الشجاعة، لتحمّل المواقع التي فيها مشقة. وبلغ كامل عدد موظفي «السي.آي.أيه.» الذين يركزون على القاعدة ربّما ضعفي هذا العدد. كان معظمهم يحدّقون في حواسيب مقر القيادة، منقطعين عن حقائق العالم الخارجي من خلال تكنولوجيات المعلومات القديمة العهد المتوّفرة عندهم[٢]. وتوقّع قيامهم بحماية الولايات المتحدة من التعرض لهجوم، هو في أفضل الحالات ثقة في غير موضعها.

هيكل أجوف من كلام بدون أفعال

حاز تينيت حظوة طيبة في البيت الأبيض، بعدما أعاد، رسمياً، تسمية مقر قيادة «السي.آي.أيه.» مركز بوش للاستخبارات، على اسم والد الرئيس، وقد أحب القائد الأعلى الجديد منحى الفتى الصلب لدى تينيت. إلا أن الوكالة لم تحصل إلا على أقل قدر من الدعم من الرئيس بوش في خلال الأشهر التسعة الأولى له في السلطة. أعطى موازنة البنتاغون زيادة فورية بقيمة سبعة في المئة. وحصلت «السي.آي.أيه.» وبقية مجتمع الاستخبارات على دفعة من واحد على ثلاثمئة في المئة. وقد تم تحديد هذا الفارق في اجتماعات في بنتاغون دونالد رامسفلد، لم يحضرها ولا ممثل واحد لمجتمع الاستخبارات. أمسك رامسفلد ونائب الرئيس ديك تشيني، الشريكان في سياسات الأمن القومي منذ أيام نيكسون وفورد، بسلطة هائلة في الإدارة الجديدة، وتشاركا في ارتياب ثابت بقدرات ا«السي.آي.أيه.».

التقى بوش وتينيت في الثامنة من صباح كل يوم تقريباً في البيت الأبيض. إلا أنه ما شيء قاله تينيت في شأن بن لادن استرعى انتباه الرئيس. وكان تينيت، في كل صباح بعد صباح، في إيجاز الثامنة، يُبلغ الرئيس، وتشيني،

ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، بما يُنذر بمؤامرة من القاعدة لضرب أميركا. لكن بوش كان مهتماً بأمور أخرى: الدفاع الصاروخي، المكسيك، الشرق الأوسط. لم يصبه أي إحساس بأمر طارئ.

في خلال إدارة ريغان، عندما عانى الرئيس صعوبة في السمع، وتمتم مدير الاستخبارات المركزية بشكل غير مفهوم، اعتاد المساعدون على إطلاق النكات حول عدم إمكان كشف ما يدور بينهما. لم يصب بوش وتينيت بمثل هذه العاهات. إلا أن المشكلة كانت في النقص في الوضوح من جانب «السي.آي.أيه.» والنقص في التركيز من جانب البيت الأبيض. واعتاد ريتشارد هيلمس القول إنه لا يكفي أن تقرع الجرس، بل يجب أن تتأكد من أن الشخص الآخر يسمعه.

كان الضجيج ـ ارتفاع صوت المعلومات المتفككة وغير المثبتة وتردداتها حول هجوم إرهابي مقبل ـ يصم الآذان. لم يتمكن تينيت من إيصال إشارة متماسكة إلى الرئيس. وبينما أخذ النفير يدوي بصوت أعلى فأعلى في الربيع والصيف ٢٠٠١، جَهَدَ كل عصب وطنب في الوكالة لرؤية التهديد وسماعه بوضوح. أخذت التحذيرات تنهمر من السعودية وبلدان الخليج، والأردن وإسرائيل، وكل أنحاء أوروبا. وقد جرت، في شكل خطير، المبالغة في تحميل دوائر «السي.آي.أيه.» الكهربائية البالية أكثر مما تحتمل. استمرت الإخباريات في التدفّق. سيضربون بوسطن. سيضربون لندن. سيضربون نيويورك. وبعث كلارك ببريد الكتروني إلى رايس في ٢٩ أيار/مايو جاء فيه أنه «عندما ستحصل هذه الهجمات، على ما هو مُرجّح، سنتساءل ماذا كان في وسعنا القيام به بعد لوقفها»[٣].

خشيت الوكالة هجوماً كاسحاً في الخارج في يوم عطلة الرابع من تموز/يوليو عندما تُسقط السفارات الأميركية تقليدياً دفاعاتها وتفتح أبوابها للاحتفال بالثورة الأميركية. وسبق لتينيت، في أسابيع ما قبل العطلة، أن طلب من رؤساء أجهزة الاستخبارات الأجنبية في عمّان، والقاهرة، وإسلام أباد، وروما، وأنقرة، محاولة تدمير الخلايا المعروفة، أو المشتبه فيها، للقاعدة أو الملتحقة

بها في شتى أنحاء العالم. ستوفّر «السي.آي.أيه.» الاستخبارات، بينما تتولى الأجهزة الأجنبية عمليات التوقيف. وسُجنت حفنة ممن يشتبه في أنهم إرهابيون في دول الخليج وفي إيطاليا. وأبلغ تينيت البيت الأبيض أن عمليات التوقيف ربما خرّبت خطط هجوم على سفارتين أو ثلاث سفارات أميركية. وربّما لا. يستحيل القول.

بات على تينيت اتخاذ قرارات موت أو حياة على عكس أي وضع سبق أن واجهه مدير للاستخبارات المركزية. قبل ذلك بسنة، وبعد سبعة أعوام من الصراع بين «السي.آي.أيه.» والبنتاغون، تم الإعلان عن أن طائرة صغيرة تطير بدون طيّار مجهّزة بكاميرا فيديو وأدوات استشعار تجسسية، تدعى البريداتور، أصبحت جاهزة للانتشار فوق أفغانستان. وحصل أول تحليق لها في ٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠. وها إن الوكالة وسلاح الجو قد وضعا تصوّراً لطريقة تجهيز البريداتور بصاروخ مضاد للدروع. ومن الناحية النظرية، وفي مقابل استثمار ببضعة ملايين من الدولارات، سيصبح قريباً في إمكان ضابط في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» مطاردة بن لادن وقتله بواسطة شاشة فيديو وعصا تحكّم. وتساءل تينيت: لكن ما هي سلسلة القيادة؟ من يعطي الموافقة؟ من يضغط على الزناد؟ واعتقد تينيت أنه لا يملك ترخيصاً بالقتل. فقد استهول فكرة قيام «السي.آي.أيه.» بشن عملية اغتيال بواسطة التحكّم عن بعد، انطلاقاً من سلطتها الخاصة. فالوكالة ارتكبت، في الماضي، الكثير جداً من الأخطاء في اختيار الأهداف.

في الأول من آب/أغسطس ٢٠٠١، قررت لجنة النواب ـ فريق المرتبة الثانية في الأمن القومي ـ أنه من المشروع لـ «السي.آي.أيه.» قتل بن لادن بواسطة البريداتور، وهذا دفاع وطني مشروع عن النفس. لكن الوكالة عادت بالمزيد من الأسئلة: من سيدفع ثمن ذلك؟ من سيسلّح الطائرة؟ من سيكون المراقب الجوي؟ من سيلعب دوري الطيّار ومطلق الصاروخ؟ وأصاب هذا التعبير عن القلق قيصر مكافحة الإرهاب كلارك، بالجنون. «إما أن القاعدة تهديد يستأهل العمل ضده، وإما لا»، قال وهو ينفث غضباً. و«على قيادة

«السي.آي.أيه.» أن تقرر ماهية الأمر، وتتوقف عن هذه التأرجحات المزاجية بين النقيضين»(٤).

لم تجب الوكالة أبداً عن سؤال طرحه عليها الرئيس بوش: هل يمكن هجوماً أن يحصل في الولايات المتحدة؟ وها قد حان وقت الجواب: ففي السادس من آب/أغسطس، بدأ الإيجاز اليومي للرئيس بعنوان «بن لادن مصمم على الضرب في الولايات المتحدة». إلا أن التحذير الموجود تحت العنوان، شكّل قطعة إفادة ضعيفة جداً. فأحدث استخبارات فيه تعود إلى ١٩٩٩. إنه عمل تأريخي، وليس موجز أخبار. واصل الرئيس عطلته، يقطع الهشيم في كراوفورد، ويسترخي لمدة خمسة أسابيع.

انتهت عطلة البيت الأبيض الطويلة يوم الثلاثاء الرابع من أيلول/سبتمبر، عندما جلس أعضاء فريق الباب الأول للأمن القومي لدى بوش، لجنة أصحاب المقام الأول، معاً في أول اجتماع يعقدونه أبدا حول التهديد الذي يشكله بن لادن والقاعدة. أرسل كلارك في ذلك الصباح ملاحظة أليمة إلى كوندوليزا رايس، متوسّلا مستشارة الأمن القومي أن تتصوّر مئات الأميركيين المطروحين قتلى من جراء الهجوم المقبل. وقال إن الوكالة أصبحت «هيكلاً أجوف من كلام بدون أفعال»، تعتمد على حكومات أجنبية لوضع حد لبن لادن، تاركة الولايات المتحدة «تنتظر الهجوم الكبير». ورجاها، في ذلك اليوم، أن تدفع بـ «السي.آي.أيه.» إلى العمل.

إننا في حرب

تخفق الاستخبارات لأنها بشرية، وهي ليست بأقوى من قدرة عقل واحد على فهم الآخر. وقد وضع غاريت جونز، رئيس محطة «السي.آي.أيه.» إبان الحملة الأميركية الكارثية في الصومال، الأمر بصراحة: «ستحدث إخفاقات، وأخطاء، وارتباك، وزلاّت قدم». وقال «على المرء أن يأمل أنها لن تكون مميتة»(٥).

شكّل ١١ أيلول/سبتمبر الإخفاق الاستخباراتي الذي تنبأ به تينيت قبل ذلك بثلاثة أعوام. إنه فشل تام للحكومة الأميركية البيت الأبيض، مجلس الأمن القومي، «الأف.بي.آي.»، إدارة الطيران الفدرالي، جهاز الهجرة والتجنيس، ولجنتي الاستخبارات في الكونغرس. إنه إخفاق في السياسة وفي الدبلوماسية. إنه إخفاق المراسلين الذين يغطون الحكومة في فهم تشوّشها وإيصاله إلى قرائهم. إلا أنه كان فوق ذلك كله إخفاق في معرفة العدو. إنها بيرل هاربور التي أُنشئت «السي. آي. أيه.» لتفاديها.

عكف تينيت ورئيس مكافحة الإرهاب لديه، كوفر بلاك، وهما في كامب ديفيد في يوم السبت ١٥ أيلول/سبتمبر، على وضع خطة لإرسال ضباط من «السي. آي. أيه.» إلى داخل أفغانستان للعمل مع أسياد الحرب المحليين ضد القاعدة. عاد المدير إلى مقر القيادة في وقت متأخر من يوم الأحد، وأصدر إعلانا لجنوده: «إننا في حرب».

قال تشيني في ذلك الصباح إن الوكالة انتقلت «إلى الجانب المظلم»[٦]. وفي يوم الاثنين، ١٧ أيلول/سبتمبر، أصدر الرئيس بوش توجيهاً سرّياً للغاية من ١٤ صفحة[٧] إلى تينيت و«السي. آي. أيه.»، يأمر فيه الوكالة بمطاردة المشبوهين في شتى أنحاء العالم، وأسرهم، وسجنهم، والتحقيق معهم. لم يضع حدوداً لما يمكن الوكالة القيام به. وقد أسّس ذلك لمنظومة من السجون السرّية استخدم فيها ضباط «السي. آي. أيه.» والمتعاقدون تقنيات تضمّنت التعذيب. وقد أدين أحد المتعاقدين مع «السي. آي. أيه.» بضرب سجين أفغاني حتى الموت. وهذا ليس دور جهاز استخبارات مدني في مجتمع ديموقراطي. لكن، من الواضح أن هذا ما أراد البيت الأبيض لـ «السي. آي. أيه.» القيام به.

سبق لـ «السي. آي. أيه.» أن أدارت مراكز تحقيق سرّية: بداية في ١٩٥٠، في ألمانيا، واليابان، وبنما. وشاركت في تعذيب مقاتلين من أسرى الاعداء: بداية في ١٩٦٧، بموجب برنامج الفينيق في فيتنام. وسبق لها أن اختطفت إرهابيين وقتلة: وأشهرها في ١٩٩٧، في قضية مير أمل كاسي، قاتل ضابطي «السي. آي. أيه.» إلا أن بوش أعطى «السي. آي. أيه.» سلطة جديدة واستثنائية:

تحويل المشتبه فيهم المخطوفين إلى أجهزة أمن خارجية للاستجواب والتعذيب، والاعتماد على الاعترافات التي تقوم بانتزاعها. وعلى ما كَتَبْتُه في «النيويورك تايمز» في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١: «بما تضطر الاستخبارات الأميركية إلى الاعتماد على ارتباطاتها مع أقسى الأجهزة الخارجية في العالم، أناس يمكنهم الظهور بمظهر الإرهابيين والتفكير والتصرّف مثلهم. وإذا كان لأحد ما أن يستجوب رجلاً في قبو في القاهرة أو كويتا، فإنه سيكون ضابطاً مصرياً أو باكستانياً. وستأخذ الاستخبارات الأميركية المعلومات بدون أن تطرح الكثير من الأسئلة القانونية».

أخذت «السي.آي.أيه.»، بناءً على أوامر بوش، في تأدية وظيفة الشرطة العسكرية العالمية، ملقية المئات من المشتبه فيهم في سجون سرّية في أفغانستان، وتايلندا، وبولند، وفي داخل السجن العسكري الأميركي في غوانتانامو ـ كوبا. وسلّمت المئات الإضافية من السجناء إلى أجهزة استخبارات مصر، وباكستان، والأردن، وسوريا للاستجواب. وتم التعامل مع الأمر بدون هوادة. وأبلغ بوش الأمة في خطاب إلى جلسة مشتركة للكونغرس في العشرين من أيلول/سبتمبر، «حربنا مع الإرهاب تبدأ مع القاعدة، إلا أنها لا تنتهي هناك. وهي لن تنتهي حتى يتم العثور على كل مجموعة إرهابية ذات امتدادات عالمية، وتوقيفها، وهزيمتها».

لا يسعني القيام بهذا

حصلت حرب في الديار أيضا، وشكّلت «السي.آي.أيه.» طرفاً فيها. تمّ، في ما بعد ٩/١١، تعيين جيمس مونيير سايمون جونيور، المدير المساعد للاستخبارات المركزية، مسؤولاً عن الأمن الإقليمي لمجتمع الاستخبارات. وذهب إلى اجتماع في البيت الأبيض مع المدعي العام جون أشكروفت. والموضوع هو وضع بطاقات هوية وطنية للأميركيين. «ما الذي ستتضمنه؟ حسناً، بصمة الإبهام»، قال سايمون. «فئة الدم قد تكون مفيدة، وكذلك مسح لشبكية العين. وسنريد لصورتك أن تُلتقط بطريقة معينة، بحيث تمكننا معرفة وجهك

وسط حشد حتى لو كنت متنكّراً. وسنريد بصمة صوتك، لأن ثمة تكنولوجيا قادمة ستُمكّن من التعرّف إلى صوتك من بين جميع الأصوات على كل هواتف العالم الخلوية، وصوتك فريد من نوعه. وسنحتاج، في الواقع، إلى وجود بعض من حمضك النووي، بحيث يمكننا التعرّف إلى جثتك في حال حصل لك أي مكروه. وبالمناسبة، نريد للرقّاقة أن تبلغنا بمكان وجود البطاقة، بحيث إننا إذا احتجنا إلى العثور عليك سنتمكن من ذلك. ثم تبادر إلى ذهننا أنه في وسعك التخلّي عن البطاقة. وبالتالي سنضع الرقاقة في مجرى دمك»(٨).

تساءل سايمون: أين سينتهي هذا الدافع إلى الأمن؟ وقفزت إلى ذهنه أسماء ستالين وأجهزة هتلر الاستخباراتية. «يمكن الأمر، في الواقع، أن ينتهي بنا لنصبح «الكا.جي.بي.»، أو «الأن.كي.في.دي.»، أو الغستابو»، قال. «علينا، نحن الشعب، أن نراقب وننخرط». وشكلت كيفية قيام الشعب الأميركي بالمراقبة بالتحديد مسألة إشكالية. وما يفعله ممثل لمدير الاستخبارات المركزية في البيت الأبيض، مناقشاً زرع رقاقات صغيرة في المواطنين الأميركيين، شكّل مسألة إشكالية أخرى. لا يمكن بطاقة الهوية الوطنية أن تتحقق أبداً. إلا أن الكونغرس أعطى «السي.آي.أيه.» سلطات قانونية جديدة للتجسس على أناس في الولايات المتحدة. وأصبح مسموحاً للوكالة الآن الاطلاع على شهادات سرّية أمام هيئة المحلّفين، بدون الحصول على موافقة مسبقة من القاضي، والحصول على سجلات خاصة عن المؤسسات والشركات. استخدمت الوكالة هذه السلطة للطلب، ولتحصل، من مؤسسات مالية، على معطيات مصرفية وائتمانية لمواطنين أميركيين وشركات. لم يسبق أن امتلكت «السي.آي.أيه.» سلطة رسمية للتجسس داخل حدود الولايات المتحدة. وها إنها تملكها الآن.

تحدّث تينيت إلى الجنرال مايكل هايدن، مدير وكالة الأمن القومي، بعد وقت قليل على الهجمات. وسأله، «أثمة المزيد مما يمكنك القيام به؟». وأجاب هايدن، «ليس من ضمن صلاحياتي الراهنة». وعندها «دعاني تينيت إلى المجيء والتحدّث إلى الإدارة حول المزيد مما يمكن القيام به». جاء هايدن حاملاً مخططاً للتنصت، بدون أوامر قضائية، على اتصالات من يشتبه في أنهم

إرهابيون في داخل الولايات المتحدة. كان ذلك غير مشروع في شكل يحتمل الجدال، لكنه مُبَرّر على أساس نظرية «المطاردة الحامية»: ملاحقة المشتبه فيهم إلى ما هو أبعد من حدود الخارطة وخارج أطر القانون. أمره الرئيس، في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، بتنفيذ المخطط. وهو ما يجب أن يحصل. وقال هايدن: «لا يسعني القيام بهذا»[٩]. ومرة أخرى، شرعت وكالة الأمن القومي في التجسس داخل الولايات المتحدة.

أمر كوفر بلاك فرقته المناهضة للإرهاب بأنه تأتيه برأس بن لادن في صندوق. ومركز مكافحة الإرهاب، الذي وُلد قبل ١٥ عاماً بوصفه وحدة منفصلة داخل الجهاز الخفي، والتي لا تزال تعمل في قبو مقر القيادة، أصبحت الآن قلب «السي.آي.أيه.». عاد ضباط متقاعدون إلى الخدمة، وانضم مجنّدون جدد إلى كادر الوكالة الصغير المؤلف من كوماندوس شبه عسكريين. طاروا إلى أفغانستان لخوض حرب، وسلّم رجال الوكالة ملايين الدولارات لكسب ولاءات الزعماء القبليين الأفغان. وقد خدموا بنبل على مدى بضعة أشهر بوصفهم القطع المتقدمة للاحتلال الأميركي لأفغانستان.

بحلول الأسبوع الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، قضى الجيش الأميركي على زعامة الطالبان، وترك وراءها عامة الأتباع، ولكنه مهّد الطريق لحكومة جديدة في كابول. ترك عشرات الآلاف من الموالين للطالبان سالمين، فشذّبوا لحاهم، وذابوا في القرى؛ وهم سيعودون عندما سيبدأ الأميركيون في التعب من حربهم في أفغانستان. سيحيون ليحاربوا من جديد.

استغرق تنظيم مطاردة بن لادن أحد عشر شهراً. وعندما بدأت المطاردة الجديّة، كنت في شرق أفغانستان، في جلال أباد ومن حولها، حيث سافرت خمس مرّات على مرّ السنين. وقد استعاد أحد معارفي القدامى، الحاج عبد القادر، للتو، مركزه كحاكم للمقاطعة، بعد يومين على سقوط الطالبان. والحاج عبد القادر مثال على الديموقراطية الأفغانية. إنه زعيم قبلي للباتان، في أوائل الستين من العمر، وعلى درجة عالية من العلم والثقافة، وهو تاجر ثري بالأفيون والسلاح، وغير ذلك من المنتجات الأفغانية الأساسية، وكان قائداً مدعوماً من

«السي.آي.أيه.» في القتال ضد الاحتلال السوفياتي، وحاكماً لمقاطعته من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٦، وشريكاً مقرّباً إلى طالبان في أيامهم. وقد رحّب شخصياً بأسامة بن لادن في أفغانستان، وساعده على إقامة مجمّع خارج جلال أباد. وها هو يرحّب الآن بالاحتلال الأميركي. والحاج عبد القادر مضيف جيّد. تمشيّنا في حدائق قصر الحاكم، عبر أشجار النخيل المتقوّسة والأثل الرقيقة القوام. وأخذ يتوقّع زيارة من أصدقائه الأميركيين في أي يوم الآن، وهو يتطلّع إلى إعادة تجديد الروابط القديمة والتبادل الطقوسي للمال النقدي في مقابل المعلومات.

جمع الحاج عبد القادر شيوخ قرى مقاطعته في قصر الحاكم. وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، حوالى الخامسة صباحاً، مع أول دعوة إلى الصلاة، حطّت طائرة صغيرة على المدرج الذي حفرته القذائف في مطار جلال أباد وعلى متنها بعثة من ضباط «السي.آي.أيه.» والقوات الخاصة. جلبوا معهم بالات ملأى بأوراق من فئة المئة دولار. التقوا مع الحاج زمان، القائد المعيّن الجديد لجلال أباد في الحكومة التي نصّبت نفسها بنفسها. أبلغ الأميركيين أنه متأكد بنسبة تسعين في المئة من أن بن لادن موجود في تورا بورا. فالطريق الترابي الذي ينطلق جنوبا من جلال أباد إليها، ينتهي إلى مسلك جبلي وعر لا يمكن عبوره إلا للرجال والبغال. ويرتبط رأس المسلك بشبكات من طرق المهرّبين المؤدية إلى الممرات الجبلية إلى باكستان. شكّلت تلك الطرق خط إمداد للمتمردين الأفغان، وأصبحت تورا بورا مكاناً ذا شهرة كبيرة في القتال ضد السوفيات. وتم، بمساعدة من «السي.آي.أيه.»، حفر مجموعة من الكهوف عند سفوح الجبال لتتوافق مع مقاييس حلف شمال الأطلسي. ومن الأفضل نصح قائد أميركي تلقى أوامر بتدمير تورا بورا بأن يستخدم سلاحاً نووياً تكتيّاً. وكذلك، كان ضابط «السي.آي.أيه.» لديه أوامر باعتقال بن لادن، ليحتاج إلى استخدام الفرقة العاشرة للقتال في الجبال.

في الخامس من كانون الأول/ديسمبر، أخذت أشاهد، من على بعد بضعة أميال، قاذفات «البي ٥٢» الأميركية وهي تدك هذا الحصن الصخري. أردت أن أرى بنفسي رأس بن لادن وقد رُفع على خازوق. كان في مجال الوكالة، لكن

بعيداً عن متناولها. ففي الإمكان النيل منه فقط بواسطة حصار لا قدرة لـ «السي. آي. أيه.» على فرضه. والذين طاردوا القاعدة في أفغانستان هم أفضل الموجودين في الوكالة، إلا أن عددهم قليل جداً. جاؤوا متسلحين بالأموال النقدية، ولكن باستخبارات قليلة جداً. وسرعان ما ظهرت عبثية مطاردة بن لادن بواسطة القنابل التقليدية. فبن لادن، بانتقاله من معسكر إلى معسكر على الحدود الأفغانية، يخضع لحماية كتيبة من مئات المحاربين الأفغان الذين قوّت الحرب من مراسهم وآلاف رجال القبائل الباتان الذين يفضلون الموت على خيانته. وهو قد فاق «السي. آي. أيه.» عدداً ودهاءً في أفغانستان، ونجا.

احمرَّت عينا تينيت، واستاء، وأخذ يقضم عقب سيجاره، وبات على حدود قدرته على الاحتمال. فقواته المكافحة للإرهاب قد دُفعت إلى ما هو أقصى من قدرتها. وكانوا، إلى جانب جنود العمليات الخاصة الأميركيين، يطاردون، ويأسرون، ويقتلون مساعدي بن لادن وجنوده في أفغانستان، وباكستان، والسعودية، واليمن، وأندونيسيا. بيد أنهم شرعوا مجدّداً في إصابة الأهداف الخاطئة. قتلت هجمات البريداتور المسلّحة ما لا يقل عن ٢٤ أفغانياً بريئاً في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ٢٠٠٢؛ أعطت «السي. آي. أيه.» تعويضات بألف دولار لكل من عائلاتهم. وفي السنة التي أعقبت ٩/١١، شرع ضباط في «السي. آي. أيه.» ينتشرون في أوروبا وأفريقيا وآسيا، ويعملون مع كل جهاز استخبارات خارجي صديق في العالم في اختطاف أكثر من ثلاثة آلاف شخص واعتقالهم في أكثر من مئة بلد، على حدّ قول تينيت الذي نبّه إلى أنه «ليس كل من اعتقل إرهابياً. تم إطلاق البعض منهم، إلا أنه من المؤكد أن هذا التحرّش العالمي بالقاعدة قد عرقل عملياتها»[١٠]. ولا تمكن مجادلة ذلك. إلا أن الواقع يبقى أن ما لا يزيد على ١٤ رجلاً فقط، من بين الثلاثة آلاف المعتقلين، يشكلون شخصيات ذات مناصب عالية في القاعدة وتوابعها. وقد سجنت الوكالة معهم المئات ممن ليس لهم شأن. أصبحوا سجناء أشباحاً في الحرب على الإرهاب.

أخذ تركيز وحدّة مهمة قتل بن لادن أو اعتقاله في التراجع في آذار/مارس

٢٠٠٢، بعد الهجوم الفاشل على تورا بورا. وأصدر البيت الأبيض الأمر للوكالة بتوجيه انتباهها إلى العراق، وردّت الوكالة باخفاق أكثر إماتة لحظوظها من هجمات ١١/٩.

٤٩

خطأ جسيم

«ما من شك في أن صدام حسين يملك الآن أسلحة دمار شامل»، قال نائب الرئيس ديك تشيني في ٢٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢. «ما من شك في أنه يكدّسها لاستخدامها ضد أصدقائنا، ضدّ حلفائنا، وضدّنا». وردّد وزير الدفاع دون رامسفلد الأمر نفسه: «نعرف أنهم يملكون أسلحة دمار شامل»، قال. «لا جدال في ذلك».

قدّم تينيت تحذيراته الكالحة الخاصة في جلسة استماع سرّية، في ١٧ أيلول/سبتمبر، أمام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ: «جهّز العراق القاعدة بأنواع مختلفة من التدريب القتال، صنع القنابل، السلاح الكيميائي، البيولوجي، والإشعاعي، والذرّي». استند في بيانه إلى اعتراف مصدر وحيد: ابن الشيخ الليبي(١)، وهو لاعب هامشي تعرّض للضرب، وحُشر في علبة بمساحة قدمين مربعين لسبع عشرة ساعة، وتم تهديده بالتعذيب المتواصل. تراجع السجين عن أقواله بعدما انحسر التهديد بالتعذيب، ولم يصحح تينيت السجل.

في السابع من تشرين الأول/أكتوبر، عشية نقاش الكونغرس إذا كان يجب شن الحرب على العراق، قال الرئيس بوش إن العراق «يمتلك وينتج أسلحة كيميائية وبيولوجية، وينتجها». وتابع محذّراً من أنه «يمكن العراق أن يقرر، في أي يوم، تزويد مجموعة إرهابية، أو فرد إرهابي، بسلاح بيولوجي أو كيميائي». وخلق الأمر ورطة لتينيت. فقبل ذلك بأيام، ناقض نائبه، جون مالوفلين، الرئيس في شهادة أمام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ. وأصدر تينيت، بأوامر من

البيت الأبيض، بياناً جاء فيه أنه «لا يوجد عدم اتساق بين وجهة نظرنا حيال التهديد المتصاعد الذي يشكّله صدام، ووجهة النظر التي أعرب عنها الرئيس في خطابه».

شكّل ذلك آخر أمر وجب عليه التفوّه به، وقد عرف ذلك. وقال تينيت في شهادة بعد نحو أربع سنوات، «كان من الخطأ القيام بالأمر»[٢]. كان تينيت، في خلال سنواته التي قضاها في الخدمة العامة، رجلاً محترماً في الأساس. لكن، تحت الضغوط الهائلة التي واجهها بعد ٩/١١، فإن عيبه الوحيد، وهو رغبته الجامحة في إرضاء رؤسائه، أصبح خطّ صدع. انهار خُلُق تينيت، وكذلك فعلت «السي.آي.أيه.» أنتجت الوكالة، تحت قيادته، أسوأ كتلة من العمل في تاريخها الطويل: تقدير استخباراتي وطني خاص بعنوان «برامج أسلحة الدمار الشامل المستمرة في العراق».

يشكّل التقدير الوطني أفضل حُكم على الأمور لمجتمع الاستخبارات الأميركي، وهو من إنتاج «السي.آي.أيه.»، وإدارتها، ويتم توزيعه بسلطة وموافقة مدير الاستخبارات المركزية، وموافقته إنه كلمته.

هذا التقدير أوصى عليه أعضاء في لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، اعتقدوا أنه من الحكمة مراجعة الدليل قبل المضي إلى الحرب. وبناءً على طلبهم، أمضى محللو «السي.آي.أيه.» ثلاثة أسابيع يجمعون كل ما عرفته الوكالة من أقمار التجسس، ويراجعونه؛ ومن أجهزة استخبارات أجنبية؛ ومن عملاء عراقيين مجنّدين، ومن منشقين، ومتطوعين. وأفادت «السي.آي.أيه.» في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، أنه لا يمكن إحصاء التهديد. وقال التقرير السرّي للغاية إن «بغداد تملك أسلحة كيميائية وبيولوجية». وصدّام دعم تكنولوجية الصواريخ لديه، وزاد كثيراً من مخزوناته القاتلة، واستأنف برامجه للأسلحة الذرّية. وقال التقدير إنه «إذا استحصلت بغداد على ما يكفي من المواد القابلة للانشطار من الخارج، فسيمكنها صنع سلاح ذري في غضون بضعة أشهر». وفي ما هو أكثر إرعاباً من ذلك كلّه، حذّرت «السي.آي.أيه.» من أنه في وسع العراق شن هجمات كيميائية وبيولوجية في داخل الولايات المتحدة.

أكّدت «السي.آي.أيه.» كلّ شيء يقوله البيت الأبيض. إلا أن الوكالة أخذت تقول أكثر بكثير مما تعرف. «لم نملك الكثير من المصادر العراقية»، هو ما اعترف به جيم بافيت، رئيس الجهاز الخفي، بعد ذلك بسنتين(٣). «امتلكنا أقل من حفنة منها». وأنتجت الوكالة أطناناً من التحليل من أونصة واحدة من الاستخبارات. وكان ذلك لينجح لو أن الأونصة من الذهب الخالص، وليس من المعدن الرديء كلّياً.

أخذت «السي.آي.أيه.»، كمؤسسة، تراهن على أن الجنود الأميركيين والجواسيس سيعثرون على الدليل بعد غزو العراق. شكلّت تلك مقامرة جهنمية. ولاستفظعها ريتشارد هيلمس الذي مات في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، عن ٨٩ عاماً، بعدما تم إنجاز التقدير. أعادت «السي.آي.أيه.»، إشادةً بإرثه، وطباعة أجزاء من خطاب ألقاه قبل سنوات كثيرة. دُفن النص الكامل في أرشيف الوكالة، لكن قوّته لم تخفت. قال هيلمس «يصعب علينا أحياناً أن نفهم حدة الانتقادات العامة الموجهة إلينا. فانتقاد فاعليتنا أمر، وانتقاد مسؤوليتنا أمر آخر. أعتقد أننا، بوصفنا ذراعاً مهمّة للحكومة، عنصر مشروع للاهتمام العام... بيد أنني أجد الأمر أشد صعوبة عندما يقلل النقاش العام من فائدتنا للأمة من خلال إلقاء ظلال من الشك على استقامتنا وموضوعيتنا. فلا غرض لنا إذا لم يتم تصديقنا»(٤).

لم نملك أجوبة

لفهم كيف تمكنت «السي.آي.أيه.» من القول إن أسلحة الدمار الشامل العراقية موجودة، تجب العودة إلى ١٩٩١ عند نهاية حرب الخليج الأولى. فبعد الحرب جاءت سبع سنوات من التفتيش الدولي الدقيق والكثيف، بقيادة مفتشي الأمم المتحدة الباحثين عن دليل بأن لصدام ترسانة مخبأة. مشطوا البلاد واستحوذوا على ما أمكنهم.

وفي أواسط التسعينيات خشي صدام العقوبات الاقتصادية الدولية أكثر من خوفه من هجوم أميركي آخر. دمّر أسلحته للدمار الشامل استجابة لأوامر الأمم

المتحدة، إلا أنه احتفظ بمنشآته لإنتاج السلاح، وكذب في خصوصها، وعرفت الولايات المتحدة والأمم المتحدة أنه يكذب. وتسبب إرث الكذب بأن المفتشين و«السي.آي.أيه.» اساؤوا اساؤوا الظن بكل ما فعله العراق.

في ١٩٩٥، انشق اللواء حسين كمال، صهر صدام، مع بضعة من مساعديه. أكّد كمال أن صدام دمّر الأسلحة. لم تعر «السي.آي.أيه.» اهتماماً لما قاله، واعتبرته خداعاً. وواقع أن كمال عاد إلى العراق واغتاله عمّه، لم يبدّل من اعتقاد الوكالة.

أبلغ مساعدوه «السي.آي.أيه.» عن مديرية الرقابة الوطنية، التي تهدف إلى إخفاء نيات صدام وقدراته العسكرية عن العالم. أرادت «السي.آي.أيه.» خرق منظومة الإخفاء هذه، وأدت ضربة حظ إلى جعل ذلك ممكناً. كان رولف أكيوس، رئيس فريق التفتيش الدولي، سويدياً. وكذلك كانت إريكسون، عملاقة الاتصالات عن بعد، التي صنعت أجهزة اللاسلكي التي استخدمتها مديرية الرقابة الوطنية. استنبطت «السي.آي.أيه.»، ووكالة الأمن القومي، وإكيوس، وإريكسون، طريقة للتنصت على الاتصالات العراقية. وفي آذار/مارس ١٩٩٨، ذهب ضابط في «السي.آي.أيه.» بوصفه واحداً من مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، إلى بغداد وركّب نظام التنصّت. تم بث المحادثات التي يتم اعتراضها إلى حاسوب في البحرين، يبحث عن كلمات مفاتيح مثل صاروخ وكيميائي. كانت عملية رائعة، مع استثناء واحد: لم تعلم «السي.آي.أيه.» شيئاً حول وجود أي أسلحة دمار شامل في العراق.

في ربيع تلك السنة، وجد مراقبو الأسلحة ما اعتقدوا أنه آثار غاز الأعصاب «في.إكس» في رؤوس حربية لصواريخ عراقية. تم تسريب تقريرهم إلى «الواشنطن بوست». اعتبرت بغداد ذلك بمثابة كذبة أميركية. وخلص تشارلز دولفر، الذي قاد، في التسعينيات، بعض فرق التفتيش وعاد إلى العراق، في ٢٠٠٤، بوصفه المفتش الرئيسي لدى تينيت عن الأسلحة، إلى القول: «أعتقد، في مآل الأمر، أن العراقيين كانوا على حق. فهم لم يجعلوا من «الفي.أكس» سلاحاً»[٥].

شكّلت المواجهة حول تقرير «الفي.أكس» نقطة تحوّل. لم يعد العراق يثق بالمفتشين، الذين لم يثقوا أبداً به. وسحبت الأمم المتحدة، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨ مفتشيها، وشرعت الولايات المتحدة مرّة أخرى في قصف بغداد. واستخدمت المعلومات التي لملمتها «السي.آي.أيه.» من أجهزة تنصت إريكسون، لتوجيه الصواريخ الأميركية ضد الأشخاص والمؤسسات، بما في ذلك منزل الرجل الذي يرأس مديرية الرقابة الوطنية.

أعلن العراق للأمم المتحدة أنه تخلّص من أسلحة الدمار الشامل. وكانت هذه الإعلانات دقيقة في الأساس؛ والانتهاكات الحقيقية ضئيلة. إلا أن صدّام تعمَّد أن يبقى مبهماً في شأن ترسانته، مخافة أن يقف عارياً أمام أعدائه إذا اعتقدوا أنه لا يملك القدرة على إنتاج الأسلحة. أراد للولايات المتحدة، ولأخصامه في إسرائيل وإيران، ولأعدائه في الداخل، وفوق ذلك كله لجيشه، أن يعتقدوا جميعهم أنه لا يزال يمتلك الأسلحة. فالإيهام شكّل أفضل رادع عنده، ودفاعه الأخير ضد الهجوم.

هذه هي حال الأمور التي واجهت «السي.آي.أيه.» بعد ٩/١١. فآخر تقاريرها الموثوقة من داخل العراق، باتت أخباراً قديمة جداً. «كنّا محرومين من أي استخبارات بشرية: صفر، لاشيء، في ما يتعلق بعملاء في الميدان»[٦]، قال ديفيد كاي، الذي سبق له أن قاد فريق الأمم المتحدة، وسبق دولفر بوصفه رئيس متعقبي الأسلحة التابعين لـ «السي.آي.أيه.» في العراق. أراد البيت الأبيض أجوبة. «لم نملك أجوبة»، قال كاي.

قال، ثم، في ٢٠٠٢، «ظهر فجأة ما بدا أنه مصدر ذهبي من مصادر الاستخبارات البشرية: المنشقون. أخبرنا هؤلاء المنشقون الآتون من رحم نظام صدام، عن برامج الأسلحة التابعة له، وما تحقّق من تقدّم فيها. لم يأت جميعهم إلى الولايات المتحدة. فالكثيرون منهم تقدموا إلى أجهزة استخبارات فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، وغيرها من البلدان. بدت المعلومات جيّدة في شكل لا يقبل التصديق». وإحدى أكثر الروايات إثارة تلك التي تتحدث عن مختبرات

أسلحة بيولوجية متحرّكة. والمصدر عراقي في يدي جهاز الاستخبارات الألمانية، أُعطي اسماً رمزياً هو كورفبول.

قال كاي، «أدرك المنشقون العراقيون أمرين: الأول هو أننا نتشارك مصلحة واحدة في تغيير النظام؛ والثاني أن الولايات المتحدة مهتمة كثيراً بأسلحة الدمار الشامل في العراق. لذا أخبرونا عن الأسلحة لجعلنا نتحرّك ضد صدام. الأمر بمثابة علم الفيزياء النيوتني الأساسي: أعطني رافعة كبيرة كفاية ونقطة ارتكاز، يمكنني تحريك العالم».

يوجد أمر واحد فقط أكثر سوءاً من عدم امتلاك المصادر، وهو أن يتم إغواؤنا من قبل مصادر تخبر الأكاذيب.

أنتج الجهاز الخفي القليل من المعلومات عن العراق. وقبل المحللون كل ما يدعم قضية الحرب. ابتلعوا أخباراً متناقلة من رواة ثانين وثالثين تتطابق مع خطط الرئيس. فغياب الدليل، بالنسبة إلى الوكالة، ليس دليلاً على الغياب. فصدام امتلك الأسلحة في ما مضى. وقال المنشقون إنه لا يزال يملكها. وبالتالي، فإنه يحتفظ بها. فـ «السي.آي.أيه.» كمؤسسة، سعت يائسة إلى الحصول على انتباه البيت الأبيض وموافقته. وقامت بذلك من خلال إخبار الرئيس بما يريد سماعه.

وقائع واستنتاجات ترتكز على استخبارات متينة

عرض الرئيس بوش حجّة «السي.آي.أيه.»، وأكثر في خطابه عن حالة الأمة في ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣: صدّام حسين يمتلك أسلحة بيولوجية كافية لقتل الملايين، وأسلحة كيميائية لإبادة آلاف لا تحصى، ومختبرات بيولوجية متحركة مصممة لإنتاج عوامل جرثومية حربية. وقال إن «صدام حسين سعى أخيراً إلى الحصول على كميات كبيرة من اليورانيوم من أفريقيا. وأبلغتنا مصادرنا الاستخباراتية أنه حاول شراء أنابيب ألومينيوم شديدة المتانة مناسبة لإنتاج الأسلحة الذرّية».

هذا كلّه مثير للرعب، إلا أن أياً منه ليس صحيحاً.

عشيّة الحرب، في الخامس من شباط/فبراير ٢٠٠٣، ذهب وزير الخارجية كولن باول، الذي لا يضاهيه أحد في إدارة بوش في مكانته الدولية، إلى الأمم المتحدة. وبوجود جيمس تينيت مباشرة وراءه، وهو المساعد المخلص أبداً، ووجوده يشكّل تأكيداً صامتاً ـ والسفير الأميركي في الأمم المتحدة، المدير المقبل للأمن القومي، جون نيغروبونتي، إلى جانبه ـ بدأ وزير الخارجية بالقول: «إن كل بيان اليوم مدعوم بالمصادر، بالمصادر القوية. هذه ليست مزاعم. ما نقدمه إليكم هو وقائع واستنتاجات تستند إلى استخبارات متينة».

قال باول: «لا مجال للشك في أن صدام حسين يمتلك أسلحة بيولوجية، ولديه إمكانية نشر هذه السموم القاتلة والأمراض بطرائق يمكنها أن تسبب موتاً جسيماً ودماراً». وحذّر من جديد من مختبرات الأسلحة البيولوجية العراقية المتنقلة، وكيف يمكن أن تركن في الظل، وتنتج سمومها، وتتحرك بدون استشعارها. وقال إن لدى صدام ما يكفي من منظومات الأسلحة الكيميائية القاتلة لتعبئة ١٦ ألف صاروخ ميداني. والأخطر من ذلك كله ربّما، هو وجود التهديد «برابط أكثر شؤماً بكثير بين العراق، وبين شبكة القاعدة الإرهابية».

لم يكن هذا استخداماً انتقائياً للاستخبارات. لم يكن «قطاف»، ولا ترتيباً للوقائع بما يتناسب مع خطط الحرب. إنه ما قالته الاستخبارات، هو أفضل استخبارات أمكن الوكالة تقديمها. سبق لباول أن أمضى أياماً وليالي مع تينيت، مدققاً ومعيداً التدقيق في إفادة «السي.آي.أيه.». نظر تينيت في عينيه وأبلغه أنها متينة كالصخر(٧).

بدأت الحرب في ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣، قبل موعدها، بمعلومة سيئة من «السي.آي.أيه.». هرع تينيت إلى البيت الأبيض ومعه تقرير عاجل بأن صدام مختبئ في مجمّع جنوب بغداد يدعى مزارع الدورة. أصدر الرئيس أوامره إلى البنتاغون بتدمير المجمّع، فانهمرت القنابل المدمّرة للتحصينات وصورايخ الكروز. وقال نائب الرئيس تشيني، «أعتقد أننا نلنا من صدام حسين. فقد شوهد

وهو يتم انتشاله من الركام، وعاجز عن التنفس»[٨]. كان تقريراً زائفاً: فلا أحد يعرف مكان وجود صدام. والإخفاق الأول في الاستهداف في الحرب ليس الأخير. ففي السابع من نيسان/أبريل ٢٠٠٣، أفادت الوكالة أن صدام وابنه مجتمعان في منزل قريب من مطعم الساع في حي المنصور. ألقى سلاح الجو أربع قنابل، زنة الواحدة منها طن، على المنزل. إلا أن صدام لم يكن هناك. وقُتل ١٨ مدنياً بريئاً.

سبق للوكالة أن تنبّأت بأن آلاف الجنود العراقيين وقادتهم سيستسلمون على طول خط الهجوم ما إن يبدأ شنّه من الحدود مع الكويت[٩]. إلا أن قوة الغزو الأميركية اضطرت إلى شق سبيلها قتالاً عبر كل مدينة، من أي حجم، في الطريق إلى بغداد. تصوّرت «السي.آي.أيه.» الاستسلام الشامل للوحدات العسكرية العراقية، وكانت استخباراتها محدّدة: الفرقة العراقية المتمركزة في الناصرية ستلقي السلاح. تعرّض أول الجنود الأميركيين الداخلين إلى المدينة لكمين؛ قُتل ١٨ من المارينز، بعضهم بنيران صديقة، في أول معركة رئيسة في الحرب. قيل للقوات الأميركية إن العراقيين المبتهجين سيستقبلونها وهم يلوّحون بأعلام الأميركية ـ سيقوم الجهاز الخفي بتوفير الأعلام ـ ويمطرونها بالحلوى والزهور في شوارع بغداد. إلا أنه سيتم الترحيب بها في حينه بالرصاص والقنابل.

جمّعت «السي.آي.أيه.» لائحة من ٩٤٦ موقعاً يمكن العثور فيها على ترسانات الدمار الشامل التابعة لصدام. وجُرح جنود أميركيون وقُتلوا وهم يبحثون عن أسلحة لم توجد أبداً. فوّتت الوكالة التهديد الذي تشكله البنادق الهجومية وقاذفات الصواريخ التي يخزنها الفدائيون، وهم القوات غير النظامية التي يقودها عدي حسين نجل صدام. وأدى هذا الإخفاق إلى أوّل سلسلة رئيسة من قتلى المعارك بين الجنود الأميركيين. وكتب مؤلفو On Point، وهو التأريخ الرسمي للجيش الأميركي لغزو العراق، «إن الفدائيين وغيرهم من القوى شبه العسكرية أثبتوا أنهم يشكلون تهديداً أكبر مما توقعه أي كان. لم تتوقع الاستخبارات ومجتمعات العمليات أبداً مدى شراستهم، وعنادهم، وتعصّبهم».

نظّمت «السي.آي.أيه.» فرقة شبه عسكرية مؤلفة من عراقيين تدعى العقارب للقيام بعمليات تخريب قبل الحرب وفي سياقها. وميّز العقارب أنفسهم، خلال الاحتلال، بضربهم جنرالاً عراقياً حتى الموت. اشتُبه بالجنرال عبد حامد موهوش في قيادة هجمات المتمردين، إلا أنه سلّم نفسه طوعاً إلى القوات الأميركية، فضربه العقارب حتى فقد الوعي بمقابض المطارق، بوجود ضابط «السي.آي.أيه.» الذي يتولى قيادتهم، وهو ضابط متقاعد من القوات الخاصة وقّع عقداً مع الوكالة لفترة الحرب. توفي موهوش بعد ذلك بيومين، في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، متأثراً بجراحه[١٠]. وفي وقت سابق من ذلك الشهر، عُذّب سجين عراقي يدعى مناضل الجمادي حتى الموت في سجن أبو غريب وهو في عهدة ضابط من «السي.آي.أيه.». شكّلت هذه التحقيقات الوحشية جزءاً مما طلب البيت الأبيض من الوكالة القيام به عندما تم التعامل مع الأمر بدون هوادة.

أصبحت قوات الاحتلال الأميركي، على ما استنتجته «السي.آي.أيه.» بعد ثلاثة أعوام على الغزو، «القضية الشهيرة للجهاديين، التي تولّد نقمة عميقة على التورط الأميركي في العالم الإسلامي، وتعمل على تنمية المؤيدين للحركة الجهادية العالمية»[١١]. وجاء التقويم بعد فوات الأوان بوقت كبير، ولم يعد له الكثير من الفائدة للقوات الأميركية. «لكل جيش تحرير حياة نصفية يتحوّل في ما بعدها إلى جيش احتلال»[١٢]، كتب الجنرال ديفيد هـ. بترايوس، الذي تولى قيادة الفرقة المجوقلة ١٠١ في السنة الأولى للحرب، وأشرف على تدريب الجيش العراقي في مهمة ثانية، وعاد بوصفه قائداً للقوات الأميركية في ٢٠٠٧.

قال إن «الاستخبارات هي مفتاح النجاح». وبدونها تسقط العمليات العسكرية «في دوامة انحدارية كارثية».

مجرّد تخمين

أخذت الوكالة في التدفّق على بغداد بعدما انتهت الحرب. «أصبحت بغداد، في حين أن العراق ينتقل من الحكم الاستبدادي إلى تقرير المصير، مقرّاً لأكبر

محطة لـ «السي.آي.أيه.» منذ حرب فيتنام»[١٣]، بحسب ما أعلن جيم بافيت، رئيس الجهاز الخفي. «أنا فخور للغاية بتأديتنا في العراق، وبدورنا في تحرير الناس من عقود من الجور». عمل ضباط محطة بغداد مع جنود القوات الخاصة، محاولين خلق مناخ سياسي جديد في العراق، منتقين الزعماء المحليين، راشين السياسيين، ومحاولين إعادة بناء المجتمع من القاعدة. حاولوا العمل مع نظرائهم البريطانيين لإنشاء جهاز استخبارات عراقي جديد. إلا أنه لم ينتج عن ذلك كله إلا القليل. وعندما أخذ التمرد العراقي في النشوب ضد الاحتلال الأميركي، أخذت هذه المشاريع في التفكك، وشرعت قيادة محطة «السي.آي.أيه.» في بغداد في الانهيار.

وبينما أخذ الاحتلال في الخروج عن السيطرة، وجد ضباط «السي.آي.أيه.» أنفسهم مسمّرين في مجمّع السفارة الأميركية في العاصمة، غير قادرين على الهروب من حماية الأسوار المرتفعة والأسلاك الشائكة. أصبحوا أسرى المنطقة الخضراء، لا قدرة لهم على فهم التمرّد العراقي، ويمضون الكثير من الساعات في حانة بابل التي تديرها محطة بغداد[١٤]. ولن يقبل الكثيرون منهم المداورة لأكثر من ثلاثة أشهر، وهي فترة بالكاد تكفي للتعرف إلى وجهتهم في بغداد.

مرّ على المحطة، التي قاربت صفوفها الخمسمئة ضابط، ثلاثة رؤساء في خلال سنة. لم تتمكن «السي.آي.أيه.» وحسب من إيجاد بديل لأول رئيس محطة في ٢٠٠٣. «واجهوا صعوبة كبيرة، وكبيرة جداً في إيجاد شخص كفؤ للذهاب»[١٥]، قال لاري كراندال، المسؤول المتمرس في الخارجية، الذي عمل عن كثب مع «السي.آي.أيه.» في خلال الجهاد الأفغاني، وكما عمل بوصفه الرقم الثاني في إدارة البرنامج الأميركي لإعادة بناء العراق، الذي بلغت كلفته ١٨ مليار دولار. لم تملك الوكالة أحداً من الجهاز الخفي يرغب أو يقدر على الخدمة. واختارت في النهاية محللاً يكاد لا يملك أي خبرة في إدارة العمليات. لكنه لم يستمر إلا مسألة أشهر. وشكل ذلك إخفاقاً لا مثيل له في القيادة في زمن الحرب.

أعادت «السي.آي.أيه.» إرسال أفضل المفتشين الذين نقّبوا عن ترسانة صدّام في التسعينيات إلى العراق. ترأس ديفيد كاي فريقاً من ١,٤٠٠ خبير، هو مجموعة المسح العراقية، يعمل مباشرة لمدير الاستخبارات المركزية. واستمر تينيت في دعم إفادات «السي.آي.أيه.»، رافضاً الانتقاد المتزايد بوصفه «مُضَلَّلاً، ومُضَلِّلاً، وخاطئاً كلّياً وحسب»(١٦). إلا أن مجموعة المسح جابت العراق ولم تجد شيئاً. وعندما عاد كاي للإفادة عن ذلك، وضعه تينيت في المطهر. إلا أن كاي مثل أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ في ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، ونطق بالحقيقة.

«كنّا مخطئين في شكل شبه تام»، قال.

عندما تأكّد من أن الوكالة تخيّلت فقط ترسانة العراق ليوم الدين، أخذ الإعياء المعنوي الشديد يخيّم على «السي.آي.أيه.»، وحل الغضب الأسود المرير محل الروح الملتهبة التي أمسكت بها بعد ٩/١١. وبات واضحاً أن ما لدى الوكالة لتقوله لم يعد يعني الكثير للبيت الأبيض، أو للبنتاغون، أو لوزارة الخارجية(١٧).

ازدرى الرئيس بوش بتقارير «السي.آي.أيه.»، التي تزداد فظاعة، حول مسار الاحتلال. وقال إن الوكالة «تتكهّن وحسب»(١٨).

إنها دَقَّة الموت. إذا لم يتم تصديقنا، فلا غرض لنا.

الدليل واهن كلّياً

«نحن في حالة حرب»(١٩)، قال القاضي لورانس سيلبرمان، الذي عيّنه الرئيس بوش في السادس من شباط/فبراير ٢٠٠٤ لقيادة التحقيق في الوسائل التي استحضرت فيها «السي.آي.أيه.» أسلحة صدّام. «لو أن الجيش الأميركي ارتكب أخطاء تقارب بأي شكل من الأشكال رداءة أخطاء مجتمعنا الاستخباراتي، لتوقّعنا طرد جنرالات من الخدمة».

وتابع: «لكان للأمر ما يبرره بصورة فائقة، لو تمّ إبلاغ الرئيس والكونغرس

أنه من المرجّح امتلاك صدام أسلحة الدمار الشامل استناداً إلى استخدامه السابق لها، وإلى مؤشرات غير كافية للدمار، وإلى سلوكه الخادع». إلا أن «السي.آي.أيه.» ارتكبت «خطأً خطيراً، وخطيراً جداً في الانتهاء إلى وجود تسعين في المئة من اليقين بامتلاكه أسلحة دمار شامل. وهذا خطأ خطير لا يرتكز على رأي تدبّري». قال. «كان الدليل واهناً كلّياً، وبعضه معيباً إلى حد كبير، ومهارتهم الحرفية لم تكن جيدة. والأكثر من ذلك هو وجود هوّة لا قرار لها في التواصل الداخلي في قلب مجتمع الاستخبارات، بحيث إن اليد اليسرى لم تعرف في الغالب مع تفعله اليد اليمنى».

توصّلت «السي.آي.أيه.» إلى استنتاجاتها في شأن الأسلحة الكيميائية العراقية فقط على أساس صور أسيء تفسيرها لشاحنات صهاريج عراقية. وارتكزت «السي.آي.أيه.» في استنتاجاتها حول الأسلحة البيولوجية العراقية على مصدر وحيد، هو كورفبول، كما استندت في تحليلها حول وجود الأسلحة النووية العراقية، في شكل شبه كامل، إلى استيراد صدّام أنابيب من الألومينيوم مناسبة، أو مصمَّمة، للأسلحة النووية»، قال القاضي سيلبرمان.

وقال، «إن ما شكل مثل هذه الكارثة، هو أن يذهب كولن باول إلى الأمم المتحدة ويعرض تلك القضية المؤكدة في شكل مطلق، والتي لا مجال فيها للخطأ، والمرتكزة على مادة سيئة، وسيئة فعلا».

حصل القاضي سيلبرمان ولجنته الرئاسية على إذن غير مسبوق بقراءة كل موضوع حول أسلحة الدمار الشامل من الموجزات اليومية للرئيس. ووجدوا أن تقارير «السي.آي.أيه.» الموجهة إلى الرئيس فقط لا تختلف عن بقية عملها، بما في ذلك التقدير الشهير، في ما عدا ناحية واحدة. فقد وجدت اللجنة أنها «أكثر تضليلاً»[٢٠]. وهي «إذا كان من شيء، أكثر تهويلاً وأقل دقّة». فالإيجازات اليومية للرئيس، «بعناوينها اللافتة للانتباه، وتكرارها الأشبه بقرع الطبول، خلّفت انطباعاً بوجود تقارير كثيرة تؤكّد بعضها البعض، بينما في الواقع لم توجد سوى مصادر قليلة جداً... وبدا، بطرائق حاذقة وأقل حذقاً في

آن، أن التقارير اليومية «تبيع» الاستخبارات «بهدف الابقاء على اهتمام زبائنها، أو على الأقل الزبون الأول».

لم نتمكن من إنجاز العمل

رأى جورج تينيت أن زمنه انتهى. بذل أفضل ما في وسعه لإعادة إحياء الوكالة وتجديدها. بيد أنه سيتم تذكّره دوماً في أمر واحد: إعادة طمأنة الرئيس إلى أن «السي.آي.أيه.» تملك دليلاً «قاطعاً حاسماً» في شأن أسلحة الدمار الشامل العراقية. وقال تينيت مستفكراً، «إنهما أغبى كلمتين تلفّظت بهما أبداً»(٢١). وبغض النظر عن طول السنين التي سيبقى فيها على قيد الحياة، والأعمال الجيدة التي قد يقوم بها في السنوات الآتية، فإن هاتين الكلمتين ستجدان مكانهما في أول مقطع من نعيه.

طلب تينيت، وهذا لمفخرته، من ريتشارد كير، النائب السابق لمدير الاستخبارات المركزية، التحقيق في ما جرى من خطأ في تقدير الوضع العراقي. وصُنّفت الدراسة سرّية بعد إنجازها في تموز/يوليو ٢٠٠٤، وبقيت مصنّفة لما بعد نحو سنتين. وعندما رُفع عنها خاتم السرّية، اتضح لماذا أبقتها الوكالة مخفية عن الأنظار. كانت قطعة تأبينية. وجاء فيها أن «السي.آي.أيه.» كادت تغيب عن الوجود لدى انتهاء الحرب الباردة. فقد كان لسقوط الاتحاد السوفياتي وقع على الوكالة «شبيه بتأثير ضربات النيازك على الديناصورات»(٢٢).

أُجبر المحللون، في حالة العراق، وفي حالات كثيرة أخرى أيضاً، على نحو روتيني، على «الاعتماد على إفادات مصادرها مُضَلِّلة، بل حتى غير موثوقة». وفي حالة كورفبول الشهيرة، حصل ضباط «السي.آي.أيه.» على تحذير واف بأن الرجل كاذب، إلا أنه لم تتم مراعاة هذا التحذير. لم يشكّل ذلك إهمالاً للوظيفة، لكنه قريب منه.

استخدم الجهاز الخفي، على نحو روتيني، «أوصافاً مختلفة للمصدر ذاته»،

بحيث يعتقد قرّاء تقاريره أنه يمتلك ثلاثة مصادر متطابقة، في حين أنه يملك واحداً. وهذا ليس تزويراً، لكنه قريب منه.

عملت «السي.آي.أيه.» على مسائل الترسانة العراقية لأكثر من عقد، وبرغم ذلك مضى تينيت إلى جورج بوش وكولن باول، عشية الحرب، شاهراً افتراءات لبّسها لباس الحقائقُ القاطعة. وهذه ليست جريمة، لكنها قريبة منها.

هذا هو، يا للمأساة، إرث تينيت. لقد اعترف في النهاية بأن «السي.آي.أيه.» مخطئة، ليس «لأسباب سياسية أو لرغبة توّاقة في جرّ البلاد إلى حرب»، بل بسبب عدم كفاءتها. وقال «لم نتمكن من إنجاز العمل»[٢٣].

تُرك شرح المغزى الكامل لهذا الإخفاق لرئيس مفتشي الأسلحة في «السي.آي.أيه.» ديفيد كاي. قال «نعتقد أن الاستخبارات مهمة في كسب الحروب. الحروب لا تُكسب بالاستخبارات. إنها تُربح بالدم، والثروة، وببطولة الشبان والشابات الذين نضعهم في الميدان... وما تفعله الاستخبارات حقيقة، عندما تعمل بالوجه الصحيح، هو المساعدة على تفادي الحروب»[٢٤]. ذلك، في النهاية، هو الإخفاق المطلق للاستخبارات.

٥٠

مراسم الدفن

استقال جورج تينيت في الثامن من تموز/يوليو ٢٠٠٤، بعد سبع سنوات على توليه المنصب. وأوجز، في خطابه الوداعي في مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، كلمات تيدي روزفلت:[١] ليس الانتقاد هو الذي يؤخذ في الحسبان، ولا الرجل الذي يشير إلى كيفية تعثّر الرجل القوي،، أو أين أمكن فاعل الأمر أن يقوم به في شكل أفضل. فالفضل يعود إلى الرجل الذي هو فعلاً في الميدان، ووجهه ملوّث بالغبار والعرق والدم. واستشهد ريتشارد نيكسون بالخطاب ذاته في اليوم الذي سبق مغادرته البيت الأبيض بالعار.

اعتكف تينيت ليكتب مذكّرات مؤلمة عن عهده في «السي.آي.أيه.»[٢] شكّل ذلك كتاباً اعتزازيّاً مريراً. وتفاخر عن حق بنجاح «السي.آي.أيه.» ـ بمساعدة لا تقدّر من الاستخبارات البريطانية ـ في الكشف عن برامج أسلحة سرّية في باكستان وليبيا. وأصرّ على أنه حوّل الوكالة من يباب إلى مولّد كهربائي. لكن الآلة تعطّلت تحت ضغط لا يُحتمل. لم يمكن تينيت ضرب القاعدة قبل ٩/١١، وكتب: «في غياب الاستخبارات المتينة، يصبح العمل الخفي لعبة الأحمق». وقد اجتاحته، منذ أن وقعت الهجمات، موجات متتالية من التهديدات التي لم تتحقق. وقد أوصل في كل يوم المخاوف الجديدة إلى البيت الأبيض، و«كان في الإمكان أن تدفع بنفسك إلى الجنون لو أنك صدّقت كل» ما أفاد به، «أو حتى نصفه». وهو كاد يفعل ذلك. فهو و«السي.آي.أيه.»، وقد استحوذ عليهما عدم اليقين، أقنعا نفسيهما بوجود ترسانة العراق. وكتب، «كنّا سجناء تاريخنا نفسه»، لأن الوقائع الثابتة الوحيدة التي أمتلكها تعود إلى أربعة أعوام». اعترف

بالخطأ، إلا أن ذلك شكّل توسّل رجل محكوم للغفران. وبلغ تينيت حد الاعتقاد أن البيت الأبيض يريد تحميله ملامة قرار المضي إلى الحرب. وقد شكّل هذا حملاً أكبر من طاقته على التحمّل..

وها إن الناقد يأخذ دوره بوصفه الرجل في الميدان.

لم يشكّل بورتر غوس أبداً نجاحاً كبيراً في «السي.آي.أيه.». فقد تم تجنيده في سنته الأولى في يال في ١٩٥٩، وانضم إلى الجهاز الخفي، وخدم بإمرة ألن دالاس، وجون ماكون، وريتشارد هيلمس. عمل لعقد من الزمن في قسم أميركا اللاتينية، مركّزاً على كوبا، وهايتي، وجمهورية الدومينيكان، والمكسيك. وأبرز ما فعله في خلال وجوده في محطة ميامي، هو تهريب عملاء كوبيين من الجزيرة وإليها، في مراكب صغيرة تحت جنح الليل في خريف ١٩٦٢.

خدم غوس بعد ذلك بتسع سنوات في محطة لندن، حيث أصيب بعدوى جرثومية في القلب والرئتين كادت تودي بحياته. اعتزل العمل، وتعافى، واشترى صحيفة صغيرة في فلوريدا، وسرعان ما رهنها من أجل مقعد في الكونغرس في ١٩٨٨. وهو صاحب ثروة صافية بـ ١٤ مليون دولار، ومزرعة في فرجينيا، وعقار في لونغ آيلند ساوند، وسلطة نائب الملك على «السي.آي.أيه.» بوصفه رئيساً للجنة الاستخبارات في مجلس النواب.

كان متواضعاً في شأن إنجازاته في الوكالة. وقال في ٢٠٠٣، «لَمَا أمكنني الحصول على عمل في «السي.آي.أيه.» اليوم. فأنا لست مؤهّلاً»[٣]. وهو محقّ في هذا الشأن. إلا أنّه قرر أنه، هو وحده، من سيكون المدير المقبل للاستخبارات المركزية. وقدّ صوّب على تينيت في عملية إطلاق نار فاسقة. واستخدم كسلاح له كلمات التقرير السنوي للجنة الاستخبارات حول الوكالة.

سيتطلّب منّا الأمر خمس سنوات أخرى

حذّر تقرير غوس، الذي نُشر في ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٤، قبل ثلاثة

أسابيع على تنحّي تينيت، من أن الجهاز الخفي أخذ يصبح «بيروقراطية متكلّفة عاجزة عن أقل قدر صغير من النجاح»(٤). فبرغم أن ١٣٨ ألف أميركي قدّموا، في السنة السابقة، طلبات للعمل في «السي.آي.أيه.»، فإن قلّة منهم نجحت في الحصول على رتبة جاسوس. وقد أدلى تينيت للتو بشهادة بأن «الأمر سيتطلب خمس سنوات أخرى للحصول على نوع الجهاز الخفي الذي تحتاج إليه بلادنا»(٥).

التقط غوس هذه الحقيقة المحزنة: «نحن الآن في السنة الثامنة من إعادة البناء، ولا نزال بعيدين خمس سنوات عن أن نصبح أصحّاء. هذا مأسوي».

ثم إن غوس وجه نيرانه على مديرية الاستخبارات في «السي.آي.أيه.» لإنتاجها أخباراً فورية ذات قيمة طفيفة بدلاً من الاستخبارات الاستراتيجية الطويلة المدى، والتي هي في الأساس السبب الذي من أجله أُنشئت الوكالة. وكان غوس محقّاً في ذلك أيضاً، وهذا ما يعرفه الجميع في عالم الاستخبارات. «لم نقم منذ وقت طويل جداً باستخبارات استراتيجية، وبات معظم محللينا لا يعرفون كيفية القيام بذلك»(٦)، قال كارل و. فورد جونيور، مساعد وزير الخارجية للاستخبارات والابحاث من أيار/مايو ٢٠٠١ إلى تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، وهو ضابط سابق في «السي.آي.أيه.».

قال فورد إنه «ما دمنا نقيّم استخباراتنا لحجمها أكثر مما لنوعيتها، فسنستمر في إصدار كدسة الهراء التي تكلّف أربعين مليار دولار، والتي أصبحنا نشتهر بها». وقد استشاط غضباً لأن الوكالة، التي قعدتها في مكانها ترسانة صدّام حسين الوهمية، لم تعلم شيئاً حول برامج الأسلحة النووية لبقية رؤساء محور الشر. وقال فورد «علمنا ربّما عن برنامج العراق النووي مئة مرّة أكثر مما عرفنا عن برنامج إيران، وألف مرّة أكثر مما علمنا عن برنامج كوريا». فكوريا الشمالية شكّلت فراغاً، ولطالما كانت كذلك. حاولت «السي.آي.أيه.» إعادة بناء شبكة من العملاء في إيران، لكنها فشلت. ها إن إيران تصبح فراغاً أيضاً؛ والوكالة تعرف بالفعل عن تلك البرامج النووية أقل مما عرفته قبل خمسة أو عشرة أعوام.

قال فورد، إن «السي.آي.أيه.» كانت في حالة خراب: «محطمّة. كثيرة التحطيم إلى درجة لا يريد أحد تصديقها». وأوضح تقرير غوس ذلك، وجاء فيه، «توجد حالة وظيفية مخلّة تنكر أي حاجة إلى اتخاذ عمل اصلاحي. فـ «السي.آي.أيه.» تواصل السير في طريق ستؤدي إلى جرف يُضرب به المثل».

كان غوس متأكّدا من أنه يملك الأجوبة. عرف أن «السي.آي.أيه.» تخدع نفسها والآخرين في شأن نوعية عملها. وعرف أن معظم الجهاز الخفي أمضى أربعة عقود من الحرب الباردة ينتظر ويأمل أن يتطوع سوفيات لتقديم خدماتهم كجواسيس. وعرف أن ضباطها في الخارج في الحرب على الإرهاب أمضوا أياماً وليالي يأملون أن يقوم نظراؤهم في باكستان والأردن وإندونيسيا والفيليبين، ببيعهم المعلومات. وعرف أن الحل هو في إجراء إصلاح شامل للوكالة.

باتت لجنة ٩/١١، التي أنشأها الكونغرس، على وشك إصدار تقريرها النهائي. قامت اللجنة بعمل رائع في إعادة تركيب الأحداث المؤدية إلى الهجمات، لكنها لم ترسم طريقاً واضحاً إلى الأمام. كما أن الكونغرس لم يفعل الكثير لإصلاح الوكالة منذ ٩/١١، في ما عدا إعطاءها مليارات الدولارات والكثير من النصح المجاني. ووصفت اللجنة، عن حق، إشراف الكونغرس على الاستخبارات بأنه «يعاني خللاً وظيفياً»، وهو النعت ذاته الذي رمى به غوس الوكالة. فعلى مدى سنوات غاب أي انشغال للجنتي الاستخبارات في مجلسي النواب والشيوخ حول مسائل الحياة والموت التي واجهت «السي.آي.أيه.»، وقد أصدرت لجنة مجلس النواب، برئاسة غوس، آخر تقرير كبير حول سلوك «السي.آي.أيه.» في ١٩٩٨. فربع قرن من إشراف الكونغرس على الوكالة، لم يُنتج سوى القليل مما له قيمة دائمة. فقد مارست لجنتا الاستخبارات وفريقيهما بعض الضرب الظرفي العلني بالسياط وترقيعات من الإصلاحات السريعة لمشاكل دائمة الوجود.

بات معلوماً أن لجنة ٩/١١ ستوصي بإنشاء مدير جديد للاستخبارات القومية. فالفكرة طُرحت منذ أيام عزّ ألن دالاس. وهي لم تقدّم حلاً حقيقياً

لأزمة «السي.آي.أيه.». فإعادة ترتيب خانات المرسم التوضيحي للحكومة لن تجعل إدارة «السي.آي.أيه.» أكثر سهولة.

قال جون هامري، وهو نائب سابق لوزير الدفاع ورئيس مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، «إنها منظمة تزدهر من خلال الخداع. فكيف تدير منظمة كهذه؟»(٧).

هذا واحد من أسئلة كثيرة لم تجب عنها «السي.آي.أيه.» ولا الكونغرس أبداً. كيف تدير جهاز استخبارات سرّياً في ديموقراطية مفتوحة؟ كيف تخدم الحقيقة من خلال الكذب؟ كيف تنشر الديموقراطية عبر الخداع؟

لن يبقوا في النهاية

تعود الأسطورة في شأن «السي.آي.أيه.» بالتاريخ إلى «خليج الخنازير»، وهي أن جميع نجاحاتها سرّية، ووحدها إخفاقاتها تذاع. والحقيقة هي أنه لا يمكن لـ «السي.آي.أيه.» النجاح بدون أن تجنّد وتحافظ على ضباط مهرة وجريئين، وأن الادعاء بالعكس يشكّل وهماً.

احتاجت «السي.آي.أيه.»، للنجاح، إلى العثور على رجال ونساء يتمتعون بالانضباط والتضحية بالذات، اللذين يتمتّع بهما أفضل الضباط العسكريين في البلاد، والوعي الثقافي والمعرفة التاريخية التي لأفضل دبلوماسيي البلاد، والشعور بالفضول والمغامرة اللذين لأفضل المراسلين الخارجيين في البلاد. وسيساعد في أن يتمكن هؤلاء المجندون من الإيهام بأنهم فلسطينيون، باكستانيون، أو باتانيون. ويصعب العثور على أميركيين من هذا النوع.

«هل يمكن لـ «السي.آي.أيه.» مواجهة تهديد مستمر؟ والجواب في هذه اللحظة هو لا، لا مطلقة»(٨)، قال هوارد هارت، الذي وضع حياته على المحك لإدارة عملاء في إيران، وهرّب أسلحة إلى المتمردين الأفغان، وقاد الضباط شبه العسكريين التابعين للوكالة. وقال إنه شعر بالإهانة عندما وصف غوس عناصر «السي.آي.أيه.» بأنهم «مجموعة من الحمقى الذين يعانون خللاً

وظيفياً»، و«جماعة من الاغبياء». إلا أنه أقر بأنه «يمكن انتقاد الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» لأنه لم يعمل بالجودة التي يفترض به العمل بها. وهذا إعلان عادل، لأن لدينا أناساً لا ينضمون ويشاركون في العمل. والسبب في بقاء معظمهم هناك، هو أننا لا نملك وسيلة لاستبدالهم».

تعهّد الرئيس بوش زيادة صفوف الوكالة خمسين في المئة. إلا أن النوعية، وليس الكمية، هي الأزمة التي تتطلب المعالجة. «ما لا نحتاج إليه هو المزيد من المال والأشخاص، ليس الآن على الأقل»، قال كارل فورد. «فخمسون في المئة من الجواسيس الإضافيين، وخمسون في المئة من المحللين الإضافيين، يعادلون خمسين في المئة من الهواء الساخن الإضافي». كانت مشكلة الموظفين هي ذاتها التي واجهها والتر بيدل سميث، كمدير للاستخبارات المركزية، بينما كانت الحرب الكورية محتدمة: «لا يمكننا الحصول على أشخاص مؤهلين. فلا وجود لهم وحسب»[٩].

لم يمكن «السي.آي.أيه.» العثور على ما يكفي من الأميركيين الموهوبين للعمل كجواسيس بمعاش حكومي. واستقال المئات في مقر القيادة وفي الميدان في خلال ٢٠٠٤، وقد شعروا بالغضب والإذلال لانهيار مصداقية الوكالة وسلطتها. ولا يزال تجنيد الضباط الشبان، واستخدامهم، وتدريبهم، والاحتفاظ بهم، هي المهمّة الأكثر صعوبة في الوكالة.

تعهّد غوس بالعثور عليهم. وذهب، في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، إلى جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ لتثبيته وهو يختال في مشيته، وقال إنه في وسعه إصلاح «السي.آي.أيه.» مرّة أولى وأخيرة. وصرّح أمام الكاميرات، «لا أريد أن أوفر المساعدة والراحة للعدو بأخباركم، كم أنني أجد المشكلة سيئة»[١٠]، لكن المشكلة ستجد حلاً. وبعد تثبيته بتصويت من ٧٧ صوتاً ضد ١٧ من كامل مجلس الشيوخ، توجه غوس مباشرة إلى مقر قيادة «السي.آي.أيه.» وهو في حالة من الحبور.

قال للرجال والنساء الذين أدانهم بحدّة وقسوة قبل ذلك بثلاثة أشهر، «لم

أتوقّع أبداً، حتي في أكثر جنون أحلامي، أنني سأعود إلى هنا. لكن ها إنني هنا»[١١]. وأعلن أن سلطاته «ستزداد من خلال أوامر تنفيذية» من الرئيس: فهو سيصبح مقدّم الإيجاز الاستخباراتي للرئيس، وقائد «السي.آي.أيه.»، ومدير الاستخبارات المركزية، ومدير الاستخبارات القومية، ورئيس المركز الجديد لمكافحة الإرهاب. وهو لن يرتدي قبعتين كأسلافه، بل سيرتدي خمساً[١٢].

شرع غوس، في يومه الأول في العمل، في عملية تطهير هي الأكثر سرعة وشمولاً في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية. وأجبر كل واحد تقريباً من أكبر ضباط «السي.آي.أيه.» على الخروج[١٣]. أوجد مرارة لم يشهدها مقر القيادة منذ نحو ثلاثين سنة. وكانت النقمة على طرد ستيفن كابس من رئاسة الجهاز الخفي ضارية. فكابس، وهو عنصر المارينز السابق والرئيس السابق لمحطة موسكو، يمثّل أفضل ما في «السي.آي.أيه.». فهو، بالاشتراك مع جهاز الاستخبارات البريطاني، لعب أخيراً دوراً رائداً في نجاح الاستخبارات والدبلوماسية في إقناع ليبيا بالتخلي عن برنامجها الطويل الأمد لتطوير أسلحة الدمار الشامل [كما درجت الإدارة الأميركية على اتهام ليبيا ـ الناشر]. وتم طرده عندما شكك في حكم غوس على الأمور.

أحاط المدير الجديد نفسه بفريق من السياسيين الممتهنين الذين استوردهم من تلة الكابيتول. اعتقدوا أنهم مكلّفون مهمة من البيت الأبيض ـ أو من سلطة عليا ما ـ لتخليص «السي.آي.أيه.» من المخربين اليساريين. وكان الشعور في مقر القيادة هو أن غوس وفريقه، «الغوسيين»، يعطون فوق كل شيء قيمة عظيمة للولاء للرئيس وسياساته، وأنهم لا يريدون للوكالة ان تعترض البيت الأبيض، وأن كل من يعارضهم سيدفع الثمن. فبلوى «السي.آي.أيه.» كانت عن حق مسألة كفاية. وأصبحت، عن خطأ، مسألة أيديولوجية.

أصدر المدير أوامر تحذّر من الانشقاق على سياسات الرئيس. وكانت رسالته واضحة: سيروا في البرنامج، أو اخرجوا. وأخذ الخيار الأخير يصبح أكثر فأكثر جاذبية للموهوبين العشرة من موظفي «السي.آي.أيه.». وأخذت صناعة أمنية داخلية هائلة في النمو عند الطرف الخارجي لحزام السلطة في

واشنطن، تبيع خدماتها لحكومة تفتّش عن الخبرة في خارج الملاك. فتّش أفضل عناصر الوكالة عن المكسب الخارجي. فقبل ذلك بـ ١٥ عاماً كانت «السي.آي.أيه.» مثقلة للغاية بمقاتلي الحرب الباردة المتقدمين في السن. وها إنها تصبح الآن تعج كثيراً بالمبتدئين. وبحلول ٢٠٠٥، بات نصف قوى «السي.آي.أيه.» العاملة ـ من العملاء والمحللين على السواء ـ يمتلكون خبرة خمس سنوات أو أقل.

فإعلان الرئيس الفظّ أن الوكالة «تتكهّن وحسب» في شأن العراق، أشعل غضباً متّقداً من داخل، اشتعل عبر صفوف المحترفين الباقين. حاول ضباط «السي.آي.أيه.» في بغداد وفي واشنطن التحذير من أن المسار الذي يسلكه الرئيس في العراق كارثي. وقالوا إنه ليس في وسع الولايات المتحدة إدارة بلد لا تفهمه. لكن، لم يكن لكلامهم أي وزن في البيت الأبيض. فقد شكلوا هرطقة في إدارة تستند سياساتها إلى الإيمان.

حاول أربعة رؤساء سابقين للجهاز الخفي الاتصال بغوس لنصحه بالتروي حتى لا يدمّر ما بقي من «السي.آي.أيه.»، إلا أنه رفض تلقي اتصالاتهم. وخرج أحدهم إلى العلن: «يمكن غوس ومحظييه إحداث قدر كبير من الضرر في فترة قصيرة»، كتب توم تويتن في مقالة رأي نُشرت في «لوس أنجليس تايمز» في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤. «إذا لم يؤمن الموظفون المحترفون في الوكالة، بأن قيادتها إلى جانبهم، فلن يركبوا المخاطر من أجلها، وهم، في النهاية، لن يبقوا». وفي اليوم التالي، قدّم جون ماكلفلن، الذي أبقى الوكالة متماسكة بوصفه مديراً فيها بعد استقالة تينيت، جواباً آخر. وكتب في «الواشنطن بوست» ان «السي.آي.أيه.» «لا تعاني من خلل وظيفي وليست وكالة مارقة. و«السي.آي.أيه.» لا تتآمر مؤسساتياً على الرئيس». وألقى هافيلاند سميث، الذي تقاعد كرئيس لفريق مكافحة الإرهاب، بثقله، وكتب «أن بورتر غوس وجنوده من تلة الكابيتول يعيثون فساداً. فتطهير «السي.آي.أيه.» في هذه اللحظة الحرجة التي نحتاج فيها إلى التعاطي مع قضايا الإرهاب الحقيقية، أشبه بقطع أنفنا نكاية بوجهنا». ولم يسبق، في جميع السنوات التي تعرّضت الوكالة

فيها للتهشيم في الصحافة، أن تمت مهاجمة المدير في الصحف المطبوعة، وبما هو للنشر، من قبل أرفع قدامى الاستخبارات الأميركية مستوى.

أخذت الواجهة في السقوط. وشرعت «السي.آي.أيه.» في تمزيق نفسها.

قال الرئيس أيزنهاور، قبل ذلك بخمسين عاماً، «ها هو واحد من أكثر أنواع العمليات غرابة يمكن أي حكومة الحصول عليه. وهو ربّما يتطلّب عبقرية من نوع غريب لإدارته». تولّى ١٩ رجلاً إدارة الاستخبارات المركزية، ولم يبلغ أي منهم المقياس المرتفع الذي حدّده أيزنهاور. فجهل مؤسسي الوكالة هزمهم في كوريا وفيتنام، وألحقت بهم غطرستهم الدمار في واشنطن. وهام من خلفوهم على وجوههم لدى تفكك الاتحاد السوفياتي، وأُخذوا على حين غرّة عندما ضرب الإرهاب قلب السلطة الأميركية. فمحاولاتهم إعطاء معنى للعالم، قد ولّدت حرارة، لكن القليل من الضوء. وعلى ما حصل منذ البداية، فإن محاربي البنتاغون ودبلوماسيي وزارة الخارجية، ازدروا بهم. وعلى مدى أكثر من نصف قرن، أصيب الرؤساء بالإحباط أو بالغضب كلما التفتوا إلى المدراء من أجل التبصّر والمعرفة.

وها إنه سيتم إبطال العمل بعدما تبيّن أنه يستحيل تنفيذه.

في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤، وبينما الانتفاضة في الوكالة على أشدّها، مرر الكونغرس قانوناً جديداً، وقّعه الرئيس، يُنشئ منصب مدير الاستخبارات القومية، على ما حثّت عليه لجنة ٩/١١. وهذا القانون، الذي وُضع على عجل، ونوقش بتسرّع، لم يفعل إلا تهدئة المشاكل المزمنة والخلقية التي ابتلت بها الوكالة منذ ولادتها. إنه الاستمرار المتلبّس لباسُ التغيير.

اعتقد غوس أن الرئيس سيختاره، إلا أن الدعوة لم تأت أبداً. وأعلن بوش في ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٥، أنه يسمي السفير الأميركي في العراق، جون د. نيغروبونتي(١٤)، وهو دبلوماسي صاحب خط محافظ متشدد، لطيف، مرهف، وماهر في المناحرة، إلا أنه لم يعمل أبداً يوماً واحداً في عالم الاستخبارات، ولن يخدم فيه لفترة طويلة.

وعلى غرار ما جرى في ١٩٤٧، تمّ تحميل القيصر الجديد مسؤوليات بدون سلطة على قياسها. فلا يزال البنتاغون يسيطر على القسم الكبير من موازنة الأمن القومي، التي باتت تقارب الآن الخمسمئة مليار دولار في السنة، وبالكاد تبلغ حصة «السي.آي.أيه.» منها الواحد في المئة. لقد لعب النظام الجديد فقط دور الاعتراف الرسمي بأن النظام القديم قد أخفق.

لا يمكن شرح الإخفاق

أصيبت «السي.آي.أيه.» بجروح خطيرة. وبحسب قوانين الغاب وطرق واشنطن، فإن الوحوش الأقوى اقتاتت منها. أعطى الرئيس سلطات كبرى لنائب الوزير في البنتاغون حول التجسس، والعمل الخفي، والتنصّت، والاستطلاع، ورقّى هذه الوظيفة إلى المنصب الثالث في وزارة الدفاع. «بعث ذلك ارتعادات زلزالية عبر مجتمع الاستخبارات»(١٥)، قالت جوان دمبسي، التي كانت نائبة لمدير الاستخبارات المركزية ومديرة تنفيذية للمجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية في عهد بوش. «إنها مقاربة أشبه ما يكون بمقاربات الكرملين».

تحرّك البنتاغون بطريقة خفية وثابتة إلى ميادين العمليات الخفية في ما وراء البحار، مغتصباً الأدوار التقليدية، ومسؤوليات الجهاز الخفي، وسلطاته. وجنّد أكثر الضباط الشبان الواعدين، واستبقى أكثرهم خبرة. تسارعت عسكرة الاستخبارات بينما أخذت استخبارات البلاد المدنية في التآكل.

كان رئيس المحللين الجديد لدى نيغروبونتي، توماس فينغار، قد أدار مكتب الاستخبارات والأبحاث الصغير، لكن صاحب المستوى الأول التابع لوزارة الخارجية. أجرى مسحاً لحالة مديرية الاستخبارات في الوكالة، وحدد سريعاً أنه «ما من أحد يملك فكرة عمن يفعل ماذا، وأين»(١٦). وتحرّك لجذب البقايا العاملة في الآلة التحليلية لـ «السي.آي.أيه.» إلى تحت رعايته. والتحق به أفضل المفكرين وألمعهم ممن بقوا في الوكالة.

أخذت الوكالة، كما تأسست عليه، في التلاشي. المبنى لا يزال في مكانه،

وسيحتضن دوماً مؤسسة ما في داخله. إلا أنه في ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٥، ضربت كرة الهدم ما بقي من روح لـ «السي.آي.أيه.»، وقد جاءت على شاكلة تقرير من ستمئة صفحة للجنة القاضي سيلبرمان الرئاسية. والقاضي مفكّر على درجة كبيرة من التعنّت. وسمته الفكرية تضاهيها أوراق اعتماده الشديدة المحافظة. فهو قد شارف مرّتين على تسميته مديراً للاستخبارات المركزية. كما أنه، على امتداد ١٥ عاماً من عمله قاضي استئناف فدرالياً في واشنطن، قد دعم على الدوام وسائل الأمن القومي وغاياته، حتى عندما تعدّت على مُثُل الحرّية. وكان فريقه، على عكس فريق لجنة ٩/١١، ذا خبرة عميقة في العمليات الاستخباراتية والتحليل.

جاء حكمهم قاسياً ومبرماً. فحيّز مدير الاستخبارات المركزية يشكل «عالماً مغلقاً» له «سجلّ يكاد يكون مثالياً» في مقاومة التغيير. وقد رأس المدير ترقيعة من جمع الاستخبارات والتحليل «مجزّأة، ومدارة بطريقة متفلّتة، وسيئة التنسيق». وغالباً ما كانت الوكالة عاجزة عن «جمع الاستخبارات حول الأمور التي نهتم بها بالتحديد. ومحللوها «لا يخبرون دوماً صانعي القرار وحسب بمدى حقيقة محدودية معرفتهم». و«السي.آي.أيه.» «تصبح في شكل متزايد خارجة عن الصدد حيال التحديات الجديدة التي تمثّلها أسلحة الدمار الشامل». وعيبها الغالب هو «الاستخبارات البشرية الضعيفة»: عدم القدرة على ممارسة التجسس.

«نعترف بأن التجسس ضربة حظ في أفضل الأحوال؛ ولم تنتج خمسون سنة من الضرب على الاتحاد السوفياتي سوى حفنة من المصادر البشرية المهمة فعلاً»، قالت اللجنة. «وبرغم ذلك، ليس أمامنا من خيار إلا القيام بما هو أفضل». و«السي.آي.أيه.» «تحتاج إلى تغييرات جذرية إذا كان عليها أن تواجه بنجاح تحديات القرن الحادي والعشرين». وذلك «هدف سيصعب تحقيقه حتى في أفضل عالم ممكن. ونحن لا نعيش في أفضل العالمين»[١٧].

في ٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، اختفى مكتب مدير الاستخبارات المركزية في التاريخ. ووصف غوس قَسَم اليمين الذي أداه نيغروبونتي لتسلُّم وظيفته الرسمية،

بأنه «مراسم دفن» الوكالة القديمة[١٨]. وفي ذلك اليوم، حصل الرئيس الجديد على بركة غريبة: «آمل أن توجّه روح وايلد بيل دونوفان جهوده وتلهمها»، قال السيناتور عن فرجينيا جون وارنز، رئيس لجنة القوات المسلحة.

يقف تمثال برونزي لدونوفان حارساً عند مدخل مقر قيادة «السي.آي.أيه.»، حيث اجتمع، في ٢١ آب/أغسطس ٢٠٠٥، جميع الأحياء من مدراء الاستخبارات المركزية السابقين للحصول على ميداليات تكريمية لخدماتهم، وللدلالة على انتهاء سلالتهم الطويلة العهد. حضر جورج هـ. و. بوش، في المركز الذي يحمل اسمه، وكذلك جيم شليسينغر وبوب غايتس، المصلحان والمرمّمان الفاشلان؛ وجيم وولسي، وجون دوتش، وجورج تينيت، الذين قاتلوا لتصحيح وجهة سفينة فقدت دفّتها. وبعض هؤلاء الرجال احتقروا بعضهم بعضاً في شكل أريحي؛ وتشارك آخرون في روابط قوية من الثقة. شكلت تلك رُقْبة ميت على درجة كافية من المتعة، مع لمسة من الأبهة. وقُدّمت وجبة طعام، وألقى كبير مؤرخي «السي.آي.أيه.»، ديفيد س. روبردج، محاضرة عن المكتب المختفي. جلس غوس في الصف الأمامي وهو يتلوّى من داخل. وقد أمضى أسابيع يتألم أشد الألم من تقرير المفتّش العام الذي طلبه شخصياً عندما كان لا يزال رئيساً للجنة الاستخبارات في مجلس النواب. فهو شكّل نظرة مقذعة إلى العيوب التي ساهمت في هجمات ٩/١١، وسكّيناً في قلب الوكالة، وتشريحاً جراحياً لعجزها عن شن ما يشبه الحرب على أعداء الأمة. وقرر غوس، تماشياً مع تقليد ألن دالاس، دفنه. فالوكالة لن تقدّم أبداً حساباً بإخفاقها في حماية الولايات المتحدة، إلا أن الحساب كان عابراً.

استذكر مؤرّخ «السي.آي.أيه.» كلام الرئيس أيزنهاور لدى مجيئه، في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٩، لوضع الحجر الأساس لمقر قيادة «السي.آي.أيه.»:

«إن توق الولايات المتحدة الأساسي هو الحفاظ على السلام. ونسعى، لهذه الغاية، إلى تطوير سياسات وترتيبات لجعل السلام دائماً وعادلاً في آن. ويمكن القيام بهذا فقط على أساس معلومات شاملة ومناسبة.

«ما من شيء أهم لقائد في الحرب من معرفة قوة خصمه، وتجهيزاته، ونياته، والتفسير المناسب لهذه الوقائع. وفي زمن السلم، فإن الوقائع الضرورية، وتفسيرها الصحيح، أساسية لتطوير السياسة لرفد أمننا القومي على المدى الطويل ومصالحنا الفضلى... ولا يمكن أي مهمة أن تكون أكثر أهمية. فعلى نوعية عملكم يتوقّف بدرجة كبيرة نجاح جهدنا في تقديم موقف الأمة على المسرح الدولي... فهذه الوكالة تتطلب من أعضائها القدر الأكبر من نمط التكرّس، والمقدرة، والمصداقية، والتعفف، ناهيك بأرفع أنواع الشجاعة، كلما دعت الحاجة إلى ذلك. فلا يمكن التسويق للنجاح، ولا يمكن شرح الفشل. ففي عمل الاستخبارات لا يتلقى الأبطال النياشين ولا المديح».

وخلص الرئيس إلى القول إنه «في هذا الموقع سيرتفع بناء جميل ومفيد. وندعو له بطول البقاء لخدمة قضية أميركا والسلام.

مات أميركيون في المعركة بسبب العوز إلى الوقائع، في حين نهض مدراء الاستخبارات الأميركية، وتصافحوا، وخرجوا إلى حماوة بعد الظهر الصيفية، وتابعوا حياتهم. وعلى ما خشي منه الجندي العجوز منذ زمن طويل مضى، فإنهم خلفوا وراءهم إرثاً من رماد.

لا تعترفوا بشيء، أَنكروا كل شيء

في الخامس من أيار/مايو ٢٠٠٦، نحّى الرئيس بوش بورتر غوس بعد ١٩ شهراً من الطعن في الظهر المستمر في «السي.آي.أيه.» وكان سقوط آخر مدير للاستخبارات المركزية سريعاً وغير مُجْد، والإارث الذي خلفه مريراً.

في اليوم التالي، صعد غوس إلى إحدى الطائرات وألقى الخطاب الافتتاحي في جامعة تيفين، على بعد تسعين ميلاً غرب كليفلاند، أوهايو. وقال، «لو أن هذا صفّ متخرج من الضباط المحركين في «السي.آي.أيه.»، فنصيحتي لهم ستكون موجزة وتامة. لا تعترفوا بشيء، أَنكروا كل شيء، ووجّهوا اتهامات

مضادة». وبهذه الكلمات اختفى عن الأنظار، تاركاً وراءه أضعف كادر من الجواسيس والمحللين في تاريخ «السي.آي.أيه.».

بعد أسبوع على استقالة غوس، أغار فريق من عملاء «الأف.بي.آي.» على مقر قيادة «السي.آي.أيه.». سيطر أفراده على مكتب داستي فوغو، الذي استقال للتو من منصبه كمدير تنفيذي، وهو ثالث أرفع منصب في الوكالة. إنه الرجل الذي حمّله غوس، بطريقة لا يمكن تفسيرها، إدارة الأعمال اليومية لـ «السي.آي.أيه.». ففوغو كان في منصبه السابق، أمين الصندوق المسؤول عن التجهيزات الخفي. وهو، من مركزه في فرانكفورت، وفّر لضباط «السي.آي.أيه.»، من عمّان إلى أفغانستان، كل شيء، من المياه المعدنية إلى الدروع الجسدية. وتضمّنت مهماته التأكّد من أن حساباته والشحنات التي يرسلها تتماشى مع قوانين «السي.آي.أيه.» وأنظمتها. وكتب إلى أحد رفاقه الضباط، «كونه سبق لي وكنت فتى الأخلاقيات[١٩]، أتمنّى لك الأفضل في هذا التمرين السنوي». ومن الواضح أن لفوغو مشكلة مع كلمة أخلاقيّات.

كان الاتهام الصادر في قضية الولايات المتحدة ضد كايل كاستن فوغو مؤلماً بالتحديد في خصوصياته. وقد نُزعت أختامه في ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٧، واتهم فوغو بالاحتيال، والتآمر، وغسل الأموال. وقال إنه تدبّر عقداً بمليون دولار لصديق مقرّب أسقاه وعشّاه بأرقى الأساليب، واستضافه في رحلات مسرفة إلى اسكتلندا وهاواي، ووعده بوظيفة تدر عليه المال: رشوة على الطريقة القديمة. لم يسبق أن حصلت قضية تشبه هذه القضية، ولو من بعيد، في تاريخ «السي.آي.أيه.» وعند وضع هذا الكتاب، كان ردّ فوغو أنه غير مذنب. وهو يواجه عشرين سنة في السجن في حال تمت إدانته.

في اليوم ذاته الذي وُجّهت فيه التهم إلى فوغو، حكم قاض فديرالي في كارولينا الشمالية على عامل متعاقد مع «السي.آي.أيه.» يدعى ديفيد باسارو بثماني سنوات وأربعة أشهر في السجن لضربه رجلا حتى الموت في أفغانستان. عمل باسارو مع فريق شبه عسكري من «السي.آي.أيه.» متمركز في أسد أباد، عاصمة مقاطعة كونار، على بعد بضعة أميال غرب الحدود مع باكستان.

واستخدمت الوكالة باسارو برغم تاريخه في العنف الإجرامي؛ فهو طُرد من سلك الشرطة في هارتفورد، كونيتيكت، بعدما أُوقف لضربه رجلا في خلال شجار.

الرجل الذي مات على يده كان عبد الوالي، وهو مزارع محلّي مشهور قاتل السوفيات في الثمانينيات. تناهى إلى الوالي أنه مطلوب للتحقيق بعد سلسلة من الهجمات الصاروخية على مقربة من القاعدة الأميركية. جاء إلى الأميركيين بملء إرادته، وقال إنه بريء. شكّ باسارو في كلامه، وألقى به في زنزانة. وضرب الوالي بطريقة عنيفة جداً، بحيث إن السجين توسّل أن تُطلق عليه النار لوضع حد لعذابه، وقد مات بعد يومين متأثرا بجراحه. اتُّهم باسارو، وأُدين بموجب مواد القانون الوطني الذي يسمح بمحاكمة مواطنين أميركيين على جرائم ارتكبت في أرض تدّعي الولايات المتحدة ملكيتها في ما وراء البحار. ولاحظ القاضي أن غياب التشريح قد منعه من توجيه تهمة بالقتل.

تلقّت المحكمة رسالة من الحاكم السابق لكونار، الذي قال إن موت الوالي قد ألحق ضرراً مبرحاً بالقضية الأميركية في أفغانستان، وقد استخدمته قوات القاعدة والطالبان التي عاودت الظهور أداة قوية للدعاية. وكتب الحاكم، «ازداد سوء الظن بالأميركيين، وأصيبت جهود الأمن وإعادة البناء في أفغانستان بضربة، والأناس الوحيدون الذين استفادوا من أعمال ديف باسارو هم القاعدة وحلفاؤها»[٢٠].

بعد ثلاثة أيام على الحكم على باسارو، أمر قاض في إيطاليا بتوجيه التهم إلى رئيس محطة روما في «السي.آي.أيه.»، ورئيس قاعدة ميلانو، ودزينتين إضافيتين من الضباط لخطفهم رجل دين راديكالياً أمضى سنوات قيد التحقيق العنيف في مصر. واتهمت محكمة في ألمانيا ١٣ ضابطاً في «السي.آي.أيه.» لخطفهم خطأً وسجنهم مواطناً ألمانياً مولوداً في لبنان. واعتذرت حكومة كندا رسمياً ودفعت تسوية بعشرة ملايين دولار لواحد من رعاياها، هو ماهر عرار، الذي اعتقلته «السي.آي.أيه.» وهو يبدّل طائرته في نيويورك بعد عطلة عائلية، ونُقل إلى سوريا، وتعرّض لأقسى أنواع التحقيق على مدى عشرة أشهر[٢١].

عند ذاك، كانت قد تمّت إدانة منظومة السجون في «السي.آي.أيه.» ولم يعد في وسعها البقاء طويلاً بعدما لم تعد سرّية. طلب من الأميركيين أن يثقوا ثقة عمياء بأن خطف أناس أبرياء، وسجنهم، وتعذيبهم شكلت جزءاً من برنامج ضروري لتفادي هجوم آخر على الولايات المتحدة. ربما كان الأمر كذلك، لكن الدليل غير واف. ومن غير المرجّح أننا سنعرف ذلك أبداً.

خلف بورتر غوس في «السي.آي.أيه.» الجنرال مايكل هايدن، نائب مدير الاستخبارات القومية، ومنفّذ أوامر الرئيس بوش بتمديد أدوات تنصّت على أهداف أميركية، وأول رجل يتولى لقب مدير الاستخبارات المركزية بعدما تم خفضه، والضابط الأول في الخدمة الفعلية في الجيش الذي يدير «السي.آي.أيه.» منذ وصول ستانسفيلد تورنر في ١٩٧٧. وأعلن الجنرال هايدن لدى تثبيته في الكونغرس أن «ساعة الهواة» في «السي.آي.أيه.» قد ولّت، لكنها لم تكن كذلك.

بحسب مقاييس «السي.آي.أيه.» الخاصة، فإن نصف قوتها العاملة تشكّلت ممن لا يزالون قيد التدريب. قلّة منهم باتت جاهزة وقادرة على إعطاء نتائج. بيد أنه ليس في اليد حيلة حيال ذلك، فما من خيار أمام «السي.آي.أيه.» سوى ترقيتهم إلى ما هو أبعد من مستويات قدراتهم. وبينما حلّ الشبان العشرينيون محل الأشخاص الأربعينيين والخمسينيين، جاءت النتيجة انتقاصاً من الذكاء. شرع الجهاز الخفي في التخلي عن تقنيات الماضي، لأنه افتقر إلى المهارات للقيام بها. وظلّت الوكالة مكاناً لا يتكلّم فيه سوى قلّة من الناس، العربية أو الفارسية، الكورية أو الصينية. وبقيت، على أساس أمني، ترفض توظيف وطنيين من العرب الأميركيين إذا كان لهم أقارب يعيشون في الشرق الأوسط، وهي حال معظمهم. وتركت ثورة المعلومات ضباطاً ومحلّلين في حالة من فهم التهديد الإرهابي ليست بأفضل من فهمهم الاتحاد السوفياتي. وبينما تجاوزت الكارثة في العراق قدرة «السي.آي.أيه.» على الإفادة، قام خامس رئيس محطة في بغداد في أربع سنوات بتوضيب حقائبه والانتقال إلى العالم المقفل للمنطقة الخضراء.

بلغت «السي.آي.أيه.» أدنى مستوى لها، فهي لم تعد تحظى بسمع الرئيس، وأخذ الزعماء الأميركيون يتطلعون إلى مكان آخر للحصول على الاستخبارات: البنتاغون والشركات الخاصة.

النشوء الكارثي للسلطة الموضوعة في غير مكانها

تولّى بوب غايتس البنتاغون في ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، وهو أول مبتدئ بالتحليل يدير أبداً «السي.آي.أيه.»، ثم يرتقي ليصبح وزيراً للدفاع. بعد ذلك بأسبوعين، استقال قيصر الاستخبارات الجديد، جون نيغروبونتي، بعد ١٩ شهراً ليصبح الرقم الثاني في وزارة الخارجية. واستُبدل بالأميرال المتقاعد مايك ماكونيل، الذي سبق له أن أدار وكالة الأمن القومي في خلال انهيارها الكبير الأول عند بزوغ العصر الرقمي، وأمضى العقد الماضي يجني المال بوصفه مقاولاً عسكرياً لدى بوز ألن هاميلتون.

عندما استقرّ غايتس في البنتاغون، تطلّع من حوله إلى مؤسسة الاستخبارات الأميركية وشاهد نجوماً: فثمة جنرال يدير «السي.آي.أيه.»، وجنرال هو وكيل وزير الدفاع للاستخبارات، وجنرال مسؤول عن برامج مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية، وجنرال هو نائب وكيل وزير الدفاع للاستخبارات، وجنرال يدير الجواسيس في «السي.آي.أيه.» وهذه مناصب، لسنوات طويلة خلت، كانت في أيدي مدنيين. رأى غايتس عالماً قام فيه البنتاغون بسحق «السي.آي.أيه.»، تماماً كما تعهّد القيام بذلك منذ ستين عاماً خلت. أراد إقفال السجن العسكري في خليج غوانتانامو، وجلب المتهمين بالإرهاب من كوبا إلى الولايات المتحدة، فإما إدانتهم وإما تجنيدهم. أراد احتواء سيطرة وزارة الدفاع على الاستخبارات. وتاق إلى عكس تراجع دور «السي.آي.أيه.» المركزي في الحكومة الأميركية. إلا أنه لم يكن في وسعه القيام بالكثير.

فالتراجع هو جزء من التعفّن البطيء الذي يقوّض أعمدة الأمن القومي الأميركي. فبعد أربع سنوات من الحرب في العراق، بات الجيش منهكاً، واستنزفه زعماء استثمروا أكثر في أسلحة مستقبلية مما استثمروه في جنود

الخدمة. وبعد خمس سنوات من الدفاع عن سياسة خارجية تستند إلى إيمان بالولادة من جديد، باتت وزارة الخارجية هائمة على وجهها، وعاجزة عن الإعراب عن قيم الديموقراطية. وبعد ستة أعوام من الجهل الطوعي الذي فرضه سياسيون جهلة، انهار إشراف الكونغرس على الوكالة. وسبق للجنة ٩/١١ أن قالت إنه، من بين جميع المهمات التي تواجه الاستخبارات الأميركية، فإن تقوية إشراف الكونغرس ربما يكون الأكثر صعوبة، والأكثر أهمية. في ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، ردّ الكونغرس بعدم تمرير قانون السماح لـ «السي.آي.أيه.»، وهو القانون الأساسي الذي يحكم الوكالة، وسياساتها، وإنفاقها. والذي وقف عثرة أمام ذلك هو سيناتور جمهوري وحيد أوقف القانون لأنه يأمر البيت الأبيض بتقديم تقرير سرّي حول السجون السرّية التابعة لـ «السي.آي.أيه.».

جعل العجز عن تطبيق السلطة لجنتي الاستخبارات في الكونغرس خارجتين عن الصدد. فلم يحصل منذ الستينيات أن كانت هناك مثل هذه السيطرة الضئيلة من الكونغرس على الوكالة. وها إن قوة مختلفة كلّياً كسبت نفوذاً كبيراً على الاستخبارات: الشركات الأميركية.

تفجّع دوايت أيزنهاور، بعد أيام قليلة من نهاية سنواته كرئيس، على إرث من إخفاقات الاستخبارات سيمرره إلى خليفته. وجّه خطابه الوداعي إلى الأمة وأطلق تحذيره الشهير: «يجب أن نحترس من اكتساب المجمّع الصناعي ـ العسكري على نفوذ غير مسوّغ، سواء أكان منشوداً أم أو غير منشود. فإمكان النشوء الكارثي للسلطة الموضوعة في غير مكانها موجود وسيستمر». وبعد أكثر بقليل من نصف قرن على ذلك، فإن اندفاعة الإنفاق السرّي على الأمن القومي بعد ٩/١١، خلق شبكة من الصناعة الاستخباراتية الرائجة.

أخذت الشركات المستنسخة عن «السي.آي.أيه.» تفرّخ في جميع أنحاء ضواحي واشنطن وما بعدها. وأصبحت الوطنية من أجل الربح عملاً ينتج ٥٠ مليار دولار في السنة، بحسب بعض التقديرات، وهو حاصل يكاد يعادل موازنة الاستخبارات الأميركية نفسها. وتعود هذه الظاهرة إلى ١٥ عاماً. فقد شرعت الوكالة، بعد الحرب الباردة، في تلزيم آلاف الوظائف لملء الفراغ الذي يُعتقد

أن اقتطاعات الموازنة التي بدأت في ١٩٩٢ ستخلقه. وأصبح في إمكان ضابط «السي. آي. أيه.» تعبئة أوراق تقاعده، وتسليم بطاقة التعريف الزرقاء عنه، والمضي للعمل بمعاش أفضل بكثير لدى متعهّد عسكري مثل لوكهيد مارتن، أو بوز ألن هاميلتون، ثم يعود، في اليوم التالي، إلى «السي. آي. أيه.» واضعا بطاقة تعريف خضراء. وباتت للوكالة في الواقع قوتان عاملتان، والخاصة منها ذات معاشات أفضل. وبحلول ٢٠٠٦، فإن ما قد يصل إلى نصف ضباط محطة بغداد والمركز الوطني الجديد لمكافحة الإرهاب، كانوا من الموظفين المتعاقدين، وأخذت لوكهيد مارتن، وهي أكبر شركة مقاولات عسكرية في البلاد، تضع إعلانات تطلب «محللين لشؤون مكافحة الإرهاب» لاستجواب من يشتبه في أنهم إرهابيون في سجن غوانتانامو.

بات في الإمكان صنع ثروات من صناعة الاستخبارات. شكّل المال جاذباً قويّاً، وأصبحت النتيجة نزقاً في الأدمغة يتزايد سرعة باطراد. فشركة توتال إنتل، التي أنشئت في شباط/فبراير ٢٠٠٧، يديرها كوفر بلاك: رئيس مركز مكافحة الإرهاب في «السي. آي. أيه.» حول ٩/١١. وشريكاه هما، روبرت ريتشر، الذي كان الرقم الثاني في الجهاز الخفي، وإنريكي برادو، رئيس عمليات مكافحة الإرهاب في ظل بلاك. وقد ارتحلوا ثلاثتهم، في ٢٠٠٥ عن حرب إدارة بوش على الإرهاب ليلتحقوا ببلاكووتر «يو.أس.أيه.»، بوصفهم حراس الموظفين الأميركيين الكبار في بغداد. تعلّموا حيل صناعة التلزيمات الحكومية في بلاكووتر، وفي غضون أكثر من سنة بقليل، بات بلاك وشريكاه يديرون توتال إنتل. هؤلاء كانوا من بين أفضل ضباط «السي. آي. أيه.» إلا أن مشهد الانتقال، في وسط الحرب، من سفينة إلى أخرى لتحقيق مكسب كبير، لم يكن شيئاً غير عادي في واشنطن القرن الحادي والعشرين. فقد ترك فيالق من ضباط «السي. آي. أيه.» وظائفهم لبيع خدماتهم لشركات من خلال كتابة التحليلات، وتأمين غطاء لضباط في ما وراء البحار، وتركيب شبكات اتصال لاسلكي، والقيام بعمليات خفية. وحذا مستخدمون جدد في «السي. آي. أيه.» حذوهم وتبنوا خطتهم الخمسية: الدخول، الخروج، وقبض المال. وكان

السماح بولوج الأماكن الفائقة السرية، والبطاقات الخضراء بمثابة تذاكر ذهبية لسلالة جديدة من قطّاع طرق مجتمع السلطة السياسية. شكّلت التلزيمات الملحقة للاستخبارات، إشارة واضحة إلى أنه ليس في وسع «السي.آي.أيه.»، بعد ٩/١١، القيام بالكثير من وظائفها الأساسية بدون مساعدة.

وهي، فوق ذلك كلّه، لا تستطيع مساعدة الجيش في فرض الديموقراطية في العراق تحت تهديد السلاح. فالتحرّك بدون معرفة عمل خطير، على ما اكتشفه الأميركيون في شكل محزن.

لتنظيم جهاز تجسس وإدارته

في خلال الحرب الباردة، أدان اليسار الأميركي «السي.آي.أيه.» على ما قامت به. وفي الحرب على الإرهاب، هاجم اليمين الأميركي «السي.آي.أيه.» على ما لم تتمكن من القيام به. والتهمة هي عدم الكفاءة، وقد وجهها رجال من أمثال ديك تشيني ودون رامسفلد. ومهما قد يقوله المرء عن زعامتهما، فإنهما يعرفان بناءً على تجربة طويلة ما يعرفه القارئ الآن: إن «السي.آي.أيه.» عجزت عن القيام بدورها بوصفها جهاز استخبارات أميركا.

«السي.آي.أيه.» الخيالية، تلك التي تحيا في الروايات والأفلام، قادرة على كل شيء. فأسطورة العصر الذهبي هي من ابتكار «السي.آي.أيه.» ذاتها، وهي نتاج الإعلان والدعاية السياسيين اللتين صنعهما ألن دالاس في الخمسينيات. وقد اعتبرت أنه في وسع الوكالة تغيير العالم، وهو ما يساعد على فهم لماذا كانت الوكالة على هذا القدر من عدم التقبّل للتغيير. وقد أبقى بيل كاسي على الأسطورة في الثمانينيات، وحاول إحياء روحي دالاس ووايلد بيل دونوفان المتهورتين. وها إن الوكالة تعيد إحياء خرافة أنها أفضل دفاع عن أميركا. وهي، بتلقيها الأوامر بالتدريب والإبقاء على آلاف الضباط الجدد، تحتاج كي تبقى إلى عرض صورة من النجاح.

لم يوجد، في الحقيقة، الكثير من الأيام الوادعة، إلا أنه وجد القليل منها.

فعندما كان ريتشارد هيلمس في المسؤولية، قالت الوكالة الحقيقة لليندون جونسون وروبرت ماكنمارا في شأن الحرب في فيتنام، وقد أنصتا. وحصلت مرة أخرى مثل هذه اللحظة السريعة الزوال عندما أدار بوب غايتس «السي.آي.أيه.»؛ فقد حافظ على هدوئه وثابر، بينما الاتحاد السوفياتي يتهاوى. إلا أن ١٥ عاماً مرّت من يومها، والمجد قد ولّى. ووجدت «السي.آي.أيه.» نفسها عاجزة عن رؤية الطريق أمامها في معركة تشكل فيها المعلومات والأفكار أقوى أنواع الأسلحة.

وعلى مدى ستين عاماً لم يفلح الآلاف من ضباط الجهاز الخفي في جمع إلا أقل خيوط الاستخبارات المهمة عن حق، هذا أكبر أسرار «السي.آي.أيه.» ومهمتهم صعبة على نحو استثنائي. إلا أننا نحن الأميركيين لا نزال لا نفهم الشعوب والقوى السياسية التي نسعى إلى احتوائها والسيطرة عليها. ولا يزال على «السي.آي.أيه.» أن تصبح ما أمل منشئوها أن تكون عليه.

قال ريتشارد هيلمس منذ عقد من الزمن، «إن القوة العظمى الوحيدة الباقية لا تهتم كفاية بما يجري في العالم لتنظيم جهاز تجسس وإدارته»(٢٢). وربما، بعد عقد من الآن، ستنهض الوكالة من رمادها، وقد ضخّت إليها مليارات كثيرة من الدولارات، واستلهمت من قيادة جديدة، وتقوّت بجيل جديد. ربما يرى المحللون العالم في شكل واضح. وربما تمكّن الجواسيس الأميركيون من التجسس على أعداء أميركا. وربما تخدم «السي.آي.أيه.» في يوم من الأيام كما شاء ذلك مؤسسوها. علينا الاعتماد على ذلك، لأن الحرب التي نخوضها الآن قد تستمر الوقت الذي استمرّته الحرب الباردة، ونحن سنفوز أو نخسر بفضل استخباراتنا.

إعرابات عن الشكر

أنا محظوظ لأنني أمضيت جزءاً من السنوات العشرين الماضية، متحدّثاً إلى مدراء «السي. آي. أيه.» وضبّاطها الذين وسمت حياتهم المهنية مسار ستة عقود. وأنا ممتن بصفة خاصة لريتشارد هيلمس، وليام كولبي، ستانسفيلد تورنر، وليام وبستر، بوب غايتس، جون داتش، جورج تينيت، جون مكماهون، توم تويتن، ميلت بيردن، توم بولغار، بيتر سيشل، فرانك ليندسي، سام هالبرن، دون غريغ، جيم ليللي، ستيف تانّر، جيري غوسنز، كلايد ماك أفوي، والتر بفورزهايمر، هافيلاند سميث، فريد هيتز، ومارك لوانتال. وأرفع قبعتي للرجال والنساء في فريق تأريخ «السي. آي. أيه.»، الذين يلعبون بدورهم في قضية الانفتاح في مواجهة المقاومة العنيفة من الجهاز الخفي، ولفريق القضايا العامة الحالي والسابق في الوكالة.

أنا مدين كثيراً لعمل تشارلز ستيورات كنيدي، الضابط المتقاعد من الجهاز الخارجي ومؤسس برنامج التأريخ الشفوي للشؤون الخارجية، ومديره. والمكتبة التي أنشأها شكلت مصدراً فريداً من نوعه لا يقدّر بثمن. وقد بذل مؤرخو وزارة الخارجية، الذين يصدرون «العلاقات الخارجية للولايات المتحدة»، وهي السجل الرسمي للدبلوماسية الأميركية، الكثير لفض الأختام عن وثائق سرّية بأكثر مما قامت به أي ذراع أخرى من أذرع الحكومة. وهم، إضافة إلى موظفي المكتبات الرئاسية، يستحقون شكر أمة تعترف لهم بالجميل.

من حسن حظ المراسل الصحافي أن يحظى بناشر عظيم في حياته. وأنا قد حصلت على أكثر من حصتي، وكان لي، على امتداد السنين، الكثير من الوقت للتفكير والحرية في الكتابة. وقد وفر لي جين روبرتس بداياتي في «الفيلادلفيا

إنكوايرر». وساهم بيل كللر، وجيل أبرامسون، وأندي روزنتال، وجون لندمان في جعل «النيويورك تايمز» معجزة يومية. إنهم حافظو ثقة الجمهور.

وساهم ثلاثة باحثين لا يتعبون ولا يملون، في تحقيق هذا الكتاب. قام مات مالينوفسكي بتفريغ شرائط تسجيل المقابلات، ونقّبت روي تشاس في ملفات التاريخ الدبلوماسي ومجلس الأمن القومي، وقامت كورا كورير بأبحاث رائدة في الأرشيف الوطني. وأنا ممتن لصديقتي الحميمة من المدرسة الثانوية لافينيا كورير لتعريفي إلى ابنتها الفائقة الذكاء. فزوي هي ابنة الراحل جيمس تشيس وشقيقة بيكا تشيس، وهما صديقان تساندني روحاهما.

وأودّ أن أحيّي الصحافيين الذين غطّوا «السي.آي.أيه.»، والنزاعات في العراق وأفغانستان، والعذابات المبرحة التي يعاني بسببها الأمن القومي الأميركي منذ ٩/١١. ومن بينهم جون بورنز، دكستر فيلكينز، مات برودي، دوغ جهل، سكوت شاين، كارلوتا غال، جون كيفنر، وستيف كراولي من «النيويورك تايمز»؛ دانا بريست، والتر بينكوس، وبام كونستابل من «الواشنطن بوست»؛ فرنون لويب، بوب دروجن، وميغان ستاك من «لوس أنجلس تايمز»؛ وأندي مايكوث من «ذي فيلادلفيا إنكوايرر». نحن نستذكر إخواننا وأخواتنا الذين ضحوا بحيواتهم للحصول على الأخبار، ومن بينهم إليزابيت نيوفر، مارك فايرمان، مايكل كيللي، هاري بورتون، عزيز الله حيدري، ماريا غرازيا كوتولي، وخوليو فوانتس.

وأوجه امتناني إلى فيليس غران، التي تكرّمت بتحرير هذا الكتاب، ونشره (الطبعة الإنكليزية) وإلى كاثي روبنز، ألمع الوكلاء الأدبيين في العالم.

أخذ «إرث من رماد» شكله في يادو، وهو منتجع الفنانين والمؤلفين في ساراتوغا سبرينغر، نيويورك. وعلى مدى شهرين، أواني أناس يادو الطيبون وأطعموني؛ بينما آلاف الكلمات أخذت تتدفق يومياً على أوراق كتاباتي. وقد تشرّفت في أن أكون أول الحائزين جائزة نورا ساير للمؤلفات غير الخيالية، التي أُنشئت تخليداً لذكراها، ودعماً لإرثها الأدبي. وألف شكر إلى الشاعرة

جين فالنتاين التي عرّفتني إلى يادو؛ وإلى إيلينا ريتشاردسون، رئيسة مؤسسة يادو؛ وإلى أمناء، هذا الملجأ الرائع، ومسانديه، وموظفيه.

أخذ الكتاب حجمه الأكبر والأقوى في منزل حمويّ، سوزانا وبوكر دويل، اللذين ساندانی بطيبة نفسيهما.

ونشأت إرادة الكتابة عندي عندما شاهدت للمرة الأولى والدتي، البروفسورة دورا ب. واينر، تعمل على كتاب في قبو منزلنا في فترة الهدوء التي تسبق الفجر. وهي، بعد ذلك بـ ٤٥ سنة، لا تزال تكتب وتدرّس وتلهم طلابها وأبناءها. وجميعنا نتمنى لو أن والدي كان هنا ليحمل هذا الكتاب بيديه.

«إرث من رماد» ينتهي كما بدأ، بإهداء إلى حب حياتي، كايت دويل؛ وإلى ابنتينا. إيما وروبي؛ وإلى بقية حياتنا معاً.

كلمة أخيرة

بدّدت الولايات المتحدة آلاف الأرواح ومئات مليارات الدولارات في ورطتها في العراق. وهذا جزء من الثمن الذي ندفعه، دماً ومالاً، عندما تقوم «السي.آي.أيه.» بالأمر على نحو خاطئ. فالتخطيط لاستخدام القوة بدون استخبارات جيدّة حماقة: الزعماء يضلّون، والجنرالات يتعثّرون، والجنود يموتون. والقوى العظمى تخسر قوتها، وتتخبط، وتبدأ بالسقوط.

تعود بدايات هذه الكارثة إلى عقد سابق من الزمن. فأسياد التجسس الأميركيون حذّروا البيت الأبيض سرّاً في ١٩٩٨ من أن الأمة ستعاني «اخفاقاً كارثياً، شاملاً» في الاستخبارات ما لم تعمد إلى إجراء إصلاح شامل للطريقة التي تُجمع بها المعلومات عن بقية العالم. وحصل هذا الإخفاق بعد ذلك بخمس سنين، في ٢٠٠٣، عندما وفّرت تقارير «السي.آي.أيه.» الكاذبة عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، القاعدة الأخلاقية للرئيس وللبنتاغون للشروع في حرب وقائية.

وها إن جنودنا، في ٢٠٠٨، غارقون في صراع استمر لأطول مما استمرت عليه الحرب العالمية الثانية. واحتمالات النصر العسكري لا تزال طويلة والأهداف السياسية للحرب لا تزال بعيدة. مات [أكثر من] أربعة آلاف أميركي وجرح عشرات الآف في جسدياً ونفسياً. واليوم، بعد عشرة أعوام على إعلان جورج تينيت الحرب على أسامة بن لادن، فإن الإرهابي السعودي لا يزال متوارياً عن الأنظار، وقواته تعيد تجمّعها في باكستان. وقد تلطّخت سمعة الولايات المتحدة من جرّاء إدارتها لمكافحة الإرهاب.

سبق لكولن باول أن حذّر من أن «العالم أخذ يشك في القاعدة الأخلاقية لحربنا على الإرهاب»[1]. ويعود ذلك، في جزء كبير منه، إلى الطرائق التي

أساء فيها الرئيس جورج دبليو بوش وأخطأ في استخدام «السي.آي.أيه.». فالرئيس أعطى الجهاز السرّي دور السجّانين والجلادين: وهو، من خلال أوامر تنفيذية لا تزال سرّية، تستند إلى آراء من وزارة العدل مغلفة بالسرية المطلقة حتى اليوم، أعطى الوكالة «شيكاً على بياض» لإساءة معاملة المحتجزين. وقال القائد السابق لسلاح المارينز، الجنرال ب. أكس. كيللي، إن هذا القرار «عرّض شرفنا الوطني للشبهة»[٢]. فالجرح الذي أنزله بالصورة العالمية لأميركا كبير ويكاد لا يندمل. والضرر الذي لحق بقدرتنا على جمع المعلومات في الأراضي الاجنبية عميق. كيف يأمل ضباط «السي.آي.أيه.» في تجنيد أجانب كجواسيس إذا كان هؤلاء يخشون الولايات المتحدة ويرتابون منها؟

في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، ألقى الجنرال مايك هايدن، المدير الحالي لـ «السي.آي.أيه.»، خطاباً يصف فيه كيف أنه دخل بخطوات سريعة إلى مركز مكافحة الإرهاب في الوكالة، وشاهد لافتة معلقة على الجدار منذ ست سنوات. «تقول اللافتة ببساطة، تاريخ اليوم هو ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١»، قال هايدن[٣]. «هذه هي طريقة مقاربتنا هذه الحرب، بدون تبريرات». لكنه لاحظ أنه عندما سلك في السيارة الأميال السبعة من مقر القيادة إلى واشنطن، تغيّر المناخ السياسي وهو يقترب من العاصمة. «بدأ الأمر كأنه العاشر من أيلول/سبتمبر»، قال. و«أنا لا أتحدّث عن ذلك بعبارات التهديد، بل عن استعداد الثقافة السياسية الأوسع لأن تكون مرتاحة مع الأمور التي نعتقد أنها في الوقت ذاته مباحة قانوناً وضرورية كي نخوض هذه الحرب».

أخذ الجنرال هايدن يطلب من الأميركيين أن يعطوه «فسحة سياسية للتنفس». فـ «السي.آي.أيه.» «تعمل من خلال المساحة التي يعطينا إياها الشعب الأميركي... نحن نريد الأمر على هذا الشكل، وهو ما يجب أن يكون عليه». بيد أن الوكالة قد تجاوزت كثيراً حدود القيم الأميركية، خاطفة أناساً أبرياء، ومعذّبة مشتبهاً فيهم بأنهم إرهابيون بتقنيات تتضمن الإغراق في الماء حتى مقاربة الموت، وهي تقنية أُتقنت أيام محاكم التفتيش الإسبانية.

أصرّ الرئيس بوش مراراً وتكراراً على «أننا لا نقوم بالتعذيب». لكن هايدن

عرف أن هذا ليس صحيحاً. علم بأن «السي.آي.أيه.» أغرقت معتقلين بالماء حتى يقاربوا الموت بأوامر من الرئيس. وعرف أن «السي.آي.أيه.» سجّلت هذه التحقيقات الوحشية على أشرطة فيديو. وعرف أن الكونغرس، ولجنة ٩/١١، ومحاكم فديرالية عدة كانت مهتمة بوجود هذه الأشرطة. وعرف أنها دُمّرت في خريف ٢٠٠٥، ومن الذي دمّرها، وهو رئيس الجهاز الخفي، خوسيه رودريغيز. والسبب واضح: تخيّلوا الضرر الذي سيلحق بـ «السي.آي.أيه.» وبالولايات المتحدة لو أن هذه الأشرطة رأت نور النهار.

تضمّنت الأشرطة التحقيق مع أبي زبيدة، أول سجين ذي مرتبة كبيرة في القاعدة لدى «السي.آي.أيه.»، وهو فلسطيني. اعتقلته الشرطة الباكستانية يساندها ضباط من «السي.آي.أيه.» و«الأف.بي.آي.» في آذار/مارس ٢٠٠٢. أطلقوا عليه النار في فخذه، وفي أسفل البطن، وكاد يموت. وعندما استفاق من الغيبوبة، «طلب مني أن أخنقه بواسطة وسادة»[٤]، استذكر جون كيرياكو، وهو ضابط في «السي.آي.أيه.» مولج بالقضية. «وقلت، لا، لا. لدينا مشاريع لك». أمتلك ضباط «السي.آي.أيه.» الذين يحققون معه سلطة، باسم رئيس الولايات المتحدة، أن ينزلوا الألم والمعاناة بأسيرهم إلى حد الموت. وقال السجين المصاب في أمعائه، إنه يعرف أعضاء قياديين في القاعدة ويعرف بخطط لمهاجمة أهداف خارج الولايات المتحدة، أو هكذا قال لـ «السي.آي.أيه.» بعد إغراقه في الماء إلى حد الموت.

ربّما كان كلامه صحيحاً، وربما لم يكن. وهو في الحالتين يحمل أثر التعذيب.

قال كيرياكو، «عند ذاك الوقت، شعرت بأن الإغراق في الماء أمر نحتاج إلى القيام به. لكن مع مرور الوقت ـ بينما أخذ ١١ أيلول/سبتمبر يبتعد أكثر فأكثر في التاريخ ـ أعتقد أنني غيّرت رأيي. وأعتقد أن الإغراق بالماء هو أمر ربما ليس علينا القيام به. إننا أميركيون، ونحن أفضل من ذلك».

ربّما توقّف الوقت عند الثاني عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في مقر قيادة

«السي.آي.أيه.»، لكن لا يمكنه التوقّف إلى الأبد. فسلوك «السي.آي.أيه.» قد يتَعارض مع القيم الأميركية، لكنه لا يستطيع البقاء طويلاً على هذه الحال.

هل يستحقّ الأميركيون جهاز استخبارات يخطئ في قراءة التهديدات الوجودية، ويعتمد على معلومات منتزعة من التعذيب في سجون سرّية، ويستمد سلطة لا رقيب لها من أوامر رئاسية سرية؟ هل ثقافتنا السياسية مرتاحة إلى ذلك؟ الرئيس المقبل للولايات المتحدة سيواجه هذه الأسئلة.

على القائد الأعلى الجديد أن يعيد المبادئ الأميركية إلى الحرب الطويلة. وهذا يعني التخلي عن التعذيب كأداة للقوة الأميركية، وإعادة مثول السجين أمام القاضي إلى مكانه الصحيح في القانون الأميركي، وإقفال غونتانامو، وإغلاق السجون السرّية. وهذا يعني الحد من امتيازات الدولة السرّية التي يمنع بواسطتها الرؤساء المحاكم من إحلال العدالة. وهذا يعني وضع نهاية للادعاء الاعتباطي بالسلطات الرئاسية والعودة إلى عملية المحاسبة الدستورية في مجال الأمن القومي الأميركي.

«ما هو أعظم تهديد يواجهنا؟»،(٥) سأل أخيراً كولن باول. «سيقول الناس إنه الإرهاب. لكن، هل يوجد إرهابيون في العالم يمكنهم تغيير نمط الحياة الأميركية ونظامنا السياسي؟ كلا. هل يمكنهم تهديم مبنى؟ نعم. هل يمكنهم قتل أحد؟ نعم. لكن هل يمكنهم تغييرنا؟ لا. وحدنا نستطيع تغيير أنفسنا... الشيء الوحيد الذي يمكنه تدميرنا هو نحن. ولا يجب أن نفعل هذا بأنفسنا، ولا يجب استخدام الخوف لغايات سياسية: إخافة الناس حتى الموت كي يصوتوا لك، أو إخافة الناس حتى الموت، بحيث يمكننا أن ننشئ شبكة صناعة الإرهاب».

على الرئيس الجديد أن يولي اهتماماً فورياً ومثابراً لقلب «السي.آي.أيه.»، وروحها، ولجواسيس جهازها الخفي، ولمحللي مديرية الاستخبارات فيها. وبرغم أن «السي.آي.أيه.» امتلكت سجلاً يكاد يكون مثالياً في مقاومة التغييرات الأساسية التي اقترحتها اللجان الرئاسية والمجالس الرفيعة المستوى، فإنها ستحاول إرضاء أوامر الرئيس.

يحتاج الرئيس الجديد، ووزير الدفاع، ووزير الخارجية، إلى استخبارات استراتيجية: المعلومات الضرورية لتوجيه السياسة الخارجية الأميركية. «السي.آي.أيه.» لم توفّرها، وما وفّرته بدلاً من ذلك وصفته جيداً لجنة ٢٠٠٥ الرئاسية حول الاستخبارات الأميركية والإخفاق العراقي، وقد قرأ أعضاؤها كل النسخ ذات الشأن من نسخ الإيجاز اليومي للرئيس، ورفيقتها الأوسع توزيعاً، وهي الإيجاز الاستخباراتي لكبار الجهاز التنفيذي.

واستنتجت اللجنة أن «هذه التقارير اليومية كانت، من بين أمور أخرى، أكثر إنذاراً بالشر وأقل تعبيراً. وهذا ليس لأن الاستخبارات كانت مختلفة في شكل متعمّد، بل إن الإيجازات اليومية والإيجازات الاستخباراتية، بعناوينها اللافتة للانتباه وتكرارها الأشبه بقرع الطبول، تركت انطباعاً بوجود تقارير كثيرة تتقاطع مع بعضها البعض، بينما لم توجد في الواقع سوى مصادر قليلة جداً... وبوسائل متقنة وغير متقنة في آن، بدا أن التقارير اليومية تبيع الاستخبارات، بهدف الاحتفاظ باهتمام زبائنها، أو على اهتمام زبونها الأول».

لم يشتر الرئيس بوش والبنتاغون ما تبيعه «السي.آي.أيه.»: ليس بعدما ثبت خطأ إفادة الوكالة عن منظومة الأسلحة العراقية. «في ٢٠٠٤، عندما كنت رئيساً لمجلس الأمن القومي، أصدرنا تقديراً كئيباً حول التمرّد العراقي تسبب بفورة غضب كبرى لدى الرئيس بعد تسرّبه إلى «النيويورك تايمز»»، قال أخيراً الرئيس السابق للمجلس روبرت ل. هاتشينغز[٦]. «بيد أن الرواية الحقيقية هي أن الرئيس لم يكن قد اطلع عليه، ولا حتى على صفحة الموجز الرئاسي الوحيدة! وعندما يتم تجاهل نتائج مثل هذا الإنتاج الصادر عن مجتمع الاستخبارات تجاهلاً كلّياً، فهذا يعني وجود أمر ليس أبداً على ما يرام».

فقد الشعب الأميركي أيضاً إيمانه بقدرة «السي.آي.أيه.» على القيام بالأمر بالشكل الصحيح. وإذا كان في الإمكان سدّ هذه الفجوة، فعلى الكونغرس المقبل العمل على إصلاحها. على المواطنين الاعتماد على ممثليهم المنتخبين للإشراف على الاستخبارات الأميركية. فالكونغرس المئة والتاسع، في ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، فشل في تمرير قانون التفويض الاستخباراتي، وهو القانون الأساسي

الذي يحكم كيفية إنفاق «السي.آي.أيه.» وأجهزة استخبارات البلاد الستة عشر الأخرى المال وتسيير شؤونها. الأمر أشبه بحادثة تحطّم قطار: ففي السنوات الثلاثين التي تلت إنشاء لجنتي الاستخبارات في الكونغرس، لم يحصل مثل هذا الإخفاق. على اللجنتين القيام بعملهما: طرح الأسئلة الصعبة، طلب الأجوبة، والعودة إلى إفادة الرعيّة. وقد حصل إهمال لهذا الواجب في معظم العقود الثلاثة الماضية، إلا أن سلوكهم منذ ٩/١١ قد قارب الاهمال الجرمي.

على «السي.آي.أيه.»، بمساعدة من البيت الأبيض والكونغرس، أن تنشئ جيلاً جديداً من الضباط القادرين على التحدّث بلغات أجنبية ـ العربية، الصينية، الأوردية، ـ والمستعدين للعمل في الخارج لسنوات كاملة. الوعد بالعثور على هذه المواهب ليس كافياً؛ فالقيمون على التجنيد والتدريب في الوكالة قد فشلوا حتى الآن. فروبرت هاتشينغز، بوصفه رئيساً لمجلس الأمن القومي، جال على محطات «السي.آي.أيه.» حول العالم بعد ٩/١١. وقال «كنت مدركاً جيداً الطريقة التي ننشئ فيها اميركا الصغيرة في كل مكان نذهب إليها، والتي يسكن فيها أناس لا يتمتعون بالدرجة الكافية من التدريب اللغوي وغير قادرين على الاختفاء في داخل الثقافة المحلّية. ونحن ندفع ثمناً باهظاً ومتزايداً لهذا الجهل»(٧).

وقال «لقد فشلنا بطريقة سيئة للغاية في جلب متحدثين كفوئين باللغة العربية منذ ٩/١١. علينا أن نقوّي التزامنا الوطني بفهم اللغات والثقافات الأجنبية». فـ «السي.آي.أيه.»، بدون تجنيد، وتوظيف، وتدريب، والاحتفاظ بأميركيين موهوبين، ستستمر في الفشل في معرفة العالم. واشتكى هاتشينغز من أنها الآن «تنسحب إلى المزيد من السرّية ومن العادات الثقافية القديمة. حاول أن تجعل محللاً في «السي.آي.أيه.» يقول ما هو للنشر في مؤتمر أكاديمي، أو يشارك في موقع نقاش تفاعلي على الانترنت مع اختصاصيين... تَرَ مدى رسوخ العادات الثقافية والتوجهات الفكرية للحرب الباردة القديمة». ونتيجة لذلك، فإن أفضل الأميركيين وألمعهم ينفرون من «السي.آي.أيه.».

تم منذ سنتين إنشاء جامعة استخبارات قومية: على الورق. وهي لا تزال

مخططاً بالنسبة إلى بيروقراطية معزولة. وعليها أن تصبح جامعة حقيقية، موازية لوست بوينت وللمعهد الحربي الوطني. حصلت برامج حكومية أُنشئت في ١٩٩١ لتدريب ضباط الأمن القومي الجدد على موازنة سنوية بقيمة مليوني دولار بالنسبة إلى الطلاب الذين لم يتخرّجوا بعد، ومليوني دولار للطلاب المتخرجين، وهو استثمار ضئيل موجب للسخرية عندما تنفق الأمة ملياري دولار في اليوم على الجيش. فملياراً دولار في السنة ستسمح لآلاف الطلاب غير المتخرجين بأن يتقنوا لغة الأمم الإسلامية والقوى العظمى المقبلة، وتاريخها، وثقافتها. وربما ينشأ الطلاب ليصبحوا دبلوماسيين، أو ضباطاً عسكريين، أو يبحثوا عن حظّهم في مكان آخر. إلا أن البعض منهم سيختار خدمة بلاده في أماكن وسخة، وخطرة، حيث يجري العمل الاستخباراتي الحقيقي.

وهذا العمل ليس شراء الانتخابات، أو إغراق السجناء بالماء. هذا العمل هو تجسس. فالطريقة الوحيدة لمعرفة ذهن العدو هي في التحدث إليه، هذا هو عمل الجواسيس. إذا لم نستطع تكلّم اللغة، فلن نتمكّن من فهم الشعب والقوى السياسية التي نسعى إلى احتوائها والسيطرة عليها. وبدون هذا الفهم، لن يمكن «السي.آي.أيه.» أن تكون ما أمل مؤسسوها أن تكون عليه، أي أن تصبح مصدراً للحقيقة خدمة لمن في السلطة.

إذا أردنا لثروات أميركا أن تزدهر في المستقبل، فسنحتاج إلى أفضل الاستخبارات. وتعليم الجيل المقبل كيفية معرفة العدو، هو المكان الذي يجب أن نبدأ فيه.

نيويورك، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٨

هوامش

مصادر أولية

- سجلات وكالة الاستخبارات المركزية، وقد تم الحصول عليها من تكنولوجيا البحث في سجلات «السي.آي.أيه.» في الأرشيف الوطني وسجلات الإدارة (CIA/CREST)
- سجلات لـ «السي.آي.أيه.» نشرها أو أعاد طبعها مركز «السي.آي.أيه.» لدراسة الاستخبارات (CIA/CSI)
- سجلات لـ «السي.آي.أيه.» تم الحصول عليها من نظام سجلات الوثائق المرفوعة عنها السرّية (CIA/DDRS)
- الأرشيف الوطني وسجلات الإدارة (NARA)
- علاقات الولايات المتحدة الخارجية .The Foreign Relations of the United States سجلات لـ «السي.آي.أيه.» في عدد علاقات الولايات المتحدة الخارجية «طوارئ مؤسسة الاستخبارات: ١٩٤٥-١٩٥٠»، وهي في ما بعد مذكورة تحت اسم علاقات الولايات المتحدة الخارجية ـ الاستخبارات. (FRUS Intelligence)
- التاريخ الشفهي للعلاقات الخارجية (FAOH)
- مكتبة فرانكلين د. روزفلت، هايد بارك، نيويورك (FDRL)
- المكتبة الرئاسية لهاري س. ترومان، إندبندنس، ميسوري (HSTL)
- المكتبة الرئاسية لدوايت د. أيزنهاور، أبيلين، كنساس (DDEL)
- المكتبة الرئاسية لجون ف. كنيدي، بوسطن، ماساتشوستس (JFKL)
- المكتبة الرئاسية لليندون ب. جونسون، أوستن، تكساس (LBJL)
- المكتبة الرئاسية لريتشارد م. نيكسون، يوربا ليندا، كاليفورنيا (RMNL)
- المكتبة الرئاسية لجيرالد ر. فورد، غراند رابيدز، ميتشيغان (GRFL)
- مكتبة جيمي كارتر، اتلانتا، جورجيا (JCL)
- مكتبة جورج هـ و. بوش، كوليدج ستايشن، تكساس (GHWBL)

- أرشيف مؤسسة هوفر، جمعة ستانفورد، ستانفورد، كاليفورنيا

- سجلات اللجنة المختارة في مجلس الشيوخ لدراسة عمليات الحكومة في ما يتعلّق بالنشاطات الاستخبارية (لجنة تشيرتش) (Church Committee)

تم الحصول على تأريخات الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» من خلال الوثائق المرفوعة عنها السرية ومن خلال مصادر غير رسمية. وقد نكلت «السي.آي.أيه.» بالتعهدات التي قطعها ثلاثة مدراء متتابعين ـ غايتس، وولسي، ودوتش ـ برفع السرّية عن سجلات تسع عمليات خفية رئيسية: فرنسا وإيطاليا في الأربعينيات والخمسينيات؛ كوريا الشمالية في الخمسينيات؛ إيران في ١٩٥٣؛ أندونيسيا في ١٩٥٨؛ التيبت في الخمسينيات والستينيات؛ والكونغو، وجمهورية الدومينيكان، ولاوس في الستينيات. وقد نشرت وثائق غواتيمالا أخيرا في ٢٠٠٣، وأخرج معظم وثائق خليج الخنازير، وتم تسريب تاريخ إيران. وما تبقى لا يزال تحت الختم الرسمي. وفيما أخذت أجمع واستحصل على الإذن برفع السرّية عن بعض سجلات «السي.آي.أيه.» في الأرشيف الوطني المستخدمة في هذا الكتاب، انخرطت الوكالة في جهد سرّي لإعادة السرّية إلى الكثير من هذه السجلات نفسها، التي تعود إلى الأربعينيات، ضاربة القانون بعرض الحائط ومتراجعة بكلامها. وبرغم ذلك، فإن عمل المؤرخين، ورجال الأرشيف، والصحافيين قد خلق أساساً من الوثائق التي يمكن على أساسها بناء كتاب.

الجزء الأول

الفصل الأول

(١) ترومان لديفيد م. نويز، ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، أوراق ديفيد م. نويز، المكتبة الرئاسية لهاري ترومان.

(٢) دونوفان إلى لجنة مشتركة للحرب النفسية، ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٢، الأرشيف الوطني وسجلات الإدارة.

(٣) دونوفان لروزفلت، «السلطة الكبيرة اللازمة لإقامة جهاز استخبارات مركزية»، ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤، أعيد طبعها في كتاب توماس ف. تروي، مركز «السي.آي.أيه.» لدراسة الاستخبارات، المعاد نشره تحت عنوان «دونوفان و«السي.آي.أيه.»» Donovan and the CIA (Frederick, MD: University Publication of America, 1981), pp. 445-447.

(٤) دونوفان لروزفلت، إضبارة الأو.أس.أس.، ملف سكريتير الرئيس، المكتبة الرئاسية لفرانكلين روزفلت. قال روزفلت في إحدى المرات، ببعض المكر، إنه كان يمكن دونوفان أن يصبح رئيساً لو أنه لم يكن إيرلندياً، وكاثوليكياً، وجمهورياً.

(٥) كما ذكر دالاس عن بروس في خطابه، «وليام ج. دونوفان والأمن القومي»، وهو غير مؤرخ وربما كان في ١٩٥٩، مركز «السي.آي.أيه.» لدراسة الاستخبارات.

(٦) على ما نقله تروي عن بيسيل، دونوفان و«السي.آي.أيه.»، ص. ٢٤٣. كانت هذه فكرة منتشرة

على نطاق واسع. بيد أن الجيش فعل ما هو أسوأ إبان الحرب. كان رئيس استخبارات الجيش، الجنرال جورج سترونغ، قد نظر بعين خارقة إلى «أو.أس.أس.» دونوفان الجديدة والمستقلة وقرّر إقامة دكانته الاستخبارية الخاصة. أعطى، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٢، أوامره إلى رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية في وزارة الحرب، الجنرال هايز كرونر، بإنشاء هذا التنظيم. وقام كرونر بدوره باجتذاب نقيب في الجيش الأميركي خارج على تنظيم دونافان يدعى جون «فرنشي» غرومباخ، وسلّمه بعض أوامر السير الخارجة على المألوف: التركيز على عمليات التجسس والتخريب على الولايات المتحدة من قبل حلفائها في الحرب، البريطانيين والسوفيات. أطلق غرومباخ على جهازه الاستخباري اسم الحوض. غاب عنه إشراف سلطة أعلى، وقوضه عدم مصداقية تقاريره. وبكلام غرومباخ نفسه، فإن ثمانين في المئة من عمله انتهى إلى سلّة المهملات. نجح الحوض أساساً في الإبقاء على سرّية وجوده. وقال الجنرال كرونر «لم يكن وجوده معروفاً»؛ إلا من حفنة من الرجال بمن فيهم «الرئيس نفسه الذي لم يعرف بوجوده إلا لضرورة موافقته على بعض العمليات». إلا أن أوامر غرومباخ الطموحة شكلت مِعلما: وقال كرونر «انه لن يؤسس وحسب لجهاز استخبارات سرّي، ينظر في الجهد الحربي الراهن، بل إنه سيضع أيضاً أسس جهاز استخبارات دائم، بعيد النظر، ومتباعد، ومتواصل. شكّلت تلك ولادة استخبارات رفيعة المستوى في حكومتنا، وعمليات استخبار سرّية». قانون الأمن القومي ١٩٤٧، جلسات الاستماع في لجنة النفقات في الوزارات التنفيذية، ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٤٧. أنظر: Mark Stout, 'The Pond: Running Agents for State, War, and the CIA,' Studies in Intelligence, Vol. 48, No. 3, CIA/CSI, available online at https://www.cia.gov/csi/studies/vol48no3/article07.html

(٧) في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١، أعطيت الأوامر للنقيب دين راسك، وزير الخارجية المقبل، لتنظيم قسم جديد لاستخبارات الجيش يغطي قطاعاً كبيراً من العالم، من أفغانستان وعبر الهند وحتى استراليا. قال راسك، «لا تمكن المبالغة بالحاجة إلى المعلومات. لقد كنا نصطدم بعامل الجهل هذا». طلب رؤية ما لدى الولايات المتحدة من ملفات: «أرتني سيدّة متقدمة في السن تدعى السيدة نورث، درجاً واحداً لحفظ الملفات يحتوي على نسخة واحدة من دليل مورفي السياحي» لإندونيسيا وسيلان وقد ختم بطابع السرّية كونه النسخة الوحيدة الموجودة وأرادوا الاستمرار في تقفي أثره؛ وتقرير واحد من الملحق العسكري في لندن يعود إلى ١٩٢٥ حول الجيش البريطاني في الهند، ومن ثم عدد كبير جداً من قصاصات «النيويورك تايمز» كانت السيدة نورث تقتطعها منذ الحرب العالمية الأولى، وهذا كل شيء». واستذكر راسك انه في الحرب العالمية الثانية وعندما كان الطيارون الأميركيون يجتازون جبال الهملايا من الهند إلى الصين وبالعكس، فانهم كانوا يطيرون على العمياء: «بل إننا لم نملك حتى الخرائط التي تظهر لنا الحقل الذي نعمل فيه بمقياس واحد إلى مليون». وعندما حاول راسك تنظيم وحدة تتحدث اللغة البورمية في الجيش، «بحثنا في أنحاء الولايات المتحدة عن شخص مولود في بورما... ووجدنا في النهاية واحداً «بحثنا عنه فإذا به موجود في مستشفى للأمراض العقلية. حسناً، قما بإخراجه من المصح وجعلنا منه مدرّساً للغة البورمية». شهادة راسك، لجنة الرئاسة حول نشاطات «السي.آي.أيه.» (لجنة روكفللر)، ٢١ نيسان/أبريل ١٩٧٥Rusk .

Testimony, President's Commission on CIA Activities (Rockefeller Commission), April 21, pp. 2191-2193, Top Secret, Declassified 1995, GRFL.

(٨) Troy, Donovan and the CIA, p. 265.

(٩) منقول عن كاسي في كتاب جوزف برسيكو Joseph E. Persico, Casey: The Lives and Secrets of William J. Casey: From the OSS to the CIA (New York: Viking), p. 81.

(١٠) تقرير بارك، ملفات روز أ. كونواي، إضبارة «أو.أس.أس.»/ دونوفان، المكتبة الرئاسية لهاري ترومان.

(١١) من دونوفان إلى ترومان، «بيان مبادئ»، علاقات الولايات المتحدة الخارجية ـ الاستخبارات، ص. ١٧ ـ ٢١.

الفصل الثاني

(١) مقابلة المؤلف مع هيلمس.

(٢) "most inadvisable": Stimson to Donoban, May 1, 1945, CIA Historical Intelligence Collection, CIA/CSI.

(٣) ماكوي لماغرودر، ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٤٥، علاقات الولايات المتحدة الخارجية ـ الاستخبارات، ص. ٢٣٥ ـ ٢٣٦. السجلات التي تفصّل بقاء «السي.آي.أيه.» بعدما حظر ترومان «الأو.أس.أس.»، موجودة في علاقات الولايات المتحدة ـ الاستخبارات، ص. ٢٣٥ ـ ٢٣٦؛ انظر في صفة خاصة دراسة ماغرودر عن العمليات الاستخبارية السرّية وتقرير لوفيت.

(٤) كما نقل مايكل وورنر عن ماغرودر في 'Salvage and Liquidation: The Creation of the Central Intelligence Group,' Studies in Intelligence, Vol. 39, No. 5, 1996, CIA/CSI.

(٥) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار.

(٦) مقابلة أجراها المؤلف مع سيشيل.

(٧) Wisner to Chief/SI, March 27, 1945, CIA/DDRS.

(٨) ماغرودر للوفيت، «مسائل استخبارية»، غير مؤرخ، ويُحتمل أن يكون في أواخر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، راجع: FRUS Intelligence, pp. 77-81.

(٩) William W. Quinn, Buffalo Bill Remembers: Truth and Courage (Fowlerville, MI: Wilderness Adventure Books, 1991), p. 240.

(١٠) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 72.

كان العقيد كوين كبير ضباط الاستخبارات في الجيش السابع في شمال أفريقيا، وفرنسا، وألمانيا، يعمل باتصال مباشر مع «الأو.أس.أس.»، وقد واجهته واشنطن بمعارضة ضارية للجهاز الاستخباري الجديد. جلب حزمة من المعلومات الداخلية عن الأسطول السوفياتي في

بحر البلطيق إلى أميرال في مكتب الاستخبارات البحرية. «منظمتكم يخترقها الشيوعيون»، أجاب الأميرال، «ولا يمكنني أن أقبل بأي شيء قد تريد أن تعطيني إياه». وواجه عدداً من مثل هذا الرفض المتكرر. لذا قرر كوين أنه يحتاج إلى بطاقة صحية نظيفة من الرجل الوحيد في واشنطن الذي يمكنه منحه إياها: ج. إدغار هوفر من «الأف.بي.آي.» مضى إلى هوفر، وطرح قضيته، وراقب هوفر وهو يبتسم ويلحس نوعا ما شفتيه وهو ينظر في المشكلة. «تعرف أن هذا يشكل راحة عظيمة للنفس»، قال هوفر. «يا عقيد، لقد حاربت دونوفان ذلك بكل ما أوتيت من قوة، وبخاصة في ما يتعلق بالعمليات في أميركا الجنوبية والوسطى». فقد تلقت «الأف.بي.آي.» بعد الحرب أمراً بالانسحاب من كل دولة جنوب الريو غراندي؛ وأحرق رجال هوفر ملفاتهم الاستخبارية بدلاً من تسليمها إلى الاستخبارات المركزية في ما شكّل بداية معركة لا نهاية لها. والآن، وللحين، فإن مجيء كوين إلى «الأف.بي.آي.» أدى إلى رفع بعض الحماوة من حقد هوفر. «أُعجبت بدونوفان، لكنني لم أكن بالتأكيد متعلّقاً به»، تابع هوفر. «وها إننا الآن عند نهاية الطريق. ما الذي تريدني أن أفعله؟»

«سيّد هوفر»، أجاب كوين. «الإجابة البسيطة عن سؤالك هي في معرفة إذا كان لدي أي شيوعيين في منظمتي».

«حسناً، في وسعنا القيام بذلك»، قال هوفر. «يمكننا إجراء تدقيق على المستوى الوطني».

«هل يمكنك، وأنت تقوم بذلك لناحية التخريب، أن تدقق، لو سمحت، في سجلاتهم الجرمية أيضاً؟»

«حسناً».

«قبل أن نقرّر كيفية القيام بهذا، أود، للتاريخ وللتعاون النهائي، الطلب منك أن ترسل إلي ممثلاً يكون الرابط مع منظمتي».

كاد هذا يسقط هوفر عن كرسيه. واستذكر كوين، «علمت ما الذي يدور في رأسه. فهو كان ربما يفكّر في أن، يا إلهي، هذا الفتى يطلب مني اختراقاً مباشراً لمنظمته». فقد دعا كوين «الأف.بي.آي.» للتو إلى التجسس على جواسيسه. احتاج إلى تلقيح مناهض للشيوعية من هوفر كي يتمكن جهازه من البقاء في بداية جو رعب كبير أحمر أمسك بواشنطن لنحو عقد من الزمن. وزاد قراره، موقتاً، من مكانة الاستخبارات المركزية وسمعتها في الديار.

عيّن مدير الاستخبارات المركزية، فاندنبرغ، في تموز/يوليو ١٩٤٦، العقيد كوين مسؤولاً عن مكتب العمليات الخاصة، المسؤول عن التجسس والعمل الخفي في ما وراء البحار. وجد ان مهمته الجديدة «تتعارض مع أي من مبادئ التنظيم والقيادة والسيطرة التي سبقت لي تجربتها». وذهب، من أجل المال النقدي، إلى تلة الكابيتول ساعياً، لدى قلة من أعضاء الكونغرس، للحصول على ١٥ مليون دولار للتجسس. قال، «عرفت وحسب أن هؤلاء الناس لا يعرفون ما قمنا به». لذا طلب كوين عقد جلسة إدارية سرّية، وأخبر الأعضاء رواية مثيرة عن عاملة التنظيف في برلين التي تم تجنيدها جاسوسة وتقوم بتصوير الوثائق السوفياتية ليلاً. غرق السيناتورات في الانفعال، وحصل كوين على مالهم، من تحت الطاولة، وساعد ذلك في إبقاء الاستخبارات الأميركية حيّة.

حاول أيضاً إعادة تجنيد قدامى «الأو.أس.أس.» أمثال بيل كايسي، الذي سيتولى إدارة الاستخبارات المركزية بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة. إلا أن كايسي أراد، في ١٩٤٦، جني المال في وول ستريت أكثر مما أراد الاستمرار في خدمة بلاده. خشي هو وأصدقاؤه في «الأو.أس.أس.» من أن الاستخبارات ستظل القاروط (ولد المرأة أو الرجل من الزوج الأول) الأحول العينين للأجهزة العسكرية، يقودها جنرالات وأميرالات أسرى التكتيكات العابرة بدلاً من مدنيين مهرة يركزون على الصورة الاستراتيجية الكبرى. وكتب كايسي إلى دونوفان، أن مستقبل الاستخبارات الأميركية عرضة للتهديد «من المناخ الأخلاقي والسياسي السائد اليوم، والذي أردّه إلى قائدنا الأعلى الراحل»، الرئيس روزفلت. تضمّنت لائحة التوصيات، التي قدمها كايسي إلى كوين، هانس توفت الذي حاول لاحقاً القيام بعمليات خفية ضد الصين إبان الحرب الكورية، ومايك بورك الذي حاول في بداية الخمسينيات شن عمليات عبر الستار الحديدي.Quinn, Buffalo Bill Remembers, pp. 234-267 . رسالة ج. راسل فورغان إلى كوين، ٨ أيار/مايو ١٩٤٦؛ رسالة كايسي إلى فورغان، ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٦٦؛ رسالة مايسي إلى دونوفان، ٢٠ آب/أغسطس ١٩٤٦؛ الرسائل الثلاث موجودة في أوراق ج. راسل فورغان، مؤسسة هوفر، جامعة ستانفورد.

(١١) Sherman Kent, Reminiscences of a Varied Life, n.d., privately printed, pp. 225-231. كتب كنت في ١٩٤٦: «منذ أول البداية، حصل اضطراب إداري من أعلى مستوى، كان في الإمكان تفادي معظمه؛ فالأعمال المتعلقة بالموظفين ـ تعيينات جديدة، تبديلات، وترقيات مستحقّة ـ تحرّكت ببطء ثقيل كنهر متجمّد، هذا إذا تحرّكت على الاطلاق. وأصبحت الحياة خارج الحكومة أكثر فأكثر اجتذابا لمحترفين لا يمكن استبدالهم. وشرعوا بالمغادرة بحسب أهميتهم في المنظمة؛ وتراجعت المعنويات مع عدم ظهور بدائل لهم». Prospects for the National Intelligence Service, Yale Review, Vol. 36, No. 1, Autumn 1946, p. 116. كتب وليام كولبي، المدير المستقبلي للاستخبارات المركزية، أن الفصل بين الباحثين في قسم الأبحاث والتحليل وبين الجواسيس في الجهاز الخفي، أنشأ داخل مهنة الاستخبارات ثقافتين منفصلتين، غير متساويتين، تحتقر إحداهما الأخرى. بقي هذا النقد صحيحاً في خلال سنوات «السي.آي.أيه.» الستين الأولى.

(١٢) جاء التحذير، الذي رفع عنه البيت الأبيض السرّية في ٢٠٠٤، بعنوان «نشاطات الحكومة الاستخبارية والامنية»، ومؤرخ في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٤٥، في اليوم الذي أمر فيه الرئيس بإلغاء «الأو.أس.أس».

(١٣) Harold D. Smith papers, "Diaries-Conferences with the President," 1945 FDRL.

(١٤) نُقل الكلام عن ليهي في مذكّرة سميث، "White House conference on Intelligence Activities," January 9, 1946, FRUS Intelligence, pp. 170-171.

(١٥) يوميات وليام د. ليهي، ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٦، مكتبة الكونغرس؛ Warner, "Salvage and Liquidation," CIA/CSI.

(١٦) يستذكر راسل جاك سميث، الذي أصبح لاحقاً نائب مدير «السي.آي.أيه.» لشؤون

الاستخبارات، أنه عندما أنشئت مجموعة الاستخبارات المركزية أوّلاً في كانون الثاني/يناير ١٩٤٦، «أخذ ترومان يسأل يومياً، أين صحيفتي؟ بدا تقريباً أن النشاط الوحيد للمجموعة الذي وجده الرئيس ترومان مهما هو الموجز اليوم». وكتب سلفه، شيرمان كنت، في ١٩٤٩، أنه على «السي.آي.أيه.» أن تجهد لتشبه «كبرى صحف العاصمة»، مع «قوى صغيرة من البائعين اللائقين والأذكياء جداً» من أجل «دفع المنتوج»، والمنتوج هو، كما تبين، صحيفة الرئيس. أصبحت الصحيفة تُعرف باسم الإيجاز اليومي للرئيس. وهي كانت، على مدى ستة عقود تقريباً، تُسلّم إلى الرئيس بالبريد، وشكّلت مصدر القوة الوحيد المتواصل لـ «السي.آي.أيه.» إلا أن آخر ما يريده (أو يحتاج إليه) جاسوس منخرط في عمل الجاسوسية هو الطلبات اليومية للمواعيد الأخيرة لإنجاز الصحيفة. فالجاسوسية عملية بحث بطيئة لإيجاد قاعدة الحقائق، ولمعرفة ما في ذهن العدو من خلال القيام سرّاً بسرقة أسرار الدولة. وكتب وليام ر. جونسون، وهو قد أمضى ٢٨ عاماً في العمل الخفي لـ «السي.آي.أيه.»، أن هذا شكّل، كان، ولا يزال، «نزاعاً بين المطالب الحقيقية للتجسس والحاجات الخاصة إلى تقديم التقارير عن المعلومات الاستخبارية الراهنة». فهل عمل «السي.آي.أيه.» يقضي بأن تستجدي أو تستعير أو تتزود بالمعلومات وتسوّقها، وقد أعيد توضيبها، لدى الرئيس؟ أم أنه سرقة أسرار الدول الخارجية؟ ولم يُحل هذا النزاع في مصلحة التجسس. وخلص جونسون إلى القول، وهو يتحدث عن الكثير من الجهاز الخفي بعد ثلاثة عقود من المشقّة، إن عمل الاستخبار الراهن يقع في خارج «السي.آي.أيه.». وكتب، زيادة على ذلك، أنه: «في ما يتعلّق بجماعة العمل السياسي، المستوطنين في وسائل الإعلام ومن يبثون عبر الراديو، ومفسدي السياسيين القابلين للرشوة، فليقيموا مأواهم حيثما يناسبهم. فعملهم ليس بالخفي... وليجد لهم مجلس الأمن مكاناً منفصلاً عن مسلك التجسس». راجع: William R. Johnson, "Clandestinity and current Intelligence," Studies in Intelligence, Fall 1976, CIA/CSI, reprinted in H. Bradford Westerfield (ed.), Inside CIA's private World: Declassified Articles from the Agency's Internal Journal 1955- 1992 (New Haven, CT: Yale University Press, 1995), pp. 118-184.

(١٧) Souers, "Development of Intelligence on USSR," April 29, 1946, FRUS Intelligence, pp. 345-347.

(١٨) مقابلة لكينّان في سلسلة لـ «السي.أن.أن.»، في ١٩٩٦، عن الحرب الباردة، نسخة منقولة في أرشيف الأمن القومي، متوفّرة على الانترنت على: http://www.gwu.edu/~nsarchiv/coldwar/interviews/-episode-1/kennan1.html

(١٩) Walter Bedell Smith, My Three Years in Moscow (Philadelphia: Lippincott, 1950), p. 86.

(٢٠) Ibid., pp. 46-54.

(٢١) Helms, A Look over My shoulder, p. 67.

(٢٢) Ibid., pp. 92-95. اعترف رئيس قاعدة برلين، دانا دوراند، بأن المعلومات الاستخبارية التي

أنتجها هو ورجاله كانت مطعّمة «بالشائعات، وبالأقاويل على مستوى عال، وبالثرثرات السياسية». من دوراند إلى هيلمس، «تقرير حول قاعدة العمليات في برلين»، ٨ نيسان/أبريل ١٩٤٨، وقد رفعت عنها السرّية في ١٩٩٩، «السي.آي.أيه.». وفي واحدة من مثل عمليات الغش هذه، باع كارل ـ هاينز كرامر، «من جهاز الاستخبارات الألماني في ستوكولهم»، الأميركيين تقارير مفصلة جداً عن صناعة هياكل الطائرات الروسية، ادعى أنها جاءت من شبكته الواسعة من العملاء داخل الاتحاد السوفياتي. James V. Milano and Patrick Brogan, soldiers, Spies, and the Rat Line: America's Undeclared War Against the Soviets (Washington, DC: Brassey's, 1995), pp. 149-150. وفي عملية احتيال أخرى، اشترت الاستخبارات المركزية قطعة صغيرة «من اليورانيوم المشع» سّوق لها على انها اختُلست من شحنة في ألمانيا الشرقية متوجهة إلى موسكو. ولم يكن الأمر الحارق سوى قطعة كبيرة من الرصاص مخلفة بورق الألومنيوم. ودفع هذا النوع من الإخفاق بالجنرال لسلي غروفز، الرجل الذي أدار مشروع منهاتن، وهو المشروع السرّي الذي أدى إلى وضع القنبلة الذرّية، إلى إنشاء وحدته الاستخبارية الخاصة، المتكرّسة لتحديد كل مصدر ممكن لليورانيوم في العالم وتعقّب تطوير السلاح الذرّي في الاتحاد السوفياتي. وبعدما اعتبر الجنرال غروفز أن رجال هيلمس «غير قادرين على العمل في شكل مرض»، وبالتالي عاجزون عن مراقبة خطط ستالين لبناء القنبلة الذرية السوفياتية، أبقى على وجود وحدته سرّياً عن فاندنبرغ ورجاله في الاستخبارات المركزية. وساهم ذلك في فشل «السي.آي.أيه.» في توقع دقيق لموعد انتهاء احتكار أميركا لأسلحة الدمار الشامل». راجع: Minutes of the Sixth Meeting of the National Intelligence Authority, August 21, 1946, FRUS Intelligence, pp. 395-400; Groves memo to the Atomic Energy Commission, November 21, 1946, FRUS Intelligence, pp. 458-460.

(٢٣) an 'operating agency': Elsey memorandum for the record, July 17, 1946, CIA/CSI.

(٢٤) 'Minutes of the Fourth Meeting of the National Intelligence Authority,' July 17, 1946, FRUS Intelligence, pp. 526-533.

عن فاندنبرغ ورجاله في الاستخبارات من أجل سياق الذعر من الحرب، انظر Eduard Mark, 'The War Scare of 1946 and its Consequences,' Diplomatic History, Vol. 21, No. 3, Summer 1997.

(٢٥) مقابلة أجراها المؤلف مع هوستلر. أمضى هوستلر الأشهر الأخيرة من الحرب في مهمة موقتة في إيطاليا، عاملاً من قصر رئاسي من ١,٢٠٠ غرفة خارج نابولي، مساعداً جيمس ج. أنغلتون من «الأو.أس.أس.» في «إحكام سيطرته على مختلف شبكات الاستخبارات والأمن الإيطالية». وللحصول على خلفية عن الإخفاق الروماني، انظر Charles W. Hostler, soldier to Ambassador: From the D-Day Normandy Landing to the Persian Gulf War, A Memoir Odyssey (San Diego: San Diego State University Press, 1993), pp. 51-85; and Elizabeth W. Hazard, Cold War Crucible (Boulder, CO: Easter European Monographs, 1996). هازارد هي ابنة فرانك ويسنر.

الفصل الثالث

(١) ويسنر كما تم الاستشهاد به في C. David Heymann, The Gregorian Ladies Social Club (New York: Atria, 2003), pp. 36-37.

(٢) سيعمد كينّان مع الوقت إلى التنصل من بنائه الفكري لمبدأ ترومان و«السي.آي.أيه.» وكتب كينّان بعد ذلك بعقدين أن مبدأ ترومان أنشأ «إطار سياسة شاملة» انطلاقا من مشكلة فريدة: «كل ما على الدول الأخرى أن تفعله، لتتأهل للمساعدة الأميركية، هو البرهان على وجود تهديد شيوعي. وبما أنه لا يوجد أي بلد، تقريباً، خال من أقلية شيوعية، فإن هذا الافتراض قد ذهب بعيدا جدا». إلا أن جميع الأميركيين تقريباً قرأوا هذا المبدأ في ١٩٤٧ على أنه إعلان مدوّ لقوى الحرية. كان ضابط الاستخبارات الأميركي جيمس ماكارغار يعمل في بودابست في يوم خطاب ترومان. فعلى مدى أربعة أشهر متواصلة كانت معنويات البعثة الأميركية هناك «تهبط أكثر فأكثر، لأننا رأينا أن الروس يفوزون بما أرادوا القيام به، وهو السيطرة الكاملة على المجر». وتكرّرت القصة ذاتها في شتى أنحاء البلقان وربما ـ من يدري؟ ـ تتكرر في كل أنحاء أوروبا: «لم يعد هناك من شك، مهما يكن، في حصول سباق، ومواجهة حقيقية»، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. «أخذنا نصبح أكثر فأكثر انحطاطاً»، حتى اليوم الذي تم فيه إعلان مبدأ ترومان. «خرجنا جميعنا إلى الشارع في ذلك اليوم ورؤوسنا مرفوعة كثيراً»، قال ماكارغار. «فسندعم القوى الديموقراطية بكل ما أمكننا ذلك في أي مكان حول العالم». George F. Kennan, Memoirs 1925-50 (New York: Pantheon, 1983), p. 322; McCargar oral history, FAOH; مقابلة أجراها المؤلف مع ماكارغار؛ Vandenberg memo, "Subject: Special Consultant to the Director of Central Intelligence," June 27, 1946, CIA/CSI.

تعود أصول مبدأ ترومان إلى الذعر من الحرب في ١٩٤٦. في وقت متاخر من بعد ظهر يوم الجمعة ١٢ تموز/يوليو ١٩٤٦، وبينما بدأت أول عملية خفية وأول خطط حرب ضد السوفيات تأخذ شكلها، تناول ترومان كأس بوربون، أو كأسين، في البيت الأبيض مع مستشاره القانوني كلارك كليفورد. وطلب منه أن يجمع شيئاً حول لغز السوفيات، شيئاً بدا أن الخدمة الإخبارية للاستخبارات المركزية غير قادرة على القيام به في شكل يرضيه. وقرر كليفورد، الذي أفسده بعض الشيء قربه من السلطة، أن يتولى المهمة بنفسه. ما من أحد مقرّب إلى هذا الحد من ترومان كان أقل أهلية. قال كليفورد، «لم أملك أي خلفية حقيقية» في السياسة الخارجية أو في الأمن القومي. «اضطررت إلى التعلّم مع الممارسة؛ كان الأمر كناية عن التقاط ما يمكن المرء التقاطه». لم يكن ترومان الرئيس الأول الذي ينشئ دكانة هواة الاستخبارات الخاصة به في البيت الأبيض. وهو لن يكون الأخير. تم تقديم عمل كليفورد، الذي كُتب مع جورج إلسي مساعد ترومان، في أوائل أيلول/سبتمبر ١٩٤٦. وقد اقتبس فيه كلمات كينّان وبنى عليه، ومن ثم أخذ قفزة طويلة في المجهول. Clifford oral history, HTSL. "The Joint Intelligence Committee," CIA/CSI, 2000.

وجاء فيه أنه على الولايات المتحدة الافتراض أنه في وسع السوفيات شن هجوم في أي

مكان وفي أي وقت، لذا على الرئيس أن يكون مستعداً لشن «حرب ذرّية وبيولوجية» على الاتحاد السوفياتي، «لأن لغة القوة العسكرية هي اللغة الوحيدة» التي يفهمها السوفيات. والخيار الحقيقي الوحيد هو جهد عالمي تقوم به الولايات المتحدة «الدعم كل الدول الديموقراطية التي تتعرض بأي شكل من الأشكال للتهديد أو للخطر من الاتحاد السوفايتي، ومساندتها». وعلى الأمة، للقيام بذلك، أن تبني مجموعة جديدة وموحدة من السياسات الخارجية، والمخططات العسكرية، وبرامج المساعدة الاقتصادية، والعمليات الاستخبارية لكسر حدّة السوفيات. على الولايات المتحدة أن تقود بقية الحضارة الغربية «في محاولة لبناء عالم خاص بنا».

تناهى مسعى كليفورد إلى مسامع مدير الاستخبارات المركزية فاندنبرغ. وحتى يبذّه، بعد أسبوع على تكليف ترومان تقرير كليفورد، طلب فاندنبرغ من مونتاغ، كبير ضباط التقارير لديه، تقديم تقرير له وقع القنبلة حول الجيش والسياسات الخارجية السوفياتية، وأن يكون على مكتبه بحلول يوم الثلاثاء. وفي غياب أي موظفين مؤهلين، قام مونتاغ بالأمر كله وحده. وبعدما لم يغمض له الكثير من الجفن على مدى الساعات المئة التالية، سلّم في الوقت المحدد أول تحليل عن الاتحاد السوفياتي تنشره الاستخبارات المركزية أبداً. خلص مونتاغ إلى أنه، وبينما استبقت موسكو أي اشتباك مع العالم الراسمالي ساعية بكل ما أوتيت من قوة إلى تثبيت سيطرتها على أراضي ما وراء الستار الحديدي، فإنها لن تستثير الحرب المقبلة ولا تستطيع أن تتحمل، على المدى المنظور، نزاعاً مباشراً مع الولايات المتحدة. شكّل ذلك مجرّد تخمين جيّد. كان هذا التقرير أول تقويم للسوفيات، الأول من بين المئات، وهو واحد من أكثر المهمات صعوبة والأقل إرضاءً تتولاه «السي.آي.أيه». وعلى غرار ما تلاه، فإنه استند إلى قلّة من الوقائع الدامغة، وفي ذلك إثبات على الحكمة التي أظهرها شيرمان كنت بأن «التقدير، هو ما تفعله عندما لا تعرف». حظّ التقرير كالصخر. فهو قد رسم ظلالاً رمادية بينما ما أراده البيت الأبيض هو الأبيض والأسود. وقد عانى ضعفاً أساسياً: فالجيش والبحرية ووزارة الخارجية لا تزال لا تشاطر أفكارها، وأقل من ذلك أسرارها، مع مبتدئي الاستخبارات المركزية. Sherman Kent, "Estimates and Influence," Foreign Service Journal, April 1969. See also Ludwell L. Montague, General Walter Bedell Smith as Director of Central Intelligence (University Park, PA: Penn State University Press, 1992), pp. 120-123 [hereinafter CIA/LLM]. هذا تأريخ لـ «السي.آي.أيه» نزع عنه طابع السرّية جزئياً. Ludwell Lee Montague, "Production of a world Situation Estimate," CIA, FRUS Intelligence, pp. 804-806.

شكّل هذا ضربة كاسحة. وكتب مونتاغ لاحقاً، أنه، على امتداد السنوات الأربع التالية، فشلت «السي.آي.أيه» في توفير ما أراده ترومان: معرفة من كل المصادر المعروفة. الحاجز الوحيد الذي لم يمكن اجتيازه هو الجيش. فقد أراد أن يقوم بتفكيره الخاص وتوقعاته وتحليلاته لمكامن التهديد، وهو لا يزال يفعل ذلك. وعلى مدى سنتين تقريباً، شكّل عمل مونتاغ آخر قطعة تفكير حول الاتحاد السوفياتي ترفعها الاستخبارات المركزية إلى الرئيس. وستتعمق الأمثولة المرّة مع الوقت: ستمارس «السي.آي.أيه» السلطة الفعلية في واشنطن فقط عندما تجمع أسرارها الفريدة الخاصة.

امتلك كليفورد، في المقابل، النفوذ الذي افتقرت إليه الاستخبارات المركزية. فقد حاز أفضل مكتب في الجناح الغربي من البيت الأبيض، ويلتقي مع الرئيس نصف دزينة من المرّات في اليوم. امتلك أذن الرئيس الصاغية. طلب باسم الرئيس، وحصل على أسرار الدولة، والحرب، وقطاعات البحرية. واستقى التقرير، الذي قام واسلي بتسليمه في أيلول/سبتمبر، بحرّية كبيرة من العمل الاستخباري الخاص برئاسة الأركان المشتركة. إلا أنه هو أيضاً تضمّن عيباً مميتاً: لم تتوفّر لأي أحد في الحكومة الأميركية أي وسيلة لقراءة قدرات موسكو العسكرية ونياتها. واستفكر ريتشارد هيلمس بعد ذلك بخمسين سنة، أن أفضل معلومة متوفرة للحكومة الأميركية عن السوفيات في ذلك الوقت، كانت قابعة في أكوام مكتبة الكونغرس. إلا أن كليفورد، الذي عمل على البديهة، قام بالتحديد بما يفترض بالاستخبارات المركزية القيام به. فقد جمع أفكار الحكومة. Clifford-Elsey memo, draft copy, September 1946, CIA/DDRS. See also James Chace, Acheson (New York: Simon and Schuster, 1998), p. 157P and Clark M. Anchor with Richard Holbrooke, counsel to the President (New York: Anchor, 1992) pp. 109-129.

(٣) Chace, Acheson, pp. 162-165; Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (New York: W.W. Norton, 1969), p. 219.

(٤) Statement of Lieutenant General Hoyt S. Vandenberg on S. 758, National Security Act of 1947, NARA. قال فاندربرغ إن «الشروع في أمر نحن متخلفون فيه ٤٠٠ سنة عن الزمن الحاضر، يتطلّب وقتاً».

(٥) CIA/LLM, p. 4. كان سويرز، وفاندنبرغ، وهيللنكوتر، من بين دزينة من المدراء الـ١٩ للاستخبارات المركزية غير الجاهزين أو غير المناسبين للمنصب. وكتب هيللنكوتر في ٢١ أيار/مايو ١٩٤٧ إلى وايلد بيل دونوفان، «لم أسع قطعاً إلى هذه المهمة. وكونك كنت معلّما سابقاً في هذا الفن، فإنني أتجاسر على أن أسأل إذا كان يمكنك إعطائي بعض النصح بالإضافة إلى أفكارك حول الموضوع. وسيحتاج هيللي إلى كل المساعدة التي يمكنه الحصول عليها. Letter to Donovan, forgan papers, Hoover Institution, Stanford University.

(٦) تم تسجيل شهادة دالاس في جلسة الاستماع أمام لجنة الإنفاق في الأجهزة التنفيذية، ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٤٧. جعل النائب جاك بروكس رئيس اللجنة النيابية للعمليات الحكومية، وإدوارد بولاند، رئيس اللجنة المنتقاة النيابية الدائمة للاستخبارات، موظفيهما ينبشان النسخة المنقولة وطبعاها مع مقدمة لتاريخها غير المألوف. ترأست النائبة كلير إي. هوفمان من ميشيغان، رئيسة اللجنة النيابية للإنفاق في الأجهزة التنفيذية، الجلسة في ١٩٤٧. أعطى الشهود إفاداتهم بأسماء رمزية (السيد آ، السيّد ب، السيّد س). احتفظ هوفمان بالنسخة المنقولة الوحيدة لجلسة الاستماع؛ أعارها في تشرين الأول/أكتوبر إلى المستشار التشريعي لـ «السي.آي.أيه.»، والتر بفورزهايمر، الذي نسخها واحتفظ بالنسخة في خزانة حديدية وأرجع الأصلية. أتلف هوفمان الأصلية في ١٩٥٠. وقد تم نبش النسخة الوحيدة الباقية من أرشيف «السي.آي.أيه.» بعد ذلك بـ٣٢ عاماً.

كان الشاهدان الرئيسيان الآخران في جلسة الاستماع هما مدير الاستخبارات المركزية

فاندنبرغ، وجون «فرانشي» غرومباخ زعيم الحوض، وهو جهاز التجسس الذي أنشأه الجيش في ١٩٤٢. «نحن لا نلعب الكلّة»، قال غرومباخ للجنة. «نحن»، بترك الاستخبارات المركزية تشن عمليات خفية، «إنما نلعب بأمننا القومي، وبحياتنا». وحاجج بأن اتركوا الجيش يتجسس لصالح الولايات المتحدة، واتركوا الاستخبارات المركزية تكتب التقارير. وأي طريقة أخرى ستكون «خاطئة وخطيرة».

شنّ فاندنبرغ هجوماً مضاداً. وشهد بأن الخطر الحقيقي هو الحوض: «عمل يُكسب مالاً حراماً»، و«اهتمام تجاري»، مليء بمرتزقة هواة يفشون الأسرار في غرف البارات. فالجمع الخفي للاستخبارات السرّية عمل صعب يجب أن يقوم به محترفون خاضعون لسيطرة شديدة.

ومضى فاندنبرغ شارحاً كيفية إنشاء شبكة استخبارات صحيحة. وقال في شهادته، «الحقل الخفي، يا سيدي، هو حقل شديد التعقيد. والطريقة التي يعمل بها هي في إيجاد خبير في الحقل الخفي، أو أقرب ما يكون إلى الخبير المتوفر في الولايات المتحدة، الذي يمكنه أن يَستخدم أناساً بالمال الذي يمكننا دفعه... ثم إنه يبني سلسلة من الأناس الذين يعرفهم. ومن ثم علينا اختيار رجلٍ آخر، نثق به تمام الثقة، يقوم ببناء سلسلة موازية، وهو يكتفي وحسب بالمراقبة... للتأكد من أن هذا الرجل لا يعطيك المعلومات ويتلقى المال من حكومة أجنبية... وبأن الرجل الذي قام أساساً بتركيب الشبكة ليست له، ظاهرياً، اتصالات مع أي شخص أو مع أي قسم من أقسام الحكومة». وحذّر من أن «حظوظ مواجهة حكومة الولايات المتحدة زمن السلم صعوبات جمة توجب علينا إبقاء الأمر تماماً تحت تصرّفنا؛ ولا يمكنك جعله تحت تصرّفك إذا كنت تتعاقد في سبيله (من خلال التوظيف) مع شخص ما يأتيك إلى مكتبك ويقول لك إنه سيكون مسروراً جداً إذا كنت ستعطيه ٥٠٠ ألف دولار في السنة... ومن الممكن جداً أن هذا الرجل تدفع له حكومة أخرى، وأنه يزوّدك بالمعلومة التي تريد هذه الحكومة لك أن تحصل عليها».

شكّلت تلك خطوطاً عريضة دقيقة للتحديات التي واجهتها «السي.آي.أيه.» لدى إنشائها ـ وبأكثر مما تبع ذلك من ألن دالاس: «لا أؤمن بوكالة كبيرة»، قال. «عليكم إبقاؤها صغيرة. فإذا تحولت الأمور لتصبح أخطبوطاً كبيراً، فهي لن تعمل في شكل جيّد. ستحتاجون في الخارج إلى عدد معيّن من الناس، إلا أنه لا يجب أن يكون عدداً كبيراً. يجب أن يكون بالدزينات وليس بالمئات». وقد ورث ما يقارب العشرة آلاف شخص عنما تولّى المسؤولية في ١٩٥٣ ونما معه العدد ليتجاوز الخمسة عشر ألفا ويقارب العشرين ألفاً، تم تكليف معظمهم بالقيام بعمليات خفية في الخارج. شكّلت العمليّات الخفية مهمة لم يشر إليها دالاس أبداً.

(٧) Walter Millis (ed.) with E. S. Duffield, The Forrestal Diaries (Ney York: Viking, 1951), p. 299.

(٨) Acheson, Present at the Creation, p. 214.

(٩) نُشر هذا الرقم في «التنسيق والموافقة السياسية على الأعمال الخفية»، وثيقة مُنسّقة بين مجلس الأمن القومي و«السي.آي.أيه.» مؤرخة في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٧، وقد رفع طابع السرّية عنها في ٢٠٠٢ بعد كفاح طويل.

(١٠) أبلغ هوستون هيللنكوتر أن القانون لم يعط «السي.آي.أيه.» أي سلطة قانونية لأي شيء يشبه العمل الخفي. كما أنه لا يوجد أي قصد ضمني من الكونغرس للقراءة بين سطور القانون. وإذا أصدر مجلس الأمن القومي الأوامر لهذا النوع من المهمات، وإذا ما رجعت «السي.آي.أيه.» إلى الكونغرس وطلبت في شكل محدد وحصلت على السلطة والمال للعمل الخفي، فقد تكون هذه مسألة أخرى. مرت ثلاثون سنة قبل أن يتم الأخذ بنصيحته. Houston to Hillenkoetter, "CIA Authority to Perform Propaganda and Commando type Functions," September 25, 1947, FRUS Intelligence, pp. 622-623.

(١١) Kennan to Forrestal, September 26, 1947, Records Group 165, ABC files, 352:1, NARA.

(١٢) Penrose to Forrestal, January 2, 1948, FRUS Intelligence, pp. 830-834.

(١٣) NSC 4/A, December 14, 1947.

ما هي الحرب النفسية؟ تساءل ضباط «السي.آي.أيه.» الأول. هل هي حرب كلمات؟ وإذا كانت الكلمات هي السلاح، فهل يجب أن تكون صحيحة أم كاذبة؟ هل يفترض بـ «السي.آي.أيه.» ان تبيع الديموقراطية في السوق المفتوحة، أو تهرّبها إلى داخل الاتحاد السوفياتي؟ هل يتعلّق الأمر بتوجيه موجات راديو إذاعية أو إسقاط مناشير وراء الستار الحديدي؟ أم أن الأمر يتعلق بأوامر لشن عمليات سرّية تهدف إلى كسر معنويات العدو؟ سقطت الفنون السرّية للخداع الاستراتيجي في سلّة عدم الاستعمال منذ اليوم ـ ي. ولم يطوّر أحد مبدأً جديداً لخوض الأعمال الحربية بدون أسلحة. وحث الجنرال أيزنهاور، من مركز قيادته في أوروبا، رفاقه الضباط على «إبقاء فنون الحرب النفسية حيّة». Eisenhower memo, June 19, 1947, RG 310, Army Operations, P&O 091.412, NARA; Memo from Director of Central Intelligence, "Psychological Warfare," October 22, 1947, FRUS Intelligence, pp. 626-627.

إلا أن اللواء روبرت أ. ماكلور، الأب المستقبلي لقوات العمليات الخاصة الأميركية، وجد أن «جهل الأميركيين... في شأن الحرب النفسية... مذهل». McClure to Propaganda Baranch, MID War Department, Record Group 319, Box 263, NARA; Colonel Alfred H. Paddock, Jr., "Psychological and Unconventional Warfare, 1941-1952," U.S. Army War College, Carlisle Barracks, PA, November 1979.

بحث هيللنكوتر عن رئيس لـ«فرع الاجراءات الخاصة» الجديد يمكنه أن يضع حداً للظلام. أراد كينّان وفوريستال أن يتسلم دالاس الوظيفة، وحصلا على توماس ج. كاسادي، من قدامى «الأو.أس.أس.»، وهو سمسار ومصرفي من شيكاغو. شكّل كاسادي كارثة. حاول إنشاء محطة إذاعة للبث في ما وراء الستار الحديدي، ومطبعة لنشر الدعاية في ألمانيا، إلا أنه لم يتمكن أحد من إيجاد الكلمات المناسبة لكسب قلوب المظلومين وعقولهم. فكرته الكبرى كانت المشروع الغائي: إرسال بالونات عالية المستوى إلى داخل الاتحاد السوفياتي مع مناشير

تحمل رسائل الحب الأخوي. ولم ليس عملية نقل جوي من ساعات ميكي ماوس؟ سأل أحد المتشككين في وزارة الخارجية.

(١٤) "Consequences of Communist Accession to Power in Italy by Legal Means," CIA, Office of Research and Estimates, March 5, 1948.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع ويات. انظر أيضا المقابلة معه لسلسلة الحرب الباردة على الـسـي.أن.أن. ١٩٩٨ National Security Archive Transcript available online at http:// www.gwu.edu/˜nsarchiv/coldwar/interview/episode-3/wyatt1.html.

أصبحت العملية الإيطالية واحدة من عمليات التحرك السياسي الأكثر كلفة، والأطول مدى، والأغنى مكافأة في أول خمس وعشرين سنة من عمر الوكالة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، في بداية العملية، عاد جيمس ج. أنغلتون من مركزه كرئيس محطة في روما لتنظيم قسم روسي في مكتب العمليات الخاصة التابع لغالواي. سبق لأنغلتون أن بنى حظيرة مهمة من العملاء في إيطاليا، في جزء منه من خلال عرض الحصانة على بعض الزبائن الأشداء من ملاحقتهم على جرائم حرب، وكان يفكّر في الانتخابات المقبلة ويضع الخطط لها منذ أشهر طويلة. وتُرك الضابط التنفيذي لأنغلتون في روما، راي روكا، وهو إيطالي أميركي من سان فرانسيسكو، ليتحمل مسؤولية المراحل الأولى من العملية. وفي نظرة مستعادة إلى الماضي، شعر وليام كولبي بأنه لا يوجد أي سحر في العملية؛ كانت عملية عرض مباشر لأموال نقدية. وسيبقى الأمر مرتكزاً على الأموال النقدية المباشرة لربع قرن. ومعجزة ١٩٤٨ هي في أن الوسط ثبت، ومكّن «السي.آي.أيه.» من ادعاء الفضل في الانتصار. وفي الفترة التي سبقت ذلك الانتخاب، كان الديموقراطيون المسيحيون في يمين الوسط المتحالفون مع الفاتيكان ويقودهم دي غاسبيري، على قدم المساواة مع الحزب الشيوعي الذي تطلع زعماؤه إلى موسكو، وادعوا أن عدد المنتمين إليهم، من قياديين وغير قياديين، يبلغ مليوني موال. «كانا الحزبين الكبيرين»، قال مارك ويات من «السي.آي.أيه.». الفاشيون الجدد كانوا خارج الصورة. وأتباع الملكية موتى». بقيت ثمة ثلاثة أحزاب صغيرة، هي: الجمهوريون، الليبراليون، والديموقراطيون الاجتماعيون. قررت «السي.آي.أيه.» في آذار/مارس ان تقسم تصويتها الخاص، كما جرى، من خلال دعم مرشحي الأحزاب الصغيرة، بالإضافة إلى الديموقراطيين المسيحيين. توجد نظرات عامة إلى العملية في: Ray S. Cline, Secrets, Spies, and Scholars: Blueprint of the Essential CIA (Washington, DC: Acropolis, 1976), pp. 99-103, and Peter Grose, Operation Rollback: America's Secret War Behind the Iron Curtain (Boston: Houghton Mifflin, 2000), pp. 114-117. كان كلاين نائب المدير للاستخبارات في «السي.آي.أيه.» من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٦؛ نبش غروس شهادة بالغة الأثر في الكونغرس تصف استخدامات صندوق استقرار البورصة في وزارة المال.

لا توجد سجلات عن كلفة العملية الإيطالية، إلا أن التقديرات تتراوح من ١٠ ملايين إلى ثلاثين مليون دولار. كانت أكياس المال السوداء ملأى، في جزء منها، بسندات الصداقة والثقة. وكانت لوزير المال سنايدر صداقة وثيقة مع أ. ب. جيانيني، رجل المال الإيطالي

الأميركي الذي أدار ترانس أميركا كوربوريشن، وهي شركة قابضة سيطرت على بنك أميركا ونحو مئتي بنك أصغر. وتم، في المقابل، تعريف جيانيني على ويات، وهو مثله من سان فرانسيكو. قال ويات «كانت لي اتصالات كثيرة مع إيطاليين ـ أميركيين بارزين في هذه البلاد: مصرفيين، وصناعيين، وكانوا مليئين بالأفكار، وبعضها كان أفكاراً منحرفة جدّاً»، مثل القيام بانقلاب في حال فشل المخطط الخفي. وكان جيانيني من بين اتصالاته، كما حال «زعماء سياسيين أقوياء في هذا البلد، وليس فقط تمّاني هال وكوك كانوتي، من إيلينويس، بل يوجد أيضاً سياسيون بارعون يعرفون كيفية الفوز في الانتخابات». وتم إدخال عنصر القوة كما عنصر المال. وتقول رواية محرّفة عن عملية ١٩٤٨ الإيطالية إن ثلاثة عملاء متعاقدين مع «السي.آي.أيه.» مضوا إلى باليرمو ليقوموا بعمل ما في شأن الوضع على الأرصفة، حيث لجأوا إلى أعضاء في المافيا المحلّية لحل المشكلة. ونجحوا في إدخال شحنات أسلحة أميركية من وراء ظهر عمّال تفريغ السفن الشيوعيين، إلا أن مقر القيادة لم يكن سعيداً بطريقتهم. ويصعب التقويم الدقيق لمدى الدور الحاسم الذي لعبته «السي.آي.أيه.» للقضية الأميركية في انتخابات ١٩٤٨ وصعوبة إعادة البيضة المخفوقة إلى حالتها الأصلية. ففيض الأسلحة الأميركية والدروع إلى إيطاليا، والسفن الأميركية التي سلّمت أطناناً من المواد الغذائية، وموجات من الأخبار الدولية التي كبّرت من حجمها صدمة سقوط تشيكوسلوفاكيا، ساهمت كلّها في الانتصار وفي تقوية العلاقة الطويلة بين «السي.آي.أيه.» والنخبة السياسية الإيطالية الفاسدة بازدياد. ويستذكر جو غرين، الذي قسم وقته بين وزارة الخارجية ومكتب التنسيق السياسي، أن الإيطاليين «أعلنوا أنهم يريدون أن يقدموا إلى الولايات المتحدة عربوناً عن تقديرهم لكل ما فعله الأميركيون في نهاية الحرب، عندما بدّلوا انحيازهم، وحتى أوائل الخمسينيات. وقدّموا تماثيل أحصنة برونزية هائلة الحجم موجودة عند الطرف الشمالي الغربي لجسر النصب التذكاري في واشنطن. جاء دي غاسبيري للمناسبة وقد حضر ترومان حفل التكريس. كان حفلاً رائعاً». ولا تزال الأحصنة في مكانها Greene oral history, FAOH.

(١٦) تم وصف تهريب عملاء كاتيك التشيكيين المتغلغلين في مقابلات أجراها توم بوغلار وستيف تانّر، وكلاهما ضابط في «السي.آي.أيه.» في ألمانيا في ١٩٤٨. إلا أن «السي.آي.أيه.» لم تتصرف بهذا القدر من النبل عندما نودي عليها لإنقاذ حياة مايكل شيبكوف، وهو بلغاري خدم كبيراً لمترجمي البعثة الأميركية في هذه الدولة الستالينية حديثاً. وقال ريموند كورتني، نائب القنصل الأميركي، إن البعثة طلبت من الجيش المساعدة في إخراج شيبكوف من البلاد: «وعادوا بمخطط صبياني عن حق، ومستحيل: جعله يمضي ليلاً ويشق سبيله، ليس عبر الطريق، لكن عبر الريف على جبال يبلغ ارتفاع الثلج فيها بين خمسة وستة أقدام، نزولاً إلى الحدود اليونانية ومحاولة تدبير لقاء سري في مقبرة هناك. وقد وضع شيبكوف على الطريق حوالى الساعة الثالثة صباحا، وترك الشخص المسكين يشق طريقه. وحسناً، فإنه بلغ المنزل الآمن الأول بخير، والمنزل الآمن الثاني، وعندما لم يصل الساعيان لم يشأ تعريض مضيفيه للشبهة، لذا حاول المضي في سبيله وحده بدون إرشاد ولا مساعدة. التقطته الميليشيا. وعلمنا لاحقاً بأن سبب عدم ظهور الساعيين هو أن كليهما أصيب بنزلة بردية، واضطرا، كليهما، إلى الاستلقاء لأكثر من ٢٤ ساعة في كومة من التبن. تم الاعلان عن أسر شيبكوف عبر الإذاعة

الرسمية بطنطنة كبرى من الدعاية. وعاش شيبكوف وقتاً عصيباً جداً، جداً. وأُطلق من السجن بعد ذلك بخمس عشرة سنة. راجع: Courtney oral history, FAOH.

(١٧) استخدام «السي.آي.أيه.» أموال مشروع مارشال، موصوف في "A Short History of the PSB," December 21, 1951, NSC Staff Papers, White House Office Files, DDEL. تحويل أموال مشروع مارشال من أجل العمل الخفي، مفصّل في مذكرة في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩ لفرانك ويسنر، رئيس مكتب التنسيق السياسي: "CIA Responsibility and Accountability for ECA Counterpart Funds Expended by OPC," classified Secret, reprinted in Michael Warner (ed.), CIA Cold War Records: The CIA Under harry Truman (Washington, Dc: CIA History Staff, 1994). شكّلت هذه محاسبة نادرة: فبموجب «اتفاقات عامة ومحدّدة» تم وضعها سرّاً بين حفنة من الرجال المطلعين، فإن «أموال الخمسة في المئة المقابلة من إدارة التعاون الاقتصادي تم توفيرها لـ «السي.آي.أيه.»» من أجل العمليات الخفية، وذلك استناداً إلى وثيقة من «السي.آي.أيه.». وقد قامت إدارة التعاون الاقتصادي بإدارة مشروع مارشال.

لطالما وجد الكثير من المال النقدي. «بالطبع كان لدينا المال»، قال ميلبورن ل. سبيكتور، وهو مدير مشروع مارشال في باريس. «كان لدينا تمويل مقابل يصل إلى آذاننا». Spector oral history, FAOH.

(١٨) Griffin oral history, HSTL.

(١٩) مذكّرة غير موقعة من كينّان، ٤ أيار/مايو ١٩٤٨، FRUS Intelligence, pp. 668-672.

(٢٠) في ما يلي النص الكامل للكلمات المتنازع عليها:

إن مجلس الأمن القومي، بعدما أخذ علماً بالنشاطات الخفية الآثمة للاتحاد السوفياتي والدول التي تدور في فلكه والمجموعات الشيوعية لاسقاط سمعة الولايات المتحدة وغيرها من القوى الغربية وهزيمتها، قد قرّر، لمصلحة السلام العالمي وللأمن القومي للولايات المتحدة، أن على النشاطات الخارجية المكشوفة للولايات المتحدة أن تُلحق بعمليات خفية... تكون على درجة من التخطيط والتنفيذ بحيث لا تبدو أي مسؤولية للحكومة الأميركية عنها جليّة للأشخاص غير المخوّلين، وبحيث إنها إذا كُشفت يمكن الحكومة الأميركية، بمصداقية، أن تنفي أي مسؤولية عنها. وعلى مثل هذه العمليات أن تتضمن، تحديدا، أي نشاط خفي متعلّق بـ: الدعاية، الحرب الاقتصادية؛ أعمال مباشرة وقائية، بما في ذلك التخريب، والتخريب المضاد، والهدم وإجراءات الإجلاء؛ التخريب على الدول المعادية، بما في ذلك تقديم المساندة لحركات المقاومة السرّية، وحرب العصابات ومجموعات التحرير المؤلفة من اللاجئين، ودعم المجموعات المحلية المناهضة للشيوعية في دول العالم الحر العرضة للتهديد.

كان كينّان، بلا منازع، كبير المؤلفين الفكريين لهذه التوجيهات. وندم، بعد مرور جيل، على ذلك كلّه، قائلاً إن الدفع إلى الحرب السياسية كان خطأه الأكبر، والعمليات الخفية تصادمت مع التقاليد الأميركية، وإن «السرّية المفرطة، والخداع، والغش والاحتيال في الخفاء، ليست

ببساطة طبقنا المفضّل». قال ذلك قلّة ممن كانوا في السلطة في ذلك الوقت. فالحكمة السائدة بين الجهابذة كانت واضحة. إذا أرادت أميركا وقف السوفيات، فستحتاج إلى جيش من الجنود السرّيين. وتدبّر كينّان كتابة أكثر من ألف صفحة من المذكّرات بدون أي إشارة إلى دوره في خلق العمل السرّي. وعمله المستحسن عن حق شكّل بالتالي تحفة صغيرة من الخداع، إضافة إلى تاريخ رائع من الدبلوماسية. انظر أيضا مقالة كينّان: "Morality and Foreign Policy," Foreign Affairs, Winter 1985-1986; وإعلانه أن مبادرة الحرب السياسية شكّلت «الخطأ الأكبر الذي ارتكبتُه» وذلك في شهادته أمام لجنة تشيرتش في ٢٨ تشرين الأول، ١٩٧٥، وقد نُقلت في التقرير النهائي للجنة، الجزء الرابع، الصفحة ٣١.

ارتاع مدير الاستخبارات المركزية، هيللنكوتر، لمجرّد فكرة الجهاز السرّي الجديد. وأوضح اعتقاده أنه ليس على الولايات المتحدة أبداً أن تنخرط في عمل خفي في زمن السلم. كما أنه لم يكن الوحيد الذي تساءل حول كلفة عمليات التخريب السرّية. فشيرمان كنت، أعظم محللي الحرب الباردة في «السي.آي.أيه.»، وضع أفكاره على الورق: كتب أن إرسال «عملاء سرّيين إلى بلد خارجي ليست الولايات المتحدة في حال حرب معه، وإعطاء الأوامر لهؤلاء العملاء بتنفيذ عمليات سرّية، لا يسير أن وحسب بعكس المبادئ التي تأسست عليها بلادنا، بل أيضا ضد تلك التي خضنا أخيراً الحرب في سبيلها». Robin Winks, cloak and gown: Scholars in the Secret War, 1939-1961 (new Haven, CT: Yale University Press, 1987), p. 451.

(٢١) Edward P. Lilly, "The Development of American Psychological Operations, 1945-1951," National Security Council, Top Secret, DDEL, c. 1953.

(٢٢) مقابلة أجراها المؤلف مع سيشيل وبولغار؛ "Subject: Targets of German Mission, January 10, 1947," CIA/CREST. لنظرة شاملة موثوقة لقاعدة عمليات «السي.آي.أيه.» في برلين، انظر: David E. Murphy, Sergei A. Kandrashev, and George Bailey, Battleground Berlin: CIA vs. KGB in the Cold War (New Haven, CT: Yale Universtiy Press, 1997). وقد خدم مورفي لاحقاً رئيساً للقاعدة.

(٢٣) كلمة الرثاء التي ألقاها هيلمس في حفل تذكاري لويسنر في مقر «السي.آي.أيه.» في ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٧١. واستحضر هيلمس بعض الأبيات من قصيدة روبرت فروست «مرّة في المحيط الهادئ» "One by the Pacific" عندما استذكر في ويسنر المحارب البارد:

بدا كأن ليلة من النيات السوداء

على الأبواب، ليست فقط ليلة، بل دهرا.

ومن الأفضل أن يستحضر المرء لثورة الغضب...

وُصف ويسنر بأنه «خيار فريد لإنشاء منظمة خفية من العدم» في "Office of Policy Coordination, 1948-1952,"، وهو غير موقّع، وغير مؤرخ، وقد تم رفع السرّية عنه مع المحررات في آذار/مارس ١٩٩٧، CIA/CREST. المؤلف هو جيرالد ميللر، رئيس عمليات ويسنر في أوروبا الغربية.

الفصل الرابع

(١) طموحات ويسنر مفصّلة في مذكّرته: "Subject: OPC Projects," October 29, 1948, FRUS Intelligence, pp. 730-731; مقابلات أجراها المؤلف مع معاصري ويسنر بمن فيهم ريتشارد هيلمس، فرانكلين ليندسي، سام هالبرن، آل أولمر، وولتر بفورزهايمر؛ و"Office of Policy coordination, 1948-1952," CIS/CREST.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع ليندسي. حارب ليندسي بوصفه مقاتل حرب عصابات تابعاً لـ «الأو.أس.أس.» إلى جانب مؤيدي تيتو في يوغوسلافيا. وخدم بعد الحرب، إلى جانب ألن دالاس، في فريق لجنة الكونغرس التي وافقت على مشروع مارشال. وقام في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧ بقيادة مجموعة من أعضاء الكونغرس في تلك اللجنة، بمن فيهم ريتشارد نيكسون، إلى مدينة تريست المحتلة حيث شاهدوا المواجهة الحامية بين رتل من الدبابات اليوغوسلافية والقوات الأميركية عشية نقل تريست إلى الأرض المحررة. كانت يوغوسلافيا لا تزال تدور في الفلك السوفياتي؛ ولن ينفصل تيتو عن ستالين إلا بعد تسعة أشهر. شكلت تلك لحظة توقف شعر الرأس. وحذّر قائد القوات الحليفة في تريست، الجنرال تيرنس آيري، الحكومتين الأميركية والبريطانية من أنه «إذا لم يتم التعامل مع المسائل بعناية شديدة، فإن حرباً عاملية ثالثة قد تنشب من هنا». وفي العودة إلى واشنطن، اقترح ليندسي وسلفه في رئاسة بعثة زمن الحرب العسكرية لدى قوات تيتو، تشارلز ثاير، إنشاء فيلق حرب عصابات قتالي لمحاربة السوفيات ـ «محاربة النار بالنار» ـ وهي فكرة اجتذبت انتباه كينّان تماماً، كما لفت لندسي انتباه ويسنر.

(٣) James McCargar oral history, FAOH. سبق لماكرغار أن عمل سرّاً للحوض في المجر، خادماً معاً كلاً من وزارة الخارجية وشبكة الاستخبارات العسكرية السرية من نيسان/ أبريل ١٩٤٦ إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧.

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع أولمر.

(٥) بدأ عنصر «السي.آي.أيه.» توماس هيركوليس كاراميسينس، وهو يوناني أميركي من ستيتن آيلاند، عمله في أثينا في ١٩٤٧، وتصادق مع الضباط المتزايدين في الأهمية. وبعدما استولى الجيش اليوناني على البلاد بعد ذلك بعشرين سنة، وجد صديقاً في كاراميسينس، الذي كان قد ترقى ليصبح رئيس العمل الخفي.

(٦) "Office of Policy Coordination, IA/CREST.

(٧) عمل فرنكلين ليندسي، في خريف ١٩٤٨، لهاريمان في مقر باريس لمشروع مارشال، وقد شهد على المحادثة، وتوجه من ثم مباشرة للعمل لويسنر رئيساً للعمليات. قال ليندسي، «عرف هاريمان كل شيء في شأن مكتب التنسيق السياسي». وقدّم ويسنر إيجازاً كاملاً إلى هاريمان في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨. وأخبر ماكراغار أنه بعد ذلك، لم يشكل المال أبداً أي مشكلة: «كانت لدي موازنة بجميع الملايين التي يمكنني صرفها، ولم أتمكن من صرفها كلها». وحول معرفة هاريمان بمخططات ويسنر، انظر wisner's memorandum for the file,

بعد ذلك بوقت قصير، جاءت زيارة ويسنر لديك بيسيل. FRUS Intelligence, pp. 732-733. Richard M. Bissell, Jr., with Jonathan E. Lewis and Frances T. Pudlo, Reflections of a Cold Warrior: From Yalta to the Bay of Pigs (New haven, CT: Yale University Press, 1996), pp. 68-69.

كانت الروابط مريحة بين الدبلوماسيين، ورجال المال، والجواسيس. كان ديفيد ك. إي. بروس رئيس إدارة التعاون الاقتصادي في باريس، وهو خارج أخيراً من «الأو.أس.أس.». وكبير نواب هاريمان كان ميلتون كاتز، رئيس قسم الاستخبارات السرية في «الأو.أس.أس.» في لندن في ظل وليام كايسي المدير المقبل للاستخبارات المركزية.

دسّ مشروع مارشال نفسه آتياً، بالإضافة إلى المال والتغطية، بفريق من الدعاية الخفية والأعمال المناهضة للشيوعية يستهدف الاتحادات العمالية في فرنسا وإيطاليا. وأدار بعض مسؤولي مشروع مارشال عمليات خفية لويسنر على مدى ثلاثة أعوام أعقبت إبرامه الاتفاق مع أفيريل هارّيمان. وقدّم ويسنر أيضاً إيجازاً إلى جون ماكلوي، وكان يومها كبير الموظفين المدنيين الأميركيين في ألمانيا (ورئيس وزارة الحرب الذي ساهم في الحفاظ على الاستخبارات الأميركية في مواجهة حكم الإعدام الذي اصدره ترومان بحقها في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٥). سجّل ويسنر أنه «شرح للسيد ماكلوي المفهوم العام لمكتب التنسيق السياسي وأصوله»، وفصّل «بعض جوانب عملياتنا الراهنة والمحتملة في ألمانيا». ولاحظ أن ماكلوي «بدا متأثراً بإعلاني أن من بين المهندسين الأصليين للعملية برمتها السادة لوفيت، وهارّيمان، وفوريستال، وكينّان، ومارشال، وغيرهم». FRUS Intelligence, pp. 735-736.

(٨) يسجّل تأريخ جيرالد ميللر لتاريخ مكتب التنسيق السياسي، أن ويسنر «ركّز في الأساس جهوده داخل دائرة حركة الاتحادات العمالية». وقد تم توثيق أول هذه الجهود، عمليّتي بايكستاف ولارغو، في سجلات لـ «السي.آي.أيه.» رفعت عنها السرّية، كاملة مع توقيع كينان على السماح بهما والمؤرخة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨. وقال فيكتور روزر، ممثل مجلس المنظمات الصناعية في أوروبا في تلك الأيام، أنه «في أيام مشروع مارشال الأولى، وعندما تحصل بعض الإضرابات السياسية التي تدعو إليها قوى الاتحادات العمالية الشيوعية، وربما بعض العناصر السياسيين الشيوعيين لمحاولة هزيمة مشروع مارشال ووقف إفراغ المساعدة الخارجية، أصبح الأمر مسألة تتعلق بكسر هذه الإضرابات. وقامت الحكومة الأميركية، من خلال الاستخبارات المركزية، بدعوة إيرفينغ براون وجاي لوفستون إلى محاولة تنظيم حركة مضادة. وإنك، بالطبع، إذا أردت ان تكسر إضراباً، تلجأ إلى الفتيان الذين يمتلكون قبضات قوية، والذين يتقنون كيفية استخدام العصي الغليظة. وقد لجآ إلى ما يمكن وصفه بأفضل صورة على أنه المافيا الكورسيكية». وقال الضابط في «السي.آي.أيه.»، بول ساكوا، الذي تسلّم لاحقاً هذا الحساب، إنه أوقف في ١٩٥٣ الدفع لرئيس العصابة الكورسيكية، بيار فيري ـ بيزاني، عندما توقف العمل بمشروع مارشال. «لم يكن لفيري ـ بيزاني ما يقوم به في ذلك الوقت»، قال ساكوا، «وهو ربما كان متورطاً في تهريب الهيروين الذي يذهب عبر مرسيليا، ولا يحتاج إلى مالنا». Reuther and Sakwa interviews, "Inside the CIA: On company Business," a 1980 documentary directed by Allan Francovich, transcript courtesy of

John Bernhart. وقد أجرى مؤلف هذا الكتاب مقابلة مع السيد ساكوا في ١٩٩٥. العلاقة بين ويسنر، ولوفستون، وبراون، مفصّلة في AFL-CIO International Affairs Department Collections, George Meany Memorial Archives, Silver Spring, MD, and in Lovestone collection at the Hoover Institution, Stanford University. See also Anthony Carew, "The Origins of CIA Financing of AFL Programs," Labor History, Vol. 39, No. 1, 1999.

خدم لوفستون «السي.آي.أيه.» على مدى ربع قرن، واشتهر بأنه متلاعب بارع. أول ضابط محرّك عنده كان مساعد ويسنر، كارمل أوفي، الذي أشرف على شؤون العمال والمهاجرين، إضافة إلى اللجنة الوطنية لأوروبا الحرّة، وخلق أول ذعر أمني كبير داخل «السي.آي.أيه.». وكان أوفي من مثليي الجنس المتقدّين، في عصر كان الانحراف فيه يعتبر خطراً سياسياً. عثر ضباط الأمن في «السي.آي.أيه.» على تقرير بأنه سبق للشرطة أن أوقفت أوفي لبحثه عن الجنس في دورة مياه للرجال، على بعد كتلة بنايات من البيت الأبيض. فسلّموه إلى ج. إدغار هوفر الذي لاحق أوفي، الذي طُرد سرّاً من «السي.آي.أيه.»، وأصبح على قيد معاشات الاتحاد الأميركي للعمال. تنصّت عملاء «الأف.بي.آي.» على هاتف لوفستون وسجلوه يتذمّر لوايلد بيل دونوفان من أن «السي.آي.أيه.» ملأى بـ«محبي حفلات الأنس، وغير الكفئين، والمنحطين... وبأن المنظمة بأكملها تساء إدارتها كليّاً، وغير كفوءة مطلقاً، وعديمة المسؤولية». وشكّل هذا، بالنسبة إلى هوفر، أنقى أنواع العشب الذي يستجلب الهررة.

(٩) برادن في وثائقي لتلفزيون غرانادا، "World in Action: The Rise and Fall of the CIA," June 1975. من بين المؤلفين الناشئين الذين وضعوا كتباً بينما يعملون مع «السي.آي.أيه.» في باريس يوجد بيتر ماتييسّن، وهو أحد كبار الكتّاب من أبناء جيله وليبيرالي معروف.

(١٠) "The Central Intelligence Agency and National Organization for Intelligence: A Report to National Security Council," also known as the Dulles-Jackson-Correa report, January 1, 1949, CIA/CREST.

(١١) Roosevelt to Acheson, February 1, 1949, HSTL.

(١٢) Ohly to Forrestal, February 23, 1949, HSTL.

(١٣) جاء انتحار فوريستال بعد أشهر من «التعب الحاد والمستفحل»، Townsend Hoopes and Douglas Brinklev, Driven Patriot: The Life and times of James Forrestal (New York: vintage, 1993), pp. 448-475. قال الدكتور منّينغر إنه عانى بسبب «دافع انفعالي شديد لتدمير الذات» Menninger Letter to Captain George Raines, Chief of Neuropsychiatry, U.S. Naval Hospital, Bethesda, MD, in "Report of Board of Investigation in the case of James Forrestal," National Naval Medical Center, 1949. استبدل الرئيس ترومان فوريستال بلويس جونسون، وهو مساهم ثري في الحملات الانتخابية كان يلح منذ أشهر للحصول على الوظيفة. كان جونسون رجلاً لا يتمتع بالكثير من الفضائل التي تشفع به، ويطلق لنفسه العنان الكبير في فورات الغضب والجعجعات المصحوبة بالضرب المذهل في شكل غير

منطقي على الطاولة، بحيث إن دين أتشيسون، الذي خدم إلى جانبه كوزير للخارجية، كان مقتنعاً بأنه إما مصاب بعطب في الدماغ، وإما مختل العقل. واستنتج الجنرال عمر برادلي، رئيس الأركان المشتركة، بأن «ترومان قد استبدل مريضاً عقلياً بمريض عقلي آخر». وفي حين كانت هذه الدراما تدور في البنتاغون، تساءل ترومان نفسه إذا كان قد عين مجنوناً مسؤولاً عن الأمن القومي الأميركي. Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (New York: W.W. Norton, 1969), p. 374; Omar Bradley and Clay Blair, A General's Life: An Autobiography (new York: Simon and Schuster, 1983), p. 503.

الفصل الخامس

(١) Richards Helms with William Hood, A Look over My shoulder: A Life in the Central Agency (New York: Random House, 2003), p. 82.

(٢) في ١٩٤٨، خدم الضابط الأميركي الشاب، جون و. ماكدونالد، بصفته مدعياً عاماً للاحتلال في مدينة فرانكفورت. وهو يروي القصة كالتالي:

اعتقلت الشرطة عصابة من ١٨ شخصاً. الرقم الأول فيها كان بولندياً اسمه بولانسكي، وهو مهجّر. وكان قد قام بعمل رائع في تزوير لوحات أوراق الخمسين دولاراً أميركياً. أمسكنا به وبمئات الآلاف من أوراق الدولارات المزورة وبالمطبعة والحبر: كل ما يمكنك البحث عنه. وامتلك أيضاً بذة عسكرية أميركية رسمية، وبطاقة هوية، ومسدسا تابعا للجيش عيار ٩ ملم، وبطاقة تموين: العدة بأكلمها. وهكذا، فإنني اعتقدت أن هذا رائع. كنا على وشك البدء بمحاكمة المجموعة كلها عندما زارني في أحد الأيام، ضابط برتبة رائد في مكتبي.

سارت المحادثة على الشكل التالي:

«أنا أوفرت».

«الرائد أوفرت، أنا سعيد بمقابلتك».

«لا، أنت لا تفهم، فأنا الظاهر (أوفرت بالإنكليزية)، كما في عكس الخفي (كوفرت بالإنكليزية)».

«من أنت؟».

«أنا عضو في «السي.آي.أيه.»».

«ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟».

«لديك هذا البولندي في السجن، واسمه بولانسكي. إنه واحد منّا».

«منذ متى تستخدم «السي.آي.أيه.» مزوري الدولارات الأميركية؟».

«لا، لا، لا. لقد قام بذلك على حسابه».

«وهذا لا يُحتسب، أليس كذلك؟»

«حسناً، نعم، هذا يُحتسب. إنه أفضل مزور وثائق لدينا، جوازات سفر وجميع الأمور المشابهة التي نستخدمها للذهاب شرقاً».

«حسناً، لا بأس، إلا أنه لا يزال شخصاً ارتكب جريمة، وأنا لا أهتمّ البتة لمن هو يعمل».

تابع ماكدونالد: «طلبت منه الخروج. وفي اليوم التالي جاء عقيد لرؤيتي في شأن القضية ذاتها وأجرينا تماماً الحديث عينه. لم أتأثر. بعد يومين على ذلك جاء لواء لرؤيتي. ها إنني التقي الكثير من النجوم هذه الأيام. أمكنني رؤية أن الأمر جدّي جداً. إلا أنه كان أكثر فطنة من الاثنين الآخرين، وقال، كما أصبحت تعرف الآن، هذا الرجل يعمل لنا. نحن من أعطيناه البزة العسكرية والمسدس وكل أوراق الهوية وغيرها. سأقدّر كثيراً أن تسقط تلك التهم، بحيث لا نصاب بالحرج في العلن. واستمر الأمر، وبعد أسبوع أو نحوه جرت المحاكمة وحصل بالتأكيد على عشر سنوات كحد أقصى، وهو الحد الأقصى بموجب القانون الألماني للتزوير. إلا أنني لم أنس أبداً الرائد أوفرت. فلقائي الأول مع «السي.آي.أيه.» كان لقاء «منحوساً جداً». McDonald oral history, FAOH.

(٣) Wisner cited in Kevin C. Ruffner, "Cold War Allies: the Origins of CIA's Relationship with Ukrainian Nationalists," Central Intelligence Agency, 1998.

(٤) "U.S. Policy on support for Covert Action Involving Emigrés Directed at the Soviet Union," December 12, 1969, FRUS, 1969-1970, Vol. xii, document 106.

(٥) Ruffner, "Cold War Allies."

(٦) ورد التعبيران في جلسات الاستماع أمام لجنة القوات المسحلة في مجلس النواب، كما تم رفع السرّية عنهما، جلسة الكونغرس الـ٨١، الجلسة الأولى، ١٩٤٩.

(٧) Norman G. W. Goda, "Nazi Collaborators in the United States," in U.S. Intelligence and the Nazis, National Archives, pp. 249-255. سبق لضباط استخبارات الجيش أن شرعوا في علاقة مرهونة بالتقارير مع الأوكرانيين، وقد استخدموهم لمحاولة جمع المعلومات عن الجيش السوفياتي والجواسيس السوفيات في ألمانيا ما بعد الحرب. وأول أجير لديهم كان مايرون ماتفييكو، وهو عميل للاستخبارات الألمانية أثناء الحرب، أصبح قاتلاً ومزوّراً بعدها. وسرعان ما تصاعد الشك في أنه عميل مزروع من موسكو؛ وهروبه بالتالي إلى موسكو أثبت هذه المخاوف.

(٨) رسالتا دالاس وايمان موجودتان في الأرشيف الوطني، مجموعة السجل ٢٦٣، ملف اسم ميكولا ليبيد، أخرج للعلن في ٢٠٠٤. بعدما تم قبول ليبيد في الولايات المتحدة، حافظت الوكالة على علاقة عملانية مع أوكرانييه أثبتت أنها أكثر تحالفاتها مرونة مع مجموعات من المهاجرين المناهضين للشيوعية. وفي النهاية، تحول مجلسه الأعلى لتحرير أوكرانيا إلى أشكال أقل فتكاً من النشاط المقاوم. أسست «السي.آي.أيه.» في الخمسينيات في نيويورك دار نشر لليبيد. وعاش ليرى سقوط الاتحاد السوفياتي وأوكرانيا حرة في تحديد مصيرها الصعب بنفسها.

(٩) Ruffner, "Cold War Allies."

(١٠) كانت الكلمة الأخيرة لألن دالاس في شأن غهلن: «ثمة قلّة من بطاركة التجسس. إنه إلى جانبنا وهو كل ما يهم. ثم إنه ليس على المرء أن يدعوه إلى ناديه الخاص». كان السند الفكري الأميركي لتجنيد جواسيس نازيين واضحاً، منذ صيف ١٩٤٥، لرجال مثل النقيب في الجيش جون ر. بوكر جونيور. «إنه الوقت المثالي، الآن، لكسب معلومات استخبارية عن الاتحاد السوفياتي إذا كنا سنحصل عليها أبداً»، قال بوكر، وهو محقق ماهر ذو جذور ألمانية عميقة، وقد أخذ يسعى باحثاً عن النازيين بعد أيام على استسلامهم. وجد بوكر ضالته في رينهارد غهلن. نظر النقيب الأميركي إلى الجنرال الألماني بوصفه «منجم ذهب وعثرنا عليه». اتفق الرجلان على أن حرباً جديدة ستندلع قريباً مع السوفيات، وعلى أمتيهما أن تتوحدا ضد التهديد الشيوعي. هذا الكلام وجد صدقية له لدى العميد أدوين ل. سيبرت، رئيس استخبارات الجيش في أوروبا، وهو سرعان ما سيصبح أول مساعد مدير لـ «السي.آي.أيه.» للعمليات الخفية. قرر استخدام غهلن وحلقته الجاسوسية. لم يطلب موافقة رئيسيه على قراره ـ الجنرالين دوايت د. أيزنهاور وعمر برادلي ـ على افتراض صحيح أنهما سيرفضان ذلك. وعلى حد قول سيبرت، طار الجنرال غهلن وستة من رفاقه الجواسيس الألمان إلى واشنطن على متن الطائرة الخاصة لمدير الاستخبارات المركزية الجنرال والتر بيديل سميث. تم امتحان الألمان واجتفاف المعلومات منهم على مدى عشرة أشهر في منشأة عسكرية سرّية داخل فورت هانت، خارج واشنطن، قبل إعادتهم إلى أرض أجدادهم للعمل ضد الروس. شكلت تلك ولادة شراكة طويلة بين ضباط الاستخبارات الأميركية ومن انتهوا من كونهم جواسيس لهتلر. John R. Boker, Jr., "Report of Initial Contacts with General Gehlen's Organization," May 1, 1952. وقد تم جمع اجتفاف المعلومات هذا وجملة من وثائق «السي.آي.أيه.» حول تنظيم غهلن في Forging an Intelligence Partnership: CIA and the Origins of BND, edited by Kevin C. Ruffner of the CIA's History Staff, and printed by CIA's Directorate of Operations, European Division, and declassified in 2002. تتضمن الوثائق بيانات غهلن الموجودة في James Critchfield [Chief of Station, Karlsruhe] to Chief, FBM, CIA HQ, February 10, 1949; "Report of Interview with General Edwin L. Sibert on the Gehlen Organization," March 26, 1970; "SS Personnel with Known Nazi Records," Acting Chief, Karlsruhe Operations Base, to Chief, FBM, August 19, 1948.

(١١) Chief Munich Operation base, to Acting Chief of Station, Karlsruhe, July 7, 1948.

(١٢) Helms to ADSO, Col. Donald Galloway, March 19, 1948.

(١٣) مقابلة أجراها المؤلف مع سيشيل.

(١٤) مقابلة أجراها المؤلف مع تانّر.

تانّر، الذي تقاعد من «السي.آي.أيه.» في ١٩٧٠، أضاف المساهمة التالية، المكتوبة بالضمير الغائب، إلى الرواية السابقة غير المحكية عن دعم الوكالة للمتمردين الأوكرانيين:

وجد تانّر مجموعة واحدة تلبّي معاييره، وهي بالتحديد المجلس الأعلى لتحرير أوكرانيا. والمفاجئ أن ما من مجموعة روسية مهاجرة تأهّلت. ولم يمتلك المجلس الأعلى وحسب

اتصالاً بريدياً برّياً مع جيش التمرّد الأوكراني في جبال كارباتيا، بل تلقّى أيضاً بعض التقارير من أوكرانيا عبر سعاة هم من الكهنة الكاثوليك، إضافة إلى مسافرين ظرفيين وفارين.

بدا أن الاهتمامات الرئيسة للمجلس الأعلى و«السي.آي.أيه.» تتلاحم: تطلع كلاهما يائساً إلى اتصال لاسلكي مع مقر المتمردين، «في ما وراء خطوط العدو». وافقت سياسات الأشخاص المهمين في واشنطن على هذه الصيغة التي سبق أن عملت في شكل جيّد في فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا في زمن الحرب.

تم، على مدى تسعة اشهر، بإشراف من ويسنر، تدريب اثنين من السعاة على عمليات اللاسلكي، والرموز المشفّرة، والهبوط بالمظلة، وعلى الرماية من أجل الدفاع عن النفس. هبطا بالمظلة في مرجة جبلية على مقربة من لفوف ليلة الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٤٩. أنتجت عملية الإنزال الجوي هذه، التي أعقبها في ١٩٥١ اتصال لاسلكي، لكن ليس معلومات تهزّ الأرض. وتعرّضت المهمتان النهائيتان حتماً للخطر عبر إيجازات أنغلتون لفيلبي، وتم توقيف مجموعات السعاة القليلي الحظ فوراً على يد «لجان الترحيب» السوفياتية التابعة لجهاز الأمن «أن.كا.في.دي.».

شكّلت عملية الإنزال الجوية الأولى دفعة معنوية هائلة للوطنيين الأوكرانيين في الاتحاد السوفياتي، ومن المؤكّد أنها أدت إلى توقعات مبالغ فيها. بيد أنه، بحلول أواسط ١٩٥٣، قهر السوفياتي في شكل فعال المقاومة التمردية المسلحة.

علقت أربعة أخطاء بالإضافة إلى حماقات ستيلار في حقبة ما بعد الحرب في ذهن تانر. فأولاً، بنهاية الحرب العالمية الثانية، أعاد الحلفاء بالقوة المواطنين السوفيات إلى بلادهم. وانتحر الكثيرون منهم عندما اكتشفوا أنه سيتم تسليمهم إلى الروس. وأولئك الذين سُلّموا لم يبلغوا أبداً الأرض السوفياتية، بل أُطلقت عليهم النار أو شُنقوا في أوروبا الشرقية على أيدي فرق الموت التابعة للجهاز الأمني.

ثانياً، تم نسف الغطاء في شكل كبير جداً عن عناصر قاعدة «السي.آي.أيه.» في ميونيخ من جراء خطأ في دليل هاتف الجيش الأميركي للعام ١٩٤٩: فالأسماء التي أُدرجت بدون ذكر الوحدة التي تنتمي إليها، كانت كلها أسماء أناس في «السي.آي.أيه.» ولم ينقص إلا أن يضع الجيش نجمة إلى جانب أسمائهم.

ثالثاً، بعد الحرب العالمية الثانية، غادر الخبراء المظليون والمدربون «الأو.أس.أس.» بسبب انتفاء الحاجة إلى خدماتهم. وأدى ذلك إلى نتيجتين: درّب عنصر صربي - أميركي من قدامى الأو.لأس.أس. هبط بالمظلة في يوغوسلافيا زمن الحرب، الساعيين الأوكرانيين على الشقلبة إلى الوراء لدى اصطدامهما بالأرض برغم البندقيتين اللتين كانتا بطول أربع أقدام، المربوطتين إلى جانبيهما. كذلك، نصحت واشنطن باستخدام مظلّة الحمولة الخطأ لعملية هبوط أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩، وتحطّم القفص الذي يحتوي على ١٤٠٠ رطل من المعدات إلى أجزاء صغيرة لدى ارتطامه بالأرض.

رابعاً، والأسوأ من كل ما سبق، أطلع جيمس أنغلتون كيم فيلبي، الجاسوس السوفياتي المزروع في الاستخبارات البريطانية، على برنامج رد ـ سوكس [الجهد العام للتغلغل في صفوف المواطنين السوفيات السابقين ومن الإثنيات الأجنبية في ما وراء الستار الحديدي].

(١٥) الانتقاد المقنع لجون ليموند هارت لأنغلتون في مذكراته المنشورة بعد وفاته John Limond hart, The CIA's Russians (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2002), especially pp. 136-137. استدعي هارت من تقاعده في ١٩٧٦ لتمحيص الضرر الذي أوقعه أنغلتون بـ «السي.آي.أيه.» بوصفه رئيس مكافحة التجسس فيها. بالنسبة إلى العملية الألبانية: McCargar oral history, FAOH; Michael Burke, Outrageous Good Fortune (Boston: Little, brown, 1984), pp. 140-169. انتقى ويسنر مايك بورك لتدريب الألبان. وكان بورك، الذي أصبح في ما بعد رئيس النيويورك يانكيز، من قدامى «الأو.أس.أس.» وأحب حياة الخفاء. وقّع على عقد بوصفه عميلاً يتقاضى ١٥ ألف دولار في السنة، وتوجه إلى ميونيخ، حيث التقى بسياسيين ألبان في منزل آمن في حي من أحياء الطبقة العاملة في المدينة. كتب بروك، «كوني أصغر شخص في الغرفة وأمثل بلداً فتياً وغنياً، فإنني استرعيت انتباههم». اعتقد أنه والمنفيين يفهمون بعضهم البعض. رأى الألبان الأمور بطريقة مختلفة: «الأميركيون الذين هيأوا رجالنا لهذه المهمات لم يعرفوا شيئاً عن ألبانيا، وعن الشعب الألباني وذهنيته»، قال زيمال لاسي، وهو ألباني مؤيد للنظام الملكي قام بتجنيد رجال من أجل القضية في المانيا. فقد تعرّضت العملية كلياً للخطر التام منذ البداية، بحيث أمكن أي واحد أن يتكهّن بمكان وجود الجذر الأعمق للكارثة. واستنتج ماكراغار، وهو صديق جيّد لأنغلتون: «أن المجتمع الألباني في إيطاليا كان مخروقاً جداً، ليس من الإيطاليين وحسب، بل من الشيوعيين أيضا، وبالنسبة إلي، فإن الروس وكذلك السلطات الألبانية الشيوعية، استقوا معلوماتهم من هناك».

(١٦) مقابلة أجراها المؤلف مع كوفين.

(١٧) هذه النظرة التي تستعرض الماضي موجودة في "U.S. Policy on Support for Covert Action Involving Emigrés Directed at the Soviet Union."

(١٨) CIA Intelligence Memorandum No. 225, "Estimate of Status of Atomic Warfare in the USSR," September 20, 1949, reprinted in Michael Warner (ed.), CIA Cold War Records: The CIA Under Harry Truman (Washington, DC: CIA History Staff, 1994). النص الكامل: «أقرب وقت ممكن قد يُتوقّع فيه أن ينتج الاتحاد السوفياتي قنبلة ذرّية هو أواسط ١٩٥٠، والتاريخ الأكثر احتمالاً هو أواسط ١٩٥٣». قدّم مساعد مدير مكتب «السي.آي.أيه.» إلى الاستخبارات العلمية، ويلارد ماشل، إفادة إلى مدير الاستخبارات المركزية هيللنكوتر بأن عمل الوكالة على الأسلحة النووية السوفياتية شكّل «ما يكاد يكون فشلاً تاماً» على كل مستوى. فالجواسيس «فشلوا كلّياً» في جمع المعطيات العلمية والتقنية حول القنبلة السوفياتية، وقد لجأ محللو «السي.آي.أيه.» إلى «الاستدلال المنطقي الجيولوجي» المرتكز على التخمين بالتحزّر حول قدرة السوفيات على التنقيب عن اليورانيوم.

واشتكى ماشل في مذكّرته إلى هيللنكوتر، من «عدم قدرة مكتب الاستخبارات العلمية على إنجاز مهمته»، والمؤرخة في ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩، ومن أنه «ثبتت صعوبة العثور على أشخاص ذوي مؤهلات مقبولة تمكن استمالتهم للقبول بالعمل في الوكالة». Machle memo, in George S. Jackson and Martin P. Claussen, Organizational History of the Central

Intelligence Agency, 1950-1953, Vol. 6, pp. 19-34, DCI Historical Series HS-2, CIA Historical Staff, 1957, Record Group 263, NARA.

لاحظت المؤرخة التابعة لـ «السي.آي.أيه.» روبرتا كناب أنه، بدءاً من أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩، «سيتم العثور على البيان الرسمي المنسّق حول الانجاز السوفياتي للقنبلة النووية في تقدير توقّع ثلاثة تواريخ مختلفة لذلك ـ ١٩٥٨، ١٩٥٥، وما بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ ـ وكلّها خاطئة». وخلصت إلى أن هذا يشكل دليلاً واضحاً إلى الاختلال». ونتيجة ذلك، بات مكتب التقارير والتوقعات في «السي.آي.أيه.» «محكوماً عليه»، وذلك استناداً إلى مؤرخ آخر في «السي.آي.أيه.» هو دونالد ستوري، Donald P. Steury in "How the CIA Missed Stalin's Bomb," Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 1, 2005, CIA/CSI. يلاحظ هذا التأريخ الداخلي أن الكثيرين من محللي مكتب التقارير والتوقعات كانوا عملاء فيزياء نووية ومهندسين من مشروع منهاتن امتلكوا المفهوم المتفائل بأنه في وسعهم تعقّب آثار تقدّم المشروع الذرّي السوفياتي من خلال قراءة تقارير علمية منشورة تزوّدوا بها، في شكل بيّن، من مصادر سرّية. لم توجد، بحلول ١٩٤٨، أي بينة مفيدة في الأدب المكشوف الآتي من الاتحاد السوفياتي. إلا أنه، منذ ١٩٤٧، فإن مصدراً ألمانياً في مجمّع آي. جي. فاربن (الذي صنّع، من بين أمور أخرى، غازات معسكرات الموت النازية)، أفاد أن السوفيات يستوردون شهرياً ثلاثين طنّاً من الكالسيوم المعدني المقطّر من المصنع. وشكّلت كميّة الكالسيوم الصافي، الذي استخدم لتكرير اليورانيوم الخام، نحو ثمانين ضعف الانتاج الأميركي السنوي. وقد تم التحقق في شكل مستقل من إفادة المصدر. وكان يفترض بها أن تطلق جرس الإنذار. لكنها لم تفعل.

الفصل السادس

(١) "Nomination of Lt. Gen. Walter Bedell Smith to Be Director of Central Intelligence Agency," Executive Session, August 24, 1950, CIA, Walter Bedell Smith papers, DDEL.

(٢) David S. Robarge, "Directors of Central Intelligence, 1946-2005," Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 3, 2005, CIA/CSI.

(٣) Bedell Smith quoted in "Office of Policy Coordination, 1948-1952," CIA/CREST.

(٤) Bedell Smith quoted in George S. Jackson and Martin P. Claussen, Organizational History of the Central Intelligence Agency, 1950-1953, Vol. 9, Part 2, p. 38. تم، في ٢٠٠٥، رفع السرّية عن تاريخ ١٩٥٧ هذا. DCI Historical Series HS-2, CIA Historical Staff, Record Group 263, NARA.

(٥) Sherman Kent, "The First Year of the Office of National Estimates: The Directorship of William L. Langer," CIA/CSI, 1970.

(٦) Sherman Kent, "Estimates and Influence," Foreign Service Journal, April 1969.

(٧) Jackson and Claussen, Organizational History of the Central Intelligence Agency, 1950-1953, Vol. 8, p. 2.

(٨) مقابلة أجراها الكاتب مع جيمس ليللي، الرئيس السابق لمحطة «السي.آي.أيه.» في بكين. استمرت المشكلة حتى أواخر الستينيات عندما وجد ليللي أن «النوع ذاته من شبكات الاستخبارات الصينية المفبركة التي قاومناها ورمينا بها منذ ١٥ عاماً» عادت إلى العمل، مستقية مقتطفات من الصحف الإقليمية الصينية وبائعة إياها للجواسيس الأميركيين في هونغ كونغ.

(٩) David A. Hatch with Robert Louis Benson, "The Korean War: The SIGINT Background," National Security Agency, available online at http://www.nsa.gov/publications/publi00022.cfm. تم، لعقود، تمثيل دور وايسبند في تاريخ الاستخبارات الأميركية خلافاً للحقيقة. فالكتاب النافذ، «القصة الداخلية للكا.جي.بي.» لكريستوفر أندرو، وهو واحد من مؤرخي الاستخبارات البارزين في العالم، وأوليغ كورديفسكي، الهارب من الاستخبارات الروسية، يكرّس ثلاث جمل لوايسبند ويعطي في شكل مغلوط تاريخ قيام الاستخبارات السوفياتية بتجنيده على أنه ١٩٤٦. واستناداً إلى التأريخين الرسميين للحالة في وكالة الأمن القومي وفي «السي.آي.أيه.»، فان السوفيات جندوا وايسبند في ١٩٣٤. فقد أبلغ عامل في صناعة الطائرات في كاليفورنيا «الأف.بي.آي.» في ١٩٥٠، أن وايسبند كان محرّكه في «الكا.جي.بي.» خلال الحرب. وُلد وايسبند في مصر في ١٩٠٨ من والدين روسيين، وجاء إلى الولايات المتحدة في أواخر العشرينيات، واصبح مواطناً أميركياً في ١٩٣٨. انضم إلى وكالة أمن سلاح الإشارة في الجيش في ١٩٤٢ وتم تعيينه في أميركا الشمالية وإيطاليا قبل أن يعود إلى ارلينغتون هال. تم تعليق عمل وايسبند في الوكالة الأمنية، وهو من ثم لم يمثل أمام هيئة محلفين فديرالية كبرى تعقد جلسة استماع حول نشاط الحزب الشيوعي. وقد أدين بإهانة المحكمة، وحُكم عليه بالسجن سنة - وانتهى الأمر عند هذا الحد، لأن اتهامه علناً بالتجسس كان سيعمّق من مشاكل الاستخبارات الأميركية. مات وايسبند فجأة في ١٩٦٧، موتاً طبيعياً على ما يبدو، وكان في التاسعة والخمسين.

(١٠) الأمر الوحيد المؤكد الذي عرفه مقرّ «السي.آي.أيه.» هو أن الجنرال ماك أرثور اعتقد أن الصينيين ليسوا بقادمين. عكست تقارير «السي.آي.أيه.» وتحليلاتها حول كوريا، من حزيران/يونيو إلى كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠ هذه الفكرة الخاطئة. وعملية رفع التقارير مفصّلة في P. K. Rose, "Two Strategic Intelligence Mistakes in Korea, 1950," Studies in Intelligence, Fall/Winter, No. 11, 2001; CIA Historical Staff, "Study of CIA Reporting on Chinese Communist Intervention in the Korean War, September-December 1950," prepared in October 1955 and declassified in June 2001; and Woodrow J. Kuhns, "Assessing the Soviet Threat: The Early Cold War Years," CIA Directorate of Intelligence, Center for the Study of Intelligence, 1997.

(١١) قبل استقالة بيل جاكسون كنائب للمدير بيديل سميث في ١٩٥١، قدم إلى الجنرال تقريراً عن عمليات ويسنر». Subject: Survey of Office Policy Coordination by Deputy Director of

Central Intelligence," May 24, 1951, CIA/CREST. وجاء فيه: «أن هذا العمل... يفوق مقدرة أي رجل واحد». وقد حاول مكتب التنسيق السياسي بناء «آلة عالمية، تشبه من نواح عدة قوة عسكرية» بدون المستويات المناسبة للسيطرة القادرة، والعناصر، والتدريب، واللوجستيات، أو الاتصالات. وأفاد، «ثمة تباين كبير بين قادة الفرق الأكثر تأهيلاً والأقل تأهيلا منهم. إن أعباء الالتزامات العملانية قد تجاوزت القدرة على تجنيد عناصر ذات كفاءة عالية».

(١٢) "CIA/Location of Budgeted Funds/Fiscal Year 1953,"، وهي وثيقة من ملفات النائب جورج ماهو، وهو واحد من أربعة أعضاء في الكونغرس على اطلاع على موازنة «السي.آي.أيه.». وقد أدت هذه الوثيقة بعدما وجدها البروفيسور ديفيد باريت، من جامعة فيلانوفا، في ٢٠٠٤، إلى تغيير التاريخ. فلنحو ثلاثين عاماً، قام كل كتاب حول «السي.آي.أيه.» بإعادة طبع أمينة لنتائج محققي مجلس الشيوخ، وهي أن موازنة ويسنر كانت ٨٢ مليون دولار في ١٩٥٢. هذا الرقم خاطئ بوضوح. فموازنة مكتب التنسيق السياسي في ١٩٥٢ بلغت في الواقع ما يقارب أربعة أضعاف ما تم ذكره مسبقاً.

(١٣) Director's meeting, November 14, 1951, CIA/CREST. إن محاضر الاجتماعات اليومية لمدير الاستخبارات المركزية، ونوابه، وفريقه الموجودة في السجلات التي رفعت عنها السرّية حديثاً، والتي تم الحصول عليها من خلال سجلات «السي.آي.أيه.» في الأرشيف الوطني وسجلات الإدارة، تقدّم نكهة عن الصراعات داخل «السي.آي.أيه.». ويفيد محضر هذا الاجتماع: «أن المدير يريد منهما [دالاس وويسنر] أن يُلقيا نظرة فاحصة شديدة على مكتب التنسيق السياسي. يجب على العمليات شبه العسكرية أن تُفرز عن بقية الموازنة، كما يجب أن تفرز جميع العمليات التي لا تساهم في الاستخبار. وهو يعتقد أننا بلغنا مرحلة أصبح فيها حجم عملياتنا في مكتب التنسيق السياسي يشكل خطراً ظاهراً على «السي.آي.أيه.»، بوصفها وكالة استخبارات».

رأى بيديل سميث أن الولايات المتحدة «لا تملك استراتيجية لشن هذا النوع من الحرب»، عانيا بذلك نوع حرب ويسنر. "Preliminary Staff Meeting, National Psychological Strategy Board," May 8, 1951, CIA/CREST. وقد أبلغ دالاس ووينسر، «ليست لديكما في الحكومة استراتيجية أساسية موافق عليها لهذا النوع من الحرب... ونحن، بينما نملك التجهيز والقدرة، لا نقوم بالعمل الذي يجب علينا القيام به».

حاول بيديل سميث أكثر من مرّة إزاحة ويسنر عن السيطرة على العمليات شبه العسكرية. Director's meeting, April 6, 1952, CIA/CREST. وحاجج، بدون جدوى، بأنهم تجاوزوا كثيراً ما تم رسمه في مانيفستو ١٩٤٨ للحرب السياسية في مجلس الأمن القومي ١٠/٢. إلا أن الخارجية والدفاع أرادتا معاً توسيع العمل الخفي، ليصبح «واحداً ذا شأن عظيم». Bedell Smith to NSC, "Scope and Pace of Covert Operations," May 8, 1951, CIA/CREST. أطلق بيديل سميث تحذيره بعدم «التستير على حوادث مؤسفة أو أخطاء جسيمة»، أو «إخفائها»، في اجتماع الموظفين في ٢١ آب/أغسطس ١٩٥١، سجلات «السي.آي.أيه.» في الأرشيف الوطني وسجلات الإدارة. وهو كان، قبل أيام من ذلك، قد رجا ويسنر وغيره من

كبار ضباط الاستخبارات «أن يولوا انتباهاً جدياً إلى مشكلة فبركة وتزوير مصادر الاستخبارات». Minutes of meeting, August 9, 1951, CIA/CREST.

تظهر سجلات الإدارة المتوفرة حديثاً أن بيديل سميث قد ورث «نوعاً من الامبراطورية الرومانية المقدّسة لاحق فيها بارونات الإقطاع مصالحهم الخاصة بدون أي توجيه فعال أو سيطرة من امبراطورهم الاسمي»، وذلك بعبارات لودويل لي مونتاغ ممثله الشخصي في فريق مجلس الأمن القومي الذي سجّل أن الجنرال «أخذ يشك في أن دالاس وويسنر... سيقودانه في النهاية إلى بليّة سيئة التخطيط وكارثية». CIA/LLM, pp. 91-96, 264.

(١٤) تأريخات وكالة استخبارات المركزية السرّية هي «السي.آي.أيه.» في كوريا، ١٩٤٦-١٩٦٥»، «الحرب السرّية في كوريا، حزيران/يونيو ١٩٥٠ ـ حزيران/يونيو ١٩٥٢»، و«غلغلة وإعادة تموين العملاء في كوريا الشمالية، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣». وقد ذكرها للمرة الأولى مايكل هاس، وهو عقيد متقاعد في سلاح الجو، في مُصنّفه: Michael Hass, In the Devil's Shadow: U.N. Special Operations during the Korean War (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2000).

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع سيشيل.

(١٦) مقابلة أجراها المؤلف مع غريغ. وفي حالة كوريا تم التعتيم على السجل أو تزويره. وعلى سبيل المثال فإن كتاب جون رانيلاغ الوكالة: John Ranelagh, The Agency (New York: Simon and Schuster, 1986) الذي اعتُبر لوقت طويل مرجعاً نموذجياً عن «السي.آي.أيه.» يحتوي على ثلاثة مقاطع عن النشاطات الخفية شبه العسكرية إبان الحرب الكورية. وهو يزعم أن رئيس العلميات في مكتب التنسيق السياسي، هانز توفت، قد نجح في وضع عملاء في جميع أنحاء كوريا، والصين، ومنشوريا: «تم، بنجاح، اختراق هذه المناطق المغلقة من قبل عملاء كوريين وصينيين لـ «السي.آي.أيه.»». وإن عمليات توفت «المتعددة الجوانب والمعقدة» استخدمت «رجال حرب عصابات مدربين للعمل في كوريا الشمالية»، ووضعت «عملاء عبر كوريا يمكنهم العمل كمرشدين، ويوفرون المخبأ لرجال الجو الضائعين» (ص. ٢١٧-٢١٨). هذا خطأ، على ما تظهره تأريخات «السي.آي.أيه.» العملانية لكوريا. فقد لفّق توفت ذلك. زوّر مقاطع أفلام عن جنود عصابات من «السي.آي.أيه.» يعملون في كوريا الشمالية؛ وسرعان ما تم اكتشاف التزوير عندما تساءل أحد ما في واشنطن عن سبب شن عمليات كوماندوس في وضح النهار. وفي مساس أكبر بالقضية، فإن المهمات الحقيقية، بالمقارنة مع المفبركة منها، شكّلت، على العموم، كوارث. فتأريخات «السي.آي.أيه.» الداخلية الخاصة تتناقض في شكل قاطع مع الصورة لعمليات الحرب الكورية المبيّنة في الوكالة.

(١٧) Thomas oral history, FAOH.

(١٨) John Limond Hart's posthumous memoir, The CIA's Russians (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2004) وهي تعدد تجاربه البارعة في خلافة آل هاني كرئيس لمحطة سيول.

(١٩) Hart quoted in Christopher Andrew, For the President's Eyes Only: Secret

Intelligence and the American Presidency from Washington to Bush (New York: Harper Perennial, 1996), pp. 193-194.

ولاحظ هاني نفسه لاحقاً أنه تم إخفاء تقرير هارت المتعلق بتزوير هاني، وكذلك جرى الأمر مع أخطائه. «خلال الحرب الكورية وما بعدها، حصل الكثير من الكلام من الكثيرين من الضابط الكبار المسؤولين، بأنه على «السي.آي.أيه.» أن تستفيد من تجربتها وتصبح أفضل استعداداً لكوريا مقبلة». وخلص إلى القول، «لكنني أشك حقاً في أن تكون «السي.آي.أيه.» استفادت أبدا من كوريا، أو تمت فهرسة التجارب هناك، ناهيك بتعلم الامثولات من أجل المستقبل». Haney to Helms, "Subject: Staff Study re Improvement of CIA/CS Manpower Potential Thereby Increasing Operational Capability," Novemebr 26, 1954, declassified April 2003, CIA/CREST. نجا هاني من تأديته السيئة في الحرب الكورية، لأنه، في نهاية خدمته في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، ساعد في ترتيب نقل ملازم جريح من المارينز في كوريا، من ساحة المعركة إلى السفينة المستشفى كونستيليشن، فإلى الولايات المتحدة، حيث، بعد ذلك بسبعة أسابيع، تم تصوير الجندي المصاب بتلف في الدماغ وهو يتلقى قبلة نادرة من والده، ألن و. دالاس. التقطت الصورة قبل يوم واحد من جلسات الاستماع لتثبيت دالاس الأكبر ليصبح مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية. دفع دالاس دين العرفان بالجميل بجعله هاني القائد المتمركز في فلوريدا لعملية النجاح Operation Success في ١٩٥٤.

(٢٠) Becker to Wisner, undated but December 1952 or January 1953, CIA/CREST. قبل استقالته كنائب لمدير الاستخبارات، أبلغ لوفتوس بيكر زملاءه بأنه «مكروب لمعرفته كم أن جماعتنا على الساحة عديمة الاطلاع». وأعرب عن شكوكه في قدرة «السي.آي.أيه.» على جمع الاستخبارات في أي مكان من آسيا. Deputy Director's meeting, December 29, 1952, CIA/CREST. ثم إنه تواجه مباشرة مع ويسنر.

(٢١) أطلق كيليس اتهاماته بقيام مسؤولين كبار في «السي.آي.أيه.» بإعطاء شهادة كاذبة في رسالة إلى الرئيس دوايت أيزنهاور، ٢٤ ايار/مايو ١٩٥٤، المكتبة الرئاسية لدوايت أيزنهاور.

(٢٢) Wisner, [deleted] Report on CIA Installations in the Far East," March 14, 1952, CIA/CREST.

(٢٣) لم تتم أبداً، بالشكل الكامل، رواية تاريخ عمليات الاستخبارات الأميركية في الصين وحولها في السنوات ما بين انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية ديكتاتورية ماو. فقد بقي عدد من قدامى «الأو.أس.أس.» في الصين تحت تغطية عسكرية بعدما أصدر ترومان أمر الالغاء، وحملوا اسم مفرزة الأمن الخارجية ٤٤. وقاد المقدّم روبرت ج. ديلاني المفرزة أوّلاً؛ وأصبح لاحقاً، في ١٩٤٧، رئيساً لمحطة «السي.آي.أيه.» الصغيرة في طوكيو، ومن ثم الرجل الثاني في عملية «وسترن انتربرايز» في مكتب التنسيق السياسي في تايوان. وفي ١٩٤٥، عندما انتهت الحرب، كتب ديلاني عن المهمات المقبلة في برقية مرسلة من شانغهاي. لاحظ أن ضباط الاستخبارات الأميركية واجهوا حقلاً واسعاً وغير مألوف أشبه بجبال القمر، وبقعاً كبيرة من الأرض تمتد من جنوب بحر الصين غرباً إلى افغانستان، ومن سايغون شمالاً إلى سيبيريا. كان

عليهم معرفة القدرات والنيات للسوفيات والشيوعيين الصينيين، والجيش الوطني الصيني والاستخبارات العسكرية، وعليهم أن يتحرّزوا خصائص كل مجموعات السياسة والضغط في الشرق الأقصى. هذه المهمات ستستهلك القسم الأكبر من السنوات الخمسين. وقد عقدّتها الحكمة السائدة في «السي.آي.أيه.»: إن صينيي ماو، وفيتناميي هوشي منه، وكوريي كيم إيل سونغ، جميعهم مخلوقات الكرملين، ويشكلون كتلة واحدة ثابتة، وذهناً واحداً مصنوعاً في موسكو. أرسلت «الأو.أس.أس.» وأول رجال لـ «السي.آي.أيه.» في الشرق الأقصى، أكداساً من الاستخبارات إلى واشنطن. معظمها لم تتم قراءته، «وأقفل عليه في الأرشيف بصحبة الصمت والجرذان». Maochum Yu, OSS in China: Prelude to Cold War (New Have: Yale University Press, 1997), pp. 258-259.

أول رجال «السي.آي.أيه.» في الصين كانوا بقيادة آموس د. موسكريب، الذي عمل انطلاقاً من مركز فرنسي متقدم في شانغهاي، حيث لعب دور محب حفلات الأنس، والسكّير، ونام مع صديقة روسية بيضاء. اعتقد بعض دبلوماسيي وزارة الخارجية أنه في وسعهم عقد صفقة مع ماو، الذي، على أي حال، عمل مع «الأو.أس.أس.» ضد اليابانيين. إلا أن الشيوعيين كانت لهم ظنونهم الواضحة بأن الأميركيين في الصين، سواء أكانوا دبلوماسيين أم لا، سيحاولون إفسادهم. وبحلول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، طلبت وزارة الخارجية إخلاء جميع المراكز الدبلوماسية الأميركية المتقدمة في الصين، لأن كل من يقوم الشيوعيون، ولو من بعيد، بربطه بالتجسس لمصلحة الولايات المتحدة، سيواجه السجن وربما ما هو أسوأ. وفي موكدن، مدينة المليونين في منشوريا، وصلت هذه الأوامر بالإخلاء بينما تم وضع القنصل العالم الأميركي، أغنوس وارد، وموظفيه الواحد والعشرين، تحت الإقامة الجبرية لمدة سنة بعدما رفضوا تسليم القنصلية إلى قوات ماو. «اتهم بالتجسس، وهو، بصراحة، ما هو مذنب فيه!»؛ استذكر جون ف. ملبي، وكان يومها موظفاً سياسياً في وزارة الخارجية يرفع تقاريره من شونغكينغ. «كان يعمل مع ما قد عُرف بمفرزة الأمن الخارجية لم أعد أذكر رقمها، التي كانت مركزا متقدما لـ «السي.آي.أيه.» كان غارقاً حتى أذنيه، عاملاً مع الفريق الذي كان معه هناك في منشوريا». Melby oral histories, HSTL, FAOH.

كان رئيس «الطاقم» هو جاك سينغلوب، واحداً من أجرأ مقاتلي الحرب الباردة في السبعينيات والثمانينيات. كان سينغلوب، في ١٩٤٨، يتآمر مع الصينيين الوطنيين، محاولاً زرع شبكة من الروس البيض داخل الاتحاد السوفياتي، وباحثاً عن سبل لزرع جواسيس في كوريا الشمالية التي تحتلها روسيا. وتمكن سينغلوب في الواقع، في ١٩٤٨، من إدخال بعض العملاء الكوريين إلى كوريا الشمالية عبر منشوريا. أرسل دزينات من الرجال من أسرى الحرب الذين احتجزهم اليابانيون مع أوامر بالانضمام إلى الجيش الشيوعي في الشمال والإفادة عن نياته وقدراته. بدا أن حفنة منهم نجحت في البداية. إلا أنه، عندما حاول إيجاد منازل آمنة لأولئك الجواسيس في سيول، اعترضته مقاومة ماك أرثور. بعث سينغلوب بطلب غير عادي إلى البيت الأبيض عبر قنوات «السي.آي.أيه.» ـ كان معنوناً "Eyes Only Moscrip, For the President" – يرجو فيه ترومان تسليح الصينيين الوطنيين من مخازن الأسلحة الأميركية في أوكيناوا. لم يتأثر الرئيس. وعندما أصبح سقوط موكدن وشيكاً، أبرق سينغلوب إلى أقرب قائد بحري

أميركي: «من الملح ألا يتم أسري». وهرب تحت نيران هجوم مدفعي، متجاوزاً طائرة استطلاع تحمل شعار النجمة الحمراء، مدركاً أنه خسر معركته في الحرب الباردة. John K. Singlaub, Hazardous Duty: An American Soldier in the Twentieth Century (New York: Summit, 1992), pp. 132-149.

كان رئيس المحطة في شانغهاي، فريد شولتيس، يبني شبكة ذات حجم لا بأس به من العملاء والمخبرين في المدينة، في جزء منه لأنه يتحدث الصينية بطلاقة، وقد شحذها بقراءة كل ما تقع يده عليه، من صحف إلى كتب رسوم. وهو، بين الأميركيين، طويل الباع بالصين، وقد تمركز في البلاد مع الجيش طوال الحرب. ومع شروع ماو في مسيرته، واستيلائه على مدينة بعد مدينة في أواخر ١٩٤٨، لم يعد في إمكان شولتيس الانتظار للخروج. ذهب إلى هونغ كونغ كرئيس محطة في ١٩٤٩، وسرعان ما أصبح على قناعة بأن هونغ كونغ ستتعرض أيضا لهجوم شيوعي. بدأ بإرسال تقارير مخيفة تستند إلى التخمين والظن، محذراً من أن المدينة ستكون آخر قطعة دومينو تسقط. يستذكر جوزف أ. ياغر، أحد مسؤولي وزارة الخارجية ومن قدامى «الأو.أس.أس.» المتمركز معه في هونغ كونغ، ذلك الخوف بوضوح: «امتلكنا معلومات استخبارية مختلفة بدت أنها تشير إلى أن الهجوم مقبل. وتبين أنها خاطئة». إلا أن «شولتيس بقي مقتنعا بأنه مقبل. كان ينذر جداً بالشر. وقال، هذه المرة لن يكون ستانلي، بل سيكون بلسن. وستانلي هي ستانلي بينانسولا المكان الذي اعتقل فيه اليابانيون الأجانب. وكان على درجة كبيرة من السوء. فقد جوعوهم حتى الموت تقريباً. أما بلسن، فهي بالتأكيد معسكرات الموت في ألمانيا». Yager oral history, FAOF.

في ١٩٥٠، راقب سينغلوب، الذي عيّن مسؤولاً عن مكتب الصين في «السي.آي.أيه.» بعد انتصار ماو، من المقر العام، المحطات التي يتم التخلي عنها والعمليات التي يتم تشتيتها. عمل في شكل محموم للحفاظ على الشبكة المتناقصة تدريجاً من ضباط «السي.آي.أيه.» العملاء الذين تُركوا في الصين، ولإعادة إنشاء شبكات التجسس التي تم كسرها في منشوريا وكوريا الشمالية.

في تيهوا، عاصمة زيغجيانغ، في غرب الصين الهمجي الموحش، كان دوغلاس ماكيرنان رجل «السي.آي.أيه.» في القنصلية الأميركية التي تضم شخصين. تم وضعه هناك خلال الحرب بوصفه ضابطاً جوياً في الجيش، وعرف طبيعة الأرض الغنية باليورانيوم، والنفط، والذهب. وقد عاش بأبعد ما يمكن لأميركي على وجه الأرض أن يعيش بعيدا عن الحضارة. وعلق ماكيرنان، بعدما أُجبر في النهاية على التخلي عن القنصلية في وجه القوات الشيوعية. وبات عليه أن يجد وحده طريقه للخروج. وفي نهاية ١٧ شهراً، بعد سفرة طويلة شاقة من ١,٢٠٠ ميل للخروج من الصين، أطلق النار عليه، في شكل عبثي، أحد حراس الحدود التيبتيين، وأصبح أول ضابط في «السي.آي.أيه.» يموت شهيد الواجب.

في شانغهاي، حاول هيوز ردموند، وكان تابعاً لسينغلوب في موكدن، العمل تحت الغطاء غير الكافي للممثل المحلي لشركة استيراد وتصدير بريطانية. «إنها لقمة الجنون، الاعتقاد أن هاوياً لطيفاً شاباً مثل هيوز ريموند، يمكنه، مهما كان متكرّساً، أن يعمل في شكل جيّد في مواجهة خصم توتاليتاري خال من الشفقة». اعتقلت قوات الأمن الصينية ردموند بوصفه جاسوساً.

تلقّى روبرت ف. دركسلر، الضليع في الاستخبارات الصينية في وزارة الخارجية، بقايا جثمان ردموند. واستذكر دركسلر، «لا يزال يمكنني رؤية رماده، علبة ضخمة، بطول حوالى قدمين وقدم مربعة واحدة، مع غطاء من النسيج القطني الشفاف، وأحرف اسمه موضوعة بخط كبير على الجانب، وقد وضع ذلك على مكتبي. أمر مرعب تماما. أبلغنا الصينيون أنه انتحر، بعد احتجازه لمدة عشرين عاماً، بشفرة جاءت ضمن توضيبة من الصليب الأحمر. أبلغنا الصليب الأحمر أنه لا يضع أبداً شفرات في تعليباته». On Mackiernan and Redmond: Drexler oral history, FAOH; Ted Gup, The Book of Honor: The Secret Lives and Deaths of CIA Operatives (New York: Anchor, 2002).

(٢٤) Bedell Smith, preliminary staff meeting, National Psychological Strategy Board, May 8, 1951, CIA/CREST.

(٢٥) Kreisberg oral history, FAOH.

(٢٦) مقابلة أجراها المؤلف مع كو. أُرسل مايك كو إلى جزيرة وايت دوغ، مقابل ساحل الصين، حيث خفف حسن الرفقة من عبثية المهمة. ومن بين رفاقه في الجزيرة هناك فيل مونتغمومري، المولود فيليب ـ لويس مونتغومري، وريث لثروة نويلي برات الفيرموث، والذي أبقى الحانة جيّدة التموين؛ والأسطوري ر. كامبل جيمس جونيور، الذي أفرغها بأفضل ما يستطيع. وكان «زوب» جيمس، من متخرجي يال في ١٩٥٠، بعادات الجندي البريطاني وشاربه المقضّب، آخر ضباط الوسترن إنتربرايز الذين غادروا تايوان في ١٩٥٥. مضى إلى لاوس، حيث قام بتجنيد زعيم البلاد ما بين حفلات الكوكتيل والروليت.

(٢٧) مقابلة أجراها المؤلف مع ميللي ومع كو. Lilley FAOH.

(٢٨) "OPC History," Vol. 2, p. 553, CIA.

(٢٩) رفعت «السي.آي.أيه.» أخيرا السرّية عن اعترافها الرسمي الأول بمقتل عملائها في إخفاق القوة الثالثة، والعمل غير المتقن الذي أدى إلى اعتقال فيكتو وداوني: Nick Dujmovic, "Two CIA Prisoners in China, 1952-1973," Sutdies in Intelligence, Vol. 50, No. 4, 2006:

الفريق الأول من القوة الثالثة الذي سيتم إسقاطه جواً، لم ينتشر حتى نيسان/أبريل ١٩٥٢. وقد تم إسقاط هذا الفريق المكون من أربعة رجال في جنوب الصين، ولم يعرف عنه أي شيء بعد ذلك أبداً. وضم الفريق الثاني من القوة الثالثة خمسة من العرق الصيني، أسقطوا في منطقة جيلين في منشوريا في أواسط تموز/يوليو ١٩٥٢. كان دونواي معروفاً جيّداً من العملاء السرّيين في فريقه لأنهم درّبهم. أقام الفريق سريعاً اتصالاً لاسلكياً مع وحدة دونواي في «السي.آي.أيه.» خارج الصين، وتمت إعادة تزويده بالمؤن جواً في آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر. وتم، في أيلول/سبتمبر، إسقاط عضو سادس في الفريق، أريد له أن يكون الساعي بين الفريق وبين وحدة «السي.آي.أيه.» التي تديره.

أفاد الفريق، في أوئل تشرين الثاني/نوفمبر، عن إقامة اتصال مع زعيم محلّي منشق، وقال إنه حصل على وثائق عملانية يحتاج إليها مثل أوراق الهوية الرسمية. طلبوا التقاطاً جوياً للبريد، وهي طريقة تدرّبوا عليها، لكن «السي.آي.أيه.» لم تجربها أبداً عملانياً... كان الطياران نورمان

شوارتز وروبرت سنودّي، قد تدربا على تقنيات الالتقاط الهوائية في خريف ١٩٥٢، وعلى استعداد للقيام بالمهمة... في أواخر ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، صعد داوني وفيكتو على متن طائرة شوارتز وسنودّي السي ـ ٤٧ ذات اللون الزيتوني الأغبر، وانطلقا إلى نقطة اللقاء في منشوريا الصينية الشيوعية، على بعد نحو ٤٠٠ ميل... متوجهين إلى فخ.

سبق لقوات الأمن الشيوعية الصينية أن اعتقلت فريق العملاء، بدون معرفة رجال الرحلة الجوية، وقامت بتحويلهم. كان طلب الالتقاط الجوي مكيدة، ولم يكن التوثيق الموعود والاتصال المزعوم من زعيم محلي منشق، سوى طعم. ومن شبه المؤكد أن أعضاء الفريق اطلعوا السلطات الصينية على كل ما يعرفونه حول العملية وحول رجال «السي.آي.أيه.» والتسهيلات المرتبطة بذلك. وبات واضحاً، من الطريقة التي نُفّذ فيها الكمين، أن الصينيين عرفوا بالتحديد ما الذي يتوقعونه... وبينما طارت السي ـ ٤٧ على علو مخفوض للالتقاط، محلقة بسرعة حوالى الستين عقدة التي تكاد تعادل سرعة السقوط، أزيلت شراشف بيضاء تموّه مدفعين مضادين للطائرات على أرض مثلجة، وانطلقت النيران في اللحظة ذاتها التي كان سيتم فيها الالتقاط. وشرع المدعان، اللذان يعترضان طريق الطائرة، في تشابك نيران قاتل... واستذكر فيكتو لاحقاً وقوفه خارج الطائرة مع داوني، وكلاهما مصعوق لكن مدرك، يقولان لبعضهما البعض إنهما «في ورطة جهنمية». نزلت القوات الصينية عليهم، «زاعقة ومولولة»، فسلّما نفسيهما إلى المقدَّر.

ثمة سؤال عما إذا كان العاملون على الأرض تجاهلوا تحذيرات من أن الفريق المنتشر قد تم تحويله على أيدي الشيوعيين... ويؤكّد ضابط عمليات سابق كبير، عمل في ١٩٥٢ وهو شاب في وحدة داوني وفيكتو... أنه في الصيف الذي سبق رحلة تشرين الثاني/نوفمبر، فإن تحليلاً لرسالتين بعث بهما الفريق جعل من المؤكد «بنسبة تسعين في المئة»، من وجهة نظره، أن الفريق قد تم ازدواجه. ولما لفت انتباه رئيس وحدته إلى مخاوفه، صُدّ الضابط لعدم كفاية الدليل. ولما أصرّ، نُقل إلى وحدة أخرى في «السي.آي.أيه.». ولمّا لم تعد رحلة داوني وفيكتو، استدعى رئيس الوحدة الضابط وطلب منه عدم التحدث في هذه المسألة، وانصاع للتعليمات، وهو ما بعث فيه الأسف الشديد...

لا يبدو أن هناك أي سجل لتحقيق ما في قرار إرسال دونواي وفيكتو في الرحلة. ومن الواضح أنه ما من أحد تعرّض لاجراء تأديبي من جراء ذلك... بعد ذلك بسنوات كثيرة، أبلغ دونواي أنه لم يشعر بأي مرارة حيال الرجل الذي أرسله في المهمة: «لقد شعرت معه، إذ تبيّن أن الأمر شكّل كارثة لعينة من وجهة نظره».

(٣٠) ستكون للعملية عواقب رهيبة. وجاءت أُولاها بعدما أهملت «السي.آي.أيه.» إبلاغ السفير الأميركي في بورما، ديفيد م. كاي، في شأن لي مي. وعندما اكتشف الأمر، استشاط غضباً. أبرق إلى واشنطن، محتجاً بأن العملية أصبحت سرّاً مفضوحاً في العاصمة البورمية وفي بانكوك أيضاً، وبأن انتهاك سيادة بورما يوقع ضرراً كبيراً بالمصالح الأميركية. وأمر نائب وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، دين راسك، سفيره بالصمت: عليه أن ينفي نفياً قاطعاً أي تورّط أميركي في العملية، وإلقاء اللوم كله على حاملي الأسلحة الذين يعملون لحسابهم. وأدار لي مي وقواته، في وقت لاحق، أسلحتهم ضد الحكومة البورمية التي قام قادتها، بعدما

شكوا في وجود تواطؤ أميركي، بقطع العلاقات مع الولايات المتحدة وشرعوا في نصف قرن من العزلة عن الغرب، أنتجت واحداً من أكثر الأنظمة قمعاً في العالم. بعض مظاهر عملية لي مي موجود في Major D.H. Berger, USMC, "The Use of Covert Paramilitary Activity as a Policy tool: an Analysis of Operations conducted by the United States Central Intelligence Agency, 1949-1951," available online at http://www.globalsecurity.org/intell/library/reports/1995/BDH.htm. وقد تم التزود بتفاصيل إضافية من آل أولمر، الذي خلف ديزموند فيتزجيرالد كرئيس لقسم الشرق الأقصى؛ ومن سام هالبرن، الضابط التنفيذي لدى فيتزجيرالد؛ ومن جيمس ليللي.

كان حلفاء «السي.آي.أيه.» التايلنديون غارقين في تجارة لي مي بالهيرويين. طار عضو «السي.آي.أيه.» ليمان كيركباتريك، وكان يومها مساعداً لمدير العلميات الخاصة ويُعتقد أنه في طريقه إلى خلافة ويسنر، إلى آسيا في أواخر أيلول/سبتمبر ١٩٥٢، إلى جانب نظيره، المدير المساعد لويسنر، العقيد بات جونستون. وكان أميركي واحد على الأقل، على علاقة بتجارة المخدرات، قد مات، وبدا أن المسألة أحيلت على المدعي العام للولايات المتحدة. ولم يتم فضّ أي من ذلك، الأمر الذي أرضى الجميع. استقال العقيد جونستون من منصبه فور ذلك. خلال الرحلة، التقط كيركباتريك داء الشلل وكاد يموت. عاد إلى «السي.آي.أيه.» بعد ذلك بسنة، وتم تجاوز ترقيته، وأمضى ما بقي من حياته على كرسي، يخدم بوصفه المفتش العام الدائم الهم لـ «السي.آي.أيه.». إنه درس في الطموح المكبوت.

(٣١) Smith to Ridgway, April 17, 1952, CIA, DDEL.

(٣٢) بالنسبة إلى الجهد المبذول لاقتلاع سينغمان ري والحلول محلّه: «أخذ ري يصبح خرفاً، وبحثت «السي.آي.أيه.» عن سبل لاستبداله...» The Ambassador in Korea (John Muccio) to the Assistant Secretary of State for Far Eastern Affairs (John Allison), Secret, February 15, 1952, FRUS, Vol. xv, pp. 50-51. جاء في مذكّرة من مجلس الأمن القومي إلى وزير الخارجية دالاس، مؤرخة في ١٨ شباط/فبراير ١٩٥٥، أن الرئيس أيزنهاور قد وافق على عملية «لاختيار وتشجيع في الخفاء لانتاج زعامة كورية جنوبية جديدة»، وإيصالها إلى السلطة إذا لزم الأمر. Peer de Silva's recounting of the CIA near-shooting of President Rhee in his memoir, Sub rosa: The CIA and the Uses of Intelligence (New York: Times Books, 1978), p. 152.

(٣٣) Melby, FAOH.

(٣٤) Dulles in transcript of "Proceedings at the Opening Session of the National Committee for a Free Europe," misdated but May 1952, declassified May 28, 2003, DDEL.

الفصل السابع

(١) Dulles in transcript of "Proceedings at the Opening Session of the National

Committee for a Free Europe," misdated but May 1952, declassified May 28, 2003, DDEL.

(٢) قضت الأوامر «بالمساهمة في ردّ القوة السوفياتية وتقليصها»، و«بإنشاء مقاومة سرّية وبتسهيل العمليات الخفية وعمليات حرب العصابات في مناطق استراتيجية». وقد صدر عن الأميرال ل. ك. ستيفنس، مخطط حربي كبير من الأركان المشتركة كان الملحق البحري لسميث في موسكو. Admiral L. C. Stevens memo to Wisner, "Subject: OPC Strategic Planning," July 13, 1951, CIA/CREST. الهدف هو «وضع أقصى الضغط على بنية السلطة السوفياتية». NSC staff memon, "Scope and Pace of Covert Operations," June 27, 1951, CIA/CREST.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار. Bedell Smith's orders to Truscott are dated March 9, 1951, CIA/CREST.

(٤) مذكّرة لا تحمل عنوانا إلى نائب مدير الاستخبارات المركزية، ١٥ أيار/مايو ١٩٥٢؛ memo for director of central intelligence, "Subject: Successful Application of Narco-Hypnotic Interrogation (Artichoke)," July 14, 1952, CIA/CREST. لاحظ هذا التقرير الثاني أن دالاس قد اجتمع مع رؤساء الاستخبارات العسكرية في نيسان/أبريل ١٩٥١ سعياً إلى نيل مساعدتهم في برنامج الخرشوف. وحده الارتباط البحري نجح. ونتيجة المساعدة البحرية كانت سجن بانما العسكري. أفادت مذكّرة متابعة ارسلها بيديل سميث، أن الروسيين خضعا للاستجواب على مدى أسبوعين في حزيران/يونيو ١٩٥٢، على يد فريق مشترك من البحرية و«السي.آي.أيه.» بموجب مشروع الخرشوف، وأن مزيجاً من العقاقير والتنويم المغناطيسي أثبت فائدته. كان هذا كلّه من نبت الطوارئ الوطنية التي خلقتها الحرب الكورية والشك في أنه يتم غسل أدمغة السجناء الأميركيين في كوريا الشمالية. بلغت تحقيقات مجلس الشيوخ هوامش هذا البرنامج منذ ثلاثين عاماً مضت، إلا أن معظم الآثار الورقية قد تم تدميره. وأفاد المحققون في ثلاثة مقاطع ذات إيجاز بليغ، ان مشروع الخرشوف تضمن «تحقيقات في ما وراء البحار»، استخدم فيها «مزيج من الصوديوم بنتوتال والتنويم المغناطيسي» و«تقنيات تحقيق خاصة» تتضمن «مصل الحقيقة». لم يسبر الكونغرس طبيعة «التحقيقات في ما وراء البحار».

(٥) أكد محققو مجلس الشيوخ أن خطط التحقيقات في ما وراء البحار شكّلت موضوع اجتماعات شهرية في «السي.آي.أيه.» من ١٩٥١ إلى ١٩٥٦ على الأقل، وربما لسنوات عدة بعد ذلك: «تؤكّد «السي.آي.أيه.» أن المشروع انتهى في ١٩٥٦، لكن الدليل يوحي بأن مكتب الأمن ومكتب الخدمات الطبية يستخدمان تقنيات «تحقيق خاصة» استمرت لسنوات عدة بعد ذلك». Report of the Senate Select Committee on Intelligence, "Testing and Use of Chemical and Biological Agents by the Intelligence Community," Appendix I, August 3, 1977.

(٦) مقابلات أجراها المؤلف مع توم بولغار وماكماهون.

(٧) مقابلات أجراها المؤلف مع بولغار وبيتر سيشيل، انظر أيضاً David E. Murphy, Sergei A. Kondrashev, and George Bailey, Battleground Berlin: CIA vs. KGB in the Cold War (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), pp. 113-126.

(٨) سميث وويسنر في اجتماع المساعدين، ٥ آب/أغسطس ١٩٥٢ .CIA/CREST حول لقاء شاكلي مع حركة الحرية والاستقلال، انظر Ted Shackley with Richard A. Finney, Spymaster: My Life in the CIA (Dulles, VA: Potomac, 2005), pp. xvi-20.

(٩) Loomis oral history, FAOH.

(١٠) دُعي تقرير ليندسي التنبؤي بـ«برنامج تطوير أدوات الحرب الباردة الجديدة»، ٣ آذار/مارس، ١٩٥٣، رفعت عنه السرّية جزئياً في ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٣، .DDEL مقابلة أجراها المؤلف مع ليندسي. فعل دالاس ما في وسعه لاخفاء التقرير. لم يأخذ قادة «السي.آي.أيه.» الوقت أبداً لتقويم تبعات إخفاقات العمل الخفي، أو القبول بالانتقاد الذي قد يكلفهم وظائفهم في حال تسرّب الأمر. وهم لم يبالوا أيضا ببيتر سيشيل، وهو واحد من أفضل جواسيسهم ورئيس عمليات التجسس التابعة لهيلمس في أوروبا الشرقية في أوائل الخمسينيات، الذي حذّر من أن الطريقة الوحيدة لمحاربة العدو هي في معرفته. قال سيشيل إنه حاجج بأنه «في اللحظة التي تنغمسون فيها بالأيديولوجيا، فلن تحصلوا من بعدها على استخبارات يمكن الاعتماد عليها. وأنتم تعرّضون عملاء الاستخبارات للخطر. لا يمكنك أن تكون عميلاً سياسياً بدون تعريض نفسك للمنظومة التي تحاول تقويضها. وإذا حاولت تقويض منظومة سياسية استبدادية، فستعرّض نفسك للإصابة».

(١١) مقابلة أجراها المؤلف مع مكماهون.

(١٢) Smith quoted in CIA Support Functions: Organization and Accomplishments of the DDA-DDS Group, 1953-1956, Vol. 2, Chap. 3, p. 128, Director of Central Intelligence Historical Series, declassified March 6, 2001, CIA/CREST.

(١٣) Minutes of meeting, October 27, 1952, CIA/CREST.

(١٤) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 102-104.

الجزء الثاني
الفصل الثامن

(١) التقرير حول «الاستخبار عن الكتلة السوفياتية»، مذكور في Gerald Haines and Robert Leggett (eds.), CIA's Analyses of the Soviet Union, 1947-1991: A Documentary History, CIA History Staff, 2001, CIA.CSI.

(٢) Emmet J. Hughes, The Ordeal of Power: A Political Memoir of the Eisenhower

Years (New York: Atheneum, 1963), p. 101. كان الرئيس كذلك مستاءً لعلمه بأنه لا يوجد لدى الوكالة ردّ سريع على حملة السلام السوفياتية التي أعقبت سريعاً مأتم ستالين: حملة فظّة، لاذعة، وفعّالة أحياناً لإقناع العالم بأن الكرملين يحتفظ بالحق الحصري لمفاهيم العدالة والحرية.

(٣) Jerrold Schecter and Vyacheslav Luchkov (trans. And ed.), Khrushchev Remembers: The Glasnost Tapes (Boston: Little, Brown, 1990), pp. 100-101.

(٤) NSC minutes, June 5, 1953, declassified February 12, 2003, DDEL.

(٥) NSC minutes, September 24, 1953, declassified September 29, 1999, DDEL.

(٦) NSC minutes, October 7, 1953, declassified February 28, 2003, DDEL.

(٧) انتفاضة برلين في حزيران/يونيو ١٩٥٣، موثقة في شكل حاسم في كتاب عميل «السي.آي.أيه.» ديفيد مورفي David Murphy Battleground Berlin: CIA vs. KGB in the Cold War (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), pp. 163-182. القصة التي تتردد بدون انقطاع، انظر، من بين كثيرين، John Ranelagh, The Agency (New York: Simon and Schuster, 1986), p. 258-)، بأن قاعدة «السي.آي.أيه.» في برلين أرادت توزيع أسلحة على متظاهري ألمانيا الشرقية هي قصة كاذبة. رقم الـ٣٧٠ ألف متظاهر جاء من James David Marchio, "Rhetoric and Reality: The Eisenhower Administration and Unrest in Eastern Europe, 1953-1959" (Ph.D. diss. American University, 1990), cited in Gregory Mitrovich, Undermining the Kremlin: America's Strategy to Subvert the Soviet Bloc, 1947-1956 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000), pp. 132-133.

(٨) NSC 158, "United States Objectives and Actions to Exploit the Unrest in the Satellite States," DDEL. وقّع أيزنهاور الأمر في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٥٣.

(٩) In "Coordination and Policy Approval of Covert Actions," February 23, 1967, NSC/CIA.

(١٠) تتضمن لائحة جزئية بالمنظمات الاخبارية التي تعاونت مع «السي.آي.أيه.» في ظل ألن دالاس، كلا من «سي.بي.أس.»، «أن.بي.سي.»، «أيه.بي.سي.»، الأسوشيتدبرس، يونايتد برس إنترناشونال، رويترز، صحف سكريبس ـ هاورد، خدمة كوبلي الإخبارية، والميامي هيرالد. وللائحة شاملة لقدامى حرب الدعاية الذين أداروا الغرف الإخبارية الأميركية في ١٩٥٣، انظر Edward Barret, Truth is Our Weapon (New York: Funk and Wagnalls, 1953), pp. 31-33. لا تزال هذه القصة في حاجة إلى من يرويها، برغم أن كارل برنشتاين تناولها في شكل جيد جداً في Carl Bernstein "The CIA and the Media," October 20, 1977. وفهم برنشتاين الأمر في شكل دقيق الصحة في هذا المقطع: «الكثيرون من الصحافيين الذين غطوا الحرب العالمية الثانية كانوا مقرّبين إلى أناس في مكتب الخدمات الاستراتيجية، وهو سلف «السي.آي.أيه.» في زمن الحرب؛ والأهم من ذلك هو أنهم كانوا جميعاً من الطرف ذاته. وعندما انتهت الحرب، وذهب الكثيرون من ضباط «الأو.أس.أس.» إلى «السي.آي.أيه.»، كان

من الطبيعي وحسب استمرار هذه العلاقات. وفي غضون ذلك، دخل الجيل الأول من صحافيي بعد الحرب في المهنة؛ تشاركوا مع رعاتهم القيم السياسية والمهنية نفسها. وقال أحد مسؤولي الوكالة، كان لديك عصبة من الناس عملوا معاً خلال الحرب العالمية الثانية ولم يتمكنوا من تجاوز ذلك أبداً. كانوا محفّزين حقيقة وذوي قابلية شديدة للتآمر، وليكونوا من داخل».

(١١) تم الحصول على السجلات من نظام إدارة الأرشيف الوطني والسجلات في الأرشيف الوطني في ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. وهي تعكس تخوّفاً ساحقاً من أن ضعف «السي.آي.أيه.» سينفضح أمام نظر الجمهور.

في اجتماعي ٢٨ آب/أغسطس و٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٥٣، حذّر المفتش العالم لـ «السي.آي.أيه.» ليمان كيركباتريك من أن الضباط العسكريين يتركون «السي.آي.أيه.» بالأفواج، و«بموقف غير ودّي.» وبأن سياسات الموظفين في الوكالة «تسبب السخط وتترك الباب مفتوحا أمام هؤلاء الأفراد لمقاربة أعضاء في الكونغرس».

في ١٣ حزيران/يونيو ١٩٥٥، سأل كيركباتريك دالاس إذا كان ضابط في «السي.آي.أيه.» «أدين أخيرا بالقتل غير المتعمّد... نتيجة عراك مع ضابط في سلاح الجو البريطاني سيتم فصله أو يُسمح له بالاستقالة». وفي ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٥، لاحظ نائب رئيس الاستخبارات، روبرت أرموري، أن «الجيش يحضّر حالياً تأريخاً لكوريا، الذي إذا نُشر في شكله الراهن، فسيضع «السي.آي.أيه.» في وضع حرج».

رئيس المحطة في سويسرا الذي قتل نفسه كان جيمس كرونتال، وهو أحد قدامي «الأو.أس.أس.» خلف ألن دالاس في برن وخدم هناك منذ ١٩٤٦. كان مثلي الجنس متهماً بالرضوخ للابتزاز السوفياتي. لم يتم إثبات المسألة. انتحر في واشنطن، في آذار/مارس ١٩٥٣، خلال أيام دالاس الأولى كمدير.

شكلت حركة الـ١٧ في المئة السنوية ـ واحد من ستة موظفين بقي في ١٩٥٣ ـ إحدى النتائج التي توصل إليها «التقرير النهائي عن اسباب تدهور المعنويات لدى الضباط الصغار»، "Final Report on Reasons for Low Morale Among Junior Officers," November, 9, 1953, CIA/CREST. الاستطلاع الذي أُجري على ١١٥ ضابطاً في «السي.آي.أيه.»، سجّل استياءً عميقاً من الفساد، والهدر، والمهمات السيئة التوجيه.

(١٢) House Permanent Select Committee on Intelligence, IC21, "Intelligence Community Management," p. 21.

(١٣) خمّن مؤرخو «السي.آي.أيه.» بأن بيديل سميث توقّع أن يعينه آيك رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، ولم يرد أن يخدم نائباً لوزير الخارجية، ولم يحب جون فوستر دالاس، ولم يرتح إلى تعيين ألن دالاس مديراً للاستخبارات المركزية. John L. Helgerson, "Getting to Know the President: CIA Briefings of Presidential Candidates, 1952-1992," CIA/CSI.

(١٤) نص مقابلة نيكسون مع فرانك غانون في ٨ نيسان/أبريل ١٩٨٣. Walter J. Brown Media Archives, University of Georgia, available online at http://www.libs.uga.edu/media/collections/nixon.

الفصل التاسع

يستند هذا الفصل جزئياً إلى تأريخين محفوظين للجهاز السرّي لـ «السي.آي.أيه.»: «زنداباد شاه» *Zindabad Shah!* الذي حصل عليه المؤلف، والمؤرَّخ في ٢٠٠٣، و«الإطاحة بمصدّق رئيس وزراء إيران» *Overthrow of Premier Mossadeq of Iran* وقد وضعه، في آذار/مارس ١٩٥٤، دونالد ويلبر، رئيس الدعاية في عملية أجاكس، ونُشر على أحد مواقع الإنترنت التابعة لـ «النيويورك تايمز» في ٢٠٠٠. «الإطاحة» هي رواية «السي.آي.أيه.» الرسمية المُجازة للانقلاب، وهي ملخّص لما سجّله ضباط «السي.آي.أيه.» على الساحة، وأفادوا به مقرهم العام في ذلك الوقت. إلا أنه لا يقارب الحقيقة كاملة. فالضباط في الساحة، أمثال كيم روزفلت، توقفوا، في الأيام الأخيرة للانقلاب، عن إيصال الأخبار إلى الديار لأن الأخبار كادت تكون كلّها سيئة. وتأريخ «السي.آي.أيه.» يتجاهل السند الفكري وراء العملية، ويجهد في التقليل من أهمية الدور البريطاني المحوري في الإطاحة بمصدق. وهو يشرح فكرة أيزنهاور، أن «التقارير من المراقبين على الأرض في طهران خلال الأيام العصيبة، بدت أشبه برواية بخسة الثمن، منها بالواقع التاريخي». وسيعمل ويلبر، كاتب «الإطاحة»، دور الرجل الذي يعيد كتابة نص الانقلاب بحد ذاته. وقد جرى، في أيار/مايو ١٩٥٣، تلميع كل واقعة في حبكة الرواية في محطة الاستخبارات البريطانية في نيقوسيا، قبرص، على يد ويلبر، وهو من قدامى «الأو.أس.أس.»، وقد خدم في إيران خلال الحرب، وعاد إلى محطة طهران، ونظيره البريطاني نورمان داربيشاير. وما نتج عن ذلك عبارة عن مسرحية شكّل فيها الإيرانيون الألعوبة.

(١) Kermit Roosevelt, Countercoup: The Struggle for Control of Iran (New York: McGraw-Hill, 1979), pp. 78-81, 107-108. شكل الكتاب رواية أكثر منه واقعة، إلا أن الاستشهادات المذكورة فيه حملت بذوراً من الحقيقة. فكيم روزفلت، المولود في أسرة ميسورة، والذي تعلّم التشدد المسيحي في غروتون، صاحب باع طويل في الاستخبار السرّي في محطة «الأو.أس.أس.» في القاهرة. زعم جواسيس دونوفان امتلاكهم، مع نهاية الحرب، شبكة من خمسمئة عميل عربي في كل دولة عبر الشرق الأوسط، ما عدا المملكة العربية السعودية. عاد روزفلت، بعد الحرب، إلى الشرق الأوسط، يعمل ظاهرياً لـ «الساتورداي إيفنينغ بوست»، ويجمع المواد لكتابه الصادر في ١٩٧٤، «العرب، النفط والتاريخ» *Arabs, Oil and History*. وعندما صدر النداء للانضمام إلى جهاز فرانك ويسنر السرّي، سمعه كيم بوضوح. فإرث دبلوماسية العصا الغليظة، الذي ورثه عن جده، الرجل الذي استولى على قناة بنما والفيليبين، حمله على أن يصبح في ١٩٥٠ وزير ويسنر الأكبر لأمة الإسلام. وأمضى كيم، بوصفه رئيساً لقسم الشرق الأدنى، ثماني سنين محاولاً مداورة زعماء مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، والأردن، والسعودية، للتعهّد بالولاء لأميركا، محاولاً استمالتهم بالأسلحة والمال والوعود بالدعم الأميركي، وكان يقوم بانقلابات ظرفية عندما تفشل هذه الوسائل. وقد وضع الملك الأردني الشاب حسين على جدول مدفوعات «السي.آي.أيه.»، وأوفد كتيبة من مغاوير الجنرال رينهارد غهلن السابقين لتدريب الاستخبارات السرّية للزعيم المصري الجديد جمال عبد الناصر.

لم تملك الوكالة، قبل أجاكس، سوى تجربة قليلة في القيام بعمليات الشرق الأوسط. في أوائل الخمسينيات، عمل مايلز كوبلاند، وهو مداهن، من ألاباما، يتحدث العربية وأول رئيس مركز لـ «السي.آي.أيه.» في دمشق، عن كثب، مع الملحق العسكري الأميركي في سوريا، ستيفن ج. ميد، على خطة لدعم «ديكتاتورية يساندها الجيش»، بحسب ما ورد في برقية بعث بها ميد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨ إلى البنتاغون. وجدا ضالتهما في الزعيم حسني الزعيم الذي وصفه كوبلاند بالضابط المعروف «بإرادته الحديدية المتلائمة مع عقله». شجع كوبلاند الزعيم على قلب رئيسه الذي اعترض مرور خط أنابيب شركة النفط العربية ـ الأميركية عبر سوريا، ووعده بأن الرئيس ترومان سيمنحه الاعتراف السياسي. قلب الزعيم الحكومة في ٣٠ آذار/مارس ١٩٤٩، وتعهّد التعاون التام مع مشروع الأنابيب. وبحسب ما أفاد ميد، رمى «بأكثر من ٤٠٠ شيوعي» في السجن. بقي الزعيم ذو الدماغ الحديدي أقل من خمسة أشهر قبل أن يتم قلبه وإعدامه. وسلّم كوبلاند فرحاً بعودته إلى طاولة الرسم.

ما كان انقلاب «السي.آي.أيه.» في ١٩٥٣ ليبدأ أبداً لولا البريطانيون. ومن المرجح أيضاً أنه لم يكن لينجح. فقد امتلكت الاستخبارات البريطانية فهماً عميقاً للدسائس السياسية الدفينة في إيران، التي لملمتها من عملائها في الحكومة، والبازار، وعالمي الإجرام والرذيلة. كان للحكومة البريطانية دافع اقتصادي هائل. وامتلكت مؤامرتها للتخلص من مصدّق حافزاً سياسياً قوياً. فالسير ونستون تشيرتشل نفسه يدفع به قُدُماً.

(٢) سجل نائب مدير الاستخبارات، منذ زمن طويل، روبرت أموري، في يومياته الرسمية لـ ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، نقاشاً مع المدير يتعلّق بـ «الجهد للإطاحة بمصدّق»، وما تبع ذلك من غداء شكّلت إيران الموضوع الرئيسي فيه، ومن بين المشاركين فيه ويسنر، والسفير لوي هندرسون، ومن دون شك، بالرغم من أن اسمه حذف من السجل المرفوعة عنه السرّية، مونتي وودهاوس.

(٣) Deputies Meeting, August 10, 1953, CIA/CREST.

(٤) Dulles Briefing notes for NSC Meeting, March 4, 1953, CIA/CREST.

(٥) NSC Meeting Minutes, March 4, 1953, DDEL.

(٦) حكمت تقارير الاستخبارات الروسية في ١٩٥٣ بإيجاز أكبر، على مصدّق، بأنه «بورجوازي قومي»، ولا يمكن موسكو أن تنظر إليه بعين الحليف. راجع: Vladislav M. Zubok, "Soviet Intelligence and the Cold War: The Small Committee of Information, 1952-53," *Diplomatic History*, vol. 19, Summer 1995, pp. 466-468.

(٧) Stutesman Oral History, FAOH.

(٨) Radio Report on Coup Plottig,' July 7, 1953, National Security Archive, CIA/Freedom of Information Act (FOIA) Release.

(٩) لم يتم الاعتراف بالدور المركزي للجنرال ماكلور في الانقلاب. وكاد التاريخ الداخلي لـ «السي.آي.أيه.» يمحوه تماماً. وقد تعمّدت الوكاله التقليل من أهمية عمله، لأن الجنرال لم يكن صديقاً كبيرا لـ «السي.آي.أيه.». انظر Alfred H. Paddock, Jr., *U.S. Army*

Special Warfare: Its Origins (Washington, DC: National Defense University Press, 1982). أنا ممتن لبادوك لمشاطرتي معرفته السابقة التي استقاها من قراءة أوراق ماكلور الشخصية. وقد أشير إلى «علاقات ماكلور الممتازة مع الشاه» في ملاحظة من أيزنهاور إلى وزير الجيش روبرت تن بروك ستيفنز، ٢ نيسان/أبريل ١٩٥٤، الأوراق الرئاسية لدوايت ديفيد أيزنهاور، الوثيقة ٨١٤.

(١٠) CIA Office of Current Intelligence, 'Comment on the Attempted Coup in Iran,' August 17, 1953, declassified November 16, 2006.

(١١) أعيد إنتاج الحوار في التأريخ السرّي لـ «السي.آي.أيه.» بعنوان «زندباد شاه!» (النصر للشاه!).

(١٢) Rountree Oral History, FAOH.

(١٣) تم الزعم أن آية الله كاشاني كان على جدول مدفوعات «السي.آي.أيه.» راجع: Mark J. Gasirowsky, 'The 1953 Coup DEtat in Iran,' *International Journal of Middle East Studies*, vol. 19, 1987, pp. 268-269. إلا أن رويل مارك غيريشت، الذي التحق بـ «السي.آي.أيه.» في ١٩٨٥ عضواً في الجهاز السرّي للمكتب الإيراني، كتب أن كاشاني «لم يكن مَديناً لأي أجنبي». قرأ غيريشت تأريخ «السي.آي.أيه.» لعملية أجاكس، وقال إن الأمثولة فيه هي التالية: «على المرء أن يكون سخيّاً لإعطاء عملاء أميركا في إيران الكثير من الفضل في إعادة الشاه. فكل تفصيل تقريباً من تفاصيل مخططهم، انحرف عن غايته. فالعملاء الأميركيون الأساسيون في سفارتنا، لم يكونوا يتكلمون الفارسية. ولمّا بدأت إيران في الغليان، واستحال إجراء الاتصال بالمصادر الإيرانية المعتادة التي تتحدث الإنكليزية أو الفرنسية، أصيب مركز «السي.آي.أيه.» بالعمى. ولم ينجح الانقلاب إلا لأن إيرانيين، ليسوا على جدول معاشات الأميركيين أو الإنكليز، ولا تحت أي سيطرة أجنبية، أخذوا المبادرة لإسقاط رئيس الوزراء مصدّق». راجع: Reuel Marc Gerecht, 'Blundering through History with the C.I.A.,' *the New York times*, April 23, 2000.

(١٤) يُظهر إخبار روزفلت لهذا المشهد في الفصل التاسع من «الإطاحة»، التأريخ الرسمي لـ «السي.آي.أيه.».

(١٥) Ray S. *Cline, Secrets, Spies, and Scholars: Blueprint of the Essential* CIA (Washington, Dc: Acropolis, 1976), p. 132. لاحظ المزدوجين اللذين وضعهما كلاين حول كلمة انقلاب.

(١٦) "CIA's greatest single triumph": Kilgore oral history, FOAH.

الفصل العاشر

يرتكز هذا الفصل على أغنى توثيق متوفّر الآن حول العمل الخفي لـ «السي.آي.أيه.» وقد نشرت وزارة الخارجية، في أيار/مايو ٢٠٠٣، ملحقاً لعدد علاقات الولايات المتحدة

الخارجية The Foreign Relations of the United States، يغطي دور الولايات المتحدة في قلب الحكومة الغواتيمالية في ١٩٥٤ (متوفر على الإنترنت /http://www.state.gov/r/pa/ho (/frus/ike/guat، إلى جانب ٥,١٢٠ وثيقة من «السي.آي.أيه.» محرّرة بالترتيب الزمني حول العمل الخفي، أُخرجت إلى العلن في ذلك اليوم ذاته (متوفرة على /http://www/foia.cia.gov (.guatemala.asp). وجاء نشر هذه الوثائق نتيجة صراع استمر عشرين عاماً، وشكّل أعلى مستوى وصل إليه تأريخ «السي.آي.أيه.».

الاستشهادات في هذا الفصل، ما لم تتم الإشارة إلى عكس ذلك، مأخوذة طبق الأصل من هذه الوثائق الأساسية، ومن التأريخ الداخلي الخاص بـ «السي.آي.أيه.» للانقلاب، وقد وضعه نيكولاس غولاثر، ونُشر مُحرّراً تحت عنوان Secret History: The CIA's Classified Account of Its Operations in Guatemala, 1952-1954 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1999).

أما دور وليام باولي في الساعة الحاسمة للانقلاب، فقد كشف عنه المؤرّخ ماكس هولاند في Max Holland 'Private Sources of U.S. Foreign Policy: William Pawley and the 1954 Coup d¢tat in Guatemala,' *Journal of Cold War Studies*, Vol. 7, No. 4, 2005, pp. 46-73. كشف هولاند عن مذكّرات غير منشورة لباولي في مكتبة جورج مارشال في لكسينغتون، فرجينيا.

ضمّت مذكرات اللاعبين الساسيين كلاً من Dwight Eisenhower, *The White House Years: Mandate for Change*, 1953-1956 (Garden City, NY: Dobleday, 1963); Richard Bissel, Jr., with Jonathan E. Lewis and Frances T. Pudlo, *Reflections of a Cold Warrior: From Yalta to the Bay of Pigs* (New Haven, CT: Yale University Press, 1996); and David Atlee Phillips, *The Night Watch: 25 Years of Peculiar Service* (New York: Atheneum, 1977). أعطى فيلبس اللاعبين أسماء تغطية، إلا أن الوثائق التي رُفعت عنها السرّية، جعلت من هذا الغطاء واهياً.

بدأت عملية غواتيمالا في ظل الجنرال والتر بيديل سميث. وفي ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، أبلغ ألن دالاس مسؤولاً في وزارة الخارجية يشرف على أميركا اللاتينية، أن «السي.آي.أيه.» تنظر في أمكانية تقديم المساعدة إلى مجموعة يقودها العقيد كارلوس كاستيّو أرماس تتآمر لقلب حكومة غواتيمالا». سعى كاستيّو أرماس إلى الحصول على مساعدة من أقوى ديكتاتوريي أميركا اللاتينية ـ سوموزا غواتيمالا، وتروخيّو جمهورية الدومينيكان، وباتيستا كوبا ـ ورشح اقتراحه تدريجياً ليبلغ قادة «السي.آي.أيه.» وفي الربيع والصيف من العام ١٩٥٢، ناقش بيديل سميث ووكيل وزارة الخارجية ديفيد بروس، على نحو متكرر، خطط انقلاب تدعمها «السي.آي.أيه.»، وأعطيت العملية اسماً رمزياً هو الحظ Fortune، وأوكلت المهمة إلى جي. سي. كينغ، رئيس قسم نصف الكرة الغربي المنشأ حديثاً في «السي.آي.أيه.».

وضع كينغ خطة لشحن أسلحة بقيمة ٢٢٥ ألف دولار إلى كاستيّو أرماس وحلفائه. ووضب في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٢، ٣٨٠ مسدساً، و٢٥٠ بندقية، و٦٤ مدفعاً رشاشاً، و٤٥٠٠ قنبلة

يدوية، وكلّها وُصفت على أنها آلات زراعية، واستعد لشحنها جنوبا من نيو أورلينز. إلا أن الديكتاتور النيكاراغوي سوموزا وابنه تاشو، تحدّثا باسترسال عن المخطط. وتسّرب الخبر إلى واشنطن بأن الغطاء قد كُشف، وألغى ديفيد بروس كل شيء. إلا أن كينغ، من وراء ظهر وزارة الخارجية، وبموافقة من بيديل سميث، استولى بأمر رسمي على سفينة نقل قديمة تابعة للبحرية لشحن الأسلحة إلى نيكاراغوا وهندوراس. وفي رحلة السفينة الأولى، تجسس عليها بضع مئات من النيكاراغويين الفضوليين، وهي تسعى إلى التشطيط عند جزيرة يفترض أنها مقفرة. وفي رحلتها الثانية، تعطّلت محركاتها، واضطرت البحرية إلى إرسال مدمّرة لإنقاذ الطاقم والشحنة.

وبرغم ذلك، وصل القليل من مساعدة «السي.آي.أيه.» إلى كاستيّو أرماس، الذي حاول، في آذار/مارس ١٩٥٣، هو ومعظم أتباعه، وعددهم نحو مئتين، الاستيلاء على حامية بعيدة تابعة للجيش الغواتيمالي. إلا أنه تم سحقهم. وبينما هرب كاستيّو أرماس إلى هوندوراس، تعرّضت حركته لضربة شديدة. وفشلت عملية الحظ.

أعيد إحياء المهمة تحت اسم عملية النجاح Success، لكن بيديل سميث يلعب دوره هذه المرة، على نحو كامل كوكيل لوزير الخارجية. رفع السفراء الأميركيون في غواتيمالا، وهندوراس، ونيكاراغوا. تقاريرهم إلى «السي.آي.أيه.» عبر بيديل سميث. وتشاركوا جميعهم الشعور بأن «الشيوعية يديرها الكرملين في كل أنحاء العالم، وأن كل من يعتقد عكس ذلك لا يعرف ما الذي يتحدّث عنه»، على حد قول السفير بوريفوي. إلا أن أميركا اللاتينية لم تعن الكثير للكرملين قبل وصول فيديل كاسترو إلى السلطة. فهو لم يفعل إلا ترك الساحة للولايات المتحدة، القوة المسيطرة، من القرن التاسع عشر، في هذا النصف من الكرة الأرضية. ولو أن «السي.آي.أيه.» اخترقت الحزب الشيوعي الصغير. لكن النافذ في غواتيمالا، لأدركت أنه لا صلة للغواتيماليين بالسوفيات.

إلا أن الوكالة رأت في رئيس غواتيمالا أربنز «ألعوبة حمراء» تمشي على أنغام موسكو. فهو قد شرّع البرنامج الأكثر طموحاً ونجاحاً في كل أميركا اللاتينية، لإعادة توزيع الأراضي، آخذاً أراضي البور الواسعة من مؤسسات مثل اتحاد الزراعات المثمرة، وناقلاً ملكيتها إلى مئات الآلاف من الفلاحين. شعر اتحاد الزراعات المثمرة بانه مهدّد، وعلمت «السي.آي.أيه.» بالأمر. كانت للشركة سلطة قوية جداً في واشنطن، وأوصلت غضبها إلى أعلى مستويات الحكومة. لكن «السي.آي.أيه.» لم تكن تحارب من أجل الموز. فهي رأت في غواتيمالا رأس جسر سوفياتي إلى الغرب، وتهديداً مباشراً للولايات المتحدة. ورأت أيضاً في اتحاد الزراعات المثمرة والقائمين بأعمال اللوبي من أجله عائقاً مثيراً للحنق، وحاولت إخراج مناوئيها من الصورة، بينما كانت العملية قد بدأت تأخذ زخماً.

(١) ربما أُعطي الأمر أكثر مما يجب حول التأثير الذي مارسته في «السي.آي.أيه.» مدرسة المسيحية المتشددة التي مورست في غروتون. لكن عملية أجاكس في إيران كانت بقيادة كيرميت روزفلت، المتخرج العام ١٩٣٦، بمساعدة من ابن عمه، أرشي روزفلت، متخرج ١٩٣٤. وقاد تريسي بارنز، متخرج ١٩٣٢، تخطيط وتنفيذ عملية النجاح، مع ريتشارد بيسيل، خريج ١٩٣١. وقاد بيسيل، وبارنز، وجون بروس طليع متخرج ١٩٣٢، حملة خليج الخنازير.

وكذلك تم تحضير المواد السامة التي هدفت «السي.آي.أيه.» إلى استخدامها لقتل فيديل كاسترو، في مختبر للوكالة يديره كورنيليوس روزفلت، متخرج ١٩٣٤.

(٢) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 175-177.

(٣) Bissell, Reflection of a Cold Warrior, pp. 84-91.

(٤) مقابلة أجرتها «السي.أن.أن.» مع إ. هوارد هانت من ضمن سلسلة الحرب الباردة، ١٩٩٨، أرشيف مجلس الأمن القومي، النص متوفّر على الإنترنت على: http://www.gwu.edu/~nsarchiv/coldwar/interviews/episode-18/hunt1.html

(٥) Bissell, Reflection of a Cold Warrior, pp. 84-91.

(٦) Esterline oral history in James g. blight and Peter Kornbluh (eds.). Politics of Illusion: The Bay of Pigs Invasion Reexamined (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1998), p. 40.

الفصل الحادي عشر

(١) Congressional Record 2811-14 (1954).

(٢) Deputies meeting, February 29, 1956, CIA/CREST.

(٣) Dulles, 'Notes for Briefing of Appropriations Committee: Clandestine Services,' March 11, 1954, CIA/CREST. وكانت مثل هذه الصراحة أمام الكونغرس نادرة للغاية. ويستذكر جون وارنر، واحد من محامي ألن دالاس الداخليين في «السي.آي.أيه.»، لقاء أكثر نموذجية بكثير بين دالاس ورئيس لجنة التملّك في مجلس النواب، كلارنس كانون، من ميسوري. وكان كانون يقارب الثمانين من العمر في ذلك الوقت: «كانون مرحّباً بدالاس: وهو آه، من الجيّد رؤيتك من جديد، يا حضرة الوزير. وهو يعتقد أنه فوستر دالاس... تبادلا الروايات لساعتين. وفي النهاية ـ حسناً، يا حضرة الوزير، هل حصلت على ما يكفي من المال في موازنتك لهذه السنة؟ ـ حسناً، أعتقد أننا على ما يرام، يا حضرة الرئيس. شكرا جزيلا لك. تلك كانت جلسة الاستماع إلى الموازنة».

(٤) Roy Cohn, McCarthy (New York: New American Library, 1968), p. 49.

(٥) نص مكالمة هاتفية بين ألن وفوستر دالاس، مذكورة في: David M. Barrett, The CIA and Congress: The Untold Story from Truman to Kennedy (Laurence: University of Kansas press, 2005), p. 184.

(٦) تأريخ «السي.آي.أيه.» الذي رُفعت عنه السرّية ويجمل ضد مكارثي هو: Mark Stout, 'The Pond: Running Agents for States, War, and the CIA,' *Studies in Intelligence*, Vol. 48, No. 3, 2004, CIA/CSI. جاءت الشهادة أمام الكونغرس من وليام ج. مورغان، وهو عالم نفس متدرب في يال وأحد قدامى «الأو.أس.أس.»، ونائب رئيس التدريب في

«السي.آي.أيه.»، في ٤ آذار/مارس ١٩٥٤، في شهادة أمام لجنة مكارثي بعنوان «تهديدات مزعومة ضد الرئيس». تم رفع الأختام عن النص في ٢٠٠٣. وشهد مورغان، الذي فُصل إلى مجلس تنسيق العمليات التابع لوالتر بيديل سميث، أن رئيسه، وهو ضابط في «السي.آي.أيه.» اسمه هوارس كريغ، أوحى بأن «أفضل ما يجب القيام به، هو خرق منظمة مكارثي». ولدى الفشل في ذلك، خمّن كريغ أنه يمكن اتخاذ إجراءات أكثر قساوة:

السيناتور تشارلز إ. بوتر (جمهوري، إيلينويس): هل أعلن في الجوهر أنه تجب تصفية هذا الرجل، في إشارة إلى السيناتور مكارثي؟

الدكتور مورغان: قد يكون ذلك ضرورياً.

السيناتور بوتر: وأن هناك مجانين...

الدكتور مورغان: على استعداد للقيام بالأمر لقاء ثمن.

ما من دليل آخر معروف يؤيّد الاتهام بأن «السي.آي.أيه.» فكّرت في قتل مكارثي. وأغرق السيناتور نفسه في الشراب حتى الموت في الوقت المناسب.

(٧) التقرير السرّي لكلارك، رُفعت عنه السرّية في ٢٠٠٥، وصف «السي.آي.أيه.» بأنها «عملياً قانون قائم بذاته»، وتصرّفها بأنه «فريد من نوعه، وغريب، من أوجه عدة، عن أسلوبنا الديموقراطي بالحكم». انظر: Michael Warner and J. Kenneth McDonald, 'US Intelligence Community Reform Studies Since 1947,' 2005, CIA/CSI.

(٨) Kellis to Eisenhower, May 24, 1954, DDEL.

(٩) اجتماع الرئيس مع لجنة دوليتل، ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤، المكتبة الرئاسية لدوايت أيزنهاور. والملاحظات التي أخذت على عجل للاجتماع تظهر ارتباك حامل الأخبار السيئة.

(١٠) Special Study Group, 'Report on the covert Activities of the Central Intelligence Agency,' September 30, 1954, declassified August 20, 2001, CIA/CREST.

(١١) Director's meeting, October 24, 1954, CIA/CREST. استمرت مشكلة العمليات السرّية الخارجة عن السيطرة في أعوام دالاس. وقرر المدير أنه في وسعه أن يحدد ما إذا كان رؤساؤه يحتاجون إلى معرفة ما الذي ينويه. وشعر بعض من هم تحت إمرته بالأمر نفسه حياله وحيال كبار مساعديه. أعطى ضابط كبير في «السي.آي.أيه.»، جون ويتّن، شهادة سرّية أمام مجلس الشيوخ في ١٩٧٨، معلناً أن «هناك عدداً من العمليات في الأجهزة الخفية»، جرت في الخمسينيات وأوائل الستينيات، «لم يعرف بها أي من نائب المدير للعمليات (رئيس الجهاز الخفي)، أو كبير مساعديه». راجع: Deposition of John Witten, *Assassination Transcripts of the Church Committee*, May 16, 1978, pp. 127-128. قدّم ويتّن شهادته تحت الاسم المستعار «دون سيلسو»، وقد رفعت «السي.آي.أيه.» السرّية عن اسمه في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(١٢) في اجتماع للنواب، في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤، سأل ويسنر دالاس إذا كان في إمكانه قراءة تقرير دوليتل. رفض دالاس الطلب. وسمح لويسنر برؤية نسخة مختصرة عن توصيات التقرير، لكن ليس الانتقاد المدمّر بحد ذاته.

(١٣) مقابلات مع جون موري وإدواردز إلليس سميث، R. Harris Smith papers, Hoover Institute, Stanford university.

(١٤) NSC minutes, March 3, 1955, DDEL.

(١٥) Clandestine Services History: The Berlin tunnel Operation, 1952-1956,' CIA, August 25, 1967, declassified February 15, 2007.

(١٦) لا يزال ضباط «السي.آي.أيه.» الذين بدأوا العمل في قاعدة برلين في عهد ريتشارد هيلمس، يرون في المدينة وفي التقنيات التي تعلّموها هناك أفضل نافذة تطل على موسكو. اعتقد هيلمس ورجاله بأنه على المحطات الكبرى لـ «السي.آي.أيه.» في ألمانيا والنمسا واليونان، أن تعمل بصبر وأناة على تركيز عملاء مقيمين داخل أوروبا الشرقية. وستقوم هذه الشبكات المؤلفة من أجانب موثوقين بتجنيد جواسيس آخرين يشاطرونهم التفكير، ويقتربون أكثر فأكثر من مقاعد السلطة، فينشئ كل منها مصادر للمعلومات، تصبح، بعد تحليلها وغربلتها، استخبارات تُرفع إلى الرئيس. اعتقدوا أنها الطريقة لمعرفة العدو، وأخذوا يعتقدون، بحلول أواسط الخمسينيات، أنهم شرعوا في رؤية الصورة تخرج من العتمة.

وعثرت «السي.آي.أيه.» على جاسوسها الروسي الحقيقي الأول في حين كان العمل جارياً في نفق برلين. أقامت محطة فيينا اتصالاً مع الرائد بيوتر بوبوف، وهو رجل استخبارات عسكرية سوفياتية فعلي، وأول جاسوس روسي ذو قيمة دائمة تحصل عليه «السي.آي.أيه.» أبداً. كان يعرف بعض المعلومات حول الدبابات والصواريخ التكتيكية والعقيدة العسكرية الروسية. وكشف، على امتداد خمس سنوات، هوية نحو ٦٥٠ من رفاقه الضباط. أراد فرانك ويسنر، حتماً، تحويل بوبوف إلى قائد لشبكة سرّية من مقاتلي المقاومة. حارب الجانب التجسسي في الوكالة ذلك بقوة وتغلّب هذه المرة على ويسنر. ولبثت مرارة هذا الصراع عالقة على مدى سنين. لم يكن بوبوف جاسوساً مثالياً، فهو يشرب كسمكة، وينسى أموراً، ويركب مخاطر جسيمة. لكنه، على مدى خمس سنين، كان فريداً من نوعه. ويمكن لـ «السي.آي.أيه.» أن تدّعي، عن قناعة، أن بوبوف وفّر على الولايات المتحدة نصف مليار دولار من الأبحاث العسكرية والتطوير. وقد كلّف «السي.آي.أيه.» نحو أربعة آلاف دولار في السنة. وقام الجاسوس البريطاني النائم، الذي كشف عن نفق برلين، بفضح بوبوف أيضاً. وقد مات الرائد برصاص فرقة إعدام من «الكا.جي.بي.» في ١٩٥٩.

(١٧) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار.

(١٨) Technological Capabilities Panel, 'Report to the President,' February 14, 1955, DDEL.

(١٩) James R. Killian, *Sputnik, Scientists and Eisenhower: A Memoir of the First Assistant to the President for the Science and Technology* (Cambridge, MA: MIT Press, 1967), pp. 70-71.

(٢٠) Bissell, 'Subject: congressional Watchdog Committee on CIA,' February 9, 1959, declassified January 29, 2003, CIA/CREST.

(٢١) أفكار بيسيل حول «اليو ـ ٢» موجودة في كتابه *Reflections of a Cold Warrior: From Yalta to the Bay of Pigs* (New Haven, CT: Yale University Press, 1996), pp. 92-140. ملاحظة ريبير بـ «أننا لم نثر الأسئلة المناسبة»، موجودة في الصفحة ١٠٥. علم هيلمس بأن «اليو ـ ٢» ليست سلاحاً سحرياً. وأبلغ في إحدى المرات، اجتماعاً لضباط الجهاز الخفي، في الأيام التي بلغ فيها نجم بيسيل مجده، أن «الصحافي الجيد لا يحتاج إلى كتاب سحر أسود للحصول على معلومات مفيدة.... وما دامت هناك طائرة، فإن الصور تُلتقط منها. فـ «السي.آي.أيه.» تحتاج إلى استخدام كل ما في وسعها من وسائل جمع المعلومات.... لكن، في التحليل النهائي، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنكم فيها معرفة ما يفكّر فيه المرء هي في التحدّث إليه».

(٢٢) Wayne G. Jackson, Allen Welsh Dulles as Director of Central Intelligence, declassified 1994, vol. 3, 1973, pp. 71ff., CIA.

(٢٣) ملاحظة أليونور دالاس مسجّلة في: Ambassador William B. Macomber, Jr., oral history, FAOH. كان ماكومبر نائب وزير الخارجية للعلاقات مع الكونغرس في عهد أيزنهاور.

الفصل الثاني عشر

جرى تفصيل العلاقة بين «السي.آي.أيه.» وزعماء اليابان في الخمسينيات في المقابلات التي أجراها المؤلف مع آل أولمر، رئيس قسم الشرق الأقصى في «السي.آي.أيه.» من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٨؛ ومع كلايد ماك أفوي، ضابط «السي.آي.أيه.» المحرّك لكيشي في اواسط الخمسينيات؛ وهوراس فلدمان، رئيس سابق لمحطة «السي.آي.أيه.» في طوكيو؛ روجر هيلسمان ويو ألكسيس جونسون، وهما مسؤولان كبيران في وزارة الخارجية في عهد الرئيسين كنيدي وجونسون؛ ومع جيم ليللي ودون غريغ، رئيسي محطة سابقين في «السي.آي.أيه.» والسفيرين الأميركيين في بكين وسيول على التوالي؛ ودوغلاس ماك أرثور الثاني، السفير الأميركي في طوكيو في عهد أيزنهاور.

تم للمرة الأولى وصف هذه العلاقة في مقالة للكاتب في «النيويورك تايمز»، «السي.آي.أيه.» دعمت اليمين الياباني في الخمسينيات والستينيات»، ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤. استقت هذه المقالة أصولها من صراع دائر يومها بين «السي.آي.أيه.» ووزارة الخارجية حول نشر مجلّد «العلاقات الخارجية للولايات المتحدة» الذي يغطي اليابان في الستينيات. وفي تموز/يوليو ١٩٩٤، أي بعد ذلك بـ ١٢ عاماً، اعترفت وزارة الخارجية متأخرة بأن «الحكومة الأميركية وافقت على أربعة برامج سرّية لمحاولة التأثير في توجّه الحياة السياسية اليابانية». وصف البيان ثلاثة من البرامج الأربعة. وقال إن إدارة أيزنهاور سمحت، قبل انتخابات مجلس النواب الياباني في أيار/مايو ١٩٥٨، لـ «السي.آي.أيه.» بتزويد «بضعة سياسيين موالين لأميركا ومحافظين» بالمال. وقال إن إدارة أيزنهاور سمحت أيضاً لـ «السي.آي.أيه.» «بتشكيل برنامج خفي لمحاولة شق الجناح المعتدل عن المعارضة اليسارية، أملاً منها بظهور حزب

معارض أكثر موالاة لأميركا وأكثر مسؤولية». وبالإضافة إلى ذلك، سعى «برنامج خفي أوسع، مقسوم بما يشبه التساوي بين العمل الدعائي والعمل الاجتماعي»، إلى تشجيع الشعب الياباني على احتضان الحزب الحاكم ورفض نفوذ اليسار. ولم يتم الاعتراف بالعلاقة الوطيدة مع السياسي، الآخذ في الصعود ورئيس الوزراء المقبل، كيشي، راجع: FRUS, 1964-1968, Vol. XXIX, Part 2.

بعد سقوط اليابان، قام الاحتلال الأميركي، بقيادة الجنرال ماك أرثور، بتطهير العسكريين اليمينيين مثل كيشي وحلفائه، واعتقالهم. لكن الأمور تبدّلت بعدما أوفد وزير الخارجية، مارشال، جورج كينّان إلى اليابان في ١٩٤٨ لمحاولة إقناع ماك أرثور بتغيير وجهات نظره. كان يمكن مشاهدة مثال على سياسات ماك أرثور عند أرصفة أوساكا، حيث يتم تشحيم آلات صناعية يابانية مفككة، وتوضيبها، وشحنها بكلفة كبيرة إلى الصين كجزء من برنامج تعويضات الحرب. كان الأميركيون يدفعون لتفكيك اليابان ومساندة الصين في اللحظة التي بدأ فيها الشيوعيون يستولون عليها. وحاجج كينّان بأنه على الولايات المتحدة أن تنتقل، في أسرع ما يمكن، من إصلاح اليابان إلى إنعاشها اقتصادياً. وهذا الانقلاب في الموقف يتطلب من ماك أرثور وضع حد لعمليات التطهير. ويعني هذا أن المتهمين بأنهم مجرمو حرب، أمثال كيشي وكودادا، سيطلقون. وأدى ذلك إلى تجنيدهم في «السي.آي.أيه.»، وفي النتيجة إلى عودة زعماء أقوياء، وكارتيلات الأعمال، وقوى الأمن الداخلي، والأحزاب السياسية.

«على الولايات المتحدة أن تقوم بما في وسعها لتشجيع الزعامة المحافظة الفعلية في اليابان»، قال مجلس تنسيق العمليات في تقرير إلى البيت الأبيض مؤرّخ في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤، ورُفعت عنه السرّية بعد ذلك بخمسين سنة. وقال المجلس إنه إذا توحد المحافظون فسيمكنهم العمل معاً للسيطرة على الحياة السياسية في اليابان، و«لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد الشيوعيين، ولمحاربة الحياديين، والاتجاهات المناهضة لأميركا لدى الكثيرين من عناصر المجموعات المثقفة في اليابان»، وهو بالضبط ما فعلته «السي.آي.أيه.» منذ ١٩٥٤، وما بعدها.

(١) احتاج المحافظون اليابانيون إلى المال. واحتاج الجيش الأميركي إلى التنغستين. «وخطرت لأحدهم الفكرة: فلنضرب عصفورين بحجر واحد»، قال جون هاولي، وهو محام من نيويورك، ومن قدامى «الأو.أس.أس.»، وقد ساهم في ترتيب التبادل. هرّبت عملية كوداما ـ «السي.آي.أيه.» أطناناً من التنغستين من مخابئ الجيش الياباني إلى الولايات المتحدة، وباعتها للبنتاغون بعشرة ملايين دولار. ومن بين المهربين هناك كاي سوغاهارا، وهو ياباني أميركي جنّدته «الأو.أس.أس.» من أحد معسكرات الاعتقال في كاليفورنيا إبان الحرب العالمية الثانية. وتصف ملفاته، التي بحث فيها هوارد شونبرغر الأستاذ في جامعة ماين، الذي كان يضع كتاباً أشرف على نهايته عندما مات في ١٩٩١، العملية بالتفصيل. وجرى ضخ ما جُني من مال في الحملات الانتخابية للمحافظين في أول انتخابات تجري في ١٩٥٣ في يابان ما بعد الإحتلال. وقال هاولي: «تعلّمنا في «الأو.أس.أس.» أن ننجز المآرب، وأن عليك أن تضع المال المناسب في الأيدي المناسبة».

(٢) ‘Background on J.I.S. and Japanese Military Personalities,’ September 10, 1953,

National Archives, Record Group 263, CIA Name File, box 7, folder: Kodoma, Yoshio.

(٣) Dan Kurzman, *Kishi and Japan: The Search for the Sun* (New York: Obolensky, 1960), p. 256.

(٤) Hutchinson Oral History, FAOH.

(٥) مقابلة أجراها المؤلف مع ماك أفوي.

(٦) مقابلة أجراها المؤلف مع ماك أرثور.

(٧) سجلات علاقة كايا مع «السي.آي.أيه.» موجودة في الأرشيف الوطني، National Archives, Record Group 263, CIA Name File, box 6, folder: Kaya, Okinori.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع فلدمان.

الفصل الثالث عشر

(١) Lehman oral history interview, "Mr. Current Intelligence," Studies in Intelligence, Summer 2000, CIA/CSI.

(٢) "Directive on Covert Operations," December 28, 1955, DDEL.

(٣) "Inspector General's Survey of the Soviet Russia Division, June 1956," declassified March 23, 2004, CIA/CREST.

(٤) Ray Cline, oral history, March 21, 1983, LBJL.

(٥) اشتكى مدير الإذاعة، بو لانغ، وهو من قدامى «الأو.أس.أس.» من «تدخّل» ويسنر ومساعديه «في كل شاردة وواردة من شؤوننا. وقال عنصر «السي.آي.أيه.» كورد ماير، رئيس القسم المسؤول عن «راديو أوروبا الحرّة»، إنه شعر «بالضغط لحرف هدف الإذاعات».

(٦) NSC minutes, July 12, 1956, DDEL; NSC 5608/1, "U.S. Policy Toward the Soviet Satellites in East Europe," July 18, 1956, DDEL.

وكانت «السي.آي.أيه.»، تحت رعاية برنامج أوروبا الحرّة، قد طيّرت بالفعل ٣٠٠ ألف بالون تحتوي على ٣٠٠ مليون منشور، وملصق، وكتيّب، من ألمانيا الغربية إلى المجر، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا. وحملت البالونات رسالة ضمنية: يمكن الأميركيين عبور الستار الحديدي بما هو أكثر من الميداليات المعدنية وموجات الأثير.

(٧) Ray Cline, Secrets, Spies, and Scholars, blueprint of the essential CIA (Washington, DC: Acropolis, 1976), pp. 164-170.

(٨) NSC minutes, October 4, 1956, DDEL.

(٩) Memorandum of conference among Eisenhower, Allen Dulles, and acting secretary of state Herbert Hoover, Jr., July 27, 1956, DDEL; Eisenhower diary, October 26,

1956, Presidential Papers of Dwight David Eisenhower, document 1921; Dillon oral history, FAOH; deputies meeting notes from October, November, and December 1956, CIA/CREST.

(١٠) تم وصف حالة عمليات ويسنر في المجر في تأريخين للجهاز الخفي: The Hungarian Revolution and Planning for the Future: 23 October-4 November 1956, vol. 1, January 1958, CIA; and Hungary, volume I [deleted] and volume II: external Operations, 1946-1965, May 1972, CIA History Staff, all declassified with deletions in 2005.

(١١) Transcripts of Radio Free Europe programs, October 28, 1956, in Csasa Bekes, Malcolm Byrne, and Janos M. Rainer (eds.), The 1956 Hungarian Revolution: A History in Documents (Budapest: Central European University Press, 2002), pp. 286-289.

(١٢) Radio Message from Imre Nagy, October 28, 1956," in Bekes, Byrne, and Rainer, the 1956 Hungarian Revolution, pp. 284-285.

قلّة الذين علموا أن ويسنر امتلك أكثر من تردّد حارب به. ففي فرانكفورت، شرع التضامنيون، الفاشيون الجدد الروس العاملون لـ «السي.آي.أيه.» منذ ١٩٤٩، في إذاعات إلى المجر تقول إن جيشاً من المحاربين المنفيين متوجّه إلى الحدود، بعثوا برسائلهم باسم أندرسا زاكو، الذي كان جنرالاً في عهد حكومة الحرب الفاشية المجرية، وقاد جهازاً من حاملي أوسمة الصليب الحديدي يُدعى رابطة قدامى المحاربين المجريين. ولاحظ ريتشارد هيلمس أن «زاكو هو النموذج التام للمقاول الاستخباراتي». فقد باع بما قيمته ملايين الدولارات من الاستخبارات المفبركة، لكل جهاز عسكري واستخباري أميركي رئيسي من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٢. واستحق الجنرال التمييز النادر بأنه «مذكرة للحرق»، وهو أمر عالمي من «السي.آي.أيه.» يحظر عليه القيام بالأعمال مع الوكالة.

وفي إمعان للتفكير في قرار «السي.آي.أيه.» تقوية البث والعودة إلى توجيه إذاعات قليلة القوة للموالين المجريين ـ مستخدمين ترددات‌ها الخاصة لإذاعة دعاويهم لكفاح عنيف ضد السوفيات ـ، قال رئيس راديو «أوروبا الحرّة» جون ريتشاردسون: «سيقول مقاتلو الحرّية للشعب كل ما يريدون قوله له، وكل ما اعتقدوا به، ومن ثم يلتقط «راديو أوروبا الحرة»، ذلك ويعيد بثّه. وشكّل ذلك، على ما أعتقد، أخطر خطأ من نوعه يتم ارتكابه». Richardson oral history, FAOH.

(١٣) NSC minutes, November 1, 1956, DDEL.

(١٤) William Griffith, Radio Free Europe, "Policy Review of Voice of Free Hungary Programming" (December 5, 1956), in Bekes, Byrne, and Rainer, The 1956 Hungarian Revolution, pp. 464-484.

تشكل هذه الوثيقة اعترافاً رسمياً بواقع طالما نفته «السي.آي.أيه.»: أوحى «راديو أوروبا

الحرّة» أو أعلن لمستمعيه المجريين أن المساعدة في طريقها. وبعيد تقرير غريفيث المفصّل، والمبرّئ للذات، تم تطهير مكتب «راديو أوروبا الحرة» المجري. وتغير بعد ذلك بسنتين صوت الإذاعة. ودشّنت برنامجاً شعبياً للغاية، ومفسداً حقاً، أسر المخيّلة الشعبية: برنامج «روك ـ أند ـ رول»، يدعى «حفلة المراهقين» Teenager Party. انظر أيضاً Arch Puddington, Broadcasting Freedom: The Cold War Triumph of Radio Free Europe and Radio Liberty (Lexington: University Press of Kentucky, 2000), pp. 95-104; and George R. Urban, Radio Free Liberty and the Pursuit of Democracy: My War Within the Cold War (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), pp. 211-247.

(١٥) Peer de Silva, Sub Rosa: The CIA and the Uses of Intelligence (New York: times Books, 1978), p. 128.

(١٦) Eisenhower diary, November 7, 1956, DDEL.

(١٧) William Colby, Honorable Men: My Life in the CIA (New York: Simon and Schuster, 1978), pp. 134-135.

(١٨) John H. Richardson, My Father the Spy: A Family History of the CIA, the Cold War and the Sixties (New York: HarperCollins, 2005), p. 126.

(١٩) Director's meeting, December 14, 1956, CIA/CREST.

(٢٠) يوميات بروس موجودة في جامعة فرجينيا. وهي تُظهر أنه، عندما كان سفيراً في باريس، سمع، في حزيران/يونيو ١٩٥٠، عبر التواتر ـ في اليوم الذي تناول الغداء فيه مع ألن دالاس ـ عن «الافتراض الرهيب» بأنه قد يُطلب منه أن يصبح مديراً للاستخبارات المركزية. لكن والتر بيديل سميث تولى المنصب بدلاً منه.

(٢١) برغم أن تقرير مجلس الاستخبارات التابع للرئيس، أصبح يُعرف بـ «تقرير بروس ـ لوفيت»، فإن أسلوبه يُظهر بوضوح أن ديفيد بروس هو الذي كتبه. تشكل فريق التحقيق من بروس؛ ووزير الدفاع السابق روبرت لوفيت؛ والنائب السابق لقائد العمليات البحرية، الأميرال المتقاعد ريتشارد ل. كونوللي. وحتى زمن قريب، كان الدليل الوحيد إلى وجود التقرير، هو مجموعة من الملاحظات التي أخذها المؤرخ أرثور شليسينغر من وثيقة قيل الآن إنها اختفت من المكتبة التذكارية لجون ف. كنيدي. والنسخة المرفوعة عنها السرّية من الوثيقة ـ وهي مقتطفات طويلة من مجموعة من تقارير استخبارات عهد أيزنهاور، تم جمعها للبيت ألبيض في ظل كنيدي بعد «خليج الخنازير» ـ تظهر هنا للمرة الأولى على شاكلة كتاب، حيث تم توضيح الاختصارات، وتصحيح الأخطاء الطباعية، وملاحظة ما قامت «السي.آي.أيه.» بحذفه.

إن وضع فكرة العمليات الخفية، والتخطيط لها، أو حتى أحياناً الموافقة نفسها عليها [محذوف]، التي لها مغزى هائل لسياساتنا العسكرية والخارجية، تصبح أكثر فأكثر العمل الحصري لـ «السي.آي.أيه.»، ومضمونة على نحو كبير بتمويلات من دون إيصالات لـ «السي.آي.أيه.» (وهذه ليست إلا النتيجة الحتمية للبنية، والمنظومة، والشخصيات المولجة بالشروع في مثل هذه العمليات وإدارتها). وتحب «السي.آي.أيه.»، المنشغلة، والمتموّلة،

وصاحبة الامتياز، مسؤولية «صناعة الملوك» الملقاة على عاتقها (فللتآمر سحره، ـ فالاغتباط بالنفس، المصحوب أحياناً بالتصفيق، ينتج عن النجاح ـ، ولا يتم فرض ثمن لـ «الإخفاقات» ـ والعملية بأسرها أكثر سهولة بكثير من جمع الاستخبارات الخفية عن الاتحاد السوفياتي بواسطة الوسائل المعتادة لـ «السي. آي. أيه.»!).

وبرغم أنه يمكن حتى الآن إيجاد مبرر وحيد لهذه العمليات الحساسة للغاية والمكلفة كونها تأتي دعماً لسياسات الولايات المتحدة العسكرية والخارجية، فإنه يبدو في معظم الأحيان أن التخطيط الطويل الأمد المسؤول والتوجيه المتواصل لها، اللذين يجب أن ياتيا من كل من وزارتي الدفاع والخارجية، غير متوفّرين. وثمة دائماً، بالطبع، على ما هو معلن، الغايتان التوأمان المبتذلتان المتعلقتان بـ «إحباط السوفيات»، وإبقاء الآخرين ضمن التوجّه «المؤيد للغرب». ففي ظلهما، يمكن، تقريبا، إيجاد تبرير [محذوف] لأي حرب نفسية، أو عمليات شبه عسكرية.

فالمبادرة، والزخم المتواصل للحرب النفسية والعمليات شبه العسكرية، محصوران، في الجزء الأكبر منهما، في «السي. آي. أيه.» وما إن يتم وضع تصوّر للمشروع النهائي، حتى يمكن أن توصف الموافقة عليه. وهي توصف (في اجتماعات غير رسمية للمجموعة الداخلية لمجلس تنسيق العمليات)، بأنها، في أفضل الحالات، شكليّة.

ولدى الموافقة على المشاريع، فإنها تنتقل، في معظم الحالات، إلى إدارة «السي. آي. أيه.»، وتبقى هناك حتى إنجازها. وبما أن هذه العمليات متداخلة تداخلاً كبيراً مع (وأحيانا تفرض مسار) عملياتنا الأخرى للسياسة الخارجية، فيبدو أنه يجب أن تحصل على موافقة مسبقة، ليس من مجلس الأمن القومي نفسه وحسب (بدلاً من مجلس تنسيق العمليات)، بل أن تحصل أيضاً مراقبة مستمرة لهذا الجهاز.

وفي الواقع، وفي معظم الحالات، سيبدو أن الموافقة على أي مشروع جديد، تتضمن، وحسب، دعم اقتراح من مدير الاستخبارات المركزية، وعادة بدون ممانعة، من قبل أفراد منشغلين في أمور مهمة أخرى. وثمة طبعاً تجهيز أولي لكل مشروع بالموظفين (من ملاك «السي. آي. أيه.») وتقديم إفادة (بعد حدوث الأمر) بالنتائج إلى مجلس الأمن القومي ـ ولو أن مدير الاستخبارات المركزية يقدّم هذا التقرير شفوياً على أساس «للاطلاع فقط وليس النشر» ـ وعلى أساس متحيّز يمكن طبيعياً تفهّمه.

الحرب النفسية والعمليات شبه العسكرية، في أي وقت من الأوقات، سواء أكانت من خلال ترتيب شخصي بين وزير الخارجية ومدير الاستخبارات المركزية (يقرران في ما بينهما، في أي مناسبة من المناسبات، استخدام ما يريان من أفضل «الركائز» المتوفرة)، أم يباشر بها مدير الاستخبارات المركزية بقرار شخصي منه، في شكل متكرّر وفي تعاط مباشر ومستمر بين ممثلي «السي. آي. أيه.» ورؤساء الدول الأجنبية [محذوف]. وليس مثل هذا التعاطي، في الواقع وفي غالب الأحيان، إلا استمراراً لعلاقات أقيمت في وقت كانت فيه الشخصيات الأجنبية المعنية تشكّل «المعارضة». (من الصعب، إلى حد ما، فهم السبب الذي يدفع بمن هو أقل من ممثل رئيسي للولايات المتحدة [أي السفير] في أي بلد، إلى التعاطي مباشرة مع رئيس هذا البلد في مسائل تتعلق بالعلاقات الرسمية بين البلدين). وإحدى النتائج الواضحة

لهذا، التي لا يمكن تداركها، هي تقسيم موارد السياسة الخارجية الأميركية واستمالة الأجنبي ـ وهو في الغالب «المعارضة» السابقة التي أصبحت الآن في السلطة (والذي يعرف مع من هو يتعاطى) ـ إلى لعب الوكالة الأميركية ضد الأخرى، أو إلى استخدام تلك التي تناسب مقصده الراهن [محذوف].

ومن النتائج الفرعية لهذا، استبعاد مسؤولين رسميين أميركيين عن معرفة ما يجب أن يعرفوه للقيام بمتطلبات عملهم بالشكل المناسب (أفاد أناس في نطاق الاستخبارات هذه، بوجود قلق كبير في وزارة الخارجية في شأن انعكاسات حرب «السي.آي.أيه.» النفسية ونشاطاتها شبه العسكرية على علاقاتنا الخارجية. وتشعر جماعة وزارة الخارجية، بأن المساهمة الكبرى التي قد يمكن هذا المجلس أن يقدّمها، هي في لفت انتباه الرئيس إلى التأثيرات الكبيرة، التي تكاد تكون من جانب واحد، لحرب «السي.آي.أيه.» النفسية ونشاطاتها شبه العسكرية في الصيغة الواقعية لسياساتنا الخارجية وعلاقاتنا مع «أصدقائنا»).

إن دعم «السي.آي.أيه.» وتلاعبها بوسائل الأخبار المحلية، والمجموعات العمالية، والشخصيات السياسية والأحزاب وغير ذلك من النشاطات، يمكن أن تكون لها، في أي وقت، انعكاساتها ذات المغزى الأكبر على مسؤوليات السفير المحلّي، وهو يجهلها كلّياً في بعض الأحيان، أو يوافق عليها بإبهام... وغالباً ما يحصل اختلاف في الرأي في ما يتعلق بموقف الولايات المتحدة من شخصيات محلّية أو تنظيمات، وبخاصة ما بين «السي.آي.أيه.» ووزارة الخارجية... (وأحياناً، فإن رابط الأخوّة بين وزير الخارجية ومدير الاستخبارات المركزية قد «يحدد، اعتباطياً، موقف الولايات المتحدة»).

«السي.آي.أيه.» منغمسة في برامج دعائية [خمسة أسطر محذوفة، وهي ربما تتعلق بتمويل الوكالة لدزينة من المجلات، والصحف، ودُور النشر، ومجلس الحرية الثقافية]، يصعب تحديدها على أنها جزء من المسؤوليات التي ألقاها على عاتقها الكونغرس ومجلس الأمن القومي.

يتوقع الجيش منها أن تكون مسؤولة عن قيادة حرب غير تقليدية (وثمة اختلاف في الرأي هنا حول المدى الذي تبلغه هذه المسؤولية)؛ فليس أكيدا تماماً من سيتولى مسؤولية حرب نفسية أخرى، وعمليات شبه عسكرية في زمن الحرب... أو كيف (أو متى) سيتم توزيع المسؤوليات عنها.

إن الحرب النفسية والعمليات شبه العسكرية (تنمو في الغالب من جراء قيام شبان لامعين، ومتفوقين، بالتدخل المتزايد في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وعليهم القيام بأمر ما طوال الوقت لتبرير سبب وجودهم)، يتم شنها اليوم على أساس عالميّ من قبل جحافل من ممثلي «السي.آي.أيه.» [محذوف]. والكثيرون منهم، من خلال طبيعة وضعهم الخاص جداً [محذوف] غير ناضجين سياسياً. (وبسبب «تعاملاتهم» مع أطباع متحوّلة ومتبدّلة، فإن أموراً غريبة مؤهلة لأن تحصل، وهي تحصل، من خلال تطبيق «المواضيع» التي يقترحها عليهم المقر العام، أو التي يطوّرونها على الساحة).

ولحسن الحظ، في بعض الحالات، ولسوء الحظ في غيرها، فإن نتائج الكثير من هذه

العمليات، قصيرة الأمد نسبيّاً [سبعة أسطر محذوفة]. ولو أن هذه العمليات انفضحت، فلن يمكن، ربما، «نفيها على نحو قابل للتصديق» ـ وسيبدو بالتأكيد ساذجاً للغاية أن يظن أي أحد أن يد أميركا في هذه العمليات ليست معروفة من كل من البلد المحلّي ومسؤولي الحزب الشيوعي وحسب، بل أيضاً من كثيرين آخرين (بمن فيهم الصحافة) ـ، وهي تشكل إخلالاً بالبند المحدد لمجلس الأمن القومي [أوامر بأن يبقى الدور الأميركي في الأعمال الخفية، غير باد للعيان].

أليس على أحد، في منصب سلطوي ما في حكومتنا، وعلى أساس دائم، أن يُحصي الكلفة المباشرة للخيبات (الأردن، سوريا، مصر، وغيرها)، ويحسب انعكاساتها على موقعنا الدولي، ويُبقي في الذهن الحكمة الطويلة الأمد من عمليات استوجبت التخلي ضمناً عن «القاعدة الذهبية» الدولية، والتي، لو أنها ناجحة بالدرجة التي يتم الزعم بها، مسؤولة بدرجة كبرى عن إثارة القلاقل وزيادة الشكوك فينا، الموجودة أصلاً لدى كثير من بلدان العالم اليوم؟ وماذا عن التأثيرات في تحالفاتنا الراهنة؟ وأين سنصبح غداً؟

نحن متأكدون من أن مساندي قرار ١٩٤٨ الذي دفع هذه الحكومة إلى حرب نفسية فعلية وإلى برنامج شبه عسكري، قد لا يكون أمكنهم رؤية تشعبات العمليات التي نتجت عن ذلك. وما من أحد، ما عدا أولئك في «السي.آي.أيه.» المعنيين مباشرة بعمليتهم، يوماً بيوم، يملك أي معرفة مفصّلة بما يجري. ومع وجود الوضع العالمي في الحالة التي هي عليه اليوم، فمن الظاهر أن الوقت حان الآن للخوض في إعادة تقويم وتصحيح واقعيين لذلك البرنامج، مع ربما بعض «فك الاشتباك» لتورطنا، وتطبيق أكثر عقلانية لنشاطاتنا، مما هو ظاهر الآن.

(٢٢) Ann Whitman memo, October 19, 1954, DDEL.

الفصل الرابع عشر

(١) NSC minutes, June 18, 1959, DDEL.

(٢) Archie Roosevelt, For Lust of Knowing: Memoirs of an Intelligence Officer (Boston: Little, Brown, 1988), pp. 444-448.

(٣) 'Inspector General's Survey of the CIA Training Program,' June 1960, declassified May 1, 2002, CIA/CREST; Matthew Baird, CIA Director of Training, 'Subject: Foreign Language Development Program,' November 8, 1956, declassified August 1, 2001, CIA/CREST.

(٤) Goodpaster memorandum of conference with the president, September 7, 1957, DDEL.

آمال أيزنهاور بعمل عسكري لحماية الإسلام من «الإلحاد المناضل» واجتماعاته مع راونتري لتنظيم المساعدة العسكرية الأميركية السرّية للسعودية والأردن والعراق ولبنان، سجّلها

سكريتيره المعتمد، الجنرال أندرو ج. غودباستر، في مذكرات مؤرخة في ٢٣ و٢٨ آب/أغسطس ١٩٥٧، المكتبة الرئاسية لدوايت أيزنهاور.

(٥) Symmes oral history, FAOH.

(٦) Frank G. Wisner, memorandum for the record, 'Subject: Resume of OCB Luncheon Meeting,' June 12, 1957, CIA/CREST. تقول المذكّرة إن «ويسنر ألحّ على الحاجة إلى مساعدة شاملة للأردن»، بالإضافة إلى الدعم من «السي.آي.أيه.» «وتؤيد الوكالة بقوة جعل السعودية والعراق يقدمان كل ما يمكنهما».

(٧) Symmer oral history, FAOH.

(٨) Dulles in NSC minutes, March 3, 1955.

(٩) أفضل رواية عن عمل «السي.آي.أيه.» في المنطقة هي Douglas Little, 'Mission impossible: The CIA and the Cult of Covert Action in the Middle East,' Diplomatic History, vol. 28, No. 5, November 2004.

دراسة ليتل تشكل عملاً ماهراً يستند إلى وثائق أولية. مذكرات كوبلاند قوية بالنسبة إلى المناخ السائد، لكنها غير موثوقة في الحديث عن التفاصيل ما لم يتم تأكيدها في صفة مستقلة من باحثين أمثال ليتل.

(١٠) اكتشف ماثيو جونز الوثيقة البريطانية التي تصف المؤامرة المشتركة بين «السي.آي.أيه.» والاستخبارات السرّية البريطانية، وفصّلها في مصنّفه: Matthew Jones 'The Preferred Plan: The Anglo-American Working Group Report on Covert Action in Syria, 1957,' Intelligence and National Security, September 2004.

(١١) Curtis F. Jones oral history, FAOH.

قال جونس، «أخذنا نحاول التغلّب على ما هو أكثر من فصل روكي ستون. فنحن، على سبيل المثال، موّلنا عملية شراء أسلحة قام بها أرمن دفنوها في سوريا»، إلى أن نبشت الاستخبارات السورية مخابئ الأسلحة وفككت الكتيبة السرّية.

(١٢) Charles Yost, History and Memory: A Statesman's Perceptions of the Twentieth Century (New York: Norton, 1980), pp. 236-237.

(١٣) Deputies meeting, May 14, 1958, CIA/CREST.

(١٤) Gordon oral history, FAOH.

(١٥) NSC minutes, May 13, 1958, DDEL.

(١٦) CIA briefing to NSC, January 15, 1959, CIA/CREST.

(١٧) Deputies meeting, May 14, 1959, CIA/CREST.

(١٨) اقترح كريتشفيلد في ١٩٦٠ «المحرمة المسممة». وأيده على هذا الفعل هيملس، وكذلك فعل بيسيل. ووافق دالاس. وجميعهم اعتقدوا أنهم يلبون رغبات رئيس الولايات المتحدة.

(١٩) Sa'adi quoted in Said Aburish, A Brutal Friendship: The West and the Arab Elite (New York: St. Martins, 2001).

كان أبو الريش بعثياً ملتزماً إلى أن اختلف مع صدّام، وروى وحشية نظامه. أعطى مقابلة مفيدة إلى فرونتلاين نُشرت على موقع الانترنت من ضمن سلسلة وثائقية في محطة PBS (http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/saddam/interviews/aburish.htlm)

قال إن «تورّط الولايات المتحدة في الانقلاب على قاسم في العراق في ١٩٦٣، كان حقيقياً. فثمة دليل على أن عملاء «السي.آي.أيه.» كانوا على اتصال بضباط في الجيش متورطين في الانقلاب. وثمة دليل على أن مركز قيادة الكترونياً أُنشئ في الكويت لإرشاد القوات التي تقاتل قاسم. ويوجد دليل أيضاً على أنهم زودوا المتآمرين بلوائح لأناس تجب تصفيتهم على الفور من أجل ضمان النجاح. كانت العلاقة بين الأميركيين وحزب البعث في ذلك الوقت وثيقة جداً بالتأكيد. واستمر ذلك لبعض الوقت بعد الانقلاب، وحصل تبادل للمعلومات بين الطرفين. وهذه، على سبيل المثال، المرة الأولى التي تحصل فيها الولايات المتحدة على نماذج معينة من مقاتلات «الميغ» وبعض الدبابات المصنوعة في الاتحاد السوفياتي. تلك كانت الرشوة. هذا ما كان لدى البعث لتقديمه إلى الولايات المتحدة في مقابل المساعدة على القضاء على قاسم». وقال جيمس كريتشفيلد، الذي نظّم العملية بوصفه رئيسا للجهاز الخفي في الشرق الأدني، لـ «الأسوشيتد برس» قبل وقت قصير على وفاته في نيسان/أبريل ٢٠٠٣: «يجب أن تدركوا سياق ذلك الوقت وحجم التهديد الذي كنا نواجهه. هذا ما أقوله لأناس يقولون، أنتم يا جماعة «السي.آي.أيه.» خلقتم صدّام حسين».

الفصل الخامس عشر

(١) NSC minutes, September 9, 1953, DDEL.

(٢) 'Meeting with the Vice President, Friday, 8 January, 1954,' CIA/DDRS.

(٣) Bissel testimony, President's Commission on CIA Activities (Rockefeller Commission), April 21, 1975, Top Secret, declassified 1995, GRFL.

(٤) NSC 5518, declassified 2003, DDEL.

(٥) Bissel oral history, DDEL.

(٦) مقابلة أجراها المؤلف مع أولمر.

(٧) CIA report summaries, 'NSC Briefing: Indonesia,' February 27 and 28, March 5 and March 14, and April 3 and 10, 1957; CIA chronology, 'Indonesian Operation,' March 15, 1958, declassified January 9, 2002. All CIA/CREST.

(٨) 'NSC Briefing: Indonesia,' April 17, 1957; CIA chronology, 'Indonesian Operation,' March 15, 1958, declassified January 9, 2002. All CIA/CREST.

(٩) Director's meeting, July 19, 1957, CIA/CREST.

(١٠) F.M. Dearborn to White House, 'Some Notes on Far East Trip,' November 1957, declassified August 10, 2003, DDEL.

أفاد ديربورن شخصياً عن رحلته في لقاء وجاهي مع أيزنهاور في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر، وذلك بحسب يوميات الرئيس. CIA, 'Special Report on Indonesia,' September 13, 1957, declassified September 9, 2003, DDEL. 'Indonesian Operation,' March 5, 1958, CIA/CREST.

(١١) مقابلة أجراها المؤلف مع أولمر وسيشيل. في صيف ١٩٥٧، نادى أولمر على ضباط الجهاز الخفي لترصّد سوكارنو في خلال نزهته السنوية على متن طائرة مستأجرة من الخطوط الجوية الأميركية «بانام» إلى أكثر مواخير آسيا حصرية. جاءت ثمار هذه المهمة محدودة بعيّنة من خروج سوكارنو لإجراء التحاليل الطبية عليها، وقد حصل عليها رئيس محطة «السي.آي.أيه.» في هونغ كونغ، بيتر سيشيل، بمعاونة من طاقم وطني في الـ «بانام» يتلقون مرتباً من «السي.آي.أيه.» ففي غياب المعرفة تصبح كل الأدلة ذات صلة.

(١٢) NSC minutes, August 1, 1957, CIA/DDEL.

(١٣) Deputies meeting, August 2, 1957, CIA/CREST.

(١٤) Cumming Committee, 'Special Report on Indonesia,' September 13, 1957, declassified July 9, 2003, DDEL.

وافق السفير أليسون، في ذلك الوقت، على استدعاء للحضور إلى القصر الرئاسي لحديث غير رسمي. أراد سوكارنو أن يأتي أيزنهاور إلى إندونيسيا، ويرى البلاد بنفسه، وأن يكون أول رئيس دولة على الإطلاق يزور بيت الضيافة الرائع الذي يبنيه على جزيرة بالي. وعندما جاء الرفض البارد من واشنطن بعد أسبوعين من ذلك، قام أليسون بتسليمه باضطراب: «شاهدت، بالحرف الواحد، سوكارنو وقد فغر فاه، وهو يقرأ رسالة الرئيس أيزنهاور. لم يمكنه تصديق ذلك». وجهات نظر أليسون والمقتطفات الواردة في هذا الفصل مأخوذة من: John M. Allison, Ambassador from the Prairies, or Allison Wonderland (Boston: Houghton Mifflin, 1973), pp. 307-339.

(١٥) لغة الأمر مطبوعة في: CIAs chronology, 'Indonesia Operation,' March 15, 1958, CIA/CREST.

(١٦) تظهر سجلات «السي.آي.أيه.» سفرتين إلى المنطقة في خريف ١٩٥٧ وربيع ١٩٥٨. سعى ويسنر إلى التأكد من أن وزارة الخارجية لا تعلم إلا اليسير الممكن في شأن خططه للعمل الخفي. تقول محاضر اجتماع المدير في ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٧، إن لديه اجتماعات مقررة مع مسؤولي وزارة الخارجية في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر «في ما يتعلّق بالوضع الإندونيسي. أعرب السيّد ويسنر عن الأمل أن تكون هذه المناقشة محدودة إلى حد كبير، بالمسائل السياسية أكثر من السماح لها بالدخول في المسائل العملانية».

(١٧) 'Indonesian Operation,' March 15, 1958, CIA/CREST.

العملية شبه العسكرية مفصّلة في Kenneth Conboy and James Morrison, Feet to the

Fire: CIA Covert Operations in Indonesia, 1957-1958 (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 1999), pp. 50-98.

توجد خلفية برامج الحرب السياسية في: Audrey R. Kahin and George M. T. Kahin, Subversion as Foreign Policy: The Secret Eisenhower and Dulles Debacle in Indonesia (Seattle: University of Washington Press, 1995).

(١٨) Office of U.S. Army attaché, Jakarta, to State, May 25, 1958, cited in: Kahin and Kahin, Subversion as Foreign Policy, p. 178.

طلبت «السي.آي.أيه.» من البنتاغون المساعدة على العثور على ضباط في الجيش الاندونيسي يتكلّمون اللغة الإنكليزية يريدون السيطرة على السلطة بمساعدة من «السي.آي.أيه.» Memo to Allen W. Dulles from Major General Robert A. Schow, the armys intelligence chief, February 5, 1958.

وجب أن تجعل الردود الأميركيين يتوقفون بعض الشيء. فالجنرال ناسوتيون، الضابط العسكري المحترف الذي قاد الجيش الإندونيسي وبقي موالياً للحكومة، أكّد للملحق العسكري الأميركي في جاكرتا، الرائد جورج بنسون، أنه قام بالفعل بتطهير كل من يشتبه في أنه شيوعي من أي موقع أو تأثير. وأعلن المقدّم د. إي. باندجايتان، وهو ملحق عسكري إندونيسي مقره في بون ـ لاحظ نظراؤه الأميركيون أنه مسيحي ـ «إذا عرف الأميركيون في شأن أي شيوعي فليقولوا لنا، وسنقوم بطرده... سنفعل أي شيء ما عدا إطلاق النار على سوكارنو. أو مهاجمة الشيوعيين بدون برهان على أعمال غير مشروعة من جانبهم. فلا يمكننا في بلادنا اليوم توقيف الشيوعيين لمجرّد أنهم شيوعيون؛ سنقوم بإنهائهم». وهنا وجه المقدّم طعنة في الهواء كما لو أنه يحمل سكيناً، «إذا خرجوا على الخط». Memorandum of conversation with Indonesian army officers, date unclear but probably early 1958, declassified April 4, 2003, CIA/CREST.

(١٩) JFD telephone call transcripts, DDEL.

(٢٠) NSC minutes, April 25 , 1958, DDEL.

(٢١) NSC minutes, April 25, 1958, DDEL.

(٢٢) NSC minutes, April 14, 1958, DDEL. John Foster Dulles, memorandum of conversation with the president, April 15, 1958, DDEL.

(٢٣) مقابلة أجراها المؤلف مع بوب.

(٢٤) NSC minutes, May 1, 1958, DDEL.

(٢٥) NSC minutes, May 4, 1958, DDEL.

(٢٦) 'Indonesian Operation,' March 15, 1958, CIA/CREST.

ادعى ألن دالاس، على نحو لا يُعقل، أن الفقر هو السبب في فشل المهمة. احتاجت «السي.آي.أيه.» إلى ٥٠ مليون دولار إضافية في موازنة عملها الخفي، وقال لأيزنهاور: «كنا

نعاني الفقر إلى حد كبير لمواجهة أوضاع مثل تلك التي واجهناها في أندونيسيا».

(٢٧) مقابلة أجراها المؤلف مع بوب. انتظر سوكارنو عامين قبل أن يحيل بوب على المحاكمة. احتجز طيّار «السي.آي.أيه.» في منتجع صيفي عند سفوح جبل ميرابي، حيث أخذه حرّاسه إلى الصيد ووفروا له كل الفرص للهرب. لكنه قدّر أن في ذلك مؤامرة، وسيلة لتسلّم الحكومة السجين الأميركي الأشقر الطويل القامة، الأزرق العينين إلى الحزب الشيوعي الإندونيسي. بعد أربع سنوات وشهرين في الأسر، أطلق سراحه، في تموز/يوليو ١٩٦٢، بناءً على طلب شخصي من المدعي العام للولايات المتحدة روبرت ف. كنيدي. عاد ليطير لصالح «السي.آي.أيه.» في فيتنام لما بقي من الستينيات. وفي شباط/فبراير ٢٠٠٥، منحت حكومة فرنسا آل بوب وسام الشرف للدور الذي لعبه في إعادة تموين القوات الفرنسية المحاصرة في ديان بيان فو في ١٩٥٤.

(٢٨) Director's meeting, May 19, 1958, CIA/CREST.

(٢٩) NSC Briefing: Indonesia," May 21, 1958 declassified January 15, 2004, CIA/CREST.

(٣٠) Bissell oral history, DDEL.

(٣١) 'NSC Briefing: Indonesia,' May 21, 1958, CIA/CREST.

(٣٢) إلا أنه يمكن البرهان على أن ويسنر لم يكن على ما يرام منذ أواخر ١٩٥٦، وكذلك كان الجهاز الخفي. لاحظ بول نيتز، وهو صديق مقرّب عمل عن كثب مع ويسنر بوصفه خليفة لكينان في وزارة الخارجية، أن «حصيلة مشقّات حادثة المجر وحادثة السويس، كانت أكثر مما لويسنر طاقة على احتماله، وأصيب بانهيار عصبي إثر ذلك. أعتقد أن الصعوبات [في الجهاز الخفي] بدأت بعد إصابة فرانك بالانهيار العصبي... بدأت بعدما لم يعد فرانك مؤهلاً لقيادته». Nitze oral history, HSTL. عانى ويسنر «وقتاً عصيباً جداً» في خلال علاجه، بحسب ما كتب دالاس إلى نائبه القديم في الإدارة، بيل جاكسون، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٨. «آمل ألاّ يستغرق الأمر الآن أسابيع كثيرة قبل أن يخرج من المصحّ» راجع: Allen Dulles papers, declassified February 13, 2001, CIA.

استُخدم العلاج بالصدمة الكهربائية، في ذلك الوقت، «لأنواع مختلفة من الاضطرابات، وتكراراً في جرعات كبيرة ولفترات طويلة... أثبت الكثير من هذه الجهود عدم فاعليته، بل إن بعضها كان مؤذياً». انظر: 'Report of the National Institute of Mental Health Consensus Development Conference on Electroconvulsive Therapy,' Journal of the American Medical Association, Vol. 254, 1985, pp. 2103-2108.

(٣٣) Director's meeting, June 23, 1958, CIA/CREST.

(٣٤) Smith cited in Douglas Garthoff, 'Analyzing Soviet Politics and Foreign Policy,' in Geral K. Haines and Robert E. Leggett (eds.), Watching the Bear: Essays on CIA's Analysis of the Soviet Union CIA/CSI, 2003.

(٣٥) 'Subject: Third Report of the President by the President's Board of Consultants on foreign Intelligence Activities' and memorandum of conference with the president [by the board], December 16, 1958, CIA/DDEL.

في هذا الاجتماع مع الرئيس، «دعم» وزير الدفاع السابق روبرت لوفيت «وجهات نظر المجلس بأن المنظمة الراهنة ضعيفة من خلال استشهاده بمثال إندونيسيا». بحسب ما جاء في المحضر السرّي جداً للاجتماع. «أشار السيد لوفيت، من خلال موجز عام، إلى أنه لدينا طريقتان أساسيتان للحصول على المعلومات، من خلال الاجهزة. ومن خلال أفراد من العملاء السرّيين. وهو يشعر بأننا، من خلال هذا الحقل الأخير، سنحصل على أفضل معلوماتنا... ونحن لسنا جيدين في هذا المجال، وعلينا أن نصبح أفضل».

(٣٦) Dulles, minutes of senior staff meeting, January 12, 1959, CIA/CREST.

الفصل السادس عشر

(١) حمل بيسيل طموحات كبرى لـ «السي.آي.أيه.»؛ لكن العراقيل في وجهها كانت أكبر. أبلغ المسؤولين عنه من الضباط أن انتدابه يقضي بالدمج بين «مخططات الحرب الساخنة وقدرات الحرب الباردة» للولايات المتحدة، لجعل «السي.آي.أيه.» سيفاً أكثر منها درعاً في المعركة ضد السوفيات. أنشأ قسماً جديداً هو مشاريع التطوير بما يسمح له بالقيام بأعمال خفية بمال من جيبه الخلفي. ورأى في «السي.آي.أيه.» أداة للقوة الأميركية ليست بأقل شوكة ـ وهي أكثر فائدة بكثير ـ من الترسانة النووية أو من الكتيبة المجوقلة. ١٠١ 'Mr. Bissell's Remarks, War Planners conference,' March 16, 1959, declassified January 7, 2002, CIA/CREST.

علم بيسيل بأن الوكالة تفتقر في شكل خطير إلى المهارات الضرورية لتحقيق أهدافه. وقال أحد كبار مساعديه، جيم فلانيري، إن «تألقه الخالص» «لم يستطع التغلّب على واقع أن الناس هم في أساس الجهاز الخفي. Flannery quoted in: Peter Wyden, Bay of Pigs: The Untold Story (New York: Simon and Schuster, 1979), p. 320.

أمر بيسيل على الفور رؤساء القسم «بتحديد الموظفين ممن هم دون المستوى والتخلّص منهم». أراد تنقية «لا تني ودائمة» للرعيّة. أوصى مرؤوسيه بأن «انظروا إلى ما وراء مسألة عدم الفاعلية وارتكاب الخطأ. حددوا أولئك الموظفين الذين لا يمارسون، أو لا يستطيعون أن يمارسوا، أو لا يريدون أن يمارسوا حصتهم من العمل»، وتخلصوا منهم». راجع: Richard Bissell, 'Subject: Program for Greater Efficiency in CIA,' February 12, 2002, CIA/CREST.

أظهر استطلاع داخلي مفصّل للجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» أُجري في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٩، مصدر قلق بيسيل: فقد حصل تراجع في تجنيد الضباط الشبان الموهوبين، وتضخم في صفوف العاديين والمتوسطي العمر. وسرعان ما ستصبح «نسبة مئوية كبيرة جداً» من ضباط «السي.آي.أيه.» في الخمسين من العمر على الأقل. إنهم جيل الحرب العالمية الثانية، وسيبدأون في غضون ثلاث سنوات قصيرة في التقاعد بالجملة بعد عشرين عاماً من الخدمة العسكرية والاستخباراتية. وأظهرت الدراسة الداخلية لـ «السي.آي.أيه.» «وجود شعور قوي بالإحباط منتشر بين أفضل ضباط الجهاز الخفي تنبع جذوره من عجز الوكالة الظاهر عن

حل مشكلة مجموع الموظفين». ولا تزال هذه المشكلة بدون حل حتى اليوم 'Subject: A. Manpower Control Problem for the Clandestine Services Career Program,' .November 4, 1959, declassified August 1, 2001, CIA/CREST

(٢) ما لم تتم ملاحظة العكس، فإن الاستشهادات والاقتباسات حول «السي.آي.أيه.» وكوبا في هذا الفصل مأخوذة من التأريخ السرّي لـ «السي.آي.أيه.» حول التخطيط لعملية خليج الخنازير: Jack Pfeiffer, Evolution of CIA's Anti-Castro Policies, 1951-January 1961, Vol. 3 of Official History of the Bay of Pigs Operation, CIA, NARA (hereinafter cited as Pfeiffer).

عُيّن بفايفر، في ١٩٧٦، كبير مؤرخي «السي.آي.أيه.»؛ تقاعد في ١٩٨٤، وأمضى بعد ذلك عقداً من الزمن يقاضي «السي.آي.أيه.» بدون جدوى لنشر عمله. وانتهى تأريخه المؤلف من ٣٠٠ صفحة إلى الأرشيف الوطني في ٢٠٠٥، حيث نبشه البروفيسور ديفيد باريت من جامعة فيلانوفا.

(٣) نويل كما استشهد به بفايفر. ويستذكر السفير وليام أتوود، الذي عمل، صيف ١٩٦٣، بوصفه القناة الخلفية الشخصية للرئيس كنيدي مع كاسترو: «كنت في كوبا، في ١٩٥٩، والتقيت أناساً من «السي.آي.أيه.» كانت مصادرهم الأساسية أعضاء في هافانا كاونتري كلوب... لم يخرجوا بين الناس». راجع: Attwood oral history, FAOH.

(٤) كوكس كما نقل عنه بفايفر.

(٥) قدّم رينولدز هذه الملاحظة للكاتب ولمراسلين عدة آخرين يحضرون مؤتمراً حول خليج الخنازير في هافانا في ٢٠٠١.

(٦) مذكور في بفايفر.

(٧) Dwight D. Eisenhower, Waging Peace: The White House Years: 1956-1961 (Garden City, NY: Double-day, 1965), p. 524.

(٨) تمكن إعادة الفضل في وضع المذكرة إلى جي. سي. كينغ، وكان ينهي يومها سنته التاسعة كرئيس لقسم نصف الكرة الغربي. والتصحيح الذي قام به دالاس مذكور في بفايفر.

(٩) ما لم يتم ذكر العكس، فإن الاقتباسات من جاك إسترلين في هذا الكتاب مأخوذة من مقابلة مصوّرة على شريط فيديو مع بيتر كورنبلو من أرشيف الأمن القومي، أو من ملاحظات إسترلين في نصوص لمحاضرات عن خليج الخنازير، أجريت في ماسغروف بلانتيشن في جورجيا في ١٩٩٦. مؤتمر ماسغروف موجود في: James G. Blight and Peter Kornbluh (eds.), Politics of Illusion: The Bay of Pigs Invasion Reexamined (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1998).

(١٠) هيلمس والكوبي الأحمق موجودان في بفايفر. روى ديك دراين، رئيس العمليات في القوة المنتدبة لكوبا، أن «هيلمس أبعد نفسه كلّياً عن هذا الأمر. وأعني في شكل مطلق!». «وفي المرّة الثالثة التي قال فيها، تعرف أن ليست لدي أي علاقة بهذا المشروع، قلت، حسناً، يا سيّد هيلمس، لا أريد أن أكون سخيفاً في شأن هذا، إلا أنني أوّد بحق المسيح أن تتدخل

لأنه يمكننا استخدام خبرتك. قال، «ها ها ها... نعم... حسناً، شكراً جزيلاً لك، وكانت تلك نهاية الأمر. تفادى الأمر كالطاعون».

(١١) Raymond L. Gathoff, 'Estimating Soviet Military Intentions and Capabilities,' in Gerald K. Haines and Robert E. Leggett (eds.), Watching the Bear: Essays on CIA's Analysis of the Soviet Union, CIA/CSI, 2003.

(١٢) Goodpaster memo, October 30, 1959, DDEL.

(١٣) أعطى أيك هذه الملاحظة للصحافي ديفيد كراسلوف، وهي مذكورة في مصادر عدة، بما فيها David Wise, The Politics of Lying: Government Deception, Secrecy, and Power (New York: Random House, 1973).

(١٤) Michael Warner, 'The CIA's Internal Probe of the Bay of Pigs Affair,' Studies in Intelligence, Winter 1998-1999, CIA/CSI.

(١٥) ثمة دليل كاسح على أن أيزنهاور أراد موت لومومبا. «أراد الرئيس القضاء على رجل يعتبره (شأن الكثيرين منّا، وأنا من بينهم) وغداً كاملاً ورجلاً خطيراً جداً»، قال بيسيل لاحقاً في مقابلة تأريخ شفوي لمكتبة أيزنهاور الرئاسية. «ليس لدي أدنى شك في أنه أراد أن يتم التخلص من لومومبا، وأراد ذلك على نحو ملحّ وفوري، بوصفه أمراً طارئاً على درجة كبيرة جداً من الأهمية. وبرقية ألن تعكس هذا الشعور بالإلحاح والأولوية». شهادة وزير الدفاع روبرت جونسون حول أمر أيزنهاور بقتل لومومبا في اجتماع مجلس الأمن القومي في ١٨ آب/أغسطس ١٩٦٠، وشهادة ديفلين المنقولة عن تلقيه الأوامر من «الرئيس»، قُدّمتا إلى المحققين في لجنة تشيرتش. أعطى ديفلن شهادته في ٢٥ آب/أغسطس؛ وشهد جونسون في ١٨ حزيران/يونيو و١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٧٥. حول مقتل لومومبا، انظر: «نتائج لجنة التحقيق» 'Conclusions of the Enquiry committee,'، وهي كناية عن تقرير برلماني من ألف صفحة نشرته حكومة بلجيكا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. انظر أيضاً: NSC minutes, September 12 and 19, 1960, DDEL. منح ستيف وايسمان، وهو مدير رسمي سابق للجنة فرعية في مجلس النواب حول أفريقيا، المؤلف مقابلة تلقي الضوء على بنية العملية الخفية في الكونغو؛ أنظر أيضا Weissman's 'Opening the Secret Files on Lumumba's Murder,' Washington Post, July 21, 2002. أجرى خروشتشيف، بعد عملية القتل، محادثة مع السفير الأميركي في موسكو، الذي أفاد في برقية إلى واشنطن للاطلاع فقط: «بالنسبة إلى الكونغو. قال إن ما حصل هناك، وبالتحديد قتل لومومبا، قد ساعد الشيوعية. فلومومبا لم يكن شيوعياً وهو يشك في أنه كان ليصبح واحداً». راجع: FRUS, 1961-1963, Vol. X, document 51. بيد أن موسكو أنشأت جامعة باتريس لومومبا للصداقة للطلاب الوافدين من أفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، واستخدمتها «الكي.جي.بي.» أرضاً خصبة للتجنيد. إلا أن الاستخبارات الروسية لن تعود أبداً إلى الكونغو في عهد موبوتو الذي نظّم شخصياً إعداماً صوريّاً لآخر ضابط استخبارات سوفياتي طرده من العاصمة.

(١٦) الشهادة الشخصية عن الجعالات المدفوعة لحلفاء «السي.آي.أيه.» في الكونغو مصدرها أوين

روبرتس الذي أصبح لاحقاً سفيراً للولايات المتحدة في عهد الرئيس رونالد ريغان. كان روبرتس، في ١٩٦٠، خبيراً رفيع الشأن في مكتب الاستخبارات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية في واشنطن. خدم لعامين في العاصمة الكونغولية، وكان أول مسؤول أميركي في الخارجية على معرفة شخصية بجميع الزعماء الجدد. كان يعمل، في ١٩٦٠، على دراسة بحجم كتاب عن الدولة التي تموّلها «السي.آي.أيه.»، وعمل كضابط مواكبة عندما زار رئيس الوزراء لومومبا، والرئيس جوزف كاسافوبو، و١٨ من وزرائهما، واشنطن والأمم المتحدة لدى انعقاد الجمعية العمومية في أيلول/سبتمبر ١٩٦٠. قال السفير روبرتس للوفد الكونغولي في الأمم المتحدة «لقد دفعت «السي.آي.أيه.» جعالات، أعرف ذلك». راجع: Roberts oral history, FAOH.

(١٧) مقابلة لبيسيل في Piero gleijeses, 'Ships in the Night: The CIA, the White House, and the Bay of Pigs,' Jouranl of Latin America Studies, Vol. 27, 1995, pp. 1-42.

(١٨) Lehman oral history, 'Mr. Current Intelligence,' Studies in Intelligence, Summer 2000, CIA.CSI.

(١٩) 'Report from the Chairman of the President's Board of Intelligence consultants,' January 5, 1961, DDEL; 'Report of the Joint Study Group,' December 15, 1960, DDEL; Lyman Kirkpatrick, memorandum for director of central intelligence, 'Subject: Summary of Survey Report of FI Staff, DDP,' undated, CIA/CREST; NSC minutes, January 5 and 12, 1961, DDEL.

(٢٠) Gordon Gray, memorandum of meeting with President Eisenhower, January 18, 1961, DDEL.

(٢١) Memorandum of discussion at the 473rd meeting of the NSC, January 5, 1961, DDEL; memorandum from the Director of Central Intelligence Dulles, January 9, 1961 (Dulles claiming that he had 'corrected deficiencies' in the clandestine service and that everything there was 'now satisfactory'£ memorandum of discussion at the 474th meeting of the NSC, January 12, 1961, DDEL (Dulles saying that American intelligence was "better than it ever had been, that creating a director of national intelligence would be 'illegal,' and that such a director would be 'a body floating in thin air).

محاضر مجلس الأمن القومي التي رفع عنها طابع السرّية، نُشرت في ٢٠٠٢، ليست ملاحظات مأخوذة بحرفيتها، أي كل كلمة بكلمتها، إلا أنها تحافظ على غضب الرئيس وإحباطه. وهي كلها مجموعة في: FRUS, 1961-1963, Vol. XXV, released in March 7, 2002.

الفصل السابع عشر

(١) 'Transfer: January 19, 1961, Meeting of the President and Senator Kennedy,' declassified January 9, 1997, DDEL.

(٢) Dearborn Oral History, FAOH. تشكّل هذه مقابلة صريحة على نحو لافت.

(٣) ملاحظات روبرت كنيدي منقولة في تقرير لجنة تشيرتش.

(٤) ما لم تتم الإشارة إلى عكس ذلك، فإن إعادة تركيب عملية غزو خليج الخنازير في هذا الفصل، مأخوذة مباشرة من The Foreign Relations of the United States, 1961-1963, Vol. 10, Cuba, 1961-1962. وقد رُفعت عنها السرّية في ١٩٩٧، ومن الملحقات على شريط مصغّر microfiche منشورة في ١٩٩٨، المجلد ١١؛ Cuban Missile Crisis and Aftermath, 1962-1963, declassified in 1996, and its 1998 supplements; and Jack Pfeiffer, Evolution of CIA's Anti-Castro Policies, 1951-January 1961, Vol. 3 of Official History of the Bay of Pigs Operation, CIA, NARA. الاقتباسات من جاك إسترلين، مأخوذة من مدونات مؤتمر موسغروف، James G. Blight and Peter Kornbluh (eds.), Politics of Illusion: The Bay of Pigs Invasion Reexamined (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1998).

(٥) رئيس المحطة الذي حاول شراء الحكومة، كان آرت جاكوبس، صديق ويسنر من كلية الحقوق والمسؤول عن الدخول والخروج في أول أيام «السي.آي.أيه.»، وهو رجل شديد الصغر، عُرف في تلك الأيام باسم ساحر أوزارد. «كان لدينا شخص استغلالي في سنغافورة، وزير في الحكومة على جدول معاشات «السي.آي.أيه.»» بحسب ما استذكر السفير سام هارت، وكان يومها مسؤولاً سياسياً في السفارة الأميركية في ماليزيا. «وربطوه في إحدى الليالي بجهاز لكشف الكذب في مقر آمن... اقتحمت «الأم ـ ٥» السنغافورية المقر الآمن، وشاهد رجالها وزير الحكومة مربوطاً إلى جهاز كشف الكذب». Hart oral history, FAOH. وجاء في رسالة راسك التي أعقبت ذلك: «عزيزي السيّد رئيس الوزراء: أنا شديد الكرب... آسف أشد الأسف... حادث منحوس... نشاطات غير لائقة... خطير جداً... مراجعة نشاطات هؤلاء المسؤولين لاتخاذ إجراءات تأديبية ممكنة».

(٦) Cabell and Bissell, memorandum for General Maxwell D. Taylor, 'Subject: Cuban Operation,' May 9, 1961, JFKL, DDRS.

(٧) FRUS, Vol .XI, April 25, 1961 (Taylor Board).

(٨) Robert F. Kennedy to the president, April 19, 1961, JFKL, cited in Aleksandr Fursenko and Timothy Naftali, One Hell of a Gamble (New York: Norton, 1997), p. 97.

(٩) المساعدان هما ثيودور سورنسن وأرثور شليسينغر، وروايتاهما هما على التوالي، Kennedy (New York: Harper and Row, 1965), and Robert Kennedy and His times (Boston: Houghton Mifflin, 1978).

(١٠) قضى الرئيس كنيدي على بنية البيت الأبيض التي تحكم استخدام السلطة السرّية. فأيزنهاور استعمل السلطة الرئاسية عبر منظومة صارمة من الموظفين، أشبه بالجيش. وألقى بها كنيدي مثل جلد كرة في مباراة. فبعد أيام على تسلّم منصبه، ألغى مجلس مستشاري الرئيس لشؤون الاستخبارات ومجلس تنسيق العمليات. فهما بالتأكيد مؤسستان منقوصتان، لكنهما أفضل من لاشيء، وهو ما أقامه جون كنيدي مكانهما. وكان اجتماع مجلس الأمن القومي لما بعد خليج الخنازير، هو الأول في نقاشات حول طاولة مستديرة، تزْجريه إدارة كنيدي عن العمل الخفي.

(١١) Dulles quoted in 'Paramilitary Study Group Meeting' (Taylor Board), May 11, 1961, declassified March 2000 and available online at http://www.gwu.edu/nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB29/06-01.htm.

(١٢) Smith quoted in 'Paramilitary Study Group Meeting' (Taylor Board), May 10, 1961, NARA.

(١٣) Bissell, Reflections of a Cold Warrior: From Yalta to the Bay of Pigs (New Haven, CT: Yale University Press, 1996), p. 204.

بلغ بيسيل حدَّ الاعتقاد أنه غادر «السي.آي.أيه.» مخلّفاً «إرثاً لم يودع التاريخ بعد، وهو ربما لن يودع أبداً». وفي شهادة سرّية، أُبيحت في ١٩٩٦، أعطى بيسيل تقويمه لجهاز «السي.آي.أيه.» الخفي: «اعتقد أن الوكالة قد امتلكت في الستينيات، على ما أعتقد، سجلاً يُرثى له بالأحرى، ومردّ ذلك جزئياً إلى إخفاقاتي وتقصيراتي... وفي مراجعة للنطاق الكامل لأنواع العمليات الخفية ـ وقد تضمّنت عمليات دعاية، وعمليات شبه عسكرية، وعمليات تحرك سياسي، والنطاق كله ـ، فإن الجهاز الخفي ليس المكان الذي يمكن المرء أن يتوقع فيه البحث عن كفاءة احترافية»، وقال بيسيل إن المهارات الأساسية في الشؤون العسكرية، والتحليل السياسي، والتحليل الاقتصادي، لم يتم تطويرها في «السي.آي.أيه.» فالوكالة لم تصبح ما هو أكثر من بيروقراطية سرّية. Bissell Testimony, President's Commission on CIA Activities (Rockefeller Commission), April 21, 1975, GRFL.

(١٤) Richards Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 195.

(١٥) James Hanrahan, 'An Interview with Former CIA Executive Director Lawrence K. Red White,' Studies in Intelligence, Vol. 43, No. 1, Winter 1999-2000, CIA/CSI.

(١٦) في جولته العالمية للقاء الجنود، في خلوة رؤساء محطة الشرق الأقصى في منتج باغيو الجبلي في الفيليبين، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١، اختار ماكون نائباً جديداً للمدير ليعمل بوصفه رئيس محللي «السي.آي.أيه.»: راي كلاين، وكان يومها رئيس محطة في تايبي.

(١٧) ثمة رؤساء أقسام، من أمثال جي. سي. كينغ، ممن عملوا لعقد في ظل دالاس، لم يفكّروا إلا في إدارة العمليات وفق ما يرونه مناسباً. ولم يعرف ماكون أبداً أن تعيينه قد أطلق تمرداً داخلياً في الوكالة. وأبلغ ماك جورج بوندي الرئيس، «أنا، من بين آخرين، استهنتُ بقوة المعارضة في المستويين الثاني والثالث في «السي.آي.أيه.». فبعض الرجال الجيدين جداً

مكسورو الخاطر». واعتبر روبرت أموري، نائب مدير الاستخبارات، تعيين ماكون «مناورة سياسية رخيصة». وخشي مناوئون آخرون داخل «السي.آي.أيه.» أن ماكون قد يضحّي بالوكالة لمصلحة أُسود البيت الأبيض الشابة. كذلك، فإن آخرين في الجهاز الخفي، امتعضوا من وصول شخص من الخارج إلى السلطة.

(١٨) McCone memo, November 22, 1961, FRUS, Vo. X.

(١٩) McCone memorandum for the file, January 13, 1964: "

شعرت، وقلتُ بنفسي للرئيس الراحل كنيدي، وللرئيس جونسون، وللوزير راسك، وغيرهم، إنه على صورة مدير الاستخبارات المركزية، و«السي.آي.أيه.» أن تتغيّر. فمسؤوليتها الأساسية والأولى، بحسب القانون، هي في جمع الاستخبارات، وتحليلها، وتقويمها، وتقديرها، والإفادة بمثل هذه الاستخبارات لصالح صانعي السياسة. وقد تم إغراق هذه الوظيفة، وتمت باطراد الإشارة إلى «السي.آي.أيه.» بوصفها جهاز مكائد وتجسس. تتضمن نشاطاتها (على نحو شبه حصري) عمليات مصمَّمة لقلب الحكومات، واغتيال رؤساء الدول، وإقحام نفسها في الشؤون الداخلية للدول الاجنبية... وأول محاولة تغيير هذه الصورة». راجع: FRUS, 1964-1968, Vol. XXXIII, document 184.

كان ماكون «رجلاً يعتقد أنه صاحب قبعتين: واحدة تدير الوكالة، والأخرى كانت قبعة صانعي السياسة لدى الرئيس». انظر: Richard Helms Oral History, September 16, 1981, LBJL.
قال ماكون إنه جادل باطراد بأن «السي.آي.أيه.» «أُخضعت عبر السنين للنشاطات العملانية»، و«يجب تغيير ذلك». راجع: McCone memo, 'Discussion with Attorney General Robert Kennedy,' December 27, 1961, CIA/CREST.

وقد وضع مسودة وحصل على تفاهم مكتوب، بأنه سيكون «ضابط الاستخبارات الرئيسي لدى الحكومة». انظر: JFK to McCone, January 16, 1962, CIA/CREST.

(٢٠) David S. Robarge, 'Directors of Central Intelligence, 1946-2005,' Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 3, 2005, CIA/CSI.

(٢١) مقابلة أجراها المؤلف مع سميث.

(٢٢) Murphy, CNN Interactive chat transcript, 1998, available online at http://www.cnn.com/SPECIALS/cold.war/guides/debate/chats/murphy/.

(٢٣) Murphy to Helms, 'Subject: Heinz Felfe Damage Assessment,' February 7, 1963, declassified June 2006, CIA.

(٢٤) Helms to McCone, January 19, 1962, FRUS, Vol. X.

(٢٥) McCone memo, 'Discussion with Attorney General Robert Kennedy, 2:45 P.M., 27 December 1961,' FRUS, Vol. X.

(٢٦) Lansdale to McCone, December 7, 1961, FRUS, Vol. X.

(٢٧) Esterline, Musgrove transcript, Politics of Illusion, p. 113.

(٢٨) Helms, A Look over My Shoulder, p. 205.

(٢٩) Elder statement to Church Committee investigators, August 13, 1975, declassified May 4, 1994.

(٣٠) تمكن الإجابة، على الأقل بما يرضيني، عن سؤال عما إذا كان كنيدي سمح لـ «السي.آي.أيه.» بقتل كاسترو. فقد شهد بيسيل، في ١٩٧٥، أمام اللجنة الرئاسية برئاسة نائب الرئيس نيلسون روكفللر، على مسألة السماح الرئاسي باغتيالات تقوم بها «السي.آي.أيه.».

سأل روكفللر بيسل:

س: هل يجب على أي اغتيال أو محاولة اغتيال، الحصول على موافقة من أعلى المقامات؟

ج: هذا صحيح.

س: مِنَ الرئيس؟

ج: هذا صحيح.

(٣١) قال هوستون للمؤرخ توماس باورز: «أُصيب كنيدي بالغضب. غضب غضباً شديداً... ولم يغضب في شأن مؤامرة الاغتيال، بل في شأن تورطنا مع المافيا». انظر: Powers, 'Inside the Department of Dirty Tricks,' Atlantic Monthly, August 1979.

(٣٢) مقابلة أجراها المؤلف مع هيلمس. يبدو لي أن هذا يسوّي مسألة السماح الذي أعطاه جون كنيدي، إذا أخذ مع شهادة بيسيل والثقل الكاسح للأدلة الظرفية. والحجة المقابلة هي أن جون كنيدي لم يكن ليفعل مثل هذا الأمر، وهذه الحجة أصبحت ضعيفة جداً.

(٣٣) من المفيد إعادة نشر النص الكامل لملاحظة هيلمس، وقد عادت «السي.آي.أيه.» الآن إلى القتل الاستهدافي. «الندع جانباً، للحظة، فكرة اللاهوت والأخلاقية، لجميع الرجال الصالحين»، قال في ١٩٧٨. «بترك ذلك جانباً، يصطدم المرء بواقع أنه إذا استخدمت شخصاً ما لقتل شخص آخر، فأنت تصبح فوراً عرضة للابتزاز، ويشمل هذا الأفراد كما الحكومات. وباختصار، فإن هذه الأمور ستظهر لا محالة. وهذا هو السبب الأكثر حملاً على عدم التورط. ثم إن ثمة اعتباراً مرادفاً. إذا تورّطت في عملية القضاء على زعماء أجانب، وهذا أمر تفكّر فيه الحكومات على نحو أكثر تكراراً مما يودّ المرء الاعتراف به، فثمة دوما سؤال عمن سيكون التالي. فإذا قتلت زعماء أناس آخرين، فلماذا لا يقومون هم بقتل زعمائك؟». طرح هيلمس هذا السؤال بقوة في ذهنه بعد ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣. انظر: Helms interview with David Frost, 1978, full transcript reprinted in Studies in Intelligence, September 1993, CIA/CSI.

(٣٤) McCone Oral History, August 19, 1970, LBJL. روى ماكون لقاءه الأول مع الرئيس كنيدي عندما عرض عليه وظيفته كمدير للاستخبارات المركزية: «[قال جون كنيدي]: ثمة الآن أربعة أشخاص فقط، ما عدا ألن دالاس، يعرفون أننا نُجري هذه المحادثة: بوب ماكنمارا ونائبه روزويل جيلباتريك، ودين راسك، و[رئيس لجنة الطاقة الذرية] السيناتور كلينتون

أندرسون. وقال، لا أريد أن يعرف أحد آخر بذلك، لأنه إذا علم أولاد الزنى الليبراليون الذين يعملون في الطبقة السفلى من هذا المبنى، بأنني أتحدث معك عن هذا، فسيحطّمونك قبل أن أحصل على الموافقة على تعيينك». راجع: McCone Oral History, April 21, 1988, Institute of International Studies, University of California at Berkeley.

(٣٥) Lyman B. Kirkpatrick, Jr., 'Report of the Task Force on Personnel Management in CIA,' July 26, 1962, CIA/CREST; Kirkpatrick handwritten notes from an August 6, 1962, Executive Committee meeting on the report, CIA/CREST.

(٣٦) Harvey to Landsale to Special Group (Augmented), July 5, 1962, FRUS. Vol. X.

(٣٧) Landsale to Special Group (Augmented), July 5, 1962, FRUS, Vol. X.

(٣٨) Landsdale to Harvey, August 6, 1962, FRUS, Vol. X.

الفصل الثامن عشر

(١) الاقتباسات المباشرة في هذا الفصل، ما لم تتم الإشارة إلى العكس، مأخوذة من شرائط تسجيل البيت الأبيض في عهد كنيدي التي تم استنساخها خطّياً حديثاً. وتخلق هذه الشرائط، ومذكّرات ماكون التي أبيحت أخيراً، وأكثر من ألف صفحة من سجلات «السي.آي.أيه.» الداخلية، فسيفساء غنية للحياة اليومية في الوكالة في صيف العام ١٩٦٢ وخريفه. وقد جُمعت شرائط البيت الأبيض من ٣٠ تموز/يوليو وحتى ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٢، في Timothy Naftali, Philip Zelikow, and Ernest May (eds.), *The Presidential Recordings: John F. Kennedy*, 3 vols. (New York: Norton, 2001), produced by the Miller Center of Public Affairs. The cited McCone memos are from three sources: FRUS, CREST, and DDRS. حصل المؤلف على سجلات «السي.آي.أيه.» الداخلية من CREST.

(٢) بعد عامين على هذه المحادثة في المكتب البيضاوي، أطيح بغولارت، وسارت البرازيل في طريق الدولة البوليسية. وكان بوبي كنيدي قد ذهب إلى البرازيل ليطلع على الوضع بنفسه: «لم أحبب غولارت»، تساءل. وأدى الانقلاب الذي قادته «السي.آي.أيه.» في ١٩٦٤ إلى سلسلة من الديكتاتوريات العسكرية التي حكمت البرازيل في الجزء الأكبر من عشرين سنة.

(٣) رسم المدير في ذهنه الخاص تمييزاً بين انقلاب قد تنتج عنه إراقة للدماء، ومحاولة اغتيال تستهدف رئيس دولة. أحدهما أخلاقي، والآخر لا؛ فالانقلاب الذي يُقتل فيه رئيس قد يكون مؤسفاً، لكن ليس مستهجناً.

(٤) تم تقريباً إتلاف كل سجل عن هذا اللقاء. إلا أن مؤرخي وزارة الخارجية أعادوا، بصعوبة كبرى، جمع أجزاء من ملفات مدير الاستخبارات المركزية: «شدد ماكون في الاجتماع على أن للاتحاد السوفياتي ركيزة في كوبا من الأهمية بمكان، بحيث إن السوفيات لن يدعوا كوبا تسقط. ولمنع مثل هذا السقوط، توقع ماكون أن يقوم الاتحاد السوفياتي بتقديم المساعدة الاقتصادية، والتقنية، والعسكرية التقليدية، إضافة إلى صواريخ باليستية متوسطة المدى،

وسوف يبررونها بالإشارة إلى قواعد الصواريخ الأميركية في إيطاليا وتركيا... وطُرحت في الاجتماع مسألة اغتيال القادة السياسيين الكوبيين. وبحسب مذكرة في ١٤ آب/أغسطس من هارفي إلى ريتشارد هيلمس، فإن مكنمارا هو الذي اثار المسألة... وبعث ماكون، في ١٤ نيسان/أبريل ١٩٦٧، بمذكّرة من مقرّ تقاعده إلى هيلمس الذي أصبح مديراً للاستخبارات المركزية، وكتب فيها عن النقاش الذي جرى في اجتماع ١٠ آب/أغسطس: أذكر ان اقتراحاً قُدّم بتصفية كبار الناس في نظام كاسترو، بمن فيهم كاسترو نفسه. اعترضت فوراً على هذا الاقتراح، معلناً أن الموضوع خارج كلّياً عن الحدود بما يتعلّق بحكومة الولايات المتحدة و«السي.آي.أيه.» وأنه لا تجب مناقشة الفكرة. كما أنها لا تجب أن تظهر في أي أوراق، بحيث لا يمكن الولايات المتحدة، لا أخلاقياً ولا معنوياً، التفكير في مثل هذه الأعمال». (FRUS, Vol. X, editorial note, document 371. أثار ماكون أوّلاً مسألة الأسلحة النووية في كوبا في اجتماع المجموعة الخاصة في ١٢ آذار/مارس ١٩٦٢: «أيمكننا الآن تطوير سياسة تحرّك في حال تمت إقامة قواعد صواريخ على أرض كوبا؟» .FRUS, Vol. X document 316. إلا أنه، في ٨ آب/أغسطس ١٩٦٢، قبل يومين فقط على إطلاقه تحذيره الأول من أنه سيتم إرسال صواريخ سوفياتية إلى كوبا، عقد ماكون اجتماعاً لاثنين وعشرين سيناتوراً جمهورياً، وأبلغهم أنه «متأكّد من عدم وجود صواريخ أو قواعد صواريخ في كوبا». راجع: 'Luncheon Meeting Attended by the DCI of Senate Republican Policy Committee,' August 8, 1962, declassified May 12, 2005, CIA/CREST.

(٥) Walter Elder, 'John McCone, the Sixth Director of Central Intelligence,' draft copy, CIA History Staff, 1987, partially declassified and released in 1998.

(٦) Ford quoted in John L. Helgerson, 'CIA Briefings of Presidential Candidates,' May 1996, CIA/CSI.

(٧) Ford cited by the author, The New York Times, July 20, 1997.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع جاغان.

(٩) 'Interview Between President Kennedy and the Editor of Izvestia,' November 25, 1961, FRUS, Vol. V.

(١٠) Schlesinger memo, July 19, 1962, FRUS, Vol. XII.

(١١) Memo to Bundy, August 8, 1962.

(١٢) طرح المؤلف بعضاً من عواقبها في مقالته في «نيويورك تايمز». A Kennedy-C.I.A. Plot Returns to Haunt Clinton,' *The New York Times*, October 30, 1994. نظرت المقالة في الصراع على إباحة سجلات الحكومة حول العملية الخفية. وفي ٢٠٠٥، نشرت وزارة الخارجية «الملاحظة التحريرية» التالية في " :FRUS, 1964-1968, Vol. XXXII واصلت الحكومة الأميركية، إبان إدارة جونسون، سياسة العمل مع الحكومة البريطانية لتوفير التشجيع والدعم لزعماء موالين للغرب ولمنظمات سياسية في غويانا البريطانية، بينما تنتقل هذه المستعمرة ذات الحكم الذاتي إلى الاستقلال التام. وافقت المجموعة الخاصة/لجنة ٣٠٣، ما

بين ١٩٦٢ و١٩٦٨، على ما يقارب ٠٨.٢ مليون دولار لبرامج العمل الخفي في ذلك البلد. وتضمنت سياسة الولايات المتحدة معارضة خفية لتشيدي جاغان، وكان يومها الزعيم الموالي للماركسية للشعب الهندي الشرقي لغويانا البريطانية. استُخدم جزء من التمويل الذي سمحت به المجموعة الخاصة/لجنة ٣٠٣ لبرامج العمل الخفي، ما بين تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٢ وحزيران/يونيو ١٩٦٣، لتحسين الاحتمالات الانتخابية لزعماء الاحزاب المعارضة لحكومة حزب الشعب التقدمي التابع لجاغان. وحثّت حكومة الولايات المتحدة بنجاح البريطانيين على فرض التمثيل النسبي في غويانا البريطانية (وهو ما حابى القوى المناوئة لجاغان)، وعلى تأخير الاستقلال إلى أن تُمكن تقوية القوى المناوئة لجاغان».

تابعت الملاحظة: «إن الولايات المتحدة زَوَّدت بواسطة «السي.آي.أيه.» حزبي فوربس بورنهام وبيتر داغويار، المعارضين لجاغان، بالمال وبالخبرة الانتخابية، بينما هما يتحضّران للمنافسة في انتخابات كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤ البرلمانية. وهدف التمويل الخفي والخبرة التقنية من الحكومة الأميركية إلى لعب دور حاسم في تسجيل ناخبين من المرجح أن يصوِّتوا ضد جاغان. تسجّل مؤيدو بورنهام وداغويار بأعداد كبيرة، ما ساعد في انتخاب ائتلاف مناوئ لجاغان. ومن جديد، استخدمت الأموال التي وافقت عليها المجموعة الخاصة/لجنة ٣٠٣، ما بين تموز/يوليو ١٩٦٣ ونيسان/أبريل ١٩٦٤، بالارتباط مع الإضراب العام في غويانا البريطانية. وعندما اشتبك مؤيدو جاغان ومؤيدو بورنهام تلك السنة في نزاع عمالي في مزارع السكّر، انضمّت الولايات المتحدة إلى بريطانيا في حث بورنهام على عدم الرد بعنف، بل بالالتزام بنهاية للنزاع يتم التوسط عليها. وفي الوقت ذاته، وفّرت الولايات المتحدة التدريب لبعض القوى المناوئة لجاغان للدفاع عن أنفسهم إذا تعرّضوا لهجوم ولرفع معنوياتهم.

«على إثر الإضراب العام، استخدمت الأموال التي وافقت عليها لجنة ٣٠٣ لدعم انتخاب ائتلاف مؤتمر الشعب الوطني التابع لبرونهام والقوى المتحدة لداغويار. بعد انتخاب دورنهام رئيساً للحكومة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، واصلت حكومة الولايات المتحدة، وأيضاً بواسطة «السي.آي.أيه.»، تقديم تمويلات كبرى لكل من بورنهام وداغويار وحزبيهما. وفي ١٩٦٧ و١٩٦٨ استخدمت التمويلات التي وافقت عليها لجنة ٣٠٣ لمساعدة ائتلاف بورنهام وداغويار على المنافسة على الانتخابات العامة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨ وكسبها. وعندما علمت حكومة الولايات المتحدة بأن بورنهام سيستخدم التزوير في الانتخابات العامة في ١٩٦٨ للبقاء في السلطة، نصحته بعدم خوض هذا النوع من المسار، لكنها لم تحاول وقفه».

(١٣) Memorandum of conversation, June 30, 1963, Birch Grove, England, 'Subject: British Guiana.'

من بين المشاركين الرئيس كنيدي، دين راسك، السفير ديفيد بروس، ماك جورج بوندي، رئيس الوزراء هارولد ماكميلان، اللورد هوم، والسير ديفيد أورمسبي-غور. راجع: FRUS, Vol. XII.

(١٤) Naftali, Zelikow, and May, The Presidential Recordings.

في وقت لاحق من ذلك اليوم. قرأ الرئيس بصوت مرتفع من ورقة المبدأ، وهي عمل كلاسيكي من اللغو الجيوستراتيجي: نسعى، من أجل مصلحة الأمن القومي الأميركي، إلى استبدال الزعامة المحلية بزعماء من سكان البلاد الأصليين الأسهل انقياداً والمتعاطفين مع الحاجة إلى القضاء على مناطق توالد الانشقاق... نسعى إلى ضمان أن المجتمع المحلّي يتطوّر في اتجاهات تتقبل بيئة عالمية ملائمة لتعاون دولي مثمر ولأسلوبنا في الحياة. «هذا هراء كثير»، قال كنيدي بازدراء. «من أجل أسلوبنا في الحياة».

(١٥) حاجج روبرت كنيدي في هذا الاجتماع من أجل حادثة «تذكّر بماين» ـ هجوم مدبّر على غوانتانامو ـ واستمر في تأييد ذلك إبان أزمة الصواريخ. راجع: McCone memo, August 21, 1962, in 'CIA Documents on the Cuban Missile Crisis,' CIA/CSI, 1992; McCone memo on McCone-JFK meeting, August 23, 1962, FRUS, Vol. X, document 385.

(١٦) Naftali, Zelikow, and May, The Presidential Recordings.

مضى مدير «الأف.بي.آي.» ج. إدغار هوفر للتحقيق مع بالدوين والتنصت على هاتفه المنزلي. تخرّج بالدوين من الأكاديمية البحرية واستقال من الخدمة في ١٩٢٧، وعمل، منذ ١٩٣٧، بوصفه محللاً عسكرياً في «النيويورك تايمز»، وفاز بجائزة «بوليتزر» على برقياته من غوادلكانال وغرب المحيط الهادئ في ١٩٤٣، وكان صوتاً يُركن إليه مؤيداً للعسكر في صفحات الجريدة. وكانت مصادره في البنتاغون من الباب الأول. وبعد زيارة «الأف.بي.آي.» له، أبلغ رجل «التايمز» المهزوز البدن زميلاً له في مكالمة سجلها مكتب التحقيقات الفدرالي ليل ٣٠ تموز/يوليو: «أعتقد أن الجواب الحقيقي عن هذا هو بوبي كنيدي والرئيس نفسه، لكن بصفة خاصة بوبي كنيدي الذي يضغط على هوفر». وأصبحت، في اليوم التالي، نسخة مكتوبة عن هذه المحادثة على مكتب المدعي العام. اجتمع مجلس الاستشارة الخارجية التابع للرئيس مع جون كنيدي بعد الظهر التالي، وأبلغه أن عمل بالدوين يشكل خطراً كبيراً على الولايات المتحدة. وقال جيمس كيليان، واضع تقرير «الهجوم المفاجئ» في ١٩٥٤ في عهد أيزنهاور، «إننا نقترح تشجيع مدير الاستخبارات المركزية على إنشاء مجموعة من الخبراء متوفرين طوال الوقت لمتابعة التسريبات الأمنية... فريق متوفّر له ويعمل بإدارته». وحثّ كلارك كليفورد، وهو عضو في المجلس وأحد واضعي مسودة شرعة «السي.آي.أيه.» في قانون مجلس الأمن القومي للعام ١٩٤٧، الرئيس كنيدي على أن ينشئ في «السي.آي.أيه.» «مجموعة تعمل بدوام كامل، وتشتغل على ذلك كل الوقت». وقال كليفورد «يمكن اكتشاف من هم مصادر هانسون بالدوين. فمن يقابل عندما يذهب إلى البنتاغون؟ ما من أحد يعرف الآن. «الأف.بي.آي.» لا تعلم، إلا أنني اعتقد أن ذلك سيكون بالغ الأهمية». ولكان أصدقاء كليفورد الكثيرون في مؤسسة واشنطن استهولوا هذا الاحتيال في الخفاء. وألقت جلسات استماع في الكونغرس في ١٩٧٥ مسؤولية التنصت فقط على المدعي العام كنيدي وعلى «الأف.بي. آي.»، ليس الرئيس كنيدي و«السي. آي. أيه.».

(١٧) McCone to Kennedy, August 17, 1962, declassified August 20, 2003, CIA/CREST.

(١٨) McCone, 'Memorandum for: The President/The White House,' February 28, 1963, JFKL.

(١٩) 'CIA documents on the Cuban Missile Crisis,' CIA/CSI, 1992.

(٢٠) 'IDEALIST Operations over Cuba,' September 10, 1962, CIA/CREST.

(٢١) أسباب «الفجوة في الصور» ودوافعها، موجودة في Max Holland, 'The Photo Gap That Delayed Discovery of Missiles in Cuba,' Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 4, 2005, CIA/CSI.

(٢٢) Halpern in James G. Blight and Peter Kornbluh (eds.) Politics of Illusion: The Bay of Pigs Invasion ReexaminedI (Boulder, CO: Lynne Rienner,1998).

(٢٣) 'CIA Documents on the Cuban Missiles Crisis,' CIA/CSI, 1992.

(٢٤) 'Minutes of the Meeting of the Special Group (Augmented) on Operation Mongoose, 4 October 1962,' declassified February 19, 2004, CIA/CREST; McCone memo, October 4, 1962, FRUS, Vol. X.

(٢٥) The report survives in a 2001 declassified excerpt in an editorial note in FRUS, 1961-1963, Vol. XXV, document 107, and a 1992 version in: 'CIA Documents on the Cuban Missile Crisis,' CIA/CSI, 1992, pp. 361-371.

(٢٦) McGeorge Bundy, Danger and Survival (New York: Random House, 1988), pp. 395-396.

(٢٧) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 208.

(٢٨) Robert Kennedy, Thirteen Days (New York: Norton, 1969), p. 27.

الفصل التاسع عشر

(١) حتى ٢٠٠٢، كانت مسألة ما هو موجود فعلاً على أشرطة تسجيل البيت الأبيض مدار خلاف ساخن. وتمت بعد أربعة عقود تسوية ما حصل فعلا، ومن قال ماذا لمن، وذلك من خلال عملية نسخ مكتوبة يُركَن إليها، وهي نتيجة أكثر من عشرين عاماً من العمل الشاق لمؤرّخ مكتبة جون ف. كنيدي الرئاسية، شيلدون ستيرن.

يدعي الرأي المتعارف عليه، أن ذروة أزمة الصواريخ الكوبية حوّلت جون كنيدي، إلى قائد لامع من قائد غرّ، وأخاه روبرت (بوبي الشاب) من صقر إلى حمامة، وغيّرت البيت الأبيض من حلقة دراسية لهارفرد إلى هيكل للحكمة. وهذا في جزء منه أسطورة مبنية على سجل تاريخي غير دقيق ومحرّف. فالرئيس كنيدي زوّد صحافيين مقرّبين بقصص شاعرية، لكنها، في واضح الأمر، غير صحيحة. واحتوى كتاب روبرت كيندي عن الأزمة، الذي نُشر بعد وفاته، اختراعات وحوارات ملفَّقة، ردّدها، لولا ذلك، مؤرخون موثوقون والدائرة المخلصة من مساعدي كنيدي.

نحن نعلم الآن بأن الأخوين كنيدي حرّفا السجل التاريخي، وأخفيا كيفية حلّ الأزمة. ويمكننا الآن رؤية أنهما حيثما خططا لشق الطريق خروجاً من الأزمة، فإنهما كانا في أغلب الأحيان يتبعان طريقاً رسمها جون ماكون. انظر: Sheldon Stern, Averting 'The Final Failure': John F. Kennedy and the Secret Cuban Missile Crisis Meetings (Stanford, CA: Stanford University Press, 2003).

يستند هذا الفصل إلى الاستنساخات الخطية لسترن، وإلى مذكّرات ماكون المباحة، إلا حيث تتم الإشارة إلى عكس ذلك.

(٢) Carter, "16 October (Tuesday)/(Acting DCI)," declassified February 19, 2004, CIA/CREST; 'Mongoose Meeting with the Attorney General,' October 16, 1962; 'CIA Documents on the Cuban Missile Crisis,' CIA/CSI, 1992; Aleksandr Fursenko and Timothy Naftali, One Hell of a Gamble (New York: Norton, 1997), pp. 227-228.

(٣) McCone, 'Memorandum for Discussion today," CIA/CREST; untitled McCone memo; and "Talking Paper for Principals,' all dated October 17, 1962, declassified March 5, 2003.

(٤) Presidential recordings, October 19-22, JFKL.

(٥) McCone memos, October 19-22, 1962, CIA/CREST.عُقد اجتماع رسمي لمجلس الأمن القومي في الغرفة البيضاوي في الدارة التنفيذية في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم السبت ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر. لم يتم تسجيل الاجتماع، لكن ملاحظات كلاين الإيجازية، وما كتبه بخط يده، بقيت كما بقي التسجيل الرسمي لمدوّن محاضر مجلس الأمن القومي، بروملي سميث. ملاحظات كلاين موجودة في: 'CIA Documents on the Cuban Missile Crisis,' CIA/CSI, 1992.

(٦) McCone oral history, April 21, 1988, Institute of International Studies, University of California at Barkeley.

(٧) التُقطت هذه العبارة على شريط التسجيل في ٤ آذار/مارس ١٩٦٣، úÌÄî¤ Presidential recordings, JFKL, it was first reported by the historian Max Holland, author of The Kennedy Assassination Tapes (New York: Knopf, 2004), and recounted in his monograph "The Photo Gap That Delayed discovery of Missiles in Cuba," Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 4, 2005, CIA/CSI.

(٨) تنعكس أعمال ماكون في شرائط تسجيل اجتماع العاشرة من صباح ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، وفي مذكراته، وفي تسجيل علاقات الولايات المتحدة الخارجية للاجتماع. استنساخ الشريط كتابة مجزّأ. وفي ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، «أعلن السيد ماكون أن على كل عمليات «النمس» أن تُعلّق إلى أن ينتهي أسبوع المفاوضات هذا». انظر: Marshall Carter, memorandum for the record, October 30, 1962, declassified November 4, 2003, CIA/CREST.

العمليات الخفية المخطّطة والمنفذة ضد كوبا خلال أزمة الصواريخ وما بعدها مفصّلة في: FRUS, Vol. XI, documents 271, 311, 313, and 318-315.

(٩) الخطوط العامة للمؤامرة موجودة في تقرير المفتش العام لـ «السي.آي.أيه.» الذي رفعه في ١٩٦٧ إلى هيلمس، والذي أبيح في ١٩٩٣: J.S. Earman, Inspector General, 'Subject: Report on Plots to Assassinate Fidel Castro, 23 May 1967,' CIA.

الاقتباسات والاستشهادات في المقاطع التالية مأخوذة من التقرير.

لم يعرف جون ماكون شيئاً أبداً عن المخطط الأخير الذي أخذ يتكشّف، لكنه قارب ذلك. ففي ١٥ آب/أغسطس ١٩٦٢، اتصل مراسل من الشيكاغو صن تايمز هاتفيا بمقر قيادة «السي.آي.أيه.»، سائلاً عن العلاقة بين زعيم المافيا الشهير سام جيانكانا، و«السي.آي.أيه.»، والكوبيين المناوئين لكاسترو. تناهى الأمر إلى ماكون الذي سأل هيلمس عن مدى إمكان صحّة الأمر. وكجواب، سلّمه هيلمس مذكّرة من ثلاث صفحات ذات مساحة واحدة بين أسطرها من رئيس الأمن في «السي.آي.أيه.»، شيفيلد إدواردز، وهي تسجّل أنه تم الإيجاز، في ١٤ أيار/مايو ١٩٦٢، لروبرت كنيدي عن «عملية حسّاسة لـ «السي.آي.أيه.»» جرت ضد فيدل كاسترو ما بين آب/أغسطس ١٩٦٠ وأيار/مايو ١٩٦١، تورطت فيها «مصالح معينة في ألعاب القمار» يمثّلها شخص يدعى «جون روسيللي من لوس أنجلس»، وآخر يدعى «سام جيانكانا من شيكاغو». كان المدعي العام يعرف هذين الاسمين جيداً. لم تشر المذكّرة أبداً إلى الاغتيال، لكن مغزاها كان واضحاً. وقد سلّمها هيلمس إلى ماكون مع ملاحظته الخاصة على الغلاف: «افترض أنك مدرك طبيعة العملية التي نوقشت في الملحق». وأصبح ماكون على إدراك شديد في الدقائق الأربع التي استغرقته لقراءتها. وغضب على نحو تعجز عن وصفه الكلمات.

وربما ذلك هو سبب عدم إزعاج هيلمس نفسه بإطلاعه على مؤامرة الاغتيال الجديدة التي يقودها فيتزجيرالد، أو في شأن من المسؤول عن التخطيط. وفي ١٩٧٥، أبلغ هيملس هنري كيسينجر أن بوبي كنيدي «أدار شخصياً» أكثر من محاولة اغتيال ضد فيدل كاسترو، انظر: Kissinger and Ford, Memorandum of Conversation, January 4, 1975, GRFL.

الفصل العشرون

(١) JFK Tapes, November 4, 1963, JFKL. The recording, worth hearing, is available online at http://www.whitehousetapes.org/clips/1963_1104_jfk_vietnam_memoir.html.

(٢) الشهادة التي أعطاها كونين في ١٩٧٥ أمام محققي مجلس الشيوخ، أُبيحت في أيلول/سبتمبر ١٩٩٨. جميع الاقتباسات عنه في هذا الفصل مأخوذة من تلك النسخة المكتوبة. فكونين، الذي وُلد في باريس في ١٩١٩، أرسل، في ١٩٢٤، إلى كانساس سيتي للعيش مع عمة له، وهي فرنسية تزوجت في الحرب. سارع إلى الانخراط في الجيش الفرنسي عند اندلاع الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩. وعندما سقطت فرنسا في ١٩٤٠، شق طريقه إلى الولايات المتحدة وانتهى في «الأو.أس.أس.» وفي ١٩٤٤، عندما كان متمركزاً في الجزائر، تم إنزاله في فرنسا

المحتلة للقاء مع المقاومة. عند تحرير فرنسا، أرسلته «الأو.أس.أس.» إلى جنوب الصين للانضمام إلى فريق الكوماندوس الفرنسي ـ الفيتنامي المكلّف مهاجمة أحد الموانئ اليابانية في شمال فيتنام. نشأ لديه تعلّق بفيتنام. وانتهى الأمر على نحو سيئ بالنسبة إلى الطرفين.

انتظر كونين كاتب سيرة حياته. فقد أمضى ستانلي كارنوف، المؤرخ ومؤلف Vietnam: A History (New York: Viking, 1983), سبعين ساعة يجري معه المقابلات، لكنه تخلّى عن المشروع بعدما قرر أن موضوعه أخذ يشبه جاسوس سومرست موغهام الخرافي أشندن، أي أنه رجل استحوذت عليه الجاسوسية إلى حدّ لم يعد يستطيع معه فصل روايات التغطية التي اعتمدها عن قصة حياته. وقال كارنوف، «كان خارج زمانه. كان الجندي المرتزق المتعنتر؛ الشخص الذي لم يعد موجوداً إلا في الخرافة. راوي قصص رائع. ولا يهم إذا كانت القصص حقيقية أم لا. فهي دائماً تكاد تكون حقيقية بالكامل».

كتب المؤلف نعي كونين، "Lucien Conein, 79, Legendary Cold War Spy", The New York Times, June 7, 1998.

(٣) Rufus Phillips oral history, FAOF.

(٤) John Gunther Dean oral history, FAOH.

(٥) قرار محاولة شراء حكومة جديدة اتُّخذ بعدما حذّر ألن دالاس الرئيس أيزنهاور من «أن لدينا ما نخافه كثيراً في الانتخابات العامة لـ١٩٥٩» في لاوس. وأجاب الرئيس «سيصبح الأمر خطيراً إذا أصبح بلد مثل لاوس شيوعياً من خلال الانتخاب الشرعي الذي يدلي به مواطنوه». انظر: NSC minutes, May 29, 1958, DDEL. وأفاد محللو «السي.آي.أيه.»: «أن استئناف عمليات حرب العصابات في لاوس هو في الأساس رد فعل على موقف معاد للشيوعيين أكثر قوة تعتمده حكومة لاوس، وعلى المبادرات الأميركية الأخيرة دعماً للاوس». انظر: Special National Intelligence Estimate 68-2-59, 'The Situation in Laos,' September 18, 1959, declassified May 2001, CIA/CREST.

(٦) John Gunther Dean oral history, FAOH.

(٧) مقابلة أجراها المؤلف مع جيمس.

(٨) William Lair oral history, Vietnam Archive Oral History Project, Texas Tech University, interview conducted by Steve Maxner, December 11, 2001. وقد استخدمت ذلك بإذن مشكور من السيد ماسنر ومن الأرشيف.

(٩) الأمر الأخير موجود في: Pentagon Papers, United States-Vietnam Relations, 1945-1967, Vol. 2 (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1972), p. 18. والأمر الأول موجود في: Special Group memom reprinted in FRUS, Vol. XXVIII: " ينبع تكوين هذا البرنامج من موافقة على أعلى مستوى من الحكومة الأميركية في أواخر ١٩٦٠ و١٩٦١ [من أجل] قيام «السي.آي.أيه.» بتجنيد الدعم القبلي لمحاربة الشيوعية. والجهد الأكبر لهذا البرنامج قضى بإنشاء الميو، وهي أكبر مجموعة إثنية غير لاوسية في لاوس... وتوسّع هذا البرنامج، كما سمحت بذلك المجموعة الخاصة في حزيران/يونيو ١٩٦٣، ليشكّل

قوة حالية من نحو ١٩ ألف محارب عصابات مسلّح من الميو (سُمح بـ ٢٣ ألفاً) منخرطين في الدفاع عن القرى، وفي القيام بنشاطات حرب عصابات ضد الباثيت لاو».

(١٠) Richard L. Holm, 'Recollections of a Case Officer in Laos, 1962 to 1964,' Studies in Intelligence, Vol. 47, No. 1, 2033, CIA/CSI.

(١١) حصل نقاش كبير في داخل مقر قيادة «السي.آي.أيه.» حول الحكمة من حصول حرب في لاوس. وقال روبرت أرموري جونيور، «انقسمت الوكالة في شكل سيئ جداً. النشطون أيدوا جميعهم الحرب في لاوس. اعتقدوا أنها مكان رائع للحرب... وقف فيتزجيرالد بقوة من أجل حصولها». لكن أرموري لم يكن، وسرعان ما قدّم استقالته، لكن ليس قبل أن يساهم في وضع مسوّدة أول خطاب تلفزيوني رئيسي إلى الأمة للرئيس كنيدي، في ٢٣ آذار/مارس ١٩٦١، حول موضوع لاوس. ولم يتمكن الرئيس، أو لم يشأ، من لفظ اسم البلد على نحو صحيح، معتقداً أنه ما من أحد سيبالي ببلد اسمه «لَوْسْ». وقال إن لاوس تحت تهديد القوى الشيوعية في الداخل وفي الخارج، بمن فيهم خبراء في القتال من فيتنام الشمالية. وأبلغ الأمة «أن سلامتها هي من سلامتنا جميعاً». وقال «في الحياد الحقيقي الذي يلتزم به الجميع، فإن جل ما نريده هو أن تنعم لاوس بالسلام وليس بالحرب».

(١٢) Ronald H. Spector, Advice and Support: The Early Years of the United States Army in Vietnam, 1941-1960, rev. ed. (New York: Free Press, 1985), pp. x, xi. كتب سبيكتور: «إضافة إلى النزعة لمحاولة القيام بشيء من لاشيء، ثمة جهل أميركي لتاريخ فيتنام ومجتمعها بلغ من الضخامة والشمول حداً بحيث إن عقدين من المنح الدراسية الممولة فديرالياً، والبرامج السريعة لتعليم اللغة، والبرامج التلفزيونية الخاصة، والتدريس في الحرم الجامعي، بالكاد تركت أثراً». «وعلى الزعماء الأميركيين، قبل الشروع في القيام بشيء من لاشيء في زاوية أخرى ما من العالم، أن ينظروا في العوامل التاريخية والاجتماعية ذات الصلة».

(١٣) Neher oral history, FAOH.

(١٤) وصف المؤلف مصير عملاء «السي.آي.أيه.» الفيتناميين في 'Once Commandos for the U.S., Vietnamese Are Now Barred,' The New York times, April 14, 1995. غدر هانوي بـ «السي.آي.أيه.» من ١٩٦١ إلى ١٩٦٣، مفصّل تحديداً في: Richard H. Schultz, Jr., The Secret War Against Hanoi: Kennedy's and Johnsons Use of Spies, Saboteurs, and Covert Warriors in North Vietnam (New York: HarperCollins, 1999). وأجرى شولتز، وهو مدير الابحاث الأمنية الدولية في مدرسة فلتشر للحقوق، مقابلات موسعة للتأريخ الشفوي وراجع وثائق مباحة للكتاب.

(١٥) Barbour oral history, FAOH.

(١٦) كان تمدّد قوات «السي.آي.أيه.» شبه العسكرية في المنطقة في ذلك الوقت مؤثّراً، كما فصّله الجنرال لانسديل في تقرير إلى البيت الأبيض. قاد ضباط «السي.آي.أيه.» ٣٤٠ جندياً فيتنامياً جنوبياً من مجموعة المراقبة الأولى التي أنشأتها الوكالة في ١٩٥٦ وتم تدريبها على قتل

متسللي الفيتكونغ في الجنوب، والشمال، ولاوس. ومن تايوان طارت شركة طيران «السي.آي.أيه.» «سيفيل إير ترانسبورت»، في مئات المهمات السنوية في لاوس وفيتنام؛ درّب الجيش الصيني الوطني مئات الفيتناميين ليصبحوا ضباطاً شبه عسكريين. وفي تايلاند بلغت قوات بيل لير شبه العسكرية ٥٥٠ ضابطاً تايلاندياً مدرّباً. وفي فورت ماكينلي خارج مانيلا، أدارت «السي.آي.أيه.» مدرسة واسعة للجنود الفيليبينيين لمحاربة الشيوعية في أنحاء آسيا. وقد تم إرسال المئات من المتدربين من كل أنحاء المنطقة إلى قاعدة «السي.آي.أيه.» في جزيرة سايبان.

(١٧) كان هذا السرّ عميقاً جداً بالفعل. حصل المؤلف، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، على نسخة فريدة لتقرير تايلور الكامل وغير المراقب للرئيس من أرشيف «السي.آي.أيه.» وهي النسخة الشخصية لنائب مدير الاستخبارات المركزية تشارلز بير كابيل. وقد استبرز العبارة وكتب على هامش نسخته: إلى قارئي «السي.آي.أيه.»: يجب إبقاء هذا المفهوم مأموناً جداً. ت.ب.ك.

(١٨) ROBERT f. Kennedy oral history, JFKL, collected in Edwin O. Guthman and Jeffry Shulman (eds.), Robert Kennedy, in His Own words: The Unpublished Recollections of the Kennedy Years (New York: Bantman, 1988), p. 396.

(١٩) Telegram from the Department of State to the embassy in Vietnam, Washington, August 24, 1963, 9:36 p.m., FRUS, Vol. III.

(٢٠) JFK Tapes, November 4, 1963, JFKL.

(٢١) مساء السبت، ٢٣ آب/أغسطس ١٩٦٣، عندما قرر جون كنيدي الإطاحة بديام، كانت الأنباء من فيتنام كالحة. أخذ الكوماندوس الفيتناميون الجنوبيون الذين درّبتهم «السي.آي.أيه.»، في قتل المتظاهرين البوذيين، بحسب ما أشار الإيجاز اليومي للرئيس في ذلك الصباح، وأبلغ «نهو مصدراً أميركياً بالأمس أن الجنرالات أوصوا بفرض الأحكام العرفية. ونفى [نهو] أن هذا يساوي انقلاباً، لكنه حذّر من أنه قد يصبح كذلك إذا تأرجح ديام أو قام بتسوية في المسألة البوذية». راجع: .FRUS, 1961-1963, Vol. III, document 271). لو أن كنيدي قرأ هذا لتشجّع في الموافقة على برقية هيلسمان التي تسمح بالتحرك ضد ديام. وقد تم إثبات رواية برقية هيلسمان من خلال سجلات أبيحت في سلسلة فيتنام في علاقات الولايات المتحدة الخارجية. أبلغ ماكون دوايت أيزنهاور أن موافقة الرئيس العرضية على البرقية غير المنسقّة شكّلت «واحداً من أعظم أخطاء الحكومة» حتى تاريخه، من العيار الثقيل. استاء الرئيس السابق. أين كان مجلس الأمن القومي؟ هل القيام بانقلابات هو من مهمات وزارة الخارجية؟ وأجاب ماكون بأن كنيدي محاط «في حكومته بليبراليين يريدون إصلاح كل بلد» في العالم. «حسناً، ردّ أيزنهاور، «من الذي عيّن أولئك الليبراليين اللعينين؟». و«قد أعرب الجنرال العجوز عن قلقه حيال مستقبل الولايات المتحدة». McCone memo, 'Conference with Former President Eisenhower,' September 19, 1963, DDEL.

(٢٢) إنها لسخرية رهيبة أن كولبي الذي قال في التأريخ الشفوي لمكتبة ليندون جونسون في ١٩٨٢، إن «الإطاحة بديام كانت أسوأ خطأ ارتكبناه»، قد قام فعلاً بزرع بذور ذلك في مذكرة في ١٦

آب/أغسطس ١٩٦٣ إلى هيلمس، وروجر هيلسمان في الخارجية، ومايكل فوريستال في مجلس الأمن القومي. فهو محّص في حظوظ «انقلاب ناجح»، ولاحظ أن «الاغتيال قد يشكّل جزءاً لا يتجزّا من الانقلاب المصمم أو الذي يمكن أن يحصل على أمل بروز شيء ما أفضل من الوضع الفوضوي الناتج عن ذلك».

(٢٣) Colby cited in Harold Ford, CIA and the Vietnam Policymakers, 1996, CIA/CSI, available at http://www.cia.gov/csi/books/vietnam/epis1.html كان فورد طوال سنوات كثيرة محللاً رئيسياً لقضايا فيتنام.

(٢٤) كان هيلمس في اجتماع في البيت الأبيض ظهر ٢٩ آب/أغسطس ١٩٦٣، مع الرئيس، ماكنمارا، وراسك، من بين دزينة من كبار المسؤولين الآخرين. سجل مدوّن الملاحظات انه سبق للسفير لودج أن أعطى توجيهات لعنصر «السي.آي.أيه.» روفوس فيليبس «بإبلاغ الجنرالات الفيتناميين أن السفير الأميركي يدعم المقاربة الأميركية». وفحوى الرسالة إلى الجنرالات أن القائمين على «السي.آي.أيه.»، والسفارة، والبيت الأبيض، يتحدثون بصوت واحد. «سأل الرئيس إذا كان لأحد أي تحفّظ في شأن مسار التحرك الذي نتبعه». وكانت ثمة تحفظات لراسك وماكنمارا. عندها قرر الرئيس أن «السفير لودج سيتمتّع بالسلطة على كل العمليات المكشوفة والخفية» في فيتنام. وأرسلت برقية للاطلاع فقط إلى لودج تعطيه سلطة رئاسية على تلك العمليات الخفية. راجع: Memorandum of conference with the president, August 29, 1963, National Security file, JFKL. قضت مهمة لودج بالتأكد من عدم ظهور اليد الأميركية. قال كوني في شهادته «تلقّيت تعليماتي من السفير لودج. وإذا كانت من تعليمات مرسلة برقياً، فإنه امتلك عادة جيدة جداً بعدم قراءة أي شيء. كان يطوي قطعة من الورق وما يتعلّق بك من تعليمات، ويتركك تقرأ ذلك، وذلك وحده، بحيث إنك لا تعرف من أرسلها، أو من أين جاءت... تلك هي التعليمات، هل تستوعبها؟ نعم، سيدي. حسناً اذهب ونفّذها. حول رغبة الرئيس في السرّية، انظر: Bundy to Lodge, October 5, 1963, FRUS, Vol. IV.

(٢٥) الصراع بين لودج وريتشاردسون مسجّل في شكل قاس في: John H. Richardson, My Father the Spy: A Family History of the CIA, the cold War, and the Sixties (New York: HarperCollins, 2005).

(٢٦) أراد بالتحديد الجنرال إد لانسديل، الأميركي البشع. قطعاً لا، قال ماكون، الذي «لم تكن له ثقة به على الإطلاق. فيمكنهم إبدال ريتشاردسون إذا أراد لودج ذلك، لكن بواحد من الخارج». راجع: Memorandum of telephone conversation between the secretary of state and the director of central intelligence, September 17, 1963, FRUS, 1961-1963, Vol. IV. Document 120.

(٢٧) RFK oral history, JFKL; Guthman and Shulman, Robert Kennedy, in His Own Words, p. 398. إن حرق رئيس محطّة على يد سفير عمل غير مسبوق في تاريخ «السي.آي.أيه.». بعث ماكون ورقة إيجاز من أربع صفحات إلى الرئيس في اليوم الذي سبق مؤتمراً صحافياً مقرراً للرئيس في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣، مدافعاً عن «السي.آي.أيه.»

ضد الحدة التي حرّكتها تسريبات لودج. وكتب ماكون «سيتم سؤالك عن دور «السي.آي.أيه.» في فيتنام. فالانتقاد الذي وجد طريقه إلى مئات المقالات الإخبارية والافتتاحيات يتآكل جدياً معنويات هذه المنظمة التي أمضيت حتى الآن سنتين وأنا أحاول إعادة إشعالها». واخترق الرئيس عن قرب إيجاز ماكون في إجاباته للصحافة.

(٢٨) Tran Van Don, Our Endless War (San Fransisco: Presidio, 1978), pp. 96-99.

(٢٩) Church Committee, alleged Assassination Plots Involving Foreign Leaders, Interim Report, U.S. Senate, 94th Congress, 1st Session, 1975.

(٣٠) McCone memos, 'Special Group 5412 Meeting.' October 18, 1963, and 'Discussion with the President-October 21,' CIA/CREST. See also Ford, CIA and the Vietnam Policymakers.

(٣١) Lodge to Bundy and McCone, October 25, 1963, FRUS, 1961-1963, vol. IV, document 216. عند هذا الحد، كان قد فات الأوان. ففي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر وصل ماكون، هيلمس، وكولبي إلى البيت الأبيض لاجتماع الرابعة والنصف بعد الظهر مع الرئيس، وشقيقه، وكامل فريق الأمن القومي. عرض كولبي خارطة عسكرية مفصّلة تُظهر أن قوة ديام وقوات زعماء الانقلاب منقسمة بالتساوي. وهكذا، كان رجال الرئيس، فالخارجية كانت مؤيدة، وعارض الجيش وماكون. إلا أن البيت الأبيض كان قد حرّك قوة لم يعد في وسعه وقفها.

(٣٢) Don, Our Endless War, pp. 96-99.

(٣٣) Phillips oral history, FAOH.

(٣٤) تأتي رواية كونين هنا من شهادته، التي أُبيحت، أمام لجنة تشيرتش؛ أعيد إنتاج تبادل البرقيات في FRUS. قال كونين ان نهو تدبّر مع القائد العسكري لقطاع سايغون العسكري افتعال تمرّد زائف للفيتكونغ في سايغون. تضمّنت الخطة اغتيال مسؤولين أميركيين رئيسيين. ثم إن نهو خطط لإرسال جنود من لواء القيادة للقضاء على الثورة الزائفة وإنقاذ فيتنام. لكن القائد أبلغ متآمري الانقلاب عن مخطط نهو. لكن، على ما يرويه كونين، فإن جنرالات التمرّد، «خدعوا» نهو: فعندما بدأ الانقلاب الحقيقي، اعتقد نهو أنه انقلابه المزعوم. واستناداً إلى لجنة تشيرتش، فإن كونين مرّر ثلاثة ملايين قرش (٤٢ ألف دولار) إلى أحد مساعدي الجنرال دون في وقت متأخر من صباح الأول من تشرين الثاني/نوفمبر لشراء الطعام لقوات الانقلاب ودفع مستحقات الوفاة للذين سيُقتلون خلال الانقلاب. قال كونين في شهادته، إن المبلغ الذي أُخذ من منزله كان خمسة ملايين قرش، أو نحو ٧٠ ألف دولار. وقال كولبي إنه ٦٥ ألف دولار.

(٣٥) General Maxwell D. Taylor, Swords and Plowshares: A Memoir (New York: Da Capo, 1990), p. 301. The White House-Saigon cables cited in this passage are reprinted in full in FRUS, Vol. IV.

(٣٦) Rosenthal oral history, FAOH.

الفصل الحادي والعشرون

اجتمعت اللجنة المختارة في ١٩٧٥، في مجلس الشيوخ لدراسة العمليات الحكومية في ما يتعلّق بالنشاطات الاستخبارية (في ما يلي «لجنة تشيرتش») برئاسة السيناتور فرانك تشيرتش. طالب محققوها وحصلوا على إفادات أُخذت في السرّ، وشرعوا لاحقاً في شهادات علنية محدودة. والعمل الذي له قيمة دائمة موجود في الملفات السرّية.

يستند هذا الفصل إلى شهادة أبيحت أخيراً قدّمها ضباط كبار، من بينهم ريتشارد هيلمس، جون ويتن (تم التعريف عنه باسمه المستعار «جون سكيلسو»)، وجيمس أنغلتون. قدموا إفادات سرّية إلى لجنة تشيرتش في ١٩٧٦، وإلى تحقيق تابع أجرته اللجنة المختارة في مجلس النواب حول الاغتيالات (يشار إليها في ما يلي بـ HSCA). وشهد هيلمس، وماكون، وأنغلتون، وغيرهم، أمام لجنة روكفللر التي أنشأها الرئيس فورد في ١٩٧٥. ويُلقي نشر هذه النصوص بعد عشرين سنة، وخمسة وعشرين عاماً على الواقعة، ضوءاً جديداً على ما كانت «السي.آي.أيه.» تفكّر فيه بعد الاغتيال، وعلى تحقيقها الخاص في عميلة القتل، وعن تقاعسها في إبلاغ لجنة وارن بالكامل.

تمت إباحة الإفادات بين ١٩٩٨ و٢٠٠٤ بموجب قانون جمع سجلات اغتيال جون كنيدي الذي مرّره الكونغرس في ١٩٩٢. وقد تم نشر الكثير على قرص مدمّج تحت عنوان Assassination Transcripts of the Church Committee, available online at http://www.history-matters.com وعثر الصحافي جيفرسون مورلي على عمل عنصر «السي.آي.أيه.» جون ويتن الذي حقق في اغتيال كنيدي لحساب الوكالة في مكتبة جون ف. كنيدي، وذلك أثناء بحثه لسيرة الحياة التي سيضعها لرئيس محطة مدينة مكسيكو وين سكوت. وقد تلطّف وشارك نسخه مع المؤلف في ٢٠٠٦. وهذا العمل سيشار إليه في ما يلي على أنه «تقرير ويتن».

(١) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 227-229.

(٢) LBJ, telephone conversation with Bill Moyers, December 26, 1966, LBJL. قام ماكس هولاند بجمع الكثير من شرائط تسجيل البيت الأبيض المتعلقة باغتيال كنيدي، وبتحريرها، وبتذييلها، ونشرها في: Max Holland, The Kennedy Assassination Tapes (New York: Knopf, 2004). Citations from that work are hereinafter 'LBJ Tapes/Holland'.

(٣) Helms, A Look over My shoulder, p. 229.

(٤) Whitten deposition, 1978.

(٥) Whitten report, undated but December 1963, CIA/JFKL.

(٦) ضم الاجتماع الذي دعا إليه ماكون في الحادية عشرة والنصف من مساء ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر، نائب المدير كارتر، وريتشارد هيلمس، وكبير ضباط الإدارة في الوكالة رد وايت الذي سجّل في يوميات مكتبه أن ماكون حمل على الجنرال كارتر وقام بغسله غسلاً كاملاً،

وأعرب عن عدم رضاه الكامل على الطريقة التي تُدار بها الوكالة». راجع: L. K. White diary, November 23, 1963, CIA/CREST.

(٧) قدّم ويتن سيرة حياته المهنية ووصف مواجهاته مع أنغلتون في إفادتيه اللتين قدمهما في ١٩٧٦ و١٩٧٨؛ الاقتباس مأخوذ من الأخيرة.

(٨) Helms deposition, August 9, 1978, House Special committee on Assassinations. Top Secret, declassified May 1, 2001.

(٩) McCone memo, November 24, 1963, CIA/CREST; LBJ and Eisenhower conversation, August 27, 1965, LBJ Tapes/Holland.

(١٠) LBJ to Weisl, November 23, 1963, LBJ Tapes/Holland.

(١١) التفسير البسيط هو أن ضباط الاستخبارات السوفياتية في مدينة مكسيكو كانوا يمارسون، في ذلك اليوم، أدوار التغطية بوصفهم مسؤولين عن التأشيرات، تماماً كما يفعل ضباط «السي.آي.أيه.» في السفارات في العالم. وقال ضابط الاستخبارات السوفياتي أوليغ نيشيبورنكو، في مذكّراته، إنه سمع عرضاً في المرة الأولى، وشاهد أوزوالد يتوسّل الحصول على تأشيرة بلغته الروسية التي هي بالكاد متوسطة الجودة. بدا أنه يريد الذهاب إلى كوبا لينقذ كلاً من نفسه وفيدل كاسترو من قوى الاستخبارات الأميركية: «كان أوزوالد مضطرباً للغاية ومتوتّراً على نحو واضح، بخاصة كلّما أشار إلى «الأف.بي.آي.». لكنه أصبح فجأة هستيرياً، وأخذ يشهق بالبكاء، وصرح عبر دموعه، «أنا خائف... سيقتلونني. دعوني أدخل!»، مكررا المرة تلو المرة أنه يتعرّض للاضطهاد وللملاحقة حتى هنا في مكسيكو، ومدّ يده اليمنى إلى جيب سترته الأيسر وسحب مسدّساً، قائلاً: أترون؟ هذا ما عليّ أن أحمل لحماية حياتي». راجع: Nechiporenko, Passport to Assassination: The Never-Before-told Story of Lee Harvey Oswald by the KGB Colonel Who Knew Him (Secaucus, NJ: Birch Lane, 1993).

(١٢) جرت إعادة تركيب تتابع الاحداث، التي أثارت للمرة الأولى السؤال عمّا إذا كان كوبيلا عميلاً مزدوجا، في: 'The Investigation of the Assassination of President John F. Kennedy: The Performance of the Intelligence Agencies,' Church Committee staff report, 1975, declassified in 2000.

(١٣) Angleton deposition, 1978, HSCA.

(١٤) Whitten testimony, August 1978, HSCA.

(١٥) Helms testimony, August 1978, HSCA.

(١٦) Hoover and DeLoach cited in 'The Investigation of the Assassination of President John F. Kennedy'. هذا التقرير السرّي لمجلس الشيوخ، الذي أبيح في ٢٠٠٠، بعد ٢٥ سنة على وضعه، وجد أن الدليل «يميل إلى التشكيك في العملية التي قدّم من خلالها مجتمع الاستخبارات المعلومات إلى لجنة وارن». وخلص إلى أن «ثمة شكاً في ما إذا كان في الإمكان أبداً الاعتماد على هذه الوكالات للتحقيق في عملياتها الخاصة وفي تأديتها الخاصة في مواقف حرجة».

(١٧) Whitney testimony, 1976.

(١٨) هذا الاقتباس وجميع الاقتباسات الأخرى من أنغلتون في هذا الفصل، مأخوذة من إفادته أمام اللجنة المختارة من مجلس النواب للتحقيق في الاغتيال في ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٨، وأبيحت في ١٩٩٨.

(١٩) تحدّث مارك عن لقائه مع نوسينكو، وهي رواية لم تُنشر من قبل، في State Department oral history, FAOH.

(٢٠) على سبيل المثال، قال نوسينكو إن رقيباً في الجيش في السفارة الأميركية في موسكو، عرّف عنه بأنه جاسوس لـ «الكا.جي.بي.»، يعمل بوصفه «مصلّحاً لماكينة التشفير». وأصبح في الترجمة الإنكليزية «ميكانيكياً»، كما في ميكانيكي السيارات. وعندما حاول نوسينكو إصلاح ما تم تدوينه، اتُّهم بتغيير روايته.

(٢١) ظهر في النهاية اعتراف رسمي بهذا الواقع في ٢٠٠٦. انظر 'The Angleton Era in CIA,' in A counterintelligence Reader, Vo. 3, chap. 2, pp. 109-115, available online at http://www.ncix.gov/history/index.html.

(٢٢) قام، بعد ذلك بسنوات، ضابطان من «السي.آي.أيه.» بتدوين وقائع القضية: Richards J. Heuer, Jr., 'Noshenko: Five Paths to Judgment,' Studies in Intelligence, Fall 1987, CIA/CSI; and John Limond Hart, The CIA's Russians (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2002), pp. 128-160.

(٢٣) Helms interview, Studies in Intelligence, December 1993, CIA/CSI.

(٢٤) استُدعي جون ليموند هارت، في ١٩٧٦، من تقاعده ليعيد التحقيق في قضية نوسينكو. سبق لهارت، قبل ذلك بربع قرن تقريباً، أن كشف عن خداع سلفه في رئاسة محطة سيول، آل هاني. كانت حياته المهنية متميزة، من رئيس لجمع الاستخبارات الخارجية حول الصين وكوبا، إلى رئيس للعمليات في أوروبا الغربية. عرف أنغلتون منذ ١٩٤٨، عندما خدما في روما معاً: عندما فازت «السي.آي.أيه.» في الانتخابات الايطالية، وكانت الحرب الباردة جديدة، وأنغلتون لا يزال سليم العقل. جلس الرجلان، في ١٩٧٦، في مقابلة استغرقت أربع ساعات حول قضية يوري نوسينكو. وعندما قرأ هارت النص في اليوم التالي، لم يكن للكلمات أي معنى على الإطلاق. وكتب هارت، «أنه ربما بسبب عطشه الأسطوري، فإن ذهن أنغلتون المشوّش قد تحوّل إلى ما يشبه الكيس الذي يتم فيه جمع توافه الأمور العرضية، ومعظمها غير ذي علاقة». وأعلن هارت أن قضية نوسينكو تشكّل «أمراً رجساً»، وهي أسوأ ما واجهه طوال فترة عمله في الاستخبارات. راجع: Hart, The CIA's Russians.

الفصل الثاني والعشرون

(١) LBJ to Senator Eugene McCarthy, February 1, 1966, available online at http://www.whitehousetapes.org/clips/1966_0201_lbj_mccarthy_vietnam.html. عبّر جونسون عن

نظريته المتلعقة «بالعقاب الإلهي»: «لأن الرئيس كنيدي كان، بمعنى ما، مسؤولاً عن موت ديام، فإنه تعرّض بدوره للاغتيال»، بحسب ما يستذكره ريتشارد هيلمس ـ في اجتماع في ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣ مع ماكون، وهيلمس، وديزموند فيتزجيرالد. وكرر جونسون ذلك أمام هيوبرت همفري الذي سيصبح نائباً له؛ وأمام رالف دوغان، وهو أحد مساعديه في البيت الأبيض؛ وبيار سالينغر، وهو سكريتير صحافي لكنيدي.

(٢) 'McCone memo, "Discussion with the President, 13 November-9:30 a.m.,' declassified October 2002, CIA/CREST. تابعت مذكّرة ماكون: «شرحت للرئيس أنني أبلغت بوبي أنه لا يستطيع أن يستعيد مع الرئيس خصوصية العلاقة التي كانت مع شقيقه لأنها كانت علاقة رابطة دم، وليس علاقة رسمية. وهي علاقة نادراً ما توجد بين الأخوة ولا توجد أبداً بين المسؤولين، لا في الأعمال ولا في الحكم». وهي لم توجد بين الرئيس الجديد ومدعيه العام. لم يحتمل بوبي البقاء في البيت الأبيض مع جونسون. وقال، في تأريخ نيسان/أبريل ١٩٦٤ الشفوي لمكتبة كنيدي، بعد ذلك ببضعة أشهر، «إنه خسيس، مرير، وفاسق: حيوان من نواح عدّة».

(٣) McCone memos, December 28, 1963P January 13, 1964. كان الرئيس قلقاً في شأن صورته الخاصة. وقد أربكه نشر كتاب الحكومة الخفيّة The Invisible Government، وهو أول كتاب رائج يتفحّص «السي.آي.أيه.» وعلاقتها بالبيت الأبيض. وقد كشف عن وجود المجموعة الخاصة، ولجنة كبار رجال «السي.آي.أيه.» والخارجية والبنتاغون والبيت الأبيض الذين وافقوا على العمل الخفي. وأوضح أن الرؤساء هم الذين سيطروا في نهاية المطاف على هذه المهمات السرّية. وفكّر رئيس المجموعة الخاصة، مستشار الأمن القومي ماك جورج بوندي، في أنه ربما من الأفضل تغيير اسمها. وبعدما رفض اقتراحات من فريقه ـ ومن بينها «المجموعة الخفية» ـ أصدر مذكرة العمل ٣٠٣ الصادرة عن مجلس الأمن القومي، مبدّلاً الاسم إلى لجنة ٣٠٣.

وأظهرت سجّلات اللجنة المباحة أن «السي.آي.أيه.» شرعت، في عهد الرئيس كنيدي، في ١٦٣ عملية خفية رئيسية، أقل بقليل من خمسة في الشهر. وفي عهد الرئيس جونسون، تم الشروع في ١٤٢ عملية خفية حتى شباط/فبراير ١٩٦٧، أقل بقليل من أربعة في الشهر. وغالباً ما كانت مناقشات الأعضاء شكليّة. وفي سياق أيام قليلة من ربيع ١٩٦٤، وافقوا على شحنات سلاح للانقلاب العسكري الذي أطاح حكومة البرازيل ـ «لا نريد التفرّج على البرازيل تنزلق إلى الحضيض ونحن جالسون ننتظر الانتخابات المقبلة» ـ وأرسلت ١,٢٥ مليون دولار إضافية لترجيح الانتخابات الرئاسية في تشيلي: «ما من مشكلة، بما أنه في إمكاننا الحصول على المزيد إذا احتجنا». ونادراً ما سعى الرئيس جونسون إلى الحصول على تفاصيل مثل هذه العمليات، برغم أنها حصلت على إجازة من مكتبه.

(٤) McCone memo, 'DCI Briefing of CIA subcommittees of Senate Armed Service forces and Senate Appropriations Committees, Friday, 10 January 1964,' declassified December 15, 2004, CIA/CREST; Harold Ford, CIA and the Vietnam Policymakers, 1996, CIA/CSI, available online at http://www.cia.gov/csi/books/vietnam/epis1.html.

(٥) McCone, Helms, and Lyman Kirkpatrick cited in William Colby, memorandum for the record, 'Meeting on North Vietnam,' January 9, 1964, CIA/CREST.

(٦) McCone memos, April 22 and 29, and October 22, 1964, CIA/CREST; the latter also appears in FRUS, vol. XXXIII, document 219. من المفيد الاستشهاد بذلك لأنه يُظهر أن الرئيس جونسون وجون ماكون لم يجريا أبداً حديثاً حقيقياً في شأن «السي. آي. أيه.»:

«في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، استعددت للذهاب مع السيّدة ماكون لحضور جنازة هربرت هوفر الأب. اتصل بي البيت الأبيض وأبلغني أن الرئيس طلب بالتحديد أن نرافقه... وبينما نحن مسافرون مع الرئيس تمكّنت من مناقشة عدد من المسائل معه. والمواضيع الأساسية كانت: أعلن الرئيس أنه لا يعرف الكثير في شأن تنظيم «السي. آي. أيه.»... شددت على موضوعية المنظمة، وواقع أنه ليست لديّ «مآرب» محدّدة في أي حقل، وبخاصة تلك المتعلّقة بالسياسة الخارجية والدفاعية. فالوكالة اضطلعت بمسؤوليتها المتعلّقة بجمع الاستخبارات بكل الوسائل الممكنة، وتقويم استخباراتنا الخاصة، وتلك التي يجمعها كل عناصر المجتمع الآخرين، بعناية وموضوعية. سأل الرئيس عن حجم المنظمة. قلت له إن موازنتنا هي بحدود [محذوف] وقلت إن لدينا نحو [نحذوف] موظّف. سأل عن احتمالات المستقبل. قلت إنني أعتقد ان المنظمة مهتزّة جداً، وإن توقعات السنوات الخمس أشارت إلى عدم زيادة في الموظفين، وأن الزيادات في الموازنة كانت في حدّها الأدنى، ويمكن ردّها في شكل كبير إلى الزيادات في الأجور والمعاشات وغيرها من الزيادات. واعتبرت أن هذا ناتج عن إدارة محترسة جداً، ونأمل «الحفاظ على ذلك» ما لم يتم إيكال مهمات جديدة بالوكالة. وهذا سيتطلب أناساً إضافيين وأموالاً. وسأل الرئيس أي جزء من موازنتنا ذهب إلى النشاطات العملانية مثل العمل السياسي، وشبه العسكري. . . إلخ.، وقلت نحو [محذوف]. كانت هذه الفرصة الأولى التي تتاح لي لأناقش أمور الوكالة مع الرئيس. اعتقدت أنه مهتم ومتأثر». راجــــع: McCone memo, 'Discussion with the President-22 October 1964,' emphasis added.

أراد ماكون لفت انتباه الرئيس إلى واقع أن مصير الأمم قد ينقلب بناءً على خدعة استخبارات ناجحة. وكانت لديه روايتان يرويهما، وافضلهما هي الآتية: حصل رئيس محطة شاب، اسمه كلير جورج، ومركزه في باماكو، مالي، وهي واحدة من أكثر عواصم العالم المجهولة، في ١٩٦٤ على معلومة من عضو في الحكومة المضيفة. قال المسؤول الأفريقي إنه سمع من دبلوماسي في السفارة الصينية أن بكين ستقوم بأول تجربة نووية لها في غضون أسابيع. مضى التقرير مباشرة إلى مقر قيادة «السي. آي. أيه.» وراقب أحد أقمار التجسس الاصطناعية الأولى التحضيرات في موقع التجربة في الصين. وتولّى ماكون شخصياً عملية التحليل. «عرفنا ما الذي يفعلونه»، قال مستذكراً في التأريخ الشفوي لمكتبة ليندون ب. جونسون.

وأبلغ ماكون البيت الأبيض وحلفاء أميركا أن الصينيين سيختبرون سلاحاً ذرّياً في غضون ثلاثين إلى ستين يوماً: «وفي اليوم الواحد والثلاثين فجّروا القنبلة. وجعلوا مني نبيّاً». بدأت هذه الخبطة الاستخبارية بخبر من لامكان: من عاصمة مالي. وحقق كلير جورج بعد ذلك

شهرته. وأصبح بعد عشرين عاماً رئيس الجهاز الخفي. إلا أن ماكون لم يحظ إلا بروايات نجاح قليلة من هذا النوع.

(٧) «تشكّل وكالة استخبارات الدفاع أفضل مثال على كيفية عدم إنشاء وكالة حكومية»، قال الأميرال بوبي راي إينمان، الذي عمل نائباً للمدير فيها في أواسط السبعينيات قبل أن يدير وكالة الأمن القومي، ويعمل، لفترة وجيزة، نائباً لمدير الاستخبارات المركزية. راجع: Bobby R. Inman, 'Managing Intelligence for Effective Use,' Center for Information Policy Research, Harvard University, December 1980.

(٨) النص المكتوب لمكالمة هاتفية بين مدير الاستخبارات المركزية ماكون ونائب وزير الدفاع، في ١٣ شباط/فبراير ١٩٦٦، FRUS, Vol. XXXIII, declassified 2004.

(٩) Robert J. Hanyok, 'Skunks, Bogies, Silent Hounds' Cryptologic Quarterly, Vol. 19, No. 4/Vol. 20, No. 1, Winter 2000/Spring 2001, declassified November 2005. The quarterly is an official and highly classified NSA publication.

(١٠) بعد ذلك بثماني ساعات، سأل الرئيس جونسون ماكون: «هل يريدون حرباً من خلال مهاجمة سفننا في وسط خليج تونكين؟». أجاب ماكون: «كلا. إنها رد فعل دفاعي من الفيتناميين الشماليين على هجماتنا على جزرهم التي تقع قبالة الشاطئ. إنهم يردّون من موقع الكبرياء».

(١١) Ray Cline oral history, LBJL.

(١٢) Hanyok, "Skunks, Bogies, Silent Hounds, and the Flying Fish".

الفصل الثالث والعشرون

(١) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 309-311.

(٢) Helms oral history, September 16, 1981, LBJL.

(٣) LBJ quoted in Doris Kearns, Lyndon Johnson and the American Dream (New York: Harper and Row, 1976), pp. 251-252.

(٤) Amory oral history, JFKL.

(٥) Robert F. Kennedy oral history, May 14, 1964, JFKL, collected in Edwin O. Guthman and Jeffry Shulman (eds.), Robert Kennedy, in His Own Words: The Unpublished Recollections of the Kennedy Years (New York: Bantam, 1988), p. 310. أنشأ الرئيس كنيدي المجموعة الخاصة (مكافحة التمرّد) في ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩٦٢، بموجب المذكرة ١٢٤ لمجلس الأمن القومي. وقادها روبرت كنيدي، برغم تحذير ماكون من أنها ستصبح «مصدر إحراج لبوبي إذا عُلم بأن المدعي العام يقوم بخدع وسخة لحساب لجنة مكافحة التمرّد» ــ، وأنشأ على اسمها شتاتاً من البرامج المتفرقة على مستوى العالم.

(٦) De Silva to Colby, undated, forwarded from Colby to McCone via Helms ('Subject: Saigon Station Experiment in Counterinsurgency', (November 16, 1964; with Marshal Carter's covering memo ("McCone's War", declassified May 29, 2003, CIA/CREST.

(٧) 'DCI Briefing for CIA Subcommittee of House Appropriations committee, December 5, 1963,' declassified March 15, 2004, CIA/CREST.

(٨) McCone cited in Harold ford, CIA and the Vietnam Policymakers, 1996, CIA/CSI, available online at http://www.cia.gov/csi/books/vietnam/epis1.html.

(٩) Peer de Silva, Sub Rosa: The CIA and the Uses of Intelligence (New York: Times Books, 1978), pp. 220-254.

(١٠) George W. Allen, None So Blind: A personal Account of the Intelligence Failure in Vietnam (Chicago: Ivan R. Dee, 2001), pp. 188-194.

(١١) De Silva, Sub Rosa, p. 256.

(١٢) LBJ Tapes, March 30, 1965, 9:12 a.m., LBJL.

(١٣) McCone memos, April 2 and 20, 1965, LBJL. See also Ford, CIA and the Vietnam Policymakers.

(١٤) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How The Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 566. مصدر هذه الرواية هو ريتشارد هيلمس. ويتذكّرها هيلمس بوضوح على أنها بيان جونسون إلى جون ماكلوي في عشاء في مقر البيت الأبيض. وهي بالتأكيد تبدو أشبه بليندون جونسون.

الفصل الرابع والعشرون

(١) LBJ Tapes/Holland, April 2, 1965.

(٢) Carter, memorandum for the record. April 2, 1965, CIA/FRUS, 1964-1968, Vol. XXXIII, declassified 2004.

(٣) Transcript of telephone conversation between President Johnson and Admiral Raborn, April 6, 1965, 4:26 p.m., FRUS, Vol. XXXIII, declassified 2004, LBJL.

(٤) LBJ Tapes, April 30, 1965, 10:50 a.m. and 11:30 a.m.

(٥) LBJ Tapes, April 30, 1965, 5:05 p.m.

(٦) Ray Cline, Secrets, Spies, and Scholars: Blueprint of the Essential CIA (Washington, DC: Acropolis, 1976), pp. 211-212.

(٧) James Hanrahan, 'An Interview with Former CIA Executive Director Lawrence K.

Red White,' Studies in Intelligence, Vol. 43, No. 1, Winter 1999/2000, CIA/CSI.

(٨) Transcript of telephone conversation between the president and Russell, 8 p.m., September 14, 1965, FRUS, Vol. XXXIII, declassified 2004, LBJL.

(٩) LBJ Tapes, July 2, 1965.

(١٠) William Lair oral history, Vietnam Archive Oral History Project, Texas Tech University, interview conducted by Steve Maxner, December 11, 2001. استخدمنا هذا بموافقة لطيفة من السيد ماكسنر ومن الأرشيف.

(١١) Lilley oral history, FAOH.

(١٢) Colby to Helms تصف المذكرة انطباعات كولبي خلال جولته في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥.

(١٣) رواية شاكلي مأخوذة من مذكراته المنشورة بعد وفاته والتي كتبها بالتعاون مع ريتشارد أ. فينّي، انظر: Spymaster, My Life in the CIA (Dulles, VA: Potomac, 2005).

(١٤) Memorandum from the Central Intelligence Agency to the 303 Committee, September 8, 1966, FRUS, 1964-1968, Vol. XXVIII, document 248.

(١٥) بدأ دونوفان وظيفته كسفير بإعادة إحياء عملية لي مي الكارثية. كانت القوات الصينية الوطنية المهزومة قد استقرّت في المثلّث الذهبي، في التلال في شرق بورما، وهي الأراضي الحدودية الشمالية لتايلاند والطرف الغربي للاوس. أصبحت قوة احتلال عدائية تدير تجارة دولية بالأفيون. ورأى فيها دونوفان مقاتلي حرّية، وانغمس في قضيتهم، «يزوّدهم بالمؤن بينما هو ينفي علناً وجود أي تورّط أميركي»، كما يقول كمبتون ب. جنكينز، وكان يومها مسؤولاً سياسياً في سفارة بانكوك تابعاً لوزارة الخارجية. بدت عملية ترحيل كاذبة لقوات لي مي، بإشراف دونوفان، ذات وقع في النفس ـ طار رجال «السي.آي.أيه.» بـ ١,٩٢٥ رجلاً وصبيّاً من المثلث الذهبي إلى تايوان ـ لكن آلاف الرجال بقوا. وبدلاً من محاربة الشيوعيين، شرعوا في احتكار سوق الأفيون، وفي بناء المصافي لاستخراج المورفين، وفي شحن المخدرات جنوباً إلى بانكوك. ويوفّر جنكينز نظرة مفصّلة إلى ارتباطات دونوفان مع الشرطة والجيش في تايلاند. انظر: Jenkins oral history, FAOH. انظر أيضاً: Frank C. Darling, thailnad and the United States (Washington, DC: Public Affairs, 1965) لنظرة إلى بدايات تورّط «السي.آي.أيه.» في المنطقة بعد الحرب الكورية. وقد تم إعطاء وصف جيّد للسلطة المتوسعة لمحطة «السي.آي.أيه.» في لاوس في الخمسينيات في FAOH oral histories of John gunther Dean, L. Michael rives, and Christian A. ChapmanK وجميعهم خدموا في السفارة الأميركية هناك.

(١٦) Thomas oral history, FAOH.

(١٧) حُددت هذه الاهداف في مذكّرة حضّرتها «السي.آي.أيه.» لـ «اللجنة ٣٠٣»، في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، وفي محضر اجتماع «لجنة ٣٠٣» في ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥. انظر: FRUS, Vol. XXVII.

(١٨) في ٥ آذار/مارس ١٩٦٥، وفي نقاش للعمل الخفي الجاري في إندونيسيا، أبلغ ضابط كبير في «السي.آي.أيه.» «لجنة ٣٠٣» أن «خسارة أمة الـ١٠٥ ملايين للمعسكر الشيوعي ستجعل الانتصار في فيتنام ذا مغزى لا يُذكر». ٣٠٣ Committee minutes, March 5, 1965. وتطرح مذكّرة أخرى من «السي.آي.أيه.» إلى «لجنة ٣٠٣»، مؤرخة في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٥، البرنامج الناشئ للعمل الخفي في إندونيسيا: «منذ صيف ١٩٦٤، و[محذوف، لكن ربما محطة إندونيسيا أو/وقسم الشرق الأقصى التابع لكولبي] تعمل مع وزارة الخارجية في صياغة مفاهيم وبرامج عملية للعمل السياسي في إندونيسيا، وتطويرها... والاندفاعة الرئيسية لهذا البرنامج مصمَّمة لاستغلال الانشقاق داخل الحزب الشيوعي الإندونيسي ذاته، والتشديد على سوء الظن الإندونيسي التقليدي بالبرّ الصيني، ولتصوير الحزب الشيوعي الإندونيسي على انه أداة للامبريالية الصينية الحمراء. وتتضمن الأنواع المحددة للنشاط الذي تم تصوّره ارتباطاً سرّياً مع المجموعات الموجودة المناهضة للشيوعية ودعمها... [تتضمن البرامج الخفية الجارية] تحركاً سياسياً ضمن المنظمات والمؤسسات الإندونيسية [و] تدريباً سرّياً لموظفين ومدنيين مختارين سيتم وضعهم في مناصب حساسة... [ومن بين الاهداف] تنشئة الزعماء المحتملين داخل إندونيسيا بقصد ضمان خلافة غير شيوعية منتظمة عند وفاة سوكارنو أو إطاحته من السلطة». راجع: سجلات «لجنة ٣٠٣» موجودة في: FRUS, vol. XXVI.

(١٩) مقابلة أجراها المؤلف مع ماك أفوي. توثيق دور «السي.آي.أيه.» في إندونيسيا، بما في ذلك برقية ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٥، من غرين إلى بوندي تفصّل مدفوعات «السي.آي.أيه.» لآدم، موجودة في: FRUS, 1964-1968, Vol. XXVI, pp. 338-380. أخفت «السي.آي.أيه.» المجلّد رسميا وسحبته من التداول، لكن ليس قبل طباعة بعض النسخ، وتجليدها، وشحنها. نشر الأرشيف الوطني الصفحات ذات الصلة في تموز/يوليو ٢٠٠١. مقابلة المؤلف مع ماك أفوي تمت بواسطة الهاتف من منزل ماك أفوي في هاواي. تم التأكيد على دور ماك أفوي الحاسم بوصفه ضابطاً في «السي.آي.أيه.» في إندونيسيا من قبل ثلاثة من معاصريه في الوكالة.

(٢٠) Green oral history, FAOH.

(٢١) Martens oral history, FAOH.

(٢٢) Memorandum of conversation, February 17, 1967; LBJ Oval Office meeting with Adam Malik, memorandum of conversation, September 27, 1966; both in FRUS, 1964-1968, Vol. XXVI.

(٢٣) Green testimony, Senate Foreign Relations Committee, January 30, 1967, declassified March 2007.

(٢٤) Green oral history, FAOH.

(٢٥) Bundy to LBJ, 'Subject the CIA,' citing a conversation with Clifford, January 26, 1966.

(٢٦) Raborn to Moyers, February 14, 1966.

(٢٧) LJB to Bundy, February 22, 1966, LBJ Tapes, All cited in FRUS, Vol. XXXIII, and declassified in 2004.

(٢٨) NSC memo to LBJ, March 24, 1966; undated memo for the deputy director of central intelligence, 'The 303 Committee, Senior Interdepartmental Groups'؛ 'Coordination and Policy Approval of Covert Operations,' Febraury 23, 1967, CIA. All cited in FRUS, Vol. XXXIII, and declassified in 2004. تشكل وثيقة ١٩٦٧ حول العمل الخفي، سجلاً مفصّلاً على نحو فريد. وقد وضعت قائمة بالأعمال الخفية الرئيسية حتى تاريخه، مظهرة دقّة السيطرة التنفيذية على «السي.آي.أيه.»:

أ ـ مشاريع وافق عليها مدير الاستخبارات المركزية بموجب سلطته الداخلية: (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢) ـ ٨١ ـ إدارة ترومان؛

ب ـ مشاريع وافق عليها مدير الاستخبارات المركزية بالتنسيق مع مجلس تنسيق العمليات أو مجلس الاستراتيجيا النفسية: (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) ـ ٦٦ ـ إدارة أيزنهاور

ج ـ مشاريع تمت الموافقة عليها وأعاد تأكيدها مجلس تنسيق العمليات، المجموعة الخاصة أو «لجنة ٣٠٣»:

إدارة أيزنهاور ـ ١٠٤؛

إدارة كنيدي ـ ١٦٣؛

إدارة جونسون ـ ١٤٢.

الفصل الخامس والعشرون

(١) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: a Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 311.

(٢) Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), pp. 20-22.

(٣) Memorandum by the chief of the Far East Division, Central Intelligence Agency, July 25, 1967, FRUS, Vol. V.

(٤) George W. Allen, None So Blind: A Personal Account of the Intelligence Failure in Vietnam (Chicago: Ivan R. Dee, 2001), pp. 213-219. كتب ألن أن هدف الإدارة كان استخدام استخبارات ملفّقة «للتلاعب في الرأي العام وللإقناع السياسي، مع هدف تحوير المفاهيم لتتناسب مع أفكار معيّنة، سواء أكانت الدلائل تدعم هذه الأفكار أم لا». وربما بدت الممارسات التي حددها ـ تلفيق الاستخبارات السرّية للسيطرة على نظرة الجمهور ولاختلاق الدعم السياسي ـ مألوفة للكثيرين من الأميركيين اليوم. وكانت ثمة بالطبع تحيّزات غريزية في إفادة الوكالة من سايغون، وهي لم تمرّ بدون أن تتم ملاحظتها. فالمسألة في ١٩٦٧ كانت مَن سيصبح رئيس فيتنام الجنوبية المقبل «ثيو أم كاي». ويقع الخيار النهائي في يد

القيادة العسكرية الفيتنامية. أصرّت «السي.آي.أيه.» على أن القادة سيختارون كاي. لكن موظفي وزارة الخارجية في سايغون، بمن فيهم جون نيغروبونتي، القيصر المقبل للاستخبارات الأميركية، تأكدوا من أنه سيكون ثيو. وقال روبرت أولكي من وزارة الخارجية، «قال لي جون لاحقاً إن التقرير الأخير في «السي.آي.أيه.»: الذي لا يزال يتوقّع كاي، قد وُضع تماماً في الوقت الذي تم فيه استدعاء السفير لودج إلى اجتماع مع قيادة الجيش قيل له فيه إن مرشحها سيكون ثيو. وكانت لـ «السي.آي.أيه.» علاقة طويلة الأمد بكاي، ولذا تكوّن لديها انحياز إليه لا شك في أنه أضفى صبغة على تقاريرهم». Oakley oral history, FAOH.

(٥) LBJ Tapes, September 19, 1966, transcribed in FRUS, Vol. IV.

(٦) تعليقات كومر وتلك المراسلة بين هيلمس وكارفر، موجودة في مجموعة كاملة من البرقيات المباحة بين مقر قيادة «السي.آي.أيه.» ومحطة سايغون، وهي تغطي الخلاف حول نظام المعركة كما حصل في أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، CIA/CREST.

(٧) NIE 53-63, cited in Harold P. Ford, 'Why CIA Analysts Were So Doubtful About Vietnam,' Studies in Intelligence, 1997, CIA/CSI.

(٨) John Huizenga, 'Implications of and Unfavorable Outcome in Vietnam,' September 11, 1967, CIA/CREST, with Helms covering memo declassified in 2004. كان هويزنغا رئيس موظفي مكتب «السي.آي.أيه.» للتقديرات الوطنية، وأصبح لاحقاً مديراً للمكتب.

الفصل السادس والعشرون

(١) 'Problem of exposé of CIA Clandestine Youth and Student Activities,' undated but February 1967, CIA/FOIA.

(٢) Richard Helms with William Hood, A Look over My shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 345. تمت في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، إباحة مذكّرة، في ١٩ أيار/مايو ١٩٦٦، من هيلمس إلى مويرز في البيت الأبيض تفصّل الحياة الشخصية والمهنية لمحرري «رامبارتس» ومراسليها. مثل هذه الإفادة كانت، في شكل جدليّ، من خارج شرعة «السي.آي.أيه.».

(٣) سبق لراسك أن طلب، في مذكّرة في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦١، من المجموعة الخاصة معالجة المشاكل التالية: «١ ـ إن «السي.آي.أيه.» توفّر الآن بعض الدعم لمنظمات خاصة ذات طبيعة تربوية أو خيرية. ٢ ـ أصبحت هذه التمويلات الخفية موضوعاً للأقاويل العامة، أو للمعرفة، هنا وفي الخارج معاً. ٣ ـ التمويل الخفي يضع المنظمات المعنية في دائرة الشك، وربما أدى ذلك، بالتأكيد، إلى منعها من دخول بعض البلدان. ٤ ـ التمويل الخفي يخيف التمويلات ويعيدها، وخاصة تلك الآتية من مصادر أخرى لا تريد لنفسها ان تصبح متورطة مع نشاطات «السي.آي.أيه.» أو غاياتها. ٥ ـ لا توجد حاجة، في معظم الحالات، إلى إخفاء أن التمويل يأتي من حكومة الولايات المتحدة. ٦ ـ يجب بذل كل جهد للانتقال من

الدعم الخفي إلى الدعم المعلن... ٧ ـ ماذا يمكن عمله في هذا الشأن في ما يتعلّق بـ أ ـ مؤسسة آسيا؛ ب ـ نشاطات الطلاب الأفريقيين؛ وح ـ وبآخرين ربما؟». راجع: FRUS, Vol. XXV.

لاحظ اجتماع لجنة ٣٠٣ في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٦٨، لمعالجة مشكلة مؤسسة آسيا، أنه «لا يمكن أحداً أن يتوقع على نحو دقيق ما هي الأموال الفيدرالية التي ستخصص، هذا إذا خُصّصت»، لاستبدال دعم «السي.آي.أيه.». إلا انه، «إذا ما حصلت تنهدات عميقة تحسّراً على الأيام الخوالي للتمويل الخفي المباشر، فإنها لم تُسمع بسبب طنين جهاز تكييف الهواء في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض». FRUS, Vol. X.

(٤) Memo from the Deputy Director of the Bureau of Intelligence and Research to the Deputy Undersecretary of State for Political Affairs, February 15, 1967, FRUS, Vol. XXXIII, declassified 2004.

(٥) أوراق بيرسون موجودة في مكتبة ليندون ب. دونسون. ويظهر عمله في أكثر من ستمئة صحيفة أميركية لها معاً خمسون مليون قارئ. وكانت لبيرسون منزلة خاصة في قلب جونسون بعدما دعم علنا خوضه السباق لنيل ترشيح الحزب الديموقراطي للرئاسة في ١٩٦٠.

(٦) LBJ Tapes/Holland, February 20, 1967.

(٧) Thomas Hughes, draft revision of NSC 5412, dated April 17, 1967, and discussed May 5, 1967, FRUS, Vol. XXXIII.

(٨) Russell cited in 'Briefing by the Director of the CIA Subcommittees of the Senate Armed Forces and Appropriations,' May 23, 1967, declassified March 4, 2001, CIA/CREST.

(٩) James Hanrahan, 'An Interview with Former CIA Executive Director Lawrence K. Red White,' Studies in Intelligence, Vol. 43, No. 1, Winter 1999/2000, CIA/CSI.

(١٠) Osborn to Earman, memorandum for the record, October 4, 1967, CIA/FOIA.

(١١) Robert M. Hathaway and Russell Jack Smith, 'Richard Helms as Director of Central Intelligence,' 1993, CIA/CSI, declassified February 2007.

(١٢) John L. Hart, 'The Monster Plot: counterintelligence in the Case of Yuri Ivanovich Nosenko,' December 1976, CIA/CSI.

(١٣) Hathaway and Smith, 'Richard Helms as Director of Central Intelligence,' p. 124.

(١٤) McCoy memos to Helms cited in Hathaway and Smith, 'Richard Helms as Director of Central Intelligence,' p. 123.

(١٥) Kingsley oral history interview, June 14, 1984, CIA, cited in Hathaway and Smith, 'Richard Helms as Director of Central Intelligence,' p. 123.

(١٦) Taylor interview by Hart, in 'The Monster Plot,' CIA/CSI.

(١٧) Hathaway and Smith, "Richard Helms as Director of Central Intelligence," p. 127.

(١٨) Helms oral history interview, April 21, 1982, cited in Hathaway and Smith, "Richard Helms as Director of Central Intelligence," p. 143. يوفّر تأريخ «السي.آي.أيه.» هامشاً أخّاذاً لتبعة حرب الأيام الستة في ١٩٦٧: «وجد جيمس أنغلتون نفسه منزعجاً باطراد لاحتمال دورة لا تنتهي من الحرب والمزيد من الحرب في الشرق الأوسط. وألّف، وهذا في ذهنه، ما وصفه الذين رأوه، بأنه التماس بليغ من أجل تحرّك درامي ما لاختراق هذا النمط المدمّر. واقترح في مذكّرة [لا تحمل توقيعاً إلى هيلمس، (اقترح) أنغلتون] تحالفاً مناهضاً للسوفيات يضم إسرائيل وبعض الدول العربية المحافظة مثل الأردن والسعودية. واعتبر أنغلتون، أن الأمر كله متوقف على الاستعجال: فكلما طال أمد احتلال إسرائيل للأراضي التي استولت عليها من العرب، كلما أصبحت تل أبيب أقل استعداداً للتخلي عنها. [ثمة مقطع محذوف من التأريخ من الواضح أنه يناقش الدور الدبلوماسي السرّي الذي لعبه أنغلتون ورئيس قسم الشرق الأدنى جيمس كريتشفيلد في محاولة إنشاء هذا التحالف]. عند هذا الحد، تناهى المخطط إلى وزارة الخارجية الأميركية، ووضعت الفيتو على أي دور أميركي إضافي في الإجراءات. وانهار التدبير في غياب لعب الأميركيين دور الوسطاء. ومن وجهتي نظر أنغلتون وكريتشفيلد المريرتين، تمت إضاعة فرصة ذات أبعاد تاريخية ربما». راجع: Ibid., pp. 146-147.

(١٩) تم وصف عملية باتركاب على نحو موسّع في: FRUS, Vols. IV and V.

(٢٠) هذه العملية التي كانت غير معروفة حتى الآن، وصفها توم بولغار في مقالة أجراها معه المؤلف.

(٢١) تم وصف عملية غلوب في مقابلات مع ضباط في «السي.آي.أيه.»، من بينهم جيري غوسينز.

(٢٢) Helms testimony, President's Commission on CIA Activities (Rockefeller Commission), pp. 2497-2499.

(٢٣) Albert r. Haney, 'Observations and Suggestions Concerning the Overseas Internal Security Program,' June 14, 1957, NSC Staff Papers, pp. 11-12, DDEL.

(٢٤) Amory oral history, JFKL.

(٢٥) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار.

(٢٦) Memorandum for the director, 'The Political Role of the Military in Latin America,' Office of National Estimates, April 30, 1968, LBJL. شكّل هذا إعلاناً رسمياً من ٢٩ صفحة من رئيس الوان، أبّوت سميث، الذي كان يقوم بجولة على ثمان من أحدث الديكتاتوريات العسكرية المقامة في المنطقة، اعتبرت ست منها جيدة للمصالح الأميركية.

(٢٧) مقابلة أجراها المؤلف مع غوسنز.

(٢٨) أسرُ رئيس قاعدة «السي.آي.أيه.»، ديفيد غرينويس، موصوف في مقابلة غير منشورة مع غرينويس في مؤسسة هوفر في جامعة ستانفورد. وقد تم اعتقال غرينويس، والقنصل الأميركي مايك هويت، واثنين من اتصالات «السي.آي.أيه.» مدة ١١٤ يوماً قبل أن تحررهم القوات

الخاصة البلجيكية. وأفضل رواية للمعركة بين كوبيي تشي وكوبيي «السي.آي.أيه.» موجودة في Piero Gleijeses, Conflicting Missions: Havana, Washington, and Africa, 1959-1976 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002), pp. 137-159.

(٢٩) تفاصيل أعمال «السي.آي.أيه.» الخفية، من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٦، دعماً لباريانتوس موجودة في: FRUS, Vol. XXXI, documents 147-180, declassified 2004.

(٣٠) Henderson oral history, FAOH.

(٣١) أعيد نشر إفادة رودريغيز من بوليفيا حرفياً في مذكّرتين سلّمهما هيلمس إلى البيت الأبيض في ١١ و١٣ تشرين الأول/أكتوبر١٩٦٧، وأبيحتا في ٢٠٠٤ وأعيد طبعهما في: FRUS, Vol. XXXI, documents 171 and 172.

(٣٢) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار.

(٣٣) UAR desk to Lucius D. Battle, March 16, 1967, FRUS, Vol. XVIII.

(٣٤) Battle oral history, FAOH.

(٣٥) Humphrey speech quoted in Helms transcript, Studies in Intelligence, September 1993.

(٣٦) Memorandum from the Deputy Director of Plans of the Central Intelligence Agency (Karamessines) to all staff chiefs and division chiefs, September 30, 1967, declassified 2004, FRUS, Vol. XXXIII.

الفصل السابع والعشرون

(١) Richard Helms with William Hood, A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 280.

(٢) McClellan letter to Helms, October 25, 1967, declassified 2004, CIA/CREST.

(٣) Karamessines memo to the White House, October 31, 1967, declassified 2004, CIA/CREST.

(٤) 'Luncheon meeting with Secretaries Rusk and McNamara, Walt Rostow, CIA Director Richard Helms,' November 4, 1967, LBJL.

(٥) 'International Connections of U.S. Peace Groups' and Helms cover letter to the president, November 15, 1967, declassified April 2001, CIA/CREST.

(٦) اجتمع هيلمس في ١٦ شباط/فبراير ١٩٦٨، مع المجلس الاستشاري حول الاستخبارات التابع للرئيس. قال إن الاستخبارات الأميركية في شأن هجوم تيت قد أخفقت أولاً وأخيراً «بسبب غياب أي اختراق للفيتكونغ». FRUS, Vol. VI.

(٧) 'Notes of the President's Luncheon Meeting with Foreign Policy Advisors,' February

20, 1968, FRUS, Vol. VI. برغم أن بعض المؤرخين وكاتبي السيرة أعطوا فضلاً كبيراً لمحلل «السي.آي.أيه.» جورج كارفر في تغيير رأي ليندون جونسون في الأسابيع والأيام التي سبقت استقالته، فان طليع مؤرخي فيتنام في «السي.آي.أيه.»، هارولد فورد، كتب أن نفوذ كارفر و«السي.آي.أيه.» «اتضح أنه أقل من نفوذ قوى كثيرة أخرى فوق، وأبعد مما جاءت به «السي.آي.أيه.»: وهو صدمة هجوم تيت ذاته؛ الشعور المتمادي بقوة لدى الكونغرس والعامة؛ والتقويمات الصريحة والقاتمة جدا لما بعد تيت التي قدّمها رئيس الأركان المشتركة أيرل ويلر، وبول نيتزه، وبول وارنك؛ والارتدادات المفاجئة لكلارك كليفورد ومعظم الرجال العقلاء الآخرين الذي سبق لهم أن دعموا جهود جونسون الحربية. وبرغم ذلك، تجب إضافة التقويمات التي رفعها موظفو الخارجية و«السي.آي.أيه.»، إلى الرئيس، إلى أسباب تغيير رأيه».

الفصل الثامن والعشرون

(١) Richard M. Nixon, Six Crisis (New York: Doubleday, 1962) p. 454. كتب نيكسون أنه أعلن عن نيته لجون ف. كنيدي في ١٩٦٠.

(٢) Recorded in "Notes of Meeting, Johnson City, Texas," August 10, 1968, 12:25 p.m. FRUS, Vol. VI. التقى هيلمس مع نيكسون للمرة الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦، عندما قدّم هو وألن دالاس إيجازاً إلى نائب الرئيس حول الثورة المجرية التي تم سحقها. وفي مذكّراته، التي نشرت بعد وفاته، أهمل هيلمس جلسة مزرعة جونسون المذكورة هنا، والتي شكّلت بالطبع لقاءهما الثاني وجهاً لوجه.

(٣) Telephone conversation between President Johnson and President-elect Nixon, November 8, 1968, 9:23 p.m., LBJ Tapes, FRUS, Vol. VII.

(٤) Helms interview with Stanley I. Kutler, July 14, 1988, Wisconsin Historical Archives, ox 15, folder 16, وتم الاستشهاد به بإذن لطيف من البروفيسور كوتلر.

(٥) Helms quoted in John L. Helgerson, 'CIA Briefings of Presidential Candidates,' May 1996, CIA/CSI.

(٦) Thomas L. Hughes, 'Why Kissinger Must Choose Between Nixon and the Country,' The New York Times, December 30, 1973.

(٧) Report of the Covert Operations Study Group, December 1, 1968, CIA/CREST. تلاحمت الدراسة في جزء منها مع التقرير النهائي لمجلس مستشاري الرئيس للاستخبارات الخارجية، المرفوع إلى ليندون ب. جونسون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨. ووصف المجلس نتائج التجسس الأميركي بـ «غير الكفء». وحثّ «على تكثيف الجهود للحصول على استخبارات ذات مغزى حول الأهداف التي لها الأولوية من خلال عمليات جمع معلومات يقوم بها العملاء السريون». وأوصت بقوة بأن تراجع «لجنة ٣٠٣» «كل البرامج الخفية المقررة

من أجل تقويم التقدم الحاصل فيها، وللقيام، في الحالات المناسبة، بإلغاء المشاريع غير المنتجة». راجع: FRUS, Vol. X, document 222.

(٨) المذكرة المؤلفة من مقطع واحد انتهت إلى ملفات ريد وايت، الذي تولى في ١٩٦٩ منصب نائب رئيس الاستخبارات المركزية للمساندة، كبير إداريي الوكالة. وقد أبيحت في ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٣. راجع: CIA/CREST

(٩) Memo from [deleted] to helms, June 18 1969, FRUS, 1969-1972, Vol. II, document 191, declassified December 21, 2006.

(١٠) Kissinger to Nixon, 'Subject: NIE 11-8-69, Soviet Strategic Attack Forces,' with covering memo from Helms annotated by Nixon on December 8, 1969, FRUS, 1969-1972, Vol. II, document 198.

(١١) 'A Look Over My Shoulder' A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 382-388.

(١٢) فحتى أفضل أدوات الاعتراض التنصتية الالكترونية ليست استخبارات. كان لـ «السي.آي.أيه.» ووكالة الأمن القومي، في ١٩٦٨، برنامج اسمه الرمزي غوبي، يقوم باعتراض الخطوط الهاتفية النقالة للزعامة السوفياتية في موسكو. وفي أيلول/سبتمر ١٩٦٨، عشية اجتياح تشيكوسلوفاكيا، اتصل رئيس حلف وارسو هاتفياً، من مطار موسكو، بالزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف. تنصّتت «السي.آي.أيه.» على الاتصال. «المشكلة هي في أنهما ليسا أحمقين، وتحدّثا بعبارات مرمّزة ـ كما تعلم، القمر أحمر، أو جملة سخيفة ما ـ ولم نملك أدنى فكرة إذا عنى ذلك إلغاء الاجتياح أو المضي به»، على ما قاله الضابط في استخبارات وزارة الخارجية، ديفيد فيشر. راجع: Fisher oral history, FAOH.

(١٣) اتفق مسؤول «الكا.جي.بي.» المقيم في هلسينكي ورئيس محطة «السي.آي.أيه.» على عدم محاولة أي طرف منهما اختراق بعثة الآخر. وقال ديفيد فيشر من وزارة الخارجية إن «عواقب الإمساك بنا ستكون أكبر بالتأكيد من أي استخبارات سيمكن جمعها. وعلى حد علمي، فقد التزم الطرفان بالاتفاق. ويعلم الله بأنه وُجدت فرص كثيرة لإيقاع بعض أعضاء البعثة الأميركيين المساكين في شراك فنلندية شقراء ظريفة». راجع: Fisher oral history, FAOH.

(١٤) في ١٩٧٩، أفاد هوارد ستورتز جونيور، وكان ضابط الاستخبارات الوطنية للبرامج الاستراتيجية في «السي.آي.أيه.»، عن «سلسلة من المبالغات الفاضحة في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات، وسلسلة من المبالغات الفاضحة في أواسط وأواخر الستينيات» في تحليل «السي.آي.أيه.» للقوات الاستراتيجية السوفياتية. راجع: Stoertz, Memorandum for Director, National Foreign Assessment Center, declassified July 2006. قال مدير الاستخبارات المركزية جورج ج. تينيت، في آذار/مارس ٢٠٠١، إن «كل تقدير استخباري وطني تمت كتابته حول الموضوع من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٦... بالغ في تقدير المعدل الذي ستعمل من خلاله موسكو على تحديث قواتها الاستراتيجية». انظر: Tnet remarks, Conference on CIA's Analysis of the Soviet Union, Princeton University.

(١٥) Helms, memorandum for the record, 'Talk with President Nixon,' March 25, 1970, FRUS, January 1969-October 1970, Vol. XII, document 147, declassified December 19, 2006. في متابعة لعملية خفيّة مقترحة ضد موسكو، في ١٣ أيار/مايو ١٩٧٠، وضع هيلمس مخططاً من خمس نقاط:

* التوتّرات الصينية ـ السوفياتية. إن النزاع الحدودي الصيني ـ السوفياتي، والصراع العالمي للسيطرة على الاحزاب الشيوعية يجعلان السوفيات سريعي التأثر على نحو كبير [سطر من النص الأصلي لم ترفع عنه السرّية].

* التورّط السوفياتي في الشرق الأوسط، لأن الوجود السوفياتي في الشرق الأوسط يستتبع عوامل متقلّبة كثيرة، توجد فرص لاستجلاب التفسّخ بين العرب والسوفيات.

* العلاقات السوفياتية مع أوروبا الشرقية. النمو الثابت للقومية في أوروبا الشرقية في مواجهة التدخل العسكري السوفياتي والاستغلال الاقتصادي، يجعل من هذه المنطقة أرضاً خصبة لـ[أقل من سطر من النص الأصلي لم ترفع عنه السرّية] عمليات لزيادة التوترات بين الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له.

* العلاقات السوفياتية ـ الكوبية. إن ارتياب كاسترو، الذي له أساس قوي، في ما يتعلق بالمناورات السوفياتية للسيطرة على الحياة السياسية والاقتصادية في كوبا، يخلق وضعاً يدعو [أقل من سطر من النص الأصلي لم ترفع عنه السرية] إلى التلاعب.

* الانشقاقات السوفياتية الداخلية والركود الاقتصادي. يمكن، من خلال رعاية الاضطراب في صفوف الإنتليجنسيا السوفياتية، خلق ضغوط تدفع بالكرملين إلى الحد من تدخلاته الخارجية من أجل الانصراف إلى الأوضاع الداخلية الحرجة.

(١٦) Helms, 'Tensions in the Soviet Union and Easter Europe: challenge and Opportunity,' undated but early April 1970, FRUS, January 1969-1970, Vol. XII, document 149.

(١٧) قال ويلس ستابلر، الذي عمل رئيساً للقسم السياسي في السفارة الأميركية في فرنسا من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥، «كانت لغي موللي [وغيره من زعماء الجمهورية الرابعة الفرنسيين] ما يمكنك تسميته علاقة ائتمانية مع الولايات المتحدة، وقد حصلوا بالفعل على بعض الدعم المالي من الحكومة الأميركية. كنت أزور غي موللي ونجري حديثاً لطيفاً. ثم رنّ الهاتف فرفع نظره وابتسم لي وقال «حسناً، أحد زملائك هنا لزيارتي. وكان الباب الدوار يفصل بيني وبين شخص ما من محطة «السي.آي.أيه.» في باريس... وبصراحة، وجدت في الأمر وضعاً محرجاً». راجع: Stabler oral history, FAOH.

(١٨) بدأ البرنامج في ١٩٤٨، على ما جرى تفصيله في الفصل الثالث، وكلّف ما لا يقل عن ٦٥ مليون دولار، بحسب تقرير من لجنة مجلس النواب لشؤون الاستخبارات المشكلة حديثاً. وجاء في محضر اجتماع «لجنة ٣٠٣» في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٦٥: «نُظر على نحو عام إلى الاقتراح الإيطالي بوصفه «شرّاً لا بد منه»، وتمت الموافقة عليه مع الفقرة الشرطية التالية:

فالسيد [جورج] بوندي، المتحسّر على الفشل المزمن للأحزاب الإيطالية الديموقراطية السياسية في الاعتماد على ذواتها، استخدم عبارة العار السنوي».

أرسل بوندي، في ٤ آب/أغسطس ١٩٦٥، المذكّرة التالية إلى الرئيس جونسون: «ساندت الولايات المتحدة، على مرّ السنين، الأحزاب الديموقراطية السياسية الإيطالية والاتحادات العمالية بمعدّل مرتفع جداً. وفي فترة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥، بلغ مجمل مبلغ المساندة تحت [محذوف] بقليل. واجتزأنا في السنوات الأخيرة من هذه المساندة، أساساً لأن المحترفين المرتبطين عن كثب بالعملية استنتجوا أن أموالنا لا تجني كامل قيمتها، وأن الاحزاب الإيطالية لا تريد هذا القدر من المال الأميركي بقدر ما تحتاج إلى زعامة إدارية نشطة. امتلك الرئيس كنيدي شعورا شخصيا بأن التمويلات السياسية على هذا المستوى مفرطة.... وفي غضون ذلك، ومن خلال قنوات منفصلة وبطريقة ما غير معتادة، جعلنا [محذوف] نعرف أنهم يودون الحصول على كمية أكبر من المال... لا يزال صحيحاً أن المعركة المناهضة للشيوعية في إيطاليا هي معركة سياسة وموارد؛ لكن تسليم الحصص ببساطة، والموارد المستخدمة بذكاء، يشكلان أمرين مختلفين كلّياً». راجع: The 303 Committee minutes and the Bundy memo are in FRUS, Vol. XII, declassified April 2001.

(١٩) Fina oral history, FAOH.

(٢٠) Robert Barbour oral history, FAOH. قال سلف بربور، صامويل غامون، «سينتزع غراهام أجنحة البعوض باستمراء إذا كان ذلك ضرورياً لدعم عملية ما». وهؤلاء رجال أُعجبوا بمارتن.

(٢١) Michael E. C. Ely oral history, FAOH.

(٢٢) Ambassador James Cowles Hart Bonbright oral history, FAOH.

(٢٣) Benson E. L. Timmons, III, oral history, HSTL. كان بنسون نائب رئيس بعثة مشروع مارشال في باريس.

(٢٤) Nixon to Kissinger, Febraury 14, 1969, FRUS, Vol. II, document 298.

(٢٥) استناداً إلى ريتشارد غاردنر، السفير الأميركي في إيطاليا من ١٩٧٧ إلى ١٩٨١؛ راجع: Gardner remarks, Carnegie Council, January 19, 2006. See also Gardner's memoir, Mission Italy: On the Front Lines of the cold War (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2005).

انضم تالنتي، في ١٩٨١، إلى فريق ريغان في البيت الأبيض بوصفه مستشاراً سياسياً غير مدفوع الأجر. وأصبح جزءاً من قضية، أضحت الآن طي النسيان، تتعلق بسوء ممارسة السلطة، وتعرف باسم فضيحة ودتك، أدت في النهاية إلى استقالة المدعي العام للولايات المتحدة، إد ميز.

(٢٦) Wells Stabler oral history, FAOH, ومقابلة مع المؤلف.

(٢٧) تمّت، في نيسان/أبريل ٢٠٠٦، إباحة مختارات من محاضر «لجنة ٣٠٣» التي تغطي الأشهر

الـ١٨ الأولى لإدارة نيكسون. بدأ دعم «السي.آي.أيه.» الخفي للتحالف الوطني للثورة الاجتماعية التابع لثيو في أيلول/سبتمبر ١٩٦٨، عندما سمحت «لجنة ٣٠٣» بأول تخصيص بقيمة ٧٢٥ ألف دولار نقداً. تم تسليم نصف هذا المبلغ إلى ثيو على دفعات من أيلول/سبتمبر ١٩٦٨ إلى آذار/مارس ١٩٦٩. راجع: Records cited: Memorandum for the 303 Committee, August 29, 1968, FRUS, January-August 1968, Vol. VI; Kissinger to Nixon, 'Covert Support for the Lien Minh (National alliance for Social Revolution),' March 27, 1969; Kissinger to Nixon, 'Operations Against Barracks and Storage Facilities in Dien Bien Phu in North Vietnam,' July 18, 1969; Kissinger to Nixon, 'Operations to Undermine the enemy Morale in Vietnam,' December 9, 1969; memorandum for the 303 Committee, December 11, 1969; and 'Minutes of the Meeting of the 303 Committee, 23 December 1969,' in FRUS, January 1969-July 1970, Vol. VI, documents 47, 98, 156, and 165.

(٢٨) Memorandum for the record, 'subject: discussion with the President on Tibet,' February 4, 1960, CIA/CREST.

(٢٩) FRUS, vol. XVII, 1969-1976, documents 273-280, citing 303 Committee meeting of September 30, 1969, and 40 Committee meeting of March 31, 1971).

أعيدت تسمية «لجنة ٣٠٣»، لجنة ٤٠ في شباط/فبراير ١٩٧٠).

(٣٠) Kissinger-Chou memorandum of conversation, FRUS, Vol. XVII, 1969-1976, document 162, declassified September 2006.

(٣١) ليس كلّياً، فبعد عام على ذهاب نيكسون إلى الصين، اقترح جيم ليللي ـ المولود في الصين، والذي عمل على مدى عشرين عاماً جاسوساً أميركياً في آسيا ـ أن ينضم إلى مكتب الارتباط الأميركي الذي سيُفتح قريباً في بكين. وستكون هذه أول بعثة دبلوماسية أميركية منذ أن تولّى ماو السلطة منذ ما يقارب الربع قرن مضى.

حصل ليللي على الإذن بذلك، وعمل على مدى عامين بوصفه أول رئيس محطة في بكين، وفي وقت لاحق تحت إمرة جورج هيربرت ووكر بوش. وكان ذلك قبل أن يصبح بوش مديراً للاستخبارات المركزية في ١٩٧٦. وتم، صراحة، إبلاغ الحكومة الشيوعية الصينية بوضع ليللي كضابط في «السي.آي.أيه.»، وتم القبول به بشرط واحد: لا تجسس. ولا يمكن ليللي أن يجنّد عملاء للتجسس أو يقوم بعمليات خفية... وإلاّ.

وضع ليللي لائحة مشفّرة بالأهداف المستقبلية للوقت المناسب، لليوم الذي قد تفتح فيه «السي.آي.أيه.» محطة حقيقية في بكين. إلا أنه تم اعتراض سبيله إلى أن جاء بوش. وأخذ الدبلوماسي المبطّن الودود ليللي تحت جناحه، وجاء به إلى حفلات الاستقبال للقاء كبار المسؤولين الصينيين، وعرّفه إلى بقية السلك الدبلوماسي. واستذكر ليللي قول بوش له، «أريدك أن تكون جزءاً من عملي. أريد العمل معك وجعلك عضواً في الفريق». وتصادق ليللي بالتالي مع زعيمي الولايات المتحدة والصين المقبلين، بوش ونائب الرئيس دنغ شياو بينغ

الذي تشبّث به ليللي، والذي سيبرز كرئيس للنظام الذي تولّى السلطة إثر وفاة ماو. (اعتاد دينغ القول إنه من غير المهم للهر أن يكون أبيض أو أسود ما دام يلتقط الفئران. ولأمكن أن يكون رئيس محطة جيداً). شرع دينغ وليللي وبوش في العمل معاً. اتفق الأصدقاء الجدد، من حيث المبدأ، على جمع الاستخبارات العسكرية، والاستراتيجية، والتكنولوجية ضد الاتحاد السوفياتي عندما يصبح الوقت مؤاتياً. عاد بوش وليللي إلى الصين، بوصفهما مواطنين عاديين، وأقنعا دينغ بفتح الصين أمام شركات النفط الأميركية. وأُنجزت صفقة الاستخبارات كلّياً في ١٩٨٩، بعدما عيّن الرئيس بوش جيم ليللي سفيراً أميركياً في الصين.

(٣٢) The Lotus records, declassified in December 2006, are in FRUS, Vol. XX, documents 2, 120, and 129. Document 2-memorandum of conversation, 'Subject: Lotus,' Bankok, January 16, 1969-sets the scene.

(٣٣) FRUS, Vol. XX, documents 142 and 143 (Ambassador Len Unger's report on the coup and Kissinger's analysis of the coup for Nixon, November 17, 1971).

(٣٤) Transcript of telephone conversation between president Nixon and Henry Kissinger, April 17, 1970, FRUS, Vol. VI, January 1969-July 1970.

(٣٥) Nixon to Kissinger, April 20, 1970, FRUS, Vol. VI, January 1969-July 1970.

(٣٦) 'Record of President's Meeting with the Foreign Intelligence Advisory Board,' July 18, 1970, FRUS, January 1969-July 1970, Vol. VI, declassified April 2006.

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) 'Record of President's Meeting with the Foreign Intelligence Advisory Board,' July 18, 1970, FRUS, 1969-1972, Vol. II, declassified December 2006.

نرى هنا عدم جدوى السرّية الرسمية. فقد تمت إباحة الملف مرتين بطريقتين مختلفتين. كشفت الأولى عن أن موازنة الاستخبارات بدءاً من ١٩٧٠ كانت ستة مليارات دولار. وأخفته الثانية على أساس الأمن القومي، لكنها تكشف أكثر من الأولى عن انتقادات نيكسون. ويصفّق الكاتب استحساناً لعدم تلاؤم رقباء الحكومة في هذه الحالة.

الفصل التاسع والعشرون

(١) إحداها كوستاريكا، التي أُنشئت ديموقراطيتها في ١٩٤٩ على يد خوسيه فيغويريس فيرّير، المعروف بـ «دون بيبي». وهو قد أُعيد انتخابه للتو، في ١٩٧٠، رئيساً للمرة الثالثة. تزوّج بأميركية ويتحدث الإنكليزية بطلاقة. وعلى مدى السنين، وافق في مناسبات ظرفية على تلقي المال من «السي.آي.أيه.». وقد اعترف بذلك وحده في وقت لاحق من حياته.

قال لـ النيويورك تايمز»، «كنت أتآمر ضد بعض ديكتاتوريات أميركا اللاتينية وأردت مساعدة من الولايات المتحدة. كنت صديقاً جيّداً لألن دالاس». اعتقدت الوكالة أنها اشترت فيغويريس، وهي لم تقم إلا باستئجاره.

كان السفير الأميركي، في أوائل ١٩٧٠، دبلوماسياً محترفاً اسمه كلارنس بونسترا، ورئيس محطة محطة «السي.آي.أيه.». كان إيرل وليامسون، ابن الستين سنة، الواصل حديثاً والمدمن على الكحول، والذي سبق له أن عمل في كوبا. قال السفير بونسترا في تأريخ شفوي إن «إيرل عمل معي في كوبا قبل ذلك بسنوات. وعندما طُرح اسمه رئيساً للمحطة، اعترضت ما لم يعمل وليامسون تحت إمرتي، وعدم قيامه بما اشتهر عنه، وهو تخريب الأمور بعمل خفي غير ضروري: نشاط غير مشروع». ثم إن نيكسون عيّن سفيراً جديداً، والتر بلوسر، الجمهوري الذي خسر مقعده في الكونغرس، وهو جامع تبرعات سياسي رئيسي. وفجأة، أطل التهديد الأحمر. وقال السفير بونسترا «كانت كوستاريكا تخطط منذ بعض الوقت للسماح للاتحاد السوفياتي بإقامة سفارة. وهذا كان شعار كوستاريكا، الديموقراطية والانفتاح على الجميع».

قال السفير بونسترا إن السفير الجديد ورئيس محطته، كوّنا الانطباع الخاطئ بوجود «مخطط شيوعي كبير لجعل كوستاريكا النقطة المركزية لإفساد نصف الكرة الغربي. وشرعا في شتى أنواع العمل، قائمين بحملة صليبية». عملا للتخريب على الرئيس المعاد انتخابه حديثاً في كوستاريكا، لكنهما فشلا في شكل بائس. وأعلن رئيس المحطة، الغارق في مباراة الشرب مع أصدقائه الكوستاريكيين، أن أيام دون بيبي في السلطة باتت معدودة. وتناهى ذلك سريعاً إلى مسمع الرئيس. وفضح علناً مخطط الإطاحة به، وحدد اسم رئيس محطة «السي.آي.أيه.»، واعتبره علناً شخصاً غير مرغوب فيه، وطرده على الملأ من البلاد.

وبالكاد، شكل «العمل غير المشروع» لرؤساء محطات لـ «السي.آي.أيه.» أمثال إيرل وليامسون، عملاً خفياً. وكتب محلل استخبارات في وزارة الخارجية في آذار/مارس ١٩٧٠، «ثمة حساسية متزايدة في شتى أنحاء أميركا اللاتينية... حول مزاعم بتدخّل «السي.آي.أيه.» في الشؤون اللاتينية. وهذه الحساسية حادة على نحو خاص في التشيلي».

وإذا سلّمت الوكالة المال، والأسلحة، والاستخبارات، إلى أيدي متآمري الانقلابات في خلال الحرب الباردة، فإن السوفيات فعلوا أيضاً الأمر ذاته. وكما قامت الوكالة بشن عمليات خفية أدت إلى مقتل مدنيين أبرياء، وسجنهم، وتعذيبهم، فعل ذلك العدو أيضاً. فازت الأموال النقدية الأميركية بالانتخابات في جميع أنحاء العالم، وامتلك السوفيات أيضاً أكياسهم السوداء. إلا أن الحديقة الخلفية لأميركا شكّلت أرضاً صعبة الاختراق على موسكو. وكتب رئيس «الكا.جي.بي.» والزعيم السوفياتي المقبل يوري أندروبوف إبان عهد إدارة نيكسون، أن «أميركا اللاتينية تشكل دائرة مصالح خاصة للأميركيين. علينا أن نتذكّر هذا. وعلى سياستنا في أميركا اللاتينية أن تكون حذرة». راجع: Andropov quoted in Christopher Andrew and Vasili Mitrokhin, The World Was Going Our Way: The KGB and the Battle 'for the Third World (New York: Basic Books, 2005), p. 77.

(٢) ما لم يتم ذكر العكس، فإن الاقتباسات والاستشهادات في هذا الفصل مأخوذة من مجوعة سجلات لـ «السي.آي.أيه.» تمت إباحتها ما بين ١٩٩٩ و٢٠٠٣، ومتوفّرة على الانترنت في موقع: http://foia.state.gov/SearchColls/CIA.asp. See also Peter Kornbluh, The Pinochet File: A Declassified Dossier on Atrocity and Accountability (New York: New Press, 2004).

(٣) تقدّم ملفات «السي.آي.أيه.» نكهة لبعض من الحملة الخفية للتأثير في انتخابات ١٩٦٤. وفي مذكّرة بتاريخ ٢١ تموز/يوليو ١٩٦٤، إلى «لجنة ٣٠٣»، اقترحت «السي.آي.أيه.» ٥٠٠ ألف دولار إضافية لهزيمة أياندي. فسيسمح المال للمسيحي الديموقراطي إدواردو فراي مونتالفا، «بالإبقاء على الزخم والإيقاع في جهود حملته». يسمح لـ «السي.آي.أيه.» بالرد على «طوارئ الدقيقة الأخيرة». وافقت «لجنة ٣٠٣» في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٦٤ على الاقتراح. وقال عضو «السي.آي.أيه.» بيتر جيسوب في مذكّرة إلى ماك جورج بوندي، «لا يمكننا تحمّل خسارة هذه، لذا لا أعتقد أنه يجب أن نقوم بالتوفير في هذه الحالة. نحن نفترض أن الشيوعيين يوزعون المال، لكننا لا نملك الأدلة. ولا بد من أنهم يفترضون أننا نوزّع الأموال وليست لديهم أدلّة. ولنستمر إذاً في دفق المال». قدّم وزير الخارجية راسك إيجازاً إلى ليندون جونسون حول الانتخابات التشيلية في اجتماع لمجلس الأمن القومي في الأول من أيلول/سبتمبر: «يبدو كأن انتخابات ٤ أيلول/سبتمبر ستؤدي إلى انتصار القوى غير الشيوعية في تشيلي، وردّ ذلك جزئيا إلى العمل الجيد الذي قامت به «السي.آي.أيه.»؛ وسيشكل هذا التطوّر انتصاراً للديموقراطية وضربة للشيوعية في أميركا اللاتينية». ومع تخصيص ٣٠٠ ألف دولار لهزيمة أياندي في ١٩٧٠، فإن «السي.آي.أيه.» ربما فاقت «الكا.جي.بي.» إنفاقا بنسبة الضعف في تشيلي. ويوحي أرشيف «الكا.جي.بي.» ان أياندي حصل على ما لا يقل عن ٥٠ ألف دولار من موسكو، وعلى ١٠٠ ألف دولار تمويلاً سوفياتياً قام الحزب الشيوعي التشيلي بتبييضها. والمشكلة مع أياندي، من وجهة نظر الكرملين، هي أنه اشتراكي بورجوازي، ومن أهل الصالونات الزهريين، وليس شيوعياً حقيقياً.

(٤) العلاقة بين «السي.آي.أيه.» وحاضرة الفاتيكان عميقة منذ ١٩٤٧، لكن لا يزال التعتيم عليها شديداً. وقد تسرّب التقرير الفريد حول «نشاطات قوة «السي.آي.أيه.» المنتدبة لتشيلي، بين ١٥ أيلول/سبتمبر إلى ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠»، وألقى الضوء على هذه الناحية.

(٥) Richards Helms with William Hood, A Look Over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), p. 400. يدعو هيلمس في سيرته التشيلي (قبل ١٩٧٠) «بلداً ديموقراطيا صغيراً». واقترحت مزحة قديمة في الصحافة البريطانية أن أكثر عنوان ثقيل على النفس في العالم سيكون: «هزّة أرضية خفيفة في تشيلي، لم يمت فيها الكثيرون».

(٦) Edward M. Korry remarks, Centro de Estudios Publicos, Santiago, Chile, October 16, 1996. Published in Estudios Publicos, Spring 1998.

(٧) مقابلة هيلمس مع ستانلي إ. كوتلر، ١٤ تموز/يوليو ١٩٨٨، راجع: Wisconsin Historical Archives, box 15, folder 16, cited with the kind permission of Professor Kutler.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار.

(٩) وقد ألحقت بمئات الآلاف من الدولارات من شركة «أي.تي.تي.» الأميركية المتعددة الجنسيات، وتسيطر على شركات كثيرة في تشيلي. تم تسليم المال بتوجيه من «السي.آي.أيه.» بإيحاء من أحد أعضاء مجلس إدارة «أي.تي.تي.» جورج ماكون.

(١٠) Phillips testimony, Church committee, July 13, 1975, declassified 1994.

(١١) Haig to Kissinger, December 7, 1970, FRUS, 1969-1976, Vol. II, document 220.

(١٢) Nixon to Kissinger, November 30, 1970 [Haig cited in footnote], FRUS, 1969-1976, Vol. II, document 216, declassified December 21, 2006.

(١٣) Haig to Kissinger, December 7, 1970, FRUS, 1969-1976, Vol. II, document 220.

(١٤) Shultz oral history in Gerald S. Strober and Deborah Hart Strober, Nixon: An Oral History of His Presidency (New York: HarperCollins, 1994), p. 83. يشكل هذا الكتاب مصدراً لا يقدّر بثمن كما هي حال تأريخ ستروبر الشفهي لإدارة ريغان.

(١٥) K. Wayne smith to Kissinger, 'Presidential Meeting with OMB on Intelligence Budget,' December 21 1970, FRUS, Vol. II, document 221. استمر نيكسون في الدفع من أجل اقتطاع كبير وتغييرات جذرية في الوكالة. وقال لكيسينجر في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٧١، في مذكّرة مكتوبة، «أريد تغييراً حقيقياً واسع النطاق في «السي.آي.أيه.» وليس أموراً رمزية وحسب». راجع: FRUS. Vol. II, document 224.

(١٦) شليسينغر واحد من رباعي من الرجال ارتقوا إلى السلطة بعمليات التشحيل التي قاموا بها في الحكومة بدعوة من نيكسون:

* كسبار واينبرغر، رئيس شليسينغر في مكتب الموازنة، هاجم دولة الرعاية في عهد نيكسون. لكنه، بعد عقد على ذلك، ضاعف نفقات البنتاغون بوصفه وزير دفاع رونالد ريغان.

* دونالد رامسفلد، ضرب، من أجل نيكسون، بقوة على الحرب على الفقر في مكتب الفرص الاقتصادية. وخلف في ١٩٧٥ شليسينغر في البنتاغون ليصبح أصغر وزير للدفاع في التاريخ.

* ديك تشيني، عضو في الكونغرس اشتهر في أيامه باقتطاع الموازنة، خَلَف رامسفلد كرئيس لموظفي البيت الأبيض في عهد الرئيس فورد، ثم خلف واينبرغر كوزير للدفاع في ١٩٨٩. وهو، عند وضع هذا الكتاب، نائب لرئيس الولايات المتحدة [حتى نهاية عهد جورج و. بوش في ٢٠٠٩]، ونائب الملك للعمليات الحكومية السرّية.

* عاد رامسفلد وزيراً للدفاع في إدارة بوش الثانية، أقدم وزير للدفاع في التاريخ، ورئيس مؤسسة أنفقت نصف تريليون دولار في السنة.

وهكذا، سار درب السلطة لأربعة من رجال نيكسون قادوا البنتاغون في ٢٢ سنة من أصل السنوات الثلاث والثلاثين الممتدة من ١٩٧٣ إلى ٢٠٠٦. وشاركوا، أربعتهم، الرئيس في احتقاره وكالة الاستخبارات المركزية.

(١٧) أعطى نيكسون تقويماً نموذجياً لأداء «السي.آي.أيه.» لهذا الدور بعدما أمر بحملة دعاية عالمية دعما للقصف المتجدد على فيتنام الشمالية. وكتب نيكسون في مذكّرة إلى كيسينجر وهيغ، في ١٩ أيار/مايو ١٩٧٢، أن «أداء الوكالة في حقل الحرب النفسية لا يعدو كونه عاراً. فهي لم تنتج بأكثر مما ينتجه فأر. أو لنكن منصفين: فإنها أنتجت جرذاً... أنا لا ألوم هيلمس و«السي.آي.أيه.»، ففي النهاية فإنهما لا يساندان سياساتي».

(١٨) James R. Schlesinger, 'A Review of the Intelligence Community,' Top Secret, March 10, 1971, declassified with deletions in 1998, CIA/NARA. شدد التقرير على أفكار شكّلت محور إلغاء منصب مدير الاستخبارات المركزية بعد ٩/١١: ترأس مدير الاستخبارات المركزية جمهوريات متحاربة، وليس كونفدرالية دول. فسلطته على امبراطورية الاستخبارات في ما هو أبعد من «السي.آي.أيه.» كانت معدومة. واقترح شليسينغر إنشاء منصب جديد: مدير الاستخبارات الوطنية، له سلطة فعلية على مختلف القبائل والإقطاعات. لم يكن الوقت مناسباً لنقاش مفتوح حول «السي.آي.أيه.» وستمر ٣٣ سنة قبل احتضان الفكرة وتنفيذها.

(١٩) Haig to Kissinger, with attachment from Kissinger and Shultz to Nixon, 'Review of the Intelligence Community,' March 27, 1971, FRUS, Vol. II, document 229. أدى القتال إلى إنشاء لجنة الاستخبارات في مجلس الأمن القومي ـ بقيادة كيسينجر، طبعاً ـ افترض بها تولّي إدارة الاستخبارات الأميركية. اجتمعت اللجنة للمرة الأولى في ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١، ولم تعاود اجتماعاتها في ١٩٧١ أو ١٩٧٢.

(٢٠) Memorandum by President Nixon, 'Organization and Management of the U.S. Foreign Intelligence Community,' November 5, 1971, FRUS, Vol. II, document 242. أجبر هيلمس نائب المدير كوشمان على الخروج لسببين. الأول، لحماية الوكالة من ريتشارد نيكسون؛ والثاني، بسبب الدعم غير المطلوب الذي قدّمه كوشمان إلى أحد قدامى «السي.آي.أيه.» والذي سرعان ما سيصبح سمكري ووترغيت المسجون، إ. هوارد هانت. بعث هيلمس بملاحظة قارسة إلى نيكسون في ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١، في اليوم الذي تلى الاجتماع المذكور سابقاً للجنة الاستخبارات في مجلس الأمن القومي. وجاء فيها «أرفق في ما يلي نسخة عن هذا النوع من تفويض السلطة إلى نائب مدير الاستخبارات المركزية، الذي يبدو أنه يتماشى مع تعليماتك. وعندما يتم تلقين بديل الجنرال كوشمان بما يكفي، فسأوقع له مثل هذه الورقة». وهذا البديل، وهو الجنرال فيرنون والترز، دخل في الخدمة بعد ذلك بستة أشهر، في ٢ أيار/مايو ١٩٧٢. وسرعان ما طغت على هذه المسألة الأحداث التي حرّكها هوارد هانت وقضية ووترغيت.

(٢١) Nixon comments at July 23, 1971, White House budget meeting, cited in The Haldeman Diaries: Inside the Nixon White House, The Complete Multimedia Edition, CD-ROM, Sony Electronic Publishing, 1994, entry for July 25, 1971. واصل نيكسون في السنة التالية الضغط من أجل التطهير. وكتب إلى هالدمان في ١٨ أيار/مايو ١٩٧٢، أن «إحدى الإدارات التي تحتاج إلى تنظيف داخلي هي «السي.آي.أيه.». المشكلة مع «السي.آي.أيه.» هي في البيروقراطية القوية العضلات التي شلّت دماغها كلّياً، والمشكلة الأخرى هي واقع أن عناصرها، تماماً مثل موظفي الخارجية، هم في الأساس من رابطة آيفي وجماعة جورج تاون بدلاً من نوعية الناس الذين نحصل عليهم في القوات المسلحة و«الأف.بي.آي.». أريد دراسة فورية حول عدد الناس الذين يمكن فصلهم من «السي.آي.أيه.» بأمر رئاسي... أريد لهذا العمل أن يبدأ فوراً، من خلال [مدير الموازنة كاسبار] واينبرغر، من أجل خفض القوى العاملة في «السي.آي.أيه.» في المجموعات الإدارية بنسبة خمسين في

المئة. وهذا الخفض في القوى العاملة يجب أن يتم مع نهاية السنة، بحيث يمكننا التحرّك عندها للمجيء بأناس أفضل. وبالطبع، على خفض العديد أن يتم فقط على أساس أنه ضروري بسبب الموازنة، لكنكما ستعرفان، معاً، السبب الحقيقي، وأريد بعض العمل للتعامل مع هذه المشكلة».

(٢٢) Phillips testimony, Church committee.

الفصل الثلاثون

(١) بين ١٦ شباط/فبراير ١٩٧١، و١٢ تموز/يوليو ١٩٧٣، سجّل الرئيس نيكسون سرّاً أكثر من ٣,٧٠٠ ساعة من لقاءاته ومحادثاته في البيت الأبيض وكامب ديفيد بوساطة ميكروفونات خفية تعمل بالصوت. واتخذ هذا القرار، جزئياً، للاحتفاظ بسجل يحميه من المذكّرات التي سينشرها كيسينجر حتماً.

ألقى نيكسون باللوم على كيسينجر في التنصت على مساعدي البيت الأبيض لوقف التسريبات الصحافية. «أمر هنري بالأمر اللعين كلّه»، قال الرئيس لسكريتيره الصحافي، رونالد ل. زيغلر، في ١٤ أيار/مايو ١٩٧٣. «لقد أمر بالأمر كله، إذا كنت تصدّقني. فهو الذي كان يأتي إلى مكتبي متراقصاً في شأن أن هذا وذاك قد تم تسريبهما. وقلت، حسناً، قم بالتحقيق بأولاد الزنى هؤلاء»، قال الرئيس رافعاً صوته إلى درجة الصياح. «وقد قرأ كل واحدة من هذه العبارات المتنصَّت عليها. وها قد استمتع بها، وتمرّغ بها».

(٢) بالطبع، فما من رئيس كان فوق بعض التسريب عندما يناسبه الأمر، على ما تظهره المحادثة التالية. موضوع تقرير هيلمس كان رئيسة وزراء الهند، إنديرا غاندي، التي أشار إليها نيكسون بـ «تلك العاهرة»، والتي شكّلت زعامتها موضوعاً لدراسة سرّية للغاية سلّمها هيلمس إلى البيت الأبيض:

نيكسون: بالمناسبة، تقرير هيلمس ذلك. . . أعطني نسخة عنه. أريد نشره في الصحافة. أريد كشف ذلك الأمر اللعين كله... أريد أن يصبح هذا التقرير في يدي كاتب افتتاحية يقوم بطبع الأمر برمّته. أريدك الآن أن تنشره... ها إنها الطريقة التي يلعبون بها. وهذه هي الطريقة التي علينا أن نلعبها. ألستَ موافقاً؟

كيسينجر: نعم، أنا أوافق...

نيكسون: تأكد من حصول ذلك بعيداً جداً عن البيت البيض.

كيسينجر: حسناً، سأنجز الأمر اليوم.

Transcript of conversation, December 6, 1971, 6:14-6:38 p.m., FRUS, 1969-1972, Vol. E-7, declassified June 2005.

(٣) Sam Hart oral history, FAOH.

(٤) Baker oral history in Gerald S. Strober and Deborah Hart Strober, Nixon, An Oral History of His Presidency (New York: HarperCollins, 1994), p. 217.

(٥) تم تسجيل المحادثة في المقر الرئيسي لـ «السي.آي.أيه.»؛ واستحصلت قوة التحقيق الخاصة لووترغيت على الشريط في وقت لاحق، والنص موجود في الأرشيف الوطني.

(٦) Walters oral history in Strober and Strober, Nixon: An Oral History, p. 60. خدم والترز، الذي يتحدّث تسع لغات، بوصفه مساعد أركان للرئيس أيزنهاور ومترجماً في الخمسينيات لأيك، ولنائب الرئيس نيكسون، ولمسؤولين كبار في وزارتي الخارجية والدفاع. وشغل منصب الملحق العسكري والرابط مع «السي.آي.أيه.» في إيطاليا من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٢، وفي البرازيل، حيث ساهم في التحريض على انقلاب عسكري، من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٢، ولعب دوراً كبيراً في المفاوضات التي سبقت محادثات السلام في باريس وفي خلالها. وقد أعجب نيكسون بوالترز منذ أن قام الأخير بالمساعدة في إنقاذه من زمر غاضبة خلال رحلة إلى كاراكاس في ١٩٥٨.

(٧) Richards Helms with William Hood, A Look over My shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Random House, 2003), pp. 3-5.

(٨) Colby quoted in Strober and Strober, Nixon, An Oral History, p. 312.

(٩) مقابلة هيلمس مع ستانلي إ. كوتلر، ١٤ تموز/يوليو ١٩٨٨، Wisconsin Historical Archives, box 15, folder 16, cited with the kind permission of Professor Kutler. يروي هيلمس في هذه المقابلة محادثة تصوّر مدى دنو نائبه الجديد من التعاون مع طلب مال الرشوة. وقبل اجتماعه الثالث والأخير مع دين في البيت الأبيض، استدار فرنون والترز صوب هيلمس وقال، «انظر، على افتراض أنني استسلمت، فإن أسوأ ما قد يحصل هو أن يتم طردي أو اضطر إلى الاستقالة». لم يدرك والترز الموقف، ولم يستوعب فكرة أن الوكالة تواجه أقصى الخطر. وقال هيلمس «استلم منصبه منذ نحو ستة أسابيع، وهو لم يدر بالذي يجري. وربما لم يعرف حتى أن الوكالة تملك تمويلات ليست لها أي سندات إثبات».

كتب واضع سيرة هيلمس، توماس باورز، في نهاية السبعينيات أن «دور «السي.آي.أيه.» سيصبح مثاراً للنقاش حتى آخر الأزمان». وكتب طليعة مؤرخي ووترغيت، ستانلي كوتلر، في مطلع التسعينيات، أن دور الوكالة «بدا مقدّراً له أن يبقى غامضاً». لكن السجل الآن أكثر وضوحاً بكثير. فقد شكّل استخدام ستة من رجال «السي.آي.أيه.» السابقين في اقتحام ووترغيت، جزءاً من عادة إدارة نيكسون القيام بعمليات خفية انطلاقاً من البيت الأبيض. حاول نيكسون استخدام «السي.آي.أيه.» لاحتواء «الأف.بي.آي.»، ونجح في ذلك فترة وجيزة جداً. انصاع هيلمس ووالترز لأمر من الرئيس بمماشاة عملية التعمية لمدة ١٦ يوماً كأقصى حد. وكانت التغطية لتنجح لو أن هيلمس خاطر بكل شيء. لكنه أعطى لـ «السي.آي.أيه.» قيمة أكبر من القيمة التي أعطاها لريتشارد نيكسون.

(١٠) FRUS, Vol. II, document 284, editorial note.

(١١) November 10, 1972, entry in The Haldeman Diaries: Inside the Nixon white House, The Complete Multimedia Edition, CD-ROM, Sony electronic Publishing, 1994.

(١٢) White House Tapes, conversation between Nixon and Kissinger, Oval Office, November 13, 1972, National Archives.

(١٣) November 21, 1972, entry in The Haldeman Diaries.

(١٤) Helms interview with Kuttler.

(١٥) Transcript of Nixon interview with Frank Gannon, Walter J. Brown Media Archives, University of Georgia, available online at http://www.libs.uga.edu/media/collections/nixon. أجرى غانون في ١٩٨٣ مقابلة على مدى تسعة أيام مع نيكسون، ونُشرت النصوص الكاملة في ٢٠٠٢.

(١٦) مقابلة هيلمس مع كوتلر.

(١٧) John L. Helgerson, Getting to Know the President: CIA Briefings of Presidential Candidates, 1952-1992 (Washington, DC: Center for the Study of Intelligence, CIA, 1995). زاد نيكسون الموظفين الفعليين في مقر القيادة إلى أكثر من الضعف.

(١٨) White House Tapes, Oval Office, December 27, 1972. شدد نيسكون في مذكّرته المسجلة على «الحاجة إلى تحسين النوعية، بالإضافة إلى خفض عدد كبار أناس الاستخبارات في «السي.آي.أيه.» نفسها. فـ «السي.آي.أيه.» على غرار وزارة الخارجية، هي في الأساس مؤسسة بيروقراطية ليبيرالية. أريد خفض عدد الموظفين هناك إلى النصف على الأقل ـ كلاً من ٣٥ إلى ٤٠ في المئة على الأقل ـ وأريد تحسّناً نهائياً من حيث وضعيات أولئك الذين في «السي.آي.أيه.» حيال سياستنا الخارجية».

(١٩) Halpern oral history in Ralph E. Weber, ed., Spymasters: Ten CIA Officers in Their Own Words (Wilmington, DE: Scholarly Resources, 1999), p. 128.

الفصل الحادي والثلاثون

(١) William Colby, Honorable Men: My Life in the CIA (New York: Simon and Schuster, 1978). يتأثر تصويري هذا المقطع من تاريخ «السي.آي.أيه.» في ذلك الوقت بمقابلات أجريتها شخصياً، وعلى الهاتف، مع بيل كولبي ما بين ١٩٨٨ والأسبوع الذي سبق موته في ١٩٩٦.

(٢) نحن نعرف الآن بحصول بعض الاختراقات لـ «السي.آي.أيه.» في ذلك الوقت على مستويات مخفوضة. فقد أمضى محلل اسمه لاري وو ـ تاي تشين عشرين عاماً يتجسس لحساب الصين بدون أن يتم اكتشافه. ويوحي أفضل دليل متوفّر لدينا اليوم أنه ما من أحد من الجواسيس النائمين كان سوفياتياً. لكن، من وجهة نظر أنغلتون، فإن غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب.

(٣) Schlesinger quoted in Douglas F. Gathoff, "Directors of Central Intelligence as Leaders of the U.S. Intelligence Community, 1946-2005,"2006 CIA/CSI.

(٤) يقول شليسينغر اليوم إنه لم يقصد أن يأخذ الناس أمره بحرفيته، وإنه لم يخطر في باله أبداً أن أحداً سينصاع له، إلا أنه لا يمكن تصوّر أن يتجاهل ضباط «السي.آي.أيه.» أمراً قانونياً من المدير.

(٥) اعتمد الأساس القانوني لقيام الوكالة بعمل خفي على توجيهٍ مشروع من مجلس الأمن القومي، وتفاهم واضح بين الرئيس ومدير الاستخبارات المركزية، وقليل من الإشراف من الكونغرس. هذه العلاقة الثلاثية تعطّلت كلّياً عن العمل في ١٩٧٣. وعند هذا الحد، أصبحت سلطات مستشار الأمن القومي ـ وهو مركز إداري محض لا أساس له في القانون أو في الصفة ـ تشمل كل ما يمكنه فعله سراً، وينجو به من العقاب.

(٦) ائتمن أعضاء الكونغرس الأربعة الذين يرفع تقاريره إليهم، وهم رؤساء اللجان الفرعية في مجلسي الشيوخ والنواب الذين يتولّون موازنة «السي.آي.أيه.». لم يكن هناك ما يخشاه منهم. فاللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ اجتمعت بالتحديد مرة واحدة منذ خريف ١٩٧٠.

(٧) Colby statement, House Select Committee on Intelligence, august 4, 1975. أفـــــادت «السي.آي.أيه.» أنه «لا توجد مؤشرات عسكرية أو سياسية إلى نيات مصر أو تحضيراتها لاستئناف الأعمال العدائية مع اسرائيل».

(٨) Cited in Mary O. McCarthy, "The Mission to Warn: Disaster Looms," Defense Intelligence Journal, Vol. 7, No. 2, 1998. عندما تم نشر الكتاب، كانت ماكارتي مديرة رئيسية لبرامج الاستخبارات في فريق مجلس الأمن القومي. وكانت من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦ ضابطة الاستخبارات الوطنية للإنذار.

الفصل الثاني والثلاثون

(١) وُضع البيان التالي في سجلات الكونغرس في ١٩٩٣، من قبل النائب دون إدواردز، وهو عضو في اللجنة القضائية البرلمانية التي أقرّت مواد اعتبار أن الرئيس نيكسون أخلّ بالوظيفة: «إن النظام الديكتاتوري اليوناني، من خلال جهاز استخباراته، «كي.واي.بي.»، (الذي أسسته «السي.آي.أيه.» ودعمته)، حوّل ثلاث دفعات نقدية مجموعها ٥٤٩ ألف دولار إلى صندوق حملة نيكسون في ١٩٦٨. والناقل هو توماس باباس، رجل الأعمال اليوناني ـ الأميركي المرموق، ذو العلاقات الوثيقة بـ «السي.آي.أيه.»، وبالعقداء، وبحملة نيكسون».

(٢) Nixon White House tapes, March 7, 1973, declassified and transcribed in 1998, National Archives. طلب نيكسون من سكريتيرته، روز ماري وودز، أن تتأكد من عدم وجود أي سجل عن زيارة باباس. وقال «لا أريد وجود أي ما من شأنه أن يشير إلى أنني أشكره على جمعه المال لمتهمي ووترغيت». ولا يعلم أحد، حتى يومنا هذا، لماذا أرسل البيت الأبيض لصوصاً إلى ووترغيت. وربما أن الفريق كان يبحث عن إثبات عن أن رئيس اللجنة الديموقراطية الوطنية، لاري أوبراين، يملك دليلاً على الرابط بين نيكسون وباباس وهو ما امتلكه. لعب باباس دوراً كبيراً في اختيار نائب الرئيس سبيرو أغنيو للترشح إلى جانب نيكسون في ١٩٦٨، وساهم شخصياً بما لا يقل عن مئة ألف دولار لحملة إعادة انتخاب نيكسون في ١٩٧٢. وأراد باباس، في مقابل المنحة الأخيرة، إبقاء السفير هنري تاسكا في اليونان. وتاسكا هو ربما الأميركي الوحيد من خارج حلقة نيكسون الداخلية الذي يعلم بأن باباس هو ناقل أموال حملة نيكسون من الطغمة اليونانية. لم يُتهم باباس أبداً في فضيحة ووترغيت: فقد

أخمدت تحقيقات الكونغرس على أرضية الأمن القومي. ومات في عقاره في بالم بيتش، فلوريدا، في ١٩٨٨.

(٣) Kelly oral history, FAOH.

(٤) ومن بينهم آل أولمر، جون ريتشاردسون، وتوم كاراميسينس رئيس الجهاز الخفي في عهد ريشتارد هيلمس، الذي جاء إلى أثينا أولاً في ١٩٤٧. وفي خلال الخمسينيات، رعى ألن دالاس شخصياً ملك اليونان وملكتها، وحرس قصرهما، بينما اشترى رؤساء المحطات خدمات الجنود اليونان والجواسيس. «كنا نذير اليونان»، قال هربرت دانيا بروستر، وهو دبلوماسي أميركي كرّس حياته المهنية للبلاد من أوائل الخمسينيات وما بعدها. «تمتعنا بالسيطرة التامة».

(٥) Anschutz oral history, FAOH.

(٦) Lehman oral history interview, 'Mr. Current Intelligence,' Studies in Intelligence, Summer 2000, CIA/CSI.

(٧) Blood oral history.

(٨) Kennedy oral history, FAOH.

(٩) Boyatt oral history, FAOH.

(١٠) Crawford oral history, FAOH. كانت للعقداء اليونان أسبابهم في كره الأسقف مكاريوس. شرح كراوفورد ان مكاريوس «قد ساعد شاباً، من البرّ اليوناني، حاول في ما بعد اغتيال رئيس وزراء اليونان. وقد وفّر له مكاريوس ملجأً آمناً، واستخدام الحقيبة الدبلوماسية القبرصية، وجواز سفر مزوّراً ليتمكن من العودة إلى اليونان بعد عام من التخطيط السرّي في قبرص».

(١١) Kubisch oral history, FAOH.

الفصل الثالث والثلاثون

(١) Ford in National Security Council meeting minutes, October 7, 1974, GRFL.

(٢) Schlesinger in ibid.

(٣) Colby quoted in John L. Helgerson, getting to Know the President: CIA Briefings of Presidential Candidates, 1952-1992. CIA/CSI.

(٤) Angleton testimony, Church Committee hearings, September 23, 1975.

(٥) Silberman oral history, FAOH.

(٦) عاش هيلمس حالة تمزّق بين الحقيقة والسرّية. فهو، في شهادته أمام الكونغرس قبل تثبيته سفيراً أميركياً في إيران في ١٩٧٣، كذب في شأن ما الذي فعلته «السي.آي.أيه.» أو لم تفعله للإطاحة بالحكومة التشيلية المنتخبة. وفي خلال سنواته الأربع كسفير عاد مراراً إلى

واشنطن بناءً على أوامر من لجنة في الكونغرس، ومن محققين جنائيين، والمجالس العليا للبيت الأبيض. ومثل هيلمس، مذلاً لكن متحدياً، أمام قاض فدرالي في واشنطن في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧، وحكم عليه بسنتي سجن مع وقف التنفيذ وبدفع ألفي دولار غرامة بدلاً من حكم بارتكاب ثماني جنايات. وقبل بتهمة ارتكابه جنحة عدم قيامه بإعطاء شهادة كاملة أمام الكونغرس ـ كذبة بيضاء، خطيئة إغفال. وحاجج هيلمس بأنه أدى قسماً أكبر كمدير على حماية أسرار الأمة. قامت إدارة كارتر بتمحيص عملية المقاضاة، وقررت تركها تأخذ مجراها. وقالت المحكمة ان أحكام الدستور والقوانين في الولايات المتحدة، أقوى من سلطة السرّية.

(٧) Memorandum of conversation, January 4, 1975, GRFL.

(٨) Memorandum of conversation, January 4, 1975, GRFL. تمت إباحة ملاحظات من الاجتماع في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢:

فورد: ذهب كولبي إلى سيلبرمان ليس فقط بتقريره، بل أيضاً بالكثير من المزاعم.

روكفللر: بناءً على طلب منك؟

فورد: بدون معرفتي...

[وَصَفَ الدكتور كيسينجر كتاب «الفظائع»].

فورد: نخشى من أن «السي.آي.أيه.» ستُدمّر... وهيلمس يعتقد أن كولبي جار عليه. وقد أوضح هيلمس أنه إذا ما تم رمي بعض القطط الميتة فإنه سيقوم من جانبه أيضاً برمي البعض منها.

كيسينجر: وقد رفع كولبي إلى القضاء أيضاً إمكان أن يكون هيلمس قد حنث باليمين.

روكفللر: هذا يثير أسئلة حقيقية حول حكمه على الأمور.

فورد: ناقشنا هذا وقررنا أنه ليس في إمكاننا إزاحته الآن.

(٩) Gerald R. ford oral history, July 8, 2003, JFKL.

(١٠) Memorandum of conversation, February 21, 1975, GRFL.

(١١) Memorandum of conversation, March 28, 1975, GRFL.

الفصل الرابع والثلاثون

(١) Minutes of the Washington Special Actions Group, April 2, 1975, declassified September 7, 2004. بعد أيام على هذه المحادثة، سقطت كمبوديا. كانت للسفير الأميركي جون غنتر دين، ورئيس محطة «السي.آي.أيه.» ديفيد ويبل إحاطة أفضل للوضع المحيط بهم من زملائهم في سايغون. وروى دين أنه «كانت لـ «السي.آي.أيه.» فكرة جيدة عن نوعية الخمير الحمر وزعامتهم. فديفيد ويبل... أعطانا، قبل نيسان/أبريل ١٩٧٥، توثيقاً عن بعض الأعمال البربرية التي يرتكبها الخمير الحمر». راجع/ Dean oral history, FAOH.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع بولغار. عندما تسلّم بولغار مهامه في كانون الثاني/يناير ١٩٧٢ من

تيد شاكلي، كان في إمرته ٥٥٠ ضابطاً في «السي.آي.أيه.»، ٢٠٠ منهم من العاملين في الخفاء. بقيت تعليماته من نيكسون وكيسينجر ثابتة بعد التوقيع على اتفاقات السلام في ١٩٧٣ في باريس: «أكمل الحرب بوسائل أخرى للإبقاء على فيتنام غير شيوعية». وقد شهد بولغار على نحو مباشر بعضاً من الدبلوماسية التي مُنح هنري كيسينجر من أجلها جائزة نوبل للسلام. فالاستراتيجي الكبير فاوض على شروط اتفاق سلام وعلى وقف لإطلاق النار مع فيتنام الشمالية قبل أسابيع من الانتخابات الرئاسية الأميركية في ١٩٧٢، بدون موافقة رئيس فيتنام الجنوبية، الفاسد نغويان فان ثيو. وفي سايغون، وفي عشاء حضره كيسينجر، والسفير الأميركي إلسوورث بانكر، ومساعد كيسينجر جون نيغروبونتي، أعطى كيسينجر بنفسه تعليمات إلى بولغار «بممارسة الضغط على ثيو» من خلال ركائز «السي.آي.أيه.» في الجيش الفيتنامي الجنوبي. وأجاب بولغار بأنه لا معنى لأمر كيسينجر؛ فلم تعد هذه هي الطريقة التي تجري فيها الأمور في سايغون بعد الآن. وهي أصبحت أكثر بلا معنى بعدما سرّب كيسينجر قصة مفاوضاته السرّية إلى مراسل مفضّل لديه في «نيوزويك». وقد بعث المراسل بموضوعه برقياً من سايغون، واعترضته الاستخبارات الفيتنامية الجنوبية، وأعطت نسخاً عنه لكل من الرئيس ثيو وتوم بولغار. وأظهره رئيس المحطة لكيسينجر الذي أجاب: «هذه رائحة كريهة للحقيقة».

بقيت موازنة محطة «السي.آي.أيه.» عند حد ٣٠ مليون دولار في السنة فيما تراجع الحضور العسكري الأميركي في ١٩٧٣ و١٩٧٤. أدار بولغار عمليات جمع معلومات استخبارية وليس مهمات شبه عسكرية. برّح محقّقو «السي.آي.أيه.» بالجنود الشيوعيين المعتقلين وبالمشتبه بأنهم جواسيس. ومحّص محللو «السي.آي.أيه.» في رزم من التقارير الميدانية. وقام رؤساء الفروع في «السي.آي.أيه.» في كل من القطاعات العسكرية الفيتنامية الجنوبية الأربعة بالتنسيق بين مئات الضباط الأميركيين والفيتناميين الجنوبيين. وقام العدو بالتقدّم.

واصلت «السي.آي.أيه.» محاولة تحديد مكان مقر القيادة الميدانية للعدو ـ بنتاغون قصب البامبو، بحسب ما اسماه الجيش الأميركي ـ، لكن لم يوجد في الأدغال سوى الخيم والأنفاق والخصم الراسخ العزم. وبعد سقوط ريتشارد نيكسون في آب/أغسطس ١٩٧٤، تمرّد الكونغرس على الحرب، وبدأ في اقتطاع مئات الملايين من الدولارات من الجهد المبذول لإبقاء الجيش الفيتنامي الجنوبي عائماً. وبحلول آذار/مارس ١٩٧٥، كان الجنود الفيتناميون الشماليون يستأصلون الفرق الفيتنامية الجنوبية ويتقدمون إلى سايغون. وأدى الفشل في وضع خطة متماسكة إلى مقتل آلاف الفيتناميين الذين عملوا لصالح الولايات المتحدة، أو أسرهم عاد السفير مارتن إلى واشنطن، وأصبح مساعداً خاصاً لهنري كيسينجر.

(٣) Arnold oral history, recorded by Gayle L. Morrison. أمضت موريسون، وهي واصفة للأعراق البشرية، تسع سنوات تسجّل روايات شهود عيان، بضمير المتكلم، من الهمونغ والأميركيين الذين يذكرون سقوط لونغ تيانغ. وكتابها الرائع هو Sky is Falling: An Oral History of the CIA's Evacuation of the Hmong from Laos (Jefferson, NC: McFarland, 1999)، وتعتمد إعادة تركيبي للأحداث على عملها، بما في ذلك التواريخ الشفوية للجنرال أدرهولت والنقيب نوتس.

(٤) Richard L. Holm, 'No Drums, No Bulges: Recollections of a Case Officer in Laos, 1962-1965,' Studies in Intelligence, Vol. 47, No. 1, Spring 2003, CIA/CSI.

الفصل الخامس والثلاثون

(١) George Bush, All the Best, George Bush: My Life in Letters and Other Writings (New York: Scribner, 1999), pp. 195-196, 239-240; Herbert S. Parmet, George Bush: The Life of a Lone Star Yankee (New York: Scribner, 1999), pp. 189-194.

(٢) Bush, All the Best, p. 255.

(٣) Douglas F. Garthoff, 'Directors of Central Intelligence as Leaders of the U.S. Intelligence Community, 1946-2005,' 2006, CIA/CSI.

(٤) Carver oral history interview, May 13, 1982, CIA/CSI.

(٥) George Bush letter to the president, June 1, 1976, declassified August 9, 2001, CIA.

(٦) Frank G. Wisner, Jr., oral history, FAOH. روى أنه، منذ البداية، «ترعرعت في الحرب العالمية الثانية، ولدي ذكريات حيّة عن والد يمضي إلى الحرب... والتقيت، وأنا طفل، بالجنرال مارشال، وألن دالاس، وعرفت الكثيرين من وزراء الخارجية والدفاع في معرض ذلك وأنا ولد صغير... لديّ ذكريات قوية، وقويّة جداً عن نهاية الحرب، ونشوء مرحلة ما بعد الحرب، وبداية الحرب الباردة نفسها، انعكاسات حادة تولّدت من ذاك الزمن... كان والدي، على مدى سنين طويلة، رئيساً للجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.». وأنا أذكر نشوب الحرب الكورية، ومرورها، والأزمة في واشنطن إبان سنوات ماكارثي، ونشوء حلف شمال الاطلسي، وحرب السويس. كنت في المدرسة في بريطانيا، وشعرت كما لو أنني تقريباً في خطوط الجبهة... وعندما وصلت إلى واشنطن في بداية إدارة كنيدي للانضمام إلى الخدمة الخارجية، تملّكني شعور حقيقي جدا كما لو أنه سبق لي أن عشت حياة الشؤون الخارجية».

(٧) The Bush-Carter briefings are detailed in CREST documents and in John L. Helgerson, Getting to Know the President: CIA Briefings of Presidential Candidates, 1952-1992, CIA/CSI.

(٨) سلكت اللجنة مسالك غامضة محاولة التحقيق في «مزاعم مؤامرات الاغتيال» من دون ان تلتقط واقع أن رؤساء قد سمحوا بها. وآخر مساهماتها كانت تأريخا كفوءا لـ «السي.آي.أيه.» ونصوص الإفادات التي أخذتها والتي لم تتم إباحة معظمها إلا بعد انتهاء الحرب الباردة. انحلّت لجنة مجلس النواب على ضغينة؛ تم تسريب المسودة الأخيرة لتقريرها الذي لم يُنشر رسميّا أبدا. لم تنجح المحاولة الحقيقية الأولى للاشراف من الكونغرس. «ما الذي انتجته، بعد الانتهاء منها، سوى سيرك إعلامي؟» قال جون هورتون، وهو احد خبراء السي.آي.أي. البالغ أربعين عاما والمنفتح الذهن جدا، عن لجنة تشيرتش في ١٩٨٧. «من الذي اغتالته «السي.آي.أيه.» أبدا؟ لا أحد، بقدر ما يمكنني القول. إلا انه كان يمكن الاعتقاد بأن هذا هو كل ما كنّا نقوم به».

(٩) Helgerson, Getting to Know the President.

(١٠) George Bush, 'Subject: Meeting in Plains, Georgia, 19 November 1976,' CIA/FOIA.

أبلغ بوش كارتر عن «عمليات مراقبة إلكترونية غير مرخّصة» لمواطنين أميركيين، واتصالات «السي.آي.أيه.» بمنظمة التحرير الفلسطينية، والقضية غير المحلولة لنيكولاس شادرين المنشق السوفياتي العامل لـ «السي.آي.أيه.» ـ أو ربما الجاسوس المزدوج ـ الذي قُتل في فيينا قبل أحد عشر شهرا. وهناك جانب آخر من عمليات «السي.آي.أيه.» في فيينا لم يذكره بوش. فبعد اغتيال ريتشارد ولش في أثينا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٥، وفي واحد من آخر أعماله كمدير، أعطى أوامره بعقد محادثات سرّية بين ضباط «السي.آي.أيه.» والاستخبارات السوفياتية في أثينا. أراد أن يعرف إذا كانت لموسكو يد في عملية القتل، وهو ما يمكن أن يشكّل انتهاكاً للقواعد غير المكتوبة للحرب الباردة. وأراد أيضاً أن يتكلّم لمجرد الكلام. فلم يسبق للطرفين أن حصلا على قناة اتصال رسمية على أعلى المستويات. ووجد كل منهما المحادثة مفيدة، وبقي الخط مفتوحاً لما بقي من الحرب الباردة.

(١١) Lehman oral history interview, 'Mr. Current Intelligence,' Studies in Intelligence, summer 2000, CIA/CSI.

(١٢) Bush notation, George Carver memo, May 26, 1976, CIA/CRESt.

(١٣) Raymond L. Garthoff, 'Estimating Soviet Military Intentions and Capabilities,' Gerald K. Haines and Robert E. Leggett (eds.), Watching the Bear: Essays on CIA's Analysis of the Soviet Union, CIA/CSI.

(١٤) Robert M. Hathaway and Russell Jack Smith, 'Richard Helms as director of Central Intelligence,' 1993 CIA/CSI, declassified February 2007.

(١٥) Bush address, CIA headquarters, January 19, 1977.

الفصل السادس والثلاثون

(١) بينما لم تتم إباحة الكشف عن العدد الدقيق، «فإن إدارة كارتر غالباً ما استفادت من برامج العمل الخفي»، بحسب ما قال نائب مدير الاستخبارات المركزية في عهد كارتر، فرانك كارلوتشي. انظر: Carlucci oral history, FAOH.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع سورنسن. وقد عمل شقيقه توماس سورنسن لـ «السي.آي.أيه.» في خلال الخمسينيات. أصبح توماس الرجل الثالث في وكالة المعلومات الأميركية في عهد جون ف. كنيدي وإدوارد ر. مورّو؛ كان صلة الوصل بين وكالة المعلومات وريتشارد هيلمس، يدمج الأخبار والدعاية، بينما تيد يكتب الخطابات في البيت الأبيض في عهد كنيدي.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع تورنر.

(٤) Holdridge oral history, FAOH.

(٥) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 95.

(٦) قال بريجنسكي إن «العقيد كوكلينسكي تطوّع للتعاون مع الولايات المتحدة، مشدداً على أنه يرغب في التعاون مع الجيش الأميركي بوصفه ضابطاً بولندياً. كانت له يد كبرى في إعطاء الولايات المتحدة فهماً أكبر بكثير مما كان لها في ما يتعلّق بالخطط الحربية لحلف وارسو، والخطط السوفياتية لهجوم فجائي كاسح على أوروبا الغربية ـ بما في ذلك، بالمناسبة ـ خطة لا يُعرف عنها الكثير لاستخدام الأسلحة الذرّية منذ اليوم الأول للهجوم على أوروبا الغربية. وسأعطيكم مثلاً محدّداً. قضت خطط الحرب السوفياتية، في اليوم الثاني للهجوم على أوروبا الغربية باستخدام أربعين سلاحاً ذرّياً تكتيّاً على هامبورغ وحدها في ألمانيا الغربية. وشكّلت تلك بالتالي مساهمة مهمّة للغاية في تعبئة الفجوات الكبرى في فهمنا التخطيط الحربي السوفياتي. وإلى الحدّ الذي شكّلت فيه الوكالة القناة التي وفّرت الاتصال معه، شكّل ذلك نجاحاً للوكالة برغم أن العقيد كوكلينسكي لم يكن أبداً، بالمعنى الحصري للكلمة، عميلاً لـ «السي.آي.أيه.» لقد تطوّع، وعمل من تلقاء نفسه. وهو لم يحصل في الواقع عاى تعليمات». مقابلة أجراها المؤلف مع بريجنسكي.

(٧) مقابلة أجراها المؤلف مع سميث. وقد ركّز سميث، الذي تم تجنيده في دارماوث في بداية الحرب الكورية ودرّبه الجيش على اللغة الروسية، على الهدف السوفياتي في محطات «السي.آي.أيه.» في براغ، وبرلين، وبيروت، في خلال أواخر الخمسينيات والستينيات. وقام شخصياً بتجنيد ستة أوروبيين شرقيين وتحريكهم، ودرّب مئات الشبان من ضبّاط «السي.آي.أيه.» على قواعد التجسس في مدن الحرب الباردة بدون أن يتم الإمساك بهم. وبحلول ١٩٧٥، عندما أجبر أنغلتون على التقاعد، شرع سميث ورفاقه في تجنيد أول سوفياتييهم.

أهم مجنّديه هو سيرغي فيديرينكو، وهو دبلوماسي معيّن لمسائل الحد من الأسلحة في أمانة سرّ الأمم المتحدة في نيويورك. وفيديرينكو، وهو مهندس من حيث التدريب وعضو في النخبة السوفياتية من حيث المولد، كان شاباً وطموحاً. يهوى الشراب. له زوجة جميلة وإلى جانبها عشيقة في ضواحي شمال نيويورك. وها أنني أصبحت غشاشاً»، قال سميث. «هذه طبيعتي، وهذا هو ما تدرّبت عليه. فأنت لا تجنّد سوفياتياً. بل على السوفياتي أن يجنّد نفسه. الأمر أشبه بعندما تضع فتاة نصب عينيك. فعلى كل منكما أن يجد في الآخر أمراً جذّاباً. الأمر في جوانب عدّة منه أشبه بالاغواء... وهكذا، قمت بتجنيد الفتى. واحذر ماذا؟ تلقّى دروسه بوصفه عالماً، وعمل على منظومة الصواريخ السوفياتية».

أخبر فريديرينكو عن طبيعة عمل كل عضو من أعضاء البعثة السوفياتية في الأمم المتحدة في نيويورك، بما في ذلك تقرير مفصّل بالأسماء ومواطن الضعف لضباط «الكا.جي.بي.» الذين يدّعون أنهم دبلوماسيون. وقد تمت ترقية سميث، على دوره النجومي هذا، إلى رئيس لأحد أقسام «السي.آي.أيه.» الذي يركّز على مكافحة الإرهاب. إلا أن مجال الاختيار ضاق كثيراً بـ «السي.آي.أيه.»، عندما أصبح عليها أن تختار ضابطاً محرّكاً يتولى أمر فيديرينكو. فصفوف الذين يتحدثون الروسية بطلاقة في القسم السوفياتي/الأوروبي الشرقي في الجهاز الخفي، صارت صغيرة جداً. اختار مقر القيادة مدمناً على الكحول عمره ٣٤ عاماً أصبح خائناً لـ «السي.آي.أيه.» كان لا يزال فتى يسبح مع والده في نهر إيرّوادي في بورما عندما اكتشف

أن أباه يعمل للوكالة. عمل في الستينيات موظفاً في الملفّات في «السي.آي.أيه.» لمدة خمس سنوات، وهو يحاول إنهاء إجازته الجامعية. وأصبح أخيراً، في ١٩٦٧، عضواً في الجهاز الخفي. تزوج بضابطة في «السي.آي.أيه.»، وأصبح، بكل معنى الكلمة، متزوجاً بـ «السي.آي.أيه.» وكان اسمه ألدريتش إيمس.

(٨) 'Subject: South Africa and Rhodesia,' Special Coordination Committee Meeting, February 8, 1977, and National Security Council meeting minutes, March 3, 1977, JCL.

(٩) Carlucci, oral history, FAOH.

(١٠) مقابلة أجراها المؤلف مع غوسنز. انضم غوسنر، المولود في تكساس والمترعرع في بيروت، إلى «السي.آي.أيه.» في ١٩٦٠، وعمل عبر الشرق الأوسط، على نحو سرّي كبير، بوصفه وكيلاً لمحركات إيفنرود البحرية، قبل أن يضم إلى القسم الأفريقي. تهافت المئات من رجال «السي.آي.أيه.» الشبان الطموحين ـ وبضعة من النساء ـ لتحقيق تفوّق على الجواسيس السوفيات، والصينيين، والألمان الشرقيين في أفريقيا خلال الستينيات والسبعينيات. «كنّا شبّاناً على استعداد للذهاب إلى لجج الجحيم»، قال غوسنز. امتلكنا توجهات تجسسية قبل وقت كثير من مجيء بقية أفراد الوكالة. واعتاد رئيس فرعنا القول: أعطوني ٢٥ ألف دولار يمكنني استئجار أي رئيس أفريقي». إلا أننا لم نأت إلى هنا للقيام بذلك. فإن وظيفتنا هي التجسس. وكانت أفريقيا لا تزال مكاناً على درجة كبرى من سرعة التقلّب، بحيث إننا موجودون هناك في الوقت الذي تتم فيه صناعة التاريخ. ويمكننا الشروع في عملية ما عن طريق الصدفة، كأن تذهب مثلاً مع السفير لرؤية الرئيس. ويقول أحد أعضاء فريق الرئيس: أتعلم، لدي كاميرا بنتاكس معطّلة، ولا يمكنني الحصول على قطع غيار. تقدّم إليه معروفاً. وينتهي بك الأمر وأنت تفتّش في الأرشيف الرئاسي».

(١١) Wisner oral history, FAOH.

(١٢) Eagleburger oral history, FAOH.

(١٣) Stansfield Turner, Burn Before Reading: Presidents, CIA Directors, and Secret Intelligence (New York: Hyperion, 2005), p. 187.

(١٤) McMahon interview with author.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(١٦) Memorandum for Zbigniew Brzezinski, 'Subject: Covert Action Possibilities in Selected [deleted] Areas,' February 5, 1979, NSC, JCL. إلا أنه كانت هناك عملية خفية أخرى بدأت في عهد كارتر وأعطت ثمارها بعد ذلك بخمس عشرة سنة. هدفت إلى كشف الارتباطات بين مهرّبي الكوكايين وحكومة كولومبيا. في ١٩٧٧، «جاءني رئيس محطة «السي.آي.أيه.» بخطة لتدخل «السي.آي.أيه.» في عمل مكافحة المخدرات»، قال روبرت و. دكستر، وكان يومها نائب رئيس البعثة في السفارة الأميركية في بوغوتا. «ويجب ألا تعرف وكالة مكافحة المخدرات بذلك. وقد وافقت عليها، وشرعنا بها. وقضت الفكرة بتمرير ذلك

إلى واشنطن. عمل البرنامج على نحو جيد جداً. وكانت الاستخبارات التي جمعها مروّعة، لأنها تفصّل الانتشار السريع للفساد». في ١٩٩٤ و١٩٩٥، بلغت هذه العملية أوجها في القضاء المدعوم من «السي.آي.أيه.» على واحدة من حلقات الكوكايين الكولومبية الرئيسية، وهي كارتيل كالي، الذي أنجز بالاشتراك مع وكالة مكافحة المخدرات الأميركية.

(١٧) برغم أن جميع السجلات تقريباً للإخفاق في التحذير من الاجتياح السوفياتي لأفغانستان، لا تزال قيد الحفظ، فإن دوغلاس ماك إيتشين، نائب مدير الاستخبارات من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٥، نشر، في ٢٠٠٢، تقويماً لتأدية «السي.آي.أيه.»، مستنداً في عمله إلى السجل السرّي، وكذلك إلى التجربة المباشرة التي عاشها بوصفه واحداً من أفضل محللي الشؤون السوفياتية في الوكالة. Douglas MacEachin, 'Predicting the Soviet Invasion of Afghanistan: The Intelligence Community's Record,' Center for the Study of Intelligence, 2002, CIA/CSI. وتستند روايتي عن الاخفاق في جزء كبير منها، إلى هذا العمل، بالإضافة إلى مقابلات مع بريجنسكي وغيتس.

(١٨) Gates, From the Shadows, p. 132. يظهر هذا المقطع بالتأكيد في الإيجاز اليومي للرئيس برغم أن غيتس لا يقول ذلك.

(١٩) 'Subject: Iran,' Special Coordination Committee, December 17, 1979, National Security Archive collection.

(٢٠) The December 19, 1979, report to the president is cited in The Soviet Invasion of Afghanistan, a classified CIA history cited in MacEachin's 'Predicting the Soviet Invasion'.

(٢١) MacEachin, 'Predicting the Soviet Invasion'.

الفصل السابع والثلاثون

(١) Nixon to Haig and Ambassador Douglas MacArthur II, April 8, 1971, FRUS 1969-1976, Vol. E-4, Documents on Iran and Iraq, declassified September 12, 2006.

(٢) Precht oral history, FAOH. كان بريشت في أيلول/سبتمبر ١٩٧٩ في أحد مستشفيات واشنطن في انتظار أن تجرى له عملية جراحية: «قبل دخولي غرفة العمليات، تطلّعت من حولي. وكان شخصاً آخر ممدداً هناك. إنه وي هندرسون الذي كان سفيراً في ١٩٥٣ عند الإطاحة بمصدّق. وفكّرت في أنه موجود عند الإنشاء، وموجود عند الدمار. وبعدما استعدت إمكان المشي، سرت إلى غرفته... سألته كيف كان [الشاه] في أيامه في إيران. وأجاب، لم يكن يهم. كان غير ذي مغزى. كان شخصاً ضعيفاً. وبرغم ذلك، كان علينا التعامل معه. وهكذا، فإنه أكّد ما كنت أشك فيه: انتفخ الشاه بالقوة التي حظيت بها إيران مع القفزة في المداخيل النفطية، بالإضافة الى التملّق النفاقي من نيكسون وكيسينجر ومن زعماء أجانب آخرين».

(٣) للجملة التي استخدمها الرئيس كارتر منشأ إيراني. فقد أبلغ كيسنجر نيكسون في مذكّرة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٩، أن الشاه «ملتزم عن حق بالغرب، ويشعر بأن العمل الجيد الذي يقوم به في إيران ـ جزيرة الاستقرار، كما أسماها ـ يشكّل خدمة مهمة للعالم الحرّ». راجع: Kissinger to Nixon, October 21, 1968, FRUS, 1969-1976, Vol. E-4, declassified September 12, 2006.

(٤) Hart remarks, Miller Center of Public Affairs, University of Virginia, September 7, 2005.

(٥) Laingen oral history, FAOH.

(٦) Laingen oral history, FAOH.

(٧) Turner, Burn Before Reading: Presidents, CIA Directors, and Secret Intelligence (New York: Hyperion, 2005), p. 180.

(٨) Hart remarks, Miller Center, September 7, 2005. Greg Miller, 'In from the Cold, to a Cold Shoulder,' Los Angeles Times, May 19, 2005.

(٩) William J. Daugherty, 'A First Tour Like No Other,' Studies in Intelligence, Spring 1998, CIA/CSI.

(١٠) William J. Duagherty, In the Shadow of the Ayatollah: A CIA Hostage in Iran (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2001), p. 3.

(١١) Jimmy Carter Interview, Jimmy Carter Oral History Project, Miller Center, November 29, 1982.

(١٢) Daugherty, 'A First Tour Like No Other'.

(١٣) مقابلة أجراها المؤلف مع مانديز؛ Tim Weiner, 'Master Creator of Ghosts Is honored by C.I.A.,' The New York Times, September 19, 1997. See also Antonio J. Mendez, "A Classic Case of Deception," Studies in Intelligence, Winter 1999-2000, CIA/CSI.

(١٤) Quainton oral history, FAOH.

(١٥) Daugherty, 'A First Tour Like No Other'.

(١٦) Kenneth M. Pollack, The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America (New York: Random House, 2004), pp. 128-180.

الفصل الثامن والثلاثون

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع غايتس.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(٣) Ford oral history in Deborah Hart Strober and Gerald S. Strober, Reagan: The Man and His Presidency (Boston: Houghton Mifflin, 1998), p. 72.

(٤) Bush quoted in John Helgerson, 'CIA Briefings of Presidential Candidates,' May 1996, CIA/CSI. وثمة نظرتان أخريان إلى الرجل والوظيفة: كان لورنس سيلبرمان ـ القاضي الفديرالي الذي ترأس في ٢٠٠٥ عمل «السي.آي.أيه.» على أسلحة الدمار الشامل في العراق ـ يشارك، في ١٩٨٠، في رئاسة مجموعة السياسة الخارجية لدى ريغان. «كنت لأوافق حقيقة على أن أصبح مديراً لـ «السي.آي.أيه.»، وهو أمر كان قيد المناقشة»، قال سيلبرمان. «إلا أنه كانت لكايسي... مطالبة أكبر، برغم اعتقادي أنه من غير الحكمة وضع قائم بالحملة الانتخابية في هذا المنصب». وكان لورانس إيغلبرغر، الذي عمل وزيراً للخارجية في ١٩٩٢ وزيراً للخارجية في عهد بوش، أكثر صراحة: «إما أن تتخلص من الجانب الخفي لـ «السي.آي.أيه.»، وهو ما لا أودّ رؤيته يحدث، وإما أنه عليك ان تكون حريصاً كثيراً في شأن نوعية الشخص الذي تجعل منه مديراً لـ «السي.آي.أيه.»، وهذا يعني أنك لا تقوم بتعيين بيل كايسي». انظر: FAOH interviews.

(٥) Poindexter oral history in Strober and Strober, Reagan: The Man and His Presidency, p. 111.

(٦) George P. Shultz, turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State (New York: Scribner, 1993), pp. 294-297.

(٧) Ibid., p. 84.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع إينمان.

(٩) Inman testimony, Nomination of Robert M. Gates to Be Director of Central Intelligence, U.S. Senate, Select Committee on Intelligence, 102nd Congree, 1st Session, September 20, 1991, Vol. I, p. 926.

(١٠) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How The Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 209.

(١١) مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون. عندما كُلِّف ماكماهون بإجراء تغيير بالغ في محللي مديرية الاستخبارات، وجد أن البنية بكاملها تحتاج إلى إعادة تكوين. «لو أردتُ أن أعرف ما الذي يحصل في بلد ما، فإنه يجب عليّ أن أسأل ثلاثة مكاتب مختلفة»، قال ماكماهون. «فثمة مكتب للاستخبارات العسكرية، ومكتب للاستخبارات الاقتصادية، ومكتب للاستخبارات السياسية. وهكذا، لو قلت ما الذي يحصل في المكسيك؟ لحصلت على معطيات من ثلاثة مكاتب مختلفة، ولكان عليّ دمجها والقيام بالتحليل».

(١٢) Gates, From the Shadows, pp. 223-224.

(١٣) Nomination of Robert M. Gates, 1991, Vol. III, pp. 7-23.

(١٤) Lehman oral history interview, 'Mr. Current Intelligence,' Studies in Intelligence, Summer 2000, CIA/CSI.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع شولتز. شرع وزير الخارجية شولتز، في صيف ١٩٨٢، في تناول غداء أسبوعي مع بيل كايسي. بعد انقضاء الجزء الأكبر من السنة، اكتشف كايسي وشولتز، اللذان تصادقا على مدى عقد، أنهما لا يحبان بعضهما البعض. «كانت لديه روزنامة كبرى»، قال شولتز. «من الخطأ أن تكون لـ «السي.آي.أيه.» روزنامة، إذ يفترض بها أن تنتج الاستخبارات. أما إذا امتلكت روزنامة فيمكن الاستخبارات ان تُحرّف». ومن ١٩٨٥ إلى ١٩٨٧، استأنف نائب وزير الخارجية جون وايتهيد وعضو «السي.آي.أيه.» بوب غايتس هذه اللقاءات. وقد ارتاع وايتهيد حيال «ما ألقاه من مساعدة قليلة من «السي.آي.أيه.» في معرفة ما يجري في بلدان لدينا فيها مصالح وتوجد فيها مشاكل... كانت التحليلات سطحية، تحتوي على القليل مما يمكن أن أسمّيه المعلومات القوية، وغالباً ما كانت غير صحيحة... اعتقدت أن المنظمة بحد ذاتها قد تراجعت بطريقة ما، وبالتالي فإن المعلومات التي تحصل عليها ومنظومة جمع المعلومات لم تعد منتجة جداً». (Whitehead oral history, FAOH.). أخذت الفجوات الواسعة تزداد في خريطة الوكالة للعالم. «القلق الأساسي الذي انتابني عند هذا الحد، له علاقة بكفاية جهدنا الاستخباراتي... في كل أنحاء العالم»، قال الأميرال إينمان، كأنه عالم بالغيب، قبيل الانضمام إلى كايسي في مقر قيادة «السي.آي.أيه.» في ١٩٨١. «إننا نفتقر إلى قاعدة معطيات لمناطق في العالم تم التغاضي عنها في الستينيات عندما كنا نركّز كلّياً على جنوب شرق آسيا. لم يراودنا الكثير من القلق في شأن بلدان في أميركا الوسطى، والكاريبي، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا. وأعتقد أن ثمة احتمالات كبيرة جداً بأننا سنواجه، في هذا العقد، الكثير من التحديات في هذه المناطق». راجع: Bobby R. Inman, "Managing Intelligence for Effective Use," Center for Information Policy Research, Harvard University, December 1980.

(١٦) Clair George testimony, Nomination of Robert M. Gates, 1991, Vol. II, p/ 96.

(١٧) عرف أنتوني كوينتون، السفير الأميركي في نيكارغوا من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٤، أن العملية مزيّفة. «لقد تخلى البيت الأبيض عن احتمالات أي حوار. واعتقد، وقد حثّه على ذلك بيل كايسي من «السي.آي.أيه.»، أن الطريقة الوحيدة لحل المشكلة هي في إخراج الساندينيين. ووسائل القيام بذلك هي في مخطط مفصّل لبرنامج العمل الخفي. وقد رفع، للمرة الأولى، إلى الكونغرس بطريقة غير سليمة الطوية للغاية. حاججت الإدارة بأن عمليات الإنهاك ستجعل الحياة غير مريحة للساندينيين، وتمنعهم من دعم سلطتهم، وستجلبهم إلى طاولة المفاوضات. وسيجدون أن ثمة أكلافاً غير مقبولة على اقتصادهم إذا لم يفاوضوا. وحاججت «السي.آي.أيه.» بأنها الطريقة الوحيدة لإقناعهم بتغيير سياساتهم. وهي، على غرار العمليات الخفية الأخرى في أمكنة أخرى من العالم، لم تبد أنها حملت التأثيرات الفورية الموعودة». راجع: Quainton oral history, FAOH.

(١٨) Gates, From the Shadows, pp. 242-248.

(١٩) Clarridge interview for the CNN Cold War series, 1998. National Security Archive transcript available online at http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/coldwar/interviews/episode18/clarridge1.html. قال كلاريدج في تأريخ شفوي آخر، إنه «لطالما كان قسم أميركا

اللاتينية قسماً معزولاً في داخل الوكالة؛ وهو يكاد يشبه إقطاعية صغيرة. وبالتالي، فإن الأمر الأساسي قضى بأن أحمل القسم في داخلي. وبعد نحو أسبوعين عدت وقلت لكايسي، هذا ما علينا القيام به: لماذا لا ننقل الحرب إلى نيكاراغوا؟ وهو بالتحديد ما أراد كايسي سماعه». Strober and Strober, Reagan: The Man and His Presidency, p. 165.

(٢٠) Quainton oral history, FAOH. نادراً ما تحدّث السفراء علناً في سنوات حكم ريغان بعدما تكون «السي.آي.أيه.» قد خلقت أوضاعاً مربكة للسياسة الخارجية. وفي واحد من أمثلة كثيرة على كوارث العلاقات العامة في الحرب في أميركا الوسطى، قدّمت «السي.آي.أيه.» سرّاً إلى وزارة الخارجية فرصة علاقات عامة عظيمة. فقد استجوبت الوكالة فتى في التاسعة عشرة من العمر اعتقل في السلفادور. قال إنه تدرّب على التمرّد على أيدي جنود كوبيين في أثيوبيا. امتلك قصة عظيمة يرويها. فهل الخارجية مهتمّة بعرضه على العامة في واشنطن؟ وبطلب من «السي.آي.أيه.»، نظّمت وزارة الخارجية إيجازاً خاصاً لأربعة مراسلين موثوقين. وواكب متحدث صحافي المراسلين إلى غرفة صغيرة، ثم جاء بالنيكاراغوي الأسير الذي قال، بكلمات مقتضبة: «لقد تعرّضت للتعذيب على يد «السي.آي.أيه.» حاول عناصرها إجباري على القول إنه تم إرسالي إلى السلفادور. أنا نيكاراغوي وطني. ولم أذهب أبداً إلى أثيوبيا». لقد تعرّضت «السي.آي.أيه.» للسعة من مراهق زلق.

كادت «عملية التخطيط الفريدة» للوكالة تقضي على الحياة السياسية للسيناتور غاري هارت والسيناتور وليام كوهن الذي سيصبح وزيراً للدفاع في المستقبل. كادا يتعرضان للقتل في مهمة للتحقق من الوقائع في نيكاراغوا عندما أطلقت طائرة لـ «السي.آي.أيه.» قنبلتين بزنة خمسمئة رطل سقطتا في بهو الشخصيات المهمة في مطار ماناغوا الدولي. «خلق ذلك موقفاً سلبياً جداً لدى هذين السيناتورين حيال نوعية عمليات «السي.آي.أيه.» الخفية»، قال السيناتور كوينتن.

(٢١) لم يكن في وسع «السي.آي.أيه.» كسب هذه الحرب، سواء أوافق عليها الكونغرس أم لا. وقال جون ماكماهون، «لم نملك القدرة أبداً على إعادة بناء القدرة شبه العسكرية التي نحتاج إليها للقيام بحرب في نيكاراغوا. الوكالة لم تكن مستعدة ـ وبخاصة لجهة الأفراد ـ لخوض حرب أو لتدريب آخرين على خوض حرب». راجع: مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(٢٢) Duane R. Clarridge with Dygby Diehl, A Spy for All Seasons: My Life in the CIA (New York: Scribner, 1997), pp. 303-318.

(٢٣) وافق الكونغرس على تعيين كايسي بـ ٩٥ صوتاً مقابل لا شيء، وأعطاه الكونغرس، في أواخر ١٩٨١، مئات الملايين من الدولارات في تمويلات جديدة. «أرادوا لنا أن نحصل على قدرة خفية على مستوى العالم، بحيث يمكننا توفير استخبارات حول النيات ونقوم بالإنذار»، قال جون ماكماهون. «أرادوا لنا أن نحصل على بنية تحتية جيّدة للعمل الخفي. والجميل في الحصول على عملية خفية جيدة، هو أن الشخص الذي تجنّده لتوفير استخبارات عما يحصل في حكومته غالباً ما يكون نافذاً، ويمكنك استخدامه ركيزة للعمل الخفي. فإذا كان وزيراً للخارجية، فيمكن أن تؤثر في شكل محكم في صوت تلك الحكومة دعماً لتصويت في الأمم المتحدة، أو لقول أمور جيدة حول الولايات المتحدة. وهكذا، فإن قدرتنا على العمل الخفي أخذت تعود بقوّة كبيرة». مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(٢٤) Gates, From the Shadows, p. 213.

(٢٥) كان باري غولدووتر من أريزونا، المرشح الجمهوري المهزوم لانتخابات الرئاسة في ١٩٦٤، يرأس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤. وكان كايسي ضنيناً بالحقيقة إلى درجة أن غولدووتر طلب من ناظرين في وزارة الخارجية مواكبته إلى طاولة الشهود ليعملوا بمثابة حرّاس للوقائع. وأحد هؤلاء الناظرين، وهو السفير دنيس كوكس، سمع كايسي يتمتم هذه العبارة وهو يغادر قاعة الاستماع. انظر: Kux oral history, FAOH.

(٢٦) Fiers testimony, Iran-Contra Investigation, Washington, D.C., 1988.

(٢٧) Inman interview in Stansfield Turner, Burn Before Reading: Presidents, CIA Directors, and Secret Intelligence (New York: Hyperion, 2005), pp. 196-201.

(٢٨) عندما أوقف الكونغرس، في ١٩٨٤، التمويل عن رجال الكونترا العاملين مع «السي.آي.أيه.»، توقّفت الحرب، وأجريت انتخابات. وفّرت «السي.آي.أيه.» المال والدعاية لأرتورو كروز سينيور، وهو سفير سابق لدى الولايات المتحدة والزعيم الشرعي للمعارضة السياسية للساندينيين. لكن زعيم الساندينيين، دانيال أورتيغا، ألحق به هزيمة منكرة بصوتين مقابل كل صوت واحد. وحتى تاريخ وضع هذا الكتاب، أعيد انتخاب أورتيغا، ولا تزال نيكاراغوا واحدة من أفقر الدول وأكثرها تخلّفاً في نصف الكرة الغربي. «كانت الحرب غير لازمة، وغير انسانية، وغير عقلانية»، قال كروز بعد وفاة ريغان وكايسي ورحيلهما. «يجب علينا القول إننا نرتكب جميعا أخطاء فاحشة».

(٢٩) Kux oral history, Faoh.

(٣٠) Norland oral history, FAOH.

(٣١) قالت ورقة إيجاز لوزارة الخارجية الأميركية في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١، «إننا نودّ رؤية حل سلمي للقتال الفئوي التشادي». وكان من الصعب رؤية كيف أن قيام «السي.آي.أيه.» بتدجيج فئة واحدة بالسلاح يسوّق لهذا الهدف. راجع: 'Libyan threat to Sudan,' Department of State, declassified July 30, 2002.

(٣٢) Blackmore oral history, FAOH.

(٣٣) Richard Bogosian oral history, FAOH. شهد بوغوسيان، وكان السفير الأميركي الأميركي في السودان إبان حرب الخليج في ١٩٩١، على تساؤل بيكر. وقال جيمس ك. بيشوب، المسؤول الرئيسي في وزارة الخارجية عن الشؤون العسكرية والاستخباراتية في أفريقيا، إن الجواب هو أن حبري «عدو عدونا... ولم نعرف كامل قصّته إلا لاحقاً». راجع: Bishop oral history, FAOH.). وقال بيشوب إن «استخباراتنا عن أجزاء أفريقيا التي تشكّل مصدر قلق أساسياً لنا لم تكن جيّدة، خلال الثمانينيات. بل إن الاستخبارات من مصادر بشرية، لم تكن جيدة عبر أفريقيا. فقد تم استخدام الركائز الاستخباراتية في شكل أساسي ضد العدو الرئيسي ـ السوفيات ـ في عملية التجنيد الأشبه بلعبة الهرة والفأر ذات المصلحة الوطنية المشكوك فيها».

(٣٤) توقّعت قلّة من الأميركيين ـ قلّة ضئيلة جداً ـ الاجتياح السوفياتي. «أذكر أنني، منذ آب/

أغسطس ١٩٧٩، كتبت تقارير لبريجنسكي تفيد بأن مستوى المستشارين العسكريين السوفيات في أفغانستان في ذلك الوقت، ينذر بنوع من التدخّل العسكري الرئيسي هناك»، قال وليام أودوم، وكان يومها مساعداً عسكرياً رئيسياً في البيت الأبيض، في مقابلة مع المؤلف (سيصبح أودوم لاحقاً جنرالاً بثلاث نجوم يدير وكالة الأمن القومي في عهد الرئيس ريغان). «أما بالنسبة إلى التوقيت الدقيق واليوم المحدد لحصول ذلك، فتلك مسألة أخرى. وقد فاجأ الأمر العالم والكثيرين من الأناس في إدارة كارتر. بدأ الاجتياح السوفياتي لأفغانستان خلال أسبوع الميلاد في ١٩٧٩، ولم تعط «السي.آي.أيه.» رئيس الولايات المتحدة ما يشبه الإنذار. ووافق كارتر، الذي أُسقط في يده بسبب عدم القدرة على تحرير الأميركيين العالقين في إيران، على خطة لمساعدة الأفغان في القتال ضد الاجتياح السوفياتي الوحشي. وأمر «السي.آي.أيه.»، في كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، بشحن أسلحة مصنوعة في الكتلة السوفياتية من مستودعات أسلحة حلفاء أميركا في باكستان. وسيقوم جهاز الاستخبارات الباكستاني بنقلها إلى حفنة من قادة التمرد الأفغاني. وقال بريجنسكي في مقابلة مع المؤلف، «بعد يومين على الغزو السوفياتي لأفغانستان، أعطيت رئيس الولايات المتحدة مذكّرة تبدأ، إذا كنت أذكر ذلك بالتحديد، بالكلمات التالية: باتت لدينا الآن فرصة إعطاء الاتحاد السوفياتي فيتنامه. ومضت المذكرة تحاجج في أن هذا عمل عدواني يشكّل تهديداً لاستقرار تلك المنطقة، وربّما موقعنا حتى في الخليج الفارسي، وأنه علينا القيام بما نستطيع لإرهاق السوفيات من خلال مساعدة المجاهدين. وقد أقرّ الرئيس ذلك. وتم إنشاء ائتلاف غير معلن يضمّنا نحن، والباكستانيين، والسعوديين، والصينيين، والمصريين، والبريطانيين، لتأمين الدعم. والهدف من ذلك كان في شكل خاص الالتزام بالكلمات الأولى في تلك المذكّرة للرئيس». ملاحظات هوارد هارت مأخوذة من من خطابه في مركز ميللر للشؤون العامة في جامعة فرجينيا، في ٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥.

(٣٥) مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(٣٦) Gates, From the Shadows, p. 258. ما الذي كان يحصل حقيقة في موسكو؟ أراد كيسي توفير استخبارات عن اللاعبين في المكتب السياسي، عن الشعب السوفياتي، عن الأقليات السوفياتية والمنشقين، وعن الحياة اليومية داخل امبراطورية الشر. لكن، عندما لم تتمكن «السي.آي.أيه.» من تأمين ذلك عبر التجسس، فإنه تعلّق بمفاهيمه. كان السفير وارن زيمرمان نائب رئيس البعثة الدبلوماسية في موسكو من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤، وعلى مدى تلك السنوات الأربع، تخلص كايسي و«السي.آي.أيه.» من تقاريره غير المبهرجة حول امبراطورية سوفياتية في طور الانهيار. وروى زيمرمان أنه عند وصوله، كان الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف «في حالة خرف، يتعثّر في الكلام، وكان يغفو، ويسكر». وعند وفاة بريجنيف، قاد الأمة لفترة وجيزة يوري أندروبوف، الذي كان على وشك الموت هو الآخر، ومن بعده قسطنطين تشيرنينكو، وهو زعيم آخر عند حافة الموت. أصيب المكتب السياسي، وهو آلة صنع القرار في موسكو، «بالشلل التام، وأصبح جهازاً سياسياً غير فعّال» تقوده «زمرة من أبناء السبعين والثمانين، بعضهم لم يخرج أبداً من الاتحاد السوفياتي»، قال زيمرمان. «كانت نظرتهم إلى الولايات المتحدة مقولبة كلّياً، تستند إلى ما قرأوه في صحفهم ومجلاتهم المريعة». امتلكوا

فقط «معرفة وفهماً بدائيين للولايات المتحدة». ولم يكن إدراك الولايات المتحدة لما يجري في الاتحاد السوفياتي أفضل حالاً. تهدّج الجنرالات الطاعنون في السن والموظفون الشيوعيون الفاسدون من الحرس القديم في مشيتهم في خلال أيامهم الأخيرة، وتهاوى الاقتصاد تحت وطأة كلفة دعم طبقة الجيش الذي هو من أحسن الموجود، وتلفت المحاصيل في الحقول بسبب الحاجة إلى الفيول لنقل الغذاء من المزارع إلى الأسواق: قلة من هذه الوقائع بلغت الإدراك الجماعي لـ «السي.آي.أيه.» كما أن الوكالة لم تستوعب أيضاً حاصل ميزان الرعب. فكل تقدير وطني للقوات الاستراتيجية السوفياتية أرسل إلى البيت الأبيض، بالغ في تقدير المعدّل الذي تقوم موسكو بموجبه بتحديث قوتها الضاربة النووية.

حلّت ذروة الأزمة النووية غير المرئية في ١٩٨٢ و١٩٨٣، عندما أعلن ريغان أن الولايات المتحدة ستبني منظومة دفاع صاروخي ـ «حرب النجوم» ـ من شأنها أن تعترض، الأسلحة النووية السوفياتية وتدمرها وهي في الجو. لم تملك الولايات المتحدة ـ وهي بعد خمسة وعشرين عاماً لا تزال لا تملك ـ التكنولوجيا التي تخيّلها ريغان. وقد دعمت إدارة ريغان مبادرة الدفاع الاستراتيجي بحملة دعاية مضادة شديدة لإقناع السوفيات بأن «حرب النجوم» تستند إلى علم حقيقي، ولكسر حدّة الانتقاد العالمي للمشروع الخيالي. أصاب برنامج الحرب الإعلامية السوفيات بالقشعريرة. «أصيبوا بذعر حقيقي»، قال زيمرمان. «افترضوا، يا للسخرية، أنه في وسعنا بناء ذلك. وقمنا، على ما تبيّن، بتزوير تجاربنا، وصدّقوا ذلك». وقام السوفيات بدورهم بتزوير قوتهم الخاصة ـ في الأكاذيب السياسية الموجهة إلى شعبهم، وفي الإعلانات العامة للمكتب السياسي ـ وصدّقت «السي.آي.أيه.» ذلك. راجع: Zimmerman oral history, FAOH.

تمت في ذلك الوقت تقوية خط الوكالة في شأن منظومة الأسلحة النووية السوفياتية وأبحاث الأسلحة من خلال عملية يديرها جيم أولسون، الذي أصبح لاحقاً رئيس مكافحة التجسس في «السي.آي.أيه.» فإبان عهد كارتر، على ما يرويه أولسون، نظرت أقمار الاستطلاع التصويري ثقب المفتاح Keyhole من فوق إلى السوفيات وهم يحفرون خندقاً إلى جانب الطريق الرئيسي خارج موسكو، ويضعون فيه كوابل اتصالات. واتصل الخط بمركز لأبحاث الاسلحة النووية وتطويرها خارج موسكو. وميّزت الخط كوّات تسمح بدخول الإنسان. ذهب أولسون إلى موسكو بعد تدريب مفصّل على مجسّم تحت الأرض، وتخلّص من فريق «الكا.جي.بي.» المراقب له، وتنكّر، وفتح الكوة، ونزل إلى تحت الأرض، ووضع جهاز تنصت على الخط. وأعطى ذلك غلّة على مدى خمس سنوات تقريباً، ثم امّحت الأشرطة. راجع: James M. Olson, Fair Play: The Moral Dilemmas of Spying (Washington, D.C.: Potomac, 2006), pp. 9-11.

(٣٧) Gus W. Weiss, 'The Farewell Dossier,' Studies in Intelligence, Vol. 39, No. 5, 1996, CSA/CSI. كان وايس العضو في فريق مجلس الأمن القومي الذي وضع العناصر الرئيسية لخطة الهجوم.

(٣٨) Richard Allen, Miller Center of Public Affairs, University of Virginia, Ronald Reagan Oral History Project, May 28, 2002.

الفصل التاسع والثلاثون

(١) Quainton oral history, FAOH.

(٢) ظهرت، بعد الحرب الباردة، دلائل إلى دعم سوفياتي مباشر لوديع حدّاد، وهو فلسطيني مقاوم مات في ١٩٧٨. ولم يتم إثبات تهمة هيغ بعد.

(٣) في الثاني من آذار/مارس ١٩٧٣ ـ وهو اليوم الذي تولّى فيه بيل كولبي الجهاز الخفي في «السي.آي.أيه.» ـ اختطفت منظمة التحرير الفلسطينية، التي أثارت قبل ستة أشهر المشاعر الأميركية ضدها بقتلها أحد عشر رياضياً إسرائيلياً في الألعاب الأولمبية في ميونيخ، السفير الأميركي في السودان ونائبه. وقد اختُطف الأميركيان في خلال حفل استقبال في السفارة السعودية في العاصمة السودانية الخرطوم. جاء الهجوم نتيجة لانقلاب على رئيس وزراء السودان الذي كان قد تم للتو فضح علاقته المدفوعة الأجر بـ «السي.آي.أيه.». وقال روبرت أوكلي من وزارة الخارجية ومنسق مكافحة الإرهاب لدى ريغان، إن «وضع رئيس الوزراء على جدول معاشاتنا، لم يشكّل إلا إثارة للمشاكل، وكان أمراً لا لزوم له بالمرّة. فبوضعنا إياه على جدول المعاشات أفسدناه سياسياً وجعلناه مكشوفاً للغاية». طالب الخاطفون في الخرطوم الولايات المتحدة بإطلاق قاتل بوبي كنيدي المدان، وهو فلسطيني يدعى سرحان سرحان. وقال الرئيس نيكسون، وهو يردّ، في ذلك اليوم، بكل ما أوتي من قوة على سؤال لأحد المراسلين، إن الولايات المتحدة لن تتفاوض مع من إرهابيين. لكن الفلسطينيين قتلوا الدبلوماسيين الأميركيين بلا اكتراث بأوامر من ياسر عرفات.

لم تتمكن «السي.آي.أيه.» من الردّ لأنها افتقرت إلى سياسة توجهها. فقد مضت تسعة أعوام على عمل منظمة التحرير الفلسطينية التي تتلقى تمويلها أساسا من السعوية ومن أمراء الكويت. واستمرّ تمسّك «السي.آي.أيه.»، ومن خلالها الحكومة الأميركية، بفكرة إرهاب ترعاه الدول حتى ما بعد الحرب الباردة. وجعل ذلك من الصعوبة بمكان على الأميركيين، بعد عشرين عاماً، إدراك بروز سعودي ثري عاش في السودان، ونصّب نفسه أميراً، يدعى أسامة بن لادن، وهو لم يمثل إرهابياً ترعاه دولة، بل اعتبرته إرهابياً يرعى دولة.

دفعت الاختلاجات الأولى لعملية السلام في الشرق الأوسط بعد حرب أكتوبر في ١٩٧٣ بـ «السي.آي.أيه.» إلى حيّز جديد وغير واضح. طار نائب رئيس الاستخبارات المركزية، فيرنون والترز، سرّاً إلى المغرب للقاء علي حسن سلامة. وهو اجتماع سهّل له ياسر عرفات الذي أخذ يرسل إشارات إلى أنه يريد أن يتم التعامل معه بوصفه زعيماً وطنياً لا بوصفه ولا متهماً بالإرهاب دولة له. وأراد لمنظمة التحرير، بعد حرب أكتوبر، أن تفاوض على الضفة الغربية. أراد إقامة سلطة وطنية فلسطينية. وأخذ يحاول فرض نفسه على أنه الصوت المعتدل للتطلعات الفلسطينية. واستذكر والترز: «قال كيسينجر: لا يمكنني إيفاد شخص آخر، لأن ذلك سيُعتبر تفاوضاً، وسيجن جنون الطائفة اليهودية الأميركية. أما أنت فتشكّل اتصالاً استخباراتياً. قلت، يا دكتور كيسينجر، أنا نائب مدير «السي.آي.أيه.»، وأنا ربما الرقم السادس أو السابع على لائحة المطلوب رأسهم عندهم. أجاب، أنا الرقم واحد. ولهذا السبب ستذهب أنت». وأعطى الاجتماع ثماره. فتحت «السي.آي.أيه.» قناة اتصالات عالية المستوى مع منظمة

التحرير الفلسطينية. وبعدما عاد سلامة من المغرب إلى قاعدته في بيروت وأقام اتصالاً مع محطة «السي.آي.أيه.» في بيروت، أخذ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في الاجتماع دورياً مع عضو «السي.آي.أيه.» بوب إيمس. راجع: .Walters oral history, FAOH

لم يصدّق أحد المعلومات التي كانت «السي.آي.أيه.» تشتريها في بيروت. «أصبحوا أسرى تقاريرهم السيئة»، قال تالكوت سيلي، الذي وصل إلى لبنان بوصفه سفيراً بعدما تم قتل سلفه، فرانسيس مليوي، وهو في طريقه إلى تقديم أوراق اعتماده في ١٩٧٦. استمرت قناة سلامة خمس سنوات، إلى أن اغتالته الاستخبارات الإسرائيلية في ١٩٧٨. وقد شكّلت معلماً في تفهّم «السي.آي.أيه.» لجذور فورة الغضب في العالم العربي، وبصيص إدراك داخلي لمن هم الفلسطينيون وماذا يريدون: الانتصار الوحيد المشهود لعهد بيل كولبي كمدير للاستخبارات المركزية. راجع: .Seelye oral history, FAOH مقابلة أجراها المؤلف مع كولبي).

(٤) قال بوب غايتس في مقابلة مع المؤلف؛ ان إيمس كان «موهوباً على نحو فريد. ولطالما اعتبرتُ ان أعظم تجنيد قمت طوال حياتي في الوكالة هو تجنيد بوب إيمس من الجهاز الخفي ليصبح رئيساً لمكتب التحليل في «السي.آي.أيه.» العامل على الشرق الأوسط. وما يدعو إلى السخرية بعد كل هذه السنوات في الوكالة، التي عمل فيها في مهمات خطرة في الشرق الأوسط واضعاً حياته على المحك، أن يُقتل عندما كان في بيروت يزور السفارة بوصفه رئيساً لمكتب التحليل. وهكذا، فإنه كان يعمل عندي، وليس للجهاز الخفي، عندما قُتل. ولطالما اعتقدت أنه لو أن بوب بقي حيّاً، لما اضطرت الولايات المتحدة، ربما، إلى التدخل في لبنان ولربما تغيّر مسار التاريخ هناك في شكل من الأشكال».

(٥) Timothy Naftali, Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism (New York: Basic, 2005), p. 85.

(٦) Dillon oral history, FAOH.

(٧) Susan M. Morgan, 'Beirut Diary,' Studies in Intelligence, Summer 1983, CIA/CSI. رواية مورغان، من مصدرها الأصلي، التي أبيحت أخيراً، تناقض في شكل حاسم الكثير من الروايات المنشورة لتفجير السفارة في بيروت، وبصفة خاصة رواية عضو «السي.آي.أيه.» بوب باير الذي ذكر أن يد إيمس انتُشلت من على بعد مئات الأمتار في ميناء بيروت.

(٨) Lewis oral history, FAOH.

(٩) Clarridge interview for the CNN Cold War Series, 1998, National Security Archive transcript available online at http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/coldwar/interviews/episode18/clarridge1.html.

(١٠) Gillespie oral history, FAOH.

الفصل الأربعون

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع وللز.

(٢) Neil oral history, FAOH.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع كورن، وتأريخ شفوي (راجع: FAOH.

(٤) Oakley oral history, FAOH.

(٥) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How The Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 397.

(٦) مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(٧) Clarridge interview for the CNN Cold War Series, 1998, National Security Archive transcript available online at http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/coldwar/interviews/episode-18/clarridge1.html. وصف السناتور الرحل دانيال باتريك موينيهان، وكان يومها الديموقراطي الرفيع المستوى في لجنة الاستخبارات، في مقابلة مع المؤلف، تشهير «السي.آي.أيه.» بالسيناتور غولدووتر. ففي ١٩٨٤، وبينما قطع الكونغرس التمويل عن الكونترا، وافق على عملية خفية لـ «السي.آي.أيه.» تقضي بصرف مليوني دولار إضافية لضمان انتخاب المسيحي الديموقراطي خوسي نابوليون دوارتي رئيساً للسلفادور، بينما تحد من قوّة ترشيح زعيم فرقة الموت روبرتو دوبويسون.

(٨) Gates, From the Shadows,

الفصل الحادي والأربعون

(١) Ronald Reagan, An American Life (New York: Simon and Schuster, 1990), pp. 501-502. ما لم يتم ذكر عكس ذلك، فإن الوقائع، والأرقام، والاستشهادات المتعلقة بقصية إيران ـ كونترا في هذا الفصل، مأخوذة من سجلات لجنة الكونغرس المشتركة والتقرير النهائي للفريق القانوني المستقل الذي حقّق في الإخفاق.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع ماكماهون.

(٣) Kelly oral history, FAOH.

(٤) Wilcox oral history, FAOH.

(٥) CIA interview with Joseph Fernandez, CIA Office of the Inspector General, January 24, 1987.

(٦) Oakley oral history, FAOH.

(٧) Sofaer oral history in Deborah Hart Strober and Gerald S. Strober, Reagan: The Man and His Presidency (Boston: Houghton Mifflin, 1998), p. 500.

(٨) James McCullough, 'Personal Reflections on Bill Casey's Last Month at CIA,' Studies in Intelligence, Summer 1995, commentary by David Gries, CIA/CSI.

(٩) Casey's remarkable talking points are cited in Douglas F. Garthoff, 'Directors of Central Intelligence as Leaders of the U.S. Intelligence Community, 1946-2005,' CIA/CSI. ٢٠٠٦، تشكّل هذه الكلمات جزءاً من جملة من الأدلة الظرفية التي توحي بأن التورم في نخاع كايسي أحدث سلوكاً، لا يمكن تفسيره بغير ذلك في خلال الأشهر الثمانية عشر الأخيرة له كمدير للاستخبارات المركزية. وخير مثال على طلاقه مع الواقع، هو علاقته الحميمة مع رينامو، وهي حركة المقاومة الوطنية في موزامبيق. ورينامو هي جيش حرب عصابات من السود شكّله عرقيو جنوب أفريقيا وروديسيا البيض، وهي أكبر قوة تمرّد شراسة قائمة في المنطقة. ورينامو، التي دربها وسلّحها وموّلها جهاز استخبارات جنوب أفريقيا، بوس، استخدمت تكتيكات من بينها «قطع الآذان، وبتر الاطراف والأثداء، والتشويه العام»، على حد قول السفير تشاس و. فريمان جونيور، الذي أشرف على القضايا الأفريقية في عهد الرئيس ريغان. و«أصبح هذا التشويه هو القاعدة، وقد هلك ربما نصف مليون شخص». وشكّلت رينامو «تذكيراً بالخمير الحمر في كمبوديا»، بحسب قول جيمس بيشوب، المسؤول الرئيسي في وزارة الخارجية عن الشؤون السياسية والعسكرية الأفريقية، «فهي فاسقة، وتبالغ في استخدامها الإرهاب».

أبلغ كايسي الرئيس ريغان، أن رينامو تستأهل الدعم من «السي.آي.أيه.» لأنها تضم مقاتلي حرّية في الحرب الشاملة على الشيوعية. وقال السفير فريمان إن تكتيكاته تضمنت «طبخ الاستخبارات لتضخيم وقع رينامو». ولأن كايسي مُنع من تقديم الدعم المباشر إلى المتمردين، فإنه استخدم مساراً آخر. وفي ١٩٨٦، وبعد حظر استمر عشر سنوات، صدق الكونغرس القول، وأعاد إحياء المساعدة العسكرية الخفية للجيوش التي تحابيها «السي.آي.أيه.» أكثر ما يكون في أنغولا، بما في ذلك صواريخ ستينغر، وأسلحة مضادة للدبابات، وأطنان من الأسلحة الآلية. وكانت الوكالة تدعم هذا الفريق الأنغولي أو ذاك في تواتر استمر ثلاثين عاماً. وفتح تجديد برنامج أنغولا خط الأسلحة المتدفقة من الوكالة الذي يمر عبر جنوب أفريقيا، ويعتمد على نظام التمييز العنصري. وانتابت أكثر الدبلوماسيين الأميركيين سلطة الذين لهم علاقة بالمنطقة، شكوك قوية في أن كايسي فتح قناة خلفية من المساعدة القاتلة إلى مرتدّي رينامو. وقال السفير فريمان إن «كايسي، الذي يميل إلى اتباع سياسته الخارجية الخاصة، أصبح بالفعل، إلى حد ما، متورطاً مع رينامو ضد السياسة المعلنة، وهو أمسك بالفعل بالسياسة الداخلية للإدارة».

قال فرانك ج. ويسنر جونيور، ين «كايسي انطلق لتدمير دبلوماسيتنا» في أفريقيا الجنوبية، «وكاد ينجح». راجع: FAOH interviews.

(١٠) McCullough, '7Personal Reflections.'

(١١) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Story of Five Presidents and How They Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 414. كـان على غيتس الذهاب إلى تلة الكابيتول للإجابة على تعيينه. وسأله أحد مصوّري الصحف «ما رأيك في الوظيفة حتى الآن؟» فأجاب غايتس بالعنوان الرنّان لأغنية من نوع الكاونتري والوسترن: «خذ هذه الوظيفة وادفعها بشدّة» (Take This Job and Shove It). والتقط

ميكروفون مفتوح ما قاله. وكان الجميع يعرفون البيت الثاني من الأغنية: «فأنا لن أعمل هنا بعد اليوم».

(١٢) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(١٣) مقابلة أجراها المؤلف مع غايتس.

الفصل الثاني والأربعون

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع تومبسون.

(٣) Duane R. Claridge with Digby Diehl, A Spy for All Seasons: My Life in the CIA (New York, Scribner, 1997), p. 371.

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(٥) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(٦) Clarridge, A Spy for All Seasons, pp. 381-386.

(٧) Politburo minutes, September 28, 1986, Cold War International History Project, Woodrow Wilson Center.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع وبستر.

(٩) تصعب المبالغة في مقدار التجويج الذي كان عليه الادراك أن جهاز استخبارات كاسترو قد تفوّق على «السي.آي.أيه.» طوال عشرين سنة متواصلة. ولم يشكل ارتداد أسبياغا في ١٩٨٧ كذلك نهاية له. في ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أوقفت «الأف.بي.آي.» آنا بيلن مونتس، كبيرة محللي الشؤون الكوبية في وكالة استخبارات الدفاع، التي اعترفت بعد ذلك بستة أشهر بأنها كانت تتجسس لحساب كوبا منذ ١٩٨٥. ومنذ «خليج الخنازير» عاش مئات الجواسيس من الإدارة العامة للاستخبارات الكوبية وعملوا في الولايات المتحدة، وذلك استناداً إلى أعضاء سابقين في الجهاز الكوبي ممن ارتدّوا. عملوا كدبلوماسيين وسائقي سيارات أجرة، وتجار أسلحة ومخدرات ومعلومات. فجهاز الاستخبارات الكوبية، المسؤول عنه وزير الدفاع راؤول كاسترو، شقيق فيدل، قد اخترق مجموعات المنفيين الكوبيين والوكالات الحكومية الأميركية بنجاح باهر. ولنأخذ مثلاً قضية خوسي رافايل فرنانديز برينس، الذي قفز من سفينة شحن تجارية كوبية في ١٩٨٨. وساعد، وقد احتضنته الاستخبارات الأميركية، في إدارة تلفزيون مارتي، وهي المحطة التي تمولها الحكومة الأميركية التي وجّهت إلى كوبا معلومات ودعاية مضادة لكاسترو من ١٩٨٨ إلى ١٩٩١. شوشّت الحكومة الكوبية على إشارة تلفزيون مارتي منذ لحظة طلوعها على الهواء في آذار/مارس ١٩٩٠، وذلك بفضل المعطيات التي وفّرها فرنانديز برينس. ثم أكثر فرانسيسكو أفيلا أزكوي، الذي أدار العمليات لحساب «ألفا ٦٦»، وهي واحدة من أكثر المجموعات المنفية المعادية لكاسترو عنفاً، وقام في الوقت ذاته برفع التقارير إلى كل من «الأف.بي.آي.» والاستخبارات الكوبية في شأنها. وساهمت هذه المعلومة في إدانة

سبعة أعضاء في «ألفا ٦٦» لانتهاكهم قانون الحياد بتخطيطهم لهجوم على دولة أجنبية انطلاقاً من الأرض الأميركية. Tim Weiner, 'Castro's Moles Dig Deep, Not Just into Exiles,' The New York Times, March 1, 1996.

(١٠) مقابلة أجراها المؤلف مع ليللي.

(١١) مقابلة أجراها المؤلف مع توم تويتّن. توجد أفضل خلاصة للعملية في: Timothy Naftali, Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism (New York: Basic, 2005), pp. 196-198.

(١٢) راجع: John H. Kelly oral history, FAOH. أصبح كيلي، في حزيران/يونيو ١٩٨٩، مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى.

(١٣) في رسالة، في الأول من أيار/مايو ١٩٨٧، إلى الرئيس ريغان، حذّر سون سان، رئيس جبهة الخمير الشعبية الوطنية للتحرير الذي يُفترض به الحصول على مساعدة «السي.آي.أيه.»، من «تحسّن في العلاقات الأميركية ـ الفيتنامية»، ونبّه ريغان من «الاعتدال» حيال «الوكلاء الأساسيين للسوفيات في جنوب شرق آسيا». وقد تمت إباحة كل من رسالة سان ومذكّرة باول إلى ريغان ضد عودة الخمير الحمر إلى البروز في ٢٨ أيار/مايو ١٩٩٩.

(١٤) Howard Hart remarks, Miller Center of Public Affairs, University of Virginia, September 7, 2005.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع تويتن.

(١٦) Oakley oral history, FAOH.

الفصل الثالث والأربعون

(١) Davis oral history, FAOH.

(٢) Pastorino oral history, FAOH

(٣) Trial transcripts of United States v. Manuel Noriega.

(٤) Trial transcripts of United States v. Manuel Noriega.

(٥) Wilcox oral history, FAOH.

(٦) Giraldi interview, Balkanalysis.com, July 30, 2006. أجرى المؤلف مقابلة مع جيرالدي في ١٩٩٤ و١٩٩٥. وبغض النظر عن المأساة الإنسانية لموت العملاء، فإن إفادة «السي.آي.أيه.» وتحليلها حول إيران، كانا دوماً يخطئان المرمى في تلك الحقبة. وفي صيف ١٩٨٧، وبينما الحرب الإيرانية ـ العراقية تلفظ أنفاسها الأخيرة، أخذت إيران تتحرّش بناقلات النفط الكويتية في البحر. فرفعت الناقلات عندها العلم الأميركي تحت حماية السفن الحربية التابعة لسلاح البحرية. قوّمت «السي.آي.أيه.» الموقف في الخليج الفارسي، وأوصت بقوة بوقف عملية رفع الأعلام. طُرحت المسألة على مستشار الأمن القومي، فرانك كارلوتشي، وهو النائب السابق

لمدير الاستخبارات المركزية. وقال كارلوتشي، «أنتجت الوكالة تقريراً مفاده على نحو أساسي بأن أي مواجهة مع إيران لن تنفع. استفزّنا الإيرانيون فأغرقنا نصف بحريتهم في غضون ٢٤ ساعة. عادوا أدراجهم ووضعوا سفنهم في المرفأ بحيث أمكننا الإبحار في الخليج بأمان. كانت «السي.آي.أيه.» على خطأ». راجع: Carlucci oral history, FAOH.

(٧) Richard L. Russell, 'CIA's Strategic Intelligence in Iraq,' Political Science Quarterly, Summer 2002. عمل راسل على مدى ١٧ عاماً محللاً سياسياً ـ عسكرياً في «السي.آي.أيه.».

(٨) Charles Allen remarks, 'Intelligence: Cult, Craft, or Business?' Program on Information Resources Policy, Harvard University, April 6, 2000.

(٩) Memorandum of telephone conversation, with King Hussein, July 31, 1990, GHWBL.

(١٠) James A. Baker III with Thomas M. De-Frank, The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace, 1989-1992 (New York: Putnam, 1995), p. 7.

(١١) Freeman oral history, FAOH. في ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، حذّرت «السي.آي.أيه.» البيت الأبيض والبنتاغون من أنه «من شبه المؤكد أن صدام سيطلق حملة رئيسية ضد المصالح الغربية وبصفة خاصة الأميركية. ومن المرجح حصول هجمات متعددة، وفي وقت واحد في مناطق جغرافية عدة ـ وربما تضمنت الولايات المتحدة ـ في جهد للحصول على الحد الأقصى من الدعاية ولزرع الرعب المتفشي». لم يكن هناك أبداً أي دليل إلى أن خلايا الاستخبارات العراقية قد تغلغلت في الولايات المتحدة، إلا أن «السي.آي.أيه.» و«الأف.بي.آي.» تعقّبتا ثلاث مجموعات على الأقل من الضباط العراقيين في الشرق الأوسط وآسيا واعتقلتهم في الأيام التي سبقت مباشرة الهجوم الأميركي على العراق. CIA, 'Terrorism Review,' January 10, 1991, CIA/FOIA.

(١٢) Clarke interview, Frontline, 'The Dark Side,' January 23, 2006, edited transcript available online at http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/darkside/interviews/clarke.html.

(١٣) Robert M. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 449. أشرف غايتس، في عهد بوش، على فريق من مجلس الأمن القومي يضم مجموعة كبيرة من خبراء ممن ازدروا بعمل المحللين الذين قادهم غايتس في «السي.آي.أيه.». كان السفير روبرت د. بلاكويل عضو فريق مجلس الأمن القومي للشؤون السوفياتية والأوروبية في ١٩٨٩ و١٩٩٠. وقال «كانت الوكالة لا تزال تصدر كمّيات كبرى من منتجات التحليل التي لم أقرأها أبداً. .ففي خلال تينك السنتين، لم أقرأ ولا تقديراً واحداً [للأمن القومي]، ولا أي واحد. وبخلاف غايتس، لا علم لي بوجود أحد في مجلس الأمن القومي قام بذلك». راجع: Blackwill quoted in Jack Davis, 'A Policymaker's

Perspective on Intelligence Analysis,' Studies in Intelligence, Vol. 38, No. 5, 1995, CIA/CSI.

(١٤) NIE 11-3/8-88, 'Soviet Forces and Capabilities for Strategic Nuclear Conflict Through the Late 1990s,' December 1, 1988, CIA/CSI.

(١٥) MacEachin cited in Kirsten Lundberg, 'CIA and the Fall of the Soviet Empire: The Politics of Getting It Right,' Case Study C16-94-1251.0, Harvard University, 1994, pp. 30-31.

(١٦) Palmer oral history, FAOH.

(١٧) Crowe oral history, FAOH.

(١٨) Walters quoted in David Fischer oral history, FAOH.

(١٩) إذا كان من وقت لتضغط «السي.آي.أيه.» بقوّة لفهم سبب موت هؤلاء الجواسيس، فإنه توفر لدى انهيار الاتحاد السوفياتي في ١٩٩٠ و١٩٩١. وأبلغني بوب غايتس أنه «عندما تمّت [أوّلاً] تسميتي لأصبح مديراً في ١٩٨٧، تناولت الغداء مع ديك هيلمس. وأذكر هيلمس وقد حرّك إصبعه في اتجاهي في خلال الغداء في غرفة طعام المدير، وكنا نحن الاثنين وحدنا وحسب. وقال لي: لا ترجع أبدا إلى منزلك في المساء بدون أن تتساءل أين هو الجاسوس المزروع». وفي ١٩٩٢، في الأشهر الأخيرة لفترة بوب غايتس القصيرة كمدير للاستخبارات المركزية، بدأ حلّ القضية. وأوقف ألدريتس إيمس في شباط/فبراير ١٩٩٤. مقابلة أجراها المؤلف مع غايتس.

(٢٠) مقابلة أجراها المؤلف مع بيردن.

(٢١) مقابلة أجراها المؤلف مع جيرالدي.

(٢٢) Arnold Donahue, 'Perspectives on U.S. Intelligence,' Program on Information Resources, Harvard University, April 1998.

(٢٣) Michael J. Sulick, 'As the USSR Collapsed: A CIA Officer in Lithuania,' Studies in Intelligence, Vol. 50, No. 2, 2006, CIA/CSI.

(٢٤) Gates note and announcement to CIA employees cited in Douglas F. Garthoff, "Directors of Central Intelligence as Leaders of the U.S. Intelligence Community, 1946-2005," ٢٠٠٦، CIA/CSI. عمل غارتهوف في «السي.آي.أيه.» من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٩، وخدم سنوات طويلة محللاً للشؤون السوفياتية في عهد غايتس.

(٢٥) Richard Kerr, 'The Evolution of the U.S. Intelligence System in the Post-Soviet Era,' Program of Information Resources, Harvard University, Spring 1992.

(٢٦) MacEachin cited in Robert Steele, 'Private Enterprise Intelligence: Its Potential Contribution to National Security,' paper delivered at conference on Intelligence

analysis and Assessment, Ottawa, Canada, October 22-29, 1994. Steele is a CIA veteran who champion open-source analysis.

(٢٧) Gates note cited in Garthoff, "Directors of Central Intelligence"

الفصل الرابع والأربعون

(١) Anthony Lake, 'From Containment to Enlargement,' Johns Hopkins University School of Advanced International Studies, September 21, 1993.

(٢) سحر بيل كلينتون معظم مقدمي إيجازات «السي.آي.أيه.» الذين جاؤوا إلى ليتل روك وأقاموا في غرف موتيل كونفورت إن عند المطار، وإيجار الواحدة ٥٠,٣٨ دولاراً في الليلة، وتوجهوا بالسيارة إلى قصر الحاكم لتثقيفه. إلا أنهم لم يكونوا متأكدين تمام التأكيد من مقدار ما استوعبه. John L. Helgerson, Getting to Know the President: CIA Briefings of Candidates, 1952-1992, CIA/CSI.

(٣) Woolsey remarks, Council on Foreign Relations, May 12, 2004; (مقابلة أجراها المؤلف مع وولسي).

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع تويتن.

(٥) بينما لا يزال العدد الدقيق سرّياً، «فإن إدارة كلينتون طلبت عدداً ملحوظاً من مقترحات الأعمال الخفية للتعامل مع المشاكل التي واجهتها في أوائل التسعينيات، لتستخلص فقط أن العمل الخفي لا يمكنه تخليص الولايات المتحدة من عمل عسكري مكشوف»، بحسب قول جون ماك غافين، الرجل الثاني في الجهاز الخفي في عهد كلينتون، وجار المؤلف بعد مغادرته «السي.آي.أيه.» وبالمناسبة، فإن ماك غافين لم يقم أبداً بأي تسريب. انظر مقالته 'Spies, Counterspies, and Covert Action,' in Jennifer E. Sims and Burton Gerber (eds.) Transforming U.S. Intelligence (Washington, DC: Georgetown University Press, 2005), pp. 79-95.

(٦) Wisner oral history, FAOH.

(٧) Crowe oral history, FAOH. اضطر الأميرال، قبل توليه رئاسة مجلس المستشارين، إلى أن يطلع الرئيس كلينتون على ماهيته: «تحدثنا، أنا والرئيس، في وقت سابق في الإدارة، عمّا أرغب في أن أعمل»، قال كرو مستذكراً. وقلت م.م.ش.أ.ر، وقال، ما هو م.م.ش.أ.ر؟ وهكذا كان علي أن أطلعه عمّا هو».

(٨) أحداث ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٣، تم جمعها من تقرير وضعه نيك ستار لنشرة «السي.آي.أيه.» الداخلية، ومن سجلات المحكمة. بعد أربع سنوات ونصف السنة على ذلك، تم توقيف القاتل، مير أمل كنسي، في باكستان في عملية نسقتها «السي.آي.أيه.» تدعمها جائزة بمليوني دولار. وقال إن عمليات القتل هي عمل انتقام من السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط. أدانته ولاية فرجينيا بالقتل، وأعدمته بالحقنة القاتلة.

(٩) O Neill oral history, FAOH.

(١٠) Intelligence memorandum, 'Iraq: Baghdad Attempts to Assassinate Former President Bush,' CIA Counterterrorist Center, July 12, 1993, CIA/FOIA.

(١١) Tim Weiner, 'Attack Is Aimed at the Heart of Iraq's Spy Network,' The New York Times, June 27, 1993.

(١٢) Woolsey remarks, Restoration Weekend, Palm Beach, Florida, November 16, 2002.

(١٣) Tim Weiner with Steve Engelberg and Howard French, 'CIA Formed Haitian Unit Later Tied to Narcotics Trade,' The New York Times, November 14, 1993. وهاكم وصفاً موجزاً، مأخوذاً من ذلك المقال، لواحد من رجال «السي.آي.أيه.» في هايتي: يُعتبر المقدّم أرنست برودوم من بين ضباط الجيش الذين قبضوا نقود الوكالة وقادوا جهاز استخبارات هايتي، وهو عضو في الطغمة العسكرية المناهضة لأريستيد التي استولت على السلطة في هايتي. في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، وبينما يتولى منصب رئيس الأمن القومي ويحصل على إنعامات «السي.آي.أيه.»، قاد التحقيق الوحشي مع إيفانز بول، رئيس بلدية العاصمة الهايتية، بورت أو برانس. وأدى إلى كسر خمسة من ضلوع رئيس البلدية وإلى جروح داخلية. وقال بول، «لم يمسّني برودوم بنفسه. فقد لعب دور المثقف، دور الرجل الذي يبحث بعناية عن التناقض في أقوالك ـ الرجل الذي بدا أنه يعطي التوجيهات للعملية بأسرها. اراد تقديمي للعالم بوصفي إرهابياً.... بدا أنه يملك الكثير من المعلومات عن حياتي، منذ نعومة أظفاري. بدا وكأنه يتبعني خطوة بخطوة».

(١٤) Woolsey remarks, Council on foreign Relations, May 12, 2004.

(١٥) Tim Weiner, 'Critics Say U.S. Ignored C.I.A. Warnings of Genocide in Rwanda,' The New York times, March 26, 1998. تصعب رؤية ما كان يمكن لـ «السي.آي.أيه.» فعله لتفادي المجزرة، حتى لو امتلك البيت الأبيض الإرادة لذلك، لأنه لم يكن لديها أحد متمركز في رواندا. «لم تكن «السي.آي.أيه.» مساعدة جداً في ما يتعلق بالسياسات الأفريقية الداخلية. وهي لم تكن كذلك أبداً»، قال سفير كلينتون في رواندا، روبرت إ. غريبين الثالث، وهو دبلوماسي محترف عمل لوقت طويل في القارة. «لم يكونوا متهمين بها في شكل خاص».

(١٦) جاء الرد في أمر رئيسي للسياسة الخارجية، دعي القرار التوجيهي الرئاسي ٢٥. وهو مؤرخ في ٣ أيار/مايو ١٩٩٤، ولا يزال قسم كبير منه طي الكتمان، وقد هدف إلى جعل الأمم المتحدة تتولى القيادة في عمليات حفظ الأمن.

(١٧) James Monnier Simon, Jr., 'Managing Domestic, Military, and Foreign Policy Requirements: Correcting Frankenstein's Blunder,' in Sims and Gerber, Transforming U.S. Intelligence, pp. 141-161.

الفصل الخامس والأربعون

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع إيمس.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع هيتز.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع غليكمان.

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع أودوم.

(٥) مقابلة أجراها المؤلف مع سبكتر.

(٦) مقابلة أجراها المؤلف مع الكاتب.

(٧) Snider quoted in Loch K. Johnson, 'The Aspin-Brown Intelligence Inquiry: Behind the Closed Doors of a Blue Ribbon Commission,' Studies in Intelligence, Fall 2004, CIA/CSI.

(٨) Johnson, 'The Aspin-Brown Intelligence Inquiry'.

(٩) مقابلة أجراها المؤلف مع هيتز.

الفصل السادس والأربعون

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع دوتش.

(٢) John A. Gentry, 'A Framework for Reform of the U.S. Intelligence Community,' available online at http://www.fas.org/irp/gentry. أمضى جنتري ١٢ عاما محللا في «السي.آي.أيه.»

(٣) قابلة أجراها المؤلف مع هيلمس.

(٤) Stephen Engelberg and Tim Weiner with Raymond Bonner and Jane Perlez, 'Srebrenica: The Days of Slaughter,' The New York times, March 13, 1996.

(٥) Tim Weiner, 'C.I.A. Confirms Blunders During Economic Spying on France,' The New York times, March 13, 1996.

(٦) Tim Weiner, 'More Is told About C.I.A. in Guatemala,' The New York Times, April 25, 1995.

(٧) مقابلة أجراها المؤلف مع ستروك.

(٨) مقابلة أجراها المؤلف مع ماك آفي.

(٩) مقابلة أجراها المؤلف مع تينيت.

(١٠) مقابلة أجراها المؤلف مع ليك.

(١١) في أيار/مايو ٢٠٠٤، بعد عام على الاحتلال الأميركي للعراق، قذفت الولايات المتحدة

بعلاوي إلى منصب رئيس الوزراء. وهو لم يحقق نجاحاً سياسياً برغم فصاحته وطموحه. فالمعرفة شبه العامة لروابطه القديمة العهد مع «السي.آي.أيه.» لم تلعب لصالحه.

(١٢) في صيف ١٩٧٢، سلمت الوكالة حزمة من المساعدة والأسلحة بقيمة ٣٨.٥ مليون دولار وافق عليها نيكسون وكيسنجر شخصياً «لمساعدة ... أكراد العراق في مقاومتهم للنظام البعثي العراقي»، بحسب قول كيسينجر. وبعد ذلك بسنتين، خذل كيسينجر الأكراد، متخلياً عن الدعم الأميركي لقضيتهم لمصلحة تهدئة شاه إيران الذي ازداد خوفه من نشوء دولة كردية مستقلة. راجـــع: Kissinger memo, undated but on or about July 31, 1971, in FRUS, 1969-1972. Vol. E-4, document 322, declassified September 2006.

(١٣) مقابلة أجراها المؤلف مع لونتال.

(١٤) مقابلة أجراها المؤلف مع ليك.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع دوتش.

(١٦) مقابلة أجراها المؤلف مع هيتز.

(١٧) توفّر برنامج ترميزي قوي، يدعى PGP، أي الخصوصية الجيدة جداً، مجاناً على شبكة الانترنت منذ نهاية الحرب الباردة. وفي ٢٠ آذار/مارس ١٩٩٧، أبلغ نائب مدير وكالة الأمن القومي، وليام كرويل، الكونغرس: «لو أن الكومبيوترات الشخصية كلها في العالم ـ ٢٦٠ مليون كمبيوتر ـ عملت على فك رموز رسالة واحدة مرمّزة بالPGP، فسيتطلب الأمر، في شكل عام، ١٢ مليون مرة عمر الكون لفك رسالة واحدة». فكيف ستتمكن الاستخبارات الأميركية من فك رمز ذلك؟ راجع: Crowell testimony, House Judiciary Subcommittee on Courts and Intellectual Property, March 20, 1997.

(١٨) 'IC21: The Intelligence Community in the 21st Century,' Staff Study, House Permanent Select Committee on Intelligence, 1996.

(١٩) لا يُشكّل إتمام دورة التدريب في «السي.آي.أيه.» ضمانة للنجاح عند التمركز في الخارج. وأخبر جيم أولسون، الذي عمل رئيساً لمحطة موسكو وفيينا، ومدينة مكسيكو، قصة زوجين شابين لامعين كانا بإمرته بوصفهما ضابطين محرّكين حديثين. كانت محامية، وهو كان مهندساً، وروى «أنني عقدت الآمال عليهما». لكن، بعد أقل من أسبوع، أخبراه أن لديهما تحرّجاتهما الأخلاقية في شأن تجنيد العملاء «بموجب ادعاءات كاذبة. وقالا إنه لا يمكنهما حمل نفسيهما على التغرير بأناس أبرياء، أو التلاعب فيهم بتلك الطريقة». وهذا، بالطبع، ما يفعله ضباط «السي.آي.أيه.» في الخارج لكسب عيشهم. ولم يمكن إنقاذ الزوجين. استقالا، وانتهى بهما الأمر يقودان معاً قاطرة ومقطورة طويلة. وكان أولسون يريد أن يعرف «لماذا لم تظهر تحفظاتهما الأخلاقية في خلال التدريب». وتبين أنهما أعربا بالفعل عن مخاوفهما، إلا أن مدربيهما طلبوا منهما عدم القلق، وطمأنوهما إلى أن «كل شيء سيكون بخير ما إن يتوليا مهمتهما الأولى». والحقيقة أنه لم يكن أي شيء بخير. (راجع: Olson, Fair Play: The Moral Dilemmas of Spying (Washington, DC: Potomac, 2006), pp. 251-252. وأفاد ت. ج. واترز، المتخرج في ٢٠٠٣ من مدرسة تدريب «السي.آي.أيه.»، سوء استعمال مماثلاً

للسلطة من قبل مدربيه. وقد بدا أن ثمة مشكلة في المزرعة T. J. Waters, Class 11: Inside . the Largest Spy Class in CIA History (New York: Dutton, 2006).

(٢٠) Report of House Permanent Select Committee on Intelligence, Representative Porter G. Goss, Chariman, June 18, 1997.

(٢١) Russ Travers, 'The Coming Intelligence Failure,' Studies in Intelligence, 1997, CIA/CSI. كتب ترافرس: «قد يكون الإخفاق من النوع التقليدي: نخفق في توقّع سقوط حكومة صديقة؛ لا نوفّر ما يكفي من التحذير عن هجوم مباغت على أحد حلفائنا أو مصالحنا؛ نُفاجأ كلّياً بهجوم إرهابي ترعاه دولة ما؛ نخفق في استشعار حصول غير متوقع لدولة ما على سلاح دمار شامل؛ أو أنه قد يأخذ شكلاً أكثر غير تقليدية: نبالغ في تهديدات كثيرة، يؤدي إلى صرف غير ضروري لمليارات الدولارات؛ أخطاء في قاعدة المعطيات تؤدي إلى أعداد غير مقبولة سياسياً من الاصابات في عمليات لحفظ السلام؛ أو أن عملية ما لا تسير على ما يرام... وقد لا نعاني في النهاية بسبب بيرل هاربور، بل نسقط ببساطة في سلسلة من الأخطاء تثير التساؤلات حول موازنة استخباراتنا التي تبدو أمامها مجمل موازنة الدفاع لمعظم البلدان ضئيلة. سيحاول المجتمع الاستخباراتي تفسير هذا الإخفاق (أو الإخفاقات)، وسيشير في شكل مشروع إلى ظروف تخفيفية. إلا أننا سنشرع، في حالات أكثر، في ارتكاب أخطاء أكثر وأكبر. والمسألة فقط مسألة وقت قبل أن ترتفع النتائج إلى مستوى الإخفاق الاستخباراتي المعترف به... وستكون الأسباب بسيطة: لقد ابتعدنا عن الأسس، وهي جمع التحليل غير المتحيز للوقائع».

الفصل السابع والأربعون

(١) Tenet testimony, 9/11 Commission, April 14, 2004; Tenet remarks, Kutztown University, April 27, 2005. شهد تينيت أنه ورث «السي.آي.أيه.» «دولاراتها في انحسار، وخبرتها في تراجع... وبنيتها السفلى لتجنيد، وتدريب، وتوفير القوت لضباط جهازنا الخفي ـ قدرة الأمة الاستخباراتية الإنسانية ـ في حالة اختلال... وأخذت أنظمة المعلومات لدينا تصبح متقادمة العهد في الفترة التي تشهد أكبر تغيير في تكنولوجيا المعلومات في أيامنا».

(٢) ضمّت لائحة «واضعي نهج» «السي.آي.أيه.» روبرت إيمس، الذي فُقد في انفجار سفارة بيروت في ١٩٨٣؛ ديك بيسل، جدّ «اليو ٢» وخليج الخنازير؛ جيمي كريتشفيلد، الذي قاد منظمة غهلن؛ ألن دالاس، ضابط القضية البيضاء الكبرى؛ ريتشارد ليهمان، الذي قوّم دالاس إيجازاته بحسب وزنها؛ آرت لوندال، محلل الصور في أزمة الصواريخ الكوبية؛ توني مانديز، سيّد التنكّر؛ وبالطبع فرانك ويسنر، مجسّد العمل الخفي.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع هيلمس.

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع شليسنغر.

(٥) مقابلة أجراها المؤلف مع غوس.

(٦) Charles Allen remarks, 'Intelligence, Cult, Craft, or Business?' Program on Information Resources, Harvard University, April 6, 2000.

(٧) Mary O. McCarthy, 'The Mission to Warn: Disaster Looms,' Defense Intelligence Journal, Vol. 7, No. 2, 1998.

(٨) التفاصيل بحرفيتها موجودة في تقرير لجنة ٩/١١.

(٩) McCarthy quoted in 9/11 Commission Report.

(١٠) Petterson oral history, FAOH.

(١١) مقابلة أجراها المؤلف مع كارني. لقد قمت بتغطية تفجيرات نيروبي وتبعات مصنع الشفاء لـ «النيويورك تايمز». ومن بين الذين أجريت مقابلات معهم للموضوع الأخير، مسؤولون كبار في «السي.آي.أيه.»، ومجلس الأمن القومي، وفي وزارتي الخارجية والدفاع. وقد أجريت على أساس استخدامها كخلفية، وللأسف يجب أن تبقى كذلك، إلا أن اثنتين منها كانتا مع اثنين من أعضاء «المجموعة المصغرة»، أعلى دوائر الأمن القومي، التي تضم من بين أعضائها الستة مستشار الأمن القومي ومدير الاستخبارات المركزية. وكان عبث كلينتون الجنسي مع متدربة في البيت الأبيض قد بدأ يُعرف من الملأ، ولم يعد المسؤولون الذين قابلتهم متأكدين كثيراً مما يصدقونه بعد الآن. إلا أنهم قدّموا عرضاً جيّداً.

(١٢) Cited in 'Cunterterrorism Intelligence Capabilities and Performance Prior to 9/11,' House Intelligence Committee hearing, September 5, 2002. لم يستطع بعض أعضاء مجتمع الاستخبارات تحمّل فكرة أن شيئاً رهيباً على وشك الحدوث. بعد ثلاثة أسابيع على هذا التحذير الصادر في ١١ أيلول ١٩٩٨، ألقى جون ميلليس، وهو ضابط متمرّس في الجهاز الخفي ومدير لفريق رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب بورتر غوس، خطاباً في متقاعدي «السي.آي.أيه.»، قال فيه إن الوكالة تغرق في معطيات تافهة، تفتقر إلى الأدمغة، وتقارب الانهيار. «في ذكريات الماضي قائلاً «اعتاد الناس المجيء إلينا والتباهي بأن «السي.آي.أيه.» هي رقم طوارئ الحكومة. حسناً، إذا كنت تطلب الرقم ٩١١، فإن الاستخبارات تكون قد خسرت بالفعل». وقد فجّر ميلليس رأسه ببندقية صيد في فندق رتْ خارج واشنطن في ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٣) مقابلة أجراها المؤلف مع تينيت.

(١٤) مقابلة أجراها المؤلف مع سميث.

(١٥) مقابلة أجراها المؤلف مع غايتس.

(١٦) روايات غراي شرون حول الإخفاق حيال بن لادن موجودة في شهادته أمام لجنة ٩/١١. واختصرها بعد ذلك بسنوات: «لم نفعل الكفاية. لم نخترق حلقة بن لادن الداخلية، ولا نزال لم نخترقها. وبالتالي، نعم، حصل إخفاق». راجع: Schroen interview, Frontline, 'The Dark Side,' January 20, 2006, edited transcript available online at http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/darkside/interviews/schroen.html.

(١٧) McGaffin, 'Spies, Counterspies, and Covert Action,' in Jennifer E. Sims and Burton Gerber (eds.), Transforming U.S. Intelligence (Washington, DC: Georgetown University Press, 2005).

(١٨) ملاحقة بن لادن وتردد «السي.آي.أيه.»، والبنتاغون، والبيت الأبيض مفصّلة في تقرير لجنة ٩/١١.

(١٩) Vice Admiral Thomas R. Wilson, Harvard Seminar on Intelligence, Command, and Control, Program on Information Resources Policy, November 2001.

(٢٠) 9/11 Commission report, "Intelligence Policy," Staff Statement No. 7.

(٢١) Tenet cited in 9/11 Commission report.

(٢٢) Clarke testimony in 9/11 Commission report.

(٢٣) الإيجازات لجورج بوش التي سبقت الانتخابات وأعقبتها، والتي قدمتها «السي.آي.أيه.» وبيل كلينتون موجودة في تقرير لجنة ٩/١١. واستجلب تفجير كول هجوماً قوياً غير معتاد من جون ليمان، وزير البحرية في عهد إدارة ريغان. استاء من «الإخفاق الفاضح للاستخبارات» في الهجوم في مقالة رأي نشرتها «الواشنطن بوست» بعد الحادثة بثلاثة أيام. «إلا أنه لا يمكن أحداً، بالطبع، أن يُفاجَأ بإخفاق الاستخبارات. فقد لاحظت، في ١٤ عاماً من خدمة الحكومة في ثلاث إدارات، الكثير من الأزمات التاريخية، وفي كل واحدة منها فإن الانتاج الوطيد لبيروقراطية الاستخبارات، إما فشل في توفير الانذار، كما في الكويت، وإما كان مخطئاً في شكل مخز في تقديره... إلا أنه لم يتم القيام بأي شيء أبداً. وكول تشكل الضحية الأخيرة لبرنامج توظيف من ٣٠ مليار دولار يأخذ أكثر المنتجات تطوراً من تكنولوجيا الفضاء والالكترونيات، ويحولها إلى خليط لا فائدة منه».

الفصل الثامن والأربعون

(١) James Monnier Simon, Jr., Seminar on Intelligence, Command and Control, Program of Information Resources Policy, Harvard University, July 2001.

(٢) سمعت روايات عن مدى سوء عمل محطات «السي.آي.أيه.» وتكنولوجيا المعلومات، إلا أنني لم أفهمهما تماماً إلا بعدما نشر بروس بركوفيتز، وهو ضابط سابق في «السي.آي.أيه.» ومستشار يحظى باحترام كبير في الوكالة، الوقائع القاسية في ٢٠٠٣ في Studies in Intelligence. وكتب بعد قضائه سنة في الوكالة بوصفه باحثا مقيماً في «السي.آي.أيه.» «يعرف المحللون أقل بكثير في شأن التكنولوجيا الجديدة للمعلومات والخدمات مما يعرفه نظراؤهم في القطاع الخاص وفي منظمات حكومية أخرى. وفي المعدل، فإنهم يبدون متخلفين بخمس سنوات أو أكثر. ويبدو أن الكثيرين من المحللين غير مدركين بوجود معطيات متوفّرة على الانترنت وفي مصادر أخرى غير «السي.آي.أيه.»» وقال ان فحوى رسالة إداريي «السي.آي.أيه.» هي أن «التكنولوجيا تشكل تهديدا، وليس فائدة؛ وبأن «السي.آي.أيه.» لا

تعطي أولوية كبيرة للمحللين الذين يستخدمون تكنولوجيا الانترنت بسهولة وإبداع؛ والأسوأ من ذلك كله، أن المعطيات الموجودة خارج شبكة «السي.آي.أيه.» الخاصة ثانوية للمهمة الاستخباراتية». راجع: Bruce Berkowitz, 'Failing to Keep Up with the Information Revolution', Studies in Intelligence, Vol. 47, No. 1, 2003, CIA/CSI.

(٣) Clarke e-mail cited in 9/11 Commission report.

(٤) Clark cited in 9/11 Commission.

(٥) Garrett Jones, 'Working with the CIA,' Parameters (U.S. Army War College Quarterly), Vol. 31, No. 4, Winter 2001-2002. من بين العواقب المميتة لـ٩/١١، والتي لم تُلاحظ كثيراً في العالم المدني، كان هذا: من جراء الحظ العاثر، قتلت الطائرة التي ضربت البنتاغون، معظم، إذا لم يكن جميع، فريق استخبارات البحرية في وكالة الاستخبارات الدفاعية.

(٦) تحدّث تشيني، يوم الأحد ١٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ من كامب ديفيد، إلى برنامج «واجه الصحافة»، وقال: «بيد أنه علينا العمل أيضاً، إذا شئت، في نوع من الجانب المظلم. سيكون علينا أن نمضي وقتاً متسترين في عالم الاستخبارات. فالكثير مما يجب القيام به هنا، إذا أردنا أن ننجح، عليه أن يحصل سرّاً، بدون أي نقاش، باستخدام مصادر ووسائل متوفرة لوكالاتنا الاستخباراتية».

(٧) تم، في ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، الاعتراف بوجود التوجيه في دعوى قضائية رفعتها «السي.آي.أيه.» وقد سمح الأمر السرّي لـ «السي.آي.أيه.» «باحتجاز إرهابيين» و«إقامة منشآت اعتقال خارج الولايات المتحدة». انظر: Declaration of Marilyn A. Dorn, ACLU v. Department of Defense.

(٨) James M. Simon, Jr., 'Analysis, Analysts, and Their Role in Government and Intelligence,' Harvard seminar, Program on Information Resources Policy, July 2003.

(٩) Hayden testimony, Senate Intelligence Committee, May 18, 2006. وحتى كتابة هذه السطور، كان هايدن لا يزال يدير «السي.آي.أيه.» وقد كان فصيحاً حول مدى استعداده للمضي إلى أقرب حد من حدود القانون. «سنحيا على الحدّ»، قال. «سيعلق الطبشور بنعلي».

(١٠) Tenet remarks, Nixon Center Distinguished Service Award Banquet, December 11, 2002. اعترفت الوكالة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، بأنها كانت تمسك بأربعة عشر سجيناً «ذوي أهمية كبرى» في معتقلات سرّية، وقد أخذت في نقلهم إلى غوانتانامو.

الفصل التاسع والأربعون

(١) 'Postwar Findings,' Senate Intelligence Committee, September 8, 2006.

(٢) Tenet testimony, July 26, 2006, cited in 'Postwar findings,' September 8, 2006.

(٣) James L. Pavitt remarks, Foreign Policy Association, June 21, 2004. أفضل مصدر

حصلت عليه «السي.آي.أيه.» زوّدها به جهاز الاستخبارات الفرنسية، الذي رعى ناجي صبري، وزير الخارجية العراقي، عميلاً له. قال صبري إن صدام لا يملك برنامجاً نشطاً للأسلحة الذرية أو البيولوجية. وواضح أنه تم رفض إفادته. وصبري هو الرجل الذي أشار إليه تينيت في خطاب في ٥ شباط/فبراير، عندما قال إن «السي.آي.أيه.» سبق أن امتلكت مصدراً له وصول مباشر إلى صدام حسين وحلقته الداخلية. كادت «السي.آي.أيه.» لا تملك أي قدرة على التحليل الدقيق للقليل من الاستخبارات المتوفرة لها. فخبراؤها متباعدون في ما بينهم، تدعمهم أعداد كبيرة من المبتدئين. ولاحظ المخضرم «السي.آي.أيه.» بروس بركوفيتز أنه، بعد ٩/١١، «أخذ محللون غير مؤتلفين مع الإرهاب، والقاعدة، وجنوب شرق آسيا، يتخبّطون للحصول على أحدث المعلومات حول ما جرى تكليفهم به حديثاً. وبعد أشهر على ذلك كان الأناس لا يزالون يعيدون ترتيب الأثاث، وهندسة المكاتب، وإعادة توصيل أسلاك الحواسيب». راجع: Studies in Intelligence, Vol. 47, No. 1, 2003, CIA/CSI.

(٤) Richards Helms, 'Intelligence in American Society,' Studies in Intelligence, Vol. 11, No. 3, Summer 1967, CIA/CSI. تم اقتباس المقالة من خطاب ألقاه هيلمس في مجلس العلاقات الخارجية في ١٧ نيسان/أبريل ١٩٦٧.

(٥) Duelfer remarks, Miller Center of Public Affairs, University of Virginia, April 22, 2005.

(٦) David Kay, 'Weapons of Mass Destruction: Lessons Learned and Unlearned,' Miller Center Report, Vol. 20, No. 1, Spring/Summer 2004.

(٧) كان العقيد لاري ويلكرسون، كبير مساعدي كولن باول العسكريين، موجوداً لدى حصول ذلك. وقال، «لا أزال أستطيع سماع جورج تينيت يقول لي، ويقول لرئيسي في أحشاء «السي.آي.أيه.»»، إن الاستخبارات متينة كالصخر. «جلست في القاعة محدّقاً في عينيه، على غرار ما فعله وزير الخارجية، وسمعت ذلك بالجزم الذي وحده تينيت يمكنه جزمه... جورج تينيت يؤكد لكولن باول أن المعلومات التي سيعرضها على مجلس الأمن مبرمة، وفقط ليقوم هذا الشخص نفسه في أكثر من مناسبة في الأشهر التي تلت العرض، بالاتصال بالوزير ويقول له إن الأعمدة الأساسية لعرضه هي بالفعل زائفة». راجع: Wilkerson remarks, New American Foundation, October 19, 2005; Wilkerson interview, Frontline, "The Dark Side," December 13, 2005, edited transcript available online at http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/darkside/interviews/wilkerson.html.

(٨) Off Target: The Conduct of the War and Civilian Casualties in Iraq. Human Rights Watch, December 2003. استنتج التقرير: «كانت الاستخبارات لخمسين غارة تستهدف ٥٥ عضواً من أعضاء الزعامة العراقية، ممتازة: لم يُقتل زعيم واحد، بل العشرات من المدنيين».

(٩) شكل ذلك الكلام الأخير عشية الهجوم البرّي، بحسب قول الجنرال في الجيش جيمس ثورمان، المدير العام لعمليات الغزو. ««السي.آي.أيه.» هي التي قالت لنا ذلك»، قال الجنرال ثورمان. «وليس هذا ما حصل. اضطررنا إلى شق طريقنا قتالاً عبر كل مدينة». راجع:

Thurman quoted in Thomas Ricks, Fiasco: The American Military Adventure in Iraq (New York: Penguin, 2006), p. 118.

(١٠) Command's Responsibility: Detainee Deaths in U.S. Custody in Iraq and Afghanistan, Human rights First, February 22, 2006.

(١١) Declassified excerpt in 'Trends in global Terrorism: Implications for the United States,' April 2006, CIA.

(١٢) Lieutenant General David H. Petraeus, 'Learning Counterinsurgency: Observations from Soldiering in Iraq,' Military Review, January-February 2006. The article is posted in the U.S. Army Professional Writing Collection, available online at http://www.army.mil/professionalwriting/volumes/volume4/april_2006/.

(١٣) Pavitt remarks, Foreign Policy Association, June 21, 2004.

(١٤) تقول ليندسي موران، التي تركت الجهاز الخفي في ٢٠٠٣، واستندت في بيانها إلى تقارير من أصدقاء وزملاء في محطة بغداد: «بلغ المناخ هناك حداً بات لا يمكن معه القيام بالعمليات النموذجية للضباط المحرّكين. ووصف لي أحد الزملاء الذكور الأمر، بأنه حفلة لا تنقطع لأعضاء أخوية تجاوزوا السن لذلك في بغداد. وهذا يعني أن الضباط المحرّكين، الذين باتوا غير قادرين على القيام بعمليات، أصبحوا كأنهم مجبرون على البقاء في المجمّع والاحتفال». راجع: Moran remarks, 'U.S. Intelligence Reform and the WMD Commission Report,' American Enterprise Institute, May 4, 2005.

(١٥) Crandall oral history, Association for Diplomatic Studies and Training, Iraq Experience Project, September 20, 2004.

(١٦) Tenet statement, CIA Office of Public Affairs, August 11, 2003.

(١٧) كتب بول بيلار، ضابط الاستخبارات القومية لشؤون الشرق الأوسط من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٥: بات واضحاً، بحلول ٢٠٠٤، أنه لم يعد يتم الاعتماد على التحليل الاستخباراتي في اتخاذ حتى أكثر القرارات الأمنية الوطنية مغزى. «ما هو أكثر لفتا للانتباه في شأن الاستخبارات الأميركية السابقة للحرب، ليس أنها أخذت الأمور في شكل خاطئ وضللت صانعي السياسة؛ بل لعبت دوراً صغيراً جداً في واحد من أكثر القرارات السياسية الأميركية أهمية في العقود الأخيرة». راجع: Paul Pillar, 'Unheeded Intelligence,' Foreign Affairs, March/April 2006.

(١٨) مؤتمر بوش الصحافي في ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤. رفض الرئيس التقارير المتشائمة من رئيس محطة بغداد بوصفها هراءً تخاذلياً.

(١٩) Silberman remarks, 'U.S. Intelligence Reform and the WMD Commission Report,' American Enterprise Institute, May 4, 2005.

(٢٠) Commission on the Intelligence Capabilities of the United States Regarding Weapons of Mass Destruction, March 31, 2005.

(٢١) Tenet remarks, Kutztown University, April 27, 2005.

(٢٢) Richard Kerr, Thomas Wolfe, Rebecca Donegan, and Aris Pappas, 'collection and Analysis on Iraq: Issues for the US Intelligence Community,' Studies in Intelligence, Vol. 49, No. 3, 2005, CIA/CSI.

(٢٣) Tenet remarks, Kutztown University, April 27, 2005.

(٢٤) Kay, 'Weapons of Mass Destruction'.

الفصل الخمسون

(١) Tenet remarks, CIA Office of Public Affairs, July 8, 2004. على عكس تينيت، فإن نيكسون في خطابه الوداعي الخاص تكرّم واستشهد بالمقطع الكامل المتعلّق بالرجل الذي في الميدان، «بوجهه الذي شوّهه الغبار والعرق والدم، والذي يجاهد ببسالة، ويخطىء ويقصّر مرّة تلو المرّة لأنه ما من جهد بدون خطأ وتقصير، لكنه يكافح في الواقع لإنجاز عمله، ويشعر بالحماسة الكبيرة، وبالوفاء الشديد، ويستهلك نفسه في قضّية جديرة، وهو الذي في أفضل الحالات يعرف في النهايات الانتصارات والإنجازات الكبرى؛ وفي اسوئها إذا فشل، فهو على الأقل يفشل وهو يبذل أقصى الجرأة».

(٢) George Tenet with Bill Harlow, At the Center of the Storm: My Years at the CIA (New York: HarperCollins, 2007). لم يخدم تينيت نفسه بافتتاح الكتاب برواية مأسوية حول مواجهة دهقان المحافظة الجديدة ريتشارد بيرل خارج الجناح الغربي للبيت الأبيض في ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وقول بيرل: «على العراق أن يدفع ثمن ما حصل بالأمس». فبيرل كان في فرنسا في ذلك اليوم؛ وشكّل الاستشهاد به خطأً فاحشاً. وشكّل تبني تينيت أخطاء «السي.آي.أيه.» أمراً مثيراً للإعجاب إلى الحد الذي ذهب فيه بذلك. إلا أنه اعتبر نفسه «عضوا في جوقة يونانية» و«دعامة في مسرح» في ما يتعلّق بخطاب كولن باول في الأمم المتحدة، وهو الذي دافع عن كل مقطع فيه. وحاول إعطاء تفسير آخر لـ «قاطع وحاسم»، لكنه لم يتمكّن. وهوجم كتاب تينيت لدى نشره من اليمين واليسار والوسط. ومن بين المدافعين عنه ستة ضباط كبار خدموا مع تينيت. كتبوا رسالة مفتوحة، دعوه فيها بالرجل صاحب «الشجاعة في الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبت وتحمّل مسؤولية ما يعود إليه وإلى مجتمع الاستخبارات الذي قاده».

(٣) أبلغ غوس أحد الذين يجرون معه مقابلة على الكاميرا في مشهد نقل نصّه ووضعه على الانترنت صانع الأفلام اليساري مايكل مور. «كنت في «السي.آي.أيه.» منذ أوائل الخمسينيات تقريباً إلى أوائل السبعينيات. صحيح أنني كنت ضابطاً محرّكاً، وضابطاً في الجهاز الخفي، وأدرك لبّ مهمّة هذا العمل. ولا يمكنني الحصول على عمل مع «السي.آي.أيه.» اليوم. فأنا لست مؤهّلاً. لا أملك المهارات اللغوية. فمهاراتي اللغوية، كما تعلم، محدودة بعبارات المغازلة وغير ذلك من الأمور. فنحن نتطلع اليوم إلى مستعرب. وربّما لا أملك الخلفية الثقافية، وأنا بالتأكيد لا أملك المهارات التقنية».

(٤) Goss printed statement, House Permanent Select Committee on Intelligence, June 21, 2004.

(٥) Tenet testament for the record, 9/11 Commission, April 14, 2004.

(٦) مقابلة أجارها المؤلف مع فورد.

(٧) مقابلة أجراها المؤلف مع هامري.

(٨) Hart remarks, Miller Center for Public Affairs, University of Virginia, December 3, 2004.

(٩) Smith quoted in CIA Support Functions: Organization and Accomplishments of the DDA-DDS Group, 1953-1956 Vol. 2. Chap. 3, p. 128, Director of Central Intelligence Historical Services, declassified March, 6, 2001, CIA/CREST.

(١٠) Goss testimony, Senate Intelligence committee, September 14, 2004.

(١١) Goss transcript, CIA Office of Public Affairs, September 24, 2004, declassified July 2005.

(١٢) في غضون بضعة أشهر، اشتكى غوس، الذي يفضّل عدم العمل خمسة أيام في الأسبوع، من أنه منهك. وقال في ملاحظات ألقاها في الثاني من آذار/مارس ٢٠٠٥، في مكتبة رونالد ريغان الرئاسية: «الأعمال المطلوب مني القيام بها، القبعات الخمس التي أرتديها، كثيرة جداً على هذا الفاني».

(١٣) طرد غوس الرجل الرقم اثنين، نائب مدير الاستخبارات المركزية جون ماكلوفلن؛ والرجل الرقم ثلاثة، المدير التنفيذي بازي كرونغارد؛ رئيس ونائب رئيس الجهاز الخفي، ستيفن كابس ومايكل سوليك؛ رئيس التحليل الاستخباراتي جيمي ميشيك؛ رئيس مركز مكافحة الإرهاب، روبرت غرونيير؛ والبارونات الذين أداروا عمليات في أوروبا، والشرق الأدنى، وآسيا. وفي المجموع فإن غوس تخلّص من ثلاث دزينات من كبار ضباط «السي.آي.أيه.» وقادتها في غضون أشهر.

(١٤) نيغروبونتي، المولود في لندن في ١٩٣٩، وهو ابن أحد كبار رجالات الملاحة اليونان، قد التحق في يال مع غوس، لكنه استدار صوب وزارة الخارجية بدلاً من «السي.آي.أيه.» وبعد خدمته في سايغون، استقرت به الحال ضمن فريق هنري كيسينجر للأمن القومي، وتولى مسؤولية ملف فيتنام. وكان سفيراً للرئيس ريغان في هندوراس، حيث عمل عن كثب مع «السي.آي.أيه.» ومع الجيش الهندوراسي الغاشم. وخدم نيغروبونتي على مدى ١٩ شهراً بوصفه مديراً للاستخبارات القومية قبل أن يتنحّى ليصبح الرقم الثاني في وزارة الخارجية. ولم يترك وراءه الكثير من التقدّم المنظور.

(١٥) Joan A. Dempsey, 'The Limitations of Recent Intelligence Reforms,' Harvard seminar, Program of Information Resources Policy, February 23, 2006. «إننا نخوض الحرب الأخيرة»، قالت دمبسي. يقوم رجال الاستخبارات الأميركية والنساء فيها «بغزل الكثير

من الدواليب في محاولة القيام بما هو متوقّع منهم، إلا أنه، في رأيي، لا يملكون وحسب الإمكانات المحيطة بهم التي تسمح لهم فعلا بالنجاح».

(١٦) مقابلة أجراها المؤلف مع فينغار.

(١٧) Commission on the Intelligence Capabilities of the United States Regarding Weapons of Mass Destruction, March 31, 2005.

(١٨) Goss interview with Mark K. Matthews, Orlando Sentinel, September 8, 2006.

(١٩) U.S. v. Kyle Dustin Foggo, United States District Court, San Diego, February 13, 2007.

(٢٠) U.S. vs. David Passaro, United States District Court, Raleigh, North California, February 13, 2007.

(٢١) في ٢٠٠٣، وفي خلال أشهر محنة عرار، لاحظ الرئيس بوش عرضاً أن حكام سوريا قد خلفوا «إرثاً من التعذيب» لشعبها.

(٢٢) مقابلة أجراها المؤلف مع هيلمس.

كلمة أخيرة

(١) Powell letter to Senator John McCain, Sept. 13, 2006.

(٢) P. X. Kelly and Robert F. Turner, "War Crimes and the white House," Washington Post, July 26, 2007.

(٣) Hayden Speech, Council on Foreign Relations, Sept. 7, 2007.

(٤) Kiriakou interview, ABC News, Dec. 10, 2007.

(٥) Powell interview with Walter Isaacson, GQ, posted online at http://men.style.com/gq/features/full/id=content_5900&pageNum=3 Sept. 11, 2007.

(٦) Hutchings testimony, House Intelligence committee, Dec. 6, 2007.

(٧) Hutchings testimony, House Intelligence Committee, Dec. 6, 2007.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مجموعــات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ

مجموعة د. وليد رضوان

- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- مبادئ المعارضة اللبنانية
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم

◆ ◆ ◆

- تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن) - عمر زين

- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **مذكرات قبل أوانها** - شكري نصرالله
- **السنوات الطيبة** - شكري نصرالله
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كوولي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر واريك لوران
- **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر واريك لوران
- **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
- **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف
- **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- **المال إن حكم** - هنري إده
- **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- **على خط النار - مذكرات الرئيس الباكستاني برويز مشرف**

- **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- **الطبقة الضارية** - دايفد روثكوبف
- **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- **إرث من الرماد** - تيم واينر
- **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- **حروب الأشباح** - ستيف كول
- **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- **...؟! أساس الملك** - غادة عيد
- **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- **صدمة وصمود** - كريم بقرادوني
- **لعنة وطن** - كريم بقرادوني
- **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- **السلام المفقود** - كريم بقرادوني
- **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- **هكذا.. وقع التوطين**- ناديا شريم الحاج
- **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر



عن الكاتب

تيم واينر مراسل للنيويورك تايمز. غطّى الأحداث المتعلّقة بالاستخبارات الأميركيّة طوال ٢٠ عاماً، وحاز جائزة Pulitzer Prize على تغطيته الصحفيّة لمسائل تتعلّق بالأمن الدولي عام ١٩٨٨. سافر إلى دول نائية كأفغانستان والسودان وغوانا ليغطّي مباشرة العمليات الخفيّة. قدّم محاضراتٍ عديدةٍ في وكالة السي.آي.أيه ووكالة الدفاع الاستخباراتيّة.

هذا الكتاب

٥٠٠٠٠ مستند سوف تغيّر فهمنا لما كان يجري، ولما يجري الآن، حين تفاجئنا بحقائق كان عكسها هو ما رسخ في أذهاننا، وتصريحات لرؤساء سابقين، منهم ريتشارد هلمز وستانزفيلد تورنر، ولشخصيات بارزة في السي.آي.أيه، تشي بهدفها الكامن في تغيير العالم من دون فهمه.

وها هي تكشف:

- كيف انطلت على منظمة السي.آي.أيه، أحداث خطيرة وقعت في روسيا وكوبا والعراق بسبب خرق الجواسيس للمنظمة.
- القرارات الخاطئة التي اتخذتها المنظمة منذ الثورة الإيرانية وحتى إشكاليّة سلاح الدمار الشامل في العراق، مروراً بانهيار الشيوعية.
- أسرار التعاون الذي كان قائماً بين السي.آي.أيه، ومنظمة التحرير الفلسطينية وتفاهمهما على عدم استهداف الأميركيين؛ وجسر المعلومات المهمة الذي كان ممتداً على مدى أربعة أعوام بين الاستخبارات الأميركية وعلي حسن سلامة! ما سبّب اغتياله على أيدي الاستخبارات الإسرائيلية وحرمان الولايات المتحدة من أهم مصدر للمعلومات في الشرق الأوسط.
- مخططات السي.آي.أيه، لضرب سورية وإسقاط نظامها، وجعلها تبدو أنها هي من يرعى المؤامرات والتخريب والعنف ضد الحكومات المجاورة وشعوبها، فكان على السي.آي.أيه، والاستخبارات السرية البريطانية اختلاق المؤامرات وافتعال الحوادث في العراق ولبنان والأردن والإشارة بأصابع الاتهام إلى سورية.
- التبذير وإضاعة المال في الاغتيالات وإحداث الانقلابات ورشوة الزعماء الأجانب.
- وقائع تفجير السفارة الأميركية في بيروت، والقضاء على قادة جهاز الاستخبارات الأميركي في الشرق الأوسط.
- الأسباب الكامنة وراء إخفاق السي.آي.أيه، طوال الحرب الباردة في خرق الكرملين وحكومات دول ما وراء الستار الحديدي.

ISBN 978-9953-88-071-6
9 789953 880716

Design by Richie Nazzal

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ -٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٧٥٢٥٤٧ ١ ٩٦١+
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر